Highness of the Almighty forgiver is a status not a place

العُلُوُّ لِلْعَلِيِّ الغَفَّارِ

عُلُو مَكَانَةٍ لَا عُلُو مَكَان

الأُسْتَاذُ الدُّكْتُوْر

عَلِيْ عَايِد مِقْدَادِي الحَاتِمِي الأَشعري

المُقَدِّمَةُ

إنَّ الحمد لله نحمده ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لَا إلَه إلَّا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢] ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١] ،﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا * يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠ – ٧١] .

وبعد : فقد قامت عقيدة أهل الحقِّ علىٰ تنزيه الله تعالىٰ عن جميع النَّقائص ، وسمات الحدوث ... فالله تعالىٰ تقدَّس عن أن يحويه مكانٌ ، كما تنـزّه عن أن يحدّه زمانٌ ، ووجوده سابق الزَّمان والمكان ، فقد كان ولا زمان ولا مكان ، وهو سبحانه وتعالىٰ خالق الزَّمان والمكان ، وهو الأوَّل بلا ابتداء ، والآخر بلا انتهاء ، وهو الآن علىٰ ما عليه كان ، لـم يتغيَّر عمَّا كان .

وقد دلَّت الأدلّة الصَّريحة المُحْكمة من الكتاب والسُّنَّة وكذا العقل علىٰ أنَّ الله تعالىٰ منزَّه عن الهيئة والصُّورة والحلول والاتِّحاد والاتِّصال والانفصال ، ومنزَّهٌ عن الانتقال والحركة والحدِّ والـمكان والجسميَّة ، فلا يقال : له يمينٌ ولا شمالٌ ولا خلفٌ ولا أمامٌ ، ولا فوقَ العرش ولا تحته ، ولا عن يمينه ولا عن شماله ، ولا هو داخلٌ في العالـم ولا خارجٌ عنه ، ولا يقال : لا يَعْلَـمُ مكانه إلَّا هو ، لأنَّه تعالىٰ ليس في مكان ...

وقد اتَّفق جمهور أهل العلم علىٰ أنَّ جميع الظَّواهر الواردة في الكتاب والسُّنَّة التي يوهم ظاهرها بكون الله تعالىٰ في السَّماء ليست علىٰ ظاهر معناها ، بل متأوَّلة عند جميعهم ، ويُراد بها علوّ القدْر والرُّتبة والكرامة والـمنـزلة لا علو الـمكان ، لأنَّ الله منـزَّه عن التَّحيُّز والجهات والحدود ... لأنَّها صفات الأجسام .

فهو سبحانه لا يحويه مكان ، ولا يوصف بالتَّغـيُّر والانتقال ، و ليس هو بجسم فلا يحتاج إلىٰ مكان يستقرُّ ويتمكَّنُ فيه ... ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ:١١] ... ومع هذا كلِّه نبتت نابتة من أبناء المسلمين استشرىٰ بينهم امتحان النَّاس بسؤالهم إيَّاهم عن مكان الله تعالىٰ ، مع أنَّ الكثيرين ممَّن يَسألون مثل هذه الأسئلة لو سُئلوا عن الكثير من مسائل الحيض والنُّفاس وغيرها ما استطاعوا أن ينبسُّوا ببنت شفه ...

وممَّا يدعو للاستهجان : أنَّ هؤلاء جعلوا من السَّلف الصَّالح شمَّاعة لهم ، علَّقوا عليها مصائبهم وطامَّاتهم التي ما أنزل الله بها من سلطان ، تلكم المصائب التي حادت بهم عن طريق تنزيه الله تعالىٰ عن مشابهة الخلق بأيِّ وجه من الوجوه ، وهو ما كان عليه الصَّحابة ومن جاء بعدهم ممَّن تبعهم إلىٰ يومنا هذا ، حيث فهموا من قوله تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] ، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ ﴾ [النحل:٧٤] ، وقوله تعالىٰ: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم:٦٥] ، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص:٤] أنَّ الله لا يشبه شيئاً من خلقه بأيِّ وجه من الوجوه ...

وعلىٰ كلِّ حال فمن حمل الألفاظ المتشابهة كـ : الاستواء ، والنُّزول ، والوجه ، واليد ، ... علىٰ ظاهر معناها فقد خالف السَّلف والخلف، وأتىٰ بما لم يقله المُنزِّهون ، فليس في هذه المسألة إلَّا تفويض الكيف والمعنىٰ أو التَّأويل ... فلماذا السَّعي الحثيث لتفريق الأمَّة من خلال الإصرار علىٰ تحريم وتجريم التَّأويل مطلقاً مع الزَّعم بأنَّ السَّلف لم يؤولوا البتَّة ، ورمي المؤولة بالتَّجهُّم والتَّعطيل ؟!!!...

مع العلم أنَّه ثبت عن بعض السَّلف الصَّالح التَّأويل التَّفصيلي ، وقد ذكرت ذلك موسَّعاً في كتابي : " إعلام الخلف بتأويلات السَّلف " ...

فالله تعالىٰ لا تجوز بحقِّه الكيفيَّة والأينيَّة، فلا يقال لمن لا شبيه له ولا مِثال : كيف هو ؟ كما لا يقال لمن هو غنيٌّ عن المكان : أين هو ؟

فالمطلوب من المكلَّفين نفي الكيفيَّة والأينيَّة عنه البتّة. فإذا مررنا بآيات الاستواء –مثلاً– يجب علينا بداية أن نُبادر إلىٰ تنزيه الله تعالىٰ عن كلِّ معنىٰ من المعاني التي تجوز علىٰ البشر ، كالجلوس أو القعود ... أو غيرها من الكيفيَّات والتَّخييلات والتَّشكيلات التي لا تليق إلَّا بالأجسام كالتَّحيُّز والمماسَّة والافتقار إلىٰ الأماكن، لأنَّ ذلك ينتهي إلىٰ التَّجسيم ...

ولقد أبدع الإمام الشَّافعي – رحمه الله – عندما قال : " من انتهض لمعرفة مدبِّره فانتهىٰ إلىٰ موجود ينتهي إليه فكره فهو مشبِّه، وإن اطمأنَّ إلىٰ العدم الصِّرف فهو معطِّل، وإن اطمأنَّ لموجود واعترف بالعجز عن إدراكه فهو موحِّد " ...

وفي كتابنا هذا سنلقي الضّوء علىٰ عقيدة " العلوّ للعليِّ الغفَّار " ... تِلكمُ العقيدة التي غالىٰ فيها أدعياء السَّلفيَّة ، وكتبوا في سبيل إثبات العلوّ المكانيّ لله تعالىٰ عشرات المصنَّفات ، وامتحنوا فيها عقائد النَّاس ،

وجمعوا كلَّ شاردة وواردة لنُصرة ما يعتقدون ، وكذبوا على علماء الأمَّة متَّهمين إيَّاهم بأنَّهم يقولون ويعتقدون بها ، وصنَّفوا المصنَّفات بأسماء بعض العلماء ، ونسبوها إليهم لتدعيم موقفهم ومنهجهم ...

وقد جاء الكتاب عبر مُقدِّمة وستَّة فصول ، هي :

الفَصْلُ الأَوَّلُ : وُجُوْدُ الله تَعَالَى بِلَا بِدَايَة .

الفَصْلُ الثَّانِي : تَنْزِيْهُ الله تَعَالَى عَنِ الجِسْمِيَّةِ .

الفَصْلُ الثَّالِث : أَقْوَالُ العُلَمَاءِ فِي الآيَاتِ التِي يُوْهِمُ ظَاهِرُهَا العُلُو المَكَانِي لله تَعَالَى .

الفَصْلُ الرَّابعُ : أَقْوَالُ العُلَمَاءِ فِي الأَحَادِيْثِ التِي يُوْهِمُ ظَاهِرُهَا العُلُو المَكَانِي لله تَعَالَى .

الفَصْلُ الخَامِسُ : الآيات المغايرة لِلآيَاتِ التِي يُوْهِمُ ظَاهِرُهَا العُلُو المَكَانِي لله تَعَالَى .

الفَصْلُ السَّادِسُ : الأَحَادِيْثُ المُغَايِرَةُ لِلأَحَادِيْثِ التِي يُوْهِمُ ظَاهِرُهَا العُلُو المَكَانِي لله تَعَالَى .

وَسُبْحَانَكَ اللَهُمَّ وَبِحَمْدِكَ نَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ
إِلَّا أَنْتَ نَسْتَغْفِرُكَ وَنَتُوْبُ إِلَيْكَ ،
وَالحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِيْن

الفَصْلُ الأَوَّلُ

وُجُوْدُ الله تَعَالَى بِلَا بِدَايَة

جاء في القرآن الكريم قول الله تعالى : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣] ، وورد في السُّنَّة المطهَّرة عند مسلم وغيره من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : " اللهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى ، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ ، اللهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ " [١] .

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٨٤ برقم ٢٧١٣) ، البيهقي في الأسماء والصفات (١/ ٥٥٧ برقم ٤٨٣) .

والأوَّلُ – سبحانه – هو الذي لم يسبقه في الوجود شيء ، وأنَّ كلَّ ما سواه حادث كائن بعد أنْ لم يكن ، قَال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " كَانَ اللهُّ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ ، وَخَلَقَ السَّموات وَالأَرْضَ " (١) .

وأوليَّة الله تعالى ليست بالزَّمان ولا بالمكان ولا بأيِّ شيء يمكن تصوُّره في عقول البشر ، سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] ...

وبالمعنى السَّابق فسَّر جمهور العلماء اسم الله " الأَوَّلُ " الوارد في قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣] .

قال الإمام محمَّد بن جرير الطَّبري (٣١٠هـ) : " يقول تعالى ذكره : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ قبل كلِّ شيء بغير حدٍّ ، ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ ، يقول : والآخر بعد كلِّ شيء بغير نهاية . وإنَّما قيل ذلك كذلك ، لأنَّه كان ولا شيء موجود سواه ، وهو كائن بعد فناء الأشياء كلّها ، كما قال جلَّ ثناؤه : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] . (٢)

وقال الإمام الزَّجَّاج (٣١١هـ) : " وقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ ﴾ [الحديد: ٣] ، تأويله : هو الأوَّل قبل كلِّ شيء ، والآخر بعد كلِّ شيء " (٣) .

وقال الإمام أبو الليث السَّمرقندي (٣٧٣هـ) : ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ [الحديد: ٣] : الأوَّل قبل كلِّ أحد ، ﴿ وَٱلْءَاخِرُ﴾ ، بعد كلِّ أحد ... ويقال :﴿ ٱلْأَوَّلُ﴾ بلا ابتداء ، ﴿ وَٱلْءَاخِرُ ﴾ بلا انتهاء " (٤) .

وقال الشَّريف الرَّضي (٤٠٦هـ) : " معنى قوله تعالى :﴿ ٱلْأَوَّلُ﴾ ، أي : الذي لم يزل قبل الأشياء كلّها ، لا عن انتهاء مدَّة ،﴿ وَٱلْءَاخِرُ﴾ [الحديد: ٣] ، أي : الذي لا يزال بعد الأشياء كلّها ، لا إلى انتهاء غاية " (٥) .

وقال الإمام الثَّعلبي (٤٢٧هـ) : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ ﴾ ، يعني : هُوَ الْأَوَّلُ قبل كلِّ شيء ، بلا حدٍّ ولا ابتداء ، كان هو ولا شيء موجود ... وقال الحسين بن الفضل : هُوَ الْأَوَّلُ بلا ابتداء ، وَالْآخِرُ بلا انتهاء " (٦) .

وقال الإمام أبو محمَّد مكِّي بن أبي طالب المالكي (٤٣٧هـ) : " أي : هو الأوَّل قبل كلِّ شيء بغير حدٍّ " (١) .

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٠٥ برقم ٣١٩١) .

(٢) انظر : تفسير الطبري (٢٣/ ١٦٨) .

(٣) انظر : معاني القرآن وإعرابه (٥/ ١٢٢) .

(٤) انظر : بحر العلوم (٣/ ٣٨٠) .

(٥) انظر : تلخيص البيان في مجازات القرآن (٢/ ٣٢٦) .

(٦) انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٩/ ٢٢٧-٢٢٨) .

وقال الإمام الغزالي (٥٠٥هـ) : " وَأَنَّه وَاحِدٌ قديمٌ (٢) لَا أَوَّل لَهُ ، أزليٌّ (١) لَا بداية لَهُ ، مُسْتَمرُّ الْوُجُود لَا آخر لَهُ ، أبديٌّ لَا نِهَايَة لَهُ ، قيُّومٌ لَا انْقِطَاع لَهُ ، دَائِمٌ لَا انصرام لَهُ ، لم يزل مَوْصُوفاً بنعوت الْجلَال ، لَا يُقْضىٰ

(١) انظر : الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره ، وأحكامه ، وجمل من فنون علومه (١١/ ٧٣٠٤) .

(٢) لم يرد لفظ القديم في القرآن صريحاً ، وإنما ورد ضمناً في قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلۡأَوَّلُ ﴾ [الحديد : ٣] ، والأَوَّل هو الذي لا ابتداء لوجوده ، وقد جاء في الحديث : "إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً ... وذكر منها : القديم" . أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٢٦٩ برقم ٣٨٦١) .، والقِدم معنىٰ عدم لا وجودي ، وهي صفة سلبية معناها : عدم افتتاح الوجود أو عدم أولية الوجود ، فمعنىٰ أَنَّه تعالىٰ قديم أَنَّه لا أول لوجوده ، وضده الحدوث .

وقد ساق المتكلِّمون العديد من الأدلَّة العقليَّة والنقليَّة علىٰ قِدَمِه تعالىٰ ، منها :

١. أَنَّه لو لم يكن تعالىٰ قديما لكان حادثاً ، لكن التَّالي باطل ، فبطل ما أدىٰ إليه ، وهو كونه تعالىٰ غير قديم ، وثبت نقيضه ، وهو اتصافه تعالىٰ بصفة القدم . ودليل بطلان التالي هو أَنَّه لو كان تعالىٰ حادثاً ، لاحتاج إلىٰ محدث ، ومحدثه إلىٰ محدث ، فيدور الأمر أو يتسلسل وهما باطلان ...

٢. أَنَّه تعالىٰ لو لم يكن قديماً لكان حادثاً ، ولو كان حادثاً لاحتاج محدثه إلىٰ محدث ، فلا يكون واجب الوجود ، لكن قد ثبت اتصافه بوجوب الوجود ، فاستحال عليه تعالىٰ الحدوث ، وثبت اتصافه بالقدم . انظر : الإنصاف ، (ص٣٣) ، لمع الأدلة ، (ص٩٧) ، التمهيد لقواعد التَّوحيد ، (ص٤٩) .

أَمَّا الأدلة النقليَّة علىٰ هذه الصِّفة ، فكثيرة ، منها :

١. قوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ ﴾ [الحديد : ٣] . والأول – كما قلنا آنفاً– الذي لا ابتداء لوجوده .

٢. وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " اللهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ " أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٨٤ برقم ٢٧١٣) .

وفي كتابه "إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدِّين (٢/ ٢١) ذكر الإمام الزبيدي أنَّ الأمة أجمعت علىٰ وصف الله تعالىٰ بالقدم .

وفي تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴾ [الإخلاص : ٣] قال الإمام السلفي ابن جرير الطبري : "ولكنه تعالىٰ ذكره قديم لم يزل ، ودائم لم يبيد ولا يزول ولا يفنىٰ" . انظر : تفسير الطبري (٣٠/ ٤٥٢) .

وقال أيضاً في "تاريخ الأمم والملوك"(١/ ١٢) : "والدلالة علىٰ أن لا قديم إلا الله الواحد القهار ، الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرىٰ ..." .

وقال فيه أيضاً (١/ ٢٥) : "القول في الدلالة علىٰ أنَّ الله عزَّ وجلَّ القديم الأول قبل شيء ..." .

فأنت ترىٰ أن الإمام السلفي ابن جرير الطبري وصف الله تعالىٰ بالقدم ، ومع هذا سمعنا من يشنّع علىٰ من وصف الله بالقدم قائلاً بأن السلف لم يقولوا بذلك!! مع العلم أننا حين نطلقه علىٰ الله تعالىٰ لا نريد إلا معنىٰ الأولية التي تضمنها قوله تعالىٰ :﴿ ٱلۡأَوَّلُ ﴾ [الحديد : ٣] . وقد فسّر المفسرون الأول بأنه ليس لوجوده بداية ...

قال الإمام ابن عطية في تفسيره (٥/ ٢٥٧) : ﴿ ٱلۡأَوَّلُ ﴾ : الذي ليس لوجوده بداية مفتتحة" .

وقال الإمام البغوي في "معالم التنزيل" ، (ص١٢٧٥) :﴿ ٱلۡأَوَّلُ ﴾ : "السابق علىٰ كل الموجودات من حيث أَنَّه موجدها ومحدثها" .

عَلَيْهِ بالانقضاء والانفصال بتصرُّم الآباد وانقراض الْآجَال ، بل هُوَ الأوَّل وَالْآخر ، وَالظَّاهِر وَالْبَاطِن ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْء عليم " (٢) .

وقال الإمام ابن عساكر (٥٧١هـ) : " وَأَنَّه قديمٌ لَا أَوَّل لَهُ ، أزليٌّ لَا بداية لَهُ ، مُسْتَمر الْوُجُود لَا آخر لَهُ ، أبديٌّ لَا نِهَايَة لَهُ ، قيومٌ لَا انْقِطَاع لَهُ ، دَائِم لَا انصرام لَهُ ، لم يزل وَلَا يزَال مَوْصُوفاً بنعوت الْجلَال ، لَا يُقْضىٰ عَلَيْهِ بالانقضاء تصرم الآباد وانقراض الْآجَال ، بل هُوَ الأوَّل وَالْآخر وَالْبَاطِن وَالظَّاهِر " (٣) .

وقد أجمعت الأمَّة علىٰ أنَّ الله تعالىٰ هو الأوَّل قبل كلِّ شيء بلا بداية ، والآخر بعد كلِّ شيء بلا نهاية ، وهو الموجود الواجب الوجود ، وأنَّه تعالىٰ لم يزل وحده ، ولا شيء غيرُه معه ، قال ابن حزم رحمه الله ، فيما حكاه من " مراتب الإجماع " : " اتَّفقُوا أنَّ الله عزَّ وجلَّ وَحده لَا شريك لَهُ ، خَالق كلِّ شَيْء غَيره ، وَأَنَّه تَعَالَىٰ لم يزل وَحده ، وَلَا شَيْء غَيره مَعَــه ، ثمَّ خلق الأشياء كلَّهَا كَمَا شَاءَ ، وَأَنَّ النَّفس مخلوقة وَالْعرش مَخْلُــوق والعالم كُلُّه مَخْلُوق " (٤) .

وقال الإمام الزمخشري في الكشاف (٤/ ٦١) : ﴿ ٱلْأَوَّلُ ﴾ : القديم الذي كان قبل كل شيء " .

وقال الإمام ابن الجوزي في "زاد المسير" (ص١٣٩٦) : "قوله تعالىٰ ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ ﴾ ، قال أبو سليمان الخطابي : هو السابق للأشياء" .

وقال الإمام الألوسي في "روح المعاني" (١٤/ ١٦٦) : ﴿ ٱلْأَوَّلُ ﴾ السابق علىٰ جميع الموجودات ، فهو سبحانه موجود قبل كل شيء حتىٰ الزمان ، لأنَّه جل وعلا الموجد والمحدث للموجودات" .

وقال الإمام أبو السعود في تفسيره (٨/ ٢٠٣) : ﴿ ٱلْأَوَّلُ ﴾ السابق علىٰ سائر الموجودات لما أنَّه مبدئها ومبدعها" .

وقال الإمام أبو حيان في "البحر المحيط" (٨/ ٢١٦) : ﴿ ٱلْأَوَّلُ ﴾ : الذي ليس لوجوده بداية مفتتحة" .

وقال الإمام إسماعيل حقي البروسوي في "روح البيان"(٩/ ٤١١) : ﴿ ٱلْأَوَّلُ ﴾ السابق علىٰ سائر الموجودات بالذات والصفات لما أنَّه مبدئها ومبدعها ، فالمراد بالسبق والأولوية هو الذاتي لا الزماني ، فإن الزمان من جملة الحوادث" .

وقال الإمام الأصفهاني في "معجم ألفاظ مفردات القرآن" (ص٢٧) : "وإذا قيل في صفة الله : هو (الأول) فمعناه أنَّه الذي لم يسبقه في الوجود شيء" . وللاستزادة أيضاً انظر : تفسير الرَّازي (٢٩/ ١٨٢-١٨٥) .

وعليه ، فمعنىٰ القديم هو ما ذهب إليه العلماء في تفسيره "الأول" ، ومن المعلوم أنَّه لا مشاحة في الاصطلاح .

(١) الأزلي: القديم الذي لا بداية له .

(٢) انظر : قواعد العقائد (ص٥٠) .

(٣) انظر : تبيين كذب المفتري فيما نسب إلىٰ الإمام أبي الحسن الأشعري (ص٢٩٩) .

(٤) انظر : مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات (ص١٦٧) .

ومع كون هذه المسألة من المسلَّمات الضّروريَّة في الدِّين إلَّا أنَّ ابن تيمية – غفر الله له – قال بحوادث لا أوَّل لها ... قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في شرح قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ " (١) : " تَقَدَّمَ فِي بَدْءِ الْخَلْقِ بِلَفْظِ : " وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ " ، وَفِي رِوَايَةِ أَبِي مُعَاوِيَةَ : " كَانَ اللهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ " ، وَهُوَ بِمَعْنَى : كَانَ اللهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ ، وَهِيَ أَصْرَحُ فِي الرَّدِّ عَلَى مَنْ أَثْبَتَ حَوَادِثَ لَا أَوَّلَ لَهَا مِنْ رِوَايَةِ الْبَابِ ، وَهِيَ مِنْ مُسْتَشْنَعِ الْمَسَائِلِ الْمَنْسُوبَةِ لِابْنِ تَيْمِيَّةَ !!! وَوَقَفْتُ فِي كَلَامٍ لَهُ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ يُرَجِّحُ الرِّوَايَةَ الَّتِي فِي هَذَا الْبَابِ عَلَى غَيْرِهَا مَعَ أَنَّ قَضِيَّةَ الْجَمْعِ بَيْنَ الرِّوَايَتَيْنِ تَقْتَضِي حَمْلَ هَذِهِ عَلَى الَّتِي فِي بَدْءِ الْخَلْقِ لَا الْعَكْسَ ، وَالْجَمْعُ يُقَدَّمُ عَلَى التَّرْجِيحِ بِالِاتِّفَاقِ . قَالَ الطِّيبِيُّ : قَوْلُهُ : " وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ " حَالٌ ، وَفِي الْمَذْهَبِ الْكُوفِيِّ خَبَرٌ وَالْمَعْنَى يُسَاعِدُهُ إِذِ التَّقْدِيرُ : كَانَ اللهُ مُنْفَرِدًا ، وَقَدْ جَوَّزَ الْأَخْفَشُ دُخُولَ الْوَاوِ فِي خَبَرِ كَانَ وَأَخَوَاتِهَا نَحْوَ : كَانَ زَيْدٌ وَأَبُوهُ قَائِمٌ عَلَى جَعْلِ الْجُمْلَةِ خَبَرًا مَعَ الْوَاوِ تَشْبِيهًا لِلْخَبَرِ بِالْحَالِ ، وَمَالَ التُّورِبَشْتِيُّ إِلَى أَنَّهُمَا جُمْلَتَانِ مُسْتَقِلَّتَانِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَقْرِيرُهُ فِي بَدْءِ الْخَلْقِ . وَقَالَ الطِّيبِيُّ : لَفْظَةُ كَانَ فِي الْمَوْضِعَيْنِ بِحَسَبِ حَالِ مَدْخُولِهَا ، فَالْمُرَادُ بِالْأَوَّلِ الْأَزَلِيَّةُ وَالْقِدَمُ وَبِالثَّانِي الْحُدُوثُ بَعْدَ الْعَدَمِ ، ثُمَّ قَالَ : فَالْحَاصِلُ أَنَّ عَطْفَ قَوْله : " وَكَانَ عَرْشه على الْمَاء " عَلَى قَوْلِهِ : " كَانَ الله " مِنْ بَابِ الْإِخْبَارِ عَنْ حُصُولِ الْجُمْلَتَيْنِ فِي الْوُجُودِ وَتَفْوِيضِ التَّرْتِيبِ إِلَى الذِّهْنِ ، قَالُوا : وَفِيهِ بِمَنْزِلَةِ ثُمَّ . وَقَالَ الْكِرْمَانِي : قَوْله : " وَكَانَ عَرْشه على الْمَاء مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ : " كَانَ الله " ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ الْمَعِيَّةُ إِذِ اللَّازِمُ مِنَ الْوَاوِ الْعَاطِفَةِ الِاجْتِمَاعُ فِي أَصْلِ الثُّبُوتِ وَإِنْ كَانَ هُنَاكَ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ . قَالَ غَيْرُهُ وَمِنْ ثَمَّ جَاءَ شَيْءٌ غَيْرُهُ وَمِنْ ثَمَّ جَاءَ قَوْلُهُ : " وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ " لِنَفْيِ تَوَهُّمِ الْمَعِيَّةِ . قَالَ الرَّاغِبُ كَانَ عِبَارَةٌ عَمَّا مَضَى مِنَ الزَّمَانِ لَكِنَّهَا فِي كَثِيرٍ مِنْ وَصْفِ اللهَّ تَعَالَى تُنْبِئُ عَنْ مَعْنَى الْأَزَلِيَّةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٠] ، قَالَ : وَمَا اسْتُعْمِلَ مِنْهُ فِي وَصْفِ شَيْءٍ مُتَعَلِّقًا بِوَصْفٍ لَهُ هُوَ مَوْجُودٌ فِيهِ فَلِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الْوَصْفَ لَازِمٌ لَهُ أَوْ قَلِيلُ الِانْفِكَاكِ عَنْهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ [الإسراء:٢٧] ، وقَوله : ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء:٦٧] . وَإِذَا اسْتُعْمِلَ فِي الزَّمَنِ الْمَاضِي جَازَ أَنْ يَكُونَ الْمُسْتَعْمَلُ عَلَى حَالِهِ وَجَازَ أَنْ يَكُونَ قَدْ تَغَيَّرَ نَحْوَ : كَانَ فُلَانٌ كَذَا ثُمَّ صَارَ كَذَا ، وَاسْتُدِلَّ بِهِ عَلَى أَنَّ الْعَالَمَ حَادِثٌ ، لِأَنَّ قَوْلَهُ : " وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ " ظَاهِرٌ فِي ذَلِكَ فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ سِوَى اللهَّ وُجِدَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا " (٢) .

---

(١) أخرجه البخاري (٩/ ١٢٤ برقم ٧٤١٨) .

(٢) انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٣/ ٤١٠) .

قلت : وكلام ابن تيمية الذي أشار إليه الحافظ ابن حجر موجود في نقد ابن تيمية لكتاب ابن حزم : "مراتب الإجماع " ، قال ابن حزم : " اتَّفقُوا أنَّ الله عزَّ وجلَّ وَحده لَا شريك لَهُ ، خَالق كلّ شَيْء غَيره ، وَأَنَّه تَعَالَىٰ لم يزل وَحده وَلَا شَيْء غَيره مَعَه ، ثمَّ خلق الأشياء كلَّهَا كَمَا شَاءَ ، وَأَنَّ النَّفس مخلوقة ، وَالْعرش مَخْلُوق ، والعالم كُلّه مَخْلُوق " (١) ، فردَّ ابن تيمية عليه بقوله : " وليس في خبر الله – أنَّه خلق السَّماوات والأرض وما بينهما في ستَّة أيَّام – ما ينفي وجودَ مخلوق قبلهما ، ولا ينفي أنَّه خلقهما من مادَّةٍ كانت قبلهما ، كما أنَّه أخبر أنَّه خلق الإنسان وخلق الجنَّ ، وإنَّما خلق الإنسان من مادَّة ، وهي الصَّلصال كالفخَّار ، وخلق الجانَّ من مارج من نار ... ، وهذا الموضع أخطأ فيه طائفتان :

طائفة من أهل الكلام من اليهود والمسلمين وغيرهم ، ظنُّوا أنَّ إخبار الله بخلقه للسَّماوات والأرض وما بينهما يقتضي أنَّهما لم يُخلَقا من شيء ، بل لم يكن قبلهما موجود إلَّا الله ...

وطائفة أخرىٰ أبعد عن الشَّرع والعقل من هؤلاء : يتأوَّلون خلق السَّماوات والأرض بمعنىٰ التَّولُّد والتَّعليل والإيجاب بالذَّات ، ويقولون : إنَّ الفلك قديم أزلي معلول للرَّب ، وأنَّه يوجب بذاته ، لم يزل ولا يزال ، وقولهم بالإيجاب هو معنىٰ القول بالتَّولُّد ، فإنَّما حصل عن غيره بغير اختيار منه ، فقد تولَّد عنه ، لا سيَّما إن كان حيَّاً ...

وقد بُسِط الكلام علىٰ هذا في غير هذا الموضع ، وذِكرِ منشئِ غلط الطَّائفتين ، حيث لم يفرِّقوا بين النَّوع والعين ... " (٢) .

قلت : ومعنىٰ قِدَم العالم بالعين هو : أن لا يكون للعالم بداية في وجوده ، وهو ما عليه الفلاسفة ومن وافقهم ، حيث صرَّحوا بأنَّ مادَّة العالم قديمة ، وصورة بعضه حادثة صورة بعد صورة ، وبعض الصُّور قديمة ، وأنَّ نفس هذا العالم لا بداية له ...

أمَّا قِدَم العالم بالنَّوع ، فمعناه : أن يكون العالم حادثاً مسبوقاً بعالم حادث مسبوقاً بعالم حادث ... إلىٰ ما لا نهاية . فنوع العالم قديم ... والنَّوع ليس شيئاً مخلوقاً أو موجوداً ، بل هو من الأمور الذِّهنيَّة ... وقد وافق ابن تيمية في هذه المسألة : القائلون بوحدة الوجود ...

وقد ردَّ عليه العديد من أهل العلم ، ومن ضمنهم : الإمام بهاء الدِّين عبد الوهَّاب بن عبد الرَّحمن الإخميمي (٧٦٤هـ) ، في رسالة سمَّاها : " رِسَالَةٌ فِي الرَّدِّ عَلىٰ ابن تَيْمِيَة فِي مَسْأَلة حَوَادث لَا أَوَّلَ لَهَا " ، وهي

---

(١) انظر : مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات (ص١٦٧) .

(٢) انظر : نقد مراتب الإجماع (٣٠٤-٣٠٦) .

من تحقيق أخينا الفاضل الدُّكتور سعيد فوده – حفظه الله – ، ونشرتها دار الذَّخائر ، بيروت . وهذه المسألة سنناقش ابن تيمية فيها في كتاب آخر ... بإذن الله تعالىٰ .

الفَصْلُ الثَّانِي
تَنْزِيْهُ اللهِ تَعَالَى عَنِ الجِسْمِيَّةِ

لقد دلَّت النُّصوص القطعيَّة علىٰ أنَّ الله تعالىٰ لا يوصف إلَّا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير تشبيه ولا تمثيل ومن غير تأويل ولا تعطيل ، وأنَّه تعالىٰ لا يُشْبهُهُ شيءٌ بأيِّ وجهٍ من الوجوهِ ، فلا يوصف بالحدِّ واللونِ والأعضاءِ والشَّكلِ والصُّورةِ والهيئةِ والتَّركيبِ ، والحركة والسُّكون ، ولا بكونه متمكِّناً بمكان ، ولا يجوز عليه التَّغيير في ذاته ولا في صفاته ... فهو سبحانه ليسَ جِسمًا (١) ولا

---

(١) قال الإمام الأصفهاني في "معجم مفردات ألفاظ القرآن" (ص٩١) : "الجسم ما له طول وعرض وعمق ، ولا تخرج أجزاء الجسم عن كونها أجساماً ، وإن قُطع ما قُطع ، وجزّئ ما جزِّئ ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةً فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ ﴾ [البقرة : الآية ٢٤٧]، ﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾ [المنافقون : الآية ٤] . تنبيهاً أن لا وراء الأشباح معنىً معتدّ به" .

وقال الإمام الجرجاني في "التعريفات" (ص٤١) : "الجسم : جوهر قابل للأبعاد الثلاثة ، وقيل : الجسم هو المركب المؤلف من الجواهر" .

وقال الإمام الغزالي في "قواعد العقائد" (ص١٥٩) : " ... الجسم عبارة عن المؤلف من الجواهر ، وإذا بطل كونه جوهراً مخصوصاً بحيّز بطل كونه جسماً ، لأن كل جسم مختص بحيّز ومركّب من جوهر ، فالجوهر يستحيل خلوّه من الافتراق والاجتماع ، والحركة والسكون ، والهيئة والمقدار" .

وقال الإمام الشيرازي في كتابه"الإشارة إلىٰ مذهب أهل الحق" (ص١٩١): "ثم يعتقدون أن الله عز وجل ليس بجسم ، لأن الجسم هو المؤلف ، وكل مؤلَّف لا بد له من مؤلِّف" .

وجاء في "اللمع" (ص٢٤) قول الأشعري : "فإن قال قائل : لِمَ أنكرتم أن يكون الله تعالىٰ جسماً ؟ قيل له : أنكرنا ذلك لأنه لا يخلو أن يكون القائل لذلك أراد . ما أنكرتم أن يكون طويلاً عريضاً مجتمعاً ، أو أن يكون أراد تسميته جسماً وإن لم يكن طويلاً عريضاً مجتمعاً عميقاً ، فإن كان أراد أن يكون طويلاً عريضاً مجتمعاً ، كما يقال ذلك للأجسام فيما بيننا ، فهذا لا يجوز ، لأن المجتمع لا يكون شيئاً واحداً ، لأن أقل قليل الاجتماع لا يكون إلا من شيئين ، لأن الشَّيء الواحد لا يكون لنفسه مجامعاً ، وقد بيّنا أن الله عز وجل شيء واحد ، فبطل أن يكون مجتمعاً" . وانظر : الاقتصاد في الاعتقاد (ص٧٢-٧٣) ، التَّوحيد للماتريدي (ص٣٨-٣٩) .

يُشبِهُ الأجسامَ ، لأنَّ الجسم محتاجٌ إلىٰ من يركِّبه ، ولا بدَّ له من حيِّز ... وبالجملة ، فهو سبحانه وتعالىٰ – كما قال الإمام الطَّحاوي في عقيدته – : " وتعالىٰ – أي الله – عن الحدودِ والغاياتِ ، والأركانِ والأعضاءِ والأدواتِ ، لا تحويه الجهات (١) السِّتُّ كسائر الـمبتدعات " ، لأنَّ كلَّ ذلك من صفات المحدَثات ، والله تعالىٰ هو الغنيُّ بنفسه عمَّا سواه ...

فتشبيه الله تعالىٰ بخلقه بدعةٌ من البدع القبيحة الخبيثة المُنكرة في دين الله تعالىٰ ، ومآل معتقدها إلىٰ الخروج من حياض الإيمان بعد إقامة الحجَّة عليه ... فالله تعالىٰ لا شبيه له ولا مثيل ، ولا مساو له ولا كفؤ له سبحانه وتعالىٰ ، ولا ضدَّ ولا ندَّ له ولا نظير ، ولا ولد ولا والد ولا صاحبة سبحانه ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ:١١] ...

ومن المعلوم أنَّ جمهور العلماء ذهبوا إلىٰ أنَّ الألفاظ الموهمة للتَّشبيه لا يجوز أن تُحمل علىٰ ظاهر معناها المتبادر إلىٰ الأذهان البتَّة ، لأنَّ الحمل علىٰ الظَّاهر يتعارض مع العديد من المسلَّمات العقديَّة ، وكذا اللغويَّة ، بالإضافة إلىٰ الاصطدام المباشر مع آيات التَّنزيه (٢) ، التي منها :

وسنأتي علىٰ الكلام –لاحقاً– عن تنزيه الله تعالىٰ عن الجسمية ، وأن ذلك من مستلزمات التنزيه المتضمن مخالفة الله تعالىٰ لسائر الحوادث ، قال تعالىٰ : ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ : الآية ١١] .

(١) من ضروريات التنزيه : تنزيه الله تعالىٰ عن الاختصاص بالجهات "فان الجهة إما فوق ، وإما أسفل ، وإما يمين ، وإما شمال ، أو قُدّام ، أو خلف . وهذه الجهات هو الذي خلقها وأحدثها بواسطة خلق الإنسان ، إذ خلق له طرفين : أحدهما يعتمد علىٰ الأرض ويسمّىٰ رِجْلاً ، والآخر يقابله ويسمّىٰ رأساً ، فحدث اسم الفوق لما يلي جهة الرأس ، وحدث اسم السفل لما يلي جهة الرِّجل ، حتىٰ أن النملة التي تدّب منكّسة تحت السقف تنقلب جهة الفوق في حقها تحتاً ، وإن كان في حقنا فوقاً ، وخلق للإنسان اليدين وإحداهما أقوىٰ من الأخرىٰ في الغالب ، فحدث اسم اليمين للأقوىٰ ، واسم الشمال لما يقابله ، وتسمّىٰ الجهة التي تلي الرأس يميناً ، والأخرىٰ شمالاً ، وخلق له جانبين يُبصر من أحدهما ويتحرك إليه ، فحدث اسم القّدام للجهة التي يتقدم إليها بالحركة ، واسم الخلف لما يقابلها .

فالجهات حادثة بحدوث الإنسان ، ولو لم يُخلق الإنسان بهذه الخلقة ، بل خُلق مستديراً كالكرة ، لم يكن لهذه الجهات وجود البتّة ، فكيف كان في الأزل مختصاً بجهة والجهة حادثة ، أو كيف صار مختصاً بجهة بعد أن لم يكن له؟ أَبِأَنْ خلق العالم فوقه ، وتعالىٰ عن أن يكون له فوق ، إذ تعالىٰ أن يكون له رأس ، والفوق عبارة عمّا يكون جهة الرأس ، أو خلق العالم تحته ، فتعالىٰ عن أن يكون لله تحت ، إذ تعالىٰ عن أن يكون له رجل ، والتحت عبارة عمّا يلي الرِجّل ، وكل ذلك مما يستحيل في العقل ...." . انظر قواعد العقائد (ص١٦٢–١٦٣) .

(٢) قال الإمام ابن منظور في لسان العرب (٣/ ٦٢٠) : "التنزيه : تسبيح الله عزّ وجل وإبعاده عمّا يقول المشركون . قال الأزهري : تنزيه الله تبعيده وتقديسه عن الأنداد والأشباه ، وإنما قيل للفلاة التي نأت عن الريف والمياه : نزيهه ، لبعدها عن عمق المياه ، وذِبَان القُرىٰ ، وومد البحار ، وفساد الهواء . وفي الحديث : "كان يصلي من الليل فلا يمرُّ بآية فيها تنزيه الله إلا نزّهه" ، أصل النُّزه البعد ، وتنزيه الله تبعيده عما لا يجوز عليه من النقائص ، ومنه الحديث في تفسير سبحان الله : "هو تنزيهه" أي : إبعاده عن السوء وتقديسه ، ومنه حديث أبي

١ . قوله تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ ﴾ [النحل : ٦٠] ، فلا يوصف سبحانه بأيِّ وصفٍ يُشبه وصف غيره من صفات المخلوقين ، من التَّغيُّر والتَّبدُّل والحلول في الأماكن والتَّحيُّز فيها ، فهو تعالىٰ واحدٌ في ذاته وصفاته وأفعاله ، وتجبُ له جَمِيعُ صِفَاتِ الْجَلَالِ والجَمَالِ وَالْكَمَالِ ، ولذلك لا يجوز أن تُضرب لله الأمثال التي توجب الاشتباه ، قال تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ ﴾ [النحل : ٧٤] .

٢. وقوله تعالىٰ : ﴿ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥] ، أي : هل تعلم من الآلهة التي عُبدت من دونه من اسمه الله ؟!! فلا يوجد أبداً من تسمَّىٰ من المعبودات الباطلة باسم " الله " ، فالله تعالىٰ لا مِثْل له ، ولا عدل ، ولا شبيه ، ولا مثيل في كلِّ شيء حتىٰ في اسمه تعالىٰ ، فمن وصفه بمعنىٰ من معاني المحدثات ، كالنُّزول الحقيقي ، والقيام ، والقعود ، والجلوس علىٰ العرش والاستقرار فيه ، فقد شبَّه الله تعالىٰ بخلقه ، والعياذ بالله ...

٣. وقوله تعالىٰ : ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ : ١١] ، فالله تعالىٰ لا يشبه شيئاً من خلقه بأيِّ وجهٍ من الوجوه ، والآية نصٌّ محكمٌ صريحٌ في نفي المشابهة والمماثلة بين الله تعالىٰ وبين سائر المحدثات ، فلا هو يشبهها في أيِّ شكل من الأشكال ، ولا هو في حاجةٍ إلىٰ شيءٍ ممَّا خلق ...

وقد يردُ إشكالٌ مَفادُه : أنَّ نفي المثل في قوله : ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ: ١١] ، يُوهِمُ وجود المثل ، لأنَّ الكاف بمعنىٰ مثل ، فيصير المعنىٰ : ليس مثل مثله شيء ، فالنَّفي يكون لمثل المثل ...

والجواب علىٰ هذا الإشكال بعدَّة أجوبة :

(أ) أنَّ الكاف صلة ، أي زائدة لتأكيد نفي المثل ، فالمعنىٰ : انتفىٰ المثل انتفاء مؤكَّداً .

(ب) أنَّ المثل بمعنىٰ الصِّفة ، فالمعنىٰ : ليس كصفة الله تعالىٰ شيء .

(ج) أنَّ الآية من باب الكناية ، علىٰ حدِّ قولك : (مِثْلُكَ لا يجبُن) ، أي : أنت لا تَجْبُن . ووجه كونها من باب الكناية أنَّه يلزم من نفي مثل المثل نفي المثل ، وهذا هو المراد . فالقصد نفي مثله تعالىٰ علىٰ أبلغ وجه ، إذ الكناية

أبلغ من التَّصريح لتضمُّنها إثبات الشَّيء بدليله .

هريرة رضي الله عنه : "الإيمان نزهُ" ، أي بعيد عن المعاصي ، وفي حديث المعذّب في قبره : "كان زمان لا يستنزه من البول" ، أي : لا يستبرئ ولا يتطهّر ولا يستبعد منه" .

وعليه ، فالآية الكريمة تنفي عن الله تعالىٰ المماثلة لشيء من الحوادث ، ونفي المماثلة يفيد أُموراً عديدة ، من أهمّها : نفي الجسميَّة والعَرَضيَّة والجوهريَّة : لأنَّ الجسم مؤلَّف من جواهر (١) وأعراض (٢) ، وهما حادثان . قال السُّبكي في شرح عقيدة ابن الحاجب : " اعلم أنَّ حكم الجواهر والأعراض كلّها الحدوث فإذاً العالم كلّه حادث ، وعلىٰ هذا إجماع المسلمين !!! بل كلّ الملل ، ومن خالف في ذلك فهو كـــــافر ، لمخالفة الإجماع القطعيّ " (٣) .

٤ . وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص : ٤] ، أي : لا نظير له ، ولا قسيم له ، ولا شبيه له ، ولا صاحبة ، ولا شريك ... فينازعه في ربوبيَّته ومُلكه بوجه من الوجوه ، وقد فسَّرَتْها آية الشُّورىٰ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ : ١١] .

وبناءً علىٰ ما يجب لله تعالىٰ من التَّنزيه ، يجب الاعتقاد بأنَّ الله تعالىٰ لا يحتاج لمكان تمكَّن فيه ، لأنَّه سبحانه ليس جسماً ، إذ الجسم هو الذي يتمكَّن بمعنىٰ يتحيَّز في المكان ، وهو الذي لا ينفكُّ عن الحركة والسُّكون والاجتماع والافتراق ، إذ هي أعراضٌ ملازمةٌ للأجسام ، ولا تقوم إلَّا بها ، وهي حادثةٌ لتغيرُّها وتبدُّلها ، وما لا ينفكُّ عن الحوادث فهو حادث ، والله تعالىٰ واجب الوجود لذاته ، فلا يجوز أن يكون جسّماً أو عَرَضاً ، فلو كان جسّماً أو عَرَضاً لاحتاج للمحلّ ، وافتقر إليه ، وبحاجة المتمكِّن في المكان للمكان يصبح الواجب مفتقراً للغير فيكون ممكِناً ، واللازم باطل فالملزوم مثله ، وبالتَّالي لا يجوز عليه ما يجوز علىٰ المحدثات من الحركة والسُّكون والانتقال وسائر الأعراض الملازمة للمحدثات ، وبالتَّالي فالله تعالىٰ ليس محلَّاً للحوادث ، فلا هو يحلُّ بها ، ولا هي تحلُّ فيه سبحانه وتعالىٰ ...

فالله تعالىٰ لا كَيْف له ، وصفاته سبحـــانه لا تشبه صفاتنا بشيء ، جلَّ وتعالىٰ ربُّنا عن النَّظير ، والمثيل ، والشَّبيه ، والنِّد ، والكفء ...

ولذلك وقف جمهور السَّلف الصَّالح أمام المتشابهات من غير أن ينبسُّوا ببنت شَفَه ، وقالوا : نؤمن بها ، وَنُصَدِّقُ بِهَا ، وَلَا نُتوَهَّم ، **وَلَا كَيْف** ، **وَلَا مَعْنَى** ، ولا نَرُدُّ منها شيئاً ، ونعلم أنَّ ما جاء به الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقٌّ إذا ثبت وصحَّ الحديث عنه ، ولا نردُّ علىٰ الله تعالىٰ قوله ، ولا نصف الله بأكثر ممَّا وصف به نفسه ، بلا حدٍّ ولا غاية ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ : ١١] . فأجروها علىٰ ظاهر

---

(١) هو الشَّيء الذي لا يتجزأ ولا يقبل القسمة .

(٢) هو ما يستدعي وجوده جسم ليقوم به ، حيث لا يقوم إلا بغيره .

(٣) انظر : إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدِّين (٢/ ٩٣) .

اللفظ لا على ظاهر المعنى ، لأنَّ المعنى لا سبيل إلى درْكه ، ولذلك وَكَلُوا علمه إلى الله تعالى ، وكان لسان حالهم يقول كما قال الإمام ابن الجوزي : " نُقِرُّ ونُمِرُّ ، وَأَرْبَابُ الْبَحْثِ فِي خَسَارٍ ، هَذَا سَيْفُ السُّنَّة فتَنَاوَلْهُ بِالْيَمِينِ لا بِالْيَسَارِ ، وَاضْرِبْ بِهِ كَفَّ " كَيْفَ " وَرَأْسَ " لِمَ " وَعُنُقَ " ثمَّ " وَخُذْ لِلتَّنْزِيهِ من التَّشبيه بالثَّار ، قال تعالى : ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩] (١) .

فالله تعالى لا كيْف (٢) له ، إذ الكيْف من لوازم الأجسام ، والله يتنزَّه عن ذلك كلِّه ... فهوسبحانه منزَّه عن الحدِّ ، والضدِّ ، والندِّ ، والمثل ، والمكان ، والحركة ...

نقَلَ الإمامُ أبو نعيم الأصبهاني (٤٣٠هـ) في " الحِلْيَةِ " بسنده عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ سَعْدٍ ، قَالَ : كُنْتُ بِالْكُوفَةِ فِي دَارِ الْإِمَارَةِ ، دَارِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (٤٠هـ) ، إِذْ دَخَلَ عَلَيْنَا نَوْفُ بْنُ عَبْدِ الله ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْبَابِ أَرْبَعُونَ رَجُلاً مِنَ الْيَهُودِ ، فَقَالَ عَلِيٌّ : عَلَيَّ بِهِمْ ، فَلَمَّا وَقَفُوا بَيْنَ يَدَيْهِ قَالُوا لَهُ : يَا عَلِيُّ صِفْ لَنَا رَبَّكَ هَذَا الَّذِي فِي السَّماء ، كَيْفَ هُوَ ، وَكَيْفَ كَانَ ، وَمَتَى كَانَ ، وَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ هُوَ ؟ فَاسْتَوَى عَلِيٌّ جَالِساً ، وَقَالَ : مَعْشَرَ الْيَهُودِ اسْمَعُوا مِنِّي ، وَلَا تُبَالُوا أَنْ لَا تَسْأَلُوا أَحَداً غَيْرِي ، إِنَّ رَبِّي عزَّ وجلَّ هُوَ الْأَوَّلُ لَمْ يَبْدُ مِمَّا ، وَلَا مُمَازِجُ مَعِمَّا ، وَلَا حَالٌّ وَهُمَّا ، وَلَا شَبَحٌ يُتَقَصَّى ، وَلَا مَحْجُوبٌ فَيُحْوَى ، وَلَا كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ فَيُقَالُ : حَادِثٌ ، بَلْ جَلَّ أَنْ يُكَيِّفَ الْمُكَيِّفَ لِلْأَشْيَاءِ كَيْفَ كَانَ ، بَلْ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزُولُ لِاخْتِلَافِ الْأَزْمَانِ ، وَلَا لِتَقَلُّبِ شَانٍ بَعْدَ شَانٍ ، وَكَيْفَ يُوصَفُ بِالْأَشْبَاحِ ، وَكَيْفَ يُنْعَتُ بِالْأَلْسُنِ الْفِصَاحِ ، مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَشْيَاءِ فَيُقَالُ : بَائِنٌ (٣) ، وَلَمْ يَبِنْ عَنْهَا فَيُقَالُ : كَائِنٌ ، بَلْ هُوَ بِلَا كَيْفِيَّةٍ ، وَهُوَ أَقْرَبُ مِنْ حَبَلِ الْوَرِيدِ ، وَأَبْعَدُ فِي الشَّبَهِ مِنْ

---

(١) انظر : التبصرة (٢/ ٢٨٧) .

(٢) قال الإمام الجرجاني : " هيئة قارة في الشَّيء لا يقتضي قسمة ولا نسبة لذاته " . انظر : كتاب التعريفات (ص١٨٨) .

(٣) قال الإمام ابن فورك في "مشكل الحديث وبيانه" (ص٤٥٤) : " ... وأنه بائن مما خلق ، بينونة الصفة والنعت ، لا بالتحيز والمكان والجهة" .

وقال الإمام الكوثري في تعليقه على الأسماء والصفات للبيهقي (ص٥٠٢) : "والمعنى أنَّه غير ممازج للخلق لا بمعنى أنَّه متباعد عن الخلق بالمسافة ، تعالى الله عن القرب والبعد الحسيين والبينونة الحسية ، فليس في ذلك ما يطمع المجسمة في كلامه ، وسيأتي من المصنف عند الكلام في آية الاستواء : لا قاعد ولا قائم ولا مماس ولا مباين عن العرش . ثمَّ قال : لأنَّ المماسَّة والمباينة بالمسافة التي هي ضدّها ، كلاهما من صفات الأجسام " .

كُلِّ بَعِيدٍ ... وَالْحَدُّ إِلَىٰ غَيْرِهِ مَنْسُوبٌ ... سُبْحَانَهُ كَلَّمَ مُوسَىٰ تَكْلِيماً بِلَا جَوَارِحٍ وَلَا أَدَوَاتٍ ، وَلَا شَفَةٍ وَلَا لَهَوَاتٍ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَنْ تَكْيِيفِ الصِّفَاتِ ، مَنْ زَعَمَ أَنَّ إِلَهَنَا مَحْدُودٌ ، فَقَدْ جَهَلَ الْخَالِقَ الْمَعْبُودَ " (١) .

وقال التَّابعي الشَّهير زين العابدين علي بن الحسين بن علي (٩٥هـ) رضي الله عنهم : " أنت الله الذي لا تُحدُّ فتكون محدوداً " (٢) .

وقال الإمام أبو حنيفة (١٥٠هـ) : " وَهُوَ شَيْء لَا كالأشياء وَمعنىٰ الشَّيء : الثَّابِت بِلَا جسم ، وَلَا جَوْهَر ، وَلَا عَرَض ، وَلَا حدَّ لَهُ ، وَلَا ضدَّ لَهُ ، وَلَا ندَّ لَهُ ، وَلَا مِثل لَهُ " (٣) .

ونقل الإمام السُّيوطي عن الإمام الشَّافِعِيُّ (٢٠٤هـ) أنَّه لَا يُكَفر أَحَداً مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ ، وَاسْتَثنىٰ مِنْ ذَلِكَ : الْمُجَسِّمُ ، وَمُنْكِرُ عِلْمِ الْجُزْئِيَّاتِ (٤) .

" وحَكَوْا عن الشَّافعي (٢٠٤هـ) رضي الله عنه أنَّه قال : من انتهض لطلب مدبِّره فانتهىٰ إلىٰ موجود ينتهي إليه فكرهُ فهو مشبِّه ، وإن اطمأنَّ إلىٰ العدم الصّرف فهو معطِّل ، وإن اطمأنَّ إلىٰ موجود واعترف بالعجز عن إدراكه فهو موحِّد " (٥) .

فالشَّافعي حكم علىٰ من انتهىٰ فكره في طلب الحقِّ إلىٰ شيء من المخلوقات بأنَّه مُشبِّه ، وحكم علىٰ من انتهىٰ فكره إلىٰ العدم بأنَّه معطِّل ... أمَّا من اعتقد بوجود الحقّ المتَّصف بالجلال والكمال ، واعترف بالعجز عن إدراك حقيقة الحقّ تعالىٰ بأنَّه موحِّد ..

وهذا كلام نفيس من الإمام الشَّافعي ، يدلُّ دلالة واضحة بيِّنة علىٰ أنَّ السَّلف الصَّالح رضوان الله عليهم كانوا علىٰ قلب رجل واحد في تنزيه الله تعالىٰ عن الجسميَّة ولوازمها من التَّحيُّز ، والجلوس علىٰ العرش ، والحركة ، والنُّزول ، والمجيء ، والإتيان ...وأنَّ ما خطر بالبال فالله بخلافه ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ: ١١] ...

وأكَّد الإمام الشَّافعي رضي الله عنه – أيضاً – علىٰ الحقائق السَّابقة ، فقال : " آمنت بلا تشبيه ، وصدَّقت بلا تمثيل ، واتَّهمت نفسي في الإدراك ، وأمسكت عن الخوض فيه كلَّ الإمساك " (٦) .

---

(١) انظر : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٧٢-٧٣) .

(٢) انظر : اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدِّين (٤/ ٤١٣) .

(٣) انظر : شرح الفقه الأكبر (ص٨٩-٩٠) .

(٤) انظر : الأشباه والنظائر (ص٤٨٨) .

(٥) انظر : تشنيف المسامع بجمع الجوامع لتاج الدِّين السبكي (٤/ ٦٤٣) ،.

(٦) انظر : البرهان المؤيد (ص١٨) .

ومن المعلوم أنَّ علماء الأمَّة أجمعوا على تنزيه الله تعالى عن الجسميَّة وسائر المحدثات ، وأكَّدوا على أنَّه لم يأت في الشَّريعة ذلك ، فبطل ... ولذا لا يجوز أن يُسمَّى الله تعالى بالجسم ...

فقد جاء في عقيدة الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١هـ) ، رواية أبي بكر الخلَّال (٣١١هـ) : " وَأنكر - يعني أحمد بن حنبل - على من يَقُول بالجسم ، وَقَالَ : إِنَّ الْأَسْمَاء مَأْخُوذَة بالشَّريعة واللغة ، وَأهل اللُّغَة وضعُوا هَذَا الاسم على كلِّ ذِي طول ، وَعرض ، وسُمك ، وتركيب ، وَصُورَة ، وتأليف ، وَالله تَعَالَى خَارج عَن ذَلِك كُله ، فَلم يجز أَن يُسمَّى جسماً ، لِخُرُوجِهِ عَن معنى الجسميَّة ، وَلم يجِئ فِي الشَّرِيعَة ذَلِك ، فَبَطل " (١) .

ونقل الإمام عبد الواحد التَّميمي (٤١٠هـ) عن الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١هـ) أنَّه كان يعتقد عقيدة التَّفويض التي كان عليها جمهور السَّلف الذين فوَّضوا معنى الألفاظ المُضافة إلى الله تعالى ، وأنَّه : " كان يقول : إنَّ لله تعالى يدين ، وهما صفة له في ذاته ، ليستا بجارحتين ، وليستا بمركَّبتين ، ولا جسم ، ولا من جنس الأجسام ، ولا من جنس المحدود ، والتَّركيب ، ولا الأبعاض والجوارح ، ولا يُقاس على ذلك ، ولا له مرفق ، ولا عضد ، ولا فيما يقتضي ذلك من إطلاق قولهم : يد ، إلَّا ما نطق القرآن به أو صحَّت عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السُّنَّة فيه ... " (٢) .

وقال الإمام أبو نعيم الأصبهاني (٤٣٠هـ) في ترجمته لأبي الفيض ذُو النُّونِ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْمِصْرِيُّ (٢٤٥هـ) من نظمه :

شُكْراً لِمَا خَصَّنَا مِنْ فَضْلِ نِعْمَتِهِ ... مِنَ الْهُدَى وَلَطِيفِ الصُّنْعِ وَالرَّفَدِ
رَبٌّ تَعَالَى فَلَا شَيْءَ يُحِيطُ بِهِ ... وَهُوَ الْمُحِيطُ بِنَا فِي كُلِّ مُرْتَصَدِ
لَا الْأَيْنَ وَالْحَيْثُ وَالْكَيْفُ يُدْرِكُهُ ... وَلَا يُحَدُّ بِمِقْدَارٍ وَلَا أَمَدِ
وَكَيْفَ يُدْرِكُهُ حَدٌّ وَلَمْ تَرَهُ عَيْنٌ ... وَلَيْسَ لَهُ فِي الْمِثْلِ مِنْ أَحَدِ
أَمْ كَيْفَ يَبْلُغُهُ وَهْمٌ بِلَا شَبَهٍ ... وَقَدْ تَعَالَى عَنِ الْأَشْبَاهِ وَالْوَلَدِ (٣)

وقال الإمام محمَّد بن جرير الطَّبري (٣١٠هـ) : " القول في الدّلالة على أنَّ الله عزَّ وجلَّ القديم الأوَّل قبل شيء ، وأنَّه هو المحدث كلَّ شيء بقدرته تعالى ذكره .

---

(١) انظر : العقيدة رواية أبي بكر الخلال (ص١١١) ، وانظر : اعتقاد الإمام ابن حنبل (ص٢٩٨) .

(٢) انظر : اعتقاد الإمام ابن حنبل (ص٢٩٤) .

(٣) انظر : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩/ ٣٨٨) .

فمن الدِّلالة علىٰ ذلك : أنَّه لا شيء في العالم مشاهد إلَّا جسم أو قائم بجسم ، وأنَّه لا جسم إلَّا مفترق أو مجتمع ، وأنَّه لا مفترق منه إلَّا وهو موهومٌ فيه الائتلاف إلىٰ غيره من أشكاله ، ولا مجتمع منه إلَّا وهو موهومٌ فيه الافتراق ، وأنَّه متىٰ عدم أحدهما عدم الآخر معه ، وأنَّه إذا اجتمع الجزءان منه بعد الافتراق ، فمعلوم أنَّ اجتماعهما حادث فيهما بعد أن لم يكن ، وأنَّ الافتراق إذا حدث فيهما بعد الاجتماع فمعلوم أنَّ الافتراق فيهما حادث بعد أن لم يكن .

وإذا كان الأمر فيما في العالم من شيء كذلك ، وكان حكم ما لم يشاهد وما هو من جنس ما شاهدنا في معنىٰ جسم أو قائم بجسم ، وكان ما لم يخل من الحدث لا شكَّ أنَّه محدث بتأليف مؤلِّف له إن كان مجتمعاً ، وتفريق مفرق له إن كان مفترقاً ، وكان معلوماً بذلك أنَّ جامع ذلك إن كان مجتمعاً ، ومفرقه إن كان مفترقاً ، من لا يشبهه ومن لا يجوز عليه الاجتماع والافتراق ، وهو الواحد القادر الجامع بين المختلفات الذي لا يشبهه شيء ، وهو علىٰ كلِّ شيء قدير .

فتبيَّن بما وصفنا أنَّ بارئ الأشياء ومحدثها كان قبل كلِّ شيء ، وأنَّ الليل والنَّهار والزَّمان والسَّاعات محدثات ، وأنَّ محدثها الذي يدبِّرها ويصرِّفها قبلها إذ كان من المحال أن يكون شيء يحدث شيئاً إلَّا ومحدثه قبله ، وأنَّ في قوله تعالىٰ ذكره : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ – ٢٠] ، لأبلغ الحُجج ، وأدلّ الدَّلائل لمن فكَّر بعقلٍ ، واعتبر بفهمٍ علىٰ قِدم بارئها ، وحدوث كلّ ما جانسها ، وأنَّ لها خالقاً لا يشبهها .

وذلك أنَّ كلّ ما ذكر ربُّنا تبارك وتعالىٰ في هذه الآية من الجبال والأرض والإبل ، فإنَّ ابن آدم يعالجه ويدبِّره بتحويل وتصريف ، وحفر ونحت وهدم ، غير ممتنع عليه شيء من ذلك ، ثمَّ إنَّ ابن آدم مع ذلك غير قادر علىٰ إيجاد شيء من ذلك من غير أصل ، فمعلوم أنَّ العاجز عن إيجاد ذلك لم يُحْدِث نفسه ، وأنَّ الذي هو غير ممتنع ممَّن أراد تصريفه وتقليبه لم يوجدْه من هو مثله ، ولا هو أوجد نفسه ، وأنَّ الذي أنشأه وأوجد عينه هو الذي لا يعجزه شيء أراده ، ولا يمتنع عليه إحداث شيء شاء إحداثه ، وهو الله الواحد القهَّار .

فإن قال قائل : فما تنكر أن تكون الأشياء التي ذكرت من فعل قديمين ؟

قيل : أنكرنا ذلك لوجودنا اتِّصال التَّدبير وتمام الخلق ، فقلنا : لو كان المدبِّر اثنين لم يَخْلُوَا من اتِّفاق أو اختلاف ، فإن كانا متَّفقين فمعناهما واحد ، وإنَّما جعل الواحد اثنين من قال بالاثنين ، وإن كانا مختلفين كان محالاً وجود الخلق علىٰ التَّمام والتَّدبير علىٰ الاتِّصال ، لأنَّ المختلفين ، فعلُ كلّ واحد منهما خلاف فعل

صاحبه ، بأنَّ أحدهما إذا أحيا أمات الآخر ، وإذا أوجد أحدهما أفنىٰ الآخر ، فكان محالاً وجود شيء من الخلق علىٰ ما وجد عليه من التَّمام والاتصال .

وفي قول الله عزَّ وجلَّ ذكره :﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢] ، وقوله عزَّ وجلَّ :﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١ – ٩٢] ، أبلغ حجَّة ، وأوجز بيان ، وأدلُّ دليل علىٰ بُطول ما قاله المُبطلون من أهل الشِّرك بالله ، وذلك أنَّ السَّموات والأرض لو كان فيهما إله غير الله ، لم يخلُ أمرهما ممَّا وصفت من اتِّفاق واختلاف . وفي القول باتِّفاقهما فساد القول بالتَّثنية ، وإقرار بالتَّوحيد ، وإحالة في الكلام بأنَّ قائله سمَّىٰ الواحد اثنين . وفي القول باختلافهما القول بفساد السَّموات والأرض ، كما قال ربُّنا جلَّ وعزَّ : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢] ، لأنَّ أحدهما كان إذا أحدث شيئاً وخلقه كان من شأن الآخر إعدامه وإبطاله ، وذلك أنَّ كل مختلفين فأفعالُهما مختلفة ، كالنَّار التي تسخِّن ، والثَّلج الذي يبرِّد ما أسخنته النَّار .

وأخرىٰ ، أنَّ ذلك لو كان كما قاله المشركون بالله ، لم يخلُ كلّ واحد من الاثنين اللذين أثبتوهما قديمين من أن يكونا قويَّين أو عاجزين ، فإن كانا عاجزين ، فالعاجزُ مقهور وغير كائن إلهاً . وإن كانا قويين فإنَّ كلّ واحد منهما بعجزه عن صاحبه عاجز ، والعاجز لا يكون إلهاً . وإن كان كلّ واحد منهما قويَّاً علىٰ صاحبه ، فهو بقوَّة صاحبه عليه عاجز ، تعالىٰ ذكره عمَّا يشرك المشركون !!

فتبيَّن إذاً أنَّ القديم بارىٔ الأشياء وصانعها هو الواحد الذي كان قبل كلِّ شيء ، وهو الكائن بعد كلِّ شيء ، والأوَّل قبل كلِّ شيء ، والآخر بعد كلِّ شيء ، وأنَّه كان ولا وقت ولا زمان ، ولا ليل ولا نهار ، ولا ظلمة ولا نور ، إلَّا نور وجهه الكريم . ولا سماء ولا أرض ، ولا شمس ولا قمر ولا نجوم ، وأنَّ كل شيء سواه محدَث مدبَّر مصنوع ، انفرد بخلق جميعه بغير شريك ولا مُعين ولا ظهير ، سبحانه من قادر قاهر " (١) .

فالإمام الطَّبري شرح في كلامه السَّابق دليل " التَّمانع " ، فجلَّاه بأوضح عبارة ، ووضَّح أنَّ صانع العالم واحد ، وأنَّ العالم لو كان له صانعان لثبت بينهما تمانع ، وهو دليل حدوثهما أو حدوث أحدهما ؛ فلو أراد أحدهما أن يخلق حياة في شخص ، وأراد الآخرُ أن يخلق فيه موتاً ، فإذا تمَّ مرادهما معاً فهو محال؛ لاجتماع الضدِّين في محلٍّ واحد، وإذا لم يحصل مرادهما فهو دليلُ عجزهما معاً ، ولو تمَّ مراد أحدهما دون الآخر فهو

---

(١) انظر : تاريخ الأمم والملوك (١/ ٢٥-٢٦) .

دليل على عجز من لم يُنفِذ إرادته، وبالتَّالي فإنَّ العاجز لا يصلح أن يكون إلهاً ... وهذا هو دليل التَّمانع المأخوذ من قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ﴾ [الأنبياء: ٢٢] ...

ولخطورة نسبة الجسميَّة إلى الله تعالى ، فقد شدَّد العلماء في ذلك حتى حكم بعضهم بكفر مُعتقِدِه ... فقد حكم الإمام أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه (٣٢٤هـ) بكفر من اعتقد بأنَّ الله جسم ، وأنَّه غير عارف بربِّه ، فقال : " من اعتقد أنَّ الله جسم ، فهو غير عارف بربِّه ، وإنَّه كافر به " (١) .

وأضاف بأنَّ أهل السُّنَّة يعتقدون بأنَّ الله تعالى لا يُشبه شيئاً من المخلوقات ، فقال : " وقال أهل السُّنَّة وأصحاب الحديث : ليس بجسم ولا يشبه الأشياء " (٢) .

وفي كلامه على مجيء الله تعالى يوم القيامة ، أكَّد الإمام الأشعري على أنَّ مجيء الله ليس بنُقلة ولا بحركة من مكان إلى آخر ، لأنَّ الله تعالى ليس بجسم ولا جوهر ، وصرَّح بأنَّ الأمَّة مُجمعة على ذلك ، فقال : " وأجمعوا على أنَّه عزَّ وجلَّ يجيء يوم القيامة والملك صفَّاً صفَّاً لعرض الأُمم وحسابها وعقابها وثوابها ، فيغفر لمن يشاء من المذنبين ، ويعذِّب منهم من يشاء ، كما قال ، وليس مجيئه حركة ولا زوالاً ، وإنَّما يكون المجيء حركة وزوالاً إذا كان الجائي جسماً أو جوهراً ، فإذا ثبت أنَّه عزَّ وجلَّ ليس بجسم ولا جوهر ، لم يجب أن يكون مجيئه نُقلة أو حركة ، ألا ترى أنَّهم لا يريدون بقولهم : جاءت زيداً الحُمَّى ، أنَّها تنقَّلت إليه أو تحرَّكت من مكان كانت فيه ، إذ لم تكن جسماً ولا جوهراً ، وإنَّما مجيئها إليه وجودها به ، وأنَّه عزَّ وجلَّ ينزل إلى السَّماء الدُّنيا ، كما روي عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وليس نزوله نُقلة ، لأنَّه ليس بجسم ولا جوهر " (٣) .

وقال إمام المدرسة الماتريديَّة التي يتبعها غالبيَّة أتباع المذهب الحنفي في العقيدة الإمام أبو منصور الماتريدي (٣٣٣هـ) : " مَسْأَلَة : لَا يجوز إِطْلَاق لفظ الْجِسْم على الله تَعَالَى " (٤) .

وقال أيضاً : " ... وَأَمَّا الْجِسْم فَهُوَ اسْم لكلِّ مَحْدُود ، وَالشَّيْء إِثْبَات لَا غير ، وَفِي وجود الْعَالم على مَا عَلَيْهِ دَلِيل الْإِثْبَات ، لذَلِك قيل بالشَّيْء ، وَفِيه – إِذْ هُوَ متناه لَا من حَيْثُ الشَّيئيَّة بل من حَيْثُ الْحَدّ – دَلِيل نفي الْحَدِّ عَن الله جلّ ثَنَاؤُهُ . إِلَّا أَن يُرَاد بِالْحَدِّ الوحدانيَّة والرُّبوبيَّة ، فَهُوَ كَذَلِك ، وحرف الْحَدِّ سَاقِط لأَنَّه يغلب

(١) انظر : إشارات المرام من عبارات الإمام (ص١٦٨) .

(٢) انظر : مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين (ص٢١١) .

(٣) انظر : أصول أهل السنَّة المسمَّاة برسالة أهل الثغر (ص٧٠) .

(٤) انظر : التَّوحيد (ص٣٨) .

فِي الدّلَالَة علىٰ نِهَايَة الشَّيء من طَرِيق الْعرض وَنَحْو ذَلِك مِمَّا يتعالىٰ عَن ذَلِك ، وَذَلِكَ معنىٰ الْجِسْم فِي الشَّاهِد . وَفِيه أَيْضاً إِيجَاب الْجِهَات الْمُحْتَمل كلّ جِهَة أَن يكون أطول مِنْهَا وَأعْرض وأقصر ، فَلذَلِك بَطل القَوْل بذلك ، وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللهَّ .

ثمَّ الهويَّة فِي الشَّاهِد كِنَايَة عَن الْوُجُود ، وتأويله نفي الْعَدَم عَنهُ ، وَالله تَعَالَىٰ لم يزل وَلَا يزَال بِلَا تغيُّر وَلَا زَوَال وَلَا انْتِقَال من حَال إِلىٰ حَال ، وَلَا تحرّك وَلَا قَرَار ، إِذْ هُوَ وصف اخْتِلَاف الْأَحْوَال ، وَمن تخْتَلف الْأَحْوَال عَلَيْهِ فَهُوَ غير مفارق لَهَا ، وَمن لَا يُفَارق الْأَحْوَال وَهُنَّ أَحْدَاث ، فَيجب بهَا الْوَصْف بالإحداث ، وَفِي ذَلِك سُقُوط الوحدانيَّة ، ثمَّ الْقِدَم ، ثمَّ جرْي لتدبير الْغَيْر عَلَيْهِ ، إِذْ حَال من الْأَحْوَال لَو كَانَت لذاته لم يجز تغيّرها مَا دَامَت ذَاته ، فَثَبت بذلك الْغَيْر لتغيُّر الْأَحْوَال عَلَيْهِ ، وبنقله من حَال إِلىٰ حَال ، وَذَلِكَ دَلِيل تعاليه عَن الْوَصْف بِالْمَكَانِ ، إِذْ قد ثَبت أَن كَانَ وَلَا مَكَان ، وَلَيْسَ فِي الْإِضَافَة إِلىٰ أَنَّه علىٰ الْعَرْش اسْتَوىٰ تثبيت مَكَان ، كَمَا لم يكن فِي قَوْله : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] ، وَقَوله : ﴿يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] ، وَقَوله : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ [الواقعة: ٨٥] . ذَلِك علىٰ أَنَّ القَوْل بِالْمَكَانِ لَيْسَ من نوع التَّعْظِيم والتَّبجيل ، بل الْأَمْكِنَة إِنَّمَا شرُفت بِهِ وتفاوتت أقدارها بتفضيله مَكَاناً علىٰ مَكَان يَجعله مَخْصُوصاً لأخيار خلقه أَو لما جعل لعبادته وتعظيمه فِيه .

فَأَمَّا أَن يكون أحد تعلو رتبته بِالْمَكَانِ من مُلُوك الأَرْض أَو الأخيار ، فَلَيْسَ بِهِ ، فَكيف بِالْملكِ الْجَبَّار الَّذِي مَا ارْتَفع قدر مَكَان ، وَلَا جلَّ خطره إِلَّا بِهِ ، وَإِذا كَانَ كَذَلِك بَطل أَن يكون فِي الْإِضَافَة تَعْظِيمه ، ثمَّ يكون فِيمَا بعد ذَلِك لِلْحَاجة ، وَهُوَ يتعالىٰ عَنْهَا فَلذَلِك لم يجب بقوله : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ، معنىٰ الْكَوْن فِي الْمَكَان ، إِذْ ذَلِك الْحَرْف يعبَّر بِهِ عَن الْعُلُوّ والجلال ، ومحال مثله لَهُ بخلقه ، فَثَبت أَنَّ ذَلِك من الْوَجْه الَّذِي يسْتَحقّهُ بِذَاتِهِ من الْعُلُوّ والرفعة وَمَا هُوَ بِذَاتِهِ عَلَيْهِ ، فَهُوَ كَانَ كَذَلِك وَلَا خلق ، لم يجز الْوَصْف لَهُ بالخلق ، وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللهَّ .

مَعَ مَا يكون ذَلِك الإعتقاد عَن علم تقدم بِحَال من يُضَاف إِلَيْهِ ذَلِك فِي الشَّاهِد قبل الْإِضَافَة من الإحتمال ، ثمَّ الله سُبْحَانَهُ كَانَ وَلَا مَكَان ، وعَلىٰ ذَلِك اعْتِقَاد الْأَنَام لم يجز أَن يتَغَيَّر الْفَهم عَن الْإِضَافَة عَمَّا كَانَ من قبل ، وَإِلَيْهِ ينْصَرف الْفَهم عَن الْإِضَافَة إِلىٰ خلقه ، علىٰ أَنَّ تَخْصِيص إضافات الْأَشْيَاء إِلىٰ الله فِي الشَّاهِد يخرج مخرج التَّعْظِيم لَهَا بِمَا جعل فِيهَا من الْأُمُور المرضيَّة وَالْأَحْوَال المحمـودة ، فَمَا بَال الْعَرْش من بَين ذَلِك ، وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللهَّ .

وعَلىٰ ذَلِك يفْسد قَول من يصفه بِكُلِّ مَكَان ، إِذْ لَا فرق بَين مَكَان وَاحِد مَخْصُوص يُضَاف إِلَيْهِ وَبَين الْجُمْلَة ، بل الْفَرد فِي بَيَان تَعْظِيمه أولىٰ ، إِذْ فِي ذَلِك تَخْصِيص ذَلِك الشَّيء بِالذِّكر ، وَفِي الذِّكر تشريف وتكريم ، فَيرجع إِلىٰ ذكر علوّ ذَلِك الشَّيء ، وَفِي الْإِرْسَال وَجمع الْكلّ إِلىٰ تَخْصِيصه وَحَقِيقَته صفة الله كَمَا يُقَال : ربّ كلِّ شَيْء ، وإله كلّ شَيْء ، علىٰ تَعْظِيم الرَّبِّ وتبجيله ، وَإِذا قيل : ربّ مُحَمَّد ، وإله إِبْرَاهِيم ، فَإِنَّمَا يقْصد قصد تشريفهما وتعظيمهما ، فَقِيَاس ذَلِك أَن تكون الْإِضَافَة إِلىٰ الْعَرْش توجب تَعْظِيم الْعَرْش وتكريمه وَإِلَىٰ كل الْأَمْكِنَة توجب وصف الله بهَا ، وَذَلِكَ قَبِيح ، إِذْ لم يكن يُوصف بِهِ فِي الْأَزَل ، وَلَا يُوصف شَيْء بِالْقربِ إِلىٰ الله من طَرِيق الْمسَافَة والمساحة ، وَلَا هُوَ بِالْقربِ إِلىٰ شَيْء من ذَلِك الْوَجْه ، إِذْ ذَلِك جِهَة الْحُدُود وَالتَّقْدِير بالأمكنة ، وَقد كَانَ وَلَا مَكَان فَهُوَ علىٰ مَا كَانَ يتعالىٰ عَن الزَّمَان وَالْمَكَان ، إِذْ إِلَيْهِمَا ترجع حُدُود الْأَشْيَاء ونهايتها ، وَلَا قُــــوَّة إِلَّا بِاللهَّ " (١) .

فالإمام الماتريدي في كلامه السّابق نزَّه الله عن الجسميَّة ، كما نزَّهه سبحانه عن الكون في المكان ، وأنَّه تعالىٰ كان ولا مكان ، وأنَّ الكون في المكان لا يمنح المتمكِّن فيه التَّعْظِيم والتَّبجيل ، وأنَّ الْأَمْكِنَة إنَّما تشرُفُ بتفضيل الله تعالىٰ لمَكَان علىٰ مَكَان ، وأنَّ حرَّاس ملوك الدُّنيا قد يكونون في مكان أعلىٰ من مكان الملوك ، ومع ذلك لا ترتفع مكانتهم بالمكان الذي يكونون فيه ... وختم كلامه بالقول بأنَّ الله تعالىٰ لَا يُوصف بِالْقربِ بطَرِيق الْمسَافَة والمساحة ، لأنَّ ذلك كلّه من أمارات الحدث ...

وقال الإمام أبو منصور الماتريدي أيضاً : " ... وفي الشَّاهد الإتيان في العرض : ظهوره ، وفي الجسم : نقله من مكان إلىٰ مكان ، وهو – جلَّ ذكره – جلَّ أن يوصف بجسم أو عرض . كذلك إتيانه لا يشبه إتيان الأجسام والأعراض ، ويكون إتيان لا يعرف كيفيَّته ... " (٢) .

وقال الإمام ابن حبَّان (٣٥٤هـ) : " الْحَمد لله الَّذِي لَيْسَ لَهُ حدٌّ مَحْدُود فيحوىٰ ، وَلَا لَهُ أجل مَعْدُود فيفنىٰ ، وَلَا يُحِيط بِهِ جَوَامِع الْمَكَان ، وَلَا يشْتَمل عَلَيْهِ تَوَاتر الزَّمَان ، وَلَا يدْرك نعْمَته بالشَّواهد والحواس ، وَلَا يُقَاس صِفَات ذَاته بِالنَّاسِ ، تعاظم قدْره عَن مبالغ نعت الواصفين ، وَجلَّ وَصفه عَن إِدْرَاك غَايَة النَّاطقين " (٣) .

(١) انظر : التَّوحيد (ص١٠٤-١٠٦) .

(٢) انظر : تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) (٢/ ١٠٥) .

(٣) انظر : الثقات (١/ ١) .

وبمناسبة الكلام عن ابن حبَّان نذكِّر بما قاله الإمام السُّبكي في ترجمة ابن حبَّان (٣٥٤هـ) ، قال : " ... فَاعْلَم أَنَّ أَبَا إِسْمَاعِيل عبد الله بن محمَّد الهروي (٤٨١هـ) الذي تسمِّيه المجسِّمة : شيخ الْإِسْلَام ، قَالَ : سَأَلت يحيى بن عمَّار عَن ابْن حبَّان ، قلت : رَأَيْته ؟ قَالَ : وَكَيف لم أره ، وَنحن أخرجناه من سجستان ، كَانَ لَهُ علم كثير ، وَلم يكن لَهُ كَبِير دين ، قدم علينا ، فَأنْكر الْحَدَّ لله !!! فأخرجناه من سجستان ، انْتهى .

قلت : – السُّبكي – انْظُر مَا أَجْهَل هَذَا الْجَــــارِح ، وليت شعرى من الْمَجْرُوح : مُثبت الْحَدِّ لله أَو نافيه ؟ " (١) .

ومن المعروف أنَّ الهرويُّ سابق الذِّكر ، حنبليٌّ متعصِّب للحنابلة ، عدوٌّ لدودٌ للإمام الأشعري والأشاعرة ، ، وهو القائل عن الأشاعرة : " وقد شاع في المسلمين أنَّ رأسهم علي بن إسماعيل الأشعري كان لا يستنجي ولا يتوضَّأ ولا يصلِّي " (٢) .

وعلى كلِّ حال فقد علَّق الإمام الذَّهبي على كلام الهروي المتعلِّق بالحدِّ لله تعالى ، فقال : " إنكاره الحدّ وإثباتكم للحدِّ نوع من فضول الكلام ، والسُّكوت عن الطَّرفين أولى ، إذ لم يأت نصٌّ بنفي ذلك ولا إثباته ، والله تعالى ليس كمثله شيء ، فمن أثبته قال له خصمه : جعلت لله حدًّاً برأيك ، ولا نصَّ معك بالحدِّ ، والمحدود مخلوق ، تعالى الله عن ذلك ، وقال هو للنَّافي : ساويت ربَّك بالشَّيء المعدوم ، إذ المعدوم لا حدَّ له ، فمن نزَّه الله وسكت سلم وتابع السَّلف " (٣) .

وكلام الذَّهبي في التَّعقُّب فيه دَخَنٌ ... ولذلك تعقَّبه الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) ، فقال : " وقوله : قال له النَّافي : ساويت ربَّك بالشَّيء المعدوم إذ المعدوم لا حدَّ له نازل ، فإنَّا لا نسلم أنَّ القول بعدم الحدِّ يُفضي إلى مساواته بالمعدوم بعد تحقُّق وجوده ، وقوله : بدت من بن حبَّان هفوة طعنوا فيه لها إن أراد القصَّة الأولى التي صدَّر بها كلامه فليست هذه بهفوة ، والحقُّ أنَّ الحقَّ مع بن حبَّان فيها ، وإن أراد الثَّانية فقد اعتذر هو عنها أوَّلاً ، فكيف يحكم عليه بأنَّه هفا ، ماذا إلَّا تعصُّب زائد على المتأوِّلين ، وابن حبَّان قد كان صاحب فنون وذكاء مفرط ، وحفظ واسع إلى الغاية ، رحمه الله " (٤) .

---

(١) انظر : طبقات الشافعية الكبرى (٣/ ١٣٢) .

(٢) انظر : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٤/ ٤١٥) .

(٣) انظر : ميزان الاعتدال في نقد الرجال (٣/ ٥٠٧) .

(٤) انظر : لسان الميزان (٥/ ١١٤) .

نعم ، فالحقُّ أنَّ الحقَّ مع بن حبَّان في المسألة ... فالله تعالىٰ منزَّه عن الحدِّ ، لأنَّه تعالىٰ لو كان جَوْهَراً فَرداً لكانَ الجوْهرُ الفردُ مِثْلاً له ، ولو كانَ زائداً علىٰ ذلك للزم كونه مؤلَّفاً مُركَّباً ، والمُركَّب مُحتاجٌ إلىٰ من يُركّبه ، والاحتياج إلىٰ الغير دليل الحدوث ... ومع هذا كلِّه ، فقد وصل الأمر بابن تيمية (٧٢٨هـ) إلىٰ تكفير من لم يؤمن بالحدِّ لله تعالىٰ ، والعياذ بالله ... قال ابن تيمية : " ... فهذا كلُّه وما أشبهه شواهد ودلائل علىٰ الحدِّ ، ومن لم يعترف به فقد كفر بتنزيل الله ، وجحد آيات الله " (١) ...

فَهَذِهِ هي عقيدتهم ، التي أوصلتهم إلىٰ تكفير من سواهم ممَّن هو علىٰ غير منهجهم وطريقتهم وعقيدتهم ، فهم لا يرون علىٰ الإسلام إلَّا هم ، ويرون – أنفسهم كما قال السُّبكي – : " أنَّهم أهل السُّنَّة ، وَلَو عُدُّوا عدداً لما بلغ علماؤهم وَلَا عَالم فيهم عَلَىٰ الْحَقِيقَة مبلغاً يُعْتَبر ، ويكفِّرون غَالب عُلَمَاء الْأمَّة !!! ثمَّ يعتزون إلىٰ الإِمَام أَحْمد بن حَنْبَل رَضِي الله عَنهُ وَهُوَ مِنْهُم برِيء !!! وَلكنَّه كَمَا قَالَ بعض العارفين ورأيته بِخَط الشَّيخ تقي الدِّين ابْن الصَّلاح : إماماني ابتلاهما الله بأصحابهما ، وهما بريَّان مِنْهُم : أَحْمد ابْن حَنْبَل ابْتُلِيَ بالمُجَسِّمَة ، وجعفر الصَّادِق ابْتُلِيَ بالرَّافضة " (٢) .

واستغلُّوا في تمرير عقائدهم جهلَ الكثيرين ... لأنَّهم لا ينبُتون إلَّا حيث يكون الجهل ، فقد " أوهموا النَّاس أنَّهم يمثِّلون السَّلف الصَّالح من الصَّحابة ومن بعدهم من التَّابعين لهم بإحسان ، والتَّاريخ يشهد ، والعلم بكتاب الله ينادي أنَّهم ما مثَّلوا إلَّا سلف سوء من أشياخ المشبِّهة وأئمَّة المجسِّمة ، الذين يفسِّرون الكتاب بأهوائهم ، ويحملون السُّنَّة علىٰ آرائهم ، ويتقوَّلون علىٰ معاني كتاب الله ، ويضعون علىٰ رسول الله ، ويأخذون بالضَّعيف إذا وافق منهم هوىٰ ، ويردُّون الصَّحيح أو يشكِّكون في صحَّته إذا كان حجَّة عليهم " (٣) ...

وقال الإمام أبو بكر الجصَّاص (٣٧٠هـ) : " ... وأنَّه ليس بجسم ، ولا مشبه الأجسام ، إذ الأجسام لا يمكنها فعل ذلك ، ولا ترومه ، ولا تطمع فيه " .

وقال أيضاً : " ... لِأَنَّ اللهَّ تَعَالَىٰ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْإِتْيَانُ وَلَا الْمَجِيءُ وَلَا الِانْتِقَالُ وَلَا الزَّوَالُ ، لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ ، وَدَلَالَاتِ الْحَدَثِ ، وَقَالَ تَعَالَىٰ فِي آيَةٍ مُحْكَمَةٍ : ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] ، وَجَعَلَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا شَهِدَهُ مِنْ حركات النُّجوم وانتقالها دليلاً علىٰ حدثها ،

---

(١) انظر : درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٥٨) .

(٢) انظر : طبقات الشافعية الكبرىٰ (٢/ ١٧) .

(٣) انظر : فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان (ص١١) .

وَاحْتَجَّ بِهِ عَلَىٰ قَوْمِهِ ، فَقَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣] ، يَعْنِي فِي حَدَثِ الْكَوَاكِبِ وَالْأَجْسَامِ ، تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ قَوْلِ الْمُشَبِّهَةِ عُلُوّاً كَبِيراً " .

وقال أيضاً :" ... لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْقُرْبُ وَالْبُعْدُ بِالْمَسَافَةِ إِذْ هُوَ مِنْ صِفَةِ الْأَجْسَامِ " .

وقال أيضاً : " وَيَدُلُّ وُقُوفُ السَّموات وَالْأَرْضِ مِنْ غَيْرِ عَمَدٍ أَنَّ مُمْسِكَهَا لَا يُشْبِهُهَا ، لِاسْتِحَالَةِ وُقُوفِهَا مِنْ غَيْرِ عَمَدٍ مِنْ جِسْمٍ مِثْلِهَا إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الدَّلَائِلِ الْمُضَمَّنَةِ بِهَا ، ودلالة الليل والنَّهار علىٰ الله تعالىٰ : أنَّ الليل والنَّهار محدثان لوجود كلٍّ واحد منهما بعد أن لم يكن موجوداً ، ومعلوم أنَّ الأجسام لا تقدر علىٰ إيجادها ، ولا علىٰ الزِّيادة والنُّقصان فيها ، وقد اقتضيا محدثاً من حيث كانا محدثين ، لاستحالة وجود حادث لا محدث له ، فوجب أنَّ محدثهما ليس بجسم ، ولا مشبه للأجسام ، لوجهين : أحدهما : أنَّ الأجسام لا تقدر علىٰ إحداث مثلها ، والثَّاني : المشبه للجسم يجري عليه ما يجري عليه من حكم الحدوث ، فلو كان فاعلها حادثاً لاحتاج إلىٰ محدث ، ثمَّ كذلك يحتاج الثَّاني إلىٰ الثَّالث إلىٰ ما لا نهاية له ، وذلك محال ، فلا بدَّ من إثبات صانع قديم لا يشبه الأجسام ، والله أعلم " (١) .

ففي كلامه السَّابق أكَّد الإمام الجصَّاص علىٰ تنزيه الله تعالىٰ عن الجسميَّة ، وأنَّه تعالىٰ منزَّه عن صفات الأجسام ودلالات الحدث من الحركة والانتقال والزَّوال والبُعد والقُرب بالمسافة ...

وجاء في الرِّسالة القشيريَّة : " وسمعت الإِمَام أبا بَكْر بْن فورك (٤٤٩هـ) رحمه اللهَّ تعالىٰ يَقُول : سمعت أبا عُثْمَان المغربي (٣٧٣هـ) يَقُول : كنتُ أعتقد شَيْئاً من حَدِيث الجهة ، فلمَّا قدمت بغداد زال ذَلِكَ عَن قلبي ، فكتبت إلىٰ أَصْحَابنا بمكَّة : إنِّي أسلمت الآن إسلاماً جديداً " (٢) .

وقال الإمام أبو بكر الكلاباذي البخاري الحنفي (٣٨٠هـ) : " اجْتمعت الصُّوفِيَّة علىٰ : أَنَّ الله وَاحِد أحد ، فَرد صَمد ، قديم عَالم ، قَادر حَيّ ، سميع بَصِير ، عَزِيز عَظِيم ، جليل كَبِير ، جواد رؤوف ، متكبِّر جَبَّار ، بَاقٍ أوَّل ، إِلَه سيِّد ، مَالك ربٌّ ، رَحْمَن رَحِيم ، مُرِيد حَكِيم ، مُتَكَلِّم خَالق زراق ، مَوْصُوف بِكُل مَا وصف بِهِ نَفسه من صِفَاته ، مُسَمَّىٰ بِكُل مَا سمَّىٰ بِهِ نَفسه ، لم يزل قَدِيماً بأسمائه وَصِفَاته ، غير مشبه لِلْخلقِ بِوَجْه من الْوُجُوه ، لَا تشبه ذَاته الذَّوات ، وَلَا صفته الصِّفَات ، لَا يجْرِي عَلَيْهِ شيء من سمات المخلوقين الدَّالَّة علىٰ حَدثهمْ ، لم يزل سَابِقاً مُتَقَدماً للمحدثات ، مَوْجُوداً قبل كلِّ شيء ، لَا قديم غَيره ، وَلَا إِلَه سواهُ ، لَيْسَ بجسم ، وَلَا شبح ، وَلَا صُورَة ، وَلَا شخص ، وَلَا جَوْهَر ، وَلَا عرض ، لَا اجْتِمَاع لَهُ وَلَا افْتِرَاق ، لَا

(١) انظر : أحكام القرآن (١/ ١٢٨) ، (١/ ٣٩٧) ، (٢/ ٣٣٣) ، (٢/ ٣٣٥) .

(٢) انظر : الرسالة القشيرية (١/ ٢٥) .

يَتَحَرَّك وَلَا يسكن ، وَلَا ينقص وَلَا يزْدَاد ، لَيْسَ بِذِي أبعاض وَلَا أَجزَاء ، وَلَا جوارح وَلَا أَعْضَاء ، وَلَا بِذِي جِهَات وَلَا أَمَاكِن ، لَا تجْرِي عَلَيْهِ الْآفَات ، وَلَا تأخذه السِّنات ، وَلَا تداوله الْأَوْقَات ، وَلَا تعينه الإشارات ، لَا يحويه مَكَان ، وَلَا يجْرِي عليه زمَان ، لَا تجوز عَلَيْهِ المماسَّة ، وَلَا الْعُزْلَة ، وَلَا الْحُلُول فِي الْأَمَاكِن ، لَا تحيط بِهِ الأفكار ، وَلَا تحجبه الأستار ، وَلَا تُدْرِكهُ الْأَبْصَار " (١) .

وقال الإمام الخطَّابي (٣٨٨هـ) : " ... وهذه صفة الأجسام والأشباح ، فأمَّا نزول من لا تستولي عليه صفات الأجسام ، فإنَّ هذه المعاني غير متوهَّمة فيه ، وإنَّما هو خبر عن قدرته ورأفته بعباده ، وعطفه عليهم ، واستجابته دعاءهم ، ومغفرته لهم ، يفعل ما يشاء ، لا يتوجَّه علىٰ صفاته كيفيَّة ، ولا علىٰ أفعاله لميَّة ، سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] (٢) .

فالحافظ اللغوي الخطَّابي أوَّل النُّزول المُضاف إلىٰ الله تعالىٰ بأنَّه خبر عن قدرته ورأفته بعباده ، لأنَّ الانتقال من مكان إلىٰ مكان من صفات الأجسام ، والله تعالىٰ لا تستولي عليه صفات الأجسام ...

وقال الإمام الحَلِيمي (٤٠٣هـ) : " ... أنَّ الله جلَّ ثناؤه الذي ليس بجسم ، ولا يجوز عليه أن تحلّه الأعراض والحوادث ... " (٣) .

وقال الإمام أبو بكر الباقلَّاني (٤٠٣هـ) : " إِن قَالَ قَائِل : لم أنكرتم أَن يكون الْقَدِيم سُبْحَانَهُ جسماً ؟ قيل لَهُ : لما قدَّمْنَاهُ من قبل ، وَهُوَ أَنَّ حَقِيقَة الْجِسْم أنَّه مؤلَّف مُجْتَمع ، بِدَلِيل قَوْلهم : رجلٌ جسيمٌ ، وَزيدٌ أجسم من عَمْرو ، وعلماً بِأَنَّهُم يقصرون هَذِه الْمُبَالغَة علىٰ ضرب من ضروب التَّأْلِيف فِي جِهَة الْعرض والطُّول ، وَلَا يوقعونها بِزِيَادَة شَيْء من صِفَات الْجِسْم سوىٰ التَّأْلِيف ، فَلَمَّا لم يجز أَن يكون الْقَدِيم مجتمعاً مؤتلفاً ، وَكَانَ شَيْئاً وَاحِداً ، ثَبت أَنَّه تَعَالَىٰ لَيْسَ بجسم . فإن قالوا : ومن أين استحال أن يكون القديم مجتمعاً مؤتلفاً ؟ قيل لهم : من وجوه :

أحدها : أنَّ ذلك لو جاز عليه لوجب أن يكون ذا حيِّز وشغل في الوجود ، وأن يستحيل أن يماس كلّ بعض من أبعاضه وجزء من أجزائه غير ما ماسه من الأبعاض وأجزاء الجواهر أيضاً من جهة ما هما متماسَّان ، لأنَّ الشَّيء المماس لغيره لا يجوز أن يماسّه ويماس غيره من جهة واحدة ، وليس يقع هذا التَّمانع من المماسَّة إلّا للتَّحيُّز والشُّغل ، ألا ترىٰ أنَّ العرض الموجود بالمكان إذا لم يكن له حيِّز وشغل ، لم يمنع

---

(١) انظر : التعرف لمذهب أهل التصوف (ص٣٤) .

(٢) انظر : أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) (١/ ٦٣٩) .

(٣) انظر : المنهاج في شعب الإيمان (١/ ٢٣٣) .

وجوده من وجود غيره من الأعراض في موضعه ، وإذا ثبت ذلك وجب أن تكون سائر الأبعاض المجتمعة ذا حيِّز وشغل ، وما هذه سبيله ، فلا بدَّ أن يكون حاملاً للأعراض ومن جنس الجواهر والأجسام ، فلمّا لم يجز أن يكون القديم سبحانه من جنس شيء من المخلوقات ، لأنَّه لو كان كذلك لسدَّ مسد المخلوق ، وناب منابه ، واستحقَّ من الوصف لنفسه ما يستحقُّه ما هو مثله لنفسه ، فلما لم يجب أن يكون القديم سبحانه محدثاً والمحدث قديماً ، ثبت أنَّه لا يجوز أن يكون القديم سبحانه مؤتلفاً مجتمعاً ، ويدلُّ على ذلك أيضاً أنَّه لو كان القديم سبحانه ذا أبعاض مجتمعة ، لوجب أن تكون أبعاضه قائمة بأنفسها ومحتملة للصِّفات ولم يخل كلُّ بعض منها من أن يكون عالماً قادراً حيَّاً أو غير حي ولا عالم ولا قادر ، فإن كان واحد منها فقط هو الحيُّ العالم القادر دون سائرها ، وجب أن يكون ذلك البعض منه هو الإله المعبود المستوجب للشُّكر دون غيره ، وهذا يوجب أن تكون العبادة والشُّكر واجبين لبعض القديم دون جميعه ، وهذا كفر من قول الأمَّة كافَّة ، وإن كانت سائر أبعاضه عالمة حيَّة قادرة وجب جواز تفرُّد كلّ شيء منها بفعل غير فعل صاحبه ، وأن يكون كلّ واحد منها إلهاً لما فعله دون غيره ، وهذا يوجب أن يكون الإله أكثر من اثنين وثلاثة على ما تذهب إليه النَّصارى ، وذلك خروج عن قول الأمَّة ، وكل أمَّة أيضاً ، وعلى أنَّ ذلك لو كان كذلك لجاز أن تتمانع هذه الأبعاض ويريد بعضها تحريك الجسم في حال ما يريد الآخر تسكينه ، فكانت لا تخلو عند الخلاف والتَّمانع من أن يتمَّ مرادها أو لا يتم بأسره أو يتم بعضه دون بعض ، وذلك يوجب إلحاق العجز بسائر الأبعاض أو بعضها ، والحكم لها بسائر الحدث ، على ما بيَّنّاه في الدّلالة على إثبات الواحد ، وليس يجوز أن يكون صانع العالم محدثاً ، ولا شيء منه ، فوجب استحالة كونه مؤلَّفاً .

فإن قالوا : فكذلك فجوّزوا تمانع أجزاء الإنسان إذا قدر وأراد وتصرَّف كلُّ شيء منها بقدرة وإرادة غير إرادة صاحبه ، قيل له لا يجب ذلك ، ولا يجوز أيضاً تمانع الحيين المحدثين المتصرّفين بإرادتين ، وإن كانا متباينين لقيام الدَّليل على أنَّه لا يجوز أن يكون محل فعل المحدثين واحداً ، واستحالة تعدِّي فعل كلّ واحد منهما لمحلِّ قدرته .

والتَّمانع بالفعلين لا يصحّ حتى يكون محلّهما واحداً ، فلم يجب ما سألتم عنه . فإن قالوا : ولم أنكرتم أن يكون الباري سبحانه جسماً لا كالأجسام ، كما أنَّه عندكم شيء لا كالأشياء ، قيل له : لأنَّ قولنا شيء لم يبن لجنس دون جنس ، ولا لإفادة التَّأليف ، فجاز وجود شيء ليس بجنس من أجناس الحوادث وليس بمؤلَّف ، ولم يكن ذلك نقضاً لمعنى تسميته بأنَّه شيء ، وقولنا : جسم موضوع في اللغة للمؤلَّف دون ما ليس بمؤلَّف ، كما أنَّ قولنا : إنسان ومحدث اسم لما وجد من عدم ولما له هذه الصُّورة دون غيرها ، فكما لم

يجز أن نثبت القديم سبحانه محدثاً لا كالمحدثات وإنساناً لا كالنَّاس ، قياساً علىٰ أنَّه شيء لا كالأشياء ، لم يجز أن نثبته جسماً لا كالأجسام ، لأنَّه نقض لمعنىٰ الكلام ، وإخراج له عن موضوعه وفائدته .

فإن قالوا : فما أنكرتم من جواز تسميته جسماً ، وإن لم يكن بحقيقة ما وضع له هذا الاسم في اللغة ، قيل لهم : أنكرنا ذلك لأنَّ هذه التَّسمية لو ثبتت لم تثبت له إلَّا شرعاً ، لأنَّ العقل لا يقتضيها بل ينفيها إن لم يكن القديم سبحانه مؤلَّفاً ، وليس في شيء من دلائل السَّمع من الكتاب والسنَّة وإجماع الأمَّة وما يستخرج من ذلك ما يدلُّ علىٰ وجوب هذه التَّسمية ولا علىٰ جوازها أيضاً ، فبطل ما قلتموه ، فإن قالوا : ولم منعتم من جواز ذلك وإن لم توجبوه ، قيل لهم : أمَّا العقل فلا يمنع ولا يحرم ولا يحيل إيقاع هذه التَّسمية عليه تعالىٰ وإن أحال معناها في اللسان وإنَّما تحرم تسميته بهذا الاسم وبغيره ممَّا ليس بأسمائه لأجل حظر السَّمع لذلك ، لأنَّ الأمَّة مجمعة علىٰ حظر تسميته عاقلاً وفطناً ، وإن كان بمعنىٰ من يستحق هذه التَّسمية لأنَّه عالم وليس العقل والحفظ والفطنة والدِّراية شيئاً أكثر من العلم . وإجازة وصفه وتسميته بأنَّه نور ، وأنَّه ماكر ، ومستهزئ ، وساخر من جهة السَّمع ، وإن كان العقل يمنع من معاني هذه الأسماء فيه ، فدلَّ ذلك علىٰ أنَّ المراعىٰ في تسميته ما ورد به الشَّرع والإذن دون غيره .

وفي الجملة ، فإنَّ الكلام إنَّما هو في المعنىٰ دون الاسم ، فلا طائل في التَّعلُّل والتَّعلُّق بالكلام في الأسماء ، فإن قال قائل : ما أنكرتم أن يكون جسماً علىٰ معنىٰ أنَّه قائم بنفسه أو بمعنىٰ أنَّه شيء أو بمعنىٰ أنَّه حامل للصِّفات أو بمعنىٰ أنَّه غير محتاج في الوجود إلىٰ شيء يقوم به ، قيل له : لا ننكر أن يكون الباري سبحانه حاصلاً علىٰ جميع هذه الأحكام والأوصاف ، وإنَّما ننكر تسميتكم لمن حصلت له بأنَّه جسم ، وإن لم يكن مؤلَّفاً ، فهذا عندنا خطأ في التَّسمية دون المعنىٰ ، لأنَّ معنىٰ الجسم أنَّه المؤلَّف علىٰ ما بينَّاه ، ومعنىٰ الشَّيء أنَّه الثَّابت الموجود ، وقد يكون جسماً إذا كان مؤلَّفاً ، ويكون جوهراً إذا كان جزءاً منفرداً ، ويكون عرَضاً إذا كان ممَّا يقوم بالجوهر ، ومعنىٰ القائم بنفسه : هو أنَّه غير محتاج في الوجود إلىٰ شيء يوجد به ، ومعنىٰ ذلك : أنَّه ممَّا يصحُّ له الوجود ، وإن لم يفعل صانعه شيئاً غيره إذا كان محدثاً ، ويصحُّ وجوده وإن لم يوجد قائم بنفسه سواه إذا كان قديماً ، وليس هذا من معنىٰ قولنا : جسم ومؤلَّف بسبيل فبطل ما قلتم ، فإن قالوا : ما أنكرتم أن يكون معنىٰ جسم ومعنىٰ قائم بنفسه وغير قائم بغيره ، ومعنىٰ أنَّه حامل للصِّفات هو معنىٰ أنَّه شيء ، لأنَّه لو لم يكن معنىٰ جسم ومعنىٰ قائم بنفسه وغير قائم بغيره ومعنىٰ أنَّه حامل للصِّفات هو معنىٰ شيء لجاز وجود شيء حامل للصِّفات ليس بشيء وقائم بنفسه وغير قائم بغيره وليس بجسم ، ولو جاز ذلك لجاز وجود جسم ليس بشيء ، ولا قائم بنفسه ، ولا حامل للصِّفات ، فلمَّا لم يجز ذلك ، وجب أن

يكون معنىٰ الجسم ما قلناه ، يقال لهم : لو كان هذا العكس الذي عكستموه صحيحاً واجباً ، لوجب أن يكون معنىٰ موجود محدث مركَّب حامل للأغراض معنىٰ ، لأنَّه لو لم يكن ذلك كذلك لجاز وجود شيء ليس بموجود ولا محدث ولا مؤلَّف ولا مركَّب ولا حامل للأعراض ولا قائم بنفسه ، ولو جاز ذلك لجاز وجود محدث قائم بنفسه مركَّب مؤلف حامل للصِّفات ، ليس بشيء ولا موجود ، فلما لم يجز ذلك ثبت أنَّ معنىٰ شيء غير معنىٰ : محدث مؤلَّف حامل للأعراض ، فإن لم يجب هذا لم يجب ما قلتموه ، مسألة : ويقال لهم ما الدَّليل علىٰ أنَّ صانع العالم جسم : فإن قالوا لأنَّنا لم نجد في الشَّاهد والمعقول فاعلاً إلَّا جسما فوجب القضاء بذلك علىٰ الغائب ، قيل لهم فيجب علىٰ موضوع استدلالكم هذا أن يكون القديم سبحانه مؤلَّفاً محدثاً مصوَّراً ذا حيِّز وقبول للأعراض ، لأنَّكم لم تجدوا في الشَّاهد وتعقلوا فاعلاً إلَّا كذلك ، فإن مرُّوا علىٰ ذلك تركوا قولهم وفارقوا التَّوحيد ، وإن أبوه نقضوا استدلالهم ... قوله ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣] ، أنَّها لا تدركه جسماً مصوَّراً متحيِّزاً ولا حالَّاً في شيء علىٰ ما يقوله النَّصارىٰ ، ولا مشبهاً لشيء علىٰ ما يقوله أهل التَّشبيه" (١) .

وقال الإمام ابن فورك (٤٠٦هـ) : " وَاعْلَم أَنَّه لَا فرق بَين الْإِتْيَان والمجيء وَالنُّزُول إِذا أضيف جَمِيع ذَلِك إِلىٰ الْأَجْسَام الَّتِي تتحرَّك وتنتقل وتحازي مَكَاناً ، إِنَّ جَمِيع ذَلِك يعقل من ظَاهرهَا ، وَالْمعْنَىٰ الَّذِي هُوَ الْحَرَكَة والنُّقلة الَّتِي هِيَ تَفْرِيغ مَكَان وشغل مَكَان . وَإِذا أضيف إِلىٰ مَا لَا يَلِيق بِهِ الإنتقال من مَكَان إِلىٰ مَكَان لإستحالة وَصفه كَانَ معنىٰ مَا يُضَاف إِلَيْهِ من الْإِتْيَان والمجيء علىٰ حسب مَا يَلِيق بنعمته وَصفته ... " .

وقال أيضاً : " ... اعْلَم أَنَّ كلّ مَا ذكر فِيهِ الْحجاب ، من أَمْثَال هَذَا الْخَبَر ، فَإِنَّمَا يرجع مَعْنَاهُ إِلىٰ الْخلق ، لأَنَّهم هم المحجوبون عَنهُ بحجاب يخلقه فيهم ، لَا يجوز أَن يكون الله عزَّ وجلَّ محتجباً وَلَا محجوباً ، لاستحالة كَونه جوهراً أَو جسماً محدوداً ، لِأَنَّ مَا يستره الْحجاب أكبر مِنْهُ ، وَيكون متناهياً محاذياً جَائِزاً عَلَيْهِ المماسَّة والمفارقة ، وَمَا كَانَ كَذَلِك كَانَت عَلَامَات الْحَدث فِيهِ قَائِمَة ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُوَحِّدين إِنَّمَا توصَّلوا إِلىٰ الْعلم بِحَدَث الْأَجْسَام من حَيْثُ وجدوها متناهية محدودة محلاً للحوادث ، فَكَانَ تعاقبها عَلَيْهَا دَلِيلاً علىٰ حدثها " .

وقال أيضاً : " ... اعلم أَنَّ الْوَطْأَة الَّتِي هِيَ بِمَعْنىٰ مماسَّة بجارحة أَو بِبَعْض الْأَجْسَام لَا يَصحُّ فِي وصف الله تَعَالَىٰ لاستحالة كَونه جسماً ، واستحالة المماسَّة عَلَيْهِ ، واستحالة تَغْيِيره بِمَا يحدث فِيهِ من الْحَوَادِث " .

وقال أيضاً : " إِنَّ خُرُوج من الشَّيء علىٰ وَجْهَيْن :

---

(١) انظر : تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل (ص٢٢٠فما بعدها) .

أَحدهمَا : كخروج الْجِسْم من الْجِسْم ، وَذَلِكَ بمفارقة مَكَانَهُ واستبداله مَكَاناً آخر ، وَلَيْسَ الله تَعَالَىٰ جسماً ، وَلَا كَلَامه جسم ، لأَنَّه لَو كَانَ جسماً لاقتضىٰ محلاً وَاحِداً ، وَذَلِكَ فَاسد .

وَالْوَجْه الثَّانِي من معنىٰ الْخُرُوج : كَقَوْلِك : خرج لنا من كلامك خير كثير ، وأتانا مِنْهُ نفع مُبين ، إِذا أَرَادَ أَنَّه ظهر لَهُم مِنْهُ مَنَافِع ، فَأَمَّا الْخُرُوج الَّذِي بِمَعْنىٰ الإنتقال ، فَلَا يَصحُّ علىٰ كَلَام الله سُبْحَانَهُ ، وَلَا علىٰ شَيْء من الْكَلَام ، لأجل أَنَّه لَيْسَ بجسم ، وَلَا جَوْهَر ، وإِنَّمَا يجوز الإنتقال علىٰ الْجَوَاهِر والأجسام ... " (١) .

وقال الإمام الثَّعلبي (٤٢٧هـ) : " وأعلم أنَّ الآيات والأخبار الصِّحاح في هذا الباب كثيرة ، وكلُّها إلىٰ العلوِّ مشيرة ، ولا يدفعها إلَّا مُلحدٌ جاحدٌ أو جاهلٌ معاندٌ ، والمراد بها- والله أعلم- توقيره ، وتعظيمه ، وتنزيهه عن السُّفل والتَّحت ، ووصفه بالعلوِّ والعظمة دون أن يكون موصوفاً بالأماكن والجهات ، والحدود والحالات ، لأنَّها صفات الأجسام وأمارات الحدث ، والله سبحانه وتعالىٰ كان ولا مكان ، فخلق الأمكنة غير محتاج إليها ... " (٢) .

وذكر الإمام ابن العماد الحنبلي (١٠٨٩هـ) في ترجمة الإمام أبي علي الهاشمي الحنبلي ، محمَّد بن أحمد بن أبي موسىٰ البغدادي (٤٢٨هـ) موضِّحاً عقيدته ، قال : " أنَّ الله عزَّ وجلَّ واحدٌ أحدٌ ، فردٌ صمدٌ ، لا يغيِّره الأبد ، ليس له والدٌ ولا ولد ، وأنَّه سميعٌ بصيرٌ ، بديعٌ قديرٌ ، حكيمٌ خبيرٌ ، عليٌّ كبيرٌ ، وليٌّ نصيرٌ ، قويٌ مُجيرٌ ، ليس له شبيهٌ ولا نظيرٌ ، ولا عونٌ ولا ظهيرٌ ، ولا شريكٌ ولا وزيرٌ ، ولا ندٌّ ولا مُشيرٌ ، سبق الأشياء، فهو قديم لا كقِدمها ، وعلم كون وجودها في نهاية عدمها ، لم تملكه الخواطر فتكيِّفه ، ولم تدركه الأبصار فتصفُه ، ولم يخل من علمه مكان فيقع به التَّأيين ، ولم يعدمه زمان فينطلق عليه التَّأوين . ولم يتقدَّمه دهرٌ ولا حينٌ ، ولا كان قبله كونٌ ولا تكوينٌ ، ولا تجري ماهيَّته في مقال ، ولا تخطرُ كيفيَّته ببال ، ولا يدخل في الأمثال والأشكال ، صفاته كذاته ، ليس بجسمٍ في صفاته ، جلَّ أن يشبّه بمبتدعاته أو يضاف إلىٰ مصنوعاته ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ: ١١] (٣) .

وقال الإمام أبو منصور عبد القاهر الإسفراييني (٤٢٩هـ) : " لو كان الإله مقدَّراً بحدٍّ ونهاية لم يخل من أن يكون مقداره مثل أقل المقادير ، فيكون كالجزء الذي لا يتجزَّأ ، أو يختصُّ ببعض المقادير ، فيتعارض فيه

---

(١) انظر : مشكل الحديث وبيانه (ص٢٠١) ، (ص٢١٣) ، (ص٢٧٩) ، (ص٢٨٦-٢٨٧) بالترتيب .

(٢) انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٩/ ٣٦٠) .

(٣) انظر : شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٥/ ١٣٩) .

المقادير ، فلا يكون بعضها أولىٰ من بعض إلَّا بمخصِّص خصَّه ببعضها ، وإذا بطل هذان الوجهان صحَّ أنَّه بلا حدٍّ ولا نهاية " [١] .

وقال الإمام ابن بطَّال (٤٤٩هـ) : " ... ولا فرق بين الإتيان والمجيء والنُّزول إذا أضيف جميع ذلك إلىٰ الأجسام التي يجوز عليها الحركة والنُّقلة التي هي تفريغ مكان وشغل غيره ، فإذا أضيف ذلك إلىٰ من لا يليق به الانتقال والحركة ، كان تأويل ذلك علىٰ حسب ما يليق بنعته وصفته عزَّ وجلَّ " .

وقال أيضاً : " ... لأنَّ الموصوف بالسّعة يصحُّ وصفه بالضِّيق بدلاً منه ، والوصفان جميعاً من صفات الأجسام ، وإذا استحال وصفه بما يؤدِّي إلىٰ القول بكونه جسماً ، وجب صرف قولها عن ظاهره إلىٰ ما اقتضىٰ صحَّته الدَّليل ... ولم يرد بوصفه بالقُرب قُرب المسافة ؛ لأنَّ الله تعالىٰ لا يصحُّ وصفه بالحلول في الأماكن ؛ لأنَّ ذلك من صفات الأجسام " .

وقال أيضاً : " ... غرضه في هذا الباب ردّ شبهة الجهميَّة المجسِّمة في تعلُّقها بظاهر قوله : ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٣ – ٤] ، وقوله : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] ، وما تضمَّنته أحاديث الباب من هذا المعنىٰ ، وقد تقدَّم الكلام في الرَّدِّ عليهم ، وهو أنَّ الدَّلائل الواضحة قد قامت علىٰ أنَّ الباري تعالىٰ ليس بجسم ، ولا محتاجاً إلىٰ مكان يحلّه ويستقر فيه ؛ لأنَّه تعالىٰ قد كان ولا مكان ، وهو علىٰ ما كان ، ثمَّ خلق المكان ، فمحالٌ كونه غنيَّاً عن المكان قبل خلقه إيَّاه ، ثمَّ يحتاج إليه بعد خلقه له ، هذا مستحيل " .

وقال أيضاً : " ... فلا تعلُّق فيه للمجسِّمة في إثبات الجسم والمكان ، لما تقدَّم من استحالة كونه جسماً أو حالَّاً في مكان " [٢] .

وقال الإمام ابن حزم الأندلسي (٤٥٦هـ) : " ذهب طَائِفَة إلىٰ القَوْل بِأَنَّ الله تَعَالَىٰ جسم ، وحجَّتهم فِي ذَلِك : أَنَّه لَا يقوم فِي الْمَعْقُول إِلَّا جسم أَو عَرَض ، فَلَمَّا بَطل أَن يكون تَعَالَىٰ عرضاً ، ثَبت أَنَّه جسم ، وَقَالُوا : إِنَّ الْفِعْل لَا يَصحُّ إِلَّا من جسم ، والباري تَعَالَىٰ فَاعلٌ ، فَوَجَبَ أَنَّه جسم ، وَاحْتَجُّوا بآيَات من الْقُرْآن فِيهَا ذكر الْيَد ، وَالْيَدَيْنِ ، وَالْأَيْدِي ، وَالْعين ، وَالْوَجْه ، وَالْجنب ، وَبِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] ، و ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ

---

[١] انظر : كتاب أُصول الدِّين (ص٧٣) .

[٢] انظر : شرح صحيح البخارى لابن بطال (٣/ ١٣٧) ، (١٠/ ٤١٧) ، (١٠/ ٤٥٣) ، (١٠/ ٤٦٦) بالترتيب .

ٱلۡأُمُورُ ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وتجلِّيه تَعَالَىٰ للجبل، وبأحاديث فِيهَا ذكر الْقدَم، وَالْيَمِين، وَالرِّجل، والأصابع، والتَّنزُّل.

قَالَ أَبُو محمَّد: وَلجَمِيعِ هَذِه النُّصُوص وُجُوه ظَاهِرَة بَيِّنَة خَارِجَة علىٰ خلاف مَا ظنُّوه وتأوَّلوه.

قَالَ أَبُو محمَّد: وَهَذَانِ الاستدلالان فاسدان. أمَّا قَوْلهم: أنَّه لَا يقوم فِي الْمَعْقُول إِلَّا جسم أَو عرَض، فَإِنَّهَا قسْمَة نَاقِصَة، وإِنَّما الصَّوَاب أنَّه لَا يُوجد فِي الْعَالم إِلَّا جسم أَو عَرَض، وَكِلَاهُمَا يَقْتَضِي بطبيعته وجود مُحدث لَهُ فبالضَّرورة نعلم أنَّه لَو كَانَ محدثهما جسماً أَو عرضاً لَكَانَ يَقْتَضِي فَاعِلاً فعله وَلَا بُدَّ. فَوَجَبَ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ فَاعل الْجِسْم وَالْعرَض لَيْسَ جسْماً، وَلَا عَرَضاً، وَهَذَا برهَان يضْطَر إِلَيْهِ كلّ ذِي حسٍّ بضرورة الْعقل، وَلَا بُدَّ.

وَأَيْضاً فَلَو كَانَ الْبَارِي - تَعَالَىٰ عَن إلحادهم - جسماً لاقتضىٰ ذَلِك ضَرُورَة أَن يكون لَهُ زمَان وَمَكَان هما غَيره، وَهَذَا إِبْطَال التَّوحيد وَإِيجَاب الشِّرك مَعَه تَعَالَىٰ لشيئين سواهُ، وَإِيجَاب أَشْيَاء مَعَه غير مخلوقة، وَهَذَا كفر، وَقد تقدَّم إفسادنا لهَذَا القَوْل.

وَأَيْضاً، فَإِنَّهُ لَا يعقل الْبَتَّة جسْم إِلَّا مؤلَّف طَوِيل عريض عميق، ونظَّارهم لَا يَقُولُونَ بِهَذَا، فَإِن قَالُوهُ لَزِمَهُم أَنَّ لَهُ مؤلِّفاً جَامعاً مخترعاً فَاعِلاً، فَإِن منعُوا من ذَلِك لَزِمَهُم أَن لَا يوجبوا لما فِي الْعَالم من التَّأْلِيف لَا مؤلّف وَلَا جَامعاً، إِذْ الْمُؤلَّف كُلّه كَيْفَمَا وجد يَقْتَضِي مؤلّفاً ضَرُورَة، فَإِن قَالُوا: هُوَ جسم غير مؤلَّف، قيل لَهُم: هَذَا هُوَ الَّذِي لَا يعقل حَسّاً، وَلَا يتشكَّل فِي النَّفس الْبَتَّة، فَإِن قَالُوا: لَا فرق بَين قولنا شَيْء وَبَين قَوْلنَا جسم، قيل لَهُم: هَذِه دَعْوَىٰ كَاذِبَة علىٰ اللُّغَة الَّتِي بهَا يتَكَلَّمُونَ.

وَأَيْضاً فَهُوَ بَاطِل لِأَنَّ الْحَقِيقَة أنَّه لَو كَانَ الشَّيء والجسْم بِمَعْنىٰ وَاحِد لَكَانَ الْعَرَض جسْماً، لأنَّه شَيْء، وَهَذَا بَاطِل بيقين. والحقيقة هِيَ أنَّه لَا فرق بَين قَوْلنَا: شَيْء، وَقَوْلنَا: مَوْجُود وَحقّ وَحَقِيقَة ومثبت، فَهَذِهِ كلهَا أَسمَاء مترادفة علىٰ معنىٰ وَاحِد لَا يخْتَلف، وَلَيْسَ مِنْهَا اسْم يَقْتَضِي صفة أَكثر من أَنَّ الْمُسَمَّىٰ بذلك حقّ وَلَا مزيد، وَأمَّا لَفْظَة جسم فَإِنَّهَا فِي اللُّغَة عبارَة عَن الطَّوِيل العريض العميق، الْمُحْتَمل للْقِسْمَة ذِي الْجِهَات السِّت، الَّتِي هِيَ فَوق وَتَحت، ووراء وأمام، وَيَمِين وشمال، وَرُبَّما عدم وَاحِدَ مِنْهَا، وَهِي الفوق، هذا حكم هَذِه الْأَسْمَاء فِي اللُّغَة الَّتِي هَذِه الْأَسْمَاء مِنْهَا، فَمن أَرَادَ أَن يُوقع شَيْئاً مِنْهَا علىٰ غير موضوعها فِي اللُّغَة فَهُوَ مَجْنُون وقاح، وَهُوَ كمن أَرَادَ أَن يُسَمِّي الْحق بَاطِلاً وَالْبَاطِل حَقّاً، وَأَرَادَ أَن يُسَمِّي الذَّهَب خشباً، وَهَذَا غَايَة الْجَهْل والسّخف، إِلَّا أَن يَأْتِي نَصٌّ بنَقْل اسْم مِنْهَا عَن مَوْضُوعه إِلىٰ معنىٰ آخر فَيُوقف عِنْده، وَإِلَّا فَلَا، وإنَّما يلْزم كل مناظر يُرِيد معرفَة الْحَقَائِق أَو التَّعْرِيف بهَا أَن يُحقّق الْمَعَانِي الَّتِي يَقع

عَلَيْهَا الِاسْم ثمَّ يخبر بعد بهَا أو عنها بِالْوَاجِبِ ، وَأمَّا مزج الْأَشْيَاء وقلبها عَن موضوعاتها فِي اللُّغَة ، فَهَذَا فعل السّوفسطائيَّة الوقحاء الْجُهَّال ، العابثون بعقولهم وأنفسهم .

فَإِن قَالُوا لنا : إِنَّكُم تَقولُونَ إِنَّ الله عزَّ وجلَّ حَيّ لَا كالأحياء ، وَعَلِيم لَا كالعلماء ، وقادر لَا كالقادرين ، وَشَيْء لَا كالأشياء ، فَلمَ منعتم القَوْل بِأَنَّهُ جسم لَا كالأجسام ؟!!

قيل لَهُم وَبِاللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيق : لَوْلَا النَّص الْوَارِد بتسميته حَيًّا وقديراً وَعَلِيماً مَا سمَّيناه بِشَيْء من ذَلِك ، لَكِن الْوُقُوف عِنْد النَّص فرضٌ ، وَلم يَأْتِ نَصٌّ بتسميته تَعَالَى جسماً ، وَلَا قَامَ الْبُرْهَان بتسميته جسماً ، بل الْبُرْهَان مَانعٌ من تَسْمِيَته تعالى بذلك . وَلَو أَتَانَا نَصٌّ بتسميته تَعَالَى جسماً لَوَجَبَ علينا القَوْل بذلك ، وَكُنَّا حِينَئِذٍ نقُول : أَنَّه جسمٌ لَا كالأجسام ، كَمَا قُلْنَا فِي عليم ، وقدير ، وَحيّ ، وَلَا فرق ، وَأمَّا لَفْظَة شَيْء ، فالنَّصّ أَيْضاً جَاءَ بهَا ، والبرهان أوجبهَا على مَا نذْكر بعد هَذَا ، إِن شَاءَ الله تَعَالَى " (١) .

وقال أيضاً : " قَالَ الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٧] ، فَذَهَبت المجسِّمة إِلَى الِاحْتِجَاج بِهَذَا فِي مَذْهَبهم ، وَقَالَ الْآخرُونَ : وَجه الله تَعَالَى إِنَّمَا يُرَاد بِهِ : الله عزَّ وجلَّ .

قَالَ أَبُو محمَّد : وَهَذَا هُوَ الْحق الَّذِي قَامَ الْبُرْهَان بِصِحَّتِهِ ، لما قدَّمنَا من إِبْطَال القَوْل بالتَّجسيم ، وَقَالَ أَبُو الْهُذيْل : وَجه الله هُوَ الله .

قَالَ أَبُو محمَّد : وَهَذَا لَا يَنْبَغِي أَن يُطلق ، لأَنَّه تَسْمِيَة ، وَتَسْمِيَة الله تَعَالَى لَا يجوز إِلَّا بِنَصٍّ ، وَلَكنَّا نقُول : وَجه الله لَيْسَ هُوَ غير الله تَعَالَى ، وَلَا نرْجِع مِنْهُ إِلَى شَيْء سوى الله تَعَالَى ، برهَان ذَلِك : قَول الله تَعَالَى حاكياً عَمَّن رَضِي قَوْله : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ شُكُورًا ﴾ [الإنسان: ٩] ، فصحَّ يَقِيناً : أَنَّهم لم يقصدوا غير الله تَعَالَى ، وَقَوله عزَّ وجلَّ : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٥] ، إِنَّمَا مَعْنَاهُ : فثمَّ الله تَعَالَى بِعِلْمِهِ ، وقبوله لمن توجه إِلَيْهِ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿إِنَّ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: ٧٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا ﴾ [يس: ٧١] ، وَقَالَ : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة: ٦٤] . وَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " المقسطون عَن يمين الرَّحمن " (٢) ، " وكلتا يَدَيْهِ يَمِين " ، فَذَهَبت

---

(١) انظر : الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/ ٩٢-٩٣) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١١/ ٣٢ برقم ٦٤٩٢) ، قال الأرنؤوط في تخريجه للحديث : " إسناده صحيح على شرط الشيخين. سفيان: هو ابن عُيينة.

وأخرجه الحميدي (٥٨٨) ، وحسين المروزي في زوائده على "الزهد" لابن المبارك (١٤٨٤) ، وابنُ أبي شيبة ١٣/ ١٢٧، ومسلم (١٨٢٧) ، والنسائي في "المجتبى" ٨/ ٢٢١، وابنُ حبان (٤٤٨٤) و (٤٤٨٥) ، والأجري في "الشريعة" ص ٣٢٢، والبيهقي في "السنن" ١/ ٨٧٠، وفي "الأسماء والصفات" ص ٣٢٤، والخطيب في "تاريخه" ٥/ ٣٦٧، والبغوي (٢٤٧٠) من طرق، عن سفيان، بهذا الإسناد.

المجسِّمة إلىٰ مَا ذكرنَا مِمَّا قد سلف من بطلَان قَوْلهم فِيهِ . وَذَهَبت الْمُعْتَزلَة : إلىٰ أَنَّ " الْيَد " النِّعْمَة ، وَهُوَ أَيْضاً لَا معنىٰ لَهُ ، لِأَنَّهَا دَعْوَىٰ بِلَا برهَان . وَقَالَ الْأَشْعَرِيُّ : إِنَّ الْمُرَاد بقول الله تَعَالَىٰ : أَيْدِينَا ، إِنَّمَا مَعْنَاهُ : اليدان ، وَإِنَّ ذكر الْأَعْين إِنَّمَا مَعْنَاهُ : عينان . وَهَذَا بَاطِل مدْخل فِي قَول المجسِّمة ، بل نقُول : إِنَّ هَذَا إِخْبَارٌ عَن الله عزَّ وجلَّ ، لَا يرجع من ذكر الْيَد إلىٰ شَيْء سواهُ تَعَالَىٰ ، ونقرُّ أَنَّ لله تَعَالَىٰ كَمَا قَالَ : يداً ، ويدين ، وأيدي ، وَعيناً ، وَأَعْيُناً ، كَمَا قَالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ [طه: ٣٩] ، وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨] ، وَلَا يجوز لأحد أَن يصف الله عزَّ وجلَّ بأنَّ له عينين ، لأنَّ النَّصَّ لم يأت بذلك ، ونقول : إنَّ المراد بما ذكرنا الله عزَّ وجلَّ لا شيء غيره .

وقال تعالىٰ حاكياً عن قول قائل : ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٥٦] ، وهذا مَعْنَاهُ فِيمَا يقْصد بِهِ الله عزَّ وجلَّ وفي جانب عبادته . وَصَحَّ عَن رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " وكلتا يَدَيْهِ يَمِين " ، " وَعَن يَمِين الرَّحمن " ، فَهُوَ مثل قَوْله : ﴿ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ ﴾ [النساء: ٣٦] ، يُرِيد : وَمَا ملكتم . وَلَمَّا كَانَت الْيَمين فِي لُغَة الْعَرَب : يُرَاد بهَا الْحَظ للأفضل كَمَا قَالَ الشّماخ :

إِذا مَا رايَة رفعت لمجدٍ تلقَّاها عرابه بِالْيَمِينِ

يُرِيد أَنَّه يتلقَّاها بالسَّعي الأعلىٰ ، كَانَ قَوْله : " وكلتا يَدَيْهِ يَمِين " ، أَي : كلُّ مَا يكون مِنْهُ تَعَالَىٰ من الْفَضل فَهُوَ الأعلىٰ .

وَكَذَلِكَ صَحَّ عَن رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّه قَالَ : " إِنَّ جَهَنَّم لَا تمتلئ حَتَّىٰ يضع فِيهَا قَدَمَه " (١) ، وَصَحَّ أَيْضاً فِي الحَدِيث : " حَتَّىٰ يضع فِيهَا رِجْلَه " (٢) ، وَمعنىٰ هَذَا مَا قد بَيَّنه رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيث آخر صَحِيح أخبر فِيهِ أَنَّ الله تَعَالَىٰ بعد يَوْم الْقِيَامَة يخلق خلقاً يدخلهم الْجَنَّة ، وَأَنَّه تعالىٰ يَقُول للجنَّة وَالنَّار : " لكلِّ وَاحِدَة مِنْكُمَا ملؤُهَا " ، فَمَعْنَىٰ الْقدَم فِي الحَدِيث الْمَذْكُور إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ [يونس: ٢] ، يُرِيد سالف صِدق ، فمَعْنَاهُ الْأمة الَّتِي تقدَّم فِي علمه تَعَالَىٰ أَنَّه يمْلَأ بهَا جَهَنَّم ، وَمعنىٰ رِجْله مثل ذَلِك ، لِأَنَّ الرِّجل : الْجَمَاعَة فِي اللُّغَة ، أَي : يضع فِيهَا الْجَمَاعَة الَّتِي قد سبق فِي علمه أَنَّه يمْلأ جَهَنَّم بهَا .وَكَذَلِكَ الحَدِيث الصَّحِيح : أَنَّ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : " إِنَّ قلب الْمُؤمن بَين اصبعين من أَصَابع الله عزَّ وجلَّ " ، أَي : بَين تدبيرين ونعمتين من تَدْبِير الله عزَّ وجلَّ ونعمه ، إِمَّا كِفَايَة تسرُّهُ ، وَإِمَّا بلَاء يأجره عَلَيْهِ ، والإصبع فِي اللُّغَة : النِّعْمَة . وقلب كلّ أحد بَين توفيق الله

---

(١) أخرجه البخاري (٩/ ١٣٤ برقم ٧٤٤٩) .

(٢) أخرجه أبو عوانة في المستخرج (١/ ١٦٠ برقم ٤٦٤) ، مسلم (٤/ ٢١٨٧ برقم ٢٨٤٦) .

وجلاله ، وَكِلَاهُمَا حكمة . وَأخبر عَلَيْهِ السَّلَام : أَنَّ الله يَبْدُو للمؤمنين يَوْم الْقِيَامَة فِي غير الصُّورَة الَّتِي عرفوه عليها .

وَهَذَا ظَاهر بَيِّنٌ ، وَهُوَ أَنَّهم يرَوْنَ صُورَة الْحَال من الهول والمخافة غير الذي كانوا يظنُّون فِي الدُّنيا . وبرهان صِحَّة هَذَا القَوْل : قَوْله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الحَدِيث الْمَذْكُور : " غير الَّذِي عرفتموه بهَا " ، وبالضَّرورة نعلم أنَّنا لا نعلم لله عزَّ وجلَّ فِي الدُّنيا صُورَة أصلاً ، فصحَّ ما ذَكَرْنَاهُ يَقِيناً . وَكَذَلِكَ القَوْل فِي الحَدِيث الثَّابِت : " خلق الله آدم على صورته " (١) ، فَهَذِهِ إِضَافَة ملكٍ ، يُرِيد الصُّورَة الَّتِي تخيَّرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليَكُون آدم مصوَّراً عَلَيْهَا . وكل فَاضل فِي طبقته ، فَإِنَّهُ ينْسب إِلَى الله عزَّ وجلَّ ، ويُضاف إليه ، كَمَا يَقُول : بَيت الله عزَّ وجلَّ ، عَن الْكَعْبَة ، والبيوت كلّهَا بيُوت الله تَعَالَى ، وَلَكِن لَا يُطلق على شَيْء مِنْهَا هَذَا الاِسْم ، كَمَا يطلق على الْمَسْجِد الْحَرَام ، وكما نقُول فِي جِبْرِيل وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَام : روح الله ، والأرواح كلُّهَا لله تعالى ، ملك لَهُ ، وكما نقول فِي نَاقَة صَالح عَلَيْهِ السَّلَام : ناقة الله ، والنُّوق كلّهَا لله تعالى . فعلى هَذَا الْمَعْنى قيل : على صُورَة الرَّحمن . والصُّور كلّهَا لله ، وهِيَ ملك لَهُ ، وَخلق لَهُ ...

وَكَذَلِكَ مَا صَحَّ عَن النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن يَوْم الْقِيَامَة : أَنَّ الله عزَّ جلَّ يكْشف عَن سَاق ، فَيَخِرُّونَ سجَّداً ، فهو كَمَا قَالَ الله عزَّ وجلَّ : ﴿ يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ [القلم: ٤٢] ، وإنَّما هذا إِخْبَارٌ عَن شدَّة الْأَمر ، وَهُول الْمَوْقف ، كَمَا يُقال : قد شمَّرت الْحَرْب عَن سَاقهَا ، قَالَ جرير :

ألا رُبَّ سامي الطّرف من آل مَازِن إِذا شمَّرت عَن سَاقهَا الْحَرْب شمرا

وَالْعجب مِمَّن يُنكر هَذِه الْأَخْبَار الصِّحاح ، وإنَّما جاءت بِمَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآن نصَّاً ، وَلَكِن من ضَاقَ علمه أنكر مَا لَا علم لَهُ بِهِ ، وَقد عَابَ الله هَذَا فَقَالَ : ﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ﴾ [يونس: ٣٩] (٢) .

وقال الإمام البيهقي (٤٥٨هـ) : " قَالَ الْحَلِيمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : وَأَمَّا الْبَرَاءَةُ مِنَ التَّشْبِيهِ بِإِثْبَاتِ أَنَّه لَيْسَ بِجَوْهَرٍ وَلَا عَرَضٍ، فَلِأَنَّ قَوْماً زَاغُوا عَنِ الْحَقِّ فَوَصَفُوا الْبَارِئَ - جَلَّ وَعَزَّ - بِبَعْضِ صِفَاتِ الْمُحْدَثِينَ ،

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٥٠ برقم ٦٢٢٧) ، ونص الحديث هو : " " خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ، النَّفَرِ مِنَ المَلاَئِكَةِ، جُلُوسٌ، فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ، فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلاَمُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَزَادُوهُ: وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الآنَ " . فالكلام برمّته كلام عن سيدنا آدم عليه السلام ، ولا علاقة له بالله تعالى .

(٢) انظر : الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/ ١٢٧-١٢٩) .

فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : أَنَّه جَوْهَرٌ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : أَنَّه جِسْمٌ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَجَازَ أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ الْعَرْشِ قَاعِداً ، كَمَا يَكُونُ الْمَلِكُ عَلَىٰ سَرِيرِهِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ فِي وُجُوبِ اسْمِ الْكُفْرِ لِقَائِلِهِ ، كَالتَّعْطِيلِ ، وَالتَّشْرِيكِ ، فَإِذَا أَثْبَتَ الْمُثْبِتُ أَنَّه لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَجِمَاعُ ذَلِكَ أَنَّه لَيْسَ بِجَوْهَرٍ ، وَلَا عَرَضٍ ، فَقَدِ انْتَفَىٰ التَّشْبِيهُ ، لأَنَّه لَوْ كَانَ جَوْهَراً أَوْ عَرَضاً لَجَازَ عَلَيْهِ مَا يَجُوزُ عَلَىٰ سَائِرِ الْجَوَاهِرِ ، وَالْأَعْرَاضِ ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ جَوْهَراً ، وَلَا عَرَضاً لَمْ يَجُزْ عَلَيْهِ مَا يَجُوزُ عَلَىٰ الْجَوَاهِرِ مِنْ حَيْثُ أَنَّهَا جَوَاهِرُ ، كَالتَّأْلِيفِ ، وَالتَّجْسِيمِ أو شَغْلِ الْأَمْكِنَةِ وَالْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ ، وَلَا مَا يَجُوزُ عَلَىٰ الْأَعْرَاضِ مِنْ حَيْثُ أَنَّهَا أَعْرَاضٌ ، كَالْحُدُوثِ ، وَعَدَمِ الْبَقَاءِ " .

فالإمام الحليمي يؤكِّد ويبرهن علىٰ تنزيه الله تعالىٰ عن الجسميَّة ، وعن لوازمها من الحركة والسُّكون ، إذ كلَّ جسم لا ينفكُّ عن الحركة والسُّكون والاجتماع والافتراق ، وهي أعراض ملازمة للأجسام ، ولا تقوم إلَّا بها ، وهي حادثة لتغيرُّها وتبدُّلها ، وما لا ينفكُّ عن الحوادث فهو حادث ، والله تعالىٰ واجب الوجود لذاته ، فلا يجوز أن يكون جسْماً أو عَرَضاً ، فلو كان جسْماً أو عَرَضاً لاحتاج للمحلِّ ، وافتقر إليه ، وبالحاجة للمكان يصبح الواجب مفتقراً للغير فيكون ممكناً ، واللازم باطل فالملزوم مثله ، وبالتَّالي لا يجوز عليه ما يجوز علىٰ المحدثات من الحركة والسُّكون والانتقال من مكان إلىٰ آخر ، فهو تعالىٰ ليس محلاً للحوادث ، فلا يحلُّ بها ولا تحلُّ فيه سبحانه وتعالىٰ ...

وقال أيضاً : " فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : فَمَا الدَّلِيلُ عَلَىٰ أَنَّه لَيْسَ بِجِسْمٍ ، وَلَا جَوْهَرٍ ، لَا عَرَضٍ قِيلَ : لأَنَّه لَوْ كَانَ جِسْماً لَكَانَ مُؤَلَّفاً . وَالْمُؤَلَّفُ شَيْئَانِ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ شَيْءٌ وَاحِدٌ ولَا يَحْتَمِلُ التَّأْلِيفِ ، وَلَيْسَ بِجَوْهَرٍ لِأَنَّ الْجَوْهَرَ هُوَ الْحَامِلُ لِلْأَعْرَاضِ ، الْقَابِلُ لِلْمُتَضَادَّاتِ ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ ذَلِكَ دَلِيلاً عَلَىٰ حُدُوثِهِ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ تَعَالَىٰ قَدِيمٌ لَمْ يَزَلْ ، وَلَيْسَ بِعَرَضٍ لِأَنَّ الْعَرَضَ لَا يَصِحُّ بَقَاؤُهُ ، وَلَا يَقُومُ بِنَفْسِهِ ، – وَهُوَ – سُبْحَانَهُ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ لَمْ يَزَلْ مَوْجُوداً ، فَلَا يَصِحُّ عَدَمُهُ . فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : فَإِذَا كَانَ الْقَدِيمُ سُبْحَانَهُ شَيْئاً لَا كَالْأَشْيَاءِ ، مَا أَنْكَرْتُمْ أَنْ يَكُونَ جِسْماً لَا كَالْأَجْسَامِ ؟ قِيلَ لَهُ : لَوْ لَزِمَ ذَلِكَ لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ صُورَةً لَا كَالصُّوَرِ ، وَجَسَداً لَا كَالْأَجْسَادِ ، وَجَوْهَراً لَا كَالْجَوَاهِرِ ، فَلَمَّا لَمْ يَلْزَمْ ذَلِكَ ، لَمْ يَلْزَمْ هَذَا " (١) .

وقال أيضاً : " وفي الجُملة يجب أن يعلم : أنَّ استواء الله سبحانه وتعالىٰ ليس باستواء اعتدال عن اعوجاج ، ولا استقرار في مكان ، ولا مماسَّة لشيء من خلقه ، لكنَّه مستو علىٰ عرشه كما أخبر ، بلا كيف بلا أين ، بائن من جميع خلقه ، وأنَّ إتيانه ليس بإتيان من مكان إلىٰ مكان ، وأنَّ مجيئه ليس بحَرَكة ، وأنَّ نزوله ليس بنُقلة ، وأنَّ نفسه ليس بجِسْم ، وأنَّ وجهه ليس بصُورة ، وأنَّ يدَه ليست بجارحة ، وأنَّ عيْنه ليست بحَدَقة

---

(١) انظر : شعب الإيمان (١/ ١٩٠) ، (٢/ ٢٦٣) .

، وإنّما هذه أوصاف جاء بها التّوقيف فقلنا بها ونفينا عنها التّكييف ، فقد قال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ، وقال :﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤] ، وقال :﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] (١) .

وقال أيضاً : " أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ الله الْحَافِظُ ، قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا محمَّد أَحْمَدَ بْنَ عَبْدِ الله الْمُزَنِيَّ يَقُولُ : " حَدِيثُ النُّزُولِ قَدْ ثَبَتَ عَنْ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ وُجُوهٍ صَحِيحَةٍ ، وَوَرَدَ فِي التَّنْزِيلِ مَا يُصَدِّقُهُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] ، وَالنُّزُولُ وَالْمَجِيءُ صِفَتَانِ مَنْفِيَّتَانِ عَنِ الله تَعَالَى مِنْ طَرِيقِ الْحَرَكَةِ وَالِانْتِقَالِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ ، بَلْ هُمَا صِفَتَانِ مِنْ صِفَاتِ الله تَعَالَى بِلَا تَشْبِيهٍ ، جَلَّ اللهُ تَعَالَى عَمَّا تَقُولُ الْمُعَطِّلَةُ لِصِفَاتِهِ ، وَالْمُشَبِّهَةُ بِهَا عُلُوّاً كَبِيراً " .

قُلْتُ : وَكَانَ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ (٣٨٨هـ) رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ : إِنَّمَا يُنْكِرُ هَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ مِنَ الْحَدِيثِ مَنْ يَقِيسُ الْأُمُورَ فِي ذَلِكَ بِمَا يُشَاهِدُهُ مِنَ النُّزُولِ الَّذِي هُوَ تَدَلٍّ مِنْ أَعْلَى إِلَى أَسْفَلَ ، وَانْتِقَالٌ مِنْ فَوْقٍ إِلَى تَحْتٍ وَهَذِهِ صِفَةُ الْأَجْسَامِ وَالْأَشْبَاحِ ، فَأَمَّا نُزُولُ مَنْ لَا تَسْتَوْلِي عَلَيْهِ صِفَاتُ الْأَجْسَامِ فَإِنَّ هَذِهِ الْمَعَانِيَ غَيْرُ مُتَوَهَّمَةٍ فِيهِ ، وإِنَّمَا هُوَ خَبَرٌ عَنْ قُدْرَتِهِ وَرَأْفَتِهِ بِعِبَادِهِ ، وَعَطْفِهِ عَلَيْهِمْ ، وَاسْتِجَابَتِهِ دُعَاءَهُمْ ، وَمَغْفِرَتِهِ لَهُمْ ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ لَا يَتَوَجَّهُ عَلَى صِفَاتِهِ كَيْفِيَّةٌ وَلَا عَلَى أَفْعَالِهِ كَمِّيَّةٌ ، سُبْحَانَهُ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] (٢) .

وقال الإمام الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ) : " وَيَتَجَنَّبُ الْمُحَدِّثُ فِي أَمَالِيهِ رِوَايَةَ مَا لَا تَحْتَمِلُهُ عُقُولُ الْعَوَامِّ ، لِمَا لَا يُؤْمَنُ عَلَيْهِمْ فِيهِ مِنْ دُخُولِ الْخَطَأِ وَالْأَوْهَامِ ، وَأَنْ يُشَبِّهُوا اللهَّ تَعَالَى بِخَلْقِهِ ، وَيُلْحِقُوا بِهِ مَا يَسْتَحِيلُ فِي وَصْفِهِ ، وَذَلِكَ نَحْوُ أَحَادِيثِ الصِّفَاتِ الَّتِي ظَاهِرُهَا يَقْتَضِي التَّشْبِيهَ وَالتَّجْسِيمَ ، وَإِثْبَاتَ الْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ لِلْأَزَلِيِّ الْقَدِيمِ ، وَإِنْ كَانَتِ الْأَحَادِيثُ صِحَاحاً ، وَلَهَا فِي التَّأْوِيلِ طُرُقٌ وَوُجُوهٌ ،إِلَّا أَنَّ مِنَ حَقِّهَا أَنْ لَا تُرْوَى إِلَّا لِأَهْلِهَا خَوْفاً مِنْ أَنْ يُضَلَّ بِهَا مَنْ جَهِلَ مَعَانِيَهَا ، فَيَحْمِلُهَا عَلَى ظَاهِرِهَا أَوْ يَسْتَنْكِرُهَا ، فَيَرُدَّهَا وَيُكَذِّبُ رِوَاتِهَا وَنَقَلَتَهَا " (٣) .

وقال الإمام ابن عبد البرّ (٤٦٣هـ) : " وَقَدْ قَالَ اللهُّ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] ، وَلَيْسَ مَجِيئُهُ حَرَكَةً ، وَلَا زَوَالاً ، وَلَا انْتِقَالاً ، لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ إِذَا كَانَ الْجَائِي جِسْماً أَوْ جَوْهراً ، فَلَمَّا ثَبَتَ أَنَّه لَيْسَ بِجِسْمٍ

---

(١) انظر : الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث (ص١١٧) .

(٢) انظر : السنن الكبرى (٣/ ٤) .

(٣) انظر : الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ١٠٧) .

وَلَا جَوْهَرٍ ، لَمْ يَجِبْ أَنْ يَكُونَ مَجِيئُهُ حَرَكَةً وَلَا نَقْلَةً ، وَلَوِ اعْتَبَرْتَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ : جَاءَتْ فُلَاناً قِيَامَتُهُ ، وَجَاءَهُ الْمَوْتُ ، وَجَاءَهُ الْمَرَضُ ، وَشِبْهُ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَوْجُودٌ نَازِلٌ بِهِ وَلَا مَجِيءَ لَبَانَ لَكَ ، وَبِاللهِ الْعِصْمَةُ وَالتَّوْفِيقُ " (١) .

وقال الإمام القُشيري (٤٦٥هـ) عند ذكره لعقيدة الصُّوفيَّة : " وَهَذِهِ فصول تشتمل عَلَىٰ بيان عقائدهم فِي مسائل التَّوحيد ، ذكرناها عَلَىٰ وجه التَّرتيب . قَالَ شيوخ هذه الطَّريقة عَلَىٰ مَا يدلُّ عَلَيْهِ متفرّقاتُ كلامهم ومجموعاتها ومصنَّفاتهم فِي التَّوحيد : أَنَّ الحقَّ سبحانه وتعالىٰ موجودٌ ، قديمٌ ، واحدٌ ، حَكِيمٌ ، قادرٌ ، عليمٌ ، قاهرٌ ، رحيمٌ ، مُريدٌ ، سميعٌ ، مجيدٌ ، رفيعٌ ، متكلِّمٌ ، بصيرٌ ، متكبِّرٌ ، قديرٌ ، حيٌّ ، أحدٌ ، باقٍ ، صمد، وأنَّه عالمٌ بعلم ، قادر بقدرة ، مريد بإرادة ، سميع بسمع ، بصيرٌ ببصر ، متكلِّمٌ بكلام ، حيٌّ بحياة ، باقٍ ببقاء ، وَلَهُ يدان ، هما صفتان يخلق بهما مَا يشاء سبحانه عَلَىٰ التَّخصيص ، وَلَهُ الوجه الجميل وصفات ذاته مختصَّة بذاته ، لا يقال هِيَ وَهُوَ ، ولا هِيَ أغيار لَهُ ، بَل هِيَ صفات لَهُ أزليَّة ونعوت سرمديَّة ، وأنَّه أحديُّ الذَّات لَيْسَ يشبه شيئاً من المصنوعات ، ولا يشبهه شَيْء من المخلوقات ، لَيْسَ بجسْم ، ولا جوهر ، ولا عَرَض ، ولا صفاته أعراض ، ولا يتصوَّر فِي الأوهام ولا يتقدَّر فِي العقول ، ولا لَهُ جهة ولا مكان ، ولا يجري عَلَيْهِ وقت وزمان ، ولا يَجُوز فِي وصفه زيادة ولا نقصان ، ولا يخصّه هيئة وَقَدّ ، ولا يقطعه نهاية وحدٌّ ، ولا يحلُّه حادث ، ولا يحمله عَلَىٰ الفعل باعثٌ ، ولا يَجُوز عَلَيْهِ لون ، ولا كون ، ولا ينصره مددٌ ولا عون ، ولا يخرج عَن قدرته مقدورٌ ، ولا ينفكُّ عَن حكمه مفطور ، ولا يعزب عَن علمه معلوم ، ولا هُوَ عَلَىٰ فعله كَيْفَ وَمَا يصنع ملوم ، لا يقال لَهُ أين ، ولا حيث ، ولا كَيْفَ ، ولا يستفتح لَهُ وجود ، فيقال : مَتَىٰ كَانَ ، ولا ينتهي لَهُ بقاء ، فيقال : استوفىٰ الأجل والزَّمان ، ولا يقال : لِمَ فعل مَا فعل ، إذ لا علَّة لأفعاله ، ولا يقال : مَا هُوَ إذ لا جنس لَهُ فيتميَّز بأمارة عَن أشكاله ، يرىٰ لا عَن مقابلة ويرىٰ غيره لا عَن مماقلة ، ويصنع لا عَن مباشرة ومزاولة ، لَهُ الأسماء الحسنىٰ والصِّفات العلا ، يفعل مَا يريد ، ويذلّ لحكمه العبيد ، لا يجري فِي سلطانه إلَّا مَا يشاء ، ولا يحصل فِي ملكه غَيْر مَا سبق بِهِ الْقَضَاء ، مَا علم أنَّه يَكُون من الحادثات أراد أَن يَكُون وَمَا علم أنَّه لا يَكُون مِمَّا جاز أَن يَكُون أراد أَن لا يَكُون " (٢) .

وقال الإمام الاسفراييني (٤٧١هـ) : " ... وَأَن تعلم أَنَّ الْقَدِيم سُبْحَانَهُ لَيْسَ بجِسْم ، وَلَا جَوْهَر ، لِأَنَّ الْجِسْم يكون فِيهِ التَّأْلِيف ، والجوهر يجوز فِيهِ التَّأْلِيف والاتِّصال ، وكلُّ مَا كَانَ لَهُ الاتِّصال أَو جَازَ عَلَيْهِ

---

(١) انظر : التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٧/ ١٣٧) .

(٢) انظر : الرسالة القشيرية (ص١١-١٢) .

الاتِّصال يكون لَهُ حدٌّ وَنِهَايَة . وَقد دلَّلنا علىٰ اسْتِحَالَة الْحَدِّ وَالنِّهَايَة علىٰ الْبَارِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ . وَقد ذكر الله تَعَالَىٰ فِي صفة الْجِسْم : الزِّيَادَة ، فَقَالَ : وزاده بسطة فِي الْعلم والجسم ، فَبيَّن أَنَّ مَا كَانَ جسْماً جَازَت عَلَيْهِ الزِّيَادَة وَالنُّقْصَان ، وَلَا تجوز الزِّيَادَة وَالنُّقْصَان علىٰ الْبَارِي سُبْحَانَهُ " .

وقال أيضاً : " ... وأن تعلم أنَّ الحركة ، والسُّكون ، والذَّهاب ، والمجيء ، والكون في المكان ، والاجتماع ، والافتراق ، والقُرب ، والبُعد من طريق المسافة ، والاتِّصال ، والانفصال ، والحجم ، والجِرم ، والجثَّة ، والصُّورة ، والحيِّز ، والمقدار ، والنَّواحي ، والأقطار ، والجوانب ، والجهات كلُّها لا تجوز عليه تعالىٰ ، لأنَّ جميعها يوجب الحدَّ والنهاية . وقد دلَّلنا علىٰ استحالة ذلك علىٰ الباري سبحانه وتعالىٰ . وأصل هذا في كتاب الله تعالىٰ ، وذلك أنَّ إبراهيم عليه السَّلام لَمَّا رأىٰ هذه العلامات علىٰ الكواكب والشَّمس والقمر ، قال : ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأَفِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٦] ، فبيَّن أنَّ ما جاز عليه تلك الصِّفات لا يكون خالقاً " (١) .

وقال الإمام المتولِّي النَّيسابوري الشَّافعي (٤٧٨هـ) : " الباري تعالىٰ ليس بجِسْم ، وذهبت الكرَّاميَّة إلىٰ أنَّ الله تعالىٰ جسم ، والدَّليل علىٰ فساد قولهم : أنَّ الجسم في اللغة بمعنىٰ التَّأليف واجتماع الأجزاء ، والدَّليل عليه : أنَّه نقول عند زيادة الأجزاء وكثرة التَّأليف : جسم وأَجْسَمُ ، كما يقال عند زيادة العلم : عليمٌ وأعلم ، وقال تعالىٰ : وزاده بسطه في العلم والجسم ، فلمَّا كان وصف المبالغة كزيادة التَّأليف ، دلَّ علىٰ أنَّ أصل الاسم للتَّأليف ، فإذا ثبت ما ذكرنا بطل مذهبهم ، لأنَّ الله تعالىٰ لا يجوز عليه التَّأليف " (٢) .

وقال الإمام الجويني (٤٧٨هـ) : " من انتهض لطلب مدبِّره ، فإن اطمأنَّ إلىٰ موجود انتهىٰ إليه فكره فهو مشبِّه ، وإن اطمأنَّ إلىٰ النَّفي المحض فهو معطِّل ، وإن قطع بموجود ، واعترف بالعجز عن دَرْك حقيقته فهو موحِّد " (٣) .

وقال الإمام أبو حامد الغزالي (٥٠٥هـ) : " الأصل الرَّابع : العلم بأنَّه تعالىٰ ليس بجوهر يتحيَّز ، بل يتعالىٰ ويتقدَّس عن مناسبة الحيِّز .

وبرهانه : أنَّ كلَّ جوهر متحيِّز فهو مختصٌّ بحيِّزه ، ولا يخلو من أن يكون ساكناً فيه أو متحرِّكاً عنه ، فلا يخلو عن الحركة أو السُّكون ، وهما حادثان ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث . ولو تصوّر جوهر

---

(١) انظر : التبصير في الدِّين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين (ص١٥٩) ، (ص١٦٠) باترتيب .

(٢) انظر : الغنية في أصول الدِّين (ص٨٠-٨١) .

(٣) انظر : العقيدة النظاميَّة في الأركان الإسلاميَّة (ص٢٣) .

متحيِّز قديم ، لكان يعقل قدم جواهر العالم ، فإن سمَّاه مسم جوهراً ولم يرد به المتحيِّز ، كان مخطئاً من حيث اللفظ لا من حيث المعنىٰ .

الأصل الخامس : العلم بأنَّه تعالىٰ ليس بجسم مؤلَّف من جواهر ، إذ الجسم عبارة عن المؤلَّف من الجواهر ، وإذا بطل كونه جوهراً مخصوصاً بحيِّز ، بطل كونه جسماً ، لأنَّ كلَّ جسم مختصٍّ بحيِّز ومركَّب من جوهر ، فالجوهر يستحيل خلُّوه عن الافتراق ، والاجتماع ، والحركة ، والسُّكون ، والهيئة ، والمقدار ، وهذه سمات الحدوث . ولو جاز أن يعتقد أنَّ صانع العالم جسم لجاز أن يعتقد الإلهيَّة للشَّمس والقمر أو لشيء آخر من أقسام الأجسام " (١) .

وقال أيضاً : " الدَّعوىٰ الثَّامنة : ندَّعي أنَّ الله تعالىٰ منزَّه عن أن يوصف بالاستقرار علىٰ العرش ، فإنّ كلّ متمكِّن علىٰ جسم ومستقر عليه مقدَّر لا محالة ، فإنَّه إمَّا أن يكون أكبر منه أو أصغر أو مساوياً ، وكلُّ ذلك لا يخلو عن التَّقدير ، وأنَّه لو جاز أن يماسّه جسم من هذه الجهة ، لجاز أن يماسّه من سائر الجهات فيصير محاطاً به ، والخصم لا يعتقد ذلك بحال ، وهو لازم علىٰ مذهبه بالضَّرورة ، وعلىٰ الجملة : لا يستقرُّ علىٰ الجسم إلَّا جسم ، ولا يحلُّ فيه إلا عرضٌ ، وقد بان أنَّه تعالىٰ ليس بجسم ولا عَرَض ، فلا يحتاج إلىٰ إقران هذه الدَّعوىٰ بإقامة البرهان " (٢) .

وقال أيضاً : " ... وَأَنَّه لَيْسَ بجسم مُصَور ، وَلَا جَوْهَر محْدُود مُقَدّر ، وَأَنَّه لَا يماثل الْأَجْسَام ، لَا فِي التَّقْدِير وَلَا فِي قبُول الانقسام ، وَأَنَّه لَيْسَ بجوهر ، وَلَا تحلُّه الْجَوَاهِر ، وَلَا بِعرَض ، وَلَا تحلُّه الْأَعْرَاض ، بل لَا يماثل مَوْجُوداً ، وَلَا يماثله مَوْجُود ، لَيْسَ كمثله شَيْء ، وَلَا هُوَ مثل شَيْء ، وَأَنَّه لَا يحدُّه الْمِقْدَار ، وَلَا تحويه الأقطار ، وَلَا تحيط بِهِ الْجِهَات ، وَلَا تكتنفه الأرضون وَلَا السَّموات ، وَأَنَّه مستوي علىٰ الْعَرْش ، علىٰ الْوَجْه الَّذِي قَالَه ، وبالمعنىٰ الَّذِي أَرَادَهُ ، اسْتِوَاء منزَّهاً عَن المماسَّة والاستقرار ، والتَّمكُّن والحلول والانتقال ، لَا يحملهُ الْعَرْش ، بل الْعَرْش وَحَمَلته ، محمولون بلطف قدرته ، ومقهورون فِي قَبضته ، وَهُوَ فَوق الْعَرْش وَالسَّمَاء ، وَفَوق كل شَيْء إِلىٰ تُخوم الثَّرىٰ ، فوقيَّة لَا تزيده قرباً إِلىٰ الْعَرْش وَالسَّمَاء ، كَمَا لَا تزيده بُعداً عَن الأَرْض وَالثَّرىٰ ، بل هُوَ رفيع الدَّرَجَات عَن الْعَرْش وَالسَّمَاء ، كَمَا أَنَّه رفيع الدَّرَجَات عَن الأَرْض وَالثَّرىٰ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِك قريب من كلِّ مَوْجُود ، وَهُوَ أقرب إِلىٰ العَبْد من حَبل الوريد ، وَهُوَ علىٰ

(١) انظر : إحياء علوم الدِّين (١/ ١٠٦-١٠٧) .

(٢) انظر : الاقتصاد في الاعتقاد (ص٣٨) .

كلِّ شَيْء شَهِيد ، إذا لَا يماثل قُربه قُرب الْأَجْسَام ، كَمَا لَا تماثل ذَاته ذَات الْأَجْسَام ، وَأَنَّه لَا يحلُّ فِي شَيْء ، وَلَا يحلُّ فِيهِ شَيْء " .

وقال أيضاً : " الْعِلْمُ بِأَنَّه تَعَالَىٰ لَيْسَ بجسم مؤلَّف من جَوَاهِر ، إِذْ الْجِسْم عبارَة عَن الْمُؤلَّف من الْجَوَاهِر ، وَإِذ بَطل كَونه جوهراً مَخْصُوصاً بحيِّز ، بَطل كَونه جسماً ، لِأَنَّ كلّ جسم مُخْتَصّ بحيِّز ومركَّب من جَوْهَر ، فالجوهر يَسْتَحِيل خلوُّه عَن الِافْتِرَاق والاجتماع ، وَالْحَرَكَة والسُّكون ، والهيئة والمقدار ، وَهَذِه سمات الْحُدُوث ، وَلَو جَازَ أَن يعْتَقد أَنَّ صانع الْعَالم جسم ، لجَاز أَن يعْتَقد الإلهيَّة للشَّمس وَالْقَمَر أَو لشَيْء آخر من أَقسَام الْأَجْسَام ، فَإِن تجاسر متجاسرٌ علىٰ تَسْمِيَته تَعَالَىٰ جسماً من غير إِرَادَة التَّأْلِيف من الْجَوَاهِر ، كَانَ ذَلِك غَلطاً فِي الِاسْم مَعَ الْإِصَابَة فِي نفي معنىٰ الْجِسْم " .

وقال أيضاً : " الأَصْل السَّادِس التَّنَزُّه عَن كَونه عرَضاً : الْعلم بِأَنَّهُ تَعَالَىٰ لَيْسَ بِعرَض قَائِم بجسم أَو حَال فِي مَحلٍّ ، لِأَنَّ الْعرَض مَا يحلُّ فِي الْجِسْم ، فَكلُّ جسم فَهُوَ حَادث لَا محَالة ، وَيكون محدِثُه مَوْجُوداً قبله ، فَكيف يكون حَالاًّ فِي الْجِسْم ، وَقد كَانَ مَوْجُوداً فِي الْأَزَل وَحده ؟!!! وَمَا مَعَه غَيره ثمَّ أحدث الْأَجْسَام والأعراض بعده .

وَلِأَنَّهُ عَالم قَادر مُرِيد خَالق ، وَهَذِه الْأَوْصَاف تستحيل علىٰ الْأَعْرَاض ، بل لَا تعقل إِلَّا لموجود قَائِم بِنَفسِهِ ، مُسْتَقل بِذَاتِهِ ، وَقد تحصَّل من هَذِه الْأُصُول أَنَّه مَوْجُود قَائِم بِنَفسِهِ ، لَيْسَ بجوهر ، وَلَا جسم ، وَلَا عرَض ، وَأَنَّ الْعَالم كُلّه جَوَاهِر وأعراض وأجسام ، فَإِذاً لَا يشبه شَيْئاً ، ولَا يُشبههُ شَيْء ، بل الْحَيّ القيوم الَّذِي لَيْسَ كمثله شَيْء ، وأنىٰ يشبه الْمَخْلُوق خالقه ، والمقدور مقدِّره ، والمصوَّر مصوِّره ، والأجسام والأعراض كلّهَا من خلقه وصنعه ، فاستحال الْقَضَاء عَلَيْهَا بمماثلته ومشابهته .

الأَصْل السَّابع : الْعلم بِأَنَّ الله تَعَالَىٰ منزَّه الذَّات عَن الِاخْتِصَاص بالجهات :

فَإِنَّ الْجِهَة : إِمَّا فَوق وَإِمَّا أَسْفَل وَإِمَّا يَمِين وَإِمَّا شمال أَو قُدَّام أَو خلف ، وَهَذِه الْجِهَات هُوَ الَّذِي خلقهَا وأحدثها بِوَاسِطَة خلق الْإِنْسَان ، إِذْ خلق لَهُ طرفين ، أَحدهمَا : يعْتَمد علىٰ الأَرْض ، وَيُسمَّىٰ رِجلاً ، وَالْآخر يُقَابله وَيُسمَّىٰ رَأْساً ، فَحدث اسْم الفوق لما يَلِي جِهَة الرَّأْس ، وَاسم السّفل لما يَلِي جِهَة الرِّجل ، حَتَّىٰ إِنَّ النَّملة الَّتِي تدبُّ منكَّسة تَحت السّقف ، تنْقَلب جِهَة الفوق فِي حَقّهَا تحتاً ، وَإِن كَانَ فِي حَقِّنا فوقاً ، وَخلق للْإِنْسَان الْيَدَيْنِ وإحداهما أقوىٰ من الْأُخْرَىٰ فِي الْغَالِب ، فَحدث اسْم الْيَمين للأقوىٰ ، وَاسم الشِّمَال لما يُقَابله ، وَتسَمَّىٰ الْجِهَة الَّتِي تلِي الْيَمين يَمِيناً ، وَالْأُخْرَىٰ شمالاً ، وَخلق لَهُ جانبين يبصر من أَحدهمَا ويتحرَّك إِلَيْهِ ، فَحدث اسْم القدام للجهة الَّتِي يتَقَدَّم إِلَيْهَا بالحركة ، وَاسم الْخلف لما يقابلها ،

فالجهات حَادِثَة بحدوث الْإِنْسَان ، وَلَو لم يخلق الْإِنْسَان بِهَذِهِ الْخلقَة ، بل خلق مستديراً كالكرة ، لم يكن لهَذِهِ الْجِهَات وجود ألبته ، فكيف كَانَ فِي الْأَزَل مُخْتَصًّا بِجِهَة ، والجهة حَادِثَة أَو كَيفَ صَار مُخْتَصًّا بِجِهَة بعد أَن لم يكن لَهُ ؟ أبأن خلق الْعَالم فَوْقه ، وَتَعَالَى عَن أَن يكون لَهُ فَوق ، إِذْ تَعَالَى أَن يكون لَهُ رَأس ، والفوق عبارَة عَمَّا يكون جِهَة الرَّأْس ، أَو خلق الْعَالم تَحْتَهُ ، فتعالى عَن أَن يكون لَهُ تَحت ، إِذْ تَعَالَى عَن أَن يكون لَهُ رِجل ، والتَّحت عبارَة عَمَّا يَلِي الرِّجل ، وكلّ ذَلِك مِمَّا يَسْتَحِيل فِي الْعقل ، وَلِأَنَّ الْمَعْقُول من كَونه مُخْتَصًّا بِجِهَة أَن مُخْتَصّ بحيِّز اخْتِصَاص الْجَوَاهِر ، أَو مُخْتَصّ بالجواهر اخْتِصَاص الْعرَض ، وَقد ظهر اسْتِحَالَة كَونه جوهراً أَو عرَضاً ، فاستحال كَونه مُخْتَصًّا بالجهة ، وَإِن أُرِيد بالجهة غير هذَيْن الْمَعْنيين كَانَ غَلطاً فِي الإِسْم مَعَ المساعدة على الْمَعْنى ، وَلِأَنَّهُ لَو كَانَ فَوق الْعَالم لَكَانَ محاذياً لَهُ ، وكلُّ محاذ لجسم ،فإمَّا أَن يكون مثله أَو أَصْغَر أَو أكبر ، وكلُّ ذَلِك تَقْدِير محوج بِالضَّرُورَةِ إِلَى مُقَدّر ، ويتعالى عَنهُ الْخَالِق الْوَاحِد الْمُدبر .

فَأَمَّا رفع الْأَيْدِي عِنْد السُّؤَال إِلَى جِهَة السَّماء ، فَهُوَ لِأَنَّهَا قبْلَة الدُّعَاء ، وَفِيه أَيْضاً إِشَارَة إِلَى مَا هُوَ وصف للمدعو من الْجلَال والكبرياء وتنبيهاً بِقصد جِهَة الْعُلُوّ على صفة الْمجد والْعَلَاء ، فَإِنَّهُ تَعَالَى فَوق كلِّ مَوْجُود بالقهر والاستيلاء " (١) .

وقال أيضاً : " الدَّعوى الخامسة : ندَّعي أنَّ صانع العالم ليس بجسم ، لأنَّ كلَّ جسم فهو متألِّف من جوهرين متحيِّزين ، وإذا استحال أن يكون جوهراً استحال أن يكون جسماً ، ونحن لا نعني بالجسم إلَّا هذا .

فإن سمَّاه جسْماً ولم يرد هذا المعنى كانت المضايقة معه بحقِّ اللغة أو بحقِّ الشَّرع لا بحقِّ العقل ، فإنَّ العقل لا يحكم في إطلاق الألفاظ ونظم الحروف والأصوات التي هي اصطلاحات ، ولأنَّه لو كان جسماً لكان مقدَّراً بمقدار مخصوص ، ويجوز أن يكون أصغر منه أو أكبر ، ولا يترجَّح أحد الجائزين عن الآخر إلَّا بمخصِّص ومرجِّح ، كما سبق ، فيفتقر إلى مخصِّص يتصرَّف فيه فيقدِّره بمقدار مخصوص ، فيكون مصنوعاً لا صانعاً ومخلوقاً لا خالقاً " (٢) .

وقال أيضاً : " اعْلَمْ أَنَّ الْحَقَّ الصَّحِيحَ الَّذِي لَا مِرَاءَ فِيهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَصَائِرِ ، هُوَ مَذْهَبُ السَّلَفِ أَعْنِي مذهب الصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِينَ ... حَقِيقَةُ مَذْهَبِ السَّلَفِ ، وَهُوَ الْحَقُّ عِنْدَنَا : أَنَّ كُلَّ مَنْ بَلَغَهُ حَدِيثٌ مِنْ هَذِهِ

---

(١) انظر : قواعد العقائد (ص١٦٠-١٦٥) ، (ص٥١-٥٣) ، (ص١٥٩) بالترتيب .

(٢) انظر : الاقتصاد في الاعتقاد (ص٣٢) .

الْأَخْبَارِ مِنْ عَوَامِّ الْخَلْقِ يَجِبُ عَلَيْهِ فيه سَبْعَةُ أُمُورٍ : التَّقْدِيسُ ثمَّ التَّصْدِيقُ ثمَّ الاِعْتِرَافُ بِالْعَجْزِ ثمَّ السُّكُوتُ ثمَّ الْكَفُّ ثمَّ الْإِمْسَاكُ ثمَّ التَّسْلِيمُ لِأَهْلِ الْمَعْرِفَةِ .

أَمَّا التَّقْدِيسُ ، فأعني به تَنْزِيهُ الرَّبِّ تعالىٰ عَنِ الْجِسْمِيَّةِ وَتَوَابِعِهَا ... " (١) .

وقال أيضاً : " ... أمَّا إذا كفر ببدعته ، فعند ذلك لا يُعتبر خلافه إن كان يصلِّي إلىٰ القبلة ويعتقد نفسه مسلماً ، لأنَّ الأُمَّة ليست عبارة عن المصلِّين إلىٰ القبلة ، بل عن المؤمنين ، وهو كافر ، وإن كان لا يدري أنَّه كافر ، نعم لو قال بالتَّشبيه والتَّجسيم وكفَّرناه ، فلا يستدلُّ علىٰ بطلان مذهبه بإجماع مخالفيه علىٰ بطلان التَّجسيم مصيراً إلىٰ أنَّهم كلّ الأُمَّة ؛ لأنَّ كونهم كلّ الأُمَّة موقوف علىٰ إخراج هذا من الأُمَّة ، والإخراج من الأُمَّة موقوف علىٰ دليل التَّكفير ، فلا يجوز أن يكون دليل تكفيره ما هو موقوف علىٰ تكفيره ، فيؤدِّي إلىٰ إثبات الشَّيء بنفسه ... " (٢) .

وقال الإمام أبو الحسين ابن أبي يعلىٰ (٥٢٦هـ) : " وقد قَالَ الوالد السَّعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي أخبار الصِّفات : المذهب فِي ذَلِكَ : قبول هَذِهِ الأحاديث عَلَىٰ ما جاءت به من غير عدول عَنْهُ إلىٰ تأويل يخالف ظاهرها ، مَعَ الاعتقاد بأنَّ اللهَّ سبحانه بخلاف كلِّ شيء سواه ، وكلّ ما يقع في الخواطر من حدٍّ أو تشبيه أو تكييف : فالله سبحانه وتعالىٰ عن ذَلِكَ ، وَاللهَّ ليس كمثله شيء ، ولا يوصف بصفات المخلوقين الدالَّة عَلَىٰ حدَثهم ، ولا يجوز عَلَيْهِ ما يجوز عليهم من التغيُّر من حال إلىٰ حال ، ليس بجسم ، ولا جوهر ، ولا عرَض ، وأنَّه لم يزل ، ولا يزال ، وأنَّه الَّذِي لا يتصوَّر فِي الأوهام ، وصفاته لا تشبه صفات المخلوقين ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] ...

قَالَ أَحْمَد : لا يوصف اللهَّ تعالىٰ بأكثر ممَّا وصف به نفسه .

قَالَ الوالد السَّعيد : فمن اعتقد أنَّ اللهَّ سبحانه جسمٌ من الأجسام ، وأعطاه حقيقة الجسم من التَّأليف والانتقال : فهو كافر ، لأنَّه غير عارف بالله عزَّ وجلَّ ، لأنَّ اللهَّ سبحانه يستحيل وصفه بهذه الصِّفات ، وَإِذَا لم يعرف اللهَّ سبحانه : وجب أن يكون كافراً " (٣) .

وقال الإمام أبو عبد الله المازري المالكي (٥٣٦هـ) : " ... واعلم أنَّ هذا الحديث غلِط فيه ابن قتيبة وأجراه علىٰ ظاهره ، وقال : " فإنَّ الله سبحانه له صورة لا كالصُّور ، وأجرىٰ الحديث علىٰ ظاهره " ، والذي قاله

---

(١) انظر : إلجام العوام عن علم الكلام (ص٤) .

(٢) انظر : المستصفىٰ (ص١٤٥) .

(٣) انظر : طبقات الحنابلة (٢/ ٢١٠-٢١٢) .

لا يخفى فساده ، لأنَّ الصُّورة تفيد التَّركيب ، وكلُّ مركَّبٍ مُحدَث ، والباري سبحانه وتعالى ليس بمحْدَث ، فليس بمركَّب ، وما ليس بمركَّب فليس بمصوَّر . وهذا من جنس قول المبتدعة : إنَّ الباري عزَّ وجلَّ جسم لا كالأجسام ، لَّما رأوا أهل السُّنَّة ، يقولون : الباريء سبحانه شيء لا كالأشياء ، طرَّدوا هذا ، فقالوا : جسم لا كالأجسام ، وقال ابن قتيبة : صورة لا كَالصُّوَر . والفَرق بَين مَا قلنَاه وَمَا قَالوه : أنَّ لفظة شيء لا تُفيد الحدوث ، ولا تتضمَّن ما يقتضيه . وقولنا : جسم وصورَة يتضمَّنَان التَّأليف والتَّركيب ، وذلك دليل الحدوث " (١) .

وقال الإمام الزَّمخشري (٥٣٨هـ) : " ... على أنَّ الجزء إنَّما يصح في الأجسام ، وهو متعالٍ عن صفات الأجسام والأعراض " .

وقال أيضاً : " ... والله تعالى منزَّه عن الجوارح ، وعن صفات الأجسام " (٢) .

وقال الإمام القاضي عياض (٥٤٤هـ) : " والله – سبحانه – ليس بجسم ، ولا يجوز عليه تنقُّل ولا حركة ولا سكون " (٣) .

وقال أيضاً : " والله تعالى منزَّه عن الجسميَّة وصفات المخلوقات " (٤) .

وقال الإمام الشَّهرستاني (٥٤٨هـ) : " القاعدة الرَّابعة : في إبطال التَّشبيه :

وفيها الرَّدُّ على أصحاب الصُّور ، وأصحاب الجهة والكراميَّة في قولهم : إنَّ الربَّ تعالى محلٌّ للحوادث . فمذهب أهل الحقِّ أنَّ الله سبحانه لا يشبه شيئاً من المخلوقات ، ولا يشبهه شيء منها بوجه من وجوه المشابهة والمماثلة ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] ، فليس الباري سبحانه بجوهر ، ولا جسم ، ولا عَرَض ، ولا في مكان ، ولا في زمان ، ولا قابل للأعراض ، ولا محلٍّ للحوادث ... " (٥) .

وقال الإمام ابن عساكر (٥٧١هـ) : " الْفَصْل الأوَّل : فِي تَرْجَمَة عقيدة أهل السُّنَّة ... وَأَنَّه لَيْسَ بجسم مُصَوَّر ، وَلَا جَوْهَر مَحْدُود مُقَدّر ، وَأَنَّه لَا يماثل الْأَجْسَام لَا فِي التَّقْدِير وَلَا فِي قبُول الانقسام ، وَأَنَّه لَيْسَ بجوهر ، وَلَا تحلُّه الْجَوَاهِر ، وَلَا بِعَرَض وَلَا تحلُّه الْأَعْرَاض ، بل لَا يماثل مَوْجُوداً وَلَا يماثله مَوْجُود ، وَلَيْسَ كمثله

---

(١) انظر : الْمُعْلم بفوائد مسلم (٣/ ٢٩٩) .

(٢) انظر : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (١/ ٦٢٧) ، (٤/ ٣٣٧) بالترتيب .

(٣) انظر : إكمال المعلم شرح صحيح مسلم (٨/ ٨٥) .

(٤) انظر : مشارق الأنوار على صحاح الآثار (٢/ ٢٤٦) .

(٥) انظر : نهاية الإقدام في علم الكلام (ص٦٣) .

شَيْء ، وَلَا هُوَ مثل شَيْء ، وَأَنَّه لَا يحدُّه الْمِقْدَار ، وَلَا تحويه الأقطار ، وَلَا تحيط بِهِ الْجِهَات ، وَلَا تكتنفه الأرضون وَالسَّمَوَات ، وَأَنَّه اسْتَوَىٰ علىٰ الْعَرْش علىٰ الْوَجْه الَّذِي قَالَه ، وبالمعنىٰ الَّذِي أَرَادَهُ ، اسْتِوَاء منزَّهاً عَن المماسَّة والاستقرار ، والتَّمكُّن والحلول والانتقال ، لَا يحملهُ الْعَرْش ، بل الْعَرْش وَحَمَلته محمولون بلطف قدرته ، ومقهورون فِي قَبضته ، وَهُوَ فَوق الْعَرْش وَفَوق كلّ شَيْء إلىٰ تخوم الثَّرىٰ ، فوقيَّة لَا تزيده قرباً إلىٰ الْعَرْش والسَّما ، بل هُوَ رفيع الدَّرَجَات عَن الْعَرْش ، كَمَا أَنَّه رفيع الدَّرَجَات عَن الثَّرىٰ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِك قريبٌ من كل مَوْجُود ، وَهُوَ أقرب إلىٰ العبيد من حَبل الوريد ، وَهُوَ علىٰ كلّ شَيْء شَهِيد ، إِذ لَا يماثلُ قُربه قرب الْأَجْسَام ، كَمَا لَا تماثل ذَاته ذَات الْأَجْسَام ، وَأَنَّه لَا يحلُّ فِي شَيْء ، وَلَا يحلُّ فِيهِ شَيْء ، تَعَالَىٰ عَن أَن يحويه مَكَان ، كَمَا تقدَّس عَن أَن يحدُّه زمَان ، كَان قبل أَن خلق الزَّمَان وَالْمَكَان ، وَهُوَ الْآن علىٰ مَا عَلَيْهِ كَانَ ، وَأَنَّه بَائِن من خلقه بصفاته ، وَلَيْسَ فِي ذَاته سواهُ ، وَلَا فِي سواهُ ذَاته ، وَأَنَّه مقدَّس عَن التَّغَيُّر والانتقال ، لَا تحلُّه الْحَوَادِث ، وَلَا تعتريه الْعَوَارِض ، بل لَا يزَال فِي نعوت جَلَاله منزَّهاً عَن الزَّوَال ، وَفِي صِفَات كَمَاله مستغنياً عَن زِيَادَة الاستكمال ... " .

وقال أيضاً في كلامه عن الأشاعرة : " فيا ليت شعري ، مَاذَا الَّذِي تنفر مِنْهُ الْقُلُوب عَنْهُم ؟ أم مَاذَا ينقم أَرْبَاب الْبدع مِنْهُم ؟ أغزارة الْعلم ، أم رجاحة الْفَهم ؟ أم اعْتِقَاد التَّوحيد والتَّنزيه ؟ أم اجتنَاب القَوْل بالتَّجسيم والتَّشبيه ؟ أم القَوْل بِإِثْبَات الصِّفَات ؟ أم تقديس الرَّبِّ عَن الْأَعْضَاء والأدوات ؟ أم تثبيت الْمَشِيئَة للهِ وَالْقدر ؟ أم وَصفه عزَّ وجلَّ بِالسَّمْعِ وَالْبَصَر ؟ أم القَوْل بقدم الْعلم وَالْكَلَام ؟ أم تنزيههم الْقَدِيم عَن صِفَات الْأَجْسَام " (١) .

وقال الإمام جمال الدِّين الغزنوي الحنفي (٥٩٣هـ) : " صانع الْعَالم لَيْسَ بجسم ، لِأَنَّ الْجِسْم مؤلَّف من الْجَوْهَر ، وَإِذا بَطل كَونه جوهراً ، بَطل كَونه جسماً ضَرُورَة " (٢) .

وقال الإمام ابن الجوزي الحنبلي (٥٩٧هـ) : " قال ابن عقيل (٥١٣هـ) : تعالىٰ الله أن يكون له صفة تشغل الأمكنة . هذا عين التَّجسيم ، وليس الحقُّ بذي أجزاء وأبعاض يعالج بها . ثمَّ أليس يعملُ في النَّار أمرُه وتكوينه ؟!!! فكيف يستعينُ بشيء من ذاته ويعالجها بصفة من صفاته ، وهو القائل : ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي

---

(١) انظر : تبيين كذب المفتري فيما نسب إلىٰ الإمام أبي الحسن الأشعري (ص٢٩٩-٣٠٠) ، (ص٣٦٧) بالترتيب .

(٢) انظر : كتاب أصول الدِّين (ص٦٧-٦٨) .

بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء:٦٩] ، فما أسخف هذا الاعتقاد وأبعده عن مكوِّن الأملاك والأفلاك ، فقد كذَّبهم الله ، فكيف يُظن بالخالق أنَّه يَرِدُها ؟ !! تعالىٰ الله عن تجاهل المجسِّمة " (١) .

وقال أيضاً : " ... والواجب علىٰ الخلق اعتقاد التَّنزيه وامتناع تجويز النُّقلة ، وأنَّ النُّزول الذي هو انتقال من مكان إلىٰ مكان يفتقر إلىٰ ثلاثة أجسام : جسمٌ عالي ، وهو مكان السَّاكن ، وجسمٌ سافل ، وجسمٌ ينتقل من علوٍّ إلىٰ أسفل ، وهذا لا يجوز علىٰ الله تعالىٰ قطعاً .

فإن قال العاميُّ : فما الذي أراد بالنُّزول ؟ قيل : أراد به معنىً يليق بجلاله ، لا يلزمك التَّفتيش عنه . فإن قال : كيف حدَّث بما لا أفهمه ؟ قلنا : قد علمت أنَّ النَّازل إليك قريب منك ، فاقتنع بالقرب ولا تظنُّه كقُرب الأجسام " (٢) .

وقال أيضاً : " وقد وقف أقوام مَعَ الظَّواهر ، فحملوها عَلَىٰ مقتضىٰ الحسِّ ، فَقَالَ بعضهم : إنَّ اللهَّ جسم ، تعالىٰ اللهَّ عَنْ ذلك ، وهذا مذهب هشام بْن الحكم (١٩٩هـ) ، وعلي بْن منصور ومحمد بْن الخليل ويونس بْن عَبْدِ الرَّحمن ، ثمَّ اختلفوا فَقَالَ بعضهم : جسم كالأجسام ، ومنهم من قَالَ : لا كالأجسام ثمَّ اختلفوا ...

ومن الواقفين مَعَ الحسّ أقوام ، قالوا : هو عَلَىٰ العرش بذاته عَلَىٰ وجه المماسَّة ، فَإِذَا نزل انتقل وتحرَّك ، وجعلوا لذاته نهاية ، وهؤلاء قد أوجبوا عَلَيْهِ المساحة والمقدار ، واستدلُّوا عَلَىٰ أنَّه عَلَىٰ العرش بذاته بقول النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " ينزل اللهَّ إلىٰ سماء الدُّنيا " ، قالوا : ولا ينزل إلَّا من هو فوق ، وهؤلاء حملوا نزوله عَلَىٰ الأمر الحسِّي الذي يوصف به الأجسام ، وهؤلاء المشبِّهة الذين حملوا الصِّفات عَلَىٰ مقتضىٰ الحسّ . وَقَدْ ذكرنا جمهور كلامهم فِي كتابنا المسمَّىٰ : بـ" منهاج الوصول إلىٰ علم الأصول " ... وإنَّما الصَّواب قراءة الآيات والأحاديث من غير تفسير ولا كلام فيها ... والذي أراه : السُّكوت عَلَىٰ هَذَا التَّفسير أيضاً ، إلَّا أنَّه يجوز أن يكون مراداً ، ولا يجوز أن يكون ثمَّ ذات تقبل التَّجزِّي ... " (٣) .

وقال أيضاً : " ... لأنَّ الله عزَّ وجلَّ ليس بجسم ... " (٤) .

وقال أيضاً : " ... وَكَانَ ابْن عقيل يَقُول: الصُّورَة علىٰ الْحَقِيقَة تقع علىٰ التَّخاطيط والأشكال ، وَذَلِكَ من صِفَات الْأَجْسَام ، وَالَّذِي صرفنَا عَن كَونه جسماً من الْأَدِلَّة النُّطقيَّة قَوْله ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ

---

(١) انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه (ص١٧٤) .

(٢) انظر : دفع شبه التشبيه بأكفِّ التنزيه (ص١٩٤-١٩٦) .

(٣) انظر : تلبيس إبليس (ص٧٨-٨٠ باختصار) .

(٤) انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه (ص٢٧١) .

ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] ، وَمن أَدِلَّة الْعُقُول : أَنَّه لَو كَانَ جسماً لكَانَتْ صورته عَرَضاً ، وَلَو كَانَ جسماً حَامِلاً للأعراض لجَاز عَلَيْهِ مَا يجوز علىٰ الْأَجْسَام ، وَاحْتَاجَ إِلىٰ مَا احْتَاجَت إِلَيْهِ من الصَّانِع ، وَلَو جَازَ قِدمه مَعَ كَونه جسماً لما امْتنع قِدَم أَحدنَا " (١) .

وقال أيضاً : " ... وفي المشار إليه بقوله : ﴿ ثُمَّ دَنَا ﴾ [النجم:٣] ثلاثة أقوال ... وقد كشفتُ هذا الوجه في كتاب المُغْني ، وبيَّنتُ أنَّه ليس كما يخطُر بالبال من قُرب الأجسام وقطع المسافة ، لأنَّ ذلك يختصُّ بالأجسام ، والله منزَّه عن ذلك " (٢) .

فقد وضَّح وبرهن الإمام ابن الجوزي علىٰ أنَّ الواجب علىٰ الخلق : اعتقاد التَّنزيه وامتناع تجويز النُّقلة ، وأنَّ النُّزول الذي هو انتقال من مكان إلىٰ مكان يفتقر إلىٰ ثلاثة أجسام : جسم عالي ، وهو مكان السَّاكن ، وجسم سافل ، وجسم ينتقل من علو إلىٰ أسفل ، وهذا لا يجوز علىٰ الله تعالىٰ قطعاً ...

وقال الإمام فخر الدِّين الرَّازي (٦٠٦هـ) : " وَمِنَ الْأَسْمَاءِ الْمُشْعِرَةِ بِالْجِسْمِيَّةِ وَالْجِهَةِ : الْأَلْفَاظُ الْمُشْتَقَّةُ مِنَ " الْعُلُوِّ " ، فمنها : قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلۡعَلِيُّ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، وَمِنْهَا : قَوْلُهُ : ﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلىٰ: ١] ، وَمِنْهَا : الْمُتَعَالِي ، وَمِنْهَا : اللَّفْظُ الْمَذْكُورُ عِنْدَ الْكُلِّ عَلَىٰ سَبِيلِ الْإِطْبَاقِ وَهُوَ أنَّهم كُلَّمَا ذَكَرُوهُ أَرْدَفُوا ذَلِكَ الذِّكْرَ بِقَوْلِهِمْ : " تَعَالَىٰ " ، لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي أَوَّلِ سُورَةِ النَّحْلِ : ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [النحل: ١] . إِذَا عَرَفْتَ هَذَا ، فَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ فِي الْجِهَةِ وَالْمَكَانِ قَالُوا : مَعْنَىٰ عُلُوِّهِ وَتَعَالِيهِ كَوْنُهُ مَوْجُوداً فِي جِهَةِ فَوْقُ ، ثمَّ هَؤُلَاءِ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ : أنَّه جَالِسٌ فَوْقَ الْعَرْشِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : أنَّه مُبَايِنٌ لِلْعَرْشِ بِبُعْدٍ مُتَنَاهٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : أنَّه مُبَايِنٌ لِلْعَرْشِ بِبُعْدٍ غَيْرِ مُتَنَاهٍ ، وَكَيْفَ كَانَ فَإِنَّ الْمُشَبِّهَةَ حَمَلُوا لَفْظَ الْعَظِيمِ وَالْكَبِيرِ عَلَىٰ الْجِسْمِيَّةِ وَالْمِقْدَارِ، وَحَمَلُوا لَفْظَ الْعَلِيِّ عَلَىٰ الْعُلُوِّ فِي الْمَكَانِ وَالْجِهَةِ ، وَأَمَّا أَهْلُ التَّنْزِيهِ وَالتَّقْدِيسِ فَإِنَّهُمْ حَمَلُوا الْعَظِيمَ وَالْكَبِيرَ عَلَىٰ وُجُوهٍ لَا تُفِيدُ الْجِسْمِيَّةَ وَالْمِقْدَارَ :

فَأَحَدُهَا : أنَّه عَظِيمٌ بِحَسَبِ مُدَّةِ الْوُجُودِ ، وَذَلِكَ لأنَّه أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ ، وَذَلِكَ هُوَ نِهَايَةُ الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ فِي الْوُجُودِ وَالْبَقَاءِ وَالدَّوَامِ .

وَثَانِيهَا : أنَّه عَظِيمٌ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ .

وَثَالِثُهَا : أنَّه عَظِيمٌ فِي الرَّحْمَةِ وَالْحِكْمَةِ .

---

(١) انظر : كشف المشكل من حديث الصحيحين (٣/ ١٣٤) .

(٢) انظر : زاد المسير في علم التفسير (٤/ ١٨٥) .

وَرَابِعُهَا: أَنَّه عَظِيمٌ فِي كَمَالِ الْقُدْرَةِ ، وَأَمَّا الْعُلُوُّ فَأَهْلُ التَّنْزِيهِ يَحْمِلُونَ هَذَا اللَّفْظَ عَلَىٰ كَوْنِهِ مُنَزَّهاً عَنْ صِفَاتِ النَّقَائِصِ وَالْحَاجَاتِ .

إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَلَفْظُ الْعَظِيمِ وَالْكَبِيرِ عِنْدَ الْمُشَبِّهَةِ مِنْ أَسْمَاءِ الذَّاتِ ، وَعِنْدَ أَهْلِ التَّوحِيد مِنْ أَسْمَاءِ الصِّفَاتِ ، وَأَمَّا لَفْظُ الْعَلِيِّ فَعِنْدَ الْكُلِّ مِنْ أَسْمَاءِ الصِّفَاتِ ، إِلَّا أَنَّه عِنْدَ الْمُشَبِّهَةِ يُفِيدُ الْحُصُولَ فِي الْحَيِّزِ الَّذِي هُوَ الْعُلُوُّ الْأَعْلَىٰ ، وَعِنْدَ أَهْلِ التَّوحِيد يُفِيدُ كَوْنَهُ مُنَزَّهاً عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِالْإِلَهِيَّةِ " .

وقال أيضاً : " ... وَالْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ : أَنَّ جَمِيعَ الصِّفَاتِ الْمَعْلُومَةِ عِنْدَ الْخَلْقِ : إِمَّا صِفَاتُ الْجَلَالِ ، وَإِمَّا صِفَاتُ الْإِكْرَامِ ، أَمَّا صِفَاتُ الْجَلَالِ فَهِيَ قَوْلُنَا : لَيْسَ بِجِسْمٍ ، وَلَا بِجَوْهَرٍ ، وَلَا عَرَضٍ ، وَلَا فِي الْمَكَانِ ، وَلَا فِي الْمَحَلِّ ... " .

وقال أيضاً : " وَأَمَّا التَّنْزِيهُ ، فَالَّذِي يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّه لَيْسَ بِجِسْمٍ ، وَلَا فِي مَكَانٍ قَوْلُهُ : قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، فَإِنَّ الْمُرَكَّبَ مُفْتَقِرٌ إِلَىٰ أَجْزَائِهِ ، وَالْمُحْتَاجَ مُحْدَثٌ ، وَإِذَا كَانَ أَحَداً وَجَبَ أَنْ لَا يَكُونُ جِسْماً ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ جِسْماً لَمْ يَكُنْ فِي الْمَكَانِ " .

وقال في تفسيره لقول الله تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٥] : " الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : الْآيَةُ مِنْ أَقْوَىٰ الدَّلَائِلِ عَلَىٰ نَفْيِ التَّجْسِيمِ وَإِثْبَاتِ التَّنْزِيهِ ، وَبَيَانُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ :

الْأَوَّلُ : أَنَّه تَعَالَىٰ قَالَ : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ﴾ ، فَبَيَّنَ أَنَّ هَاتَيْنِ الْجِهَتَيْنِ مَمْلُوكَتَانِ لَهُ ، وإِنَّما كَانَ كَذَلِكَ لِأَنَّ الْجِهَةَ أَمْرٌ مُمْتَدٌّ فِي الْوَهْمِ طُولاً وَعَرْضاً وَعُمْقاً ، وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مُنْقَسِمٌ ، وَكُلُّ مُنْقَسِمٍ فَهُوَ مُؤَلَّفٌ مُرَكَّبٌ ، وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ خَالِقٍ وَمُوجِدٍ ، وَهَذِهِ الدَّلَالَةُ عَامَّةٌ فِي الْجِهَاتِ كُلِّهَا ، أَعْنِي الْفَوْقَ وَالتَّحْتَ ، فَثَبَتَ بِهَذَا أَنَّه تَعَالَىٰ خَالِقُ الْجِهَاتِ كُلِّهَا ، وَالْخَالِقُ مُتَقَدِّمٌ عَلَىٰ الْمَخْلُوقِ لَا مَحَالَةَ ، فَقَدْ كَانَ الْبَارِي تَعَالَىٰ قَبْلَ خَلْقِ الْعَالَمِ مُنَزَّهاً عَنِ الْجِهَاتِ وَالْأَحْيَازِ ، فَوَجَبَ أَنْ يَبْقَىٰ بَعْدَ خَلْقِ الْعَالَمِ كَذَلِكَ لَا مَحَالَةَ لِاسْتِحَالَةِ انْقِلَابِ الْحَقَائِقِ وَالْمَاهِيَّاتِ .

الْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّه تَعَالَىٰ قَالَ : ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، وَلَوْ كَانَ اللهُ تَعَالَىٰ جِسْماً وَلَهُ وَجْهٌ جُسْمَانِيٌّ ، لَكَانَ وَجْهُهُ مُخْتَصّاً بِجَانِبٍ مُعَيَّنٍ ، وَجِهَةٍ مُعَيَّنَةٍ ، فَمَا كَانَ يَصْدُقُ قَوْلُهُ : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾ ، فَلَمَّا نَصَّ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ ذَلِكَ ، عَلِمْنَا أَنَّه تَعَالَىٰ مُنَزَّهٌ عَنِ الْجِسْمِيَّةِ " .

وقال أيضاً : " ... أَجْمَعَ الْمُعْتَبِرُونَ مِنَ الْعُقَلَاءِ عَلَىٰ أَنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُنَزَّهٌ عَنِ الْمَجِيءِ وَالذَّهَابِ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ وُجُوهٌ :

أَحَدُهَا : مَا ثَبَتَ فِي عِلْمِ الْأُصُولِ أَنَّ كُلَّ مَا يَصِحُّ عَلَيْهِ الْمَجِيءُ وَالذَّهَابُ لَا يَنْفَكُّ عَنِ الْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ ، وَهُمَا مُحْدَثَانِ ، وَمَا لَا يَنْفَكُّ عَنِ الْمُحْدَثِ فَهُوَ مُحْدَثٌ ، فَيَلْزَمُ أَنَّ كُلَّ مَا يَصِحُّ عَلَيْهِ الْمَجِيءُ وَالذَّهَابُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُحْدَثاً مَخْلُوقاً وَالْإِلَهُ الْقَدِيمُ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ .

وَثَانِيهَا : أَنَّ كُلَّ مَا يَصِحُّ عَلَيْهِ الِانْتِقَالُ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ ، فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي الصِّغَرِ وَالْحَقَارَةِ كَالْجُزْءِ الَّذِي لَا يَتَجَزَّأُ ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ بِاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ ، وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ كَذَلِكَ بَلْ يَكُونُ شَيْئاً كَبِيراً ، فَيَكُونُ أَحَدُ جَانِبَيْهِ مُغَايِراً لِلْآخَرِ ، فَيَكُونُ مُرَكَّباً مِنَ الْأَجْزَاءِ وَالْأَبْعَاضِ ، وَكُلُّ مَا كَانَ مُرَكَّباً ، فَإِنَّ ذَلِكَ الْمُرَكَّبَ يَكُونُ مُفْتَقِراً فِي تَحَقُّقِهِ إِلَىٰ تَحَقُّقِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أَجْزَائِهِ ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَجْزَائِهِ غَيْرُهُ ، فَكُلُّ مُرَكَّبٍ هُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَىٰ غَيْرِهِ ، وَكُلُّ مُفْتَقِرٍ إِلَىٰ غَيْرِهِ فَهُوَ مُمْكِنٌ لِذَاتِهِ ، وَكُلُّ مُمْكِنٍ لِذَاتِهِ فَهُوَ مُحْتَاجٌ فِي وُجُودِهِ إِلَىٰ الْمُرَجِّحِ وَالْمُوجِدِ ، فَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مُحْدَثٌ مَخْلُوقٌ مَسْبُوقٌ بِالْعَدَمِ ، وَالْإِلَهُ الْقَدِيمُ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ .

وَثَالِثُهَا : أَنَّ كُلَّ مَا يَصِحُّ عَلَيْهِ الِانْتِقَالُ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ فَهُوَ مَحْدُودٌ وَمُتَنَاهٍ ، فَيَكُونُ مُخْتَصّاً بِمِقْدَارٍ مُعَيَّنٍ ، مَعَ أَنَّه كَانَ يَجُوزُ فِي الْعَقْلِ وُقُوعُهُ عَلَىٰ مِقْدَارٍ أَزْيَدَ مِنْهُ أَوْ أَنْقَصَ ، فَاخْتِصَاصُهُ بِذَلِكَ الْقَدْرِ الْمُعَيَّنِ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ لِتَرْجِيحِ مُرَجِّحٍ ، وَتَخْصِيصِ مُخَصِّصٍ ، وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ فِعْلاً لِفَاعِلٍ مُخْتَارٍ ، وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مُحْدَثٌ مَخْلُوقٌ ، فَالْإِلَهُ الْقَدِيمُ الْأَزَلِيُّ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ .

وَرَابِعُهَا : أَنَّا مَتَىٰ جَوَّزْنَا فِي الشَّيْءِ الَّذِي يَصِحُّ عَلَيْهِ الْمَجِيءُ وَالذَّهَابُ أَنْ يَكُونَ إِلَهاً قَدِيماً أَزَلِيّاً ، فَحِينَئِذٍ لَا يُمْكِنُنَا أَنْ نَحْكُمَ بِنَفْيِ الْإِلَهِيَّةِ عَنِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَكَانَ بَعْضُ الْأَذْكِيَاءِ مِنْ أَصْحَابِنَا يَقُولُ : الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا عَيْبَ فِيهِمَا يَمْنَعُ مِنَ القول بإلهيتهما سوىٰ أَنَّهم جِسْمٌ يَجُوزُ عَلَيْهِ الْغَيْبَةُ وَالْحُضُورُ ، فَمَنْ جَوَّزَ الْمَجِيءَ وَالذَّهَابَ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ ، فَلِمَ لَا يَحْكُمُ بِإِلَهِيَّةِ الشَّمْسِ ، وَمَا الَّذِي أَوْجَبَ عَلَيْهِ الْحُكْمَ بِإِثْبَاتِ مَوْجُودٍ آخَرَ يَزْعُمُ أَنَّه إِلَهٌ .

وَخَامِسُهَا : أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ حَكَىٰ عَنِ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّه طَعَنَ فِي إِلَهِيَّةِ الْكَوَاكِبِ وَالْقَمَرِ وَالشَّمْسِ بِقَوْلِهِ : ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] ، وَلَا مَعْنَىٰ لِلْأُفُولِ إِلَّا الْغَيْبَةُ وَالْحُضُورُ ، فَمَنْ جَوَّزَ الْغَيْبَةَ وَالْحُضُورَ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ ، فَقَدْ طَعَنَ فِي دَلِيلِ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَكَذَّبَ اللهَ فِي تَصْدِيقِ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي ذَلِكَ .

سَادِسُهَا : أَنَّ فِرْعَوْنَ لَعَنَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ لَمَّا سَأَلَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ : ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣] ، وَطَلَبَ مِنْهُ الْمَاهِيَّةَ وَالْجِنْسَ وَالْجَوْهَرَ ، فَلَوْ كَانَ تَعَالَىٰ جِسْماً مَوْصُوفاً بِالْأَشْكَالِ وَالْمَقَادِيرِ لَكَانَ الْجَوَابُ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ لَيْسَ إِلَّا بِذِكْرِ الصُّورَةِ وَالشَّكْلِ وَالْقَدْرِ : فَكَان جَوَابُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ : ﴿ رَبُّ

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [مريم:٦٥] ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الدخان: ٨] ، ﴿ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [المزمل: ٩] خطأً وباطلاً ، وَهَذَا يَقْتَضِي تَخْطِئَةَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا ذَكَرَ مِنَ الْجَوَابِ ، وَتَصْوِيبَ فِرْعَوْنَ فِي قَوْلِهِ : ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الشعراء: ٢٧] ، وَلَمَّا كَانَ كُلُّ ذَلِكَ بَاطِلاً ، عَلِمْنَا أَنَّه تَعَالَىٰ مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يَكُونَ جِسْماً ، وَأَنْ يَكُونَ فِي مَكَانٍ ، وَمُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يَصِحَّ عَلَيْهِ الْمَجِيءُ وَالذَّهَابُ .

وَسَابِعُهَا : أَنَّه تَعَالَىٰ قَالَ : ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] ، وَالْأَحَدُ هُوَ الْكَامِلُ فِي الْوَحْدَانِيَّةِ ، وَكُلُّ جِسْمٍ فَهُوَ مُنْقَسِمٌ بِحَسَبِ الْغَرَضِ وَالْإِشَارَةِ إِلَىٰ جُزْأَيْنِ ، فَلَمَّا كَانَ تَعَالَىٰ أَحَداً امْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ جِسْماً أَوْ مُتَحَيِّزاً ، فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ جِسْماً وَلَا مُتَحَيِّزاً امْتَنَعَ عَلَيْهِ الْمَجِيءُ وَالذَّهَابُ، وَأَيْضًا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥] ، أَيْ : شَبِيهاً ، وَلَوْ كَانَ جِسْماً مُتَحَيِّزاً لَكَانَ مُشَابِهاً لِلْأَجْسَامِ فِي الْجِسْمِيَّةِ ، إِنَّمَا الِاخْتِلَافُ يَحْصُلُ فِيمَا وَرَاءَ الْجِسْمِيَّةِ ، وَذَلِكَ إِمَّا بِالْعِظَمِ أَوْ بِالصِّفَاتِ وَالْكَيْفِيَّاتِ ، وَذَلِكَ لَا يَقْدَحُ فِي حُصُولِ الْمُشَابَهَةِ فِي الذَّاتِ ، وَأَيْضاً قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ، وَلَوْ كَانَ جِسْماً لَكَانَ مَثَلاً لِلْأَجْسَامِ .

وَثَامِنُهَا: لَوْ كَانَ جِسْماً مُتَحَيِّزاً لَكَانَ مُشَارِكاً لِسَائِرِ الْأَجْسَامِ فِي عُمُومِ الْجِسْمِيَّةِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُخَالِفاً فِي خُصُوصِ ذَاتِهِ الْمَخْصُوصَةِ ، وَإِمَّا أن لَا يَكُونُ فَإِنْ كَانَ الْأَوَّلَ فَمَا بِهِ الْمُشَارَكَةُ غَيْرُ مَا بِهِ الْمُمَايَزَةُ ، فَعُمُومُ كَوْنِهِ جِسْماً مُغَايِرٌ لِخُصُوصِ ذَاتِهِ الْمَخْصُوصَةِ ، وَهَذَا مُحَالٌ لِأَنَّا إِذَا وَصَفْنَا تِلْكَ الذَّاتِ الْمَخْصُوصَةَ بِالْمَفْهُومِ مِنْ كَوْنِهِ جِسْماً كُنَّا قَدْ جَعَلْنَا الْجِسْمَ صِفَةً وَهَذَا مُحَالٌ ، لِأَنَّ الْجِسْمَ ذَاتُ الصِّفَةِ ، وَإِنْ قُلْنَا بِأَنَّ تِلْكَ الذَّاتَ الْمَخْصُوصَةَ الَّتِي هِيَ مُغَايِرَةٌ لِلْمَفْهُومِ مِنْ كَوْنِهِ جِسْماً وَغَيْرَ مَوْصُوفٍ بِكَوْنِهِ جِسْماً ، فَحِينَئِذٍ تَكُونُ ذَاتُ اللهِ تَعَالَىٰ شَيْئاً مُغَايِراً لِلْمَفْهُومِ مِنَ الْجِسْمِ ، وَغَيْرَ مَوْصُوفٍ بِهِ ، وَذَلِكَ يَنْفِي كَوْنَهُ تَعَالَىٰ جِسْماً ، وَأَمَّا إِنْ قِيلَ : إِنَّ ذَاتَهُ تَعَالَىٰ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ جِسْماً لَا يُخَالِفُ سَائِرَ الْأَجْسَامِ فِي خُصُوصِيَّةٍ ، فَحِينَئِذٍ يَكُونُ مَثَلاً لَهَا مُطْلَقاً ، وَكُلُّ مَا صَحَّ عَلَيْهَا فَقَدْ صَحَّ عَلَيْهِ ، فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَجْسَامُ مُحْدَثَةً وَجَبَ فِي ذَاتِهِ أَنْ تَكُونَ كَذَلِكَ ، وَكُلُّ ذَلِكَ مُحَالٌ ، فَثَبَتَ أَنَّه تَعَالَىٰ لَيْسَ بِجِسْمٍ ، وَلَا بِمُتَحَيِّزٍ ، وَأَنَّهُ لَا يَصِحُّ الْمَجِيءُ وَالذَّهَابُ عَلَيْهِ " .

وقال أيضاً : " أَمَّا الْإِيمَانُ بِوُجُودِهِ ، فَهُوَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ وَرَاءَ الْمُتَحَيِّزَاتِ مَوْجُوداً خَالِقاً لَهَا ، وَعَلَىٰ هَذَا التَّقْدِيرِ فَالْمُجَسِّمُ لَا يَكُونُ مُقِرّاً بِوُجُودِ الْإِلَهِ تَعَالَىٰ ، لأَنَّه لَا يُثْبِتُ مَا وَرَاءَ الْمُتَحَيِّزَاتِ شَيْئاً آخَرَ ، فَيَكُونُ اخْتِلَافُهُ مَعَنَا فِي إِثْبَاتِ ذَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ ".

وقال أيضاً : " وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ النَّظَرِ تَقْلِيبَ الْحَدَقَةِ إِلَىٰ جَانِبِ الْمَرْئِيِّ الْتِمَاساً لِرُؤْيَتِهِ ، لِأَنَّ هَذَا مِنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ ، وَتَعَالَىٰ إِلَهُنَا عَنْ أَنْ يَكُونَ جِسْماً " .

وقال أيضاً : " اخْتَلَفَتِ الْأُمَّةُ فِي تَفْسِيرِ يَدِ اللهَّ تَعَالَىٰ ، فَقَالَتِ الْمُجَسِّمَةُ : أَنَّهَا عُضْوٌ جُسْمَانِيٌّ ، كَمَا فِي حَقِّ كُلِّ أَحَدٍ ، وَاحْتَجُّوا عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٩٥] ، وَجْهُ الِاسْتِدْلَالِ : أَنَّه تَعَالَىٰ قَدَحَ فِي إِلَهِيَّةِ الْأَصْنَامِ لِأَجْلِ أَنَّهَا لَيْسَ لَهَا شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ ، فَلَوْ لَمْ تَحْصُلْ للهَّ هَذِهِ الْأَعْضَاءُ لَزِمَ الْقَدْحُ فِي كَوْنِهِ إِلَهاً ، وَلَمَّا بَطَلَ ذَلِكَ وَجَبَ إِثْبَاتُ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ لَهُ . قَالُوا وَأَيْضاً اسْمُ الْيَدِ مَوْضُوعٌ لِهَذَا الْعُضْوِ ، فَحَمْلُهُ عَلَىٰ شَيْءٍ آخَرَ تَرْكٌ لِلُّغَةِ ، وَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الْكَلَامَ فِي إِبْطَالِ هَذَا الْقَوْلِ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ أَنَّه تَعَالَىٰ لَيْسَ بِجِسْمٍ ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّ الْجِسْمَ لا يَنْفَكُّ عَنِ الْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ ، وَهُمَا مُحْدَثَانِ ، وَمَا لَا يَنْفَكُّ عَنِ الْمُحْدَثِ فَهُوَ مُحْدَثٌ ، وَلِأَنَّ كُلَّ جِسْمٍ فَهُوَ مُتَنَاهٍ فِي الْمِقْدَارِ ، وَكُلُّ مَا كَانَ مُتَنَاهِياً فِي الْمِقْدَارِ فَهُوَ مُحْدَثٌ ، وَلِأَنَّ كُلَّ جِسْمٍ فَهُوَ مُؤَلَّفٌ مِنَ الْأَجْزَاءِ ، وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ قَابِلاً لِلتَّرْكِيبِ وَالِانْحِلَالِ ، وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ افْتَقَرَ إِلَىٰ مَا يُرَكِّبُهُ وَيُؤَلِّفُهُ ، وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مُحْدَثٌ ، فَثَبَتَ بِهَذِهِ الْوُجُوهِ أَنَّه يَمْتَنِعُ كَوْنُهُ تَعَالَىٰ جِسْماً ، فَيَمْتَنِعُ أَنْ تَكُونَ يَدُهُ عضواً جسمانياً " .

وقال أيضاً : " وَحَشْوِيَّةُ الْمُسْلِمِينَ يَقُولُونَ : إِنَّ مَنْ قَرَأَ كَلَامَ اللهَّ ، فَالَّذِي يَقْرَؤُهُ هُوَ عَيْنُ كَلَامِ تَعَالَىٰ ، وَكَلَامُ اللهَّ تَعَالَىٰ مَعَ أَنَّه صِفَةُ اللهَّ يَدْخُلُ فِي لِسَانِ هَذَا الْقَارِئِ ، وَفِي لِسَانِ جَمِيعِ الْقُرَّاءِ ، وَإِذَا كُتِبَ كَلَامُ اللهَّ فِي جِسْمٍ ، فَقَدْ حَلَّ كَلَامُ اللهَّ تَعَالَىٰ فِي ذَلِكَ الْجِسْمِ ، فَالنَّصَارَىٰ إِنَّمَا أَثْبَتُوا الْحُلُولَ وَالِاتِّحَادَ فِي حَقِّ عِيسَىٰ . وَأَمَّا هَؤُلَاءِ الْحَمْقَىٰ فَأَثْبَتُوا كَلِمَةَ اللهَّ فِي كُلِّ إِنْسَانٍ قَرَأَ الْقُرْآنَ ، وَفِي كُلِّ جِسْمٍ كُتِبَ فِيهِ الْقُرْآنُ ، فَإِنْ صَحَّ فِي حَقِّ النَّصَارَىٰ أَنَّهم لَا يُؤْمِنُونَ باللهَّ بِهَذَا السَّبَبِ ، وَجَبَ أَنْ يَصِحَّ فِي حَقِّ هَؤُلَاءِ الْحُرُوفِيَّةِ وَالْحُلُولِيَّةِ أَنَّهم لَا يُؤْمِنُونَ باللهَّ ، فهَذَا تَقْرِيرُ هَذَا السُّؤَالِ .

وَالْجَوَابُ : أَنَّ الدَّلِيلَ دَلَّ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ قَالَ : إِنَّ الْإِلَهَ جِسْمٌ فَهُوَ مُنْكِرٌ لِلْإِلَهِ تَعَالَىٰ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ إِلَهَ الْعَالَمِ مَوْجُودٌ لَيْسَ بِجِسْمٍ وَلَا حَالٍّ فِي الْجِسْمِ ، فَإِذَا أَنْكَرَ الْمُجَسِّمُ هَذَا الْمَوْجُود َ فَقَدْ أَنْكَرَ ذَاتَ الْإِلَهِ تَعَالَىٰ ، فَالْخِلَافُ بَيْنَ الْمُجَسِّمِ وَالْمُوَحِّدِ لَيْسَ فِي الصِّفَةِ ، بَلْ فِي الذَّاتِ ، فَصَحَّ فِي الْمُجَسِّمِ أَنَّه لَا يُؤْمِنُ باللهَّ " .

وقال أيضاً : " فَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [سبأ: ٢٣] ، إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّه فَوْقَ الْكَامِلِينَ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَهَذَا يُبْطِلُ الْقَوْلَ بِكَوْنِهِ جِسْماً وَفِي حَيِّزٍ ، لِأَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ فِي حَيِّزٍ ، فَإِنَّ الْعَقْلَ يَحْكُمُ بِأَنَّهُ مُشَارٌ إِلَيْهِ ، وَهُوَ مَقْطَعُ الْإِشَارَةِ ، لِأَنَّ الْإِشَارَةَ لَوْ لَمْ تَقَعْ إِلَيْهِ لَمَا كَانَ الْمُشَارُ إِلَيْهِ هو ، وإذا وقعت الإشارة إليه ، فقد تناهب الْإِشَارَةُ عِنْدَهُ ، وَفِي كُلِّ مَوْقِعٍ تَقِفُ الْإِشَارَةُ بِقَدْرِ الْعَقْلِ عَلَىٰ أَنْ يَفْرِضَ الْبُعْدَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فَيَقُولُ : لَوْ كَانَ بَيْنَ مَأْخَذِ الْإِشَارَةِ وَالْمُشَارِ إِلَيْهِ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا الْبُعْدِ لَكَانَ هَذَا الْمُشَارُ إِلَيْهِ أَعْلَىٰ فَيَصِيرُ عَلِيّاً بِالْإِضَافَةِ لَا مُطْلَقاً ،

وَهُوَ عَلِيٌّ مُطْلَقاً ، وَلَوْ كَانَ جِسْماً لَكَانَ لَهُ مِقْدَارٌ ، وَكُلُّ مِقْدَارٍ يُمْكِنُ أَنْ يُفْرَضَ أَكْبَرُ مِنْهُ فَيَكُونَ كَبِيراً بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ غَيْرِهِ لَا مُطْلَقاً وَهُوَ كَبِيرٌ مطلقاً " .

وقال أيضاً : " الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : تَمَسَّكَتِ الْمُجَسِّمَةُ فِي إِثْبَاتِ الْعُلُوِّ بِالْمَكَانِ بِقَوْلِهِ : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] ، وَالْحَقُّ أَنَّ الْعُلُوَّ بِالْجِهَةِ عَلَىٰ اللهَّ تَعَالَىٰ مُحَالٌ ، لأَنَّه تَعَالَىٰ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُتَنَاهِياً أَوْ غَيْرَ مُتَنَاهٍ ، فَإِنْ كَانَ مُتَنَاهِياً كَانَ طَرَفُهُ الْفَوْقَانِيُّ مُتَنَاهِياً ، فَكَانَ فَوْقَهُ جِهَةً فَلَا يَكُونُ هُوَ سُبْحَانَهُ أَعْلَىٰ مِنْ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ، وَأَمَّا إِنْ كَانَ غَيْرَ مُتَنَاهٍ فَالْقَوْلُ : بِوُجُودِ أَبْعَادٍ غَيْرِ مُتَنَاهِيَةٍ مُحَالٌ ، وَأَيْضاً فَلِأَنَّهُ إِنْ كَانَ غَيْرَ مُتَنَاهٍ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ يَلْزَمُ أَنْ تَكُونَ ذَاتُهُ تَعَالَىٰ مُخْتَلِطَةً بِالْقَاذُورَاتِ تَعَالَىٰ اللهَّ عَنْهُ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مُتَنَاهٍ مِنْ بَعْضِ الْجِهَاتِ وَمُتَنَاهِياً مِنْ بَعْضِ الْجِهَاتِ كَانَ الْجَانِبُ الْمُتَنَاهِي مُغَايِراً لِلْجَانِبِ غَيْرِ الْمُتَنَاهِي ، فَيَكُونُ مُرَكَّباً مِنْ جُزْأَيْنِ ، وَكُلُّ مُرَكَّبٍ مُمْكِنٌ ، فَوَاجِبُ الْوُجُودِ لِذَاتِهِ مُمْكِنُ الْوُجُودِ ، هذا مُحَالٌ . فَثَبَتَ أَنَّ الْعُلُوَّ هَاهُنَا لَيْسَ بِمَعْنَىٰ الْعُلُوِّ فِي الْجِهَةِ ، مِمَّا يُؤَكِّدُ ذَلِكَ أَنَّ مَا قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا بَعْدَهَا يُنَافِي أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ هُوَ الْعُلُوُّ بِالْجِهَةِ ، أَمَّا مَا قَبْلَ الْآيَةِ فَلِأَنَّ الْعُلُوَّ عِبَارَةٌ عَنْ كَوْنِهِ فِي غَايَةِ الْبُعْدِ عَنِ الْعَالَمِ ، وَهَذَا لَا يُنَاسِبُ اسْتِحْقَاقَ التَّسْبِيحِ وَالثَّنَاءِ وَالتَّعْظِيمِ ، أَمَّا الْعُلُوُّ بِمَعْنَىٰ كَمَالِ الْقُدْرَةِ وَالتَّفَرُّدِ بِالتَّخْلِيقِ وَالْإِبْدَاعِ ، فَيُنَاسِبُ ذَلِكَ ، وَالسُّورَةُ هَاهُنَا مَذْكُورَةٌ لِبَيَانِ وَصْفِهِ تَعَالَىٰ بِمَا لِأَجْلِهِ يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ وَالثَّنَاءَ وَالتَّعْظِيمَ ... " (١) .

وقال أيضاً : " الْفَصْل الثَّانِي فِي تَقْدِير الدَّلَائِل السَّمعيَّة علىٰ أَنَّه تَعَالَىٰ منزَّه عَن الجسميَّة ، والحيِّز ، والجهة : الْحجَّة الأُولىٰ : قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ – ٤] ، وَاعْلَم أَنَّه قد اشْتهر فِي التَّفْسِير : أَنَّ النَّبِي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَن مَاهِيَّة ربِّه ، وَعَن نَعته ، وَصفته ، فانتظر الْجَواب من الله تَعَالَىٰ ، فَأنْزل هَذِه السُّورَة . إِذا عرفت ذَلِك فَنَقُول : هَذِه السُّورَة يجب أَن تكون من المحكمات لَا من المتشابهات ، لأَنَّه تَعَالَىٰ جعلهَا جَواباً عَن سُؤال الْمُتَشابه ، بل وأنزلها عِنْد الْحَاجة . وَذَلِكَ يَقْتَضِي كَونهَا من المحكمات لَا من المتشابهات .

وَإِذا ثَبت هَذَا وَجب الْجَزْم بِأَنَّ كلَّ مَذْهَب يُخَالف هَذِه السُّورَة يكون بَاطِلاً ، فَنَقُول : إِنَّ قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿أَحَدٌ﴾ ، يدلُّ علىٰ نفي الجسميَّة ، وَنفي الحيِّز والجهة . أمَّا دلَالَته علىٰ أَنَّه تَعَالَىٰ لَيْسَ بجسم ، فَذَلِك لِأَنَّ الْجِسْم أَقله أَن يكون مركَّباً من جوهرين ، وَذَلِكَ يُنَافِي الْوحدَة . ولَمَّا كان قَوله : ﴿ أَحَدٌ﴾ مُبَالغَة فِي الواحديَّة ، كان قوله : ﴿ أَحَدٌ﴾ منافياً للجسميَّة .

---

(١) انظر : تفسير الرازي (١/ ١٣٤) ، (١/ ١٣٧) ، (٢/ ٣٢٥) ، (٤/ ٢١) ،(٥/ ٣٥٦–٣٥٨) ، (٧/ ١٠٧) ، (٨/ ٢٦٧) ، (١٢/ ٣٩٥) ، (١٦/ ٢٤) ، (١٦/ ١٢٧) بالترتيب .

وَأمَّا دلاَلَته علىٰ أَنَّه لَيْسَ بجوهر ، فَنَقُول : أَمَّا الَّذين يُنكرُونَ الْجَوْهَر الْفَرد ، فَإِنَّهُم يَقُولُونَ : إِنَّ كلَّ متحيِّز فَلَا بُدَّ وَأَن يتَمَيَّز أحد جانبيه عَن الثَّانِي ، وَذَلِكَ لأَنَّه لَا بُدَّ من أَن يتَمَيَّز يَمِينه عَن يسَاره ، وقدَّامه عَن خَلفه ، وفوقه عَن تَحْتَهُ ، وكلّ مَا تميَّز فِيهِ شَيْء عَن شَيْء ، فَهُوَ منقسمٌ ، لِأَنَّ يَمِينه مَوْصُوف بِأَنَّهُ يَمِين لَا يسَار ، ويساره مَوْصُوف بِأَنَّهُ يسَار لَا يَمِين ، فَلَو كَانَ يَمِينه عين يسَاره ، لاجتمع فِي الشَّيْء الْوَاحِد ، أَنَّه يَمِين ، وَلَيْسَ بيَمِين ، ويسار وَلَيْسَ بيسار ، فيَلْزم اجْتِمَاع النَّفْي وَالْإِثْبَات فِي الشَّيْء الْوَاحِد ، وَهُوَ محَال .

قَالُوا : فَثَبت أَنَّ كلَّ متحيِّز فَهُوَ منقسمٌ ، وَثَبت أَنَّ كلَّ منقسم فَهُوَ لَيْسَ بِأحد ، فَلَمَّا كَانَ الله تَعَالَىٰ مَوْصُوفاً بِأَنَّهُ أحد ، وَجب أَن لَا يكون متحيِّزاً أصلاً ، وَذَلِكَ يَنْفِي كَونه جوهراً .

وَأمَّا الَّذين يثبتون الْجَوْهَر الْفَرد ، فَإِنَّهُ لَا يُمكنهُم الاستدلال علىٰ نفي كَونه تَعَالَىٰ جوهراً من هَذَا الاعتبار ، ويمكنهم أَن يحتجُّوا بِهَذِهِ الْآيَة علىٰ نفي كَونه جوهراً من وَجه آخر ، وَبَيَانه : هُوَ أَنَّ الْأَحَد كَمَا يُرَاد بِهِ نفي التَّرْكِيب والتأليف فِي الذَّات ، فقد يُرَاد بِهِ الضِّدّ والندّ ، فلَو كَانَ تَعَالَىٰ جوهراً فَرداً ، لَكَانَ كل جَوْهَر فَرد مثلاً لَهُ ، وَذَلِكَ يَنْفِي كَونه أحداً . ثمَّ أكدوا هَذَا الْوَجْه بقوله تَعَالَىٰ : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ، وَلَو كَانَ جوهراً لَكَانَ كل جَوْهَر فَرد كفواً لَهُ ، فدلَّت هَذِه السُّورَة من الْوَجْه الَّذِي قَرَّرْنَاهُ علىٰ أَنَّه تَعَالَىٰ لَيْسَ بجسم وَلَا بجوهر ، وَإِذا ثَبت أَنَّه تَعَالَىٰ لَيْسَ بجسم وَلَا بجوهر ، وَجب أَن لَا يكون فِي شَيْء من الأحياز والجهات ، لِأَنَّ كلّ مَا كَانَ مُخْتَصّاً بحيِّز وجهة ، فَإِن كَانَ منقسماً كَانَ جسماً ، وَقد بَيَّنَّا إبطَال ذَلِك ، وَإِن لم يكن منقسماً كَانَ جوهراً فَرداً ، وَقد بَينَّا أَنَّه بَاطِل ، وَلما بَطل القسمان ، ثَبت أَنَّه يمْتَنع أَن يكون فِي جِهَة أصلاً ، فَثَبت أَنَّ قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿ أَحَدٌ ﴾ ، يدلُّ دلَالَة قَطْعِيَّة علىٰ أَنَّه تَعَالَىٰ لَيْسَ بجسم ، وَلَا بجوهر ، وَلَا فِي حيِّز وجهة أصلاً .

وَاعْلَم أَنَّه تَعَالَىٰ كَمَا نَصَّ علىٰ أَنَّه تَعَالَىٰ وَاحِد ، فقد نَصَّ علىٰ الْبُرْهَان الَّذِي لأَجله يجب الحكم بِأَنَّهُ أحد ، وَذَلِكَ أَنَّه قَالَ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، وَكَونه إِلَهاً يَقْتَضِي كَونه غَنِياً عَمَّا سواهُ ، وكلّ مركَّب ، فَإِنَّهُ مفتقر إِلَىٰ كلِّ وَاحِد من أَجْزَائِهِ ، وكل وَاحِد من أَجْزَائِهِ غَيره ، فَكلُّ مركَّب فَهُوَ مفتقرٌ إِلَىٰ غَيره ، وَكَونه إِلَهاً يمْنَع من كَونه مفتقراً إِلَىٰ غَيره ، وَذَلِكَ يُوجب الْقطع بِكَوْنِهِ أحداً ، وَكَونه أحداً يُوجب الْقطع بِأَنَّهُ لَيْسَ بجسم ، وَلَا جَوْهَر ، وَلَا فِي حيّز وجهة . فَثَبت : أَنَّ قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، برهَان قَاطع علىٰ ثُبُوت هَذِه المطالب .

وَأمَّا قَوْله : ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ ، فالصمد هُوَ السَّيِّد المصمود إِلَيْهِ فِي الْحَوَائِج ، وَذَلِكَ يدلُّ علىٰ أَنَّه لَيْسَ بجسم ، وعَلىٰ أَنَّه غير مُخْتَصٍّ بالحيِّز والجهة . .

أمَّا بَيَان دلَالَته علىٰ نفي الجسميَّة ، فَمن وُجُوه :

الأوَّل : أَنَّ كلَّ جسم فَهُوَ مركَّب ، وكلُّ مركَّب فَهُوَ مُحْتَاج إِلىٰ كلِّ وَاحِد من أَجْزَائِهِ ، وكلُّ وَاحِد من أَجْزَائِهِ غَيره ، فَكلُّ مركَّب فَهُوَ مُحْتَاج إِلىٰ غَيره ، والمحتاج إِلىٰ الْغَيْر لَا يكون غَنِياً مُحْتَاجاً إِلَيه ، فَلم يكن صمداً مُطلقاً .

الثَّانِي : لَو كَانَ مركَّباً من الْجَوَارِح والأعضاء لاحتاج فِي الإبصار إِلىٰ الْعين ، وَفِي الْفِعْل إِلىٰ الْيَد ، وَفِي الْمَشْي إِلىٰ الرِّجل ، وَذٰلِكَ يُنَافِي كَونه صمداً مُطلقاً .

الثَّالِث : أَنَّا نُقِيم الدّلَالَة علىٰ أَنَّ الْأَجْسَام متماثلة ، والأشياء المتماثلة يجب اشتراكها فِي اللوازم ، فَلَو احْتَاجَ بعض الْأَجْسَام إِلىٰ بعض ، لزم كَون الْكلِّ مُحْتَاجاً إِلىٰ ذَلِك الْجِسْم ، وَلزِمَ أَيْضاً كَونه مُحْتَاجاً إِلىٰ نَفسه ، وكلُّ ذَلِك محَال . وَلَمَّا كَانَ ذَلِك محَالاً ، وَجب أَن لَا يحْتَاج إِلَيْهِ شَيْء من الْأَجْسَام ، وَلَو كَانَ كَذَلِك لم يكن صمداً علىٰ الْإِطْلَاق .

وَأمَّا بَيَان دلَالَته علىٰ أَنَّه تَعَالَىٰ منزَّه عَن الحيِّز والجهة ، فَهُوَ أَنَّه تَعَالَىٰ لَو كَانَ مُخْتَصّاً بالحيِّز والجهة ، لَكَانَ إِمَّا أَن يكون حُصُوله فِي الحيِّز الْمعِيَّن وَاجِباً أَو جَائِزاً ، فَإِن كَانَ وَاجِباً فَحِينَئِذٍ يكون ذَاته تَعَالَىٰ مفتقراً فِي الْوُجُود والتحقق إِلىٰ ذَلِك الحيِّز الْمعِيَّن ، وذَلِك الحيِّز الْمعِيَّن فَإِنَّهُ يكون غَنِياً عَن ذَاته الْمَخْصُوص ، لأَنَّا لَو فَرضنَا عدم حُصُول ذَات الله تَعَالَىٰ فِي ذَلِك الحيِّز الْمعِيَّن لم يبطل ذَلِك الحيِّز أصلاً ، وعَلىٰ هَذَا التَّقْدِير يكون تَعَالَىٰ مُحْتَاجاً إِلىٰ ذَلِك الحيِّز ، فَلم يكن صمداً علىٰ الْإِطْلَاق . وأما إِن كَانَ حُصُوله فِي الحيِّز الْمعِيَّن جَائِزاً لَا وَاجِباً ، فَحِينَئِذٍ يفْتَقر إِلىٰ مُخَصِّص يخصِّصه بالحيِّز الْمعِيَّن ، وَذَلِكَ يُوجِب كَونه مُحْتَاجاً ، وينافي كَونه صَمَداً .

وَأَمَّا قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ، فَهَذَا أَيْضاً يدلُّ علىٰ أَنَّه لَيْسَ بجِسْم ، وَلَا جَوْهَر ، لأَنَّا سنقيم الدّلَالَة علىٰ أَنَّ الْجَوَاهِر متماثلة ، فَلَو كَانَ تَعَالَىٰ جوهراً ، لَكَانَ مثلاً لجَمِيع الْجَوَاهِر فَكَانَ كلُّ وَاحِد من الْجَوَاهِر : كفؤا لَهُ . وَلَو كَانَ جسماً لَكَانَ مؤلَّفاً من الْجَوَاهِر ، لِأَنَّ الْجِسْم يكون كَذَلِك ، وَحِينَئِذٍ يعود الْإِلْزَام الْمَذْكُور . فَثَبت أَنَّ هَذِه السُّورَة من أظهر الدَّلَائِل علىٰ أَنَّه تَعَالَىٰ لَيْسَ بجسم وَلَا بجَوْهر ، وَلَا حَاصِل فِي مَكَان وحيِّز .

وَاعْلَم أَنَّه كَمَا أَنَّ الْكفَّار لما سَأَلُوا الرَّسُول عَن صفة ربِّه ، وأجَاب الله بِهَذِهِ السُّورَة الدَّالَّة علىٰ كَونه تَعَالَىٰ منزَّهاً عَن أَن يكون جسماً أَو جوهراً أَو مُخْتَصّاً بِالْمَكَانِ ، فَكَذَلِك فِرْعَوْن سَأَلَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام عَن صفة

الله تَعَالَىٰ ، فَقَالَ : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] ، ثمَّ إِنَّ مُوسَىٰ لم يذكر الْجَواب عَن هَذَا السُّؤَال ، إِلَّا بِكَوْنِهِ تَعَالَىٰ خَالِقاً للنَّاس ومدبراً لَهُم ، وخالقاً للسَّمَوَات وَالْأَرْض ومدبراً لَهما " (١) .

وقال الإمام الرَّازي أيضاً : " ... بل الْأَقْرَب أَنَّ المجسِّمة كفَّار ، لأَنَّهم اعتقدوا أَنَّ كلَّ مَا لَا يكون متحيِّزاً ، وَلَا فِي جِهَة ، فَلَيْسَ بموجود ، وَنحن نعتقد أَنَّ كلَّ متحيِّز فَهُوَ مُحدث ، وخالقه مَوْجُود ، لَيْسَ بمتحيِّز ، وَلَا فِي جِهَة ، فالمجسِّمة نفوا ذَات الشَّيء الَّذِي هُوَ الْإِلَه ، فيلزمهم الْكفْر " (٢) .

وقال الإمام الآمدي (٦٣١هـ) : " ... أَنَّه لَا حدَّ لَهُ وَلَا نِهَايَة ، وَلَيْسَ بجسم وَلَا عَرَض " .

وقال أيضاً : " الْقَاعِدَة الثَّانِيَة : فِي إبطال التَّشْبِيه ، وَبَيَان مَا لَا يجوز علىٰ الله تَعَالَىٰ :

مُعْتَقد أهل الْحق أنَّ الباري لَا يُشبه شَيْئاً من الحادثات ، وَلَا يماثله شيء من الكائنات ، بل هُوَ بِذَاتِهِ مُنْفَرد عَن جَمِيع الْمَخْلُوقَات ، وَأَنَّه لَيْسَ بجوهر ، وَلَا جسم ، وَلَا عَرَض ، وَلَا تحلُّه الكائنات ، وَلَا تمازجه الحادثات ، وَلَا لَهُ مَكَان يحويه ، وَلَا زمَان هُوَ فِيهِ ، أَوَّل لَا قَبل لَهُ ، وَآخر لَا بَعْد لَهُ ،﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[الشورىٰ: ١١] " .

وقال أيضاً : " فَإِن قيل : مَا نشاهده من الموجودات لَيْسَ إِلَّا أجساماً وأعراضاً ، وَإِثْبَات قسم ثَالِث مِمَّا لَا نعقله ، وَإِذا كَانَت الموجودات منحصرة فِيمَا ذَكَرْنَاهُ ، فَلَا جَائِز أَن يكون الباري عَرَضاً ، لِأَنَّ الْعَرَض مفتقرٌ إِلىٰ الْجِسْم ، والباري لَا يفْتَقر إِلىٰ شيء ، وإلا كَانَ المفتقر إِلَيْهِ أشرف مِنْهُ ، وَهُوَ محَال ، وَإِذا بَطل أَن يكون عَرَضاً بقي أَن يكون جسماً .

قُلْنَا : منشأ الْخبط هَهُنَا إِنَّما هُوَ من الْوَهم بإعطاء الْغَائِب حكم الشَّاهِد ، وَالْحكم علىٰ غير المحسوس بِمَا حُكم بِهِ علىٰ المحسوس ، وَهُوَ كَاذِب غير صَادِق ، فإِنَّ الْوَهم قد يرتمي إِلىٰ أَنَّه لَا جسم إِلَّا فِي مَكَان ، بِنَاء علىٰ الشَّاهِد ، وَإِن شهد الْعقل بِأَنَّ الْعَالم لَا فِي مَكَان ، لكَون الْبُرْهَان قد دلَّ علىٰ نهايته ، بل وَقد يشْتَد وهمُ بعض النَّاس بِحَيْثُ يقْضِي بِهِ علىٰ الْعقل ، وَذَلِكَ كمن ينفر عَن الْمبيت فِي بَيت فِيهِ ميِّت لتوهُّمه أَنَّه يَتَحَرَّك أَو يقوم ، وإِن كَانَ عقله يقْضِي بانتقاء ذَلِك ، فَإِذاً اللبيب من ترك الْوَهم جانباً ، وَلم يتَّخذ غير الْبُرْهَان وَالدَّلِيل صاحباً . وَإِذا عرف أَن مُسْتَند ذَلِك لَيْسَ إِلَّا مُجَرّد الْوَهم ، فطريق كشف الخيال إِنَّما هُوَ بِالنَّظرِ فِي الْبُرْهَان ، فَإِنَّا قد بَيَّنَّا أَنَّه لَا بُدَّ من مَوْجُود هُوَ مبدأ الكائنات ، وَبيَّنَّا أَنَّه لَا جَائِز أَن يكون لَهُ مثل من الموجودات شَاهداً وَلَا غَائِباً ، وَمَعَ تَسْلِيم هَاتين القاعدتين يتبَيَّن أَنَّ مَا يقضي بِهِ الْوَهمُ لَا حَاصِل لَهُ ، ثمَّ وَلَو لزم أَن

---

(١) انظر : أساس التقديس (ص٨٧ فما بعدها) .

(٢) انظر : معالم أصول الدِّين (ص١٣٨) .

يكون جسماً كَمَا فِي الشَّاهِد ، للَزِمَ أَن يكون حَادِثاً وَهُوَ مُمْتَنع لما سبق . وَلَيْسَ هُوَ أَيْضاً عَرَضاً ، وَإِلَّا لافتقر إِلىٰ مقوم يقومه فِي وجوده ، إِذْ الْعَرَض لَا معنى لَهُ إِلَّا مَا وجوده فِي مَوْضُوع ، وَذَلِكَ أَيْضاً مُحَال ... فَإِذاً قد ثَبت أَنَّ البارئ تَعَالَىٰ لَيْسَ بجوهر ، وَلَا جسم ، وَلَا عَرَض ، وَلَا مُحدث ... " (١) .

وقال الإمام أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (٦٥٦هـ) : " ... وأَنَّهُ تعالىٰ منزَّهٌ عن صفاتِ النَّقصِ التي هي أضدادُ تلك الصِّفات ، وعن صفاتِ الأجسامِ والمتحيِّزات ، وأَنَّهُ واحدٌ حقٌّ ، صمدٌ فَرْدٌ ، خالقُ جميعِ المخلوقات ، متصرِّفٌ فيها بما يشاء من التَّصرُّفات " .

وقال أيضاً : " ... فإنَّه منزَّه عن الجسميَّة ولوازمها " .

وقال أيضاً في كلامه عن العرش : " ... وإضافته إلىٰ الله علىٰ جهة الملك أو التَّشريف ، لا لأنَّ الله استقرَّ عليه أو استظلَّ به ، كما قد توهَّمه بعض الجُهَّال في الاستقرار ، وذلك علىٰ الله مُحال ؛ إذ تستحيل عليه الجسميَّة ولواحقها " .

وقال أيضاً : " ونسبة الفوقيَّة المكانيَّة إلىٰ الله تعالىٰ مُحال ؛ لأنَّه منزَّه عن الفوقيَّة ، كما هو منزَّه عن التّحتيَّة ؛ إذ كلُّ ذلك من لوازم الأجرام ، وخصائص الأجسام ، ويتقدَّس عنها الذي ليس كمثله شيء من جميع الأنام " .

وقال أيضاً : " وقد شهد العقل والنَّقل : أنَّ الله تعالىٰ منزَّه عن مماثلة الأجسام ، وعن الجوارح المركَّبة من الأعصاب والعظام ، وما جاء في الشَّريعة مِمَّا يوهم شيئاً من ذلك فهو توسُّعٌ ، واستعارة حسب عادات مخاطباتهم الجارية علىٰ ذلك " .

وقال أيضاً : " وممَّا يعلم استحالته : كون العرش حاملاً لله تعالىٰ ، وأنَّ الله تعالىٰ مستقرٌّ عليه كاستقرار الأجسام ؟ إذ لو كان محمولاً لكان محتاجاً فقيراً لما يحمله ، وذلك ينافي وصف الإلهيَّة " .

وقال أيضاً : " وقد ضلَّ بظاهر هذا اللفظ من أذهبَ اللهُ عقلَه ، وأعدَم فهمَه ، وهم المجسِّمة المشبِّهة ، فاعتقدوا : أنَّ لله تعالىٰ رِجلاً من لحم وعصب تشبه رِجلنا ، كما اعتقدوا في الله تعالىٰ أنَّه جسم يشبه أجسامنا ذو وجه ، وعينين ، وجنب ، ويد ، ورِجل ، وهكذا ... وهذا ارتكاب جهالة خالفوا بها العقول وأدلَّة الشَّرع المنقول ، وما كان سلف هذه الأُمَّة عليه من التَّنزيه عن المماثلة والتَّشبيه ، وكيف يستقرُّ هذا المذهب الفاسد في قلب من له أدنىٰ فكرة ، ومن العقل أقلّ مسكة ، فإنَّ الأجسام من حيث هي كذلك متساوية في

---

(١) انظر : غاية المرام في علم الكلام ، الآمدي (ص٣٤) ، (ص١٧٩) ، (ص١٨٥-١٨٦) بالترتيب .

الأحكام العقليَّة ، وما ثبت للشيء ثبت لمثله ، وقد ثبت لهذه الأجسام الحدوث ، فيلزم عليه أن يكون الله تعالىٰ حادثاً " (١) .

وقال الإمام أبو عبد الله محمَّد بن أحمد القرطبي (٦٧١هـ) نقلاً عن شيخه أَبُو العبَّاس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (٦٥٦هـ) : " مُتَّبِعُو الْمُتَشَابِهِ لَا يَخْلُو أَنْ يَتَّبِعُوهُ ويجمعوه طلباً للتَّشكيك فِي الْقُرْآنِ وَإِضْلَالِ الْعَوَامِّ ، كَمَا فَعَلَتْهُ الزَّنَادِقَةُ وَالْقَرَامِطَةُ الطَّاعِنُونَ فِي الْقُرْآنِ ، أَوْ طَلَباً لِاعْتِقَادِ ظَوَاهِرِ الْمُتَشَابِهِ ، كَمَا فَعَلَتْهُ الْمُجَسِّمَةُ الَّذِينَ جَمَعُوا مَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِمَّا ظَاهِرُهُ الْجِسْمِيَّةُ حَتَّىٰ اعْتَقَدُوا أَنَّ الْبَارِئَ تَعَالَىٰ جِسْمٌ مُجَسَّمٌ ، وصورة مصوَّرة ، ذات وجه ، وعين ، ويد ، وَجَنْبٍ ، وَرِجْلٍ ، وَأُصْبُعٍ ، تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ ذَلِكَ ، أَوْ يَتَّبِعُوهُ عَلَىٰ جِهَةِ إِبْدَاءِ تَأْوِيلَاتِهَا وَإِيضَاحِ مَعَانِيهَا ، أَوْ كَمَا فَعَلَ صَبِيغٌ حِينَ أَكْثَرَ عَلَىٰ عُمَرَ فِيهِ السُّؤَالَ ، فَهَذِهِ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ :

الْأَوَّلُ- لَا شَكَّ فِي كُفْرِهِمْ ، وَأَنَّ حُكْمَ اللهَّ فِيهِمُ الْقَتْلُ مِنْ غَيْرِ اسْتِتَابَةٍ .

الثَّانِي- الصَّحِيحُ الْقَوْلُ بِتَكْفِيرِهِمْ ، إِذْ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عُبَّادِ الْأَصْنَامِ وَالصُّوَرِ ، وَيُسْتَتَابُونَ فَإِنْ تَابُوا وَإِلَّا قُتِلُوا كَمَا يُفْعَلُ بِمَنِ ارْتَدَّ .

الثَّالِثُ- اختلفوا في جواز ذلك بناء عَلَىٰ الْخِلَافِ فِي جَوَازِ تَأْوِيلِهَا . وَقَدْ عُرِفَ ، أَنَّ مَذْهَبَ السَّلَفِ تَرْكُ التَّعَرُّضِ لِتَأْوِيلِهَا مَعَ قَطْعِهِمْ بِاسْتِحَالَةِ ظَوَاهِرِهَا ، فَيَقُولُونَ أَمِرُوهَا كَمَا جَاءَتْ . وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلىٰ إِبْدَاءِ تَأْوِيلَاتِهَا وَحَمْلِهَا عَلَىٰ مَا يَصِحُّ حَمْلُهُ فِي اللِّسَانِ عَلَيْهَا مِنْ غَيْرِ قَطْعٍ بِتَعْيِينِ مُجْمَلٍ مِنْهَا .

الرَّابِعُ- الْحُكْمُ فِيهِ الْأَدَبُ الْبَلِيغُ ، كَمَا فَعَلَهُ عُمَرُ بِصَبِيغٍ . وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَنْبَارِيُّ : وَقَدْ كَانَ الْأَئِمَّةُ مِنَ السَّلَفِ يُعَاقِبُونَ مَنْ يَسْأَلُ عَنْ تَفْسِيرِ الْحُرُوفِ الْمُشْكِلَاتِ فِي الْقُرْآنِ ، لِأَنَّ السَّائِلَ إِنْ كَانَ يَبْغِي بِسُؤَالِهِ تَخْلِيدَ الْبِدْعَةِ وَإِثَارَةَ الْفِتْنَةِ فَهُوَ حَقِيقٌ بِالنَّكِيرِ وَأَعْظَمِ التَّعْزِيرِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَقْصِدَهُ فَقَدِ اسْتَحَقَّ الْعَتْبَ بِمَا اجْتَرَمَ مِنَ الذَّنْبِ ، إِذْ أَوْجَدَ لِلْمُنَافِقِينَ الْمُلْحِدِينَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ سَبِيلاً إِلىٰ أَنْ يَقْصِدُوا ضَعَفَةَ الْمُسْلِمِينَ بِالتَّشْكِيكِ وَالتَّضْلِيلِ فِي تَحْرِيفِ الْقُرْآنِ عَنْ مَنَاهِجِ التَّنْزِيلِ وَحَقَائِقِ التَّأْوِيلِ " (٢) .

وقال الإمام عبد العزيز بن عبد السَّلام (٦٦٠هـ) ، فيما نقله عنه الإمام تاج الدِّين السُّبكي (٧٧١هـ) : " وَأَنَّه لَيْسَ بجسم مُصَوَّر ، وَلَا جَوْهَر مَحْدُود مُقَدّر ، وَأَنَّه لَا يماثل الْأَجْسَام ، لَا فِي التَّقْدِير وَلَا فِي قبُول الانقسام

(١) انظر : المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/ ٦٠) ، (٣/ ٥٩) ، (٣/ ٦٠) ، (١١/ ١١٠) ، (١٢/ ٧٨) (٢٢/ ٣٤) ، (٢٣/ ٥٣) بالترتيب .

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) (٤/ ١٣-١٤) .

، وَأَنَّه لَيْسَ بجوهر وَلَا تحلُّه الْجَوَاهِر ، وَلَا بِعرْض وَلَا تحله الْأَعْرَاض ، بل لَا يماثل مَوْجُوداً ، وَلَا يماثله مَوْجُود ، ولَيْسَ كمثله شَيْء ، ولا هو مثل شَيْء ، وَأَنَّه لَا يحدُّه الْمِقْدَار ، وَلَا تحويه الأقطار ، وَلَا تحيط بِهِ الْجِهَات ، وَلَا تكتنفه الأرضون وَالسَّمَوَات ، وَأَنَّه اسْتَوَىٰ علىٰ الْعَرْش علىٰ الْوَجْه الَّذِي قَالَه ، وبالمعنىٰ الَّذِي أَرَادَهُ ، اسْتِوَاء منزَّهاً عَن المماسَّة والاستقرار ، والتَّمكُّن والحلول والانتقال ... " (١) .

وقال الإمام أبو عبد الله محمَّد القرطبي (٦٧١هـ) : " وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُحْمَلَ هَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ مِمَّا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ وَالْخَبَرِ عَلَىٰ وَجْهِ الِانْتِقَالِ وَالْحَرَكَةِ وَالزَّوَالِ ، لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْأَجْرَامِ وَالْأَجْسَامِ ، تَعَالَىٰ اللهُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ، ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ عَنْ مُمَاثَلَةِ الْأَجْسَامِ عُلُوّاً كَبِيراً " .

وقال أيضاً : " وَلَيْسَ مَجِيئُهُ تَعَالَىٰ حَرَكَةً وَلَا انْتِقَالاً وَلَا زَوَالاً ، لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ إِذَا كَانَ الْجَائِي جِسْماً أَوْ جَوْهَراً . وَالَّذِي عَلَيْهِ جُمْهُورُ أَئِمَّةِ أَهْلِ السنة أنَّهم يقولون : يجيء وَيَنْزِلُ وَيَأْتِي ، وَلَا يُكَيِّفُونَ ، لأنَّه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ: ١١] .

وقال أيضاً : " وَالْأَخْبَارُ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ صَحِيحَةٌ مُنْتَشِرَةٌ ، مُشِيرَةٌ إِلىٰ الْعُلُوِّ ، لَا يَدْفَعُهَا إِلَّا مُلْحِدٌ أَوْ جَاهِلٌ مُعَانِدٌ . وَالْمُرَادُ بِهَا تَوْقِيرُهُ وَتَنْزِيهُهُ عَنِ السُّفْلِ وَالتَّحْتِ . وَوَصْفُهُ بِالْعُلُوِّ وَالْعَظَمَةِ لَا بِالْأَمَاكِنِ وَالْجِهَاتِ وَالْحُدُودِ ، لِأَنَّهَا صِفَاتُ الْأَجْسَام "(٢) .

وقال الإمام النَّووي (٦٧٦هـ) : " لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التَّجَسُّمُ ، وَلَا اخْتِلَافُ الْأَحْوَالِ " (٣) .

وقال أيضاً : " قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ مَنْ يَكْفُرُ بِبِدْعَتِهِ لَا تَصِحُّ الصَّلَاةُ وَرَاءَهُ ، وَمَنْ لَا يَكْفُرُ تَصِحُّ ، فَمِمَّنْ يَكْفُرُ مَنْ يُجَسِّمُ تَجْسِيماً صَرِيحاً " (٤) .

وقال الإمام كمال الدِّين السِّيواسي (٦٨١هـ) : " وإن قال : جسمٌ لا كالأجسام ، فهو مبتدع ، لأنَّه ليس فيه إلَّا إطلاق لفظ الجسم عليه ، وهو موهمٌ للنَّقص ، فرفعه بقوله لا كالأجسام ، فلم يبق إلَّا مجرَّد الإطلاق ، وذلك معصية تنتهض سبباً للعقاب ، لما قلنا من الإيهام ، بخلاف ما لو قاله علىٰ التَّشبيه ، فإنَّه كافر ، وقيل : يكفر بمجرد الإطلاق أيضاً ، وهو حسن ، بل هو أولىٰ بالتَّكفير " (٥) .

---

(١) انظر : طبقات الشافعية الكبرىٰ (٦/ ٢٣١) .

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) (٣/ ٢٦) ، (٧/ ١٤٥) ، (١٨/ ٢١٦) بالترتيب .

(٣) انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٥/ ٢٥) .

(٤) انظر : المجموع شرح المهذب (مع تكملة السبكي والمطيعي) (٤/ ٢٥٣) .

(٥) انظر : شرح فتح القدير (١/ ٣٥٠) .

وقال الإمام القرافي (٦٨٤هـ) : ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] ، وَالْمَجِيءِ فِي قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] ، وَالْوَجْهِ فِي قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٧] ، وَالْيَدِ فِي قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿ٱللَّهِ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الفتح: ١٠] ، وَالنُّزُولِ فِي حَدِيثِ الصَّحِيحَيْنِ " يَنْزِلُ رَبُّنَا فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلىٰ سَمَاءِ الدُّنيا " ، وَالصُّورَةِ فِي حَدِيثِهِمَا أَيْضاً : " إِنَّ اللهَّ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ " ، فَهَذَا يَجُوزُ إِطْلَاقُهُ عَلَىٰ اللهَّ تَعَالَىٰ ، لَكِنْ إِمَّا مَعَ التَّأْوِيلِ التَّفْصِيلِيِّ ، كَمَا هُوَ طَرِيقَةُ الْخَلَفِ ، بِأَنْ يُقَالَ : الْمُرَادُ بِالِاسْتِوَاءِ : الِاسْتِيلَاءُ وَالْمُلْكُ ، كَمَا قَالَ :

قَدْ اسْتَوَىٰ بِشْرٌ عَلَىٰ الْعِرَاقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مِهْرَاقِ

وَبِالْفَوْقِيَّةِ : التَّعَالِي فِي الْعَظَمَةِ دُونَ الْمَكَانِ ، وَبِالْإِتْيَانِ : إِتْيَانُ رَسُولِ عَذَابِهِ أَوْ رَحْمَتِهِ وَثَوَابِهِ ، وَكَذَا النُّزُولُ ، وَبِالْوَجْهِ : الذَّاتُ أَوْ الْوُجُودُ ، وَبِالْيَدِ : الْقُدْرَةُ ، وَيَرْجِعُ ضَمِيرٌ عَلَىٰ صُورَتِهِ إِلىٰ الْأَخِ الْمُصَرَّحِ فِي الطَّرِيقِ الْأُخْرَىٰ الَّتِي رَوَاهَا مُسْلِمٌ بِلَفْظِ : " إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَتَجَنَّبْ الْوَجْهَ ، فَإِنَّ اللهَّ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ " ، وَالْمُرَادُ بِالصُّورَةِ : الصِّفَةُ . وإِمَّا مَعَ التَّأْوِيلِ الْإِجْمَالِيِّ ، وَيُفَوَّضُ عِلْمُ الْمَعْنَى الْمُرَادَ مِنْ ذَلِكَ النَّصِّ تَفْصِيلاً إِلَيْهِ تَعَالَىٰ ، كَمَا هُوَ طَرِيقُ السَّلَفِ ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ (١٧٩هـ) : لَمَّا سُئِلَ عَنْ قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] : الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ ، كَمَا فِي شَرْحِ عَبْدِ السَّلَامِ عَلَىٰ جَوْهَرَةِ التَّوحيد .

وَالْقِسْمُ الثَّانِي : مَا وَرَدَ نَظِيرُهُ فِي كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ صَحِيحَةٍ ، وَإِلَىٰ مِثَالِهِ وَحُكْمِهِ أَشَارَ الْعَلَّامَةُ الْأَمِيرُ فِي حَاشِيَتِهِ عَلَىٰ شَرْحِ الشَّيخ عَبْدِ السَّلَامِ عَلَىٰ جَوْهَرَةِ التَّوحيد ، بِقَوْلِهِ : وَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ قَالَ جِسْمٌ كَالْأَجْسَامِ ، فَاسِقٌ ، وَلَا يُعَوَّلُ عَلَىٰ اسْتِظْهَارِ بَعْضِ أَشْيَاخِنَا كُفْرَهُ كَيْفَ ، وَقَدْ صَحَّ : وَجْهٌ لَا كَالْوُجُوهِ ، وَيَدٌ لَا كَالْأَيْدِي ، نَعَمْ لَمْ تَرِدْ عِبَارَةُ جِسْمٍ فَلْيُتَأَمَّلْ اهـ بِلَفْظِهَا .

قُلْت : وَمِنْ هَذَا الْقِسْمِ قَوْلُ الْقَائِلِ : أَنَّه تَعَالَىٰ فِي مَكَان لَيْسَ كَمَكَانِ الْحَوَادِثِ ، لأَنَّه قَدْ صَحَّ اسْتِوَاءٌ عَلَىٰ الْعَرْشِ لَا كَالِاسْتِوَاءِ عَلَىٰ السَّرِيرِ ، نَعَمْ لَمْ تَرِدْ عِبَارَةُ مَكَان ، بَلْ قَالَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ : حَدِيثُ " لَا تُفَضِّلُونِي عَلَىٰ يُونُسَ " يُفِيدُ أَنَّه تَعَالَىٰ مُنَزَّهٌ عَنْ الْمَكَانِ أَزَلاً ، إِذْ لَوْلَا تَنَزُّهُهُ عَنْ الْجِهَةِ لَكَانَ محمَّد – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي مِعْرَاجِهِ أَقْرَبَ مِنْ يُونُسَ فِي نُزُولِ الْحُوتِ بِهِ لِقَاعِ الْبَحْرِ ،كَمَا أَفَادَهُ الْأَمِيرُ فِي الْحَاشِيَةِ الْمَذْكُورَةِ ... " (١)

.

(١) انظر : الفروق (أنوار البروق في أنواء الفروق) (٤/ ٢٩٥) .

وقال الإمام البيضاوي (٦٨٥هـ) : " لَّما ثبت بالقواطع العقليَّة والنقليَّة أنَّه تبارك وتعالىٰ منزَّه عن الجسميَّة ، والتحيُّز ، والحلول ، امتنع عليه النُّزول علىٰ معنىٰ الانتقال من موضع أعلىٰ إلىٰ ما هو أخفض منه " (١) .

قال الإمام أحمد بن حمدان الحنبلي (٦٩٥هـ) : " ... لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء ، ومن شبَّهه بخلقه فقد كفر ، نصَّ عليه أحمد . وكذا من جسَّم ، أو قال : أنَّه جسم لا كالأجسام ، ذكره القاضي " (٢) .

وقال الإمام النَّسفي (٧١٠هـ) : " ... والله منزَّه عن الجوارح ، وعن صفات الأجسام " (٣) .

وقال الإمام سليمان الطُّوفي الصّرصري (٧١٦هـ) : " وَكَذَلِكَ مَنِ اعْتَقَدَ فِي اللهَّ - عزَّ وجلَّ - مَا يَعْلَمُ أنَّه لَا يَلِيقُ بِهِ ، كَمَنِ اعْتَقَدَ أنَّه جِسْمٌ ؛ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الْجِسْمِيَّةَ لَا تَلِيقُ بِهِ ، وَنَحْوَ ذَلِكَ ، لأنَّه مُسْتَهْزِئٌ بِالْحُرْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ ، مُتَلَاعِبٌ بِهَا ، فَهَذَانِ يَكْفُرَانِ ، وَمَنْ سِوَاهُمْ ، فَلَا ، وَاللهُّ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ " (٤) .

وقال الإمام الحسين بن محمود الشِّيرازيُّ الحَنَفيُّ المشهورُ بالمُظْهِري (٧٢٧ هـ) : " لأنَّ الإتيانَ صفةُ الأجسام ، والله تعالىٰ منزَّه عمَّا هو جسمٌ وجسمانيٌّ " (٥) .

وقال أيضاً : " والله سبحانه منزَّه عن الجوارح ؛ فإنَّها صفةُ الأجسام ، ومِثْلُ هذا من المتشابهات ؛ فتركُ الخوضِ فيها أقربُ إلىٰ السَّلامة " (٦) .

وقال الإمام الخازن (٧٢٨هـ) : " أمَّا الجارحة فمنتفية في صفة الله عزَّ وجلَّ ، لأنَّ العقل دلَّ علىٰ أنَّه يمتنع أن تكون يد الله عبارة عن جسم مخصوص ، وعضو مركَّب من الأجزاء والأبعاض ، تعالىٰ الله عن الجسميَّة والكيفيَّة والتَّشبيه علوَّاً كبيراً ، فامتنع بذلك أن تكون يد الله بمعنىٰ الجارحة " .

وقال أيضاً : " ... الإيمان به وتنزيه الرَّبِّ تبارك وتعالىٰ عن صفات الأجسام . المذهب الثَّاني : وهو قول جماعة من المتكلِّمين وغيرهم : أنَّ الصُّعود والنُّزول من صفات الأجسام ، والله تعالىٰ يتقدَّس عن ذلك " .

وقال أيضاً : " ... فإن فسِّر الصَّمد بهذا ، كان من صفات الأجسام ، ويتعالىٰ الله جلَّ وعزَّ عن صفات الجسميَّة " (٧) .

---

(١) انظر : تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة (١/ ٣٦٤) .

(٢) انظر : نهاية المبتدئين في أصول الدِّين (ص٣١) .

(٣) انظر : تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) (٣/ ٣٣٦) .

(٤) انظر : شرح مختصر الروضة (٣/ ٦٦١) .

(٥) انظر : المفاتيح في شرح المصابيح (٥/ ٥١٤) .

(٦) انظر : المفاتيح في شرح المصابيح (٥/ ٥١٦) .

(٧) انظر : تفسير الخازن المسمىٰ لباب التأويل في معاني التنزيل (٢/ ٧١) ، (٦/ ٢٤٣) ، (٧/ ٣٢٠) بالترتيب .

وقال الإمام تاج الدِّين السُّبكي (٧٧١هـ) نقلاً عن الإمام أَحْمد بن يحيىٰ بن إِسْمَاعِيل الشَّيخ شهَاب الدِّين ابْن جهبل الْكلابِي الْحلَبِي (٧٣٣هـ) في ردِّه علىٰ ابن تيمية : " فَهَذِهِ كَلِمَات أَعْلَام أهل التَّوحيد وأئمَّة جُمْهُور الْأمَّة ، سوىٰ هَذِه الشِّرذمة الزَّائغة ، كتبهم طافحة بذلك ، وردُّهم علىٰ هَذِه النَّازعة لَا يكَاد يحصر ، وَلَيْسَ غرضنا بذلك تقليدهم ، لمنع ذَلِك فِي أُصُول الدِّيانَات ، بل إِنَّمَا ذكرت ذَلِك ليعلم أَنَّ مَذْهَب أهل السُّنَّة مَا قدمْنَاهُ .

ثمَّ إِنَّ قَوْلنَا : إِنَّ آيَات الصِّفَات وأخبارها علىٰ من يسْمعهَا وظائف التَّقْدِيس ، وَالْإِيمَان بِمَا جَاءَ عَن الله تَعَالَىٰ وَعَن رَسُوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ مُرَاد الله تَعَالَىٰ ، وَمُرَاد رَسُوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والتَّصديق وَالِاعْتِرَاف بِالْعَجزِ ، وَالسُّكُوت والإمساك عَن التَّصَرُّف فِي الْأَلْفَاظ الْوَارِدَة ، وكف الْبَاطِن عَن التفكُّر فِي ذَلِك ، واعتقاد أَنَّ مَا خَفِي عَلَيْهِ مِنْهَا لم يخف عَن الله وَلَا عَن رَسُوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَسَيَأْتِي شرح هَذِه الوظائف إِن شَاءَ الله تَعَالَىٰ ، فليت شعري فِي أَي شَيْء نخالف السَّلف ، هَل هُوَ فِي قَوْلنَا : كَانَ وَلَا مَكَان ؟ أَو فِي قَوْلنَا : أَنَّه تَعَالَىٰ كَوَّن الْمَكَان ؟ أَو فِي قَوْلنَا : وَهُوَ الْآن علىٰ مَا عَلَيْهِ كَانَ ؟ أَو فِي قَوْلنَا : تقدَّس الْحَقُّ عَن الجسميَّة ومشابهتها ؟ أَو فِي قَوْلنَا : يجب تَصْدِيق مَا قَالَه الله تَعَالَىٰ وَرَسُوله بِالْمَعْنَىٰ الَّذِي أَرَادَ ؟ أَو فِي قَوْلنَا : يجب الِاعْتِرَاف بِالْعَجزِ ؟ أَو فِي قَوْلنَا : نسكت عَن السُّؤَال والخوض فِيمَا لَا طَاقَة لنا بِهِ ؟ أَو فِي قَوْلنَا : يجب إِمْسَاك اللِّسَان عَن تَغْيِير الظَّوَاهِر بِالزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَان .

وليت شعري فِي مَاذَا وافقوا هم السَّلف ؟ هَل فِي دُعَائِهِمْ إِلىٰ الْخَوْض فِي هَذَا ، والحثِّ علىٰ الْبَحْث مَعَ الْأَحْدَاث الغرين ، والعوام الطغام الَّذين يعجزون عَن غسل محل النّجو وَإِقَامَة دعائم الصَّلَاة ، أَو وافقوا السَّلف فِي تَنْزِيه الْبَارِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَن الْجِهَة ؟ وَهل سمعُوا فِي كتاب الله أَو أثارة من علم عَن السَّلف أَنَّهم وصفوا الله تَعَالَىٰ بِجِهَة الْعُلُوّ ؟ وَأَنَّ كلَّ مَالا يصفه بِهِ فَهُوَ ضالٌّ مضلٌّ من فراخ الفلاسفة والهنود واليونان ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ٥٠] (١) .

وقال الإمام ابن جماعة (٧٣٣هـ) : " فالعُمدة عندنَا فِي أُمُور العقائد هِيَ الْأَدِلَّة القطعيَّة الَّتِي توافرت علىٰ أَنَّه تَعَالَىٰ لَيْسَ جسماً ، وَلَا متحيِّزاً ، وَلَا متجزِّئاً ، وَلَا متركِّباً ، وَلَا يحْتَاج لأحدٍ ، وَلَا إِلىٰ مَكَانٍ ، وَلَا إِلىٰ زمَانٍ ، وَلَا نَحْو ذَلِك .

وَلَقَد جَاءَ الْقُرْآن بِهَذَا فِي محكماته إِذْ يَقُول : ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] ، وَيَقُول : ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ * وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤] ، ويقول : ﴿

(١) انظر : طبقات الشافعية الكبرىٰ (٩/ ٤٣-٤٤) .

إن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْۗ ﴾ [الزمر: ٧] ، ويقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] ، وَغير هَذَا كثير فِي الْكتاب وَالسّنة . فَكلُّ مَا جَاءَ مُخَالفاً بِظَاهِرِهِ لتِلْك القطعيَّات المحكمات ، فَهُوَ من المتشابهات الَّتِي لَا يجوز اتباعها ، كَمَا تبيَّن لَك فِيمَا سلف " .

وقال أيضاً عند الكلام على قول الله تعالى : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] : " قد تقدَّم أَنَّ الجسميَّة فِي حَقه تَعَالَىٰ مُحَال ، فَوَجَبَ تَأْوِيل الْجنب الْمَذْكُور هُنَا ، وَأَنَّ الْمُرَاد بِهِ : طَاعَته وَأمره ، لِأَنَّ اسْتِعْمَال ذَلِك فيهمَا مَعْهُود شايع فِي كَلَام الْعَرَب وَعرف النَّاس . قَالَ مُجَاهِد : يَعْنِي : مَا ضيَّعت فِي أَمر الله ، وَيُقَال : فلَان يهمل جَانب فلَان ، وَرمى فلَان جنب فلَان ، أَي : لَا يطيعه ، وَلَا يتعهَّده ، ذَلِك لِأَنَّ الْجنب الْمَعْهُود لَا يَقع فِيهِ تَفْرِيط ، وَلَا يعقل مَعْنَاهُ فِيهِ ، بل إِنَّمَا يَقع التَّفْرِيط فِي طَاعَة الْأَمر ، وَفِي حق وَاجِب ، أَي : بِتَرْكِهِ . وَقد أنْشد ثَعْلَب فِيهِ : خليلي كفَّا وَاذْكُر الله فِي جَنْبي . وَوجه التَّجَوُّز عَن الطَّاعَة أَن تَارِك الْحق مُخَالف الْأَمر " .

وقال أيضاً : " ... وَلما ثَبت أَنَّه تَعَالَىٰ لَيْسَ بجسم ، وَجب تَأْوِيل ذَلِك على مَا يَلِيق بجلاله ... " (١) .

وقال الإمام شرف الدِّين الحسين بن عبد الله الطِّيبي (٧٤٣هـ) : " لَّمَا ثبت بالقواطع العقليَّة والنقليَّة أنَّه تبارك وتعالى منزَّه عن الجسميَّة والتَّحيُّز ، والحلول ، امتنع عليه النُّزول على معنى الانتقال من موضع أعلى إلى ما هو أخفض منه " (٢) .

وقال الإمام الزَّيلعي (٧٤٣هـ) : " وَالْمُشَبِّهِ إذَا قَالَ : لَهُ تَعَالَىٰ يَدٌ وَرِجْلٌ كَمَا لِلْعِبَادِ فَهُوَ كَافِرٌ مَلْعُونٌ ، وَإِنْ قَالَ : جِسْمٌ لَا كَالْأَجْسَامِ فَهُوَ مُبْتَدِعٌ ؛ لأَنَّه لَيْسَ فِيهِ إلَّا إطْلَاقَ لَفْظِ الْجِسْمِ عَلَيْهِ ، وَهُوَ مُوهِمٌ لِلنَّقْصِ فَرَفَعَهُ بِقَوْلِهِ : لَا كَالْأَجْسَامِ ، فَلَمْ يَبْقَ إلَّا مُجَرَّدَ الْإِطْلَاقِ ، وَذَلِكَ مَعْصِيَةٌ تَنْتَهِضُ سَبَباً لِلْعِقَابِ " (٣) .

فأقلُّ ما قاله العلماء فيمن قال : جسمٌ لا كالأجسام : أنَّه مبتدع عاصٍ يستحقُّ العقاب ، وبعضهم حكم بكفره ، والعياذ بالله ...

---

(١) انظر : إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل (ص٦٤-٦٥) ، (ص١٣٢) ، (ص١٤١) بالترتيب .

(٢) انظر : شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ(الكاشف عن حقائق السنن) (٤/ ١٢٠٤) .

(٣) انظر : تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشِّلْبِيِّ (١/ ١٣٥) .

وقال الإمام أبو حيَّان الأندلسي (٧٤٥هـ) : " ... إِذَا كَانَ لِلَّفْظِ دَلَالَةٌ عَلَىٰ التَّجْسِيمِ فَنَحْمِلُهُ ، إِمَّا عَلَىٰ مَا يُسَوَّغُ فِيهِ مِنَ الْحَقِيقَةِ الَّتِي يَصِحُّ نِسْبَتُهَا إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ إِنْ كَانَ اللَّفْظُ مُشْتَرَكاً ، أَوْ مِنَ الْمَجَازِ إِنْ كَانَ اللَّفْظُ غَيْرَ مُشْتَرَكٍ . وَالْمَجَازُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ أَكْثَرُ مِنْ رَمْلِ يَبْرِينَ وَنَهْرِ فِلَسْطِينَ .

فَالْوُقُوفُ مَعَ ظَاهِرِ اللَّفْظِ الدَّالِّ عَلَىٰ التَّجْسِيمِ غَبَاوَةٌ وَجَهْلٌ بِلِسَانِ الْعَرَبِ وَأَنْحَائِهَا وَمُتَصَرِّفَاتِهَا فِي كَلَامِهَا ، وَحُجَجِ الْعُقُولِ الَّتِي مَرْجِعُ حَمْلِ الْأَلْفَاظِ الْمُشْكِلَةِ إِلَيْهَا . وَنَعُوذُ بِاللهِ أَنْ نَكُونَ كَالْكَرَّامِيَّةِ ، وَمَنْ سَلَكَ مَسْلَكَهُمْ فِي إِثْبَاتِ التَّجْسِيمِ وَنِسْبَةِ الْأَعْضَاءِ للهِ ، تَعَالَىٰ اللهُ عَمَّا يَقُولُ الْمُفْتَرُونَ عُلُوّاً كَبِيراً " .

وقال أيضاً : " ... وَاللهُ تَعَالَىٰ مُنَزَّهٌ عَنِ الْجَوَارِحِ ، وَعَنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ " (١) .

وقال الإمام الذَّهبي (٧٤٨هـ) : " قَالَ أهل السُّنَّة وَأَصْحَاب الحَدِيث : أَنَّه لَيْسَ بجسم ، وَلَا يشبه الْأَشْيَاء " (٢) .

وقال الإمام عضد الدِّين الإيجي (٧٥٦هـ) : " أَنَّه تعالىٰ ليس بجسم ، وذهب بعض الجهَّال إلىٰ أَنَّه جسم ، ... والمجسِّمة قالوا : هو جسم حقيقة ، فقيل : من لحم ودم ، كمقاتل بن سليمان . وقيل : نور يتلألأ كالسَّبيكة البيضاء ، وطوله : سبعة أشبار من شبر نفسه ، ومنهم من يقول : أَنَّه علىٰ صورة إنسان ، فقيل : شاب أمرد جعد قطط ، وقيل : شيخ أشمط الرَّأس واللحية ، تعالىٰ الله عن قول المبطلين ، والمعتمد في بطلانه : أَنَّه لو كان جسماً لكان متحيِّزاً ، واللازم قد أبطلناه ، وأيضاً يلزم تركُّبه وحدوثه ، وأيضاً : فإن كان جسماً لاتَّصف بصفات الأجسام ، إمَّا كلّها فيجتمع الضدَّان ، أو بعضها فيلزم التَّرجيح بلا مرجِّح أو الاحتياج ، وأيضاً ، فيكون متناهياً ، فيتخصَّص بمقدار وشكل ، واختصاصه بهما دون سائر الأجسام يكون لمخصص ويلزم الحاجة " .

وقال أيضاً : " ... ثمَّ علمت أنَّ الله تعالىٰ ليسَ جسْماً ، ولا في جهة ، ويستحيلُ عليه مقابلة ومواجهة وتقليب حدقة نحوه " (٣) .

وقال الإمام صلاح كيكلدي الدِّمشقي (٧٦١هـ) : " ... وَطَرِيقُ الصَّوَابِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ إِمَّا فِي الإِيمَانِ بِهِ وَتَفْوِيضِ عِلْمِهِ إِلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ ، مَعَ الْقَطْعِ بِأَنَّ الظَّاهِرَ الْمُوهِمَ لِلْجِسْمِيَّةِ وَقُبُولَ الْحَوَادِثِ غَيْرُ مُرَادٍ ، وَإِمَّا بِتَأْوِيلِهِ عَلَىٰ مَعْنَىٰ يَلِيقُ بِجَلَالِ اللهِ سُبْحَانَهُ ، بِمَا هُوَ عَلَىٰ قَوَاعِدِ مَجَازِ كَلَامِ الْعَرَبِ وَاسْتِعَارَاتِهَا ، مِمَّا لَيْسَ هَذَا

(١) انظر : البحر المحيط في التفسير (١/ ٥٧٨) ، (٩/ ٤٨٧) بالترتيب .

(٢) انظر : العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها (ص٢١٨) .

(٣)انظر : كتاب المواقف (٣/ ٣٨-٣٩) ، (٣/ ١٥٣ ، ١٧٤) بالترتيب .

مَوْضِعَ ذِكْرِهِ ، وَكُلٌّ مِنْ هَذَيْنِ الطَّرِيقَيْنِ يَسْلُكُهُ الإِمَامُ أَبُو الْحَسَنِ الأَشْعَرِيُّ ، وَلَيْسَا بِقَوْلَيْنِ لَهُ كَمَا قَالَهُ بَعْضُ الأَئِمَّةِ ، بَلْ هُمَا طَرِيقَانِ يَرْجِعُ إِلَيْهِمَا فِي تَصَانِيفِهِ ، وَأَمَّا التَّفْوِيضُ مَعَ اعْتِقَادِ الظَّاهِرِ فَمِمَّا لا يَجُوزُ ، لِلْقَطْعِ بِتَنْزِيهِ اللهَّ سُبْحَانَهُ عَنْ صِفَاتِ الْحُدُوثِ وَسِمَاتِ النَّقْضِ ، وَبِاللهَّ التَّوْفِيقُ " (١) .

وقال الإمام تاج الدِّين السُّبكي (٧٧١هـ) : " وهذه المذاهب الأربعة وللهَّ الحمد في العقائد واحدة ، إلَّا من لحق منها بأهل الاعتزال والتَّجسيم . وإلَّا فجمهورها على الحق ؛ يقرُّون عقيدة أبي جعفر الطَّحاوي التي تلقّاها العلماء سلفاً وخلفاً بالقبول ، ويدينون اللهَّ برأي شيخ السنَّة أبي الحسن الأشعريّ الذي لم يعارضه إلَّا مبتدع " .

وقال أيضاً : " وهؤلاء الحنفيَّة ، والشَّافعيَّة والمالكيَّة وفضلاء الحنابلة وللهَّ الحمد في العقائد يدٌ واحدة ، كلهم على رأي أهل السُّنَّة والجماعة ، يدينون اللهَّ تعالى بطريق شيخ السُّنَّة أبي الحسن الأشعري رحمه اللهَّ ، لا يحيد عنها إلَّا رَعَاع من الحنفيَّة والشَّافعيَّة ، لحقوا بأهل الإعتزال ، ورَعاع من الحنابلة لحقوا بأهل التَّجسيم ، وبرَّأ اللهَّ المالكيَّة فلم نرَ مالكيَّاً إلَّا أشعريَّاً عقيدة " (٢) .

وقال الإمام الكرماني (٧٨٦هـ) : " ولمَّا كان منزَّهاً عن الجسميَّة والحدقة ونحوها ، لا بدَّ من الصَّرف إلى ما يليق به " (٣) .

وقال الإمام سعد الدِّين التَّفتازاني (٧٩١هـ) : " لمَّا ثبت أنَّ الواجب ليس بجسم ، ظهر أنَّه لا يتَّصف بشيء من الكيفيَّات المحسوسة بالحواسِّ الظاهرة أو الباطنة ، مثل : الصُّورة ، واللون ، والطَّعم ، والرَّائحة ، واللذَّة ، والألم ، والفرح ، والغمّ ، والغضب ، ونحو ذلك ، إذ لا يعقل منها إلَّا ما يخصُّ الأجسام ، وإن كان البعض منها مختصَّاً بذوات الأنفس ، ولأنَّ البعض منها تغيُّرات وانفعالات ، وهي على الله تعالى مُحال " (٤) .

وقال الإمام الزّركشي (٧٩٤هـ) : " قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ٣] ، اخْتَارَ الْبَيْهَقِيُّ مَعْنَاهُ أَنَّه الْمَعْبُودُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزخرف: ٨٤] ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ أَصَحُّ الْأَقْوَالِ . وَقَالَ الْأَشْعَرِيُّ فِي الْمُوجَزِ : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ﴾

(١) انظر : إثارة الفوائد المجموعة في الإشارة إلى الفرائد المسموعة (١/ ٢١٩) .

(٢) انظر : معيد النعم ومبيد النقم (ص٢٥) ، (ص٦٢) بالترتيب .

(٣) انظر : الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (٢٥/ ١٢٠) .

(٤) انظر : شرح المقاصد في علم الكلام (٣/ ٦٧) .

[الأنعام: ٣] ، أَيْ : عَالِمٌ بِمَا فِيهِمَا ، وَقِيلَ : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ ، جُمْلَةٌ تَامَّةٌ ، ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ ﴾ كَلَامٌ آخَرُ ، وَهَذَا قَوْلُ الْمُجَسِّمَةِ . وَاسْتَدَلَّتِ الْجَهْمِيَّةُ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّه تَعَالَى فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَظَاهِرُ مَا فَهِمُوهُ مِنَ الْآيَةِ مِنْ أَسْخَفِ الْأَقْوَال " (١) .

وقال أيضاً : " ونقل صاحب (الخصال) من الحنابلة عن أحمد أنَّه قال : من قال : جسم لا كالأجسام كفر " (٢) .

وقال الإمام ابن الملقِّن (٨٠٤هـ) : " أنَّ الله واحد ، وأنَّه ليس بجسم ؛ لأنَّ الجسم ليس بشيء واحد ، وإنَّما هي أشياء كثيرة مؤلَّفة ، في نفس التَّرجمة الرَّدّ على الجهميَّة في قولها : أنَّه تعالى جسم ، تعالى الله عن قولهم . والدَّليل على استحالة كونه جسماً : أنَّ الجسم موضوع في اللغة للمؤلَّف المجتمع ، وذلك محالٌ عليه تعالى ؛ لأنَّه لو كان كذلك لم ينفك عن الأعراض المتعاقبة عليه ، الدالَّة بتعاقبها عليه على حدثها لفناء بعضها عند مجيء أضدادها ، وما لم ينفك عن المحدثات فمحدث مثلها ، وقد قام الدَّليل على قِدمه تعالى ، فبطل كونه جسماً " (٣) .

وقال الإمام ابن خلدون الإشبيلي (٨٠٨هـ) : " والقطع بنفي المكان حاصلٌ من دليل العقل النّافي للافتقار . ومن أدلَّة السُّلوب المؤذنة بالتَّنزيه مثل : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] ، وأشباهه . ومن قوله : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ٣] ، إذ الموجود لا يكون في مكانين ، فليست في هذا للمكان قطعاً ، والمراد غيره . ثمَّ طرَّدوا ذلك المحمل الذي ابتدعوه في ظواهر الوجه والعينين واليدين ، والنُّزول والكلام بالحرف والصَّوت يجعلون لها مدلولات أعمّ من الجسمانيَّة وينزِّهونه عن مدلول الجسماني منها . وهذا شيء لا يعرف في اللّغة . وقد درج على ذلك الأوَّل والآخر منهم ، ونافرهم أهل السُّنَّة من المتكلِّمين الأشعريَّة والحنفيَّة . ورفضوا عقائدهم في ذلك ، ووقع بين متكلِّمي الحنفيَّة ببخارى وبين الإمام محمَّد بن إسماعيل البخاريِّ ما هو معروف .

وأمَّا المجسِّمة ففعلوا مثل ذلك في إثبات الجسميَّة ، وأنّها لا كالأجسام . ولفظ الجسم له يثبت في منقول الشَّرعيَّات . وإنَّما جرَّأهم عليه إثبات هذه الظَّواهر ، فلم يقتصروا عليه ، بل توغَّلوا وأثبتوا الجسميَّة ، يزعمون فيها مثل ذلك وينزِّهونه بقول متناقض سفساف ، وهو قولهم : جسم لا كالأجسام . والجسم في

---

(١) انظر : البرهان في علوم القرآن (٢/ ٨٣) .

(٢) انظر : تشنيف المسامع بجمع الجوامع لتاج الدِّين السبكي (٤/ ٦٤٨) .

(٣) انظر : التوضيح لشرح الجامع الصحيح (١/ ٢١٨) .

لغة العرب هو العميق المحدود وغير هذا التَّفسير من أنَّه القائم بالذَّات أو المركَّب من الجواهر وغير ذلك ، فاصطلاحات للمتكلِّمين يريدون بها غير المدلول اللّغويّ . فلهذا كان المجسِّمة أوغل في البدعة بل والكفر . حيث أثبتوا للهَّ وصفاً موهماً يُوهم النَّقص ، لم يرد في كلامه ، ولا كلام نبيِّه . فقد تبيَّن لك الفرق بين مذاهب السّلف والمتكلِّمين السنّية والمحدِّثين والمبتدعة من المعتزلة والمجسِّمة بما أطلعناك عليه . وفي المحدِّثين غُلاة يسمُّون المشبِّهة لتصريحهم بالتَّشبيه ، حتّىٰ أنَّه يحكىٰ عن بعضهم أنَّه قال : اعفوني من اللّحية والفرج وسلوا عمَّا بدا لكم من سواهما . وإن لم يتأوّل ذلك لهم ، بأنّهم يريدون حصر ما ورد من هذه الظَّواهر الموهمة ، وحملها علىٰ ذلك المحمل الّذي لأئمَّتهم ، وإلّا فهو كفر صريح والعياذ باللهَّ . وكتب أهل السُّنَّة مشحونة بالحجاج علىٰ هذه البدع ، وبسط الرَّدّ عليهم بالأدلَّة الصَّحيحة . وإنَّما أومأنا إلىٰ ذلك إيماء يتميَّز به فصول المقالات وجملها " (١) .

وقال الإمام نظام الدِّين الحسن القمِّي النَّيسابوري (٨٥٠هـ) : " ... والاستواء بمعنىٰ الانتصاب ضدّ الاعوجاج من صفات الأجسام ، وإنَّه تعالىٰ منزَّه عن ذلك " .

وقال أيضاً : " ... ولا يجوز أن يكون المراد من النَّظر تقليب الحدقة إلىٰ جانب المرئي التماساً لرؤيته ، لأنَّ هذا من صفات الأجسام ، وهو تعالىٰ منزَّه عن ذلك " .

وقال أيضاً : " ... ولتنزُّهه سبحانه عن الجسميَّة وصفاتها " .

وقال أيضاً : " وقال أهل السُّنَّة : الدَّليل الدالُّ علىٰ أنَّه تعالىٰ منزَّه عن الجسميَّة ، وعن كلِّ صفات الحدوث وسمات الإمكان ، دلَّ علىٰ أنَّ السَّاق لم يرد بها الجارحة " (٢) .

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) : " ... وَقَالَ عِيَاضٌ (٥٤٤هـ) : كَانَتِ الْعَرَبُ تَسْتَعْمِلُ الِاسْتِعَارَةَ كَثِيراً ، وَهُوَ أَرْفَعُ أَدَوَاتِ بَدِيعِ فَصَاحَتِهَا وَإِيجَازِهَا ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ :﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الإسراء: ٢٤] ، فَمُخَاطَبَةُ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُمْ بِرِدَاءِ الْكِبْرِيَاءِ عَلَىٰ وَجْهِهِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ هَذَا الْمَعْنَىٰ ، وَمَنْ لَمْ يَفْهَمْ ذَلِكَ تَاهَ ، فَمَنْ أَجْرَىٰ الْكَلَامَ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ أَفْضَىٰ بِهِ الْأَمْرُ إِلىٰ التَّجْسِيمِ ، وَمَنْ لَمْ يَتَّضِحْ لَهُ وَعَلِمَ أَنَّ اللهَّ مُنَزَّهٌ عَنِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ ظَاهِرُهَا : إِمَّا أَنْ يُكَذِّبَ نَقَلَتَهَا ، وَإِمَّا أَنْ يُؤَوِّلَهَا ، كَأَنْ يَقُولَ : اسْتَعَارَ

---

(١) انظر : ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (١/ ٦٠٥-٦-٦) .

(٢) انظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان (١/ ٢١٠) ، (٢/ ١٩٣) ، (٥/ ٢٣٣) ، (٦/ ٣٤٠) بالترتيب .

لِعَظِيمِ سُلْطَانِ اللهَّ وَكِبْرِيَائِهِ وَعَظَمَتِهِ وَهَيْبَتِهِ وَجَلَالِهِ الْمَانِعِ إِدْرَاكَ أَبْصَارِ الْبَشَرِ مَعَ ضَعْفِهَا لِذَلِكَ رِدَاءَ الْكِبْرِيَاءِ ، فَإِذَا شَاءَ تَقْوِيَةَ أَبْصَارِهُمْ وَقُلُوبِهِمْ كَشَفَ عَنْهُمْ حِجَابَ هَيْبَتِهِ وَمَوَانِعَ عَظَمَتِهِ " (١) .

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) في كلامه علىٰ قول اليهودي : " إِنَّ اللهَّ يُمْسِكُ السَّموات عَلَىٰ إِصْبَعٍ ... " : " ... وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ (٦٥٦هـ) فِي الْمُفْهِمِ : قَوْلُهُ : " إِنَّ اللهَّ يُمْسِكُ إِلَىٰ آخِرِ الْحَدِيثِ : هَذَا كُلُّهُ قَوْلُ الْيَهُودِيِّ ، وَهُمْ يَعْتَقِدُونَ التَّجْسِيمَ ، وَأَنَّ اللهَّ شَخْصٌ ذُو جَوَارِحَ ، كَمَا يَعْتَقِدُهُ غُلَاةُ الْمُشَبِّهَةِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَضَحِكُ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا هُوَ لِلتَّعَجُّبِ مِنْ جَهْلِ الْيَهُودِيِّ ، وَلِهَذَا قَرَأَ عِنْدَ ذَلِكَ : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] ، أَيْ : مَا عَرَفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ ، وَلَا عَظَّمُوهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ ، فَهَذِهِ الرِّوَايَةُ هِيَ الصَّحِيحَةُ الْمُحَقَّقَةُ ، وَأَمَّا مَنْ زَادَ وَتَصْدِيقاً لَهُ ، فَلَيْسَتْ بِشَيْءٍ ، فَإِنَّهَا مِنْ قَوْلِ الرَّاوِي ، وَهِيَ بَاطِلَةٌ ، لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُصَدِّقُ الْمُحَالَ ، وَهَذِهِ الْأَوْصَافُ فِي حَقِّ اللهَّ مُحَالٌ ، إِذْ لَوْ كَانَ ذَا يَدٍ ، وَأَصَابِعَ ، وَجَوَارِحَ ، كَانَ كَوَاحِدٍ مِنَّا ، فَكَانَ يَجِبُ لَهُ مِنَ الِافْتِقَارِ ، وَالْحُدُوثِ ، وَالنَّقْصِ ، وَالْعَجْزِ ، مَا يَجِبُ لَنَا ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَاسْتَحَالَ أَنْ يَكُونَ إِلَهاً ، إِذْ لَوْ جَازَتِ الْإِلَهِيَّةُ لِمَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ لَصَحَّتْ لِلدَّجَّالِ ، وَهُوَ مُحَالٌ ، فَالْمُفْضِي إِلَيْهِ كَذِبٌ ، فَقَوْلُ الْيَهُودِيِّ كَذِبٌ وَمُحَالٌ ، وَلِذَلِكَ أَنْزَلَ اللهَّ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِ : وَمَا قَدَرُوا اللهَّ حَقَّ قدره ، وإِنَّمَا تَعَجَّبَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ جَهْلِهِ ، فَظَنَّ الرَّاوِي أَنَّ ذَلِكَ التَّعَجُّبَ تَصْدِيقٌ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، فَإِنْ قِيلَ : قَدْ صَحَّ حَدِيثُ : إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحمن ، فَالْجَوَابُ : أَنَّه إِذَا جَاءَنَا مِثْلُ هَذَا فِي الْكَلَامِ الصَّادِقِ تَأَوَّلْنَاهُ أَوْ تَوَقَّفْنَا فِيهِ إِلَىٰ أَنْ يَتَبَيَّنَ وَجْهُهُ مَعَ الْقَطْعِ بِاسْتِحَالَةِ ظَاهِرِهِ ، لِضَرُورَةِ صِدْقِ مَنْ دَلَّتِ الْمُعْجِزَةُ عَلَىٰ صِدْقِهِ ، وَأَمَّا إِذَا جَاءَ عَلَىٰ لِسَانِ مَنْ يَجُوزُ عَلَيْهِ الْكَذِبُ بَلْ عَلَىٰ لِسَانِ مَنْ أَخْبَرَ الصَّادِقُ عَنْ نَوْعِهِ بِالْكَذِبِ وَالتَّحْرِيفِ كَذَّبْنَاهُ وَقَبَّحْنَاهُ ، ثمَّ لَوْ سَلَّمْنَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَرَّحَ بِتَصْدِيقِهِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ تَصْدِيقاً لَهُ فِي الْمَعْنَىٰ ، بَلْ فِي اللَّفْظِ الَّذِي نَقَلَهُ مِنْ كِتَابِهِ عَنْ نَبِيِّهِ ، لو نَقْطَعُ بِأَنَّ ظَاهِرَهُ غَيْرُ مُرَادٍ " (٢) .

وقال الإمام بدر الدِّين العيني (٨٥٥هـ) : " ... وَلَّمَا كَانَ منزهاً عَن الجسميَّة والحدقة وَنَحْوهمَا ، لَا بُدَّ من الصّرْف إِلَىٰ مَا يَلِيق بِهِ . واحتجَّت المجسِّمة بقوله : " إِنَّ الله لَيْسَ بأعور وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَىٰ عينه " ، علىٰ أَنَّ

(١) انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٣/ ٤٣٢) .

(٢) انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٣/ ٣٩٨) .

عينه كَسَائِرِ الْأَعْين . قُلْنَا : إِذا قَامَت الدَّلَائِل علىٰ اسْتِحَالَة كَونه مُحدثاً ، وَجب صرف ذَلِك إِلىٰ معنىٰ يَلِيق بِهِ ، وَهُوَ نفي النَّقْص والعور عَنهُ ، جلَّت عَظمته " (١) .

وقال الإمام أبو زيد عبد الرَّحمن الثَّعالبي (٨٧٥هـ) : " ... فاللهَّ سبحانه منزَّه عن صفَاتِ الأجْسَامِ " .

وقال أيضاً : " ... وقوله تعالىٰ : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ : العقيدةُ في هذا المعنىٰ : نَفْيُ التَّشبيه عن اللهَّ سبحانه ، وأنَّه ليس بِجِسْمٍ ، ولا له جارِحَةٌ ، ولا يُشَبَّهُ ، ولا يُكَيَّفُ ، ولا يَتحيَّز ، ولا تَحُلُّهُ الحوادثُ ، تعالىٰ عمَّا يقول المبطلون عُلُوّاً كبيراً " (٢) .

وقال الإمام إبراهيم البقاعي (٨٨٥هـ) : " وقال الإقليشي في شرح الأسماء : الأحد هو الذي ليس بمنقسم ولا متجزِّئ ، فهو علىٰ هذا اسم لعين الذَّات ، فيه سلب الكثرة عن ذاته ، فتقدَّس بهذا الوصف عن صفات الأجسام القابلة للتَّجزِّي والانقسام " (٣) .

وقال الإمام جلال الدِّين السُّيوطي (٩١١هـ) : " وَقَدْ شَهِدَ الْعَقْلُ وَالنَّقْلُ أَنَّ اللهَّ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْ مُمَاثَلَةِ الْأَجْسَامِ وَالْجَوَارِحِ " (٤) .

وقال أيضاً : " وَقَالَ المظهري : اعْلَم أَنَّ الله تَعَالَىٰ منزَّه عَن الْحَدث وَصفَة الْأَجْسَام ، وكلّ مَا ورد فِي الْقُرْآن وَالْأَحَادِيث فِي صِفَاته مِمَّا يُنبئ عَن الْجِهَة والفوقية والاستقرار وَالنُّزُول وَنَحْوهَا ، فَلَا نَخُوض فِي تَأْوِيله ، بل نؤمن بِمَا هُوَ مَدْلُول تِلْكَ الْأَلْفَاظ علىٰ الْمَعْنىٰ الَّذِي أَرَادَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، مَعَ التَّنْزِيه عَمَّا يُوهم الجسميَّة والجهة " (٥) .

وقال أيضاً : " فَإِنَّكَ إِذَا كُنْتَ لَا تُطِيقُ بِأَنْ تَصِفَ نَفْسَكَ الَّتِي هِيَ بَيْنَ جَنْبَيْكَ بِكَيْفِيَّةٍ وَأَيْنِيَّةٍ وَلَا بِسَجِيَّةٍ وَلَا هَيْكَلِيَّةٍ وَلَا هِيَ بِمَرْئِيَّةٍ، فَكَيْفَ يَلِيقُ بِعُبُودِيَّتِكَ أَنْ تَصِفَ الرُّبُوبِيَّةَ بِكَيْفَ وَأَيْنَ وَهُوَ مُقَدَّسٌ عَنِ الْكَيْفِ وَالْأَيْنِ؟ وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ:

قُلْ لِمَنْ يَفْهَمُ عَنِّي مَا أَقُولُ ... قَصَرَ الْقَوْلُ فَذَا شَرْحٌ يَطُولْ
هُوَ سِرٌّ غَامِضٌ مِنْ دُونِهِ ... ضُرِبَتْ وَاللهَّ أَعْنَاقُ الْفُحُولْ

---

(١) انظر : عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٥/ ١٠٢) .

(٢) انظر : الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٢/ ١٣٤) ، (٢/ ٣٩٩) .

(٣) انظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٨/ ٥٨٥) .

(٤) انظر : حاشية السندي علىٰ سنن النسائي (مطبوع السنن) (٨/ ٢٢١) .

(٥) انظر : شرح سنن ابن ماجه (١/ ١٨) ، مضمن ثلاثة شروح : (مصباح الزجاجة للسيوطي) ، (إنجاح الحاجة لمحمد عبد الغني المجددي الحنفي) ، (ما يليق من حل اللغات وشرح المشكلات لفخر الحسن بن عبد الرَّحمن الحنفي الكنكوهي) .

أَنْتَ لَا تَعْرِفُ إِيَّاكَ وَلَا تَدْرِ مَنْ أَنْتَ وَلَا كَيْفَ الْوُصُولْ
لَا وَلَا تَدْرِ صِفَاتٍ رُكِّبَتْ فِيكَ حَارَتْ فِي خَفَايَاهَا الْعُقُولْ
أَيْنَ مِنْكَ الرُّوحُ فِي جَوْهَرِهَا هَلْ تَرَاهَا فَتَرَىٰ كَيْفَ تَجُولْ
هَذِهِ الْأَنْفَاسُ هَلْ تَحْصُرُهَا لَا وَلَا تَدْرِي مَتَىٰ مِنْكَ تَزُولْ
أَيْنَ مِنْكَ الْعَقْلُ وَالْفَهْمُ إِذَا غَلَبَ النَّوْمُ فَقُلْ لِي يَا جَهُولْ
أَنْتَ أَكْلُ الْخُبْزِ لَا تَعْرِفُهُ كَيْفَ يَجْرِي مِنْكَ أَمْ كَيْفَ تَبُولْ
فَإِذَا كَانَتْ طَوَايَاكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ كَذَا فِيهَا خُلُولْ
كَيْفَ تَدْرِي مَنْ عَلَىٰ الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ لَا تَقُلْ كَيْفَ اسْتَوَىٰ كَيْفَ النُّزُولْ
كَيْفَ تَجَلَّىٰ اللهُ أَمْ كَيْفَ يُرَىٰ فَلَعَمْرِي لَيْسَ ذَا إِلَّا فُضُولْ
هُوَ لَا كَيْفَ وَلَا أَيْنَ لَهُ وَهُوَ رَبُّ الْكَيْفِ وَالْكَيْفُ يَحُولْ
وَهُوَ فَوْقَ الْفَوْقِ لَا فَوْقَ لَهُ وَهُوَ فِي كُلِّ النَّوَاحِي لَا يَزُولْ
جَلَّ ذَاتًا وَصِفَــــــــــاتًا وَسَمَا وَتَعَــــــــالَىٰ قَدْرُهُ عَمَّا أَقُولْ (١)

وقال الإمام أحمد بن محمَّد القسطلاني (٩٢٣هـ) : " والله سبحانه وتعالىٰ منزَّه عن الجوارح ، وعن صفات الأجسام " .

وقال أيضاً في شرحه لحديث : " إنَّ الله ليس بأعور ... " : " ... فالمراد التَّمثيل والتَّقريب للفهم ، لا إثبات الجارحة ، ولا دلالة فيه للمجسِّمة ، لأنَّ الجسم حادث وهو قديم ، فالمراد : نفي النَّقص والعور عنه ، وأنَّه ليس كمن لا يرىٰ ولا يبصر ، بل مُنتَفٍ عنه جميع النَّقائص والآفات " .

وقال أيضاً : " ... وقالت المجسِّمة : معناه الاستقرار ، ودفع بأنَّ الاستقرار من صفات الأجسام ، ويلزم منه الحلول ، وهو مُحال في حقِّه تعالىٰ " (٢) .

وقال الإمام ابن نُجيم المصري (٩٧٠هـ) : " وَاَللهُ تَعَالَىٰ لَيْسَ بِجِسْمٍ ، وَلَا جَوْهَرٍ ، وَلَا عَرَضٍ ، وَلَا حَالٍّ بِمَكَانٍ " (١) .

---

(١) انظر : الحاوي للفتاوي (٢/ ٢٩٠-٢٩١) .

(٢) انظر : إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (١٠/ ٢٦٩) ، (١٠/ ٣٨٣) ، (١٠/ ٣٩١) بالترتيب .

وقال الإمام ابن حجر الهيتمي (٩٧٤ هـ) : " واللهَّ سبحانه وتعالىٰ منزَّه عن الجسميَّة وسائرِ لوازمها " (٢) .

وقال أيضاً : " واعلم أنَّ القرافي وغيره حكوا عن الشَّافعي ، ومالك ، وأحمد ، وأبي حنيفة ، رضي الله عنهم القول بكفر القائلين بالجهة والتَّجسيم ، وهم حقيقون بذلك " (٣) .

وقال أيضاً : " ... وَسُئِلَ رَضِي الله عَنهُ ونفعنا بِهِ : فِي عقائد الْحَنَابِلَة مَا لَا يخفىٰ علىٰ شرِيف علمكُم ، فَهَل عقيدة الإِمَام أَحْمد بن حَنْبَل رَضِي الله عَنهُ كعقائدهم ؟ فَأجَاب بقوله : عقيدة إِمَام السّنة أَحْمد بن حَنْبَل رَضِي الله عَنهُ وأرضاه ، وَجعل جنان المعارف متقلَّبه ومأواه ، وأفاض علينا وَعَلِيهِ من سوابغ امتنانه ، وبوأه الفردوس الْأَعْلَىٰ من جنانه ، مُوَافقَة لعقيدة أهل السّنة وَالْجَمَاعَة من الْمُبَالغَة التَّامَّة فِي تَنْزِيه الله تَعَالَىٰ عَمَّا يَقُول الظَّالِمُونَ والجاحدون علواً كَبِيراً ، من الْجِهَة ، والجسميَّة ، وَغَيرهمَا من سَائِر سمات النَّقْص ، بل وَعَن كل وَصْف لَيْسَ فِيهِ كَمَال مُطلق ، وَمَا اشْتهر بَين جهلة المنسوبين إِلىٰ هَذَا الإِمَام الْأَعْظَم الْمُجْتَهد من أَنَّه قَائِل بِشَيْء من الْجِهَة أَو نَحْوهَا ، فكذب وبُهتان وافتراء عَلَيْهِ ، فلعنَ الله من نسب ذَلِك إِلَيْهِ ، أَو رَمَاه بِشَيْء من هَذِه المثالب الَّتِي برَّأه الله مِنْهَا ، وَقد بَين الْحَافِظ الْحجَّة الْقدْوَة الإِمَام أَبُو الْفرج بن الْجَوْزِيّ من أَئِمَّة مذْهبه المبرِّئين من هَذِه الوصمة القبيحة الشَّنيعة ، أَنَّ كلّ مَا نسب إِلَيْهِ من ذَلِك كذب عَلَيْهِ وافتراء وبهتان ، وَأَنَّ نصوصه صَرِيحَة فِي بطلَان ذَلِك ، وتنزيه الله تَعَالَىٰ عَنهُ ، فَاعْلَم ذَلِك فَإِنَّهُ مُهِمّ " (٤) .

وقال الإمام الشَّربيني الشَّافعي (٩٧٧هـ) في كلامه علىٰ حديث النُّزول : " وهذا الحديث من أحاديث الصِّفات وفيه مذهبان معروفان :

أحدهما : وهو مذهب السَّلف وغيرهم : أنَّه يمرّ كما جاء من غير تأويل ولا تعطيل ، وترك الكلام فيه وفي أمثاله ، مع الإيمان به وتنزيه الربِّ سبحانه عن صفات الأجسام .

المذهب الثَّاني : وهو قول جماعة من المتكلِّمين وغيرهم : أنَّ الصُّعود والنُّزول من صفات الأجسام ، فالله تعالىٰ منزَّه عن ذلك " (٥) .

---

(١) انظر : البحر الرائق شرح كنز الدقائق (٨/ ٢٠٥) ، ومعه تكملة البحر الرائق لمحمد بن حسين بن علي الطوري الحنفي القادري ، وبالحاشية : منحة الخالق لابن عابدين .

(٢) انظر : الفتح المبين بشرح الأربعين (ص١٨٥) .

(٣) انظر : المنهاج القويم (ص١٤٤) .

(٤) انظر : الفتاوىٰ الحديثية (ص٢٧٠-٢٧١) .

(٥) انظر : السراج المنير في الإعانة علىٰ معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٤/ ٩٧) .

وقال الإمام علي بن سلطان القارّي (١٠١٤هـ) : " وَقَالَ بَعْضُهُمْ : اعْلَمْ أَنَّ اللهَّ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنِ الْحُدُوثِ وَصِفَةِ الْأَجْسَامِ ، وَكُلُّ مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ وَالْأَحَادِيثِ فِي صِفَاتِهِ ، مِمَّا يُنْبِئُ عَنِ الْجِهَةِ وَالْفَوْقِيَّةِ ، وَالِاسْتِقْرَارِ وَالْإِتْيَانِ ، وَالنُّزُولِ ، فَلَا نَخُوضُ فِي تَأْوِيلِهِ ، بَلْ نُؤْمِنُ بِمَا هُوَ مَدْلُولُ تِلْكَ الْأَلْفَاظِ عَلَى الْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَ سُبْحَانَهُ ، مَعَ التَّنْزِيهِ عَمَّا يُوهِمُ الْجِهَةَ وَالْجِسْمِيَّةَ " .

وقال أيضاً : " فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الْجِسْمِيَّةِ ، وَعَمَّا يُؤَدِّي إِلَيْهَا " (١) .

وقال الإمام زين الدِّين المناوي (١٠٣١هـ) : " ... والكلام كلّه في مبتدع لا يكفر ببدعته ، أمَّا من كفر بها كمنكر العلم بالجزئيَّات ، وزاعم التَّجسيم أو الجهة أو الكون أو الاتِّصال بالعالم أو الانفصال عنه ، فلا يوصف عمله بقبول ولا ردّ ، لأنَّه أحقر من ذلك " .

وقال أيضاً : " والله منزَّه عن الجسميَّة ولوازمها " .

وقال أيضاً : " فالمراد بقرب العبد من ربِّه قربه بالعمل الصَّالح لا قرب المكان لأنَّه من صفات الأجسام المستحيلة عليه " (٢) .

وقال الإمام مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي (١٠٣٣هـ) : " قَالَ الْكَمَال بن الْهمام الْحَنَفِيّ (٨٦١هـ) بعد أَن تكلَّم على الاستواء مَا حَاصله : وجوب الْإِيمَان بِأَنَّهُ اسْتَوَى على الْعَرْش ، مَعَ نفي التَّشْبِيه ، وَأمَّا كَون الاستواء بِمَعْنى الاستيلاء على الْعَرْش مَعَ نفي التَّشْبِيه ، فَأمر جَائِز الْإِرَادَة ، إِذْ لَا دَلِيل على إِرَادَته عيناً ، فَالْوَاجِب عيناً مَا ذكرنَا ، لَكِن قَالَ : إِذا خيفَ على الْعَامَّة عدم فهم الاستواء إِلَّا بالاتِّصال وَنَحْوه من لَوَازِم الجسميَّة ، فَلَا بَأْس بِصَرْف فهمهم إِلَى الاستيلاء .

قَالَ : وعَلى نَحْو مَا ذكر كلّ مَا ورد مِمَّا ظَاهره الجسميَّة فِي الشَّاهِد ، كالإصبع ، وَالْيَد ، والقدم ، فَإِنَّ الإصبع وَالْيَد صفة لَهُ تَعَالَى لَا بِمَعْنى الْجَارِحَة ، بل على وَجه يَلِيق بِهِ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ أعلم بِهِ .

وَقد تؤول الْيَد والإصبع بِالْقُدْرَةِ والقهر ، وَقد يؤول الْيَمين فِي قَوْله : " الْحجر الْأسود يَمِين الله فِي الأَرْض " (٣) ، على التَّشريف وَالْإِكْرَام ، لما ذكرنَا من صرفِ فهمِ الْعَامَّة عَن الجسميَّة ، قَالَ : وَهُوَ مُمكن أَن يُرَاد وَلَا

(١) انظر : مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ، علي بن سلطان القاري (٨/ ٣٥٠٦) ، (٨/ ٣٥٢٨) بالترتيب .

(٢) انظر : فيض القدير شرح الجامع الصغير (١/ ٧٢) ، (١/ ٥١٤) ، (٣/ ٢٦٤) بالترتيب .

(٣) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة وما جاء فيها من الأثار (١/ ٣٢٥) ، ابن الجوزي في العلل المتناهية في الأحاديث الواهية (٢/ ٨٥ برقم ٩٤٤ ، وقال : "هَذَا حَدِيثٌ لا يصح وإسحاق بْن بشر قد كذبه أبوبكر بْن أَبِي شَيْبَة وغيره وقال الدارقطني: "هُوَ فِي عداد من يضع الحديث ، قال : وأبو معشر ضعيف) .

يجْزم بإرادته علىٰ قَول أَصْحَابنَا أنَّه من الْمتَشَابه ، وَحكم الْمتَشَابه : انْقِطَاع معرفَة الْمرَاد مِنْهُ فِي هَذِه الدَّار ، وَإِلَّا لَكَانَ قد علم " (١) .

وقال الإمام محي الدِّين عبد القادر العَيْدَرُوس (١٠٣٨هـ) نقلاً عن الإمام محمَّد بن عَليّ بن عراق الْكِنَانِي الشَّافِعِي (٩٣٣هـ) : " ذَاته لَيْسَ بجوهر ، فالجوهر بالتَّحيُّز مَعْرُوف ، وَلَا بِعرْض ، فالعرض باستحالة الْبَقَاء مَوْصُوف ، وَلَا بجسم ، فالجسم بالجهات محفوف ، هُوَ الله الَّذِي لَا آله إِلَّا هُوَ الْملك القدوس علىٰ الْعَرْش اسْتَوَىٰ من غير تمكُّن وَلَا جُلُوس ، لَا الْعَرْش لَهُ من قبل الْقَرار ، وَلَا الاسْتوَاء من جِهَة الِاسْتِقْرَار ،الْعَرْش لَهُ حدٌّ وَمِقْدَار ، الرَّبُّ لَا تُدْرِكهُ الْأَبْصَار ، الْعَرْش تكيِّفه خواطر الْعُقُول ، وتصفه بِالْعرضِ والطُّول ، وَهُوَ مَعَ ذَلِك محْمُول ، وَالْقَدِيم لَا يحول وَلَا يَزُول ، الْعَرْش بِنَفسِهِ هُوَ الْمَكَان ، وَله جَوَانِب وأركان ، وَكَانَ الله وَلَا مَكَان ، وَهُوَ الان علىٰ مَا عَلَيْهِ كَانَ ، جلَّ عَن التَّشْبِيه وَالتَّقْدِير ، والتَّكييف والتَّغيير ، والتَّأليف والتَّصوير ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ: ١١] (٢) .

وقال الإمام محمَّد بن علاَّن الصِّدِّيقي الشَّافعي الأشعري (١٠٥٧هـ) : " وأنَّه تعالىٰ منـزَّه عن الجهة والمكان والجسم ، وسائر أوصاف الحدوث ، وهذا معتقد أهل الحقِّ ومنهم الإمام أحمد ، وما نسبه إليه بعضهم من القول بالجهة أو نحوها كذبٌ صُراحٌ عليه وعلىٰ أصحابه المتقدِّمين ، كما أفاده ابن الجوزي من أكابر الحنابلة " (٣) .

وقال الإمام أحمد بن محمَّد بن عمر الخفَّاجي (١٠٦٩هـ) :" ... لأنَّه تعالىٰ منزَّه عن الجسميَّة والكيفيَّة " .

وقال أيضاً : " وهو سبحانه وتعالىٰ منزَّه عن الجسميَّة وما يتبعها من التَّركيب ، لأنَّه واحد أحد ، لا يضافُ إليه انقسام حقيقة ولا فرضاً ، ولا خارجاً ولا ذهناً " .

وقال أيضاً : " ... والله تعالىٰ منزَّه عن الجوارح ، وعن صفات الأجسام " (٤) .

وقال الإمام عبد الباقي بن عبد الباقي بن عبد القادر البعلي الأزهريابن فَقِيه فُصَّة (١٠٧١هـ) : " ويجب الجزم بأنَّ الله تعالىٰ ليس بجوهر ، ولا جسم ، ولا عرَض ، ولا تحلُّه الحوادث ، ولا يحلُّ في حادث ، ولا ينحصر فيه . فمن اعتقد أو قال إنَّ الله بذاته في مكان ، فكافر ، بل يجب الجزم بأنَّه سبحانه وتعالىٰ بائن من

---

(١) انظر : أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات (ص١٣٢-١٣٤) .

(٢) انظر : النور السافر عن أخبار القرن العاشر (١/ ١٧٥) .

(٣) انظر : الفتوحات الربّانية علىٰ الأذكار النووية (٣/ ١٩٦) .

(٤) انظر : حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَىٰ تفْسيرِ البَيْضَاوِي (٦/ ٣٧٨) ، (٧/ ٤٣٥) ، (٨/ ٥٧) بالترتيب .

خلقه ، فكان ولا مكان ، ثمَّ خلق المكان ، وهو كما كان قبل خلق المكان ، ولا يعرف بالحواس ، ولا يقاس بالنَّاس ، فهو الغنيُّ عن كلِّ شيء ، ولا يستغني عنه شيء ، ولا يشبه شيئاً ، ولا يشبهه شيء ، وعلى كلِّ حال : مهما خطر بالبال ، أو توهَّمه الخيال ، فهو بخلاف ذي الإكرام والجلال " (١) .

وقال الإمام أحمد بن غانم النفراوي الأزهري المالكي (١١٢٦هـ) : " ... (وَيُقْتَلُ) وُجُوباً كُلُّ (مَنْ ارْتَدَّ) ، أَيْ : قَطَعَ إسْلَامَهُ بَعْدَ بُلُوغِهِ بِصَرِيحٍ لَفْظِهِ كَقَوْلِهِ : ﴿ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠] أَوْ الْبَعِيدُ كَفَرَ بِاَللَّهِ ، أَوْ أَشْرَكَ بِهِ ، أَوْ أَتَى بِلَفْظٍ يَقْتَضِي الْكُفْرَ ، كَقَوْلِهِ : الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ غَيْرُ مَفْرُوضَةٍ ، أَوْ الرُّكُوعُ أَوْ السُّجُودُ غَيْرُ فَرْضٍ ، لِأَنَّ الْجَاحِدَ كَافِرٌ ، أَوْ الْحَجُّ غَيْرُ فَرْضٍ عَلَى الْمُسْتَطِيعِ ، أَوْ اللهُ جِسْمٌ كَأَجْسَامِ الْحَوَادِثِ ... " (٢) .

وقال الإمام إسماعيل حقي الخلوتي (١١٢٧هـ) : " ... وفي بحر العلوم : هو العلي شأنه ، أي : أمره وجلاله في ذاته وأفعاله ، لا شيء أعلى منه شأناً ، لأنَّه فوق الكلِّ بالإضافة وبحسب الوجوب ـ وهو فعيل من العلو في مقابلة السّفل ، وهما في الأمور المحسوسة ، كالعرش ، والكرسي مثلاً ، وفي الأمور المعقولة ، كما بين النَّبي وأُمَّته ، وبين الخليفة والسُّلطان ، والعالِم والمتعلِّم من التَّفاوت في الفضل والشَّرف والكمال والرِّفعة ، ولَمَّا تقدَّس الحقُّ سبحانه عن الجسميَّة ، تقدَّس علوُّه عن أن يكون بالمعنى الأوَّل ، وهو الأمور المحسوسة ، فتعيَّن واختصَّ بالثَّاني ... " .

وقال أيضاً : " ... فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ، أي : نزِّهوه تنزيهاً عما يصفونه به ، من اتخاذ الشَّريك ، والصَّاحبة ، والولد ، لأنَّ ذلك من صفات الأجسام ، ولو كان الله جسماً لم يقدر على خلق العالم وتدبير أمره ... " (٣) .

وقال الإمام محمَّد بن عبد الهادي السَّندي (١١٣٨هـ) : " والَّا فقد قَامَ الْأَدِلَّة الْعَقْلِيَّة والنَّقليَّة على أنَّه تَعَالَى منزَّه عَن مماثلة الْأَجْسَام والجوارح " (٤) .

وقال الإمام شمس الدِّين السَّفاريني الحنبلي (١١٨٨هـ) : " ... وَتَقَدَّمَ أَنَّه لَيْسَ بِجِسْمٍ ، وَلَا جَوْهَرٍ ، وَلَا عَرَضٍ ، فَهِيَ مِنَ الْمُسْتَحِيلَةِ فِي حَقِّهِ تَعَالَى ، وَمَا نَفَاهُ سُبْحَانَهُ تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ فِي مُحْكَمِ الذِّكْرِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] ، ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥] ، ﴿ فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾

---

(١) انظر : العين والأثر في عقائد أهل الأثر (ص٣٤-٣٥) .

(٢) انظر : الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني (٢/ ٢٨٢) .

(٣) انظر : روح البيان (٦/ ٥٥) ، (٥/ ٤٦٤) .

(٤) انظر : حاشية السندي على سنن النسائي (مطبوع مع السنن) ، (٨/ ٢٢٢) .

[النحل: ٧٤] ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢] ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٣ - ٤]﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ [الفرقان: ٢] ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء: ١١١] ، وَنَحْوِ ذَلِكَ " .

وقال أيضاً : " وَالْبَارِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَيْسَ بِجِسْمٍ " (١) .

وقال الإمام الزَّبيدي (١٢٠٥هـ) : " ... والله تعالىٰ منزَّه عن التَّحيُّز ، ولأنَّ الحلول ينافي الوجوب الذَّاتي لافتقار الحالِّ إلىٰ المحلِّ . وأمَّا صفاته فلانَّ الانتقال من صفات الأجسام ، والله تعالىٰ منزَّه عن الجسميَّة " .

وقال أيضاً : " ... ولَمَّا ثبت انتفاء الجسميَّة بالمعنىٰ المذكور ، ثبت انتفاء لوازمها ، وانتفاء الملزوم يستلزم انتفاء لازمه المساوي ، ولوازم الجسميَّة هي : الاتّصاف بالكيفيَّات المحسوسة بالحسِّ الظَّاهر أو الباطن من اللون ، والرَّائحة ، والصُّورة ، والعوارض النَّفسانيَّة من اللذَّة ، والألم ، والفرح ، والغمِّ ، ونحوها ، ولأنَّ هذه الأمور تابعة للمزاج المستلزم للتَّركيب المنافي للوجوب الذَّاتي ، ولأنَّ البعض منها تغيّرات وانتقالات ، وهي علىٰ البارئ تعالىٰ محالٌ ، وما ورد في الكتاب والسُّنَّة من ذكر الرِّضا ، والغضب ، والفرح ، ونحوها ، يجب التَّنزيه عن ظاهره علىٰ ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالىٰ " (٢) .

وقال الإمام محمَّد ثناء الله النَّقشبندي المظهري (١٢٢٥هـ) : " أجمع علماء أهل السُّنَّة من السَّلف والخلف أنَّ الله سبحانه منزَّه عن صفات الأجسام وسمات الحدوث " (٣) .

وقال الإمام محمَّد عرفه الدَّسوقي (١٢٣٠هـ) : " ... قَوْلُهُ : (أو لَفْظٍ يَقْتَضِيهِ) ، أَيْ : يَقْتَضِي الْكُفْرَ ، أَيْ : يَدُلُّ عليه ، سَوَاءٌ كانت الدَّلَالَةُ الْتِزَامِيَّةً ، كَقَوْلِهِ : اللهُ جِسْمٌ مُتَحَيِّزٌ ، فإن تَحَيُّزَهُ يَسْتَلْزِمُ حُدُوثَهُ لِافْتِقَارِهِ لِلْحَيِّزِ ، وَالْقَوْلُ بِذَلِكَ كُفْرٌ أو تَضَمُّنِيَّةٌ ، كما إذَا أتىٰ بِلَفْظٍ له مَعْنًىٰ مُرَكَّبٌ من كُفْرٍ وَغَيْرِهِ ... " (٤) .

وقال الإمام ابن عابدين الحنفي (١٢٥٢هـ) : " (قَوْلُهُ : كَقَوْلِهِ جِسْمٌ كَالْأَجْسَامِ) وَكَذَا لَوْ لَمْ يَقُلْ كَالْأَجْسَامِ ، وَأَمَّا لَوْ قَالَ لَا كَالْأَجْسَامِ فَلَا يَكْفُرُ لأنَّه لَيْسَ فِيهِ إلَّا إطْلَاقُ لَفْظِ الْجِسْمِ الْمُوهِمِ لِلنَّقْصِ فَرَفَعَهُ بِقَوْلِهِ لَا كَالْأَجْسَامِ ، فَلَمْ يَبْقَ إلَّا مُجَرَّدَ الْإِطْلَاقِ ، وَذَلِكَ مَعْصِيَةٌ " (٥) .

---

(١) انظر : لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية (١/ ٢٦٣) ، (٢/ ٢٥٥) بالترتيب .

(٢) انظر : اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدِّين (٢/ ٢٤) ، (٢/ ٩٩) بالترتيب ، وانظر أيضاً : (٩/ ٤٧) ، (٩/ ١٢٨) .

(٣) انظر : التفسير المظهري (١/ ٢٤٩) ، وانظر : (٥/ ٦) .

(٤) انظر : حاشية الدسوقي علىٰ الشرح الكبير (٤/ ٣٠١) .

(٥) انظر : رد المحتار علىٰ الدر المختار (١/ ٥٦١) .

وقال الإمام شهاب الدِّين محمود الألوسي (١٢٧٠هـ) عند تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل:٣] : " ... واستدلَّ بالآية علىٰ أنَّه تعالىٰ ليس من قبيل الأجرام والأجسام ، كما يقوله المجسِّمة ، ووجه ذلك أنَّها تدلُّ علىٰ احتياج الأجرام والأجسام إلىٰ خالق سبحانه وتعالىٰ لا يجانسها ، وإلَّا لاحتاج إليه فلا يكون خالقاً " .

وقال أيضاً عند تفسير قوله تعالىٰ : ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٦] : " أنَّ قوله سبحانه : ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴾ يدلُّ علىٰ أنَّه عزَّ وجلَّ ليس بجسم ، إذ لو كان جسماً لكان غائباً عنَّا ، فيكون آفلاً ، والأفول ينافي الرُّبوبيَّة ، ولا يخفىٰ أنَّ عدَّ تلك الغيبة المفروضة أفولاً لا يخلو عن شيء ، لأنَّ الأُفول احتجاب مع انتقال ، وتلك الغيبة المفروضة لم تكن كذلك ، بل هي مجرَّد احتجاب فيما يظهر . نعم أنَّه ينافي الرُّبوبيَّة أيضاً ، لكن الكلام في كونه أفولاً ليتم الاحتجاج بالآية ، لا يقال : قد جاء في حديث الإسراء ذكر الحجاب ، فكيف يصحُّ القول بأنَّ الاحتجاب مناف للرُّبوبيَّة لأنَّا نقول : الحجاب الوارد – كما قال القاضي عياض– إنَّما هو في حقِّ العباد ، لا في حقِّه تعالىٰ ، فهم المحجوبون ، والباري جلَّ اسمه منزَّه عمَّا يحجبه ، إذ الحجاب إنَّما يحيط بمقدَّر محسوس ، ونصَّ غير واحد أنَّ ذكر الحجاب له تعالىٰ تمثيل لمنعه سبحانه الخلق عن رؤيته " .

وقال أيضاً : " إذ علمت هذا فاعلم أنَّ إطلاق النُّور علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ بالمعنىٰ اللغوي والحكمي السَّابق غير صحيح ، لكمال تنزُّهه جلَّ وعلا عن الجسميَّة والكيفيَّة ولوازمها " (١) .

وقال الإمام محمَّد بن أحمد بن محمَّد عليش ، أبو عبد الله المالكي (١٢٩٩هـ) : " وَسَوَاءٌ كَفَرَ (بِـ) قَوْلٍ (صَرِيحٍ) فِي الْكُفْرِ ، كَقَوْلِهِ كُفْرٌ بِاَللهِّ أَوْ بِرَسُولِ اللهِّ أَوْ بِالْقُرْآنِ أَوْ الْإِلَهُ اثْنَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ أَوْ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِّ أَوْ الْعَزِيزُ ابْنُ اللهِّ (أَوْ) بِـ (لَفْظٍ يَقْتَضِيه) ، أَيْ : يَسْتَلْزِمُ اللَّفْظُ الْكُفْرَ اسْتِلْزَاماً بَيِّناً ، كَجَحْدِ مَشْرُوعِيَّةِ شَيْءٍ مُجْمَعٍ عَلَيْهِ ، مَعْلُومٍ مِنْ الدِّين ضَرُورَةً ، فَإِنَّهُ يَسْتَلْزِمُ تَكْذِيبَ الْقُرْآنِ أَوْ الرَّسُولِ ، وَكَاعْتِقَادِ جِسْمِيَّةِ اللهِّ وَتَحَيُّزِهِ ، فَإِنَّهُ يَسْتَلْزِمُ حُدُوثَهُ وَاحْتِيَاجَهُ لِمُحْدِثٍ وَنَفْيِ صِفَاتِ الْأُلُوهِيَّةِ عَنْهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ شَأْنُهُ " (٢) .

وقال الإمام سليم البِشْري المالكي (١٣٣٥هـ) : " ... من اعتقد أنَّ الله جسم أو أنَّه مماسّ للسَّطح الأعلىٰ من العرش ، وبه قالت الكرَّاميَّة واليهود ، وهؤلاء لا نزاع في كفرهم ، ومنهم من أثبت الجهة مع التَّنزيه ، وأنَّ

---

(١) انظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (٧/ ٣٤٠) ، (٤/ ١٩٧) ، (٩/ ٣٥٦) بالترتيب .

(٢) انظر : منح الجليل شرح مختصر خليل (٩/ ٢٠٥-٢٠٦) .

كونه فيعا ليس ككون الأجسام ، وهؤلاء ضُلَّال فُسَّاق في عقيدتهم ، وإطلاقهم ما لم يأذن به الشَّارع ، ولا مِرية أنَّ فاسق العقيدة أقبح وأشنع من فاسق الجَارحة بكثير ، سيَّما من كان داعية ، أو مُقتدىً به " (١) .

وقال الإمام أبو العلا المباركفوري (١٣٥٣هـ) : " ... فَإِنْ فُسِّرَ الصَّمَدُ بِهَذَا كَانَ مِنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ ، وَيَتَعَالَىٰ اللهُ عزَّ وجلَّ عَنْ صِفَاتِ الْجِسْمِيَّةِ " (٢) .

وقال الإمام محمَّد رشيد بن علي رضا القلموني الحسيني (١٣٥٤هـ) : " وَلَكِنْ تَقْدِيسُهُ الَّذِي هُوَ نَفْيٌ لِلْمُحَالِ عَنْهُ ، يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مُفَصَّلاً ، فَإِنَّ الْمَنْفِيَّ هِيَ الْجِسْمِيَّةُ وَلَوَازِمُهَا ... وَلِهَذَا أَقُولُ : يَحْرُمُ عَلَىٰ الْوُعَّاظِ عَلَىٰ رُءُوسِ الْمَنَابِرِ الْجَوَابُ عَلَىٰ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بِالْخَوْضِ فِي التَّأْوِيلِ وَالتَّفْصِيلِ ، بَلِ الْوَاجِبُ عَلَيْهِمُ الِاقْتِصَارُ عَلَىٰ مَا ذَكَرْنَاهُ وَذَكَرَهُ السَّلَفُ ، وَهُوَ الْمُبَالَغَةُ فِي التَّقْدِيسِ وَنَفْيِ التَّشْبِيهِ ، وَأَنَّهُ - تَعَالَىٰ - منزَّه عَن الْجِسْمِيَّةِ وَعَوَارِضِهَا ، وَلَهُ الْمُبَالَغَةُ فِي هَذَا بِمَا أَرَادَ حَتَّىٰ يَقُولَ : كُلُّ مَا خَطَرَ بِبَالِكُمْ وَهَجَسَ فِي ضَمِيرِكُمْ وَتُصُوِّرَ فِي خَاطِرِكُمْ ، فَاللهُ - تَعَالَىٰ - خَالِقُهَا ، وَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهَا وَعَنْ مُشَابَهَتِهَا ، وَأَنْ لَيْسَ الْمُرَادُ بِالْإِخْبَارِ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ . وَأَمَّا حَقِيقَةُ الْمُرَادِ فَلَسْتُمْ مِنْ أَهْلِ مَعْرِفَتِهَا وَالسُّؤَالِ عَنْهَا ، فَاشْتَغِلُوا بِالتَّقْوَىٰ ، فَمَا أَمَرَكُمُ اللهُ - تَعَالَىٰ - بِهِ فَافْعَلُوهُ ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ ، وَهَذَا قَدْ نُهِيتُمْ عَنْهُ فَلَا تَسْأَلُوا عَنْهُ ، وَمَهْمَا سَمِعْتُمْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ فَاسْكُتُوا ، وَقُولُوا : آمَنَّا ، وَصَدَّقْنَا ، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ جُمْلَةِ مَا أُوتِينَا " .

وقال أيضاً : " وَمَا أَهْوَنَ عَلَىٰ الْبَصِيرِ أَنْ يَغْرِسَ فِي قَلْبِ الْعَامِّيِّ التَّنْزِيهَ وَالتَّقْدِيسَ عَنْ صُورَةِ النُّزُولِ ، بِأَنْ يَقُولَ لَهُ : إِنْ كَانَ نُزُولُهُ إِلَىٰ السَّماء الدُّنيا لِيُسْمِعَنَا نِدَاءَهُ وَقَوْلَهُ فَمَا أَسْمَعَنَا ، فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي نُزُولِهِ ؟ وَلَقَدْ كَانَ يُمْكِنُهُ أَنْ يُنَادِيَنَا كَذَلِكَ وَهُوَ عَلَىٰ الْعَرْشِ أَوْ عَلَىٰ السَّماء الْعُلْيَا ، فَهَذَا الْقَدْرُ يَعْرِفُ الْعَامِّيُّ أَنَّ ظَاهِرَ النُّزُولِ بَاطِلٌ ، بَلْ مِثَالُهُ أَنْ يُرِيدَ مَنْ فِي الْمَشْرِقِ إِسْمَاعَ شَخْصٍ فِي الْمَغْرِبِ ، وَمُنَادَاتَهُ ، فَتَقَدَّمَ إِلَىٰ الْمَغْرِبِ بِأَقْدَامٍ مَعْدُودَةٍ ، وَأَخَذَ يُنَادِيهِ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنْ لَا يَسْمَعَ ، فَيَكُونُ نَقْلُهُ الْأَقْدَامَ عَمَلاً بَاطِلاً وَفِعْلاً كَفِعْلِ الْمَجَانِينِ ، فَكَيْفَ يَسْتَقِرُّ مِثْلُ هَذَا فِي قَلْبِ عَاقِلٍ ؟ بَلْ يَضْطَرُّ بِهَذَا الْقَدْرِ كُلُّ عَامِّيٍّ إِلَىٰ أَنْ يَتَيَقَّنَ نَفْيَ صُورَةِ النُّزُولِ ، وَكَيْفَ وَقَدْ عَلِمَ اسْتِحَالَةَ الْجِسْمِيَّةِ عَلَيْهِ ، وَاسْتِحَالَةُ الِانْتِقَالِ عَلَىٰ غَيْرِ الْأَجْسَامِ ، كَاسْتِحَالَةِ النُّزُولِ مِنْ غَيْرِ انْتِقَالٍ " (٣) .

---

(١) انظر : فرقان القرءان بين صفات الخالق وصفات الأكوان (ص٦٥) .

(٢) انظر : تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (٩/ ٢١١) .

(٣) انظر : تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) (٣/ ١٧٥-١٧٦) ، (٣/ ١٨١-١٨٢) .

وقال الإمام عبد الرَّحمن الجزيري (١٣٦٠هـ) : " فإنَّ المالكيَّة قالوا : إنَّ ما يوجب الردَّة ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام : ... الثَّاني : ... أو يقول : إنَّ الله جسمٌ متحيِّز في مكان ، لأنَّ ذلك يستلزم أن يكون الإله محتاجاً للمكان ، والمحتاج حادث لا قديم " .

وقال أيضاً : " الردَّة – والعياذ بالله تعالىٰ – كفر مسلم تقرَّر إسلامه بالشَّهادتين مختاراً بعد الوقوف علىٰ الدَّعائم ، والتزامه أحكام الإسلام ، ويكون ذلك بصريح القول ، كقوله : أشرك بالله ، أو قول يقتضي الكفر ، كقوله : إنَّ الله جسم كالأجسام " (١) .

وقال الإمام محمَّد عبد العظيم الزُّرْقاني (١٣٦٧هـ) : " لقد أسرفَ بعض النَّاس في هذا العصر ، فخاضوا في متشابه الصِّفات بغير حقٍّ ، وأتوا في حديثهم عنها وتعليقهم عليها بما لم يأذن به الله ، ولهم فيها كلمات غامضة تحتمل التَّشبيه والتَّنزيه ، وتحتمل الكفر والإيمان ، حتىٰ باتت هذه الكلمات نفسها من المتشابهات .

ومن المؤسف أنَّهم يواجهون العامَّة وأشباههم بهذا ، ومن المحزن أنَّهم ينسبون ما يقولون إلىٰ سلفنا الصَّالح ، ويخيِّلون إلىٰ الناس أنَّهم سلفيُّون . من ذلك قولهم : إنَّ الله تعالىٰ يُشار إليه بالإشارة الحسيَّة ، وله من الجهات السِّت جهة الفوق ، ويقولون : أنَّه استوىٰ علىٰ عرشه بذاته استواء حقيقيَّاً ، بمعنىٰ أنَّه استقرَّ فوقه استقراراً حقيقيَّاً ، غير أنَّهم يعودون فيقولون : ليس كاستقرارنا ، وليس علىٰ ما نعرف ، وهكذا يتناولون أمثال هذه الآية ، وليس لهم مستندٌ فيما نعلم إلَّا التشبُّث بالظَّواهر ، ولقد تجلَّىٰ لك مذهب السَّلف والخلف ، فلا نطيل بإعادته .

ولقد علمت أنَّ حملَ المتشابهات في الصِّفات علىٰ ظواهرها مع القول بأنَّها باقية علىٰ حقيقتها ليس رأياً لأحد من المسلمين ، وإنَّما هو رأيٌ لبعض أصحاب الأديان الأخرىٰ ، كاليهود ، والنَّصارىٰ ، وأهل النِّحل الضَّالَّة ، كالمشبِّهة ، والمجسِّمة . أمَّا نحن معاشر المسلمين فالعُمدة عندنا في أمور العقائد هي الأدلة القطعيَّة التي توافرت علىٰ أنَّه تعالىٰ ليس جسماً ، ولا متحيِّزاً ، ولا متجزِّئاً ، ولا متركِّباً ، ولا محتاجاً لأحد ، ولا إلىٰ مكان ، ولا إلىٰ زمان ، ولا نحو ذلك .

ولقد جاء القرآن بهذا في محكماته إذ يقول : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ: ١١] ، ويقول : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ – ٤] ، ويقول : ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْۗ﴾ [الزمر: ٧] ، ويقول : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] ، وغير هذا كثير في الكتاب والسُّنَّة . فكلُّ ما جاء

(١) انظر : الفقه علىٰ المذاهب الأربعة (٤/ ٢٠٥) ، (٥/ ٣٧٢) بالترتيب .

مخالفاً بظاهره لتلك القطعيَّات والمحكمات ، فهو من المتشابهات التي لا يجوز اتِّباعها ، كما تبيَّن لك فيما سلف .

ثمَّ إنَّ هؤلاء المتمسِّحين بالسَّلف متناقضون ، لأنَّهم يثبتون تلك المتشابهات علىٰ حقائقها ، ولا ريب أنَّ حقائقها تستلزم الحدوث وأعراض الحدوث ، كالجسميَّة ، والتَّجزُّؤ ، والحركة ، والانتقال ، لكنَّهم بعد أن يُثبتوا تلك المتشابهات علىٰ حقائقها ينفون هذه اللوازم ، مع أنَّ القول بثبوت الملزومات ونفي لوازمها تناقضٌ لا يرضاه لنفسه عاقلٌ فضلا عن طالب أو عالِم .

فقولهم في مسألة الاستواء الآنفة : إنَّ الاستواء باقٍ علىٰ حقيقته . يفيد أنَّه الجلوس المعروف المستلزم للجسميَّة والتَّحيُّز ، وقولهم بعد ذلك : ليس هذا الاستواء علىٰ ما نعرف ، يفيد أنَّه ليس الجلوس المعروف المستلزم للجسميَّة والتَّحيُّز ، فكأنهم يقولون : أنَّه مستو غير مستو ، ومستقرّ فوق العرش غير مستقر ، أو متحيِّز غير متحيِّز ، وجسم غير جسم ، أو أنَّ الاستواء علىٰ العرش ليس هو الاستواء علىٰ العرش ، والاستقرار فوقه ليس هو الاستقرار فوقه ، إلىٰ غير ذلك من الإسفاف والتَّهافت .

فإن أرادوا بقولهم : الاستواء علىٰ حقيقته ، أنَّه علىٰ حقيقته التي يعلمها الله ، ولا نعلمها نحن ، فقد اتَّفقنا ، لكن بقي أنَّ تعبيرهم هذا موهمٌ لا يجوز أن يصدر من مؤمنٍ ، خصوصاً في مقام التعليم والإرشاد ، وفي موقف النِّقاش والحِجاج ، لأنَّ القول بأنَّ اللفظ حقيقة أو مجاز لا ينظر فيه إلىٰ علم الله وما هو عنده ، ولكن ينظر فيه إلىٰ المعنىٰ الذي وُضع له اللفظ في عرف اللغة ، والاستواء في اللغة العربيَّة يدلُّ علىٰ ما هو مستحيلٌ علىٰ الله في ظاهره ، فلا بدَّ إذن من صرفه عن هذا الظَّاهر ، واللفظ إذا صُرف عمَّا وُضع له ، واستعمل في غير ما وُضع له ، خرج عن الحقيقة إلىٰ المجاز لا محالة ما دامت هناك قرينة مانعة من إرادة المعنىٰ الأصلي .

ثمَّ إنَّ كلامهم بهذه الصُّورة فيه تلبيس علىٰ العامَّة وفتنة لهم ، فكيف يواجهونهم به ويحملونهم عليه ، وفي ذلك ما فيه من الإضلال ، وتمزيق وحدة الأُمَّة ، الأمر الذي نهانا القرآن عنه ، والذي جعل عمر يفعل ما يفعل بصبيغ أو بابن صبيغ ، وجعل مالكاً يقول ما يقول ويفعل ما يفعل بالذي سأله عن الاستواء ، وقد مرَّ بك هذا وذاك .

ولو أنصف هؤلاء لسكتوا عن الآيات والأخبار المتشابهة ، واكتفوا بتنزيه الله تعالىٰ عمَّا تُوهِمه ظواهرها من الحدوث ولوازمه ، ثمَّ فوَّضوا الأمر في تعيين معانيها إلىٰ الله وحده ، وبذلك يكونوه سلفيِّين حقاً ، لكنَّها شبهات عرضت لهم في هذا المقام فشوَّشت حالهم ، وبلبلت أفكارهم " .

وقال أيضاً : " ... والمتتبِّع لكلامهم يجد فيه العبارات الصَّريحة في إثبات الجهة لله تعالىٰ ، وقد كفَّر العراقي وغيره مثبت الجهة لله تعالىٰ ، وهو واضح ، لأنَّ معتقد الجهة لا يمكنه إلَّا أن يعتقد التَّحيُّز والجسميَّة ، ولا يتأتَّىٰ غير هذا ، فإن سمعت منهم سوىٰ ذلك ، فهو قول متناقض ، وكلامهم لا معنىٰ له " (١) .

وقال الإمام سلامة القضاعي العزامي الشَّافعي (١٣٧٦هـ) : " إذا سمعت في بعض عبارات بعض السَّلف : إنَّما نؤمن بأنَّ له وجهاً لا كالوجوه ، ويداً لا كالأيدي ، فلا تظن أنَّهم أرادوا أنَّ ذاته العليَّة منقسمة إلىٰ أجزاء وأبعاض ، فجزء منها يد ، وجزء منه وجه ، غير أنَّه لا يشابه الأيدي والوجوه التي للخلق .

حاشاهم من ذلك ، وما هذا إلَّا التَّشبيه بعينه ، وإنَّما أرادوا بذلك أنّ لفظ الوجه واليد قد استعمل في معنىٰ من المعاني وصفة من الصِّفات الّتي تليق بالذات العليَّة ، كالعظمة والقدرة ، غير أنَّهم يتورَّعون عن تعيين تلك الصِّفة تهيُّباً من التَّهجُّم علىٰ ذلك المقام الأقدس ، وانتهز المجسِّمة والمشبِّهة مثل هذه العبارة فغرَّروا بها العوام ، وخدعوا بها الأغمار من النَّاس ، وحملوها علىٰ الأجزاء فوقعوا في حقيقة التَّجسيم والتَّشبيه ، وتبرَّأوا من اسمه ، وليس يخفىٰ نقدهم المزيَّف علىٰ صيارفة العلماء وجهابذة الحكماء " (٢) .

وقال الإمام محمَّد العربي بن التبَّاني الـمالكي (١٣٩٠هـ) ما نصّه : " اتَّفق العقلاء من أهل السُّنَّة الشَّافعيَّة ، والحنفيَّة ، والـمالكيَّة ، وفضلاء الحنابلة وغيرهم علىٰ أنَّ الله تبارك وتعالىَ مُنَـزَّهٌ عن الجهة ، والجسميَّة ، والحدِّ ، والـمكان ، ومشابَهة مخلوقاته " (٣) .

وقال الإمام محمَّد الطَّاهر بن عاشور التُّونسي (١٣٩٣هـ) : " وَلَمَّا كَانَ ٱلْإِتْيَانُ يَسْتَلْزِمُ التَّنَقُّلَ أَوِ التَّمَدُّدَ لِيَكُونَ حَالًّا فِي مَكَانٍ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ حَتَّىٰ يَصِحَّ ٱلْإِتْيَانُ ، وَكَانَ ذَلِكَ يَسْتَلْزِم التنقل الْجِسْمَ ، وَاللهُ مُنَزَّهٌ عَنْهُ ، تَعَيَّنَ صَرْفُ اللَّفْظِ عَنْ ظَاهِرِهِ بِالدَّلِيلِ ٱلْعَقْلِيِّ ، فَإِنْ كَانَ ٱلْكَلَامُ خَبَرَاً أَوْ تَهَكُّماً فَلَا حَاجَةَ لِلتَّأْوِيلِ ، لِأَنَّ اعْتِقَادَهُمْ ذَلِكَ مَدْفُوعٌ بِٱلْأَدِلَّةِ ، وَإِنْ كَانَ ٱلْكَلَامُ وَعِيداً مِنَ اللهِ لَزِمَ التَّأْوِيلَ ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ مَوْجُودٌ فِي نَفْسِ ٱلْأَمْرِ لَكِنَّهُ لَا يَتَّصِفُ بِمَا هُوَ مِنْ صِفَاتِ الْحَوَادِثِ ، كَالتَّنَقُّلِ وَالتَّمَدُّدِ لِمَا عَلِمْتَ ، فَلَا بُدَّ مِنْ تَأْوِيلِ هَذَا عِنْدَنَا عَلَىٰ أَصْلِ ٱلْأَشْعَرِيِّ فِي تَأْوِيلِ الْمُتَشَابِهِ " (٤) .

---

(١) انظر : مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/ ٢٩١-٢٩٣) ، (٢/ ٢٩٧) بالترتيب .

(٢) انظر : فرقان القرءان بين صفات الخالق وصفات الأكوان (ص٧٠-٧١) .

(٣) انظر : براءة الأشعريين من عقائد المخالفين (ص٧٩) .

(٤) انظر : التحرير والتنوير (٢/ ٢٨٤) .

وقال أيضاً : " وَكَانَ السَّلَفُ يُقِرُّونَ أَنَّ الْيَدَيْنِ صِفَةٌ خَاصَّةٌ للهِ تَعَالَى ، لِوُرُودِهِمَا فِي الْقُرْآنِ مَعَ جَزْمِهِمْ بِتَنْزِيهِ اللهِ عَنْ مُشَابَهَةِ الْمَخْلُوقَاتِ وَعَنِ الْجِسْمِيَّةِ ... " (١) .

وقال الإمام محمَّد علي السَّايس (١٣٩٦هـ) : " فإنَّ اليهود يعتقدون أنّ الإله جسم ، مع أنَّ الإله الحقَّ منزَّه عن الجسميَّة والتَّشبيه ، فهم لا يؤمنون بوجود الإله الحقّ المنزَّه عن الجسميَّة " (٢) .

وقال الإمام محمَّد بن السيِّد علوي المالكي الحسني (١٤٢٥هـ) : " ونزول الجسم ومجيئه إنَّما يكون بالانتقال اللائق بالأجسام ، ونزول من ليس بجسم يستحيل أن يكون النـُّزول المعروف من الأجسام ، وإنَّما هو نزول إلهي منـزَّه عن الانتقال والمثل ، كما أنَّ الذَّات تعالت وتقدَّست عن المِثل .

وكما أنَّ أهل السُّنَّة لا خلاف بينهم في أنَّ اليد في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح : ١٠] ، هي غير الجارحة المعلومة ، وكذلك السَّاق والأصبع ، ونحو ذلك ، فهي غير اليد التي نعرفها ، والسَّاق التي نعرفها ، والأصبع التي نعرفها ، فيجب أن نقول : نزوله ومجيئه واستواؤه ، غير النـُّزول المعروف في الأجسام ومجيئها واستوائها .

ومن أثبت للحقِّ النـُّزول والمجيء والاستواء الجسماني اللازم للأجسام ، فقد ضلّ ، وقد آمن أهل الحقِّ بالنـُّزول والمجيء الإلهي المنـزَّه عن صفات الأجسام وسمات الحدوث ، وكفروا بالنـُّزول والمجيء الجسماني بالانتقال من مكان إلىٰ مكان ، وآمنوا بالاستواء الإلهي علىٰ العرش ، وكفروا بالاستواء المعروف من الأجسام ، لأنَّ الاستواء المعروف من الأجسام مكيَّف .

وهذه هي الطَّريقة السَّلفيَّة الصَّحيحة التي كان عليها خير الأُمَّة من الصَّحابة والتَّابعين . وقد آمنَّا بما جاء عن الله علىٰ مراد الله عزَّ وجلَّ ، وآمنَّا بما جاء عن الرَّسول صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وهو الذي يليق بالمنـزَّه عن الجسميَّة قطعاً ، لا علىٰ مراد الخيالات والتَّصوُّرات والأوهام . وكلُّ ما خطر ببالك – من تصوُّر للذَّات العليَّة – فهو هالك ، والله بخلاف ذلك . وليس للإنسان أن يذهب في تصوُّر الذَّات العليَّة المذهب الخاطئ حيث يقيس الخالق علىٰ المخلوق مع علمه بأنَّه المنـزَّه الذي ليس له مثيل " (٣) .

---

(١) انظر : التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٠٣) .

(٢) انظر : تفسير آيات الأحكام (ص٤٤٩) .

(٣) انظر : منهج السلف في فهم النصوص بين النظرية والتطبيق (ص١٧-١٨) .

وقال الإمام محمَّد سيِّد طنطاوي (١٤٣١هـ) : " كما أنَّه- عزَّ وجلَّ- منزَّه عن الجسميَّة والتَّحيُّز ، ومشابهة غيره " (١) .

وقال الدكتور وهبة بن مصطفىٰ الزُّحيلي (٢٠١٥م) : " متَّبعو المتشابه إمَّا أن يتَّبعوه طلباً للتَّشكيك في القرآن وإضلال العوامّ ، كما فعلته الزَّنادقة والقرامطة الطَّاعنون في القرآن ، وإما أن يتَّبعوه طلباً لاعتقاد ظواهر المتشابه ، كما فعلته المجسِّمة الذين جمعوا ما في الكتاب والسُّنَّة ، ممَّا ظاهره الجسميَّة ، حتىٰ اعتقدوا أنَّ البارئ تعالىٰ جسمٌ مجسَّم ، وصورة مصوَّرة ذات وجه ، وعين ، ويد ، وجنب ، ورِجْل ، وأصبع ، تعالىٰ الله عن ذلك " (٢) .

وقال أيضاً : " والمراد بقوله : ﴿ يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ [القلم:٤٢] : شدَّة الأمر ، وعظم الخطب ، لأنَّ الله تعالىٰ منزَّه عن الجسميَّة وعن كلِّ صفــــات الحوادث ، فليس المراد بالسَّاق الجــــارحة ، وإنَّما ذلك مؤول بما ذكر " (٣) .

وقال الإمام محمَّد بن علي بن آدم بن موسىٰ الإثيوبي الوَلَّوِي (معاصر) : " ... وقد قال الله – عَزَّ وَجَلَّ– : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر: ٢٢] ، وليس مجيئه حركة ، ولا زوالاً ، ولا انتقالاً ، لأنَّ ذلك إنَّما يكون إذا كان الجائي جسماً ، أو جوهراً ، فلمّا ثبت أنَّه ليس بجسم ولا جوهر ، لم يجب أن يكون مجيئه حركة ، ولا نقلة ، ولو اعتبرت ذلك بقولهم : جاءت فلاناً قيامته ، وجاءه الموت ، وجاءه المرض ، وشبه ذلك ممَّا هو موجود نازل به ، ولا مجيء ، لبان لك . وبالله العصمة والتَّوفيق " (٤) .

ومع كلِّ ما سبق بيانه ... فقد تغاضى مجسِّمة الحنابلة عن القواطع العقديَّة التي تنفي كون الله تعالىٰ جسماً ، ومالوا إلىٰ التَّجسيم ، ودافعوا ونافحوا عنه بكلِّ ما أُوتوا من قوَّة ...

ومن المعلوم أنَّ المتمسلفة اعتادوا علىٰ إلصاق ما يرونه من عقائد بالسَّلف الصَّالح لتأكيدها وتمريرها ... وهذه عادة نعرفها من أخزم ... قال الإمام العز بن عبد السَّلام فيما نقله عنه الإمام تاج الدِّين السُّبكي في طبقاته : " والحشويَّة المشبِّهة الَّذين يشبِّهون الله بخلقه ضَرْبَان : أَحدهمَا لَا يتحاشىٰ من إِظْهَار الحشو ﴿

---

(١) انظر : التفسير الوسيط للقرآن الكريم (١٥/ ٥٤٠) .

(٢) انظر : التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج (٣/ ١٥٧) .

(٣) انظر : التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج (٢٩/ ٦٩) .

(٤) انظر : شرح سنن النسائي المسمَّىٰ " ذخيرة العقبىٰ في شرح المجتبىٰ " (١٤/ ٢٧٧) .

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨] ، وَالْآخر يتستر بِمذهب السّلف ، لسحتٍ يَأْكُلهُ أَو حطام يَأْخُذهُ ـ

أظهرُوا للنَّاس نسكاً وعَلىٰ المنقوش داروا

﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ [النساء: ٩١] ، وَمذهب السَّلف إِنَّما هُوَ التَّوحيد والتَّنزيه دون التَّجسيم والتَّشبيه ، وَلذَلِك جَمِيع المبتدعة يَزْعمُونَ أَنَّهم علىٰ مَذْهَب السَّلف ، فهم كَمَا قَالَ الْقَائِل :

وكلٌّ يدَّعونَ وصال ليلىٰ وليلىٰ لَا تقرُّ لَهُم بذاكا

وَكَيف يدَّعىٰ علىٰ السَّلف أَنَّهم يَعْتَقِدُونَ التَّجسيم والتَّشبيه أَو يسكتون عِنْد ظُهُور الْبدع ، ويخالفون قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢] ، وَقَوله : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ، وَقَوله : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] (١) .

فالنَّاظر في أقوال المنتسبين للإمام السَّلفي أحمد بن حنبل يجد أَنَّهم حادوا كثيراً عن المنهج التَّنزيهي لأهل الحقّ – ومنهم الإمام أحمد – ، ومن ذلك ما قاله القاضي أبو يعلىٰ ، محمَّد بن الحسين بن محمَّد بن خلف ابن الفرَّاء (٤٥٨هـ) : " وَذَكَرَ أَبُو عبد اللهَّ بْن بطَّة (٣٨٧هـ) (٢) فِي كتاب الإبانة ، قَالَ أَبُو بكر أحمد بْن سلمان

(١) انظر : طبقات الشافعية الكبرىٰ (٨/ ٢٢٢-٢٢٣) .

(٢) هو عُبَيد الله بن محمَّد بن بطة العكبري الفقيه . روىٰ ابن بطة عن النجاد عن العطاردي فأنكر عليه علي بن ينال وأساء القول فيه حتىٰ همت العامة بابن ينال فاختفىٰ ...

وقال أبو القاسم الأزهري: ابن بطة ضعيف ضعيف ...

وقد وقفت لابن بطة علىٰ أمر استعظمته واقشعر جلدي منه.

قال ابن الجوزي في الموضوعات: أخبرنا علي بن عُبَيد الله الزاغواني أخبرنا علي بن أحمد بن البسري أنبأنا أبو عبد الله بن بطة ، حدثنا إسماعيل بن محمَّد الصفار ، حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا خلف بن خليفة، عَن حُمَيد الأعرج، عَن عَبد الله بن الحارث، عَن عَبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: كلم الله تعالىٰ موسىٰ يوم كلمه وعليه جبة صوف وكساء صوف ونعلان من جلد حمار غير ذكي فقال: من ذا العبراني الذي يكلمني من الشجرة؟ قال: أنا الله.

قال ابن الجوزي: هذا لا يصح وكلام الله لا يشبه كلام المخلوقين والمتهم به حميد.

قلت: كلا والله بل حميد بريء من هذه الزيادة المنكرة فقد أخبرنا به الحافظ أبو الفضل بن الحسين بقراءتي عليه أخبرنا أبو الفتح الميدومي أخبرنا أبو الفرج بن الصيقل أخبرنا أبو الفرج بن كليب أخبرنا أبو القاسم بن بيان أخبرنا أبو الحسن بن مخلد أخبرنا إسماعيل بن محمَّد الصفار ، حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا خلف بن خليفة، عَن حُمَيد الأعرج، عَن عَبد الله بن الحارث، عَن عَبد الله بن مسعود رضي الله عنه

النّجاد (٣٤٨هـ) : لو أنَّ حالفاً حلف بالطَّلاق ثلاثاً : أنَّ اللهَّ تَعَالَىٰ يُقعد محمَّداً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه عَلَىٰ العرش واستفتاني فِي يمينه لقلت لَهُ : صدقت فِي قولك ، وبررت فِي يمينك ، وامرأتك عَلَىٰ حالها ، فهذا مذهبنا وديننا واعتقادنا !!! وعليه نشأنا !!! ونحن عَلَيْهِ إِلىٰ أن نموت إن شاء اللهَّ !!! فلزمنا الإنكار عَلَىٰ

قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: يوم كلم الله تعالىٰ موسىٰ كانت عليه جبة صوف وسراويل صوف وكساء صوف وكمه صوف ونعلاه من جلد حمار غير ذكي.

وكذلك رواه الترمذي، عَن عَلِيّ بن حجر عن خلف بن خليفة بدون هذه الزيادة.

وكذا رواه سعيد بن منصور عن خلف دون هذه الزيادة.

وكذا رواه أبو يَعلَىٰ في مسنده عن أحمد بن حاتم عن خلف بن خليفة بدون هذه الزيادة.

ورواه الحاكم في "المُستَدرَك" ظنا منه أن حميد الأعرج هو حميد بن قيس المكي الثقة وهو وهم منه.

وقد رواه من طريق عمر بن حفص بن غياث، عَن أبيه وخلف بن خليفة جميعا، عَن حُمَيد بدون هذه الزيادة.

وقد رويناه من طرق ليس فيها هذه الزيادة وما أدري ما أقول في ابن بطة بعد هذا فما أشك أن إسماعيل بن محمَّد الصفار لم يحدث بهذا قط والله أعلم بغيبه ...

قال أبو ذر الهروي: سمعت نصر الأندلسي – وكان يحفظ ويفهم ورحل إلىٰ خراسان – قال: خرجت إلىٰ عكبرا فكتبت عن شيخ بها، عَن أبي خليفة وعن ابن بطة ورجعت إلىٰ بغداد فقال الدارقطني: أيش كتبت، عَنِ ابن بطة؟ قلت: كتاب السنن لرَجَاء بن مُرَجًّا حدثني به عن حفص بن عمر الأردبيلي عن رَجَاء بن مُرَجًّا فقال الدارقطني: هذا محال دخل رَجَاء بن مُرَجًّا بغداد سنة أربعين ودخل حفص بن عمر سنة سبعين فكيف سمع منه.

وحكىٰ الحسن بن شهاب نحو هذه الحكاية عن الدارقطني وزاد: أنَّهم أبردوا بريدا إلىٰ أردبيل وكان ولد حفص بن عمر حيا هناك فعاد جوابه أن أباه لم يروه عن رَجَاء بن مُرَجًّا ولم يره قط وأن مولده كان بعد موته بسنتين.

قال: فتتبع ابن بطة النسخ التي كتبت عنه وغير الرواية وجعل مكانها: عن ابن الراجيان عن فتح بن شخرف عن رجاء.

وقال أبو القاسم التنوخي: أراد أبي أن يخرجني إلىٰ عكبرا لأسمع من ابن بطة معجم الصحابة للبغوي فجاءه أبو عبد الله بن بكير وقال له: لا تفعل فإن ابن بطة لم يسمعه من البغوي.

وقال الأزهري: عندي، عَنِ ابن بطة معجم البغوي فلا أخرج عنه في الصحيح شيئا لأنا لم نر له به أصلا وإنما دفع إلينا نسخة طرية بخط ابن شهاب فقرأناها عليه.

وقال الخطيب: حدثني أحمد بن الحسن بن خيرون قال: رأيت كتاب ابن بطة بمعجم البغوي في نسخة كانت لغيره وقد حك اسم صاحبها وكتب عليها اسمه.

قال ابن عساكر: وقد أراني شيخنا أبو القاسم السمرقندي بعض نسخة ابن بطة بمعجم البغوي فوجدت سماعه فيه مصلحا بعد الحك كما حكاه الخطيب، عَنِ ابن خيرون.

وقال أبو ذر الهروي: أجهدت علىٰ أن يخرج لي شيئا من الأصول فلم يفعل فزهدت فيه. انظر : لسان الميزان (٥/ ٣٤٢) .

من ردَّ هَذِهِ الفضيلة !!! الَّتِي قالتها العلماء وتلقُّوها بالقبول ، فمن ردَّها فهو من الفِرق الهالكة !!! " (١) .
فلا حول ولا قوَّة إلَّا بالله ، ونعوذ بالله من الخذلان ...
وبالغ ابن تيمية واستمات في الدِّفاع عن التَّجسيم والمجسِّمة ...، وممَّا قاله ابن تيمية في ذلك : " ولم يذمّ أحدٌ من السَّلف أحداً بأنَّه مجسِّمٌ ، ولا ذمّ المجسِّمة ، وإنَّما ذمُّوا الجهميَّة النُّفاة لذلك !!! وغيره ... " .
وصرَّح ابن تيمية بالجسميَّة ، فقال : " ... والموصوف بهذه الصِّفات لا يكون إلَّا جسماً ، فالله تعالى جسمٌ لا كالأجسام !!! قالوا : وهذا ممَّا لا يمكن النِّزاع فيه !! إذا فهم المعنى المراد بذلك ، لكن أي محذور في ذلك ؟!! وليس في كتاب الله ولا سنَّة رسوله ولا قول أحد من سلف الأمَّة وأئمَّتها ، أنَّه ليس بجسم !!! وأنَّ صفاته ليست أجساماً وأعراضاً ؟!! فنفي المعاني الثَّابتة بالشَّرع والعقل ؛ بنفي ألفاظ لم ينف معناها شرع ولا عقل ، جهلٌ وضلال " .
قلت : وهذا كلام جدُّ خطير من ابن تيمية ، فَمَن من السَّلف قال بأنَّ الله تعالى : جسم لا كالأجسام ؟ بل إنَّ عقلاء الحنابلة وغيرهم شنَّعوا على من قال بذلك ... اللهمَّ إلَّا إذا قصد بالسَّلف : سلفه من المشبِّهة ...
وتمادى ابن تيمية في ذلك ، فقال : " وإذا كان كذلك ، فاسم المشبِّهة ليس له ذكرٌ بذمٍّ في الكتاب والسُّنَّة ، ولا كلام أحد من الصَّحابة والتَّابعين !!! ولكن تكلَّم طائفةٌ من السَّلف مثل عبد الرَّحمن بن مهدي (١٩٨هـ) ، ويزيد بن هارون (٢٠٦هـ) ، وأحمد بن حنبل (٢٤١هـ) ، وإسحاق بن راهويه (٢٣٨هـ) ، ونعيم بن حمَّاد ، وغيرهم بذمِّ المشبِّهة ، وبيَّنوا المشبِّهة الذين ذمُّوهم ... " .
وهذا كلام غريب وفذلكة من الإمام ابن تيمية وممَّن يدَّعي السَّلفيَّة ، وإلَّا فبالله عليكم ماذا تُسمُّون من يصحِّح حديث الشَّابِّ الأمرد في كتابه : " بيان تلبيس الجهميَّة " ، وماذا تسمُّون من يقول : إنَّ لله تعالى صورة كصورة الإنسان ؟!! وهذا عنوان كتاب لواحد من مدَّعي السَّلفيَّة اسمه : " عقيدةُ أهلِ الإيمان في خلقِ آدم على صُورة الإنسان " ، وقد قرَّظ الكتاب واحدٌ من كُبرائهم ...أليس هذا تشبيهاً لله تعالى بخلقه ... أم ماذا تسمُّونه يا أهل النُّهى والحِجى ؟! ذاب الثَّلج وبان المرج ، ولم يعُد شيء خافياً على ذي لبٍّ ...
وقال ابن تيمية أيضاً : " والبارئ سبحانه وتعالى فوق العالم فوقيَّة حقيقيَّة !!! ليست فوقيَّة الرُّتبة " . فماذا تسمُّون هذا ...
وقال أيضاً : " أنَّا قد قدَّمنا أنَّ جميع ما يذكر من هذه الأدلَّة التي تنفي الجسم على اصطلاحهم ، فإنَّها أدلَّة باطلة ، لا تصلح لمعارضة دليل ظنِّي ولا قطعي " (١) ...

---

(١) انظر : إبطال التأويلات لأخبار الصفات (١/ ٤٨٥) .

والكلام في مثل هذه المعاني التَّشبيهية يطول ... والغريب أنَّ من يدَّعون السَّلفيَّة لا يحيدون عمَّا قاله ابن تيمية قيد أُنمله ، بل يعتقدون ما يعتقد من غير نكير ولا تغيير ، وهو عندهم المرجع الذي لا يُجارىٰ ولا يُبارىٰ ، ... ومن الأمثلة علىٰ متابعة من يدَّعون السَّلفيَّة لإمامهم ابن تيميَّة : أنَّ المدعو : عبد الكريم صالح الحميد ، ألَّف كتاباً سمَّاه : " القول المختار لبيان فناء النَّار " ردَّ فيه علىٰ الشَّيخ الألباني الذي عارض الإمامين : ابن تيميَّة وتلميذه ابن قيِّم الجوزية القائلين بفناء النَّار ، مع أنَّ بقاء النَّار من الضَّروريات في دين الله تعالىٰ . وكتاب " عبد الكريم الحميد " هو من (منشورات مطبعة السفير ، الرياض ، ١٤١٢هـ) . مع العلم أنَّ العلماء قديماً ردُّوا علىٰ ابن تيمية قوله المخالف لعموم الأمَّة ، انظر مثلاً : " الاعتبار ببقاء الجنة والنَّار " ، لتقيِّ الدِّين علي بن عبد الكافي السُّبكي ، عني بنشره : القدسي ، مطبعة التَّرقي ، دمشق ، " رفع الأستار لإبطال أدلَّة القائلين بفناء النَّار " ، لمحمد بن إسماعيل الأمير الصَّنعاني ، بتحقيق : محمَّد ناصر الدِّين الألباني ، (المكتب الإسلامي ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٤م) ... وقد خالف ابن تيمية في ذلك الجميع ، انظر مثلاً : " لوامع الأنوار البهيَّة " ، لمحمَّد بن أحمد السَّفاريني (٢/ ٢٣٥) ، " جلاء العينين في محاكمة الأحمدين " ، لنعمان بن محمَّد الألوسي (ص٤٢١) ، محمَّد رشيد رضا في مجلَّته المنار : الجزء الأوَّل والثَّاني ، (المجلَّد الثَّاني والعشرون) . والعجيب أنَّ الألباني مع كونه أثبت هذا القول الفاسد علىٰ الشَّيخ ابن تيمية وتلميذه ابن قيِّم الجوزيَّة ، جعل لهما ثواباً علىٰ اجتهادهما !!! في القول بفناء النَّار ، كما تجد ذلك في تعليقه علىٰ " رفع الاستار " (ص٣٢) ، فيا للعجب ...

فالقوم لا يعنيهم الدَّليل بقدر ما يعنيهم متابعة مشايخهم الذين قلَّدوهم حذو القذَّة بالقذَّة ، حتىٰ ولو اضطرُّوا للتَّأويل الذي لا يقولون به !!!

ويستشهدون علىٰ مقالاتهم الباطلة بكلام ينسبونه ظلماً وزوراً للإمام أحمد بن حنبل ، مع أنَّ سادة الحنابلة نفوا ما ألصقه الآثمون به ، فقد نقل الإمام أبو الفضل ، عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث ، التَّميمي البغدادي ، رئيس الحنابلة ببغداد (٤١٠هـ) عن الإمام أحمد بن حنبل أنَّه : " أنكر علىٰ من يقول بالجسم ، وقال : إنَّ الأسماء مأخوذة من الشَّريعة واللغة ، وأهل اللغة وضعوا هذا الاسم علىٰ ذي طولٍ وعرضٍ وسمكٍ وتركيبٍ وصورةٍ وتأليف ، والله تعالىٰ خارج عن ذلك كلِّه ، فلم يجز أن يُسمَّىٰ جسماً لخروجه عن معنىٰ الجسميَّة ، ولم يجيء في الشَّريعة ذلك ، فبطل " .

---

(١) انظر : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية ، ابن تيمية الحراني الحنبلي (١/ ٣٧٢) ، (١/ ٣٧٣) ، (١/ ٣٨٧) ، (٧/ ٢٩٠) ، (١/ ٣٩٠) ، (٧/ ٤٠٧) بالترتيب .

فهذا رئيس الحنابلة ببغداد يصوِّر العقيدة الحقَّة للإمام أحمد ، وأنَّه أنكر علىٰ المجسِّمة ، وأنَّ الجسم هو كلُّ ما كان له طول وعرض وسمك وتركيب وصورة وتأليف ... والله تعالىٰ خارج عن ذلك كلِّه ، ثمَّ حكم ببطلان ذلك كلِّه ...

ونقل الإمام أبو الفضل التَّميمي الحنبلي عن الإمام أحمد أنَّه قال : " والله تعالىٰ لا يلحقه تغيُّر ولا تبدُّل ، ولا تلحقه الحدود قبل خلق العرش ولا بعد خلق العرش " (١) .

وقال الإمام ابن حجر الهيتمي (٩٧٣هـ) ، حين سئل : " فِي عقائد الْحَنَابِلَة مَا لَا يخفىٰ علىٰ شرِيف علمكُم ، فَهَل عقيدة الإِمَام أَحْمد بن حَنْبَل رَضِي الله عَنهُ كعقائدهم ؟ ، قال : عقيدة إِمَام السُّنَّة أَحْمد بن حَنْبَل رَضِي الله عَنهُ وأرضاه ، وَجعل جنان المعارف متقلَّبه ومأواه ، وأفاض علينا وَعَلِيهِ من سوابغ امتنانه ، وبوَّأه الفردوس الْأَعْلَىٰ من جنانه ، مُوَافقَة لعقيدة أهل السّنَّة وَالْجَمَاعَة من الْمُبَالغَة التَّامَّة فِي تَنْزِيه الله تَعَالَىٰ عَمَّا يَقُول الظَّالِمُونَ والجاحدون علوّاً كَبِيراً من الْجِهَة والجسميَّة ، وَغَيرهمَا من سَائِر سمات النَّقْص ، بل وَعَن كلِّ وَصْف لَيْسَ فِيهِ كَمَال مُطلق ، وَمَا اشْتهر بَين جهلة المنسوبين إِلىٰ هَذَا الإِمَام الْأَعْظَم الْمُجْتَهد من أَنَّه قَائِل بِشَيْء من الْجِهَة أَو نَحْوهَا فكذب وبُهتان وافتراء عَلَيْهِ ، فلعن الله من نسب ذَلِك إِلَيْهِ ، أَو رَمَاه بِشَيْء من هَذِه المثالب الَّتِي برَّأه الله مِنْهَا ، وَقد بَيَّن الْحَافِظ الْحجَّة الْقدْوَة الإِمَام أَبُو الْفرج بن الْجَوْزِيّ (٥٩٧هـ) من أَئِمَّة مذْهبه المبرِّئين من هَذِه الوصمة القبيحة الشَّنيعة ، أَنَّ كل مَا نسب إِلَيْهِ من ذَلِك كذب عَلَيْهِ وافتراء وبهتان ، وَأَنَّ نصوصه صَرِيحَة فِي بطلَان ذَلِك وتنزيه الله تَعَالَىٰ عَنهُ ، فَاعْلَم ذَلِك فَإِنَّهُ مُهِمّ . وَإِيَّاك أَنْ تصغي إِلىٰ مَا فِي كتب ابْن تَيْمِية وتلميذه ابْن قيِّم الجوزيَّة وَغَيرهمَا مِمَّن اتَّخذ إلهه هَوَاهُ ، وأضلَّه الله علىٰ علم ، وَختم علىٰ سَمعه وَقَلبه ... " (٢) .

فالله تعالىٰ ليس جسماً ، لأنَّ الجسم يتشكَّل من أجزاء ، ولا يقوم بغير أجزائه ، كما أنَّه لا ينفكُّ عن لوازمه من الحركة والسُّكون والاجتماع والافتراق ، وهذه اللوازم كلّها حادثة لتغيُّرها وتبدُّلها وعدم قيامها بنفسها ، وما لا ينفكُّ عن الحوادث فهو حادث ، ويلزم من القول بالجسميَّة حدوث الله ، والله تعالىٰ واجب الوجود لذاته ، ولو كان جسماً لكان له شبيه ومثيل ، ونحن نعلم أنَّ العديد من آيات القرآن الكريم نفت عن الله تعالىٰ الشَّبيه والمثيل ، فلا يجوز أن يكون جسماً ، والجسم مركَّب وهو مفتقرٌ إلىٰ ما ركِّب منه ، وكذا

---

(١) انظر : اعتقاد الإمام أحمد (ص٤٥) ، (ص ٣٨ -٣٩) بالترتيب .

(٢) انظر : الفتاوىٰ الحديثية (ص٢٧٠-٢٧١) .

مفتقر إلىٰ من يركِّبه ، وبالتَّالي فإنَّ واجب الوجود يكون ممكناً ، وهذا يتعارض مع ما ثبت بالضَّرورة أنَّه واجب الوجود ...

وقد دفعت العديدُ من الرِّوايات الحنابلة إلىٰ الغلو والتَّعصُّب حتىٰ وقعوا في التَّجسيم البحت ، قال الإمام أبو محمَّد عفيف الدِّين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي (٧٦٨هـ) في كتابه الطيِّب : " مرهم العلل المعضلة في دفع الشُّبَه والرَّدِّ علىٰ المعتزلة : " ومتأخِّرو الحنابلة غلوا في دينهم غلوَّاً فاحشاً ، وتسفّهوا سفهاً عظيماً ، وجسّموا تجسيماً قبيحاً ، وشبَّهوا الله بخلقه تشبيهاً شنيعاً ، وجعلوا له من عباده أمثالاً كثيرة ؛ حتىٰ قال أبوبكر ابن العربي في (العواصم) : " أخبرني من أثق به من مشيختي ، أنَّ القاضي أبا يعلىٰ الحنبلي كان إذا ذكر الله سبحانه يقول فيما ورد من هذه الظَّواهر في صفاته تعالىٰ : ألزموني ما شئتم فإنِّي ألتزمه إلَّا اللحية والعورة .

قال أئمَّة بعض أهـل الحق : وهـذا كفرٌ قبيحٌ ، واستهزاء بالله تعالىٰ شنيع ، وقائله جاهل به تعالىٰ ، لا يُقتدىٰ به ولا يُلتفت إليه ، ولا هو متَّبع لإمامه الذي ينتسب إليـه ويتستَّر به ؛ بل هـو شريك للمشركين في عبادة الأصنام ؛ فإنَّه ما عبَد الله ولا عرفه ، وإنَّما صوَّر صنماً في نفسه ، فتعالىٰ الله عمَّا يقول الملحدون والجاحدون علواً كبيراً " .

ومثل ما نقله ابن العربي عن أبي يعلىٰ هذا ، منقول في كتب الملل والنِّحل عن داود الجواربي ، تعالىٰ الله عن ذلك . ثمَّ قال اليافعي : " ولقد أحسن ابن الجوزي من الحنابلة حيث صنَّف كتاباً في الرَّدِّ عليهم ، ونقل عنهم أنَّهم أثبتوا لله صورة كصورة الآدمي في أبعاضها ، وقال في كتابه : " دفع شُبه التَّشبيه " : هؤلاء قد كسوا هذا المذهب شيناً قبيحاً حتىٰ صار لا يُقال عن حنبلي إلَّا مجسِّم ، قال : وهؤلاء متلاعبون !!! وما عرفوا الله ولا عندهم من الإسلام خبر ولا يحدَّثون ، فإنهم يكابرون العقول ، وكأنَّهم يحدِّثون الصِّبيان والأطفال ، قال : وكلامهم صريحٌ في التَّشبيه ، وقد تبعهم خلقٌ من العوام ، وفضحوا التَّابع والمتبوع " (١)
.

قلت : ومن المؤسف حقَّاً أن يقوم القائمون علىٰ المكتبة الشَّاملة / الإصدار السَّادس ، بشطب هذه الفقرة من كتاب : " مرهم العلل المعضلة في دفع الشُّبه والرَّدِّ علىٰ المعتزلة " ، وهذه خيانة من خياناتهم ، حتىٰ أنَّني أجزم أنَّ من أهمِّ الأسباب التي دعتهم لإصدار المكتبة الشَّاملة : العبث بكتب أهل العلم ، كي توافق

---

(١) انظر : السيف الصقيل في الردّ علىٰ ابن زفيل (ص١٣٠-١٣١) .

هواهم وعقائدهم ، ولكن هيهات ، فإنَّ للحقِّ رجال ، يأبىٰ الله تعالىٰ إلَّا أن يسخِّرهم ويستخدمهم لكشف مخازي القوم وسقطهم وخياناتهم علىٰ مدىٰ الزَّمان ...

ومن أشهر الحنابلة الذين غلوا في دينهم غلوَّاً فاحشاً : ابن حامد الحسن بن حامد بن علي بن حامد الورَّاق (٤٠٣هـ) ... قال الإمام التَّقي الحِصني : " وقال ابن حامد الرَّاسم نفسه بالحنبلي : هو فوق العرش بذاته ، وينزل من مكانه الذي هو فيه !!! فينزل وينتقل . ولَّمَا سمع تلميذه القاضي منه هذا استبشعه ، فقال : النُّزول صفة ذاتيَّة ، ولا نقول نزوله انتقال ، أراد أن يغالط الأغبياء بذلك .

وقال غيره : يتحرَّك إذا نزل ، وحكوا هذه المقالة عن الإمام أحمد فُجوراً منه ، بل هو كذب محض علىٰ هذا السيِّد الجليل السَّلفي المنزَّه ، فإنَّ النُّزول إذا كان صفة لذاته لزم تجدُّدها كلّ ليلة وتعدُّدها ، والإجماع منعقد علىٰ أنَّ صفاته قديمة ، فلا تجدُّد ولا تعدُّد ، تعالىٰ الله عمَّا يصفون .

وقد بالغ في الكفر من ألحق صفة الحقِّ بالخلق ، وأدرج نفسه في جريدة السَّامرة واليهود الذين هم أشدُّ عداوة للذين آمنوا ... " (١) ...

ومن المعلوم أنَّ ابن حامد الذي أشار إليه الإمام التَّقي الحصني صاحب طامَّات وأوابد ، وقد ردَّ عليه الإمام ابن الجوزي في كتابه الطيِّب : " دفع شُبه التَّشبيه بأكفِّ التَّنزيه " ، وممَّا قاله ابن الجوزي نقلاً عن ابن حامد : " وقال ابن حامد : أثبتنا لله وجهاً ، ولا نجوِّز إثبات رأس . قلت – ابن الجوزي – : ولقد اقشعرَّ بدني من جراءته علىٰ ذكر هذا ، فما أعوزه في التَّشبيه غير الرَّأس " .

وقال أيضاً : " ... وحكىٰ ابن حامد أعظم من هذا ، فقال : ذهبت طائفة في قوله تعالىٰ : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر: ٢٩] ، إلىٰ أنَّ تلك الرُّوح صفة من ذاته ، وأنَّها إذا خرجت رجعت إلىٰ الله تعالىٰ .

قلت – ابن الجوزي – : وهذا أقبح من كلام النَّصارىٰ ، فما أبقىٰ هذا من التَّشبيه بقيَّة " .

وقال أيضاً : " قال ابن حامد : يجب الإيمان بأنَّ لله تعالىٰ ساقاً صفة لذاته ، فمن جحد ذلك كفر . قلت – ابن الجوزي – : ولو تكلَّم بهذا عامِّيٌّ جلف كان قبيحاً ، فكيف بمن يُنسب إلىٰ العلم ؟!! فإنَّ المتأوِّلين أعذر منهم ، لأنَّهم ردُّوا الأمر إلىٰ اللغة ، وهؤلاء أثبتوا ساقاً للذَّات وَقَدَمَاً ، حتىٰ يتحقَّق التَّجسيم والصُّورة " .

(١) انظر : دفع شبه من شبَّه وتمرَّد ونسب ذلك إلىٰ السيد الجليل الإمام أحمد (ص١٣-١٤) .

وقال أيضاً : " وقال ابن حامد : الحقُّ يختصُّ بمكان دون مكان ، ومكانه الذي هو فيه وجود ذاته على عرشه . وقال : وذهبت طائفة إلى أنَّ الله تعالى على عرشه قد ملأه ، والأشبه أنَّه مماسّ للعرش ، والكرسي موضع قدميه " .

وقال أيضاً : " وقال ابن حامد : نؤمن بأنَّ لله تعالى جنباً بهذه الآية – يعني بالآية قوله تعالى : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦] . قلت – ابن الجوزي – : واعجباً من عدم العقول ، إذا لم يتهيَّأ التَّفريط في جنب مخلوق ، كيف يتهيَّأ في صفة الخالق " .

وقال أيضاً : " قال ابن حامد : هذا خطأ ، إنَّما ينزل بذاته بانتقال " .

وقال أيضاً : " قال ابن حامد : هو على العرش بذاته ، مماسّ له ، وينزل من مكانه الذي هو فيه فيزول وينتقل . قلت – ابن الجوزي – : وهذا رجلٌ لا يعرف ما يجوز على الله تعالى " .

" وروى ابن حامد : ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣] ، قال : خرج منه أوَّل مفصل من خنصره " .

قال ابن حامد : يجب التَّصديق بأنَّ لله تعالى حقواً – خصْراً – فتأخذ الرَّحم بحقوه . قال : وكذلك نؤمن بأنَّ لله جنْباً ، لقوله تعالى : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦] . قلت – ابن الجوزي – : وهذا لا فهم له أصلاً ، كيف يقع التَّفريط في جنب الذَّات " .

وقال أيضاً : " قال ابن حامد : والمراد بالتَّعلُّق : القُرب والمماسَّة بالحقو ، كما روي أنَّ الله تعالى يُدني إليه داود حتى يمسَّ بعضَه " .

وقال أيضاً : " قال ابن حامد : يجب الإيمانُ بما ورد من المماسَّة والقُرب من الحقِّ لنبيِّه في إقعاده على العرش ، قال : وقال ابن عمر : ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٤٠] ، قال : ذكر الله الدُّنو منه حتى يمسَّ بعضه .

قلت – ابن الجوزي – : وهذا كذب على ابن عمر ، ومن ذكر تبعيض الذَّات كفر بالإجماع " .

وقال ابن حامد : رأيت بعض أصحابنا يثبتون لله وصفاً في ذاته ، بأنَّه يتنفَّس ، قال : وقالوا : الرِّياح الهابَّة مثل الرِّياح العاصفة ، والعقيم ، والجنوب ، والشِّمال ، والصّبا ، والدبُّور ، مخلوقة إلَّا ريحاً من صفاته ، هي : ذات نسيم حياتي ، وهي من نفس الرَّحمن . قلت – ابن الجوزي – : على من يعتقد هذا اللعنة ، لأنَّه يثبت جسداً مخلوقاً ، وما هؤلاء بمسلمين " (١) ...

---

(١) انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه (ص١١٣) ، (ص١١٧) ، (ص١٢٠-١٢١) ، (ص١٣٥) ، (ص١٤٠) ، (ص١٤١) ، (ص١٩٧) ، (ص٢١٤) ، (ص٢٣١) ، (ص٢٣٢) ، (ص٢٤٥) ، (ص٢٧٤) بالترتيب .

وما قاله ابن حامد وغيره من المنتسبين للحنابلة ما جاء إلَّا من روايات باطلة وشاذَّة ومنكرة رواها بعض علمائهم ... كتلك التي رواها أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدَّارمي السِّجستاني (٢٨٠هـ) ، وغيره من علمائهم ...

ومن الرِّوايات المُنكَرة التي رواها عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدَّارمي السِّجستاني (٢٨٠هـ) : " حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ رَجَاءٍ أبنا إِسْرَائِيلُ ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ خَلِيفَةَ قَالَ : " أَتَتِ امْرَأَةٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَتْ : ادْعُ اللهَ أَنْ يُدْخِلَنِي الْجَنَّةَ ، فَعَظَّمَ الرَّبَ . فَقَالَ : إِنَّ كُرْسِيَّهُ وَسِعَ السَّموات وَالْأَرْضَ ، وَإِنَّهُ لَيَقْعُدُ عَلَيْهِ ، فَمَا يَفْضَلُ مِنْهُ إِلَّا قَدْرُ أَرْبَعِ أَصَابعَ ، وَمَدَّ أَصَابِعَهُ الْأَرْبَعَ ، وَإِن لَهُ أطيطاً الرحل الْجَدِيد إِذْ رَكبه من يثقله " .

وأيضاً : " حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ خَالِدٍ الدِّمَشْقِيُّ ، ثَنَا محمَّد بْنُ شُعَيْبِ بْنِ شَابُور أبنا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ مَوْلَى غفرة ، قَالَ : سعمت أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ : رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عيله وَسَلَّمَ : أَتَانِي جِبْرِيلُ ، فَقَالَ : إِنَّ رَبَّكَ اتَّخَذَ فِي الْجَنَّةِ وَادِياً أَفْيَحَ مِنْ مِسْكٍ أَبْيَض ، فَإِذَا كَانَ يَوْم الْجُمُعَة من أَيَّامِ الْآخِرَةِ هَبَطَ الرَّبُّ مِنْ عَرْشِهِ إِلَى كُرْسِيِّهِ ... " .

وقال أيضاً : "وَقَدْ بَلَغَنَا أَنَّهم حِينَ حَمَلُوا الْعَرْشَ وَفَوْقَهُ الْجَبَّارُ فِي عِزَّتِهِ ، وَبَهَائِهِ ضَعُفُوا عَنْ حَمْلِهِ وَاسْتَكَانُوا ، وَجَثَوْا عَلَى رُكَبِهِمْ ، حَتَّى لُقِّنُوا "لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ، فَاسْتَقَلُّوا بِهِ بِقُدْرَةِ اللهِ وَإِرَادَتِهِ . لَوْلَا ذَلِكَ مَا اسْتَقَلَّ بِهِ الْعَرْشُ ، وَلَا الْحَمَلَةُ ، وَلَا السَّموات وَالْأَرْضُ ، وَلَا مَنْ فِيهِنَّ . وَلَوْ قَدْ شَاءَ لَاسْتَقَرَّ عَلَى ظَهْرِ بَعُوضَةٍ ، فَاسْتَقَلَّتْ بِهِ بِقُدْرَتِهِ وَلُطْفِ رُبُوبِيَّتِهِ ، فَكَيْفَ عَلَى عَرْشٍ عَظِيمٍ أَكْبَرَ مِنَ السَّموات السَّبْعِ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعِ ؟ وَكَيْفَ يُنْكِرُ أَيُّهَا النفاج أَن عَرْشه يقلهُ ... " (١) .

ومن المعلوم أنَّ ابن تيمية كان يوصي بقراءة كُتُب عثمان بن سعيد الدَّارمي (٢٨٠هـ) ، ويقول بأنَّ فيها مِنْ تَقْرِيرِ التَّوحيد ما ليسَ في غيرها ، قال الإمام ابن قيِّم الجوزية (٧٥١هـ) ، تلميذ ابن تيمية : " وَكَانَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ يُوصِي بِهَذَيْنَ الْكِتَابَيْنِ – أي : كتابَيْ عثمان بن سعيد الدَّارمي : الرَّدّ على الجهميَّة ، وكتاب الرَّدّ على بشر المريسي – أَشَدَّ الْوَصِيَّةِ وَيُعَظِّمُهُمَا جدّاً ، وَفِيهِمَا مِنْ تَقْرِيرِ التَّوحيد وَالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ بِالْعَقْلِ وَالنَّقْلِ مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهِمَا !!! " (٢) .

---

(١) انظر : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عزَّ وجلَّ من التَّوحيد (١/ ٤٢٥-٤٢٦) ، (١/ ٤٢٠-٤٢١) ، (١/ ٤٥٨) بالترتيب ، وانظر : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٣/ ٢٤٣) .

(٢) انظر : اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/ ٢٣١) .

وعثمان الدَّارمي هذا هو القائل : " ... لِأَنَّ الْحَيَّ الْقَيُّومَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ، وَيَتَحَرَّكُ إِذَا شَاءَ ، ويهبطُ ويرتفعُ إِذا شَاءَ ، وينقبض ، وَيَبْسُطُ ، وَيَقُومُ ، وَيَجْلِسُ إِذَا شَاءَ ؛ لِأَنَّ أَمَارَةُ مَا بَيْنَ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ التَّحَرُّكَ ، كُلُّ حَيٍّ مُتَحَرِّكٌ لَا مَحَالَةَ ، وَكُلُّ مَيِّتٍ غَيْرُ مُتَحَرِّكٍ لَا مَحَالَةَ " (١) .

وهذا كلامٌ صريحٌ في التَّجسيم الذي اشتهر به عثمان الدَّارمي ، فالنُّزول والمجيء والإتيان صفات منفيَّة عن الله تعالىٰ من طريق الحركة والانتقال التي هي انتقال من مكان إلىٰ مكان ، لأنَّ الحركة لا تتمّ إلَّا من خلال جسم ينتقل من مكان إلىٰ آخر ، والله تعالىٰ ليس جسماً ، وغير حالٍّ في مكان ... كما أنَّ كلامه يحمل تصريحاً قبيحاً بحلول الحوادث في الله تعالىٰ ، والعياذ بالله ...

وأبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدَّارمي السِّجستاني (٢٨٠هـ) ، هو غير الدَّارمي صاحب السُّنن المشهور الذي هو أبو محمَّد عبد الله بن عبد الرَّحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصَّمد الدَّارمي ، التَّميمي السَّمرقندي (٢٥٥هـ) ...

وها هو من لا يحيد عن أقوال الدَّارمي قيْد أُنمله : أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحرَّاني (٧٢٨هـ) يقول : " إِذَا تَبَيَّنَ هَذَا ، فَقَدْ حَدَثَ الْعُلَمَاءُ الْمَرْضِيُّونَ وَأَوْلِيَاؤُهُ الْمَقْبُولُونَ : أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولَ اللهَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُجْلِسُهُ رَبُّهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ مَعَهُ . رَوَىٰ ذَلِكَ محمَّد بْنُ فَضِيلٍ عَنْ لَيْثٍ عَنْ مُجَاهِدٍ ؛ فِي تَفْسِيرِ : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩] ، وَذَكَرَ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ أُخْرَىٰ مَرْفُوعَةٍ وَغَيْرِ مَرْفُوعَةٍ " .

وقال ابن تيمية أيضاً : " ... وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّه إِذَا جَاءَهُمْ وَجَلَسَ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ ، أَشْرَقَتْ الْأَرْضُ كُلُّهَا بِأَنْوَارِهِ " (٢) .

وقال إمامهم حافظ الحكمي (١٣٧٧هـ) : " ... عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُّ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : " إِنَّ اللهَّ يَنْزِلُ إِلىٰ السَّماء الدُّنيا ، وَلَهُ فِي كُلِّ سَمَاءٍ كُرْسِيٌّ ، فَإِذَا نَزَلَ إِلىٰ سَماءِ الدُّنيا جَلَسَ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ ثمَّ مَدَّ سَاعِدَيْهِ فَيَقُولُ : مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ غَيْرَ عَدِيمٍ وَلَا ظَلُومٍ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَتُوبُ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ ، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الصُّبْحِ ارْتَفَعَ فَجَلَسَ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ " . رَوَاهُ ابْنُ مَنْدَهْ " .

وقال أيضاً : " ... إِنَّ اللهَّ اتَّخَذَ فِي الْجَنَّةِ وَادِياً أَفْيَحَ مِنْ مِسْكٍ أَبْيَضَ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ نَزَلَ رَبُّنَا عزَّ وجلَّ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ أَعْلَىٰ ذَلِكَ الْوَادِي " .

وقال أيضاً : " ... فَآتِي رَبِّي وَهُوَ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ – أَوْ عَلَىٰ سَرِيرِهِ – فَيَتَجَلَّىٰ لِي رَبِّي ، فَأَخِرُّ لَهُ سَاجِداً " .

---

(١) انظر : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد علىٰ المريسي الجهمي العنيد فيما افترىٰ علىٰ الله عزَّ وجلَّ من التَّوحيد (١/ ٢١٥) .

(٢) انظر : مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٣٧٤) ، (٦/ ١٦٦) بالترتيب .

وقال أيضاً : " وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ أَنَّ جَعْفَراً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جَاءَهَا إِذْ هُمْ بِالْحَبَشَةِ يَبْكِي ، فَقَالَتْ : مَا شَأْنُكَ ؟ قَالَ : " رَأَيْتَ فَتًى مُتْرَفاً مِنَ الْحَبَشَةِ ، شَابّاً جَسِيماً مَرَّ عَلَى امْرَأَةٍ ، فَطَرَحَ دَقِيقاً كَانَ مَعَهَا ، فَنَسَفَتْهُ الرِّيحُ ، فَقَالَتْ: أَكِلُكَ إِلَى يَوْمِ يَجْلِسُ الْمَلِكُ عَلَى الْكُرْسِيِّ ، فَيَأْخُذُ لِلْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ " . رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ وَغَيْرُهُ " (١) .

وللعلم فإنَّ لفظة الجلوس لم يرد إطلاقها على الله لا في القرءان ولا في الحديث ، وهي إحدى بدع المجسِّمة التي أخذوها عن اليهود ...

ومن المعلوم يقيناً أنَّ العديد من عقائد المجسِّمة مأخوذة عن عقائد اليهود الذين ينسبون لله الجلوس على العرش ، والجسم ، والجوارح ، والأعضاء ، وغير ذلك ... ومع ذلك نسبوا أنفسهم زوراً وبُهتاناً للسَّلف الصَّالح ، والعياذ بالله تعالى ...

ومن تلك العقائد التَّجسيميَّة :

أَوَّلاً : أَنَّ اليَهُوْدَ يَنْسُبْوْنَ إلى الله تَعَالَى الصُّوْرَة ...

فقد جاء في (سفر التَّكوين ١: ٢٦) وَقَالَ اللهُ: «نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا ، فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّماء وَعَلَى الْبَهَائِمِ، وَعَلَى كُلِّ الأَرْضِ، وَعَلَى جَمِيعِ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ».

وجاء في (سفر التَّثنية ٤:١٥-١٦) : فَإِنَّكُمْ لَمْ تَرَوْا صُورَةً مَا يَوْمَ كَلمَكُمُ الرَّب فِي حُورِيبَ مِنْ وَسَطِ النَّارِ. لِئَلَّا تَفْسُدُوا وَتَعْمَلُوا لأَنْفُسِكُمْ تِمْثَالاً مَنْحُوتاً صُورَةَ مِثَالٍ مَا شِبْهَ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى .

وعلى سَنَن اليهود في نسبة الصُّورة وإضافتها إلى الله تعالى سار المتمسلفة ...

قال الإمام ابن تيمية (٧٢٨هـ) : " ... فقوله : " فإذا أنا بربِّي في أحسن صورة " ، صريحٌ في أنَّ الذي كان في أحسن صورة هو ربُّه " .

فماذا تقولون في هذا التَّشبيه ؟؟

وقال أيضاً : " ... أنَّ حديث أُم الطُّفيل نصٌّ في أنَّ الصُّورة كانت للمرئي ، حيث قال : سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذكر أنَّه رأى ربَّه في صورة شاب موفّر ، رِجْلاه في خضر ، عليه نعلان من ذهب ، على وجهه فراش من ذهب " (٢) .

---

(١) انظر : معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول (١/ ٢٩٥) ، (١/ ٣٢٠) ، (١/ ٣٣٢) ، (١/ ١٧٨) بالترتيب .

(٢) انظر : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (١/ ٣٥٨) ، (٧/ ٣٦٥) بالترتيب .

وهذا أيضاً ... ألا يُعتبر ما تضمَّنه الحديث تشبيهاً لله تعالىٰ بخلقه ؟!! أم ماذا هو ؟!! وألا يعتبر الحديث تحديداً لله تعالىٰ ؟ وألا يشتمل الحديث علىٰ كونه تعالىٰ متحيِّزاً ؟!! لأنَّ الشابَّ الأمرد لا يعيش إلَّا ضمن حيِّزٍ ، ثمَّ أليس الحديث لوناً من ألوان التَّجسيم بأبعاده الثَّلاثة من الطُّول والعَرْض والارتفاع ؟!! . مع أنَّ حديث أُم الطُّفيل هذا حديث باطل منكر ، حكم بضعفه الإمام أحمد ، قال القاضي أبو يعلىٰ (٤٥٨هـ) : " ورأيت فِي مسائل مهنا بن يحيىٰ الشَّامي (٢٦٠هـ) ، قَالَ : سألته يعني أَحْمَد عن حديث رواه ابن وهب ، عن عمرو بن الحرث ، عن سعيد بن أَبِي هلال ، أن مروان بن عثمان حدثه ، عن أُم الطُّفيل امرأة أَبِي بن كعب ، أنَّها قالت : سمعت النَّبيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يذكر أنَّه رأىٰ ربَّه فِي المنام فِي صورة شابٍّ موفر ، رجلاه فِي خضر ، عليه نعلان من ذهب ، عَلَىٰ وجهه فراش من ذهب " فحوَّل وجهه عنِّي ، وَقَالَ : هَذَا حديث منكر، وَقَالَ : لا نعرف هَذَا رجل مجهول يعني مروان بن عثمان ، فظاهر هَذَا التَّضعيف من أَحْمَد لحديث أُم الطُّفيل " (١) .

فالحديث موضوعٌ تالفٌ ، وقد ضعَّفه الإمام أحمد كما سبق ... (٢) .

---

(١) انظر : إبطال التأويلات لأخبار الصفات (١/ ١٤٠-١٤١) .

(٢) قال الأستاذ حسن السقَّاف في تخريجه للحديث : " هذا الحديث لا يثبت من ناحية سنده ومتنه من وجوه :

الأوَّل : رواه التِّرمذي في سننه (٥/ ٣٦٦) وحسَّنه ، والخطيب البغدادي في تاريخه (٨ / ١٥٢) ، وابن الجوزي في " الموضوعات " (١/ ١٢٥) ، والطَّبراني في " المعجم الكبير " (١/ ٣١٧) ، وأورده الحافظ السُّيوطي في كتابه " اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة " (١/ ٣١) ، وذكر أنَّ في سنده حمَّاد بن سلمة (١٦٧هـ) ، وقد روي الحديث عن حمَّاد بلفظ آخر ، كما قال السُّيوطي في " اللآلئ المصنوعة " (١/ ٣١) ، ذكر هذا اللفظ الحافظ الذَّهبي في " الميزان " ، وابن عدي في الكامل في الضُّعفاء ، ففي الميزان - أعني " ميزان الاعتدال " - (١/ ٥٩٣) ، قال : رأيت ربِّي جعداً أمرد عليه حلَّة خضراء . قلت : أورد الذَّهبي صدر الحديث الذي نحن بصدده والذي اضطرب فيه الرُّواة وماجوا اضطراباً عجيباً ، في كتابه القيِّم " سير أعلام النُّبلاء " (١٠/ ١١٣-١١٤) من طريق حمَّاد هذا ، وقال : وهو بتمامه في تأليف البيهقي (٤٥٨هـ) ، وهو خبر منكر ، نسأل الله السَّلامة في الدِّين .. ا.هـ . قلت : الإمام الحافظ البيهقي قال في كتابه " الأسماء والصِّفات " (ص ٣٠٠ بتحقيق المحدث الكوثري) : وقد روي من وجه آخر وكلها ضعيف . ا.هـ قلت : وهذا تصريحٌ من البيهقي بضعف طرق هذا الحديث ، وقول الذَّهبي معه بأنه منكر ، مع إيراد الحافظ السُّيوطي وابن الجوزي له في الموضوعات يثبت وضعه بلا شكٍّ ولا ريب . كما أنَّ الحافظ ابن خزيمة أطال في ردَّ أحاديث الصُّورة في كتابه في الصِّفات .

فإن قال قائل : قد حسَّن التِّرمذي الحديث بل قد صحَّحه في بعض الرِّوايات عنه ، قلنا : هذا لا ينفع لوجوه : منها : أنَّ التِّرمذي رحمه الله تعالىٰ متساهل في التَّصحيح والتَّحسين ، مثله مثل الحاكم رحمه الله في المستدرك ، يصحِّح الموضوعات ، كما هو مشهور عند أهل الحديث . ومنها : أنَّ تضعيف هؤلاء الحفاظ الذين ذكرناهم وهم جهابذة أهل الحديث الذين حكموا علىٰ الحديث بأنه منكر وموضوع وغير ذلك ، مقدَّم علىٰ تحسين التِّرمذي أو تصحيحه . ومنها : أنَّ الثَّابت من كلام التِّرمذي رحمه الله من نسخ سننه أنَّه قال : حسن غريب ، كما نقل ذلك

عنه الحافظ المزّي في " تحفة الأشراف " (٤/ ٣٨٢/ ٤) ، والمنذري في " التَّرغيب والتَّرهيب " ، وقد فصَّل القول في المسألة الحافظ ابن حجر العسقلاني حيث قال في كتابه : " النُّكت الظِّراف " المطبوع مع تحفة الأشراف معلقاً على قول التِّرمذي حسن غريب ما نصه : " حديث : أتاني ربِّي في أحسن صورة ... الحديث . قلت : قال محمَّد بن نصر المروزي في كتاب " تعظيم قدر الصَّلاة " : هذا حديث اضطرب الرُّواة في إسناده ، وليس يثبت عند أهل المعرفة " . ا.هـ كلام ابن حجر العسقلاني . وقال الحافظ ابن حجر في " تهذيب التَّهذيب " (٦ / ١٨٥ طبعة دار الفكر) : قال أبو زرعة الدِّمشقي : قلت لأحمد : إنَّ ابن جابر يحدِّث عن ابن اللجلاج عن عبد الرَّحمن بن عائش حديث : " رأيت ربِّي في أحسن صورة " ، ويحدث به قتادة ، عن أبي قلابة ، عن خالد بن اللجلاج ، عن ابن عباس ، قال : هذا ليس بشيء . ا.هـ وقال ابن الجوزي في كتابه " العلل المتناهية " (١/ ٣٤) عقب هذا الحديث : أصل هذا الحديث وطرقه مضطربة ، قال الدَّارقطني : كلُّ أسانيده مضطربة ليس فيها صحيح ا.هـ. قلت : والمضطرب من أقسام الضَّعيف كما هو معلوم ...

الوجه الثَّاني : هناك ألفاظ منكرة في متن الحديث تؤكِّد وضعه ، منها : إثبات الصُّورة لله تعالى ، وكذلك إثبات الكفِّ له سبحانه وتعالى عن ذلك ، وأنها بقدر ما بين كتفي سيِّدنا رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وإثبات علم ما في السَّماوات والأرض للنَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وغير ذلك ممَّا لا أودُّ الآن الإطالة بسرده ، فأقول مجيباً عن بعض هذه المسائل : أمَّا الأولى : فالله عزَّ وجلَّ ليست له صورة ، بلا شكٍّ ، وذلك لأنَّه بيَّن أنَّ المخلوقات ، ومنها الإنسان : مركَّبة من صورة ، وهو سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] ، إذ قال سبحانه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ * ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ *فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٦ – ٨] ، وأجمع أهل السنَّة على استحالة الصُّورة على الله عزَّ وجلَّ ، كما نقل ذلك الاجماع الشَّيخ الإمام عبد القاهر البغدادي في كتابه العظيم : " الفَرْقُ بَيْنَ الفِرَق " (ص ٣٣٢) ، وقال الشَّافعي (٢٠٤هـ) رحمه الله تعالى ورضي عنه ، كما في " سير أعلام النُّبلاء " ، و " الحِلية " (٩ / ١٠٥) ، و " آداب الشَّافعي " لابن أبي حاتم (٢٣١) ، وغير ذلك : الاجماع أكبر من الحديث المنفرد . ا هـ. أي أنَّ الاجماع إذا صادمه حديث آحاد أسقط الاحتجاج به ، بل يدلُّ ذلك على وضعه ، وأنه لا أصل له ، كما يقول الحافظ الخطيب البغدادي في كتابه : " الفقيه والمتفقِّه " (١ / ١٣٢) .

كما أنَّ قوله في الحديث : " فعلمت ما بين السَّماوات والأرض " تنقضه نصوص صحيحة صريحة ، منها : قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩] ، ، فالله عزَّ وجلَّ أوضح لنا وبيَّن أنَّ علمه بهذه الأشياء الموجودة في ظلمات الأرض ممَّا لا يعلمها إلَّا هو ، وأما الملائكة فكلٌّ منهم موكَّل بشيء محدود معلوم في السَّماء أو في الأرض ، أمَّا علم جميع وظائفهم ، وما في السَّماء والأرض فهو لله عزَّ وجلَّ . ومنها : قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحجرات: ١٨] ، فلو كان سيِّدنا محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم ذلك أيضاً لقال : " إنَّ الله ورسوله يعلمان غيب السَّماوات والأرض " . وفي الحديث الصَّحيح : سئل النَّبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أي البقاع خير ؟ فقال : " لا أدري " ، فقال السَّائل : أي البقاع شرّ ؟ فقال : " لا أدري " ، فسأل سيِّدنا جبريل ، فقال : لا أدري ، فسأل الله تعالى ، فأوحى إليه : إنَّ خير البقاع المساجد ، وشرّ البقاع الأسواق ... " (انظر : أقوال احفاظ المنثورة لبيان وضع حديث : " رأيت ربي في أحسن صورة ، مطبوع بذيل كتاب دفع شبه التشبيه لابن الجوزي ص٢٨١ فما بعدها .

ومن العجائب والغرائب أن يقوم ابن تيمية بتصحيح رواية الشَّاب الأمرد ، فقد قال في كتابه : " بيان تلبيس الجهميَّة : " كما في الحديث الصَّحيح المرفوع عن قتادة عن عكرمة عن ابن عبَّاس قال : قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ : " رأيت ربِّي في صورة شابٍّ أمرد له وفرة جعد قطط في روضة خضراء " (١) .

وقام المدعو حمود بن عبد الله بن حمود بن عبد الرَّحمن التُّويجري (١٤١٣هـ) ، بتصنيف كتاب سمَّاه : " عقيدة أهل الإيمان في خلق ءادم علىٰ صورة الرَّحمن " ، جاء فيه : " أنَّ الله جلَّ وعزَّ لما خلق السَّماء والأرض ، قال : نخلقُ بشراً بصورتنا ، فخلق آدم ... " .

وفي كتابه سالف الذِّكر نقل التُّويجري عن التَّوراة المحرَّفة ، فقال : " وأيضاً فهذا المعنىٰ عند أهل الكتاب من الكتب المأثورة عن الأنبياء كالتَّوراة فإنَّ في السِّفر الأوَّل منها : سنخلق بشراً علىٰ صورتنا يشبهها " .

وقال أيضاً : " ... وكذلك حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما أَنَّ موسىٰ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ضرب الحجر لبني إسرائيل فتفجَّر ، وقال : " اشربوا يا حمير " ، فأوحىٰ الله تبارك وتعالىٰ إليه : " عمدت إلىٰ خلقٍ من خلقي ، خلقتُهم علىٰ صُورتي ، فشبَّهتهم بالحمير " ، فما برح حتىٰ عُوتب " .

وقال أيضاً : " ... عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ : " من قاتل فليجتنب الوجه ، فإنَّ صورة وجه الإنسان علىٰ صورة وجه الرَّحمن " .

وقال أيضاً : " ... وثانيها : حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ، قال : " لا تقبِّحوا الوجه ، فإنَّ الله خلق آدم علىٰ صورة الرَّحمن " (٢) . وهذا نصٌّ صريحٌ في أَنَّ الله تعالىٰ خلق الإنسان

---

(١) انظر : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٧/ ٢٩٠) .

(٢) أخرجه ابن خزيمه في كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عزوجل (١/ ٨٥) ، وقال : " وقد افتتن بهذه اللفظة التي في خبر عطاء عالم ممن لم يتحر العلم وتوهموا أن إضافة الصورة إلىٰ الرحمن في هذا الخبر من إضافة صفات الذات ، فغلطوا في هذا غلطاً بيناً ، وقالوا مقالة شنيعة مضاهية لقول المشبهة ، أعاذنا الله وكل المسلمين من قولهم .

والذىٰ عندي في تأويل هذا الخبر إن صح من جهه النقل موصولاً فإن في الخبر عللاً ثلاثاً :

إحداهن : أن الثورىٰ قد خالف الأعمش في إسناده فأرسل الثورىٰ ولم يقل عن ابن عمر .

والثانية : أن الأعمش مدلس لم يذكر أنه سمعه من حبيب بن أبي ثابت .

والثالثة : أن حبيب بن أبي ثابت أيضاً مدلس لم يعلم أنه سمعه من عطاء سمعت إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد يقول ثنا أبو بكر بن عياش عن الأعمش قال قال حبيب بن أبي ثابت لو حدثني رجل عنك بحديث لم أبال أن أرويه عنك يريد لم أبال أن أدلسه .

قال أبو بكر ومثل هذا الخبر لا يكاد يحتج به علماؤنا من أهل الأثر لا سيما إذا كان الخبر في مثل هذا الجنس فيما يوجب العلم لو ثبت لا فيما يوجب العمل بما قد يستدل علىٰ صحته وثبوته بدلائل من نظر وتشبيه وتمثيل بغيره من سنن النبي من طريق الأحكام والفقه .

علىٰ صورة وجهه الذي هو صفة من صفات ذاته . وهذا النَّصُّ لا يحتمل التَّأويل ، وفيه أبلغُ ردٍّ علىٰ ابن خزيمة ، وعلىٰ كلِّ من تأَوَّل الحديث بتأويلات الجهميَّة المعطِّلة " (١) .

والكتاب المذكور قام بتقريظه الشَّيخ ابن باز ، حيث قال في تقريظه له :

بِسْمِ اللهِ الرَّحمن الرَّحِيمِ

المملكة العربيَّة السعوديَّة ... الرقم ٣٨٠/ خ

رئاسة إدارات البحوث العلميَّة والإفتاء والدَّعوة والإرشاد ... التَّاريخ ٣٠/ ٣/ ١٤٠٨هـ

الحمد لله وحده ، والصَّلاة والسَّلام علىٰ من لا نبي بعده ، وعلىٰ آله وأصحابه ومن اهتدىٰ بهداه ، أمَّا بعد : فقد اطَّلعتُ علىٰ ما كتبه صاحب الفضيلة الشَّيخ حمود بن عبد الله التُّويجري وفقه الله وبارك في أعماله ، فيما ورد من الأحاديث في خلق آدم علىٰ صورة الرَّحمن ، وسمَّىٰ مؤلَّفه في ذلك : " عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم علىٰ صورة الرَّحمن " ، فألفيته كتاباً قيِّماً !!! كثير الفائدة !!! قد ذكر فيه الأحاديث الصَّحيحة الواردة في خلق آدم علىٰ صورة الرَّحمن ، وفيما يتعلَّق بمجيء الرَّحمن يوم القيامة علىٰ صورته !!! وقد أجاد وأفاد !!! وأوضح ما هو الحقّ في هذه المسألة !!! وهو أَنَّ الضَّمير في الحديث الصَّحيح في خلق آدم علىٰ صورته يعود إلىٰ الله عزَّ وجلَّ !!! وهو موافق لما جاء في حديث ابن عمر : أَنَّ الله خلق آدم علىٰ صورة الرَّحمن . وقد صحَّحه الإمام أحمد ، وإسحاق بن راهويه ، والآجري ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، وآخرون من الأئمَّة رحمة الله عليهم جميعاً . وقد بيَّن كثيرٌ من الأئمَّة خطأ الإمام ابن خزيمة رحمه الله في إنكار عود الضَّمير إلىٰ الله سبحانه في حديث ابن عمر ، والصَّواب ما قاله الأئمة المذكورون وغيرهم في عود الضَّمير إلىٰ الله عزَّ وجلَّ ، بلا كيف ، ولا تمثيل ، بل صورة الله سبحانه تليق به وتناسبه كسائر صفاته ، ولا يشابهه فيها شيء من خلقه سبحانه وتعالىٰ ، كما قال عزَّ وجلَّ : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ – ٤] ، وقال عزَّ وجلَّ : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] ، وقال سبحانه : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] ، وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ﴾ [النحل: ٧٤] .

والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة ، والواجب علىٰ أهل العلم والإيمان إمرار آيات الصِّفات وأحاديثها الصَّحيحة كما جاءت ، وعدم التَّأويل لها بما يخالف ظاهرها ، كما درج علىٰ ذلك سلف الأمَّة وأئمَّتها ، مع

فإن صح هذا الخبر مسندا بأن يكون الأعمش قد سمعه من حبيب بن أبي ثابت وحبيب قد سمعه من عطاء بن أبي رباح وصح أنه عن ابن عمر علىٰ ما رواه الأعمش فمعنىٰ هذا الخبر عندنا أن إضافة الصورة إلىٰ الرحمن في هذا الخبر إنما هو من إضافة الخلق إليه " .

(١) انظر : عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم علىٰ صورة الرَّحمن (ص١٦) ، (ص٣١) ، (ص٧٦) ، (ص٢٧) ، (ص١٢٩) ، (ص٤٠) .

الإيمان بأَنَّ الله سبحانه ليس كمثله شيء ، في صورته ، ولا وجهه ، ولا يده ، ولا سائر صفاته ، بل هو سبحانه له الكمال المطلق من جميع الوجوه في جميع صفاته ، لا شبيه له ، ولا مثْل له ، ولا تكيَّف صفاته بصفات خلقه ، كما نصَّ علىٰ ذلك سلف الأمَّة وأئمَّتها من أصحاب النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأتباعهم بإحسان رحمهم الله جميعاً وجعلنا من أتباعهم بإحسان . ومن تأمَّل ما كتبه أخونا العلَّامة الشَّيخ حمود التُّويجري في هذا الكتاب وما نقله عن الأئمَّة اتَّضح له ما ذكرنا ، فجزاه الله خيراً ، وزاده من العلم والإيمان ، وجعلنا وإيَّاه وسائر إخواننا من أنصار السُّنَّة والقرآن ، إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه .

وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارك علىٰ عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وآله وأصحابه ومن استقام علىٰ نهجه إلىٰ يوم الدِّين .

عبد العزيز بن عبد الله بن باز

الرَّئيس العام لإدارات البحوث العلميَّة والإفتاء والدَّعوة والإرشاد (١)

وقال الدكتور المتوهبن المتمسلف محمَّد خليل هرَّاس في تعليقه علىٰ كتاب " التَّوحيد " لابن خزيمة : " فالصُّورةُ لا تُضاف إلىٰ الله كإضافة خلقه إليه ، لأنَّها وصفٌ قائمٌ به " (٢) . وقد رددتُ عليهم في هذه المسألة في رسالة منشورة بعنوان : " أقوالُ العلماء المنثورة في تنزيه الله عن الصُّورة " .

ثَانِيَاً : أَنَّ اليَهُوْدَ يَنْسُبْوْنَ إلى الله تَعَالَى الصَّوْتَ ...

فقد جاء في (سفر التَّكوين ٣: ٨) : وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الإِلهِ مَاشِيًا فِي الْجَنَّةِ .

وجاء في (سفر التَّثنية ٤: ١٢) : فَكَلَّمَكُمُ الرَّبُّ مِنْ وَسَطِ النَّارِ وَأَنْتُمْ سَامِعُونَ صَوْتَ كَلاَمٍ، وَلكِنْ لَمْ تَرَوْا صُورَةً بَلْ صَوْتًا.

وجاء في (سفر التَّثنية ٥: ٢٤) وَقُلْتُمْ: هُوَذَا الرَّبُّ إِلهُنَا قَدْ أَرَانَا مَجْدَهُ وَعَظَمَتَهُ، وَسَمِعْنَا صَوْتَهُ مِنْ وَسَطِ النَّارِ. هذَا الْيَوْمَ قَدْ رَأَيْنَا أَنَّ اللهَ يُكَلِّمُ الإِنْسَانَ وَيَحْيَا.

وجاء في (سفر التَّثنية ٥: ٢٥) : إِنْ عُدْنَا نَسْمَعُ صَوْتَ الرَّبِّ إِلهِنَا .

وجاء في (سفر التَّثنية ٥: ٢٦) : لأَنَّه مَنْ هُوَ مِنْ جَمِيعِ الْبَشَرِ الَّذِي سَمِعَ صَوْتَ اللهِ الْحَيِّ يَتَكَلَّمُ مِنْ وَسَطِ النَّارِ مِثْلَنَا وَعَاشَ؟

وجاء في (سفر الخروج ١٩: ٥) : وَأَمَّا مُوسَىٰ فَصَعِدَ إِلىٰ اللهِ. فَنَادَاهُ الرَّبُّ مِنَ الْجَبَلِ قَائِلاً: ... فَالآنَ إِنْ سَمِعْتُمْ لِصَوْتِي ...

(١) انظر : عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم علىٰ صورة الرحمن (ص٧-٨) .

(٢) انظر : هامش كتاب التَّوحيد وإثبات صفات الرب لابن خزيمة (ص٣٩) ، ط١٩٧٨م .

وجاء في (سفر الخروج ١٩: ١٩) : فَكَانَ صَوْتُ الْبُوقِ يَزْدَادُ اشْتِدَادًا جِدًّا، وَمُوسَىٰ يَتَكَلَّمُ وَاللهُ يُجِيبُهُ بِصَوْتٍ .

وجاء في (سفر أيوب ٣٧: ٥) : اَللهُ يُرْعِدُ بِصَوْتِهِ عَجَبًا.

وعلىٰ سَنَن اليهود في إثبات الصَّوت لله تعالىٰ ... سار من يدَّعون السَّلفيَّة ...

قال الإمام ابن تيمية : " وَجُمْهُورُ الْمُسْلِمِينَ يَقُولُونَ: إنَّ الْقُرْآنَ الْعَرَبِيَّ كَلَامُ اللهِ وَقَدْ تَكَلَّمَ اللهُ بِهِ بِحَرْفٍ وَصَوْتٍ " (١) .

وقال أيضاً : " كَمَا رَوَىٰ الْخَلَّالُ فِي كِتَابِ السُّنَّةِ ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ ، فِيمَا رَوَاهُ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ ، قَالَ : " لَمَّا سَمِعَ مُوسَىٰ كَلَامَ اللهَّ ، قَالَ : يَا رَبِّ هَذَا الْكَلَامُ الَّذِي أَسْمَعُ هُوَ كَلَامُكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ يَا مُوسَىٰ ، هُوَ كَلَامِي ، وإنَّما كَلَّمْتُكَ بِقُوَّةِ عَشَرَةِ آلَافِ لِسَانٍ ، وَلِي قُوَّةُ الْأَلْسُنِ كُلِّهَا ، وَأَنَا أَقْوَىٰ مِنْ ذَلِكَ ، وإنَّما كَلَّمْتُكَ عَلَىٰ قَدْرِ مَا يُطِيقُ بَدَنُكَ ، وَلَوْ كَلَّمْتُكَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا لَمِتَّ ، فَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إلىٰ قَوْمِهِ قَالُوا لَهُ : صِفْ لَنَا كَلَامَ رَبِّكَ . فَقَالَ : سُبْحَانَ اللهَّ ، وَهَلْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَصِفَهُ لَكُمْ ؟ قَالُوا : فَشَبِّهْهُ لَنَا !!! قَالَ : هَلْ سَمِعْتُمْ أَصْوَاتَ الصَّوَاعِقِ الَّتِي تُقْبِلُ فِي أَحْلَىٰ حَلَاوَةٍ سَمِعْتُمُوهَا ، فَكَأَنَّهُ مِثْلُهُ !!! "(٢) .

وقال أيضاً : " عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ أَنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا نُودِيَ مِنْ الشَّجَرَةِ ﴿ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ ﴾ [طه: ١٢] ، أَسْرَعَ الْإِجَابَةَ ، وَتَابَعَ التَّلْبِيَةَ ، وَمَا كَانَ ذَلِكَ إلَّا اسْتِئْنَاساً مِنْهُ بِالصَّوْتِ ، وَسُكُوناً إِلَيْهِ . وَقَالَ : إِنِّي أَسْمَعُ صَوْتَك ، وَأُحُسُّ حِسَّك ، وَلَا أَدْرِي مَكَانَك ، فَأَيْنَ أَنْتَ ؟!!! " (٣) .

وقال أيضاً : " وَاللهُ تَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ بِحُرُوفِهِ وَمَعَانِيهِ بِصَوْتِ نَفْسِهِ ، وَنَادَىٰ مُوسَىٰ بِصَوْتِ نَفْسِهِ ؛ كَمَا ثَبَتَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ . وَصَوْتُ الْعَبْدِ لَيْسَ هُوَ صَوْتُ الرَّبِّ ، وَلَا مِثْلُ صَوْتِهِ ؛ فَإِنَّ اللهَّ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ : لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ . وَقَدْ نَصَّ أَئِمَّةُ الْإِسْلَام أَحْمَد وَمَنْ قَبْلَهُ مِنْ الْأَئِمَّةِ عَلَىٰ مَا نَطَقَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مِنْ أَنَّ اللهَّ يُنَادِي بِصَوْتِ ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُهُ تَكَلَّمَ بِهِ بِحَرْفٍ وَصَوْتٍ لَيْسَ مِنْهُ شَيْءٌ كَلَاماً لِغَيْرِهِ ، لَا جِبْرِيلَ وَلَا غَيْرِهِ . وَأَنَّ الْعِبَادَ يَقْرَءُونَهُ بِأَصْوَاتِ أَنْفُسِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ ، فَالصَّوْتُ الْمَسْمُوعُ

---

(١) انظر : مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٥٥٦) .

(٢) انظر : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٤/ ١١) ، مجموع الفتاوىٰ (٦/ ١٥٤) ، درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٢٩٤) ، (٥/ ١٦٠) .

(٣) انظر : مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٤٠٨) ، شرح حديث النزول (ص٦١) .

مِنْ الْعَبْدِ صَوْتُ الْقَارِئِ ، وَالْكَلَامُ كَلَامُ الْبَارِئِ . وَكَثِيرٌ مِنْ الْخَائِضِينَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ لَا يُمَيِّزُ بَيْنَ صَوْتِ الْعَبْدِ وَصَوْتِ الرَّبِّ ... " (١) .

وقال إمامهم حافظ الحكمي (١٣٧٧هـ) : " قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " ... فَيَضَعُ اللهُ كُرْسِيَّهُ حَيْثُ يَشَاءُ مِنْ أَرْضِهِ ثمَّ يَهْتِفُ بِصَوْتِهِ فَيَقُولُ ... " (٢) .

وقال المدعو محمَّد خليل هرَّاس في تعليقه على كتاب التَّوحيد لابن خزيمة : " وأنَّ كلامه حروف وأصوات ، يسمعها من يشاء من خلقه " (٣) .

وقال الشَّيخ ابن عثيمين : " ... في هذا إثبات القول لله وأنَّه بحرف وصوت ؛ لأنَّ أصل القول لا بدَّ أن يكون بصوت ، ولو كان قولاً بالنَّفس لقيَّده الله كما قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ [المجادلة:٨] ، فإذا أطلق القول فلا بدَّ أن يكون بصوت " (٤) .

مع العلم أنَّ نسبة الصَّوت لله تعالى لم تأت لا في القرآن ، ولا في أيِّ حديث صحيح ... (٥) .

ثَالِثَاً : أَنَّ اليَهُوْدَ يُثْبِتُوْنَ لله النُّزُوْلَ بِمَعْنَى النُّقْلَة وَالحَرَكَة ...

فقد جاء في (سفر التَّكوين ٣: ٨) : وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الإِلهِ مَاشِيًا فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ، فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الإِلهِ فِي وَسَطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ.

وجاء في (سفر التَّكوين ١١: ٥) : فَنَزَلَ الرَّبُّ لِيَنْظُرَ الْمَدِينَةَ وَالْبُرْجَ اللَّذَيْنِ كَانَ بَنُو آدَمَ يَبْنُونَهُمَا .

وجاء في (سفر الخروج ١٣: ٢١) : وَكَانَ الرَّبُّ يَسِيرُ أَمَامَهُمْ نَهَارًا فِي عَمُودِ سَحَابٍ لِيَهْدِيَهُمْ فِي الطَّرِيقِ، وَلَيْلاً فِي عَمُودِ نَارٍ لِيُضِيءَ لَهُمْ. لِكَيْ يَمْشُوا نَهَارًا وَلَيْلاً.

وعلى سَنَن اليهود في إثبات الحركة والنُّقلة لله تعالى ... سار المتمسلفة ، فأثبتوا لله تعالى الحركة التي تعني الانتقال من مكان إلى مكان ...

قال الإمام ابن تيمية : " فمن نفى الصِّفات جعله كالأعمى الأصم الأبكم ، ومن قال : أنَّه لا يقبل لا هذا ولا هذا جعله كالجماد الذي هو دون الحيوان الأعمى الأصم الأبكم ، وهذا بعينه موجود في الأفعال ، فإنَّ

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٨٤-٥٨٥) .

(٢) انظر : معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول (٢/ ٨٠٣) .

(٣) انظر : هامش كتاب التَّوحيد وإثبات صفات الرب لابن خزيمة (ص١٣٨) .

(٤) انظر : مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشَّيخ محمَّد بن صالح العثيمين (١/ ٢١٢) .

(٥) انظر الأحاديث التي يستشهدون بها على إثبات الصوت لله تعالى والكلام عليها في كتاب : " إتحاف الكائنات " لمحمود خطاب السبكي " (ص٥٠ فما بعدها) ، بتحقيقنا .

الحركة بالذَّات مستلزمة للحياة وملزومة لها ، بخلاف الحركة بالعَرض كالحركة القسريَّة التَّابعة للقاسر ، والحركة الطبيعيَّة التي تطلب بها العين العود إلىٰ مركزها لخروجها عن المركز ، فإنَّ تلك حركة بالعَرض . والعقلاء متَّفقون علىٰ ما كان من الأعيان قابلاً للحركة فهو أشرف ممَّا لا يقبلها ، وما كان قابلاً للحركة بالذَّات فهو أعلىٰ مما لا يقبلها بالعَرض ، وما كان متحرِّكاً بنفسه كان أكمل من الموات الذي تحركه بغيره !!! " (١) .

وقال أيضاً : " أنَّه يَتَحَرَّكُ وَتَقُومُ بِهِ الْحَوَادِثُ وَالْأَعْرَاضُ ، فَمَا الدَّلِيلُ عَلَىٰ بُطْلَانِ قَوْلِنَا ؟ " (٢)

وقال الإمام ابن قيِّم الجوزيَّة : " وَقَدْ يُرَادُ بِالْحَرَكَةِ وَالِانْتِقَالِ مَا هُوَ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ ، وَهُوَ فِعْلٌ يَقُومُ بِذَاتِ الْفَاعِلِ يَتَعَلَّقُ بِالْمَكَانِ الَّذِي قَصَدَ لَهُ ، وَأَرَادَ إِيقَاعَ الْفِعْلِ بِنَفْسِهِ فِيهِ ، وَقَدْ دَلَّ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ عَلَىٰ أَنَّه سُبْحَانَهُ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَيَنْزِلُ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ ، وَيَأْتِي فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ ، وَيَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنيا ، وَيَنْزِلُ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ ، وَيَنْزِلُ إِلَىٰ الْأَرْضِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَيَنْزِلُ إِلَىٰ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَهَذِهِ أَفْعَالٌ يَفْعَلُهَا بِنَفْسِهِ فِي هَذِهِ الْأَمْكِنَةِ ، فَلَا يَجُوزُ نَفْيُهَا عَنْهُ بِنَفْيِ الْحَرَكَةِ وَالنَّقْلَةِ الْمُخْتَصَّةِ بِالْمَخْلُوقِينَ " (٣) .

ولم يقف مدَّعو السَّلفيَّة في هذه المسألة عند حدٍّ ، فقد سمحوا لعقولهم أن تسبح في بحر الوهم والتَّوهُّم ، حتىٰ سألوا أنفسهم هذا السُّؤال : هل يستلزم نزول الله – عزَّ وجلَّ – أن يخلو العرش منه أو لا ؟؟! فقد جاء في فتاوىٰ العقيدة للشَّيخ ابن عثيمين (١٤٢١هـ) : " وسئل فضيلته : هل يستلزم نزول الله – عزَّ وجلَّ – أن يخلو العرش منه أو لا ؟

فأجاب بقوله : نقول : أصل هذا السُّؤال تنطُّعٌ ، وإيراده غير مشكور عليه مورده ، لأنَّنا نسأل هل أنت أحرص من الصَّحابة علىٰ فهم صفات الله ؟ إنْ قال : نعم ، فقد كذب . وإن قال : لا . قلنا : فليسعك ما وسعهم ، فهم ما سألوا الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقالوا : يا رسول الله إذا نزل هل يخلو منه العرش ؟ وما لك ولهذا السُّؤال ، قل : ينزل واسكت . يخلو منه العرش أو ما يخلو ، هذا ليس إليك ، أنت مأمور بأنَّ تصدِّق الخبر !!! ولا سيَّما ما يتعلَّق بذات الله وصفاته ؛ لأنَّه أمرٌ فوق العقول فإذاً نقول : هذا السُّؤال تنطُّعٌ أصلاً لا يرد ، وكلّ إنسان يريد الأدب كما تأدَّب الصَّحابة مع رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنَّه لا يورده ، فإذا قدر أنَّ شخصاً ابتلي بأن وجد العلماء بحثوا في هذا واختلفوا فيه ، فمنهم من يقول : يخلو ، ومنهم

---

(١) انظر : درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٢٤١-٣٤٢) .

(٢) انظر : منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية (٢/ ٢٦٣) .

(٣) انظر : مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة (ص٤٧٣) .

من يقول : لا يخلو ، ومنهم من توقَّف ، فالسَّبيل الأقوم في هذا هو التوقُّف ، ثمَّ القول بأنَّه لا يخلو منه العرش ، وأضعف الأقوال : القول بأنَّه يخلو منه العرش ، فالتوقُّف أسلمها وليس هذا مما يجب علينا القول به ؛ لأنَّ الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يبيِّنه والصَّحابة لم يستفسروا عنه، ولو كان هذا مما يجب علينا أن نعتقده لبيَّنه الله ورسوله بأيِّ طريق ، ونحن نعلم أنَّه أحياناً يبيِّن الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحق من عنده ، وأحياناً يتوقَّف فينزل الوحي ، وأحياناً يأتي أعرابي فيسأل عن شيء ، وأحياناً يسأل الصَّحابة أنفسهم عن الشَّيء ، كل هذا لم يرد في هذا الحديث ، فإذا لو توقفنا وقلنا : الله أعلم فليس علينا سبيل ، لأنَّ هذا هو الواقع " (١) .

قلت : وهذا كلام غريب عجيب ، وكم في كلامهم من الغرائب والعجائب والمصائب والمعاطب !!! فإنَّ من نعتوه بشيخ الإسلام هو من قال هذا الكلام ، فقد ذكر في كتبه ما اعتبره وجعله ابن عثيمين تنطُّعاً أكثر من مرَّة ، كما أنَّ ابن عثيمين أشار في كلامه إلى أنَّ الصَّحابة الكرام لم يسألوا الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا السُّؤال ، وبالتَّالي فإنَّ من ذكر في كتبه هذا السُّؤال ، وسمح لنفسه به ، مخالفٌ لما كان عليه الصَّحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين ، كما أنَّ ابن عثيمين ذكر في معرض كلامه أنَّ المسألة أمرٌ فوق العقول ، فلماذا سمح مدَّعو السَّلفيَّة لعقولهم أن تسبح وتتكلَّم فيما لا طاقة للعقول إلى الولوج فيه ؟!!! ... والنَّتيجة : أنَّ ابن تيمية ليس سلفيّاً بشهادة ابن عثيمين ، فقد ذكر في كتبه غير مرَّة ما هو من باب التَّنطُّع المخالف لما كان عليه الصَّحابة ، من ذلك :

قال الإمام ابن تيمية : " وَالصَّوَابُ : قَوْلُ " السَّلَفِ ": أَنَّه يَنْزِلُ وَلَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ " . فابن تيمية ينسب ما قاله للسَّلف ، وابن عثيمين ينفي ذلك ...

وقال الإمام ابن تيمية أيضاً : " وَأَنَّهُ يَنْزِلُ إلَى السَّماء الدُّنيا وَلَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ " .

وقال أيضاً : " وَالْمَقْصُودُ هُنَا : الْكَلَامُ عَلَى مَنْ يَقُولُ : يَنْزِلُ وَلَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ ، وَإِنَّ أَهْلَ الْحَدِيثِ فِي هَذَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : مِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ أَنْ يُقَالَ : يَخْلُو أَوْ لَا يَخْلُو ، كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ الْحَافِظُ عَبْدُ الْغَنِيِّ (٦٠٠هـ) وَغَيْرُهُ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : بَلْ يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ . وَقَدْ صَنَّفَ عَبْدُ الرَّحمن بْنُ منده (٤٧٠هـ) مُصَنَّفاً فِي الْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ قَالَ : لَا يَخْلُو مِنْ الْعَرْشِ أَوْ لَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ – كَمَا تَقَدَّمَ بَعْضُ كَلَامِهِ – . وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ يَتَوَقَّفُ عَنْ أَنْ يَقُولَ يَخْلُو أَوْ لَا يَخْلُو . وَجُمْهُورُهُمْ عَلَى أَنَّه لَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ " (٢) .

---

(١) انظر : :مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشَّيخ محمَّد بن صالح العثيمين (١/ ٢٠٤-٢٠٥) .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى (٥/ ١٣٢ ، ٥/ ٢٤٢ ، ٥/ ٢٤٣) ، (٥/ ٣٦٧) (٥/ ٤١٤) .

قلت : وأين ما ادَّعاه ابن تيمية على الإمام ابن منده ، وهو القائل : " ... وَأَنَا متمسكٌ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، مُتَبَرِّئٌ إلى اللهِ مِنَ الشِّبْه وَالمِثْلِ وَالنِّدِّ وَالضِّدِّ وَالأَعضَاء وَالجِسْم وَالآلاَت ، وَمِنْ كُلِّ مَا يَنسُبه النَّاسبُوْنَ إِلَيَّ ، وَيَدَّعيه المدعُوْنَ عليَّ مِنْ أَنْ أَقُوْلَ فِي الله – تَعَالَى – شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ ، أَوْ قُلته ، أَوْ أَرَاهُ ، أَوْ أَتوَهَّمُه ، أَوْ أَصفه بِهِ " (١) . فإذا ثبت أنَّه قال ما نسبه له ابن تيمية ، فهو متناقض مع نفسه ، وكم في كلامهم من التَّناقض والتَّباين ، والعجائب والغرائب والمعاطب ...

وقال الإمام ابن تيمية أيضاً : " ثمَّ إِنَّ جُمْهُورَ أَهْلِ السُّنَّةِ !!! يَقُولُونَ : أَنَّه يَنْزِلُ وَلَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ " (٢)

وهنا ينسب ابن تيمية ما قاله لجمهور السَّلف ، مع أنَّ السَّلف لم يتكلَّم أحد منهم بما نَسبه ابنُ تيمية لجمهورهم ، فهذا كذبٌ بشهادة ابن عثيمين !!! ثمَّ إنَّ ابن تيمية لم يستند في كلامه على أيِّ حديث صحيح ، بل هو مجرَّد أقوال لعلماء ، ومتى كان الدِّين يُبنى على أقوال العلماء التي لا تستند في وجودها وصحَّتها لكتاب ولا لسُنَّة ؟!!! فلا حول ولا قوَّة إلَّا بالله ...

وقال الإمام ابن تيمية ما هو أعظم من قوله السَّابق ، فقد قال : " فمن أين في القرآن ما يدلُّ دلالة ظاهرة على أنَّ كلَّ متحرِّك مُحدَث أو مُمكن ؟!! وأنَّ الحركة لا تقوم إلَّا بحادث أو ممكن ؟!! وأنَّ ما قامت به الحوادث لم يخل منها ؟!! وأنَّ ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث ؟!! وأين في القرآن امتناع حوادث لا أوَّل لها ؟!! " (٣) .

ولأجل نصرة ما يعتقد مدَّعو السَّلفيَّة ، جيَّشوا جيوشهم ، وجاءوا بقضِّهم وقضيضهم ، ففتَّشوا ، ونقَّبوا ، وبحثوا في كلِّ صعيد ، فجمعوا كلَّ ما يتعلَّق بمسألة النُّزول ، من روايات صحيحة وتالفة وشاذَّة وباطلة ... لنصرة مذهبهم ، فقد ذكر إمامهم حافظ حكمي (١٣٧٧هـ) في كتابه : " معارج القبول بشرح سُلَّم الوصول إلى علم الأصول " العديد العديد من الرِّوايات التي تُضحك الثَّكلى ، مع زعمه بصحَّتها ، – مع أنَّ الكثير منها روايات وأحاديث تالفة ، كما قال محقِّق الكتاب المتمسلف !!! – ، ومن تلك الرِّوايات : " ... عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، قَالَ : " إِنَّ اللهَ يَنْزِلُ إلى السَّماء الدُّنيا ، وَلَهُ فِي كُلِّ سَمَاءٍ كُرْسِيٌّ !! فَإِذَا نَزَلَ إلى سَمَاءِ الدُّنيا جَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّهِ ثمَّ مَدَّ سَاعِدَيْهِ ، فَيَقُولُ : مَنْ ذَا الَّذِي

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (١٨/ ٣٥١) .

(٢) انظر : منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية (٢/ ٦٣٨) .

(٣) انظر : درء تعارض العقل والنقل (١/ ١١٨) .

يُقْرِضُ غَيْرَ عَدِيمٍ وَلَا ظَلُومٍ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَتُوبُ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ ، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الصُّبْحِ ارْتَفَعَ فَجَلَسَ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ " ، رَوَاهُ ابْنُ مَنْدَهْ ، قَالَ : وَلَهُ أَصْلٌ مُرْسَلٌ .

وَعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ الله عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، قَالَ : " يَنْزِلُ الله إِلىٰ سَمَاءِ الدُّنيا كُلَّ لَيْلَةٍ ، فَيَقُولُ جَلَّ جَلَالُهُ : هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ " . حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَأَبُو الْوَلِيدِ الطَّيَالِسِيُّ .

وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهَّ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، قَالَ : " إِنَّ اللهَّ يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلىٰ سَمَاءِ الدُّنيا لِثُلُثِ اللَّيْلِ ، فَيَقُولُ : أَلَا عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ، أَوْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ يَدْعُونِي فَأَغْفِرَ لَهُ ، أَلَا مُقَتَّرٌ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ، أَلَا مَظْلُومٌ يَسْتَنْصِرُنِي فَأَنْصُرَهُ ، أَلَا عَانٍ يَدْعُونِي فَأَفُكَّ عَنْهُ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ مَكَانَهُ حَتَّىٰ يَفِيءَ الْفَجْرُ ثُمَّ يَعْلُو رَبُّنَا عزَّ وجلَّ إِلىٰ السَّماء الْعُلْيَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ " . رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيُّ .

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ الله عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، قَالَ : " إِنَّ اللهَّ تَعَالَىٰ إِذَا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ نَزَلَ إِلىٰ سَمَاءِ الدُّنيا ثُمَّ بَسَطَ يَدَهُ ، فَقَالَ : مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ، حَتَّىٰ يَطْلُعَ الْفَجْرُ " . حَدِيثٌ حَسَنٌ رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وَرِجَالُهُ أَئِمَّةٌ ، وَرَوَاهُ أَبُو مُعَاوِيَةَ بِلَفْظِ : " إِنَّ اللهَّ تَعَالَىٰ يَفْتَحُ أَبْوَابَ السَّماء ثُمَّ يَهْبِطُ إِلىٰ السَّماء الدُّنيا ثُمَّ يَبْسُطُ يَدَهُ ، فَيَقُولُ : أَلَا عَبْدٌ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ حَتَّىٰ يَطْلُعَ الْفَجْرُ " .

وَعَنْ رِفَاعَةَ الْجُهَنِيِّ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهَّ ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِذَا مَضَىٰ نِصْفُ اللَّيْلِ أَوْ ثُلُثُ اللَّيْلِ نَزَلَ الله إِلىٰ سَمَاءِ الدُّنيا ، فَقَالَ : لَا أَسْأَلُ عَنْ عِبَادِي غَيْرِي ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ، حَتَّىٰ يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ " . حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ . وَعَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ الثَّقَفِيِّ رَضِيَ الله عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يَنْزِلُ الله إِلىٰ سَمَاءِ الدُّنيا كُلَّ لَيْلَةٍ ، فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ، هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ . وَأَنَّ دَاوُدَ خَرَجَ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، فَقَالَ : لَا يُسْأَلُ الله شَيْئاً إِلَّا أَعْطَاهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ سَاحِراً أَوْ عَشَّاراً " . رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِنَحْوِهِ . وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ الله عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهَّ ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يَنْزِلُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي آخِرِ ثَلَاثِ سَاعَاتٍ بَقِينَ مِنَ اللَّيْلِ ، يَنْظُرُ فِي السَّاعَةِ الْأُولَىٰ مِنْهُنَّ فِي الْكِتَابِ الَّذِي لَا يَنْظُرُ فِيهِ غَيْرُهُ ، فَيَمْحُو مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ، ثُمَّ يَنْظُرُ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ وَهِيَ مَسْكَنُهُ الَّذِي يَسْكُنُ ، لَا يَكُونُ مَعَهُ فِيهَا إِلَّا الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ وَالصِّدِّيقُونَ ، وَفِيهَا مَا لَمْ يَرَ أَحَدٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ ، ثُمَّ يَهْبِطُ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنَ اللَّيْلِ ، يَقُولُ : أَلَا مُسْتَغْفِرٌ فَأَغْفِرَ لَهُ ، أَلَا سَائِلٌ فَأُعْطِيَهُ ، أَلَا دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ " . رَوَاهُ عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ الدَّارِمِيُّ .

وَرَوَىٰ مُوسَىٰ بْنُ عُقْبَةَ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ يَحْيَىٰ بْنِ الْوَلِيدِ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ الله عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهَّ ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يَنْزِلُ الله كُلَّ لَيْلَةٍ إِلىٰ سَمَاءِ الدُّنيا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ ، فَيَقُولُ : أَلَا عَبْدٌ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ، أَلَا ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ يَدْعُونِي فَأَقْبَلَهُ ، فَيَكُونُ كَذَلِكَ إِلىٰ مَطْلِعِ الصُّبْحِ وَيَعْلُو عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ " . وَعَنْ أَبِي الْخَطَّابِ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّه قَالَ : وَقَدْ سُئِلَ عَنِ الْوِتْرِ : أُحِبُّ أُوتِرُ نِصْفَ اللَّيْلِ ، فَإِنَّ اللهَّ يَهْبِطُ مِنَ السَّماء السَّابِعَةِ إِلىٰ السَّماء الدُّنيا فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ مُذْنِبٍ ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ ، هَلْ مِنْ دَاعٍ ، حَتَّىٰ إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ ارْتَفَعَ " (١) .

وقد دفعت أمثالُ هذه الرِّوايات الحنابلةَ إلىٰ الغلوِّ والتَّعصُّب في مسألة النُّزول ، حتىٰ وقعوا في التَّجسيم البَحت ...

فقد صرَّح أئمَّتهم بأنَّ نزول الله تعالىٰ نزول حقيقي من علو إلىٰ سفلٍ ... ، قال إمامهم صدر الدِّين محمَّد بن علاء الدِّين عليّ بن محمَّد ابن أبي العزّ الحنفي ، الأذرعي الصَّالحي الدِّمشقي (٧٩٢هـ) : " ...التَّصْرِيحُ بِنُزُولِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلىٰ سَمَاءِ الدُّنيا ، والنُّزول الْمَعْقُولُ عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ إِنَّما يَكُونُ مِنْ عُلُوٍّ إِلىٰ سُفْلٍ " (٢) .

وقال إمامهم عبد الرَّحمن السَّعدي (١٣٧٦هـ) : " ونزوله سبحانه نزول حقيقي يليق بجلاله وعظمته ، ولا يصحُّ تحريف معناه إلىٰ غير ذلك من التَّحريفات الباطلة ، مثل قولهم : معنىٰ النُّزول : نزول أمره أو رحمته أو ملك من ملائكته ، فهذا من أبطل الباطل " (٣) .

وقال الشَّيخ ابن عثيمين (١٤٢١هـ) : " وأجمع السَّلف علىٰ ثبوت النُّزول لله ، فيجب إثباته له من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، وهو نزول حقيقي يليق بالله " (٤) .

وقال أيضاً : " ... فهذا ليس عند الإنسان شكٌّ في أنَّه نزول حقيقي " (٥) .

وقال أيضاً : " ... كذلك النُّزول إلىٰ السَّماء الدُّنيا حينما يبقىٰ ثلث الليل الآخر نؤمن به علىٰ أنَّه نزول حقيقي ... " (٦) .

---

(١) انظر : معارج القبول بشرح سلم الوصول إلىٰ علم الأصول (١/ ٢٩٥-٢٩٧) .

(٢) انظر : شرح العقيدة الطحاوية (ص٢٨٦) .

(٣) انظر : شرح رسالة في أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة (ص١١) .

(٤) انظر : تعليق مختصر علىٰ كتاب لمعة الاعتقاد الهادي إلىٰ سبيل الرشاد (ص٥٨) .

(٥) انظر : شرح العقيدة السفارينية (الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية) (ص٣٠٩) .

(٦) انظر : منهاج أهل السُّنَّة والجماعة في العقيدة والعمل (ص١٥) .

قلت : والنُّزول الحقيقي هو النُّزول المعهود الذي يعني انتقال الجسم بالحركة من مكان إلى مكان آخر ، وهو لا يتمّ إلا بثلاثة أركان : مكانٌ مُنتقلٌ منه ، ومكانٌ منتقلٌ إليه ، وجسمٌ منتقِلٌ بين المكانين ...

وقال المدعو خالد بن عبد الله بن محمَّد المصلح : " ونزوله هو نزول حقيقي ، ولا تقل : كيف ينزل ؟ ولا يشكل عليك ماهيَّة ذلك وحقيقته وكُنهه ، فإنَّك لم تكلَّف بذلك ، وإنَّما كلِّفت بأن تؤمن بكلِّ ما أخبر الله به عن نفسه ، وأخبر به رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه .

وتأويل النُّزول بغير ما دلَّ عليه ظاهر النَّصِّ !! كمن يقولون : تنزل رحمته ، أو ينزل ملك من الملائكة ، فإنَّ هذا خطأ كبير !!! وتحريف خطير للنصِّ ؛ لأنَّ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول : " ينزل ربُّنا تبارك وتعالىٰ كلّ ليلة إلى السَّماء الدُّنيا ، فيقول : هل من داعٍ فأجيبه ، هل من سائل فأعطيه ، هل من مستغفر فأغفر له " ، فهل يسوغ أن يقول هذا القول مَلكٌ من الملائكة ؟ " [1] . ونسي هذا المُسيكين أنَّ الحديث جاء في رواية أُخرىٰ بلفظ : " إنَّ الله يُمهِلُ حتىٰ يمضي شطر الليل الأوَّل ثمَّ يأمُرُ مُنادياً يُنادي : هل مِن داعٍ فَيُستجاب له ؟ وهل مِن مستغفر فَيُغفر له ؟ وهل مِن سائل فَيُعطىٰ ؟ " [2] . والحديث واضحٌ وصريحٌ ومحكمٌ ، ومؤيِّدٌ للتَّأويل الحقّ ، وهو أنَّ الله تعالىٰ يأمر مَلَكَاً من ملائكته الكرام بالنُّزول إِلَىٰ السَّماء ، يُنادي فيقول : هل مِن داعٍ فَيُستجاب له ؟ وهل مِن مستغفر فَيُغفر له ؟ وهل مِن سائل فَيُعطىٰ ؟ ...

---

(١) انظر : شرح لمعة الاعتقاد (٣/ ٢٤) .

(٢) قال الشَّيخ شعيب الأرنؤوط : " إسناده صحيح على شرط مسلم ، الأغر من رجاله ، وباقي رجاله رجال الشيخين . أبو عوانة : هو الوضاح بن عبد الله اليشكري ، وأبو إسحاق : هو عمرو بن عبد الله بن عبيد السبيعي . وأخرجه الدارقطني في " النُّزول " ص ١٣٤ و١٣٤-١٣٥ من طريق مُسَددٍ ، عن أبي عوانة ، بهذا الإسناد . وأخرجه ابن خزيمة في " التوحيد " ١/ ٢٩٣-٢٩٤ ، والآجري في " الشريعة " ص ٣١٠ من طريقين عن إسرائيل بن يونس بن أبي إسحاق ، عن جده ، به . وأخرجه مسلم (٧٥٨) (١٧٢) ، وابن أبي عاصم في " السُّنَّة " (٥٠٠) و (٥٠١) ، والنسائي في " عمل اليوم والليلة " (٤٨١) و (٤٨٢) ، وأبو يعلى (١١٨٠) و(٥٩٣٦) ، وابن خزيمة ١/ ٢٩٣-٢٩٤ و٢٩٤ ، وأبو عوانة ٢/ ٢٨٨-٢٨٩ ، وابن حبان (٩٢١) ، والآجري ص ٣٠٩ و٣١٠ ، والدارقطني ص ١٣١ و١٣٢ و١٣٣ و١٣٥ و١٣٥-١٣٦ و١٣٦-١٣٧ من طرق عن أبي إسحاق السبيعي ، به . وأخرجه ابن أبي عاصم (٥٠٢) ، وابن خزيمة ١/ ٢٩٥ و٢٩٦ و٣٠٨ ، وأبو عوانة ٢/ ٢٨٨ ، والدارقطني ص ١٣٧-١٣٨ و١٣٨-١٣٩ من طريق سليمان الأعمش ، عن أبي إسحاق السبيعي ، عن الأغر أبي مسلم ، عن أبي هريرة وحده . وأخرجه ابن أبي عاصم (٥٠٠) و (٥٠١) ، والدارقطني ١٣٨-١٣٩ من طريق حبيب بن أبي ثابت ، عن الأغر ، عنهما . وأخرجه ابن أبي عاصم (٥٠٢) ، وابن خزيمة ١/ ٢٩٥-٢٩٦ و٣٠٨ ، والآجري ص ٣٠٩ ، والدارقطني ص ١٣٧-١٣٨ من طريق حبيب بن أبي ثابت ، عن الأغر ، عن أبي هريرة وحده . انظر : هامش مسند أحمد ، (١٤/ ٥٢٩ حديث رقم٨٩٧٥) ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، وآخرون ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠١م .

وقد انتهى بهم الأمر في هذه المسألة إلى قياس الخالق على المخلوق ، حيث جعلوا الحركة أمارة ما بين الحيِّ والميِّت ، وفي ذلك قال الإمام ابن تيمية : " ... لأنَّ الحيَّ القيوم يفعل ما يشاء ، ويتحرَّك إذا شاء ، ويهبط ويرتفع إذا شاء ، ويقبض ويبسط ، ويقوم ويجلس إذا شاء ، لأنَّ أمارة ما بين الحي والميت التحرُّك ، كل حيٍّ متحرِّك لا محالة ، وكل ميِّت غير متحرِّك لا محالة " (١) .

وأنا أقول له : يا ابن تيمية : إنَّ الأرض جماد لا روح فيها ، وهي تتحرَّك ، ولا يخالف في ذلك إلَّا أعمى البصر والبصيرة ، تماماً كما فعل الشَّيخ ابن باز فألَّف كتاباً بعنوان : " الأدلَّة النَّقليَّة والعقليَّة على سكون الأرض وحركة الكواكب والنُّجوم " ، وما ألَّف هذا الكتاب الهالك المتهالك إلَّا لنصرة باطل مذهبه ، بالغشِّ والتَّدليس والكذب والخيانة والتَّلاعب بعقول الجهَّال والعميان ، فسبحان مقلِّب القلوب ، ومقسِّم العقول ...

وقد ذكر الله تعالى في الكتاب المجيد أنَّ الجبال تتحرَّك ، فقال : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل : ٨٨] . قال الإمام الشَّعراوي : " فليس غريباً الآن أن نعرف أنَّ للجبال حركة ، وإنْ كنَّا لا نراها ؛ لأنَّها ثابتة بالنِّسبة لموقعك منها ؛ لأنَّك تسير بنفس حركة سيرها ، كما لو أنَّك وصاحبك في مركب ، والمركب تسير بكما ، فأنت لا تدرك حركة صاحبك لأنَّك تتحرَّك بنفس حركته .

وقد شبَّه الله حركة الجبال بمرِّ السحاب، فالسَّحاب لا يمرُّ بحركة ذاتية فيه، إنَّما يمرُّ بدفْع الرِّياح، كذلك الجبال لا تمرُّ بحركة ذاتيَّة إنَّما بحركة الأرض كلّها، وهذا دليل واضح على حركة الأرض " (٢) .

وكذا صرَّح إمامهم الألباني بأنَّ نزول الله تعالى نزول حقيقي ، فقال : " فنزوله نزول حقيقي يليق بجلاله ، لا يُشبه نزول المخلوقين ، وكذلك دنوُّه عزَّ وجلَّ دنوٌّ حقيقي يليق بعظمته ، وخاص بعباده المتقرِّبين إليه بطاعته ، ووقوفهم بعرفة تلبية لدعوته عزَّ وجلَّ . فهذا هو مذهب السَّلف في النُّزول والدُّنو ، فكن على علم بذلك " (٣) ، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله ... فما قالوه ... مغالطة كبيرة ، لأنَّه لا بدَّ من الاحتكام للغة العربيَّة في معرفة معاني الآيات الكريمة ، وكذا الأحاديث النَّبويَّة الشَّريفة ... ولا يوجد في معاجم وقواميس اللغة معنى من المعاني كالذي قالوا ، فإنَّ قولهم لا مكان له من الإعراب في لغة العرب ، إلَّا إذا

---

(١) انظر : درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٥١) ، (٢/ ٧٢) ، شرح العقيدة الأصفهانية (ص٧٩) .

(٢) انظر : تفسير الشعراوي (١٥/ ٩٥٢٧) .

(٣) انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٦/ ١٠٨)

قلنا بتفويض الكيْف والمعنى ، وهم يأبون علينا ... بل يقولون بأنَّ التَّفويض من شرِّ أقوال أهل البدع والإلحاد ، كما قال ابن تيمية في " درء التَّعارض " ، قال : " فتبيَّن أنَّ قول أهل التَّفويض الذين يزعمون أنَّهم متَّبعون للسُّنَّة والسَّلف : من شرِّ أقوال أهل البدع والإلحاد !!! " (١) ، والعياذ بالله تعالى ...

بقي أمرٌ قاله الألباني ، وهو قوله : " وكذلك دنوُّه عزَّ وجلَّ دنوٌّ حقيقي يليق بعظمته " . والدُّنو الذي يقصده الألباني ومن معه من مدَّعي السَّلفيَّة : هو دنوُّ الله تعالى من محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وهم بذلك يفسِّرون الدُّنو والتَّدلي الواردين في سورة " النَّجم " ، وهم بتفسيرهم هذا مخالفون لجمهور أهل العلم ...

قال الإمام الطَّبري (٣١٠هـ) : " الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم ٨-٩] : يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : ثمَّ دَنَا جِبْرِيلُ مِنْ محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَدَلَّى إِلَيْهِ ، وَهَذَا مِنَ الْمُؤَخَّرِ الَّذِي مَعْنَاهُ التَّقْدِيمُ ، وإِنَّما هُوَ : ثمَّ تَدَلَّى فَدَنَا ، وَلَكِنَّهُ حَسُنَ تَقْدِيمُ قَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ [النجم : ٨] ، إِذْ كَانَ الدُّنُوُّ يَدُلُّ عَلَى التَّدَلِّي وَالتَّدَلِّي عَلَى الدُّنُوِّ، كَما يُقَالُ : زَارَنِي فُلَانٌ فَأَحْسَنَ ، وَأَحْسَنَ إِلَيَّ فَزَارَنِي ، وَشَتَمَنِي فَأَسَاءَ ، وَأَسَاءَ فَشَتَمَنِي لِأَنَّ الْإِسَاءَةَ هِيَ الشَّتْمُ : وَالشَّتْمُ هُوَ الْإِسَاءَةُ ، وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأويل ... ثمَّ ذكر من القائلين بذلك : الحسن البصري ، قتادة (١١٨هـ) ، والرَّبيع "(٢) .

وقال الإمام البغوي (٥١٦هـ) : قَوْلُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم : ٨-٩] ، اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَاهُ .

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَحْمَدَ الْمَلِيحِيُّ أَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللهَّ النَّعِيمِيُّ أَنَا محمَّد بن يوسف ثنا محمَّد بْنُ إِسْماعِيلَ ثَنَا محمَّد بن يوس ثنا أبو أسامة ثنا زَكَرِيَّا بْنِ أَبِي زَائِدَةَ عَنْ أبي الْأَشْوَعِ عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنْ مَسْرُوقٍ ، قَالَ : قُلْتُ لِعَائِشَةَ : فَأَيْنَ قَوْلُهُ ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم : ٨-٩] ؟ قَالَتْ : ذَلِكَ جِبْرِيلُ كَانَ يَأْتِيهِ فِي صُورَةِ الرَّجُلِ وَإِنَّهُ أَتَاهُ هَذِهِ الْمَرَّةَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي هِيَ صُورَتُهُ ، فَسَدَّ الْأُفُقَ .

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَحْمَدَ الْمَلِيحِيُّ أَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللهَّ النَّعِيمِيُّ أَنَا محمَّد بْنُ يُوسُفَ ثَنَا محمَّد بن إسماعيل ثنا طلق بن غنّام ثنا زَائِدَةُ عَنِ الشَّيْبَانِيِّ قَالَ : سَأَلْتُ زِرّاً عَنْ قَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ [النجم : ٩] ، قَالَ أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهَّ يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ أَنَّ محمَّدا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ .

فَمَعْنَى الْآيَةِ : ثمَّ دَنَا جِبْرِيلُ بَعْدَ اسْتِوَائِهِ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى مِنَ الْأَرْضِ ، فَتَدَلَّى فَنَزَلَ إلى محمَّد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَانَ مِنْهُ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ، بَلْ أَدْنَى ، وَبِهِ قَالَ ابن عبَّاس ، والحسن ، وقتادة (١١٨هـ) .

---

(١) انظر : درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٠٥) .

(٢) انظر : تفسير الطَّبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) (٢٢/ ١٣-١٤) .

وقيل : ﴿فِي الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ ، تَقْدِيرُهُ : ثمَّ تَدَلَّى فَدَنَا ، لِأَنَّ التَّدَلِّيَ سَبَبُ الدُّنُوِّ﴾ " (١) .

وعليه : فابن عبَّاس ، والحسن البصري ، وقتادة (١١٨هـ) ، والرَّبيع ... قالوا : إنَّ مسألة التَّدلِي مرتبطة بأمين الوحي جبريل عليه السَّلام ، وليس الأمر كما يعتقد مدَّعو السَّلفيَّة : أنَّ المتدلِّي هو الله تعالىٰ ، ... والذي ذكرناه هو قول جمهور المفسِّرين (٢) .

وأخيراً نقول : هل تأويل الإمام مالك (١٧٩هـ) لنزول الله تعالىٰ بنزول أمره كما سيأتي – من أبطل الباطل كما قال المتمسلفة ؟!!! وهل جمهور علماء الأمَّة ممَّن نقلنا عنهم في كتابنا " إِرْشَادُ الفُحُوْلِ إِلَىٰ مَا قَالَهُ أَسَاطِيْنُ العِلْمِ فِيْ تَنْزِيْهِ اللهِ عَنِ الحَرَكَةِ وَالنُّزُوْلِ " تأويل النُّزول بنزول أمره أو غيره من التَّأويلات المُراعية جلال الله تعالىٰ وعظمته وتنزيهه عن مشابهة الحوادث ... من أبطل الباطل ؟!!! ، وهل وقعوا في خطأ كبير ، وحرَّفوا الكلم عن مواضعه ؟!!! ... لقد استهوىٰ سلطانُ المخالفة هؤلاء ، وسيطر علىٰ كيانهم حتىٰ جعلوا – وعلىٰ الدَّوام – أقوالهم وأقوال علمائهم هي الصَّواب الذي لا يحتمل الخطأ ، وأقوال غيرهم ولو كانت مجموع الأمَّة خطأ لا يحتمل الصَّواب ...

فإذا كان هؤلاء مبتدعة ضالُّون محرِّفون للكَلِم عن موضعه – كما يزعم مدَّعو السَّلفيَّة – فمن بقي بعدهم من علماء الأمَّة الذين يعوَّل علىٰ كلامهم ؟!! ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم : ٣٦] ، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس : ٣] ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ [الصافات : ١٥٦] ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الصافات : ١٥٧] ، ولذا فإنَّ الواجب علىٰ علماء الأمَّة أن يوقفوا هؤلاء وأمثالهم عند حدِّهم ، فقد بغوا وطغوا في البلاد ، وأكثروا فيها الفساد ، ولبسوا لبوس المراوغة والعناد ، وتطاولوا علىٰ علماء الأمَّة بجهلهم وأموالهم وإعلامهم وكذا بالكُتب المزوَّقة التي تُوزَّع بالملايين فتُهدىٰ ولا تُباع في مختلف الأصقاع !!! ... فالواجب أن تجتمع الكلمة علىٰ التَّحذير منهم ، بكشف مخازيهم وضلالاتهم ، وعيوبهم ، وإفلاسهم العلمي ، فقد استغلُّوا غفلة النَّاس وجهلهم ، فعمدوا إلىٰ نشر ترَّهاتهم وخُزعبلاتهم التي أخمدها علماء الأمَّة في القرن الثَّامن الهجري ، وبقيت هامدة خامدة الأنفاس لا تقوىٰ علىٰ الحِراك حتىٰ القرن الثَّاني عشر ، فوجدت الهمج الرّعاع الأعراب الأجلاف الجهَّال الذين اعتنقوها واعتقدوها مرَّة ثانية بعد أسلافهم من الحشويَّة والمشبِّهة ، الذين طغوا في البلاد ، وأكثروا فيها الفساد ...

---

(١) انظر : معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) (٤/ ٣٠١-٣٠٢) .

(٢) انظر : الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٤/ ١٩٤) ، زاد المسير في علم التفسير (٤/ ١٨٥) ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦/ ٢٠١) ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٥/ ٣٢٣) ، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٥/ ٥٠١) ، ...

وبسبب جرأة من يزعمون ويدَّعون السَّلفيَّة في إظهار باطلهم ، فقد اضطرَّ العديد من علماء الأمَّة إلىٰ أن يكتبوا محاضر في العقائد الصَّحيحة ، حرصاً منهم علىٰ التَّصحيح والتَّصويب ، ونشر الحقِّ بين الأُمَّة وخاصَّة في أمور العقيدة ، ومن ذلك : المحضر الذي كتبه جماعة من أئمَّة الشَّافعية ، منهم : الشَّيخ أبو إسحاق الشِّيرازي (٤٧٦هـ) ، والإمام أبو بكر الشَّاشي (٥٠٧هـ) ، وغيرهما ، وهذا نصُّه :

بِسم اللهِّ الرَّحمن الرَّحِيم : يشْهد من ثَبت اسْمه وَنسبه ، وَصَحَّ نهجه ومذهبه ، واختبر دينه وأمانته ، من الْأَئِمَّة الْفُقَهَاء ، والأماثل الْعلمَاء ، وَأهل الْقُرْآن والمعدلين الْأَعْيَان ، وَكَتبُوا خطوطهم الْمَعْرُوفَة ، بعباراتهم المألوفة ، مسارعين إِلىٰ أَدَاء الْأَمَانَة ، وتوخَّوا فِي ذَلِك مَا تحظره الدّيانَة ، مَخَافَة قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٤٠] ، إِنَّ جمَاعَة من الحشويَّة والأوباش الرّعاع ، المتوسِّمين بالحنبليَّة ، أظهرُوا بِبَغْدَادَ من الْبدع الفظيعة والمخازي الشَّنيعة ، مالم يتسمح بِهِ ملحد فضلاً عَن موحِّد ، وَلَا تجوز بِهِ قَادِح فِي أصل الشَّرِيعَة ، وَلَا معطِّل ، ونسبوا كلَّ من ينزِّه الْبَارِي تَعَالَىٰ وَجلَّ عَن النَّقائص والآفات ، وينفي عَنهُ الْحُدُوث والتشبيهات ، ويقدِّسه عَن الْحُلُول والزَّوال ، ويعظمه عَن التَّغَيُّر من حَال إِلىٰ حَال ، وَعَن حُلُوله فِي الْحَوَادِث ، وحدوث الْحَوَادِث فِيهِ ، إِلىٰ الْكفْر والطغيان ، ومنَافاة أهل الْحق وَالْإِيمَان ، وتنَاهوا فِي قذف الْأَئِمَّة الماضين ، وثلب أهل الْحق وعصابة الدِّين ، ولعنهم فِي الْجَوَامِع والمشاهد والمحافل والمساجد والأسواق والطُّرقات وَالْخلْوَة وَالْجمَاعَات ، ثمَّ غرَّهم الطَّمع والإهمال ، ومدَّهم فِي طغيانهم الغيُّ والضَّلال ، إِلىٰ الطعْن فِيمَن يعتضد بِهِ أَئِمَّة الْهدىٰ ، وَهُوَ للشريعة العروة الوثقىٰ ، وَجعلُوا أَفعاله الدِّينِيَّة معاصي دنيَّة ، وترقّوا من ذَلِك إِلىٰ الْقدح فِي الشَّافِعِي (٢٠٤هـ) رَحْمَة الله عَلَيْهِ وَأَصْحَابه ، وَاتفقَ عود الشَّيخ الإِمَام الأوحد أَبِي نصر ابْن الْأُسْتَاذ الإِمَام زين الْإِسْلَام أَبي الْقاسم الْقشيرِي (٤١٨هـ) رَحْمَة اللهَّ عَلَيْهِ من مَكَّة حرسها اللهَّ ، فَدَعَا النَّاس إِلىٰ التَّوحيد ، وَقدَّس الْباري عَن الْحَوَادِث والتحديد ، فَاسْتَجَاب لَهُ أهل التَّحْقِيق ، من الصُّدُور الْفَاضِل السَّادة الأماثل ، وتمادت الحشويَّة فِي ضلالتها ، والإصرار علىٰ جهالتها ، وَأَبَوْ إِلَّا التَّصْرِيح بِأَنَّ المعبود ذُو قدم وأضراس ، ولهوات وأَنَامل ، وَأَنه ينزل بِذَاتِهِ ، ويتردَّد علىٰ حمَار فِي صُورَة شَاب أَمْرَد ، بِشعر قطط ، وَعَلَيهِ تَاج يلمع ، وَفِي رجلَيْهِ نَعْلَانِ من ذهب ، وَحفظ ذَلِك عَنْهُم ، وعلَّلوه ودوَّنوه فِي كتبهمْ ، وَإِلَىٰ الْعَوام أَلقوه ، وَأَنَّ هَذِهِ الْأَخْبَار لَا تَأْوِيل لَهَا ، وأَنَّها تجرىٰ علىٰ ظواهرها ، وتعتقد كَمَا ورد لَفظهَا ، وأَنَّه تَعَالَىٰ يتكَلَّم بِصَوْت كالرعد ، كصهيل الْخَيل ، وينقمون علىٰ أهل الْحق ، لقَولهم : إِنَّ اللهَّ تَعَالَىٰ مَوْصُوف بِصِفَات الْجلَال ... " (١) .

---

(١) انظر : تبيين كذب المفتري فيما نسب إلىٰ الإمام أبي الحسن الأشعري (ص٣١٠-٣١١) .

قلت : سبحان الله ... أحداث التَّاريخ تعود كما حدثت في السَّابق ... فأعمال هذه الشِّرذمة القليلة هي هيَ على مدار التَّاريخ ، فما وُجدوا في زمنٍ إلَّا أفسدوه ، ولا دخلوا بلداً إلَّا جعلوا أهله شِيَعاً وأحزاباً ، يلعنُ بعضُهم بعضاً ، ويسبُّ بعضُهم بعضاً ، ويكفِّرُ بعضُهم بعضاً ، ويطعنُ بعضهم بعضاً ... وإلَّا قل لي بربِّك : ماذا أفادت هذه الشِّرذمة أُمَّة الإسلام مُذ وجدت ؟!! ألسنا في كلِّ يوم نرجع القهقرى إلى الورى ؟!! فبعد أن كنَّا نناطح السَّحاب شموخاً وعزَّة وأنفة ، أصبحنا يُضرب بنا المثل في الخنوع والخضوع ، وصرنا في وضع لا نُحسد عليه ... لقد أنهكوا أهل العلم بالرَّدِّ على ترَّهاتهم وخزعبلاتهم ، بدلاً من أن تُوجَّه جُهودهم لنصرة الإسلام والرَّدِّ على كلِّ من يكيد للإسلام من خارج أبناء الأُمَّة ، ولكن أبى هؤلاء إلَّا أن يُوقفوا المسيرة ، ويكونوا مِعْوَلاً بيد أعداء الحقِّ لهدم الإسلام ، وهذا هو دَوْرُهم المرسُوم لهم ... ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم .

رَابِعَاً : أَنَّ اليَهود يُثْبِتُوْنَ القُعُوْدَ وَالجُلُوْسَ لله تَعَالَى ...

فقد جاء في (سفر أخبار الأيام الثاني ١٨ : ١٨) : وَقَالَ: «فَاسْمَعْ إِذًا كَلاَمَ الرَّبِّ. قَدْ رَأَيْتُ الرَّبَّ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيِّهِ، وَكُلُّ جُنْدِ السَّماءِ وُقُوفٌ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ.

وجاء في (سفر المزامير ٨:٤٧) اللهُ جَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ قُدْسِهِ .

وعلى سَنَن اليهود في إثبات القعود الجلوس لله تعالى ... سار المتمسلفة ، فأثبتوا لله تعالى الجلوس ...

قال إمامهم عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدَّارمي السجستاني (٢٨٠هـ) : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ رَجَاءٍ أبنا إِسْرَائِيلُ ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ خَلِيفَةَ قَالَ: "أَتَتِ امْرَأَةٌ إلى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: ادْعُ اللهَ أَنْ يُدْخِلَنِي الْجَنَّةَ، فَعَظَّمَ الرَّبَ. فَقَالَ: إِنَّ كُرْسِيَّهُ وَسِعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَإِنَّهُ لَيَقْعُدُ عَلَيْهِ، فَمَا يَفْضُلُ مِنْهُ إِلَّا قَدْرُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ، وَمَدَّ أَصَابِعَهُ الْأَرْبَعَ ، وَإِن لَهُ أطيطًا الرحل الْجَدِيد إِذْ رَكبه من يثقله" (١) .

---

(١) انظر : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عزَّ وجلَّ من التَّوحيد (١/ ٤٢٦) . قال المحقق : " الحَدِيث بِهَذَا الْإِسْنَاد ضَعِيف، فِيهِ عَبْدِ اللهَّ بْنِ خَلِيفَةَ. قَالَ عَنهُ الذَّهَبِيّ فِي الْمِيزَان ٢/ ٤١٤: "لَا يكَاد يعرف"، وَقَالَ عَنهُ ابْن حجر فِي التَّقْرِيب ١/ ٤١٢: "مَقْبُول" وَقَالَ الألباني فِي سلسلة الْأَحَادِيث الضعيفة ٢/ ٢٥٧: "لم يوثقه غير ابْن حبَان وتوثيقه لَا يعْتد بِهِ كَمَا بيّنت ذَلِك مرَارًا"، وَقَالَ ابْن كثير فِي تَفْسِيره ١/ ٣١٠: "لَيْسَ بذلك الْمَشْهُور، وَفِي سَماعه من عمر نظر، ثمَّ مِنْهُم من يرويهِ عَن عمر، مَوْقُوفا، وَمِنْهُم من يرويهِ مُرْسلا، وَمِنْهُم من يزِيد فِي مَتنه زِيَادَة غَرِيبَة، وَمِنْهُم من يحذفها، وَأغْرب مِنْهُ حَدِيث جُبَير بن مطعم فِي صفة الْعَرْش كَمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي كِتَابه السّنة من سننه وَالله أعلم" وَأورده ابْن خُزَيْمَة فِي التَّوْحِيد، مُرَاجعَة وَتَعْلِيق محمَّد هراس ص"١٠٦"، بِصِيغَة التمريض من طَرِيق عبد الله بن خَلِيفَة وَقَالَ: "وَقد رَوَاهُ وَكِيع بن الْجراح، عَن إِسْرَائِيل، عَن أبي إِسْحَاق عبد الله بن خَلِيفَة وَقَالَ:

وقال أيضاً : " وَقَدْ بَلَغَنَا أَنَّهم حِينَ حَمَلُوا الْعَرْشَ وَفَوْقَهُ الْجَبَّارُ فِي عِزَّتِهِ، وَبَهَائِهِ ضَعُفُوا عَنْ حَمْلِهِ وَاسْتَكَانُوا، وَجَثَوْا عَلَىٰ رُكَبِهِمْ، حَتَّىٰ لُقِّنُوا "لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ" فَاسْتَقَلُّوا بِهِ بِقُدْرَةِ اللهِ وَإِرَادَتِهِ. لَوْلَا ذَلِكَ مَا اسْتَقَلَّ بِهِ الْعَرْشُ، وَلَا الْحَمَلَةُ، وَلَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَلَا مَنْ فِيهِنَّ. وَلَوْ قَدْ شَاءَ لَاسْتَقَرَّ عَلَىٰ ظَهْرِ بَعُوضَةٍ فَاسْتَقَلَّتْ بِهِ بِقُدْرَتِهِ وَلُطْفِ رُبُوبِيَّتِهِ، فَكَيْفَ عَلَىٰ عَرْشٍ عَظِيمٍ أَكْبَرَ مِنَ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعِ ؟ وَكَيْفَ يُنْكَرُ أَيُّهَا النفاج أَن عَرْشه يقلّهُ اوالعرش أَكْبَرَ مِنَ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعِ؟ وَلَوْ كَانَ الْعَرْشُ فِي السَّمَوَات وَالْأَرضين مَا وسعته وكلنه فَوْقَ السَّماء السَّابِعَةِ " (١) .

وقال ابن تيمية مقِرّاً : " قَالَ ابْنُ حَامِدٍ: فَالْمَذْهَبُ عَلَىٰ مَا ذَكَرْنَا لَا يَخْتَلِفُ أَنَّ ذَاته تَنْزِلُ ... قَالَ: وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّه إِذَا جَاءَهُمْ وَجَلَسَ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ أَشْرَقَتْ الْأَرْضُ كُلُّهَا بِأَنْوَارِهِ " (٢) .

وجاء في " معارج القبول بشرح سلم الوصول إلىٰ علم الأصول " : " إِنَّ اللهَ يَنْزِلُ إِلىٰ السَّماء الدُّنيا وَلَهُ فِي كُلِّ سَمَاءٍ كُرْسِيٌّ فَإِذَا نَزَلَ إِلىٰ سَمَاءِ الدُّنيا جَلَسَ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ ثمَّ مَدَّ سَاعِدَيْهِ فَيَقُولُ: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ غَيْرَ عَدِيمٍ وَلَا ظَلُومٍ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَتُوبُ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الصُّبْحِ ارْتَفَعَ فَجَلَسَ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ " (٣) .

"قد رَوَاهُ وَكِيع بن الْجراح، عَن إِسْرَائِيلُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ عبد الله بن خَليفَة مُرْسلا لَيْسَ فِيهِ ذكر عمر بِيَقِين وَلَا ظن، وَلَيْسَ هَذَا الْخَبَرَ من شرطنا؛ لأَنَّه غير مُتَّصِل الْإِسْنَاد، لسنا نحتج فِي هَذَا الْجِنْس من الْعلم بالمراسيل المنقطعات".

وَأوردهُ الهيثمي فِي الْمجمع ١/ ٨٣ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِلَفْظ. الأطيط وَلَيْسَ فِيهِ الْعُقُود وَمِقْدَار الْأَصَابع وَقَالَ: رَوَاهُ الْبَزَّار وَرِجَاله رجال الصَّحِيح.

وَتعقب فِي الْهَامِش بِأَن فِيهِ عبد الله بن خَليفَة وَهُوَ مَجْهُول.

وَأوردهُ الألباني فِي سلسلة الْأَحَادِيث الضعيفة برقم ٨٦٦، ٢/ ٢٥٦) ... " .

(١) انظر : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد علىٰ المريسي الجهمي العنيد فيما افترىٰ علىٰ الله عزَّ وجلَّ من التَّوحيد (١/ ٤٥٨) . قال المحقق : " هَذَا غير صَحِيح، فَلَيْسَ الْعَرْش حَامِلا للرب وَلَا يقلهُ، بل الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مستغن عَن الْعَرْش وَغَيره من الْمَخْلُوقَات وَهُوَ الْحَامِل للعرش ولحملة الْعَرْش بقوته وَقدرته، وَهُوَ الَّذِي "يمسك السَّماوَات وَالْأَرْض أَن تَزُولَا وَلَئِن زالتا إِن أمسكهما من أحد من بعده أَنَّه كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا" وَمن الْمَعْلُوم بِالضَّرُورَةِ من دين الْمُرْسلين أَن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غَنِي عَن جَمِيع الْمَخْلُوقَات عين فَمَا دونهَا إِلَّا بِهِ سُبْحَانَهُ وَهُوَ الْغَنِيّ الحميد " .

(٢) انظر : مجموع الفتاوىٰ (٦/ ١٦٤- ١٦٦ باختصار) .

(٣) انظر : معارج القبول بشرح سلم الوصول إلىٰ علم الأصول (١/ ٢٩٥) .

وجاء فيه أيضاً : " فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ نَزَلَ رَبُّنَا عزَّ وجلَّ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ أَعْلَىٰ ذَلِكَ الْوَادِي وَقَدْ حُفَّ الْكُرْسِيُّ بِمَنَابِرَ مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلَةٍ بِالْجَوْهَرِ وَقَدْ حُفَّتْ تِلْكَ الْمَنَابِرُ بِكَرَاسِيَّ مِنْ نُورٍ " (١) .

وقال ابن تيمية : " إِذَا تَبَيَّنَ هَذَا فَقَدْ حَدَثَ الْعُلَمَاءُ الْمَرْضِيُّونَ وَأَوْلِيَاؤُهُ الْمَقْبُولُونَ: أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللهَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُجْلِسُهُ رَبُّهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ مَعَهُ. رَوَىٰ ذَلِكَ محمَّد بْنُ فَضِيلٍ عَنْ لَيْثٍ عَنْ مُجَاهِدٍ؛ فِي تَفْسِيرِ: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ [الإسراء:٧٩] ، وَذَكَرَ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ أُخْرَىٰ مَرْفُوعَةٍ وَغَيْرِ مَرْفُوعَةٍ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَهَذَا لَيْسَ مُنَاقِضًا لِمَا اسْتَفَاضَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ مِنْ أَنَّ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ هُوَ الشَّفَاعَةُ بِاتِّفَاقِ الْأَئِمَّةِ مِنْ جَمِيعِ مَنْ يَنْتَحِلُ الْإِسْلَامَ وَيَدَّعِيهِ لا يَقُولُ إنَّ إجْلَاسَهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ مُنْكَرًا ، وَإِنَّمَا أَنْكَرَهُ بَعْضُ الْجَهْمِيَّة وَلَا ذَكَرَهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ مُنْكَرٌ " (٢) .

وأنا أقول للإمام ابن تيمية ولمن يؤمن بعقيدة الإجلاس على العرش : لا ، لم يُحدِّث العلماءُ المرضيُّون ولا أولياؤه المقبولون بأنَّ محمَّداً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُجلسه ربُّه على العرش معه ، بل استنكروه واستعظموه ، ورجَّحوا ما جاء في الصَّحيح من تفسير المقام المحمود بالشَّفاعة العظمىٰ ، وهأنذا أسردُ عليك بعضاً من أقوالهم في استنكاره :

قال الإمام ابن عبد البر (٤٦٣هـ) : " ... عَلَىٰ هَذَا أَهْلُ الْعِلْمِ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِ اللهَّ عزَّ وجلَّ :﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ [الإسراء: ٧٩] ، أنَّه الشَّفَاعَةُ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ (١٠٤هـ) : أَنَّ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ أَنْ يُقْعِدَهُ مَعَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ الْعَرْشِ ، وَهَذَا عِنْدَهُمْ مُنْكَرٌ !!! فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ ، وَالَّذِي عَلَيْهِ جَمَاعَةُ الْعُلَمَاءِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْخَالِفِينَ : أَنَّ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ هُوَ الْمَقَامُ الَّذِي يَشْفَعُ فِيهِ لِأُمَّتِهِ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ مِثْلُ مَا عَلَيْهِ الْجَمَاعَةُ مِنْ ذَلِكَ ، فَصَارَ إِجْمَاعاً فِي تَأْوِيلِ الْآيَةِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْكِتَابِ والسُّنَّة . ذَكَرَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ عَنْ شَبَابَةَ عَنْ وَرْقَاءُ عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ في قوله : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ [الإسراء: ٧٩] ، قَالَ : شَفَاعَةُ محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " (٣) .

وعقيدة الإقعاد أو الإجلاس على العرش عقيدة باطلة ، قال الإمام الذَّهبي (٧٤٨هـ) : " فأمَّا قضيَّة قعود نبيِّنا على العرش ، فلم يثبت في ذلك نصٌّ !!! بل في الباب حديث واه " (٤) .

---

(١) انظر : معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول (١/ ٣٢٠) .

(٢) انظر : مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٣٧٤) .

(٣) انظر : التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (١٩/ ٦٤) .

(٤) انظر : مختصر العلو للعلي العظيم (ص١٨٣) .

ومجسِّمة الحنابلة هم من قالوا بعقيدة الإقعاد على العرش ، وهي عقيدة مزدكيَّة ، قال الإمام الكوثري (١٩٥٢م) : " ومن معتقد المزدقيَّة منهم – الثنويَّة – أنَّ المعبود قاعد على كرسيِّه في العالم الأعلى على هيئة قعود خسرو (الملك) في العالم الأسفل " (١) .

ومن المعلوم أنَّ الجلوس لم يرد إطلاقه على الله لا في الكتاب ولا في السُّنَّة الصَّحيحة ، ومع ذلك فقد أراق مجسِّمةُ الحنابلةِ لأجلها دماءَ الموحِّدين الرَّافضين لها ، وكفَّروا من لا يؤمن بها ، كما صنعوا مع الإمام التِّرمذي ، الذي أنكر عليهم هذه العقيدة التَّجسيميَّة التَّكفيرية ، فكفَّروه في غير ما مناسبة ، كما تجد ذلك في " كتاب السُّنَّة " للخلَّال ، والعياذ بالله تعالى ...

قال الإمام ياقوت الحموي (٦٢٦هـ) في ترجمة الإمام الطَّبري (٣١٠هـ) : " ... وقصده الحنابلة فسألوه عن أحمد بن حنبل في الجامع يوم الجمعة ، وعن حديث الجلوس على العرش ، فقال أبو جعفر : أمَّا أحمد بن حنبل فلا يعدُّ خلافه ، فقالوا له : فقد ذكره العلماء في الاختلاف ، فقال : ما رأيته روي عنه ، ولا رأيت له أصحاباً يعوّل عليهم ، وأمَّا حديث الجلوس على العرش فمُحال ، ثمَّ أنشد :

سبحان من ليس له أنيس   ولا له في عرشه جليس

فلمَّا سمع ذلك الحنابلة منه وأصحاب الحديث ، وثبوا ورموه بمحابرهم ... " (٢) .

وقال الإمام ابن الأثير (٦٣٠هـ) في " الكامل " أحداث سنة (٣١٧هـ) : " وَفِيهَا وَقَعَتْ فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ بِبَغْدَاذَ بَيْنَ أَصْحَابِ أَبِي بَكْرٍ الْمَرْوَزِيِّ الْحَنْبَلِيِّ (٢٧٥هـ) وَبَيْنَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْعَامَّةِ ، وَدَخَلَ كَثِيرٌ مِنَ الْجُنْدِ فِيهَا ، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ أَصْحَابَ الْمَرْوَزِيِّ قَالُوا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩] ، هُوَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يُقْعِدُ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهُ عَلَى الْعَرْشِ ، وَقَالَتِ الطَّائِفَةُ الْأُخْرَى : إِنَّما هُوَ الشَّفَاعَةُ ، فَوَقَعَتِ الْفِتْنَةُ وَاقْتَتَلُوا ، فَقُتِلَ بَيْنَهُمْ قَتْلَى كَثِيرَةٌ " (٣) .

ولم ينتبه غوغائيُّو الحنابلة إلى أنَّ عقيدة الإقعاد على العرش عقيدة تجسيميَّة بحتة ، خالفوا فيها جمهور الأمَّة الذي ذهب إلى نفيها واستنكارها ، قال الإمام أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثمَّ الدِّمشقي (٧٧٤هـ) في حوادث سنة (٣١٧هـ) : " وَفِيهَا وَقَعَتْ فِتْنَةٌ بِبَغْدَادَ بَيْنَ أَصْحَابِ أَبِي بكر المروذي الْحَنْبَلِيِّ ، وَبَيْنَ طَائِفَةٍ مِنَ الْعَامَّةِ ، اخْتَلَفُوا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾

---

(١) انظر : مقدِّمات الإمام الكوثري (ص٣٨) .

(٢) انظر : معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) (٦/ ٢٤٥٠) .

(٣) انظر : الكامل في التاريخ (٦/ ٧٤٦) .

[الإسراء: ٧٩] ، فَقَالَتِ الْحَنَابِلَةُ : يُجْلِسُهُ مَعَهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ . وَقَالَ الْآخَرُونَ : الْمُرَادُ بِذَلِكَ الشَّفَاعَةُ الْعُظْمَىٰ ، فَاقْتَتَلُوا بِسَبَبِ ذلك ، وقتل بينهم قتلىٰ ، فإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ : أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ : مَقَامُ الشَّفَاعَةِ العظمىٰ ، وهي الشَّفاعة في فصل القضاء بين العباد ، وَهُوَ الْمَقَامُ الَّذِي يَرْغَبُ إِلَيْهِ فِيهِ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ ، حَتَّىٰ إبراهيم ، وَيَغْبِطُهُ بِهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخَرُونَ " (١) .

وقال الإمام أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشَّافعي (٨٥٢هـ) : " قَالَ بن بَطَّالٍ (٤٤٩هـ) أَنْكَرَتِ الْمُعْتَزِلَةُ وَالْخَوَارِجُ الشَّفَاعَةَ فِي إِخْرَاجِ مَنْ أُدْخِلَ النَّارِ مِنَ الْمُذْنِبِينَ وَتَمَسَّكُوا بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ [المدثر: ٤٨] ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ وَأَجَابَ أَهْلُ السُّنَّة بِأَنَّهَا فِي الْكُفَّارِ ، وَجَاءَتِ الْأَحَادِيثُ فِي إِثْبَاتِ الشَّفَاعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ مُتَوَاتِرَةً ، وَدَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩] ، وَالْجُمْهُورُ عَلَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الشَّفَاعَةُ ، وَبَالَغَ الْوَاحِدِيُّ (٤٦٨هـ) فَنَقَلَ فِيهِ الْإِجْمَاعَ ، وَلَكِنَّهُ أَشَارَ إِلَىٰ مَا جَاءَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَزَيَّفَهُ !!! وَقَالَ الطَّبَرِيُّ : قَالَ أَكْثَرُ أَهْلِ التَّأويل : الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ هُوَ الَّذِي يَقُومُهُ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُرِيحَهُمْ مِنْ كَرْبِ الْمَوْقِفِ ، ثمَّ أَخْرَجَ عِدَّةَ أَحَادِيث فِي بَعْضُهَا التَّصْرِيحُ بِذَلِكَ وَفِي بَعْضِهَا مُطْلَقُ الشَّفَاعَةِ " (٢) .

وقال الشَّيخ محمَّد ناصر الدِّين الألباني (١٩٩٩م) في مقدِّمة العلو : " لو أنَّ المؤلِّف رحمه الله وقف عند ما ذكرنا لأحسن ، ولكنَّه لم يقنع بذلك ، بل سوَّد أكثر من صفحة كبيرة في نقل أقوال من أفتىٰ بالتَّسليم بأثر مجاهد في تفسير قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩] ، قال : يُجلسه أو يُقعده علىٰ العرش . بل قال بعضهم : أنا منكرٌ علىٰ كل من ردَّ هذا الحديث ، وهو عندي رجل سوء متَّهم ... بل ذكر عن الإمام أحمد (٢٤١هـ) أنَّه قال : هذا تلقَّته العلماء بقبول إلىٰ غير ذلك من الأقوال التي تراها في الأصل ، ولا حاجة بنا إلىٰ استيعابها في هذه المقدِّمة . وذكر في " مختصره " المسمَّىٰ بـ " الذَّهبيَّة " أسماء جمع آخرين من المحدِّثين سلَّموا بهذا الأثر ، ولم يتعقَّبهم بشيء هناك . وأمَّا هنا فموقفه مضطربٌ أشدّ الاضطراب !!! فبينما تراه يقول في آخر ترجمة محمَّد بن مصعب العابد عقب قول من تلك الأقوال (ص١٢٦) : فأبصر – حفظك الله من الهوىٰ – كيف آل الفكر بهذا المحدِّث إلىٰ وجوب الأخذ بأثر منكر " ... فأنت إذا أمعنت النَّظر في قوله هذا ، ظننت أنَّه ينكر هذا الأثر ولا يعتقده ، ويلزمه ذلك ولا يتردَّد فيه ، ولكنك ستفاجأ بقوله (ص١٤٣) بعد أن أشار إلىٰ هذا الأثر عقب ترجمة حرب الكرماني : وغضب العلماء لإنكار

---

(١) انظر : البداية والنهاية (١١/ ١٦٢) ، دار الفكر .

(٢) انظر فتح الباري (١١/ ٤٢٦) .

هذه المنقبة العظيمة التي انفرد بها سيِّد البشر ، ويبعد أن يقول مجاهد ذلك إلا بتوقيف ... " . ثمَّ ذكر أشخاصاً آخرين ممَّن سلَّموا بهذا الأثر غير من تقدَّم ، فإذا أنت فرغت من قراءة هذا ، قلت : لقد رجع الشَّيخ من إنكاره إلىٰ التَّسليم به ، لأنَّه قال : أنَّه لا يقال إلا بتوقيف ! ولكن سرعان ما تراه يستدرك علىٰ ذلك بقوله بعد سطور : ولكن ثبت في " الصِّحاح " أنَّ المقام المحمود هو الشَّفاعة العامَّة الخاصَّة بنبيِّنا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " . قلت : وهذا هو الحقُّ في تفسير المقام المحمود دون شكٍّ ولا ريب ، للأحاديث التي أشار إليها المصنِّف رحمه الله تعالىٰ ، وهو الذي صحَّحه الإمام ابن جرير في " تفسيره (١٥/ ٩٩) ثمَّ القرطبي (١٠/ ٣٠٩) وهو الذي لم يذكر الحافظ ابن كثير غيره ، وساق الأحاديث المشار إليها . بل هو الثَّابت عند مجاهد نفسه من طريقين عنه عند ابن جرير . وذاك الأثر عنه ليس له طريق معتبر ، فقد ذكر المؤلِّف (ص١٢٥) أنَّه روي عَنْ لَيْثِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ ، وعطاء بن السَّائب ، وأبي يحيىٰ القتَّات ، وجابر بن يزيد " . قلت : والأولان مختلطان ، والآخران ضعيفان ، بل الأخير متروكٌ متَّهم " (١) .

قلت : وفي كتابه : " السُّنَّة " أورد الخلَّالُ (٣١١هـ) عشرات الرِّوايات حولَ هذه المسألة ، حمل بعضُها الإغلاظ علىٰ من أنكرها ، وحكمت بعض الرِّوايات بكفر من ردَّها وأنكرها ، بعد أن اعتبروها فضيلة للرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، مع أنَّها روايات باطلة مُنْكرة (٢) ...

وقال القاضي أبو يعلىٰ ، محمَّد بن الحسين بن محمَّد بن خلف ابن الفرَّاء (٤٥٨هـ) : " وَذَكَرَ أَبُو عبد اللهَّ بْن بطَّة (٣٨٧هـ) فِي كتاب " الإبانة " ، قَالَ أَبُو بكر أحمد بْن سلمان النِّجاد (٣٤٨هـ) : لو أنَّ حالفاً حلف بالطَّلاق ثلاثاً : أنَّ اللهَّ تَعَالَىٰ : يُقْعدُ محمَّداً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه عَلَىٰ العرش واستفتاني فِي يمينه لقلت لَهُ : صدقت فِي قولك ، وبررت فِي يمينك ، وامرأتك عَلَىٰ حالها ، فهذا مذهبنا وديننا واعتقادنا !!! وعليه نشأنا !!! ونحن عَلَيْهِ إلىٰ أن نموت إن شاء اللهَّ !!! فلزمنا الإنكار عَلَىٰ من ردَّ هَذِهِ الفضيلة الَّتِي قالتها العلماء وتلقُّوها بالقبول ، فمن ردَّها فهو من الفرق الهـــالكة !!! "(٣) . فلا حول ولا قوَّة إلَّا بالله ، ونعوذ بالله من الخذلان ...

خَامِسَاً : أَنَّ اليَهُوْدَ يَنْسُبْوْنَ إلى الله تَعَالَى الوَجْهَ بِمَعْنَى الجَارِحَة ...

---

(١) انظر : مقدمة مختصر العلو للعلي العظيم (ص١٥-١٦) .

(٢) انظر في هذه المسألة : السُّنَّة للخلال (١/ ٢١٢-٢٥٩) .

(٣) انظر : إبطال التأويلات لأخبار الصفات (١/ ٤٨٥) .

فقد جاء في (سفر التكوين الإصحاح ٣٢ رقم ٣١) : وسمَّىٰ يعقوبُ ذلِكَ المَوضِعَ فنوئيل، وَقَالَ: لأنِّي رأيتُ اللهَ وَجهًا إلىٰ وَجهٍ ونَجَوْتُ بِحَيَاتي.

وجاء في (سفر التكوين الإصحاح ٣٣ رقم ١٠) : رأيتُ وجهَكَ فكأنِّي رأيتُ وجهَ الله .

وجاء في (سفر التثنيه الاصحاح ٥ رقم ٤) : وجهًا إلىٰ وجهٍ كلَّمَكُمُ الرّبُّ في الجبَلِ مِنْ وسَطِ النَّارِ ...

وجاء في (سفر المزامير الإصحاح ٣١ رقم ١٧) : أنِرْ بوجهِكَ علىٰ عبدِكَ .

وجاء في (سفر المزامير الإصحاح ٤٤ رقم ٤) : بل بيمِينِكَ وساعِدِكَ ونورِ وجهِكَ .

وعلىٰ سَنَن اليهود في إثبات الوجه لله تعالىٰ ... سار المتمسلفة ، فأثبتوا لله تعالىٰ الوجه بمعنىٰ الجارحة ...

قال الإمام أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدارمي السجستاني (٢٨٠هـ) : " وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨] نَفْسُهُ الَّذِي هُوَ أَحْسَنُ الْوُجُوهِ، وَأَجْمَلُ الْوُجُوهِ وَأَنْوَرُ الْوُجُوهِ، الْمَوْصُوفُ بِذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ هَذِهِ الصِّفَةَ غَيْرُ وَجْهِهِ، وَأَنَّ الْوَجْهَ مِنْهُ غَيْرُ الْيَدَيْنِ، وَالْيَدَيْنِ مِنْهُ غَيْرِ الْوَجْهِ عَلَىٰ رَغْمِ الزَّنَادِقَةِ والجهمية " (١) .

وقال الإمام ابن تيمية : " بَلْ إِثْبَاتُ جِنْسِ هَذِهِ الصِّفَاتِ قَدْ اتَّفَقَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا مِنْ أَهْلِ الْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ وَالتَّصَوُّفِ وَالْمَعْرِفَةِ وَأَئِمَّةُ أَهْلِ الْكَلَامِ مِنْ الْكُلَّابِيَة والكَرَّامِيَة وَالْأَشْعَرِيَّةِ كُلُّ هَؤُلَاءِ يُثْبِتُونَ للهِ صِفَةَ الْوَجْهِ وَالْيَدِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَقَدْ ذَكَرَ الْأَشْعَرِيُّ فِي كِتَابِ الْمَقَالَاتِ أَنَّ هَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَقَالَ: أَنَّه بِهِ يَقُولُ. فَقَالَ فِي جُمْلَةِ مَقَالَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَأَصْحَابِ الْحَدِيثِ: " جُمْلَةُ مَقَالَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَأَصْحَابِ الْحَدِيثِ: الْإِقْرَارُ بِكَذَا وَكَذَا وَأَنَّ اللهَ عَلَىٰ عَرْشِهِ اسْتَوَىٰ وَأَنَّ لَهُ يَدَيْنِ بِلَا كَيْفٍ كَمَا قَالَ: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] ، وَكَمَا قَالَ: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤] ، وَأَنَّ لَهُ عَيْنَيْنِ بِلَا كَيْفٍ كَمَا قَالَ: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر:١٤] ، وَأَنَّ لَهُ وَجْهًا كَمَا قَالَ: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧] (٢) .

وقال الشَّيخ ابن عثيمين : " والوجه: معناه معلوم، لكن كيفيَّته مجهولة، لا نعلم كيف وجه الله عزَّ وجلَّ ، كسائر صفاته، لكنَّا نؤمن بأنَّ له وجهاً موصوفاً بالجلال والإكرام، وموصوفاً بالبهاء والعظمة والنُّور العظيم " (٣) .

---

(١) انظر : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد علىٰ المريسي الجهمي العنيد فيما افترىٰ علىٰ الله عزَّ وجلَّ من التَّوحيد (٢/ ٧٠٩) .

(٢) انظر : مجموع الفتاوىٰ (٤/ ١٧٤) .

(٣) انظر : شرح العقيدة الواسطية (١/ ٢٨٣) .

وقال الشَّيخ ابن عثيمين أيضاً : " وأجمع السَّلف على إثبات الوجه لله تعالى فيجب إثباته له بدون تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل وهو وجه حقيقي يليق بالله " (١) .

وقال الشَّيخ عبد الرَّحمن بن حسن بن محمَّد بن عبد الوهَّاب بن سليمان التَّميمي : " ... قال فيأتون إلى الرَّحمن الرَّحيم فيسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه فإذا رأوه قالوا : اللهمَّ أنت السَّلام ومنك السَّلام وحقَّ لك الجلال والإكرام " (٢) ...

سَادِسَاً : أَنَّ اليَهُوْدَ يَنْسُبْوْنَ إلى الله تَعَالَى الفَم ...

فقد جاء في (سفر أيوب ٣٧: ٢) : اسْمَعُوا سَمَاعًا رَعْدَ صَوْتِهِ وَالزَّمْزَمَةَ الْخَارِجَةَ مِنْ فِيْهِ .

وعلى سَنَن اليهود في إثبات الفَم لله تعالى ... سار المتمسلفة ، فأثبتوا لله تعالى الفَم ...

قال إمامهم أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدَّارمي السِّجستاني (٢٨٠هـ) : " قَرَأْتُ عَلَى أَبِي الْيَمَانِ ، قُلْتُ : أُخْبِرُكُمْ شُعَيْبٌ ، عَنِ الزُّهْرِيِّ ، قَالَ : أَخْبَرَنِي أَبُو بَكْرِ بْنُ عَبْدِ الرَّحمن بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ ، أَنَّه أَخْبَرَهُ جَزْءُ بْنُ جَابِرٍ الْخَثْعَمِيُّ ، أَنَّه سَمِعَ كَعْبَ الْأَحْبَارِ !!! يَقُولُ : " لَمَّا كَلَّمَ اللهُ مُوسَى بِالْأَلْسِنَةِ كُلِّهَا قَبْلَ لِسَانِهِ ، طَفِقَ مُوسَى يَقُولُ : أَيْ رَبِّ ، مَا أَفْقَهُ هَذَا ، حَتَّى كَلَّمَهُ آخِرَ الْأَلْسِنَةِ بِلِسَانِهِ بِمِثْلِ صَوْتِهِ ، يَعْنِي بِمِثْلِ لِسَانِ مُوسَى ، وَبِمِثْلِ صَوْتِ مُوسَى ... فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ قَدْ رُوِيَتْ ، وَأَكْثَرُ ، مِنْهَا مَا يُشْبِهُهَا ، كُلُّهَا مُوَافِقَةٌ لِكِتَابِ اللهَّ فِي الْإِيمَانِ بِكَلَامِ اللهَّ " (٣) .

وقال أيضاً : " وَأُخْرَى أَنَّ الْكَلَامَ لَا يَقُومُ بِنَفْسِهِ شَيْئاً يُرَى ويحس إِلَّا بِلِسَانِ مُتَكَلِّمٍ بِهِ " .

وقال أيضاً : " وَهُوَ يَعْلَمُ الْأَلْسِنَةَ كُلَّهَا وَيَتَكَلَّمُ بِهَا شَاءَ مِنْهَا: إِنْ شَاءَ تَكَلَّمَ بِالْعَرَبِيَّةِ وَإِنْ شَاءَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ ، وَإِن شَاءَ بالسُّرْيَانيَّة " (٤) .

وقال أيضاً : " قَرَأْتُ عَلَى أَبِي الْيَمَانِ، قُلْتُ: أُخْبِرُكُمْ شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو بَكْرِ بْنُ عَبْدِ الرَّحمن بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، أَنَّه أَخْبَرَهُ جَزْءُ بْنُ جَابِرٍ الْخَثْعَمِيُّ، أَنَّه سَمِعَ كَعْبَ الْأَحْبَارِ، يَقُولُ: " لَمَّا كَلَّمَ اللهُ مُوسَى بِالْأَلْسِنَةِ كُلِّهَا قَبْلَ لِسَانِهِ، طَفِقَ مُوسَى يَقُولُ: أَيْ رَبِّ، مَا أَفْقَهُ هَذَا، حَتَّى كَلَّمَهُ آخِرَ الْأَلْسِنَةِ بِلِسَانِهِ بِمِثْلِ صَوْتِهِ، يَعْنِي بِمِثْلِ لِسَانِ مُوسَى، وَبِمِثْلِ صَوْتِ مُوسَى ... قَالَ أَبُو سَعِيدٍ رَحِمَهُ اللهُ: فَهَذِهِ

---

(١) انظر : تعليق مختصر على كتاب لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد (ص٤٨) .

(٢) انظر : كتاب التَّوحيد وقرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين (ص١٨٧) .

(٣) انظر : الرد على الجهمية (ص١٧٨-١٧٩) .

(٤) انظر : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عزَّ وجلَّ من التَّوحيد (١/ ٥٦٦) .

الْأَحَادِيثُ قَدْ رُوِيَتْ، وَأَكْثَرُ، مِنْهَا مَا يُشْبِهُهَا، كُلُّهَا مُوَافِقَةٌ لِكِتَابِ اللهَّ فِي الْإِيمَانِ بِكَلَامِ اللهَّ، وَلَوْلَا مَا اخْتَرَعَ هَؤُلَاءِ الزَّائِغَةُ مِنْ هَذِهِ الْأُغْلُوطَاتِ وَالْمَعَانِي يَرُدُّونَ بِهَا صِفَاتِ اللهَّ، وَيُبَدِّلُونَ بِهَا كَلَامَهُ، لَكَانَ مَا ذَكَرَ اللهُّ مِنْ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ كَافِيًا لِجَمِيعِ الْأُمَّةِ، مَعَ أَنَّه كَمَيْلٍ شَافٍ إِلَّا لِمُتَأَوِّلِ ضَلَالٍ، أَوْ مُتَّبِعِ رِيبَةٍ، فَحِينَ رَأَيْنَا ذَلِكَ أَلَّفْنَا هَذِهِ الْآثَارِ عَنْ رَسُولِ اللهَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ، لِيَعْلَمَ مَنْ بَقِيَ مِنَ النَّاسِ أَنَّ مَنَ مَضَىٰ مِنَ الْأُمَّةِ لَمْ يَزَالُوا يَقُولُونَ فِي ذَلِكَ كَمَا قَالَ اللهُّ عَزَّ وَجَلَّ، لَا يَعْرِفُونَ لَهُ تَأْوِيلًا غَيْرَ مَا يُتْلَىٰ مِنْ ظَاهِرِهِ أَنَّه كَلَامُ الرَّحمن تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، حَتَّىٰ نَبَغَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اقْتَرَبُوا لَرَدِّ كِتَابِ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَعْطِيلِ كَلَامِهِ وَصِفَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ بِهَذِهِ الْأُغْلُوطَاتِ " (١) .

وقال الإمام أبو الحسين ابن أبي يعلىٰ الفرَّاء ، محمَّد بن محمَّد (٥٢٦هـ) : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] ، من فِيْه ، وناوله التَّوراة من يده إلىٰ يده " (٢) .

وقال أيضاً : " حديث آخر : رَوَاهُ أَبُو بكر أحمد بْن سلمان النجاد فِي السنَّة، عَنْ عَبْدِ اللهَّ بْن أحمد قَالَ: نا معمر، قَالَ: نا وكيع، عَن مُوسَىٰ بْن عبيد، عَن محمَّد بْن كعب، قَالَ: كأنَّ النَّاس إِذَا سمعوا القرآن من فِيْ الرَّحمن عزَّ وجلَّ يوم القيامة، فكأنَّهم لَمْ يسمعوه قبل ذلك .

وناه أَبُو محمَّد الحسن بْن محمد، قَالَ: نا عمر بْن أحمد بْن عثمان، قَالَ: نا محمَّد بْن هارون بْن حميد، قَالَ: نا عثمان بْن أَبِي شيبة، قَالَ: نا وكيع، قَالَ: نا مُوسَىٰ بْن عبيدة، قَالَ: سمعت محمَّد بْن كعب القرظي يقول: إِذَا سمع القرآن من فِيْ الرَّحمن فِي القيامة فكأنَّهم لَمْ يسمعوه قبل ذلك .

ونا أَبُو القسم عبد العزيز بِإِسْنَادِهِ، عَن أَبِي هريرة، قَالَ: قَالَ رَسُول اللهَّ صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " كأنَّ الخلق لَمْ يسمعوا القرآن حين سمعوه من فِيْهِ يوم القيامة " اعلم أنَّه غير ممتنع إطلاق الفيْ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ، كَمَا لَمْ يمتنع إطلاق اليد والوجه والعين .

وقد نصَّ أحمد عَلَىٰ ذلك فِي رسالة أَبِي العبَّاس أحمد بْن جعفر الفارسي فَقَالَ: كلَّم اللهَّ مُوسَىٰ تكليماً من فِيْهِ ، فإن قِيلَ: هَذَا الحديث ضعيف يرويه مُوسَىٰ بْن عبيدة، وَقَالَ يَحْيَىٰ بْن سعيد القطان: مُوسَىٰ بْن عبيدة ضعيف ، قيل: هَذَا غلط، لأَنَّ مُوسَىٰ بْن عبيدة رجل من أهل الرّبذة لا بأس به، وقد روي عَنْهُ وكيع وَهُوَ من أئمَّة أصحاب الحديث وأمَّا محمَّد بْن كعب: فهو من علماء التَّابعين بالتَّفسير والفتيا، وأبوه كعب بْن سليمان من الصَّحابة فإن قِيلَ: فنتأوَّل قوله: " من فِيْ الرَّحمن " معناه من الرَّحمن قيل: هَذَا غلط، لأَنَّه

---

(١) انظر : الرد علىٰ الجهمية (١/ ٥٤٦) ، (ص١٧٨-١٧٩) بالترتيب .

(٢) انظر : طبقات الحنابلة (١/ ٢٩) .

يتضمَّن حذف صفة قد ورد الخبر بها، وعلى أنَّه إن جاز هَذَا التَّأويل وجب مثله فِي قوله : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] معناه بذاتي ويكون ذكر اليد زائد، وكذلك قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧] ، وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨] المراد به: ذاته، وليس المراد به الوجه الَّذِي هُوَ صفة، ولما لَمْ يجز هَذَا هناك كذلك ها هنا، ولأن هَذَا يؤدِّي إلى جواز القول بأنَّ لله فِيّ ، وأنَّه يجوز أن يدعى فيقال: يَا فِيّ اغفر لنا، وَهَذَا لا يجوز، فامتنع أَنْ يَكُونَ المراد بالفِيّ الذَّات، لأنَّه لا يجوز وصفه ودعاءه بذلك " (١) ...

سَابِعَاً : أَنَّ اليَهُوْدَ يَنْسُبْوْنَ إلى الله تَعَالَى القَدَمَ التِي بِهَا يَتَحَرَّك ...

فقد جاء في (سفر الخروج ١٣: ٢١) : وَكَانَ الرَّبُّ يَسِيرُ أَمَامَهُمْ نَهَارًا فِي عَمُودِ سَحَابٍ لِيَهْدِيَهُمْ فِي الطَّرِيقِ، وَلَيْلاً فِي عَمُودِ نَارٍ لِيُضِيءَ لَهُمْ .

وجاء في (سفر التكوين ٣: ٨) : وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الإِلهِ مَاشِيًا فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ .

وعلى سَنَن اليهود في إثبات القَدم لله تعالى ... سار المتمسلفة ، فأثبتوا لله تعالى القَدم ...

قال الإمام أبو الحسين ابن أبي يعلى، محمَّد بن محمَّد (٥٢٦هـ) : " والله عزَّ وجلَّ على العرش والكرسي موضع قدميه ، وهو يعلم ما في السَّموات والأرضين السَّبع وما بينهما وما تحت الثَّرى " (٢) .

وقال الشَّيخ محمَّد بن صالح بن محمَّد العثيمين (١٤٢١هـ) : " والسَّماوات والأرض كلّها بالنِّسبة للكرسي موضع القدمين كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض " (٣) .

وقال أيضاً : " ونؤمن بأنَّ لله تعالى عينين اثنتين حقيقيَّتين لقوله تعالى: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود:٣٧]" (٤) .

وقال أيضاً : " الكرسي موضع قدمي الرَّحمن سبحانه وتعالى وعظمته ، كما جاء في الحديث : «ما السَّماوات السَّبع والأرضون السَّبع بالنِّسبة إلى الكرسي إلَّا كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، وإنَّ فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة» .

وهذا يدلُّ على عظمة الخالق سبحانه وتعالى ، والكرسي غير العرش؛ لأنَّ الكرسي موضع القدمين " (١) ...

---

(١) انظر : إبطال التأويلات لأخبار الصفات (١/ ٣٨٧-٣٨٩) .

(٢) انظر : طبقات الحنابلة (١/ ٢٨) .

(٣) انظر : مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشَّيخ محمَّد بن صالح العثيمين (١/ ١٦٦) .

(٤) انظر : مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشَّيخ محمَّد بن صالح العثيمين (٣/ ٢٣٤) .

ثَامِناً : أَنَّ اليَهُوْدَ يَنْسُبْوْنَ إلى الله تَعَالَى اليَدَ وَالقَبْضَةَ وَاليَمِيْنَ وَالكَفَّيْن ...

فقد جاء في (سفر الخروج ١٥ : ١٦) : تَقَعُ عَلَيْهِمِ الْهَيْبَةُ وَالرُّعْبُ. بِعَظَمَةِ ذِرَاعِكَ يَصْمُتُونَ كَالْحَجَرِ حَتَّى يَعْبُرَ شَعْبُكَ يَا رَبُّ. حَتَّى يَعْبُرَ الشَّعْبُ الَّذِي اقْتَنَيْتَهُ.

وجاء في (سفر الخروج ١٥ :٦) : يَمِينُكَ يَا رَبُّ مُعْتَزَّةٌ بِالْقُدْرَةِ. يَمِينُكَ يَا رَبُّ تُحَطِّمُ الْعَدُوَّ.

وجاء في (سفر إشعياء ٢٥: ١٠) : لأَنَّ يَدَ الرَّبِّ تَسْتَقِرُّ عَلَى هذَا الْجَبَلِ، وَيُدَاسُ مُوآبُ فِي مَكَانِهِ كَمَا يُدَاسُ التِّبْنُ فِي مَاءِ الْمَزْبَلَةِ.

وجاء في (سفر أيوب ٣٦: ٣٢) : يُغَطِّي كَفَّيْهِ بِالنُّورِ، وَيَأْمُرُهُ عَلَى الْعَدُوِّ.

وجاء في (سفر مزامير الإصحاح "٤٤" الرقم ٢-٣) : أَنْتَ بِيَدِكَ اسْتَأْصَلْتَ الأُمَمَ وَغَرَسْتَهُمْ .

وعلى سَنَن اليهود في إثبات الجوارح والأعضاء لله تعالى ... سار المتمسلفة ، فأثبتوا لله تعالى اليد بمعنى الجارحة ...

قال إمامهم أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدَّارمي السِّجستاني (٢٨٠هـ) : " وَيَدَ اللهَّ غَيْرُ آدَمَ فَأَكَّدَ اللهُّ لِآدَمَ الْفَضِيلَةَ الَّتِي كَرَّمَهُ وَشَرَّفَهُ بِهَا، وَآثَرَهُ عَلَى جَمِيعِ عِبَادِهِ إِذْ كُلُّ عِبَادِهِ، خَلَقَهُمْ بِغَيْرِ مَسِيسٍ بِيَدٍ، وَخَلَقَ آدَمَ بِمَسِيسٍ " .

وقال أيضاً : " وَقَدْ قُلْنَا: يَكْفِينَا فِي مَسِّ اللهَّ آدَمَ بِيَدِهِ " .

وقال أيضاً : " يَعْنِي أَنَّ اللهَّ بِخِلَافِهِمْ، لَهُ يَد يبطش بهَا، وَعين يبصر بهَا، وَسَمْعٌ يَسْمَعُ بِهِ " .

وقال أيضاً : " فيُقَال لِهَذَا الثَّلْجِيِّ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَنْفِيَ عَن الله بِهَذِهِ الضَّلالات يَدَيْهِ اللَّتَيْنِ خَلَقَ بِهِمَا آدَمَ وَيْلَكَ أَيُّهَا الثَّلْجِيُّ! إِنَّ تَفْسِيرَهُ عَلَى خِلَافِ مَا ذَهَبْتَ إِلَيْهِ، وَقَدْ عَلِمْنَا يَقِينًا أَنَّ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ لَيْسَ بِيَدِ اللهَّ نَفْسِهِ، وَأَنَّ يَمِينَ اللهَّ مَعَهُ عَلَى الْعَرْشِ غَيْرُ بَائِنٍ مِنْهُ " (٢) .

وجاء في مجموع فتاوى ابن تيمية منسوباً للنَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " فَيَأْخُذُ رَبُّك بِيَدِهِ غَرْفَةً مِنْ الْمَاءِ فَيَنْضَحُ قِبَلَكُمْ فَلَعَمْرُ إلَهِك مَا يُخْطِئُ وَجْهَ أَحَدِكُمْ مِنْهَا قَطْرَةٌ " (٣) .

---

(١) انظر : مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشَّيخ محمَّد بن صالح العثيمين (٤/ ٢٦٧) .

(٢) انظر : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عزَّ وجلَّ من التَّوحيد (١/ ٢٣٢) ، (١/ ٢٩١) ، (١/ ٣٠٦) ، (٢/ ٦٩٥) بالترتيب .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى (٤/ ١٨٤) .

وقال المدعو محمَّد خليل هرَّاس في تعليقه على كتاب التَّوحيد لابن خزيمة : " فإنَّ القبض إنَّما يكون باليد الحقيقيَّة لا بالنِّعمة ، فإن قالوا : إنَّ الباء هنا للسَّببيَّة أي بسبب إرادته الإنعام ، قلنا لهم: بماذا قبض؟ فإنَّ القبض محتاج إلى آلة ، فلا مناص لهم لوأنصفوا من أنفسهم إلَّا أن يعترفوا بثبوت ما صرَّح به الكتاب والسُّنَّة " (١) .

وقال أيضاً " وهذه الآية صريحة في إثبات اليد ، فإنَّ الله يُخبر فيها أنَّ يده تكون فوق أيدي المبايعين لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولا شكَّ أنَّ المبايعة إنَّما تكون بالأيدي لا بالنِّعم ولا بالقدر" (٢) .

وقال الشَّيخ محمَّد بن صالح العثيمين : " وعلى كلٍّ فإنَّ يديه سبحانه اثنتان بلا شكٍّ ، وكلٌّ واحدة غير الأخرى ، وإذا وصفنا اليد الأخرى بالشِّمال فليس المراد أنَّها أنقص من اليد اليمنى بل كلتا يديه يمين " (٣) ...

تَاسِعَاً : أَنَّ اليَهُوْدَ يَنْسُبُوْنَ إِلى الله تَعَالَى المَكَانَ وَالحَدَّ وَالتَّحَيُّزَ ...

فقد جاء في (سفر التكوين ١٨: ١) : وَظَهَرَ لَهُ الرَّبُّ عِنْدَ بَلُّوطَاتِ مَمْرَا وَهُوَ جَالِسٌ فِي بَابِ الْخَيْمَةِ وَقْتَ حَرِّ النَّهَارِ .

وجاء في (سفر زكريا ٢: ١٣) : اُسْكُتُوا يَا كُلَّ الْبَشَرِ قُدَّامَ الرَّبِّ، لأَنَّه قَدِ اسْتَيْقَظَ مِنْ مَسْكَنِ قُدْسِهِ».

وجاء في (سفر المزامير ٢: ٤) : اَلسَّاكِنُ فِي السَّمَاوَاتِ يَضْحَكُ. الرَّبُّ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ...

وعلى سَنَن اليهود في إثبات المكان لله تعالى سار المتمسلفة ...

قال إمامهم أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدَّارمي السِّجستاني (٢٨٠هـ) : " وَقَدِ اتَّفَقَتِ الْكَلِمَةُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْكَافِرِينَ أَنَّ اللهَّ فِي السَّمَاءِ، وَحَدُّوهُ بِذَلِكَ إِلَّا الْمَرِيسِيَّ الضَّالَّ وَأَصْحَابَهُ، حَتَّى الصِّبْيَانُ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْثَ قَدْ عَرَفُوهُ بِذَلِكَ، إِذَا حَزَبَ الصَّبِي شَيْء يرفع يَدَيْهِ إِلَى رَبِّهِ يَدْعُوهُ فِي السَّماء دُونَ مَا سِوَاهَا، فَكُلُّ أَحَدٍ بِاللهَّ وَبِمَكَانِهِ أَعْلَمُ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ " .

وقال أيضاً : " ... بَلْ هُوَ عَلَى عَرْشِهِ، فَوْقَ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ فِي أَعْلَى مَكَانٍ وَأَطْهَرِ مَكَانٍ، كَمَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَـاهِرُ فَوْقَ عِبَـادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨] ، يَعْلَمُ مِنْ فَوْقِ عَرْشِهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَمَا تَحْتَ الثَّرَى، يُدَبِّرُ مِنْهُ الْأَمر " .

---

(١) انظر : هامش كتاب التَّوحيد وإثبات صفات الرب لابن خزيمة (ص٦٤) .

(٢) انظر : هامش كتاب التَّوحيد وإثبات صفات الرب لابن خزيمة (١/ ١٦٥) .

(٣) انظر : مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشَّيخ محمَّد بن صالح العثيمين (١/ ١٦٥) .

وقال أيضاً : " ... وَيحك! هَذَا الْمَذْهَب أَنْزَهُ للهَّ مِنَ السُّوءِ أَمْ مَذْهَبُ مَنْ يَقُولُ: فَهُوَ بِكَمَالِهِ وَجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَبَهَائِهِ فَوْقَ عَرْشِهِ فوق سمواته، وَفَوق جَمِيع الْخَلَائِقِ فِي أَعْلَىٰ مَكَانٍ، وَأَطْهَرِ مَكَانٍ، حَيْثُ لَا خَلْقَ هُنَاكَ مِنْ إِنْسٍ وَلَا جَانٍّ " .

وقال أيضاً : " لِأَنَّا قد أَيَّنَا لَهُ مَكَانا وَاحِدًا، أَعْلَىٰ مَكَانٍ، وَأَطْهَرَ مَكَانٍ وَأَشْرَفَ مَكَانٍ: عَلَىٰ عَرْشِهِ الْعَظِيمِ الْمُقَدَّسِ الْمَجِيدِ، فَوْقَ السَّماء السَّابِعَةِ الْعُلْيَا، حَيْثُ لَيْسَ مَعَهُ هُنَاكَ إِنْسٌ وَلَا جَان وَلَا بجنبيه حُشٌّ وَلَا مِرْحَاضٌ وَلَا شَيْطَانٌ " .

وقال أيضاً : " وَأَمَّا قَوْلُكَ: غَيْرُ بَائِنٍ بِاعْتِزَالٍ، وَلَا بِفُرْجَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، فَقَدْ كَذَبْتَ فِيهِ وَضَلَلْت ، عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ، بَلْ هُوَ بِائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ فَوْقَ عَرْشِهِ بِفُرْجَةٍ بَيِّنَةٍ. وَالسَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ فِي الْأَرْضِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مِنْ فَوْقِ عَرْشِهِ مَا هُمْ عَامِلُونَ، لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ كَمَا أَنْبَأَنَا اللهُّ تَعَالَىٰ وَرَسُوله وَأَصْحَاب رَسُولُهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " .

وقال أيضاً : " وَإِلَهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَىٰ عَرْشٍ مَخْلُوقٍ عَظِيمٍ فَوْقَ السَّماء السَّابِعَة دون مَا سواهَا مِنَ الْأَمَاكِنِ. مَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ بِذَلِكَ كَانَ كَافِرًا بِهِ وَبِعَرْشِهِ " .

وقال أيضاً : " فَيُقَالُ لِهَذَا الْمُعَارِضِ الْمُدَّعِي مَا لَا عِلْمَ لَهُ: مَنْ أَنْبَأَكَ أَنَّ رَأْسَ الْجَبَلِ لَيْسَ بِأَقْرَبَ إِلَىٰ اللهَّ تَعَالَىٰ مِنْ أَسْفَلِهِ؟؛ لأنَّه مَنْ آمَنَ بِأَنَّ اللهَّ فَوْقَ عَرْشِهِ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّ رَأْسَ الْجَبَلِ أَقْرَبُ إِلَىٰ اللهَّ مِنْ أَسْفَلِهِ، وَأَنَّ السَّماء السَّابِعَةَ أَقْرَبُ إِلَىٰ عَرْشِ اللهَّ تَعَالَىٰ مِنَ السَّادِسَةِ، وَالسَّادِسَةَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنَ الْخَامِسَةِ، ثمَّ كَذَلِكَ إِلَىٰ الْأَرْضِ. كَذَلِكَ رَوَىٰ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْحَنْظَلِيُّ، عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ أَنَّه قَالَ: "رَأْسُ الْمَنَارَةِ أَقْرَبُ إِلَىٰ اللهَّ مِنْ أَسْفَلِهِ وَصَدَقَ ابْنُ الْمُبَارَكِ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا كَانَ إِلَىٰ السَّماء أَقْرَبُ كَانَ إِلَىٰ اللهَّ أَقْرَبَ " (١) .

وقال أيضاً : " إِنَّ اللهَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَنْزِلُ فِي ثَلَاثِ سَاعَاتٍ مِنَ اللَّيْلِ يَفْتَحُ الذِّكْرَ، فَيَنْظُرُ اللهُّ فِي السَّاعَةِ الْأُولَىٰ مِنْهُنَّ فِي الْكِتَابِ الَّذِي لَمْ يَرَهُ غَيْرُهُ، فَيَمْحُو مَا يَشَاءُ، وَيُثْبِتُ مَا يَشَاءُ، ثمَّ يَنْزِلُ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ إِلَىٰ جَنَّةِ عَدْنٍ، وَهِيَ دَارُهُ الَّتِي لَمْ تَرَهَا عَيْنٌ، وَلَمْ تَخْطُرْ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ، وَهِيَ مَسْكَنُهُ، وَلَا يَسْكُنُهَا مَعَهُ مِنْ بَنِي آدَمَ غَيْرُ ثَلَاثَةٍ: النَّبِيِّينَ، وَالصِّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ، ثمَّ يَقُولُ: طُوبَىٰ لِمَنْ دَخَلَكِ " (٢) ، ونسبه للرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

---

(١) انظر : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد علىٰ المريسي الجهمي العنيد فيما افترىٰ علىٰ الله عزَّ وجلَّ من التَّوحيد (١/ ٢٢٨) ، (١/ ٤٤٧) ، (١/ ٤٥٠) ، (١/ ٤٩٣) ، (١/ ٤٤١) ، (١/ ٤٤٢) ، (١/ ٥٠٤) بالترتيب .

(٢) انظر : الرد علىٰ الجهمية (ص٧٦) .

وقال أيضاً : " فَلِمَاذَا يَحُفُّونَ حَوْلَ الْعَرْشِ إِلَّا لِأَنَّ اللهَّ عزَّ وجلَّ فَوْقَهُ، وَلَوْ كَانَ فِي كُلِّ مَكَانٍ لَحَفُّوا بِالْأَمْكِنَةِ كُلِّهَا، لَا بِالْعَرْشِ دُونَهَا، فَفِي هَذَا بَيَانٌ بَيِّنٌ لِلْحَدِّ، وَأَنَّ اللهَّ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَالْمَلَائِكَةَ حَوْلَهُ حَافُّونَ يُسَبِّحُونَهُ وَيُقَدِّسُونَهُ، وَيَحْمِلُ عَرْشَهُ بَعْضُهُمْ، قَالَ اللهُّ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ [غافر: ٧] .

وقال الإمام ابن تيمية : " وَفِي " الْإِنْجِيلِ " أَنَّ الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: لَا تَحْلِفُوا بِالسَّمَاءِ فَإِنَّهَا كُرْسِيُّ اللهَّ. وَقَالَ لِلْحَوَارِيِّينَ: إنْ أَنْتُمْ غَفَرْتُمْ لِلنَّاسِ فَإِنَّ أَبَاكُمْ - الَّذِي فِي السَّماء - يَغْفِرُ لَكُمْ كُلِّكُمْ اُنْظُرُوا إلَى طَيْرِ السَّمَاءِ: فَإِنَّهُنَّ لَا يَزْرَعْنَ وَلَا يَحْصُدْنَ وَلَا يَجْمَعْنَ فِي الْأَهْوَاءِ وَأَبُوكُمْ الَّذِي فِي السَّماء هُوَ الَّذِي يَرْزُقُهُمْ أَفَلَسْتُمْ أَفْضَلَ مِنْهُنَّ؟ (١) . وجاء في كتاب " قرَّة عيون الموحِّدين : " وقال أبو عمر الطَّلمنكي في كتاب الأصول: أجمع المسلمون من أهل السُّنَّة علىٰ أنَّ الله مستو علىٰ عرشه بذاته . ذكره الذَّهبي في كتاب العلو " (٢) .

وجاء في معارج القبول : " يَهْبِطُ الرَّبُّ تَعَالَىٰ مِنَ السَّماء السَّابِعَةِ إِلىٰ الْمَقَامِ الَّذِي هُوَ قَائِمُهُ " (٣) ، ونسبه للرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

ولم يكتف المجسِّمة بما شابهوا به اليهود من أُطر تجسيميَّة بحتة ، فراحوا يُكملون المشهد الذي لم يستطع اليهود إكماله ... فأثبتوا لله تعالىٰ صفات تجسيميَّة عديدة ، منها :

(١) إِعْتِقَادُهُم بِالحَدِّ لله تَعَالَى :

فقد نقل ابن تيمية عن عثمان بن سعيد موافقاً ومقرَّاً له : إثبات الحدِّ لله تعالىٰ ، وأنَّ من لم يؤمن بذلك فقد كفر بتنزيل الله تعالىٰ ، وجحد آيات الله تعالىٰ ، وفي ذلك يقول : " باب الحدِّ والعرش : قال أبو سعيد : وادعىٰ المعارض أيضاً : أنَّه ليس لله حدٌّ ، ولا غايةٌ ، ولا نهايةٌ .

قال : وهذا هو الأصل الذي بنىٰ عليه جهم جميع ضلالاته ، واشتقَّ منها جميع أغلوطاته ، وهي كلمة لم يبلغنا أنَّه سبق جهماً إليها أحد من العالمين ، فقال له قائل ممَّن يحاوره : قد علمت مرادك أيها الأعجمي ، تعني أنَّ الله لا شيء ، لأنَّ الخلق كلهم قد علموا أنَّه ليس له شيء يقع عليه اسم الشَّيء إلا وله حدٌّ وغاية

---

(١) انظر : مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٤٠٦) .

(٢) انظر : قرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين (٤٧٩) .

(٣) انظر : معارج القبول (١/ ٣٠٤) .

وصفة ، وأن (لا شيء) ليس له حد ولا غاية ولا صفة ، فالشَّيء أبداً موصوف لا محالة ، ولا شيء يوصف بلا حدٍّ ولا غاية ، وقولك : لا حدَّ له يعني أنَّه لا شيء .

قال أبو سعيد : والله تعالىٰ له حدٌّ لا يعلمه أحد غيره ، ولا يجوز أن يتوهَّم لحدِّه غاية في نفسه ، ولكن نؤمن بالحدِّ ، ونكل علم ذلك إلىٰ الله ، ولمكانه أيضاً حدٌّ ، وهو علىٰ عرشه فوق سمواته ، فهذان حدَّان اثنان .

وسئل عبد الله بن المبارك ، بم نعرف ربَّنا ؟ قال : بأنَّه علىٰ عرشه بائن من خلقه .

قيل : بحدٍّ ؟ قال : بحدٍّ .

حدَّثناه الحسن بن الصَّباح البزَّار عن علي بن الحسين بن شقيق عن ابن المبارك .

فمن ادَّعىٰ أنَّه ليس لله حدٌّ فقد ردَّ القرآن !! وادَّعىٰ أنَّه لا شيء ، لأنَّ الله وصف حدَّ مكانه في مواضع كثيرة ، من كتابه ، فقال : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦] ،﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] ، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] ، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] .

فهذا كلُّه وما أشبهه شواهـــــد ودلائل علىٰ الحدِّ ، ومن لم يعترف به فقد كفر بتنزيل الله ، وجحد آيات الله " (١) .

وقال ابن تيمية : " قد دلَّ الكتاب والسُّنَّة علىٰ معنىٰ ذلك ، كما تقدَّم احتجاج الإمام أحمد لذلك بها في القرآن ، مما يدلُّ علىٰ أنَّ الله تعالىٰ له حدٌّ يتميَّز به عن المخلوقات ، وأنَّ بينه وبين الخلق انفصالاً ومباينة " (٢) .

وقال ابن تيمية : " قال القاضي : " وإذا ثبت استواؤه ، وأنَّه في جهة ، وأنَّ ذلك من صفات الذَّات ، فهل يجوز إطلاق الحدِّ عليه ؟!!!

قد أطلق أحمد القول بذلك في رواية المروذي ، فقد ذكر له قول ابن المبارك : " نعرف الله علىٰ العرش بحدٍّ " ، فقال أحمد : " بلغني ذلك وأعجبه " . وقال الأثرم : قلت لأحمد : يحكىٰ عن ابن المبارك : " نعرف ربَّنا في السَّماء السابعة علىٰ عرشه بحدٍّ " ، فقال أحمد : " هكذا هو عندنا " . قال القاضي : " ورأيت بخطِّ أبي إسحاق : أنا أبو بكر أحمد بن نصر الرفاء ، سمعت أبا بكر بن أبي داود ، سمعت أبي يقول : جاء رجل إلىٰ

---

(١) انظر : درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٥٦-٥٨) ، بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٣/ ٦٨٦-٦٨٩) .

(٢) انظر : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٣/ ٤٨) .

أحمد بن حنبل ، فقال له : لله تبارك وتعالىٰ حدٌّ ؟ قال : " نعم لا يعلمه إلَّا هو ، قال الله تبارك وتعالىٰ : ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ﴾ [الزمر: ٧٥] ، يقول محدقين " .

قال : " فقد أطلق أحمد القول بإثبات الحدِّ ، وقد نفاه في رواية حنبل ، فقال : " نحن نؤمن بأنَّ الله علىٰ العرش ، كيف شاء ، وكما شاء ، بلا حدٍّ ، ولا صفة يبلغها واصف أو يحدُّه أحد . فقد نفىٰ الحدَّ عن الصِّفة المذكورة ، وهو الحدُّ الذي يعلمه خلقه ، والموضع الذي أطلقه محمول علىٰ معنيين :

أحدهما : أنَّه تعالىٰ في جهة مخصوصة ، وليس هو تعالىٰ ذاهباً في الجهات ، بل خارج العالم ، متميِّز عن خلقه ، منفصل عنهم ، غير داخل في كلِّ جهة . وهذا معنىٰ قول أحمد : له حدٌّ لا يعلمه إلَّا هو .

والثَّاني : أنَّه علىٰ صفة يبيِّن بها عن غيره ، ويتميَّز ، ولهذا سمِّي البواب حداداً ، لأنَّه يمنع غيره عن الدُّخول ، فهو تعالىٰ فرد واحد ، ممتنعٌ عن الاشتراك له في أخصِّ صفاته .

قال : وقد منعنا من إطلاق القـــــول بالحدِّ في غير موضع من كتابنا ، ويجب أن يجوز علىٰ الوجه الذي ذكرناه .

فهذا رجوع منه إلىٰ القول بإثبات الحدِّ ، لكن اختلف في ذلك كلامه ، فقال هنا : ويجب أن يحمل علىٰ اختلاف كلام أحمد في إثبات الحدِّ علىٰ اختلاف حالين ، فالموضع الذي قال : أنَّه علىٰ العرش بحدٍّ معناه : ما حاذىٰ العرش من ذاته ، فهو حدٌّ له ، وجهة له . والموضع الذي قال : هو علىٰ العرش بغير حدٍّ ، معناه : ما عدا الجهة المحاذية للعرش ، وهي الفوق ، والخلف ، والإمام ، والميمنة ، والميسرة ، وكان الفرق بين جهة التَّحت المحاذية للعرش وبين غيرها ما ذكرنا أنَّ جهة التَّحت تحاذي العرش بما قد ثبت من الدَّليل ، والعرش محدود ، فجاز أن يُوصف ما حاذاه من الذَّات أنَّه حدٌّ وجهة ، وليس كذلك فيما عداه ، لأنَّه لا يحاذي ما هو محدود ، بل هو مارٌّ في الميمنة ، والميسرة ، والفوق ، والأمام ، والخلف إلىٰ غير غاية ، فلهذا لم يوصف واحد من ذلك بالحدِّ والجهة . وجهة العرش تحاذي ما قابله من جهة الذَّات ، ولم تحاذ جميع الذَّات ، لأنَّه لا نهاية لها " (١) .

وافترىٰ ابن تيمية علىٰ السَّلف ، والأئمَّة ، وأهل الحديث ، والكلام ، والفقه ، والتَّصوُّف ، فزعم أنَّهم يقولون بالحدِّ لله تعالىٰ ، وفي ذلك يقول : " قول السَّلف والأئمَّة ، وأهل الحديث ، والكلام ، والفقه ، والتَّصوُّف ، الذين يقولون : له حدٌّ لا يعلمه غيره " (٢) .

---

(١) انظر : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٣/ ٧٣٣-٧٣٦) .

(٢) انظر : درء تعارض العقل والنقل (٦/ ٣٠١) .

كما زعم ابن تيمية أنَّ المحفوظ عن السَّلف والأئمَّة إثبات الحدِّ لله ، فيقول : " وهذا المحفوظ عن السَّلف والأئمَّة من إثبات حدٍّ لله في نفسه ، قد بيَّنوا مع ذلك أنَّ العباد لا يحدونه ولا يدركونه ، ولهذا لم يتناف كلامهم في ذلك كما يظنُّه بعض النَّاس ، فإنَّهم نفوا أن يحدّ أحد الله ، كما ذكره حنبل عنه في كتاب السُّنَّة والمحنة ، وقد رواه الخلَّال في كتاب السُّنَّة : أخبرني عبيد الله بن حنبل ، حدَّثني أبي حنبل بن إسحاق ، قال : قال عمِّي : نحن نؤمن بالله عزَّ وجلَّ على عرشه ، كيف شاء ، وكما شاء ، بلا حدٍّ ، ولا صفة يبلغها واصف أو يحدُّه أحد " .

ويستمرُّ ابن تيمية في الإفتراء ، فيزعم أنَّ كثيراً من أئمَّة السَّلف والحديث أو أكثرهم يقولون بالحدِّ لله تعالى ، فيقول : " ثمَّ إنَّ كثيراً من أئمَّة السُّنَّة والحديث أو أكثرهم يقولون : أنَّه فوق سمواته على عرشه ، بائن من خلقه بحدٍّ ، ومنهم من لم يطلق لفظ الحدِّ ، وبعضهم أنكر الحدَّ " .

وقال ابن تيمية أيضاً : " وأمَّا سلف الأمَّة وأئمَّتها ومن اتَّبعهم ، فألفاظهم فيها أنَّه فوق العرش ، وفيها إثبات الصِّفات الخبريَّة التي يعبر هؤلاء المتكلِّمون عنها بأنَّها أبعاض ، وأنَّها تقتضي التَّركيب والانقسام ، وقد ثبت عن أئمَّة السَّلف أنَّهم قالوا : لله حدٌّ ، وأنَّ ذلك لا يعلمه غيره ، وأنَّه مباينٌ لخلقه ، وفي ذلك لأهل الحديث والسُّنَّة مصنَّفات... " .

وزعم ابن تيمية أنَّ كلمة المسلمين اتَّفقت على إثبات الحدِّ لله تعالى ، وفي ذلك يقول : " وقد اتَّفقت الكلمة من المسلمين والكافرين !!! أنَّ الله في السَّماء !!! وحَدُّوهُ بذلك ، إلَّا المريسي الضَّال وأصحابه ، حتَّى الصِّبيان ّ!!! الذين لم يبْلغوا الحِنث قد عرفوه بذلك ، إذا حزب الصَّبيَّ شيءٌ يرفع يديه إلى ربِّه تعالى يدعوه في السَّماء دون ما سواها ، فكلُّ أحدٍ بالله تعالى وبمكانه !!! أعلم من الجهميَّة " (1) .

وقال ابن تيمية أيضاً : " وذلك لا ينافي ما تقدَّم من إثبـــات أنَّه في نفسه له حدٌّ يعلمه هو ، لا يعلمه غيره " (2) .

---

(1) انظر : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٣/ ٧٠٦) ، (٢/ ٥٢٧) ، (٣/ ٥٩١-٥٩٢) ، (٢/ ٦١١) بالترتيب .

(2) انظر : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٢/ ٦٢٨) ، وانظر المزيد من أقوال ابن تيمية في اعتقاد الحدِّ لله تعالى في كتابه : " بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية " : (١/ ١٥٢) ، (٢/ ٥٢٧) ، (٢/ ٦٠٧) ، (٢/ ٦١٦) ، (٢/ ٦٢٩) ، (٣/ ٢١) ، (٣/ ٢٣) ، (٣/ ٢٤) ، (٣/ ٢٥) ، (٣/ ٣٥) ، (٣/ ٤١) ، (٣/ ٤٣) ، (٣/ ٢٠٩) ، (٣/ ٦٨٦) ، (٣/ ٦٨٩) ، (٣/ ٦٩٧) ، (٣/ ٦٩٩) ، (٣/ ٧٢٨) ، (٣/ ٧٢٩) ، (٣/ ٧٣٣) ، (٣/ ٧٣٤) ، (٣/ ٧٣٥) ، (٣/ ٧٣٦) ، (٣/ ٧٣٧) ، (٣/ ٧٤١) ، (٥/ ١٨١-١٨٢) ، (٨/ ١٥٣) .

وقال ابن أبي العزّ : " فالحدُّ بهذا المعنىٰ لا يجوز أن يكون فيه منازعة في نفس الأمر أصلاً !!! فإنَّه ليس وراء نفيه إلّا نفي وجود الرَّبِّ ، ونفي حقيقته " (١) .

وقام أشقاهم المدعو محمَّد محمود بن أبي القاسم الدّشتي بكتابة كتاب سمّاه : " إثباتُ الحدِّ لله وبأنَّه قاعدٌ وجالسٌ علىٰ العرش " .

وهم بذلك مخالفون لعقيدة ودين الأُمَّة التي نزَّهت الله تعالىٰ عن الحدِّ والجسم ، فما قالوه في هذه المسألة وغيرها الكثير ... هو التَّجسيم بعينه وشينه ومينه !!!! قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (٤٠هـ) : " مَنْ زَعَمَ أَنَّ إِلَهَنَا مَحْدُودٌ ، فَقَدْ جَهِلَ الْخَالِقَ الْمَعْبُودَ " (٢) .

(٢) إِعْتِقَادُهُم بِالقُرْبِ المَادِّي لله تَعَالَىٰ :

من المعلوم أنَّ من يدَّعون السَّلفيَّة يعتقدون بالقرب المادي لله تعالىٰ ، فقد زعم إمامهم أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدَّارمي السِّجستاني (٢٨٠هـ) ، فقال : " فَيُقَالُ لِهَذَا الْمُعَارِضِ الْمُدَّعِي مَا لَا عِلْمَ لَهُ : مَنْ أَنْبَأَكَ أَنَّ رَأْسَ الْجَبَلِ لَيْسَ بِأَقْرَبَ إِلىٰ اللهَّ تَعَالَىٰ مِنْ أَسْفَلِهِ ؟؛ لأَنَّه مَنْ آمَنَ بِأَنَّ اللهَّ فَوْقَ عَرْشِهِ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ عَلِمَ يَقِيناً أَنَّ رَأْسَ الْجَبَلِ أَقْرَبُ إِلىٰ اللهَّ مِنْ أَسْفَلِهِ ، وَأَنَّ السَّماء السَّابِعَةَ أَقْرَبُ إِلىٰ عَرْشِ اللهَّ تَعَالَىٰ مِنَ السَّادِسَةِ ، وَالسَّادِسَةَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنَ الْخَامِسَةِ ، ثمَّ كَذَلِكَ إِلىٰ الْأَرْضِ . كَذَلِكَ رَوَىٰ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْحَنْظَلِيُّ ، عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ أَنَّه قَالَ : " رَأْسُ الْمَنَارَةِ أَقْرَبُ إِلىٰ اللهَّ مِنْ أَسْفَلِهِ وَصَدَقَ ابْنُ الْمُبَارَكِ ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا كَانَ إِلىٰ السَّماء أَقْرَبُ كَانَ إِلىٰ اللهَّ أَقْرَبَ . وَقُرْبُ اللهَّ إِلىٰ جَمِيعِ خَلْقِهِ أَقْصَاهُم وأدناهم وَاحِد لَا يَبْعُدُ عَنْهُ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِهِ . وَبَعْضُ الْخَلْقِ أَقْرَبُ مِنْ بَعْضٍ عَلَىٰ نَحْوِ مَا فَسَّرْنَا مِنْ أَمْرِ السَّموات وَالْأَرْضِ ، وَكَذَلِكَ قُرْبُ الْمَلَائِكَةِ مِنَ اللهَّ ، فَحَمَلَةُ الْعَرْشِ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ فِي السَّموات ، وَالْعَرْشُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنَ السَّماء السَّابِعَةِ ... " (٣) .

وأكَّد ابن تيمية علىٰ القُرب والبُعد المكانيِّ لله تعالىٰ ، فقال : " الثَّالِثُ : قَوْلُ : " أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ " الَّذِينَ يُثْبِتُونَ أَنَّ اللهَّ عَلَىٰ الْعَرْشِ ، وَأَنَّ حَمَلَةَ الْعَرْشِ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِمَّنْ دُونَهُمْ ، وَأَنَّ مَلَائِكَةَ السَّماء الْعُلْيَا أَقْرَبُ إِلىٰ اللهَّ مِنْ مَلَائِكَةِ السَّماء الثَّانِيَةِ ، وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا عُرِجَ بِهِ إِلىٰ السَّماء صَارَ يَزْدَادُ قُرْباً إِلىٰ رَبِّهِ

---

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز الحنفي (ص٢٤٠) .

(٢) انظر : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٧٣) .

(٣) انظر : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد علىٰ المريسي الجهمي العنيد فيما افترىٰ علىٰ الله عزَّ وجلَّ من التَّوحيد (١/ ٥٠٤) .

بِعُرُوجِهِ وَصُعُودِهِ ، وَكَانَ عُرُوجُهُ إلى اللهَّ لَا إلى مُجَرَّدِ خَلْقٍ مِنْ خَلْقِهِ ، وَأَنَّ رُوحَ الْمُصَلِّي تَقْرُبُ إلى اللهَّ فِي السُّجُودِ ، وَإِنْ كَانَ بَدَنُهُ مُتَوَاضِعاً . وَهَذَا هُوَ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ نُصُوصُ الْكِتَابِ ... " (١) .

وزعم ابن تيمية أنَّ القول المعروف عن السَّلف ، والأشعري ، والكلابيَّة هو أنَّ الله تعالىٰ يقرِّبُ العباد إلىٰ ذاته تعالىٰ ، وأنّه استوىٰ علىٰ العرش بذاته ، فقال : " وَالَّذِينَ يُثْبِتُونَ تَقْرِيبَهُ الْعِبَادَ إلى ذَاتِهِ هُوَ الْقَوْلُ الْمَعْرُوفُ لِلسَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ ، وَهُوَ قَوْلُ الْأَشْعَرِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ الْكُلَّابِيَة ؛ فَإِنَّهُمْ يُثْبِتُونَ قُرْبَ الْعِبَادِ إلى ذَاتِهِ ، وَكَذَلِكَ يُثْبِتُونَ اسْتِوَاءَهُ عَلَى الْعَرْشِ بِذَاتِهِ ، وَنَحْوَ ذَلِكَ ، وَيَقُولُونَ : الِاسْتِوَاءُ فِعْلٌ فَعَلَهُ فِي الْعَرْشِ فَصَارَ مُسْتَوِياً عَلَى الْعَرْشِ . وَهَذَا أَيْضاً قَوْلُ ابْنِ عَقِيلٍ ، وَابْنِ الزَّاغُونِي ، وَطَوَائِفَ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَد ، وَغَيْرِهِمْ " (٢) .

وقال إمامهم ابن أبي العزّ الحنفي (٧٩٢هـ) : " فَكَيْفَ يَسْتَبْعِدُ الْعَقْلُ مَعَ ذَلِكَ أَنَّه يَدْنُو سُبْحَانَهُ مِنْ بَعْضِ أَجْزَاءِ الْعَالَمِ وَهُوَ عَلَى عَرْشِهِ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ ؟ أَوْ يُدْنِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ ؟ فَمَنْ نَفَى ذَلِكَ لَمْ يَقْدِرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ . وَفِي حَدِيثِ أَبِي رَزِينٍ الْمَشْهُورِ ، الَّذِي رَوَاهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رُؤْيَةِ الرَّبِّ تَعَالَى : " فَقَالَ لَهُ أَبُو رَزِينٍ : كَيْفَ يَسَعُنَا – يَا رَسُولَ اللهَّ – وَهُوَ وَاحِدٌ وَنَحْنُ جَمِيعٌ ؟ فَقَالَ : سَأُنَبِّئُكَ بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي آلَاءِ اللهَّ: هَذَا الْقَمَرُ ، آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهَّ ، كُلُّكُمْ يَرَاهُ مُخْلِياً بِهِ ، وَاللهُّ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ " ، وَإِذْ قَدْ تَبَيَّنَ أَنَّه أَعْظَمُ وَأَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . فَهَذَا يُزِيلُ كُلَّ إِشْكَالٍ ، وَيُبْطِلُ كُلَّ خَيَالٍ " (٣) .

(٣) إِعْتِقَادُهُم بِأَنَّ الله يَلْمَسُ وَيُلْمَس :

قال إمامهم أبو سعيد عثمان بن سعيد الدَّارمي (٢٨٠هـ) : " وَلَوْ لَمْ يَكُنْ للهَّ تَعَالَى يَدَانِ بِهِمَا خَلَقَ آدَمَ وَمَسَّهُ بِهِمَا مَسِيساً كَمَا ادَّعَيْتَ ، لَمْ يَجُزْ أَنْ يُقَال : ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦] ، ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٩] ، ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١] ، لِلْمَذْهَبِ الَّذِي فَسَّرْنَا . فَإِنْ كُنْتَ لَا تُحْسِنُ الْعَرَبِيَّةَ فَسَلْ مَنْ يُحْسِنُهَا ثمَّ تَكَلَّمْ " (٤) .

---

(١) انظر : مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٧) .

(٢) انظر : مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٤٦٦) ، شرح حديث النزول (ص١٠٥) .

(٣) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز الحنفي (ص٢٦٠) ، وانظر : مجموع فتاوىٰ ورسائل فضيلة الشَّيخ محمَّد بن صالح العثيمين (١/ ١٩١) .

(٤) انظر : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد علىٰ المريسي الجهمي العنيد فيما افترىٰ علىٰ الله عزَّ وجلَّ من التَّوحيد (١/ ٢٣٩) .

وجاء في كتاب السُّنَّة المنسوب لعبد الله بن أحمد بن حنبل : " قَرَأْتُ عَلَىٰ أَبِي ، نا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْحَكَمِ بْنِ أَبَانَ ، قَالَ حَدَّثَنِي أَبِي ، عَنْ عِكْرِمَةَ ، قَالَ : " إِنَّ اللهَّ عزَّ وجلَّ لَمْ يَمَسَّ بِيَدِهِ شَيْئاً إِلَّا ثَلَاثاً : خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ ، وَغَرَسَ الْجَنَّةَ بِيَدِهِ ، وَكَتَبَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ " (١) .

وجاء فيه أيضاً : " حَدَّثَنِي أَبِي رَحِمَهُ اللهُّ ، نا أَبُو الْمُغِيرَةِ ، حَدَّثَتْنَا عَبْدَةُ ، عَنْ أَبِيهَا ، خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ ، قَالَ : إِنَّ اللهَّ عزَّ وجلَّ لَمْ يَمَسَّ بِيَدِهِ إِلَّا آدَمَ صَلَوَاتُ اللهَّ عَلَيْهِ خَلَقَهِ بِيَدِهِ ، وَالْجَنَّةَ ، وَالتَّوْرَاةَ كَتَبَهَا بِيَدِهِ ، قَالَ : وَدَمْلَجَ اللهُّ عزَّ وجلَّ لُؤْلُؤَةً بِيَدِهِ فَغَرَسَ فِيهَا قَضِيباً ، فَقَالَ : امْتَدِّي حَتَّىٰ أَرْضِي ، وَأَخْرِجِي مَا فِيكِ بِإِذْنِي ، فَأَخْرَجَتِ الْأَنْهَارَ وَالثِّمَارَ " (٢) .

وجاء فيه أيضاً : " حَدَّثَنِي أَبُو مَعْمَرٍ ، نا سُفْيَانُ ، عَنْ حُمَيْدٍ يَعْنِي الْأَعْرَجَ ، عَنْ مُجَاهِدٍ ، عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ ، ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٢٥] ، قَالَ : يَقُولُ أُدْنُهُ أُدْنُهُ إِلَىٰ مَوْضِعٍ اللهُّ أَعْلَمُ بِهِ .

حَدَّثَنِي أَبُو مَعْمَرٍ ، نا وَكِيعٌ ، عَنْ سُفْيَانَ ، عَنْ مَنْصُورٍ ، عَنْ مُجَاهِدٍ ، عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ ، قَالَ : حَتَّىٰ يَضَعَ بَعْضَهُ عَلَيْهِ !!! .

حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ ، نا ابْنُ إِدْرِيسَ ، عَنْ لَيْثٍ ، عَنْ مُجَاهِدٍ ، قَالَ : حَتَّىٰ يَأْخُذَ بِقَدَمِهِ !!! " (٣) .

وقال ابن تيمية الحرَّاني (٧٢٨هـ) : " كونه فوق العرش ثبت بالشَّرع المتواتر وإجماع سلف الأُمَّة مع دلالة العقل ضرورة ونظراً أنَّه خارج العالم ، فلا يخلو مع ذلك : إمَّا أن يلزم أن يكون مماسَّاً أو مبايناً أو لا يلزم ، فإن لزم أحدهما كان ذلك لازماً للحقّ ، ولازمُ الحق حقٌّ ، وليس في مماسَّته للعرش ونحوه محذورٌ ، كما في مماسَّته لكلِّ مخلوق من النَّجاسات والشَّياطين وغير ذلك " (٤) .

وقال أيضاً : " وَأَكْثَرُ أَهْلِ الْحَدِيثِ يَصِفُونَهُ بِاللَّمْسِ ، وَكَذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ ، وَالشَّافِعِيِّ ، وَأَحْمَد ، وَغَيْرِهِمْ ، وَلَا يَصِفُونَهُ بِالذَّوْقِ " (٥) .

---

(١) انظر : السنة (١/ ٢٩٦ برقم ٥٧٣) .

(٢) انظر : السنة (١/ ٢٩٧ برقم ٥٧٤) .

(٣) انظر : السنة (٢/ ٤٧٥ برقم ١٠٨٥ ، ١٠٨٦ ، ١٠٨٧) .

(٤) انظر : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٥/ ١٢٧) .

(٥) انظر : مجموع الفتاوىٰ (٦/ ١٣٦) .

وقال أيضاً : " وَقَالَ جُمْهُورُ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ : نَصِفُهُ أَيْضاً بِإِدْرَاكِ اللَّمْسِ ، لِأَنَّ ذَلِكَ كَمَالٌ لَا نَقْصَ فِيهِ . وَقَدْ دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ ، بِخِلَافِ إِدْرَاكِ الذَّوْقِ ، فَإِنَّهُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْأَكْلِ ، وَذَلِكَ مُسْتَلْزِمٌ لِلنَّقْصِ ،كَمَا تَقَدَّمَ . وَطَائِفَةٌ مِنْ نُظَّارِ الْمُثْبِتَةِ وَصَفُوهُ بِالْأَوْصَافِ الْخَمْسِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ " (١) .

وقال أيضاً : " ... والمنازع وأصحابه يعلمون صحَّة هذا الكلام ، لأنهم يقرُّون في مسألة الرُّؤية أنَّ كلَّ موجود يجوز أن يُحس بالحواسِّ الخمس ، ويلتزمون على ذلك أنَّ الله يجوز أن يُحس به بالحواسِّ الخمس : السَّمع ، والبصر ، والشَّمُّ ، والذَّوق ، واللمس ، وأنَّ ما لا يُحسّ به بالحواسِّ الخمس لا يكون إلَّا معدوماً !!! فعامَّة السَّلف والصِّفاتيَّة على أنَّ الله يمكن أن يُشْهد ، ويُرى ، ويُحسُّ به " .

وقال أيضاً : " فإن أهل السُّنَّة والجماعة المقرين بأنَّ الله تعالى يُرى متَّفقين على أنَّ ما لا يُمكن معرفته بشيء من الحواسِّ ، فإنَّما يكون معدوماً لا موجوداً " .

وعقيدتهم في أنَّ الله تعالى يمسُّ ويُمسُّ هي التَّجسيم بعينه وشينه ومينه ... وقد رددتُ عليهم ضمن سلسلة الرُّدود عليهم ، بحمد الله ...

(٤) إِعْتِقَادُهُم بِالسَّاعِدِ لله تَعَالَى :

قال القاضي أبو يعلى ، محمَّد بن الحسين بن محمَّد بن خلف ابن الفرَّاء (٤٥٨هـ) : " اعلم أنَّه غير ممتنع حمل الخبر عَلَى ظاهره فِي إثبات " السَّاعد " صفة لذاته، كَمَا حملنا قوله تَعَالَى: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] عَلَى ظاهره، وأنَّها صفة ذات إذ ليس فِي ذلك مَا يحيل صفاته، لأنَّا لا نحمله عَلَى ساعد هُوَ جارحة، بل صفة ذات لا نعقلها، كَمَا أثبتنا ذاتاً لا كالذَّوات فإن قِيلَ: المراد بالسَّاعد ها هنا: القوَّة، فعبر عنها بالسَّاعد لأنَّه محل للقوَّة، وقد يعبر عَن الشَّيء بمحله كَمَا سمت العرب البصر: عينا، والسَّمع: أذنا، كذلك تسمَّى القدرة ساعداً، وَمِنْهُ يقال: جمعت هَذَا المال بقوَّة ساعدي، ويراد به بالتَّدبير والقوَّة دون المباشرة بالسَّاعد قيل: هَذَا غلط، لأنَّه يوجب حمل قوله: ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] معناه بالقدرة ... وإنما لَمْ يجب حمل الموسى عَلَى أنَّه صفة للذَّات كالسَّاعد لأَنَّ الموسى آلة، والآلات لا تكون صفاتاً للذَّات، وليس كذلك السَّاعد، لأنَّه قد يكون من صفات الذَّات بدليل كونه صفة للذَّات فِي الشَّاهد، فإذا ورد الشَّرع بإضافته، لَمْ يمتنع حمله عَلَى ظاهره، كَمَا لَمْ يمتنع حمل اليد والوجه عَلَى ظاهره " (٢) .

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى (٦/ ١٣٦) ، مجموعة الرسائل والمسائل (٥/ ٧٦) .

(٢) انظر : إبطال التأويلات لأخبار الصفات (١/ ٣٤٤-٣٤٦ باختصار) .

قال الإمام ابن الجوزي في الرَّدِّ عليه : " قال القاضي أبو يعلىٰ : لا يمتنع حمل الخبر علىٰ ظاهرة في إثبات السَّاعد صفة لذاته .

قلت : وهذا منه غفلة عامية وخروج عن مقتضىٰ الفهم، وكان ينبغي أن يثبت الموسىٰ .

قلت : إثبات صفة الله بهذا الخبر الذي لا يكاد يثبت مع الإعراض عن فهم خطاب العرب وأنَّها تريد بمثل هذا التَّجوُّز والإستعارة قبيح جداً .

والمراد بالسَّاعد : القوَّة لأنَّ قوَّة الإنسان في ساعده " (١) .

(٥) إِعْتِقَادُهُم بِأَنَّ الله يَشْعُرُ بِالمَلَلِ :

قال القاضي أبو يعلىٰ ، محمَّد بن الحسين بن محمَّد بن خلف ابن الفرَّاء (٤٥٨هـ) : " اعلم أنَّه غير ممتنع إطلاق وصفه تَعَالَىٰ بالملل لا عَلَىٰ مَعْنَىٰ السَّآمة والاستثقال ونفور النَّفس عَنْهُ، كَمَا جاز وصفه بالغضب لا عَلَىٰ وجه النُّفور ... " (٢) .

قال الإمام ابن الجوزي في الرَّدِّ عليه : " ... المعنىٰ لا يملّ وإن ملُّوا ، وإلَّا لم يكن له فضل عليهم .

وقال قوم : من ملَّ من شيء تركه ، والمعنىٰ لا يترك الثَّواب ما لم يتركوا العمل . وأمَّا الملل الذي هو كراهة الشَّيء والاستثقال له ونفور النَّفس عنه والسَّآمة منه فمحال في حقِّه تعالىٰ ، لأنَّه يقتضي تغيّره وحلول الحوادث .

وقال القاضي أبو يعلىٰ : لا يمتنع إطلاق الملل عليه لا بمعنىٰ السَّآمة .

قلت : وهذا بعيد عن معرفة اللغة وما يجوز عليه وما لا يجوز عليه " (٣) .

(٦) إِعْتِقَادُهُم بِالحَقْو لله تَعَالَىٰ :

قال القاضي أبو يعلىٰ ، محمَّد بن الحسين بن محمَّد بن خلف ابن الفرَّاء (٤٥٨هـ) : " ... اعلم أنَّه غير ممتنع حمل هَذَا الخبر عَلَىٰ ظاهره، وأنَّ الحقو والحجزة صفة ذات لا عَلَىٰ وجه الجارحة والبعض، وأنَّ الرَّحم آخذة بها عَلَىٰ وجه الاتِّصال والمماسَّة بل نطلق ذلك تسمية كَمَا أطلقها الشَّرع ، ونظير هَذَا مَا حملناه عَلَىٰ ظاهره فِي وضع القدم فِي النَّار، وَفِي أخذ داود بقدمه لا عَلَىٰ وجه الجارحة وَلا عَلَىٰ وجه المماسَّة، كَمَا أثبتنا خلق آدم

---

(١) انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه (ص٢١٦) .

(٢) انظر : إبطال التأويلات لأخبار الصفات (١/ ٣٧٠) .

(٣) انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه (ص٢٢٠) .

بيديه، فاليدان صفة ذات، والخلق بها لا عَلَىٰ وجه المماسَّة والملاقاة، كذلك ها هنا، وَكَمَا أثبتنا الاستواء لا عَلَىٰ وجه الجهة والمماسَّة .

وَذَكَرَ شيخنا أَبُو عبد اللهَّ رحمه اللهَّ فِي كتابه هَذَا الحديث وأخذ بظاهره وهو ظاهر كلام أحمد .

قَالَ المروذي: جاءني كتاب من دمشق فعرضته عَلَىٰ أَبِي عبد اللهَّ فنظر فِيهِ، وكان فِيهِ: أَنَّ رجلاً ذكر حديث أَبِي هريرة، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ اللهَّ عزَّ وجلَّ خلق الخلق حتىٰ إِذَا فرغ منها قامت الرَّحم فأخذت بحقو الرَّحمن " وكان الرَّجل تلقيه يَعْنِي حديث أَبِي هريرة فرفع المحدِّث رأسه وَقَالَ: أخاف أن تكون كفرت، فَقَالَ أَبُو عبد اللهَّ: هَذَا جهمي " (١) .

قال الإمام ابن الجوزي في الرَّدِّ عليه : " قلت وهذه الأمثال كلّها ترجع إلىٰ ما بينَّا ، ومعنىٰ تعلّقها بحقو الرَّحمن : الإستجارة والإعتصام .

وفي صحيح مسلم من حديث عائشة عن النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّه قال : الرَّحم معلَّقة بالعرش تقول : من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله .

قال أبو بكر البيهقي : الحقو الإزار والمعنىٰ يتعلَّق بعزِّه .

قال ابن حامد : يجب التَّصديق بأنَّ لله تعالىٰ حقواً فتأخذ الرَّحم بحقوه ...

قال ابن حامد : والمراد بالتَّعلُّق : القُربُ والمماسَّة بالحقو كما روي : أنَّ الله تعالىٰ يُدني إليه داود حتىٰ يمسّ بعضه !!!

قلت – ابن الجوزي – : قد طمَّ القاضي أبو يعلىٰ علىٰ هذا فقال : لا علىٰ وجه الجارحة والتَّبعيض ، والرَّحم آخذة بها لا علىٰ وجه الجارحة والتَّبعيض ، والرَّحم آخذة بها لا علىٰ وجه الاتِّصال والمماسَّة ، ثمَّ نقض هذا التَّخليط وقال : في الخبر إضمار تقديره : ذو الرَّحم يأخذ بحقو الرَّحمن فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ، قال : لأنَّ الرَّحم لا يصحُّ عليها التَّعلُّق ، فالمراد ذو الرَّحم يتعلَّق بالحقو .

قلت : فقد زاد علىٰ التَّشبيه التَّجسيم ، والكلام مع هؤلاء ضائع ، كما يقال : لا عقل ولا قرآن ، وإذا تعلَّق ذو الرَّحم وهو جسم فبماذا يتعلَّق ، نعوذ بالله من سوء الفهم " (٢) .

(٧) إِعْتِقَادُهُم بِالجَنْبِ لله تَعَالَى :

---

(١) انظر : إبطال التأويلات لأخبار الصفات (١/ ٤٢٠-٤٢١) .

(٢) انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه (ص٢٣١-٢٣٢) .

قال القاضي أبو يعلىٰ ، محمَّد بن الحسين بن محمَّد بن خلف ابن الفرَّاء (٤٥٨هـ) : " ... قَالَ : وأخبرني يزيد بْن هارون، عَن الحجَّاج بْن أرطأة قَالَ: الشّجنة كالغصن تكون من الشَّجر أو كلمه نحوها وأمَّا قوله تَعَالَىٰ: ﴿يَحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٥٦] فحكىٰ شيخنا أَبُو عبد اللهَّ رحمه فِي كتابه عَن جماعة من أصحابنا الأخذ بظاهر الآية فِي إثبات الجنب صفة لَهُ سُبْحَانَهُ " (١) .

وقال ابن قيّم الجوزيَّة : " هَبْ أَنَّ الْقُرْآنَ دَلَّ عَلَىٰ إِثْبَاتِ جَنْبٍ هُوَ صِفَةٌ، فَمِنْ أَيْنَ لَكَ ظَاهِرُهُ أَوْ بَاطِنُهُ عَلَىٰ أَنَّه جَنْبٌ وَاحِدٌ وَشِقٌّ وَاحِدٌ؟ وَمَعْلُومٌ أَنَّ إِطْلَاقَ مِثَالِ هَذَا لَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّه شِقٌّ وَاحِدٌ كَمَا «قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ: " صَلِّ قَائِمًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَىٰ جَنْبٍ» "، وَهَذَا لَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّه لَيْسَ لِلْمَرْءِ إِلَّا جَنْبٌ وَاحِدٌ.

فَإِنْ قِيلَ: الْمُرَادُ عَلَىٰ جَنْبٍ مِنْ جَنْبِكَ، قُلْنَا: فَقَدْ عُلِمَ أَنَّ ذِكْرَ الْجَنْبِ مُفْرَدًا لَا يَدُلُّ عَلَىٰ نَفْيِ أَنْ يَكُونَ لَهُ جَنْبٌ آخَرُ " (٢) .

قال الإمام ابن الجوزي في الرَّدِّ عليهم : " ... أي في طاعته وأمره ، أي : لأنَّ التَّفريط لا يقع إلَّا في ذلك ، وأمَّا الجنب المعهود من ذي الجوارح فلا يقع فيه تفريط .

وقال ابن حامد : نؤمن بأنَّ لله تعالىٰ جنباً بهذه الآية .

قلت : وآعجباً من عدم العقول إذا لم يتهيَّأ التَّفريط في جنب مخلوق كيف يتهيَّأ في صفة الخالق ؟!!

وأنشد ثعلب وفسَّره :

خليليَّ كفَّا فاذكرا الله   في جنبي أي في أمري " (٣) .

(٨) إِعْتِقَادُهُم بِالخِنْصَرُ لله تَعَالَى :

قال القاضي أبو يعلىٰ ، محمَّد بن الحسين بن محمَّد بن خلف ابن الفرَّاء (٤٥٨هـ) : " ... فِي الخنصر: وَهُوَ عَلَىٰ ظاهره، إذ ليس فِي حمله عَلَىٰ ذلك مَا يحيل صفاته، وأنَّ الخنصر كالإصبع، والإصبع كاليد، وقد جاز إطلاق اليدين، كذلك ها هنا يجب أن يجوز لا عَلَىٰ وجه التَّبعيض والعضو ... " (٤) .

---

(١) انظر : إبطال التأويلات لأخبار الصفات (١/ ٤٢٧) .

(٢) انظر : مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة (ص٣٦-٣٧) .

(٣) انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه (١/ ١٤٠) .

(٤) انظر : إبطال التأويلات لأخبار الصفات (١/ ٣٣٥) .

وروىٰ أحمد بسنده من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ ﴾ [الأعراف: ١٤٣] قَالَ: " قَالَ: هَكَذَا، يَعْنِي أَنَّه أَخْرَجَ طَرَفَ الْخِنْصَرِ " قَالَ: أَبِي: " أَرَانَاهُ مُعَاذٌ " قَالَ: فَقَالَ لَهُ حُمَيْدٌ الطَّوِيلُ: مَا تُرِيدُ إِلىٰ هَذَا يَا أَبَا مُحَمَّدٍ؟ قَالَ: فَضَرَبَ صَدْرَهُ ضَرْبَةً شَدِيدَةً، وَقَالَ: مَنْ أَنْتَ يَا حُمَيْدُ؟ وَمَا أَنْتَ يَا حُمَيْدُ، يُحَدِّثُنِي بِهِ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَتَقُولُ أَنْتَ مَا تُرِيدُ إِلَيْهِ " (١) .

قال الإمام ابن الجوزي : " قلت هذا الحديث تكلَّم فيه علماء الحديث وقالوا لم يروه عن ثابت غير حمَّاد بن سلمة ، وكان ابن أبي العوجاء الزِّنديق قد أدخل علىٰ حمَّاد أشياء فرواها في آخر عمره ، ولذلك تجافىٰ أصحاب الصَّحيح الإخراج عنه ، ومخرج الحديث سهل وذلك أنَّ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقرِّب إلىٰ الإفهام بذكر الحسيَّات فوضع يده علىٰ خنصره إشارة إلىٰ أنَّ الله تعالىٰ أظهر اليسير من آياته .

قال ابن عقيل : كشف من أنواره التي يملكها بقدر طرف الخنصر ، وهذا تقدير لنا بحسب ما نفهم من القلَّة لا نحكم أنَّه يتقدَّر فإن قيل كيف أنكر حميد علىٰ ثابت ، قلنا : يحتمل أن يكون توهَّم أنَّ هذا يرجع إلىٰ الصِّفات . وقد أثبت القاضي أبو يعلىٰ لله سبحانه خنصراً بهذا الحديث المعلول " (٢) ...

(٩) إِعْتِقَادُهُم بِالأَصَابِعِ لله تَعَالَىٰ :

قال القاضي أبو يعلىٰ : " إثبات صفة الأصابع للرَّحمن سُبْحَانَهُ ... اعلم أنَّه غير ممتنع حمل الخبر عَلَىٰ ظاهره فِي إثبات الأصابع والسبَّابة والتي تليها عَلَىٰ مَا روي فِي حديث جابر، إذ ليس فِي حمله عَلَىٰ ظاهره مَا يحيل صفاته ، وَلا يخرجها عمَّا تستحقُّه، لما بينا فِي الخبر الَّذِي قبله، لأنَّا لا نثبت أصابعاً هِيَ جارحة وَلا أبعاضاً ... اعلم أنَّه غير ممتنع حمل الخبر عَلَىٰ ظاهره، وأنَّ الإصبع صفة ترجع إلىٰ الذَّات، وأنَّه تجوز الإشارة فيها بيده ..." (٣) .

وقد ردَّ الإمام ابن الجوزي علىٰ القاضي في هذه المسألة ، فقال : " وقال القاضي أبو يعلىٰ غير ممتنع حمل الخبر علىٰ ظاهره في الإثبات ، والإصبع صفة راجعة إلىٰ الذَّات لأنَّا لا نثبت أصابعاً هي جارحة ولا أبعاضاً .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٩/ ٢٨١ برقم ١٢٢٦٠) .

(٢) انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه (ص٢١٥) .

(٣) انظر : إبطال التأويلات لأخبار الصفات (١/ ٣١١-٣٢٢ باختصار) .

قلت : وهذا كلام مخبط لأنَّه إمَّا أن يثبت جوارحاً وإمَّا أن يتأوَّلها ، فأمَّا حملها على ظواهرها فظواهرها الجوارح ، ثمَّ يقول : ليست أبعاضاً ، فهذا كلام قائم قاعد ويضيع الخطاب لمن يقول هذا " (١) .

(١٠) إعْتِقَادُهُم بِأنَّ الله يَتَوَجَّع :

فقد جاء في كتاب : " تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان " للشَّيخ السَّعدي : " قال الله متوجِّعاً !!! للعباد : ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ ﴾ [يس : ٣٠] ، أي : ما أعظم شقاءهم ، وأطول عناءهم ، وأشدّ جهلهم ، حيث كانوا بهذه الصِّفة القبيحة ، التي هي سبب لكلِّ شقاء وعذاب ونكال " (٢) .

فالسَّعدي يصف الله تعالى بصفة " التَّوجُّع " التي لم يقُلها قبله أحدٌ من العالمين ، وقد ورد هذا اللفظ الشَّنيع في طبعات : دار الرِّسالة ، ودار ابن الجوزي ، وطبعة مكتبة الرُّشد ، وقد حاول بعض أدعياء السَّلفيَّة تدارك فداحة ما وقع فيه مفسِّرهم السَّعدي المعتمد لديهم ، فحرَّف قوله : (متوجِّعاً !!!) لتصبح (مترحِّماً) ، وقد نشرت التَّحريف في طبعتها لكتاب السَّعدي كلٌ من : دار المدني بجدَّة ، وطبعة المؤسسة السَّعيديَّة ، وكذا طبعة مركز ابن صالح ... فما رأيكم بهذا التَّحريف الذي ما كان إلَّا لجبر كسر كبير حصل في كلام عالم من كبار علمائهم ؟!! أم أنَّهم سيقولون بوصلتهم المعروفة دائماً : إنَّ الله تعالى يتوجَّع لا كتوجُّعنا ، بل يتوجَّع توجُّعاً يليق به !! سبحانك ربِّي هذا بهتانٌ عظيم ...

والحقّ ... أنَّ جميع المسائل السَّابقة وغيرها الكثير الكثير من تخرُّصاتهم وتخابطاتهم ... وقد قمت بالرَّدِّ عليها ضمن سلسلة الرُّدود عليهم ، وبرهنت بالأدلَّة من الكتاب والسُّنَّة ... على مخالفتهم لعموم الأمَّة سلفاً وخلفاً ، وبالتَّالي يتَّضح لكلِّ عاقل بأنَّ من يدَّعون السَّلفيَّة مخالفون للسَّلف في أغلب المسائل التي طرحوها ، وأنَّ السَّلف منهم براء ، لأنَّ السَّلف الصَّالح فوَّضوا معاني جميع الألفاظ المتشابهة إلى الله تعالى ، مع إيمانهم بها واعتقاد تنزيهه سبحانه عن ظاهر معناها ...

---

(١) انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه (ص٢٠٧) .

(٢) انظر : تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنان (ص٦٩٥) .

الفَصْلُ الثَّالِث

أَقْوَالُ العُلَمَاءِ فِي الآيَاتِ التِي يُوْهِمُ ظَاهِرُهَا العُلُو المَكَانِي لله تَعَالَى

يستدلُّ القائلون بالعلوِّ المكانيِّ لله تعالى بعدد من الآيات ، منها : قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف: ٥٤] ، وقوله تعالى : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦] ، وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨] ، وقوله تعالى : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠] ، وقوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠] ، وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة:٥] ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر:٣٧] ، وقوله تعالى : ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران:٥٥] ، وقوله تعالى : ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء:١٥٨] ، وقوله تعالى : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج:٤] ...

أَوَّلاً : آيَاتُ الاسْتِوَاء : جاء الاستواء على العرش في القرآن الكريم في سبع آيات ، هي :

قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤]

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس:٣]

وقوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد:٢]

وقوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه:٥]

وقوله تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٩]

وقوله تعالىٰ : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة:٤]

وقوله تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤] .

هذه هي الآيات التي ذكرت الاستواء علىٰ العرش ... وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ البعض غلا في مسألة الاستواء علىٰ العرش حتَّىٰ وصل به غلوُّه إلىٰ حدِّ التَّجسيم البحت ، حيث خاضوا في المسألة مُقلِّدين من خلعوا عليه ألقاباً كالمجدِّد ، وشيخ الإسلام ، ... متناسين ما يجب لله تعالىٰ من وجوب التَّنزيه الوارد في قوله تعالىٰ : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:١-٤] ، وقوله : ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْۗ﴾ [الزمر:٧] ، وقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾ [الشورىٰ:١١] ، وممَّا يدعو للأسىٰ أنَّهم يسمُّون أنفسهم بالسَّلفيِّين ، ويزعمون كاذبين أنَّ ما هم عليه في هذه المسألة وغيرها ممَّا شابهها هو ما كان عليه السِّلف ...

وقبل تناول مسألة التَّنزيه وغيرها من الآيات التي يستدلُّ بها المتمسلفون ، لا بدَّ من التَّأكيد علىٰ بعض المُسلَّمات العقديَّة ، ومنها :

أَوَّلاً : ضرورة تنزيه الله تعالىٰ عن الجسميَّة ، وأنَّ الله تعالىٰ لا يدخل تحت التَّخيُّل والتَّصوُّر لأنَّه لا يدخل تحت ذلك إلَّا جسم ، وخيال الإنسان لا يتوهَّم شيئاً إلَّا علىٰ وفق ما رآه من المحسوسات المجسوسات ، والله تعالىٰ يتنزَّه عن كلِّ ذلك ، إذ كلُّ ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك .

وقد تكلَّمنا عن ذلك في الفصل الثَّاني من هذا الكتاب ...

ثَانِيَاً : ضرورة تنزيه الله تعالىٰ عن الكيفيَّة ... فالله تعالىٰ يتنزَّه عن الكيفيَّة لأنَّ الكيْف لا تليق إلَّا بالأجسام ، وهي من صفات المُحدَثات ... فإنَّ من المسلَّمات أنَّ من لَا مثْل لَهُ لَا يُقَال فِيهِ كَيفَ هُوَ ...

ثَالِثَاً : ضرورة تنزيه الله تعالىٰ عن الأينيَّة ... فهو سبحانه يتنزَّه عن الأين ، لأنَّ الأين سُؤال عَن المُكَان ، وَلَيْسَ هُوَ مِمَّن يجوز عليه أَن يحويه مَكَان ، فكلّ ما سواه تعالىٰ مخلوق له ومربوب ، وقد أجمعت الأمَّة علىٰ أنَّ الله تعالىٰ لَا يحويه مَكَان ...

وإِذَا وجبَ تَنْزِيهُ الله عن المكان ، فمن ضرورة ذلك تنزيهه عن الجهة – التي هي مكان بلا شكٍّ – ... وقد أَجمعَ أَهْلُ الحَقِّ قَاطِبَةً على أنَّ الله تَعالى لا جِهَةَ له ، فلا فوقَ له ولا تحتَ ولا يمينَ ولا شمالَ ولا أمامَ ولا خَلْفَ ، لأنَّ هذه الجهات وُجدت بحسب خلق الإنسان ... فلو كان شكل الإنسان كالكرة مثلاً لانتفت الجهات ...

رَابِعَاً : ضرورة تنزيه الله تعالى عن التَّغيير والتَّبديل من حال إلى حال ، فهذا كلُّه مُحالٌ في حقِّ الله تعالى القديم الأزلي ؛ فإنَّ كلَّ متغيِّر لا بدَّ له من مغيِّر ...

خَامِسَاً : ضرورة تنزيه الله تعالى عن الاستقرار والجلوس والقعود والمُلاصقة والمُماسَّة لشيء من خلقه ، لأنَّ الاستقرار والملاصقة صفة الأجسام المخلوقة ، والرَّبُّ عزَّ وجلَّ قديم أزليٌّ ، أبداً كان وأبداً يكون ... ولو كان مستقرّاً على العرش لكان محمولاً ... وَمن المعلوم أنَّه يلْزم مِن الاستقرار ونظائره الْحُلُول والتناهي ، وَهُوَ محَال فِي حقِّ الله تَعَالَى ... فالعرش مخلوق ، كان بعد أن لم يكن ، والله تعالى كان ولا مكان، ثمَّ خلق المكان، وهو الآن على ما عليه كان .

سَادِسَاً : ضرورة تنزيه الله تعالى عن النُّقلة والحركة ، لأنَّ ذلك من صفة المُحدثات ، وأنَّ ما ورد من نزولَهُ تعالى فليس إلَّا نزول إحسانٍ وإقبال على أهل الأرض بالرَّحْمَة والإنَابَة والمغفرة ... فاللهَ سبحانه مُنَزَّةٌ عن الحركة والانتقال؛ لأنَّه سبحانه لا يُشغل مكاناً لينتقل منه إلى مكان آخر ...

سَابِعَاً : أنَّ العرش مخلوق من مخلوقات الله ، وهو غيْبٌ من الغيْب الذي استأثر الله تعالى بعلمه ، وهو وبلا شكٍّ محدود مصوَّر ... فمن قال باستقرار الحقِّ عليه سبحانه غفل عن أنَّ المستقرَّ على الشَّيء يأخذ شكل ما استقرَّ عليه ... كما أنَّه قد يكون بمثله أو أصغر منه أو أكبر ، وكلُّ ذلك من صفات المحدثات .

ثَامِنَاً : أنَّ معاجم اللغة العربيَّة ذكرت العديد من المعاني للاستواء ،والواجب وضع معنى يتناسب مع تنزيه الله تعالى عن مشابهة المُحدثات ...

فمن معاني الاستواء التي جاءت في معاجم اللغة : الملك ، واستئثار الملك ، واستواء الحكم ، والقصد إلى الشَّئ ، وعلوّ العظمة والعزَّة ، وعلوّ القهر والغلبة ، والانتصاب ، والاعتدال ، وَتَمام الشَّبَاب ، وانتهاؤه ، وَالْقَصْد فِي الشَّيء ، والإقبال عَلَيْهِ ، والإستيلاء على الْأَمر ، والتَّفرُّد بِهِ والتَّمكُّن والاستقرار ...

والنَّاظر فيما قاله علماء الأمَّة في معنى الاستواء على العرش ... يجد أنَّ جمهورهم ذهب إلى ما يُخالف ما ذهب إليه المجسِّمة الذين ذهبوا إلى تفسير الاستواء بالجلوس والاستقرار على العرش ، والعياذ بالله تعالى ...

فمن أشهر المعاني التي ذكرها العلماء للاستواء :

(١) قال بعضهم : أنَّ الاستواء على العرش معناه : علا عليْها عُلوَّ مُلكٍ وَسُلطان لا عُلوَّ انْتِقالٍ وزوالٍ ، وَمعنى علوّ الله وَارتِفاعهُ عِبارةٌ عن عُلوِّ مجده وصفاتِهِ وَملَكوتهِ ، أَي لَيس فَوْقهُ فِيما يَجِب لهُ مِنْ مَعانِي الجَلَالِ أَحَدٌ، ولا مَعه مَنْ يَكونُ الْعلوُّ مشْتركاً بَينَه وَبَينهُ، لَكِنَّه العليّ بالإطلاق سبحانه .

(٢) وقال بعضهم : أنَّ الاستواء على العرش معناه : الاستيلاء على الْأَمر ، والتَّفرُّد بِهِ ، وَمِنْه قَوْلهم : اسْتَوَىٰ فلَان على الْملك ، وَفِي عمله ، أَي : اسْتَولى عَلَيْهِ ، وَتفرَّد بِهِ ، والعليُّ والعالي القاهر الغالب للأشياء . تقول العرب : علا فلان فلاناً : أي : غلبه وقهره ، كما قال الشَّاعر :

فلمَّا علونا واستوينا عليهم   تركناهم صرعى لنسر وكاسر

يعني : غلبناهم ، وقهرناهم ، واستولينا عليهم .

ومن المعلوم أنَّ حمل الاستواء على القهر والغلبة شائع في اللغة، إذ العرب تقول : استوى فلان على الممالك إذا احتوى على مقاليد الملك واستعلى على الرِّقاب . وفائدة تخصيص العرش بالذِّكر أنَّه اعظم المخلوقات في ظنِّ البريَّة، فنصَّ عليه تنبيهاً بذكره على ما دونه. فإن قيل: الاستواء بمعنى الغلبة ينبئ عن سبق مكافحة ومحاولة، قلنا: هذا باطل، إذ لو أنبأ الاستواء عن ذلك لأنبأ عنه القهر. ثمَّ الاستواء بمعنى الاستقرار بالذَّات ينبئ عن اضطراب واعوجاج سابق، والتزام ذلك كفر .

فالاستواء على العرش، هو القيام على هذا الوجود، والاستيلاء على مركز القوة والسُّلطان فيه . فلا تخرج ذرّة من ذرَّات هذا الوجود عن سلطان الله، وعن علم الله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩] .

ويضاف لما سبق أنَّ أهل اللغة قالوا في كلامهم على المصدر " سوا " : ومتى عدِّي بـ" على " اقتضى معنى الاستيلاء، كقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ، وقيل: معناه استوى له ما في السموات وما في الأرض، أي: استقام الكلّ على مراده بِتَسْوِيَةِ الله تعالى إيّاه .

(٣) وقال بعضهم : هذا من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلَّا الله ، وذكر عن يزيد بن هارون أنَّه سئل عن تأويله ، فقال : تأويله الإيمان به ... وهذا هو مذهب جمهور السَّلف الذين ذهبوا إلى التَّفويض الإجمالي ، فمنعوا من التَّعرُّض لمعناه ،، بينما ذهب جمهور الخلف إلى تأويله قصداً للإيضاح ...

(٤) وقال بعضهم : أنَّ الاستواء على العرش لا يشبه استواء الخلق، ولا نقول : إنَّ العرش له قرار، ولا مكان، لأنَّ الله تعالى كان ولا مكان، فلمَّا خلق المكان لم يتغيَّر عمَّا كان ...

(٥) وقال بعضهم : أنَّ أصل الاستواء التَّدبير، كما أنَّ أصل القيام الانتصاب، ثمَّ يقال: قائم بالتَّدبير، والمعنىٰ ثمَّ استوىٰ علىٰ العرش بالتَّدبير للأجسام التي خلقها، و " ثمَّ " تدلُّ علىٰ حدوث التَّدبير ، أي أخذ في التَّدبير لما أوجده وأحدث خلقه أخذاً مستوفىٰ مستقصىٰ مستقلاً به ، لأنَّ هذا شأن من يملك ملكاً ويأخذ في تدبيره وإظهار أنَّه لا منازع له في شيء منه .

(٦) وقال بعضهم : أحدث الله فعلاً سمَّاه استواء ، وهو كالإتيان والمجيء ، والنُّزول ، وهي صفات أفعاله

(٧) وأخيراً اتَّفق السَّلف والخلف علىٰ أنَّ ظاهر الاستواء علىٰ العرش وهو الجلوس عليه مع التَّمكُّن والتَّحيُّز مستحيل ، لأنَّ الأدلَّة القاطعة تنزِّه الله عن أن يشبه خلقه أو يحتاج إلىٰ شيء منه ، سواء أكان مكاناً يحُلُّ فيه أم غيره ، ولأنَّه تعالىٰ نفىٰ عن نفسه المماثلة لخلقه وأثبت لنفسه الغنىٰ عنهم ...

فليس المراد بالاستواء ظاهره لاستحالته عليه تبارك وتعالىٰ عمَّا يقول الظَّالمون والجاحدون علوَّاً كبيراً ، ثمَّ هو بعد ذلك مخيَّر إن شاء أوَّلها بنحو ما ذكرناه وهي طريقة جمهور الخلف ، وآثروها لكثرة المبتدعة القائلين بالجهة والجسميَّة وغيرهما ممَّا هو محال علىٰ الله تعالىٰ ، وإن شاء فوَّض علمها إلىٰ الله تعالىٰ وهي طريقة جمهور السَّلف ، وآثروها لخلوِّ زمانهم عمَّا حدث من الضَّلالات الشَّنيعة والبدع القبيحة ، فلم يكن لهم حاجة إلىٰ الخوض فيها .

وفيما يلي طائفة من أقوال علماء الأمَّة في تفسير الاستواء علىٰ العرش ...

قال الإمام أبو حنيفة (١٥٠هـ) : " نُقِرُّ بأنَّ الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ العرش استوىٰ ، من غير أن يكون له حاجة ، واستقرار عليه ، وهو حافظ العرش ، وغير العرش من غير احتياج ، فلو كان محتاجاً لما قَدِر علىٰ إيجاد العالم وتدبيره كالمخلوقين ، ولو صار محتاجاً إلىٰ الجلوس والقرار ، فَقَبْلَ خلْقِ العرش أين كان الله تعالىٰ ؟ تعالىٰ الله عن ذلك علوَّاً كبيراً " [١] .

وقال الإمام الأخفش الأوسط (٢١٥هـ) : " وأمَّا قوله : ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:٢٩] ، فإنَّ ذلك لم يكن من الله تبارك وتعالىٰ لتحوُّل، ولكنَّه يعني فعله ، كما تقول : " كان الخَلِيفَة في أَهْلِ العراق يولِّيهم ثمَّ تحوّل إلىٰ أَهلِ الشَّام" إنَّما تريد تحول فعله " [٢] .

وقال الأخفش الأوسط أيضاً : " وقال :﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] ، يقول : "عَلاَ " ومعنىٰ "عَلاَ ": قَدَر . ولم يزل قادراً ولكن أخبر بقدرته " [١] .

---

[١] انظر : الوصية ، أبو حنيفة (ضمن كتاب العالم والمتعلم) (ص٧٧) .

[٢] انظر : معانى القرآن (١/ ٦٢) .

قلت : وفي هذا توضيح وبيانٌ لتفسير من فسَّر الاستواء بالعلو ... حيث ذهب إلى أنَّ العلو المُراد إنَّما هو علو القدرة ...

وقال الإمام الطَّبري (٣١٠هـ) : " قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: الِاسْتِوَاءُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ مُنْصَرِفٌ عَلَى وُجُوهٍ: مِنْهَا انْتِهَاءُ شَبَابِ الرَّجُلِ وَقُوَّتِهِ، فَيُقَالُ إِذَا صَارَ كَذَلِكَ: قَدِ اسْتَوَى الرَّجُلُ، وَمِنْهَا اسْتِقَامَةُ مَا كَانَ فِيهِ أَوَدٌ مِنَ الْأُمُورِ وَالْأَسْبَابِ، يُقَالُ مِنْهُ: اسْتَوَى لِفُلَانٍ أَمْرُهُ: إِذَا اسْتَقَامَ لَهُ بَعْدَ أَوَدٍ . وَمِنْهُ قَوْلُ الطِّرِمَّاحِ بْنِ حَكِيمٍ:

طَالَ عَلَى رَسْمِ مَهْدَدٍ أَبَدُهُ وَعَفَا وَاسْتَوَى بِهِ بَلَدُهْ

يَعْنِي: اسْتَقَامَ بِهِ. وَمِنْهَا الْإِقْبَالُ عَلَى الشَّيْءِ بِالْفِعْلِ، كَمَا يُقَالُ: اسْتَوَى فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ بِمَا يَكْرَهُهُ وَيَسُوءُهُ بَعْدَ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِ. وَمِنْهَا الِاحْتِيَازُ وَالِاسْتِيلَاءُ كَقَوْلِهِمْ: اسْتَوَى فُلَانٌ عَلَى الْمَمْلَكَةِ، بِمَعْنَى احْتَوَى عَلَيْهَا وَحَازَهَا. وَمِنْهَا الْعُلُوُّ وَالِارْتِفَاعِ، كَقَوْلِ الْقَائِلِ: اسْتَوَى فُلَانٌ عَلَى سَرِيرِهِ، يَعْنِي بِهِ عُلُوَّهُ عَلَيْهِ. وَأَوْلَى الْمَعَانِي بِقَوْلِ اللهَّ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٩] عَلَا عَلَيْهِنَّ وَارْتَفَعَ فَدَبَّرَهُنَّ بِقُدْرَتِهِ وَخَلَقَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ. وَالْعَجَبُ مِمَّنْ أَنْكَرَ الْمَعْنَى الْمَفْهُومَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِ اللهَّ: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [البقرة: ٢٩] الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى الْعُلُوِّ وَالِارْتِفَاعِ هَرَبًا عِنْدَ نَفْسِهِ مِنْ أَنْ يُلْزِمَهُ بِزَعْمِهِ إِذَا تَأَوَّلَهُ بِمَعْنَاهُ الْمَفْهِمِ كَذَلِكَ أَنْ يَكُونَ إِنَّمَا عَلَا وَارْتَفَعَ بَعْدَ أَنْ كَانَ تَحْتَهَا، إِلَى أَنْ تَأَوَّلَهُ بِالْمَجْهُولِ مِنْ تَأْوِيلِهِ الْمُسْتَنْكَرِ، ثمَّ لَمْ يَنْجُ مِمَّا هَرَبَ مِنْهُ. فَيُقَالُ لَهُ: زَعَمْتَ أَنْ تَأْوِيلَ قَوْلِهِ: ﴿ ٱسْتَوَىٰٓ ﴾ [البقرة: ٢٩] أَقْبَلَ، أَفَكَانَ مُدْبِرًا عَنِ السَّماء فَأَقْبَلَ إِلَيْهَا؟ فَإِنْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِإِقْبَالِ فِعْلٍ وَلَكِنَّهُ إِقْبَالُ تَدْبِيرٍ، قِيلَ لَهُ: فَكَذَلِكَ فَقُلْ: **عَلَا عَلَيْهَا عُلُوَّ مُلْكٍ وَسُلْطَانٍ لَا عُلُوَّ انْتِقَالٍ وَزَوَالٍ** . ثمَّ لَنْ يَقُولَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ قَوْلًا إِلَّا أُلْزِمَ فِي الْآخَرِ مِثْلَهُ، وَلَوْلَا أَنَّا كَرِهْنَا إِطَالَةَ الْكِتَابِ بِمَا لَيْسَ مِنْ جِنْسِهِ لَأَنْبَأْنَا عَنْ فَسَادِ قَوْلِ كُلِّ قَائِلٍ قَالَ فِي ذَلِكَ قَوْلًا لِقَوْلِ أَهْلِ الْحَقِّ فِيهِ مُخَالِفًا، وَفِيمَا بَيَّنَّا مِنْهُ مَا يَشْرُفُ بِذِي الْفَهْمِ عَلَى مَا فِيهِ لَهُ الْكِفَايَةُ إِنْ شَاءَ اللهُّ تَعَالَى " (٢) .

وقال الإمام إبراهيم بن السّري أبو إسحاق الزَّجَّاج (٣١١هـ) : " ... وقالوا معنى : ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ استولى – واللهَّ أعلم . والذي يدلُّ عليه استوى في اللغة على ما فعله من معنى الاستواء " (٣) ...

وقال الإمام الأشعري (٣٢٤هـ) : " وأنَّ الله تعالى استوى على العرش على الوجه الذي قاله، وبالمعنى الذي أراده، استواء منزَّهاً عن المماسَّة والاستقرار ، والتَّمكُّن والحلول والانتقال، لا يحمله العرش، بل

(١) انظر : معاني القرآن (٢/ ٤٤٣) .

(٢) انظر : تفسير الطبري (١/ ٤٥٤-٤٥٨) .

(٣) انظر : معاني القرآن وإعرابه (٣/ ٣٥٠) .

العرش وَحَملته محمولون بلطف قدرته، ومقهورون في قبضته، وهو فوق العرش، وفوق كلِّ شيء، إلىٰ تُخوم الثَّرىٰ، فوقيَّة لا تزيده قُرباً إلىٰ العرش والسَّماء، بل هو رفيع الدَّرجات عن العرش، كما أنَّه رفيع الدَّرجات عن الثَّرىٰ، وهو مع ذلك قريبٌ من كلِّ موجود، وهو أقرب إلىٰ العبد من حبل الوريد، وهو علىٰ كلِّ شيء شهيد " (١) ...

وقال الإمام محمَّد بن عُزير السِّجستاني ، أبو بكر العُزيري (٣٣٠هـ) : " وَقَوله : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ ، قيل مَعْنَاهُ : اسْتَوَىٰ عَلَيْهِ وقهره بعزَّته وظفر بِهِ . وَقيل : مَعْنَاهُ : علا عَلَيْهِ ، وَمعنىٰ الْعُلُوّ والاستيلاء فِي صفة الله تَعَالَىٰ متشابهان ؛ لأَنَّه يَعْلُو قاهراً ومدبِّراً لأمور ، ومستولياً عَلَيْهَا .

والاستواء علىٰ سِتَّة أوجه : انتصاب ، وضدّ الإعوجاج ، والاعتدال ، وَمِنْه سمِّي (اسْتَوَىٰ اللَّيْل وَالنَّهَار) ، وَتَمام الشَّبَاب ، وانتهاؤه . قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ﴾ [القصص: ١٤] ، وَالْقَصْد فِي الشَّيء ، والإقبال عَلَيْهِ . حكىٰ الْفراء : كَانَ مُقبلاً عَليّ فلَان ثمَّ اسْتَوَىٰ إِلَيَّ يشاتمني ، والإستيلاء علىٰ الْأَمر ، والتَّفرُّد بِهِ ، وَمِنْه قَوْلهم : اسْتَوَىٰ فلَان علىٰ الْملك ، وَفِي عمله ، أَي : اسْتَوْلىٰ عَلَيْهِ ، وَتفرَّد بِهِ . قَالَ الشَّاعِر :

قد اسْتَوَىٰ بِشْرُ علىٰ العِراقِ   من غَيْرِ سَيْفٍ ودَمٍ مهراقِ

أَي استولىٰ عَلَيْهَا " (٢) .

وقال الإمام أبو منصور الماتريدي (٣٣٣هـ) : " الأَصْل فِيهِ أَن الله سُبْحَانَهُ كَانَ وَلَا مَكَان ، وَجَائِز ارْتِفَاع الْأَمْكِنَة وبقاؤه علىٰ مَا كَانَ فَهُوَ علىٰ مَا كَانَ وَكَانَ علىٰ مَا عَلَيْهِ الْآن ، جلَّ عَن التَّغَيُّر وَالزَّوَال والإستحالة والبُطلان ، إِذْ ذَلِك أَمَارَات الْحَدث الَّتِي بهَا عرف حدث الْعَالم وَدلَالَة إحتمال الفناء إِذْ لَا فرق بَين الزَّوَال من حَال إِلىٰ حَال ليعلم أَنَّ حَاله الأولىٰ لم تكن لذاته إِذْ لَا يحْتَمل زَوَال مَا لزم ذَاته وَبَين أَنَّهَا لَيست لذاته لما احْتمل هُوَ قبُول الْأَعْرَاض وانتقال الْأَحْوَال ، وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللهَّ ....

وَبعد ، فَإِن فِي تَحْقِيق الْمَكَان لَهُ وَالْوَصْف لَهُ بِذَاتِهِ فِي كلِّ مَكَان تَمْكِين الْحَاجة لَهُ إِلىٰ مَا بِهِ قراره علىٰ مثل جَمِيع القَوْل بالكون علىٰ الْعَرْش وَهُوَ مَوضِع بِمَعْنىٰ كَونه بِذَاتِهِ أَو فِي كلِّ الْأَمْكِنَة لَا يعدو من إحاطة ذَلِك بِهِ أَو الإستواء بِهِ أَو مجاوزته عَنهُ وإحاطته بِهِ ، فَإِن كَانَ الأوَّل فَهُوَ إِذاً مَحْدُود بِهِ محاط مَنْقُوص عَن الْخلق إِذْ هُوَ دونه وَلَو جَازَ الْوَصْف لَهُ بِذَاتِهِ بِمَا يُحِيط بِهِ من الْأَمْكِنَة لجَاز بِمَا يُحِيط بِهِ من الْأَوْقَات فَيصير متناهياً بِذَاتِهِ مقصّراً عَن خلقه ، وَإِن كَانَ علىٰ الْوَجْه الثَّانِي فَلَو زيد علىٰ الْخلق لَا ينقص أَيْضاً ، وَفِيه مَا فِي الأوَّل ، وَإِن

---

(١) انظر : الإبانة عن أصول الديانة (ص٢١) .

(٢) انظر : غريب القرآن المسمىٰ بنزهة القلوب (ص١١٤) .

كَانَ علىٰ الْوَجْه الثَّالِث فَهُوَ الْأَمر الْمَكْرُوه الدَّال علىٰ الْحَاجة وعَلىٰ التَّقْصِير من أَن ينشئ مَا لَا يفضل عَنهُ مَعَ مَا يذم ذَا من فعل الْمُلُوك أَن لَا يفضل عَنْهُم من المعامد شَيْئاً ...

وَبعد ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الإرتفاع إِلىٰ مَا يَعْلُو من الْمَكَان للجلوس أَو الْقيام شرف وَلَا علوّ وَلَا وصف بالعظمة ، والكبرياء كمن يَعْلُو السُّطوح أَو الْجبَال أَنَّه لَا يسْتَحق الرّفْعَة علىٰ من دونه عِنْد إستواء الْجَوْهَر فَلَا يجوز صرف تَأْوِيل الْآيَة إِلَيْهِ ... وَقَالَ بَعضهم : يُرِيد بالعرش الْملك إِذْ هُوَ اسْم مَا ارْتَفع من الْأَشْيَاء وَعلا حَتَّىٰ سمّىٰ بِهِ السُّطوح ورؤوس الْأَشْجَار والإستواء قيل فِيهِ بأوجه ثَلَاثَة ، أَحدهَا : الإستيلاء كَمَا يُقَال اسْتَوَىٰ فلَان علىٰ كورة كَذَا بِمَعْنىٰ استولىٰ عَلَيْهَا ، وَالثَّانِي : الْعُلُوّ والإرتفاع كَقَوْلِه : ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون:٢٨] ، وَالثَّالِث : التَّمام كَقَوْلِه تَعَالَىٰ : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾[القصص:١٤] ، وَقد قيل : بِالْقَصْدِ إِلىٰ ذَلِك وَجه بعض أهل الْأَدَب قَوْله : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:٢٩] بِمَعْنىٰ خلق علىٰ التَّمْثِيل بِفعل الْخلق فِيمَا يَتْلُو فعلهم أَن يكون بِالْقَصْدِ وَإِن كَانَ لَا يُقَال لَهُ قصد وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللهَّ .

قَالَ الشَّاعِر :

ظَنَنْت أَنَّ عرشك لَا يَزُول وَلَا يُغير ...

وَقَالَ آخر :

إِذا مَا بنوا مَرْوَان ثلَّت عروشهم وأودوا كَمَا أودت إياد وحمير

وَقَالَ النَّابِغَة :

عروش تفانوا بعد عزٍّ وَأَمَّتهِمْ هووا بعد مَا نالوا السَّلامَة والغنىٰ

وَقَالَ آخر :

بعد ابْن جَفْنَة وَابْن ماثل عَرْشه والحاربين تؤمّلون فلاحا

قَالَ أَبُو مَنْصُور رَحمَه الله : ثمَّ الْوَجْه فِي ذَلِك لَو كَانَ علىٰ الإستيلاء وَالْعرش الْملك أَنَّه مستول علىٰ جَمِيع خلقه وعَلىٰ هَذَا التَّأْوِيل الْمَحْمُول غير هَذَا يدلُّ علىٰ الْأَمريْنِ قَوْله تَعَالَىٰ ﴿ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [التوبة:١٢٩] بِمَعْنىٰ الْملك الْعَظِيم وَفِيه إِثْبَات عروش غَيره فَذَلِك يحْتَمل مَا يحمل ويحف بِهِ الْمَلَائِكَة ، وَالله الْمُوفق ...

قَالَ أَبُو مَنْصُور رَحمَه الله : وَأمَّا الأَصْل عندنَا فِي ذَلِك أَنَّ الله تَعَالَىٰ قَالَ : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ : ١١] ، فنفىٰ عَن نَفسه شبه خلقه وَقد بَينا أَنَّه فِي فعله وَصفته متعال عَن الْأَشْبَاه فَيجب القَوْل بـ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه:٥] علىٰ مَا جَاءَ بِهِ التَّنْزِيل وَثَبت ذَلِك فِي الْعقل ثمَّ لَا نقطع تَأْوِيله

علىٰ شَيْء لاحْتِمَاله غَيره مِمَّا ذكرنَا وإحتماله أَيْضاً مَا لم يبلغنَا مِمَّا يعلم أَنَّه غير مُحْتَمل شبه الْخلق ونؤمن بِمَا أراد الله بِهِ وَكَذَلِكَ فِي كلّ أَمر ثَبت التَّنْزِيل فِيهِ نَحْو الرُّؤْيَة وَغير ذَلِك يجب نفي الشّبَه عَنهُ وَالْإِيمَان بِمَا أَرَادَهُ من غير تَحْقِيق علىٰ شَيْء دون شَيْء ، وَالله الْمُوفق " (١) ...

وقال الإمام عبد الرَّحمن الزَّجَّاجي (٣٣٧هـ) : " وقال الخليل بن أحمد : " الله عزَّ وجلَّ هو العليُّ الأعلىٰ المتعالي ذو العلاء والعلو ، فأمَّا العلاء : فالرِّفعة ، والعلو : العظمة والتَّجبُّر . وتقول : علا الشَّيء علاء . ويقال : علوت وعليت جميعاً ، وكذلك علي علاء في الرِّفعة والشَّرف والارتفاع ، هذا قول الخليل .

وغيره يقول : لا يقال : عليت إلَّا في المكارم والشَّرف . ويقال في الشَّيء المرتفع : علا يعلو علوَّاً ، وهما عند الخليل جميعاً يستعملان في العلاء أيضاً ، وينشد :

لَمَّا علا كعبك لي عليت ...

والعليُّ والعالي أيضاً : القاهر الغالب للأشياء . تقول العرب : علا فلان فلاناً : أي : غلبه وقهره ، كما قال الشَّاعر :

فلمَّا علونا واستوينا عليهم   تركناهم صرعىٰ لنسر وكاسر

يعني : غلبناهم ، وقهرناهم ، واستولينا عليهم " (٢) .

وقال الإمام محمَّد بن أحمد بن الأزهري الهروي (٣٧٠هـ) : " وأخبَرَني المنذريُّ عَن أَحْمد بن يحيىٰ أنه قَالَ فِي قَول الله تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] ، قَالَ: الاسْتوَاء: الإقبال علىٰ الشَّيْء.

وَقَالَ الْأَخْفَش: استَوىٰ أَي علا، وَيَقُول: استوَيْتُ فوقَ الدّابة، وعَلىٰ ظهر الدَّابة، أَي: عَلَوْته.

وقَال الزَّجَّاج: قَالَ قومٌ فِي قَوْله عزَّ وَجلَّ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [البقرة:٢٩] عَمَد وقَصَد إلىٰ السّماء، كَمَا تَقول: فَرَغ الأميرُ مِن بلدِ كَذَا وَكَذَا، ثمَّ استوىٰ إلىٰ بلدِ كَذَا وَكَذَا، مَعْنَاهُ: قَصَد بالاستواء إِلَيْهِ.

قَالَ: وَقَول ابْن عبَّاس فِي قَوْله: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [البقرة:٢٩] أَي: صَعِد، معنىٰ قَول ابْن عَبَّاس، أَي: صَعد أمرُه إلىٰ السَّماء " (٣) .

وقال الإمام الجصَّاص (٣٧٠هـ) : " قَوْله تعالىٰ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه:٥] ، قَالَ الْحَسَنُ : اسْتَوَىٰ بِلُطْفِهِ وَتَدْبِيرِهِ ، وَقِيلَ : اسْتَوْلَىٰ " (١) .

---

(١) انظر : التَّوحيد (ص٦٨-٧٧ياختصار) .

(٢) انظر : اشتقاق أسماء الله (ص١٠٩) .

(٣) انظر : تهذيب اللغة (١٣/ ٨٥) .

وقال الإمام أبو الليث السَّمرقندي (٣٧٣هـ) : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف: ٥٤] ، قال بعضهم : هذا من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلَّا الله ، وذكر عن يزيد بن هارون أنَّه سئل عن تأويله ، فقال : تأويله الإيمان به ... وقد تأوَّله بعضهم ، وقال : ﴿ ثُمَّ ﴾ بمعنىٰ الواو ، فيكون علىٰ معنىٰ الجمع والعطف لا بمعنىٰ التَّرتيب والتَّراخي ، ومعنىٰ قوله : ﴿ ٱسْتَوَىٰ ﴾ يعني : استولىٰ ، كما يقال : فلان استوىٰ علىٰ بلد كذا ، يعني : استولىٰ عليه ، فكذلك هذا معناه : خالق السَّموات والأرض ، ومالك العرش ، ويقال : ثمَّ صعد أمره إلىٰ العرش ، وهذا معنىٰ قول ابن عبَّاس ، قال : صعد علىٰ العرش ، يعني : أمره ، يعني : قال له : كن فكان ، ويقال : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ يعني كان فوق العرش قبل أن يخلق السَّموات والأرض ، ويكون ﴿ عَلَى ﴾ بمعنىٰ العلو والارتفاع ، ويقال ﴿ ٱسْتَوَىٰ ﴾ بمعنىٰ استعلىٰ ، وذكر أنَّ أوَّل شيء خلقه الله تعالىٰ القلم ثمَّ اللوح ، فأمر القلم بأن يكتب في اللوح ما هو كائن إلىٰ يوم القيامة ، ثمَّ خلق ما شاء ، ثمَّ خلق العرش ، ثمَّ خلق حملة العرش ، ثمَّ خلق السَّموات والأرض ، وإنَّما خلق العرش لا لحاجة نفسه ، ولكن لأجل عباده ، ليعلموا أين يتوجَّهون في دعائهم ، لكي لا يتحيَّروا في دعائهم ، كما خلق الكعبة علماً لعبادتهم ، ليعلموا إلىٰ أين يتوجَّهون في العبادة ، فكذلك خلق العرش علماً لدعائهم ، ليعلموا إلىٰ أين يتوجَّهوا بدعائهم " .

وقال أيضاً : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف:٥٤] فيها تقديم ، يعني : خلق العرش قبل السَّموات ، ويقال : علا فوق العرش من غير أن يوصف بالاستقرار علىٰ العرش ، ويقال : استوىٰ أمره علىٰ بريَّته فوق عرشه ، كما استوىٰ أمره وسلطانه وعظمته دون عرشه وسمائه " (٢) .

وقال الإمام أبو طالب المكِّي (٣٨٦هـ) : " ... وهو سبحانه وتعالىٰ قد جاوز المقدار والأحكام ، وفات العقول والأوهام ، وسبق الأقدار ، واحتجب بعزِّه عن الأفكار ، لا يصوِّره الفكر ولا يملكه الوهم ، حجب عن العقول تشج ذاته ولم تحكم العقول بدرك صفاته ، إذ ليس كمثله شيء فيعرف بالتَّمثيل ، ولا له جنس فيُقاس علىٰ التَّجنيس ، وهو الله في السَّموات وفي الأرض ، ثمَّ استوىٰ علىٰ العرش ، وهو معكم أينما كنتم ، غير متَّصل بالخلق ولا مفارق ، وغير مماسّ لكون ولا متباعد ، بل متفرِّد بنفسه متَّحد بوصفه لا يزدوج إلىٰ شيء ولا يقترن به شيء ، هو أقرب من كلِّ شيء بقرب هو وصفه ، هو محيط بكلِّ شيء بحيطة هي نعته ، وهو مع كلِّ شيء وفوق كلِّ شيء ، وهو أمام كلّ شيء ووراء كلّ شيء ، بعلوّ ودنوّ هو قربه، فهو وراء الحول الذي هو وراء حملة العرش، وهو أقرب من حبل الوريد الذي هو الرُّوح، وهو مع ذلك فوق

---

(١) انظر : أحكام القرآن (٥/ ٤٩) .

(٢) انظر : بحر العلوم (١/ ٥٣٦-٥٣٧) ، (٣/ ٣٠-٣١) بالترتيب .

كلِّ شيء ومحيط بكلِّ شيء، وليس يحيط به شيء ، وليس هو تعالىٰ في كلِّ هذا مكاناً لشيء، ولا مكاناً له شيء، وليس كمثله في كلِّ هذا شيء، لا شريك له في ملكه ولا معين له في خلقه، ولا نظير له من عباده، ولا شبيه له في اتحاده وهو أوَّل في آخريَّته بأوليَّة هي صفته، وآخر في أوَّليته بآخريَّة هي نعته، وباطن في ظهوره بباطنيَّة هي قُربه، وظاهر في باطنيَّته بظهور هو عُلوه، لم يزل كذلك أزلاً، ولا يزال كذلك أبداً، لا يتوجَّه عليه التَّضاد ، ولا تجري عليه الحوادث والآباد، ولا ينتقص ولا يزاد، هو علىٰ عرشه باختياره لنفسه، فالعرش حدّ خلقه الأعلىٰ وهو غير محدود بعرشه تعالىٰ، والعرش محتاج إلىٰ مكان ، والرَّب غير محتاج إليه، كما كان الرَّحمن علىٰ العرش استوىٰ، الرَّحمن اسمه والاستواء نعته، متَّصل بذاته، والعرش خلقه منفصل عن صفاته، ليس بمضطر إلىٰ مكان يسعه، ولا حامل يحمله ولا حيطة تجمعه، ولا خلق يوجده، هو حامل للعرش وللحملة بخفي لطفه، وجامع للعرش وللحفظة بلطيف صنعه، وموجد ما أحب لمن يحبّ من التَّجلي بمعالي أسمائه وصفاته بخفي لطفه ولطيف قربه، لاختصاص رحمته، وهو أظهر الكون من وراء الحول، هو ممكن للعرش ببسطه في توسعة الحول، وهو محيط بالعرش والحوّل بالقدرة والطَّوّل، لا يسعه غير مشيئته ولا يظهر إلا في أنوار صفته، ولا يوجد إلَّا في سعة البسطة، فإذا قبض أخفىٰ ما أبدىٰ، وإذا بسط أعاد ما أخفىٰ، وكذلك جعله في كلِّ رسم كون، وفعله بكلِّ اسم مكان ممَّا جل فظهر، وممَّا دقَّ فاستتر، لا يسعه غير مشيئته بقربه، ولا يعرف إلَّا بشهوده، ولا يرىٰ إلَّا بنوره، هذا لأوليائه اليوم بالغيب في القلوب، ولهم ذلك غداً في المشاهدة بالأَبصار، ولا يعرف إلَّا بشيئته إن شاء وسعه أدنىٰ شيء، وإن شاء لم يسعه كلّ شيء، إن أراد عرفه كلّ شيء وإن لم يرد لم يعرفه كلّ شيء، إن أحب وجد عند أي شيء، وإن لم يحب لم يوجد بشيء، وقد جاوز الحدود والمعيار وسبق القبل والأقدار، ذو صفات لا تحصىٰ ولا تتناهىٰ، ليس محبوساً في صورة ولا موقوفاً بصفة، ولا محكوماً عليه بحكم ولا موجوداً بلمم، لا يتجلَّىٰ بوصف مرتين، ولا يظهر في صورة لإثنين، ولا يرد منه بمعنىٰ واحد كلمتان، بل لكلِّ تجل منه صورة، ولكلِّ عبد عند ظهوره له صفة، وعن كلّ نظرة كلام وبكلِّ كلمةٍ إفهام، ولا نهاية لتجلِّيه ولا غاية لأوصافه ولا نفاد لكلمه، ولا انقطاع لأفهامه ولا تكييف لمعانيه هذه، إذ ليس في التَّوحيد كيف، ولا للقدرة ماهيَّة، ولا يشبهه بهذه الأوصاف خلق، إذ ليس للذَّات كفؤ، إذا احتجب عن العيان والأبصار رفع ذاته عن القلوب والأفكار، فلم يخيله عقل ولم يصوره فكر، لئلَّا يملكه الوهم، فيكون مربوباً وهو ربّ، ولا ينظر إليه بفكر فيكون مقهوراً وهو قاهر، لا يعقل بعقل لأنَّه عاقل العقل، ولا يدرك بحيطة وهو محيط بكلِّ حيطة، حتىٰ

يتجلَّىٰ آخراً بإحسانه، كما تجلَّىٰ أوَّلاً بحنانه، فيشهد بحضوره وينظر بنوره وليس هذا لسواه ولا يعرف بهذا إلَّا إيَّاه ... " .

وقال أيضاً : " ... وأنَّه رفيع الدَّرجات من الثَّرىٰ وهو رفيع الدَّرجات من العرش، وأنَّ قُربه من الثَّرىٰ ومن كلِّ شيء، كقُربه من العرش، وأنَّ العرش غير ملامس له بحسّ ولا مفكّر فيه بوجس، ولا ناظر إليه بعين ولا محيط به بدرك، لأنَّه تعالىٰ محتجب بقدرته عن جميع بريته، ولا نصيب للعرض منه إلَّا كنصيب موقن عالم به، واجد بما أوجده منه من أنَّ الله تعالىٰ عليه، وأنَّ العرش مطمئن به، وأنَّ الله تعالىٰ محيط بعرشه فوق كلِّ شيء وفوق، تحت كلِّ شيء، فهو فوق الفوق وفوق التَّحت، ولا يوصف بتحت فيكون له فوق، لأنَّه هو العلي الأعلىٰ أين كان لا يخلو من علمه وقدرته مكان، ولا يحدّ بمكان ولا يفقد من مكان ولا يوجد بمكان، فالتَّحت للأسفل والفوق للأعلىٰ، وهو سبحانه فوق كلِّ فوق وفوق كلِّ تحت في السّمو، وهو فوق ملائكة الثَّرىٰ، وهو فوق ملائكة العرش والأماكن للممكنات ومكانه، مشيئته ووجوده قدرته والعرش والثَّرىٰ وما بينهما وحد للخلق الأسفل والأعلىٰ، بمنزلة خردلة في قبضته، وهو أعلىٰ من ذلك، ومحيط بجميع ذلك بحيطة هي صفته وسعة هي قدرته، وعلو هو عظمته بما لا يدركه العقل ولا يكيِّفه الوهم، ولا نهاية لعلوه ولا فوق لسمُوه ولا بُعد في دنوه، ولا حسّ في وجوده ولا مسّ في شهوده، ولا إدراك لحضوره ولا حيطة لحيطته، وقد قال الله تعالىٰ للكلِّ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠] ... " (١) .

وقال الإمام الحَلِيمي (٤٠٣ هـ) : " وأمَّا البراءة من التَّشبيه بإثبات أنَّه ليس بجوهر ولا عَرَض، فلأنَّ قوماً زاغوا عن الحقِّ فوصفوا الباري جلَّ ثناؤه ببعض صفات المحدثين، فمنهم من قال: أنَّه جوهر، ومنهم من قال: أنَّه جسم، ومنهم من أجاز أن يكون علىٰ العرش كما يكون الملك علىٰ سريره، وكان ذلك في وجوب اسم الكفر لقائله كالتَّعطيل والتَّشريك.

فإذا أثبت المثبت أنَّه ليس كمثله شيء، وجِماع ذلك أنَّه ليس بجوهر ولا عَرَض فقد انتفىٰ التَّشبيه ، لأنَّه لو كان جوهراً أو عَرَضاً لجاز عليه ما يجوز علىٰ سائر الجواهر والأعراض، ولأنَّه إذا لم يكن جوهراً ولا عَرَضاً لم يجز عليه ما يجوز علىٰ الجواهر من حيث أنَّها جواهر كالتَّآلف والتَّجسم وشغل الأمكنة والحركة والسُّكون، ولا ما يجوز علىٰ الأعراض من حيث أنَّها أعراض كالحدوث وعدم البقاء " (٢) .

قال الإمام أبو بكر الباقلَّاني محمَّد بن الطيِّب (٤٠٣هـ) : " مسألة :

(١) انظر : قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلىٰ مقام التَّوحيد (٢/ ١٤٠-١٤٢) ، (٢/ ١٤٠) بالترتيب .

(٢) انظر : المنهاج في شعب الإيمان (١/ ١٨٤) .

ويجب أن يعلم: أنَّ كل ما يدلُّ علىٰ الحدوث أو علىٰ سمة النَّقص فالرَّبُّ تعالىٰ يتقدَّس عنه.

فمن ذلك: أنَّه تعالىٰ متقدِّس عن الاختصاص بالجهات، والاتِّصاف بصفات المحدثات، وكذلك لا يوصف بالتَّحوُّل، والانتقال، ولا القيام، والقعود؛ لقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ:١١] ، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤] ، ولأنَّ هذه الصِّفات تدلُّ علىٰ الحدوث، والله تعالىٰ يتقدَّس عن ذلك ، فإن قيل : أليس قد قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] . قال : بلىٰ. قد قال ذلك، ونحن نطلق ذلك وأمثاله علىٰ ما جاء في الكتاب والسُّنَّة، لكن ننفي عنه أمارة الحدوث، ونقول: استواؤه لا يشبه استواء الخلق، ولا نقول : إنَّ العرش له قرار، ولا مكان، لأنَّ الله تعالىٰ كان ولا مكان، فلمَّا خلق المكان لم يتغيَّر عمَّا كان.

وقال أبو عثمان المغربي يوماً لخادمه محمَّد المحبوب: لو قال لك قائل: أين معبودك ؟ ماذا كنت تقول له ؟ فقال: أقول حيث لم يزل ولا يزول. قال: فإن قال: فأين كان في الأزل ؟ ماذا تقول ؟ فقال: أقول حيث هو الآن. يعني: إنَّه كما كان ولا مكان.

وقال أبو عثمان: كنت أعتقد شيئاً من حديث الجهة، فلمَّا قدمت بغداد وزال ذلك عن قلبي فكتبت إلىٰ أصحابنا: إنِّي قد أسلمت جديداً.

وقد سئل الشِّبلي عن قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] ، فقال: الرَّحمن لم يزل ولا يزول، والعرش محدث، والعرشُ بالرَّحمن استوىٰ.

وقال جعفر بن محمَّد الصَّادق عليه السَّلام: من زعم أنَّ الله تعالىٰ في شيء أو من شيء، أو علىٰ شيء، فقد أشرك؛ لأنَّه لو كان علىٰ شيء لكان محمولاً، ولو كان في شيء لكان محصوراً، ولو كان من شيء لكان محدثاً، والله يتعالىٰ عن جميع ذلك " (١) .

وقال أيضاً : " فَإِن قَالَ قَائِل أَيْن هُوَ قيل لَهُ الأين سُؤال عَن الْمَكَان وَلَيْسَ هُوَ مِمَّن يجوز أَن يحويه مَكَان وَلَا تحيط بِهِ أقطار .

غير أَنَّا نقُول : إِنَّه علىٰ عَرْشه لَا علىٰ معنىٰ كَون الْجِسْم بالملاصقة والمجاورة ، تَعَالَىٰ عَن ذَلِك علوّاً كَبِيراً .

فَإِن قَالَ قَائِل : فَمَتَىٰ كَانَ ؟ قيل لَهُ : سؤالك عَن هَذَا يَقْتَضِي كَونه فِي زمَان لم يكن قبله ، لِأَنَّ مَتىٰ سُؤال عَن الزَّمَان .

وَقد عرفناك أَنَّه قديم كَائِن قبل الزَّمَان ، وَأَنَّه الْخَالِق للمكان وَالزَّمَان وموجود قبلهمَا .

---

(١) انظر : الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به (ص٣٩-٤٠) .

وتوقيت وجود الشَّيء بعام أَو مائَة أَلف عَام يُفِيد أَنَّ الموقت وجوده مَعْدُوم قبل الزَّمَان الَّذِي وَقت بِهِ ، وَذَلِكَ مِمَّا يَسْتَحِيل عَلَيْهِ تَعَالَىٰ " (١) .

وقال الإمام الشَّريف الرَّضي (٤٠٦هـ) : " وقوله سبحانه :﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾ ، وهذه استعارة ، لأنَّ حقيقة الاستواء إنَّما يوصف بها الأجسام التي تعلو البساط وتميل وتعتدل . والمراد بالاستواء هاهنا : الاستيلاء بالقدرة والسُّلطان ، لا بحلول القرار والمكان ، كما يقال :استوىٰ فلان الملك علىٰ سرير ملكه ، بمعنىٰ : استولىٰ علىٰ تدبير الملك ، ومَلك مقعد الأمر والنَّهي . وحسن صفته بذلك وإن لم يكن له في الحقيقة سرير يقعد عليه ، ولا مكان عال يشار إليه . وإنَّما المراد نفاذ أمره في مملكته ، واستيلاء سلطانه علىٰ رعيَّته .

فإن قيل : فاللهّ سبحانه مستول علىٰ كلِّ شيء بقهره وغلبته ، ونفاذ أمره وقدرته ، فما معنىٰ اختصاص العرش بالذِّكر هاهنا ؟ قيل – كما ثبت – أنَّه تعالىٰ ربٌّ لكلِّ شيء . وقد قال في صفة نفسه ، ﴿ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [التوبة: ١٢٩] ، فإن قيل : فما معنىٰ قولنا : عرش اللهّ ، إن لم يرد بذلك كونه عليه ؟ قيل كما يقال : بيت اللهّ ، وإن لم يكن فيه ، والعرش في السَّماء تطوف به الملائكة تعبُّداً ، كما أنَّ البيت في الأرض تطوف به الخلائق تعبُّداً " (٢) .

وقال الإمام ابن فورك (٤٠٦هـ) : " ... لِأَن إستواءه علىٰ الْعَرْش سُبْحَانَهُ لَيْسَ علىٰ معنىٰ التَّمْكِين والاستقرار بل هُوَ علىٰ معنىٰ الْعُلُوّ بالقهر وَالتَّدْبِير وإرتفاع الدَّرجَة بِالصِّفَةِ علىٰ الْوَجْه الَّذِي يَقْتَضِي مباينة الْخلق " (٣) .

وقال الإمام الرَّبيع بن حبيب بن عمر الأزدي البصري (٤١٠هـ) : بلغني عن ابن مسعود والضَّحَّاك بن مزاحم أنَّهما قالا : ﴿ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾ [الأعراف: ٥٤] ، أي استوىٰ عليه وعلىٰ الأشياء كلّها فخضعت ودانت . وقد تقول العرب : استوت لفلان دنياه ، أي : أتته دنياه علىٰ ما يريد ، واستوىٰ بِشْر علىٰ العراق والحجاز ، واستوىٰ فلان علىٰ مال فلان ، يريدون : أنَّه احتوىٰ عليه وحازه ، ونحو ذلك .

تنبيه :

---

(١) انظر : تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل (ص٣٠٠-٣٠١) .

(٢) انظر : تلخيص البيان في مجازات القرآن (٢/ ١٥٢-١٥٣) .

(٣) انظر : مشكل الحديث وبيانه (ص٣٨٩) .

فإن سأل المترشدُ عن تفسير الآي المتشابهات والدِّلالة علىٰ معانيها من قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ، ... وما أشبه ذلك من كتاب الله ... فجوابنا في ذلك وبالله التَّوفيق والعصمة في قوله تعالىٰ : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ، ما قال عبدالله بن العبَّاس ، وابن عمر ، والحسن ، ومجاهد أنَّه ارتفع ذكره ، وثناؤه ، ومجده ، وعظمته ، تعالىٰ عمَّا قال المندِّد أنَّ له أنداداً وأشباهاً ، تعالىٰ الله عن ذلك .

وإنَّ ابن عمر في حديث الصَّخرة ارتعد فرَقاً وشفقاً حين وصف الله بالزَّوال والانتقال ، وقال : هذا كلام اليهود أعداء الله . وقد وصفنا أباطيلهم فيما مضىٰ من كتابنا ، وجميع ما قالوا موجود في لغة العرب ، يقال : استوىٰ فلان علىٰ العراق ، أي : استولىٰ أمره ومُلكه ، ويقال : استوىٰ فلان علىٰ مال فلان ، أي : احتوىٰ عليه وحازه ، ويقال : استوىٰ فلان علىٰ سريره ومجلسه ، ويقال لمن كان مائلاً فاعتدل : قد استوىٰ ، يريدون انتصابه بعد ميله ، واعتداله بعد عوجه ، ويقال : استوىٰ فلان وفلان ، أي : اتَّفقا في الصِّفة والنَّعت ...

قلنا : لا يخلو قوله : ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ، من أحد معنيين : إمَّا ما قاله ابن عبَّاس ، وابن عمر ، والحسن ، ومجاهد من علوِّ الذِّكر ، واستواء المجد والقهر ، أو يكون علىٰ ما قالت اليهود المشبِّهة لله بأوصاف خلقه ، إذ قالت : أنَّه لما فرغ من خلق السَّماوات والأرض استوىٰ علىٰ العرش ، ووضع أحدىٰ فخذيه علىٰ الأخرىٰ ، واستراح ، فكذَّبهم الله بقوله : ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾ [ق: ٣٨] ، وبقوله : ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] ، وما أشبه ذلك من كتاب الله عزَّ وجلَّ فألزموه الوهن ، والعجز ، والتَّعب ، والنَّصَب ، قاتلهم الله أنَّىٰ يؤفكون ، لو جاز أن يكون قوله : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ، علىٰ ما قال المشبِّهة أنَّ ذلك علىٰ ما نعقل من استواء الرَّجل علىٰ سريره ومجلسه ، لجاز أن يكون قوله : ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [البقرة: ٢٩] ، يعني بالاستواء : الميل والعوج ، وفي ذلك ما يوجب عليه الميلان والاعوجاج ، تعالىٰ الله عن ذلك وتقدَّس ، فإذا بطلت هذه الصِّفة وهذا التَّأويل لما فيه من النَّقص ، ثبت ما قال ابن مسعود وابن عمر ، وبطل ما قالت اليهود المشبِّهة .

ووجه آخر : لو جاز أن يكون الاستواء علىٰ ما تعقل المشبِّهة من أنفسها لوجبت المماسَّة والحدود والنِّهاية ، وفي هذه الصِّفة إبطال قوله : ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورىٰ: ١١] ، ولو جاز أن يكون الاستواء علىٰ ما تعقل المشبِّهة من أنفسها ، لجاز أن يكون قوله : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ

مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ﴾ [المجادلة: ٧] ، إنَّما يعني به فيما زعمت المشبِّهة على ما نعقل من كون الرّجل مع الرّجل ، وفي ذلك يثبت التَّحديد والنِّهاية والانتقال ، وهذه صفة الخلق ، تعالى الله عن هذه الصِّفة ، ولكنه على العرش ومعهم أينما كانوا في وقت واحد ، بلا كيف ، ولا تحديد ، ولا وصف كما شاء ، على خلاف ما تعقل من أنفسها ، لكنَّه معهم بالتَّدبير والإحاطة والعلم ،لا يمثَّل ولا يتوهَّم ، تعالى الله عمَّا يتوهَّم الجاهلون ، ولو جاز لقائل أن يقول : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ ﴾ [الحديد:٤] : إنَّ علمه معنا أينما كنَّا ، وليس ذلك في نصِّ الآية ، لجاز لمن خالفهم ، إنَّما يعني بقوله : ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ [الأعراف: ٥٤] : إنَّ علمه مستو على العرش ، وإن لم يكن في نصِّ الآية ، فلمَّا يجز لقائل أن يقول ذلك ولم يتأوَّله ، لم يجز للمشبِّهة تأويلها . ومن أين جاز له أن يتأول قوله :﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ [الأعراف: ٥٤] ، على ما يعقل ، ولم يجز أن يتأوَّل قوله :﴿ وَهُوَ مَعَهُمۡ ﴾ [النساء: ١٠٨] ، على ما يعقل " (١) .

وقال الإمام أبو الفضل عبد الواحد بن عبد العزيز التَّميمي البغدادي الحنبلي (٤١٠هـ) في كتابه : " اعتقاد الإمام المبجَّل ابن حنبل " : " ... وكان يقول : إنَّ الله عزَّ وجلَّ مستو على العرش المجيد ، وحكى جماعة عنه أنَّ الاستواء من صفات الفعل ، وحكى جماعة عنه أنَّه كان يقول : إنَّ الاستواء من صفات الذَّات .

وكان يقول في معنى الاستواء : هو العلو والارتفاع ، ولم يزل الله تعالى عالياً رفيعاً قبل أن يخلق عرشه ، فهو فوق كلِّ شيء ، والعالي على كلِّ شيء ، وإنَّما خصَّ الله العرش لمعنى فيه مخالف لسائر الأشياء ، والعرش أفضل الأشياء وأرفعها ، فامتدح الله نفسه بأنَّه على العرش استوى ، أي : عليه علا ، ولا يجوز أن يقال : استوى بمماسَّة ولا بملاقاة ، تعالى الله عن ذلك علوَّاً كبيراً ، والله تعالى لم يلحقه تغيُّر ولا تبدُّل ، ولا يلحقه الحدود قبل خلق العرش ولا بعد خلق العرش " (٢) .

وقال الإمام اللالكائي (٤١٨هـ) : " وَسُئِلَ محمَّد بْنُ جَعْفَرٍ عَنْ قَوْلِ اللهَّ تَعَالَىٰ : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] ، قَالَ : مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللهَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ اسْتِوَاءَ مَخْلُوقٍ عَلَىٰ مَخْلُوقٍ ، فَقَدْ كَفَرَ ، وَمَنِ اعْتَقَدَ أَنَّ اللهَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ اسْتِوَاءَ خَالِقٍ عَلَىٰ مَخْلُوقٍ ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ . وَالَّذِي يَكْفِي فِي هَذَا أَنْ يَقُولَ : إِنَّ اللهَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ " (٣) .

---

(١) انظر : الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب (ص٣٣٨-٣٤١) .

(٢) انظر : اعتقاد الإمام المبجل ابن حنبل (ص٢٩٦-٢٩٧) .

(٣) انظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٤٤٦) .

وقال الإمام أبو علىٰ أحمد بن محمَّد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني (٤٢١هـ) : " وقوله: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣] يريد الاستيلاء، والملك يدل عليه قول بعيث:

قد اسْتَوَىٰ بِشْرٌ علىٰ العِرَاقِ   مِن غَيْرِ سَيْفٍ ودم مُهْرَاقِ

يعني بشر بن مروان لَمَّا ولي العراق، والعرش يحتمل أن يكنَّىٰ به عن الملك وإن كان الأصل فيه ما يتَّخذه الملوك من الأسرَّة، ولهذا قيل لقوّام أمر الرَّجل العرش، وإذا اضطرب قيل ثُلَّ عرشه، ويحتمل أن يراد به السَّماوات والأرض لأنَّ كلّها سقف عند العرب، ويقال: عرشت الشَّيء، وسمكت، وسقفت، وسطحته بمعنىٰ، ويكون مجيء ثمَّ علىٰ هذا النَّسق خبراً علىٰ خبر لا لترتيب وقت علىٰ وقت ، ومثل هذا قول الشَّاعر:

قل لمن ساد ثمَّ ساد أبوه   ثمَّ قد ساد بعد ذلك جدّه

وذكر بعض شيوخ أهل النَّظر أنَّ ثمَّ إنَّما هو لأمر حادث، واستيلاء الله علىٰ العرش ليس بأمر حادث بل لم يزل مالكاً لكلِّ شيء، ومستولياً علىٰ كلِّ شيء فيقول: إنَّ ثمَّ لرفع العرش إلىٰ فوق السَّماوات وهو مكانه (١) الذي هو فيه فهو مستول عليه ومالك له فثمَّ للرَّفع لا للإستيلاء، والرّفع محدث " (٢) .

وقال الإمام الثَّعلبي (٤٢٧هـ) : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ : قال الكلبي ومقاتل : يعني استقرَّ ، وقال أبو عبيد : فصعد ، وقال بعضهم : استولىٰ وغلب ، وقيل : ملك وغلب ، وكلّها تأويلات مدخولة لا يخفىٰ بُعدها . وأمَّا الصَّحيح والصَّواب فهو ما قاله الفرَّاء وجماعة من أهل المعاني : إنَّ أوَّل ما خلق العرش وعهد إلىٰ خلقه ، يدلُّ عليه قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [البقرة: ٢٩] ، أي : إلىٰ خلق السَّماء .

وقال أهل الحقِّ من المتكلِّمين : أحدث الله فعلاً سمَّاه استواء ، وهو كالإتيان والمجيء ، والنُّزول ، وهي صفات أفعاله . روىٰ الحسن عن أمِّ سلمة في قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] ، قالت : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والنُّزول به إيمان ، والجحود به كفر .

عن محمَّد بن شجاع البلخي ، قال : سئل مالك بن أنس عن قول الله تعالىٰ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ كيف استوىٰ ؟ قال : الكيف مجهول ، والاستواء غير معقول ، والإيمان واجب ، فالسُّؤال عنه بدعة (٣) .

(١) أي : مكان العرش .

(٢) انظر : الأزمنة والأمكنة (١/ ٣٦) .

(٣) هذه العبارة منحولة علىٰ مالك ، ورويت كذلك عن ربيعة بن عبد الرَّحمن ، وأمِّ سلمة ، رضي الله عنها ... وهذه العبارة منحولة علىٰ مالك ، ورويت كذلك عن ربيعة بن عبد الرَّحمن ، وأمِّ سلمة ، رضي الله عنها ، والحقُّ أنَّ ذلك لم يثبت عنهم ، فقد قال أستاذنا الأُستاذ المحقِّق المدقِّق حسَّان عبد المنَّان – حفظه الله – : " ليس لهذا إسناد يثبتُ وإليك تفصيله :

رواه اللالكائي في " شرح أصول الاعتقاد " (٦٦٤) ، وإسماعيل بن عبد الرَّحمن الصَّابوني في " عقيدة السَّلف " (١/ ١١٠-١١١) " من الرَّسائل المنيريَّة " ، وأبو نعيم في " الحلية " (٦/ ٣٢٥-٣٢٦) من طريق سلمة بن شبيب ، عن مهدي بن جعفر عن جعفر بن عبد الله ، عن مالك بن أنس (١٧٩هـ) .

وتابعه الدَّارمي في " الرَّد على الجهميَّة " (ص٢٨٠) ، فقال : عن مهدي بن جعفر ، عن جعفر بن عبد الله ، عن رجلٍ قد سمّاه لي ، قال : جاء رجل إلى مالك بن أنس (١٧٩هـ) ... وفي هذا الإسناد ثلاث عِلَلٍ :

رواية الدَّارمي المخالفة لرواية سلمة بن شبيب ، فزاد فيها رجلاً مجهولاً ، وجهالة جعفر بن عبد الله فإن لم أتبيَّنه ، وما عند الدَّارمي في روايته من توثيقه لا يُحسِّنُ أمرَه وحالَه ، وأمَّا مهدي بن جعفر ـ وهو الرَّملي ـ ففيه نظر ، إذ نقلوا أنَّ ابن عدي قال : يروي عن الثِّقات أشياء لا يُتابعُه عليها أحدٌ ، وهذا يُشعر بنكارة حديثه ، وهو ما حكم به البخاري ، فقال : حديثُه منكر . " التَّهذيب " .

ورواه ابن عبد البر في " التَّمهيد " (٧/ ١٥١) من طريق بقي بن مخلد ، حدَّثنا بكار بن عبد الله القرشي ، حدَّثنا مهدي بن جعفر ، عن مالك بن أنس ، به . وفي هذه الرِّواية وهمٌ وتدليس ، كأنَّه من بكَّر بن عبد الله ، فقد أسقطَ مَنْ بينَ مهدي بن جعفر ومالك ، وقد بيَّنا ذلك في الرِّواية السَّابقة

ورواه إسماعيل بن عبد الرَّحمن الصَّابوني (١/ ١١٠) ، عن أبي الحسن بن إسحاق المدني ، حدَّثنا أحمد بن الخضر أبو الحسن الشافعي ، حدَّثنا شاذان ، حدَّثنا ابن مخلد بن يزيد القهستاني ، حدَّثنا جعفر بن ميمون ، قال : سُئل مالك بن أنس ... وهذا إسنادٌ لا يصحُّ أيضاً ، فجعفر بن ميمون هو الأنماطي ، وهو ضعيف ، وشاذان وشيخُه لم أعثر لهما على ترجمة !!

ورواه البيهقي (٤٥٨هـ) في " الأسماء والصِّفات " (ص٤٠٨) ، عن أبي عبد الله ، أخبرني أحمد بن محمَّد بن إسماعيل بن مهران ، حدَّثنا أبي ، حدثنا أبو الربيع ابن أخي رشدين بن سعد ، قال : سمعتُ عبد الله بن وهب ، يقول : كُنَّا عند مالك بن أنس .. فذكره .

وهذا إسنادٌ لا يصحُّ أيضاً ـ وإن جوَّد إسناده ابن حجر في " الفتح " (١٣ـ٤٠٧) ، فأبو الربيع لم أعرفه ، وأحمد : لم أعثر له على ترجمة ، وأبوه مترجم في " اللسان " (٥/ ٨١-٨٢) ، وفيه نظرٌ وضعف في آخر ست سنوات من عمره .

ورواه البيهقي (ص٤٠٨) ، عن أبي بكر أحمد بن محمَّد بن الحارث الفقيه الأصفهاني ، أخبرنا أبو محمَّد عبد الله بن محمَّد بن جعفر بن حيَّان المعروف بأبي الشَّيخ ، حدَّثنا أبو جعفر بن زيرك البزي ، سمعتُ محمَّد بن عمرو بن النضر النيسابوري ، يقول : سمعتُ يحيى بن يحيى ، يقول : كُنَّا عند مالك بن أنس فجاء رجل ... فذكره .

وهذا إسنادٌ لا يصحُّ أيضاً ، فابنُ زيرك لم أجد له ترجمة ، ومحمَّد بن عمرو بن النضر ذكره ابن حجر في " نزهة الألبـــاب " (٢/ ٩٢) ، ولم يذكر فيه جرحاـــــً ولا تعديلاً ، وانظر " سير أعلام النُّبلاء " (٨/ ١٠٠-١٠١) .

ورواه ابن عبد البر في " التَّمهيد " (٧/ ١٥١) ، عن محمَّد بن مالك ، قال : حدَّثنا عبد الله بن يونس ، قال : حدَّثنا بقي بن مخلد ، قال : حدَّثنا أيوب بن صلاح المخزومي بالرملة ، قال : كُنَّا عند مالك إذ جاءَه عراقي ، فقال له ... فذكره .

كذا في المطبوع : " أيوب بن صلاح " ، وهو تحريف ، إنَّما هو أيوب بن صالح بن سلمة الحرَّاني المخزومي ، وهو ضعيف ، ضعَّفه ابن معين وغيرُه . انظر ترجمته في " اللسان " (١/ ٤٨٣-٤٨٤) .

وبهذا يتبيَّن لك خطأ الحافظ الذَّهبي في قوله في " العلو " (ص١٤١مختصره) :

" هذا ثابت عن مالك " !! ومن ثمَّ خطأ كُلّ مَن سَلَّمَ بما نُسِبَ إلى الإمام مالك رحمه الله ، لأنَّ أسانيده لا تَقُومُ لذلك .

وقد يَرِدُ علينا أنَّ ذلك بمجموع هذه الطُّرق والأسانيد يصحُّ .

وروىٰ محمَّد بن شعيب بن شابور عن أبيه أنَّ رجلاً سأل الأوزاعي في قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ ، فقال : هو علىٰ العرش كما وصف نفسه ، وإنِّي لأراك رجلاً ضالّاً .

وبلغني أنَّ رجلاً سأل إسحاق بن الهيثم الحنظلي ، فقال : كيف استوىٰ علىٰ العرش ؟ أقائم هو أم قاعد ؟ فقال : يا هذا إنَّما يقعد من يملُّ القيام ، ويقوم من يملُّ القعود ، وغير هذا أولىٰ لك ألَّا تسأل عنه .

والعرش في اللغة : السَّرير ، وقال آخرون : هو ما علا وأظل ، ومنه عرش الكرم ، وقيل : العرش : الملك ، قال زهير :

تداركتما الأحلاف قد ثَلَّ عرشها   وذبيان قد زلَّت بأقدامها النَّعل (١)

وقال الإمام أبو محمَّد مكِّي بن أبي المالكي (٤٣٧هـ) : ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾ مدبِّراً للأمور ، قاضياً في خلقه ما أحبّ " .

وقال أيضاً : " ثمَّ قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾ ، أي : علا عليه علوَّ قدرة !! لا علو مكان " .

وقال أيضاً : " ولا يجوز أن يتوهَّم أحد في ذلك : جلوساً ولا حركة ولا نُقلة ، ولكنَّه استوىٰ علىٰ العرش كما شاء ، لا يمثل ذلك جلوساً ، ولا يظنّ له انتقال من مكان إلىٰ مكان ، لأنَّ ذلك لمن صفة المحدثات . وقد قال تعالىٰ ذكره : ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ: ١١] ، فلا يحلُّ لأحد أن يمثِّل صفات ربِّه – الذي ليس كمثله شيء – بصفات المخلوقين الذين لهم أمثال وأشباه – فكما أنَّه تعالىٰ لا يشبهه شيء، كذلك صفاته ليست كصفات المخلوقين . فالاستواء معلوم ، والكيف لا نعلمه ، فعلينا التَّسليم لذلك " .

فنقولُ : إنَّ مثلَ هذه الأسانيد لا تتقوَّىٰ ، وليس عجيباً أن تتكثَّر ، لأنَّ الفتنة في هذه المسألة قد انتشرت في ذاك الحين ، ونُسِبَ زوراً هذا القول إلىٰ مالك وغيره ، فتناقلَه مجاهيلُ من النَّاس لا يُعرفون بصحيح علمٍ ، ولا توثيق ، فانتشرت لشائعاتها ، وإلاَّ فقُل لي بربِّكَ ـ : أين الثِّقات من تلامذة الإمام مالك ، وتلامذتهم عن مثل هذه الحادثة وهذا القول ؟! .

وفي الباب مما رُوِيَ بنحوِه :

١.قول أم سلمة : رواه اللالكائي (٦٦٣) ، والصَّابوني في " عقيدة السَّلف " (١/ ١١٠) ، وابن قدامة في " العلو " (٨٢) ، وفي إسنادِه : محمَّد بن أشرس ، وهو متَّهم في الحديث ، وقد تركه غير واحد ، وقال شيخ الإسلام في " الفتاوىٰ " (٥/ ٣٦٥) : وقد رُوِيَ هذا الجواب عن أُم سلمة رضي الله عنها موقوفاً ومرفوعاً ، ولكن ليس إسناده ممَّا يُعتمد عليه .

٢. قول ربيعة شيخ الإمام مالك : رواه اللالكائي(٦٦٥) ، والبيهقي (ص٤٠٨-٤٠٩) ، وابن قدامة في " العلو " (٩٠) .. بأسانيد لا تصحُّ .

وعلىٰ أيٍّ فالقضية تبقىٰ رأياً من عالم ، غير ملزمٍ للنَّاس ، ولا قاطع للجدل والفهمِ ، ولا محدِّدٍ لفهمٍ واحدٍ ، بل لكُلٍّ مُتَّسع فيما يرىٰ ... والله أعلم " انظر : مجموعة رسائل محمَّد نسيب الرفاعي (ص٢٨-٢٩) .

(١) انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٤/ ٢٣٨-٢٣٩) .

وقال أيضاً : ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾ ، أي : ارتفع وعلا ارتفـــاع قدرة وتعظيم وجلالة ، لا ارتفاع نُقلة " (١) .

وقال الإمام عبد القاهر البغدادي (٤٢٩هـ) : " وأجمعوا علىٰ أنَّه لَا يحويه مَكَان ، وَلَا يجرىٰ عَلَيۡهِ زمَان ، خلاف قَول من زعم من الهشاميَّة والكرَّاميَّة أَنَّه مماسّ لعرشه ، وَقد قَالَ امير الْمُؤمنِينَ علي رَضِي الله عَنهُ : أنَّ الله تَعَالَىٰ خلق الْعَرْش إظهاراً لقدرته لَا مَكَاناً لذاته ، وَقَالَ أيضاً : قد كَانَ وَلَا مَكَـان ، وَهُوَ الْآن علىٰ مَا كَانَ " (٢) .

وقال الإمام أبو محمَّد عبد الله بن يوسف الجويني والد إمام الحرمين (٤٣٨هـ) في " كفاية المعتقد " : " أمَّا ما ورد من ظاهر الكتاب والسُّنَّة ما يوهم بظاهرها تشبيهاً فللسَّلف فيه طريقان :

إحداهما : الإعراض فيها عن الخوض فيها ، وتفويض عملها إلىٰ الله تعالىٰ ، وهذه طريقة ابن عبَّاس وعامَّة الصَّحابة ، وإليها ذهب كثير من السَّلف ، وذلك مذهب من يقف علىٰ قوله : ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ [آل عمران:٧] ، ولا يستبعد ان يكون لله تعالىٰ سرّ في كتابه ، والصَّحيح أنَّ الحروف المقطَّعة من هذا القبيل ويعلم بالدَّليل يقيناً أنَّ ركناً من أركان العقيدة ليس تحت ذلك السِّر ، لأنَّ الله تعالىٰ لا يؤخِّر البيان المفتقر إليه عن وقت الحاجة ولا يكتم كتماناً .

والطَّريقة الثَّانية : الكلام فيها وفىٰ تفسيرها بأن يردها عن صفات الذَّات إلىٰ صفات الفعل ، فيُحمل النُّزول علىٰ قُرب الرَّحمة ، واليد علىٰ النِّعمة ، والاستواء علىٰ القهر والقدرة ، وقد قال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ : " كلتا يديه يمين " (٣) ، ومن تأمَّل هذا اللفظ انتفىٰ عن قلبه ريبة التَّشبيه وقد قال تعالىٰ : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه:٥] ، وقال : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ ﴾ [المجادلة:٧] ، فكيف

---

(١) انظر : الهداية إلىٰ بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه ، وجمل من فنون علومه (٥/ ٣٢١٥) ، (٥/ ٣٦٦٤) ، (٨/ ٥٢٤٣) ، (١١/ ٧٣٠٧) بالترتيب .

(٢) انظر : الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية (ص٣٢١) .

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١١/ ٣٢ برقم ٦٤٩٢) ، قال الأرنؤوط في تخريجه للمسند : " إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين. سفيان: هو ابن عُيينة.

وأخرجه الحميدي (٥٨٨) ، وحسين المروزي في زوائده علىٰ "الزهد" لابن المبارك (١٤٨٤) ، وابنُ أبي شيبة ١٣/ ١٢٧، ومسلم (١٨٢٧) ، والنسائي في "المجتبىٰ" ٨/ ٢٢١، وابنُ حبان (٤٤٨٤) و (٤٤٨٥) ، والأجري في "الشريعة" ص ٣٢٢، والبيهقي في "السنن" ١/ ٨٧٠، وفي "الأسماء والصفات" ص ٣٢٤، والخطيب في "تاريخه" ٥/ ٣٦٧، والبغوي (٢٤٧٠) من طرق، عن سفيان، بهذا الإسناد " .

يكون على العرش ساعة كونه سادسهم ؟!! إلَّا أن يرد ذلك إلى معنى الإدراك والإحاطة لا إلى معنى المكان والاستقرار والجهة والتَّحديد " (١) .

وقال الإمام عثمان بن سعيد أبو عمرو الدَّاني (٤٤٤هـ) : " ومن قولهم: أنَّه سبحانه فوق سماواته، مستوٍ على عرشه، ومستولٍ على جميع خلقه، وبائن منهم بذاته، غير بائن بعلمه، بل علمه محيط بهم، يعلم سرَّهم وجهرهم، ويعلم ما يكسبون، على ما ورد به خبره الصَّادق، وكتابه النَّاطق، فقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] ، واستواؤه عزَّ وجلَّ: علوُّه بغير كيفيَّة، ولا تحديد، ولا مجاورة ولا مماسَّة " (٢) .

وقال الإمام الماوردي (٤٥٠هـ) : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ، فيه قولان : أحدهما : معناه استوى أمره على العرش ، قاله الحسن . والثَّاني : استولى على العرش ، كما قال الشَّاعر :

قد اسْتَوَىٰ بِشْرٌ على العِرَاقِ مِن غَيْرِ سَيْفٍ ودم مُهْرَاقِ

وفي ﴿ٱلْعَرْشِ﴾ ثلاثة أقاويل : أحدها : أنَّه المُلْك كنِّي عنه بالعرش والسَّرير كعادة ملوك الأرض في الجلوس على الأسرَّة ، حكاه ابن بحر . والثَّاني : أنَّه السَّموات كلها لأنَّها سقف ، وكلُّ سقف عند العرب هو عرش " (٣) .

وقال الإمام البيهقي (٤٥٨هـ) : " أَخْبَرَنَا أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ الرَّحمن بْنُ عُبَيْدِ اللهِّ الْحَرْبِيُّ بِبَغْدَادَ ، ثنا أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ سَلْمَانَ الْفَقِيهُ ، ثنا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِسْحَاقَ ، ثنا ابْنُ أَبِي أُوَيْسٍ ، ثنا مَالِكٌ ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ ، عَنِ الْأَعْرَجِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، رَضِيَ اللهُّ عَنْهُ قَالَ : " إِنَّ رَسُولَ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " لَمَّا قَضَى اللهُّ الْخَلْقَ كَتَبَ كِتَاباً فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ : إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي " . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الصَّحِيحِ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي أُوَيْسٍ . وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ رَحِمَهُ اللهُّ فِي مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ : الْقَوْلُ فِيهِ وَاللهُّ أَعْلَمُ : أَنَّه أَرَادَ بِالْكِتَابِ أَحَدَ شَيْئَيْنِ إِمَّا : الْقَضَاءَ الَّذِي قَضَاهُ وَأَوْجَبَهُ كَقَوْلِهِ : ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٢١] ، أَيْ : قَضَى اللهُّ وَأَوْجَبَ ، وَيَكُونُ مَعْنَى قَوْلِهِ : " فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ " . أَيْ : فَعِلْمُ ذَلِكَ عِنْدَ اللهَّ تَعَالَى فَوْقَ الْعَرْشِ لَا يَنْسَاهُ وَلَا يَنْسَخُهُ وَلَا يُبَدِّلُهُ ، كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] ؛ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ أَرَادَ بِالْكِتَابِ اللَّوْحَ الْمَحْفُوظَ الَّذِي فِيهِ ذِكْرُ أَصْنَافِ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ ، وَبَيَانُ أُمُورِهِمْ وَذِكْرُ آجَالِهِمْ وَأَرْزَاقِهِمْ ، وَالْأَقْضِيَةُ النَّافِذَةُ فِيهِمْ ، وَمَآلُ عَوَاقِبِ أُمُورِهِمْ ، وَيَكُونُ مَعْنَى قَوْلِهِ : " فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ

(١) انظر : اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين (٢/ ١٠٩) .

(٢) انظر : الرسالة الوافية لمذهب أهل السنة في الاعتقادات وأصول الديانات (ص١٢٩-١٣) .

(٣) انظر : تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٢/ ٢٢٩-٢٣٠) .

الْعَرْشِ " ، أَيْ : فَذِكْرُهُ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ ، وَيُضْمَرُ فِيهِ الذِّكْرُ أَوِ الْعِلْمُ ، وَكُلُّ ذَلِكَ جَائِزٌ فِي الْكَلَامِ ، سَهْلٌ فِي التَّخْرِيجِ ، عَلَى أَنَّ الْعَرْشَ خَلْقُ اللهُ عزَّ وجلَّ مَخْلُوقٌ لَا يستحيلُ أَنْ يَمَسَّهُ كِتَابُ مَخْلُوقٌ ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ حَمَلَةُ الْعَرْشِ قَدْ رُوِيَ أَنَّ الْعَرْشَ عَلَى كَوَاهِلِهِمْ ، وَلِيسَ يَسْتَحِيلُ أَنْ يُمَاسُّوا الْعَرْشَ إِذَا حَمَلُوهُ ، وَإِنْ كَانَ حَامِلُ الْعَرْشِ وَحَامِلُ حَمَلَتِهِ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ اللهُ تَعَالَى . وَلَيْسَ مَعْنَى قَوْلِ الْمُسْلِمِينَ : إِنَّ اللهَ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، هُوَ أَنَّه مُمَاسٌّ لَهُ ، أَوْ مُتَمَكِّنٌ فِيهِ ، أَوْ مُتَحَيِّزٌ فِي جِهَةٍ مِنْ جِهَاتِهِ ، لَكِنَّهُ بَائِنٌ مِنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ، وإِنَّما هُوَ خَبَرٌ جَاءَ بِهِ التَّوْقِيفُ فَقُلْنَا بِهِ ، وَنَفَيْنَا عَنْهُ التَّكْيِيفَ ، إِذْ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]

وقال الإمام البيهقي أيضاً : " فَأَمَّا الِاسْتِوَاءُ فَالْمُتَقَدِّمُونَ مِنْ أَصْحَابِنَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ كَانُوا لَا يُفَسِّرُونَهُ وَلَا يَتَكَلَّمُونَ فِيهِ ، كَنَحْوِ مَذْهَبِهِمْ فِي أَمْثَالِ ذَلِكَ " .

وقال أيضاً : " أَخْبَرَنَا محمَّد بْنُ عَبْدِ اللهِ الْحَافِظُ ، قَالَ : هَذِهِ نُسْخَةُ الْكِتَابِ الَّذِي أَمْلَاهُ الشَّيخ أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ أَيُّوبَ فِي مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ فِيمَا جَرَى بَيْنَ محمَّد بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ خُزَيْمَةَ وَبَيْنَ أَصْحَابِهِ ، فَذَكَرَهَا وَذَكَرَ فِيهَا : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] بِلَا كَيْفٍ ، وَالْآثَارُ عَنِ السَّلَفِ فِي مِثْلِ هَذَا كَثِيرَةٌ" وَعَلَى هَذِهِ الطَّرِيقِ يَدُلُّ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وَإِلَيْهَا ذَهَبَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَالْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ الْبَجَلِيُّ . وَمِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ . وَذَهَبَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْأَشْعَرِيُّ إِلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى جَلَّ ثَنَاؤُهُ فَعَلَ فِي الْعَرْشِ فِعْلاً سَمَّاهُ اسْتِوَاءً ، كَمَا فَعَلَ فِي غَيْرِهِ فِعْلاً سَمَّاهُ رِزْقاً أَوْ نِعْمَةً أَوْ غَيْرَهُمَا مِنْ أَفْعَالِهِ . ثُمَّ لَمْ يُكَيِّفِ الِاسْتِوَاءَ إِلَّا أَنَّه جَعَلَهُ مِنْ صِفَاتِ الْفِعْلِ لِقَوْلِهِ : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ، وَثُمَّ لِلتَّرَاخِي ، وَالتَّرَاخِي إِنَّما يَكُونُ فِي الْأَفْعَالِ ، وَأَفْعَالُ اللهُ تَعَالَى تُوجدُ بِلَا مُبَاشَرَةٍ مِنْهُ إِيَّاهَا وَلَا حَرَكَةٍ . وَذَهَبَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ محمَّد بْنِ مَهْدِيٍّ الطَّبَرِيُّ فِي آخَرِينَ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ إِلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى فِي السَّماء فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ بِمَعْنَى أَنَّه عَالٍ عَلَيْهِ ، وَمَعْنَى الِاسْتِوَاءِ : الِاعْتِلَاءُ ، كَمَا يَقُولُ : اسْتَوَيْتُ عَلَى ظَهْرِ الدَّابَّةِ ، وَاسْتَوَيْتُ عَلَى السَّطْحِ . بِمَعْنَى عَلَوْتُهُ ، وَاسْتَوَتِ الشَّمْسُ عَلَى رَأْسِي ، وَاسْتَوَى الطَّيْرُ عَلَى قِمَّةِ رَأْسِي ، بِمَعْنَى عَلَا فِي الْجَوِّ ، فَوُجِدَ فَوْقَ رَأْسِي . وَالْقَدِيمُ سُبْحَانَهُ عَالٍ عَلَى عَرْشِهِ لَا قَاعِدٌ وَلَا قَائِمٌ وَلَا مُمَاسٌّ وَلَا مُبَايَنٌ عَنِ الْعَرْشِ ، يُرِيدُ بِهِ : مُبَايَنَةَ الذَّاتِ الَّتِي هِيَ بِمَعْنَى الِاعْتِزَالِ أَوِ التَّبَاعُدِ ، لِأَنَّ الْمُمَاسَّةَ وَالْمُبَايَنَةَ الَّتِي هِيَ ضِدُّهَا ، وَالْقِيَامُ وَالْقُعُودُ مِنْ أَوْصَافِ الْأَجْسَامِ ، وَاللهُ عزَّ وجلَّ أَحَدٌ صَمَدٌ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ، فَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ مَا يَجُوزُ عَلَى الْأَجْسَامِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى . وَحَكَى الْأُسْتَاذُ أَبُو بَكْرِ بْنُ فُورَكٍ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِنَا أَنَّه قَالَ : اسْتَوَى بِمَعْنَى : عَلَا ، ثمَّ قَالَ : وَلَا يُرِيدُ بِذَلِكَ عُلُوّاً

بِالْمَسَافَةِ وَالتَّحَيُّزِ وَالْكَوْنِ فِي مَكَانٍ مُتَمَكِّناً فِيهِ ، وَلَكِنْ يُرِيدُ مَعْنَىٰ قَوْلِ اللهَّ عزَّ وجلَّ : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦] ، أَيْ : مَنْ فَوْقَهَا عَلَىٰ مَعْنَىٰ نَفْيِ الْحَدِّ عَنْهُ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِمَّا يَحْوِيهِ طَبَقٌ أَوْ يُحِيطُ بِهِ قُطْرٌ ، وَوُصِفَ اللهُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِذَلِكَ بِطَرِيقَةِ الْخَبَرِ ، فَلَا نَتَعَدَّىٰ مَا وَرَدَ بِهِ الْخَبَرُ . قُلْتُ : وَهُوَ عَلَىٰ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ مِنْصِفَاتِ الذَّاتِ ، وَكَلِمَةُ ثمَّ تَعَلَّقَتْ بِالْمُسْتوىٰ عَلَيْهِ ، لَا بِالاِسْتِوَاءِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس: ٤٦] ، يَعْنِي : ثمَّ يَكُونُ عَمَلُهُمْ فَيَشْهَدُهُ ، وَقَدْ أَشَارَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ إِسْمَاعِيلَ إِلىٰ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ حِكَايَةً ، فَقَالَ : وَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا : أَنَّه صِفَةُ ذَاتٍ ، وَلَا يُقَالُ : لَمْ يَزَلْ مُسْتَوِياً عَلَىٰ عَرْشِهِ ، كَمَا أَنَّ الْعِلْمَ بِأَنَّ الْأَشْيَاءَ قَدْ حَدَثَتْ مِنْ صِفَاتِ الذَّاتِ ، وَلَا يُقَالُ : لَمْ يَزَلْ عَالِماً بِأَنْ قَدْ حَدَثَتْ ، وَلَمَّا حَدَثَتْ بَعْدُ ، قَالَ : وَجَوَابِي هُوَ الْأَوَّلُ وَهُوَ أَنَّ اللهَّ مُسْتَوٍ عَلَىٰ عَرْشِهِ وَأَنَّهُ فَوْقَ الْأَشْيَاءَ بَائِنٌ مِنْهَا ، بِمَعْنَىٰ أَنَّهَا لَا تَحُلُّهُ وَلَا يَحُلُّهَا ، وَلَا يَمَسُّهَا وَلَا يُشْبِهُهَا ، وَلَيْسَتِ الْبَيْنُونَةُ بِالْعُزْلَةِ تَعَالَىٰ اللهُّ رَبُّنَا عَنِ الْحُلُولِ وَالْمُمَاسَّةِ عُلُوًّا كَبِيراً . قَالَ : وَقَدْ قَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا : إِنَّ الاِسْتِوَاءَ صِفَةُ اللهَّ تَعَالَىٰ تَنْفِي الاِعْوِجَاجَ عَنْهُ ، وَفِيمَا كَتَبَ إِلَيَّ الْأُسْتَاذُ أَبُو مَنْصُورِ بْنُ أَبِي أَيُّوبَ أَنَّ كَثِيراً مِنْ مُتَأَخِّرِي أَصْحَابِنَا ذَهَبُوا إِلىٰ أَنَّ الاِسْتِوَاءَ هُوَ الْقَهْرُ وَالْغَلَبَةُ ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ الرَّحمن غَلَبَ الْعَرْشَ وَقَهَرَهُ ، وَفَائِدَتُهُ الْإِخْبَارُ عَنْ قَهْرِهِ مَمْلُوكَاتِهِ ، وَأَنَّهَا لَمْ تَقْهَرْهُ ، وإِنَّمَا خَصَّ الْعَرْشَ بِالذِّكْرِ لأَنَّه أَعْظَمُ الْمَمْلُوكَاتِ ، فَنَبَّهَ بِالْأَعْلَىٰ عَلَىٰ الْأَدْنَىٰ ، قَالَ : وَالاِسْتِوَاءُ بِمَعْنَىٰ الْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ شَائِعٌ فِي اللُّغَةِ ، كَمَا يُقَالُ : اسْتَوَىٰ فُلَانٌ عَلَىٰ النَّاحِيَةِ إِذَا غَلَبَ أَهْلَهَا ، وَقَالَ الشَّاعِرُ فِي بِشْرِ بْنِ مَرْوَانَ :

قَدِ اسْتَوَىٰ بِشْرٌ عَلَىٰ الْعِرَاقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقِ

يُرِيدُ : أَنَّه غَلَبَ أَهْلَهُ مِنْ غَيْرِ مُحَارَبَةٍ . قَالَ : وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي الْآيَةِ بِمَعْنَىٰ الاِسْتِيلَاءِ ، لِأَنَّ الاِسْتِيلَاءَ غَلَبَةٌ مَعَ تَوَقُّعِ ضَعْفٍ ، قَالَ : وَمِمَّا يُؤَيِّدُ مَا قُلْنَاهُ قَوْلُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] ، وَالاِسْتِوَاءُ إِلىٰ السَّماءِ هُوَ الْقَصْدُ إِلىٰ خَلْقِ السَّماءِ ، فَلَمَّا جَازَ أَنْ يَكُونَ الْقَصْدُ إِلىٰ السَّماءِ اسْتِوَاءً جَازَ أَنْ تَكُونَ الْقُدْرَةُ عَلَىٰ الْعَرْشِ اسْتِوَاءً " .

وقال أيضاً : " أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهَّ الْحَافِظُ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ مُوسَىٰ ، قَالَا : ثَنَا أَبُو العبَّاس محمَّد بْنُ يَعْقُوبَ ، ثَنَا محمَّد بْنُ الْجَهْمِ ، ثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ زِيَادٍ الْفَرَّاءُ فِي قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩] ، قَالَ : الاِسْتِوَاءُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ عَلَىٰ جِهَتَيْنِ : إِحْدَاهُمَا : أَنْ يَسْتَوِيَ الرَّجُلُ وَيَنْتَهِي شَبَابُهُ وَقُوَّتُهُ ، أَوْ يَسْتَوِي مِنِ اعْوِجَاجٍ ، فَهَذَانِ وَجْهَانِ ؛ وَوَجْهٌ ثَالِثٌ أَنْ تَقُولَ : كَانَ مُقْبِلاً عَلَىٰ فُلَانٍ ثمَّ اسْتَوَىٰ عَلَيَّ يُشَاتِمُنِي وَإِلَيَّ سَوَاءٌ ، عَلَىٰ مَعْنَىٰ أَقْبَلَ إِلَيَّ وَعَلَيَّ ، فَهَذَا مَعْنَىٰ قَوْلِهِ : اسْتَوَىٰ إِلىٰ السَّماءِ ، وَاللهُّ أَعْلَمُ . قَالَ : وَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُّ عَنْهُمَا : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ صَعَدَ ، وَهَذَا كَقَوْلِكَ لِلرَّجُلِ : كَانَ قَاعِدًا فَاسْتَوَىٰ قَائِماً ، أَوْ كَانَ قَائِماً فَاسْتَوَىٰ

قَاعِداً ، وَكُلٌّ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ جَائِزٌ . قُلْتُ : قَوْلُهُ : اسْتَوَىٰ بِمَعْنَىٰ أَقْبَلَ صَحِيحٌ ، لِأَنَّ الْإِقْبَالَ هُوَ الْقَصْدُ إِلَىٰ خَلْقِ السَّماء ، وَالْقَصْدُ هُوَ الْإِرَادَةُ ، وَذَلِكَ هُوَ الْجَائِزُ فِي صِفَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ . وَلَفْظُ ثُمَّ تَعَلَّقَ بِالْخَلْقِ لَا بِالْإِرَادَةِ . وَأَمَّا مَا حُكِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا فَإِنَّمَا أَخَذَهُ عَنْ تَفْسِيرِهِ الْكَلْبِيُّ ، وَالْكَلْبِيُّ ضَعِيفٌ ، وَالرِّوَايَةُ عَنْهُ عِنْدَنَا فِي أَحَدِ الْمَوْضِعَيْنِ كَمَا ذَكَرَهُ الْفَرَّاءُ " .

وقال الإمام البيهقي : " فَأَمَّا مَا أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ الرَّحمن محمَّد بْنُ عَبْدِ الرَّحمن بْنِ محمَّد بْنِ مَحْبُورٍ الدَّهَّانُ ، أنا الْحُسَيْنُ بْنُ محمَّد بْنِ هَارُونَ ، أنا أَحْمَدُ بْنُ محمَّد بْنِ محمَّد بْنِ نَصْرِ اللَّبَّادُ ، ثنا يُوسُفُ بْنُ بِلَالٍ ، عَنْ محمَّد بْنِ مَرْوَانَ عَنِ الْكَلْبِيِّ ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ﴾ [الأعراف: ٥٤] ، يَقُولُ : اسْتَقَرَّ عَلَىٰ الْعَرْشِ ، وَيُقَالُ امْتَلأَ بِهِ ، وَيُقَالُ : قَائِمٌ عَلَىٰ الْعَرْشِ ، وَهُوَ السَّرِيرُ " .

وَبِهَذَا الْإِسْنَادِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ﴾ [الأعراف: ٥٤] ، يَقُولُ : اسْتَوَىٰ عِنْدَهُ الْخَلَائِقُ ، الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ ، وَصَارُوا عِنْدَهُ سَوَاءً " وَيُقَالُ : اسْتَوَىٰ اسْتَقَرَّ عَلَىٰ السَّرِيرِ . وَيُقَالُ : امْتَلأَ بِهِ . فَهَذِهِ الرِّوَايَةُ مُنْكَرَةٌ ، وإِنَّمَا أَضَافَ فِي الْمَوْضِعِ الثَّانِي الْقَوْلَ الْأَوَّلَ إِلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا دُونَ مَا بَعْدَهُ ، وَفِيهِ أَيْضًا رَكَاكَةٌ ، وَمِثْلُهُ لَا يَلِيقُ بِقَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، إِذَا كَانَ الِاسْتِوَاءُ بِمَعْنَىٰ اسْتِوَاءِ الْخَلَائِقِ عِنْدَهُ ، فَإِيْشِ الْمَعْنَىٰ فِي قَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] ؟ وَكَأَنَّهُ مَعَ سَائِرِ الْأَقَاوِيلِ فِيهَا مِنْ جِهَةِ مَنْ دُونَهُ، وَقَدْ قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ بِهَذَا الْإِسْنَادِ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ يَقُولُ : اسْتَقَرَّ أَمْرُهُ عَلَىٰ السَّرِيرِ ، وَرَدَّ الِاسْتِقْرَارَ إِلَىٰ الْأَمْرِ ، وَأَبُو صَالِحٍ هَذَا وَالْكَلْبِيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ كُلُّهُمْ مَتْرُوكٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ ، لَا يَحْتَجُّونَ بِشَيْءٍ مِنْ رِوَايَاتِهِمْ لِكَثْرَةِ الْمَنَاكِيرِ فِيهَا ، وَظُهُورِ الْكَذِبِ مِنْهُمْ فِي رِوَايَاتِهِمْ " .

أَخْبَرَنَا أَبُو سَعْدٍ أَحْمَدَ بْنُ محمَّد الْمَالِينِيُّ ، أَنَا أَبُو أَحْمَدَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَدِيٍّ الْحَافِظُ ، ثَنَا محمَّد بْنُ يُوسُفَ بْنِ عَاصِمٍ الْبُخَارِيُّ ، ثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ محمَّد الزُّهْرِيُّ ، ثَنَا سُفْيَانُ ، عَنْ محمَّد بْنِ قَيْسٍ ، عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ ، قَالَ : كُنَّا نُسَمِّيهِ دروغ زن ، يَعْنِي أَبَا صَالِحٍ مَوْلَىٰ أُمِّ هَانِئٍ .

وَأَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الْحَافِظُ، أَنَا أَبُو بَكْرٍ الْحَفِيدُ ، ثَنَا هَارُونُ بْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ ، ثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ ، قَالَ : سَمِعْتُ يَحْيَىٰ بْنَ سَعِيدٍ الْقَطَّانُ ، يُحَدِّثُ عَنْ سُفْيَانَ ، قَالَ : قَالَ الْكَلْبِيُّ : قَالَ لِي أَبُو صَالِحٍ : كُلُّ مَا حَدَّثْتُكَ كَذِبٌ .

أَخْبَرَنَا أَبُو سَعْدٍ الْمَالِينِيُّ، ثَنَا أَبُو أَحْمَدَ بْنُ عَدِيٍّ ، ثَنَا أَحْمَدُ بْنُ حَفْصٍ ، ثَنَا أَبُو حَفْصٍ الْفَلَّاسُ ، ثَنَا أَبُو عَاصِمٍ ، عَنْ سُفْيَانَ ، عَنِ الْكَلْبِيِّ ، قَالَ : قَالَ لِي أَبُو صَالِحٍ : انْظُرْ كُلَّ شَيْءٍ رَوَيْتَ عَنِّي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ

عَنْهُمَا ، فَلَا تَرَوهِ . قَالَ: وَأَخْبَرَنَا أَبُو أَحْمَدَ ، قَالَ : سَمِعْتُ عَبْدَانَ يَقُولُ : سَمِعْتُ زَيْدَ بْنَ الْحَرِيشِ يَقُولُ : سَمِعْتُ أَبَا مُعَاوِيَةَ يَقُولُ : قُلْنَا لِلْكَلْبِيِّ : بَيِّنْ لَنَا مَا سَمِعتَ مِنَ أَبِي صَالِحٍ وَمَا هُوَ قَوْلُكَ ، فَإِذَا الْأَمْرُ عِنْدَهُ قَلِيلٌ . قَالَ : وَأَخْبَرَنَا أَبُو أَحْمَدَ ، ثَنَا الْجُنَيْدِيُّ ، ثَنَا الْبُخَارِيُّ قَالَ : محمَّد بْنُ السَّائِبِ أَبُو النَّضْرِ الْكَلْبِيُّ الْكُوفِيُّ تَرَكَهُ يَحْيَىٰ بْنُ سَعِيدٍ وَعَبْدُ الرَّحمن بْنُ مَهْدِيٍّ .

أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهَّ الْحَافِظُ ، قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا العبَّاس محمَّد بْنُ يَعْقُوبَ يَقُولُ : سَمِعْتُ العبَّاس بْنَ محمَّد ، يَقُولُ : سَمِعْتُ يَحْيَىٰ بْنَ مَعِينٍ ، يَقُولُ : الْكَلْبِيُّ لَيْسَ بِشَيْءٍ .

أَخْبَرَنَا أَبُو سَهْلٍ أَحْمَدُ بْنُ محمَّد بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مِهْرَانَ الْمُزَكِّي ، ثَنَا أَبُو الْحُسَيْنِ محمَّد بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَامِدٍ الْعَطَّارُ ، أَخْبَرَنِي أَبُو عَبْدِ اللهَّ الرَّاوَسَانِيُّ ، قَالَ : سَمِعْتُ محمَّد بْنَ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيَّ ، يَقُولُ : محمَّد بْنُ مَرْوَانَ الْكُوفِيُّ صَاحِبُ الْكَلْبِيِّ سَكَتُوا عَنْهُ ، لَا يُكْتَبُ حَدِيثُهُ الْبَتَّةَ ، قُلْتُ : وَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِثْلُ هَذِهِ الْأَقَاوِيلِ صَحِيحَةً عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُّ عَنْهُمَا ، ثمَّ لَا يَرْوِيهَا وَلَا يَعْرِفُهَا أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ الثِّقَاتِ الْأَثْبَاتِ ، مَعَ شِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَىٰ مَعْرِفَتِهَا ، وَمَا تَفَرَّدَ بِهِ الْكَلْبِيُّ وَأَمْثَالُهُ يُوجِبُ الْحَدَّ ، وَالْحَدُّ يُوجِبُ الْحَدَثَ لِحَاجَةِ الْحَدِّ إِلَىٰ حَادٍّ خَصَّهُ بِهِ ، وَالْبَارِي قَدِيمٌ لَمْ يَزَلْ .

أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهَّ الْحَافِظُ ، قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا نَصْرٍ أَحْمَدُ بْنُ سَهْلٍ الْفَقِيهُ وَأَبَا صَالِحٍ خَلَفُ بْنُ محمَّد يَقُولَانِ : سَمِعْنَا صَالِحَ بْنَ محمَّد ، يَقُولُ : سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهَّ محمَّد بْنَ زِيَادٍ الْأَعْرَابِيَّ صَاحِبَ النَّحْوِ يَقُولُ : قَالَ " لِي أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُؤَادَ : يَا أَبَا عَبْدِ اللهَّ ، يَصِحُّ هَذَا فِي اللُّغَةِ ، وَمَخْرَجُ الْكَلَامِ الرَّحمن عَلَا مِنَ الْعُلُوِّ ، وَالْعَرْشُ اسْتَوَىٰ ؟ قَالَ : قُلْتُ : يَجُوزُ عَلَىٰ مَعْنًىٰ ، وَلَا يَجُوزُ عَلَىٰ مَعْنًىٰ ، إِذَا قُلْتَ : الرَّحمن عَلَا مِنَ الْعُلُوِّ ، فَقَدْ تَمَّ الْكَلَامُ ، ثمَّ قُلْتَ : الْعَرْشُ اسْتَوَىٰ . يَجُوزُ إِنْ رَفَعْتَ الْعَرْشَ ، لأَنَّه فَاعِلٌ ، وَلَكِنْ إِذَا قُلْتَ : لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، فَهُوَ الْعَرْشُ . وَهَذَا كُفْرٌ " وَفِيمَا رَوَىٰ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ الطَّبَرِيُّ ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهَّ نَفْطَوَيْهِ قَالَ : أَخْبَرَنِي أَبُو سُلَيْمَانَ يَعْنِي دَاوُدَ قَالَ : كُنَّا عِنْدَ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا أَبَا عَبْدِ اللهَّ ، مَا مَعْنَىٰ قَوْلِهِ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] ، فَقَالَ : أَنَّه مُسْتَوٍ عَلَىٰ عَرْشِهِ كَمَا أَخْبَرَ . فَقَالَ الرَّجُلُ : إِنَّمَا مَعْنَىٰ قَوْلِهِ : ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ ، أَيِ : اسْتَوْلَىٰ . فَقَالَ لَهُ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ : مَا يُدْرِيكَ ؟ الْعَرَبُ لَا تَقُولُ اسْتَوْلَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ فُلَانٌ ، حَتَّىٰ يَكُونَ لَهُ فِيهِ مُضَادٌّ ، فَأَيُّهُمَا غَلَبَ قِيلَ : قَدِ اسْتَوْلَىٰ عَلَيْهِ ، وَاللهُّ تَعَالَىٰ لَا مُضَادَّ لَهُ ، فَهُوَ عَلَىٰ عَرْشِهِ كَمَا أَخْبَرَ " (١) .

(١) انظر : الأسماء والصفات للبيهقي (٢/ ٢٧٨) ، (٢/ ٣٠٣) ، (٢/ ٣٠٧) ، (٢/ ٣١١-٣١٢) بالترتيب .

وقال أيضاً : " قال الله تبارك وتعالىٰ : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، والعرش هو السَّرير المشهور فيما بين العقلاء ... والأخبار في مثل هذا كثيرة وفيما كتبنا من الآيات دلالة علىٰ إبطال قول من زعم من الجهميَّة أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ بذاته في كلِّ مكان ، وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد:٤] إنَّما أراد به بعلمه لا بذاته ، ثمَّ المذهب الصَّحيح في جميع ذلك الاقتصار علىٰ ما ورد به التَّوقيف دون التَّكييف ، وإلىٰ هذا ذهب المتقدِّمون من أصحابنا ومن تبعهم من المتأخِّرين ، وقالوا : الاستواء علىٰ العرش قد نطق به الكتاب في غير آية ، ووردت به الأخبار الصَّحيحة ، وقبوله من جهة التَّوقيف واجب ، والبحث عنه وطلب الكيفيَّة له غير جائز ...

وفي الجملة يجب أن يعلم أنَّ استواء الله سبحانه وتعالىٰ ليس باستواء اعتدال عن اعوجاج ، ولا استقرار في مكان ولا مماسَّة لشيء من خلقه ، لكنَّه مستو علىٰ عرشه كما أخبر بلا كيف بلا أين بائن من جميع خلقه ، وأنَّ إتيانه ليس بإتيان من مكان إلىٰ مكان ، وأنَّ مجيئه ليس بحركة ، وأنَّ نزوله ليس بنُقلة ، وأنَّ نفسه ليس بجسم ، وأنَّ وجهه ليس بصورة ، وأنَّ يده ليست بجارحة ، وأنَّ عينه ليست بحدقة ، وإنَّما هذه أوصاف جاء بها التَّوقيف فقلنا بها ونفينا عنها التَّكييف ، فقد قال : ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ : ١١]، وقال : ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص:٤]، وقال : ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٦٥] .

أخبرنا محمَّد بن عبد الله الحافظ أنا أبو بكر محمَّد بن أحمد بن بالويه ثنا محمَّد بن بشر بن مطر ثنا الهيثم بن خارجة حدثنا الوليد بن مسلم ، قال : سئل الأوزاعي ومالك وسفيان الثَّوري والليث بن سعد عن هذه الأحاديث ، فقالوا : أمرُّوها كما جاءت بلا كيفيَّة .

أخبرنا محمَّد بن عبد الله الحافظ أخبرني محمَّد بن يزيد سمعت أبا يحيىٰ البزَّار يقول : سمعت العبَّاس بن حمزة يقول : سمعت أحمد بن أبي الحواري يقول : سمعت سفيان بن عيينة يقول : كلّ ما وصف الله من نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسُّكوت عليه ، قال الشَّيخ : وإنَّما أراد به والله أعلم فيما تفسيره يؤدِّي إلىٰ تكييف ، وتكييفه يقتضي تشبيهه له بخلقه في أوصاف الحدوث .

أخبرنا أبو علي الحسين بن محمَّد الروذباري أنا محمَّد بن بكر ثنا أبو داود ثنا القعنبي ثنا يزيد بن إبراهيم عن عبد الله بن أبي مليكة عن القاسم بن محمَّد عن عائشة رضي الله عنها قالت : قَالَتْ: تَلاَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الآيَةَ : ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا

بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:٧] ، قالت رضي الله عنها : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ» (١) .

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ حدَّثني أبو بكر محمَّد بن علي الفقيه القفَّال ثنا عمر بن محمَّد بن بحير ثنا يونس بن عبد الأعلى قال : قال لي محمَّد بن إدريس الشَّافعي رحمه الله : لا يُقال للأصيل لِمَ ولا كيْف .

قال الشَّيخ : وقال في رواية الرَّبيع بن سليمان عنه الأصل كتاب الله أو سنَّة نبيِّه أو قول بعض أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو إجماع النَّاس .

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ثنا العبَّاس محمَّد بن يعقوب أنا الرَّبيع بن سليمان قال : قال الشَّـــــافعي فذكره " (٢) .

وقال الإمام القشيري (٤٦٥هـ) : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ﴾ أي : توحَّد بجلال الكبرياء بوصف الملكوت . وملوكنا إذا أرادوا التَّجلِّي والظُّهور للحشم والرَّعيَّة برزوا لهم على سرير ملكهم في ألوان مشاهدهم .

فأخبر الحقّ- سبحانه- بما يقرب من فهم الخلق ما ألقى إليهم من هذه الجملة : استوى على العرش ، ومعناه اتِّصافه بعزِّ الصَّمديَّة وجلال الأحديَّة ، وانفراده بنعت الجبروت وعلاء الرُّبوبيَّة ، تقدَّس الجبَّار عن الأقطار ، والمعبود عن الحدود .

وقال أيضاً : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ﴾ أي احتوى على ملكه احتواء قدرة وتدبير. والعرش هو الملك حيث يقال: اندكَّ عرش فلان إذا زال مُلكه " .

وقال أيضاً : " انتظم به الكون- والعرش من جملة الكون- ولم يتجمَّل الحقّ - سبحانه - بشيء من إظهار بريّته فعلوّه على العرش بقهره وقدرته، واستواؤه بفعل خصَّ به العرش بتسوية أجزائه وصورته " .

وقال أيضاً : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ﴾ ليس للعرش من هذا الحديث إلَّا هذا الخبر استوى على العرش ولكن القديم ليس له حدّ، استوى على العرش لكن لا يجوز عليه القُرب بالذَّات ولا البُعد، واستوى على العرش ولكنَّه أشدّ الأشياء تعطّشاً إلى شظية من الوصال لو كان للعرش حياة ؟ ولكنَّ العرش جماد ... وأنّى يكون للجماد مراد ؟! استوى على العرش لكنَّه صمد بلا ندّ ، أحد بلا حدّ " (٣) .

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٣٣ برقم ٤٥٤٧) ، مسلم (٤/ ٢٠٥٣ برقم ٢٦٦٥) .

(٢) انظر : الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث (ص١١٣-١٢٠) .

(٣) انظر : لطائف الإشارات (٢/ ٧٨) ، (٢/ ٢١٥) ، (٢/ ٦٤٦-٦٤٧) ، (٣/ ١٣٩) بالترتيب .

وقال الإمام أبو الحسن علي بن أحمد بن محمَّد بن علي الواحدي، النَّيسابوري، الشَّافعي (٤٦٨هـ) : " وقوله ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ [الأعراف: ٥٤] أي: أقبل على خلقه، وقصد إلى ذلك بعد خلق السَّموات والأرض ، وهذا قول الفرَّاء، وأبي العبَّاس، والزَّجاج ، وقال آخرون : استوى معناه : استولى ، واحتجُّوا بقول البعيث :

قد اسْتَوَىٰ بِشْرٌ علىٰ العِرَاقِ مِن غَيْرِ سَيْفٍ ودم مُهْرَاقِ

وخصَّ العرش بالإخبار عن الاستيلاء عليه لأنَّه أعظم المخلوقات " .

وقال أيضاً : " وقوله: ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ [الرعد: ٢] ثمَّ أقبل على خلق العرش بالاستيلاء والاقتدار ونفوذ السُّلطان ، وأصل الاستواء التَّدبير، كما أنَّ أصل القيام الانتصاب، ثمَّ يقال: قائم بالتَّدبير، والمعنى ثمَّ استوى على العرش بالتَّدبير للأجسام التي خلقها، وثمَّ تدلُّ على حدوث التَّدبير " (١) .

وقال أيضاً : ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ بالاستيلاء والاقتدار وأصله : استواء التَّدبير كما أنَّ أصل القيام الانتصاب ثمَّ يقال: قام بالتَّدبير ثمَّ يدلُّ على حدوث العرش المستولى عليه ، لا على حدوث الاستيلاء بعد خلق العرش المستولى عليه " (٢) .

وقال الإمام ، شَيْخُ العَرَبِيَّة ، أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ القَاهِرِ بنُ عَبْدِ الرَّحمن الجُرْجَانِيُّ (٤٧١هـ) في كتابه : " أسرار البلاغة " : ومن قدح في المجاز وهمَّ أن يصفه بغير الصِّدق فقد خبط خبْطاً عظيماً ، وتهدف لما لا يخفى . ولو لم يجب البحث عن حقيقة المجاز والعناية به حتى تُحصل ضروبه ، وتُضبط أقسامه ، إلَّا للسَّلامة من مثل هذه المقالة ، والخلاص ممَّا نحا نحو هذه الشُّبهة ، لكان من حقِّ العاقل أن يتوفَّر عليه ، ويصرف العناية إليه ، فكيف وبطالب الدِّين حاجة ماسَّة إليه من جهات يطول عدُّها ، وللشَّيطان من جانب الجهل به مداخل خفيَّة يأتيهم منها ، فيسرق دينهم من حيث لا يشعرون ، ويُلقيهم في الضَّلالة من حيث ظنُّوا أنَّهم يهتدون ؟ وقد اقتسمهم البلاء فيه من جانبي الإفراط والتَّفريط ، فمن مغرور مُغْرًى بنفيه دَفْعة ، والبراءة منه جملة ، يشمئز من ذكره ، وينبو عن اسمه ، يرى أنَّ لزوم الظَّواهر فرض لازم ، وضربَ الخيام حولها حتمٌ واجب ، وآخر يغلو فيه ويفرط ، ويتجاوز حدَّه ويخبط ، فيعدل عن الظَّاهر والمعنى عليه ، ويسوم نفسه التَّعمُّق في التَّأويل ولا سبب يدعو إليه .

---

(١) انظر : الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٢/ ٣٧٥) ، (٣/ ٣-٤) بالترتيب .

(٢) انظر : الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (ص٥٦٤) .

أمَّا التَّفريط ، فما تجد عليه قوماً في نحو قوله تعالىٰ : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، وقوله : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] ، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه : ٥] ، وأشباه ذلك من النُّبوِّ عن أقوال أهل التَّحقيق . فإذا قيل لهم : إنَّ الإتيان والمجيء ، انتقال من مكان إلىٰ مكان ، وصفة من صفات الأجسام ، وأنَّ الاستواء إنْ حُمل علىٰ ظاهره لم يصح إلَّا في جسم يشغل حَيِّزاً ويأخذ مكاناً ، والله عزَّ وجلَّ خالق الأماكن والأزمنة ، ومنشئ كلَّ ما تصح عليه الحركة والنُّقلة والتَّمكُّن والسُّكون ، والانفصال والاتِّصال ، والمماسَّة والمحاذاة ، وأنَّ المعنىٰ علىٰ : " إلَّا أن يأتيهم أمر الله " ، وجاء أمرُ ربِّك ، وأنَّ حقَّه أن يعبر بقوله تعالىٰ : ﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزمر : ٢٥] ، وقول الرَّجل : آتيك من حيث لا تشعر ، يريد : أُنزِل بك المكروهَ ، وأفعلُ ما يكون جزاءً لسوء صنيعك ، في حال غفلة منك ، ومن حيث تأمن حلوله بك ، وعلىٰ ذلك قوله :

أتيناهُمُ مِن أيمنِ الشِّقِّ عندهمْ ويأتي الشَّقيَّ الحَيْن من حيث لا يدري

نعم ، إذا قلت ذلك للواحد منهم ، رأيته إن أعطاك الوفاق بلسانه ، فبين جنبيه قلبٌ يتردَّد في الحيْرة ويتقلَّب ، ونفس تَفِرُّ من الصَّواب وتهرُب ، وفكر واقف لا يجيء ولا يذهب ، يُحضره الطَّبيب بما يبرئه من دائه ، ويريه المرشد وجه الخلاص من عنائه ، ويأبىٰ إلَّا نِفاراً عن العقل ، ورجوعاً إلىٰ الجهل . لا يحضره التَّوفيق بقدر ما يعلم به أنه إذا كان لا يجري في قوله تعالىٰ : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف : ٨٢] ، علىٰ الظَّاهر لأجل علمه أنَّ الجماد لا يسأل ، مع أنَّه لو تجاهل متجاهل فادعىٰ أنَّ الله تعالىٰ خلق الحياة في تلك القرية حتىٰ عقلت السُّؤال ، وأجابت عنه ونطقت ، لم يكن قال قولاً يكفر به ، ولم يزد علىٰ شيء يعلم كذبه فيه ، فمن حقه أن لا يجثم ها هنا علىٰ الظَّاهر ، ولا يضرب الحجاب دون سمعه وبصره حتىٰ لا يعي ولا يراعي ، مع ما فيه ، إذا أخذ علىٰ ظاهره ، من التعرُّض للهلاك والوقوع في الشِّرك " (١) .

قلت : ومن المؤسف حقَّاً أن يقوم مدَّعو السَّلفيَّة بالعبث بكتاب " أسرار البلاغة " التي لا يجيدون فنَّها ، فيشطبون هذه الفقرة برمَّتها من أسرار الجرجاني ، والسَّبب أنَّها لا تتوائم ولا تتوافق مع ما ذهبوا إليه من إنكار المجاز ، فقد قام المشرفون علىٰ المكتبة الشَّاملة / الإصدار السَّادس ، بشطب هذه الفقرة من أسرار البلاغة الصَّادر عن مطبعة المدني بالقاهرة ، ودار المدني بجدة ، وعليه تعليق محمود محمَّد شاكر ، مع أنَّ الفقرة كاملة موجودة في النُسخة الثَّانية من " أسرار البلاغة " الموجودة في المكتبة الشَّاملة ، وهي من إصدار دار الكتب العلميَّة ، بيروت ، ط١ ، (١٤٢٢هـ ، ٢٠٠١م) ، ومن تحقيق عبد الحميد هنداوي ، وهنا

(١) انظر : أسرار البلاغة (ص٢٨٧-٢٨٩) .

نقول لهم : إذا كنت كذوباً فكن ذكوراً ... فما حدث في نسخة دار المدني خيانة علميَّة توارثوها جيلاً بعد جيل ، فقد سبق لأسلافهم العبث بكتب أهل العلم ، بل تعدُّوه إلى كتابة كتب نسبوها للعديد من أساطين العلم لنصرة مذهبهم وباطلهم ...

وقال الإمام أبو المظفَّر شاهفور بن طاهر بن محمَّد الإسفراييني (٤٧١هـ) : " وَأَن تعلم أَنَّه لَا يجوز عَلَيْهِ الْكَيْفِيَّة والكمِّيَّة والأينيَّة لِأَنَّ من لَا مثل لَهُ لَا يُمكن أَن يُقَال فِيهِ كَيفَ هُوَ ؟ وَمن لَا عدد لَهُ لَا يُقَال فِيهِ كمْ هُوَ ؟ وَمن لَا أَوَّل لَهُ لَا يُقَال لَهُ مِمَّ كَانَ ؟ وَمن لَا مَكَان لَهُ لَا يُقَال فِيهِ أَيْن كَانَ ؟ وَقد ذكرنَا من كتاب الله تَعَالَى مَا يدلُّ على التَّوحيد وَنفي التَّشْبِيه وَنفي الْمَكَان والجهة وَنفي الِابْتِدَاء والأَوَّلية ، وَقد جَاءَ فِيهِ عَن أَمِير الْمُؤمنِينَ عَليّ رَضِي الله عَنهُ أشفى الْبَيَان حِين قيل لَهُ : أَيْن الله ؟ فَقَالَ : إِنَّ الَّذِي أَيَّن الأين لَا يُقَال لَهُ أَيْن ، فَقيل لَهُ : كَيفَ الله ؟ فَقَالَ : إِنَّ الَّذِي كَيَّفَ الكيْف لَا يُقَال لَهُ كَيْف " (١) .

وقال الإمام أبو إسحاق الشِّيرازي (٤٧٦هـ) : " أنَّ الله عزَّ وجلَّ مستوٍ على العرش؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] ، وأنَّ استواءه ليس باستقرار ولا ملاصقة ، لأنَّ الاستقرار والملاصقة صفة الأجسام المخلوقة، والرَّبُّ عزَّ وجلَّ قديم أزليٌّ، أبداً كان وأبداً يكون، لا يجوز عليه التَّغيير ولا التَّبديل، ولا الانتقال ولا التَّحريك. والعرش مخلوق لم يكن فكان؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل:٢٦] . فلو أنَّ المراد بالاستواء " الاستقرار والملاصقة "، لأدَّى إلى تغيُّر الرَّب وانتقاله من حال إلى حال، وهذا محالٌ في حقِّ القديم؛ فإنَّ كلَّ متغيِّر لا بدَّ له من مغيِّر .

ولأنَّ العرش مخلوق محدود، فلو كان الرَّب عزَّ وجلَّ مستقرّاً عليه، لكان لا يخلو: إمَّا أن يكون أكبر، أو أصغر منه، أو مثله:

فلو كان أكبر منه: يكون متبعِّضاً بعضه خالٍ من العرش، والبعض صفة الأجسام المؤلَّفة.

وإن كان أصغر منه: فيكون العرش مع كونه مخلوقاً أكبر منه، وذلك نقص. وإن كان مثله: يكون محدوداً كالعرش، فإن كان العرش مربَّعاً فيكون الرَّب مربَّعاً، وإن كان مخمَّساً فيكون الرَّب مخمَّساً، وما هو محدود له شَبَه وله مثل ولا يكون قديماً.

فدلَّ: على أنَّه كان ولا مكان، ثمَّ خلق المكان، وهو الآن على ما عليه كان.

فإن قيل: إذا قلتم إنَّه ليس على العرش، ولا في السَّماوات، ولا في جهة من الجهات، فأين هو؟!

---

(١) انظر : التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين (ص١٦١) .

يُقال لهم: أوَّل جهلكم: وصفكم له بـ" أين "؛ لأنَّ " أين " استخبار عن المكان، والرَّب عزَّ وجلَّ منزَّه عن ذلك " (١) .

وقال الإمام أبو المعالي الجويني (٤٧٨هـ) : " فإن استدلُّوا بظاهر قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥] ، فالوجه معارضتهم بآي يساعدوننا علىٰ تأويلها، منها قوله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ ﴾ [الحديد: ٤] ، وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾ [الرعد: ٣٣] فنسائلهم عن معنىٰ ذلك، فإن حملوه علىٰ كونه معنا بالإحاطة والعلم، لم يمتنع منَّا حمل الاستواء علىٰ القهر والغلبة، وذلك شائع في اللغة، إذ العرب تقول : استوىٰ فلان علىٰ الممالك إذا احتوىٰ علىٰ مقاليد المُلك واستعلىٰ علىٰ الرِّقاب. وفائدة تخصيص العرش بالذِّكر أنَّه اعظم المخلوقات في ظنِّ البريَّة، فنصَّ عليه تنبيهاً بذكره علىٰ ما دونه. فإن قيل: الاستواء بمعنىٰ الغلبة ينبئ عن سبق مكافحة ومحاولة، قلنا: هذا باطل، إذ لو أنبأ الاستواء عن ذلك لأنبأ عنه القهر. ثمَّ الاستواء بمعنىٰ الاستقرار بالذَّات ينبئ عن اضطراب واعوجاج سابق، والتزام ذلك كفر " (٢) .

وقال الإمام أبو سعد بن أبي سعيد المتولي النَّيسابوري (٤٧٨هـ) : " ... فإن قيل : الاستواء إذا كان بمعنىٰ القهر والغلبة فيقتضي منازعة سابقة وذلك محال في وصفه ، قلنا : والاستواء بمعنىٰ الاستقرار يقتضي سبق الاضطراب والانزعاج ، وذلك مُحال في وصفه " (٣) .

وقال الإمام المُجَاشِعِي القيرواني (٤٧٩هـ) : " قوله تعالىٰ :﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ [الأعراف: ٥٤] ، يحتمل في اللغة أن يكون كاستواء الجالس علىٰ سريره ، ويحتمل أن يكون بمعنىٰ القهر والاستيلاء ، كما قال الشَّاعر :

قد اسْتَوَىٰ بِشْرٌ علىٰ العِرَاقِ مِن غَيْرِ سَيْفٍ ودم مُهْرَاقٍ

واستواء الجالس لا يجوز علىٰ الله – عزَّ وجلَّ – " (٤) .

وقال الإمام السَّمعاني (٤٨٩هـ) :﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ أوَّل المُعْتَزلَة الاسْتوَاء بِالِاسْتِيلَاءِ ، وأنشدوا فِيهِ :

قد اسْتَوَىٰ بِشْرٌ علىٰ العِرَاقِ مِن غَيْرِ سَيْفٍ ودم مُهْرَاقٍ

---

(١) انظر : الإشارة إلىٰ مذهب أهل الحق (ص٢٣٥-٢٣٦) .

(٢) انظر : الإرشاد إلىٰ قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد (ص٤٠-٤١) .

(٣) انظر : الغنية في أصول الدين (ص٧٨) .

(٤) انظر : النكت في القرآن الكريم (في معاني القرآن الكريم وإعرابه) (ص١٧٤-١٧٥) .

وَأمَّا أهل السُّنَّة فيتبرءون من هَذَا التَّأْوِيل ، وَيَقُولُونَ : إِن الاسْتوَاء على الْعَرْش صفة لله – تَعَالَى – بِلَا كَيفَ، وَالْإِيمَان بِهِ وَاجِب، كَذَلِك يحْكى عَن مَالك بن أنس، وَغَيره من السَّلف، أَنهم قَالُوا فِي هَذِه الْآيَة : الْإِيمَان بِهِ وَاجِب، وَالسُّؤَال عَنهُ بِدعَة " .

قلت : فكيف يتبرَّؤ أهل السُّنَّة من هَذَا التَّأْوِيل ، وقد قال به العديد من جهابيذهم وأساطينهم ؟!!! ...

وقال الإمام السَّمعاني أيضاً : " قَوْله : ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ قد بينَّا مَذْهَب أهل السُّنَّة فِي الاسْتوَاء؛ وَهُوَ أَنَّه نؤمن بِهِ وَنكِل علمه إِلَى الله تَعَالَى من غير تَأْوِيل وَلَا تَفْسِير ، وَأمَّا الْمُعْتَزلَة: فَإِنَّهُم أوَّلُوا الاسْتوَاء بالِاسْتِيلَاءِ، وَهُوَ بَاطِل عِنْد أهل الْعَرَبيَّة (١)

(١) هذا الكلام ليس صحيحاً ...فالاستواء بمعنى الاستيلاء جاء في غير ما مصدر من مصادر العربية ...قال في الصحاح : " واسْتَوى، أي استولى وظَهَرَ. وقال: قد اسْتَوى بِشْرٌ على العِراقِ من غير سيفٍ ودمٍ مُهْراقِ . انظر : الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٦/ ٢٣٨٥) .

وجاء في المفردات القرآنية : " ... ومتى عدّي بعلى اقتضى معنى الاستيلاء، كقوله: الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى [طه/ ٥] ، وقيل: معناه استوى له ما في السموات وما في الأرض، أي: استقام الكلّ على مراده بِتَسْوِيَةِ الله تعالى إيّاه، كقوله: ثمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ [البقرة/ ٢٩] ، وقيل: معناه استوى كلّ شيء في النّسبة إليه، فلا شيء أقرب إليه من شيء، إذ كان تعالى ليس كالأجسام الحالة في مكان دون مكان، وإذا عدّي بإلى اقتضى معنى الانتهاء إليه، إمّا بالذّات، أو بالتّدبير ..." انظر : المفردات في غريب القرآن (ص٤٣٩) .

وجاء في " شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم " : واستوى على بلد كذا: أي استولى، قال الله تعالى: الرَّحْمانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى، وقال تعالى: ثمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ . قال الراجز: قداستوى بِشْرٌ على العراق بغير سيف ودم مهراق . انظر : شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم (٥/ ٣٢٨٢) .

وجاء في " مختار الصحاح " : وَاسْتَوَى أَيِ اسْتَوْلَى وَظَهَرَ. قَالَ الشَّاعِرُ:

قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقِ . انظر : مختار الصحاح (١/ ١٥٨) .

وجاء في " بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز " : " بمعنى القهر والقدرة: "استوى عَلَى العرش" {الرحمان عَلَى العرش استوى} أَى أَقبل على أَمره، واستولى على مِلكه، وقدر عليه بالقهر والغلبة. وهو أَعظم المخلوقات، وأَكبر الموجودات. فإِذا قهره وقدر عليه، فكيف ما دونه لديه.

قال أَبو القاسم الأَصبهانى: استوى يقال على وجهين. أَحدهما يُسند إِلى فاعلَين فصاعداً، نحو استوى زيد وعمرو في كذا، أَى تساويَا. الثانى: أَن يقال لاعتدال الشئ في ذاته، نحو قوله تعالى: {ذُو مِرَّةٍ فاستوى} ، ومتى عدّى بعلى اقتضى معنى الاستيلاء، نحو {الرحمن عَلَى العَرْشِ اسْتَوَىٰ} . وقيل معناه: استوى له ما في السّماوات، وما في الأَرض بتسويته تعالى إِيّاه؛ كقوله تعالى: {ثُمَّ استوى إِلى السَّماء فَسَوَّاهُنَّ} . وقيل: معناه استوى كلّ شيءٍ في النسبة إِليه، فلا شئَ أَقربُ إِليه من شئٍ؛ إِذ كان تعالى ليس كالأَجسام الحالَّة في مكان دون مكان" . انظر : بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٢/ ١٠٦-١٩٧) .

وجاء في " لسان العرب " واسْتَوى أَي اسْتَوْلى وظَهَر؛ وَقَالَ:قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى العِرَاق مِنْ غَيرِ سَيْفٍ ودَمٍ مُهْراق . انظر : لسان العرب (١٤/ ٤١٤) .

حكىٰ عَن أَحْمد بن أبي دَاوُد – وَكَانَ من رُؤَسَاء الْمُعْتَزلَة – أَنَّه قَالَ لِابْنِ الْأَعرَابِي : أتعرف الْعَرَب الاسْتوَاء؟ بِمَعْنى الإستيلاء فَقَالَ. لَا. ويحكى أَن هَذِه الْمَسْأَلَة جرت فِي مجْلِس الْمَأْمُون، فَقَالَ بشر المريسي: الاسْتوَاء بِمَعْنى الِاسْتِيلَاء، فَقَالَ لَهُ أَبُو السَّمراء – وَهُوَ رجل من أهل اللُّغَة – اخطأت يَا شيخ؛ فَإِن الْعَرَب لَا تعرف الِاسْتِيلَاء إِلَّا بعد عجز سَابق" (١) .

قلت : وليس في عدم معرفة ابن الأعرابي أنَّ من معاني الاستواء : الاستيلاء دليل على عدم صحَّة المعنى ، بدليل أنَّ العديد من علماء اللغة ذكروا أنَّ من معاني الاستواء : الاستيلاء ... ولا أقلَّ هنا من القول : قل للذي يدَّعي في العلم معرفة ... علمت شيئاً وغابت عنك أشياء ... وما سطَّرناه في هذا الكتـــاب أكبر دليل على ما قلناه ...

وقال الإمام أبو الثَّناء محمود بن زيد اللامشي الحنفي الماتريدي (توفي في أوائل القرن السادس الهجري) : " ... ووجه ذلك أنَّ الاستواء قد يُذكر ويُراد به الاستقرار، وقد يُذكر ويُراد به الاستيلاء فيحمل على الاستيلاء دفعاً للتَّناقض، وإنَّما خصَّ العرش بالذِّكر تعظيماً له كما خصَّه بالذِّكر في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [التوبة:١٢٩] وإن كان هو ربَّ كلِّ شيء " (٢) .

وقال الإمام الرَّاغب الأصفهاني (٥٠٢هـ) : " ... ومتى عدِّي بـ " على " اقتضى معنى الاستيلاء، كقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] ، وقيل: معناه استوى له ما في السَّموات وما في الأرض، أي: استقام

وجاء في " تاج العروس " : وقالَ الفرَّاءُ: مِن مَعانِي الاسْتِواءِ أَنْ يقولَ كانَ فلانٌ مُقْبلاً على فلانٍ ثمَّ اسْتَوَىٰ عليَّ وإليَّ يُشاتِمُنِي على، مَعْنى أَقْبَل، فَهَذَا مَعْنى {ثمَّ اسْتَوَىٰ إِلى السَّماءِ} . (أَو اسْتَوْلَى) وظَهَرَ؛ نقلَهُ الجوهريُّ ولكنَّه لم يُفَسِّر بِهِ الآيَةَ المَذْكورَة.

قالَ الرَّاغبُ: ومَتَى مَا عُدِّي بعلى اقْتَضَى مَعْنى الاسْتِيلاءِ كقوْلِه، عزَّ وجلَّ: {الرَّحْمن على العَرْشِ اسْتوى} ؛ وَمِنْه قَوْل الأَخْطَل أَنْشَدَه الجوهرِيُّ:

قَدِ اسْتَوَىٰ بِشْرٌ على العِرَاق   من غَيرِ سَيْفَ ودَمٍ مُهْراق

ثمَّ قالَ الرَّاغبُ: وقيلَ مَعْناه اسْتَوَىٰ كلّ شيءٍ فِي النِّسْبَةِ إِلَيْهِ، فَلَا شيءَ أَقْرَب إِلَيْهِ مِن شيءٍ إِذْ كانَ، عزَّ وجَلَّ، ليسَ كالأَجْسامِ الحالَّةِ فِي مَكانٍ دُونَ مكانٍ " . انظر : تاج العروس من جواهر القاموس (٣٨/ ٣٣٠) .

وجاء في معجم اللغة العربية المعاصرة : " استوى على كذا: استولى وملَك "استوى على سرير الملك- استوى على العرش: تولّى الملك- {ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ} : علا عليه". انظر : معجم اللغة العربية المعاصرة (٢/ ١١٤١) .

وجاء في " المعجم الوسيط " : " وَيُقَال اسْتَوَىٰ على سَرِير الْملك أَو على الْعَرْش تولى الْملك وَإِلَيْهِ قصد وَتوجه لَا يلوي على شَيْء " . انظر : المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة (١/ ٤٦٦) .

(١) انظر : تفسير القرآن ، أبو المظفر، السمعاني (٢/ ١٨٨) ، (٢/ ٣٦٦) بالترتيب .

(٢) انظر : كتاب التمهيد لقواعد التَّوحيد (٦٤) .

الكلُّ علىٰ مراده بِتَسْوِيَةِ الله تعالىٰ إيَّاه، كقوله:﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ ﴾ [البقرة: ٢٩] ، وقيل: معناه استوىٰ كلُّ شيء في النِّسبة إليه، فلا شيء أقرب إليه من شيء، إذ كان تعالىٰ ليس كالأجسام الحالَّة في مكان دون مكان، وإذا عدِّي بإلىٰ اقتضىٰ معنىٰ الانتهاء إليه، إمَّا بالذَّات، أو بالتَّدبير، وعلىٰ الثَّاني قوله:﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:١١] (١) .

وقال الإمام أبو المعين ميمون بن محمَّد بن النَّسفي المكحولي (٥٠٨هـ) : " ولأنَّ الله تعالىٰ كان قبل أن يخلق العرش فلا يجوز أن يُقال : بأنَّه انتقل وجهه إلىٰ العرش ، لأنَّ الانتقال من صفات المخلوقين وأمارات المحدثين ، والله تعالىٰ منزَّه عن ذلك ، ولأنَّ من قال بالاستقرار علىٰ العرش فلا يخلو إمَّا أن يقول : بأنَّه مثل العرش أو العرش أكبر منه ، أو هو أكبر من العرش ، وأيّاً ما كان فقائله كافر ، لأنَّه جعله محدوداً ... " (٢) .

وقال الإمام محيي السُّنَّة ، أبو محمَّد الحسين بن مسعود البغوي (٥١٠هـ) :﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ، قَالَ الْكَلْبِيُّ وَمُقَاتِلٌ: اسْتَقَرَّ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: صَعَدَ. وأوَّلت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء . فأمَّا أهل السُّنَّة يقولون: الِاسْتِوَاءُ عَلَىٰ الْعَرْشِ صِفَةٌ للهِ تَعَالَىٰ بِلَا كَيْفٍ يَجِبُ عَلَىٰ الرَّجُلِ الْإِيمَانُ بِهِ وَيَكِلُ الْعِلْمَ فِيهِ إلىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ .

وَسَأَلَ رَجُلٌ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ عَنْ قَوْلِهِ:﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه:٥] ، كَيْفَ اسْتَوَىٰ؟ فَأَطْرَقَ رَأْسَهُ مَلِيًّا وَعَلَاهُ الرُّحَضَاءُ ثمَّ قَالَ: الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ، وَمَا أَظُنُّكَ إِلَّا ضَالًّا، ثمَّ أَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ. وَرُوِيَ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ وَالْأَوْزَاعِيِّ وَاللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ وَسُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُبَارَكِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي جَاءَتْ فِي الصِّفَاتِ المتشابهات: أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ بِلَا كَيْفٍ. وَالْعَرْشُ فِي اللُّغَةِ: هُوَ السَّرِيرُ. وقيل: هو مَا عَلَا فَأَظَلَّ، وَمِنْهُ عَرْشُ الْكُرُومِ. وَقِيلَ: الْعَرْشُ الْمُلْكُ " (٣) .

وقال الإمام أحمد بن علي بن ثابت الرِّفاعي الحسيني (٥١٢هـ) : " أي سادة : نزِّهوا الله عن سمات المحدثين ، وصفات المخلوقين ، وطهِّروا عقائدكم من تفسير معنىٰ الاستواء في حقِّه تعالىٰ بالاستقرار ، كاستواء الأجسام علىٰ الأجسام ، المستلزم للحلول ، تعالىٰ الله عن ذلك . وإيَّاكم والقول بالفوقيَّة ، والسُّفليَّة ، والمكان ، واليد ، والعين بالجارحة ، والنُّزول بالإتيان والانتقال ، فإنَّ كلّ ما جاء في الكتاب والسُّنَّة ممَّا يدلُّ

---

(١) انظر : المفردات في غريب القرآن (ص٤٣٩-٤٤٠) .

(٢) انظر : بحر الكلام (ص١١٧) .

(٣) انظر : معالم التنزيل في تفسير القرآن (٢/ ١٩٧) .

ظاهره على ما ذكر ، فقد جاء في الكتاب والسُّنَّة مثله ممَّا يؤيِّد المقصود ، فما بقي إلَّا ما قاله صلحاء السَّلف ، وهو الإيمان بظاهر كلِّ ذلك (١) ، وردِّ علم المراد إلى الله ورسوله ، مع تنزيه الباري تعالى عن الكيْف وسمات الحدوث ، وعلى ذلك درج الأئمَّة ، وكلّ ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره قراءته والسُّكوت عنه ، ليس لأحد أن يفسِّره إلَّا الله تعالى ورسوله ، ولكم حمل المتشابه على ما يوافق أصل المحكم ، لأنَّه أصل الكتاب ، والمتشابه لا يعارض المحكم ... سأل رجل الإمام مالكاً بن أنس رضي الله عنه عن قوله تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ، فقال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسُّؤال عنه بدعة ، وما أراك إلَّا مبتدعاً ، وأمر به أن يُخرج .

وقال إمامنا الشَّافعي رضي الله عنه لما سئل عن ذلك : آمنت بلا تشبيه ، وصدَّقت بلا تمثيل ، واتَّهمت نفسي في الإدراك ، وأمسكت عن الخوض فيه كلّ الإمساك .

وقال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه : من قال : لا أعرف الله أفي السَّماء هو أم في الأرض فقد كفر ، لأنَّ هذا القول يوهم أنَّ للحقِّ مكاناً ، ومن توهَّم أنَّ للحقِّ مكاناً فهو مشبِّه .

وسئل الإمام أحمد رضي الله عنه عن الاستواء ، فقال : استوى كما أخبر ، لا كما يخطر للبشر .

وقال الإمام ابن الإمام جعفر الصَّادق عليه السَّلام : من زعم أنَّ الله في شيء أو من شيء أو على شيء فقد أشرك ، إذ لو كان على شيء لكان محمولاً ، ولو كان في شيء لكان محصوراً ، ولو كان من شيء لكان محدثاً " (٢) .

وقال الإمام ابن عقيل البغدادي (٥١٣هـ) : " ... فأمَّا المتشابهُ في باب الأفعالِ والصِّفاتِ ، فمثلُ قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [فصلت: ١١] ، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] ... فقد اختلفَ النَّاسُ في هذا، فقومٌ سلكوا فيهِ وبهِ مسلكَ المتردِّدِ في بابِ الأحكامِ، مثلُ القروءِ والعفوِ واللمس، فصرفوهُ بدلائلَ من كتابِ الله ودلائلِ العقولِ، إلى أنَّها إضافات يصرفُها الدَّليلُ هي أحقُّ بالأفعالِ، فقالوا: لأنَّ الاستواءَ إلى السَّماء بنفس الذَّاتِ هو الذَّهابُ نحوها، وهو في الحقيقةِ عينُ التَّحرُّكِ إلى فوقِ السَّماء صعوداً، والاستواءُ على العرشِ هو التَّمكُّن والاستقرارُ الذي يكونُ للجسمِ على الجسمِ، كاستواءِ نوحٍ على سفينته، والرَّاكب على دابتِه، وبالنَّصِ النَّافي للتَّشبيهِ ينتفي ذلك عنهُ، وهو قولُه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾

(١) المقصود هو ظاهر اللفظ لا ظاهر المعنى .

(٢) انظر : البرهان المؤيد (ص١٦-١٩) .

[الشورى:١١] ، وبدليلِ العقلِ الذي نفىٰ كونَه جسماً، وهو الوحدانيَّةُ في الذَّاتِ والجسم المؤلَّف بدليلِ إدخالِ أهلِ اللغةِ عليه لفظة: أفعل، وهي أجسمٌ، وليسَ ذلك إلَّا لتزايدِ التَّأليفِ بزيادةِ الجواهرِ.

وبالدَّليلِ الذي نفىٰ عنه الخروجَ من حال إلىٰ حالٍ، وهو التَّغيرُ الذي لا يجوزُ علىٰ القديم بحالٍ، وهو الذي ذكرهُ اللهُ عن خليلهِ إبراهيم ورضيهُ له دليلاً علىٰ حدَثِ النُّجوم ، حيثُ استدلَّ بالأُفولِ بعد الطُّلوع ، فأشعرَ ذلك عن الله سبحانه أنَّه لا بهذه الأوصافِ حيثُ قال : ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩] بعد أن قال في حقِّ المغيّراتِ : ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] ، فدلَّ علىٰ أنَّه إنَّما صرفَ الصِّناعةَ والإلهيَّةَ إلىٰ مَن ليسَ علىٰ هذهِ الحالِ، وهو التَّغيُّر والزَّوالُ.

فلمَّا عدلوا عن حقيقةِ الاستواءِ في الأجسامِ ، انقسموا فيما صرفوهُ إليه ، فقال قومٌ : يعني : قصدَ إلىٰ السَّماء وهي دُخانٌ ، يعني بخارَ الماءِ ، وقولُه : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] : استولىٰ علىٰ الملك.

وقال قومٌ بعد صرفهِ عن الوجهِ الأوَّلِ : لا ندري ما معناهُ في حقِّ الله ، تعظيماً لأمرِ الله وشأنهِ عن التَّأويلِ ، خوفاً من مزلَّةِ قدمٍ ، كما نزَّهوُه عن التَّشبيهِ ، ولهم في ذلك أئمَّة من السَّلفِ كأبي بكرٍ الصِّدِّيقِ وعمرَ بن الخطَّاب ، هذا يقول عندَ سؤالهِ عن الكلالةِ : أيّ سماءٍ تظلُّني ، وأيّ أرض تقلُّنيَ إذا قلتُ في كتابِ الله برأي ، وتأويلُ الكلالةِ غايتهُ خطأ من وارثٍ إلىٰ غير وارثٍ .

وعمرُ يقولُ : هذه الفاكهةُ ، فمَّا الأب ؛ ثمَّ يستغفرُ الله ويقولُ : ماذا عليكَ يا ابنَ الخطَّاب ؟ فالتَّحرُّجُ عن التَّأويلِ مذهب ، والإقدام علىٰ نفي التَّشبيهِ كلُّ المذهبِ ... " (١) .

وقال الإمام إسماعيل بن محمَّد الأصبهاني (٥٣٥هـ) : " قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف: ٥٤] ، يحتمل في اللغة أنّ يكون كاستواء الجالس علىٰ سريره ، ويحتمل أنّ يكون بمعنىٰ القهر والاستيلاء ، كما قال الشَّاعر :

قَدِ اسْتَوىٰ بِشْرٌ عَلَىٰ العِرَاق   مِنْ غَيرِ سَيْفٍ ودَمٍ مُهْراقِ

واستواء الجالس لا يجوز علىٰ الله عزَّ وجلَّ " (٢) .

وقال الإمام ابن عطيَّة الأندلسي المحاربي (٥٤٢هـ) : " وقوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ معناه عند أبي المعالي وغيره من حذَّاق المتكلِّمين بالملك والسُّلطان ، وخصَّ العرش بالذِّكر تشريفاً له إذ هو أعظم المخلوقات، وقال سفيان الثَّوري: فعل فِعْلاً في العرش سمَّاه استواء.

---

(١) انظر : الوَاضِح في أصُول الفِقه (٢/ ٣٧٩-٣٨١) .

(٢) انظر : إعراب القرآن (ص٧٣) .

قال القاضي أبو محمد: والْعَرْشِ مخلوق معيَّن جسم ما، هذا الذي قرَّرته الشَّريعة، وبلغني عن أبي الفضيل بن النَّحوي أنَّه قال: العرش مصدر عرش يعرش عرشاً، والمراد بقوله : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ هذا.

قال القاضي أبو محمَّد: وهذا خروج كثير عن ما فهم من العرش في غير ما حديث عن النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " .

وقال أيضاً : " واختصار القول في قوله : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ إمَّا أن يكون اسْتَوىٰ بقهره وغلبته وإمَّا أن يكون اسْتَوىٰ بمعنىٰ استولىٰ إن صحَّت اللفظة في اللسان، فقد قيل في قول الشَّاعر:

قد اسْتَوَىٰ بِشْرٌ علىٰ العِرَاقِ   مِن غَيْرِ سَيْفٍ ودم مُهْرَاقِ

إنَّه بيت مصنوع . وإمَّا أن يكون فعل فعلاً في العرش سمَّاه اسْتَوىٰ ، واستيعاب القول قد تقدَّم " .

وقال أيضاً : " ... وقد تقدَّم القول في قوله: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ بما فيه كفاية، وثُمَّ في هذا الموضع لترتيب الجمل ، لأنَّ الاستواء كان بعد أن لم يكن، وهذا علىٰ المختار في معنىٰ اسْتَوىٰ " (١) .

وقال الإمام أبو بكر بن العربي المالكي (٥٤٣هـ) : " ... وهذه الوجوه من القرآن واللُّغة علىٰ أنّ البارئ تعالىٰ لا يجوز عليه النّقل ولا الحركة ، وأنَّ نزولَهُ بخلاف مخلوقاته ، إنَّما نزوله نزول رحمةٍ وإحسانٍ ، أو يكون كما قال بعضىٰ العلماء الصُّوفيَّة : إنَّ نزوله ثُلُث اللَّيل إنَّما هو نزولٌ من حال الغَضَبِ إلىٰ حالة الرَّحْمَة ، وإلَّا إذا أضفتَ النّزول إلىٰ السَّكينة لم يكن ، وإذا أَضَفْتَهُ إلىٰ الكلام لم يكن أيضاً تفريغ مكانٍ ولا شُغل مكانٍ ، وإنَّما أراد به: إقباله علىٰ أهل الأرض بالرَّحْمَة ، والاستعطاف بالتَّوْبَة والإنَابَة . هذا تفسيرُه عند علمائنا من أهل الكلام .

وأمَّا من تَعَدَّىٰ عليه بالتَّفسير والقَوْلِ النَّكِيرِ ، فإنَّهم قالوا : في هذا الحديث دليلٌ علىٰ أنَّ الله تعالىٰ في السَّماء علىٰ العَرْشِ من فَوْق سبع سماوات .

قلنا : هذا جَهْلٌ عظيمٌ ، إنَّما قال : " يَنْزِلُ إلىٰ سَمَاءِ الدُّنيا " . ولم يقل في الحديث من أينَ ينزلُ ، ولا كيف ينزل .

قالوا – وحُجَّتُهُم ظاهرةٌ – : قال الله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ .

قلنا : تعالىٰ أنّ يكون استواؤُه علىٰ العَرْشِ كاستوائنا علىٰ ظهور الدَّوابِّ .

قالوا : وكما قال : ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ﴾ .

---

(١) انظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٤٠٨) ، (٣/ ١٠٤) ، (٤/ ٣٥٨) بالترتيب .

قلنا : تعالىٰ الله أنّ يكون كالسَّفِينَةِ جَرَتْ حتّىٰ لمست فوقفت . قلنا له : وما العرشُ ؟ وما الاستواءُ في العربِيَّة ؟ فإنْ توقَّفَ ، قلنا : هذا كلُّه مخلوقٌ ، واسْتَوَىٰ مخلوقٌ علىٰ مخلوقٍ بِارْتِفَاع وتمكينٍ في مكانٍ واتِّصالٍ ومُلامَسَةٍ ، والبارئ تعالىٰ يتقدَّس عنه ، وقدِ اتَّفَقَتِ الأُمَّةُ مِن قَبْلِ سَماعِ الحديثِ وسَرْدِهِ أنَّه ليس استواؤُه علىٰ شيءٍ من ذلك ، ولا تضرب به الأمثال بشيءٍ من خَلْقِهِ .

قالوا : قد قال قوم : ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ [الأعراف:٥٤] ، ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾ . قلنا : تناقضت أقوال العلماء في ذلك ، تقول مَرَّةً : أنَّه علىٰ العَرْشِ فَوْقَ السَّماواتِ ، ثمَّ تقول : أنَّه في السَّماء ، لقوله : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الملك:١٦] . وقلت : إنّ معناه علىٰ السَّماء ، ويَلْزَمُكَ أنّ تقول : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه:٥] ، أي إلىٰ العَرْشِ . قالوا : وقد قال : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [السجدة:٥] .

قلنا : هذا صحيحٌ ، ولكن ليس فيه لِبِدْعَتِكُمْ دليلٌ .

قالوا : فما تقولون في هذا : إنّ الأُمَّةَ قد أَجْمَعَتْ علىٰ أنَّهم يرفعون أيديهم إلىٰ السَّماء في الدُّعاء ، ولولا ما قال موسىٰ : إلهي في السَّماء لفرعون ، ما قال : ﴿ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ﴾ [غافر:٣٦] .

قلنا : كَذبتُم علىٰ مُوسَىٰ ، ما قالها قَطُّ، ومن يُوصِلكم إليه ؟ إنَّما أنتم أتباع فِرْعَون الّذين اعتقدوا أنَّ البارئ تعالىٰ في جِهَةٍ ، فأراد أنّ يَرْقَىٰ إليه بِسُلَّمٍ ، فيهنئكم أنّكم أتباع فرعون وأنَّه إمامكم .

قالوا : وهذا أُمَيَّة بن أبي الصَّلت يقول :

فسُبْحَانَ مَنْ لَا يَقْدِرُ الخَلْقُ قَدْرَهُ   مَنْ هُوَ فَوْقَ العَرْشِ فَرْدٌ مَوحَّدُ
مليكٌ علىٰ عَرْشِ السَّماء مُهَيْمِنٌ   لِعِزَّتِهِ تَعْنُو الوُجُوهُ وتَسْجدُ

وأُمَيَّة بن أبي الصَّلت قد قرأَ التَّورَاةَ والإنْجِيلَ والزَّبُور .

قلنا : هذا الّذي يُشْبِه جهلكم أنّ تحتجُّوا بقول فِرْعَون وقول مُلْحِدٍ جاهلي ، وتُحِيلُونَ به علىٰ التَّوْراة والإنجيل والزَّبور والفُرْقَان والكتب المبدَّلَة المحرَّفَة ، واليهودُ هم أعظم خَلْقِ الله كُفْراً ، وأعظمهم تشبيهًا لله بالخَلْقِ .

تنزيه :

قال الإمام ابن العربي أيضاً : والّذي يجب أنّ يُعْتَقَد في ذلك : أنَّ الله كان ولا شيءَ معه ، ثمَّ خَلَقَ المخلوقات من العَرشِ إلىٰ الفَرْشِ ، فلم يتغيَّر ، ولا حدثت له جِهَة منها ، ولا كان له مكان فيها ، فإنّه لا يَحُول ولا يَزُول ، قُدُّوسٌ لا يحولُ ولا يتغَيَّر .

وللاستواء في كلامِ العَرَبِ خمسة عشر وجهاً ما بين حقيقةٍ ومجازٍ ، منها ما يجوزُ علىٰ الله فيكون معنىٰ الآية ، ومنها ما لا يجوز بحالٍ ، وهو إذا كان الاستواء بمعنىٰ التَّمكين والاستقرار والاتِّصال والمُجَاوَرَةِ ، فإنَّ شيئًا من ذلك لا يجوزُ علىٰ الباريٰ تعالىٰ ، ولا تُضرب له الأمثال في المخلوقات إلَّا كما قال مالك وغيره من العلماء : أنَّ الاستواء معلومٌ ، يعني أنَّه قد وَرَدَ في اللُّغَةِ ، والْكَيْفِيَّةَ الّتي أراد اللهُ ممَّا يجوزُ عليه من معاني الاستواء مجهولةٌ ، فمن يقدر أن يعيِّنَها ؟ والسُّؤالُ عنه بِدْعَة ؛ لأنَّ الاشتغال به قد ينشىء طلبًا للمُتَشَابِه ابتغاءَ الفتنة . فيتحصَّل لك من كلام إمام المسلمين مالك ؛ أنَّ الاستواء معلومٌ ، وأنَّ ما لا يجوز علىٰ الله منه غير معقولٍ وغير متعيَّنٍ . وقد حَصَلَ لك التَّوحيد والإيمان بِنَفْيِ التَّشبيه والمُحَالِ علىٰ اللهِ ، فلا يلزمك سواهُ .

تشريفٌ:

إنَّ اللهَ سبحانه مُنَزَّهٌ عن الحركة والانتقال؛ لأنَّه لا يَحْوِيهِ مكانٌ، كما لا يشتمل عليه زمانٌ، ولا يَشغَلُ جُزءًا، ولا يَدْنُو إلىٰ مسافة بشيءٍ، ولا يغيبُ عن عِلْمِهِ شيءٌ. مُتَقَدِّس الذَّاتِ عن الآفاتِ، منزَّه عن التَّغير والاسْتِحَالاَتِ، إلهٌ في الأرض إلهٌ في السَّموات. وهذه عقيدةٌ مستقرَّةٌ في القلوبِ، ثابتةٌ بواضِحِ الدَّليلِ في المعقول " (١) .

وقال الإمام ابن العربي أيضاً في الرَّدِّ علىٰ الذين يزعمون أنَّ الله في جهة فوق العرش حقيقة : " قالوا : وحجَّتهم ظاهر قول الله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥] ، قلنا له : وما العرش في العربيَّة ؟ وما الاستواء ؟ قالوا: كما قال الله تعالىٰ: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف:١٣] ، قلنا: إنَّ الله تعالىٰ تنزَّه أن يمثِّل استواءه علىٰ عرشه باستوائنا علىٰ ظهور الرَّكائب، قالوا: وكما قال: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ [هود:٤٤] ، قلنا: تعالىٰ الله أن يكون كالسَّفينة جرت حتىٰ لمست فوقفت، قالوا: وكما قال: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ﴾ [المؤمنون:٢٨] ، قلنا: معاذ الله أن يكون استواؤه كاستواء نوح وقومه ، لأنَّ هذا كلّه استواء مخلوق : استواء بارتفاع وتمكُّن في مكان ، واتِّصال ملامسة، وقد اتَّفقت الأمَّة من قبل سماع الحديث ومن بعده علىٰ أنَّه ليس استواؤه علىٰ شيء من ذلك، فلا يضرب له المثل بشيء من خلقه، قالوا: قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ ثُمَّ

(١) انظر : المسالِك في شرح مُوَطَّأ مالك (٣/ ٤٤٧-٤٥٥) .

ﭐسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾ [السجدة:٤] ، ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [البقرة:٢٩] ، قلنا: تناقضت ، تارة تقول : إنَّه علىٰ العرش فوق السَّماء ، ثمَّ تقول : إنَّه في السَّماء لقوله: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الملك:١٦] ، وقلتَ إنَّ معناه علىٰ السَّماء ..." (١) .

وقال الإمام عياض اليحصبي (٥٤٤هـ) : " وَقَوله : ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾ قَالَ ابۡن عَرَفَة : الاسۡتوَاء من الله الۡقَصۡد للشَّيۡء والإقبال عَلَيۡهِ ، وَمعنىٰ قَوۡله هَذَا فعل يَفۡعَله بِهِ أَو فِيهِ وَهُوَ نَحۡو قَول الۡأَشۡعَرِيّ فعل فِيهِ فعلاً سمَّىٰ نَفسه بذلك .

وَقَالَ بَعضهم : هُوَ إِظۡهَار لآياته لَا مَكَان لذاته ، وَقَول آخَرين فِي تَأۡوِيله : يفعل الله مَا يَشَاء ، وَقد نقل مثل هَذَا عَن سُفۡيَان ، وَقَالَ : هُوَ اسۡتِوَاء عَلَاء . وَقَالَ أَبُو الۡعَالِيَة : اسۡتَوَىٰ ارۡتَفع ، وَقيل : اسۡتَوَىٰ بِمَعۡنىٰ الۡعُلُوّ بالعظمة ، وَقيل : اسۡتَوَىٰ علىٰ الۡعَرۡش ، أَي : هُوَ أعظم مِنۡهُ شاناً ، وَقيل : اسۡتَوَىٰ قهر ، وَقيل : اسۡتَوَىٰ علىٰ الۡعَرۡش ، أَي : علا بِذَاتِهِ ، وَقيل : قدر ، وَقيل : استولىٰ ، وَأنكر هاذين الۡقَوۡلَيۡنِ غير وَاحِد لِأَن الۡقُدۡرَة من صِفَات الذَّات وَلَا يَصح فِيهَا دُخُول ثمَّ إِذۡ هِيَ لما لم يكن بِخِلَاف صِفَات الۡأَفۡعَال .

وَقَالَ ابۡن عَبَّاس : اسۡتَوَىٰ إِلىٰ السَّماء صعد أمره ، وَكَذَلِكَ قَوۡله :﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ أَي : قصد كَمَا قَالَ ابۡن عَرَفَة ، وَقيل : الۡعَرۡش هُنَا الۡملك ، أَي : احتوىٰ عَلَيۡهِ وحازه ، وَقيل : اسۡتَوَىٰ رَاجع إِلىٰ الۡعَرۡش ، أَي : بِاللهَّ وسلطانه اسۡتَوَىٰ ، وَقيل : اسۡتَوَىٰ من الۡمُشكل الَّذِي لَا يعلم تَأۡوِيله إِلَّا الله وعلينا الۡإِيمَان بِهِ والتَّصديق وَالتَّسۡلِيم وتفويض علمه إِلىٰ الله تَعَالَىٰ ، وَهُوَ صَحِيح مَذۡهَب الۡأَشۡعَرِيّ وَعَامَّة الۡفُقَهَاء والمحدِّثين وَالصَّوَاب إِن شَاءَ الله . وَقَوله سوي أَو غير سوي السّوي المعتدل الۡخلق المستوي التَّام وَهُوَ ضد المعوج والناقص " (٢) .

وقال الإمام محمود بن أبي الحسن بن الحسين النَّيسابوري أبو القاسم، نجم الدِّين (٥٥٠هـ) : ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ ، بين أنَّه مستو ، أي : مستول عليه " .

وقال أيضاً : ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ ، استولىٰ بالاقتدار ونفوذ السُّلطان " .

وقال أيضاً : ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ بـ «ثمّ» صحَّ معنىٰ استولىٰ علىٰ العرش بإحداثه " .

---

(١) انظر : عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي (٢/١٩٨-١٩٩) .

(٢) انظر : مشارق الأنوار علىٰ صحاح الآثار (٢/ ٢٣١-٢٣٢) .

وقال أيضاً : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ بالاستيلاء على التَّدبير من جهته ليتصوَّر العبد منشأ التَّدبير من أعلى مكان " (١) .

قال الإمام الشَّهرستاني (٥٤٨هـ) : " ثمَّ يعتقدون أنَّ الله عزَّ وجلَّ مستو على العرش ، قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ [الأعراف:٥٤] ، وأنَّ استواءه ليس باستقرار ولا ملاصقة ، لأنَّ الاستقرار والملاصقة صفة الأجسام المخلوقة، والرَّبُّ عزَّ وجلَّ قديم أزليٌّ، أبداً كان وأبداً يكون، لا يجوز عليه التَّغيير ولا التَّبديل، ولا الانتقال ولا التَّحريك. والعرش مخلوق لم يكن فكان؛ قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [النمل:٢٦] . فلو أنَّ المراد بالاستواء " الاستقرار والملاصقة "، لأدَّى إلى تغيُّر الرَّب وانتقاله من حال إلى حال، وهذا محال في حقِّ القديم؛ فإنَّ كلّ متغيِّر لا بدَّ له من مغيِّر.

ولأنَّ العرش مخلوق محدود، فلو كان الرَّب عزَّ وجلَّ مستقرّاً عليه، لكان لا يخلو: إمَّا أن يكون أكبر، أو أصغر منه، أو مثله:

فلو كان أكبر منه: يكون متبعِّضاً بعضه خالٍ من العرش، والبعض صفة الأجسام المؤلّفة.

وإن كان أصغر منه: فيكون العرش مع كونه مخلوقاً أكبر منه، وذلك نقص.

وإن كان مثله: يكون كالعرش، محدوداً فإن كان العرش مربَّعاً فيكون الرَّب مربَّعاً، وإن كان مخمَّساً فيكون الرَّب مخمَّساً، وما هو محدود له شَبَه وله مثل ولا يكون قديماً.

فدلَّ: على أنَّه كان ولا مكان، ثمَّ خلق المكان، وهو الآن على ما عليه كان.

فإن قيل: إذا قلتم إنَّه ليس على العرش، ولا في السَّماوات، ولا في جهة من الجهات، فأين هو؟!

يُقال لهم: أوَّل جهلكم: وصفكم له بـ" أين "؛ لأنَّ " أين " استخبار عن المكان، والرَّب عزَّ وجلَّ منزَّه عن ذلك " (٢) .

وقال أيضاً : " ... ومنهم من توقَّف في التَّأويل، وقال: عرفنا بمقتضى العقل أنَّ الله تعالى ليس كمثله شيء، فلا يشبه شيئاً من المخلوقات ولا يشبهه شيء منها، وقطعنا بذلك؛ إلَّا أنَّا لا نعرف معنى اللفظ الوارد فيه، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] ... إلى غير ذلك. ولسنا مكلَّفين بمعرفة تفسير هذه

---

(١) انظر : إيجاز البيان عن معاني القرآن (١/ ٣٣٣) ، (١/ ٤٥٠) ، (٢/ ٦٦٣) ، (٢/ ٨٠٣) بالترتيب .

(٢) انظر : نهاية الأقدام في علم الكلام (ص٣٨٨-٣٨٩) .

الآيات وتأويلها، بل التَّكليف قد ورد بالاعتقاد بأنَّه لا شريك له، وليس كمثله شيء، وذلك قد أثبتناه يقيناً.

ثمَّ إنَّ جماعة من المتأخِّرين زادوا على ما قاله السَّلف؛ فقالوا : لا بدَّ من إجرائها على ظاهرها، فوقعوا في التَّشبيه الصّرف، وذلك على خلاف ما اعتقده السَّلف. ولقد كان التَّشبيه صرفاً خالصاً في اليهود، لا في كلِّهم بل في القرَّائين منهم، إذ وجدوا في التَّوراة ألفاظاً كثيرة تدلُّ على ذلك...

وأمَّا السَّلف الذين لم يتعرَّضوا للتَّأويل، ولا تهدَّفوا للتَّشبيه فمنهم: مالك بن أنس رضي الله عنهما؛ إذ قال: الاستواء معلوم، والكيفيَّة مجهولة، والإيمان به واجب، والسُّؤال عنه بدعة. ومثل أحمد بن حنبل رحمه الله، وسفيان الثَّوري، وداود بن علي الأصفهاني، ومن تابعهم " (١) .

وقال الإمام ابن عساكر (٥٧١هـ) : " ... وَقَالَت الحشويَّة والمجسِّمة أَنَّه سُبْحَانَهُ حَالٌّ فِي الْعَرْش ، وَإِنَّ الْعَرْش مَكَان لَهُ وَهُوَ جَالس عَلَيْهِ ، فسلك طَرِيقَة بَينهمَا ، فَقَالَ : كَانَ وَلَا مَكَان ، فخلق الْعَرْش والكرسيَّ ، وَلم يحْتَج إِلَىٰ مَكَان ، وَهُوَ بعد خلق الْمَكَان كَمَا كَانَ قبل خلقه . وَقَالَت الْمُعْتَزلَة : لَهُ يَد يَد قدرَة ونعمة ، وَوَجهه وَجه وجود . وَقَالَت الحشوية : يَده يَد جارحة ، وَوَجهه وَجه صُورَة ، فسلك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ طَرِيقَة بَينهمَا ، فَقَالَ : يَده يَد صفة ، وَوَجهه وَجه صفة ، كالسَّمع وَالْبَصَر ، وَكَذَلِكَ قَالَت الْمُعْتَزلَة : النُّزُول نزُول بعض آيَاته وَمَلَائِكَته ، والاستواء بمعنىٰ الِاسْتِيلَاء . وَقَالَت المشبِّهة والحشويَّة : النُّزُول : نزُول ذَاته بحركة وانتقال من مَكَان إِلَىٰ مَكَان ، والاستواء : جُلُوس علىٰ الْعَرْش وحلول فِيهِ ، فسلك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ طَرِيقَة بَينهمَا ، فَقَالَ : النُّزُول : صفة من صِفَاته ، والاستواء ... " (٢) .

وقال أيضاً : " وَأَنَّه اسْتَوَىٰ علىٰ الْعَرْش علىٰ الْوَجْه الَّذِي قَالَه ، وبالمعنىٰ الَّذِي أَرَادَهُ ، اسْتِوَاء منزَّهاً عَن المماسَّة والاستقرار ، والتَّمكُّن والحلول والانتقال ، لَا يحملهُ الْعَرْش ، بل الْعَرْش وَحَمَلتُه ، محمولون بلطف قدرته ، ومقهورون فِي قَبضته ، وَهُوَ فَوق الْعَرْش ، وَفَوق كلِّ شَيْء إِلَىٰ تُخوم الثَّرىٰ ، فوقيَّة لَا تزيده قرباً إِلَىٰ الْعَرْش والسَّما ، بل هُوَ رفيع الدَّرَجَات عَن الْعَرْش ، كَمَا أَنَّه رفيع الدَّرَجَات عَن الثَّرىٰ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِك قريب من كلِّ مَوْجُود ، وَهُوَ أقرب إِلَىٰ العبيد من حَبل الوريد ، وَهُوَ علىٰ كلِّ شَيْء شَهِيد ، إِذ لَا يماثل قُربه قربَ الْأَجْسَام ، كَمَا لَا تماثل ذَاته ذَات الْأَجْسَام ، وَأَنَّه لَا يحلُّ فِي شَيْء ، وَلَا يحلُّ فِيهِ شَيْء ، تَعَالَىٰ عَن أَن يحويه مَكَان ، كَمَا تقدَّس عَن أَن يحدُّه زمَان ، بل كان قبل أَن خلق الزَّمَان وَالْمَكَان ، وَهُوَ الْآن علىٰ مَا عَلَيْهِ

---

(١) انظر : الملل والنحل (١/ ٩٢-٩٣) .

(٢) انظر : تبيين كذب المفتري فيما نسب إلىٰ الإمام أبي الحسن الأشعري (ص١٥٠) .

كَانَ ، وَأَنه بَائِن من خلقه بصفاته ، وَلَيْسَ فِي ذَاته سواهُ ، وَلَا فِي سواهُ ذَاته ، وَأَنه مقدَّس عَن التَّغَيُّر والانتقال ، لَا تحلُّه الْحَوَادِث ، وَلَا تعتريه الْعَوَارِض ، بل لَا يزَال فِي نعوت جَلَاله منزَّهاً عَن الزَّوَال ، وَفِي صِفَات كَمَاله مستغنياً عَن زِيَادَة الاستكمال " (١) .

وقال الإمام نشوان بن سعيد الحميرى اليمني (٥٧٣هـ) : " الاستواء " : استوى الشَّيء : أي اعتدل ، قال الله تعالى : ﴿ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ ﴾ [الرعد:١٦] . قرأ الكوفيُّون غير حفص بالياء معجمة من تحت والباقون بالتَّاء .

واستوى على بلد كذا : أي استولى، قال الله تعالى : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه:٥] ، وقال تعالى : ثمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ . قال الرَّاجز :

قد اسْتَوَى بِشْرٌ على العِرَاقِ   مِن غَيْرِ سَيْفٍ ودم مُهْرَاقِ

واستوى الرَّجل : إذا انتهى شبابه ، قال الله تعالى : ﴿ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ ﴾ [القصص:١٤] .

واستوى إِليه : أي أقبل ، يقال : كان فلان مقبلاً على فلان ثمَّ استوى إِلَيَّ يشاتِمُني : أي أقبل ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [البقرة:٢٩] ، أي : أقبل عليها وقصد خَلْقها .

وقيل : معنى : ﴿ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، مثل : " اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ " : أي استولى " (٢) .

وقال الإمام جمال الدِّين الغزنوي الحنفي (٥٩٣هـ) : " استواؤه على الْعَرْش حقٌّ وَصدق ، وَنحن نؤمن ونعتقد على الْوَجْه الَّذِي أَرَادَهُ وَلَا نشتغل بكيفيَّته " (٣) .

وقال الإمام ابن الجوزي الحنبلي (٥٩٧هـ) : " ... ومنها : قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ﴾ [الأعراف: ٥٤] . قال الخليل بن أحمد : العرش السَّرير ، فكلُّ سرير ملك يسمَّى عرشاً ، والعرش مشهور عند العرب في الجاهليَّة والإسلام ، قال الله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [يوسف: ١٠٠] ، وقال تعالى : ﴿ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا﴾ [النمل: ٣٨]

واعلم أنَّ الاستواء في اللغة على وجوه ، منها : الاعتدال ، قال بعض بني تميم : فاستوى ظالم العشيرة والمظلوم ، أي : اعتدلا ، والاستواء : تمام الشَّيء ، قال الله تعالى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤] ،

(١) انظر : تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري (ص٣٠٠) .

(٢) انظر : شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم (٥/ ٣٢٨٢) .

(٣) انظر : كتاب أصول الدين (ص٧٣) .

أي : تمّ ، والاستواء : القصد إلىٰ الشَّيء ، قال تعالىٰ : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩] ، أي : قصد خلقها ، والاستواء : الاستيلاء علىٰ الشَّيء ، قال الشَّاعر :

قد اسْتَوَىٰ بِشْرٌ علىٰ العِرَاقِ   مِن غَيْرِ سَيْفٍ ودم مُهْرَاقٍ

وقال الآخر :

إذا ما غزىٰ قوماً أباح حريمهم   وأضحىٰ علىٰ ما ملكوه قد استوىٰ

وروىٰ إسماعيل بن أبي خالد الطَّائي ، قال : العرش ياقوتة حمراء .

قلت : وجميع السَّلف علىٰ إمرار هذه الآية كما جاءت من غير تفسير ولا تأويل .

قال عبدالله بن وهب : كنَّا عند مالك بن أنس ، فدخل رجلٌ ، فقال : يا أبا عبد الله ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ، كيف استوىٰ ؟ فأطرق مالك وأخذته الرُّحضاء ، ثمَّ رفع رأسه ، فقال : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] كما وصف نفسه ، ولا يقال له كيف ، وكيفٌ عنه مرفوع ، وأنت رجل سوء ، صاحب بدعة ، فأخرجوه ، فأُخرج .

وقد حمل قومٌ من المتأخِّرين هذه الصِّفة علىٰ مقتضىٰ الحسّ ، فقالوا : استوىٰ علىٰ العرش بذاته ، وهي زيادة لم تنقل ، إنَّما فهموها من إحساسهم ، وهو أنَّ المستوي علىٰ الشَّيء إنَّما تستوي عليه ذاته . قال أبو حامد : الاستواء مماسّته ، وصفة لذاته ، والمراد به القعود ، قال : وقد ذهبت طائفة من أصحابنا إلىٰ أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ عرشه قد ملأه ، وأنَّه يقعد ويُقعد نبيَّه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه علىٰ العرش يوم القيامة .

قال أبو حامد : والنُّزول هو انتقال . قلت : وعلىٰ ما حكىٰ تكون ذاته أصغر من العرش ، فالعجب من قول هذا : ما نحن مجسِّمة .

وقيل لابن الزَّاغوني : هل تجدَّدت له صفة لم تكن له بعد خلق العرش ؟ قال لا ، إنَّما خلق العالم بصفة التَّحت ، فصار العالم بالإضافة إليه أسفل ، فإذا ثبت لإحدىٰ الذاتين صفة التَّحت تثبت للأخرىٰ صفة استحقاق الفوق ، قال : وقد ثبت أنَّ الأماكن ليست في ذاته ، ولا ذاته فيها ، فثبت انفصاله عنها ، ولا بدَّ من شيء يحصل به الفصل ، فلمَّا قال : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ ﴾ علمنا اختصاصه بتلك الجهة .

قل ابن الزَّاغوني : ولا بدَّ أن تكون لذاته نهاية وغاية يعلمها .

قلت : وهذا رجلٌ لا يدري ما يقول ، لأنَّه إذا قدّر غاية وفصلاً بين الخالق والمخلوق ، فقد حدَّده ، وأقرَّ بأنَّه جسم ، وهو يقول في كتابه : أنَّه ليس بجوهر ، لأنَّ الجوهر ما تحيَّز ، ثمَّ يثبت له مكاناً يتحيَّز فيه .

قلت : وهذا كلام جهل من قائله ، وتشبيه محض ، فما عرف هذا الشَّيخ ما يجب للخالق ، وما يستحيل عليه ، فإنَّ وجوده تعالىٰ ليس كوجود الجواهر والأجسام التي لا بدَّ لها من حيِّز ، والتَّحت والفوق إنَّما يكون فيما يقابل ويحاذي ، ومن ضرورة المحاذي أن يكون أكبر من المحاذىٰ أو أصغر أو مثله ، وأنَّ هذا ومثله إنَّما يكون في الأجسام ، وكلُّ ما يحاذي الأجسام يجوز أن يمسّها ، وما جاز عليه مماسَّة الأجسام ، ومباينتها ، فهو حادث إذ قد ثبت أنَّ الدَّليل علىٰ حدوث الجواهر قبولها للمباينة والمماسَّة ، فإذا أجازوا هذا عليه قالوا بجواز حدوثه ، وإن منعوا جواز هذا عليه لم يبق لنا طريق لإثبات حدوث الجواهر ، ومتىٰ قدَّرناه مستغنياً عن المحلِّ والحيِّز ومحتاجاً إلىٰ الحيِّز ، ثمَّ قلنا : إمَّا أن يكونا متجاورين أو متباينين ، كان ذلك محالاً ، فإنَّ التَّجاور والتَّباين من لوازم التَّحيُّز في المتحيِّزات ، وقد ثبت أنَّ الإجتماع والإفتراق من لوازم المتحيِّز ، والحقُّ سبحانه وتعالىٰ لا يوصف بالتَّحيُّز ، لأنَّه إن كان متحيِّزاً لم يخل إما أن يكون ساكناً في حيِّزه أو متحرِّكاً عنه ، ولا يجوز أن يوصف بحركة ولا سكون ولا اجتماع ولا افتراق ، وما جاور أو باين فقد تناهىٰ ذاتاً ، والمتناهي إذا خصَّ بمقدار استدعىٰ مخصِّصاً ، وكذا ينبغي أن يقال : ليس بداخل في العالم وليس بخارج منه ، لأنَّ الدُّخول والخروج من لوازم المتحيِّزات ، وهما كالحركة والسُّكون وسائر الأعراض التي تختصُّ بالأجرام ، وأمَّا قولهم : خلق الأماكن لا في ذاته فثبت انفصاله عنها ، قلنا : ذاته تعالىٰ لا تقبل أن يخلق فيها شيء ، ولا أن يحلُّ فيها شيء ، والفصل من حيث الحسّ يوجب عليه ما يوجب علىٰ الجواهر ، ومعنىٰ الحيِّز : أنَّ الذي يختصُّ به يمنع مثله أن يوجد ، وكلام هؤلاء كلّه مبنيٌّ علىٰ الحسِّ ، وقد حملهم الحسُّ علىٰ التَّشبيه والتَّخليط ، حتىٰ قال بعضهم : إنَّما ذكر الاستواء علىٰ العرش ، لأنَّه أقرب الموجودات إليه ، وهذا جهل أيضاً ، لأنَّ قرب المسافة لا يتصوَّر إلَّا في حقِّ الجسم .

وقال بعضهم : جهة العرش تحاذي ما يقابله من الذَّات ، ولا تحاذي جميع الذَّات ، وهذا صريح في التَّجسيم والتَّبعيض ، ويعزُّ علينا كيف يُنسب هذا القائل إلىٰ مذهبنا .

واحتجَّ بعضهم بأنَّه علىٰ العرش بقوله تعالىٰ : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر: ١٠] ، وبقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٨] ، وجعلوا ذلك فوقيَّة حسِّيَّة ، ونسوا أنَّ الفوقيَّة الحسِّيَّة إنَّما تكون لجسم أو جوهر ، وأنَّ الفوقيَّة قد تطلق لعلوِّ المرتبة ، فيقال : فلانٌ فوق فلان ، ثمَّ أنَّه كما قال : ﴿ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ ، قال : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ [الحديد: ٤] .

فمن حملها علىٰ العلم حمل خصمه الاستواء علىٰ القهر . أخبرنا علي بن محمَّد بن عمر الدبَّاس ، قال : أنبأنا رزق الله بن عبد الوهَّاب التَّميمي ، قال: كان أحمد بن حنبل يقول : الاستواء صفة مسلَّمة ، وليست

بمعنىٰ القصد ولا الاستعلاء ، قال : وكان أحمد لا يقول بالجهة للباري ، لأنَّ الجهات تخلىٰ عمَّا سواها ، وقال ابن حامد : الحقُّ يختصُّ بمكان دون مكان ، ومكانه الذي هو فيه وجود ذاته علىٰ عرشه .

وقال : وذهبت طائفة إلىٰ أنَّ الله تعالىٰ علىٰ عرشه قد ملأه ، والأشبه أنَّه مماسّ للعرش ، والكرسيُّ موضع قدميه .

قلت : المماسَّة إنَّما تقع بين جسمين ، وما أبقىٰ هذا في التَّجسيم بقيَّة . واعلم أنَّ كلَّ من يتصوَّر وجود الحقّ سبحانه وجوداً مكانيَّاً طلب له جهة ، كما أنَّ من تخيَّل أنَّ وجوده وجوداً زمانيَّاً ، طلب له مدَّة في تقدُّمه علىٰ العالم بأزمنة ، وكلا التَّخيلين باطل ، وقد ثبت أنَّ جميع الجهات تتساوىٰ بالإضافة إلىٰ القائل بالجهة ، فاختصاصه ببعضها ليس بواجب لذاته ، بل هو جائز فيحتاج إلىٰ مخصِّص يخصِّصه ، ويكون الاختصاص بذلك المعنىٰ زائداً علىٰ ذاته ، وما تطرَّق الجواز إليه استحال قدمه ، لأنَّ القديم هو الواجب الوجود من جميع الجهات ، ثمَّ إنَّ كلّ من هو في جهة يكون مقدَّراً محدوداً ، وهو يتعالىٰ عن ذلك ، وإنَّما الجهات للجواهر والأجسام ، لأنَّها أجرامٌ تحتاج إلىٰ جهة ، والجهة ليست في جهة ، وإذا ثبت بطلان الجهة ثبت بطلان المكان ، ويوضِّحه أنَّ المكان يحيط بمن فيه ، والخالق لا يحويه شيء ، ولا تحدث له صفة .

فإن قيل : فقد أخرج في الصَّحيحين عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أنَّه ذكر المعراج ، فقال فيه : فعلا به إلىٰ الجبَّار تعالىٰ ، فقال وهو في مكانه : " يا ربّ خفِّف عنَّا " .

فالجواب أنَّ أبا سليمان الخطَّابي ، قال : هذه لفظة تفرَّد بها شريك ، ولم يذكرها غيره ، وهو كثير التَّفرُّد بمناكير الألفاظ ، والمكان لا يضاف إلىٰ الله عزَّ وجلَّ ، إنَّما هو مكان النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ومعناه : مقامه الأوَّل الذي أُقيم فيه .

قال الخطَّابي : وفي هذا الحديث : " فاستأذنت علىٰ ربِّي وهو في داره " يُوهم مكاناً ، وإنَّما المعنىٰ : في داره التي دوَّرها لأوليائه ، وقد قال القاضي أبو يعلىٰ في كتابه : " المعتمد " : إنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يوصف بالمكان ، فإن قيل : نفي الجهات يحيل وجوده ، قلنا : إن كان الموجود يقبل الاتِّصال والانفصال ، فقد صدقت ، فأمَّا إذا لم يقبلهما ، فليس خلوّه من طرف النَّقيض بمحال .

فإن قيل : أنتم تلزموننا أن نقرَّ بما لا يدخل تحت الفهم .

قلنا : إن أردت بالفهم التَّخيُّل والتَّصوُّر ، فإنَّ الخالق لا يدخل تحت ذلك ، إذ ليس يحسّ ولا يدخل تحت ذلك إلَّا جسم له لون وقدر ، فإنَّ الخيال قد أنس بالمبصرات ، فهو لا يتوهَّم شيئاً إلَّا علىٰ وفق ما رآه ، لأنَّ

الوهم من نتائج الحسّ ، وإن أردت أنَّه لا يعلم بالعقل ، فقد دللنا أنَّه ثابت بالعقل ، لأنَّ العقل مضطرٌّ إلىٰ التَّصديق بموجب الدَّليل .

واعلم أنَّك لَّما لم تجد إلَّا حسَّاً أو عَرَضاً ، وعلمت تنزيه الخالق عن ذلك بدليل العقل الذي صرفك عن ذلك ، فينبغي أن يصرفك عن كونه متحيِّزاً أو متحرِّكاً أو منتقلاً ، ولَّما كان مثل هذا الكلام لا يفهمه العامِّيُّ ، قلنا : لا تسمعوه ما لا يفهمه ، ودعوا اعتقاده لا تحرِّكوه ، ويقال : إنَّ الله تعالىٰ استوىٰ علىٰ عرشه كما يليق به ... " (١) .

وقال الإمام فخر الدِّين الرَّازي (٦٠٦هـ) : " أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ فَاعْلَمْ أَنَّه لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْهُ كَوْنَهُ مُسْتَقِرًّا عَلَىٰ الْعَرْشِ ، وَيَدُلُّ عَلَىٰ فَسَادِهِ وُجُوهٌ عَقْلِيَّةٌ وَوُجُوهٌ نَقْلِيَّةٌ. أَمَّا الْعَقْلِيَّةُ فَأُمُورٌ: أَوَّلُهَا: أَنَّه لَوْ كَانَ مُسْتَقِرًّا عَلَىٰ الْعَرْشِ لَكَانَ مِنَ الْجَانِبِ الَّذِي يَلِي الْعَرْشَ مُتَنَاهِيًا وَإِلَّا لَزِمَ كَوْنُ الْعَرْشِ دَاخِلًا فِي ذَاتِهِ وَهُوَ مُحَالٌ وَكُلُّ مَا كَانَ مُتَنَاهِيًا فَإِنَّ الْعَقْلَ يَقْضِي بِأَنَّهُ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَصِيرَ أَزْيَدَ مِنْهُ أَوْ أَنْقَصَ مِنْهُ بِذَرَّةٍ وَالْعِلْمُ بِهَذَا الْجَوَازِ ضَرُورِيٌّ فَلَوْ كَانَ الْبَارِي تَعَالَىٰ مُتَنَاهِيًا مِنْ بَعْضِ الْجَوَانِبِ لَكَانَتْ ذَاتُهُ قَابِلَةٌ لِلزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ اخْتِصَاصُهُ بِذَلِكَ الْمِقْدَارِ الْمُعَيَّنِ لِتَخْصِيصِ مُخَصِّصٍ وَتَقْدِيرِ مُقَدِّرٍ وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مُحْدَثٌ فَثَبَتَ أَنَّه تَعَالَىٰ لَوْ كَانَ عَلَىٰ الْعَرْشِ لَكَانَ مِنَ الْجَانِبِ الَّذِي يَلِي الْعَرْشَ مُتَنَاهِيًا وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ مُحْدَثًا وَهَذَا مُحَالٌ فَكَوْنُهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُحَالًا. وَثَانِيهَا: لَوْ كَانَ فِي مَكَانٍ وَجِهَةٍ لَكَانَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ غَيْرَ مُتَنَاهٍ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُتَنَاهِيًا فِي كُلِّ الْجِهَاتِ. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُتَنَاهِيًا مِنْ بَعْضِ الْجِهَاتِ دُونَ الْبَعْضِ وَالْكُلُّ بَاطِلٌ فَالْقَوْلُ بِكَوْنِهِ فِي الْمَكَانِ وَالْحَيِّزِ بَاطِلٌ قَطْعًا.

بَيَانُ فَسَادِ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ: أَنَّه يَلْزَمُ أَنْ تَكُونَ ذَاتُهُ مُخَالِطَةً لِجَمِيعِ الْأَجْسَامِ السُّفْلِيَّةِ وَالْعُلْوِيَّةِ وَأَنْ تَكُونَ مُخَالِطَةً لِلْقَاذُورَاتِ وَالنَّجَاسَاتِ وَتَعَالَىٰ اللهُ عَنْهُ وَأَيْضًا فعلىٰ هذا التقدير: تكون السَّموات حَالَّةً فِي ذَاتِهِ وَتَكُونُ الْأَرْضُ أَيْضًا حَالَّةً فِي ذَاتِهِ.

إِذَا ثَبَتَ هَذَا فَنَقُولُ: الشَّيء الذي هو محل السَّموات إِمَّا أَنْ يَكُونَ هُوَ عَيْنَ الشَّيء الَّذِي هُوَ مَحَلُّ الْأَرَضِينَ أَوْ غَيْرُهُ فَإِنْ كَانَ الاول لزم كون السَّموات وَالْأَرَضِينَ حَالَّتَيْنِ فِي مَحَلٍّ وَاحِدٍ مِنْ غَيْرِ امْتِيَازٍ بَيْنَ مَحَلَّيْهِمَا أَصْلًا وَكُلُّ حَالَّيْنِ حَلَّا فِي مَحَلٍّ وَاحِدٍ لَمْ يَكُنْ أَحَدُهُمَا: مُمْتَازًا عن الآخر فلزم ان يقال: السَّموات لَا تَمْتَازُ عَنِ الْأَرَضِينَ فِي الذَّاتِ وَذَلِكَ بَاطِلٌ وَإِنْ كَانَ الثَّانِي: لَزِمَ أَنْ تَكُونَ ذَاتُ اللهَّ تَعَالَىٰ مُرَكَّبَةً مِنَ الْأَجْزَاءِ وَالْأَبْعَاضِ وَهُوَ مُحَالٌ. وَالثَّالِثُ: وَهُوَ أَنَّ ذَاتَ اللهَّ تَعَالَىٰ إِذَا كَانَتْ حَاصِلَةً فِي جَمِيعِ الْأَحْيَازِ وَالْجِهَاتِ فَإِمَّا أَنْ يُقَالَ:

(١) انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه (ص١٢١ فما بعدها) ،.

الشَّيء الَّذِي حَصَلَ فَوْقُ هُوَ عَيْنُ الشَّيء الَّذِي حَصَلَ تَحْتُ فَحِينَئِذٍ تَكُونُ الذَّاتُ الْوَاحِدَةُ قَدْ حَصَلَتْ دُفْعَةً وَاحِدَةً فِي أَحْيَازٍ كَثِيرَةٍ وَإِنْ عُقِلَ ذَلِكَ فَلِمَ لَا يُعْقَلُ أَيْضًا حُصُولُ الْجِسْمِ الْوَاحِدِ فِي أَحْيَازٍ كَثِيرَةٍ دُفْعَةً وَاحِدَةً؟ وَهُوَ مُحَالٌ فِي بَدِيهَةِ الْعَقْلِ. وَأَمَّا إِنْ قِيلَ: الشَّيء الَّذِي حَصَلَ فَوْقُ غَيْرُ الشَّيء الَّذِي حَصَلَ تَحْتُ فَحِينَئِذٍ يَلْزَمُ حُصُولُ التَّرْكِيبِ وَالتَّبْعِيضِ فِي ذَاتِ اللهَّ تَعَالَى وَهُوَ مُحَالٌ.

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي: وَهُوَ أَنْ يُقَالَ: أَنَّه تَعَالَى مُتَنَاهٍ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ. فَنَقُولُ: كُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ قَابِلٌ لِلزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ فِي بَدِيهَةِ الْعَقْلِ وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ اخْتِصَاصُهُ بِالْمِقْدَارِ الْمُعَيَّنِ لِأَجْلِ تَخْصِيصِ مُخَصِّصٍ وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مُحْدَثٌ وَأَيْضًا فَإِنْ جَازَ أَنْ يَكُونَ الشَّيء الْمَحْدُودُ مِنْ كُلِّ الْجَوَانِبِ قَدِيمًا أَزَلِيًّا فَاعِلًا لِلْعَالَمِ فَلِمَ لَا يُعْقَلُ أَنْ يُقَالَ: خَالِقُ الْعَالَمِ هُوَ الشَّمْسُ أَوِ الْقَمَرُ أَوْ كَوْكَبٌ آخَرُ وَذَلِكَ بَاطِلٌ بِاتِّفَاقٍ.

وأمَّا القسم الثَّالث: وهو أن يقال: أنَّه مُتَنَاهٍ مِنْ بَعْضِ الْجَوَانِبِ وَغَيْرُ مُتَنَاهٍ مِنْ سَائِرِ الْجَوَانِبِ فَهَذَا أَيْضًا بَاطِلٌ مِنْ وُجُوهٍ أَحَدُهَا: أَنَّ الْجَانِبَ الَّذِي صَدَقَ عَلَيْهِ كَوْنُهُ مُتَنَاهِيًا غَيْرُ مَا صَدَقَ عَلَيْهِ كَوْنُهُ غَيْرَ مُتَنَاهٍ وَإِلَّا لَصَدَقَ النَّقِيضَانِ مَعًا وَهُوَ مُحَالٌ. وَإِذَا حَصَلَ التَّغَايُرُ لَزِمَ كَوْنُهُ تَعَالَى مُرَكَّبًا مِنَ الْأَجْزَاءِ وَالْأَبْعَاضِ وَثَانِيهَا: أَنَّ الْجَانِبَ الَّذِي صَدَقَ حُكْمُ الْعَقْلِ عَلَيْهِ بِكَوْنِهِ مُتَنَاهِيًا إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُسَاوِيًا لِلْجَانِبِ الَّذِي صَدَقَ حُكْمُ الْعَقْلِ عَلَيْهِ بِكَوْنِهِ غَيْرَ مُتَنَاهٍ وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ كَذَلِكَ وَالْأَوَّلُ بَاطِلٌ لِأَنَّ الْأَشْيَاءَ الْمُتَسَاوِيَةَ فِي تَمَامِ الْمَاهِيَّةِ كُلُّ مَا صَحَّ عَلَى وَاحِدٍ مِنْهَا صَحَّ عَلَى الْبَاقِي وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ: فَالْجَانِبُ لِلَّذِي هُوَ غَيْرُ مُتَنَاهٍ يُمْكِنُ أَنْ يَصِيرَ مُتَنَاهِيًا وَالْجَانِبُ الَّذِي هُوَ مُتَنَاهٍ يُمْكِنُ أَنْ يَصِيرَ غَيْرَ مُتَنَاهٍ وَمَتَى كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ كَانَ النُّمُوُّ وَالذُّبُولُ وَالزِّيَادَةُ وَالنُّقْصَانُ وَالتَّفَرُّقُ وَالتَّمَزُّقُ عَلَى ذَاتِهِ مُمْكِنًا وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مُحْدَثٌ وَذَلِكَ عَلَى الْإِلَهِ الْقَدِيمِ مُحَالٌ فَثَبَتَ أَنَّه تَعَالَى لَوْ كَانَ حَاصِلًا فِي الْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ لَكَانَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ غَيْرَ مُتَنَاهٍ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُتَنَاهِيًا مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ أَوْ كَانَ مُتَنَاهِيًا مِنْ بَعْضِ الْجِهَاتِ، وَغَيْرَ مُتَنَاهٍ مِنْ سَائِرِ الْجِهَاتِ فَثَبَتَ أَنَّ الْأَقْسَامَ الثَّلَاثَةَ بَاطِلَةٌ فَوَجَبَ أَنْ نَقُولَ الْقَوْلُ بِكَوْنِهِ تَعَالَى حَاصِلًا فِي الْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ مُحَالٌ.

وَالْبُرْهَانُ الثَّالِثُ: لَوْ كَانَ الْبَارِي تَعَالَى حَاصِلًا فِي الْمَكَانِ وَالْجِهَةِ لَكَانَ الْأَمْرُ الْمُسَمَّى بِالْجِهَةِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَوْجُودًا مُشَارًا إِلَيْهِ وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ كَذَلِكَ وَالْقِسْمَانِ بَاطِلَانِ فَكَانَ الْقَوْلُ بِكَوْنِهِ تَعَالَى حَاصِلًا فِي الْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ بَاطِلًا.

أَمَّا بَيَانُ فَسَادِ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ: فَلِأَنَّهُ لَوْ كَانَ الْمُسَمَّى بِالْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ مَوْجُودًا مُشَارًا إِلَيْهِ فحينئذ يكون المسمى بالحيز والجهة بعدا وامتداد وَالْحَاصِلُ فِيهِ أَيْضًا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي نَفْسِهِ بُعْدٌ وَامْتِدَادٌ وَإِلَّا لَامْتَنَعَ حُصُولُهُ

فِيهِ وَحِينَئِذٍ يَلْزَمُ تَدَاخُلُ الْبُعْدَيْنِ وَذَلِكَ مُحَالٌ لِلدَّلَائِلِ الْكَثِيرَةِ الْمَشْهُورَةِ فِي هَذَا الْبَابِ وَأَيْضًا فَيَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ الْبَارِي تَعَالَىٰ قَدِيمًا أَزَلِيًّا كَوْنُ الْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ أَزَلِيَّيْنِ وَحِينَئِذٍ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ قَدْ حَصَلَ فِي الْأَزَلِ مَوْجُودٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ سِوَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ وَذَلِكَ بِإِجْمَاعِ أَكْثَرِ الْعُقَلَاءِ بَاطِلٌ.

وَأَمَّا بَيَانُ فَسَادِ الْقِسْمِ الثَّانِي: فَهُوَ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْعَدَمَ نَفْيٌ مَحْضٌ وَعَدَمٌ صِرْفٌ وَمَا كَانَ كَذَلِكَ امْتَنَعَ كَوْنُهُ ظَرْفًا لِغَيْرِهِ وَجِهَةً لِغَيْرِهِ. وَثَانِيهِمَا: أَنَّ كُلَّ مَا كَانَ حَاصِلًا فِي جِهَةٍ فَجِهَتُهُ مُمْتَازَةٌ فِي الْحِسِّ عَنْ جِهَةِ غَيْرِهِ فَلَوْ كَانَتْ تِلْكَ الْجِهَةُ عَدَمًا مَحْضًا لَزِمَ كَوْنُ الْعَدَمِ الْمَحْضِ مُشَارًا إِلَيْهِ بِالْحِسِّ وَذَلِكَ بَاطِلٌ فَثَبَتَ أَنَّه تَعَالَىٰ لَوْ كَانَ حَاصِلًا فِي حَيِّزٍ وَجِهَةٍ لَأَفْضَىٰ إِلَىٰ أَحَدِ هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ الْبَاطِلَيْنِ فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْقَوْلُ بِهِ بَاطِلًا.

فَإِنْ قِيلَ: فَهَذَا أَيْضًا وَارِدٌ عَلَيْكُمْ فِي قَوْلِكُمْ: الْجِسْمُ حَاصِلٌ فِي الْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ.

فَنَقُولُ: نَحْنُ عَلَىٰ هَذَا الطَّرِيقِ لَا نُثْبِتُ لِلْجِسْمِ حَيِّزًا وَلَا جِهَةً أَصْلًا الْبَتَّةَ بِحَيْثُ تَكُونُ ذات الجسم نافذة فِيهِ وَسَارِيَةً فِيهِ بَلِ الْمَكَانُ عِبَارَةٌ عَنِ السَّطْحِ الْبَاطِنِ مِنَ الْجِسْمِ الْحَاوِي الْمُمَاسِّ لِلسَّطْحِ الظَّاهِرِ مِنَ الْجِسْمِ الْمَحْوِيِّ وَهَذَا الْمَعْنَىٰ مُحَالٌ بِالِاتِّفَاقِ فِي حَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ فَسَقَطَ هَذَا السُّؤَالُ.

الْبُرْهَانُ الرَّابِعُ: لَوِ امْتَنَعَ وُجُودُ الْبَارِي تَعَالَىٰ إِلَّا بِحَيْثُ يَكُونُ مُخْتَصًّا بِالْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ لَكَانَتْ ذَاتُ الْبَارِي مُفْتَقِرَةً فِي تَحَقُّقِهَا وَوُجُودِهَا إِلَىٰ الْغَيْرِ وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مُمْكِنٌ لِذَاتِهِ يَنْتُجُ أَنَّه لَوِ امْتَنَعَ وُجُودُ الْبَارِي إِلَّا فِي الْجِهَةِ وَالْحَيِّزِ لَزِمَ كَوْنُهُ مُمْكِنًا لِذَاتِهِ وَلَمَّا كَانَ هَذَا مُحَالًا كَانَ الْقَوْلُ بِوُجُوبِ حُصُولِهِ فِي الْحَيِّزِ مُحَالًا.

بَيَانُ الْمَقَامِ الْأَوَّلِ: هُوَ أَنَّه لَمَّا امْتَنَعَ حُصُولُ ذَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ إِلَّا إِذَا كَانَ مُخْتَصًّا بِالْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ. فَنَقُولُ: لَا شَكَّ أَنَّ الْحَيِّزَ وَالْجِهَةَ أَمْرٌ مُغَايِرٌ لِذَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ فَحِينَئِذٍ تَكُونُ ذَاتُ اللهِ تَعَالَىٰ مُفْتَقِرَةً فِي تَحَقُّقِهَا إِلَىٰ أَمْرٍ يُغَايِرُهَا وَكُلُّ مَا افْتَقَرَ تَحَقُّقُهُ إِلَىٰ مَا يُغَايِرُهُ كَانَ مُمْكِنًا لِذَاتِهِ. وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ: أَنَّ الْوَاجِبَ لِذَاتِهِ هُوَ الَّذِي لَا يَلْزَمُ مِنْ عَدَمِ غَيْرِهِ عَدَمُهُ وَالْمُفْتَقِرَ إِلَىٰ الْغَيْرِ هُوَ الَّذِي يَلْزَمُ مِنْ عَدَمِ غَيْرِهِ عَدَمُهُ فَلَوْ كَانَ الْوَاجِبُ لِذَاتِهِ مُفْتَقِرًا إِلَىٰ الْغَيْرِ لَزِمَ أَنْ يَصْدُقَ عَلَيْهِ النَّقِيضَانِ وَهُوَ مُحَالٌ فَثَبَتَ أَنَّه تَعَالَىٰ لَوْ وَجَبَ حُصُولُهُ فِي الْحَيِّزِ لَكَانَ مُمْكِنًا لِذَاتِهِ لَا وَاجِبًا لِذَاتِهِ وَذَلِكَ مُحَالٌ.

وَالْوَجْهُ الثَّانِي: فِي تَقْرِيرِ هَذِهِ الْحُجَّةِ: هُوَ أَنَّ الْمُمْكِنَ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ الْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ. أَمَّا عِنْدَ مَنْ يُثْبِتُ الْخَلَاءَ فَلَا شَكَّ أَنَّ الْحَيِّزَ وَالْجِهَةَ تَتَقَرَّرُ مَعَ عَدَمِ التَّمَكُّنِ وَأَمَّا عِنْدَ مَنْ يَنْفِي الْخَلَاءَ فَلَا لأَنَّه وَإِنْ كَانَ مُعْتَقِدًا أَنَّه لَا بُدَّ مِنْ مُتَمَكِّنٍ يَحْصُلُ فِي الْجِهَةِ إِلَّا أَنَّه لَا يَقُولُ بِأَنَّهُ لَا بُدَّ لِتِلْكَ الْجِهَةِ مِنْ مُتَمَكِّنٍ مُعَيَّنٍ بَلْ أَيُّ شَيْءٍ كَانَ فَقَدْ كَفَىٰ فِي كَوْنِهِ شَاغِلًا لِذَلِكَ الْحَيِّزِ. إِذَا ثَبَتَ هَذَا فَلَوْ كَانَ ذَاتُ اللهِ تَعَالَىٰ مُخْتَصَّةً بِجِهَةٍ وَحَيِّزٍ لَكَانَتْ ذَاتُهُ مُفْتَقِرَةً إِلَىٰ

ذَلِكَ الْحَيِّزِ، وَكَانَ ذَلِكَ الْحَيِّزُ غَنِيًّا تَحَقُّقُهُ عَنْ ذَاتِ اللهِّ تَعَالَىٰ وَحِينَئِذٍ يَلْزَمُ أَنْ يُقَالَ: الْحَيِّزُ وَاجِبٌ لِذَاتِهِ غَنِيٌّ عَنْ غَيْرِهِ وَأَنْ يُقَالَ ذَاتُ اللهِّ تَعَالَىٰ مُفْتَقِرَةٌ فِي ذَاتِهَا وَاجِبَةٌ بِغَيْرِهَا وَذَلِكَ يَقْدَحُ فِي قَوْلِنَا: الْإِلَهُ تَعَالَىٰ وَاجِبُ الْوُجُودِ لِذَاتِهِ.

فَإِنْ قِيلَ: الْحَيِّزُ وَالْجِهَةُ لَيْسَ بِأَمْرٍ مَوْجُودٍ حَتَّىٰ يُقَالَ ذَاتُ اللهِّ تَعَالَىٰ مُفْتَقِرَةٌ إِلَيْهِ وَمُحْتَاجَةٌ إِلَيْهِ فَنَقُولُ: هَذَا بَاطِلٌ قَطْعًا لِأَنَّ بِتَقْدِيرِ أَنْ يُقَالَ إِنَّ ذَاتَ اللهِّ تَعَالَىٰ مُخْتَصَّةٌ بِجِهَةِ فَوْقٍ فَإِنَّمَا نُمَيِّزُ بِحَسَبِ الْحِسِّ بَيْنَ تِلْكَ الْجِهَةِ وَبَيْنَ سَائِرِ الْجِهَاتِ وَمَا حَصَلَ فِيهِ الامْتِيَازُ بِحَسَبِ الْحِسِّ كَيْفَ يُعْقَلُ أَنْ يُقَالَ أَنَّه عَدَمٌ مَحْضٌ وَنَفْيٌ صِرْفٌ؟ وَلَوْ جَازَ ذَلِكَ لَجَازَ مِثْلُهُ فِي كُلِّ الْمَحْسُوسَاتِ وَذَلِكَ يُوجِبُ حُصُولَ الشَّكِّ فِي وُجُودِ كُلِّ الْمَحْسُوسَاتِ وَذَلِكَ لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ.

الْبُرْهَانُ الْخَامِسُ: فِي تَقْرِيرِ أَنَّه تَعَالَىٰ يَمْتَنِعُ كَوْنُهُ مُخْتَصًّا بِالْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ نَقُولُ: الْحَيِّزُ وَالْجِهَةُ لَا مَعْنَىٰ لَهُ إِلَّا الْفَرَاغُ الْمَحْضُ وَالْخَلَاءُ الصِّرْفُ وَصَرِيحُ الْعَقْلِ يَشْهَدُ أَنَّ هَذَا الْمَفْهُومَ مَفْهُومٌ وَاحِدٌ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ الْبَتَّةَ وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ كَانَتِ الْأَحْيَازُ بِأَسْرِهَا مُتَسَاوِيَةً فِي تَمَامِ الْمَاهِيَّةِ.

وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَنَقُولُ: لَوْ كَانَ الْإِلَهُ تَعَالَىٰ مُخْتَصًّا بِحَيِّزٍ، لَكَانَ مُحْدَثًا وَهَذَا مُحَالٌ فَذَاكَ مُحَالٌ وَبَيَانُ الْمُلَازَمَةِ: أَنَّ الْأَحْيَازَ لَمَّا ثَبَتَ أَنَّهَا بِأَسْرِهَا مُتَسَاوِيَةٌ فَلَوِ اخْتَصَّ ذَاتُ اللهِّ تَعَالَىٰ بِحَيِّزٍ مُعَيَّنٍ لَكَانَ اخْتِصَاصُهُ بِهِ لِأَجْلِ أَنَّ مُخَصِّصًا خَصَّصَهُ بِذَلِكَ الْحَيِّزِ وَكُلُّ مَا كَانَ فِعْلًا لِفَاعِلٍ مُخْتَارٍ فَهُوَ مُحْدَثٌ فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ اخْتِصَاصُ ذَاتِ اللهِّ بِالْحَيِّزِ الْمُعَيَّنِ مُحْدَثًا فَإِذَا كَانَتْ ذَاتُهُ مُمْتَنِعَةَ الْخُلُوِّ عَنِ الْحُصُولِ فِي الْحَيِّزِ وَثَبَتَ أَنَّ الْحُصُولَ فِي الْحَيِّزِ مُحْدَثٌ وَبَدِيهَةُ الْعَقْلِ شَاهِدَةٌ بِأَنَّ مَا لَا يَخْلُو عَنِ الْمُحْدَثِ فَهُوَ مُحْدَثٌ، لَزِمَ الْقَطْعُ بِأَنَّهُ لَوْ كَانَ حَاصِلًا فِي الْحَيِّزِ لَكَانَ مُحْدَثًا وَلَمَّا كَانَ هَذَا مُحَالًا كَانَ ذَلِكَ أَيْضًا مُحَالًا.

فَإِنْ قَالُوا: الْأَحْيَازُ مُخْتَلِفَةٌ بِحَسَبِ أَنَّ بَعْضَهَا عُلُوٌّ وَبَعْضَهَا سُفْلٌ فَلِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ ذَاتُ اللهِّ تَعَالَىٰ مُخْتَصَّةٌ بِجِهَةِ عُلُوٍّ؟ فَنَقُولُ: هَذَا بَاطِلٌ لِأَنَّ كَوْنَ بَعْضِ تِلْكَ الْجِهَاتِ علو وَبَعْضِهَا سُفْلًا أَحْوَالٌ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ وُجُودِ هَذَا الْعَالَمِ فَلَمَّا كَانَ هَذَا الْعَالَمُ مُحْدَثًا كَانَ قَبْلَ حُدُوثِهِ لَا عُلُوٌّ وَلَا سُفْلٌ وَلَا يَمِينٌ وَلَا يَسَارٌ بَلْ لَيْسَ إِلَّا الْخَلَاءُ الْمَحْضُ وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَحِينَئِذٍ يَعُودُ الْإِلْزَامُ الْمَذْكُورُ بِتَمَامِهِ وَأَيْضًا لَوْ جَازَ الْقَوْلُ بِأَنَّ ذَاتَ اللهِّ تَعَالَىٰ مُخْتَصَّةٌ بِبَعْضِ الْأَحْيَازِ عَلَىٰ سَبِيلِ الْوُجُوبِ؟ فَلِمَ لَا يُعْقَلُ أَيْضًا أَنْ يُقَالَ: إِنَّ بَعْضَ الْأَجْسَامِ اخْتَصَّ بِبَعْضِ الْأَحْيَازِ عَلَىٰ سَبِيلِ الْوُجُوبِ؟ وَعَلَىٰ هَذَا التَّقْدِيرِ فَذَلِكَ اسْمٌ لَا يَكُونُ قَابِلًا لِلْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ فَلَا يَجْرِي فِيهِ دَلِيلُ حُدُوثِ الْأَجْسَامِ وَالْقَائِلُ بِهَذَا الْقَوْلِ لَا يُمْكِنُهُ إِقَامَةُ الدَّلَالَةِ عَلَىٰ حُدُوثِ كُلِّ الْأَجْسَامِ بِطَرِيقِ الْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ وَالْكَرَّامِيَّةُ وَافَقُونَا عَلَىٰ أَنَّ تَجْوِيزَ هَذَا يُوجِبُ الْكُفْرَ. واللهُّ أَعْلَمُ.

الْبُرْهَانُ السَّادِسُ: لَوْ كَانَ الْبَارِي تعَالَىٰ حَاصِلًا فِي الْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ لَكَانَ مُشَارًا إِلَيْهِ بِحَسَبِ الْحِسِّ وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَإِمَّا أَنْ لَا يَقْبَلَ الْقِسْمَةَ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ وَإِمَّا أَنْ يَقْبَلَ الْقِسْمَةَ.

فَإِنْ قُلْنَا: أَنَّه تعَالَىٰ يُمْكِنُ أَنْ يُشَارَ إِلَيْهِ بِحَسَبِ الْحِسِّ مَعَ أَنَّه لَا يَقْبَلُ الْقِسْمَةَ الْمِقْدَارِيَّةَ الْبَتَّةَ كَانَ ذَلِكَ نُقْطَةً لَا تَنْقَسِمُ وَجَوْهَرًا فَرْدًا لَا يَنْقَسِمُ فَكَانَ ذَلِكَ فِي غَايَةِ الصِّغَرِ وَالْحَقَارَةِ وَهَذَا بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ جَمِيعِ الْعُقَلَاءِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ كَوْنَهُ تعَالَىٰ فِي الْجِهَةِ يُنْكِرُونَ كَوْنَهُ تعَالَىٰ كَذَلِكَ وَالَّذِينَ يُثْبِتُونَ كَوْنَهُ تعَالَىٰ فِي الْجِهَةِ يُنْكِرُونَ كَوْنَهُ تعَالَىٰ فِي الصِّغَرِ وَالْحَقَارَةِ مِثْلَ الجزء الذي لا يتجزىٰ فَثَبَتَ أَنَّ هَذَا بِإِجْمَاعِ الْعُقَلَاءِ بَاطِلٌ وَأَيْضًا فَلَوْ جَازَ ذَلِكَ فَلِمَ لَا يُعْقَلُ أَنْ يُقَالَ: إِلَهُ الْعَالَمِ جُزْءٌ مِنْ أَلْفِ جُزْءٍ مِنْ رَأْسِ إِبْرَةٍ أَوْ ذَرَّةٍ مُلْتَصِقَةٍ بِذَنَبِ قَمْلَةٍ أَوْ نَمْلَةٍ؟ وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ قَوْلٍ يُفْضِي إِلَىٰ مِثْلِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فَإِنَّ صَرِيحَ الْعَقْلِ يُوجِبُ تَنْزِيهَ اللهَّ تعَالَىٰ عَنْهُ.

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي: وَهُوَ أَنَّه يَقْبَلُ الْقِسْمَةَ فَنَقُولُ: كُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَذَاتُهُ مُرَكَّبَةٌ وَكُلُّ مُرَكَّبٍ فَهُوَ مُمْكِنٌ لِذَاتِهِ وَكُلُّ مُمْكِنٍ لِذَاتِهِ فَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَىٰ الْمُوجِدِ وَالْمُؤَثِّرِ وَذَلِكَ عَلَىٰ الْإِلَهِ الْوَاجِبِ لِذَاتِهِ مُحَالٌ.

الْبُرْهَانُ السَّابِعُ: ان نقول: كل ذات قائمة بنفسها مشارا إِلَيْهَا بِحَسَبِ الْحِسِّ فَهُوَ مُنْقَسِمٌ وَكُلُّ مُنْقَسِمٍ مُمْكِنٌ فَكُلُّ ذَاتٍ قَائِمَةٍ بِنَفْسِهَا مُشَارٌ إِلَيْهَا بِحَسَبِ الْحِسِّ فَهُوَ مُمْكِنٌ. فَمَا لَا يَكُونُ مُمْكِنًا لِذَاتِهِ بَلْ كَانَ وَاجِبًا لِذَاتِهِ امْتَنَعَ كَوْنُهُ مُشَارًا إِلَيْهِ بِحَسَبِ الْحِسِّ.

أَمَّا الْمُقَدِّمَةُ الْأُولَىٰ: فَلِأَنَّ كُلَّ ذَاتٍ قَائِمَةٍ بِالنَّفْسِ مُشَارٌ إِلَيْهَا بِحَسَبِ الْحِسِّ فَلَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ جَانِبُ يَمِينِهِ مُغَايِرًا لِجَانِبِ يَسَارِهِ وَكُلُّ مَا هُوَ كَذَلِكَ فَهُوَ مُنْقَسِمٌ.

وَأَمَّا الْمُقَدِّمَةُ الثَّانِيَةُ: وَهِيَ أَنَّ كُلَّ مُنْقَسِمٍ مُمْكِنٌ فَإِنَّهُ يَفْتَقِرُ إِلَىٰ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أَجْزَائِهِ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَجْزَائِهِ غَيْرُهُ وَكُلُّ مُنْقَسِمٍ فَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَىٰ غَيْرِهِ وَكُلُّ مُفْتَقِرٍ إِلَىٰ غَيْرِهِ فَهُوَ مُمْكِنٌ لِذَاتِهِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُقَدِّمَةَ الْأُولَىٰ مِنْ مُقَدِّمَاتِ هَذَا الدَّلِيلِ إِنَّمَا تَتِمُّ بِنَفْيِ الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ.

الْبُرْهَانُ الثَّامِنُ: لَوْ ثَبَتَ كَوْنُهُ تعَالَىٰ فِي حَيِّزٍ لَكَانَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْعَرْشِ أَوْ مُسَاوِيًا لَهُ أَوْ أَصْغَرَ مِنْهُ فَإِنْ كَانَ الْأَوَّلَ كَانَ مُنْقَسِمًا لِأَنَّ الْقَدْرَ الَّذِي مِنْهُ يُسَاوِي الْعَرْشَ يَكُونُ مُغَايِرًا لِلْقَدْرِ الَّذِي يَفْضُلُ عَلَىٰ الْعَرْشِ وَإِنْ كَانَ الثَّانِيَ كَانَ مُنْقَسِمًا لِأَنَّ الْعَرْشَ مُنْقَسِمٌ وَالْمُسَاوِي لِلْمُنْقَسِمِ مُنْقَسِمٌ وَإِنْ كَانَ الثَّالِثُ فَحِينَئِذٍ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ الْعَرْشُ أَعْظَمَ مِنْهُ وَذَلِكَ بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ أَمَّا عِنْدَنَا فَظَاهِرٌ وَأَمَّا عِنْدَ الْخُصُومِ فَلِأَنَّهُمْ يُنْكِرُونَ كَوْنَ غَيْرِ اللهَّ تعَالَىٰ أَعْظَمَ مِنَ اللهَّ تعَالَىٰ فَثَبَتَ أَنَّ هَذَا الْمَذْهَبَ بَاطِلٌ.

الْبُرْهَانُ التَّاسِعُ : لَوْ كَانَ الْإِلَهُ تعَالَىٰ حَاصِلًا فِي الْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ لَكَانَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُتَنَاهِيًا مِنْ كُلِّ الْجَوَانِبِ وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ كَذَلِكَ وَالْقِسْمَانِ بَاطِلَانِ فَالْقَوْلُ بِكَوْنِهِ حَاصِلًا فِي الْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ بَاطِلٌ أَيْضًا. أَمَّا بَيَانُ أَنَّه لَا يَجُوزُ

أَنْ يَكُونَ مُتَنَاهِيًا مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ فَلِأَنَّ عَلَىٰ هَذَا التَّقْدِيرِ يَحْصُلُ فَوْقَهُ أَحْيَازٌ خَالِيَةٌ وَهُوَ تَعَالَىٰ قَادِرٌ عَلَىٰ خَلْقِ الْجِسْمِ فِي ذَلِكَ الْحَيِّزِ الْخَالِي وَعَلَىٰ هَذَا التَّقْدِيرِ لَوْ خَلَقَ هُنَاكَ عَالَمًا آخَرَ لَحَصَلَ هُوَ تَعَالَىٰ تَحْتَ الْعَالَمِ وَذَلِكَ عِنْدَ الْخَصْمِ مُحَالٌ وَأَيْضًا فَقَدْ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَخْلُقَ مِنَ الْجَوَانِبِ السِّتَّةِ لِتِلْكَ الذَّاتِ أَجْسَامًا أُخْرَىٰ وَعَلَىٰ هَذَا التَّقْدِيرِ فَتَحْصُلُ ذَاتُهُ فِي وَسَطِ تِلْكَ الْأَجْسَامِ مَحْصُورَةً فِيهَا وَيَحْصُلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَجْسَامِ الِاجْتِمَاعُ تَارَةً وَالِافْتِرَاقُ أُخْرَىٰ وَكُلُّ ذَلِكَ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ مُحَالٌ.

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي: وَهُوَ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ مُتَنَاهٍ مِنْ بَعْضِ الْجِهَاتِ فَهَذَا أَيْضًا مُحَالٌ لأَنَّه ثَبَتَ بِالْبُرْهَانِ أَنَّه يَمْتَنِعُ وُجُودُ بُعْدٍ لَا نِهَايَةَ لَهُ وَأَيْضًا فَعَلَىٰ هَذَا التَّقْدِيرِ لَا يُمْكِنُ إِقَامَةُ الدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ الْعَالَمَ مُتَنَاهٍ لِأَنَّ كُلَّ دَلِيلٍ يُذْكَرُ فِي تَنَاهِي الْأَبْعَادِ فَإِنَّ ذَلِكَ الدَّلِيلَ يَنْتَقِضُ بِذَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ فَإِنَّهُ عَلَىٰ مَذْهَبِ الْخَصْمِ بُعْدٌ لَا نِهَايَةَ لَهُ وَهُوَ وَإِنْ كَانَ لَا يَرْضَى بِهَذَا اللَّفْظِ إِلَّا أَنَّه يُسَاعِدُ عَلَىٰ الْمَعْنَىٰ وَالْمَبَاحِثُ الْعَقْلِيَّةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَىٰ الْمَعَانِي لَا عَلَىٰ الْمُشَاحَّةِ فِي الْأَلْفَاظِ.

الْبُرْهَانُ الْعَاشِرُ: لَوْ كَانَ الْإِلَهُ تَعَالَىٰ حَاصِلًا فِي الْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ لَكَانَ كَوْنُهُ تَعَالَىٰ هُنَاكَ إِمَّا أَنْ يَمْنَعَ مِنْ حُصُولِ جِسْمٍ آخَرَ هُنَاكَ أَوْ لَا يَمْنَعَ وَالْقِسْمَانِ بَاطِلَانِ فَبَطَلَ الْقَوْلُ بِكَوْنِهِ حَاصِلًا فِي الْحَيِّزِ.

أَمَّا فَسَادُ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ: فَلِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ كَوْنُهُ هُنَاكَ مَانِعًا مِنْ حُصُولِ جِسْمٍ آخَرَ هُنَاكَ كَانَ هُوَ تَعَالَىٰ مُسَاوِيًا لِسَائِرِ الْأَجْسَامِ فِي كَوْنِهِ حَجْمًا مُتَحَيِّزًا مُمْتَدًّا فِي الْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ مَانِعًا مِنْ حُصُولِ غَيْرِهِ فِي الْحَيِّزِ الَّذِي هُوَ فِيهِ وَإِذَا ثَبَتَ حُصُولُ الْمُسَاوَاةِ فِي ذَلِكَ الْمَفْهُومِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سائر الأجسام فاما ان يحصل بينه وبينهما مُخَالَفَةٌ مِنْ سَائِرِ الْوُجُوهِ أَوْ لَا يَحْصُلَ وَالْأَوَّلُ بَاطِلٌ لِوَجْهَيْنِ: الْأَوَّلُ: أَنَّه إِذَا حَصَلَتِ الْمُشَارَكَةُ بَيْنَ ذَاتِهِ تَعَالَىٰ وَبَيْنَ ذَوَاتِ الْأَجْسَامِ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ وَالْمُخَالَفَةُ مِنْ سَائِرِ الْوُجُوهِ كَانَ مَا بِهِ الْمُشَارَكَةُ مُغَايِرًا لِمَا بِهِ الْمُخَالَفَةُ وَحِينَئِذٍ تَكُونُ ذَاتُ الْبَارِي تَعَالَىٰ مُرَكَّبَةٌ مِنْ هَذَيْنِ الِاعْتِبَارَيْنِ وَقَدْ دَلَّلْنَا عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ مُرَكَّبٍ مُمْكِنٌ فَوَاجِبُ الْوُجُودِ لِذَاتِهِ مُمْكِنُ الْوُجُودِ لِذَاتِهِ هَذَا خُلْفٌ. وَالثَّانِي: وَهُوَ أَنَّ مَا بِهِ الْمُشَارَكَةُ وَهُوَ طَبِيعَةُ الْبُعْدِ وَالِامْتِدَادِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَحَلًّا لِمَا بِهِ الْمُخَالَفَةُ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ حَالًّا فِيهِ وَإِمَّا أَنْ يُقَالَ: أَنَّه لَا مَحَلَّ لَهُ وَلَا حَالًّا فِيهِ. أَمَّا الْأَوَّلُ: وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مَحَلًّا لِمَا بِهِ الْمُخَالَفَةُ فَعَلَىٰ هَذَا التَّقْدِيرِ طَبِيعَةُ الْبُعْدِ وَالِامْتِدَادِ هِيَ الْجَوْهَرُ الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ وَالْأُمُورُ الَّتِي حَصَلَتْ بِهَا الْمُخَالَفَةُ أَعْرَاضٌ وَصِفَاتٌ وَإِذَا كَانَتِ الذَّوَاتُ مُتَسَاوِيَةً فِي تَمَامِ الْمَاهِيَّةِ فَكُلُّ مَا صَحَّ عَلَىٰ بَعْضِهَا وَجَبَ أَنْ يَصِحَّ عَلَىٰ الْبَوَاقِي فَعَلَىٰ هَذَا التَّقْدِيرِ كُلُّ مَا صَحَّ عَلَىٰ جَمِيعِ الْأَجْسَامِ وَجَبَ أَنْ يَصِحَّ عَلَىٰ الْبَارِي تَعَالَىٰ وَبِالْعَكْسِ وَيَلْزَمَ مِنْهُ صِحَّةُ التَّفَرُّقِ وَالتَّمَزُّقِ وَالنُّمُوِّ وَالذُّبُولِ وَالْعُفُونَةِ وَالْفَسَادِ عَلَىٰ ذَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ وَكُلُّ ذَلِكَ مُحَالٌ.

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي: وَهُوَ أَنْ يُقَالَ: مَا بِهِ الْمُخَالَفَةُ مَحَلٌّ وَذَاتٌ وَمَا بِهِ الْمُشَارَكَةُ حَالٌّ وَصِفَةٌ فَهَذَا مُحَالٌ لِأَنَّ عَلَىٰ هَذَا التَّقْدِيرِ تَكُونُ طَبِيعَةُ الْبُعْدِ وَالِامْتِدَادِ صِفَةً قَائِمَةً بِمَحَلٍّ وَذَلِكَ الْمَحَلُّ إِنْ كَانَ لَهُ أَيْضًا اخْتِصَاصٌ بِحَيِّزٍ وَجِهَةٍ وَجَبَ افْتِقَارُهُ إِلَىٰ مَحَلٍّ آخَرَ لَا إِلَىٰ نِهَايَةٍ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَحِينَئِذٍ يَكُونُ مَوْجُودًا مُجَرَّدًا لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِالْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ وَالْإِشَارَةِ الْحِسِّيَّةِ الْبَتَّةَ وَطَبِيعَةُ الْبُعْدِ وَالِامْتِدَادِ وَاجِبَةُ الِاخْتِصَاصِ بِالْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ وَالْإِشَارَةِ الْحِسِّيَّةِ وَحُلُولُ مَا هَذَا شَأْنُهُ فِي ذَلِكَ الْمَحَلِّ يُوجِبُ الْجَمْعَ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ وَهُوَ مُحَالٌ.

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّالِثُ: وَهُوَ أَنْ لَا يَكُونَ أَحَدُهُمَا حَالًّا فِي الْآخَرِ وَلَا مَحَلًّا لَهُ فَنَقُولُ: فَعَلَىٰ هَذَا التَّقْدِيرِ يَكُونُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُتَبَايِنًا عَنِ الْآخَرِ وَعَلَىٰ هَذَا التَّقْدِيرِ فَتَكُونُ ذَاتُ اللهِ تَعَالَىٰ مُسَاوِيَةً لِسَائِرِ الذَّوَاتِ الْجُسْمَانِيَّةِ فِي تَمَامِ الْمَاهِيَّةِ لِأَنَّ مَا بِهِ الْمُخَالَفَةُ بَيْنَ ذَاتِهِ وَبَيْنَ سَائِرِ الذَّوَاتِ لَيْسَتْ حَالَّةً فِي هَذِهِ الذَّوَاتِ وَلَا مَحَالًّا لَهَا بَلْ أُمُورٌ أَجْنَبِيَّةٌ عَنْهَا فَتَكُونُ ذَاتُ اللهِ تَعَالَىٰ مُسَاوِيَةً لِذَوَاتِ الْأَجْسَامِ فِي تَمَامِ الْمَاهِيَّةِ وَحِينَئِذٍ يَعُودُ الْإِلْزَامُ الْمَذْكُورُ فَثَبَتَ أَنَّ الْقَوْلَ بِأَنَّ ذَاتَ اللهِ تَعَالَىٰ مُخْتَصَّةٌ بِالْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ بِحَيْثُ يَمْنَعُ مِنْ حُصُولِ جِسْمٍ آخَرَ فِي ذَلِكَ الْحَيِّزِ يُفْضِي إِلَىٰ هَذِهِ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ الْبَاطِلَةِ فَوَجَبَ كَوْنُهُ بَاطِلًا.

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي: وَهُوَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ ذَاتَ اللهِ تَعَالَىٰ وَإِنْ كَانَتْ مُخْتَصَّةً بِالْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ إِلَّا أَنَّه لَا يَمْنَعُ مِنْ حُصُولِ جِسْمٍ آخَرَ فِي ذَلِكَ الْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ فَهَذَا أَيْضًا مُحَالٌ لِأَنَّه يُوجِبُ كَوْنَ ذَاتِهِ مُخَالِطَةً سَارِيَةً فِي ذَاتِ ذَلِكَ الْجِسْمِ الَّذِي يَحْصُلُ فِي ذَلِكَ الْجَنْبِ وَالْحَيِّزِ وَذَلِكَ بِالْإِجْمَاعِ مُحَالٌ وَلِأَنَّهُ لَوْ عُقِلَ ذَلِكَ فَلِمَ لَا يُعْقَلُ حُصُولُ الْأَجْسَامِ الْكَثِيرَةِ فِي الْحَيِّزِ الْوَاحِدِ؟ فَثَبَتَ أَنَّه تَعَالَىٰ لَوْ كَانَ حَاصِلًا فِي حَيِّزٍ لَكَانَ إِمَّا أَنْ يَمْنَعَ حُصُولَ جِسْمٍ آخَرَ فِي ذَلِكَ الْحَيِّزِ أَوْ لَا يَمْنَعَ وَثَبَتَ فَسَادُ الْقِسْمَيْنِ فَكَانَ الْقَوْلُ بِحُصُولِهِ تَعَالَىٰ فِي الْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ مُحَالًا بَاطِلًا.

الْبُرْهَانُ الْحَادِي عَشَرَ: عَلَىٰ أَنَّه يَمْتَنِعُ حُصُولُ ذَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي الْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ هُوَ أَنْ نَقُولَ: لَوْ كَانَ مُخْتَصًّا بِحَيِّزٍ وَجِهَةٍ لَكَانَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِحَيْثُ يُمْكِنُهُ أَنْ يَتَحَرَّكَ عَنْ تِلْكَ الْجِهَةِ أَوْ لَا يُمْكِنُهُ ذلك والقسمان بَاطِلَانِ فَبَطَلَ الْقَوْلُ بِكَوْنِهِ حَاصِلًا فِي الْحَيِّزِ.

أَمَّا الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: وَهُوَ أَنَّه يُمْكِنُهُ أَنْ يَتَحَرَّكَ فَنَقُولُ: هَذِهِ الذَّاتُ لَا تَخْلُو عَنِ الْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ وَهُمَا مُحْدَثَانِ لِأَنَّ عَلَىٰ هَذَا التَّقْدِيرِ السُّكُونَ جَائِزٌ عَلَيْهِ وَالْحَرَكَةَ جَائِزَةٌ عَلَيْهِ وَمَتَىٰ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنِ الْمُؤَثِّرُ فِي تِلْكَ الْحَرَكَةِ وَلَا فِي ذَلِكَ السُّكُونِ ذَاتُهُ وَإِلَّا لَامْتَنَعَ طَرَيَانُ ضِدِّهِ وَالتَّقْدِيرُ: هُوَ تَقْدِيرُ أَنَّه يُمْكِنُهُ أَنْ يَتَحَرَّكَ وَأَنْ يَسْكُنَ وَإِذَا كان كذلك ان الْمُؤَثِّرُ فِي حُصُولِ تِلْكَ الْحَرَكَةِ وَذَلِكَ السُّكُونِ هُوَ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ وَكُلُّ مَا كَانَ فِعْلًا لِفَاعِلٍ مُخْتَارٍ فَهُوَ مُحْدَثٌ فَالْحَرَكَةُ وَالسُّكُونُ مُحْدَثَانِ وما لا يخلو عن المحدث فهو محدث فَيَلْزَمُ أَنْ تَكُونَ ذَاتُهُ تَعَالَىٰ مُحْدَثَةً وَهُوَ مُحَالٌ.

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي: وَهُوَ أَنَّه يَكُونُ مُخْتَصًّا بِحَيِّزٍ وَجِهَةٍ مَعَ أَنَّه لا يَقْدِرُ أَنْ يَتَحَرَّكَ عَنْهُ فَهَذَا أَيْضًا مُحَالٌ لِوَجْهَيْنِ: الْأَوَّلُ: أَنَّ عَلَىٰ هَذَا التَّقْدِيرِ يَكُونُ كَالزَّمِنِ الْمُقْعَدِ الْعَاجِزِ وَذَلِكَ نَقْصٌ وَهُوَ عَلَى اللهِ مُحَالٌ.

وَالثَّانِي: أَنَّه لَوْ لَمْ يَمْتَنِعْ فَرْضُ مَوْجُودٍ حَاصِلٍ فِي حَيِّزٍ مُعَيَّنٍ بِحَيْثُ يَكُونُ حُصُولُهُ فِيهِ وَاجِبَ التَّقَرُّرِ مُمْتَنِعَ الزَّوَالِ لَمْ يَبْعُدْ أَيْضًا فَرْضُ أَجْسَامٍ أُخْرَىٰ مُخْتَصَّةٍ بِأَحْيَازٍ مُعَيَّنَةٍ بِحَيْثُ يَمْتَنِعُ خُرُوجُهَا عَنْ تِلْكَ الْأَحْيَازِ وَعَلَىٰ هَذَا التَّقْدِيرِ فَلَا يُمْكِنُ إِثْبَاتُ حُدُوثِهَا بِدَلِيلِ الْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ وَالْكَرَّامِيَّةُ يُسَاعِدُونَ عَلَىٰ أَنَّه كُفْرٌ.

وَالثَّالِثُ: أَنَّه تَعَالَىٰ لَمَّا كَانَ حَاصِلًا فِي الْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ كَانَ مُسَاوِيًا لِلْأَجْسَامِ فِي كَوْنِهِ مُتَحَيِّزًا شَاغِلًا لِلْأَحْيَازِ ثُمَّ نُقِيمُ الدَّلَالَةَ الْمَذْكُورَةَ عَلَىٰ أَنَّ الْمُتَحَيِّزَاتِ لَمَّا كَانَتْ مُتَسَاوِيَةً فِي صِفَةِ التَّحَيُّزِ وَجَبَ كَوْنُهَا مُتَسَاوِيَةً فِي تَمَامِ الْمَاهِيَّةِ لِأَنَّه لَوْ خَالَفَ بَعْضُهَا بَعْضًا لَكَانَ مَا بِهِ الْمُخَالَفَةُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ حَالًّا فِي الْمُتَحَيِّزِ أَوْ مَحَلًّا لَهُ أَوْ لَا حَالًّا وَلَا مَحَلًّا وَالْأَقْسَامُ الثَّلَاثَةُ بَاطِلَةٌ عَلَىٰ مَا سَبَقَ وَإِذَا كَانَتْ مُتَسَاوِيَةً فِي تَمَامِ الْمَاهِيَّةِ فَكَمَا أَنَّ الْحَرَكَةَ صَحِيحَةٌ عَلَىٰ هَذِهِ الْأَجْسَامِ وَجَبَ الْقَوْلُ بِصِحَّتِهَا عَلَىٰ ذَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ وَحِينَئِذٍ يَتِمُّ الدَّلِيلُ.

الْحُجَّةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: لَوْ كَانَ تَعَالَىٰ مُخْتَصًّا بِحَيِّزٍ مُعَيَّنٍ لَكُنَّا إِذَا فَرَضْنَا وُصُولَ إِنْسَانٍ إِلَىٰ طَرَفِ ذَلِكَ الشَّيْءِ وَحَاوَلَ الدُّخُولَ فِيهِ فَإِمَّا أَنْ يُمْكِنَهُ النُّفُوذُ وَالدُّخُولُ فِيهِ أَوْ لَا يُمْكِنَهُ ذَلِكَ فَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ كَانَ كَالْهَوَاءِ اللَّطِيفِ وَالْمَاءِ اللَّطِيفِ وَحِينَئِذٍ يَكُونُ قَابِلًا لِلتَّفَرُّقِ وَالتَّمَزُّقِ وَإِنْ كَانَ الثَّانِي كَانَ صُلْبًا كَالْحَجَرِ الصَّلْدِ الَّذِي لَا يُمْكِنُهُ النُّفُوذُ فِيهِ فَثَبَتَ أَنَّه تَعَالَىٰ لَوْ كَانَ مُخْتَصًّا بِمَكَانٍ وَحَيِّزٍ وَجِهَةٍ لَكَانَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ رَقِيقًا سَهْلَ التَّفَرُّقِ وَالتَّمَزُّقِ كَالْمَاءِ وَالْهَوَاءِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ صُلْبًا جَاسِئًا كَالْحَجَرِ الصَّلْدِ وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ أَنَّ إِثْبَاتَ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ فِي حَقِّ الْإِلَهِ كُفْرٌ وَإِلْحَادٌ فِي صِفَتِهِ وَأَيْضًا فَبِتَقْدِيرِ أَنْ يَكُونَ مُخْتَصًّا بِمَكَانٍ وَجِهَةٍ لَكَانَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ نُورَانِيًّا وَظُلْمَانِيًّا وَجُمْهُورُ الْمُشَبِّهَةِ يَعْتَقِدُونَ أَنَّه نُورٌ مَحْضٌ لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّ النُّورَ شَرِيفٌ وَالظُّلْمَةَ خَسِيسَةٌ إِلَّا أَنَّ الِاسْتِقْرَاءَ الْعَامَّ دَلَّ عَلَىٰ أَنَّ الْأَشْيَاءَ النُّورَانِيَّةَ رَقِيقَةٌ لَا تَمْنَعُ النَّافِذَ مِنَ النُّفُوذِ فِيهَا وَالدُّخُولِ فِيمَا بَيْنَ أَجْزَائِهَا وَعَلَىٰ هَذَا التَّقْدِيرِ فَإِنَّ ذَلِكَ الَّذِي يُنْفَذُ فِيهِ يُمْتَزَجُ بِهِ وَيُفَرَّقُ بَيْنَ أَجْزَائِهِ وَيَكُونُ ذَلِكَ الشَّيْءُ جَارِيًا مَجْرَىٰ الْهَوَاءِ الَّذِي يَتَّصِلُ تَارَةً وَيَنْفَصِلُ أُخْرَىٰ وَيَجْتَمِعُ تَارَةً وَيَتَمَزَّقُ أُخْرَىٰ وَذَلِكَ مِمَّا لَا يَلِيقُ بِالْمُسْلِمِ أَنْ يَصِفَ إِلَهَ الْعَالَمِ بِهِ وَلَوْ جَازَ ذَلِكَ فَلِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ خَالِقَ الْعَالَمِ هُوَ بَعْضُ هَذِهِ الرِّيَاحِ الَّتِي تَهُبُّ؟ أَوْ يُقَالَ أَنَّه بَعْضُ هَذِهِ الْأَنْوَارِ وَالْأَضْوَاءِ الَّتِي تُشْرِقُ عَلَىٰ الْجُدْرَانِ؟ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ أَنَّه لَا يَقْبَلُ التَّفَرُّقَ وَالتَّمَزُّقَ وَلَا يَتَمَكَّنُ النَّافِذُ مِنَ النُّفُوذِ فَإِنَّهُ يُرْجِعُ حَاصِلُ كَلَامِهِمْ إِلَىٰ أَنَّه حَصَلَ فَوْقَ الْعَالَمِ جَبَلٌ صُلْبٌ شَدِيدٌ وَإِلَهُ هَذَا الْعَالَمِ هُوَ ذَلِكَ الْجَبَلُ الصُّلْبُ الْوَاقِفُ فِي الْحَيِّزِ الْعَالِي وَأَيْضًا فَإِنْ كَانَ لَهُ طَرَفٌ وَحَدٌّ وَنِهَايَةٌ فَهَلْ حَصَلَ لِذَلِكَ الشَّيْءِ عُمْقٌ وَثُخْنٌ أَوْ لَمْ يَحْصُلْ؟ فَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ فَحِينَئِذٍ يَكُونُ ظَاهِرُهُ غَيْرَ بَاطِنِهِ وَبَاطِنُهُ غَيْرَ ظَاهِرِهِ

فَكَانَ مُؤَلَّفًا مُرَكَّبًا مِنَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ مَعَ أَنَّ بَاطِنَهُ غَيْرُ ظَاهِرِهِ وَظَاهِرَهُ غَيْرُ بَاطِنِهِ وَإِنْ كَانَ الثَّانِيَ فَحِينَئِذٍ يَكُونُ ذَاتُهُ سَطْحًا رَقِيقًا فِي غَايَةِ الرِّقَّةِ مِثْلَ قِشْرَةِ الثُّومِ بَلْ أَرَقُّ مِنْهُ أَلْفَ أَلْفِ مَرَّةٍ وَالْعَاقِلُ لَا يَرْضَى أَنْ يَجْعَلَ مِثْلَ هَذَا الشَّيْءِ إِلَهَ الْعَالَمِ فَثَبَتَ أَنَّ كَوْنَهُ تَعَالَى فِي الْحَيِّزِ والجهة يقضي إِلَى فَتْحِ بَابِ هَذِهِ الْأَقْسَامِ الْبَاطِلَةِ الْفَاسِدَةِ.

الْحُجَّةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: الْعَالَمُ كُرَةٌ وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ امْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ إِلَهُ الْعَالَمِ حَاصِلًا فِي جِهَةِ فَوْقُ.

أَمَّا الْمَقَامُ الْأَوَّلُ: فَهُوَ مُسْتَقْصًى فِي عِلْمِ الْهَيْئَةِ إِلَّا أَنَّا نَقُولُ أَنَّا إِذَا اعْتَبَرْنَا كُسُوفًا قَمَرِيًّا حَصَلَ فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ بِالْبِلَادِ الْغَرْبِيَّةِ كَانَ عَيْنُ ذَلِكَ الْكُسُوفِ حَاصِلًا فِي الْبِلَادِ الشَّرْقِيَّةِ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ فَعَلِمْنَا أَنَّ أَوَّلَ اللَّيْلِ بِالْبِلَادِ الغربية هُوَ بِعَيْنِهِ أَوَّلُ النَّهَارِ بِالْبِلَادِ الشَّرْقِيَّةِ وَذَلِكَ لَا يُمْكِنُ إِلَّا إِذَا كَانَتِ الْأَرْضُ مُسْتَدِيرَةً مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ وَأَيْضًا إِذَا تَوَجَّهْنَا إِلَى الْجَانِبِ الشَّمَالِيِّ فَكُلَّمَا كَانَ تَوَغُّلُنَا أَكْثَرَ كَانَ ارْتِفَاعُ الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ أَكْثَرَ وَبِمِقْدَارِ مَا يَرْتَفِعُ الْقُطْبُ الشَّمَالِيُّ يَنْخَفِضُ الْقُطْبُ الْجَنُوبِيُّ وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ مُسْتَدِيرَةٌ مِنَ الشَّمَالِ إِلَى الْجَنُوبِ وَمَجْمُوعُ هَذَيْنِ الِاعْتِبَارَيْنِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ كُرَةٌ.

وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَنَقُولُ: إِذَا فَرَضْنَا إِنْسَانَيْنِ وَقَفَ أَحَدُهُمَا عَلَى نُقْطَةِ الْمَشْرِقِ وَالْآخَرُ عَلَى نُقْطَةِ الْمَغْرِبِ صَارَ أَخْمَصُ قَدَمَيْهِمَا مُتَقَابِلَيْنِ وَالَّذِي هُوَ فَوْقُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَحَدِهِمَا يَكُونُ تَحْتُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الثَّانِي: فَلَوْ فرضنا ان له الْعَالَمِ حَصَلَ فِي الْحَيِّزِ الَّذِي فَوْقُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَحَدِهِمَا فَذَلِكَ الْحَيِّزُ بِعَيْنِهِ هُوَ تَحْتُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الثَّانِي وَبِالْعَكْسِ فَثَبَتَ أَنَّه تَعَالَى لَوْ حَصَلَ فِي حَيِّزٍ مُعَيَّنٍ لَكَانَ ذَلِكَ الْحَيِّزُ تَحْتًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَقْوَامٍ مُعَيَّنِينَ وَكَوْنُهُ تَعَالَى تَحْتَ أَهْلِ الدُّنيا مُحَالٌ بِالِاتِّفَاقِ فَوَجَبَ أَنْ لَا يَكُونَ حَاصِلًا فِي حَيِّزٍ مُعَيَّنٍ وَأَيْضًا فَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ أَنَّه كُلَّمَا كَانَ فَوْقُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَقْوَامٍ كَانَ تَحْتُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَقْوَامٍ آخَرِينَ وَكَانَ يَمِينًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى ثَالِثٍ وَشِمَالًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى رَابِعٍ وَقُدَّامَ الْوَجْهِ بالنسبة إِلَى خامس وخلق الرَّأْسِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى سَادِسٍ فَإِنَّ كَوْنَ الْأَرْضِ كُرَةً يُوجِبُ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّ حُصُولَ هَذِهِ الْأَحْوَالِ بِإِجْمَاعِ الْعُقَلَاءِ مُحَالٌ فِي حَقِّ إِلَهِ الْعَالَمِ إِلَّا إِذَا قِيلَ أَنَّه مُحِيطٌ بِالْأَرْضِ مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ فَيَكُونُ هَذَا فَلَكًا مُحِيطًا بِالْأَرْضِ وَحَاصِلُهُ يَرْجِعُ إِلَى أَنَّ إِلَهَ الْعَالَمِ هُوَ بَعْضُ الْأَفْلَاكِ الْمُحِيطَةِ بِهَذَا الْعَالَمِ وَذَلِكَ لَا يَقُولُهُ مُسْلِمٌ واللهُ أَعْلَمُ.

الْحُجَّةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: لَوْ كَانَ إِلَهُ الْعَالَمِ فَوْقَ الْعَرْشِ لَكَانَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُمَاسًّا لِلْعَرْشِ أَوْ مُبَايِنًا لَهُ بِبُعْدٍ مُتَنَاهٍ أَوْ بِبُعْدٍ غَيْرِ متناه والأقسام الثلاثة باطلة فالقول بكونه فرق الْعَرْشِ بَاطِلٌ.

أَمَّا بَيَانُ فَسَادِ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ: فَهُوَ أَنَّ بِتَقْدِيرِ أَنْ يَصِيرَ مُمَاسًّا لِلْعَرْشِ كَانَ الطَّرَفُ الْأَسْفَلُ مِنْهُ مُمَاسًّا لِلْعَرْشِ فَهَلْ يَبْقَى فَوْقَ ذَلِكَ الطَّرَفِ مِنْهُ شَيْءٌ غَيْرُ مُمَاسٍّ لِلْعَرْشِ أَوْ لَمْ يَبْقَ؟ فَإِنْ كَانَ الْأَوَّلَ فَالشَّيْءُ الَّذِي مِنْهُ صَارَ

مُمَاسًّا لِطَرَفِ الْعَرْشِ غَيْرُ مَا هُوَ مِنْهُ غَيْرُ مُمَاسٍّ لِطَرَفِ الْعَرْشِ فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ ذَاتُ اللهِّ تَعَالَىٰ مُرَكَّبًا مِنَ الْأَجْزَاءِ وَالْأَبْعَاضِ فتكُونُ ذَاتُهُ فِي الْحَقِيقَةِ مُرَكَّبَةً مِنْ سُطُوحٍ مُتَلَاقِيَةٍ مَوْضُوعَةٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْلُ بِكَوْنِهِ جِسْمًا مُرَكَّبًا مِنَ الْأَجْزَاءِ وَالْأَبْعَاضِ وَذَلِكَ مُحَالٌ وَإِنْ كَانَ الثَّانِي فَحِينَئِذٍ يَكُونُ ذَاتُ اللهِّ تَعَالَىٰ سَطْحًا رَقِيقًا لَا ثُخْنَ لَهُ أَصْلًا ثمَّ يَعُودُ التَّقْسِيمُ فِيهِ وَهُوَ أَنَّه إِنْ حَصَلَ لَهُ تَمَدُّدٌ فِي الْيَمِينِ وَالشِّمَالِ وَالْقُدَّامِ وَالْخَلْفِ كَانَ مُرَكَّبًا مِنَ الْأَجْزَاءِ وَالْأَبْعَاضِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ تَمَدُّدٌ وَلَا ذَهَابٌ فِي الْأَحْيَازِ بِحَسَبِ الْجِهَاتِ السِّتَّةِ كَانَ ذَرَّةً مِنَ الذرات وجزءا لا يتجزئ مخلوطا بالهباءات وَذَلِكَ لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ.

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي: وَهُوَ أَنْ يُقَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَالَمِ بُعْدٌ مُتَنَاهٍ فَهَذَا أَيْضًا مُحَالٌ لِأَنَّ عَلَىٰ هَذَا التَّقْدِيرِ لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَرْتَفِعَ الْعَالَمُ مِنْ حَيِّزِهِ إِلَىٰ الْجِهَةِ الَّتِي فِيهَا حَصَلَتْ ذَاتُ اللهِّ تَعَالَىٰ إِلَىٰ أَنْ يَصِيرَ الْعَالَمُ مُمَاسًّا لَهُ وَحِينَئِذٍ يَعُودُ الْمُحَالُ الْمَذْكُورُ فِي الْقِسْمِ الْأَوَّلِ.

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّالِثُ: وَهُوَ أَنْ يُقَالَ أَنَّه تَعَالَىٰ مُبَايِنٌ لِلْعَالَمِ بَيْنُونَةً غَيْرَ مُتَنَاهِيَةٍ فَهَذَا أَظْهَرُ فَسَادًا مِنْ كُلِّ الْأَقْسَامِ لأَنَّه تَعَالَىٰ لَمَّا كَانَ مُبَايِنًا لِلْعَالَمِ كَانَتِ الْبَيْنُونَةُ بَيْنَهُ تَعَالَىٰ وَبَيْنَ غَيْرِهِ مَحْدُودَةً بِطَرَفَيْنِ وَهُمَا ذَاتُ اللهِّ تَعَالَىٰ وَذَاتُ الْعَالَمِ وَمَحْصُورًا بَيْنَ هَذَيْنِ الْحَاصِرَيْنِ وَالْبُعْدُ الْمَحْصُورُ بَيْنَ الْحَاصِرَيْنِ وَالْمَحْدُودُ بَيْنَ الْحَدَّيْنِ وَالطَّرَفَيْنِ يَمْتَنِعُ كَوْنُهُ بُعْدًا غَيْرَ مُتَنَاهٍ.

فَإِنْ قِيلَ: أَلَيْسَ أَنَّه تَعَالَىٰ مُتَقَدِّمٌ عَلَىٰ الْعَالَمِ مِنَ الْأَزَلِ إِلَىٰ الْأَبَدِ فَتَقَدُّمُهُ عَلَىٰ الْعَالَمِ مَحْصُورٌ بَيْنَ حَاصِرَيْنِ وَمَحْدُودٌ بَيْنَ حَدَّيْنِ وَطَرَفَيْنِ أَحَدُهُمَا: الْأَزَلُ، وَالثَّانِي: أَوَّلُ وُجُودِ الْعَالَمِ وَلَمْ يَلْزَمْ مِنْ كَوْنِ هَذَا التَّقَدُّمِ مَحْصُورًا بَيْنَ حَاصِرَيْنِ أَنْ يكون لهذا التقدم أول وبداية فكذا هاهنا وَهَذَا هُوَ الَّذِي عَوَّلَ عَلَيْهِ محمَّد بْنُ الْهَيْثَمِ فِي دَفْعِ هَذَا الْإِشْكَالِ عَنْ هَذَا الْقِسْمِ.

وَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا هُوَ مَحْضُ الْمُغَالَطَةِ لأَنَّه لَيْسَ الْأَزَلُ عِبَارَةً عَنْ وَقْتٍ مُعَيَّنٍ وَزَمَانٍ مُعَيَّنٍ حَتَّىٰ يُقَالَ أَنَّه تَعَالَىٰ مُتَقَدِّمٌ عَلَىٰ الْعَالَمِ مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ إِلَىٰ الْوَقْتِ الَّذِي هُوَ أَوَّلُ الْعَالَمِ فَإِنَّ كُلَّ وَقْتٍ مُعَيَّنٍ يُفْرَضُ مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ إِلَىٰ الْوَقْتِ الْآخَرِ يَكُونُ مَحْدُودًا بَيْنَ حَدَّيْنِ وَمَحْصُورًا بَيْنَ حَاصِرَيْنِ وَذَلِكَ لَا يُعْقَلُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ مُتَنَاهٍ بَلِ الْأَزَلُ عِبَارَةٌ عَنْ نَفْيِ الْأَوَّلِيَّةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُشَارَ بِهِ إِلَىٰ وَقْتٍ مُعَيَّنٍ الْبَتَّةَ.

إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَنَقُولُ: إِمَّا أَنْ نَقُولَ أَنَّه تَعَالَىٰ مُخْتَصٌّ بِجِهَةٍ مُعَيَّنَةٍ وَحَاصِلٌ فِي حَيِّزٍ مُعَيَّنٍ وَإِمَّا أَنْ لَا نَقُولَ ذَلِكَ فَإِنْ قُلْنَا بِالْأَوَّلِ كَانَ الْبُعْدُ الْحَاصِلُ بَيْنَ ذَيْنِكَ الطَّرَفَيْنِ مَحْدُودًا بَيْنَ ذَيْنِكَ الْحَدَّيْنِ وَالْبُعْدُ الْمَحْصُورُ بَيْنَ الْحَاصِرَيْنِ لَا يُعْقَلُ كَوْنُهُ غَيْرَ مُتَنَاهٍ لِأَنَّ كَوْنَهُ غَيْرَ مُتَنَاهٍ عِبَارَةٌ عَنْ عَدَمِ الْحَدِّ وَالْقَطْعِ وَالطَّرَفِ وَكَوْنُهُ مَحْصُورًا بَيْنَ الْحَاصِرَيْنِ مَعْنَاهُ إِثْبَاتُ الْحَدِّ وَالْقَطْعِ وَالطَّرَفِ وَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا يُوجِبُ الْجَمْعَ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ وَهُوَ مُحَالٌ.

وَنَظِيرُهُ مَا ذَكَرْنَاهُ أَنَّا مَتَى عَيَّنَّا قَبْلَ الْعَالَمِ وَقْتًا مُعَيَّنًا كَانَ الْبُعْدُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوَقْتِ الَّذِي حَصَلَ فِيهِ أَوَّلُ الْعَالَمِ بُعْدًا مُتَنَاهِيًا لَا مَحَالَةَ. وَأَمَّا إِنْ قُلْنَا بِالْقِسْمِ الثَّانِي: وَهُوَ أَنَّه تَعَالَى غَيْرُ مُخْتَصٍّ بِحَيِّزٍ مُعَيَّنٍ وَغَيْرُ حَاصِلٍ فِي جِهَةٍ مُعَيَّنَةٍ فَهَذَا عِبَارَةٌ عَنْ نَفْيِ كَوْنِهِ فِي الْجِهَةِ لِأَنَّ كَوْنَ الذَّاتِ الْمُعَيَّنَةِ حَاصِلَةً لَا فِي جِهَةٍ مُعَيَّنَةٍ فِي نَفْسِهَا قَوْلٌ مُحَالٌ وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُ مَنْ يَقُولُ الْأَزَلُ لَيْسَ عِبَارَةً عَنْ وَقْتٍ مُعَيَّنٍ بَلْ إِشَارَةٌ إِلَى نَفْيِ الْأَوَّلِيَّةِ وَالْحُدُوثِ فَظَهَرَ أَنَّ هَذَا الَّذِي قَالَهُ ابْنُ الْهَيْثَمِ تَخْيِيلٌ خَالٍ عَنِ التَّحْصِيلِ.

الْحُجَّةُ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أَنَّه ثَبَتَ فِي الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ أَنَّ الْمَكَانَ: إِمَّا السَّطْحُ الْبَاطِنُ مِنَ الْجِسْمِ الْحَاوِي وَإِمَّا الْبُعْدُ الْمُجَرَّدُ وَالْفَضَاءُ الْمُمْتَدُّ وَلَيْسَ يُعْقَلُ فِي الْمَكَانِ قِسْمٌ ثَالِثٌ.

إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَنَقُولُ: إِنْ كَانَ الْمَكَانُ هُوَ الْأَوَّلَ فَنَقُولُ: ثَبَتَ أَنَّ أَجْسَامَ الْعَالَمِ مُتَنَاهِيَةٌ فَخَارِجُ الْعَالَمِ الْجُسْمَانِيِّ لَا خَلَاءَ وَلَا مَلَاءَ وَلَا مَكَانَ وَلَا جِهَةَ فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَحْصُلَ الْإِلَهُ فِي مَكَانٍ خَارِجَ الْعَالَمِ وَإِنْ كَانَ الْمَكَانُ هُوَ الثَّانِيَ: فَنَقُولُ طَبِيعَةُ الْبُعْدِ طَبِيعَةٌ وَاحِدَةٌ مُتَشَابِهَةٌ فِي تَمَامِ الْمَاهِيَّةِ فَلَوْ حَصَلَ الْإِلَهُ فِي حَيِّزٍ لَكَانَ مُمْكِنَ الْحُصُولِ فِي سَائِرِ الْأَحْيَازِ وَحِينَئِذٍ يَصِحُّ عَلَيْهِ الْحَرَكَةُ وَالسُّكُونُ وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ مُحْدَثًا بالدلائل الْمَشْهُورَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي عِلْمِ الْأُصُولِ وَهِيَ مَقْبُولَةٌ عِنْدَ جُمْهُورِ الْمُتَكَلِّمِينَ فَيَلْزَمُ كَوْنُ الْإِلَهِ مُحْدَثًا وَهُوَ مُحَالٌ فَثَبَتَ أَنَّ الْقَوْلَ بِأَنَّهُ تَعَالَى حَاصِلٌ فِي الْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ قَوْلٌ بَاطِلٌ عَلَى كُلِّ الِاعْتِبَارَاتِ:

الْحُجَّةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: وَهِيَ حُجَّةٌ اسْتِقْرَائِيَّةٌ اعْتِبَارِيَّةٌ لَطِيفَةٌ جِدًّا وَهِيَ أَنَّا رَأَيْنَا أَنَّ الشَّيْء كُلَّمَا كَانَ حُصُولُ مَعْنَى الْجِسْمِيَّةِ فِيهِ أَقْوَى وَأَثْبَتَ كَانَتِ الْقُوَّةُ الْفَاعِلِيَّةُ فِيهِ أَضْعَفَ وَأَنْقَصَ وَكُلَّمَا كَانَ حُصُولُ مَعْنَى الْجِسْمِيَّةِ فِيهِ أَقَلَّ وَأَضْعَفَ كَانَ حُصُولُ الْقُوَّةِ الْفَاعِلِيَّةِ أَقْوَى وَأَكْمَلَ وَتَقْرِيرُهُ أَنْ نَقُولَ وَجَدْنَا الْأَرْضَ أَكْثَفَ الْأَجْسَامِ وَأَقْوَاهَا حَجْمِيَّةً فَلَا جَرَمَ لَمْ يَحْصُلْ فِيهَا إِلَّا خَاصَّةَ قَبُولِ الْأَثَرِ فَقَطْ فَأَمَّا أَنْ يَكُونَ لِلْأَرْضِ الْخَالِصَةِ تَأْثِيرٌ فِي غَيْرِهِ فَقَلِيلٌ جِدًّا. وَأَمَّا الْمَاءُ فَهُوَ أَقَلُّ كَثَافَةً وَحَجْمِيَّةً مِنَ الْأَرْضِ فَلَا جَرَمَ حَصَلَتْ فِيهِ قُوَّةٌ مُؤَثِّرَةٌ فَإِنَّ الْمَاءَ الْجَارِيَ بِطَبْعِهِ إِذَا اخْتَلَطَ بِالْأَرْضِ أَثَّرَ فِيهَا أَنْوَاعًا مِنَ التَّأْثِيرَاتِ. وَأَمَّا الْهَوَاءُ فَإِنَّهُ أَقَلُّ حَجْمِيَّةً وَكَثَافَةً مِنَ الْمَاءِ فَلَا جَرَمَ كَانَ أَقْوَى عَلَى التَّأْثِيرِ مِنَ الْمَاءِ فَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْحَيَاةَ لَا تَكْمُلُ إِلَّا بِالنَّفَسِ وَزَعَمُوا أَنَّه لَا مَعْنَى لِلرُّوحِ إِلَّا الْهَوَاءُ الْمُسْتَنْشَقُ وَأَمَّا النَّارُ فَإِنَّهَا أَقَلُّ كَثَافَةً مِنَ الْهَوَاءِ فَلَا جَرَمَ كَانَتْ أَقْوَى الْأَجْسَامِ الْعُنْصُرِيَّةِ عَلَى التَّأْثِيرِ فَبِقُوَّةِ الْحَرَارَةِ يَحْصُلُ الطَّبْخُ وَالنُّضْجُ وَتَكُونُ الْمَوَالِيدُ الثَّلَاثَةُ أَعْنِي الْمَعَادِنَ وَالنَّبَاتَ وَالْحَيَوَانَ. وَأَمَّا الْأَفْلَاكُ فَإِنَّهَا أَلْطَفُ مِنَ الْأَجْرَامِ الْعُنْصُرِيَّةِ فَلَا جَرَمَ كَانَتْ هِيَ الْمُسْتَوْلِيَةَ عَلَى مِزَاجِ الْأَجْرَامِ الْعُنْصُرِيَّةِ بَعْضِهَا الْبَعْضِ وَتَوْلِيدِ الْأَنْوَاعِ وَالْأَصْنَافِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنْ تِلْكَ التَّمْزِيجَاتِ فَهَذَا الِاسْتِقْرَاءُ الْمُطَّرِدُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الشَّيْء كُلَّمَا كَانَ أَكْثَرَ حَجْمِيَّةً وَجِرْمِيَّةً وَجِسْمِيَّةً كَانَ أَقَلَّ قُوَّةً وَتَأْثِيرًا وَكُلَّمَا كَانَ أَقْوَى قُوَّةً

وَتَأْثِيرًا كَانَ أَقَلَّ حَجْمِيَّةً وَجِرْمِيَّةً وَجِسْمِيَّةً وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ أَفَادَ هَذَا الِاسْتِقْرَاءُ ظَنًّا قَوِيًّا أَنَّه حَيْثُ حَصَلَ كَمَالُ الْقُوَّةِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى الْإِحْدَاثِ وَالْإِبْدَاعِ لَمْ يَحْصُلْ هُنَاكَ الْبَتَّةَ مَعْنَى الْحَجْمِيَّةِ وَالْجِرْمِيَّةِ وَالِاخْتِصَاصِ بِالْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ وَهَذَا وَإِنْ كَانَ بَحْثًا اسْتِقْرَائِيًّا إِلَّا أَنَّه عِنْدَ التَّأَمُّلِ التَّامِّ شَدِيدُ الْمُنَاسَبَةِ لِلْقَطْعِ بِكَوْنِهِ تَعَالَى مُنَزَّهًا عَنِ الْجِسْمِيَّةِ وَالْمَوْضِعِ وَالْحَيِّزِ. وبالله التَّوْفِيقُ. فَهَذِهِ جُمْلَةُ الْوُجُوهِ الْعَقْلِيَّةِ فِي بَيَانِ كَوْنِهِ تَعَالَى مُنَزَّهًا عَنِ الِاخْتِصَاصِ بِالْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ.

أَمَّا الدَّلَائِلُ السَّمْعِيَّةُ فَكَثِيرَةٌ: أَوَّلُهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١] فَوَصَفَهُ بِكَوْنِهِ أَحَدًا وَالْأَحَدُ مُبَالَغَةٌ فِي كَوْنِهِ وَاحِدًا. وَالَّذِي يَمْتَلِئُ مِنْهُ الْعَرْشُ وَيَفْضُلُ عَنِ الْعَرْشِ يَكُونُ مُرَكَّبًا مِنْ أَجْزَاءٍ كَثِيرَةٍ جِدًّا فَوْقَ أَجْزَاءِ الْعَرْشِ وَذَلِكَ يُنَافِي كَوْنَهُ أَحَدًا وَرَأَيْتُ جَمَاعَةً مِنَ الْكَرَّامِيَّةِ عِنْدَ هَذَا الْإِلْزَامِ يَقُولُونَ أَنَّه تَعَالَى ذَاتٌ وَاحِدَةٌ وَمَعَ كَوْنِهَا وَاحِدَةً حَصَلَتْ فِي كُلِّ هَذِهِ الْأَحْيَازِ دُفْعَةً وَاحِدَةً. قَالُوا: فَلِأَجْلِ أَنَّه حَصَلَ دُفْعَةً وَاحِدَةً فِي جَمِيعِ الْأَحْيَازِ امْتَلَأَ الْعَرْشُ مِنْهُ. فَقُلْتُ حَاصِلُ هَذَا الْكَلَامِ يَرْجِعُ إِلَى أَنَّه يَجُوزُ حُصُولُ الذَّاتِ الشَّاغِلَةِ لِلْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ فِي أَحْيَازٍ كَثِيرَةٍ دُفْعَةً وَاحِدَةً وَالْعُقَلَاءُ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ بِفَسَادِ ذَلِكَ مِنْ أَجَلِّ الْعُلُومِ الضَّرُورِيَّةِ وَأَيْضًا فَإِنْ جَوَّزْتُمْ ذَلِكَ فَلِمَ لَا تُجَوِّزُونَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ جَمِيعَ الْعَالَمِ مِنَ الْعَرْشِ إِلَى مَا تَحْتَ الثَّرَى جَوْهَرٌ وَاحِدٌ وَمَوْجُودٌ وَاحِدٌ الا ان ذلك الجزء الذي لا يتجزى حَصَلَ فِي جُمْلَةِ هَذِهِ الْأَحْيَازِ فَيُظَنُّ أَنَّهَا أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ جَوَّزَهُ فَقَدِ الْتَزَمَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ عَظِيمًا.

فَإِنْ قَالُوا: إِنَّمَا عرفنا هاهنا حُصُولَ التَّغَايُرِ بَيْنَ هَذِهِ الذَّوَاتِ لِأَنَّ بَعْضَهَا يَفْنَى مَعَ بَقَاءِ الْبَاقِي وَذَلِكَ يُوجِبُ التَّغَايُرَ وَأَيْضًا فَنَرَى بَعْضَهَا مُتَحَرِّكًا وَبَعْضَهَا سَاكِنًا وَالْمُتَحَرِّكُ غَيْرُ السَّاكِنِ فَوَجَبَ الْقَوْلُ بِالتَّغَايُرِ وَهَذِهِ الْمَعَانِي غَيْرُ حَاصِلَةٍ فِي ذَاتِ اللهِ فَظَهَرَ الْفَرْقُ فَنَقُولُ: أَمَّا قَوْلُكَ بِأَنَّا نُشَاهِدُ أَنَّ هَذَا الْجُزْءَ يَبْقَى مَعَ أَنَّه يَفْنَى ذَلِكَ الْجُزْءُ الْآخَرُ وَذَلِكَ يُوجِبُ التَّغَايُرَ فَنَقُولُ: لَا نُسَلِّمُ أَنَّه فَنَى شَيْءٌ مِنَ الْأَجْزَاءِ بَلْ نَقُولُ لِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ أَنَّ جَمِيعَ أَجْزَاءِ الْعَالَمِ جُزْءٌ وَاحِدٌ فقط؟ ثُمَّ أَنَّه حصل هاهنا وَهُنَاكَ وَأَيْضًا حَصَلَ مَوْصُوفًا بِالسَّوَادِ وَالْبَيَاضِ وَجَمِيعِ الْأَلْوَانِ وَالطُّعُومِ فَالَّذِي يَفْنَى إِنَّمَا هُوَ حُصُولُهُ هُنَاكَ فَأَمَّا أَنْ يُقَالَ أَنَّه فَنَى فِي نَفْسِهِ فَهَذَا غَيْرُ مُسَلَّمٍ وَأَمَّا قَوْلُهُ: نَرَى بَعْضَ الْأَجْسَامِ مُتَحَرِّكًا وَبَعْضَهَا سَاكِنًا وَذَلِكَ يُوجِبُ التَّغَايُرَ لِأَنَّ الْحَرَكَةَ وَالسُّكُونَ لَا يَجْتَمِعَانِ. فَنَقُولُ: إِذَا حَكَمْنَا بِأَنَّ الْحَرَكَةَ وَالسُّكُونَ لَا يَجْتَمِعَانِ لِاعْتِقَادِنَا أَنَّ الْجِسْمَ الْوَاحِدَ لَا يَحْصُلُ دُفْعَةً وَاحِدَةً فِي حَيِّزَيْنِ فَإِذَا رَأَيْنَا أَنَّ السَّاكِنَ بَقِيَ هُنَا وَأَنَّ الْمُتَحَرِّكَ لَيْسَ هُنَا قَضَيْنَا أَنَّ الْمُتَحَرِّكَ غَيْرُ السَّاكِنِ. وَأَمَّا بِتَقْدِيرِ أَنْ يَجُوزَ كَوْنُ الذَّاتِ الْوَاحِدَةِ حَاصِلَةً فِي حَيِّزَيْنِ دُفْعَةً وَاحِدَةً لَمْ يَمْتَنِعْ كَوْنُ الذَّاتِ الْوَاحِدَةِ مُتَحَرِّكَةً سَاكِنَةً مَعًا، لِأَنَّ أَقْصَى مَا فِي الْبَابِ أَنَّ بِسَبَبِ السُّكُونِ بَقِيَ هُنَا وَبِسَبَبِ الْحَرَكَةِ حَصَلَ فِي الْحَيِّزِ الْآخَرِ إِلَّا أَنَّا

لَمَّا جَوَّزْنَا أَنْ تَحْصُلَ الذَّاتُ الْوَاحِدَةُ دُفْعَةً وَاحِدَةً فِي حَيِّزَيْنِ مَعًا لَمْ يَبْعُدْ أَنْ تَكُونَ الذَّاتُ السَّاكِنَةُ هِيَ عَيْنَ الذَّاتِ الْمُتَحَرِّكَةِ فَثَبَتَ أَنَّه لَوْ جَازَ أَنْ يُقَالَ أَنَّه تَعَالَىٰ فِي ذَاتِهِ وَاحِدٌ لَا يَقْبَلُ الْقِسْمَةَ ثمَّ مَعَ ذَلِكَ يَمْتَلِئُ الْعَرْشُ مِنْهُ لَمْ يَبْعُدْ أَيْضًا أَنْ يُقَالَ: الْعَرْشُ فِي نَفْسِهِ جوهر فرد وجزء لا يتجزَّىٰ وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ حَصَلَ فِي كُلِّ تِلْكَ الْأَحْيَازِ وَحَصَلَ مِنْهُ كُلُّ الْعَرْشِ وَمَعْلُومٌ أَنَّ تَجْوِيزَهُ يُفْضِي إِلَىٰ فَتْحِ بَابِ الْجَهَالَاتِ. وَثَانِيهَا: أَنَّه تَعَالَىٰ قَالَ: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ [الحَاقَّة: ١٧] فَلَوْ كَانَ إِلَهُ الْعَالَمِ فِي الْعَرْشِ لَكَانَ حَامِلُ الْعَرْشِ حَامِلًا لِلْإِلَهِ فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْإِلَهُ مَحْمُولًا حَامِلًا وَمَحْفُوظًا حَافِظًا وَذَلِكَ لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ. وَثَالِثُهَا: أَنَّه تَعَالَىٰ قَالَ: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ ﴾ [مُحَمَّدٍ: ٣٨] حَكَمَ بِكَوْنِهِ غَنِيًّا عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ وَذَلِكَ يُوجِبُ كَوْنَهُ تَعَالَىٰ غَنِيًّا عَنِ الْمَكَانِ وَالْجِهَةِ.

وَرَابِعُهَا: أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا طَلَبَ حَقِيقَةَ الْإِلَهِ تَعَالَىٰ مِنْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَمْ يَزِدْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ ذِكْرِ صِفَةِ الْخَلَّاقِيَّةِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَإِنَّهُ لَمَّا قَالَ: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشُّعَرَاءِ: ٢٣] فَفِي الْمَرَّةِ الْأُولَىٰ قَالَ: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الدخان: ٧] وَفِي الثَّانِيَةِ قَالَ: ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشُّعَرَاءِ: ٢٦] وَفِي الْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشُّعَرَاءِ: ٢٨] وَكُلُّ ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَىٰ الْخَلَّاقِيَّةِ وَأَمَّا فِرْعَوْنُ لعنه اللهَّ فانه قال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ * أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غَافِرٍ: ٣٦- ٣٧] فَطَلَبَ الْإِلَهَ فِي السَّماء فَعَلِمْنَا أَنَّ وَصْفَ الْإِلَهِ بِالْخَلَّاقِيَّةِ وَعَدَمَ وَصْفِهِ بِالْمَكَانِ وَالْجِهَةِ دِينُ مُوسَىٰ وَسَائِرِ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَجَمِيعُ وَصْفِهِ تَعَالَىٰ بِكَوْنِهِ فِي السَّماء دِينُ فِرْعَوْنَ وَإِخْوَانِهِ مِنَ الْكَفَرَةِ. وَخَامِسُهَا: أَنَّه تَعَالَىٰ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف:٥٤] وَكَلِمَةُ «ثُمَّ» لِلتَّرَاخِي وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّه تَعَالَىٰ إِنَّما اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ بَعْدَ تَخْلِيقِ السَّموات وَالْأَرْضِ فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ مِنَ الِاسْتِوَاءِ الِاسْتِقْرَارَ لَزِمَ أَنْ يُقَالَ: أَنَّه مَا كَانَ مُسْتَقِرًّا عَلَىٰ الْعَرْشِ بَلْ كَانَ مُعْوَجًّا مُضْطَرِبًا ثمَّ اسْتَوَىٰ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَذَلِكَ يُوجِبُ وَصْفَهُ بِصِفَاتِ سَائِرِ الْأَجْسَامِ مِنَ الِاضْطِرَابِ وَالْحَرَكَةِ تَارَةً وَالسُّكُونِ أُخْرَىٰ وَذَلِكَ لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ. وَسَادِسُهَا: هُوَ أَنَّه تَعَالَىٰ حَكَىٰ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّه إِنَّما طَعَنَ فِي إِلَهِيَّةِ الْكَوْكَبِ وَالْقَمَرِ وَالشَّمْسِ بِكَوْنِهَا آفِلَةً غَارِبَةً فَلَوْ كَانَ إِلَهُ الْعَالَمِ جِسْمًا لَكَانَ أَبَدًا غَارِبًا آفِلًا وَكَانَ مُنْتَقِلًا مِنَ الِاضْطِرَابِ وَالِاعْوِجَاجِ إِلَىٰ الِاسْتِوَاءِ وَالسُّكُونِ وَالِاسْتِقْرَارِ فَكُلُّ مَا جَعَلَهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ طَعْنًا فِي إِلَهِيَّةِ الشَّمْسِ وَالْكَوْكَبِ وَالْقَمَرِ يَكُونُ حَاصِلًا فِي إِلَهِ الْعَالَمِ فَكَيْفَ يُمْكِنُ الِاعْتِرَافُ بِإِلَهِيَّتِهِ. وَسَابِعُهَا: أَنَّه تَعَالَىٰ ذَكَرَ قَبْلَ قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ شَيْئًا وَبَعْدَهُ شَيْئًا آخَرَ. أَمَّا الَّذِي ذَكَرَهُ قَبْلَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ فَهُوَ قَوْلُهُ: إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُّ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْض وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ خَلْقَ السَّموات وَالْأَرْضِ يَدُلُّ عَلَىٰ وُجُودِ الصَّانِعِ وَقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ. وَأَمَّا الَّذِي ذَكَرَهُ بَعْدَ

هَذِهِ الْكَلِمَةِ فَأَشْيَاءُ: أَوَّلُهَا: قَوْلُهُ: يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وذلك احد الدلائل عَلَىٰ وُجُودِ اللهِ وَعَلَىٰ قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ. وَثَانِيهَا: وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ وَهُوَ أَيْضًا مِنَ الدَّلَائِلِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ الْوُجُودِ وَالْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ. وَثَالِثُهَا: قَوْلُهُ: أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ وَهُوَ أَيْضًا إِشَارَةٌ إِلىٰ كَمالِ قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ.

إِذَا ثبت هذا فنقول: أول الآية اشارة ذِكْرِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ الْوُجُودِ وَالْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ وَآخِرُهَا يَدُلُّ أَيْضًا عَلَىٰ هَذَا الْمَطْلُوبِ وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ أَيْضًا دَلِيلًا عَلَىٰ كَمالِ الْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ لأَنَّه لَوْ لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ بَلْ كَانَ الْمُرَادُ كَوْنَهُ مُسْتَقِرًّا عَلَىٰ الْعَرْشِ كَانَ ذَلِكَ كَلامًا أَجْنَبِيًّا عَمَّا قَبْلَهُ وَعَمَّا بَعْدَهُ فَإِنَّ كَوْنَهُ تَعَالَىٰ مُسْتَقِرًّا عَلَىٰ الْعَرْشِ لا يُمْكِنُ جَعْلُهُ دَلِيلًا عَلَىٰ كَمَالِهِ فِي الْقُدْرَةِ وَالْحِكْمَةِ وَلَيْسَ أَيْضًا مِنْ صِفَاتِ المدح الثناء لأَنَّه تَعَالَىٰ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُجْلِسَ جَمِيعَ أَعْدَادِ الْبَقِّ وَالْبَعُوضِ عَلَىٰ الْعَرْشِ وَعَلَىٰ مَا فَوْقَ الْعَرْشِ فَثَبَتَ أَنَّ كَوْنَهُ جَالِسًا عَلَىٰ الْعَرْشِ لَيْسَ مِنْ دَلَائِلِ إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ وَالذَّاتِ ولا من صفات المدح الثناء فَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ كَوْنَهُ جَالِسًا عَلَىٰ الْعَرْشِ لَكَانَ ذَلِكَ كَلامًا أَجْنَبِيًّا عَمَّا قَبْلَهُ وَعَمَّا بَعْدَهُ وَهَذَا يُوجِبُ نِهَايَةَ الرَّكَاكَةِ فَثَبَتَ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ لَيْسَ ذَلِكَ بَلِ الْمُرَادُ مِنْهُ كَمالُ قدرته في تدابير الملك والملكوت حتىٰ تصبر هَذِهِ الْكَلِمَةُ مُنَاسِبَةً لِمَا قَبْلَهَا وَلِمَا بَعْدَهَا وهو المطلوب. وَثَامِنُهَا: أَنَّ السَّماء عِبَارَةٌ عَنْ كُلِّ مَا ارْتَفَعَ وَسَما وَعَلَا وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّه تَعَالَىٰ سَمَّىٰ السَّحَابَ سَماءً حَيْثُ قَالَ: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الْأَنفَال: ١١] وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَكُلُّ مَا لَهُ ارْتِفَاعٌ وَعُلُوٌّ وَسُمُوٌّ كَانَ سَماءً فَلَوْ كَانَ إِلَهُ الْعَالَمِ مَوْجُودًا فَوْقَ الْعَرْشِ لَكَانَ ذَاتُ الْإِلَهِ تَعَالَىٰ سَماءً لِسَاكِنِي الْعَرْشِ. فَثَبَتَ أَنَّه تَعَالَىٰ لَوْ كَانَ فَوْقَ الْعَرْشِ لَكَانَ سَماءً وَاللهُ تعالىٰ حكم بكونه خالقا لكل السَّموات في آيات كثيرة هَذِهِ الْآيَةُ وَهُوَ قَوْلُهُ: إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فَلَوْ كَانَ فَوْقَ الْعَرْشِ سَماءً لِسُكَّانِ أَهْلِ الْعَرْشِ لَكَانَ خَالِقًا لِنَفْسِهِ وَذَلِكَ مُحَالٌ.

وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَنَقُولُ: قَوْلُهُ: الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ آيَةٌ مُحْكَمَةٌ دَالَّةٌ عَلَىٰ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ مِنَ الْمُتَشَابِهَاتِ الَّتِي يَجِبُ تَأْوِيلُهَا وَهَذِهِ نُكْتَةٌ لَطِيفَةٌ وَنَظِيرُ هَذَا أَنَّه تَعَالَىٰ قَالَ فِي أول سورة الانعام: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [الْأَنعَام: ٣] ثُمَّ قَالَ بَعْدَهُ بِقَلِيلٍ: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ ﴾ [الْأَنعَام: ١٢] فَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْمُتَأَخِّرَةُ علىٰ ان كل ما في السَّموات فهو ملك الله فلو كان الله في السَّموات لزم كونه ملكا لنفسه وذلك مال فكهذا هاهنا فَثَبَتَ بِمَجْمُوعِ هَذِهِ الدَّلَائِلِ الْعَقْلِيَّةِ وَالنَّقْلِيَّةِ أَنَّه لا يُمْكِنُ حَمْلُ قَوْلِهِ: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ عَلَىٰ الْجُلُوسِ وَالِاسْتِقْرَارِ وَشَغْلِ الْمَكَانِ وَالْحَيِّزِ وَعِنْدَ هَذَا حَصَلَ لِلْعُلَماءِ الرَّاسِخِينَ مَذْهَبَانِ: الْأَوَّلُ: أَنْ نَقْطَعَ بِكَوْنِهِ تَعَالَىٰ مُتَعَالِيًا عَنِ الْمَكَانِ وَالْجِهَةِ وَلَا نَخُوضَ فِي تَأْوِيلِ الْآيَةِ عَلَىٰ التَّفْصِيلِ

بَلْ نُفَوِّضُ عِلْمَهَا إِلَىٰ اللهِ وَهُوَ الَّذِي قَرَّرْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٧] وَهَذَا الْمَذْهَبُ هُوَ الَّذِي نَخْتَارُهُ وَنَقُولُ بِهِ وَنَعْتَمِدُ عَلَيْهِ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنْ نَخُوضَ فِي تَأْوِيلِهِ عَلَىٰ التَّفْصِيلِ وَفِيهِ قَوْلَانِ مُلَخَّصَانِ: الْأَوَّلُ: مَا ذَكَرَهُ الْقَفَّالُ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ فَقَالَ: الْعَرْشِ فِي كَلَامِهِمْ هُوَ السَّرِيرُ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَيْهِ الْمُلُوكُ ثمَّ جُعِلَ الْعَرْشُ كِنَايَةً عَنْ نَفْسِ الْمُلْكِ يُقَالُ: ثُلَّ عَرْشُهُ أَيِ انْتَقَضَ مُلْكُهُ وَفَسَدَ. وَإِذَا استقام له ملكه واطراد أَمْرُهُ وَحُكْمُهُ قَالُوا: اسْتَوَىٰ عَلَىٰ عَرْشِهِ وَاسْتَقَرَّ عَلَىٰ سَرِيرِ مُلْكِهِ هَذَا مَا قَالَهُ الْقَفَّالُ. وَأَقُولُ: إِنَّ الَّذِي قَالَهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ وَصَوَابٌ ونظيره قولهم لِلرَّجُلِ الطَّوِيلِ: فُلَانٌ طَوِيلُ النِّجَادِ وَلِلرَّجُلِ الَّذِي يُكْثِرُ الضِّيَافَةَ كَثِيرُ الرَّمَادِ وَلِلرَّجُلِ الشَّيخ فُلَانٌ اشْتَعَلَ رَأْسُهُ شَيْبًا وَلَيْسَ الْمُرَادُ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ إِجْرَاؤُهَا عَلَىٰ ظَوَاهِرِهَا إِنَّمَا الْمُرَادُ مِنْهَا تَعْرِيفُ الْمَقْصُودِ عَلَىٰ سَبِيلِ الْكِنَايَةِ فكذا هاهنا يَذْكُرُ الِاسْتِوَاءَ عَلَىٰ الْعَرْشِ وَالْمُرَادُ نَفَاذُ الْقُدْرَةِ وَجَرَيَانُ الْمَشِيئَةِ ثمَّ قَالَ الْقَفَّالُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: وَاللهُ تَعَالَىٰ لَمَّا دَلَّ عَلَىٰ ذَاتِهِ وَعَلَىٰ صِفَاتِهِ وَكَيْفِيَّةِ تَدْبِيرِهِ الْعَالَمَ عَلَىٰ الْوَجْهِ الَّذِي أَلِفُوهُ مِنْ مُلُوكِهِمْ وَرُؤَسَائِهِمُ اسْتَقَرَّ فِي قُلُوبِهِمْ عَظَمَةُ اللهِ وَكَمَالُ جَلَالِهِ إِلَّا أَنَّ كل ذلك مشروط بنفي التَّشْبِيهِ فَإِذَا قَالَ: أَنَّه عَالِمٌ فَهِمُوا مِنْهُ أَنَّه لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ تَعَالَىٰ شَيْءٌ ثمَّ عَلِمُوا بِعُقُولِهِمْ أَنَّه لَمْ يَحْصُلْ ذَلِكَ الْعِلْمُ بِفِكْرَةٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَلَا بِاسْتِعْمَالِ حَاسَّةٍ وَإِذَا قَالَ: قَادِرٌ عَلِمُوا مِنْهُ أَنَّه مُتَمَكِّنٌ مِنْ إِيجَادِ الْكَائِنَاتِ وَتَكْوِينِ الْمُمْكِنَاتِ ثمَّ عَلِمُوا بِعُقُولِهِمْ أَنَّه غَنِيٌّ فِي ذَلِكَ الْإِيجَادِ وَالتَّكْوِينِ عَنِ الْآلَاتِ وَالْأَدَوَاتِ وَسَبَقَ الْمَادَّةَ وَالْمُدَّةَ وَالْفِكْرَةَ وَالرَّوِيَّةَ وَهَكَذَا الْقَوْلُ فِي كُلِّ صِفَاتِهِ وَإِذَا أَخْبَرَ أَنَّ لَهُ بَيْتًا يَجِبُ عَلَىٰ عِبَادِهِ حَجُّهُ فَهِمُوا مِنْهُ أَنَّه نَصَبَ لَهُمْ مَوْضِعًا يَقْصِدُونَهُ لِمَسْأَلَةِ رَبِّهِمْ وَطَلَبِ حَوَائِجِهِمْ كَمَا يَقْصِدُونَ بُيُوتَ الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ لِهَذَا الْمَطْلُوبِ ثمَّ عَلِمُوا بِعُقُولِهِمْ نَفْيَ التَّشْبِيهِ وَأَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ الْبَيْتَ مَسْكَنًا لِنَفْسِهِ وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ فِي دَفْعِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ بِعَيْنِهِ عَنْ نَفْسِهِ فَإِذَا أَمَرَهُمْ بِتَحْمِيدِهِ وَتَمْجِيدِهِ فَهِمُوا مِنْهُ أَنَّه أَمَرَهُمْ بِنِهَايَةِ تَعْظِيمِهِ ثمَّ عَلِمُوا بِعُقُولِهِمْ أَنَّه لَا يَفْرَحُ لذلك التَّحْمِيدِ وَالتَّعْظِيمِ وَلَا يَغْتَمُّ بِتَرْكِهِ وَالْإِعْرَاضِ عَنْهُ إِذَا عَرَفْتَ هَذِهِ الْمُقَدِّمَةَ فَنَقُولُ: أَنَّه تَعَالَىٰ اخبر أَنَّه خلق السَّموات والأرض كما أراد وشاء من غر مُنَازِعٍ وَلَا مُدَافِعٍ ثمَّ أَخْبَرَ بَعْدَهُ أَنَّه اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ أَيْ حَصَلَ لَهُ تَدْبِيرُ الْمَخْلُوقَاتِ عَلَىٰ مَا شَاءَ وَأَرَادَ فَكَانَ قَوْلُهُ: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ﴾ أَيْ بَعْدَ أَنْ خَلَقَهَا اسْتَوَىٰ عَلَىٰ عَرْشِ الْمُلْكِ وَالْجَلَالِ. ثمَّ قَالَ الْقَفَّالُ: وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ أَنَّ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ قَوْلُهُ فِي سُورَةِ يُونُسَ: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۖ﴾ [يُونُسَ: ٣] فَقَوْلُهُ: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ جَرَىٰ مَجْرَىٰ التَّفْسِيرِ لِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ﴾ وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ فِي تَفْسِيرِهَا: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى

ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ ﴾ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾ إِشَارَةٌ إِلَىٰ مَا ذَكَرْنَاهُ.

فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا حَمَلْتُمْ قَوْلَهُ: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ عَلَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ: اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْمُلْكِ وَجَبَ أَنْ يُقَالَ: اللهُ لَمْ يكن مستويا قبل خلق السَّموات وَالْأَرْضِ.

قُلْنَا: أَنَّه تَعَالَىٰ إِنَّمَا كَانَ قَبْلَ خَلْقِ الْعَوَالِمِ قَادِرًا عَلَىٰ تَخْلِيقِهَا وَتَكْوِينِهَا وَمَا كان مكونا ولا موجودا لها بأعيانها بالفعل لان احياء زيد وامانة عَمْرٍو وَإِطْعَامَ هَذَا وَإِرْوَاءَ ذَلِكَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا عِنْدَ هَذِهِ الْأَحْوَالِ فَإِذَا فَسَّرْنَا الْعَرْشَ بِالْمُلْكِ وَالْمُلْكَ بِهَذِهِ الْأَحْوَالِ صَحَّ أَنْ يُقَالَ: أَنَّه تَعَالَىٰ إِنَّمَا اسْتَوَىٰ عَلَىٰ مُلْكِهِ بَعْدَ خلق السَّموات وَالْأَرْضِ بِمَعْنَىٰ أَنَّه إِنَّمَا ظَهَرَ تَصَرُّفُهُ فِي هذه الأشياء وتدبيره لها بعد خلق السَّموات وَالْأَرْضِ وَهَذَا جَوَابُ حَقٍّ صَحِيحٍ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.

وَالْوَجْهُ الثَّانِي: فِي الْجَوَابِ أَنْ يُقَالَ: اسْتَوَىٰ بِمَعْنَىٰ اسْتَوْلَىٰ وَهَذَا الْوَجْهُ قَدْ أَطَلْنَا فِي شَرْحِهِ فِي سُورَةِ طه فَلَا نُعِيدُهُ هُنَا.

وَالْوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنْ نُفَسِّرَ الْعَرْشَ بِالْمُلْكِ وَنُفَسِّرَ اسْتَوَىٰ بِمَعْنَىٰ: عَلَا وَاسْتَعْلَىٰ عَلَىٰ الْمُلْكِ فيكون المعنىٰ: أَنَّه تَعَالَىٰ اسْتَعْلَىٰ عَلَىٰ الْمُلْكِ بِمَعْنَىٰ أَنَّ قُدْرَتَهُ نَفَذَتْ فِي تَرْتِيبِ الْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ وَاعْلَمْ أَنَّه تَعَالَىٰ ذَكَرَ قَوْلَهُ: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ في سور سبع. احداها: هاهنا. وَثَانِيهَا: فِي يُونُسَ. وَثَالِثُهَا: فِي الرَّعْدِ. وَرَابِعُهَا: فِي طه. وَخَامِسُهَا: فِي الْفُرْقَانِ. وَسَادِسُهَا: فِي السَّجْدَةِ. وَسَابِعُهَا: فِي الْحَدِيدِ وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي كُلِّ مَوْضِعٍ فَوَائِدَ كَثِيرَةٍ فَمَنْ ضَمَّ تِلْكَ الْفَوَائِدَ بَعْضَهَا إِلَىٰ بَعْضٍ كَثُرَتْ وَبَلَغَتْ مَبْلَغًا كَثِيرًا وَافِيًا بِإِزَالَةِ شُبَهِ التَّشْبِيهِ عَنِ الْقَلْبِ وَالْخَاطِرِ " (١) .

وقال أيضاً : " الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: أَمَّا قَوْلُهُ: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾ فَفِيهِ مَبَاحِثُ: الْأَوَّلُ: أَنَّ هَذَا يُوهِمُ كَوْنَهُ تَعَالَىٰ مُسْتَقِرًّا عَلَىٰ الْعَرْشِ وَالْكَلَامُ الْمُسْتَقْصَىٰ فِيهِ مَذْكُورٌ فِي أَوَّلِ سُورَةِ طه، وَلَكِنَّا نكتفي هاهنا بِعِبَارَةٍ وَجِيزَةٍ فَنَقُولُ:

هَذِهِ الْآيَةُ لَا يُمْكِنُ حَمْلُهَا عَلَىٰ ظَاهِرِهَا، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ وُجُوهٌ: الْأَوَّلُ: أَنَّ الِاسْتِوَاءَ عَلَىٰ الْعَرْشِ مَعْنَاهُ كَوْنُهُ مُعْتَمِدًا عَلَيْهِ مُسْتَقِرًّا عَلَيْهِ، بِحَيْثُ لَوْلَا الْعَرْشُ لَسَقَطَ وَنَزَلَ، كَمَا أَنَّا إِذَا قُلْنَا إِنَّ فُلَانًا مُسْتَوٍ عَلَىٰ سَرِيرِهِ فَإِنَّهُ يُفْهَمُ مِنْهُ هَذَا الْمَعْنَىٰ إِلَّا أَنَّ إِثْبَاتَ هَذَا الْمَعْنَىٰ يَقْتَضِي كَوْنَهُ مُحْتَاجًا إِلَىٰ الْعَرْشِ، وَأَنَّهُ لَوْلَا الْعَرْشُ لَسَقَطَ وَنَزَلَ، وَذَلِكَ مُحَالٌ، لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ أَطْبَقُوا عَلَىٰ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ هُوَ الْمُمْسِكُ لِلْعَرْشِ وَالْحَافِظُ لَهُ، وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ

---

(١) انظر : مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٥٧-٢٧١) .

أَنَّ الْعَرْشَ هُوَ الْمُمسِكُ للهَّ تَعَالَىٰ وَالْحَافِظُ لَهُ. وَالثَّانِي: أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّه قَبْلَ ذَلِكَ مَا كَانَ مُسْتَوِيًا عَلَيْهِ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّه تَعَالَىٰ يَتَغَيَّرُ مِنْ حَالٍ إِلىٰ حَالٍ، وَكُلُّ مَنْ كَانَ مُتَغَيِّرًا كَانَ مُحْدَثًا، وَذَلِكَ بِالِاتِّفَاقِ بَاطِلٌ. الثَّالِثُ: أَنَّه لَمَّا حَدَثَ الِاسْتِوَاءُ فِي هَذَا الْوَقْتِ، فَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّه تَعَالَىٰ كَانَ قَبْلَ هَذَا الْوَقْتِ مُضْطَرِبًا مُتَحَرِّكًا، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْمُحْدَثَاتِ. الرَّابِعُ: أَنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّه تَعَالَىٰ إِنَّما اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ بعد أن خلق السَّموات وَالْأَرْضَ لِأَنَّ كَلِمَةَ (ثُمَّ) تَقْتَضِي التَّرَاخِيَ وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّه تَعَالَىٰ كَانَ قَبْلَ خَلْقِ الْعَرْشِ غَنِيًّا عَنِ الْعَرْشِ، فَإِذَا خَلَقَ الْعَرْشَ امْتَنَعَ أَنْ تَنْقَلِبَ حَقِيقَتُهُ وَذَاتُهُ مِنَ الِاسْتِغْنَاءِ إِلىٰ الْحَاجَةِ فَوَجَبَ أَنْ يَبْقَىٰ بَعْدَ خَلْقِ الْعَرْشِ غَنِيًّا عَنِ الْعَرْشِ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ امْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ مُسْتَقِرًّا عَلَىٰ الْعَرْشِ فَثَبَتَ بِهَذِهِ الْوُجُوهِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لا يُمْكِنُ حَمْلُهَا عَلَىٰ ظَاهِرِهَا بِالِاتِّفَاقِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ امْتَنَعَ الِاسْتِدْلَالُ بِهَا فِي إِثْبَاتِ الْمَكَانِ وَالْجِهَةِ للهَّ تَعَالَىٰ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ أن فوق السَّموات جِسْمًا عَظِيمًا هُوَ الْعَرْشُ. إِذَا ثَبَتَ هَذَا فَنَقُولُ: الْعَرْشُ الْمَذْكُورُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هَلِ الْمُرَادُ مِنْهُ ذَلِكَ الْعَرْشُ أَوْ غَيْرُهُ؟ فِيهِ قَوْلَانِ:

الْقَوْلُ الْأَوَّلُ: وَهُوَ الَّذِي اخْتَارَهُ أَبُو مُسْلِمٍ الْأَصْفَهَانِيُّ، أَنَّه لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْهُ ذَلِكَ، بَلِ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ أنَّه لما خلق السَّموات وَالْأَرْضَ سَطَحَهَا وَرَفَعَ سَمْكَهَا، فَإِنَّ كُلَّ بِنَاءٍ فَإِنَّهُ يُسَمَّىٰ عَرْشًا، وَبَانِيهِ يُسَمَّىٰ عَارِشاً ، قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النَّحل: ٦٨] أَيْ يَبْنُونَ، وَقَالَ فِي صِفَةِ الْقَرْيَةِ : ﴿ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الحَجّ: ٤٥] وَالْمُرَادُ أَنَّ تِلْكَ الْقَرْيَةَ خَلَتْ مِنْهُمْ مَعَ سَلَامَةِ بِنَائِهَا وَقِيَامِ سُقُوفِهَا، وَقَالَ: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [هُودٍ: ٧] أَيْ بِنَاؤُهُ، وإِنَّما ذَكَرَ اللهُّ تَعَالَىٰ ذَلِكَ لأَنَّه أَعْجَبُ فِي الْقُدْرَةِ، فَالْبَانِي يَبْنِي الْبِنَاءَ مُتَبَاعِدًا عَنِ الْمَاءِ عَلَىٰ الْأَرْضِ الصلبة لئلا ينهدم، والله تعالىٰ بنىٰ السَّموات وَالْأَرْضَ عَلَىٰ الْمَاءِ لِيَعْرِفَ الْعُقَلَاءُ قُدْرَتَهُ وَكَمَالَ جَلَالَتِهِ، وَالِاسْتِوَاءُ عَلَىٰ الْعَرْشِ هُوَ الِاسْتِعْلَاءُ عَلَيْهِ بِالْقَهْرِ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزُّخْرُف: ١٢- ١٣] قَالَ أَبُو مُسْلِمٍ: فَثَبَتَ أَنَّ اللَّفْظَ يَحْتَمِلُ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فَنَقُولُ: وَجَبَ حَمْلُ اللَّفْظِ عَلَيْهِ، وَلَا يَجُوزُ حَمْلُهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ هُوَ أَنَّ الِاسْتِدْلَالَ عَلَىٰ وُجُودِ الصَّانِعِ تَعَالَىٰ، يَجِبُ أَنْ يَحْصُلَ بِشَيْءٍ مَعْلُومٍ مُشَاهَدٍ، وَالْعَرْشُ الَّذِي فِي السَّماء ليس كذلك، وأما أجرام السَّموات وَالْأَرَضِينَ فَهِيَ مُشَاهَدَةٌ مَحْسُوسَةٌ، فَكَانَ الِاسْتِدْلَالُ بِأَحْوَالِهَا عَلَىٰ وُجُودِ الصَّانِعِ الْحَكِيمِ جَائِزًا صَوَابًا حَسَنًا. ثمَّ قَالَ: وَمِمَّا يُؤَكِّدُ ذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ إِشَارَةٌ إِلىٰ تَخْلِيقِ ذَوَاتِهَا، وَقَوْلَهُ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ يَكُونُ إِشَارَةً إِلىٰ تَسْطِيحِهَا وَتَشْكِيلِهَا بِالْأَشْكَالِ الْمُوَافِقَةِ لِمَصَالِحِهَا، وَعَلَىٰ هَذَا الْوَجْهِ

تَصِيرُ هَذِهِ الْآيَةُ مُوَافِقَةً لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾ [النَّازِعَاتِ: ٢٧-٢٨] فذَكَرَ أَوَّلًا أنَّه بَنَاهَا، ثمَّ ذَكَرَ ثَانِيًا أنَّه رَفعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَكَذَلِكَ هَاهُنَا ذَكَرَ بِقَوْلِهِ: خَلَقَ السَّماوات وَالْأَرْض أنَّه خلَقَ ذَوَاتِهَا ثم ذَكَرَ بِقَوْلِهِ: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ أنَّه قَصَدَ إِلى تَعْرِيشِهَا وَتَسْطِيحِهَا وَتَشْكِيلِهَا بِالْأَشْكَالِ الْمُوَافِقَةِ لَهَا.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: وَهُوَ الْقَوْلُ الْمَشْهُورُ لِجُمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ: أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْعَرْشِ الْمَذْكُورِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: الْجِسْمُ الْعَظِيمُ الَّذِي فِي السَّماءِ، وَهَؤُلَاءِ قَالُوا إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ أنَّه تَعَالَىٰ خَلَقَ الْعَرْشَ بعد خلق السَّموات وَالْأَرَضِينَ بِدَلِيلِ أَنَّه تَعَالَىٰ قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَىٰ : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [هُودٍ: ٧] وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ تَكْوِينَ الْعَرْشِ سَابِقٌ عَلَىٰ تخليق السَّموات وَالْأَرَضِينَ بَلْ يَجِبُ تَفْسِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ بِوُجُوهٍ أُخَرَ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ: ثمَّ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ وَهُوَ مُسْتَوٍ عَلَىٰ الْعَرْشِ.

وَالْقَوْلُ الثَّالِثُ: أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْعَرْشِ الْمُلْكُ، يُقَالُ فُلَانٌ وَلِيَ عَرْشَهُ أَيْ مُلْكَهُ فَقَوْلُهُ: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ الْمُرَادُ أنَّه تَعَالَىٰ لَمَّا خَلَقَ السَّموات وَالْأَرْض وَاسْتَدَارَتِ الْأَفْلَاكُ وَالْكَوَاكِبُ، وَجَعَلَ بِسَبَبِ دَوَرَانِهَا الْفُصُولَ الْأَرْبَعَةَ وَالْأَحْوَالَ الْمُخْتَلِفَةَ مِنَ الْمَعَادِنِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ، فَفِي هَذَا الْوَقْتِ قَدْ حَصَلَ وُجُودُ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ وَالْكَائِنَاتِ وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْعَرْشَ عِبَارَةٌ عَنِ الْمُلْكِ، وَمُلْكُ اللهَّ تَعَالَىٰ عِبَارَةٌ عَنْ وُجُودِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَوُجُودُ مَخْلُوقَاتِهِ إِنَّما حَصَلَ بَعْدَ تخليق السَّموات وَالْأَرْضِ، لَا جَرَمَ صَحَّ إِدْخَالُ حَرْفِ (ثُمَّ) الَّذِي يُفِيدُ التَّرَاخِيَ عَلَىٰ الِاسْتِوَاءِ عَلَىٰ الْعَرْشِ وَاللهَّ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ " (١) .

وقال أيضاً : " وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ فَاعْلَمْ أَنَّه لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْهُ كَوْنَهُ مُسْتَقِرًّا عَلَىٰ الْعَرْشِ، لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ ذِكْرُ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ وُجُودِ الصَّانِعِ وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الشَّيء مُشَاهَدًا مَعْلُومًا وَأَنَّ أَحَدًا مَا رَأَىٰ أَنَّه تَعَالَىٰ اسْتَقَرَّ عَلَىٰ الْعَرْشِ فَكَيْفَ يُمْكِنُ الِاسْتِدْلَالُ بِهِ عَلَيْهِ ، وَأَيْضًا بِتَقْدِيرِ أَنْ يُشَاهَدَ كَوْنُهُ مُسْتَقِرًّا عَلَىٰ الْعَرْشِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَا يُشْعِرُ بِكَمَالِ حَالِهِ وَغَايَةِ جَلَالِهِ، بَلْ يَدُلُّ عَلَىٰ احْتِيَاجِهِ إِلى الْمَكَانِ وَالْحَيِّزِ. وَأَيْضًا فَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّه مَا كَانَ بِهَذِهِ الْحَالَةِ ثمَّ صَارَ بِهَذِهِ الْحَالَةِ، وَذَلِكَ يُوجِبُ التَّغَيُّرَ وَأَيْضًا الِاسْتِوَاءُ ضِدُّ الِاعْوِجَاجِ فَظَاهِرُ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّه كَانَ مُعْوَجًّا مُضْطَرِبًا ثمَّ صَارَ مُسْتَوِيًا وَكُلُّ ذَلِكَ عَلَىٰ اللهَّ مُحَالٌ، فَثَبَتَ أَنَّ الْمُرَادَ اسْتِوَاؤُهُ عَلَىٰ عَالَمِ الْأَجْسَامِ بِالْقَهْرِ وَالْقُدْرَةِ وَالتَّدْبِيرِ وَالْحِفْظِ يَعْنِي أَنَّ مَنْ فَوْقَ الْعَرْشِ إِلى مَا تَحْتَ الثَّرَىٰ فِي حِفْظِهِ وَفِي تَدْبِيرِهِ وَفِي الِاحْتِيَاجِ إِلَيْهِ. وَأَمَّا الِاسْتِدْلَالُ بِأَحْوَالِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ: فَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى.

---

(١) انظر : مفاتيح الغيب (١٧/ ١٩١-١٩٣) .

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ اشْتَمَلَ عَلَىٰ نَوْعَيْنِ مِنَ الدَّلَالَةِ:

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: قَوْلُهُ: وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَحَاصِلُهُ يَرْجِعُ إِلىٰ الِاسْتِدْلَالِ عَلَىٰ وُجُودِ الصَّانِعِ الْقَادِرِ الْقَاهِرِ بِحَرَكَاتِ هَذِهِ الْأَجْرَامِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَجْسَامَ مُتَمَاثِلَةٌ فَهَذِهِ الْأَجْرَامُ قَابِلَةٌ لِلْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ فَاخْتِصَاصُهَا بِالْحَرَكَةِ الدَّائِمَةِ دُونَ السُّكُونِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُخَصِّصٍ. وَأَيْضًا أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْ تِلْكَ الْحَرَكَاتِ مُخْتَصَّةٌ بِكَيْفِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنَ الْبُطْءِ وَالسُّرْعَةِ فَلَا بُدَّ أَيْضًا مِنْ مُخَصِّصٍ لَا سِيَّمَا عِنْدَ مَنْ يَقُولُ الْحَرَكَةُ الْبَطِيئَةُ مَعْنَاهَا حَرَكَاتٌ مَخْلُوطَةٌ بِسَكَنَاتٍ وَهَذَا يُوجِبُ الِاعْتِرَافَ بِأَنَّهَا تَتَحَرَّكُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَازِ وَتَسْكُنُ فِي الْبَعْضِ فَحُصُولُ الْحَرَكَةِ فِي ذَلِكَ الْحَيِّزِ الْمُعَيَّنِ وَالسُّكُونُ فِي الْحَيِّزِ الْآخَرِ لَا بُدَّ فِيهِ أَيْضًا مِنْ مُرَجِّحٍ.

الْوَجْهُ الثَّالِثُ: وَهُوَ أَنَّ تَقْدِيرَ تِلْكَ الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ بِمَقَادِيرَ مَخْصُوصَةٍ عَلَىٰ وَجْهٍ تَحْصُلُ عَوْدَاتُهَا وَأَدْوَارُهَا مُتَسَاوِيَةً بِحَسَبِ الْمُدَّةِ حَالَةٌ عَجِيبَةٌ فَلَا بُدَّ مِنْ مُقَدِّرٍ.

وَالْوَجْهُ الرَّابِعُ: أَنَّ بَعْضَ تِلْكَ الْحَرَكَاتِ مَشْرِقِيَّةٌ وَبَعْضَهَا مَغْرِبِيَّةٌ وَبَعْضَهَا مَائِلَةٌ إِلىٰ الشَّمَالِ وَبَعْضَهَا مَائِلَةٌ إِلىٰ الْجَنُوبِ وَهَذَا أَيْضًا لَا يَتِمُّ إِلَّا بِتَدْبِيرٍ كَامِلٍ وَحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ.

النَّوْعُ الثَّانِي: مِنَ الدَّلَائِلِ الْمَذْكُورَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ: كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّىٰ وَفِيهِ قَوْلَانِ: الْأَوَّلُ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِلشَّمْسِ مِائَةٌ وَثَمَانُونَ مَنْزِلًا كُلَّ يَوْمٍ لَهَا مَنْزِلٌ وَذَلِكَ يَتِمُّ فِي سِتَّةِ أَشْهُرٍ، ثُمَّ أَنَّهَا تَعُودُ مَرَّةً أُخْرَىٰ إِلىٰ وَاحِدٍ مِنْهَا فِي سِتَّةِ أَشْهُرٍ أُخْرَىٰ وَكَذَلِكَ الْقَمَرُ لَهُ ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ مَنْزِلًا، فَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّىٰ هَذَا. وَتَحْقِيقُهُ أَنَّه تَعَالَىٰ قَدَّرَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْكَوَاكِبِ سَيْرًا خَاصًّا إِلىٰ جِهَةٍ خَاصَّةٍ بِمِقْدَارٍ خَاصٍّ مِنَ السُّرْعَةِ وَالْبُطْءِ وَمَتَىٰ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ لَهَا بِحَسَبِ كُلِّ لَحْظَةٍ وَلَمْحَةٍ حَالَةٌ أُخْرَىٰ مَا كَانَتْ حَاصِلَةً قَبْلَ ذَلِكَ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ الْمُرَادَ كَوْنُهُمَا مُتَحَرِّكَيْنِ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَعِنْدَ مَجِيءِ ذَلِكَ الْيَوْمِ تَنْقَطِعُ هَذِهِ الْحَرَكَاتُ وَتَبْطُلُ تِلْكَ السَّيْرَاتُ كَمَا وَصَفَ اللهَّ تَعَالَىٰ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ * وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾ [التكوير: ١-٢] و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانْشِقَاق: ١] ، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانْفِطَارِ: ١] ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ [الْقِيَامَةِ: ٩] وَهُوَ كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الْأَنْعَام: ٢] ثُمَّ أَنَّه تَعَالَىٰ لَمَّا ذَكَرَ هَذِهِ الدَّلَائِلَ قَالَ: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ حَمَلَ هَذَا عَلَىٰ تَدْبِيرِ نَوْعٍ آخَرَ مِنْ أَحْوَالِ الْعَالَمِ وَالْأَوْلَىٰ حَمْلُهُ عَلَىٰ الْكُلِّ فَهُوَ يُدَبِّرُهُمْ بِالْإِيجَادِ وَالْإِعْدَامِ وَبِالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ وَالْإِغْنَاءِ وَالْإِفْقَارِ، وَيَدْخُلُ فِيهِ إِنْزَالُ الْوَحْيِ وَبَعْثَةُ الرُّسُلِ وَتَكْلِيفُ الْعِبَادِ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَجِيبٌ عَلَىٰ كَمَالِ الْقُدْرَةِ وَالرَّحْمَةِ وَذَلِكَ لِأَنَّ هَذَا الْعَالَمَ الْمَعْلُومَ مِنْ أَعْلَىٰ الْعَرْشِ إِلىٰ مَا تَحْتَ الثَّرَىٰ أَنْوَاعٌ وَأَجْنَاسٌ لَا يُحِيطُ بِهَا إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ، وَالدَّلِيلُ الْمَذْكُورُ دَلَّ عَلَىٰ أَنَّ اخْتِصَاص

كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِوَضْعِهِ وَمَوْضِعِهِ وَصِفَتِهِ وَطَبِيعَتِهِ وَحِلْيَتِهِ، لَيْسَ إِلَّا مِنَ اللهَّ تَعَالَىٰ وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ كُلَّ مَنِ اشْتَغَلَ بِتَدْبِيرِ شَيْءٍ فإنه لا يمكنه تدبير شَيْءٌ آخَرُ إِلَّا الْبَارِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فَإِنَّهُ لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ أَمَّا الْعَاقِلُ فَإِنَّهُ إِذَا تَأَمَّلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلِمَ أَنَّه تَعَالَىٰ يُدَبِّرُ عَالَمَ الْأَجْسَام وَعَالَمَ الْأَرْوَاحِ وَيُدَبِّرُ الْكَبِيرَ كَمَا يُدَبِّرُ الصَّغِيرَ فَلَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ وَلَا يَمْنَعُهُ تَدْبِيرٌ عَنْ تَدْبِيرٍ وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّه تَعَالَىٰ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ غَيْرُ مُشَابِهٍ لِلْمُحْدَثَاتِ وَالْمُمْكِنَاتِ " (١) .

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان:٥٩] : " وَفِي الْآيَةِ سُؤَالَاتٌ : ... السُّؤَالُ الثَّالِثُ : مَا مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ ؟ وَلَا يَجُوزُ حَمْلُهُ عَلَىٰ الِاسْتِيلَاءِ وَالْقُدْرَةِ، لِأَنَّ الِاسْتِيلَاءَ وَالْقُدْرَةَ فِي أَوْصَافِ اللهَّ لَمْ تَزَلْ وَلَا يَصِحُّ دُخُولُ (ثُمَّ) فِيهِ وَالْجَوَابُ: الِاسْتِقْرَارُ غَيْرُ جَائِزٍ، لأَنَّه يَقْتَضِي التَّغَيُّرَ الَّذِي هُوَ دَلِيلُ الْحُدُوثِ، وَيَقْتَضِي التَّرْكِيبَ وَالْبَعْضِيَّةَ وَكُلُّ ذَلِكَ عَلَىٰ اللهَّ مُحَالٌ بَلِ الْمُرَادُ ثمَّ خَلَقَ الْعَرْشَ وَرَفَعَهُ وَهُوَ مُسْتَوْلٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ﴾ [مُحَمَّدٍ: ٣١] فَإِنَّ الْمُرَادَ حَتَّىٰ يُجَاهِدَ الْمُجَاهِدُونَ وَنَحْنُ بِهِمْ عَالِمُونَ، فَإِنْ قِيلَ فَعَلَىٰ هَذَا التَّفْسِيرِ يَلْزَمُ أَنْ يكون خلق العرش بعد خلق السَّموات وَلَيْسَ كَذَلِكَ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [هُودٍ: ٧] قُلْنَا: كَلِمَةُ (ثُمَّ) مَا دَخَلَتْ عَلَىٰ خَلْقِ الْعَرْشِ، بَلْ عَلَىٰ رَفْعِهِ عَلَىٰ السَّموات " (٢) .

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [السجدة : ٤] : " ثمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ اعْلَمْ أَنَّ مَذْهَبَ الْعُلَمَاءِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا عَلَىٰ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا: تَرْكُ التَّعَرُّضِ إِلىٰ بَيَانِ الْمُرَادِ وَثَانِيهُمَا: التَّعَرُّضُ إِلَيْهِ وَالْأَوَّلُ أَسْلَمُ وَإِلَىٰ الْحِكْمَةِ أَقْرَبُ، أَمَّا أَنَّه أَسْلَمُ فَذَلِكَ لِأَنَّ مَنْ قَالَ أَنَا لَا أَتَعَرَّضُ إِلىٰ بَيَانِ هَذَا وَلَا أَعْرِفُ الْمُرَادَ مِنْ هَذَا، لَا يَكُونُ حَالُهُ إِلَّا حَالَ مَنْ يَتَكَلَّمُ عِنْدَ عَدَمِ وُجُوبِ الْكَلَامِ أَوْ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ أَنْ يَعْلَمَهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأُصُولَ ثَلَاثَةٌ التَّوحيد وَالْقَوْلُ بِالْحَشْرِ وَالِاعْتِرَافُ بِالرُّسُلِ لَكِنَّ الْحَشْرَ أَجْمَعْنَا وَاتَّفَقْنَا أَنَّ الْعِلْمَ بِهِ وَاجِبٌ وَالْعِلْمُ بِتَفْصِيلِهِ أَنَّه مَتَىٰ يَكُونُ غَيْرَ وَاجِبٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ فِي آخِرِ السُّورَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [لُقْمَانَ: ٣٤] فَكَذَلِكَ اللهَّ يَجِبُ مَعْرِفَةُ وُجُودِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَاتِّصَافِهِ بِصِفَاتِ الْجَلَالِ وَنُعُوتِ الْكَمَالِ عَلَىٰ سَبِيلِ الْإِجْمَالِ وَتَعَالِيهِ عَنْ وَصَمَاتِ الْإِمْكَانِ وَصِفَاتِ النُّقْصَانِ، وَلَا يَجِبُ أَنْ يَعْلَمَ جَمِيعَ صِفَاتِهِ كَمَا هِيَ، وَصِفَةُ الِاسْتِوَاءِ مِمَّا لَا يَجِبُ الْعِلْمُ بِهَا فَمَنْ تَرَكَ التَّعَرُّضَ إِلَيْهِ لَمْ يَتْرُكْ وَاجِبًا، وَأَمَّا مَنْ يَتَعَرَّضُ إِلَيْهِ فَقَدْ يُخْطِئُ فِيهِ فَيَعْتَقِدُ خِلَافَ مَا هُوَ عَلَيْهِ فَالْأَوَّلُ غَايَةُ مَا يَلْزَمُهُ أَنَّه

---

(١) انظر : تفسير الرازي (١٨/ ٥٢٦-٥٢٧) .

(٢) انظر : تفسير الرَّازي (٢٤/ ٤٧٨) .

لَا يَعْلَمُ، وَالثَّانِي يَكَادُ أَنْ يَقَعَ فِي أَنْ يَكُونَ جَاهِلًا مُرَكَّبًا وَعَدَمُ الْعِلْمِ الْجَهْلُ الْمُرَكَّبُ كَالسُّكُوتِ وَالْكَذِبِ وَلَا يَشُكُّ أَحَدٌ فِي أَنَّ السُّكُوتَ خَيْرٌ مِنَ الْكَذِبِ، وَأَمَّا أَنَّه أَقْرَبُ إِلىَ الْحِكْمَةِ فَذَلِكَ لِأَنَّ مَنْ يُطَالِعُ كِتَابًا صَنَّفَهُ إِنْسَانٌ وَكَتَبَ لَهُ شَرْحًا وَالشَّارِحُ دُونَ الْمُصَنِّفِ فَالظَّاهِرُ أَنَّه لَا يَأْتِي عَلَى جَمِيعِ مَا أَتَى عَلَيْهِ الْمُصَنِّفُ، وَلِهَذَا كَثِيرًا مَا نَرَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يُورِدُ الْإِشْكَالَاتِ عَلَى الْمُصَنِّفِ الْمُتَقَدِّمِ ثمَّ يَجِيءُ مَنْ يَنْصُرُ كَلَامَهُ وَيَقُولُ لَمْ يُرِدِ الْمُصَنِّفُ هَذَا وإِنَّما أَرَادَ كَذَا وَكَذَا وَإِذَا كَانَ حَالُ الْكُتُبِ الْحَادِثَةِ الَّتِي تُكْتَبُ عَنْ عِلْمٍ قَاصِرٍ كَذَلِكَ، فَمَا ظَنُّكَ بِالْكِتَابِ الْعَزِيزِ الَّذِي فِيهِ كُلُّ حِكْمَةٍ يَجُوزُ أَنْ يَدَّعِيَ جَاهِلٌ أَنِّي عَلِمْتُ كُلَّ سِرٍّ فِي هَذَا الْكِتَابِ، وَكَيْفَ وَلَوِ ادَّعَى عَالِمٌ أَنِّي عَلِمْتُ كُلَّ سِرٍّ وَكُلَّ فَائِدَةٍ يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ الْفُلَانِيُّ يُسْتَقْبَحُ مِنْهُ ذَلِكَ، فَكَيْفَ مَنْ يَدَّعِي أَنَّه عَلِمَ كُلَّ مَا فِي كِتَابِ اللهَّ؟ ثمَّ لَيْسَ لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ بِأَنَّ اللهَّ تَعَالَى بَيَّنَ كُلَّ مَا أَنْزَلَهُ لِأَنَّ تَأْخِيرَ الْبَيَانِ إِلىَ وَقْتِ الْحَاجَةِ جَائِزٌ وَلَعَلَّ فِي الْقُرْآنِ مَا لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَحَدٌ غَيْرُ نَبِيِّهِ فَبَيَّنَ لَهُ لَا لِغَيْرِهِ، إِذَا ثَبَتَ هَذَا عُلِمَ أَنَّ فِي الْقُرْآنِ مَا لَا يُعْلَمُ، وَهَذَا أَقْرَبُ إِلىَ ذَلِكَ الَّذِي لَا يُعْلَمُ، لِلتَّشَابُهِ الْبَالِغِ الَّذِي فِيهِ، لَكِنَّ هَذَا الْمَذْهَبَ لَهُ شَرْطٌ وَهُوَ أَنْ يَنْفِيَ بَعْضَ مَا يَعْلَمُهُ قَطْعًا أَنَّه لَيْسَ بِمُرَادٍ، وَهَذَا لِأَنَّ قَائِلًا إِذَا قَالَ إِنَّ هَذِهِ الْأَيَّامَ أَيَّامُ قُرْءِ فُلَانَةَ يُعْلَمُ أَنَّه لَا يُرِيدُ أَنَّ هَذِهِ الْأَيَّامَ أَيَّامُ مَوْتِ فُلَانَةَ وَلَا يُرِيدُ أَنَّ هَذِهِ الْأَيَّامَ أَيَّامُ سَفَرِ فُلَانَةَ، وإِنَّما الْمُرَادُ مُنْحَصِرٌ في الطهر أو الحيض فكذلك هاهنا يُعْلَمُ أَنَّ الْمُرَادَ لَيْسَ مَا يُوجِبُ نَقْصًا فِي ذَاتِهِ لِاسْتِحَالَةِ ذَلِكَ، وَالْجُلُوسُ وَالِاسْتِقْرَارُ الْمَكَانِيُّ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ فَيَجِبُ الْقَطْعُ بِنَفْيِ ذَلِكَ وَالتَّوَقُّفُ فِيمَا يَجُوزُ بَعْدَهُ.

وَالْمَذْهَبُ الثَّانِي: خَطَرٌ وَمَنْ يَذْهَبُ إِلَيْهِ فَرِيقَانِ أَحَدُهُمَا: مَنْ يَقُولُ الْمُرَادُ ظَاهِرُهُ وَهُوَ الْقِيَامُ وَالِانْتِصَابُ أَوِ الِاسْتِقْرَارُ الْمَكَانِيُّ وَثَانِيهِما: مَنْ يَقُولُ الْمُرَادُ الِاسْتِيلَاءُ وَالْأَوَّلُ جَهْلٌ مَحْضٌ وَالثَّانِي يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ جَهْلًا وَالْأَوَّلُ مَعَ كَوْنِهِ جَهْلًا هُوَ بِدْعَةٌ وَكَادَ يَكُونُ كُفْرًا، وَالثَّانِي وَإِنْ كَانَ جَهْلًا فَلَيْسَ بِجَهْلٍ يُورِثُ بِدْعَةً، وَهَذَا كَما أَنَّ وَاحِدًا إِذَا اعْتَقَدَ أَنَّ اللهَّ يَرْحَمُ الْكُفَّارَ وَلَا يُعَاقِبُ أَحَدًا مِنْهُمْ يَكُونُ جَهْلًا وَبِدْعَةً وَكُفْرًا، وَإِذَا اعْتَقَدَ أَنَّه يَرْحَمُ زَيْدًا الَّذِي هُوَ مَسْتُورُ الْحَالِ لَا يَكُونُ بِدْعَةً، غَايَةُ مَا يَكُونُ أَنَّه اعْتِقَادٌ غَيْرُ مُطَابِقٍ، وَمِمَّا قِيلَ فِيهِ: إِنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ اسْتَوَى عَلَى مُلْكِهِ، وَالْعَرْشُ يُعَبَّرُ بِهِ عَنِ الْمُلْكِ، يُقَالُ الْمَلِكُ قَعَدَ عَلَى سَرِيرِ الْمَمْلَكَةِ بِالْبَلْدَةِ الْفُلَانِيَّةِ وَإِنْ لَمْ يَدْخُلْهَا وَهَذَا مِثْلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المَائِدَة: ٦٤] إِشَارَةٌ إِلىَ الْبُخْلِ، مَعَ أَنَّهم لَمْ يَقُولُوا بِأَنَّ عَلَى يَدِ اللهَّ غُلًّا عَلَى طَرِيقِ الْحَقِيقَةِ، وَلَوْ كَانَ مُرَادُ اللهَّ ذَلِكَ لَكَانَ كَذِبًا جَلَّ كَلَامُ اللهَّ عَنْهُ، ثمَّ لِهَذَا فَضْلُ تَقْرِيرٍ وَهُوَ أَنَّ الْمُلُوكَ عَلَى دَرَجَاتٍ، فَمَنْ يَمْلِكُ مَدِينَةً صَغِيرَةً أَوْ بِلَادًا يَسِيرَةً مَا جَرَتِ الْعَادَةُ بِأَنْ يَجْلِسَ أَوَّلَ مَا يَجْلِسُ عَلَى سَرِيرٍ، وَمَنْ يَكُونُ سُلْطَانًا يَمْلِكُ الْبِلَادَ الشَّاسِعَةَ وَالدِّيَارَ الْوَاسِعَةَ وَتَكُونُ الْمُلُوكُ فِي خِدْمَتِهِ يَكُونُ لَهُ سَرِيرٌ يَجْلِسُ عَلَيْهِ، وَقُدَّامَهُ كُرْسِيٌّ يَجْلِسُ عَلَيْهِ وَزِيرُهُ، فَالْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ فِي الْعَادَةِ لَا

يَكُونُ إِلَّا عِنْدَ عظمة المملكة، فلما كان ملك السَّموات وَالْأَرْضِ فِي غَايَةِ الْعَظَمَةِ، عَبَّرَ بِمَا يُنْبِئُ فِي الْعُرْفِ عَنِ الْعَظَمَةِ، وَمِمَّا يُنَبِّهُكَ لِهَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ﴾ [الْإِنْسَانِ: ٢] ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ﴾ [الصَّافَّاتِ: ٦] ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ ﴾ [ق: ١٦] ﴿ نَحْنُ نَزَّلْنَا ﴾ [الْحِجْرِ: ٩] أَيَظُنُّ أَوْ يَشُكُّ مُسْلِمٌ فِي أَنَّ الْمُرَادَ ظَاهِرُهُ مِنَ الشَّرِيكِ وَهَلْ يَجِدُ لَهُ مَحْمَلًا، غَيْرَ أَنَّ الْعَظِيمَ فِي الْعُرْفِ لَا يَكُونُ وَاحِدًا وإِنَّما يَكُونُ مَعَهُ غَيْرُهُ، فَكَذَلِكَ الْمَلِكُ الْعَظِيمُ فِي الْعُرْفِ لَا يَكُونُ إِلَّا ذَا سَرِيرٍ يَسْتَوِي عَلَيْهِ فَاسْتَعْمَلَ ذَلِكَ مُرِيدًا لِلْعَظَمَةِ، وَمِمَّا يُؤَيِّدُ هَذَا أَنَّ الْمَقْهُورَ الْمَغْلُوبَ الْمَهْزُومَ يُقَالُ لَهُ ضَاقَتْ بِهِ الْأَرْضُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُ مَكَانٌ، أَيَظُنُّ أَنَّهم يُرِيدُونَ بِهِ أَنَّه صَارَ لَا مَكَانَ لَهُ وَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ الْجِسْمُ بِلَا مَكَانٍ، وَلَا سِيَّمَا مَنْ يَقُولُ بِأَنَّ إِلَهَهُ فِي مَكَانٍ كَيْفَ يَخْرُجُ الْإِنْسَانُ عَنِ الْمَكَانِ؟ فَكَمَا يُقَالُ لِلْمَقْهُورِ الْهَارِبِ لَمْ يَبْقَ لَهُ مَكَانٌ مَعَ أَنَّ الْمَكَانَ وَاجِبٌ لَهُ، يُقَالُ لِلْقَادِرِ الْقَاهِرِ هُوَ مُتَمَكِّنٌ وَلَهُ عَرْشٌ، وَإِنْ كَانَ التَّنَزُّهُ عَنِ الْمَكَانِ وَاجِبًا لَهُ، وَعَلَى هَذَا كَلِمَةُ ثُمَّ مَعْنَاهَا خَلَقَ السَّموات وَالْأَرْضَ، ثمَّ الْقِصَّةُ أَنَّه اسْتَوَى عَلَى الْمُلْكِ، وَهَذَا كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ: فُلَانٌ أَكْرَمَنِي وَأَنْعَمَ عَلَيَّ مِرَارًا، وَيَحْكِي عَنْهُ أَشْيَاءَ، ثمَّ يَقُولُ أَنَّه مَا كَانَ يَعْرِفُنِي وَلَا كُنْتُ فَعَلْتُ مَعَهُ مَا يُجَازِينِي بِهَذَا، فَنَقُولُ ثمَّ لِلْحِكَايَةِ لَا لِلْمَحْكِيِّ الْوَجْهُ الْآخَرُ: قِيلَ اسْتَوَى جَاءَ بِمَعْنَى اسْتَوْلَى عَلَى الْعَرْشِ، وَاسْتَوَى جَاءَ بِمَعْنَى اسْتَوْلَى نَقْلًا وَاسْتِعْمالًا. أَمَّا النَّقْلُ فَكَثِيرٌ مَذْكُورٌ في «كتاب اللُّغَةِ» مِنْهَا دِيوَانُ الْأَدَبِ وَغَيْرُهُ مِمَّا يُعْتَبَرُ النَّقْلُ عَنْهُ.

وَأَمَّا الِاسْتِعْمَالُ فَقَوْلُ الْقَائِلِ:

قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاقِ   مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقِ

وَعَلَى هَذَا فَكَلِمَةُ ثُمَّ، مَعْنَاهَا ما ذكرنا كأنه قال خلق السَّموات والأرض، ثمَّ هاهنا مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، فإنه أعظم من الكرسي والكرسي وسع السَّموات وَالْأَرْضَ وَالْوَجْهُ الثَّالِثُ: قِيلَ إِنَّ الْمُرَادَ الِاسْتِقْرَارُ وَهَذَا الْقَوْلُ ظَاهِرٌ وَلَا يُفِيدُ أَنَّه فِي مَكَانٍ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَقُولُ اسْتَقَرَّ رَأْيُ فُلَانٍ عَلَى الْخُرُوجِ وَلَا يَشُكُّ أَحَدٌ أَنَّه لَا يُرِيدُ أَنَّ الرَّأْيَ فِي مَكَانٍ وَهُوَ الْخُرُوجُ، لِمَا أَنَّ الرَّأْيَ لَا يَجُوزُ فِيهِ أَنْ يُقَالَ أَنَّه مُتَمَكِّنٌ أَوْ هُوَ مِمَّا يَدْخُلُ فِي مَكَانٍ إِذَا عُلِمَ هَذَا فَنَقُولُ فَهْمُ التَّمَكُّنِ عِنْدَ اسْتِعْمَالِ كَلِمَةِ الِاسْتِقْرَارِ مَشْرُوطٌ بِجَوَازِ التَّمَكُّنِ، حَتَّى إِذَا قَالَ قَائِلٌ اسْتَقَرَّ زَيْدٌ عَلَى الْفُلْكِ أَوْ عَلَى التَّخْتِ يُفْهَمُ مِنْهُ التَّمَكُّنُ وَكَوْنُهُ فِي مَكَانٍ، وَإِذَا قَالَ قَائِلٌ اسْتَقَرَّ الْمُلْكُ عَلَى فُلَانٍ لَا يُفْهَمُ أَنَّ الْمُلْكَ فِي فُلَانٍ، فَقَوْلُ الْقَائِلِ اللهُ اسْتَقَرَّ عَلَى الْعَرْشِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ كَوْنُهُ فِي مَكَانٍ مَا لَمْ يُعْلَمْ أَنَّه مِمَّا يَجُوزُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ فِي مَكَانٍ أَوْ لَا يَجُوزُ، فَإِذَنْ فَهْمُ كَوْنِهِ فِي مَكَانٍ مِنْ هَذِهِ اللَّفْظَةِ مَشْرُوطٌ بِجَوَازِ أَنْ يَكُونَ فِي مَكَانٍ، فَجَوَازُ كَوْنِهِ فِي مَكَانٍ إِنِ اسْتُفِيدَ مِنْ هَذِهِ اللَّفْظَةِ يَلْزَمُ تَقَدُّمُ الشَّيْءِ عَلَى نَفْسِهِ وَهُوَ مُحَالٌ، ثمَّ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّه لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْعَرْشِ بِمَعْنَى كَوْنِ الْعَرْشِ مَكَانًا

لَهُ وُجُوهٌ مِنَ الْقُرْآنِ أَحَدُهَا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحَجّ: ٦٤] وَهَذَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ غَنِيًّا عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ، وَكُلُّ مَا هُوَ فِي مَكَانٍ فَهُوَ فِي بَقَائِهِ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ مَكَانٍ، لِأَنَّ بَدِيهَةَ الْعَقْلِ حَاكِمَةٌ بِأَنَّ الْحَيِّزَ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَا يَكُونُ الْمُتَحَيِّزُ بَاقِيًا، فَالْمُتَحَيِّزُ يَنْتَفِي عِنْدَ انْتِفَاءِ الْحَيِّزِ، وَكُلُّ مَا يَنْتَفِي عِنْدَ انْتِفَاءِ غَيْرِهِ فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ فِي اسْتِمْرَارِهِ، فَالْقَوْلُ بِاسْتِقْرَارِهِ يُوجِبُ احْتِيَاجَهُ فِي اسْتِمْرَارِهِ وَهُوَ غَنِيٌّ بِالنَّصِّ الثَّانِي: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [الْقَصَصِ: ٨٨] فَالْعَرْشُ يَهْلِكُ وَكَذَلِكَ كُلُّ مَكَانٍ فَلَا يَبْقَىٰ وَهُوَ يَبْقَىٰ، فَإِذَنْ لَا يَكُونُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فِي مَكَانٍ، فَجَازَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَكُونَ فِي مَكَانٍ، وَمَا جَازَ لَهُ مِنَ الصِّفَاتِ وَجَبَ لَهُ فَيَجِبُ أَنْ لَا يَكُونَ فِي مَكَانٍ الثَّالِثُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحَدِيدِ: ٤] وَوَجْهُ التَّمَسُّكِ بِهِ هُوَ أَنَّ عَلَىٰ إِذَا اسْتُعْمِلَ فِي الْمَكَانِ يُفْهَمُ كَوْنُهُ عَلَيْهِ بِالذَّاتِ كَقَوْلِنَا فُلَانٌ عَلَىٰ السَّطْحِ وَكَلِمَةُ مَعَ إِذَا اسْتُعْمِلَتْ فِي مُتَمَكِّنَيْنِ يُفْهَمُ مِنْهَا اقْتِرَانُهُمَا بِالذَّاتِ كَقَوْلِنَا زَيْدٌ مَعَ عَمْرٍو إِذَا اسْتُعْمِلَ هَذَا فَإِنْ كَانَ اللَّهُ فِي مَكَانٍ وَنَحْنُ مُتَمَكِّنُونَ، فَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التَّوْبَةِ: ٤٠] وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد:٤] كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لِلاقْتِرَانِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ، فَإِنْ قِيلَ كَلِمَةُ مَعَ تُسْتَعْمَلُ لِكَوْنِ مَيْلِهِ إِلَيْهِ وَعِلْمِهِ مَعَهُ أَوْ نُصْرَتِهِ يُقَالُ الْمَلِكُ الْفُلَانِيُّ مَعَ الْمَلِكِ الْفُلَانِيِّ، أَيْ بِالْإِعَانَةِ وَالنَّصْرِ، فَنَقُولُ كَلِمَةُ عَلَىٰ تُسْتَعْمَلُ لِكَوْنِ حُكْمِهِ عَلَىٰ الْغَيْرِ، يَقُولُ الْقَائِلُ لَوْلَا فُلَانٌ عَلَىٰ فُلَانٍ لَأَشْرَفَ فِي الْهَلَاكِ وَلَأَشْرَفَ عَلَىٰ الْهَلَاكِ، وَكَذَلِكَ يُقَالُ لَوْلَا فُلَانٌ عَلَىٰ أَمْلَاكِ فُلَانٍ أَوْ عَلَىٰ أَرْضِهِ لَمَا حَصَلَ لَهُ شَيْءٌ مِنْهَا وَلَا أَكَلَ حَاصِلَهَا بِمَعْنَىٰ الْإِشْرَافِ وَالنَّظَرِ، فَكَيْفَ لَا نَقُولُ فِي ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أَنَّه اسْتَوَىٰ عَلَيْهِ بِحُكْمِهِ كَمَا نَقُولُ هُوَ مَعْنَاهُ بِعِلْمِهِ الرَّابِعُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الْأَنْعَامِ: ١٠٣] وَلَوْ كَانَ فِي مَكَانٍ لَأَحَاطَ بِهِ الْمَكَانُ وَحِينَئِذٍ فَإِمَّا أَنْ يُرَىٰ وَإِمَّا أَنْ لَا يُرَىٰ، لَا سَبِيلَ إِلَىٰ الثَّانِي بِالِاتِّفَاقِ لِأَنَّ الْقَوْلَ بِأَنَّهُ فِي مَكَانٍ وَلَا يُرَىٰ بَاطِلٌ بِالْإِجْمَاعِ، وَإِنْ كَانَ يُرَىٰ فَيُرَىٰ فِي مَكَانٍ أَحَاطَ بِهِ فَتُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ. وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي مَكَانٍ فَسَوَاءٌ يُرَىٰ أَوْ لَا يُرَىٰ لَا يَلْزَمُ أَنْ تُدْرِكَهُ الْأَبْصَارُ. أَمَّا إِذَا لَمْ يُرَ فَظَاهِرٌ. وَأَمَّا إذا رؤي فَلِأَنَّ الْبَصَرَ لَا يُحِيطُ بِهِ فَلَا يُدْرِكُهُ. وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ الْبَصَرَ لَا يُحِيطُ بِهِ لِأَنَّ كُلَّ مَا أَحَاطَ بِهِ الْبَصَرُ فَلَهُ مَكَانٌ يَكُونُ فِيهِ وَقَدْ فَرَضْنَا عَدَمَ الْمَكَانِ، وَلَوْ تَدَبَّرَ الْإِنْسَانُ الْقُرْآنَ لَوَجَدَهُ مَمْلُوءًا مِنْ عَدَمِ جَوَازِ كَوْنِهِ فِي مَكَانٍ، كَيْفَ وَهَذَا الَّذِي يَتَمَسَّكُ بِهِ هَذَا الْقَائِلُ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّه لَيْسَ عَلَىٰ الْعَرْشِ بِمَعْنَىٰ كَوْنِهِ فِي الْمَكَانِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ كَلِمَةَ ثُمَّ لِلتَّرَاخِي فَلَوْ كَانَ عَلَيْهِ بِمَعْنَىٰ الْمَكَانِ لَكَانَ قَدْ حَصَلَ عليه بعد ما لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ فَقَبْلَهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي مَكَانٍ أَوْ لَا يَكُونَ، فَإِنْ كَانَ يَلْزَمُ مُحَالَانِ أَحَدُهُمَا: كَوْنُ الْمَكَانِ أَزَلِيًّا، ثمَّ إِنَّ هَذَا الْقَائِلَ يَدَّعِي مُضَادَّةَ الْفَلْسَفِيِّ فَيَصِيرُ فَلْسَفِيًّا يَقُولُ بِقِدَمِ سَمَاءٍ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالثَّانِي: جَوَازُ الْحَرَكَةِ وَالِانْتِقَالِ عَلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَهُوَ يُفْضِي إِلَىٰ حُدُوثِ الْبَارِي أَوْ يُبْطِلُ دَلَائِلَ حُدُوثِ الْأَجْسَامِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَكَانٌ وَمَا حَصَلَ فِي مَكَانٍ يُحِيلُ الْعَقْلُ وُجُودَهُ بِلَا

مَكَانٍ، وَلَوْ جَازَ لَمَا أَمْكَنَ أَنْ يُقَالَ بِأَنَّ الْجِسْمَ لَوْ كَانَ أَزَلِيًّا، فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي الْأَزَلِ سَاكِنًا أَوْ مُتَحَرِّكًا لِأَنَّهُمَا فَرْعَا الْحُصُولَ فِي مَكَانٍ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَيَلْزَمُهُ الْقَوْلُ بِحُدُوثِ اللهَّ أَوْ عَدَمُ الْقَوْلِ بِحُدُوثِ الْعَالِمِ، لأَنَّه إِنْ سَلَّمَ أَنَّه قَبْلَ الْمَكَانِ لَا يَكُونُ فَهُوَ الْقَوْلُ بِحُدُوثِ اللهَّ تَعَالَىٰ وَإِنْ لَمْ يُسَلِّمْ فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْجِسْمُ فِي الْأَزَلِ لَمْ يَكُنْ فِي مَكَانٍ ثمَّ حَصَلَ فِي مَكَانٍ فَلَا يَتِمُّ دَلِيلُهُ فِي حُدُوثِ الْعَالَمِ، فَيَلْزَمُهُ أَنْ لَا يَقُولَ بِحُدُوثِهِ، ثمَّ إِنَّ هَذَا الْقَائِلَ يَقُولُ إِنَّكَ تُشَبِّهُ اللهَّ بِالْمَعْدُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي مَكَانٍ وَلَا يَعْلَمُ أَنَّه جَعَلَهُ مَعْدُومًا حَيْثُ أَحْوَجَهُ إِلىٰ مَكَانٍ، وَكُلُّ مُحْتَاجٍ نَظَرًا إِلىٰ عَدَمِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مَعْدُومٌ وَلَوْ كَتَبْنَا مَا فِيهَا لَطَالَ الْكَلَامُ " (١) .

وقال الإمام الآمدي (٦٣١هـ) : " ... وَفِي الاسْتوَاء قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾ [الأعراف: ٥٤] ، وَإِلَىٰ غير ذَلِك من الْآيَات . وَاعْلَم أَنَّ هَذِه الظَّوَاهِر ، وَإِن وَقع الاغترار بهَا بِحَيْثُ يُقَال بمدلولاتها ظَاهر من جِهَة الْوَضع اللغوي وَالْعرْف الاصطلاحي ، فَذَلِك لَا محَالة انخراط فِي سلك نظام التَّجسيم ، وَدخُول فِي طرف دَائِرَة التَّشْبِيه ، وسنبين مَا فِي ذَلِك من الضَّلال وَفِي طيِّه من الْمحَال إِن شَاءَ الله ، بل الْوَاجِب أَن يُقَال : ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] .

فَإِن قيل بِأَن مَا دلّت عَلَيْهِ هَذِه الظَّوَاهِر من المدلولات وَأَثْبَتْنَاهُ بهَا من الصِّفَات لَيست علىٰ نَحْو صفاتنا وَلَا علىٰ مَا نتخيَّل من أحوال ذواتنا ، بل مُخَالفَة لصفاتنا ، كَمَا أن ذَاته مُخَالفَة لذواتنا ، وَهَذَا مِمَّا لَا يَقُود إِلىٰ التَّشْبِيه وَلَا يَسُوق إِلىٰ التَّجسيم .

فَهَذَا وَإِن كَانَ فِي نَفسه جَائِزاً ، لَكِن القَوْل باثباته من جملَة الصِّفَات يستدعي دَلِيلاً قَطْعِيّاً ، وَهَذِه الظَّوَاهِر وَإِن أمكن حملهَا علىٰ مثل هَذِه المدلولات ، فقد أمكن حملهَا علىٰ غَيرهَا أَيْضاً ، وَمَعَ تعَارض الِاحْتِمَالَات وتعدُّد المدلولات ، فَلَا قطع ، وَمَا لَا قطع عَلَيْهِ من الصِّفَات لَا يَصح إِثْبَاته للذات ... وَأما آيَة الاسْتوَاء ، فَإِنَّهُ يحْتَمل أَن يكون الْمُرَاد التَّسخير والوقوع فِي قَبْضَة الْقُدْرَة ، وَلِهَذَا تَقول الْعَرَب : اسْتَوَىٰ الْأَمِير علىٰ مَمْلَكَته عِنْد دُخُول الْعباد تَحت طوعه فِي مراداته وتسخيرهم فِي مأموراته ومنهياته ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَة بقول الشَّاعِر :

قد اسْتَوَىٰ بِشْرٌ علىٰ العِرَاقِ   مِن غَيْرِ سَيْفٍ ودم مُهْرَاقِ

وَتكون فَـــــائِدَة التَّخْصِيص بِذكر الْعَرْش : التَّنْبِيه بالأعلىٰ علىٰ الْأَدْنَىٰ فِيمَا يرجع إِلىٰ الِاسْتِيلَاء والاستعلاء " (٢) .

---

(١) انظر : تفسير الرَّازي (٢٥/ ١٣٦-١٣٩) .

(٢) انظر : غاية المرام في علم الكلام (ص١٣٧-١٤٢ باختصار) .

وقال الإمام أبو محمَّد العز بن عبد العزيز بن عبد السَّلام الملقَّب بسلطان العلماء (٦٦٠هـ) : " ﴿ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ أمره على العرش قاله الحسن، أو استولى . ﴿ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ عبَّر به عن الملك لعادة الملـــــوك الجلوس على الأَسرَّة " (١) .

وقال أيضاً : " اسْتَوَىٰ علىٰ الْعَرْش الْمَجِيد علىٰ الْوَجْه الَّذِي قَالَه وبالمعنىٰ الَّذِي أَرَادَهُ ، اسْتِوَاء منزَّهاً عَن المماسَّة والاستقرار ، والتَّمكُّن والحلول والانتقال ، فتعالىٰ الله الْكَبِير المتعال عَمَّا يَقُوله أهل الغيِّ والضَّلال ، بل لَا يحملهُ الْعَرْش ، بل الْعَرْش وَحَمَلته محمولون بلطف قدرته ، مقهورون فِي قَبضته " (٢) .

وقال الإمام أبو عبد الله القرطبي (٦٧١هـ) : " قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ هَذِهِ مَسْأَلَةُ الِاسْتِوَاءِ، وَلِلْعُلَمَاءِ فِيهَا كَلَامٌ وَإِجْرَاءٌ. وَقَدْ بَيَّنَّا أَقْوَالَ الْعُلَمَاءِ فِيهَا فِي الْكِتَابِ (الْأَسْنَىٰ فِي شَرْحِ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَىٰ وَصِفَاتِهِ الْعُلَىٰ) وَذَكَرْنَا فِيهَا هُنَاكَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَوْلًا. وَالْأَكْثَرُ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ أَنَّه إِذَا وَجَبَ تَنْزِيهُ الْبَارِي سُبْحَانَهُ عَنِ الْجِهَةِ وَالتَّحَيُّزِ فَمِنْ ضَرُورَةِ ذَلِكَ وَلَوَاحِقِهِ اللَّازِمَةِ عَلَيْهِ عِنْدَ عَامَّةِ الْعُلَمَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَقَادَتِهِمْ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ تَنْزِيهُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَنِ الْجِهَةِ، فَلَيْسَ بِجِهَةِ فَوْقٍ عِنْدَهُمْ، لأَنَّه يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ مَتَىٰ اخْتَصَّ بِجِهَةٍ أَنْ يَكُونَ فِي مَكَانٍ أَوْ حَيِّزٍ، وَيَلْزَمُ عَلَىٰ الْمَكَانِ وَالْحَيِّزِ الْحَرَكَةُ وَالسُّكُونُ لِلْمُتَحَيِّزِ، وَالتَّغَيُّرُ وَالْحُدُوثُ. هَذَا قَوْلُ الْمُتَكَلِّمِينَ. وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ الْأَوَّلُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لَا يَقُولُونَ بِنَفْيِ الْجِهَةِ وَلَا يَنْطِقُونَ بِذَلِكَ، بَلْ نَطَقُوا هُمْ وَالْكَافَّةُ بِإِثْبَاتِهَا للهِ تَعَالَىٰ كَمَا نَطَقَ كِتَابُهُ وَأَخْبَرَتْ رُسُلُهُ (٣) . وَلَمْ يُنْكِرْ أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ الصَّالح أَنَّه اسْتَوَىٰ عَلَىٰ عَرْشِهِ حَقِيقَةً. وَخُصَّ الْعَرْشُ بِذَلِكَ لأَنَّه أَعْظَمُ مَخْلُوقَاتِهِ، وَإِنَّمَا جَهِلُوا كَيْفِيَّةَ الِاسْتِوَاءِ فَإِنَّهُ لَا تُعْلَمُ حَقِيقَتُهُ. قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللهُ: الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ- يَعْنِي فِي اللغة- والكيف مَجْهُولٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْ هَذَا بِدْعَةٌ. وَكَذَا قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا. وَهَذَا الْقَدْرُ كَافٍ، وَمَنْ أَرَادَ زِيَادَةً عَلَيْهِ فَلْيَقِفْ عَلَيْهِ فِي مَوْضِعِهِ مِنْ كُتُبِ الْعُلَمَاءِ. وَالِاسْتِوَاءُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ هُوَ الْعُلُوُّ وَالِاسْتِقْرَارُ. قَالَ

---

(١) انظر : تفسير القرآن ، سلطان العلماء (١/ ٤٨٥-٤٨٦) .

(٢) انظر : طبقات الشافعية الكبرىٰ (٨/ ٢١٩) .

(٣) هذه الفقرة مدسوسة علىٰ الإمام القرطبي ، بدليل أنَّ ما قبلها وما بعدها ينقضها ... وممَّا يؤكِّد أنَّ الفقرة المُشار إليها مدسوسة علىٰ الإمام القرطبي : أنَّ القرطبي لم يذكرها البتَّة في كلامه علىٰ الاستواء في كتابه : " الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ " بل ناقش من يقول بها ودافع عمَّا يقوله الأشاعرة بل جمهور الأمَّة في مسألة الاستواء ...

وفي رسالتي للدُّكتوراه : " الإمام القرطبي وجهوده في توضيح العقيدة " توسَّعت في توضيح هذه المسألة ...وبها يشفي الغليل ، والحمد لله الذي بحمده تتمُّ الصَّالحات ...

الْجَوْهَرِيُّ: وَاسْتَوَىٰ مِنَ اعْوِجَاجٍ، وَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ ظَهْرِ دَابَّتِهِ، أَيِ اسْتَقَرَّ. وَاسْتَوَىٰ إِلَىٰ السَّماء أَيْ قَصَدَ. وَاسْتَوَىٰ أَيِ اسْتَوْلَىٰ وَظَهَرَ. قَالَ:

قَدِ اسْتَوَىٰ بِشْرٌ عَلَىٰ الْعِرَاقِ   مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مِهْرَاقِ

وَاسْتَوَىٰ الرَّجُلُ أَيِ انْتَهَىٰ شَبَابُهُ. وَاسْتَوَىٰ الشَّيء إِذَا اعْتَدَلَ. وَحَكَىٰ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه:٥] قَالَ: عَلَا. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

فَأَوْرَدْتُهُمْ مَاءً بِفَيْفَاءَ قَفْرَةٍ   وَقَدْ حَلَّقَ النَّجْمُ الْيَمَانِيُّ فَاسْتَوَىٰ

أَيْ عَلَا وَارْتَفَعَ. قلت: فعلوا اللهَّ تَعَالَىٰ وَارْتِفَاعُهُ عِبَارَةٌ عَنْ عُلُوِّ مَجْدِهِ وَصِفَاتِهِ وَمَلَكُوتِهِ. أَيْ لَيْسَ فَوْقَهُ فِيمَا يَجِبُ لَهُ مِنْ مَعَانِي الْجَلَالِ أَحَدٌ، وَلَا مَعَهُ مَنْ يَكُونُ الْعُلُوُّ مُشْتَرَكًا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، لَكِنَّهُ العلي بالإطلاق سبحانه. قوله تعالى: ﴿ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾ لَفْظٌ مُشْتَرَكٌ يُطْلَقُ عَلَىٰ أَكْثَرَ مِنْ وَاحِدٍ. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ وَغَيْرُهُ: الْعَرْشُ سَرِيرُ الْمَلِكِ. وَفِي التَّنْزِيلِ ﴿ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا﴾ [النمل:٤١] ، ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [يوسف:١٠٠] ، وَالْعَرْشُ: سَقْفُ الْبَيْتِ. وَعَرْشُ الْقَدَمِ: مَا نَتَأَ فِي ظَهْرِهَا وَفِيهِ الْأَصَابِعُ. وَعَرْشُ السِّمَاكِ: أَرْبَعَةُ كَوَاكِبَ صِغَارٍ أَسْفَلَ مِنَ الْعُوَاءِ ، يُقَالُ: أَنَّهَا عَجُزُ الْأَسَدِ. وَعَرْشُ الْبِئْرِ: طَيُّهَا بِالْخَشَبِ، بَعْدَ أَنْ يُطْوَىٰ أَسْفَلُهَا بِالْحِجَارَةِ قَدْرَ قَامَةٍ، فَذَلِكَ الْخَشَبُ هُوَ الْعَرْشُ، وَالْجَمْعُ عُرُوشٌ. وَالْعَرْشُ اسْمٌ لِمَكَّةَ. وَالْعَرْشُ الْمُلْكُ وَالسُّلْطَانُ. يُقَالُ: ثُلَّ عَرْشُ فُلَانٍ إِذَا ذَهَبَ مُلْكُهُ وَسُلْطَانُهُ وَعِزُّهُ. قَالَ زُهَيْرٌ:

تَدَارَكْتُمَا عَبْسًا وَقَدْ ثُلَّ عَرْشُهَا   وَذُبْيَانُ إِذْ ذَلَّتْ بِأَقْدَامِهَا النَّعْلُ

وقد يئول الْعَرْشُ فِي الْآيَةِ بِمَعْنَىٰ الْمُلْكِ، أَيْ مَا اسْتَوَىٰ الْمُلْكُ إِلَّا لَهُ جَلَّ وَعَزَّ. وَهُوَ قَوْلٌ حَسَنٌ وَفِيهِ نَظَرٌ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي جُمْلَةِ الْأَقْوَالِ فِي كِتَابِنَا. وَالْحَمْدُ للهَّ" (١) .

وقال الإمام أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرْح الأنصاري الخزرجي شمس الدِّين القرطبي (٦٧١هـ) أيضاً : " فَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ للهَّ تَعَالَىٰ نُورٌ مِنْ جِهَةِ الْمَدْحِ ، لأَنَّه أَوْجَدَ الْأَشْيَاءَ ، وَنُورُ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ مِنْهُ ابْتِدَاؤُهَا ، وَعَنْهُ صُدُورُهَا ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَيْسَ مِنَ الْأَضْوَاءِ الْمُدْرَكَةِ ، جَلَّ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوّاً كَبِيراً . وَقَدْ قَالَ هِشَامٌ الْجُوَالِقِيُّ وَطَائِفَةٌ مِنَ الْمُجَسِّمَةِ : هُوَ نُورٌ لَا كَالْأَنْوَارِ ، وَجِسْمٌ لَا كَالْأَجْسَامِ . وَهَذَا كُلُّهُ مُحَالٌ عَلَىٰ اللهَّ تَعَالَىٰ عَقْلاً وَنَقْلاً عَلَىٰ مَا يُعْرَفُ فِي مَوْضِعِهِ مِنْ عِلْمِ الْكَلَامِ . ثمَّ إِنَّ قَوْلَهُمْ مُتَنَاقِضٌ ، فَإِنَّ قَوْلَهُمْ : جِسْمٌ أَوْ نُورٌ حُكْمٌ عَلَيْهِ بِحَقِيقَةِ ذَلِكَ ، وَقَوْلُهُمْ : لَا كَالْأَنْوَارِ ، وَلَا كَالْأَجْسَامِ ، نَفْيٌ لِمَا أَثْبَتُوهُ مِنَ الْجِسْمِيَّةِ وَالنُّورِ ، وَذَلِكَ مُتَنَاقِضٌ ، وَتَحْقِيقُهُ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ . وَالَّذِي أَوْقَعَهُمْ فِي ذَلِكَ ظَوَاهِرُ اتَّبَعُوهَا مِنْهَا

---

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) (٧/ ٢١٩-٢٢١) .

هَذِهِ الآية ، وقول عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ : " اللهمَّ لك الحمد أنت نور السَّموات وَالْأَرْضِ " (١) . وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ سُئِلَ : هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ ؟ فَقَالَ : " رَأَيْتُ نُوراً " (٢) . إلىٰ غَيْرِ ذَٰلِكَ مِنَ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ، (٤/ ٤٤٠ برقم ٢٧١٠) ، قال الأرنؤوط في تخريجه : " إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم. وهو في "الموطأ" ١/ ٢١٥-٢١٦.

ومن طريق مالك أخرجه ابن أبي شيبة ١٠/ ٢٥٩، والبخاري في "الأدب المفرد" (٦٩٧) ، ومسلم (٧٦٩) (١٩٩) ، وأبو داود (٧٧١) ، والترمذي (٣٤١٨) ، والنسائي في "الكبرىٰ" (٧٧٠٤) ، وفي "عمل اليوم والليلة" (٨٦٨) ، وأبو عوانة ٢/ ٣٠٠، وابن حبان (٢٥٩٨) ، والطبراني في "الدعاء" (٧٥٦) ، وابن السني في "عمل اليوم والليلة" (٧٦٠) ، والبغوي (٩٥٠) . وقال الترمذي: حسن صحيح.

وأخرجه بنحوه الطبرانيُّ في "الكبير" (١٠٩٩٣) ، وفي "الدعاء" (٧٥٥) من طريق عبيد الله بن عمر، عن أبي الزبير، به. وفيه أن رسولَ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقولُ هذا الدعاءَ بعد

التكبير، وبعدَ أن يقولَ: وجهتُ وجهي للذي فطر السماواتِ والأرضَ حنيفا مسلماً.

وأخرجه مسلم (٧٦٩) (١٩٩) ، وأبو داود (٧٧٢) ، ومحمد بن نصر في "قيام الليلة" ص ٤٨، وابن خزيمة (١١٥٢) ، وأبو عوانة ٢٠١/٣، وابن حبان (٢٥٩٩) ، والطبراني في "الكبير" (١١٠١٢) ، وفي "الدعاء" (٧٥٧) من طريق عمران بن مسلم، عن قيس بن سعد، عن طاووس، به. وفيه أيضاً أنَّه كان يقولُه بعد ما يكبر.

وأشار إلىٰ روايتي أبي الزبير وقيس بن سعد عن طاووس البخاري في "صحيحه" بإثر الحديث رقم (٧٤٤٢) .

وسيأتي الحديث برقم (٢٨١٢) و (٣٣٦٨) و (٣٤٦٨) .

قوله: "أنت نورُ السماوات والأرض"، قال النووي في "شرح مسلم" ٦/ ٥٤: قال العلماء: معناه: مُنَورهما وخالقُ نورهما، وقال أبو عبيد: معناه: بنورك يهتدي أهلُ السماوات والأرض. قال الخطابي في تفسير اسمه -سبحانه وتعالىٰ- "النور": ومعناه: الذي بنوره يُبصر ذو العَماية، وبهدايته يَرْشُدُ ذو الغِواية، قال: ومنه: (الله نورُ السماوات) ، أي: منه نورهما، قال: ويحتمل أن يكونَ معناه: ذو النور، ولا يصح أن يكونَ النوُر صفةَ ذات الله تعالىٰ، وإنما هو صفةُ فعل، أي: هو خالقُه، وقال غيره: معنىٰ نور السماوات والأرض: مدبر شمسها وقمرها ونجومها ... " .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣٥/ ٢٤١ برقم ٢١٣١٣) ، قال الأرنؤوط في تخريجه للحديث : " إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبد الله بن شقيق -وهو العقيلي- فمن رجال مسلم.

وأخرجه أبو عوانة (٣٨٤) من طريق أحمد بن حنبل، بهذا الإسناد.

وأخرجه مسلم (١٧٨) (٢٩٢) ، وأبو عوانة (٣٨٤) ، وابن منده في "الإيمان" بإثر الحديث (٧٧١) من طريق عفان بن مسلم، به. ولفظه عند مسلم: "نور أنىٰ أراه". وقال عفان عقبه عند ابن منده: فقلت لهمام: كيف يكون "قد رأيته" ويقول: "نور أنىٰ أراه"؟! قال: هكذا قال.

وأخرجه أبو عوانة (٣٨٤) ، وابن منده (٧٧١) من طريق عفان، قال الأول: حدثنا معاذ، وقال الثاني: بلغني أو سمعته رواه عن أبيه (يعني هشاماً الدستوائي) ، عن قتادة، به.

الْأَحَادِيثِ . وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ ، فَقِيلَ : الْمَعْنَىٰ أَيْ بِهِ وَبِقُدْرَتِهِ أَنَارَتْ أَضْوَاؤُهَا ، وَاسْتَقَامَتْ أُمُورُهَا ، وَقَامَتْ مَصْنُوعَاتُهَا . فَالْكَلَامُ عَلَىٰ التَّقْرِيبِ لِلذِّهْنِ ... " (١) .

وَقَالَ الإمَام النَّوَوِيّ (٦٧٦هـ) رَحِمَه الله تَعَالَىٰ فِي مُقَدِّمَة الْمَجْمُوع شرح الْمُهَذّب بعد أَن ذكر السَّلف وَالْخلف : " اخْتَلَفُوا فِي آيَاتِ الصِّفَاتِ وَأَخْبَارِهَا : هَلْ يُخَاضُ فِيهَا بِالتَّأْوِيلِ أَمْ لَا ، فَقَالَ قَائِلُونَ : تُتَأَوَّلُ عَلَىٰ مَا يَلِيقُ بِهَا ، وَهَذَا أَشْهَرُ الْمَذْهَبَيْنِ لِلْمُتَكَلِّمِينَ ، وَقَالَ آخَرُونَ : لَا تُتَأَوَّلُ ، بَلْ يُمْسِكُ عَنِ الْكَلَامِ فِي مَعْنَاهَا ، وَيُوكَلُ عِلْمُهَا إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ ، وَيَعْتَقِدُ مَعَ ذَلِكَ تَنْزِيهَ اللهِ تَعَالَىٰ ، وَانْتِفَاءَ صِفَاتِ الْحَادِثِ عَنْهُ ، فَيُقَالُ مَثَلاً : نُؤْمِنُ بِأَنَّ الرَّحمن عَلَىٰ الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ، وَلَا نَعْلَمُ حَقِيقَةَ مَعْنَىٰ ذَلِكَ وَالْمُرَادَ بِهِ ، مَعَ أَنَّا نَعْتَقِدُ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ: ١١] ، وَأَنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الْحُلُولِ وَسِمَاتِ الْحُدُوثِ ، وَهَذِهِ طَرِيقَةُ السَّلَفِ أَوْ جَمَاهِيرِهِمْ ، وَهِيَ أَسْلَمُ إِذْ لَا يُطَالَبُ الْإِنْسَانُ بِالْخَوْضِ فِي ذَلِكَ ، فَإِذَا اعْتَقَدَ التَّنْزِيهَ فَلَا حَاجَةَ إِلَىٰ الْخَوْضِ فِي ذَلِكَ وَالْمُخَاطَرَةِ فِيمَا لَا ضَرُورَةَ ، بَلْ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ ، فَإِنْ دَعَتِ الْحَاجَةُ إِلَىٰ التَّأْوِيلِ لِرَدِّ مُبْتَدِعٍ وَنَحْوِهِ تَأَوَّلُوا حِينَئِذٍ ، وَعَلَىٰ هَذَا يُحْمَلُ مَا جَاءَ عَنِ الْعُلَمَاءِ فِي هَذَا ، والله أعلم " (٢) .

وقال الإمام القرافي (٦٨٤هـ) : " (مَسْأَلَةٌ) : قَالَ رَجُلٌ لِمَالِكٍ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ كَيْفَ اسْتَوَىٰ قَالَ : الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ وَأُرَاكَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ أَخْرِجُوهُ . قَالَ ابْنُ أَبِي زَيْدٍ : اللهُ تَعَالَىٰ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ عَلَىٰ عَرْشِهِ دُونَ أَرْضِهِ وَإِنَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ بِعِلْمِهِ ، وَقَالَ فِي " الرِّسَالَةِ " اسْتَوَىٰ عَلَىٰ عَرْشِهِ الْمَجِيدِ بِذَاتِهِ ، وَهَذَا أَقْرَبُ لِلتَّأْوِيلِ مِنَ الْأَوَّلِ أَيْ بِغَيْرِ مُعِينٍ بَلْ بِذَاتِهِ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ وَغَيْرِهِ وَخَصَّ اللهُ تَعَالَىٰ الْعَرْشَ بِالِاسْتِوَاءِ لأَنَّه أَعْظَمُ أَجْزَاءِ الْعَالَمِ فَيَبْقَىٰ غَيْرُهُ بِطَرِيقِ الْأَوْلَىٰ ، فَقَالَ جَمَاعَةٌ عَنِ ابْنِ أَبِي زَيْدٍ وَعَنِ ابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ وَجَمَاعَةٍ مِنَ الْمُجْتَهِدِينَ أَنَّهم يَعْتَقِدُونَ الْجِهَةَ لِأَجْلِ هَذِهِ الْإِطْلَاقَاتِ ، وَقَالَ بَعْضُ الْفُضَلَاءِ هَذَا إِنَّمَا يَلْزَمُهُمْ إِذَا لم يصرحوا بِأَنَّهُ لَيْسَ كمثله شَيْء وَبِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ النُّصُوصِ النَّافِيَةِ لِلْجِهَةِ وإِنَّمَا قَصْدُهُمْ إِجْرَاءُ النُّصُوصِ كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَأْوِيلٍ وَيَقُولُونَ لَهَا مَعَانٍ لَا نُدْرِكُهَا وَيَقُولُونَ هَذَا اسْتِوَاءٌ لَا يُشْبِهُ الِاسْتِوَاءَاتِ كَمَا أَنَّ ذَاتَهُ لَا تُشْبِهُ الذَّوَاتِ فَكَذَلِكَ يَكُونُ فَوْقَ

وقد خالف رواية عفان عن معاذ زيدُ بن أخزم عند ابن أبي عاصم في "السنة" (٤٤١) ، وبندار عند مسلم (١٧٨) (٢٩٢) ، وابن خزيمة ١/ ٥١٢-٥١٣، وابن منده (٧٧٣) و (٧٧٤) ، وعبيد الله القواريري عند أبي عوانة (٣٨٤) ، وابن حبان (٥٨) ، وعبد الرَّحمن بن محمَّد الحارثي عند ابن منده (٧٧٢) ، وإسحاق ابن إبراهيم وعمرو بن علي عند ابن منده (٧٧٤) ، فرووه عن معاذ بن هشام، عن أبيه، به بلفظ: قال: رأيت نوراً. إلا رواية أبي عوانة وابن منده (٧٧٤) ، فبلفظ: "نور أنىٰ أراه؟! ".

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٥٦)،.

(٢) انظر : المجموع شرح المهذب (مع تكملة السبكي والمطيعي) (١/ ٢٥) .

سَمَاوَاتِهِ دُونَ أَرْضِهِ فَوْقِيَّةٌ لَا تُشْبِهُ الْفَوْقِيَّاتِ وَهَذَا أَقْرَبُ لِمَنَاصِبِ الْعُلَمَاءِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْجِهَةِ وَمعنىٰ قَول مَالك الاستواب غَيْرُ مَجْهُولٍ أَنَّ عُقُولَنَا دَالَّتُنَا عَلَىٰ الِاسْتِوَاءِ اللَّائِقِ بِاللهِ وَجَلَالِهِ وَعظَمَتِهِ وَهُوَ الِاسْتِيلَاءُ دُونَ الْجُلُوسِ وَنَحْوِهِ مِمَّا لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْأَجْسَامِ وَقَوْلُهُ وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ مَعْنَاهُ أَنَّ ذَاتَ اللهِ تَعَالَىٰ لَا تُوصَفُ بِمَا وَضَعَتِ الْعَرَب لَهُ كَيفَ وَهُوَ الْأَحْوَال المتنقلة والهيآت الْجِسِيمَةُ مِنَ التَّرَبُّعِ وَغَيْرِهِ فَلَا يُعْقَلُ ذَلِكَ فِي حَقِّهِ تَعَالَىٰ لِاسْتِحَالَتِهِ فِي جِهَةِ الرُّبُوبِيَّةِ وَقَوْلُهُ وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ مَعْنَاهُ لَمْ تَجْرِ الْعَادَةُ فِي سِيرَةِ السَّلَفِ بِالسُّؤَالِ عَنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الْمُثِيرَةِ لِلْأَهْوَاءِ الْفَاسِدَةِ فَهُوَ بِدْعَةٌ وَرَأَيْتُ لِأَبِي حَنِيفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جَوَابًا لِكَلَامٍ كَتَبَ بِهِ إِلَيْهِ مَالِكٌ إِنَّكَ تَتَحَدَّثُ فِي أُصُولِ الدِّين وَإِنَّ السَّلَفَ لَمْ يَكُونُوا يَتَحَدَّثُونَ فِيهِ فَأَجَابَ بِأَنَّ السَّلَفَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لَمْ تَكُنِ الْبِدَعُ ظَهَرَتْ فِي زَمَانِهِمْ فَكَانَ تَحْرِيكُ الْجَوَابِ عَنْهَا دَاعِيَةً لِإِظْهَارِهَا فَهُوَ سَعْيٌ فِي مُنْكَرٍ عَظِيمٍ فَلِذَلِكَ تُرِكَ قَالَ وَفِي زَمَانِنَا ظَهَرَتِ الْبِدَعُ فَلَوْ سَكَتْنَا كُنَّا مُقِرِّينَ لِلْبِدَعِ فَافْتَرَقَ الْحَالُ وَهَذَا جَوَابٌ سَدِيدٌ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْبِدَعَ ظَهَرَتْ بِبِلَادِهِ بِالْعِرَاقِ وَمَالِكٌ لَمْ يَظْهَرْ ذَلِك بِبَلَدِهِ فَلِذَلِكَ أَنْكَرَ فَهَذَا وَجْهُ الْجَمْعِ بَيْنَ كَلَامِ الْإِمَامَيْنِ وَعَنِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَوْ وَجَدْتُ الْمُتَكَلِّمِينَ لَضَرَبْتُهُمْ بِالْحَدِيدِ قَالَ لِي بَعْضُ الشَّافِعِيَّةِ وَهُوَ مُتَعَيِّنٌ فِيهِمْ يَوْمَئِذٍ هَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ مَذْهَبَ الشَّافِعِي تَحْرِيمُ الِاشْتِغَالِ بِأُصُولِ الدِّين قُلْتُ لَهُ لَيسَ كَذَلِكَ فَإِنَّ الْمُتَكَلِّمِينَ الْيَوْمَ فِي عُرْفِنَا إِنَّمَا هُوَ الْأَشْعَرِيُّ وَأَصْحَابُهُ وَلَمْ يُدْرِكُوا الشَّافِعِيَّ وَلَا تِلْكَ الطَّبَقَةَ الْأُولَىٰ إِنَّمَا كَانَ فِي زَمَانِ الشَّافِعِيِّ عمر بْنُ عَبِيدٍ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ الْمُبْتَدِعَةِ أَهْلِ الضَّلَالَةِ وَلَوْ وَجَدْنَاهُمْ نَحْنُ ضَرَبْنَاهُمْ بِالسَّيْفِ فَضْلًا عَنِ الْحَدِيدِ فَكَلَامُهُ ذَمٌّ لِأُولَئِكَ لَا لِأَصْحَابِنَا وَأَمَّا أَصْحَابُنَا الْقَائِمُونَ بِحُجَّةِ اللهِ وَالنَّاصِرُونَ لِدِينِ اللهِ فَيَنْبَغِي أَنْ يُعَظَّمُوا وَلَا يُهْتَضَمُوا لِأَنَّهُمُ الْقَائِمُونَ بِفَرْضِ كِفَايَةٍ عَنِ الْأُمَّةِ فَقَدْ أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَىٰ أَنَّ إِقَامَةَ الْحُجَّةِ للهِ تَعَالَىٰ فَرْضُ كِفَايَةٍ قَالَ لِي ذَلِكَ الشَّافِعِيُّ يَكْفِي فِي ذَلِكَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ قُلْتُ لَهُ فَمَنْ لَا يَعْتَقِدُهُمَا كَيْفَ تُقَامُ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ بِهِمَا فَسكت تبيه قَالَ الْغَزَالِيُّ يُشْتَرَطُ فِي الطَّائِفَةِ الَّتِي تَقُومُ بِفَرْضِ الْكِفَايَةِ مِنْ أُصُولِ الدِّين أَرْبَعَةُ شُرُوطٍ أَنْ يَكُونَ وَافِرَ الْعَقْلِ لأَنَّه عِلْمٌ دَقِيقٌ وَأَنْ يَسْتَكْثِرَ مِنْهُ لأنَّه لَا أَكْفَرَ مِنْ نِصْفِ أُصُولِيٍّ وَأَنْ يَكُونَ دَيِّنًا فَإِنَّ قَلِيلَ الدِّين إِذَا وَقَعَتْ لَهُ الشُّبْهَةُ لَا يَطْلُبُ لَهَا جَوَابًا وَأَنْ يَكُونَ فَصِيحًا لِأَنَّ الْفَدْمَ لَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي هَذَا الْبَابِ " (١) .

قلت : وهنا أخطأ الإمام القُرافي فيما نقله عن ابن أبي زيد في الرِّسالة ، فقد قال : " وَقَالَ فِي " الرِّسَالَةِ " اسْتَوَىٰ عَلَىٰ عَرْشِهِ الْمَجِيدِ بِذَاتِهِ ... " فقد قال محقِّق الرِّسالة الأستاذ الدكتورأحمد محمَّد نور سيف : " قال رحمه الله : " وأنَّه فوق عرشه المجيدُ بذاته " هكذا يستقيم ضبط النَّصِّ علىٰ أنَّ المجيد خبر ثان (لأنَّ) أو خبر

---

(١) انظر : الذخيرة (١٣/ ٢٤٢-٢٤٤) .

لمبتدأ محذوف ، والجار والمجرور (بذاته) يتعلَّقان به لا بها تعلّق الظَّرف – أي : " فوق " – ، والمعنىٰ : أنَّ مجده وعظمته ذاتيَّة ، ليست مكتسبة بالعرش ولا بغيره ، فغناه – سبحانه – مطلق لا يفتقر إلىٰ شيء من مخلوقاته .

ولفظ المجيد إن كان في قواعد الإعراب يحتمل هنا الجر علىٰ أنَّه صفة للعرش ، والرَّفع علىٰ أنَّه خبر ، فمجرَّد الاحتمال لا يكفي ، بل لا بدَّ من الأدلَّة التي تُوجب أحد الوجهين أو ترجِّحه ، وقد قامت الأدلَّة علىٰ وجوب الرَّفع ، وهي :

-أنَّ ابن أبي زيد كان علىٰ مذهب السَّلف في الأصول كما صرَّح به الذَّهبي في ترجمته له في سير أعلام النُّبلاء (١٧/ ١٢) . وهذه الكلمة" بذاته لم يثبت عن أحد من السَّلف أنَّه قالها .

- أنَّ الشَّارح رحمه الله – يقصد القاضي عبد الوهَّاب – لم يُعرِّج علىٰ هذه اللفظة ، ولم يستشكلها، وهي أولىٰ بالاستشكال من لفظ " فوق " وإن كانت لفظة " فوق " تعني العلو ، ولا يلزم منها التَّمكُّن والاستقرار ، ولكن بيَّن وجه اعتراضه بأنَّ الفوقيَّة لم يرد استعمالها في مثل هذا المقام المُشعر بالحسِّيَّة والاستقرار والتَّمكُّن في الشَّرع ، وإن ورد استعمالها مُطلقة كقوله تعالىٰ : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل:٥٠] وكان علىٰ المُصِّف تحاشيها .

- أنَّ الشَّارح لو فهم من عبارة المؤلِّف " بذاته " ما فهمه بعضُ الشُّرَّاح ، لبادر إلىٰ إنكار هذا اللفظ – ، لأنَّ الشَّارح أشعري – ، وهو أولىٰ بالإنكار من لفظ الفوقيَّة ، إذ لم يسبق إلىٰ هذا الاستعمال ولم يخطر علىٰ بال الشَّارح هذا الفهم وهو أعلم بكلام المُصنِّف .

ولفظة " بذاته " لم ترد في الكتاب والسُّنَّة ولا في كلام الصَّحابة رضي الله عنهم . قال الحافظ الذَّهبي في كتابه (العلو للعلي العظيم) (٢/ ١٢٩٢) عند ذكرها في كلام ابن أبي زيد القيرواني : " وقد نقموا عليه في قوله " بذاته " فليته تركها . وقال أيضا في (سير أعلام النُّبلاء) (١٩/٦٠٦-٦٠٧) في ترجمة الإمام أبي الحسن بن الزاغوني البغدادي الحنبلي (المتوفَّىٰ سنة ٥٢٧هـ) بعد أن ذكر قوله من قصيدة له :

عَالٍ عَلَىٰ العَرْشِ الرَّفِيْعِ بِذَاتِهِ   سُبْحَانَهُ عَنْ قَوْلِ غَاوٍ مُلْحِدِ

قد ذكرنَا أَن لفظَة (بِذَاته) لاَ حَاجَةَ إِلَيْهَا، وَهِيَ تَشْغَبُ النُّفُوْسَ، وَتركُهَا أَوْلَىٰ – وَاللهُ أَعْلَمُ –.

وقال الذَّهبي : " أيضاً في (سير أعلام النُّبلاء) (٢٠/ ٨٥-٨٦) عند ترجمة الإمام أبي القاسم التَّيمي الأصبهاني المُلقَّب بقوام السُّنَّة (المتوفَّىٰ سنة ٥٣٥هـ) : " الصَّوَابُ الكَفُّ عَنْ إِطلاَق ذَلِك، إِذْ لَمْ يَأْتِ فِيْهِ نَصٌّ، وَلَوْ فَرَضنَا

أَنَّ المَعْنَىٰ صَحِيْحٌ، فَلَيْسَ لَنَا أَن نَتَفَوَّهَ بِشَيْءٍ لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ؛ خَوْفاً مِنْ أَنْ يَدخُلَ القَلْبَ شَيْءٌ مِنَ البِدْعَةِ ، اللَّهُمَّ احْفَظْ عَلَيْنَا إِيْمَانَنَا " .

-أنَّ هذا الاستعمال يُساير استعمال القرآن الكريم ي قوله تعالىٰ :﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾ [البروج:١٥]، هي القراءة المشهورة (برفع المجيد) . والمجيد القويُّ في ذاتيَّته ، ولذا ذيَّلتها الآية التي بعدهابقوله تعالىٰ : ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج :١٦] ، لأنَّ عظمته ذاتيَّة وليست مكتسبة ممَّا خلق وذرأ ، وليس لأحد عليه سلطان فيما يريد ، بل إرادته مُطلقة ، يفعل ما يريد .

– أنَّ ابن أبي زيد أشعري المذهب ، والأشعريَّة لا يقولون بهذه الكلمة بل ينكرونها ، فحملُ كلامه علىٰ ما يُوافق مذهبه مُقدَّمٌ علىٰ حمله علىٰ غيرمذهبه ثمَّ الرَّد عليه .

وممَّا يدلُّ علىٰ أنَّ ابن أبي زيد علىٰ مذهب أبي الحسن الأشعري : ذكرُ ابنُ عساكر له في كتابه : " تبيين كذب المُفتري " وعدَّه من الأشاعرة ومن الذَّابِّين عن مذهبهم وأئمَّتهم ، فقد قال عنه في (ص١٢٢) : " وَمن الشُّيُوخ الْمُتَأَخِّرين الْمَشَاهِير أَبُو محمَّد بن أَبِي زيد وشهرته تغني عَن ذكر فَضله اجْتمع فِيهِ الْعقل وَالدّين وَالْعلم والورع وَكَانَ يلقب بِمَالك الصَّغِير وخاطبه من بَغْدَاد رجل معتزلي يرغبه فِي مَذْهَب الإعتزال وَيَقُول لَهُ إِنَّه مَذْهَب مَالك وَأَصْحَابه فجاوبه بِجَوَاب من وقف عَلَيْهِ علم أَنه كَانَ نِهَايَة فِي علم الْأُصُول رَضِيَ اللهُ عَنْهُ " .

قلت :هذا يُبيِّن عدم دقَّة الذَّهبي رحمه الله حين أراد أن يُدافع عن عن ابن أبي زيد في قضيَّة (بذاته) حين ترجم له ، فقال في (سير أعلام النُّبلاء) (١٧/ ١٢) : " وَكَانَ – رَحِمَهُ اللهُ – عَلَىٰ طَرِيقَةِ السَّلَفِ فِي الأُصُوْلِ " .

ويبدو أنَّه لم يطَّلع علىٰ هذه الرِّسالة وما اشتملت عليه من علم غزير في علم الأصول (علم الكلام) .

وقال ابن عساكر أيضاً في موضع آخر (ص٤٠٥-٤٠٨) : " وَقد قَرَأت بِخَط عَليّ بن بَقَاء الْوراق الْمُحدث الْمصْرِيّ رِسَالَة كتب بهَا أَبُو محمَّد عَبْدُ اللهَّ بْنُ أَبِي زيد القيرواني الْفَقِيه الْمَالِكِي وَكَانَ مقدَّم أَصْحَاب مَالك رَحمَه اللهَّ بالمغرب فِي زَمَانه إلىٰ عَليّ بن أَحْمَدَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْبَغْدَادِيّ المعتزلي جَوَاباً عَن رِسَالَة كتب بهَا إِلىٰ المالكين من أهل القيروان يظْهر نصيحتهم بِمَا يدخلهم بِهِ أقاويل أهل الاعتزال ، فَذكر الرسَالَة بطُولهَا فِي جُزْء وَهِي مَعْرُوفَة فَمن جملَة جَوَاب ابْن أَبِي زيد لَهُ أَن قَالَ : ... وذكرتَ الْأَشْعَرِيّ فنسبته إِلىٰ الْكفْر وقلتَ : إِنَّه كَانَ مَشْهُورا بالْكفْر ، وَهَذَا مَا علمنَا أَنَّ أحداً رَمَاه بالْكفْر غَيْرك ، وَلم تذكر الَّذِي كفّر بِهِ ؟ وَكَيف يكون مَشْهُورا بالْكفْر من لم ينْسب هَذَا إِلَيْهِ أحد علمنَاه فِي عصره وَلَا بعد عصره ...

ثمَّ قال : فَكيف يسعك أَن تكفِّر رجلاً مُسلماً بِهَذَا ، وَلَا سِيَما رجل مَشْهُور أَنَّه يردُّ علىٰ أهل الْبدع وعَلىٰ الْقَدَرِيَّة الْجَهْمِية متمسِّك بالسُّنن" .

فابن أبي زيد والقاضي عبد الوهَّاب كلاهما من مدرسة واحدة تؤيِّد الأشعري وتناصره ، وتناصر أقواله ، ولذا عدَّهما ابن عساكر في المشاهير الذين اقتدوا بمذهبه " .

وبهذا الضَّبط – أي : برفع المجيد – يرتفع اللبس والإشكال ، والاستعمال المحذور في اللفظ المذكور – أي : بذاته – الذي عيْبَ علىٰ المُصنِّف استعماله ، وكان سبباً في التَّعقُّب عليه ممَّن جاء بعده " (١) .

وقال الإمام ناصر الدِّين البيضاوي (٦٨٥هـ) : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استوىٰ أمره أو استولىٰ ، وعن أصحابنا أنَّ الاستواء علىٰ العرش صفة لله بلا كيف، والمعنىٰ: أنَّ له تعالىٰ استواء علىٰ العرش علىٰ الوجه الذي عناه منزَّهاً عن الاستقرار والتَّمكُّن، والعرش : الجسم المحيط بسائر الأجسام سمِّي به لارتفاعه، أو للتَّشبيه بسرير الملك ، فإنَّ الأمور والتَّدابير تنزل منه وقيل الملك " .

وقال الإمام البيضاوي (٦٨٥هـ) أيضاً : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ بالحفظ والتَّدبير " (٢) .

وقال الإمام أحمد بن إبراهيم بن الزُّبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر (٧٠٨هـ) : " ... فذكر سبحانه ما تقرَّر وتحصَّل من خلق السَّماوات والأرض ممَّا لا تكرّر فيه وهما أعظم آياته وأعقب سبحانه بقوله: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ محمولاً علىٰ ما تقرَّر بثمَّ المقتضية التَّنبيه علىٰ جليل الحال فيما يعطف بها والتَّحريك للاعتبار بذلك وموقعه ورتبته حيث لا يراد مهلة التَّرتيب الزَّمانىٰ لأنَّ موضوع ثمَّ في اللسان قصد التَّرتيب الزَّمانىٰ مع المهملة حيث يراد ذلك وقصد التَّرتيب الاعتنائىٰ والتَّنبيه علىٰ حال ما عطف بها حيث لا يقصد زمان ولا يلحظ كقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ [المدثر:١٨-٢٠] ، فهذا وارد مورد الدُّعاء علىٰ من يخاطب به البشر كما يرد التَّعجُّب والتَّرجِّىٰ ، وربّنا المنزَّه عن ذلك كلِّه ، ولكن خُوطب البشر علىٰ ما يتعارفون ويجرىٰ بينهم ، فلمَّا قال سبحانه: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ فذكر ما هو تعالىٰ عليه منزَّهاً عن الآنية والتَّمكُّن المكانىٰ والمناسبة والحلول ، جلَّ وتعالىٰ عن ذلك علوَّاً كبيراً " (٣) .

وقال الإمام النَّسفي (٧١٠هـ) : " ... أي : استولىٰ ، فقد يقدَّس الديَّان عن المكان والمعبود عن الحدود " .

---

(١) انظر : شرح عقيدة ابن أبي زيد القيرواني في كتابه الرسالة ، القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي المالكي ، (ص١٧١-١٧٤ هامش) ، تحقيق : ا.د أحمد محد نور سيف ، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث ، الإمارات العربية المتحدة ، ط١ ، ٢٠٠٤م .

(٢) انظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٣/ ١٦) ، (٣/ ١٨٠) بالترتيب .

(٣) انظر : ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل (١/ ١٨٣) .

وقال أيضاً : " استولى بالاقتدار ونفوذ السُّلطان " .

وقال أيضاً : " استولى عليه بإحداثه " (١) .

وقال الإمام ابن منظور (٧١١هـ) : " وَقِيلَ: ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:٢٩] صَعِدَ أَمره إِلَيْهَا، وَفَسَّرَهُ ثَعْلَبٌ فَقَالَ: أَقْبَلَ إِلَيْهَا، وَقِيلَ: اسْتَوْلى. الْجَوْهَرِيُّ: ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ ، أَي : قَصَدَ، واسْتَوى ، أَي : اسْتَوْلى وظَهَر؛ وَقَالَ:

قَدِ اسْتَوى بِشْرٌ عَلَى العِرَاق مِنْ غَيرِ سَيْفٍ ودَمٍ مُهْراق

الْفَرَّاءُ: الاسْتِوَاء فِي كَلَامِ الْعَرَبِ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَحدهما أَن يَسْتَوِي الرجلُ وَيَنْتَهِيَ شبابُه وقوَّته، أَو يَسْتَوِي عَنِ اعْوِجَاجٍ، فَهَذَانَ وَجْهَانِ، وَوَجْهٌ ثَالِثُ أَن تَقُولَ: كَانَ فُلَانٌ مُقْبِلًا عَلَى فُلَانَةٍ ثمَّ استوَى عليَّ وإِليَّ يُشاتِمُني، عَلَى مَعْنَى أَقبل إِليَّ وعليَّ، فَهَذَا قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ ؛ قَالَ الْفَرَّاءُ: وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ثمَّ اسْتَوى إِلى السَّمَاءِ صعِدَ، وَهَذَا كَقَوْلِكَ لِلرَّجُلِ: كَانَ قَائِمًا فاسْتَوى قَاعِدًا، وَكَانَ قَاعِدًا فاسْتَوى قَائِمًا، قَالَ: وكلٌّ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ جَائِزٌ. وَقَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ: صَعِدَ إِلى السَّمَاءِ أَي صعِد أَمره إِلى السَّمَاءِ. وَقَالَ أَحمد بْنُ يَحْيَى فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه٥] ؛ قَالَ الاسْتِوَاءُ الإِقبال عَلَى الشَّيْءِ، وَقَالَ الأَخفش: اسْتَوَى أَي عَلَا، تَقُولُ: استَوَيْتُ فَوْقَ الدَّابَّةِ وَعَلَى ظَهْرِ الْبَيْتِ أَي علَوْتُه. واسْتَوى عَلَى ظَهْرِ دَابَّتِهِ أَي استَقَرَّ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ ؛ عمَدَ وَقَصَدَ إِلى السَّمَاءِ، كَمَا تَقُولُ: فَرغ الأَميرُ مِنْ بَلَدِ كَذَا وَكَذَا ثمَّ اسْتَوى إِلى بَلَدِ كَذَا وَكَذَا، مَعْنَاهُ قَصَدَ بِالِاسْتِوَاءِ إِلَيْهِ ..." (٢) .

وقال الإمام ابنِ المُعلِم (٧٢٥هـ) في كتابه " نجم المهتدي ورجم المعتدي " معاني الاستواء ، نحو : " الملك ، واستئثار الملك ، واستواء الحكم ، والاستيلاء المجرَّد عن معنى المغالبة والإقبال ، والقصد والإتقان ، وعلوّ العظمة والعزَّة ، وعلوّ القهر والغلبة ، إلى غير ذلك من المعاني المذكورة في الجزء الخامس من " نجم المهتدي " . ثمَّ قال ابن المعلِّم : فقد ظهر لكم ، أيَّدكم الله هذه التَّأويلات ، فأيّها ترجَّح عندكم فاحملوا اللفظ عليه ، فإنَّ الظَّاهر منفيٌّ بإجماع علماء السُّنَّة ، فلله الحمد على اتِّباعهم " (٣) .

---

(١) انظر : تفسير النسفي (٢/ ١٣٣) ، (٢/ ٢٠١) ، (٣/ ٢٣٠) بالترتيب .

(٢) انظر : لسان العرب (١٤/ ٤١٤) .

(٣) انظر : الأسماء والصفات ، البيهقي (ص٥١٣ هامش) ، تحقيق : محمَّد زاهد الكوثري ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

وقال الإمام الخازن (٧٢٥هـ) : " وقوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ العرش في اللغة : السَّرير ، وقيل : هو ما علا فأظلّ ، وسُمِّي مجلس السُّلطان عرشاً اعتباراً بعلوِّه ، ويكنَّىٰ عن العزِّ والسُّلطان والمملكة بالعرش علىٰ الاستعارة والمجاز ، يقال : فلان فل عرشه بمعنىٰ ذهب عزُّه ومُلكه وسلطانه .

قال الرَّاغب في كتابه " مفردات القرآن " : وعرش الله عزَّ وجلَّ ممَّا لا يعلمه البشر إلَّا بالاسم علىٰ الحقيقة ، وليس هو كما تذهب إليه أوهام العامَّة فإنَّه لو كان كذلك لكان حاملاً له تعالىٰ الله عن ذلك ، وليس كما قال قوم أنَّه الفلك الأعلىٰ والكرسي فلك الكواكب ، وأمَّا استوىٰ بمعنىٰ استقرَّ فقد رواه البيهقي في كتابه " الأسماء والصفات " برواية كثيرة عن جماعة من السَّلف وضعَّفها كلّها !! وقال : أمَّا الاستواء فالمتقدِّمون من أصحابنا كانوا لا يفسِّرونه ولا يتكلَّمون فيه كنحو مذهبهم في أمثال ذلك ، وروىٰ بسنده عن عبد الله بن وهب أنَّه قال : كنَّا عند مالك بن أنس فدخل رجل ، فقال : يا أبا عبد الله الرَّحمن علىٰ العرش استوىٰ كيف استواؤه ؟ قال : فأطرق مالك وأخذته الرُّحضاء ثمَّ رفع رأسه فقال : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ كما وصف نفسه ، ولا يقال له كيف وكيفٌ عنه مرفوع ، وأنت رجل سوء صاحب بدعة ، أخرجوه ، فأُخرج الرَّجل.

وفي رواية يحيىٰ بن يحيىٰ قال : كنَّا عند مالك بن أنس فجاء رجل ، فقال : يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ كيف استواؤه ؟ فأطرق مالك برأسه حتىٰ علته الرُّحضاء ثمَّ قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسُّؤال عنه بدعة وما أراك إلَّا مبتدعاً ، فأمر به أن يخرج.

روىٰ البيهقي بسنده عن ابن عيينة قال : ما وصف الله تعالىٰ به نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسُّكوت عنه ، قال البيهقي : والآثار عن السَّلف في مثل هذا كثيرة وعلىٰ هذه الطَّريقة يدلُّ مذهب الشَّافعي رضي الله تعالىٰ عنه ، وإليه ذهب : أحمد بن حنبل ، والحسن بن الفضل البجلي ، ومن المتأخِّرين أبو سليمان الخطَّابي .

قال البغوي : أهلُ السُّنَّة يقولون : الاستواء علىٰ العرش صفة الله بلا كيف ، يجب علىٰ الرَّجل الإيمان به ويكِل العلم به إلىٰ الله عزَّ وجلَّ ، وذكر حديث مالك بن أنس مع الرَّجل الذي سأله عن الاستواء ، وقد تقدَّم.

وروي عن سفيان الثَّوري والأوزاعي والليث بن سعد وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك وغيرهم من علماء السُّنَّة في هذه الآيات التي جاءت في الصِّفات المتشابهة اقرؤوها كما جاءت بلا كيف.

وقال الإمام فخر الدِّين الرَّازي رحمه الله بعد ذكره الدَّلائل العقليَّة والسَّمعيَّة : أنَّه لا يمكن حمل قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ علىٰ الجلوس والاستقرار وشغل المكان والحيِّز ، وعند هذا حصل للعلماء الرَّاسخين مذهبان :

الأوَّل : القطع بكونه تعالىٰ متعالياً عن المكان والجهة ولا نخوض في تأويل الآية علىٰ التَّفصيل بل نفوِّض علمها إلىٰ الله تعالىٰ ، هو الذي قرَّرنا في تفسير قوله " : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران:٧] ، وهذا المذهب هو الذي نختاره ونقول به ونعتمد عليه .

والمذهب الثَّاني : أنَّا نخوض في تأويله علىٰ التَّفصيل وفيه قولان ملخَّصان :

الأوَّل : ما ذكره القفَّال ، فقال : العرش في كلامهم هو السَّرير الذي يجلس عليه الملك ثمَّ جعل ثلَّ العرش كناية عن نقض الملك ، يقال : ثلَّ عرشه انتقض ملكه ، وإذا استقام له ملكه واطرد أمره ونفذ حكمه ، قالوا : استوىٰ علىٰ عرشه واستوىٰ علىٰ سرير مُلكه ، هذا ما قاله القفَّال ، والذي قاله القفَّال حقٌّ وصواب !! ثمَّ قال : الله تعالىٰ دلَّ علىٰ ذاته وصفاته وكيفيَّة تدبيره العالم علىٰ الوجه الذي ألفوه من ملوكهم واستقرَّ في قلوبهم تنبيهاً علىٰ عظمة الله جلَّ جلاله وكمال قدرته ، وذلك مشروط بنفي التَّشبيه ، والمراد منه نفاذ القدرة وجريان المشيئة .

قال : ويدلُّ علىٰ صحَّة هذا قوله في سورة يونس : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ﴾ ، فقوله : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ جرىٰ مجرىٰ التَّفسير لقوله : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ، وأورد علىٰ هذا القول أنَّ الله تعالىٰ لم يكن مستوياً علىٰ الملك قبل خلق السَّموات والأرض ، والله تعالىٰ منزَّه عن ذلك ، وأجيب عنه بأنَّ الله تعالىٰ كان قبل خلق السَّموات والأرض مالكها ، لكن لا يصحُّ أن يقال : شبع زيد إلَّا بعد أكله الطَّعام ، فإذا فسِّر العرش بالملك صحَّ أن يُقال : أنَّه تعالىٰ إنَّما استوىٰ علىٰ مُلكه بعد خلق السَّموات والأرض ... " (١) .

وقال الإمام ابن جماعة الحموي (٧٣٣هـ) : " فَقَوله تَعَالَى : ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ يتعيَّن فِيهِ معنىٰ الاِسْتِيلَاء والقهر لَا الْقعُود والاستقرار ، إِذْ لَو كَانَ وجوده تَعَالَى مكانيّاً أَو زمانيّاً للَزِمَ قِدَم الزَّمَان وَالْمَكَان أَو تقدُّمها عَلَيْهِ ، وَكِلَاهُمَا بَاطِل ، فقد صَحَّ فِي الحَدِيث : " كَانَ الله وَلَا شَيْء مَعَه " ، وللزم حَاجته إِلىٰ الْمَكَان ، وَهُوَ تَعَالَى الْغَنِيّ الْمُطلق المستغني عَمَّا سواهُ ، كَانَ الله وَلَا زمَان وَلَا مَكَان وَهُوَ الْآن علىٰ مَا عَلَيْهِ كَانَ ، وللزم كَونه محدوداً مُقَدَّراً ، وكلُّ مَحْدُود ومقدَّر جسم وكلُّ جسم مركَّب مُحْتَاج إِلىٰ أَجْزَائِهِ ، ويتقدَّس من لَهُ الْغنىٰ

---

(١) انظر : تفسير الخازن المسمىٰ لباب التأويل في معاني التنزيل (٢/ ٢٣٧-٢٣٩) .

الْمُطلق عَن الْحَاجة ، وَلِأَنَّ مَكَان الِاسْتِقْرَار لَو قدّر حَادث مَخْلُوق ، فَكيف يحْتَاج إِلَيْهِ من أوجده بعد عَدمه وَهُوَ الْقَدِيم الأزليّ قبله .

فَإِن قيل : نفي الْجِهَة عَن الْمَوْجُود يُوجب نَفْيه لِاسْتِحَالَة مَوْجُود فِي غير جِهَة .

قُلْنَا : الْمَوْجُود قِسْمَانِ : مَوْجُود لَا يتَصَرَّف فِيهِ الْوَهم والحسّ والخيال والانفصال ، وموجود يتَصَرَّف ذَلِك فِيهِ ويقبله ، فَالْأول مَمْنُوعٌ لاستحالته ، والرَّبُّ لَا يتَصَرَّف فِيهِ ذَلِك ، إِذْ لَيْسَ بجسم وَلَا عَرَض وَلَا جَوْهَر ، فصحَّ وجوده عقلاً من غير جِهَة وَلَا حيِّز ، كَمَا دلّ الدَّلِيل الْعقلِيّ فِيهِ فَوَجَبَ تَصْدِيقه عقلاً ، وكما دلَّ الدَّلِيل الْعقلِيّ على وجوده مَعَ نفي الجسميَّة والعَرضيَّة مَعَ بعد الْفَهم الْحسي لَهُ ، فَكَذَلِك دلَّ على نفي الْجِهَة والحيِّز مَعَ بعد فهم الْحسّ لَهُ .

وَقد اتَّفق أَكثر الْعُقَلَاء على وُجُود مَا لَيْسَ فِي حيِّز كالمعقول والنُّفوس والهيولي (١) ، وعَلى وجود مَا لَا يتصوره الذِّهْن كحقيقة نفس الْحَرَارَة والبرودة فَإِنَّهَا مَوْجُودَة قطعا وَلَا يتَصَوَّر الذِّهْن حَقِيقَتهَا وَلم يقل أحد إِنَّهُم ادعوا مستحيلا أَو مُخَالفا للضَّرُورَة " (٢) .

وقال الإمام ابْن جهبل الْكلابِي (٧٣٣هـ) : " ... وَأَرْدَفَ ذَلِك بقوله تَعَالَى : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ ، وَورد هَذَا فِي كتاب الله فِي سِتَّة مَوَاضِع من كِتَابه وَهِي عُمْدَة المشبهة وَأقوى معتمدهم حَتَّى إِنَّهُم كتبوها على بَاب جَامع همذان فلصرف الْعِنَايَة إِلَى إيضاحها فَنَقُول : إِمَّا أَنَّهم يعزلون الْعقل بِكُلِّ وَجه وَسبب وَلَا يلتفتون إِلَى مَا سمِّي فهماً وإدراكاً فمرحباً بفعلهم وَبقول : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ ، وَإِن تعدَّوا هَذَا إِلَى أَنَّه مستو على الْعَرْش فَلَا حبّاً وَلَا كَرَامَة ، فَإِنَّ الله تَعَالَى مَا قَالَه مَعَ أَنَّ عُلَمَاء الْبَيَان كالمتَّفقين على أَنَّ فِي اسْم الْفَاعِل من الثُّبُوت مَا لَا يفهم من الْفِعْل .

وَإِن قَالُوا : هَذَا يدلُّ على أَنَّه فَوْقه فقد تركُوا مَا التزموه وبالغوا فِي التَّنَاقُض والتَّشهِّي والجرأة . وَإِن قَالُوا : بل نبقي الْعقل ونفهم مَا هُوَ الْمُرَاد ، فَنَقُول لَهُم : مَا هُوَ الاسْتوَاء فِي كَلَام الْعَرَب ؟ فَإِن قَالُوا : الْجُلُوس والاستقرار ، قُلْنَا : هَذَا مَا تعرفه الْعَرَب إِلَّا فِي الْجِسْم ، فَقولُوا يَسْتَوِي جسم على الْعَرْش .

---

(١) الهيولى أو الهيولا بفتح الهاء وضم الياء (HYLE) لفظ يوناني بمعنى الأصل والمادة . وفي اصطلاح أهل الكلام: أحد جزئي الجسم، وهو محل الجزء الآخر منه. أو أجسام قائمة بنفسها أو جوهر في الجسم قابل لما يعرض لذلك الجسم من الاتصال والانفصال محل للصورتين الجسمية والنوعية" . انظر درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٨٤) ، والمبين للآمدي (ص ١٠٩) ، والمعجم الفلسفي (٢/ ٥٣٦) .

(٢) انظر : إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل (ص١٠٣-١٠٥) .

وَإِن قَالُوا : جُلُوس واستقرار نسبته إِلىٰ ذَات الله تَعَالَىٰ كنسبة الْجُلُوس إِلىٰ الْجِسْم .
فالعرب لَا تعرف هَذَا حَتَّىٰ يكون هُوَ الْحَقِيقَة ، ثمَّ الْعَرَب تفهم اسْتِوَاء الْقدح الَّذِي هُوَ ضد الاعوجاج فوصفوه بذلك وتبرَّءوا مَعَه من التَّجسيم وسدُّوا بَاب الْحمل علىٰ غير الْجُلُوس وَلَا يسدُّونه فِي قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد:٤] ، وَقَوله تَعَالَىٰ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦] ، وَلَا تَقولُوا مَعَهم بِالْعلمِ .
وَإِن قُلْتُمْ ذَلِك فَلم تحلُّونه عَاماً وتحرِّمونه عَاماً ؟! وَمن أَيْن لكم أَن لَيْسَ الاسْتوَاء فعلاً من أَفعاله تَعَالَىٰ فِي الْعَرْش ، فَإِن قَالُوا : لَيْسَ هَذَا كَلَام الْعَرَب . قُلْنَا : وَلَا كَلَام الْعَرَب اسْتَوَىٰ بِالْمَعْنَىٰ الَّذِي تقولونه بِلَا جسم .

وَلَقَد رام الْمُدَّعِي التَّفلُّت من شرك التَّجسيم بِمَا زَعمه من أَنَّ الله تَعَالَىٰ فِي جِهَة ، وَأَنَّه اسْتَوَىٰ علىٰ الْعَرْش اسْتِوَاء يَلِيق بجلاله .
فَنَقُول لَهُ : قد صرت الْآن إِلىٰ قَوْلنَا فِي الاسْتوَاء ، وَأمَّا الْجِهَة فَلَا تلِيق بالجلال .
وَأخذ علىٰ الْمُتَكَلِّمين قَوْلهم : إِنَّ الله تَعَالَىٰ لَو كَانَ فِي جِهَة فإِمَّا أَن يكون أكبر أَو أَصْغَر أَو مُسَاوِياً ، وكلُّ ذَلِك محَالٌ
، قَالَ : فَلم يفهموا من قَول الله تَعَالَىٰ : ﴿ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ إِلَّا مَا يثبتون لأي جسم كَانَ علىٰ أَيِّ جسم كَانَ .
قَالَ : وَهَذَا اللَّازِم تَابع لهَذَا الْمَفْهُوم ، وَأَمَّا اسْتِوَاء يَلِيق بِجلَال الله فَلَا يلْزمه شَيْء من اللوازم .
فَنَقُول لَهُ : أتميميَّاً مرَّة وقيسيَّاً أُخْرَىٰ ، إِذا قلت اسْتَوَىٰ اسْتِوَاء يَلِيق بِجلَال الله فَهُوَ مَذْهَب الْمُتَكَلِّمين ، وَإِن قلت اسْتِوَاء هُوَ اسْتِقْرَار واختصاص بِجِهَة دون أُخْرَىٰ لم يجد ذَلِك تخلصاً من التَّرديد الْمَذْكُور والاستواء بِمَعْنىٰ الِاسْتِيلَاء .
وَأَشْهد لَهُ فِي هَذِه الْآيَة أَنَّهَا لم ترد قطّ إِلَّا فِي إِظْهَار العظمة وَالْقُدْرَة وَالسُّلْطَان وَالْملك ، وَالْعربُ تكنِّي بذلك عَن الْملك فَيَقُولُونَ : فلَان اسْتَوَىٰ علىٰ كرْسِي المملكة وَإِن لم يكن جلس عَلَيْهِ مرّة وَاحِدَة ويريدون بذلك الْملك .
وَأمَّا قَوْلهم : فَإِن حملتم الاسْتوَاء علىٰ الِاسْتِيلَاء لم يبْق لذكر الْعَرْش فَائِدَة ، فَإِنَّ ذَلِك فِي حقّ كلِّ الْمَخْلُوقَات فَلَا يخْتَص بالعرش .

فَالْجَوَاب عَنهُ : أَنَّ كلَّ الموجودات لَّمَا حواها الْعَرْش كَانَ الِاسْتِيلَاء عَلَيْهِ اسْتِيلَاء على جَمِيعهَا وَلَا كَذَلِك غير ، وَأَيْضاً فكناية الْعَرَب السَّابِقَة ترجِّحه ، وَقد تقدَّم الْكَلَام عَن السَّلف فِي معنى الاسْتوَاء كجعفر الصَّادِق وَمن تقدَّم .

وَقَوْلهمْ : اسْتَوَىٰ بمنى استولى إِنَّمَا يكون فِيمَا يدافع عَلَيْهِ .

قُلْنَا : واستوى بمنى جلس أَيْضاً إِنَّمَا يكون فِي جسم ، وَأَنْتُم قد قُلْتُمْ إِنَّكُم لَا تقولُونَ بِهِ وَلَو وصفوه تَعَالَى بالاستواء على الْعَرْش لما أَنْكَرْنَا عَلَيْهِم ذَلِك بل نعدهم إِلَى مَا يشبه التَّشْبِيه أَو هُوَ التَّشْبِيه الْمَحْذُور ، وَالله الْموفق " (١) .

وقال الإمام ابن الحاج (٧٣٧هـ) : " قَالَ ابْنُ رُشْدٍ – رَحِمَهُ اللَّهُ –: وَالِاسْتِوَاءُ فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ ﴾ [السجدة: ٤] مَعْنَاهُ اسْتَوْلَى قَالَهُ الْوَاحِدِيُّ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ الْقَهْرُ، وَالْغَلَبَةُ ، تَقُولُ الْعَرَبُ: اسْتَوَىٰ زَيْدٌ عَلَىٰ أَرْضِ كَذَا أَيْ مَلَكَهُمْ وَقَهَرَهُمْ، قَالَ الشَّاعِرُ:

قَدْ اسْتَوَىٰ بِشْرٌ عَلَىٰ الْعِرَاقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مِهْرَاقِ

وَلَمَّا أَنْ كَانَ الْعَرْشُ أَعْظَمَ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُهْولَةِ اكْتَفَىٰ بِذِكْرِهِ عَمَّا دُونَهُ ، إِذْ أَنَّ مَا دُونَهُ تَبَعٌ لَهُ، وَفِي حُكْمِهِ " (٢) .

وقال الإمام ابن جزي الكلبي (٧٤١هـ) : ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ﴾ حيث وقع حمله قوم على ظاهره (٣) منهم ابن أبي زيد وغيره ، وتأوّله قوم بمعنى : قصد كقوله : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [البقرة:٢٩] ، ولو كان كذلك لقال : ثمَّ استوى إلى العرش ، وتأوّلها الأشعريَّة أنَّ معنى استوى : استولى بالملك والقدرة ، والقول الحقّ : الإيمان به من غير تكييف ، فإنَّ السَّلامة في التَّسليم ... ولم يتكلَّم الصَّحابة ولا التَّابعون في معنى الاستواء ، بل أمسكوا عنه ، ولذلك قال مالك : السُّؤال عنه بدعة " (٤) .

وقال الإمام أبو حيَّان الأندلسي (٧٤٥هـ) : " وَأَمَّا اسْتِوَاؤُهُ عَلَى الْعَرْشِ فَحَمَلَهُ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ مِنَ الِاسْتِقْرَارِ بِذَاتِهِ عَلَى الْعَرْشِ قَوْمٌ ، وَالْجُمْهُورُ مِنَ السَّلَفِ السُّفْيَانَانِ وَمَالِكٌ وَالْأَوْزَاعِيُّ وَاللَّيْثُ وَابْنُ الْمُبَارَكِ وَغَيْرُهُمْ فِي أَحَادِيثِ الصِّفَاتِ عَلَى الْإِيمَانِ بِهَا وَإِمْرَارِهَا عَلَىٰ مَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَىٰ مِنْ غَيْرِ تَعْيِينِ مُرَادٍ ، وَقَوْمٌ تَأَوَّلُوا ذَلِكَ

---

(١) انظر : طبقات الشافعية الكبرى (٩/ ٤٧-٤٩) .

(٢) انظر : المدخل (٢/ ١٤٨-١٤٩) .

(٣) أي ظاهر اللفظ لا المعنى .

(٤) انظر : التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٢٩٠) .

عَلَىٰ عِدَّةِ تَأْوِيلَاتٍ. وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ : فَعَلَ فِعْلًا فِي الْعَرْشِ سَمَّاهُ اسْتِوَاءً ، وَعَنْ أَبِي الْفَضْلِ بْنِ النَّحْوِيِّ أَنَّه قَالَ : الْعَرْشِ مَصْدَرُ عَرَشَ يَعْرِشُ عَرْشًا ، وَالْمُرَادُ بِالْعَرْشِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ ﴾ هَذَا وَهَذَا يَنْبُو عَنْهُ مَا تَقَرَّرَ فِي الشَّرِيعَةِ مِنْ أَنَّه جِسْمٌ مَخْلُوقٌ مُعَيَّنٌ ، وَمَسْأَلَةُ الِاسْتِوَاءِ مَذْكُورَةٌ فِي عِلْمِ أُصُولِ الدِّين ، وَقَدْ أَمْعَنَ فِي تَقْرِيرِ مَا يُمْكِنُ تَقْرِيرُهُ فِيهَا القفَّال وَأَبُو عَبْدِ اللهَّ الرَّازي ، وَذَكَرَ ذَلِكَ فِي " التَّحْرِيرِ " فَيُطَالَعُ هُنَاكَ ، وَلَفْظَةُ الْعَرْشِ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ مَعَانٍ كَثِيرَةٍ ، فَالْعَرْشُ : سَرِيرُ الْمُلْكِ ، وَمِنْهُ : ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف:١٠٠] ، ﴿ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل:٤١] ، والْعَرْشِ : السَّقْفُ ، وَكُلُّ مَا عَلَا وَأَظَلَّ فَهُوَ عَرْشٌ ، والْعَرْشِ : الْمُلْكُ وَالسُّلْطَانُ وَالْعِزُّ، وَقَالَ زُهَيْرٌ:

تَدارَكْتُما عَبْسًا وَقَدْ ثُلَّ عَرْشُها   وَذُبْيَانَ إِذْ زَلَّتْ بِأَقْدامِها النَّعْلُ

وَقَالَ آخَرُ:

إِنْ يَقْتُلُوكَ فَقَدْ ثَلَلْتَ عُرُوشَهُمْ   بِعُتَيْبَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ شِهَابِ

وَالْعَرْشُ : الْخَشَبُ الَّذِي يُطْوَىٰ بِهِ الْبِئْرُ بَعْدَ أَنْ يُطْوَىٰ أَسْفَلُهَا بِالْحِجَارَةِ ، وَالْعَرْشُ : أَرْبَعَةُ كَوَاكِبَ صِغَارٍ أَسْفَلُ مِنَ الْعُوَاءِ يُقَالُ لَهَا: عَجُزُ الْأَسَدِ وَيُسَمَّىٰ عَرْشَ السِّمَاكِ ، وَالْعَرْشُ : مَا يُلَاقِي ظَهْرَ الْقَدَمِ وَفِيهِ الْأَصَابِعُ ، وَاسْتَوَىٰ أَيْضًا يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَىٰ اسْتَقَرَّ وَبِمَعْنَىٰ عَلَا وَبِمَعْنَىٰ قَصَدَ وَبِمَعْنَىٰ سَاوَىٰ وَبِمَعْنَىٰ تَسَاوَىٰ ، وَقِيلَ بِمَعْنَىٰ اسْتَوْلَىٰ ، وَأَنْشَدُوا:

هُمَا اسْتَوَيَا بِفَضْلِهِمَا جَمِيعًا   عَلَىٰ عَرْشِ الْمُلُوكِ بِغَيْرِ زُورِ

وَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ : لَا نَعْرِفُ اسْتَوَىٰ بِمَعْنَىٰ اسْتَوْلَىٰ ، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ ﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يَعُودَ عَلَىٰ المصدر الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ خَلَقَ ثمَّ اسْتَوَىٰ خَلْقُهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ ، وَكَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ لَا يَتَعَيَّنُ حَمْلُ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ " اسْتَوَىٰ " عَلَىٰ الرَّحمن إِذْ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الرَّحمن خَبَرَ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ وَالضَّمِيرُ فِي ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ عَائِدٌ عَلَىٰ الْخَلْقِ الْمَفْهُوم مِنْ قَوْلِهِ : ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾ [طه:٤] أَيْ : هُوَ الرَّحمن اسْتَوَىٰ خَلْقُهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ ، لأنَّه تعَالَىٰ لَمَّا ذَكَرَ خَلْقَ السَّموات وَالْأَرْض ذَكَرَ خَلْقَ مَا هُوَ أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ وَأَوْسَعُ من السَّموات وَالْأَرْضِ وَمَعَ الِاحْتِمَالِ فِي الْعَرْشِ وَفِي اسْتَوَىٰ وَفِي الضَّمِيرِ الْعَائِدِ لَا يَتَعَيَّنُ حَمْلُ الْآيَةِ عَلَىٰ ظَاهِرِهَا هَذَا مَعَ الدَّلَائِلِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي أَقَامُوهَا عَلَىٰ اسْتِحَالَةِ ذَلِكَ. وَقَالَ الْحَسَنُ : اسْتَوَىٰ أَمْرُهُ ، وَسَأَلَ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ رَجُلٌ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ فَقَالَ: كَيْفَ اسْتَوَىٰ فَأَطْرَقَ رَأْسَهُ مَلِيًّا

وَعَلَتْهُ الرُّحَضَاءُ ثمَّ قَالَ: الإِسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ وَمَا أَظُنُّكَ إِلَّا ضَالًّا ثمَّ أَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ " (١) .

وقال الإمام الذَّهبي (٧٤٨هـ) نقلاً عن الإمام الحافظ الفقيه عبد الله بن الزُّبير القرشي الأسدي الحميدي : " ... وما نطق به القرآن والحديث مثل : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] ، ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٨٧] ، وما أشبه هذا لا نزيد فيه ولا نفسِّره ، ونقف على ما وقف عليه القرآن والسُّنَّة ونقول: ، ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] ، ومن زعم غير هذا فهو مُبطلٌ جهميّ " (٢) .

وقال الإمام الذَّهبي أيضاً : " قَالَ الإِمَام أَبُو الْقَاسِم سعد بن عَليّ الزّنجاني : سَأَلت أَيَّدك الله بَيَان مَا صَحَّ لديَّ من مَذْهَب السَّلف وَصَالح الْخلف فِي الصِّفَات ، فاستخرت الله تَعَالَى وأجبت بِجَوَاب الْفَقِيه أبي الْعَبَّاس أَحْمد بن عمر بن سُرَيج (٣٠٦هـ) ، وَقد سُئِلَ عَن هَذَا ذكره أَبُو سعيد عبد الْوَاحِد بن مُحَمَّد الْفَقِيه ، قَالَ : سَمِعت بعض شُيُوخنَا يَقُول : سُئِلَ ابْن سُرَيج رَحمَه الله عَن صِفَات الله تَعَالَى ، فَقَالَ : حرَام على الْعُقُول أَن تمثِّل الله ، وعَلى الأوهام أَن تحدّه ، وعَلى الْأَلْبَاب أَن تصف إِلَّا مَا وصف بِهِ نَفسه فِي كِتَابه أَو على لِسَان رَسُوله ، وَقد صَحَّ عَن جَمِيع أهل الدّيانَة وَالسُّنَّة إِلَى زَمَاننَا أَنَّ جَمِيع الْآي وَالْأَخْبَار الصَّادقة عَن رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجب على الْمُسلمين الْإِيمَان بِكُلِّ وَاحِد مِنْهُ كَمَا ورد ، وَأَنَّ السُّؤَال عَن مَعَانِيهَا بِدعَة ، وَالْجَوَاب كفر وزندقة ، مثل قَوْله : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه:٥] ... ونظائرها مِمَّا نطق بِهِ الْقُرْآن ... إِلَى أَن قَالَ : اعتقادنا فِيهِ وَفِي الْآي الْمُتَشَابه فِي الْقُرْآن : أَن نقبلها ، وَلَا نردّها ، وَلَا نتأوّلها بتَأْوِيل الْمُخَالفين ، وَلَا نحملها على تَشْبِيه المشبِّهين ، وَلَا نترجم عَن صِفَاته بلغَة غير الْعَرَبيَّة ، ونسلِّم الْخَبَر الظَّاهِر وَالْآيَة الظَّاهِر تنزيلها " (٣) .

وقال الإمام ابن اللبَّان (٧٤٩هـ) : " ومن الآيات المتشابهة : آيات الإستواء ، و الأحاديث الواردة فيه ، ومرجعها عند المحقِّقين إلى الآيات المحكمات ، وأوَّل ما ينبغى تقديمه معنى الإستواء لغة ، وأصله إفتعال ، من السَّواء ، والسَّواء في اللغة : العدل ، والوسط ، وله وجوه في الاستعمال ترجع إلى ذلك ، ومنها استوى : بمعنى أقبل ، نقله الهروي عن الفرَّاء قال : العرب يقولون : استوى إليَّ يخاصمنى ، أي : أقبل عليَّ ، الثَّاني

---

(١) انظر : البحر المحيط في التفسير (/ ٦٥-٦٦٥) .

(٢) انظر : تذكرة الحفاظ (٢/٣-٤) .

(٣) انظر : العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها (٢٠٧-٢٠٨) .

: بمعنىٰ قصد ، قاله الهروي ، الثَّالث : بمعنىٰ استولىٰ ، الرَّابع : بمعنىٰ اعتدل ، الخامس : بمعنىٰ استقام ، السَّادس : بمعنىٰ علا ، قال الشَّاعر :

ولَمَّا علونا و استوينا عليهم   تركناهم صرعىٰ لنسر و كاسر

قال الحسين بن سهل (٣٩٥هـ) : إذا علم أصل الوضع و تصريف الاستعمال فنزِّل علىٰ ذلك الاستواء المنسوب إلىٰ ربِّنا سبحانه وتعالىٰ ، وقد فسَّره الهروي بالقصد ، وفسَّره ابن عرفة بالإقبال ، كما نقل عن الفرَّاء وفسَّره بعضهم بالإستيلاء ، وأنكره ابن الأعرابي ، قال : العرب لا تقول استولىٰ إلَّا لمن له مضاد ، وفيما قاله نظر ، لأنَّ الإستيلاء من الولىٰ ، و هو القرب ، وكلاهما لايفتقر إطلاقه لمضاد .

ونقل الحسن بن سهل عن ابن عبَّاس – رضي الله عنه– أنَّه فسَّر قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [فصلت:١١] قال : علا أمره ، وهذه التَّفاسير كلّها محتمله ، وهي علىٰ وفق اللغة والمعاني اللائقة بربِّنا سبحانه

.

وأمَّا استوىٰ بمعنىٰ استقرَّ ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ﴾ [هود :٤٤] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾[الزخرف :١٣] ، فلا يليق نسبة مثله إلىٰ إستواء ربِّنا تعالىٰ علىٰ العرش " (١) .

وقال الإمام الذَّهبي (٧٤٨هـ) : " ... وَلَو قَالَ : إِنَّ الله جلسَ للإنصاف أَو قَامَ للإنصاف كفر " (٢) .

وقال الإمام أبو الحسن علي بن عبد الكافي السُّبكي (٧٥٦هـ) : " ... فالمقدم علىٰ هذا التَّأويل – أي تأويل الاستواء بالاستيلاء – لم يرتكب محذوراً ولا وصف الله تعالىٰ بما لا يجوز عليه " (٣) .

وقال الإمام عضد الدِّين الإيجي (٧٥٦هـ) : " لَمَّا وصف تعالىٰ بالاستواء في قوله : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] اختلف الأصحاب فيه ، فقال الأكثرون : هو الاستيلاء ويعود إلىٰ القدرة .

قال الشَّاعر :

قَدْ اسْتَوَىٰ بِشْرٌ عَلَىٰ الْعِرَاقِ   مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مِهْرَاقِ

أي : استوىٰ ، وقال الآخر :

فلمَّا علونا واستوينا عليهم   تركناهم صرعىٰ لنسر وطائر

أي : استولينا .

---

(١) انظر : إزالة الشبهات عن الآيات والأحاديث المتشابهات (ص١٨٢–١٨٥) .

(٢) انظر : الكبائر (ص١٥٧) .

(٣) السيف الصقيل في الرد علىٰ ابن زفيل (ص٩٩) ، ومعه تكملة الرد علىٰ نونية ابن القيم للكوثري .

لا يقال : الاستواء يشعر بالاضطراب والمقاومة والمغالبة .

وأيضاً : لا فائدة لتخصيص العرش ، لأنَّا نجيب عن الأوَّل بمنع الإشعار ، وعن الثَّاني بأنَّ الفائدة الإشعار بالأعلىٰ علىٰ الأدنىٰ . إذ مقرَّر في الأوهام أنَّ العرش أعظم الخلق ، وقيل : هو القصد ، نحو ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:٢٩] ، وهو بعيد ، إذ ذلك يعدَّىٰ بـ إلىٰ دون علىٰ .

وذهب الشَّيخ في أحد قوليه إلىٰ أنَّه صفة زائدة ولم يقم دليلاً عليه ، ولا يجوز التَّعويل علىٰ الظَّواهر مع قيام الاحتمال " (١) .

وقال الإمام السَّمين الحلبي (٧٥٦هـ) : " قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ، أي : استولىٰ. وأنشدوا عليه قول الشَّاعر:

قد اسْتَوَىٰ بِشْرٌ علىٰ العِرَاقِ   مِن غَيْرِ سَيْفٍ ودم مُهْرَاقِ

و «استوىٰ» يقال باعتبارين أحدهما : إسناده إلىٰ شيئين فأكثر، نحو: استوىٰ زيدٌ وعمروٌ في كذا. والثَّاني : أن يُقال لاعتدال الشَّيء في ذاته، كقوله تعالىٰ: ﴿ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ﴾ [النجم: ٦] . قال الرَّاغب: ومتىٰ عُدِّي بعلىٰ اقتضىٰ معنىٰ الاستيلاء نحو قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ ، معناه : استوىٰ له ما في السَّماوات وما في الأرض بتسويته تعالىٰ إيَّاه، كقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٩] . وقيل: معناه استوىٰ كلُّ شيءٍ في النِّسبة إليه. فلا شيء أقرب إليه من شيءٍ ، إذ كان تعالىٰ ليس كالأجرام الحالَّة في مكان دون مكان " (٢) .

وقال الإمام تاج الدِّين السُّبكي (٧٧١هـ) ، في تقرير عقيدة الإمام الغزالي (٥٠٥هـ) : " ... وَأَنَّه اسْتَوَىٰ علىٰ الْعَرْش علىٰ الْوَجْه الَّذِي قَالَه ، وبالمعنىٰ الَّذِي أَرَادَهُ ، اسْتِوَاء منزَّهاً عَن المماسَّة والاستقرار ، والتَّمكُّن والحلول والانتقال ، لَا يحملهُ الْعَرْش ، بل الْعَرْش وَحَمَلته ، محمولون بلطف قدرته ، ومقهورون فِي قَبضته ، وَهُوَ فَوق الْعَرْش وَفَوق كلّ شَيْء إلىٰ تخوم الثَّرىٰ ، فوقيَّة لَا تزيده قُرباً إلىٰ الْعَرْش وَالسَّمَاء ، بل هُوَ رفيع الدَّرَجَات عَن الْعَرْش والسَّما ، كَمَا أَنَّه رفيع الدَّرَجَات عَن الثَّرىٰ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِك قريب من كلِّ مَوْجُود ، وَهُوَ أقرب إلىٰ العبيد من حَبل الوريد ، وَهُوَ علىٰ كلِّ شَيْء شَهيد ، إِذْ لَا يماثل قُربه قُرب الْأَجْسَام ، كَمَا لَا تماثل ذَاته ذَات الْأَجْسَام . وَأَنَّه لَا يحلُّ فِي شَيْء ، وَلَا يحلُّ فِيهِ شَيْء ، تَعَالَىٰ عَن أَن يحويه مَكَان ، كَمَا تقدَّس

(١) انظر : كتاب المواقف (٣/ ١٤٤) .

(٢) انظر : عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ (٢/ ٢٤٠-٢٤١) .

عَن أَن يحويه زمَان ، بل كَانَ قبل أَن خلق الزَّمَان وَالْمَكَان ، وَهُوَ الْآن على مَا عَلَيْهِ كَانَ . وَأَنَّه بَائِن من خلقه بصفاته ، وَلَيْسَ فِي ذَاته سواهُ ، وَلَا فِي سواهُ ذَاته . وَأَنَّه مقدَّس عَن التَّغَيُّر والانتقال ، لَا تحلُّه الْحَوَادِث ، وَلَا تغيِّره الْعَوَارِض ، بل لَا يزَال فِي نعوت جَلَاله منزَّهاً عَن الزَّوَال ، وَفِي صِفَات كَمَاله مستغنياً عَن زِيَادَة الاستكمال .

وَأَنَّه فِي ذَاته مَعْلُوم الْوُجُود بالعقول ، مرئي الذَّات بالأبصار ، نعْمَة مِنْهُ ولطفاً بالأبرار فِي دَار الْقَرار ، وإتماماً للنَّعيم بِالنّظرِ إِلَى وَجهه الْكَرِيم " (١) .

وقال أيضاً : " قَالَ الشَّيخ عز الدِّين بن عبد السَّلَام رَحمَه الله وَرَضِي عَنهُ وعنَّا بِهِ : الْحَمد لله ذِي الْعِزَّة والجلال وَالْقُدْرَة والكمال والإنعام والإفضال ، الْوَاحِد الْأَحَد الْفَرد الصَّمد الَّذِي لم يلد وَلم يُولد وَلم يكن لَهُ كفواً أحد ، لَيْسَ بجسم مُصَوَّر وَلَا جَوْهَر مَحْدُود مُقَدَّر ، وَلَا يشبه شَيْئاً وَلَا يُشبههُ شَيْء ، وَلَا تحيط بِهِ الْجِهَات وَلَا تكتنفه الأرضون وَلَا السَّموات ، كَانَ قبل أَن كَون الْمَكَان ، ودبَّر الزَّمَان وَهُوَ الْآن على مَا عَلَيْهِ كَانَ ، خلق الْخلق وأعمالهم ، وَقدَّر أَرْزَاقهم وآجالهم ، فَكلُّ نعْمَة مِنْهُ فَهِيَ فضل ، وكلُّ نقمة مِنْهُ فَهِيَ عدل ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٣] ، اسْتَوَى على الْعَرْش الْمجِيد على الْوَجْه الَّذِي قَالَه وبالمعنى الَّذِي أَرَادَهُ ، اسْتِوَاء منزَّهاً عَن المماسَّة والاستقرار ، والتَّمكُّن والحلول والانتقال ، فتعالى الله الْكَبِير المتعال عَمَّا يَقُوله أهل الغيِّ والضَّلال ، بل لَا يحملهُ الْعَرْش بل الْعَرْش وَحَمَلته محمولون بلطف قدرته مقهورون فِي قَبضته " (٢) .

وقال الإمام ابن كثير (٧٧٤هـ) : " وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ فَلِلنَّاسِ فِي هَذَا الْمَقَامِ مَقَالَاتٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا، لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ بَسْطِهَا، وإنَّما يُسلك فِي هَذَا الْمَقَامِ مَذْهَبُ السَّلَفِ الصَّالح : مَالِكٌ ، وَالْأَوْزَاعِيُّ ، والثوري ، وَاللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ ، وَالشَّافِعِيُّ ، وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ ، وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ وَغَيْرُهُمْ ، مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ قَدِيماً وَحَدِيثاً ، وَهُوَ إِمْرَارُهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَشْبِيهٍ وَلَا تَعْطِيلٍ. وَالظَّاهِرُ الْمُتَبَادَرُ إِلَى أَذْهَانِ الْمُشَبِّهِينَ مَنْفِيٌّ عَنِ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ لَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِهِ ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] ، بَلِ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ الْأَئِمَّةُ -مِنْهُمْ نُعَيم بْنُ حَمَّادٍ الْخُزَاعِيُّ شَيْخُ الْبُخَارِيِّ -: "مَنْ شَبَّهَ اللهَ بِخَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ". وَلَيْسَ فِيمَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا رَسُولَهُ

(١) انظر : طبقات الشافعية الكبرى (٦/ ٢٣١) .

(٢) انظر : طبقات الشافعية الكبرى (٨/ ٢١٩) .

تَشْبِيهٌ، فَمَنْ أَثْبَتَ للهِ تَعَالَىٰ مَا وَرَدَتْ بِهِ الْآيَاتُ الصَّرِيحَةُ وَالْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ، عَلَىٰ الْوَجْهِ الَّذِي يَلِيقُ بِجَلَالِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَنَفَىٰ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ النَّقَائِصَ، فَقَدْ سَلَكَ سَبِيلَ الْهُدَىٰ " .

وقال أيضاً : " وَقَوْلُهُ: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ "الْأَعْرَافِ" ، وَأَنَّهُ يُمَرَّر ، كَمَا جَاءَ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ، وَلَا تَشْبِيهٍ، وَلَا تَعْطِيلٍ، وَلَا تَمْثِيلٍ، تَعَالَىٰ اللهُ عُلُوًّا كَبِيرًا " (١) .

وقال الإمام ابن عادل الحنبلي (٧٧٥هـ) : " قوله: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ الظَّاهِرُ عَوْدُ الضَّميرِ علىٰ الله – تعالىٰ – بالتَّأويل المذكُورِ في البقرةِ ، وقيل: الضَّمِيرُ يعود علىٰ الخَلْق المَفْهُوم من «خَلَقَ» ثمَّ اسْتَوَىٰ خَلْقُه علىٰ العَرْشِ، ومثله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] قالوا: يُحتمل أن يَعودَ الضَّميرُ في «اسْتَوَىٰ» علىٰ «الرَّحْمنِ» ، وأنْ يعود علىٰ الخَلْقِ، ويكون «الرَّحْمن» خبراً لمبتدأ محذوف أي: هو الرَّحْمنُ ...

والعَرْشُ: اسم ملك والعَرْشُ المَلكُ والسُّلطَانُ. يقال: قد ذهب عرش فلان أي : ذهب مُلْكُهُ وعِزهُ وسُلْطَانُهُ قال زُهَيْرٌ:

تَدَارَكْتُمَا عَبْساً وَقَدْ ثُلَّ عَرْشُهَا   وذُبْيَانَ إِذْ زَلَّتْ بأَقْدَامِهَا النَّعْلُ

وقد تُؤُوِّل العَرْشُ في الآيَةِ بمعنىٰ الملك أي: ما استوىٰ الملكُ الإلَهُ عزَّ وجلَّ ...

فإن قيل : الاستواءُ في اللُّغَةِ: هو العُلُوُّ والاسْتِقْرَارُ.

قال الجَوْهَرِيُّ: «استوىٰ من اعْوِجَاج، واستوىٰ علىٰ ظَهْرِ دابّتهِ أي: استقرَّ، واستوىٰ إلىٰ السَّماء أي قَصَدَ، واستوىٰ أي: اسْتَوْلَىٰ، وظهر؛ قال الشاعر:

قد اسْتَوَىٰ بِشْرٌ علىٰ العِرَاقِ   مِن غَيْرِ سَيْفٍ ودم مُهْرَاقِ

واستوىٰ الرَّجُلُ أي: انتهىٰ شبابُهُ، واستوىٰ الشَّيء أي: اعتدل، وحكىٰ ابْنُ عَبْدِ البرِّ عن أبي عُبَيْدَةَ في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ قال: عَلاَهُ .

قال الشَّاعِرُ: وَقَدْ خُلِقَ النَّجْمُ اليَمَانِيُّ واسْتَوَىٰ ... أي: علا وارتفع .

قال القرطبيُّ: علوُّ الله – تعالىٰ – وارتفاعُهُ عبارةُ عن علوِّ مَجْدِهِ، وصفاتِهِ، وملكُوتِهِ أي: ليس فوقَهُ فيما يجبُ له من تعالىٰ الجلال أحد ، ولا مَعَهُ من يكون العلوّ مُشْتَركاً بينه وبينه لكنَّه العليّ بالإطلاق سبحانه .

فصل في تأويل الآية :

قال ابن الخطيب : اعلم أنَّه لا يمكن أن يكونَ المراد من الآية كونه مُسْتَقِرّاً علىٰ العَرْشِ، ويدلُّ علىٰ فَسَادِهِ وجوهٌ عقليَّةٌ ونقليَّةٌ: إمَّا العقليَّةُ فأمُورٌ:

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٢٦-٤٢٧) ، (٤/ ٤٣٠) بالترتيب .

أحدها: أنَّه لو كان مستقرّاً علىٰ العرش لكان من الجانب الَّذِي يلي العَرْشَ مُتَنَاهِياً، وإلَّا لزمَ كونُ العَرْشِ داخلاً في ذاتِهِ، وهو محالٌ ، وكلُّ ما كَانَ مُتَنَاهِياً فإنَّ العقلَ يقتضي بأنَّهُ لا يمنع أن يصير أَزْيَدَ منه أو أنقص منه بذرَّةٍ، والعلمُ بهذا الجواز ضروريٌّ، فلو كان البَاري - تعالىٰ - متناهياً من بعض الجوانبِ لكانت ذاتُهُ قابِلَةً للزِّيَادَةِ والنُّقصان، وكلُّ ما كان كذلك كان اختصاصه بذلك المقدار المعيَّن؛ لتخصيص مخصِّصٍ وتقدير مُقدِّرٍ، وكلُّ ما كان كذلك فَهُوَ مُحْدَثٌ ، فثبت أنَّه تعالىٰ لو كان علىٰ العرش؛ لكان من الجانب الذي يلي العرش متناهياً ولو كان كذلك لكان مُحْدَثاً وهذا مُحَالٌ فكونه علىٰ العَرْشِ يجب أن يكون مُحَالاً.

وثانيها: لو كان في مكانٍ وجهة، لكان إمَّا أنْ يكُونَ غير مُتَنَاهٍ من كلِّ الجهات، وإمَّا أن يكون متناهياً من كلِّ الجهاتِ، وإمَّا أن يكون متناهياً عن بعض الجهاتِ دون البَعْضِ، والكلُّ باطلٌ فالقولُ بكونه في المكانِ والحيِّزِ بَاطِلٌ قطعاً.

بيان الأوَّل: أنَّه يلزم أن تكون ذاتُهُ مخالطة لجميع الأجسام السُّفْلِيَّةِ والعلويَّة، وأنْ تكون مخالطة للقَاذُورَاتِ والنَّجَاسات، وتكون الأرْضُونَ أيضاً حالَّةً في ذاتِهِ.

وإذا ثبت هذا فَنَقُولُ : الذي هو محلُّ السَّمواتِ، إمَّا أن يكون هو عين الشَّيء الذي هو محلُّ الأرضين، أو غيره فإن كان الأوَّل؛ لزم كون السَّموات، والأرضين حالَّتين في محلٍّ واحد من غير امتياز بين محلَّيهما أصْلاً، وكلُّ حالَّين حلَّا في محلٍّ واحد لم يكن أحدهما ممتازاً عن الآخر فلزم أن يقال السَّماوات لا تمتاز عن الأرضين في الذَّاتِ، وذلك باطل ، فإن كان الثَّاني لَزِمَ أن تكون ذاتُ اللهِ تعالىٰ مركَّبةً من الأجزاء والأبعاض ، وهو مُحَالٌ.

والثَّالث: وهو أنَّ ذَاتَ اللهِ تعالىٰ إذَا كانت حَاصِلَةٌ في جميع الأحياز والجهات ، فإمَّا أن يُقَالَ : الشَّيء الذي حصل فوق هو عَيْن الشَّيء الذي حصل تحت ، فحنيئذ تكون الذَّاتُ الواحدة قد حصلت دفعة واحدة في أحيازٍ كَثِيرَةٍ ، وإنْ عُقِلَ ذلك فلم يُعْقَلُ أيضاً حصولُ الجسم الوَاحِدِ في أَحْيَازٍ كثيرةٍ دَفْعَةً واحدةً ؟ وهو مُحَالٌ في بديهة العقل ، وأمَّا إنْ قيل إنَّ الشَّيء الذي حصل فوق غير الشَّيء الذي حصل تحت، فحينئذ يلزمُ حصولُ التَّركيب والتَّبعيض في ذَاتِ اللهِ تعالىٰ وَهُوَ مُحَالٌ.

وأمَّا القِسْمُ الثَّانِي، وهو أن يُقَالَ : أنَّه متناهٍ من كلِّ الجهاتِ فنقولُ: كل ما كان كذلِكَ فهو قَابِلٌ للزِّيادةِ والنُّقْصَانِ في بديهة العَقْلِ، وكلَّما كان كذلك كان اختصاصه بالمقْدَرِ المُعَيَّنِ لأجل تخصيص مُخَصِّصٍ ، وكلُّ ما كان كذلك فهو محدث، وأيضاً : فإنَّ جَازَ أن يكُونَ الشَّيء المَحْدُودُ من كلِّ الجوانب قديماً أزليَّاً فاعلاً للعالمِ ، فلمَ لا يُعْقَلُ أن يُقال: خالقُ العالمِ هو الشَّمْسُ، أو القَمَرُ، أو كوكبٌ آخرُ ، وذلك بَاطِلٌ بالاتِّفاق.

وأمَّا القِسْمُ الثَّالثُ، وهو أنْ يُقالَ بأنَّهُ متناهٍ من بعض الجوانبِ، وغير مُتَنَاهٍ من سائر الجوانبِ ، فهذا أيضاً بَاطِلٌ من وجوه: أحدها: انَّ الجانب المُتَنَاهي غير ما صدق عليه أنَّه غير مُتَنَاهٍ إلَّا لصدق النَّقيضين معاً وهو محالٌ، وإذا حصل التَّغاير لزم كونه تعالىٰ مُرَكَّباً من الأَجْزَاءِ والأبعاض.

وثانيها: أنَّ الجانبَ الذي صدق حُكْمُ العَقْلِ عليه بكونه متناهياً، إمَّا أن يكون مساوياً للجانب الذي صدق حكم العَقْل عليه بكونِهِ غير مُتَنَاهٍ، وإمَّا ألاَّ يكون كذلك، والأوَّلُ بَاطِلٌ لأنَّ الأشياء المتساويةَ في تمام الماهِيَّةِ، كُلُّ ما صحَّ علىٰ واحد منها صَحَّ علىٰ الآخر البَاقِي، وإذا كان كذلك فالجانبُ الذي هو غير متناهٍ يمكن أن يَصير مُتناهِياً والجانب الذي هو متناه يمكن أن يصيرَ غير متناهٍ.

ومتىٰ كان الأمر كذلك كان النُّموُّ والذُّبول والزِّيادةُ والنُّقصانُ، والتَّفرُّقُ والتَّمَزُّقُ علىٰ ذاته ممكناً وكل ما كان كذلك فهو مُحْدَثٌ، وذلك علىٰ الإله القديم مُحَالٌ.

البرهانُ الثالث: لو كان البَارِيءُ – تعالىٰ – حَاصِلاً في المكان والجهة لكان الأَمْرُ المُسَمَّىٰ بالجِهَةِ إمَّا أن يكون موجوداً مشاراً إليه، وإما ألاَّ يَكُونَ كذلك، والقِسْمَانِ باطلانِ، فكان القول بكونه تعالىٰ في المكانِ والجهةِ باطلاً.

أمَّا بيانُ فَسَادِ القِسْمِ الأوَّلِ، فلأنَّهُ لو كان المُسَمَّىٰ بالحيِّز والجهةِ موجوداً مُشَاراً إليه، فحينئذ يكون المُسَمَّىٰ بالحيِّز، والجهة بُعْداً، وامتداداً، والحاصل فيه أيضاً يجب أن يكون له في نَفْسِهِ بَعْدٌ وامتدادٌ، وإلا لامتنع حُصُولُهُ فيه وحينئذٍ يَلْزَمُ تداخُلُ البُعْدَيْنِ، وذلك مُحَالٌ للدَّلائِلِ المَشْهُورةِ في هذا الباب. وأيضاً؛ فَيَلْزَمَ من كون البَارئ قديماً أزليّاً كون الحيِّز، والجهة أَزَلِيَّيْن، وحينئذٍ يلزمُ أن يكون قد حَصَلَ في الأَزَلِ موجودٌ قائمٌ بنفسه سوىٰ الله وذلك باطل بإجْمَاعِ أكثر العقلاء.

وأمَّا بيانُ فسادِ القسم الثَّانِي فَهُوَ من وجهين:

أحدهما: أنَّ العدمَ نفي مَحْضٌ، وعدم صرف، وما كان كذلك امتنع كونه ظَرْفاً لغيره، وجهة لغيره.

وثانيهما: أنَّ كُلَّ ما كان حاصلاً في جهة فجهته مُمْتَازَةٌ في الحسِّ عن جهة غيره ولو كانت تلك الجهة عدماً محضاً لزم كونُ العدمِ المحض مُشَاراً غليه بالحسِّ وذلك باطلٌ؛ فثبت أنَّه تعالىٰ لو كان في حيِّزٍ وجهةٍ لأفضىٰ إلىٰ أحد هذين القِسْمين البَاطليْنِ؛ فوجب أنْ يَكُون القَوْلُ به بَاطِلاً .

فإن قيل: فَهذَا أيضاً واردٌ عليكم في قولكم: الجِسْمُ حَاصِلٌ في الحيِّزِ والجهةِ فنقول: نَحْنُ علىٰ هذا الطَّريقِ لا نُثْبِتُ للجِسْمِ حَيِّزاً، ولا جهة أَصْلاً أَلْبَتَّة، بحيث تكُونَ ذات الجِسْمِ نافذة فيه وسَارِيَةً، بل المكانُ عبارة

عن السَّطْحِ الباطنِ من الجِسْمِ الحاوي المماسّ للسَّطْحِ الظَّاهِرِ من الجسم المَحْوِيِّ، وهذا المعنىٰ مُحَالٌ بالاتِّفاق في حقّ الله – تعالىٰ – فسقط هذا السُّؤالُ، وبقيَّةُ البراهيم العَقْليَّة مذكورةٌ في تفسير ابن الخطيب.

وأمَّا الدَّلائل السَّمْعيَّةُ فَمِنْهَا : قولُهُ تعالىٰ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١] . فوصفه بكونه أحَداً، والأحد مبالغةٌ في كونه واحداً والذي يمتلئُ منه العَرْشُ، ويفضل علىٰ العرش يكون مُرَكَّباً من أجزاء كثيرة جداً فوق أجزاءِ العَرْشِ، وذلك يُنَافِي كونه أحَداً ...

ومنها : قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٧] فلو كان إلهُ العالمِ في العرش لكان حَامِلُ العرشِ حامِلاً للإله؛ فوجب أن يكون مَحْمُولاً حاملاً ومحفوظاً حَافِظاً، وذلك لا يقُولُهُ عاقل.

ومنها : قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ ﴾ [محمد: ٣٨] حكم بِكَوْنِهِ غَنِيّاً علىٰ الإطْلاقِ، وذلك يوجب كَوْنَهُ تعالىٰ غنيّاً عن المكان والجهة.

ومنها : أنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا طَلَبَ حقيقة الإلهِ من موسىٰ – عليه السَّلام – ولم يزد موسىٰ عليه السَّلام علىٰ ذكر صفة الخلاقية ثلاث مرَّات فإنه قال: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الشعراء: ٢٣] ففي المرة الأولىٰ قال : ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤]

وفي المرَّة الثَّانية قال: ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦] .

وفي المرة الثَّالثة قال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨] . وكلُّ ذلك إشارة إلىٰ الخلاقيَّة، وأمَّا فرعون فإنَّهُ قال: ﴿ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ * أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ [غافر: ٣٦- ٣٧] فطلب الإله في السَّماءِ، فعلمنا أنَّ وصف الإله بالخلاقية، وعدم وصفه بالمَكَانِ والجهة دين موسىٰ وجميع الأنبياء ووصفه تعالىٰ بكونه في السَّماء دينُ فرعون، وإخوانه مِنَ الكَفَرَةِ.

ومنها : قوله تعالىٰ في هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ، وكلمة «ثمَّ» للتَّراخي وهذا يدلُّ علىٰ أنَّه تعالىٰ إنَّما استوىٰ علىٰ العرش بعد تخليق السَّموات والأرض، فإنْ كان المُرَادُ من الاستواء الاستقرار؛ لَزِمَ أن يقال: أنَّه ما كان مستقراً علىٰ العرش، بل كان مُعْوَجاً مُضطرباً، ثمَّ استوىٰ عليه بعد ذلك، وذلك يُوجِبُ وصفه بِصِفَاتِ الأَجْسامِ من الاضطراب والحركة تَرَاةً، والسُّكون أخرىٰ، وذلك لا يَقُوله عاقِلٌ.

ومنها : عَنْ إبراهيم – عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ – في إلهية الكواكب بكونها آفلة غاربة، فلو كان إله العالم جِسْماً، لكان أبداً غارباً آفلاً وكان متنقلاً من الاضطراب والاعوجاج إلىٰ الاستواء والسكون والاستقرار، فكلّ ما جعله طعناً في إلهية الكواكب يكون حاصلاً في إله العالمِ فكيف يمكن الاعتراف بإلهيته؟! .

ومنها : أنَّه تعالىٰ ذكر قبل قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ﴾ شيئاً، وبعده شيئاً آخر، أمّا المذكُورُ قبل هذه الكلمة فهو قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ ، وذلك يدلُّ علىٰ وُجُود الصَّانِع، وقدرته، وحكمته.

وأَمَّا المذكورُ بعد هذه الكلمة فأشياء أَوَّلُها: ﴿يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ ، وذلك يَدُلُّ علىٰ وجود الله تعالىٰ، وعلىٰ قدرته وحكمته.

وثانيها: قوله: ﴿ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ ﴾ ، وهذا أيضاً يَدُلُّ علىٰ الوُجُودِ، والقُدْرَةِ والعلم.

وثالثها: قوله: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ ﴾ ، وهو أيضاً إشارة إلىٰ كمال قُدْرَتِهِ، وحكمته.

وإذا ثَبَتَ هذا فَنَقُولُ: أوَّلُ الآية إشارة إلىٰ ذِكْرِ ما يَدُلُّ علىٰ الوُجُودِ والقدرة والعلم، وآخر الآية يَدُلُّ أيضاً علىٰ هذا المطلوب، وإذا كان كذلك فقوله: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ يَجِبُ أيضاً أن يكون دليلاً علىٰ كمالِ القُدْرَةِ والعلم؛ لأنَّه لو لم يَدُلَّ عليه، بل كان المراد كونه مستقِرّاً علىٰ العَرْشِ لا يمكن جعله دليلاً علىٰ كَمَالِهِ في القُدْرَةِ، والعلم، والحكمة، وليس أيضاً من صِفَاتِ المَدْحِ والثَّنَاءِ، لأنَّه تعالىٰ قادر علىٰ أن يُجْلس جميع البَقِّ والبَعُوضِ علىٰ العرش، وعلىٰ ما فَوق العرش، فثبت أنَّ كونه جالساً علىٰ العَرْشِ ليس من دلائل إثبات الذَّاتِ والصِّفاتِ، ولا من صِفَاتِ المَدْح والثَّنَاءِ، فلو كان المراد من قوله: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ كونه جالساً علىٰ العرش، لكان ذلك كلاماً أَجْنَبِياً عمّا قبله وعمّا بعده، وذلك يوجب نِهايَةَ الرَّكاكةِ؛ فثبت أنَّ المراد منه ليس ذلك بَلِ المُرَادُ منه: كمال قدرته في تَدْبير المُلْكِ، والملكوت، حتّىٰ تصير هذه الكلمة مُنَاسِبَةٌ لما قبلها، ولما بَعْدَهَا، وهو المَطْلُوبُ.

وإذا ثَبَتَ هذا فَنَقُولُ: إنَّ قولهُ تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ من المُتشابِهَاتِ التي يجب تأويلها، وللعلماء هاهُنَا مذهبان.

الأوَّل: أن يُقْطَعَ بكونه تعالىٰ مُتَعَالِياً عن المكان والجهة، ولا نخوض في تأويل الآية علىٰ التَّفْصِيل، بل نُفَوِّض عِلْمَهَا إلىٰ الله - تعالىٰ - ونَقُولُ: الاستواءُ علىٰ العَرْشِ صفةٌ لله - تعالىٰ - بلا كيف يَجِبُ علىٰ الرَّجُلِ الإيمان به، ونَكِلُ العلم فيه إلىٰ الله – عزَّ وجلَّ -، وسأل رجلٌ مَالِكَ بْنَ أَنَس عن قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ كيف استوىٰ فأطرق رَأْسَهُ مليّاً، وعلاه الرحضاء، ثمَّ قال: الاستواءُ مَجْهُولٌ، والكيف غَيْرُ مَعْقُولٍ، والإيمانُ به وَاجِبٌ، والسُّؤالُ عند بدعة، وما أظُنُّكَ إلا ضالاً، ثمَّ أمرَ به، فأخرج.

ورُوِيَ عن سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، والأَوْزَاعِيِّ، واللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ وسفيان بْنِ عُيَيْنَةَ، وعَبْدِ الله بْنِ المُبارِكِ، وغيرهم من علماء السُّنَّة في هذه الآيات التي جاءت في الصِّفاتِ المتشابهة، أنْ نُوردَهَا كما جاءت بلا كَيْف.

والمَذْهَبُ الثَّانِي: أن نخوضَ في تَأويلِهِ علىٰ التَّفْصيلِ، وفيه قولان:

الأوَّل: ما ذكره القَفَّالُ - رَحِمَهُ اللهُ - فقال: العَرْشُ في كلامهم: هو السَّريرُ الذي يجلس عليه المَلِك، ثمَّ جعل العرش كِنَايَةً عن نَفْسِ المُلْكِ.

يقال: ثَلَّ عَرْشُهُ أي: انتقض مُلْكُهُ وَفَسَدَ، وإذا استقام له ملكه واطّرد أَمْرُهُ وحكمه قالوا: اسْتَوىٰ علىٰ عَرْشِهِ واستقرَّ علىٰ سرير مُلْكِهِ، وهذا نظيرُ قولهم للرَّجُلِ الطويل: فلان طَوِيلُ النِّجَادِ، وللرَّجُلِ الذي تكثر أَضْيَافُهُ: كثيرُ الرَّمَادِ وللرَّجُلِ الشَّيخ فلان اشتعَلَ الرَّأسُ منه شَيْباً، وليس المرادُ بشيء من هذه الأَلْفَاظِ إجراءَها علىٰ ظَوَاهِرِهَا إنَّما المُرَادُ منها تعريف المَقْصُود علىٰ سبيل الكِنَايَة، فكذا هاهنا المُرَادُ من الاستواءِ علىٰ العَرْشِ نفاذُ القُدْرَةِ وجريان المشيئَة، كما إذا أخبر أنَّ له بيتاً، يجب علىٰ عِبَادِهِ حجُّهُ، فَهِمُوا منه أنَّه نصب لهم موضعاً يَقْصِدُونَهُ لمسألة ربِّهِمْ، وطَلَبِ حوائجهم، كما يقصدون بيوتَ المُلُوكِ لهذا المطلوب، ثمَّ عَلِمُوا منه نَفْيَ التَّشبيه، وأنَّهُ لم يجعلْ ذلك البيتَ مَسْكناً لنفسه، ولم ينتفع به في دَفْعِ الحرِّ والبرْدِ عن نفسه، وإذا أمرهم بتَحْميدِهِ، وتَمْجِيدِهِ؛ فهموا منه أنَّه أمرهم بنهايةِ تَعْظِيمهِ، ثمَّ عَلِمُوا بعقولهم أنَّه لا يفرح بِذلِكَ التَّحْمِيدِ والتَّعْظِيم، ولا يغتم بتركه، وإذا عُرِفَ ذلك فَنَقُولُ: أنَّه أَخْبَرَ أنَّه خلق السَّموات والأرض كما أراد وشاء من غير مُنَازِعٍ، ولا مدافع، ثمَّ أخبر بعده أنَّه استوىٰ علىٰ العَرْشِ، أي حصل له تدبير المخلوقات علىٰ ما شاء وأراد فكان قوله ثمَّ استوىٰ علىٰ العرش] ، أي بعد أنْ خلقهما استوىٰ علىٰ عرش الملك والجلال.

قال القَفَّال: والدَّلِيلُ علىٰ أنَّ هذا هو المُرَادُ قوله في سورة يونس: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ﴾ [يونس: ٣] .

فقوله: «يُدبِّرُ» جرىٰ مجرىٰ التَّفسير لقوله: ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ ، وقال ﴿يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾، ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ ﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ ﴾ ، وهذا يَدُلُّ علىٰ أنَّ قوله: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾ إشارة إلىٰ ما ذكرناهُ .

فإنْ قيل: فإذا حملتم قوله: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ علىٰ أنَّ المراد إذا استوىٰ علىٰ الملك؛ وجب أن يقالك اللهُ لم يكن مستوياً قبل خَلْقِ السَّموات والأَرْضِ.

قلنا أنَّه تعالىٰ كان قبل خَلْق العَالَمِ قادراً علىٰ تخليقها وتكوينها، لا أنَّه كان مُكوِّناً ومُوجِداً لها بأَعْيَانِهَا؛ لأنَّ إحياء زيد، وإماتَةَ عَمْرٍو، وإطعام هذا، وإرواء ذلك، لا يَحْصُلُ إلا عند حصول هذه الأَحْوالِ، فإذا فسَّرْنَا العرش بالملك، والملك بهذه الأَحْوالِ صحَّ أن يقال: أنَّه تعالىٰ إنَّما استوىٰ علىٰ ملكه بعد خلق السَّموات والأَرْض؛ بمعنىٰ أنَّه إنَّما ظهر تصرفه في هذه الأشياء وتدبيره لها، بعد خلق السَّموات والأَرْضِ.

والقولُ الثَّاني: أنَّ استوىٰ بمعنىٰ اسْتَوْلَىٰ، كما نَذْكُرُهُ في «سورة طه» إن شاء الله تعالىٰ.

واعْلَمْ أنَّه تعالىٰ ذكر قوله: ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ في سَبْع سور: هاهنا ، ويونس . والرَّعد ، وطه ، والفرقان ، والسَّجدة ، والحديد .

قال ابن الخطيب : وفي كلِّ موضع ذكرنا فَوائِدَ كثيرةٌ، فَمَنْ ضمَّ تلك الفَوائِدَ بعْضَهَا إلىٰ بَعْضٍ، بلغت مبلغاً كثيراً، وافياً بإزالةِ شبهة التَّشْبيهِ عن القَلْب " (١) .

وقال الإمام ابن خلدون (٨٠٨هـ) : " وأمّا لفظ الاستواء والمجيء والنُّزول والوجه واليدين والعينين وأمثال ذلك ، فعدلوا عن حقائقها اللّغويَّة لما فيها من إيهام النَّقص بالتَّشبيه إلىٰ مجازاتها، علىٰ طريقة العرب، حيث تتعذَّر حقائق الألفاظ، فيرجعون إلىٰ المجاز. كما في قوله تعالىٰ: ﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ [الكهف: ٧٧] وأمثاله ، طريقة معروفة لهم غير منكرة ولا مبتدعة.

وحملهم علىٰ هذا التَّأويل ، وإن كان مخالفاً لمذهب السَّلف في التَّفويض أنَّ جماعة من أتباع السَّلف وهم المحدِّثون والمتأخِّرون من الحنابلة ارتكبوا في محمل هذه الصِّفات فحملوها علىٰ صفات ثابتة للهَّ تعالىٰ، مجهولة الكيفيَّة. فيقولون في ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ : تثبت له استواء ، بحيث مدلول اللّفظة ، فراراً من تعطيله . ولا نقول بكيفيَّته فراراً من القول بالتَّشبيه الّذي تنفيه آيات السُّلوب ، من قوله : ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ : ١١] ، ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:٩١] ، ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ [الإخلاص:٣] ، ولا يعلمون مع ذلك أنَّهم ولجوا من باب التشبيه في قولهم بإثبات استواء ، والاستواء عند أهل اللّغة إنَّما موضوعة الاستقرار والتَّمكُّن ، وهو جسمانيّ . وأمَّا التَّعطيل الّذي يشنِّعون بإلزامه ، وهو تعطيل اللّفظ، فلا محذور فيه . وإنّما المحذور في تعطيل الآلة . وكذلك يشنِّعون بإلزام التَّكليف بما لا يُطاق، وهو تمويه. لأنّ التَّشابه لم يقع في التَّكاليف. ثمَّ يدَّعون أنَّ هذا مذهب السَّلف، وحاشا للهَّ من ذلك. وإنَّما مذهب السَّلف ما قرّرناه أوَّلاً من تفويض المراد بها إلىٰ الله، والسُّكوت عن فهمها. وقد يحتجّون لإثبات الاستواء للهَّ بقول مالك: «إنَّ الاستواء معلوم الثُّبوت للهَّ» وحاشاه من ذلك، لأنَّه يعلم مدلول الاستواء. وإنَّما أراد أنّ الاستواء معلوم من اللّغة، وهو الجسمانيّ، وكيفيَّته أي حقيقته. لأنّ حقائق الصِّفات كلّها كيفيَّات، وهي مجهولة الثُّبوت لله ..

وكذلك يحتجّون علىٰ إثبات المكان بحديث السَّوداء، وأنّها لّما قال لها النّبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ : " أين الله " ؟ وقالت : في السَّماء ، فقال : " أعتقها فإنّها مؤمنة " (٢) . قول النّبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ لم يثبت لها

---

(١) انظر : اللباب في علوم الكتاب (٩/ ١٤٣-١٥٢) .

(٢) سنأتي علىٰ تخريج الحديث عند الكلام عن حديث الجارية ...

الإيمان بإثباتها المكان للهَّ، بل لأنّها آمنت بما جاء به من ظواهر، أنَّ الله في السّماء، فدخلت في جملة الرَّاسخين الّذين يؤمنون بالمتشابه من غير كشف عن معناه. والقطع بنفي المكان حاصل من دليل العقل النّافي للافتقار. ومن أدلَّة السُّلوب المؤذنة بالتَّنزيه مثل : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورىٰ : ١١] ، وأشباهه . ومن قوله : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:٣] ، إذ الموجود لا يكون في مكانين ، فليست في هذا للمكان قطعاً ، والمراد غيره " (١) .

وقال الإمام كمال الدِّين ابن الهُمام (٨١٦هـ) : " فأمَّا كون المراد أنَّه - أي الاستواء – استيلاؤه علىٰ العرش فأمرٌ جائز الإرادة " (٢) .

وقال الإمام الفيروزآبادىٰ (٨١٧هـ) : " بصيرة في الاستواء : وقد ورد في النَّص علىٰ ستَّة أَوجه:

الأَوَّل : بمعنىٰ القَصْد إلىٰ الشَّئ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩] ، أَي : قصد إلىٰ خَلْقها.

الثَّانىٰ : بمعنىٰ التَّمكُّن والاستقرار : ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ﴾ [هود: ٤٤] ، أَي : استقرَّت.

الثَّالث : بمعنىٰ الرُّكوب والاستعلاء ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ﴾ [الزخرف: ١٣] ، أَي : ركِبتم واستعليتم .

الرَّابع : بمعنىٰ الشدَّة والقوَّة ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ﴾ [القصص: ١٤] ، أَي : قوي واشتدّ.

الخامس : بمعنىٰ المعارضة والمقابلة ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ ﴾ [فاطر: ١٢] ، ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ [فاطر: ١٩] ، أَي : يقابل هذا ذاك.

السَّادس : بمعنىٰ القهر والقدرة ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[الأعراف: ٥٤] ، ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] ، أَي : أَقبل علىٰ أَمره ، واستولىٰ علىٰ مِلكه ، وقدر عليه بالقهر والغلبة . وهو أَعظم المخلوقات ، وأَكبر الموجودات . فإِذا قهره وقدر عليه ، فكيف ما دونه لديه.

قال أَبو القاسم الأَصبهاني : استوىٰ ، يقال علىٰ وجهين : أَحدهما يُسند إِلىٰ فاعلَين فصاعداً ، نحو : استوىٰ زيد وعمرو في كذا ، أَي : تساويَا . الثَّاني : أَن يقال لاعتدال الشَّيء في ذاته ، نحو قوله تعالىٰ : ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ٦] ، ومتىٰ عدِّي بعلىٰ اقتضىٰ معنىٰ الاستيلاء ، ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] . وقيل معناه : استوىٰ له ما في السَّماوات ، وما في الأَرض بتسويته تعالىٰ إِيَّاه ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ ﴾ [البقرة: ٢٩] . وقيل : معناه : استوىٰ كلّ شيءٍ في النِّسبة إِليه ، فلا شيء أَقربُ إِليه من شيء

---

(١) انظر : ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (١/ ٦٠٤-٦٠٦) .

(٢) انظر : المسايرة في العقائد المنجية في الآخرة (مطبوع مع المسايرة) (ص٤٥-٤٦) .

؛ إذ كان تعالىٰ ليس كالأَجسام الحالَّة في مكان دون مكان . وإِذا عُدِّي بإِلىٰ اقتضىٰ معنىٰ الانتهاءِ إِليها إِمَّا بالذَّات ، أَو بالتَّدبير . والله أَعلم " (١) .

وقال أيضاً : " ... ولهذا يقرن استواؤه علىٰ عرشه بهذا الاسم كثيراً ، كقوله تعالىٰ : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ، ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ [الأعراف:٥٤] ، فاسْتوىٰ علىٰ عرشِه باسم الرَّحمان ؛ لأَنَّ العرش محيط بالمخلوقات قد وسِعها ، والرَّحمة محيطة بالخلق واسعة لهم ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦] ، وفي الصَّحيح عن أَبي هريرة يرفعه : " لَمَّا قضىٰ الله الخَلْق كتب في كتاب ، فهو موضوع علىٰ العرش : رحمتىٰ تغلب علىٰ غضبي " ، وفي لفظٍ : " سبقت رحمتي علىٰ غضبي " ، وفي لفظةٍ : " فهو عنده وضعه علىٰ العرش " ، فتأَمّل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرَّحمة ووضعه عنده علىٰ العرش ، وطابِق بين ذلك وبين قوله : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ، وقوله : ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٩] ، ينفتح لك بابٌ عظيم من معرفة الرَّب تبارك وتعالىٰ ، لا يغلقُه عنك التَّعطيل والتَّجسيم " (٢) .

وقال الإمام التَّقي الحسيني الحصني (٨٢٩هـ) : " وأعلم أنَّ الاستواء في اللغة علىٰ وجوه ، وأصله افتعال من السوي ، ومعناه – أي الاستواء – العدل والوسط . وله وجوه في الاستعمال منها : الاعتدال ، قال بعض بني تميم : استوىٰ ظالِم العشيرة والمظلوم ، أي : اعتدلا ، ومنها : إتمام الشَّيء ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ [القصص:١٤] ، ومنها : القصد إلىٰ الشَّيء ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:٢٩] ، أي : قصد خلقها ، ومنها : الاستيلاء علىٰ الشَّيء ، ومنه قول الشَّاعر :

قد اسْتَوَىٰ بِشْرٌ علىٰ العِرَاقِ ... مِن غَيْرِ سَيْفٍ ودم مُهْرَاقِ

وقال آخر :

إذا ما غزا قوما أباح حريمهم ... وأضحىٰ علىٰ ما ملكوه قد استوىٰ

ومنها : بمعنىٰ استقرَّ ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ [هود:٤٤] ، وهذه صفة المخلوق الحادث ، كقوله تعالىٰ : ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف:١٢-١٣] ، وهو نزَّه نفسه سبحانه عن ذلك في كتابه العزيز في غير ما موضع ، وقطع المادَّة في ذلك أنَّ المسألة علميَّة ، وكفىٰ الله المؤمنين القتال والجدال .

---

(١) انظر : بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٢/ ١٠٦-١٠٧) .

(٢) انظر : بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٣/ ٥٤-٥٥) .

قال أبو الفرج بن الجوزي : وجميع السَّلف على إمرار هذه الآية كما جاءت من غير تفسير ولا تأويل ، قال عبد الله بن وهب : كنَّا عند مالك بن أنس فدخل رجل ، فقال : يا أبا عبد الله ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ ، كيف استواؤه ؟ فأطرق مالك وأخذته الرُّحضاء ثمَّ رفع رأسه ، فقال : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ كما وصف نفسه ، ولا يقال له كيف ، وكيفٌ عنه مرفوع ، وأنت رجل سوء صاحب بدعة ، أخرجوه فأُخرج .

وكان ابن حامد يقول : المراد بالاستواء القعود ، وزاد بعضهم : استوى على العرش بذاته ، فزاد هذه الزِّيادة ، وهي جرأة على الله عزَّ وجلَّ بما لم يقل .

قال أبو الفرج : وقد ذهب طائفة من أصحابنا إلى أنَّ الله عزَّ وجلَّ على عرشه ما ملأه وأنَّه يُقعد نبيَّه معه العرش ، ثمَّ قال : والعجب من قول هذا ما نحن مجسِّمة ، وهو تشبيه محض ، تعالى الله عزَّ وجلَّ عن المحلِّ والحيِّز لاستغنائه عنهما ، ولأنَّ ذلك مستحيل في حقِّه عزَّ وجلَّ ، ولأنَّ المحلَّ والحيِّز من لوازم الأجرام ، ولا نزاع في ذلك ، وهو سبحانه وتعالى منزَّه عن ذلك ، لأنَّ الأجرام من صفات الحدث ، وهو عزَّ وجلَّ منزَّه عن ذلك شرعاً وعقلاً ، بل هو أزليٌّ لم يسبق بعدم ، بخلاف الحادث ، ومن المعلوم أنَّ الاستواء إذا كان بمعنى الاستقرار والقعود لا بدَّ فيه من المماسَّة ، والمماسَّة إنَّما تقع بين جسمين أو جِرمين ، والقائل بهذا شبَّه وجسَّم وما أبقى في التَّجسيم والتَّشبيه بقيَّة ، كما أبطل دلالة ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾ [الشورى:١١] ، ومن المعلوم في قوله تعالى : ﴿ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ [الزخرف:١٣] أنَّه الاستقرار على الأنعام والسُّفن ، وذلك من صفات الآدميين ، فمن جعل الاستواء على العرش بمعنى الاستقرار والتَّمكُّن فقد ساوى بينه عزَّ وجلَّ وبين خلقه ، وذلك من الأمور الواضحة التي لا يقف في تصوُّرها بليد فضلاً عمَّن هو حسن التَّصوُّر جيِّد الفهم والذَّوق ، وحينئذ فلا يقف في تكذيبه ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١] ، وذلك كفرٌ محقَّق .

ثمَّ من المعلوم أنَّ الاستواء من الألفاظ الموضوعة بالاشتراك ، وهو من قبيل المُجمل ، فدعواه أنَّه بمعنى الاستقرار في غاية الجهل ، لجعله المشترك دليلاً على أحد أقسامه خاصَّة ، فالحمار مع بلادته لا يرضى لنفسه أن يكون ضحكة لجعله القسم قسيماً . فمن تأمَّل هؤلاء الحمقى وجدهم على جهل مركَّب يحتجُّون بالأدلَّة المُجملة التي لا دليل فيها قطعاً عند أهل العلم ، ويتركون الأدلَّة التي ظاهرها في غاية الظُّهور في الدَّليل على خلاف دعواهم ، بل بعضها نصوص كما قدَّمته في حديث النُّخامة وغيرها ، فتنبه لذلك لتبقى على بصيرة من جهل أولئك " (١) .

---

(١) انظر : دفع شبه من شبه وتمرد ونسب ذلك إلى السيد الجليل الإمام أحمد (ص٩٧-١٠٨) .

وقال الإمام نظام الدِّين القمِّي النَّيسابوري (ت. بعد ٨٥٠ هـ) : " أمَّا قوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ فحمل بعضهم الاستواء على الاستقرار وزيَّف بوجوه عقليَّة ونقليَّة ، منها : أنَّ استقراره على العرش يستلزم تناهيه من الجانب الذي يلي العرش ، وكلُّ ما هو متناهٍ فاختصاصه بذلك الحدّ المعيَّن يستند لا محالة إلى محدث مخصّص فلا يكون واجباً .

ولقائل أن يقول : لِمَ لا يجوز أن يكون الإله تعالى نوراً غير متناهٍ ويراد باستقراره على العرش بلا تناهيه إحاطته به من الجوانب ونفوذه في الكلِّ لا كإحاطة الفلك الحاوي بالمحوى .

ولا كنفوذ النُّور المحسوس في الشَّرف ، بل على نحو آخر تعوزه العبارة أو متناهياً من بعضها دون بعض .

وعلى الأوَّل يلزم اختلاطه بجميع الأجسام حتى للقاذورات ومع ذلك فالشَّيء الذي هو محلّ السَّموات ، إمَّا أن يكون عين الشَّيء الذي هو محلّ الأرض أو غيره ، وعلى الأوَّل يلزم أن يكون السَّماء والأرض حالَّين في محلٍّ واحد فهما شيء واحد لا شيئان .

وعلى الثَّاني يلزم التَّركيب والتَّجزئة في ذاته تعالى .

وأمَّا إن كان متناهياً من الجهات فلو حصل في جميع الأحياز فهو محال بالبديهة ، وإن حصل في حيِّز واحد فلو كان جوهراً فرداً لزم أن يكون واجب الوجود أحقر الأشياء وإلَّا لزم التَّبعيض لأنَّ جهة الفوق منه تكون مغايرة لمقابلتها .

وكذا الكلام فيه إن كان متناهياً من بعض الجهات ، ولو جاز أن يكون الشَّيء المحدود من جانب أو جوانب قديماً أزليَّاً فاعلاً للعالم فلم لا يجوز أن يقال فاعل العالم هو الشَّمس والقمر أو كوكب آخر ؟ وأيضاً يصحُّ على الشّق المتناهي أن يكون غير متناهٍ وعلى غير المتناهي أن يكون متناهياً ، لأنَّ الأشياء المتساوية في تمام الماهيَّة كلّ ما صحّ على واحد منها صحّ على الباقي ، فيصحُّ النُّمو والذُّبول والزِّيادة والنُّقصان والتَّفريق والتَّمزُّق على ذاته تعالى فيكون ممكناً محدثاً لا واجباً قديماً .

ولقائل أن يقول : إنَّه غير متناهٍ ولا يلزم من ذلك أن يكون محلاً للعالم ولا حالَّاً فيه ، واستصحاب الشَّيء للمحلّ غير كونه نفس المحلّ أو مفتقراً إلى المحلّ .

وحديث اختلاطه بالقاذورات تخييل لا أصل له عند الرّجل البرهاني .

ومنها : أنَّه لو كان الباري تعالى حاصلاً في المكان والجهة لكان الأمر المسمَّى بالجهة إمَّا أن يكون موجوداً مُشاراً إليه أو لا يكون .

فإن كان موجوداً كان له بُعدٌ وامتداد ، وللحاصل فيه أيضاً بعدٌ وامتدادٌ ، فيلزم تداخل البُعدين ، ومع ذلك يلزم كون الجهة والحيِّز أزليَّين ضرورة كون الباري تعالىٰ أزليَّاً ، ومُحال أن يكون ما سوىٰ الواجب أزليَّاً ، وإن لم يكن موجوداً لزم كون العدم المحض ظرفاً لغيره ومشاراً إليه بالحسّ وذلك باطل .

واعترض بأنَّ ذلك أيضاً وارد عليكم في قولكم : (الجسم حاصل في الحيِّز والجهة) .

وأجيب : بأنَّ مكان الجسم عندنا عبارة عن السَّطح الظَّاهر من الجسم المحوي ، وهذا المعنىٰ بالاتِّفاق في حقِّ الله مُحال ، فسقط الاعتراض ... " (١) .

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) : " قَوْله : ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ ، هُوَ من الْمُتَشَابه الَّذِي يُفَوض علمه إِلىٰ الله تَعَالىٰ " .

وقال أيضاً : " فَمَعْنَىٰ ، ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ تَمَّ الْخَلْقَ وَخَصَّ لَفْظَ الْعَرْشِ لِكَوْنِهِ أَعْظَمَ الْأَشْيَاءِ ، وَقِيلَ : إِنَّ ﴿ عَلَى﴾ فِي قَوْلِهِ : ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ بِمَعْنَىٰ إِلىٰ ، فَالْمُرَادُ عَلَىٰ هَذَا : انْتَهَىٰ إِلىٰ الْعَرْشِ ، أَيْ : فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْعَرْشِ ، لأنَّه خَلَقَ الْخلق شَيْئاً بعد شَيْء ، ثمَّ قَالَ بن بَطَّالٍ : فَأَمَّا قَوْلُ الْمُعْتَزِلَةِ فَإِنَّهُ فَاسِدٌ ، لأنَّه لَمْ يَزَلْ قَاهِراً غَالِباً مُسْتَوْلِياً ، وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ يَقْتَضِي افْتِتَاحَ هَذَا الْوَصْفِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ ، وَلَازِمُ تَأْوِيلِهِمْ أَنَّه كَانَ مُغَالَباً فِيهِ ، فَاسْتَوْلَىٰ عَلَيْهِ بِقَهْرِ مَنْ غَالَبَهُ ، وَهَذَا مُنْتَفٍ عَنِ اللهَّ سُبْحَانَهُ.

وَأَمَّا قَوْلُ الْمُجَسِّمَةِ فَفَاسِدٌ أَيْضاً ، لِأَنَّ الِاسْتِقْرَارَ مِنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ ، وَيَلْزَمُ مِنْهُ الْحُلُولُ وَالتَّنَاهِي ، وَهُوَ مُحَالٌ فِي حَقِّ اللهَّ تَعَالَىٰ ، وَلَائِقٌ بِالْمَخْلُوقَاتِ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ﴾ [المؤمنون: ٢٨] ، وَقَوْلُهُ : ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ [الزخرف: ١٣] ، قَالَ : وَأَمَّا تَفْسِيرُ ﴿ ٱسۡتَوَىٰ﴾ عَلَا ، فَهُوَ صَحِيحٌ ، وَهُوَ الْمَذْهَبُ الْحَقُّ وَقَوْلُ أَهْلِ السُّنَّةِ ، لِأَنَّ اللهَّ سُبْحَانَهُ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْعُلَىٰ ، وَقَالَ : ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨] ، وَهِيَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ الذَّاتِ ، وَأَمَّا مَنْ فَسَّرَهُ ارْتَفَعَ فَفِيهِ نَظَرٌ ، لأنَّه لَمْ يَصِفْ بِهِ نَفْسَهُ ، قَالَ : وَاخْتَلَفَ أَهْلُ السُّنَّةِ : هَلِ الِاسْتِوَاءُ صِفَةُ ذَاتٍ أَوْ صِفَةُ فِعْلٍ ، فَمَنْ قَالَ : مَعْنَاهُ عَلَا ، قَالَ : هِيَ صِفَةُ ذَاتٍ ، وَمَنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ ، قَالَ : هِيَ صِفَةُ فِعْلٍ ، وَإِنَّ اللهَّ فَعَلَ فِعْلاً سَمَّاهُ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ عَرْشِهِ ، لَا أَنَّ ذَلِكَ قَائِمٌ بِذَاتِهِ ، لِاسْتِحَالَةِ قِيَام الْحَوَادِثِ بِهِ . انْتَهَىٰ مُلَخَّصاً .

وَقَدْ أَلْزَمَهُ مَنْ فَسَّرَهُ بِالِاسْتِيلَاءِ بِمِثْلِ مَا أَلْزَمَ هُوَ بِهِ مِنْ أَنَّه صَارَ قَاهِراً بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ ، فَيَلْزَمُ أَنَّه صَارَ غَالِباً بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ ، وَالِانْفِصَالُ عَنْ ذَلِكَ لِلْفَرِيقَيْنِ بِالتَّمَسُّكِ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

(١) انظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٣/ ٢٤٦-٢٤٧) .

[النساء:١٧] ، فَإِنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ بِالتَّفْسِيرِ قَالُوا مَعْنَاهُ : لَمْ يزل كَذَلِك ، كَمَا تقدَّم بَيَانه عَن بن عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ فُصِّلَتْ ، وَبَقِيَ مِنْ مَعَانِي اسْتَوَىٰ مَا نُقِلَ عَنْ ثَعْلَبٍ : اسْتَوَىٰ الْوَجْهُ : اتَّصَلَ ، وَاسْتَوَىٰ الْقَمَرُ : امْتَلَأَ ، وَاسْتَوَىٰ فُلَانٌ وَفُلَانٌ : تَمَاثَلَا ، وَاسْتَوَىٰ إِلَىٰ الْمَكَانِ : أَقْبَلَ ، وَاسْتَوَىٰ الْقَاعِدُ قَائِماً ، وَالنَّائِمُ قَاعِداً ، وَيُمْكِنُ رَدُّ بَعْضِ هَذِهِ الْمَعَانِي إِلَىٰ بَعْضٍ ، وَكَذَا مَا تَقَدَّمَ عَنِ بن بَطَّالٍ ، وَقَدْ نَقَلَ أَبُو إِسْمَاعِيلَ الْهَرَوِيُّ فِي كِتَابِ الْفَارُوقِ بِسَنَدِهِ إِلَىٰ دَاوُدَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ خلَفٍ ، قَالَ : كُنَّا عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللهَّ بْنِ الْأَعْرَابِيِّ ، يَعْنِي محمَّد بْنَ زِيَادٍ اللُّغَوِيَّ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ، فقَالَ : هُوَ عَلَىٰ الْعَرْشِ كَمَا أَخْبَرَ ، قَالَ : يَا أَبَا عَبْدِ اللهَّ إِنَّمَا مَعْنَاهُ اسْتَوْلَىٰ ، فَقَالَ : اسْكُتْ لَا يُقَالُ اسْتَوْلَىٰ عَلَىٰ الشَّيْء إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ مُضَادٌّ ، وَمِنْ طَرِيقِ محمَّد بْنِ أَحْمَدَ بْنِ النَّضْرِ الْأَزْدِيِّ سَمِعْتُ بن الْأَعْرَابِيِّ يَقُولُ : أَرَادَنِي أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دَاوُدَ أَنْ أَجِدَ لَهُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ بِمَعْنَىٰ اسْتَوْلَىٰ ، فَقُلْتُ : وَاللهَّ مَا أَصَبْتُ هَذَا ، وَقَالَ غَيْرُهُ : لَوْ كَانَ بِمَعْنَىٰ اسْتَوْلَىٰ لَمْ يَخْتَصَّ بِالْعَرْشِ ، لأنَّه غَالِبٌ عَلَىٰ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ.

وَنَقَلَ مُحْيِي السُّنَّةِ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ بن عَبَّاسٍ وَأَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ مَعْنَاهُ : ارْتَفَعَ ، وَقَالَ أَبُو عبيد وَالْفَرَّاءُ وَغَيْرُهُمَا بِنَحْوِهِ ، وَأَخْرَجَ أَبُو الْقَاسِمِ اللَّالَكَائِيُّ فِي كِتَابِ السُّنَّةِ مِنْ طَرِيقِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ عَنْ أُمِّهِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ : الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ ، وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ ، وَالْإِقْرَارُ بِهِ إِيمَانٌ ، وَالْجُحُودُ بِهِ كُفْرٌ . وَمِنْ طَرِيقِ رَبِيعَةَ بْنِ أَبِي عَبْدِ الرَّحمن أَنَّه سُئِلَ كَيْفَ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ ؟ فَقَالَ : الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ ، وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ ، وَعَلَىٰ اللهَّ الرِّسَالَةُ ، وَعَلَىٰ رَسُولِهِ الْبَلَاغُ ، وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ . وَأَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنِ الْأَوْزَاعِيِّ ، قَالَ : كُنَّا وَالتَّابِعُونَ مُتَوَافِرُونَ نَقُولُ : إِنَّ اللهَّ عَلَىٰ عَرْشِهِ ، وَنُؤْمِنُ بِمَا وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ مِنْ صِفَاتِهِ . وَأَخْرَجَ الثَّعْلَبِيُّ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ عَنِ الْأَوْزَاعِيِّ أَنَّه سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾، فَقَالَ : هُوَ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ . وَأَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ عَبْدِ اللهَّ بْنِ وَهْبٍ ، قَالَ : كُنَّا عِنْدَ مَالِكٍ فَدَخَلَ رَجُلٌ ، فَقَالَ : يَا أَبَا عَبْدِ اللهَّ ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ ، كَيْفَ اسْتَوَىٰ ؟ فَأَطْرَقَ مَالِكٌ ، فَأَخَذَتْهُ الرُّحَضَاءُ ثمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ، فَقَالَ :﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ كَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ ، وَلَا يُقَالُ كَيْفَ ، وَكَيْفَ عَنْهُ مَرْفُوعٌ ، وَمَا أَرَاكَ إِلَّا صَاحِبَ بِدْعَةٍ ، أَخْرِجُوهُ . وَمِنْ طَرِيقِ يَحْيَىٰ بْنِ يَحْيَىٰ عَنْ مَالِكٍ نَحْوُ الْمَنْقُولِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ، لَكِنْ قَالَ فِيهِ : وَالْإِقْرَارُ بِهِ وَاجِبٌ ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ.

وَأَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ مِنْ طَرِيقِ أَبِي دَاوُدَ الطَّيَالِسِيِّ ، قَالَ : كَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ ، وَشُعْبَةُ ، وَحَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ ، وَحَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ ، وَشَرِيكٌ ، وَأَبُو عَوَانَةَ ، لَا يُحَدِّدُونَ ، وَلَا يُشَبِّهُونَ ، وَيَرْوُونَ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ ، وَلَا يَقُولُونَ كَيْفَ . قَالَ أَبُو دَاوُدَ : وَهُوَ قَوْلُنَا . قَالَ الْبَيْهَقِيُّ وَعَلَىٰ هَذَا مَضَىٰ أَكَابِرُنَا . وَأَسْنَدَ اللَّالَكَائِيُّ ، عَنْ محمَّد بْنِ الْحَسَنِ

الشَّيْبَانِيِّ ، قَالَ : اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ كُلُّهُمْ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلىٰ الْمَغْرِبِ عَلَىٰ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ ، وَبِالْأَحَادِيثِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الثِّقَاتُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صِفَةِ الرَّبِّ مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ ، وَلَا تَفْسِيرٍ ، فَمَنْ فَسَّرَ شَيْئاً مِنْهَا وَقَالَ بِقَوْلِ جَهْمٍ فَقَدْ خَرَجَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ ، لأَنَّه وَصَفَ الرَّبَّ بِصِفَةِ لَا شَيْءَ.

وَمِنْ طَرِيقِ الْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ : سَأَلْتُ الْأَوْزَاعِيَّ ، وَمَالِكاً ، وَالثَّوْرِيَّ ، وَاللَّيْثَ بْنَ سَعْدٍ ، عَنِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي فِيهَا الصِّفَةُ ، فَقَالُوا : أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَت بِلَا كَيفَ.

وَأخرج بن أَبِي حَاتِمٍ فِي مَنَاقِبِ الشَّافِعِيِّ ، عَنْ يُونُسَ بْنِ عَبْدِ الْأَعْلَىٰ : سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ يَقُولُ : للهِ أَسْمَاءٌ وَصِفَاتٌ لَا يَسَعُ أَحَداً رَدُّهَا ، وَمَنْ خَالَفَ بَعْدَ ثُبُوتِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ ، فَقَدْ كَفَرَ ، وَأَمَّا قَبْلَ قِيَامِ الْحُجَّةِ ، فَإِنَّهُ يُعْذَرُ بِالْجَهْلِ ، لِأَنَّ عِلْمَ ذَلِكَ لَا يُدْرَكُ بِالْعَقْلِ وَلَا الرُّؤْيَةِ وَالْفِكْرِ ، فَنُثْبِتُ هَذِهِ الصِّفَاتِ ، وَنَنْفِي عَنْهُ التَّشْبِيهَ ، كَمَا نَفَىٰ عَنْ نَفْسِهِ ، فَقَالَ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]

وَأَسْنَدَ الْبَيْهَقِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي الْحَوَارِيِّ ، عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ ، قَالَ : كُلُّ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ فَتَفْسِيرُهُ تِلَاوَتُهُ ، وَالسُّكُوتُ عَنْهُ . وَمِنْ طَرِيقِ أَبِي بَكْرٍ الضُّبَعِيِّ ، قَالَ : مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي قَوْلِه : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ ، قَالَ : بِلَا كَيْفٍ . وَالْآثَارُ فِيهِ عَنِ السَّلَفِ كَثِيرَةٌ ، وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الشَّافِعِيِّ ، وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ . وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ فِي الْجَامِعِ عَقِبَ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي النُّزُولِ : وَهُوَ عَلَىٰ الْعَرْشِ كَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ ، كَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ ، وَمَا يُشْبِهُهُ مِنَ الصِّفَاتِ . وَقَالَ فِي بَابِ فَضْلِ الصَّدَقَةِ : قَدْ ثَبَتَتْ هَذِهِ الرِّوَايَاتُ ، فَنُؤْمِنُ بِهَا ، وَلَا نَتَوَهَّمُ ، وَلَا يُقَالُ : كَيْفَ . كَذَا جَاءَ عَن مَالك ، وبن عُيَيْنَة ، وبن الْمُبَارَكِ : أَنَّهم أَمِرُّوهَا بِلَا كَيْفٍ ، وَهَذَا قَوْلُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ . وَأَمَّا الْجَهْمِيَّةُ فَأَنْكَرُوهَا ، وَقَالُوا : هَذَا تَشْبِيهٌ.

وَقَالَ إِسْحَاقُ بن رَاهَوَيْهِ : إِنَّمَا يَكُونُ التَّشْبِيهُ لَوْ قِيلَ : يَدٌ كَيَدٍ ، وَسَمْعٌ كَسَمْعٍ . وَقَالَ فِي تَفْسِيرِ الْمَائِدَةِ : قَالَ الْأَئِمَّةُ : نُؤْمِنُ بِهَذِهِ الْأَحَادِيثِ مِنْ غَيْرِ تَفْسِير ، مِنْهُم : الثَّوْرِيّ ، وَمَالك ، وبن عُيَيْنَة ، وبن الْمُبَارك.

وَقَالَ بن عَبْدِ الْبَرِّ : أَهْلُ السُّنَّةِ مُجْمِعُونَ عَلَىٰ الْإِقْرَارِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْوَارِدَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَلَمْ يُكَيِّفُوا شَيْئاً مِنْهَا . وَأَمَّا الْجَهْمِيَّةُ ، وَالْمُعْتَزِلَةُ ، وَالْخَوَارِجُ ، فَقَالُوا : مَنْ أَقَرَّ بِهَا فَهُوَ مُشَبِّهٌ ، فَسَمَّاهُمْ مَنْ أَقَرَّ بِهَا مُعَطِّلَةٌ .

وَقَالَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ فِي الرِّسَالَةِ النِّظَامِيَّةِ : اخْتَلَفَتْ مَسَالِكُ الْعُلَمَاءِ فِي هَذِهِ الظَّوَاهِرِ ، فَرَأَىٰ بَعْضُهُمْ تَأْوِيلَهَا ، وَالْتَزَمَ ذَلِكَ فِي آيِ الْكِتَابِ وَمَا يَصِحُّ مِنَ السُّنَنِ ، وَذَهَبَ أَئِمَّةُ السَّلَفِ إِلىٰ الِانْكِفَافِ عَنِ التَّأْوِيلِ ، وَإِجْرَاءِ

الظَّوَاهِرِ عَلَىٰ مَوَارِدِهَا ، وَتَفْوِيضِ مَعَانِيهَا إِلىٰ اللهِّ تَعَالَىٰ . وَالَّذِي نَرْتَضِيهِ رَأْياً ، وَنَدِينُ اللهَّ بِهِ عَقِيدَةً : اتِّبَاعُ سَلَفِ الْأُمَّةِ ، لِلدَّلِيلِ الْقَاطِعِ عَلَىٰ أَنَّ إِجْمَاعَ الْأُمَّةِ حُجَّةٌ ، فَلَوْ كَانَ تَأْوِيل هَذِه الظَّوَاهِر حتماً لَاوشك أَنْ يَكُونَ اهْتِمَامُهُمْ بِهِ فَوْقَ اهْتِمَامِهِمْ بِفُرُوعِ الشَّرِيعَةِ ، وَإِذَا انْصَرَمَ عَصْرُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ عَلَىٰ الْإِضْرَابِ عَنِ التَّأْوِيلِ ، كَانَ ذَلِكَ هُوَ الْوَجْهُ الْمُتَّبَعُ ، انْتَهَىٰ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ النَّقْلُ عَنْ أَهْلِ الْعَصْرِ الثَّالِثِ وَهُمْ فُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ ، كَالثَّوْرِيِّ ، وَالْأَوْزَاعِيِّ ، وَمَالِكٍ ، وَاللَّيْثُ ، وَمَنْ عَاصَرَهُمْ ، وَكَذَا مَنْ أَخَذَ عَنْهُمْ مِنَ الْأَئِمَّةِ ، فَكَيْفَ لَا يُوْثَقُ بِمَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ وَهُمْ خَيْرُ الْقُرُونِ بِشَهَادَةِ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ.

وَقَسَّمَ بَعْضُهُمْ أَقْوَالَ النَّاسِ فِي هَذَا الْبَابِ إِلىٰ سِتَّةِ أَقْوَالٍ ، قَوْلَانِ لِمَنْ يُجْرِيهَا عَلَىٰ ظَاهِرِهَا:

أَحَدُهُمَا : مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّهَا مِنْ جِنْسِ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ وَهُمُ الْمُشَبِّهَةُ وَيَتَفَرَّعُ مِنْ قَوْلِهِمْ عِدَّةُ آرَاءٍ . وَالثَّانِي : مَنْ يَنْفِي عَنْهَا شَبَهَ صِفَةِ الْمَخْلُوقِينَ ، لِأَنَّ ذَاتَ اللهَّ لَا تُشْبِهُ الذَّوَاتَ فَصِفَاتُهُ لَا تُشْبِهُ الصِّفَاتِ ، فَإِنَّ صِفَاتِ كُلِّ مَوْصُوفٍ تُنَاسِبُ ذَاتَهُ ، وَتُلَائِمُ حَقِيقَتَهُ . وَقَوْلَانِ لِمَنْ يُثْبِتُ كَوْنَهَا صِفَةً وَلَكِنْ لَا يُجْرِيهَا عَلَىٰ ظَاهِرِهَا ، أَحَدُهُمَا يَقُولُ : لَا نُؤَوِّلُ شَيْئاً مِنْهَا ، بَلْ نَقُولُ : اللهُّ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ ، وَالْآخَرُ يُؤَوِّلُ ، فَيَقُولُ مَثَلاً : مَعْنَىٰ الِاسْتِوَاءِ الِاسْتِيلَاءُ ، وَالْيَدُ الْقُدْرَةُ ، وَنَحْوُ ذَلِكَ . وَقَوْلَانِ لِمَنْ لَا يَجْزِمُ بِأَنَّهَا صِفَةٌ ، أَحَدُهُمَا يَقُولُ : يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ صِفَةً ، وَظَاهِرُهَا غَيْرُ مُرَادٍ ، وَيَجُوزُ أَنْ لَا تَكُونَ صِفَةً ، وَالْآخَرُ يَقُولُ : لَا يُخَاضُ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا ، بَلْ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ ، لأَنَّه مِنَ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي لَا يُدْرَكُ مَعْنَاهُ ... " (١) .

وقال الإمام بدر الدِّين العينىٰ (٨٥٥هـ) : " وَقد اتّفقت أقاويل أهل التَّفْسِير علىٰ أَنَّ الْعَرْش هُوَ السَّرير ، وَأَنَّه جسم ذُو قَوَائِم بِدَلِيل قَوْله : " فَإِذا مُوسَىٰ آخذ بقائمة من قَوَائِم الْعَرْش " ، وَهَذَا صفة الْمَخْلُوق لدلائل قيام الْحُدُوث بِهِ من التَّأْلِيف وَغَيره ، وَجَاء عَن عبد الرَّزَّاق فِي تَفْسِيره ، عَن معمر ، عَن قَتَادَة : عَرْشه من ياقوتة حَمْرَاء. قَالَ أَبُو العالِيَة : ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ ، ارْتَفَعَ . ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ : خَلَقَهُنَّ ... وَقد اخْتلف الْعلمَاء فِي معنىٰ الاسْتوَاء ، فَقَالَت الْمُعْتَزلَة : بِمَعْنىٰ الِاسْتِيلَاء والقهر وَالْغَلَبَة ، كَمَا فِي قَول الشَّاعِر:

قد اسْتَوَىٰ بِشْرٌ علىٰ العِرَاقِ مِن غَيْرِ سَيْفٍ ودم مُهْرَاقِ

بِمَعْنىٰ : قهر وَغلب ، وَأنكر عَلَيْهِم بِأَنَّهُ لَا يُقَال : استولىٰ ، إلاَّ إِذا لم يكن مستولياً ثمَّ استولىٰ ، وَالله عزَّ وجلَّ لم يزل مستولياً قاهراً غَالِباً ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَة : معنىٰ اسْتَوَىٰ ارْتَفع ، وَفِيه نظر لأَنَّه لم يصف بِهِ نَفسه ، وَقَالَت المجسِّمة : مَعْنَاهُ اسْتَقر ، وَهُوَ فَاسد ، لِأَن الِاسْتِقْرَار من صِفَات الْأَجْسَام ، وَيلْزم مِنْهُ الْحُلُول

---

(١) انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/ ١٣٦) ، (٢/ ٤٠٦-٤٠٨) بالترتيب .

والتناهي ، وَهُوَ محَال فِي حق الله تَعَالَىٰ . وَاخْتلف أهل السّنَّة ، فَقَالَ بَعضهم : مَعْنَاهُ ارْتَفع مثل قَول أبي الْعَالِيَة ، وَبِه قَالَ أَبُو عُبَيْدَة وَالْفراء وَغَيرهمَا ، وَقَالَ بَعضهم : مَعْنَاهُ ملك وَقدر ، وَقَالَ بَعضهم : مَعْنَاهُ علا ، وَقيل : معنىٰ الاسْتوَاء التَّمام والفراغ من فعل الشَّيء وَمِنْه . قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص: ١٤] ، فعلىٰ هَذَا فَمَعْنَى اسْتَوَىٰ علىٰ الْعَرْش أتم الْخلق وَخص لفظ الْعَرْش لكَونه أعظم الْأَشْيَاء . وَقيل : إِنَّ : ﴿ عَلَى ﴾ ، فِي قَوْله : ﴿ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ ﴾ بِمَعْنىٰ : إِلىٰ ، فَالْمُرَاد علىٰ هَذَا : انْتهىٰ إِلىٰ الْعَرْش ، أَي : فِيمَا يتَعَلَّق بالعرش لأنَّه خلق الْخلق شَيْئاً بعد شَيْء ، وَالصَّحِيح تَفْسِير اسْتَوَىٰ بِمَعْنىٰ : علا ، كَمَا قَالَه مُجَاهِد ، علىٰ مَا يَأْتِي الْآن ، وَهُوَ الْمَذْهَب الْحق وَقَول مُعظم أهل السّنة : لِأَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصف نَفسه بالعلي . وَاخْتلف أهل السُّنَّة : هَل الاسْتوَاء صفة ذَات أَو صفة فعل ؟ فَمن قَالَ : مَعْنَاهُ علا ، قَالَ : هِيَ صفة ذَات ، وَمن قَالَ غير ذَلِك قَالَ : هِيَ صفة فعل . قَوْله : " فَسَوَّاهُنَّ " : خَلقهنَّ هُوَ من كَلَام أبي الْعَالِيَة أَيْضاً . قَوْله : خَلقهنَّ كَذَا فِي رِوَايَة الْكشميهني ، وَفِي رِوَايَة غَيره : فسوىٰ خلق ، وَالْمَنْقُول عَن أبي الْعَالِيَة بِلَفْظ : فقضاهن ، كَمَا أخرجه الطَّبَرِيّ من طَرِيق أبي جَعْفَر الرَّازي عَنهُ فِي قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٩] ، قَالَ : ارْتَفع . وَفِي قَوْله : فقضاهن : خَلقهنَّ ، وَالَّذِي وَقع فسواهن ، تَغْيِير وَفِي تَفْسِير : سوَّىٰ بِخلق نظر ، لِأَنَّ فِي التَّسْوِيَة قدراً زَائِداً علىٰ الْخلق ، كَمَا فِي قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ [الأعلىٰ: ٢] ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : اسْتَوَىٰ عَلىٰ العَرْشِ " (١) .

وقال الإمام بدر الدِّين العينى (٨٥٥هـ) : ": باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ ،﴿ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ، أَي : هَذَا بَاب فِي قَوْله عزَّ وجلَّ : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٧] فِي قَوْله : ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] ، وَذكر هَاتين القطعتين من الْآيَتَيْنِ الكريمتين تَنْبِيهاً علىٰ فائدتين : الأولىٰ : من قَوْله : هِيَ لدفع توهم من قَالَ : إِنَّ الْعَرْش لم يزل مَعَ الله تَعَالَىٰ ، مستدلِّين بقوله فِي الحَدِيث : كَانَ الله وَلم يكن شَيْء قبله ، وَكَانَ عَرْشه علىٰ المَاء . وَهَذَا مَذْهَب بَاطِل ، وَلَا يدلُّ قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [هود: ٧] علىٰ أَنَّه حَال عَلَيْهِ ، وإِنَّما أخبر عَن الْعَرْش خَاصَّة بِأَنَّهُ علىٰ المَاء ، وَلم يخبر

---

(١) انظر : عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٥/ ١١٠) .

عَن نَفسه بِأَنَّهُ حَال عَلَيْهِ تَعَالَىٰ الله عَن ذَلِك ، لأنَّه لم يكن لَهُ حَاجَة إِلَيْهِ ، وإنَّما جعله ليتعبَّد بِهِ مَلَائكَته كتعبُّد خلقه بِالْبَيْتِ الْحَرَام وَلم يسمِّه بَيته بِمَعْنى أَنَّه يسكنهُ ، وإنَّما سَمَّاهُ بَيته لأنَّه الْخَالِق لَهُ وَالْمَالِك ، وَكَذَلِكَ الْعَرْش سَمَّاهُ عَرْشه لأَنَّه مَالِكه ، وَالله تَعَالَىٰ لَيْسَ لأوليَّته حد وَلَا مُنْتَهى ، وَقد كَانَ فِي أوليَّته وَحده وَلَا عرش مَعَه .. .

وَقد اخْتلف الْعلمَاء فِي معنى الاسْتوَاء فَقَالَت الْمُعْتَزلَة : بِمَعْنى الِاسْتِيلَاء والقهر وَالْغَلَبَة كَمَا فِي قَول الشَّاعِر:

قد اسْتَوَىٰ بِشْرٌ علىٰ العِرَاقِ مِن غَيْرِ سَيْفٍ ودم مُهْرَاقِ

بِمَعْنى : قهر وَغلب ، وَأنكر عَلَيْهِم بِأَنَّهُ لَا يُقَال : استولى ، إلاَّ إِذا لم يكن مستولياً ثمَّ استولى ، وَالله عزَّ وجلَّ لم يزل مستولياً قاهراً غَالِباً ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَة : معنى اسْتَوَىٰ ارْتَفع ، وَفِيه نظر لأنَّه لم يصف بِهِ نَفسه ، وَقَالَت المجسِّمة : مَعْنَاهُ اسْتقرَّ ، وَهُوَ فَاسد ، لِأَنَّ الِاسْتِقْرَار من صِفَات الْأَجْسَام وَيلْزم مِنْهُ الْحُلُول والتناهي ، وَهُوَ محَالٌ فِي حقِّ الله تَعَالَىٰ . وَاخْتلف أهل السُّنَّة فَقَالَ بَعضهم : مَعْنَاهُ ارْتَفع مثل قَول أبي الْعَالِيَة ، وَبِه قَالَ أَبُو عُبَيْدَة وَالْفراء وَغَيرهمَا ، وَقَالَ بَعضهم : مَعْنَاهُ ملك وَقدر ، وَقَالَ بَعضهم : مَعْنَاهُ علا ، وَقيل : معنى الاسْتوَاء التَّمام والفراغ من فعل الشَّيْء وَمِنْه قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ﴾ [القصص: ١٤] ، فعلى هَذَا فَمَعْنى ﴿ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ : أتمَّ الْخلق ، وَخص لفظ الْعَرْش لكَونه أعظم الْأَشْيَاء . وَقيل : إِن : ﴿ عَلَى ﴾ ، فِي قَوْله : ﴿ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ بِمَعْنى : إِلَى ، فَالْمُرَاد على هَذَا : انْتهى إِلَى الْعَرْش ، أَي : فِيمَا يتَعَلَّق بالعرش لأنَّه خلق الْخلق شَيْئاً بعد شَيْء ، وَالصَّحِيح تَفْسِير اسْتَوَىٰ بِمَعْنى : علا ، كَمَا قَالَه مُجَاهِد ، على مَا يَأْتِي الْآن ، وَهُوَ الْمَذْهَب الْحق . وَقَول مُعظم أهل السّنة : لِأَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وصف نَفسه بالعلي . وَاخْتلف أهل السُّنَّة : هَل الاسْتوَاء صفة ذَات أَو صفة فعل ؟ فَمن قَالَ : مَعْنَاهُ علا ، قَالَ : هِيَ صفة ذَات ، وَمن قَالَ غير ذَلِك قَالَ : هِيَ صفة فعل " (١) .

وقال الإمام الثعالبي المالكي (٨٧٥هـ) : " وقوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ معناه عند أبي المعالي وغيره من حُذَّاق المتكلِّمين: الملك، والسُّلطان ، وخصَّ العرش بالذِّكْرِ تشريفاً له إذ هو أَعْظَمُ المخلوقات" (٢) .

---

(١) انظر : عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٥/ ١١١-١١٢) .

(٢) انظر : الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٣/ ٣٧) .

وقال الإمام البقاعي (٨٨٥هـ) : ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ أي أخذ في التَّدبير لما أوجده وأحدث خلقه أخذاً مستوفىٰ مستقصىٰ مستقلاً به لأنَّ هذا شأن من يملك ملكاً ويأخذ في تدبيره وإظهار أنَّه لا منازع له في شيء منه وليكون خطاب النَّاس علىٰ ما ألفوه من ملوكهم لتستقرَّ في عقولهم عظمته سبحانه، وركز في فِطَرهم الأولىٰ من نفي التَّشبيه منه، ويقال: فلان جلس علىٰ سرير الملك، وإن لم يكن هناك سرير ولا جلوس، وكما يقال في ضد ذلك: فلان ثلّ عرشه، أي ذهب عزُّه وانتقض مُلكه وفسد أمره، فيكون هذا كناية لا يلتفت فيه إلىٰ أجراء التَّركيب، والألفاظ علىٰ ظواهرها كقولهم للطَّويل: طويل النِّجاد، وللكريم: عظيم الرَّماد.

ولما كان سبحانه لا يشغله شان عن شأن، ابتدأ من التَّدبير هو آية ذلك بمشاهدته في تغطية الأرض بظلامه في آن واحد، فقال دالَّاً علىٰ كمال قدرته : المراد بالاستواء بأمر يشاهد كلّ يوم علىٰ كثرة منافعة التي جعل سبحانه بها انتظام هذا الوجود: ﴿ يُغۡشِي﴾ أي استوىٰ حال كونه يغشي ﴿ ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ (١) .

وَقَالَ الإِمَام كمال الدِّين بن أبي شريف (٩٠٦هـ) : ... فقد أُجيب عن آية الاستواء بأنَّا نؤمن بأنَّه تعالىٰ استوىٰ علىٰ الْعَرْش ، (مَعَ الحكم بِأَنَّهُ لَيْسَ كاستواء الْأَجْسَام علىٰ الْأَجْسَام من التَّمكُّن والمماسَّة والمحاذاة) لها لقيام البراهين القطعيَّة علىٰ استحالة ذلك في حقِّه تعالىٰ ، (بل) نؤمن بأنَّ الاستواء ثابت له تعالىٰ (بِمَعْنىٰ يَلِيق بِهِ ، هُوَ سُبْحَانَهُ أعلم بِهِ) ،(وَحَاصِله) أي حاصل ما سبق (وجوب الإيمان بأنّه) تعالىٰ (استوىٰ علىٰ العرش مع نفي التَّشبيه ، فأمَّا كون المراد أنَّه) أي الاستواء (استيلاؤه علىٰ العرش) كما جرىٰ عليه بعض الخلف واقتصر عليه حجَّة الإسلام في هذا الأصل (فأمر جائز الإرادة) يجوز أن يكون مراد الآية ولا يتعيَّن كونه المراد خلافاً لما دلَّ عليه كلام حجَّة الإسلام من تعيّنه (إذ لا دليل علىٰ إرادته عيناً ، فالواجب عيناً ما ذكرنا) من الإيمان به مَعَ نفي التَّشْبِيه ، (وإذا خيف علىٰ العامَّة) لقصور أفهامهم (عدم فهم الاسْتوَاء إِذا لم يكن بِمَعْنىٰ الِاسْتِيلَاء إِلَّا باتِّصال وَنَحْوه من لَوَازِم الجسميَّة) كالمحاذاة (وأن لا ينفوه) أي لا ينفوا ما ذكر من لوازم الجسميَّة (فلا بأس بصرف فهمهم إلىٰ الاستيلاء) صيانة لهم عن المحذور بأن يذكر لهم أنَّ الاستواء بمعنىٰ الاستيلاء (فَإِنَّهُ قد ثَبت إِطْلَاقه وإرادته لُغَة فِي قَوله) أي الشَّاعِر :

قد اسْتَوَىٰ بِشْرٌ علىٰ العِرَاقِ   مِن غَيْرِ سَيْفٍ ودم مُهْرَاقٍ

وَقَوله :

فَلَمَّا علونا واستوينا عَلَيْهِم   جعلناهم مرعىٰ لنسر وطائر

---

(١) انظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٤١٤) .

وجار (علىٰ نَحْو مَا ذكرنَا) في الاسْتوَاء علىٰ الْعَرْش (كلّ مَا ورد) أي كلّ لفظ ورد في الكتاب والسُّنَّة (مِمَّا ظَاهره الجسميَّة فِي الشَّاهِد) أي الحاضر الذي ندركه يجب الإيمان به ... (لما ذكرنَا من صرف فهم الْعَامَّة عَن الجسميَّة ، وَهُوَ مُمكن أَن يُرَاد وَلَا يجْزم بإرادته خُصُوصاً علىٰ قَول أَصْحَابنَا) يعني الماتريديَّة (إِنَّهَا) أي الْأَلْفَاظ المذكورة (من المتشابهات ، وَحكم الْمُتَشَابه انْقِطَاع رَجَاء معرفَة الْمُرَاد مِنْهُ فِي هَذِه الدَّار) دَار التَّكْلِيف ، (وَإِلَّا) أي وإن لا يكن ذلك بأن كان معرفته في هذه الدَّار مرجوَّة (لَكَانَ قد علم) لمن حصلت له من العباد ، وذلك ينافي القول بأنَّ الوقف في الآية علىٰ قوله : ﴿ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٧] .

وَأعلم أَن كَلَام إِمَام الْحَرَمَيْنِ فِي الْإِرْشَاد يمِيل إِلىٰ طريق التَّأْوِيل ، وَلكنَّه فِي " الرِّسَالَة النِّظاميَّة " اخْتَار طَرِيق التَّفْوِيض ، حَيْثُ قَالَ : وَالَّذِي نرتضيه رَأياً ، وندين الله تَعَالَىٰ بِهِ عقداً : اتِّبَاع سلف الْأمَّة ، فَإِنَّهُم درجوا علىٰ ترك التَّعَرُّض لمعانيها ، وَكَأَنَّهُ رَجَعَ إِلىٰ اخْتِيَار التَّفْوِيض لتأَخُّر الرِّسَالَة " (١) .

وقال الإمام السُّيوطي (٩١١هـ) : " فَصْلٌ : مِنَ الْمُتَشَابِهِ آيَاتُ الصِّفَاتِ : وَلِابْنِ اللَّبَّانِ فِيهَا تَصْنِيفٌ مُفْرَدٌ نَحْوَ : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ... وَجُمْهُورُ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنْهُمُ السَّلَفُ وَأَهْلُ الْحَدِيثِ عَلَىٰ الْإِيمَانِ بِهَا وَتَفْوِيضِ مَعْنَاهَا الْمُرَادِ مِنْهَا إِلىٰ اللهِ تَعَالَىٰ ، وَلَا نُفَسِّرُهَا مَعَ تَنْزِيهِنَا لَهُ عَنْ حَقِيقَتِهَا ...

وَأَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ عَنْهُ أَنَّه قَالَ : هُوَ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ ، وَلَا يقال : كيف وكيف مَرْفُوعٌ.

وَأَخْرَجَ اللَّالَكَائِيُّ عَنْ محمَّد بْنِ الْحَسَنِ ، قَالَ : اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ كُلُّهُمْ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلىٰ الْمَغْرِبِ عَلَىٰ الْإِيمَانِ بِالصِّفَاتِ مِنْ غَيْرِ تَفْسِيرٍ وَلَا تَشْبِيهٍ.

وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ فِي الْكَلَامِ عَلَىٰ حَدِيثِ الرُّؤْيَةِ : الْمَذْهَبُ فِي هَذَا عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الْأَئِمَّةِ ، مِثْلَ : سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ ، وَمَالِكٍ ، وَابْنِ الْمُبَارَكِ ، وَابْنِ عُيَيْنَةَ ، وَوَكِيعٍ ، وَغَيْرِهِمْ أنَّهم قالوا : ونَرْوِي هَذِهِ الْأَحَادِيثَ كَمَا جَاءَتْ وَنُؤْمِنُ بِهَا ، وَلَا يُقَالُ : كَيْفَ ، وَلَا نُفَسِّرُ ، وَلَا نَتَوَهَّمُ.

وَذَهَبَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَىٰ أَنَّنا نُؤَوِّلُهَا عَلَىٰ مَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ تَعَالَىٰ ، وَهَذَا مَذْهَبُ الْخَلَفِ ، وَكَانَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ يَذْهَبُ إِلَيْهِ ثمَّ رَجعَ عَنْهُ ، فَقَالَ فِي الرِّسَالَةِ النِّظَامِيَّةِ : الَّذِي نَرْتَضِيهِ دِيناً وندين الله بِهِ عَقْداً : اتِّبَاعُ سَلَفِ الْأُمَّةِ ، فَإِنَّهُمْ دَرَجُوا عَلَىٰ تَرْكِ التَّعَرُّضِ لِمَعَانِيهَا.

وَقَالَ ابْنُ الصَّلَاحِ : عَلَىٰ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ مَضَىٰ صَدْرُ الْأُمَّةِ وَسَادَاتُهَا ، وَإِيَّاهَا اخْتَارَ أَئِمَّةُ الْفُقَهَاءِ وَقَادَاتُهَا ، وَإِلَيْهَا دَعَا أَئِمَّةُ الْحَدِيثِ وَأَعْلَامُهُ ، وَلَا أَحَدَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ من أصحابنا يصدف عَنْهَا وَيَأْبَاهَا.

---

(١) انظر : المسامرة شرح المسايرة في العقائد المنجية في الآخرة (ص٤٥-٤٩باختصار) .

وَاخْتَارَ ابْنُ بُرْهَانٍ مَذْهَبَ التَّأْوِيلِ ، قَالَ : وَمَنْشَأُ الْخِلَافِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ : هَلْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي الْقُرْآنِ شَيْءٌ لَمْ نَعْلَمْ مَعْنَاهُ أَوْ لَا بَلْ يَعْلَمُهُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ.

وَتَوَسَّطَ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ ، فَقَالَ : إِذَا كَانَ التَّأْوِيلُ قَرِيباً مِنْ لِسَانِ الْعَرَبِ ، لَمْ يُنْكَرْ أَوْ بَعِيداً تَوَقَّفْنَا عَنْهُ وَآمَنَّا بِمَعْنَاهُ عَلَىٰ الْوَجْهِ الَّذِي أُرِيدَ بِهِ مَعَ التَّنْزِيهِ ، قَالَ : وَمَا كَانَ مَعْنَاهُ مِنْ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ ظَاهِراً مَفْهُوماً مِنْ تَخَاطُبِ الْعَرَبِ قُلْنَا بِهِ مِنْ غَيْرِ تَوْقِيفٍ ... " (١) .

وقال الإمام القسطلاني (٩٢٣هـ) ، : " وقال مجاهد المفسِّر في قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف: ٥٤] ، أي : علا علىٰ العرش ، وهذا وصله الفريابي ، عن ورقاء ، عن ابن أبي نجيح ، عنه . قال ابن بطَّال : وهذا صحيح وهو المذهب الحقّ ، وقول أهل السُّنَّة ، لأنَّ الله سبحانه وتعالىٰ وصف نفسه بالعليِّ ، وقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ، وهي صفة من صفات الذَّات . قال في المصابيح : وما قاله مجاهد من أنَّه بمعنىٰ علا ، ارتضاه غير واحد من أئمَّة أهل السُّنَّة ، ودفعوا اعتراض من قال : علا بمعنىٰ ارتفع من غير فرق ، وقد أبطلتموه لما في ظاهره من الانتقال من سفل إلىٰ علو ، وهو محال علىٰ الله ، فليكن علا كذلك ، ووجه الدَّفع أنَّ الله تعالىٰ وصف نفسه بالعلوِّ ، ولم يصف نفسه بالارتفاع . وقال المعتزلة : معناه الاستيلاء بالقهر والغلبة ، وردَّ بأنه تعالىٰ لم يزل قاهراً غالباً مستولياً . وقوله : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ ﴾ يقتضي افتتاح هذا الوصف بعد أن لم يكن ، ولازم تأويلهم أنَّه كان مغالباً فيه فاستولىٰ عليه بقهر من غالبه ، وهذا مُنتَفٍ عن الله . وقالت المجسِّمة : معناه الاستقرار ، ودفع بأنَّ الاستقرار من صفات الأجسام ، ويلزم منه الحلول ، وهو مُحالٌ في حقِّه تعالىٰ " (٢) .

وقال أيضاً : " الاستواء افتعال من السّواء ، والسّواء يكون بمعنىٰ العدل والوسط ، وبمعنىٰ الإقبال ، كما نقله الهروي عن الفرَّاء ، وتبعه ابن عرفة بمعنىٰ الاستيلاء ، وأنكره ابن الأعرابي وقال: لا تقول استولىٰ إلَّا لمن له مضادّ ، وفيما قاله نظر ، فإنَّ الاستيلاء من الولاء ، وهو القرب أو من الولاية ، وكلاهما لا يفتقر في إطلاقه لمضادّ ، وبمعنىٰ اعتدل وبمعنىٰ علا .

وإذا علم هذا فينزل علىٰ ذلك الاستواء الثَّابت للباري تعالىٰ علىٰ الوجه اللائق به ، وقد ثبت عن الإمام مالك أنَّه سئل كيف استوىٰ ؟ فقال : كيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسُّؤال عنه بدعة . فقوله : كيفٌ غير معقول ، أي : كيف من صفات الحوادث ، وكلُّ ما كان من صفات

---

(١) انظر : الإتقان في علوم القرآن (٣/ ١٤-١٨) .

(٢) انظر : إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (١٠/ ٣٩١) .

الحوادث فإثباته في صفات الله تعالىٰ ينافي ما يقتضيه العقل ، فيجزم بنفيه عن الله تعالىٰ . وقوله : والاستواء غير مجهول ، أي : أنَّه معلوم المعنىٰ عند أهل اللغة ، والإيمان به علىٰ الوجه اللائق به تعالىٰ واجب ، لأنَّه من الإيمان بالله تعالىٰ وكتبه ، والسُّؤال عنه بدعة ، أي : حادث ، لأنَّ الصَّحابة رضي الله عنهم كانوا عالمين بمعناه اللائق بحسب اللغة ، فلم يحتاجوا للسُّؤال عنه ، فلمّا جاء من لم يحط بأوضاع لغتهم ، ولا له نور كنورهم يهديه لنور صفات الباري تعالىٰ ، شرع يسأل عن ذلك ، فكان سؤاله سبباً لاشتباهه علىٰ النَّاس وزيغهم علىٰ العلماء حينئذٍ أن يهملوا البيان ، وقد مرَّ أنَّ استوىٰ افتعل وأصله العدل ، وحقيقة الاستواء المنسوب إلىٰ الله تعالىٰ في كتابه بمعنىٰ اعتدل ، أي : قام بالعدل ، وأصله من قوله : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨] ، والعدل وهو استواؤه ، ويرجع معناه إلىٰ أنَّه أعطىٰ بعزَّته كلَّ شيء خلقه موزوناً بحكمته المبالغة في التَّعريف لخلقه بوحدانيَّته ، ولذلك قرنه بقوله : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨] ، والاستواء المذكور في القرآن استواءان : سماويّ ، وعرشي ، فالأول : معدَّىٰ بإلىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [البقرة: ٢٩] ، والثاني : بعلىٰ ، لأنَّه تعالىٰ قام بالقسط متعرفاً بوحدانيَّته في عالمين : عالم الخلق ، وعالم الأمر ، وهو عالم التَّدبير ، فكان استواؤه علىٰ العرش للتَّدبير بعد انتهاء عالم الخلق ، وبهذا يفهم سرّ تعدية الاستواء العرشي بعلىٰ ، لأنَّ التَّدبير للأمر لا بدَّ فيه من استعلاء واستيلاء ، والعرش جسم كسائر الأجسام ، سُمِّي به لارتفاعه أو للتَّشبيه بسرير الملك ، فإنَّ الأمور والتَّدابير تنزل منه " (١) .

وقال الإمام مجير الدِّين بن محمَّد العليمي المقدسي الحنبلي (٩٢٧ هـ) : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ استواءً يليقُ بعظمتِهِ بِلا كيفٍ، وهذا من المشكِلِ الذي يجبُ عندَ أهل السُّنَّةِ علىٰ الإنسانِ الإيمانُ به، ويَكِلُ العلمَ فيه إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، وسُئِلَ الإمامُ مالكٌ رضي الله عنه عن الاستواءِ فقالَ: "الاستواءُ معلومٌ؛ يعني: في اللغة، والكيفُ مجهولٌ، والإيمانُ بهِ واجبٌ، والسؤالُ عنهُ بِدْعَةٌ" ، وسُئِل الإمامُ أحمدُ رضي الله عنه عن قوله تعالىٰ: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] ، فقال: "هُوَ كما أخبرَ، لا كما يخطرُ للبشَرِ" ، والعرشُ في اللغة: هو السَّريرُ، وخُصَّ العرشُ بالذّكرِ تشريفًا له؛ إذ هو أعظمُ المخلوقات " (٢) .

وقال الإمام أبو الحسن الشَّاذلي (٩٣٩هـ) : " (و) ممَّا يجب اعتقاده والإيمان به أنَّ الله تعالىٰ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ لا يرد علىٰ هذا اللفظ ما ورد علىٰ قوله قبل فوق عرشه ، لأنَّ القرآن أتىٰ به وهو من

---

(١) انظر : إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (١٠/ ٤٧٣) .

(٢) انظر : فتح الرحمن في تفسير القرآن (٢٥٢٩-٥٣٠) .

المتشابه ، فمن العلماء كابن شهاب ومالك من منعوا تأويله ، وقالوا : نؤمن به ولا نتعرَّض لمعناه ، ومنهم من أجاز تأويله قصداً للإيضاح ، فمعنىٰ استوائه علىٰ عرشه : أنَّ الله تعالىٰ استولىٰ عليه استيلاء مالك قادر قاهر ، ومن استولىٰ علىٰ أعظم الأشياء كان ما دونه في ضمنه ومنطوياً تحته ، وقيل : الاستواء بمعنىٰ العلو ، أي : علوّ مرتبة ومكانة لا علوّ مكان " (١) .

وقال الإمام شمس الدِّين محمَّد بن عمر بن أحمد السّفيري الشَّافعي (٩٥٦هـ) : ﴿ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ من غير تكييف علو عظمته وقهره ، وكيف يحمل العرش حامله ، القلوب تعرفه بصفته ، والرِّقاب خاضعة لعزَّته ، والعقول في تعظيمه حائرة ذاهلة ، صفاته قديمة وتخيُّلات المشبِّهين والمعطِّلين باطلة ، لا يرد أفعاله كم ولا كيف ، ولا ينسب شيء من أحكامه إلىٰ حين ، فاقطع لسان الاعتراض وكف كف المجادلة ، فكلَّما تصوَّره وهمُك فهو حادث مخلوق ، وكيف يشبه المفعول فاعله " (٢) .

وجاء في فتاوىٰ الرَّملي الشَّافعي (٩٥٧هـ) : " ... مَذْهَبُ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ مَا عَدَا مَنْ سَيَأْتِي أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ وَهُوَ أَنَّ اللهَّ تَعَالَىٰ بِجِهَةِ الْعُلُوِّ غَيْرُ صَحِيحٍ ، كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي كُتُبِ الْكَلَامِ مَبْسُوطَاتِهَا وَمُخْتَصَرَاتِهَا ، وَقَدْ رَوَوْهُ بِأَدِلَّةٍ كَثِيرَةٍ لَا يَحْتَمِلُهَا هَذَا الْجَوَابُ . قَالَ الْإِمَامُ الْعَالِمُ الْعَلَّامَةُ عِزُّ الدِّين بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ غَانِمٍ الْمَقْدِسِيُّ فِي كِتَابِهِ حَلُّ الرُّمُوزِ وَمَفَاتِيحُ الْكُنُوزِ : سُئِلَ يَحْيَىٰ بْنُ مُعَاذٍ الرَّازِي ، فَقِيلَ لَهُ : أَخْبِرْنَا عَنْ اللهَّ تَعَالَىٰ ؟ فَقَالَ : إلَهٌ وَاحِدٌ ، فَقِيلَ لَهُ : كَيْفَ هُوَ ؟ فَقَالَ : إلَهٌ قَادِرٌ ، قِيلَ : أَيْنَ هُوَ ؟ قَالَ : بِالْمِرْصَادِ ، فَقَالَ السَّائِلُ : لَمْ أَسْأَلْك عَنْ هَذَا ، فَقَالَ : مَا كَانَ غَيْرُ هَذَا فَهُوَ صِفَةُ الْمَخْلُوقِ فَأَمَّا صِفَتُهُ تَعَالَىٰ فَالَّذِي أَخْبَرْت عَنْهُ. وَسُئِلَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ عَنْ قَوْلِهِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] فَقَالَ : الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عرفنا بِهَذَا الْقَوْلِ مَنْ هُوَ مَا عَرَفْنَا مَا هُوَ؛ لأَنَّه لَا يَعْرِفُ مَا هُوَ إلَّا هُوَ. وَقِيلَ لِصُوفِيٍّ : أَيْنَ الله ؟ قَالَ قَبَّحَك اللهُّ هَلْ تَطْلُبُ مَعَ الْعَيْنِ أَيْنَ ، قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤] ، وَسُئِلَ الشِّبْلِيُّ عَنْ قَوْلِهِ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] ، فَقَالَ : الرَّحمن لَمْ يَزُلْ وَالْعَرْشُ مُحْدَثٌ فَالْعَرْشُ بِالرَّحْمَنِ اسْتَوَىٰ، وَسُئِلَ ذُو النُّونِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] ، فَقَالَ : أَثْبَتَ ذَاتَه وَنَفَىٰ مَكَانَهُ فَهُوَ مَوْجُودٌ بِذَاتِهِ وَالْأَشْيَاءُ كُلُّهَا مَوْجُودَةٌ بِحِكْمَةٍ كَمَا شَاءَ.

وَسُئِلَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ الِاسْتِوَاءِ ، فَقَالَ : اسْتَوَىٰ كَمَا أَخْبَرَ لَا كَمَا يَخْطِرُ لِلْبَشَرِ ، وَسُئِلَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ عَنْ الِاسْتِوَاءِ ، فَقَالَ : آمَنْت بِلَا تَشْبِيهٍ وَصَدَّقْت بِلَا تَمْثِيلٍ وَاتَّهَمْت نَفْسِي فِي الْإِدْرَاكِ، وَأَمْسَكْت عَنْ الْخَوْضِ فِيهِ

---

(١) انظر : كفاية الطالب الرباني لرسالة أبي زيد القيرواني (١/ ٧٦) .

(٢) انظر : المجالس الوعظية في شرح أحاديث خير البرية صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من صحيح الإمام البخاري (١/ ٣٦٩) .

كُلَّ الْإِمْسَاكِ ، وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ : مَنْ قَالَ : لَا أَعْرِفُ اللهَ فِي السَّماء هُوَ أَمْ فِي الْأَرْضِ فَقَدْ كَفَرَ؛ لِأَنَّ هَذَا الْقَوْلَ يُوهِمُ أَنَّ لِلْحَقِّ تَعَالَىٰ مَكَانًا فَهُوَ مُشَبَّهٌ. وَسُئِلَ الْإِمَامُ مَالِكٌ عَنْ الِاسْتِوَاءِ ، فَقَالَ : الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ ، رُوِيَ أَنَّه قَالَ لِلسَّائِلِ بَعْدَ ذَلِكَ : فَلَا أَرَاك إِلَّا خَارِجِيًّا ، أَخْرِجُوهُ عَنِّي. وَهَذَا الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ الْأَئِمَّةُ الْأَرْبَعَةُ فَلَا خِلَافَ بَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ وَمَنْ تَوَهَّمَ أَنَّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ الْأَئِمَّةِ اخْتِلَافًا فِي صِحَّةِ الِاعْتِقَادِ فَقَدْ أَعْظَمَ الْفِرْيَةَ عَلَىٰ أَئِمَّةِ الْأُمَّةِ وَسَاءَ ظَنُّهُ بِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَقَدْ سُئِلَ مِصْبَاحُ التَّوحيد وَصَبَاحُ التَّفْرِيد عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ – كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ – : بِمَ عَرَفْت رَبَّك ، فَقَالَ : عَرَفْت رَبِّي بِمَا عَرَّفَنِي بِهِ نَفْسَهُ ، لَا يُدْرَكُ بِالْحَوَاسِّ وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ ، قَرِيبٌ فِي بُعْدِهِ ، بَعِيدٌ فِي قُرْبِهِ ، فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا يُقَالُ تَحْتَهُ شَيْءٌ، وَأَمَامَ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا يُقَالُ أَمَامَهُ شَيْءٌ ، وَهُوَ فِي كُلِّ شَيْءٍ لَا كَشَيْءٍ فِي شَيْءٍ ، فَسُبْحَانَ مَنْ هُوَ كَذَا وَلَيْس هَكَذَا غَيْرُهُ اهـ ...

وَأَمَّا قَوْلُ ابْنِ رُشْدٍ الْحَفِيدِ فَمَرْدُودٌ إِذْ هُوَ كَذِبٌ حَمَلَهُ عَلَيْهِ اعْتِقَادُهُ الْفَاسِدُ ، وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عَلِيٍّ عُمَرُ بْنُ محمَّد بْنِ خَلِيلٍ الْإِشْبِيلِيُّ السَّكُونِيُّ الْأَشْعَرِيُّ : وَلْيُحْتَرَزْ مِنْ كَلَامِ ابْنِ رُشْدٍ الْحَفِيدِ؛ لِأَنَّ كَلَامَهُ فِي الْمُعْتَقَدِ فَاسِدٌ. اهـ. وَأَمَّا كَلَامُ ابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ، وَأَبِي حَنِيفَةَ كَالْأَشْعَرِيِّ وَعُثْمَانَ بْنِ سَعِيدٍ الدَّارِمِيِّ فَلَمْ أَقِفْ عَلَيْهِ، وَالْجَوَابُ عَنْهُ إِنْ كَانَ فِيهِ مَا ظَاهِرُهُ إِثْبَاتُ الْجِهَةِ أَنَّه مَحْمُولٌ عَلَىٰ غَيْرِ ظَاهِرِهِ لِلْعِلْم بِأَنَّهُ لَمْ يَذْهَبْ إِلىٰ ذَلِكَ الْقَوْلِ، وَإِنْ لَمْ يُمْكِنْ تَأْوِيلُهُ فَهُوَ كَذِبٌ عَلَيْهِ ثمَّ رَأَيت بِالنَّسَبِ مَا نُسِبَ لِلْأَشْعَرِيِّ فِي الْإِبَانَةِ وَحَاصِلُهُ مَعَ التَّأَمُّلِ إِثْبَاتُ الِاسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ وَعَدَمُ تَأْوِيلِهِ بِالِاسْتِيلَاءِ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ السَّلَفِ، وَأَمَّا قَوْلُ الشَّيخ عَبْدِ الْقَاهِرِ فِي كِتَابِهِ " الْحِلْيَةِ " فَهُوَ مَاشٍ عَلَىٰ ذَلِكَ الْقَوْلِ الْمَرْدُودِ.

وَأَمَّا تَخْطِئَةُ ابْنِ رُشْدٍ تَأْوِيلَ الِاسْتِوَاءِ بِالِاسْتِيلَاءِ فَهُوَ لِمَا فِيهِ مِنْ إِيهَامِ الْمُفَاعَلَةِ كَمَا يُؤْخَذُ مِنْ تَعْلِيلِهِ كَابْنِ الْأَعْرَابِيِّ حَيْثُ قَالَ لَهُ رَجُلٌ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ مَا مَعْنَىٰ قَوْلِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] قَالَ أَنَّه مُسْتَوٍ عَلَىٰ عَرْشِهِ كَمَا أَخْبَرَ فَقَالَ الرَّجُلُ إِنَّمَا مَعْنَىٰ قَوْلِهِ اسْتَوَىٰ أَيْ اسْتَوْلَىٰ فَقَالَ لَهُ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ مَا يُدْرِيك الْعَرَبُ لَا تَقُولُ اسْتَوْلَىٰ عَلَىٰ الشَّيء فُلَانٌ حَتَّىٰ يَكُونَ لَهُ فِيهِ مُضَادٌّ فَأَيُّهمَا غَلَبَ قِيلَ قَدْ اسْتَوْلَىٰ عَلَيْهِ وَاللهُ تَعَالَىٰ لَا مُضَادَّ لَهُ فَهُوَ مُسْتَوٍ عَلَىٰ عَرْشِهِ كَمَا أَخْبَرَ. اهـ. وَالْمُؤَوِّلُونَ بِهِ لَا يُسَلِّمُونَ تَعْلِيلَهُ ، وَعِبَارَةُ الطَّوَالِعِ اللهُ تَعَالَىٰ لَيْسَ بِجِسْمٍ خِلَافًا لِلْمُجَسِّمَةِ وَلَا فِي جِهَةٍ خِلَافًا لِلْكَرَامِيَّةِ وَالْمُشَبِّهَةِ لَنَا أَنَّه تَعَالَىٰ لَوْ كَانَ فِي جِهَةٍ وَحَيِّزٍ فَإِمَّا أَنْ يَنْقَسِمَ فَيَكُونُ جِسْمًا وَكُلُّ جِسْمٍ مُرَكَّبٌ وَمُحْدَثٌ لِمَا سَبَقَ فَيَكُونُ الْوَاجِبُ مُرَكَّبًا وَمُحْدَثًا هَذَا خُلْفٌ أَوْ لَا يَنْقَسِمُ فَيَكُونُ جُزْءًا لَا يَتجزَّأُ، وَهُوَ مُحَالٌ بِالِاتِّفَاقِ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ تَعَالَىٰ لَوْ كَانَ فِي حَيِّزٍ وَجِهَةٍ لَكَانَ مُتَنَاهِي الْقَدْرِ كَمَا سَبَقَ فَكَانَ مُحْتَاجًا فِي تَقْدِيرِهِ إِلىٰ مُخَصِّصٍ وَمُرَجِّحٍ وَهُوَ مُحَالٌ. اهـ.

وَقَالَ الْإِمَامُ النَّسَفِيُّ فِي شَرْحِ عُمْدَتِهِ: صَانِعُ الْعَالَمِ لَيْسَ فِي جِهَةٍ خِلَافًا لِبَعْضِ الْكَرَّامِيَّةِ فَإِنَّهُمْ يُعَيِّنُونَ لَهُ جِهَةَ الْعُلُوِّ مِنْ غَيْرِ اسْتِقْرَارٍ عَلَى الْعَرْشِ وَلَيْسَ مُتَمَكِّنًا بِمَكَانٍ وَعِنْدَ الْمُشَبِّهَةِ وَالْمُجَسِّمَةِ وَالْكَرَّامِيَّةِ مُتَمَكِّنٌ عَلَى الْعَرْشِ وَقَالَ الْكَمَالُ بْنُ الْهُمَامِ فِي الْمُسَايَرَةِ الَّتِي اخْتَصَرَ فِيهَا الرِّسَالَةَ الْقُدْسِيَّةَ لِحُجَّةِ الْإِسْلَامِ الْغَزَالِيِّ الْأَصْلُ السَّابِعُ أَنَّه تَعَالَى لَيْسَ مُخْتَصًّا بِجِهَةٍ؛ لِأَنَّ الْجِهَاتِ الَّتِي هِيَ الْفَوْقُ وَالتَّحْتُ وَالْيَمِينُ إِلَى آخِرِهَا حَادِثَةٌ بِأَحْدَاثِ الْإِنْسَانِ وَنَحْوِهِ مِمَّا يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ فَإِنَّ مَعْنَى الْفَوْقِ مَا يُحَاذِي رَأْسَهُ مِنْ فَوْقُ وَالْبَاقِي ظَاهِرٌ وَلِمَا يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ أَوْ بَطْنِهِ مَا يُحَاذِي ظَهْرَهُ مِنْ فَوْقِهِ ثُمَّ هِيَ اعْتِبَارِيَّةٌ فَإِنَّ النَّمْلَةَ إِذَا مَشَتْ عَلَى سَقْفٍ كَانَ الْفَوْقُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا جِهَةَ الْأَرْضِ؛ لأَنَّه الْمُحَاذِي لِظَهْرِهَا وَلَوْ كَانَ كُلُّ حَادِثٍ مُسْتَدِيرًا كَالْكُرَةِ لَمْ تُوجَدْ وَاحِدَةٌ مِنْ هَذِهِ الْجِهَاتِ وَقَدْ كَانَ فِي الْأَزَلِ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ فَقَدْ كَانَ لَا فِي جِهَةٍ وَلِأَنَّ مَعْنَى الِاخْتِصَاصِ بِالْجِهَةِ اخْتِصَاصُهُ بِحَيِّزٍ هُوَ كَذَا وَقَدْ بَطَلَ اخْتِصَاصُهُ بِالْحَيِّزِ لِبُطْلَانِ الْجَوْهَرِيَّةِ وَالْجِسْمِيَّةِ فَإِنْ أُرِيدَ بِالْجِهَةِ غَيْرُ هَذَا مِمَّا لَيْسَ فِيهِ حُلُولُ حَيِّزٍ وَلَا جِسْمِيَّةٍ فَلْيُبَيَّنْ حَتَّى يُنْظَرَ أَيَرْجِعُ إِلَى التَّغْرِيَةِ فَنُخَطِّئُهُ فِي مُجَرَّدِ التَّعْبِيرِ أَوْ إِلَى غَيْرِهِ فَيَبِينُ فَسَادُهُ.

الْأَصْلُ الثَّامِنُ أَنَّه اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَعَ الْحُكْمِ بِأَنَّهُ لَيْسَ كَاسْتِوَاءِ الْأَجْسَامِ عَلَى الْأَجْسَامِ فِي التَّمَكُّنِ وَالْمُمَاسَّةِ وَالْمُحَاذَاةِ لَهَا بَلْ بِمَعْنَى يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَحَاصِلُهُ وُجُوبُ الْإِيمَانِ بِأَنَّهُ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَعَ نَفْيِ التَّشْبِيهِ فَأَمَّا كَوْنُ الْمُرَادِ أَنَّه اسْتِيلَاؤُهُ عَلَى الْعَرْشِ فَأَمْرٌ جَائِزُ الْإِرَادَةِ إِذْ لَا دَلِيلَ عَلَى إِرَادَتِهِ عَيْنًا فَالْوَاجِبُ عَلَيْنَا مَا ذَكَرْنَاهُ. اهـ. وَقَالَ الْغَزَالِيُّ فِي الرِّسَالَةِ الْقُدْسِيَّةِ: وَأَمَّا رَفْعُ الْأَيْدِي عِنْدَ السُّؤَالِ إِلَى جِهَةِ السَّماءِ فِيهِ؛ لِأَنَّهَا قِبْلَةٌ لِلدُّعَاءِ وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى مَا هُوَ وَصْفٌ لِلْمَدْعُوِّ مِنَ الْجَلَالِ وَالْكِبْرِيَاءِ تَنْبِيهًا بِقَصْدِ جِهَةِ الْعُلُوِّ عَلَى جِهَةِ الْمَجْدِ وَالْعُلَا فَإِنَّهُ تَعَالَى فَوْقَ كُلِّ مَوْجُودٍ بِالْعَظَمَةِ وَالِاسْتِعْلَاءِ وَالْقَهْرِ وَالِاسْتِيلَاءِ. اهـ. وَقَالَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ فِي كِتَابِهِ لُمَعُ الْأَدِلَّةِ فِي قَوَاعِدِ عَقَائِدِ أَهْلِ السُّنَّةِ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَقَدَّسَ عَنِ الِاخْتِصَاصِ بِالْجِهَاتِ وَالِاتِّصَافِ بِالْمُحَاذَاةِ لَا تَحُدُّهُ الْأَفْكَارُ وَلَا تَحْوِيهِ الْأَقْطَارُ وَلَا تَكْتَنِفُهُ الْأَقْدَارُ وَيَجِلُّ عَنْ قَبُولِ الْحَدِّ وَالْمِقْدَارِ وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مُخْتَصٍّ بِجِهَةٍ شَاغِلٌ لَهَا وَكُلَّ مُتَحَيِّزٍ قَابِلٌ لِمُلَاقَاةِ الْجَوَاهِرِ وَمُفَارَقَتِهَا وَكُلَّ مَا يَقْبَلُ الِاجْتِمَاعَ وَالِافْتِرَاقَ لَا يَخْلُو عَنْهُ، وَمَا لَا يَخْلُو عَنِ الِاجْتِمَاعِ وَالِافْتِرَاقِ حَادِثٌ كَالْجَوَاهِرِ.

وَأَطَالَ الشَّيخ شَرَفُ الدِّين بْنُ التِّلِمْسَانِيِّ فِي شَرْحِهَا الْكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ قَالَ : وَالْجَوَابُ الْجَلِيُّ عَنِ الْجَمِيعِ أَيْ جَمِيعِ الْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي اسْتَنَدَ إِلَيْهَا مُثْبِتُو الْجِهَةِ أَنَّ الشَّرْعَ إِنَّمَا يَثْبُتُ بِالْعَقْلِ فَلَا يُتَصَوَّرُ وُرُودُهُ بِمَا يُكَذِّبُ الْعَقْلَ فَإِنَّهُ شَاهِدُهُ فَلَوْ أَتَى بِذَلِكَ لَبَطَلَ الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ مَعًا إِذَا تَقَرَّرَ هَذَا فَيَقُولُ كُلُّ لَفْظٍ يَرِدُ فِي الشَّرْعِ فِي الذَّاتِ وَالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ بِمَا يُوهِمُ خِلَافَ الْعَقْلِ فَلَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ آحَادًا أَوْ مُتَوَاتِرًا فَإِنْ كَانَ

آحَادًا وَهُوَ نَصٌّ لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ قَطَعْنَا بِتَكْذِيبِ نَاقِلِهِ أَوْ سَهْوِهِ وَغَلَطِهِ، وَإِنْ كَانَ ظَاهِرًا فَالظَّاهِرُ مِنْهُ غَيْرُ مُرَادٍ، وَإِنْ كَانَ مُتَوَتِّرًا فَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ نَصًّا لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرًا أَوْ مُحْتَمَلًا فَحِينَئِذٍ فَنَقُولُ الِاحْتِمَالُ الَّذِي دَلَّ الْعَقْلُ عَلَىٰ خِلَافِهِ لَيْسَ بِمُرَادٍ مِنْهُ فَإِنْ بَقِيَ بَعْدَ إِزَالَتِهِ احْتِمَالٌ وَاحِدٌ تَعَيَّنَ أَنَّه الْمُرَادُ بِحُكْمِ الْحَالِ، وَإِنْ بَقِيَ احْتِمَالَانِ أَوْ أَكْثَرُ فَلَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَدُلَّ قَاطِعٌ عَلَىٰ تَعْيِينِ وَاحِدٍ أَوْ لَا فَإِنْ دَلَّ حُمِلَ عَلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ يَدُلَّ قَاطِعٌ عَلَىٰ التَّعْيِينِ خَشْيَةَ الْإِلْحَادِ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ كَمَا نُقِلَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ وَيُعْزَىٰ إِلَىٰ مَالِكٍ الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ بِمَعْنَىٰ أَنَّ مَحَامِلَ الِاسْتِوَاءِ فِي اللُّغَةِ مَعْلُومَةٌ بَعْدَ نَفْيِ الِاسْتِقْرَارِ مِنَ الْقَهْرِ أَوِ الْغَلَبَةِ وَالْقَصْدِ إِلَىٰ خَلْقِ شَيْءٍ هُوَ الْعَرْشُ كَمَا قَالَ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] أَيْ قَصَدَ إِلَىٰ خَلْقِهَا أَوِ التَّنَاهِي فِي صِفَاتِ الْكَمَالِ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤] يَعْنِي أَنَّ كُلَّ هَذِهِ الْمَحَامِلِ مَعْلُومَةٌ فِي اللِّسَانِ قَوْلُهُ وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ لَنَا قَوْلُهُ وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ يَعْنِي أَنَّ التَّصْدِيقَ بِأَنَّ لَهُ مَعْنًى يَصِحُّ فِي وَصْفِهِ تَعَالَىٰ وَاجِبٌ قَوْلُهُ وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ يَعْنِي أَنَّ تَعْيِينَهُ بِطَرِيقِ الظُّنُونِ بِدْعَةٌ فَإِنَّهُ لَمْ يُعْهَدْ مِنَ الصَّحَابَةِ التَّصَرُّفُ فِي أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ وَصِفَاتِهِ بِالظُّنُونِ وَحَيْثُ عَمِلُوا بِالظُّنُونِ إِنَّمَا عَمِلُوا بِهَا فِي تَوْصِيلِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ لَا فِي الْمُعْتَقَدَاتِ الْإِيمَانِيَّةِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ جَوَّزَ التَّعْيِينَ بِالِاجْتِهَادِ دَفْعًا لِلْخَبْطِ فِي الْعَقَائِدِ وَهُوَ مَذْهَبُ صَاحِبِ الْكِتَابِ ثُمَّ جَلَّى التَّأْوِيلَاتِ إِلَىٰ أَنْ قَالَ فَإِنْ قَالُوا جَمِيعُ مَا ذَكَرْتُمُوهُ تَأْوِيلٌ وَالتَّأْوِيلُ مَمْنُوعٌ مِنْهُ قُلْنَا قَدْ أَوَّلْتُمْ قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] وقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] الْآيَةَ ...

وَقَالَ السَّعْدُ التَّفْتَازَانِيُّ فِي شَرْحِ الْمَقَاصِدِ: وَأَمَّا الْقَائِلُونَ بِحَقِيقَةِ الْجِسْمِيَّةِ وَالْجِهَةِ فَقَدْ بَنَوْا مَذْهَبَهُمْ عَلَىٰ قَضَايَا وَهْمِيَّةٍ كَاذِبَةٍ تَسْتَلْزِمُهَا وَعَلَىٰ ظَوَاهِرِ آيَاتٍ، وَأَحَادِيثَ تُشْعِرُ بِهَا ثُمَّ ذَكَرَهَا وَجَوَابَ تِلْكَ الْقَضَايَا إِلَىٰ أَنْ قَالَ: وَالْجَوَابُ أَيْ عَنِ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ أَنَّهَا ظَنِّيَّاتٌ سَمْعِيَّةٌ فِي مُعَارَضَةِ قَطْعِيَّاتٍ عَقْلِيَّةٍ فَيُقْطَعُ بِأَنَّهَا لَيْسَتْ عَلَىٰ ظَوَاهِرِهَا وَنُفَوِّضُ الْعِلْمَ بِمَعَانِيهَا إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ مَعَ اعْتِقَادِ حَقِيقَتِهَا جَرْيًا عَلَىٰ الطَّرِيقِ الْأَسْلَمِ الْمُوَافِقِ لِلْوَقْفِ عَلَىٰ اللهِ فِي قَوْلِهِ ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] أَوْ تُؤَوَّلُ تَأْوِيلَاتٍ مُنَاسَبَةً مُوَافِقَةً لِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَدِلَّةُ الْعَقْلِيَّةُ عَلَىٰ مَا ذُكِرَ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ وَشُرُوحِ الْحَدِيثِ سُلُوكًا لِلطَّرِيقِ الْأَحْكَمِ الْمُوَافِقِ لِلْعَطْفِ فِي قَوْلِهِ ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] فَإِنْ قِيلَ فَإِذَا كَانَ الدِّينُ الْحَقُّ نَفْيَ الْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ فَمَا بَالُ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ مُشْعِرَةٌ فِي مَوَاضِعَ لَا تُحْصَىٰ بِثُبُوتِ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَقَعَ فِي مَوْضِعٍ مِنْهَا تَصْرِيحٌ بِنَفْيِ ذَلِكَ وَتَحْقِيقٌ كَمَا كُرِّرَتِ الدَّلَالَةُ عَلَىٰ وُجُودِ الصَّانِعِ وَوَحْدَتِهِ وَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَحَقِيقَةِ الْمَعَادِ وَحَشْرِ الْأَجْسَادِ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ، وَأُكِّدَتْ غَايَةَ التَّأْكِيدِ مَعَ أَنَّ هَذَا أَيْضًا حَقِيقٌ بِغَايَةِ التَّأْكِيدِ وَالتَّحْقِيقِ لِمَا

تَقَرَّرَ فِي فِطْرَةِ الْعُقَلَاءِ مَعَ اخْتِلَافِ الْأَدْيَانِ وَالْآرَاءِ مِنَ التَّوَجُّهِ إِلَىٰ الْعُلُوِّ عِنْدَ الدُّعَاءِ وَرَفْعِ الْأَيْدِي إِلَىٰ السَّمَاءِ؟

أُجِيبُ بِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ التَّنْزِيهُ عَنِ الْجِهَةِ مِمَّا يَقْصُرُ عَنْهُ عُقُولُ الْعَامَّةِ حَتَّىٰ تَكَادَ تَجْزِمُ بِنَفْيِ مَا لَيْسَ فِي الْجِهَةِ كَانَ الْأَنْسَبُ فِي خِطَابَاتِهِمْ وَالْأَقْرَبُ إِلَىٰ صَلَاحِهِمْ وَالْأَلْيَقُ بِدَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ الْحَقِّ مَا يَكُونُ ظَاهِرًا فِي التَّشْبِيهِ وَكَوْنُ الصَّانِعِ فِي أَشْرَفِ الْجِهَاتِ مَعَ تَشْبِيهَاتٍ دَقِيقَةٍ فِي التَّنْزِيهِ الْمُطْلَقِ عَمَّا هُوَ سِمَاتُ الْحُدُوثِ، وَتَوَجُّهُ الْعُقَلَاءِ إِلَىٰ السَّمَاءِ لَيْسَ مِنْ جِهَةِ اعْتِقَادِهِمْ أَنَّه فِي السَّمَاءِ بَلْ مِنْ جِهَةِ أَنَّ السَّمَاءَ قِبْلَةُ الدُّعَاءِ وَمِنْهَا تُتَوَقَّعُ الْخَيْرَاتُ وَالْبَرَكَاتُ وَهُبُوطُ الْأَنْوَارِ وَنُزُولُ الْأَمْطَارِ. اهـ

وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَيْسَ فِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَىٰ كَوْنِهِ فِي الْجِهَةِ وَهَذَا؛ لِأَنَّهُمْ أُمِرُوا بِالتَّوَجُّهِ فِي الصَّلَاةِ إِلَىٰ الْكَعْبَةِ وَلَيْسَ هُوَ فِي جِهَةِ الْكَعْبَةِ وَأُمِرُوا بِرَمْيِ أَبْصَارِهِمْ إِلَىٰ مَوْضِعِ سُجُودِهِمْ حَالَةَ الْقِيَامِ فِي الصَّلَاةِ وَلَيْسَ هُوَ فِي الْأَرْضِ وَكَذَا حَالُ السُّجُودِ أُمِرُوا بِوَضْعِ الْوُجُوهِ عَلَىٰ الْأَرْضِ وَلَيْسَ هُوَ تَحْتَ الْأَرْضِ فَكَذَا هُنَا بَلْ تَعَبُّدٌ مَحْضٌ وَخُضُوعٌ وَخُشُوعٌ وَقِيلَ إِنَّ الْعَرْشَ جَعَلَهُ قِبْلَةً لِلْقُلُوبِ عِنْدَ الدُّعَاءِ كَمَا جُعِلَتِ الْكَعْبَةُ قِبْلَةَ الْأَبْدَانِ فِي الصَّلَاةِ. وَعِبَارَةُ الْمَوَاقِفِ الْمَقْصِدُ الْأَوَّلُ أَنَّه تَعَالَىٰ لَيْسَ فِي جِهَةٍ، وَخَالَفَ فِيهِ الْمُشَبِّهَةُ وَخَصَّصُوهُ بِجِهَةِ الْفَوْقِ ثُمَّ اخْتَلَفُوا فَذَهَبَ مُحَمَّدُ بْنُ كَرَّامٍ إِلَىٰ أَنَّ كَوْنَهُ فِي الْجِهَةِ لِكَوْنِ الْأَجْسَامِ فِيهَا قَالَ وَهُوَ مَا بَيْنَ الصَّفْحَةِ الْعُلْيَا مِنَ الْعَرْشِ وَتَجُوزُ عَلَيْهِ الْحَرَكَةُ وَالِانْتِقَالُ وَتَبَدُّلُ الْجِهَاتِ وَعَلَيْهِ الْيَهُودُ حَتَّىٰ قَالُوا الْعَرْشُ يَئِطُّ مِنْ تَحْتِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ الْجَدِيدِ تَحْتَ الرَّاكِبِ، وَأَنْ يَفْصِلَ عَنِ الْعَرْشِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ أَرْبَعُ أَصَابِعَ وَزَادَ بَعْضُ الْمُشَبِّهَةِ كمض وكهمش، وَأَحْمَدُ الْهُجَيْمِيِّ أَنَّ الْمُخْلِصِينَ يُعَايِنُونَهُ فِي الدُّنيا وَالْآخِرَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: مُحَاذٍ لِلْعَرْشِ غَيْرُ مُمَاسٍّ لَهُ فَقِيلَ بِمَسَافَةٍ مُتَنَاهِيَةٍ وَقِيلَ غَيْرِ مُتَنَاهِيَةٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ لَيْسَ كَكَوْنِ الْأَجْسَامِ فِي الْجِهَةِ لَنَا وُجُوهٌ وَالْأَوَّلُ لَوْ كَانَ فِي مَكَانٍ لَزِمَ قِدَمُ الْمَكَانِ.

وَقَدْ بَرْهَنَا أَنْ لَا قَدِيمَ سِوَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ وَعَلَيْهِ الِاتِّفَاقُ، الثَّانِي الْمُمَكَّنُ يَحْتَاجُ إِلَىٰ مَكَانٍ وَالْمَكَانُ مُسْتَغْنٍ عَنِ الْمُتَمَكِّنِ لِجَوَازِ الْخَلَاءِ فَيَلْزَمُ إِمْكَانُ الْوَاجِبِ وَوُجُوبُ الْمَكَانِ وَكِلَاهُمَا بَاطِلٌ الثَّالِثُ لَوْ كَانَ فِي مَكَانٍ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَازِ أَوْ جَمِيعِهَا وَكِلَاهُمَا بَاطِلٌ أَمَّا الْأَوَّلُ فَلِتَسَاوِي الْأَحْيَازِ فِي أَنْفُسِهَا وَنِسْبَتِهِ إِلَيْهَا فَيَكُونُ اخْتِصَاصُهُ بِبَعْضِهَا تَرْجِيحًا بِلَا مُرَجِّحٍ أَوْ يَلْزَمُ الِاحْتِيَاجُ إِلَىٰ الْغَيْرِ، وَأَمَّا الثَّانِي فَلِأَنَّهُ يَلْزَمُ تَدَاخُلُ الْمُتَحَيِّزَيْنِ فَإِنَّهُ مُحَالٌ بِالضَّرُورَةِ. وَالرَّابِعُ لَوْ كَانَ مُتَحَيِّزًا لَكَانَ جَوْهَرًا فَإِمَّا أَلَّا يَنْقَسِمَ أَوْ يَنْقَسِمَ وَكِلَاهُمَا بَاطِلٌ أَمَّا الْأَوَّلُ فَلِأَنَّهُ جُزْءٌ لَا يَتَجَزَّأُ وَهُوَ أَخَسُّ الْأَشْيَاءِ تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ ذَلِكَ. وَأَمَّا الثَّانِي فَلِأَنَّهُ يَكُونُ جِسْمًا وَكُلُّ جِسْمٍ مُرَكَّبٌ وَقَدْ مَرَّ أَنَّه يُنَافِي الْوُجُوبَ، وَأَيْضًا فَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ كُلَّ جِسْمٍ مُحْدَثٌ فَيَلْزَمُ حُدُوثُ الْوَاجِبِ، وَأَطَالَ الْكَلَامَ عَلَىٰ

ذَلِكَ إِلَى أَنْ قَالَ فَالْجَوَابُ أَيْ عَنِ الظَّوَاهِرِ الْمُوهِمَةِ لِلتَّجْسِيمِ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ أَنَّهَا ظَوَاهِرُ ظَنِّيَّةٌ لَا تُعَارِضُ الْيَقِينِيَّاتِ كَيْفَ وَمَهْمَا تَعَارَضَ دَلِيلَانِ وَجَبَ الْعَمَلُ بِهِمَا مَا أَمْكَنَ فَنُؤَوِّلُ الظَّوَاهِرَ إِمَّا إِجْمَالًا وَنُفَوِّضُ تَفْصِيلَهُ إِلَى اللهِ كَمَا هُوَ رَأْيُ مَنْ يَقِفُ عَلَى ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] عَلَيْهِ أَكْثَرُ السَّلَفِ كَمَا رُوِيَ عَنْ أَحْمَدَ الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ وَالْكَيْفِيَّةُ مَجْهُولَةٌ وَالْبَحْثُ عَنْهَا بِدْعَةٌ، وَإِمَّا تَفْصِيلًا كَمَا هُوَ رَأْيُ طَائِفَةٍ فَنَقُولُ الِاسْتِوَاءُ الِاسْتِيلَاءُ نَحْوَ قَدْ اسْتَوَى عَمْرٌو عَلَى الْعِرَاقِ وَالْعِنْدِيَّةُ بِمَعْنَى الِاصْطِفَاءِ وَالْإِكْرَامِ كَمَا يُقَالُ فُلَانٌ قَرِيبٌ مِنَ الْمَلِكِ ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] أَيْ أَمْرُهُ، وَ ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ﴾ [فاطر: ١٠] أَيْ يَرْتَضِيهِ فَإِنَّ الْكَلِمَ عَرَضٌ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ الِانْتِقَالُ وَ " مَنْ فِي السَّماء " أَيْ حُكْمُهُ وَسُلْطَانُهُ أَوْ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُوَكَّلٌ بِالْعَذَابِ وَعَلَيْهِ فَقِسْ سَائِرَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ. اهـ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : احْتَجَّ النَّافُونَ لِلْعُلُوِّ عَلَى الْعَرْشِ بِوُجُوهٍ ، أَحَدُهُمَا : لَوْ كَانَ عَلَى الْعَرْشِ لَكَانَ فِي جِهَةٍ وَثُبُوتُهَا فِي الْقَدِيمِ يُؤَدِّي إِلَى أَحَدِ أَمْرَيْنِ إِمَّا حُدُوثُ الْقَدِيمِ أَوْ قُدُومُ الْحَادِثِ؛ لِأَنَّ أَمَارَاتِ الْحُدُوثِ إِنْ لَمْ تَبْطُلْ دَلَالَتُهَا ثَبَتَ حُدُوثُ الْقَدِيمِ، وَإِنْ بَطَلَتْ دَلَالَتُهَا لَمْ يَثْبُتْ حُدُوثُ الْعَالَمِ. وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْجِهَةَ مِنْ أَمَارَاتِ الْحُدُوثِ أَنَّ التَّعَرِّي مِنَ الْجِهَةِ ثَابِتٌ فِي الْأَزَلِ فَلَوْ ثَبَتَتْ الْجِهَةُ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ لَتَغَيَّرَ عَمَّا كَانَ وَلَحَدَثَ فِيهِ مُمَاسَّةٌ وَالتَّغْيِيرُ وَقَبُولُ الْحَوَادِثِ مِنْ أَمَارَاتِ الْحُدُوثِ ثَانِيهَا لَوْ كَانَتْ ذَاتُهُ مُخْتَصَّةً بِجِهَةٍ فَأَمَّا أَنْ يَتَمَكَّنَ مِنَ الْخُرُوجِ عَنْهَا أَوْ لَمْ يَتَمَكَّنْ فَإِنْ تَمَكَّنَ كَانَ مَحَلًّا لِلْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ، وَإِنْ لَمْ يَتَمَكَّنْ كَانَ كَالزَّمِنِ الْعَاجِزِ، وَأَنَّهُ مِنْ أَمَارَاتِ الْحُدُوثِ. ثَالِثُهَا لَوْ كَانَ فِي جِهَةٍ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي الْجِهَاتِ كُلِّهَا وَذَلِكَ مُحَالٌ، وَإِنْ اخْتَصَّ بِبَعْضِهَا احْتَاجَ إِلَى مُخَصِّصٍ لِاسْتِوَاءِ الْكُلِّ رَابِعُهَا لَوْ كَانَ بِجِهَةٍ مِنَ الْعَالَمِ مُحَاذِيًا لَهُ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُسَاوِيًا لِجِسْمِ الْعَالَمِ أَوْ أَصْغَرَ أَوْ أَكْبَرَ مِنْهُ وَكَذَا لَا بُدَّ مِنْ مَسَافَةٍ مُقَدَّرَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَالَمِ، وَكُلُّ ذَلِكَ يُوجِبُ التَّقْدِيرَ بِمِقْدَارٍ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ عَلَامَةً فَيَحْتَاجُ إِلَى مُخَصِّصٍ وَمُقَدِّرٍ.

خَامِسُهَا لَوْ ثَبَتَ اخْتِصَاصُهُ بِالْعَرْشِ فَإِنْ كَانَ الِاخْتِصَاصُ لِاقْتِضَاءِ ذَاتِهِ أَوْ صِفَتِهِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ الِاخْتِصَاصُ ثَابِتًا فِي الْأَزَلِ لِوُجُودِ الْمُقْتَضِي وَعَدَمِ جَوَازِ تَخَلُّفِ الْمُقْتَضَيْ عَنْهُ، وَإِنْ كَانَ لَا لِاقْتِضَاءِ ذَاتِهِ وَصِفَتِهِ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ تَخْصِيصٍ. سَادِسُهَا لَوْ كَانَ عَلَى الْعَرْشِ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُسَاوِيًا لَهُ أَوْ أَصْغَرَ أَوْ أَكْبَرَ مِنْهُ وَذَلِكَ يُوجِبُ التَّنَاهِي وَالتَّبْعِيضَ وَالتَّجَزُّؤَ. سَابِعُهَا لَوْ كَانَ عَلَى الْعَرْشِ لَكَانَ مُشَارًا إِلَيْهِ بِالْحِسِّ وَكُلَّمَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ إِمَّا مُتَنَاهٍ مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ أَوْ مِنْ بَعْضِهَا أَوْ غَيْرَ مُتَنَاهٍ أَصْلًا، وَالثَّالِثُ بَاطِلٌ لِوُجُوبِ تَنَاهِي الْأَجْسَامِ، وَلِأَنَّهُ تَعَالَى لَوْ كَانَ غَيْرَ مُتَنَاهٍ مِنْ كُلِّ الْجَوَانِبِ لَكَانَ الْعَالَمُ سَارِيًا فِي ذَاتِ اللهِ وَحَالًّا فِيهِ فَيَلْزَمُ أَنْ تَكُونَ ذَاتُهُ مُخَالِطَةً لِلْقَاذُورَاتِ تَعَالَى اللهُ عَنْ هَذَا الْمَقَالِ وَعَنْ هَذَا الْوَهْمِ وَالْخَيَالِ، وَالثَّانِي أَيْضًا بَاطِلٌ؛

لِوُجُوبِ تَنَاهِي الْأَجْسَامِ وَلِأَنَّهُ لَوْ كَانَ غَيْرَ مُتَنَاهٍ مِنْ بَعْضٍ فِي الْمَاهِيَّةِ وَالْحَقِيقَةِ فَكُلُّ ذَاتٍ كَانَتْ مُرَكَّبَةً مِنْ أَجْزَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ فِي الْمَاهِيَّةِ وَالطَّبِيعَةِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَنْتَهِيَ ذَلِكَ التَّرْكِيبُ إِلَى أَجْزَاءٍ يَكُونُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا فِي نَفْسِهِ بَسِيطًا خَالِيًا مِنَ التَّرْكِيبِ كَالْجُزْءِ الْوَاحِدِ مِنْ تِلْكَ الْأَجْزَاءِ الْبَسِيطَةِ لَا بُدَّ أَنْ يُمَاسَّ بِيَمِينِهِ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَمَسَّهُ بِيَسَارِهِ وَبِالضِّدِّ فَيَكُونُ التَّفْرِيقُ عَلَى تِلْكَ الْأَجْزَاءِ جَائِزًا فَالتَّأْلِيفُ وَالتَّفْرِيقُ عَلَى تِلْكَ الْأَجْزَاءِ جَائِزَانِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ افْتَقَرَ تَأْلِيفُهُمَا وَتَرْكِيبُهُمَا إِلَى مُؤَلِّفٍ وَمُرَكِّبٍ، وَكُلُّ ذَلِكَ مُحَالٌ فَتَعَيَّنَ الْأَوَّلُ وَهُوَ أَنَّه لَوْ كَانَ مُشَارٌ إِلَيْهِ بِالْحِسِّ لَكَانَ مُتَنَاهِيًا مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ، وَإِذَا كَانَ مُتَنَاهِيًا مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ كَانَ وُجُودُ أَزْيَدَ مِمَّا وُجِدَ أَوْ أَنْقَصَ مِمَّا وُجِدَ جَائِزًا فَيَفْتَقِرُ فِي اخْتِصَاصِهِ بِالْقَدْرِ الْمُعَيَّنِ إِلَى مُخَصِّصٍ وَذَلِكَ عَلَى خَالِقِ الْعَالَمِ مُحَالٌ. اهـ.

وَفِي هَذَا الْقَدْرِ كِفَايَةٌ فِي اعْتِقَادِ الْحَقِّ لِمَنْ وَفَّقَهُ اللهُ تَعَالَى لَهُ وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ مَا قَالَهُ الْقَائِلُ الْمَذْكُورُ مِنْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى بِجِهَةِ الْعُلُوِّ غَيْرُ صَحِيحٍ فَإِنْ وُفِّقَ وَرَجَعَ إِلَى الِاعْتِقَادِ الْحَقِّ فَذَاكَ، وَإِلَّا فَإِنْ رُفِعَ إِلَى الْحَاكِمِ وَثَبَتَ عَلَيْهِ مَا نُسِبَ إِلَيْهِ مِنَ الْقَوْلِ الْمَذْكُورِ عَزَّرَهُ الْحَاكِمُ التَّعْزِيرَ اللَّائِقَ بِحَالِهِ الرَّادِعَ لَهُ وَلِأَمْثَالِهِ عَنِ ارْتِكَابِ مِثْلِ قَبِيحِ أَقْوَالِهِ خُصُوصًا إِذَا خِيفَ مِنْهُ انْتِشَارُ بِدْعَتِهِ، وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ " (١) .

وقال الإمام أبو المواهب عبد الوهَّاب الشَّعراني (٩٧٣هـ) : " ... أنَّ من احتاج إلى التَّأويل فقد جهل أوَّلاً وآخراً ، أمَّا أوَّلاً فبتعقُّله صفة التَّشبيه في جانب الحقّ وذلك محال، وأمَّا آخراً فلتأويله ما أنزل الله تعالى على وجه لعلَّه لا يكون مراد الحقّ سبحانه وتعالى.

وفي " الدُّرر المنثورة " له أنَّ المؤول انتقل عن شرح الاستواء الجسْماني على العرش المكاني بالتَّنزيه عنه إلى التَّشبيه بالأمر السُّلطاني الحادث ، وهو الاستيلاء على المكان ، فهو انتقال عن التَّشبيه بمحدث ما إلى التَّشبيه بمحدث آخر ، فما بلغ عقله في التَّنزيه مبلغ الشَّرع فيه في قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١] ألا ترى أنَّه استشهد في التَّنزيه العقلي في الاستواء بقول الشَّاعر: قد استوى ... البيت ... وأين استواء بِشر على العراق من استواء الحقِّ سبحانه وتعالى على العرش ، فالصَّواب أن يلزم العبد الأدب مع مولاه ، ويَكِل معنى كلامه إليه عزَّ وجلَّ " (٢) .

وقال الإمام ابن حجر الهيتمي (٩٧٤هـ) : " ... وبالجملة فيجب على كلِّ مؤمن أن يعتقد من هذا الحديث ومشابهه من المشكلات الواردة في الكتاب والسُّنَّة كـ : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] ، ... وغير ذلك ممَّا شاكله أنَّه ليس المراد بها ظواهرها لاستحالتها عليه تبارك وتعالى عمَّا يقول الظَّالمون والجاحدون علوّاً

(١) انظر : فتاوى الرملي (٤/ ٢٦٣-٢٨٤) .

(٢) انظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (٨/ ٤٧٣) .

كبيراً ، ثمَّ هو بعد ذلك مخيَّر إن شاء أوَّلها بنحو ما ذكرناه وهي طريقة الخلف ، وآثروها لكثرة المبتدعة القائلين بالجهة والجسميَّة وغيرهما ممَّا هو محال على الله تعالىٰ ، وإن شاء فوَّض علمها إلىٰ الله تعالىٰ وهي طريقة السَّلف ، وآثروها لخلوِّ زمانهم عمَّا حدث من الضَّلالات الشَّنيعة والبدع القبيحة ، فلم يكن لهم حاجة إلىٰ الخوض فيها " (١) .

وقال أيضاً : " ... وَالْقَوْلُ بِالْجِهَةِ كُفْرٌ عِنْدَ كَثِيرِينَ مِنَ الْعُلَمَاءِ، فَكَيْفَ يَحْصُلُ الْإِسْلَامُ بِمَا يَشْتَمِلُ عَلَىٰ الْكُفْرِ، بِخِلَافِ مَنْ فِي السَّماء لأَنَّه لَيْسَ صَرِيحًا فِي ذَلِكَ؛ إِذْ الْمُرَادُ مَنْ فِي السَّماء أَمْرُهُ وَسُلْطَانُهُ، وَلِأَنَّهُ مُوَافِقٌ لِلَفْظِ الْقُرْآنِ الْمُؤَوَّلِ عِنْدَ الْخَلَفِ وَالسَّلَفِ.

فَلَا خِلَافَ بَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ خِلَافًا لِفِرْقَةٍ ضَالَّةٍ مِنْ الْحَنَابِلَةِ وَغَيْرِهِمْ، وإنَّما الْخِلَافُ بَيْنَهُمَا فِي أَنَّا نُعَيِّنُ ذَلِكَ التَّأْوِيلَ وَلَا نَصْرِفُ الظَّاهِرَ إلَيْهِ، وَهُوَ مَذْهَبُ الْخَلَفِ أَوْ نُؤَوِّلُ إجْمَالًا وَلَا نُعَيِّنُ شَيْئًا، بَلْ نُفَوِّضُ عِلْمَ ذَلِكَ بِعَيْنِهِ إِلَىٰ اللهَّ تَعَالَىٰ، وَهُوَ مَذْهَبُ السَّلَفِ وَاخْتَارَهُ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ، وَاخْتَارَ بَعْضُهُمْ تَفْصِيلًا فِي ذَلِكَ، وَهُوَ أَنَّ تَعْيِينَ التَّأْوِيلِ بِأَنْ قَرُبَ مِنْ الظَّاهِرِ وَشَهِدَتْ لَهُ قَوَاعِدُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِالْقَبُولِ كَانَ أَوْلَىٰ وَإِلَّا فَالتَّفْوِيضُ أَوْلَىٰ، وَمَنْ تَأَمَّلَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثَ وَجَدَهَا شَاهِدَةً لِلتَّأْوِيلِ لِأَنَّ ظَاهِرَهَا بِدُونِهِ يُوهِمُ التَّنَاقُضَ، فَوَجَبَ الْمَصِيرُ إلَيْهِ صَوْنًا عَنْ ذَلِكَ الْإِيهَامِ.

أَلَا تَرَىٰ إلَىٰ قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾ [الأعراف: ٥٤] مَعَ قَوْلِهِ: ﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦] ، ﴿ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ ﴾ [الحديد: ٤] وَمَعَ خَبَرِ: «لَوْ أَدْلَيْتُمْ حَبْلًا لَوَقَعَ عَلَىٰ اللهَّ» فَأَحَدُ تِلْكَ النُّصُوصِ يَجِبُ تَأْوِيلُهُ؛ إذْ لَا يُمَكَّنُ أَحَدٌ أَنْ يَقُولَ بِظَوَاهِرِ تِلْكَ النُّصُوصِ جَمِيعِهَا، وَإِذَا وَجَبَ تَأْوِيلُ بَعْضِهَا وَجَبَ تَأْوِيلُ كُلِّهَا. إذْ لَا قَائِلَ بِالْفَرْقِ عَلَىٰ أَنَّ الْخَلَفَ لَمْ يَنْفَرِدُوا بِذَلِكَ بَلْ أَوَّلَ جَمَاعَةٌ مِنْ السَّلَفِ كَمَالِكٍ وَجَعْفَرٍ – رَضِيَ اللهَّ عَنْهُمَا – وَغَيْرِهِمَا.

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ مَذْهَبَ أَهْلِ الْحَقِّ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مَا قَرَّرْتُهُ، وَأَنَّهُ يَجِبُ عَلَىٰ كُلِّ أَحَدٍ اعْتِقَادُهُ، وإنَّما يَحْصُلُ ذَلِكَ بِتَنْزِيهِ اللهَّ – عزَّ وجلَّ وَعَلَا – عَنْ كُلِّ نَقْصٍ صَرِيحًا أَوْ اسْتِلْزَامًا، بَلْ وَعَنْ كُلِّ مَا لَا نَقْصَ فِيهِ وَلَا كَمَالَ، وَاعْتِقَادُ أَنَّه تَعَالَىٰ إنَّما اتَّصَفَ بِأَكْمَلِ الْكَمَالِ الْمُطْلَقِ فِي ذَاتِهِ وَإِرَادَتِهِ وَأَوْصَافِهِ وَأَسْمَائِهِ وَسَائِرِ شُؤُونِهِ وَأَفْعَالِهِ " (٢) .

---

(١) انظر : المنهاج القويم (ص١٤٤) .

(٢) انظر : الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ٥٢-٥٣) .

وقال الإمام الخطيب الشَّربيني (٩٧٧هـ) : ... أي: استوىٰ أمره ، وقال أهل السُّنَّة: الاستواء علىٰ العرش صفة الله بلا كيف يجب الإيمان به ونَكِل فيه العلم إلىٰ الله تعالىٰ ، والمعنىٰ أنَّ له سبحانه وتعالىٰ استواء علىٰ العرش علىٰ الوجه الذي عناه منزَّه عن الاستقرار والتَّمكُّن ...

وروي عن سفيان الثوري والأوزاعي والليث بن سعد وغيرهم من علماء السُّنَّة في هذه الآيات التي جاءت في الصِّفات المتشابهة أمرُّوها كما جاءت اقرؤها بلا كيف وإجماع السَّلف منعقد علىٰ أن لا يزيدوا علىٰ قراءة الآية ، ... " (١) .

وقال الإمام أبو السُّعود العمادي (٩٨٢هـ) : ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ أي استوىٰ أمرُه واستولىٰ ، وعن أصحابنا أنَّ الاستواء علىٰ العرش صفة لله تعالىٰ بلا كيف ، والمعنىٰ أنَّه تعالىٰ استوىٰ علىٰ العرش علىٰ الوجه الذي عناه منزَّهاً عن الاستقرار والتَّمكُّن ، والعرشُ الجسم المحيط بسائر الأجسام سمِّي به لارتفاعه أو للتَّشبيه بسرير الملِك ، فإنَّ الأمورَ والتَّدابير تنزل منه " (٢) .

وقال الإمام جمال الدِّين ، محمَّد طاهر بن علي الصِّدِّيقي الهندي الفَتَّنِي الكجراتي (٩٨٦هـ) : " وهو علىٰ العرش كما وصف ، أي : مستو عليه استواء وصف به نفسه ، وهو مستأثر بعلمه باستوائه "(٣) .

وقال الإمام علي بن سلطان القاري (١٠١٤هـ) : " ... وَبِكَلَامِهِ – يقصد النَّووي – وَبِكَلَامِ الشَّيخ الرَّبَّانِيِّ أَبِي إِسْحَاقَ الشِّيرَازِيِّ، وَإِمَامِ الْحَرَمَيْنِ، وَالْغَزَالِيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَئِمَّتِنَا وَغَيْرِهِمْ يُعْلَمُ أَنَّ الْمَذْهَبَيْنِ مُتَّفِقَانِ عَلَىٰ صَرْفِ تِلْكَ الظَّوَاهِرِ، كَالْمَجِيءِ... وَالِاسْتِوَاءِ عَلَىٰ الْعَرْشِ، وَالْكَوْنِ فِي السَّمَاءِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُفْهِمُهُ ظَاهِرُهَا لِمَا يَلْزَمُ عَلَيْهِ مِنْ مُحَالَاتٍ قَطْعِيَّةِ الْبُطْلَانِ تَسْتَلْزِمُ أَشْيَاءَ يُحْكَمُ بِكُفْرِهَا بِالْإِجْمَاعِ، فَاضْطَرَّ ذَلِكَ جَمِيعَ الْخَلَفِ وَالسَّلَفِ إِلَىٰ صَرْفِ اللَّفْظِ عَنْ ظَاهِرِهِ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا هَلْ نَصْرِفُهُ عَنْ ظَاهِرِهِ مُعْتَقِدِينَ اتِّصَافَهُ سُبْحَانَهُ بِمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ نُئَوِّلَهُ بِشَيْءٍ آخَرَ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَكْثَرِ أَهْلِ السَّلَفِ، وَفِيهِ تَأْوِيلٌ إِجْمَالِيٌّ أَوْ مَعَ تَأْوِيلِهِ بِشَيْءٍ آخَرَ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَكْثَرِ أَهْلِ الْخَلَفِ وَهُوَ تَأْوِيلٌ تَفْصِيلِيٌّ، وَلَمْ يُرِيدُوا بِذَلِكَ مُخَالَفَةَ السَّلَفِ الصَّالِحِ، مَعَاذَ اللَّهَّ أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا دَعَتِ الضَّرُورَةُ فِي أَزْمِنَتِهِمْ لِذَلِكَ ؛ لِكَثْرَةِ الْمُجَسِّمَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَغَيْرِهَا مِنْ فِرَقِ الضَّلَالَةِ، وَاسْتِيلَائِهِمْ عَلَىٰ عُقُولِ الْعَامَّةِ، فَقَصَدُوا بِذَلِكَ رَدْعَهُمْ وَبُطْلَانَ قَوْلِهِمْ، وَمِنْ ثَمَّ

(١) انظر : السراج المنير في الإعانة علىٰ معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (١/ ٤٨٠) .

(٢) انظر : تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم) (٣/ ٢٣٢) .

(٣) انظر : مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار (٢/ ١٩٧) .

اعْتَذَرَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَقَالُوا: لَوْ كُنَّا عَلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالح مِنْ صَفَاءِ الْعَقَائِدِ وَعَدَمِ الْمُبْطِلِينَ فِي زَمَنِهِمْ لَمْ نَخُضْ فِي تَأْوِيلِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ " (١) .

وقال أيضاً : " والمجسِّمة – وهم الحشويَّة – يصرِّحون بالاستقرار على العرش لظاهر الآية ، ولا حجَّة فيها ، لأنَّ الاستواء له معان كالاستيلاء ، ومنه قول الشَّاعر :

قد اسْتَوَىٰ بِشْرٌ على العِرَاقِ   مِن غَيْرِ سَيْفٍ ودم مُهْرَاقِ (٢)

وقال الإمام شهاب الدِّين الخفَّاجي المصري الحنفي (١٠٦٩هـ) : " قوله: (استوىٰ أمره أو استولىٰ الخ) في الكلام الاستواء من الصِّفات المختلف فيها ، فقيل : المراد استوىٰ أمره ، فالإسناد مجازيّ أو فيه تقدير، ولا يضرّ حذف الفاعل إذا قام ما أُضيف إليه مقامه، وقيل : الاستواء بمعنىٰ الاستيلاء كما في قوله:

قد اسْتَوَىٰ بِشْرٌ على العِرَاقِ   مِن غَيْرِ سَيْفٍ ودم مُهْرَاقِ

فعلىٰ الأوَّل ليس من صفاته تعالىٰ، وعلىٰ الثَّاني يرجع إلىٰ صفة القدرة، وفي أحد قولي الأشعريّ إنَّه صفة مستقلَّة غير الثَّمانية، واليه أشار المصنِّف رحمه الله، وقيل : بالتَّوقُّف فيه ، وأنَّه ليس كاستواء الأجسام ، وحمَلَه المجسِّم على ظاهره " (٣) .

وقال الإمام أبو البقاء الكفوي (١٠٩٤هـ) : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يونس:٣] ، أي : فعل ذلك قبل استوائه على العرش " (٤) .

وقال أيضاً : " فكلُّ صفة تستحيل حَقِيقَتهَا على الله تَعَالَىٰ فَإِنَّهَا تفسَّر بلازمها فـ ﴿ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه:٥] بِمَعْنى اعتدل ، أَي: قَامَ بِالْعَدْلِ ... والفوقيَّة: الْعُلُوّ من غير جِهَة ... نعم إِلَّا أَنَّ استرسال التَّأْوِيل على التَّفْصِيل كجمهور الأشاعرة غير ظَاهر فِي جَمِيع تِلْكَ الصِّفَات بل هُوَ مؤدّ إِلَىٰ إبطَال الأَصْل المعجز عَن إِدْرَاكهَا بِلَا كيفيَّات وَخلاف لما عَلَيْهِ السَّلف من التَّوَقُّف فِي المتشابهات ...

قَالَ الإِمَام فِي (الْفِقْه الْأَكْبَر) : " وَلَا يُوصف الله تَعَالَىٰ بِصِفَات المخلوقين وَلَا يُقَال: إِنَّ يَده قدرته أَو نعْمَته لِأَنَّ فِيهِ إِبطَال الصِّفة، وَلَكِن يَده صفة بِلَا كَيفَ " انْتهى .

(١) انظر : مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣/ ٩٢٣-٩٢٤) .

(٢) انظر : ضوء المعالي على منظومة بدء الأمالي (ص٨١) .

(٣) انظر : حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَىٰ تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِي وكِفَايةُ الرَّاضِي عَلَىٰ تفْسيرِ البَيضَاوي (٤/ ١٧٣) .

(٤) انظر : كتاب الكليات (ص٣٢٥) .

وَفِيه إِشَارَة إِلىٰ وجوب التَّأْوِيل الإجمالي فِي الظَّوَاهِر الموهمة، وَإِلَىٰ منع التَّأْوِيل التَّفصيلي فِيهَا بالإرجاع إِلىٰ مَا ذكره وَإِلَىٰ التَّعويض بعد الْحمل علىٰ الْمَعْنىٰ الْمجَازِي علىٰ الْإِجْمَال فِي التَّأْوِيل وَتَعَالَىٰ الله عَمَّا يُقَال، هُوَ جسم لَا كالأجسام وَله حيِّز لَا كالأحياز ونسبته إِلىٰ حيِّزه لَيْسَ كنسبة الْأَجْسَام إِلىٰ حيِّزها كَمَا هُوَ مَذْهَب الهيصمية من المشبِّهة المستترين بالبلكفة ... " (١) .

وقال الإمام أحمد بن غانم (أو غنيم) بن سالم النّفراوي الأزهري المالكي (١١٢٦هـ) : " قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] ، وَقَالَ: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧] وَلِذَلِكَ لَمَّا بَلَغَ الْعَلَّامَةَ يُوسُفَ بْنَ عُمَرَ تَعَقُّبَ بَعْضِ الشُّيُوخِ لِكَلَامِ الْمُصَنِّفِ بِأَنَّهُ أَثْبَتَ للهَّ مَكَانًا، رَدَّ هَذَا التَّعَقُّبَ بِوُرُودِ الْفَوْقِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل: ٥٠] مَعْنَاهُ يَخَافُونَ عَذَابَهُ مِنْ فَوْقِهِمْ إنْ عَصَوْهُ بِالْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ، وَقَالَ: ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧] ،﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨] ، وَمَا قِيلَ مِنْ أَنَّ هَذِهِ اللَّفْظَةَ دُسَّتْ عَلَىٰ الْمُؤَلِّفِ رَدَّهُ ابْنُ نَاجِي قَائِلًا: لَيْسَ هَذَا مِنْ إطْلَاقِ الْمُصَنِّفِ وإِنَّما هُوَ مِنْ إطْلَاقِ السَّلَفِ الصَّالح وَالصَّدْرِ الْأَوَّلِ، وَيُمْكِنُ رَدُّ ابْنِ نَاجِي بِأَنَّ الَّذِي أَطْلَقَهُ عَلَيْهِ السَّلَفُ هُوَ لَفْظُ الْفَوْقِيَّةِ الْغَيْرِ الْمُقَيَّدَةِ بِذَاتِهِ، وَالْإِيهَامُ إنَّما عَظُمَ مِنْ التَّقْيِيدِ بِذَاتِهِ.

قَالَ فِي التَّحْقِيقِ: أُخِذَ عَلَىٰ الْمُصَنِّفِ فِي قَوْلِهِ بِذَاتِهِ، وَقِيلَ هِيَ دَسِيسَةٌ عَلَيْهِ، فَإِنْ صَحَّ هَذَا فَلَا إشْكَالَ فِي سُقُوطِ الِاعْتِرَاضِ عَنْهُ، وَلَا اعْتَرَضَ عَلَيْهِ؛ لأَنَّه لَمْ يَرِدْ بِهَا سَمْعٌ، وَسُئِلَ الشَّيخ عِزُّ الدِّين عَنْ هَذَا هَلْ يُفْهَمُ مِنْهُ الْقَوْلُ بِالْجِهَةِ أَمْ لَا؟ وَهَلْ يَكْفُرُ مُعْتَقِدُهَا أَمْ لَا؟ فَأَجَابَ: بِأَنَّ ظَاهِرَهُ الْقَوْلُ بِالْجِهَةِ وَالْأَصَحُّ أَنَّ مُعْتَقِدَهَا لَا يَكْفُرُ، وَمَا قَالَهُ عِزُّ الدِّين مِنْ أَنَّ ظَاهِرَهُ الْقَوْلُ بِالْجِهَةِ يَرُدُّهُ قَوْلُ الْإِمَامِ أَبِي عَبْدِ اللهَّ محمَّد بْنِ مُجَاهِدٍ فِي رِسَالَتِهِ مِمَّا أَجْمَعُوا عَلَىٰ إطْلَاقِهِ أَنَّه تَعَالَىٰ فَوْقَ سَموَاتِهِ عَلَىٰ عَرْشِهِ دُونَ أَرْضِهِ إطْلَاقًا شَرْعِيًّا، وَلَمْ يَرِدْ فِي الشَّرْعِ أَنَّه فِي الْأَرْضِ فَلِذَلِكَ قَالَ دُونَ أَرْضِهِ، وَهَذَا مَعَ ثُبُوتِ عِلْمِهِمْ بِاسْتِحَالَةِ الْجِهَةِ عَلَيْهِ تَعَالَىٰ، فَلَيْسَ هَذَا عِنْدَهُمْ مُشْكِلًا لِعِلْمِهِمْ بِفَصَاحَةِ الْعَرَبِ وَاتِّسَاعِهِمْ فِي الِاسْتِعَارَةِ، وَنَقَلَ هَذَا الْكَلَامَ بِعَيْنِهِ الْمُصَنِّفُ وَغَيَّرَ لَفْظَهُ هُنَا قَصْدًا لِلتَّقْرِيبِ عَلَىٰ الْمُبْتَدِئِ، وَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا فَالنَّاسُ عَالَةٌ عَلَىٰ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ، فَإِذَا كَانَ إطْلَاقُهُمْ هَذَا فَيَتَعَيَّنُ عَلَيْنَا تَفَهُّمُهُ بِالتَّمْثِيلِ وَالْبَسْطِ إذْ قَدْ غَلَبَتْ الْعُجْمَةُ عَلَىٰ الْقُلُوبِ حَتَّىٰ ظَنَّتْ أَنَّ هَذَا الْإِطْلَاقَ يَلْزَمُ مِنْهُ إثْبَاتُ الْجِهَةِ فِي حَقِّ الْمُنَزَّهِ؛ عَنْهَا تَقَدَّسَ وَتَعَالَىٰ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْفَوْقِيَّةَ عِبَارَةٌ عَنْ كَوْنِ الشَّيْءِ أَعْلَىٰ مِنْ غَيْرِهِ وَتَكُونُ حِسِّيَّةً وَمَعْنَوِيَّةً كَزَيْدٍ فَوْقَ الْفَرَسِ، وَالسُّلْطَانِ فَوْقَ الْوَزِيرِ، وَأَنَّ الَّذِي يَجُوزُ عَلَيْهِ الْمَكَانُ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ فَوْقِيَّتُهُ حِسِّيَّةً وَمَعْنَوِيَّةً، وَالَّذِي يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ الْمَكَانُ وَالْجِسْمِيَّةُ لَا تَكُونُ فَوْقِيَّتُهُ إلَّا مَعْنَوِيَّةً، فَفَوْقِيَّةُ

(١) انظر : الكليات (٥٤٨-٥٥٠ ببعض الاختصار) .

اللهَّ عَلَىٰ عَرْشِهِ الْمُرَادُ بِهَا فَوْقِيَّةٌ مَعْنَوِيَّةٌ لِمَا قَدَّمْنَا، وَحَمْلُ الْفَوْقِيَّةِ فِي حَقِّهِ تَعَالَىٰ عَلَى الْمَعْنَوِيَّةِ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ طَرِيقَةِ الْخَلَفِ وَهِيَ الْمُؤَوِّلَةُ، وَعَلَيْهَا إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ وَجَمَاعَةٌ كَتَأْوِيلِ الْيَدِ بِالْقُدْرَةِ، وَأَمَّا السَّلَفُ فَيَقِفُونَ عَنِ الْخَوْضِ فِي مَعْنَىٰ ذَلِكَ وَيُفَوِّضُونَ عِلْمَ ذَلِكَ إِلَىٰ الْبَارِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَإِلَىٰ هَاتَيْنِ الطَّرِيقَتَيْنِ أَشَارَ صَاحِبُ الْجَوْهَرَةِ بِقَوْلِهِ:

وَكُلُّ نَصٍّ أَوْهَمَ التَّشْبِيهَا أَوِّلْهُ أَوْ فَوِّضْ وَرُمْ تَنْزِيهًا

وَالْأُولَىٰ أَعْلَمُ وَالثَّانِيَةُ أَسْلَمُ.

تَنْبِيهَاتٌ :

الْأَوَّلُ : عُلِمَ مِمَّا ذَكَرْنَا أَنَّ الْبَارِيَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُوصَفُ بِالْعُلُوِّ حَقِيقَةً وَبِالْفَوْقِيَّةِ مَجَازًا وَإِنْ كَانَ مَعْنَاهُمَا الْعَظَمَةُ، وَلَا يُوصَفُ سُبْحَانَهُ بِالسُّفْلِ وَلَا بِالتَّحْتِيَّةِ لَا حَقِيقَةً وَلَا مَجَازًا.

الثَّانِي: مِنَ الصِّفَاتِ مَا يَصِحُّ أَنْ يُوصَفَ بِهِ الْخَالِقُ وَالْمَخْلُوقُ عَلَىٰ وَجْهِ الْحَقِيقَةِ كَالْعِلْمِ بِوَحْدَانِيَّةِ اللهَّ تَعَالَىٰ، فَاللهَّ يَعْلَمُ أَنَّه وَاحِدٌ، وَالْعَبْدُ الْمُوَحِّدُ أَيْضًا يَعْلَمُ ذَلِكَ بِطَرِيقِ الْحَقِيقَةِ فِيهِمَا، وَكَالْعِلْمِ بِحَرَارَةِ النَّارِ، وَإِنْ كَانَ عِلْمُ اللهَّ قَدِيمًا وَعِلْمُ الْعَبْدِ حَادِثًا، وَمِنْهَا مَا يُوصَفُ بِهِ تَعَالَىٰ حَقِيقَةً وَالْعَبْدُ مَجَازًا كَالْمُعْطِي وَالرَّازِقُ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَعْطَىٰ غَيْرَهُ شَيْئًا يُقَال لَهُ مُعْطٍ مَجَازًا لِحُصُولِ صُورَةِ الْعَطَاءِ مِنْهُ، كَمَا يُقَالُ لِصُورَةِ الْفَرَسِ فَرَسٌ، وَمِنْ ثَمَّ أَجَابَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ عَنْ خَيْرِ الرَّازِقِينَ وَأَحْسَنِ الْخَالِقِينَ مَعَ أَنَّه لَا رَازِقَ وَلَا خَالِقَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بِأَنَّ الرَّازِقَ يُطْلَقُ عَلَىٰ اللهَّ حَقِيقَةً وَعَلَىٰ الْمَخْلُوقِ مَجَازًا، أَوْ أَنَّ الْمُرَادَ خَيْرُ مَنْ تَزْعُمُونَهُمْ رَازِقِينَ، وَيَجْرِي نَحْوُ هَذَيْنِ الْجَوَابَيْنِ فِي أَحْسَنِ الْخَالِقِينَ، وَمِنْهَا مَا يُوصَفُ بِهِ الْبَارِي بِطَرِيقِ الْحَقِيقَةِ وَلَا يُوصَفُ بِهِ الْمَخْلُوقُ لَا حَقِيقَةً وَلَا مَجَازًا كَالْأَزَلِيِّ، وَمِنْهَا مَا يُوصَفُ بِهِ الْعَبْدُ حَقِيقَةً وَيُوصَفُ بِهِ الْبَارِي مَجَازًا كَالِاسْتِوَاءِ وَالنُّزُولِ وَالْمَعِيَّةِ وَالْفَوْقِيَّةِ. " (١) .

وقال الإمام إسماعيل حقّي الإستانبولي (١١٢٧هـ) : " العرش يطلق على السّرير الذي يجلس عليه الملوك وعلى كلِّ ما علاك وأظلَّ عليك ، وهو بهذين المعنيين مستحيل في حقِّه تعالى ، فجعل الاستواء على العرش كناية عن نفس الملك والعزِّ والسَّلطنة على طريق ذكر اللازم وإرادة الملزوم ، فالمعنى بعد أن خلق الله عالم الملك في ستَّة أيَّام كما أراد ، استوى على الملك وتصرَّف فيه كيف شاء ، فحرَّك الأفلاك ، وسيَّر الكواكب ، وكوَّر الليالي والأيام ، ودبَّر أمر مصنوعاته على ما اقتضته حكمته ، وهذا معنى قول القاضي : استوى أمره ، أي : استقرَّ أمر ربوبيَّته وجرى أمره وتدبيره ونفذ قدرته في مصنوعاته ، وتخصيص العرش ؛ لأنَّه أعظم

(١) انظر : الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني (١/ ٤٧-٤٨) .

المخلوقات ، فإنَّه الجسم المحيط بجميع الأجسام ، فالاستواء عليه استواء علىٰ ما عداه أيضاً من الجنَّة والنَّار والسَّموات والعناصر وغيرها...

قال الحدَّادي : ويقال : ثمَّ هنا بمعنىٰ الواو علىٰ طريق الجمع والعطف دون التَّراخي ، فإنَّ خلق العرش كان قبل خلق السَّموات والأرض ، وقد ورد في الخبر : "إنَّ أوَّل شيء خلق الله القلم ثمَّ اللوح فأمر الله القلم أن يكتب ما هو كائن إلىٰ يوم القيامة ثمَّ خلق العرش ثمَّ خلق حملة العرش ثمَّ خلق السَّموات والأرض".

قال شيخي العلَّامة أبقاه الله بالسَّلامة : المراد بهذا الاستواء استواؤه سبحانه ، لكن لا باعتبار نفسه وذاته تعالىٰ علوَّاً كبيراً عمَّا يقول الظَّالمون ، بل باعتبار أمره الإيجادي وتجليه التَّجلِّي الأحدي المعبّر عنه في القرآن بالحقّ ، واستواء الأمر الإرادي الإيجادي علىٰ العرش بمنزلة استواء الأمر التَّكليفي الإرشادي علىٰ الشَّرع ، فكما أنَّ كلّ واحد من الأمرين قلب الآخر وعكسه المستوي السَّوي ، فكذلك كلّ واحد من العرش والشَّرع قلب الآخر وعكسه السّوي المستوي ، انتهىٰ باختصار.

قال في "التَّأويلات النَّجميَّة" : لَّما أتمَّ خلق المكونات من الأنواع الستَّة استوىٰ علىٰ العرش بعد الفراغ من خلقها استواء التَّصرُّف في العالم ، وما فيه التَّدبر في أموره من العرش إلىٰ تحت الثَّرىٰ ، وإنَّما خصَّ العرش بالاستواء ؛ لأنَّه مبدأ الأجسام اللطيفة القابلة للفيض الرَّحماني ، وهذا الاستواء صفة من صفات الله تعالىٰ لا يشبه استواء المخلوقين ، كالعلم صفة من صفاته لا يشبه علم المخلوقين ؛ إذ ليس كمثله شيء وهو السَّميع العليم ، ولو أمعنت النَّظر في خصوصيَّة خلافتك الحقّ تعالىٰ ، لعرفت نفسك فعرفت ربَّك ، وذلك أنَّ الله تعالىٰ لَّما أراد خلق شخصك من النُّطفة المودعة في الرَّحم استعمل روحك بخلافته ليتصرَّف في النُّطفة أيَّام الحمّل فيجعلها عالماً صغيراً مناسباً للعالم الكبير ، فيكون بدنه بمثابة الأرض ، ورأسه بمثابة السَّماء ، وقلبه بمثابة العرش ، وسرّه بمثابة الكرسي ، وهذا كلّه بتدبير الرُّوح وتصرّفه خلافة عن ربَّه ، ثمَّ استوىٰ الرُّوح بعد فراغه من الشَّخص الكامل علىٰ عرش القلب استواء مكانيَّاً ، بل استوىٰ ليتصرَّف في جميع أجزاء الشَّخص ويدبّر أموره بإفاضة فيضه علىٰ القلب ، فإنَّ القلب هو القابل لفيض الحقِّ تعالىٰ إلىٰ المخلوقات كلّها ، كما أنَّ القلب مغتنم فيض الرُّوح إلىٰ القالب كلّه ، فإذا تأمَّلت في هذا المثال تأمُّلاً شافياً وجدته في نفي الشَّبيه عن الصِّفات المنزّهة المقدَّسة كافياً وتحقَّقت حقيقة : من عرف نفسه فقد عرف ربَّه ، إن شاء الله تعالىٰ " (١) .

---

(١) انظر : تفسير روح البيان (٣/ ١٣٢-١٣٣) .

وقال أيضاً : " قال ابن الشَّيخ : ومعنىٰ الاستواء عليه الاستيلاء عليه بالقهر ونفاذ التَّصرُّف فيه ، وخصَّ العرش بالأخبار عن الاستواء عليه لكونه أعظم المخلوقات فيفيد أنَّه استولىٰ علىٰ ما دونه " (١) .

وقال الإمام الجمل (١٢٠٤هـ) : " قوله : " هو في اللغة سرير الملك " ويسمَّىٰ فيها أيضاً مجلس السُّلطان عرشاً اعتباراً بعلوِّه ، ويكنَّىٰ في العرف عن السُّلطان والمملكة بالعرش هذا ، وأمَّا المراد به هنا فهو الجسم النُّوراني المرتفع علىٰ كلِّ الأجسام المحيط بكلِّها .

قوله : " استواء يليق به " هذه طريقة السَّلف الذين يفوِّضون علم المتشابه إلىٰ الله بعد صرفه عن ظاهره ، وطريقة الخلف التَّأويل بتعيين محمل اللفظ ، فيؤوِّلون الاستواء بالاستيلاء ، أي التَّمكُّن والتَّصرُّف بطريق الاختيار ، أي : ثمَّ استولىٰ علىٰ العرش يتصرَّف فيه بما يريد " (٢) .

وقال الإمام الزَّبيدي (١٢٠٥هـ) : " وقال ابن اللبَّان : قد كان السَّلف الصَّالح نهوا النَّاس عن اتباع أرباب البدع ، وعن الاصغاء إلىٰ آرائهم ، وحسموا مادَّة الجدال في التعرُّض بالآي المتشابهة سداً للذَّريعة ، واستغناء عنه بالمحكم ، وأمروا بالإيمان ، وبإمراره كما جاء من غير تعطيل ولا تشبيه (حتىٰ قال مالك) بن أنس إمام المدينة رحمه الله تعالىٰ (لمَّا سئل عن) معنىٰ (الاستواء) في قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ [الأعراف: ٥٤] ، وفي قوله تعالىٰ : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ، وقد جاء ذكره في ستِّ آيات ، فقال مالك : " الاستواء معلوم ، والكيفيَّة مجهولة ، والإيمان به واجب ، والسُّؤال عنه بدعة " ، وهذا القول من مالك جاء بألفاظ مختلفة ، وأسانيد متنوعة ، وقد أورده المصنِّف هكذا في آخر " إلجام العوام " ، وأورده ابن اللبَّان في كتابه بلفظ : أنَّه مثل كيف استوىٰ ، فقال : كيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والايمان به واجب ، والسُّؤال عنه بدعة ...

وقال ابن اللبَّان في تفسير قول مالك : قوله : كيف غيرمعقول ، أي : كيف من صفات الحوادث ، وكلّ ما كان من صفات الحوادث فإثباته في صفات الله تعالىٰ يتافنىٰ ما يتقضيه العقل فيجزم بنفيه عن الله تعالىٰ .

قوله : والاستواء غير مجهول ، أي : أنَّه معلوم المعنىٰ عند أهل اللغة والايمان به علىٰ الوجه اللائق به تعالىٰ واجب ، لأنَّه من الإيمان بالله وبكتبه ، والسُّؤال عنه بدعة ، أي : حادث ، لأنَّ الصَّحابة كانوا عالمين بمعناه اللائق بحسب اللغة فلم يحتاجوا للسُّؤال عنه ، فلمَّا جاء من لم يُحط بأوضاع لغتهم ، ولا له نور كنورهم يهديه لصفات ربِّه شرع يسأل عن ذلك ، فكان سؤاله سبباً لاشتباهه علىٰ الناس وزيغهم عن المراد . أه

---

(١) انظر : تفسير روح البيان (٤/ ٤) .

(٢) انظر : الفتوحات الالهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية (٣/ ٤٨-٤٩) .

(وذهبت طائفة إلىٰ الاقتصاد ففتحوا باب التَّأويل في كلِّ ما يتعلَّق بصفات الله تعالىٰ وتركوا ما يتعلَّق بالآخرة علىٰ ظواهرها) كما جاءت (ومنعوا) فيه (التَّأويل وهم الأشعريَّة) أي : فرقة الأشاعرة عامَّة ، وقد سبق في ترجمة الأشعري أنَّ هذا قول لأبي الحسن الأشعري ، وأن له قولاً ثانياً وهو أن تمرّ أخبار الصِّفات كما جاءت ، وإليه مال في " الإبانة " وتبعه الباقلاني وإمام الحرمين والمصنف ... " (١) .

وقال أيضاً : " لَمَّا ثبت سمعاً قراناً ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ ، ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ ﴾ ، ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ﴾ ، وسنَّة حيث قال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للسَّوداء : أين الله ؟ فأشارت نحو السَّماء ، فقال : أعتقها فإنَّها مؤمنة إلىٰ غير ذلك من الظَّواهر ، وكان أصلهم ثبوت المعتقدات من السَّمع فاعتقدوا أنَّ هناك صفة تسمَّىٰ بالاستواء علىٰ العرش لا تشبه استواء المخلوقين ، وصفة أُخرىٰ تسمَّىٰ بفوق ، أي فوق عباده ، أي : العرش ومن دونه الله أعلم بذلك الاستواء وأعلم بتلك الفوقيَّة ، بهذا صرَّح الإمام أحمد بن حنبل علىٰ ما نقل عنه المقدسي في " رسالة الاعتقاد " . واعلم أنَّ المنظور إليهم إنَّما هم الأئمة القدوة والعلماء الجلَّة ولا عبرة بالمقلِّدة الواقفة علىٰ ظاهر المنقول الذين لم يفرِّقوا بين المحكم من والمتشابه ، وسيأتي تمام البحث فيه في الأصل الذي يليه ، وأمَّا الصُّوفي فيقول : محالٌ أن يكون الباري في جهة إذ تلك الجهة إمَّا أن تكون غيره أو لا ، فإن لم تكن غيره فلا جهة وإن كانت غيره فإمَّا قديمة أو حادثة والجميع باطل ، قال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " كان الله ولا شيء معه " .

ذكر الامام قاضي القضاة ناصر الدِّين ابن المنير الاسكندري المالكي في كتابه " المنتقىٰ في شرف المصطفىٰ " لَمَّا تكلَّم علىٰ الجهة وقرَّر نفيها ، قال : ولهذا أشار مالك رحمه الله تعالىٰ في قوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رفع إلىٰ العرش ويونس عليه السَّلام هبط إلىٰ قاموس البحر (وسطه) ونسبتهما مع ذلك من حيث الجهة إلىٰ الحق جلَّ جلاله نسبة واحدة ، ولو كان الفضل بالمكان لكان عليه السَّلام أقرب في الرَّفيق الأعلىٰ فهو أفضل من السُّفلىٰ ، فالفضل بالمكانة لا بالمكان ، هكذا نقله السُّبكي في رسالة " الرَّد علىٰ ابن زفيل " (الأصل الثَّامن العلم بأنَّه تعالىٰ مستو علىٰ عرشه بالمعنىٰ الذي أراد الله تعالىٰ بالاستواء) هذا الأصل معقود لبيان أنَّه تعالىٰ غير مستقر علىٰ مكان كما قدَّمه صريحاً في ترجمة أصول الرُّكن الأوَّل ونبَّه عليه هنا بالجواب عن تمسُّك القائلين بالجهة والمكان ـ فإنَّ الكرَّاميَّة يثبتون جهة العلو من غير استقرار علىٰ العرش ، والحشويَّة وهم المجسِّمون مصرِّحون بالاستقرار علىٰ العرش ، وتمسَّكوا بظواهر منها : قوله تعالىٰ : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه:٥] ، وحديث الصَّحيحين : " ينزل ربُّنا كلّ ليلة " الحديث .

---

(١) انظر : اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدِّين (٢/ ٧٩-٨٣) .

واجيب عنه بجواب إجمالي هو كالمقدِّمة للاجوبة التَّفصيليَّة ، وهو أنَّ الشَّرع إنَّما ثبت بالعقل ، فإنَّ ثبوته يتوقَّف علىٰ دلالة المعجزة علىٰ صدق المبلّغ ، وإنَّما تثبت هذه الدّلالة بالعقل ، فلو أتىٰ الشَّرع بما يكذِّبه العقل وهو شاهده لبطل الشَّرع والعقل .

إذا تقرَّر هذا فنقول : كلُّ لفظ يرد في الشَّرع ممَّا يستند إلىٰ الذَّات المقدَّسة بأن يطلق اسماً أو صفة لها وهو مخالف للعقل ويسمَّىٰ المتشابه لا يخلو إمَّا أن يتواتر أو ينقل آحاداً والآحاد إن كان نصَّاً لا يحتمل التَّأويل قطعنا بافتراء ناقله أو سهوه أو غلطه وإن كان ظاهراً فظاهره غير مراد ، وإن كان متواتراً فلا يتصوَّر أن يكون نصَّاً لا يحتمل التَّأويل بل لابدَّ وأن يكون ظاهراً وحينئذ نقول : الاحتمال الذي ينفيه العقل ليس مراداً منه ثمَّ إن بقي بعد انتفائه احتمال واحد تعين أنَّه المراد بحكم الحال ، وإن بقي احتمالان فصاعداً فلا يخلو إمَّا أن يدلّ قاطع علىٰ واحد منهما أولا ، فإن دلَّ حمل عليه وإن لم يدل قاطع علىٰ التَّعيين فهل يعيَّن بالنَّظر والاجتهاد دفعاً للخبط عن العقائد أو لا خشية الإلحاد في الأسماء والصِّفات ، الأوَّل مذهب الخلف والثَّاني مذهب السَّلف ، وستأتىٰ أمثلة التَّنزيل عليهما وأمَّا الاجوبة التَّفصيليَّة فقد أجيب عن آية الاستواء بأنَّا نؤمن بأنَّه تعالىٰ استوىٰ علىٰ العرش مع الحكم بأنَّه ليس كاستواء الأجسام علىٰ الأجسام من التَّمكُّن والمماسَّة والمحاذاة لها لقيام البراهين القطعيَّة باستحالة ذلك في حقِّه تعالىٰ بل نؤمن بأنَّ الاستواء ثابت له تعالىٰ بمعنىٰ يليق به تعالىٰ (وهو الذي لا ينافىٰ وصف الكبرياء ولا تتطرَّق إليه سمات الحدوث والفناء وهو الذي أريد بالاستواء إلىٰ السَّماء حيث قال في القرآن : ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾ ، وقال أيضاً : ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ﴾ ، وفي طه : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ ، وفي الأعراف ويونس والرَّعد والسَّجدة والحديد ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾ ، وفي الفرقان ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ (وليس ذلك إلَّا بطريق القهر والاستيلاء) أي قهره علىٰ العرش واستيلاؤه ، وهذا جرىٰ عليه بعض الخلف واقتصر عليه المصنِّف هنا ، وهذا يعنىٰ كون المراد أنَّه الاستيلاء فعند الماتريديَّة أمر جائز الإرادة أي يجوز أن يكون مراد الآية ولا يتعيَّن كونه المراد خلافاً لما دلَّ عليه كلام المصنِّف من تعيينه إذ لا دليل علىٰ إرادته عيناً فالواجب عيناً ما ذكر من الإيمان به مع نفي التَّشبيه وإذا خيف علىٰ العامَّة لقصور أفهامهم عدم فهم الاستواء إذا لم يكن بمعنىٰ الاستيلاء إلا بالاتِّصال ونحوه من لوازم الجسميَّة وأن لا يقفوا تلك اللوازم فلا بأس بصرف فهمهم إلىٰ الاستيلاء صيانة لهم من المحذور ، فإنَّه قد ثبت إطلاقه وإرادته لغة (كما قال الشَّاعر) وهو البعيث ، كما قاله ابن عباد أو الأخطل كما قاله الجوهري في بشر بن مروان :

قد اسْتَوىٰ بِشْرٌ علىٰ العِرَاقِ   مِن غَيْرِ سَيْفٍ ودم مُهْرَاقِ

كذا نسبه الصَّاحب إسماعيل بن عباد في كتابه " نهج السَّبيل " ثمَّ قال : فإن قيل فهو مسئول على كلِّ شئ فما وجه اختصاصه العرش بالذِّكر ؟ قيل : كما هو ربّ كلّ شئ ، وقال : ﴿ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [النمل:٢٦] ، فإن قيل : فما معنى قولنا : عرش الله إن لم يكن عليه ، قيل : كما تقول : بيت الله ، وإن لم يكن فيه ، والعرش في السَّماء تطوف به الملائكة كما أنَّ الكعبة في الأرض تطوف بها النَّاس ، إلى هنا كلام الصَّاحب ، وهو وإن كان يميل إلى رأي الاعتزال غير أنَّه وافق أهل السُّنَّة فيما قاله هنا ، ومثل ذلك أيضاً قول الشَّاعر :

فلمَّا علونا واستوينا عليهم   جعلناهم مرعى لنسر وطائر

وقال الجاحظ في كتاب التَّوحيد له ما نصّه : قد زعم أصحاب التَّفسير عن عبد الله بن عبَّاس وهو صاحب التَّأويل والناس عليه عيال أنَّ قوله : " استوى " استولى ، وهذا القول قد ردَّه ابن تيمية الحافظ في كتاب العرش ، وقال : أنَّ الجاحظ رجل سوء معتزلي لا يوثق بنقله ، قال التَّقي السُّبكي : وكتاب العرش من أقبح كتبه ، ولمَّا وقف عليه الشَّيخ أبو حيَّان ما زال يلعنه حتى مات بعد أن كان يعظِّمه ، قال فيه : استوى في سبع آيات بغير لام ، ولو كانت بمعنى استولى لجاءت في موضع ، وهذا الذي قاله ليس بلازم ، فالمجاز قد يطَّرد وحسنه أنَّ لفظ استوى أعذب وأخصر وليس هو من الاطِّراد الذي يجعله بعض الأصوليِّين من علامة الحقيقة ، فإنَّ ذلك الاطِّراد في جميع موارد الاستعمال ، والذي حصل هنا اطراد استعمالها في آيات فأين أحدهما من الآخر ، ثمَّ إنَّ استوى وزنه افتعل ، فالسِّين فيه أصليَّة ، واستولى وزنه استفعل ، فالسِّين فيه زائدة ، ومعناه من الولاية ، فهما مادَّتان متغايرتان في اللفظ والمعنى ، والاستيلاء قد يكون بحقٍّ وقد يكون بباطل ، والاستواء لا يكون إلَّا بحقٍّ والاستواء صفة للمستوي في نفسه بالكمال والاعتدال ، والاستيلاء صفة متعدِّية إلى غيره ، فلا يصحُّ أن يُقال : استولى حتى يُقال على كذا ، ويصحُّ أن يقال : استوى ويتمُّ الكلام ، فلو قال : استولى لم يحصل المقصود ...

قال ابن القشيري : ولو أشعر ما قلنا توهُّم غلبته لأشعر قوله : ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨] بذلك أيضاً حتى يقال : كان مقهوراً قبل خلق العباد ، هيهات إذ لم يكن للعباد وجود قبل خلقه إيَّاهم بل لو كان الأمر على ما توهَّمه الجهلة من أنَّه استواء بالذَّات لأشعر ذلك بالتَّغيير واعوجاج سابق على وقت الاستواء ، فإنَّ الباري تعالى كان موجوداً قبل العرش ، ومن أنصف علِمَ أنَّ قول من يقول : العرش بالرَّبِّ استوى أمثل من قول من يقول : الرَّبِّ بالعرش استوى ، فالرَّبُّ إذاً موصوف بالعُلوِّ وفوقيَّة الرُّتبة والعظمة ، منزَّه عن الكون في المكان وعن المحاذاة ثمَّ قال : وقد نبغت نابغة من الرّعاع لولا استزلالهم للعوام بما يقرب من أفهامهم ويتصوَّر في أوهامهم لأجللت هذا المكتوب عن تلطيخه بذكرهم ، يقولون :

نحن نأخذ بالظَّاهر ونجرىٰ الآيات الموهمة تشبيهاً والأخبار المقتضية حدّاً وعضواً علىٰ الظَّاهر ، ولا يجوز أن نطرق التَّأويل إلىٰ شئ من ذلك ، ويتمسَّكون بقول الله تعالىٰ : وما يعلم تأويله إلا الله ، وهؤلاء والذي أرواحنا بيده أضرّ علىٰ الإسلام من اليهود والنَّصارىٰ والمجوس وعبدة الأوثان ، لأنَّ ضلالات الكفَّار ظاهرة يتجنَّبها المسلمون ، وهؤلاء أتوا الدِّين والعوام من طريق يغترُّ به المستضعفون ، فأوحوا إلىٰ أوليائهم بهذه البدع ، وأحلُّوا في قلوبهم وصف المعبود سبحانه بالأعضاء ، والجوارح ، والرُّكوب ، والنُّزول ، والاتِّكاء ، والاستلقاء ، والاستواء بالذَّات ، والتَّردد في الجهات ، فمن أصغىٰ إلىٰ ظاهرهم يبادر بوهمه إلىٰ تخيُّل المحسوسات ، فاعتقد الفضائح فسال به السَّيل وهو لا يدري اهـ ثمَّ ذكر المصنِّف المحال الذي يلزم من تفسير الاستواء بالاستقرار والتمَّكُّن فقال هو (كون المتمكِّن جسماً مماسَّاً للعرش إمَّا مثله أو أكبر منه أو أصغر ، وذلك محال وما يؤدِّي إلىٰ المحال محال) وتحقيقه أنَّه تعالىٰ لو استقرَّ علىٰ مكان أو حاذىٰ مكاناً لم يخل من أن يكون مثل المكان أو أكبر منه أو أصغر منه ، فإن كان مثل المكان فهو إذاً متشكِّل بأشكال المكان حتىٰ إذا كان المكان مربَّعاً كان هو مربَّعاً أو كان مثلَّثاً كان هو مثلَّثاً ، وذلك محال ، وإن كان أكبر من المكان فبعضه علىٰ المكان ويشعر ذلك بأنَّه متجزِّئ ، وله كلّ ينطوىٰ علىٰ بعض ، وكان بحيث ينتسب إليه المكان بأنَّه ربعه أو خمسه ، وإن كان أصغر من ذلك المكان بقدر لم يتميَّز عن ذلك المكان إلَّا بتحديد وتتطرَّق إليه المساحة والتَّقدير ، وكلُّ ما يؤدِّي إلىٰ جواز التَّقدير علىٰ الباري تعالىٰ فتجوّزه في حقِّه كفر من معتقده ، وكلّ من جاز عليه الكون بذاته علىٰ محلّ لم يتميَّز عن ذلك المحلّ إلَّا بكون وقبيح وصف الباري بالكون ، ومتىٰ جاز عليه موازاة مكان أو مماسَّته جاز عليه مباينته ، ومن جاز عليه المباينة والمماسَّة لم يكن إلَّا حادثاً ، وهل علمنا حدوث العالم إلَّا بجواز المماسَّة والمباينة علىٰ أجزائه ، وقصارىٰ الجهلة قولهم : كيف يتصوَّر موجود لا في محلٍّ ؟ وهذه الكلمة تصدر عن بدع وغوائل لا يَعرفُ غورها وقعرها إلَّا كلُّ غوَّاص علىٰ بحار الحقائق ، وهيهات طلب الكيفيَّة حيث يستحيل محال .

والذي يدحض شُبههم أن يقال لهم : قبل أن يخلق العالم أو المكان هل كان موجوداً أم لا ؟!! فمن ضرورة العقل أن يقول : بلىٰ ، فيلزمه لو صحَّ قوله : لا يعلم موجوداً إلَّا في مكان أحد أمرين : إمَّا أن يقول : المكان والعرش والعالم قديم ، وإمَّا أن يقول : الرَّب تعالىٰ محدث ، وهذا مأل الجهلة والحشويَّة ليس القديم بالمحدث والمحدث بالقديم ، ونعوذ بالله من الحيرة في الدِّين ... " (١) .

---

(١) انظر : اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدِّين (٢/ ١٠٤-١١٢ باختصار) .

وقال الإمام ابن عجيبة الحسني الفاسي الصُّوفي (١٢٢٤هـ) : ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ استواء يليق به، والعرش: جسم عظيم محيط بالأكوان . سمِّي به لارتفاعه، وللتَّشبيه بسرير الملك، فالأكوان في جوفه ممحوقة فقد استولى عليها ومحقها، كذلك أسرار معاني الرُّبوبيَّة الأزليَّة قد استولت عليه ومحقته، فيمكن أن يكون الحقّ تعالى عبَّر بالاستواء عن هذا الاستيلاء، وسيأتي في الإشارة تمامه إن شاء الله.

وقال القشيري: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ ، أي: تَوَحَّدَ بجلال الكبرياء بوصف الملكوت، وملوكنا إذا أرادوا التجلِّي والظُّهور للحَشَم والرَّعيَّة برزوا لهم على سرير مُلكِهم في إيوان مشاهدتهم. فأخبر الحقُّ- سبحانه وتعالى- بما يَقرُب من فَهم الخلقِ، بما ألقى إليهم من هذه الكلمات، بأنَّه استوى على العرش، ومعناه: اتِّصافه بعزِّ الصَّمديَّة وجلال الأحديَّة، وانفراده بنعت الجبروت وجلاء الرُّبوبيَّة، وتقدَّس الجبَّارُ عن الأقطار، والمعبودُ عن الحدود. أهـ. (١) .

وقال أيضاً : " ثمَّ اسْتَوىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ استواء يليق به، كاستواء الملك على سريره ليدبِّر أمر مملكته، ولذلك رتَّب عليه: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ ﴾ [يونس:٣] " .

وقال أيضاً : ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ [الرعد:٢] استواء استيلاء وإحاطة، حتى صار العرشُ غيباً في إحاطة قهريته وأسرار ذاته. وقد كانت العرب تجعل لملوكها سريراً يجلسون عليه لتدبير المملكة، فخاطبنا الحقُّ تعالى بقدر ما نفهم ، ولذلك رتَّب عليه قوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ [الرعد:٢] لأنَّ هذا من تدبير ملكه، أي: ذلَّلهما لما أراد منهما، كالحركة المستمرَّة على حدٍّ من السُّرعة لينتفع بهما عباده في معاشهم ومعالم دينهم " .

وقال أيضاً : "ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ أي: استولى بقهريَّه ذاته. وسئل مالك عنه، فقال: الاستواء معلوم، والكيفيَّة مجهولة، والسُّؤال عن هذا بدعة. هـ. ولم تتكلَّم الصَّحابة على الاستواء، بل أمسكوا عنه، ولذلك قال مالك: السُّؤال عنه بدعة " (٢) .

وقال الإمام أحمد بن محمَّد الصَّاوي المالكي الخلوتي (١٢٤١هـ) : " قوله: (استواء يليق به) هذه طريقة السَّلف الذين يفوِّضون علم المتشابه لله تعالى، وهذا نظير ما وقع لمالك بن أنس أنَّه سأله رجل عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥] ، فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسُّؤال عنه بدعة ، أخرجوا عنِّي هذا المبتدع، وأمَّا طريقة الخلف فيؤولون الاستواء بالاستيلاء بمعنى

(١) انظر : البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٢/ ٢٢٣) .

(٢) انظر : البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٢/ ٤٤٩) ، (٣/ ٦) ، (٤/ ٣٨٦) ، بالترتيب .

الملك والتَّصرُّف، فالاستواء يطلق حقيقة علىٰ الرُّكوب ، وهو مستحيل علىٰ الله ، وعلىٰ الاستيلاء ، والتَّصرُّف ، وهو المُراد ، قال الشَّاعر :

قد اسْتَوَىٰ بِشْرٌ علىٰ العِرَاقِ   مِن غَيْرِ سَيْفٍ ودم مُهْرَاقٍ

وقد أشار صاحب الجوهرة للطَّريقتين ، بقوله :

وكُلُّ نصٍّ أوهم التَّشبيها   أوِّله أو فوِّض ورُم تنزيها (١)

وقال الإمام محمَّد بن علي بن محمَّد بن عبد الله الشَّوكاني اليمني (١٢٥٠هـ) : " قَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي مَعْنَىٰ هَذَا عَلَىٰ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَوْلًا، وَأَحَقُّهَا وَأَوْلَاهَا بِالصَّوَابِ: مَذْهَبُ السَّلَفِ الصَّالح أنه استوىٰ سبحانه عليه بلا كيف عَلَىٰ الْوَجْهِ الَّذِي يَلِيقُ بِهِ مَعَ تَنَزُّهِهِ عَمَّا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ، وَالِاسْتِوَاءُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ: هُوَ الْعُلُوُّ وَالِاسْتِقْرَارُ. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: اسْتَوَىٰ عَلَىٰ ظَهْرِ دَابَّتِهِ، أَيِ: اسْتَقَرَّ، وَاسْتَوَىٰ إِلىٰ السَّمَاءِ، أَيْ: صَعِدَ، وَاسْتَوَىٰ، أَيِ: اسْتَوْلَىٰ وَظَهَرَ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

قَدِ اسْتَوَىٰ بِشْرٌ عَلَىٰ الْعِرَاقِ   مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقِ

وَاسْتَوَىٰ الرجل، أي: انتهىٰ شبابه، واستوىٰ، أي: اتّسق وَاعْتَدَلَ. وَحُكِيَ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ أَنَّ مَعْنَىٰ (استوىٰ) هنا: علا، ومثله قول الشاعر:

فأوردتهم ماء بفيفاء قفرة   وَقَدْ حَلَّقَ النَّجْمُ الْيَمَانِيُّ فَاسْتَوَىٰ

أَيْ عَلَا وَارْتَفَعَ. وَالْعَرْشُ: قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: هُوَ سَرِيرُ الْمَلِكِ. وَيُطْلَقُ الْعَرْشُ عَلَىٰ مَعَانٍ أُخَرَ مِنْهَا عَرْشُ الْبَيْتِ: سَقْفُهُ، وَعَرْشُ الْبِئْرِ: طَيُّهَا بِالْخَشَبِ، وَعَرْشُ السِّمَاكِ: أَرْبَعَةُ كَوَاكِبَ صِغَارٌ، وَيُطْلَقُ عَلَىٰ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ وَالْعِزِّ وَمِنْهُ قَوْلُ زُهَيْرٍ:

تَدَارَكْتُمَا عَبْسًا وقد ثلّ عرشها   وذبيان إذ زلّت بأقدامها النَّعْلُ

وَقَوْلُ الْآخَرِ:

إِنْ يَقْتُلُوكَ فَقَدْ ثَلَلْتُ عُرُوشُهُمْ   بعتيبة بن الحرث بْنِ شِهَابِ

وَقَوْلُ الْآخَرِ:

رَأَوْا عَرْشِي تَثَلَّمَ جَانِبَاهُ   فَلَمَّا أَنْ تَثَلَّمَ أَفْرَدُونِي

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ صِفَةُ عَرْشِ الرَّحْمَنِ وَإِحَاطَتِهِ بالسموات وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا عَلَيْهِمَا، وَهُوَ الْمُرَادُ هُنَا " (١) .

---

(١) انظر : حاشية الصَّاوي علىٰ تفسير الجلالين (٢/ ٢٦٨) .

وقال الإمام محمَّد علاء الدِّين بن محمَّد أمين عابدين الدِّمشقي الحنفي (١٢٥٢ هـ) : " فإنَّ السَّلف كانوا يؤمنون بجميع ذلك على المعنى الذي أراده الله تعالى وأراده رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير أن تطالبهم أنفسهم بفهم حقيقة شيء من ذلك حتى يطلعهم الله تعالى عليه .

وأمَّا الخلف فلمَّا ظهرت البدع والضَّلالات ارتكبوا تأويل ذلك وصرفه عن ظاهره مخافة الكفر فاختاروا بدعة التَّأويل يعني التَّوسُّع فيه على كفر الحمل على الظَّاهر – الموهم للتَّجسيم والتَّشبيه – وقالوا : استوى بمعنى استولى أو بمعنى استوى عنده خلق العرش وخلق البعوضة أو استوى علمه بما في العرش وغيره واليد بمعنى القدرة والنُّزول بمعنى نزول الرَّحمة ، فمن يجد من نفسه قدرة على صنيع السَّلف فليمش على سننهم وإلَّا فليتَّبع الخلف وليحترز من المهالك " (٢) .

وقال الإمام محمَّد بن عمر نووي الجاوي البنتني (١٣١٦هـ) : ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ ، أي : حصل له تعالى تدبير المخلوقات على ما أراد ، أي : بعد أن خلق السَّموات والأرض استوى على عرش الملك والجلال ، وصحَّ أن يقال: إنَّه تعالى إنَّما استوى على ملكه بعد خلق السَّموات والأرض . بمعنى أنَّه إنَّما ظهر تصرفه في هذه الأشياء وتدبيره له بعد خلق السَّموات والأرض ، وذلك لأنَّ العرش في كلامهم هو السَّرير الذي يجلس عليه الملوك، ثمَّ جعل العرش كناية عن نفس الملك يقال: ثُلَّ عرش السُّلطان أي انتقض ملكه وفسد ، وإذا استقام له ملكه واطرد أمره وحكمه قالوا: استوى على عرشه واستقرَّ على سرير ملكه ، هذا ما قاله القفَّال، ونظير هذا قولهم للرَّجل الطَّويل: فلان طويل النّجاد ، وللرَّجل الذي يكثر الضِّيافة: فلان كثير الرَّماد ، وللرَّجل الشَّيخ: فلان اشتعل رأسه شيباً ، وليس المراد في شيء من هذه الألفاظ إجراؤها على ظواهرها ، وإنَّما المراد منها تعريف المقصود على سبيل الكناية فكذا هنا ، فالمراد بذكر الاستواء على العرش هو نفاذ القدرة وجريان المشيئة.

والواجب علينا أن نقطع بكونه تعالى منزَّهاً عن المكان والجهة، ولا نخوض في تأويل هذه الآية على التَّفصيل بل نفوِّض علمها إلى الله تعالى " .

وقال أيضاً : ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ وهو الجسم المحيط بسائر الأجسام. والمعنى ثمَّ تصرَّف الله في ملكه وليس معناه أنَّه تعالى خلق العرش بعد خلق السَّموات والأرض لأنَّ تكوين العرش سابق على تخليق السَّموات والأرضين بدليل قوله تعالى : ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ [هود:٧] ، بل المراد أنَّه تعالى لمَّا خلق

---

(١) انظر : فتح القدير (٢/ ٢٤٠-٢٤١) .

(٢) انظر : الهدية العلائية (ص٤٧٠) .

السَّموات والأرض واستدارت الأفلاك والكواكب، وجعل بسبب دورانها الفصول الأربعة ففي هذا الوقت قد حصل وجود هذه المخلوقات وهذا ملك الله تعالىٰ إنَّما حصل بعد تخليق السموات والأرض ، فصحَّ إدخال حرف يفيد التَّراخي علىٰ الاستواء علىٰ العرش والله أعلم بمراده " .

وقال أيضاً : ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ أي استولىٰ الله علىٰ العرش بالحفظ والتَّدبير ، وظهر تصرُّفه في هذه الأشياء بعد خلق السَّموات. ويقال للسُّلطان والملك إذا استقام أمره: إنَّه استوىٰ علىٰ عرشه أي سريره الذي يجلس عليه فالاستواء علىٰ العرش كناية عن جريان التَّدبير والحكم " .

وقال أيضاً : ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ ، أي : ثمَّ استقام الله علىٰ ملكه وتصرَّف فيه تصرُّفاً تامَّاً " (١) .

وقال الإمام سليم البِشري شيخ الجامع الأزهر (١٣٣٥هـ) جواباً علىٰ سؤال وجَّهه إليه العلَّامة أحمد بن بدر شيخ معهد بَلْصَفُورَة، قال - رحمه الله -: ما قولُكم دامَ فضلُكم في رجلٍ منْ أهلِ العلمِ هُنا من الذينَ يُوصفونَ بالتَّفَقُّهِ في الدِّينِ، تَظاهَرَ باعتقادِ ثُبوتِ جِهَةِ الفَوقِيَّةِ لله - سبحانَهُ وتعالىٰ -، ويَدَّعي أنَّ ذلك مذهبُ السَّلَفِ، وتَبِعَهُ علىٰ ذلك البعضُ القليلُ منَ النَّاسِ، وجمهورُ أهلِ العِلمِ يُنكرونَ عليهِ .. إلخ السُّؤال ...

نَصُّ جَوَابِ شَيْخِ الإِسْلاَمِ سَلِيمِ البِشْرِي : إلىٰ حضرةِ الفاضلِ العَلاَّمَةِ الشَّيخ أحمد علي بدر خادمِ العِلْمِ الشريفِ بِبَلْصَفُورةَ، قدْ أرسلتُم بتاريخِ (٢٢ محرمٍ سنةَ ١٣٢٥هـ) مكتوباً مصحوباً بسؤالٍ عنْ حُكْمِ مَنِ يعتقدُ ثُبوتَ الجِهَةِ لهُ – تَعَالىٰ -، فَحَرَّرْنا لكم الجوابَ الآتيَ، وفيهِ الكِفايةُ لِمَنِ اتَّبعَ الحَقَ وأَنْصَفَ ، جزاكم اللهُ عنِ المُسلمينَ خَيراً .اِعْلَمْ أَيَّدكَ اللهُ بتوفيقِه، وسَلَكَ بنا وبك سَوَاءَ طريقِهِ ، أَنَّ مذهبَ الفِرقةِ النَّاجِيةِ وما عليه أَجْمَعَ السُّنِّيُّونَ أنَّ اللهَ – تعالىٰ – مُنَـزَّهٌ عنْ مُشابهةِ الحَوادثِ، مُخالِفٌ لها في جميعِ سِمَاتِ الحُدُوثِ، ومِنْ ذلك تَنَـزُّهُهُ عنِ الجِهَةِ والمَكان، كما دَلَّتْ علىٰ ذلك البراهينُ القَطْعِيَّةُ، فإنَّ كونَه في جِهَةٍ يَسْتَلْزِمُ قِدَمَ الجهةِ أو المكانِ وهُما مِنَ العالَمِ، وهو ما سِوَىٰ الله – تعالىٰ -.وقدْ قامَ البُرهانُ القاطعُ علىٰ حُدوثِ كُلِّ ما سِوَىٰ الله – تعالىٰ – بإِجماعِ مَنَ أَثْبَتَ الجِهَةَ ومَنْ نَفَاها، ولأَنَّ المُتَمَكِّنَ يَستحيلُ وُجودُ ذاتِهِ بِدونِ المكانِ، معَ أَنَّ المَكانَ يُمْكِنُ وجودُه بدونِ المُتَمَكِّنِ لجوازِ الخَلاءِ ، فيلزَمُ إمكانُ الواجبِ ووجوبُ المُمْكِنِ وكِلاهما باطلٌ، ولأنه لَو تَحَيَّزَ لَكَانَ جَوْهَراً لاسْتحالَةِ كَوْنِهِ عَرَضاً، ولو كانَ جوهراً فإِمَّا أنْ ينقسمَ، وإمَّا ألا ينقسمَ، وكِلاهما باطلٌ، فإنَّ غيرَ المنقسمِ هوَ الجُزْءُ الذي لا يَتَجَزَّأُ وهوَ أحقرُ الأشياءِ – تعالىٰ اللهُ عنْ ذلك عُلُوّاً كبيراً -، والمنقسمُ جسمٌ وهوَ مُرَكَّبٌ والتركيبُ يُنافي الوجوبَ الذاتيَّ، فيكونُ المركبُ ممكناً يَحْتاجُ إلىٰ عِلَّةٍ مُؤَثِّرَةٍ،

---

(١) انظر : مراح لبيد لكشف معنىٰ القرآن المجيد (١/ ٣٧٥) ، (١/ ٤٧٨-٤٧٩) ، (١/ ٥٥٢) ، (٢/ ٢٤١) ، بالترتيب .

وقد ثَبَتَ بالبرهانِ القاطعِ أَنَّهُ - تعالىٰ - واجبُ الوجودِ لِذاتِه، غَنِيٌّ عنْ كُلِّ ما سِواه مُفتَقِرٌ إليهِ كلُّ ما عَدَاه - سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ هذا، وقد خَذَلَ اللهُ أقواماً أَغْواهم الشَّيطانُ وأَزَلَّهم، اِتَّبعوا أهواءَهم وتمسَّكوا بما لا يجدِي، فاعتقدوا ثبوتَ الجهةِ - تعالىٰ الله عن ذلك علوَّاً كبيراً -، واتَّفقوا علىٰ أنَّها جهةُ فوقٍ، إلَّا أنَّهم افترقوا، فمنهم منِ اعتقدَ أنَّه جسمٌ مُمَاسٌّ للسَطْحِ الأَعْلَىٰ منَ العَرْشِ، وبِهِ قالَ الكَرَّامِيَّةُ واليَهُودُ، وهؤلاءِ لا نِزَاعَ في كُفْرِهم، ومنهم منْ أثبتَ الجهةَ معَ التَّنـزيهِ، وأنَّ كونَه فيها ليسَ كَكَونِ الأَجْسامِ، وهؤلاءِ ضُلاَّلٌ فُسَّاقٌ في عَقِيدتِهم، لإطْلاقِهِم علىٰ الله ما لم يأذنْ بِهِ الشَّارِعُ، ولا مِرْيَةَ أنَّ فاسِقَ العَقِيدَةِ أَقْبَحُ وأَشْنَعُ مِنْ فاسِقِ الجَارِحَةِ بِكَثِيرٍ، سِيَّما مَنْ كانَ داعيةً أو مقتدًىٰ بِهِ، ومِمَّنْ نُسِبَ إليهِ القَولُ بالجهةِ من المتأخرينَ أحمدُ بنُ عبدِ الحليمِ بنِ عبدِ السَّلامِ ابنِ تَيْمِيَّةَ الحَرَّانِيُّ الحَنْبَلِيُّ الدِمَشْقِيُّ من عُلَماءِ القَرْنِ الثَّامِنِ في ضِمْنِ أُمُورٍ نُسِبَتْ إليهِ خالفَ الإجماعَ فيها عَمَلاً بِرَأْيِهِ وشَنَّعَ عليهِ مُعاصِروهُ، بلِ البعضُ منهم كَفَّرُوهُ، ولَقِيَ مِنَ الذُّلِّ والهوانِ ما لَقِيَ، وقد انْتَدَبَ بعضُ تَلامِذَتِهِ لِلذَّبِّ عَنهُ وتَبْرِئَتِهِ مِمَّا نُسبَ إليه، وساقَ له عباراتٍ أَوْضَحَ معناها، وأبانَ غَلَطَ الناسِ في فهمِ مُرادِه، واستشهدَ بِعباراتٍ له أُخرىٰ صَريحةٍ في دَفْعِ التُّهْمَةِ عنه، وأنَّه لم يخرجْ عَمَّا عليه الإجماعُ، وذلك هو المَظْنونُ بالرَّجُلِ لجَلالَةِ قَدْرِه ورُسُوخِ قَدَمِه. وما تَمَسَّكَ بِهِ المُخالِفونَ القائلونَ بالجهةِ أمورٌ واهيةٌ وَهْمِيَّةٌ، لا تصلُحُ أَدِلَّةً عَقْلِيَّةً ولا نَقليةً، وقد أَبْطَلَها العُلماءُ بما لا مزيدَ عليه، وما تَمَسَّكُوا به ظواهرُ آياتٍ وأحاديثَ موهمةٌ كقولِه - تعالىٰ -: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ ، وقولِه: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[فاطر:١٠] ، وقولِه: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج:٤] ، وقولِه: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [الملك:١٦] ، وقولِه: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨] ، وكحديثِ " إنَّه - تعالىٰ - ينـزِلُ إلىٰ السَّماءِ الدُّنيا كُلَّ لَيلَةٍ" ، وفي روايةٍ " في كُلِّ ليلةِ جُمُعَةٍ فيقولُ: هلْ مِنْ تائبٍ فأتوبَ عليهِ؟ هل من مُستغفِرٍ فأغفِرَ له؟ " ، وكقولِه للجارِيَةِ الخَرْساءِ: " أينَ اللهُ ؟" فأشارتْ إلىٰ السَّماءِ، حيثُ سَأَلَ بـ(أينَ) التي لِلْمَكانِ ولمْ يُنكِرْ عَلَيها الإشارةَ إلىٰ السَّماءِ، بلْ قالَ: "إنَّها مؤمنةٌ ".ومثلُ هذه يُجَابُ عنها بأنَّها ظَواهِرُ ظَنِّيَّةٌ لا تُعارِضُ الأَدِلَّةَ القَطْعِيَّةَ اليقينيَّةَ الدَّالَّةَ علىٰ انتِفاءِ المكانِ والجهةِ ، فيجبُ تأويلُها وحملُها علىٰ محاملَ صحيحةٍ لا تَأْباها الدَّلائِلُ والنُّصوصُ الشَّرْعِيَّةُ ، إمَّا تَأْويلاً إجْماليّاً بلا تعيينٍ للمرادِ منها كما هو مذهبُ السَّلَفِ، وإمَّا تأويلاً تفصيليّاً بتعيينِ محامِلِها وما يُرادُ منها كما هو رَأْيُ الخَلَفِ ، كقولِهم: إنَّ الاستواءَ بمعنىٰ (الاستيلاءِ) كما في قولِ القائلِ :

قدِ اسْتَوىٰ بِشْرٌ عَلَىٰ العِرَاقِ   مِنْ غَيرِ سَيْفٍ ودَمٍ مُهْرَاقِ

وصُعودُ الكَلِمِ الطيِّب إليهِ قَبُولُهُ إيَّاهُ ورِضَاهُ بِهِ ؛ لأنَّ الكَلِمَ عَرَضٌ يَسْتَحِيلُ صُعُودُهُ ، وقولُه : مَنْ في السَّماءِ ، أيْ أَمْرُهُ وسُلْطَانُهُ، أو مَلَكٌ مِنْ مَلائِكتِه مُوَكَّلٌ بِالعَذَابِ، وعُرُوجُ الملائكةِ والروحِ إليه صُعُودُهم إلىٰ مَكَانٍ يُتَقَرَّبُ إليهِ فيهِ ، وقولُه: فوقَ عِبادِه أيْ عَالٍ عَلَيهم بالقَهْرِ والغَلَبَةِ ، كما يُقال: أَمْرُ فُلانٍ فوقَ أمرِ فلانٍ، أيْ أنَّه أَقْدَرُ مِنه وأَغْلَبُ، ونُزُولُه إلىٰ السَّماءِ مَحْمُولٌ عَلَىٰ لُطْفِهِ ورَحمتِه وعَدَمِ المُعامَلَةِ بما يَسْتَدْعِيه عُلُوُّ رُتْبَتِهِ وعِظَمِ شَأْنِه علىٰ سَبِيلِ التَّمْثِيلِ، وخَصَّ اللَّيلَ لأَنَّه مَظِنَّةُ الخَلْوَةِ والخُضُوعِ وحُضُورِ القَلْبِ، وسُؤالُه لِلْجارِيةِ بِـ(أينَ) اسْتِكْشَافٌ لِما يُظَنُّ بِها اعْتِقَادُه مِنْ أَيْنِيَّةِ المَعْبُودِ كما يَعْتَقِدُهُ الوَثَنِيُّونَ، فَلَمَّا أَشَارَتْ إلىٰ السماءِ فَهِمَ أنَّها أرادتْ خَالِقَ السَّماءِ، فاسْتَبَانَ أنَّها لَيْسَتْ وَثَنِيَّةً ، وحَكَمَ بإيمانِها.وقد بَسَطَ العُلَماءُ في مُطَوَّلاتِهم تأويلَ كُلِّ مَا وَرَدَ مِنْ أَمْثَالِ ذلك عَمَلاً بِالقَطْعِيِّ وحَمْلاً لِلظَّنِّيِّ عليهِ، - فَجَزاهُمُ اللهُ عَنِ الدِّينِ وأَهْلِهِ خَيرَ الجَزَاءِ -، ومِنَ العَجيبِ أَنْ يَدَعَ مُسْلِمٌ قَوْلَ جَماعَةِ المُسلِمينَ وأئِمَّتِهم ويَتَشَدَّقَ بِتُرَّهَاتِ المُبتدِعِينَ وضَلاَلَتِهم ، أَمَا سَمِعَ قَوْلَ الله - تعالىٰ -: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥] فَلْيَتُبْ إلىٰ الله – تَعَالَىٰ – مَنْ تَلَطَّخَ بِشَيءٍ مِنْ هذه القاذُوراتِ ولا يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ، فإنَّه يأمُرُ بالفَحْشاءِ والمُنْكَر، ولا يَحْمِلَنَّهُ العِنادُ عَلَىٰ التَّمادِي والإِصْرارِ عليه، فإنَّ الرُّجوعَ إلىٰ الصَّوابِ عَيْنُ الصَّوابِ، والتَّمادِيَ عَلَىٰ البَاطِلِ يُفْضِي إلىٰ أَشَدِّ العَذَابِ ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرۡشِدًا﴾ [الكهف:١٧] نسألُ اللهَ - تعالىٰ - أَنْ يَهْدِيَنَا جَميعاً سَوَاءَ السَّبيلِ، وهُوَ حسبُنا ونِعْمَ الوَكيلُ ، وصَلَّىٰ اللهُ – تعالىٰ - وسَلَّمَ علىٰ سَيِّدِنا محمَّد وصَحْبِهِ أجمعينَ ومَنْ تَبِعَهُم بإِحْسانٍ إلىٰ يومِ الدِّينِ .أملاه الفقير إليه سبحانه : سَلِيمٌ البِشْرِيُّ خادمُ العلمِ والسَّادةِ المالِكِيَّةِ بالأَزْهَرِ – عَفَا اللهُ عَنهُ – آمينَ آمينَ " (١) .

وقال الإمام محمَّد أنور شاه بن معظم شاه الكشميري الهندي (١٣٥٣هـ) : " أمَّا الاستواءُ بمعنىٰ جلوسه تعالىٰ عليه، فهو باطلٌ لا يَذْهَبُ إليه إلاَّ غبيٌّ، أو غويٌّ. كيف وأنَّ العرشَ قد مرَّت عليه أحقابٌ من الدَّهر لم يكُنْ شيئاً مذكوراً، فهل يُتَعَقَّلُ الآن الاستواء عليه بذلك المعنىٰ ؟ " (٢) .

وقال الإمام محمَّد رشيد بن علي رضا بن محمَّد شمس الدِّين بن محمَّد بهاء الدِّين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (١٣٥٤هـ) : " وَحَقِيقَةُ الِاسْتِوَاءِ فِي اللُّغَةِ التَّسَاوِي وَاسْتِقَامَةُ الشَّيء وَاعْتِدَالُهُ، وَمِنَ الْمَجَازِ كَمَا فِي الْأَسَاسِ: اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الدَّابَّةِ وَعَلَىٰ السَّرِيرِ وَالْفِرَاشِ، وَانْتَهَىٰ شَبَابُهُ وَاسْتَوَىٰ، وَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْبَلَدِ اهـ،

(١) انظر السؤال وجوابه في : فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان (ص٦٣-٦٧) .

(٢) انظر : فيض الباري شرح البخاري (٧/ ٣٨٣) .

وَقَالَ فِي مَادَّة : (عَ رَش) : وَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ عَرْشِهِ إِذَا مَلَكَ، وَثَلَّ عَرْشُهُ إِذَا هَلَكَ اهـ. وَفِي الْمِصْبَاحِ: وَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَرِيرِ الْمُلْكِ – كِنَايَةً عَنِ التَّمَلُّكِ وَإِنْ لَمْ يَجْلِسْ عَلَيْهِ، كَمَا قِيلَ: مَبْسُوطُ الْيَدِ وَمَقْبُوضُ الْيَدِ، كِنَايَةً عَنِ الْجُودِ وَالْبُخْلِ اهـ.

لَمْ يَشْتَبِهْ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ فِي مَعْنَىٰ اسْتِوَاءِ الرَّبِّ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ، عَلَىٰ عِلْمِهِمْ بِتَنَزُّهِهِ سُبْحَانَهُ عَنْ صِفَاتِ الْبَشَرِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْخَلْقِ، إِذْ كَانُوا يَفْهَمُونَ أَنَّ اسْتِوَاءَهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عَرْشِهِ عِبَارَةٌ عَنِ اسْتِقَامَةِ أَمْرِ مُلْكِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَهُ وَانْفِرَادِهِ هُوَ بِتَدْبِيرِهِ. وَأَنَّ الْإِيمَانَ بِذَلِكَ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَىٰ مَعْرِفَةِ كُنْهِ ذَلِكَ التَّدْبِيرِ وَصِفَتِهِ وَكَيْفَ يَكُونُ، بَلْ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَىٰ وُجُودِ عَرْشٍ، وَلَكِنْ وَرَدَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَنَّ للهِ عَرْشًا خَلَقَهُ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. وَأَنَّ لَهُ حَمَلَةً مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَهُوَ كَمَا تَدُلُّ اللُّغَةُ مَرْكَزُ تَدْبِيرِ الْعَالَمِ كُلِّهِ. قَالَ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ هُودٍ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧] ، وَلَكِنَّ عَقِيدَةَ التَّنْزِيهِ الْقَطْعِيَّةَ الثَّابِتَةَ بِالنَّقْلِ وَالْعَقْلِ كَانَتْ مَانِعَةً لِكُلٍّ مِنْهُمْ أَنْ يَتَوَهَّمَ أَنَّ فِي التَّعْبِيرِ بِالِاسْتِوَاءِ عَلَىٰ الْعَرْشِ شُبْهَةَ تَشْبِيهٍ لِلْخَالِقِ بِالْمَخْلُوقِ. كَيْفَ وَأَنَّ بَعْضَ الْقَرَائِنِ الضَّعِيفَةِ لَفْظِيَّةً أَوْ مَعْنَوِيَّةً تَمْنَعُ فِي لُغَتِهِمْ حَمْلَ اللَّفْظِ عَلَىٰ مَعْنَاهُ الْبَشَرِيِّ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ لَا يُعْقَلُ؟ فَكَيْفَ وَالِاسْتِوَاءُ عَلَىٰ الشَّيْءِ مُسْتَعْمَلٌ فِي الْبَشَرِ اسْتِعْمَالًا مَجَازِيًّا وَكِنَائِيًّا كَمَا تَقَدَّمَ؟ وَالْقَاعِدَةُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي كُلِّ مَا أَسْنَدَهُ الرَّبُّ تَعَالَىٰ إِلَىٰ نَفْسِهِ مِنَ الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ الَّتِي وَرَدَتِ اللُّغَةُ فِي اسْتِعْمَالِهَا فِي الْخَلْقِ: أَنْ يُؤْمِنُوا بِمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ مَعْنَىٰ الْكَمَالِ وَالتَّصَرُّفِ مَعَ التَّنْزِيهِ عَنْ تَشْبِيهِ الرَّبِّ بِخَلْقِهِ، فَيَقُولُونَ: إِنَّهُ اتَّصَفَ بِالرَّحْمَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ عَرْشِهِ، بِالْمَعْنَىٰ الَّذِي يَلِيقُ بِهِ، لَا بِمَعْنَىٰ الِانْفِعَالِ الْحَادِثِ الَّذِي نَجِدُهُ لِلْحُبِّ وَالرَّحْمَةِ فِي أَنْفُسِنَا، وَلَا مَا نَعْهَدُهُ مِنَ الِاسْتِوَاءِ وَالتَّدْبِيرِ مِنْ مُلُوكِنَا. وَحَسْبُنَا أَنْ نَسْتَفِيدَ مِنْ وَصْفِهِ بِهَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ أَثَرَهُمَا فِي خَلْقِهِ، وَأَنْ نَطْلُبَ رَحْمَتَهُ وَنَعْمَلَ مَا يُكْسِبُنَا مَحَبَّتَهُ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِمَا مِنْ مَثُوبَتِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَنَسْتَفِيدُ مِنَ الِاسْتِوَاءِ عَلَىٰ عَرْشِهِ كَوْنَ الْمُلْكِ وَالتَّدْبِيرِ لَهُ وَحْدَهُ فَلَا نَعْبُدُ غَيْرَهُ، وَلِذَلِكَ قَرَنَهُ فِي آخِرِ آيَةِ يُونُسَ بِقَوْلِهِ: ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس:٣] وَفِي سُورَةِ الم السَّجْدَةِ : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة:٤] وَهَذَا يُؤَيِّدُ مَا صَدَّرْنَا بِهِ تَفْسِيرَ الْآيَةِ مِنْ أَنَّهَا كَأَمْثَالِهَا تُقَرِّرُ وَحْدَانِيَّةَ الرُّبُوبِيَّةِ عَلَىٰ أَنَّهَا حُجَّةٌ لِوَحْدَانِيَّةِ الْإِلَهِيَّةِ وَإِبْطَالِ عِبَادَةِ غَيْرِهِ تَعَالَىٰ مَعَهُ بِمَعْنَىٰ مَا كَانُوا يَدْعُونَهُ مِنَ الشَّفَاعَةِ.

أَخْرَجَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَاللَّالِكَائِيُّ فِي السُّنَّةِ أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ فِي الْجُمْلَةِ: الْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ وَالِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ وَالْإِقْرَارُ بِهِ إِيمَانٌ وَالْجُحُودُ بِهِ كُفْرٌ. فَإِنْ صَحَّ كَانَ سَبَبُهُ شُبْهَةً بَلَغَتْهَا مِنْ بَعْضِ

التَّابِعِينَ، إِذْ حَدَثَ مِنْ بَعْضِهِمُ الِاشْتِبَاهُ فِي فَهْمِ أَمْثَالِ هَذِهِ النُّصُوصِ، كَمَا كَثُرَ فِي الْمُسْلِمِينَ مَنْ لَا يَفْهَمُ اللُّغَةَ حَقَّ الْفَهْمِ، وَلَمْ يَتَلَقَّ الدِّينَ عَنْ أَئِمَّةِ الْعِلْمِ. فَكَانَ الْمُشْتَبِهُ يَسْأَلُ كِبَارَ الْعُلَمَاءِ فَيُجِيبُونَ بِمَا تَلَقَّوْا عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ إِمْرَارِ النُّصُوصِ وَقَبُولِهَا كَمَا وَرَدَتْ وَتَنْزِيهِ الرَّبِّ تَعَالَىٰ وَاسْتِنْكَارِ السُّؤَالِ فِي صِفَاتِهِ عَنِ الْكَيْفِ.

وَأَخْرَجَ اللَّالِكَائِيُّ فِي السُّنَّةِ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ أَنَّ رَبِيعَةَ شَيْخَ الْإِمَامِ مَالِكٍ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ كَيْفَ اسْتَوَىٰ؟ فَقَالَ: الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَمِنَ اللهِ الرِّسَالَةُ، وَعَلَىٰ الرَّسُولِ الْبَلَاغُ، وَعَلَيْنَا التَّصْدِيقُ، وَأَخْرَجَا أَنَّ مَالِكًا سُئِلَ هَذَا السُّؤَالَ أَيْضًا فَوَجَدَ وَجْدًا شَدِيدًا وَأَخَذَتْهُ الرُّحَضَاءُ، وَلَمَّا سُرِّيَ عَنْهُ قَالَ لِلسَّائِلِ: الْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالِاسْتِوَاءُ مِنْهُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ، وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ ضَالًّا، وَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ. وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ، وَلَا يُقَالُ لَهُ كَيْفَ: " وَكَيْفَ " عَنْهُ مَرْفُوعٌ، وَأَنْتَ رَجُلُ سُوءٍ صَاحِبُ بِدْعَةٍ. اهـ. كَأَنَّهُ عَلِمَ مِنْ حَالِهِ أَنَّهُ مُشَكِّكٌ غَيْرُ مُسْتَفْتٍ لِيَعْلَمَ.

وَذَكَرَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ أَنَّ لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْمَقَامِ مَقَالَاتٍ كَثِيرَةً وَقَالَ: وَإِنَّمَا يَسْلُكُ فِي هَذَا الْمَقَامِ مَذْهَبُ السَّلَفِ الصَّالِحِ. مَالِكٌ، وَالْأَوْزَاعِيُّ، وَالثَّوْرِيُّ، وَاللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ، وَالشَّافِعِيُّ، وَأَحْمَدُ، وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ – وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، وَهُوَ إِمْرَارُهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَشْبِيهٍ وَلَا تَعْطِيلٍ. وَالظَّاهِرُ الْمُتَبَادَرُ إِلَىٰ أَذْهَانِ الْمُشَبِّهِينَ مَنْفِيٌّ عَنِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ لَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِهِ وَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] بَلِ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ الْأَئِمَّةُ مِنْهُمْ نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ الْخُزَاعِيُّ شَيْخُ الْبُخَارِيِّ قَالَ: مَنْ شَبَّهَ اللهَ بِخَلْقِهِ كَفَرَ، وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ. وَلَيْسَ فِيمَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا رَسُولُهُ تَشْبِيهٌ، فَمَنْ أَثْبَتَ مَا وَرَدَتْ بِهِ الْآثَارُ الصَّرِيحَةُ وَالْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ عَلَىٰ الْوَجْهِ الَّذِي يَلِيقُ بِجَلَالِ اللهِ وَنَفَىٰ عَنِ اللهِ النَّقَائِصَ فَقَدْ سَلَكَ سَبِيلَ الْهُدَىٰ اهـ. " .

وقال أيضاً : " ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ عَرْشِهِ الَّذِي جَعَلَهُ مَرْكَزَ التَّدْبِيرِ، لِهَذَا الْمُلْكِ الْكَبِيرِ، اسْتِوَاءً يَلِيقُ بِعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ، وَتَنْزِيهِهِ وَكَمَالِهِ، يُدَبِّرُ أَمْرَ مُلْكِهِ، بِمَا اقْتَضَاهُ عِلْمُهُ مِنَ النِّظَامِ، وَحِكْمَتُهُ مِنَ الْأَحْكَامِ، فَالِاسْتِوَاءُ عَلَىٰ الْعَرْشِ بَعْدَ خَلْقِهِمَا، وَهُوَ مَخْلُوقٌ لَهُ مِنْ قَبْلِهِمَا، شَأْنٌ مِنْ شُئُونِهِ فِيمَا لَا نَعْلَمُ كُنْهَهُ وَلَا صِفَتَهُ مِنْ تَدْبِيرِ هَذَا الْمُلْكِ، وَكُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ، لَا يُدْرِكُ كُنْهَ شُئُونِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ " (١) .

---

(١) انظر : تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) (٨/ ٤٠١-٤٠٣) ، (١١/ ٢٤٢) .

وقال الإمام محمَّد عبد العظيم الزُّرْقاني (١٣٦٧هـ) : " عرفنا أنَّ المتشابهات تجمع ألواناً مختلفة ، ونزيدك هنا أنَّ من بينها لونين كثر الكلام فيهما :

أوَّلهما : فواتح السُّور نحو (آلم) ، (ق) ، (طس) ، وما أشبهها ، وقد أفضنا القول فيها بالمبحث السَّابع من الجزء الأوَّل من هذا الكتاب .

ثانيهما : الآيات المشكلة الواردة في شأن الله تعالىٰ وتسمَّىٰ آيات الصِّفات أو متشابه الصِّفات ، ولابن اللبَّان فيها تصنيف مفرد سمَّاه : " ردُّ المتشابهات إلىٰ الآيات المحكمات " ، مثل قوله سبحانه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥] ، وما أشبهه ، وإنَّما أفرد هذا النَّوع بالذِّكر وبالتَّأليف لأنَّه كثر فيه القيل والقال ، وكان فتنة ارتكس فيها كثير من القدامىٰ والمحدثين ...

وعلماؤنا أجزل الله مثوبتهم قد اتَّفقوا علىٰ ثلاثة أمور تتعلَّق بهذه المتشابهات ثمَّ اختلفوا فيما وراءها.

فأوَّل ما اتَّفقوا عليه صرفها عن ظواهرها المستحيلة ، واعتقاد أنَّ هذه الظَّواهر غير مرادة للشَّارع قطعاً ، كيف وهذه الظَّواهر باطلة بالأدلَّة القاطعة وبما هو معروف عن الشَّارع نفسه في محكماته؟

ثانيه : أنَّه إذا توقَّف الدِّفاع عن الإسلام علىٰ التَّأويل لهذه المتشابهات وجب تأويلها بما يدفع شبهات المشتبهين ويردّ طعن الطَّاعنين.

ثالثه : أنَّ المتشابه إن كان له تأويل واحد يفهم منه فهماً قريباً وجب القول به إجماعاً ، وذلك كقوله سبحانه: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ ﴾ [الحديد:٤] ، فإنَّ الكينونة بالذَّات مع الخلق مستحيلة قطعاً ، وليس لها بعد ذلك إلَّا تأويل واحد هو الكينونة معهم بالإحاطة علماً وسمعاً وبصراً وقدرة وإرادة.

وأمَّا اختلاف العلماء فيما وراء ذلك فقد وقع علىٰ ثلاثة مذاهب:

المذهب الأوَّل : مذهب السَّلف ويسمَّىٰ مذهب المفوِّضة بكسر الواو وتشديدها وهو تفويض معاني هذه المتشابهات إلىٰ الله وحده بعد تنزيهه تعالىٰ عن ظواهرها المستحيلة ، ويستدلُّون علىٰ مذهبهم هذا بدليلين :

أحدهما : عقلي وهو أنَّ تعيين المراد من هذه المتشابهات إنَّما يجري علىٰ قوانين اللغة واستعمالات العرب ، وهي لا تفيد إلَّا الظَّنَّ مع أنَّ صفات الله من العقائد التي لا يكفي فيها الظَّنّ بل لا بدَّ فيها من اليقين ، ولا سبيل إليه فلنتوقَّف ولنكِل التَّعيين إلىٰ العليم الخبير.

والدَّليل الثَّاني : نقلي يعتمدون فيه علىٰ عدَّة أمور ، منها حديث عائشة السَّابق ، وفيه: فإذا رأيت الذين يتَّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمَّىٰ الله فاحذرهم .

ومنها : ما رواه الطَّبراني في الكبير عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " لَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي إِلَّا ثَلَاثَ خِلَالٍ: أَنْ يُكْثَرَ لَهُمْ مِنَ الْمَالِ فَيَتَحَاسَدُوا فَيَقْتَتِلُوا، وَأَنْ يُفْتَحَ لَهُمُ الْكُتُبُ يَأْخُذُ الْمُؤْمِنُ يَبْتَغِي تَأْوِيلَهُ، وَلَيْسَ يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ، وَأَنْ يَرَوْا ذَا عِلْمِهِمْ فَيُضَيِّعُوهُ وَلَا يُبَالُونَ عَلَيْهِ " (١) .

ومنها : ما أخرجه ابن مردويه عن أبيه عن جدِّه عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: " إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ لِيُكَذِّبَ بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَلَكِنْ نَزَلَ لِيُصَدِّقَ بَعْضُهُ بَعْضًا ، فَمَا كَانَ مِنْ مُحْكَمِهِ فَاعْمَلُوا بِهِ ، وَمَا كَانَ مِنْ مُتَشَابِهِهِ فَآمِنُوا بِهِ» (٢) .

ومنها : ما أخرجه الدَّارمي عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ: أَنَّ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ صَبِيغٌ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَجَعَلَ يَسْأَلُ عَنْ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَقَدْ أَعَدَّ لَهُ عَرَاجِينَ النَّخْلِ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا عَبْدُ اللهِ صَبِيغٌ، فَأَخَذَ عُمَرُ عُرْجُونًا مِنْ تِلْكَ الْعَرَاجِينِ، فَضَرَبَهُ وَقَالَ: أَنَا عَبْدُ اللهِ عُمَرُ، «فَجَعَلَ لَهُ ضَرْبًا حَتَّى دَمِيَ رَأْسُهُ،» فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، حَسْبُكَ، قَدْ ذَهَبَ الَّذِي كُنْتُ أَجِدُ فِي رَأْسِي " (٣) ...

قال ابن الصَّلاح على هذه الطَّريقة مضىٰ صدر الأمَّة وساداتها وإيَّاها اختار أئمَّة الفقهاء وقادتها ، وإليها دعا أئمَّة الحديث وأعلامه ، ولا أحد من المتكلِّمين من أصحابنا يصدفُ عنها ويأباها اهـ.

المذهب الثَّاني : مذهب الخلف ويسمَّىٰ مذهب المؤوِّلة بتشديد الواو وكسرها ، وهم فريقان : فريقٌ يؤوِّلها بصفات سمعيَّة غير معلومة علىٰ التَّعيين ثابتة له تعالىٰ زيادة علىٰ صفاته المعلومة لنا بالتَّعيين ، وينسب هذا إلىٰ أبي الحسن الأشعري ، وفريق يؤوِّلها بصفات أو بمعان نعلمها علىٰ التَّعيين ، فيحمل اللفظ الذي استحال ظاهره من هذه المتشابهات علىٰ معنىٰ يسوغ لغة ويليق بالله عقلاً وشرعاً ، وينسب هذا الرَّأي إلىٰ ابن برهان وجماعة من المتأخِّرين ، قال السُّيوطي : وكان إمام الحرمين يذهب إليه ثمَّ رجع عنه ، فقال في " الرِّسالة النِّظاميَّة " : الذي نرتضيه ديناً وندين الله به عقدا اتِّباع سلف الأمَّة ، فإنَّهم درجوا علىٰ ترك التَّعرُّض لمعانيها اهـ.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٣/ ٢٩٣ برقم ٣٤٤٢) .

(٢) أخرجه أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان بن أبي بكر الهيثمي في بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث (٢/ ٧٣٩ برقم ٧٣٥) .

(٣) أخرجه الدارمي (١/ ٢٥٢ برقم ١٤٦) .

أمَّا حجَّة أصحاب هذا المذهب فيما ذهبوا إليه فهو أنَّ المطلوب صرف اللفظ عن مقام الإهمال الذي يوجب الحيْرة بسبب ترك اللفظ لا مفهوم له ، وما دام في الإمكان حمْل كلام الشَّارع على معنىً سليم فالنَّظر قاض بوجوبه انتفاعاً بما ورد عن الحكيم العليم وتنزيهاً له عن أن يجري مجرى العجوز العقيم.

المذهب الثَّالث : مذهب المتوسِّطين ، وقد نقل السُّيوطي هذا المذهب ، فقال : وتوسَّط ابن دقيق العيد ، فقال : إذا كان التَّأويل قريباً من لسان العرب لم ينكر أو بعيداً توقَّفنا عنه وآمنَّا بمعناه على الوجه الذي أريد مع التَّنزيه ، وما كان معناه من هذه الألفاظ ظاهرها مفهوماً من تخاطب العرب قلنا به من غير توقُّف ، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٥٦] فنحمله على حقِّ الله وما يجب له اهـ..

تطبيق وتمثيل:

ولنطبِّق هذه المذاهب على قوله سبحانه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ فنقول : يتفق الجميع من سلف وخلف على أنَّ ظاهر الاستواء على العرش وهو الجلوس عليه مع التَّمكُّن والتَّحيُّز مستحيل ، لأنَّ الأدلَّة القاطعة تنزِّه الله عن أن يشبه خلقه أو يحتاج إلى شيء منه ، سواء أكان مكاناً يحلُّ فيه أم غيره ، وكذلك اتَّفق السَّلف والخلف على أنَّ هذا الظَّاهر غير مراد لله قطعاً ، لأنَّه تعالى نفى عن نفسه المماثلة لخلقه وأثبت لنفسه الغنى عنهم ، فقـــال : ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ ، وقال: ﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [الممتحنة:٦] ، فلو أراد هذا الظَّاهر لكان متناقضاً .

ثمَّ اختلف السَّلف والخلف بعد ما تقدَّم ، فرأى السَّلفيُّون أن يفوِّضوا تعيين معنى الاستواء إلى الله ، هو أعلم بما نسبه إلى نفسه وأعلم بما يليق به ، ولا دليل عندهم على هذا التَّعيين ، ورأى الخلف أن يؤولوا لأنَّه يبعد كلُّ البُعد أن يخاطب الله عباده بما لا يفهمون ، وما دام ميدان اللغة متّسعاً للتَّأويل وجب التَّأويل ، بيْدَ أنَّهم افترقوا في هذا التَّأويل فرقتين : فطائفة الأشاعرة يؤولون من غير تعيين ، ويقولون : إنَّ المراد من الآية إثبات أنَّه تعالى متَّصف بصفة سمعيَّة لا نعلمها على التَّعيين تسمَّى صفة الاستواء ، وطائفة المتأخِّرين يعيِّنون فيقولون : إنَّ المراد بالاستواء هنا هو الاستيلاء والقهر من غير معاناة ولا تكلُّف ، لأنَّ اللغة تتَّسع لهذا المعنى ، ومنه قول الشَّاعر العربي:

قد اسْتَوَى بِشْرٌ على العِرَاقِ   مِن غَيْرِ سَيْفٍ ودم مُهْرَاقِ

أي : استوى وقهر أو دبَّر وحكم ، فكذلك يكون معنى النَّص الكريم : الرَّحمن استولى على عرش العالم ، وحكم العالم بقدرته ودبَّره بمشيئته ، وابن دقيق العيد يقول بهذا التَّأويل إن رآه قريباً ويتوقَّف إن رآه بعيداً ...

إرشاد وتحذير:

لقد أسرف بعض النَّاس في هذا العصر فخاضوا في متشابه الصِّفات بغير حقٍّ ، وأتوا في حديثهم عنها وتعليقهم عليها بما لم يأذن به الله ، ولهم فيها كلمات غامضة تحتمل التَّشبيه والتَّنزيه ، وتحتمل الكفر والإيمان ، حتى باتت هذه الكلمات نفسها من المتشابهات ، ومن المؤسف أنَّهم يواجهون العامَّة وأشباههم بهذا ، ومن المحزن أنَّهم ينسبون ما يقولون إلى سلفنا الصَّالح ، ويخيِّلون إلى النَّاس أنَّهم سلفيُّون ، من ذلك قولهم : إنَّ الله تعالى يُشار إليه بالإشارة الحسيَّة ، وله من الجهات السِّت جهة الفوق ، ويقولون : إنَّه استوى على عرشه بذاته استواء حقيقيَّاً ، بمعنى أنَّه استقرَّ فوقه استقراراً حقيقيَّاً ، غير أنَّهم يعودون فيقولون : ليس كاستقرارنا ، وليس على ما نعرف ، وهكذا يتناولون أمثال هذه الآية وليس لهم مستند فيما نعلم إلَّا التَّشبُّث بالظَّواهر ، ولقد تجلَّى لك مذهب السَّلف والخلف ، فلا نطيل بإعادته ، ولقد علمت أنَّ حمل المتشابهات في الصِّفات على ظواهرها مع القول بأنَّها باقية على حقيقتها ليس رأياً لأحد من المسلمين ، وإنَّما هو رأي لبعض أصحاب الأديان الأخرى كاليهود والنَّصارى وأهل النِّحل الضَّالَّة كالمشبِّهة والمجسِّمة ، أمَّا نحن معاشر المسلمين فالعمدة عندنا في أمور العقائد هي الأدلَّة القطعيَّة التي توافرت على أنَّه تعالى ليس جسماً ولا متحيِّزاً ولا متجزِّئاً ولا متركِّباً ولا محتاجاً لأحد ، ولا إلى مكان ولا إلى زمان ولا نحو ذلك ، ولقد جاء القرآن بهذا في محكماته إذ يقول: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾، ويقول: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ * وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾، ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾ [الزمر:٧] ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر١٥] ، وغير هذا كثير في الكتاب والسُّنَّة ، فكلُّ ما جاء مخالفاً بظاهره لتلك القطعيَّات والمحكمات فهو من المتشابهات التي لا يجوز اتِّباعها كما تبيَّن لك فيما سلف.

ثمَّ إنَّ هؤلاء المتحمِّسين في السَّلف متناقضون ، لأنَّهم يثبتون تلك المتشابهات على حقائقها ، ولا ريب أنَّ حقائقها تستلزم الحدوث وأعراض الحدوث ، كالجسميَّة والتَّجزُّؤ والحركة والانتقال ، لكنَّهم بعد أن يثبتوا تلك المتشابهات على حقائقها ينفون هذه اللوازم ، مع أنَّ القول بثبوت الملزومات ونفي لوازمها تناقض لا يرضاه لنفسه عاقل فضلاً عن طالب أو عالم ، فقولهم في مسألة الاستواء الآنفة : إنَّ الاستواء باق على حقيقته ، يفيد أنَّه الجلوس المعروف المستلزم للجسميَّة والتَّحيُّز ، وقولهم بعد ذلك ليس هذا الاستواء على ما نعرف ، يفيد أنَّه ليس الجلوس المعروف المستلزم للجسميَّة والتَّحيُّز ، فكأنَّهم يقولون : إنَّه مستو غير مستو ، ومستقرٌّ فوق العرش غير مستقر ، أو متحيِّز غير متحيِّز ، وجسم غير جسم ، أو أنَّ الاستواء على العرش ليس هو الاستواء على العرش ، والاستقرار فوقه ليس هو الاستقرار فوقه ، إلى غير ذلك من

الإسفاف والتَّهافت ، فإن أرادوا بقولهم : الاستواء علىٰ حقيقته أنَّه علىٰ حقيقته التي يعلمها الله ولا نعلمها نحن ، فقد اتَّفقنا ، لكن بقي أنَّ تعبيرهم هذا موهمٌ لا يجوز أن يصدر من مؤمن ، خصوصاً في مقام التَّعليم والإرشاد ، وفي موقف النِّقاش والحجَاج ، لأنَّ القول بأنَّ اللفظ حقيقة أو مجاز لا ينظر فيه إلىٰ علم الله وما هو عنده ولكن ينظر فيه إلىٰ المعنىٰ الذي وضع له اللفظ في عرف اللغة ، والاستواء في اللغة العربيَّة يدلُّ علىٰ ما هو مستحيل علىٰ الله في ظاهره ، فلا بدَّ إذن من صرفه عن هذا الظَّاهر ، واللفظ إذا صُرف عمَّا وُضع له واستعمل في غير ما وضع له خرج عن الحقيقة إلىٰ المجاز لا محالة ما دامت هناك قرينة مانعة من إرادة المعنىٰ الأصلي ، ثمَّ إنَّ كلامهم بهذه الصُّورة فيه تلبيس علىٰ العامَّة وفتنة لهم ، فكيف يواجهونهم به ويحملونهم عليه ؟!! وفي ذلك ما فيه من الإضلال وتمزيق وحدة الأمَّة ، الأمر الذي نهانا القرآن عنه ، والذي جعل عمر يفعل ما يفعل بصبغ أو بابن صبيغ ، وجعل مالكاً يقول ما يقول ويفعل ما يفعل بالذي سأله عن الاستواء ، وقد مرَّ بك هذا وذاك.

لو أنصف هؤلاء لسكتوا عن الآيات والأخبار المتشابهة ، واكتفوا بتنزيه الله تعالىٰ عمَّا تُوهمه ظواهرها من الحدوث ولوازمه ، ثمَّ فوَّضوا الأمر في تعيين معانيها إلىٰ الله وحده ، وبذلك يكونوا سلفيِّين حقاً ، لكنَّها شُبهات عرضت لهم في هذا المقام فشوَّشت حالهم وبلبلت أفكارهم ... " (١) .

وقَالَ الإمام محمَّد زاهد بن حسن الحلمي الكوثري (١٣٧١هـ) : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] : ومن أنكر أَنَّ الرَّحمن علىٰ الۡعَرۡش اسۡتَوَىٰ ، فقد أنكر آيَة من الذِّكر الحَكِيم ، فيكفر ، لَكِن الاسۡتوَاء الثَّابِت لَهُ جلَّ جلاله ، اسۡتِوَاء يَلِيق بجلاله علىٰ مُرَاد الله ، و مرَاد رَسُوله من غير خوض فِي الۡمَعۡنىٰ ، كَمَا هُوَ مَسۡلَك السَّلف ، مِنۡهُم ابۡن مهۡدي ، ومسلك الۡخلف الۡحمل علىٰ الۡملك وَنَحۡوه علىٰ مُقۡتَضىٰ اللُّغَة ، وَلَيۡسَ فِي ذَلِك إِنۡكَار الۡآيَة ، فحاشاهم من ذَلِك ، وَأمَّا حمله علىٰ الۡجُلُوس والاستقرار فَهُوَ الزَّيغ الۡمُبين " (٢) .

أقول : وقد قام العابثون بطبع كتاب " الأسماء والصِّفات " للبيهقي عدَّة طبعات ، وحذفوا تعليقات الإمام الكوثري منها جميعاً ، فتبَّاً لهم ...

وقال الإمام الكوثري أيضاً : " ... ويقال لهذا المتعلِّم بل لو كان (استوىٰ) بمعنىٰ (جلس) لأتىٰ لفظ (جلس) في أحد المواضع السَّبعة .

---

(١) انظر : مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/ ٢٨٦-٢٩٣ ببعض الاختصار) .

(٢) انظر : هامش الأسماء والصفات للبيهقي (ص٣٢٠) .

وممَّا يقصر المسافة في الرَّدِّ علىٰ الحشويَّة التي تدَّعي التَّمسُّك بالظَّاهر أنَّ قوله تعالىٰ : ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [الأعراف: ٥٣] صيغة فعل مقرونة بما يدلُّ علىٰ التَّراخي ، وذلك يدلُّ علىٰ أنَّ الاستواء فعلٌ له تعالىٰ متقيِّد بالزَّمن وبالتَّراخي شأن سائر الأفعال ، وعدّ ذلك صفة إخراج للكلام عن ظاهره ، وهذا ظاهر جداً ، ولم يرد (المستوي) في عِداد أسماء، الله الحسنىٰ لا في الكتاب ولا في السُّنَّة حتىٰ يصحّ إطلاقه علىٰ الذَّات العليَّة علىٰ أن يكون صفة أو علماً . وقد أجمعت الأمَّة علىٰ أنَّ الله تعالىٰ لا تحدُث له صفة ، فلا مجال لعدِّ ذلك صفة ، وقد ذكرت وجه حسن الاستعارة التَّمثيليَّة في الآية (في لفت اللحظ إلىٰ ما في الاختلاف في اللفظ) (١) ، ولعلَّ القارئ المنصف يكاد يعد ذلك متعيناً ، ولا حاجة إلىٰ إعادة من هناك ، فليراجع ثمت " (٢) .

وقال الإمام أحمد بن مصطفىٰ المراغي (١٣٧١هـ) : " والعرش لغة : كلُّ شيء له سقف ، ويطلق علىٰ هودج للمرأة يشبه عريش الكرم، وعلىٰ سرير الملك وكرسيه في مجلس الحكم والتَّدبير، والاستواء لغة: استقامة الشَّيء واعتداله، واستوىٰ الملك علىٰ عرشه أي ملك، وثلّ عرشه أي هلك ... ،﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ [الأعراف:٥٤] أي : إنَّه تعالىٰ قد استوىٰ علىٰ عرشه بعد تكوين هذا الملك يدبِّر أمره ويصرِّف نظامه بحسب تقديره الذي اقتضته حكمته.

وفي معنىٰ الآية قوله في سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ﴾ [يونس:٣] .

واستواؤه تعالىٰ علىٰ العرش: هو استقامة أمر السَّموات والأرض وانفراده بتدبيرهما، والإيمان بذلك غير موقوف علىٰ معرفة حقيقة ذلك التَّدبير ولا معرفة صفته ولا كيف يكون، فالصَّحابة رضوان الله عليهم والأئمَّة من بعدهم لم يشتبه أحد منهم فيه، وقد أثر عن ربيعة شيخ الإمام مالك أنَّه سئل عن قوله: ﴿ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ كيف استوىٰ؟ فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرِّسالة، وعلىٰ الرَّسول البلاغ، وعلينا التَّصديق.

وقال الحافظ ابن كثير: مذهب السَّلف الصَّالح مالك والأوزاعي والثَّوري واللّيث ابن سعد والشَّافعي وأحمد وإسحق بن راهويه وغيرهم من أئمَّة المسلمين قديماً وحديثاً إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه.

---

(١) المقصود هنا : ما دبَّجه يراع الإمام الكوثري من نفائس ودرر في مقدمته وتحقيقه وتعليقه علىٰ كتاب : " إختلاف في اللفظ والرد علىٰ الجهمية والمشبهة " للإمام أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة .

(٢) انظر : تكملة الرَّد علىٰ نونية ابن القيم (ص٩٧-٩٨ هامش كتاب السيف الصقيل للسبكي) .

وقال نعيم بن حماد شيخ البخاري: من شبّه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله- تشبيه، فمن أثبت ما وردت به الآثار الصَّريحة والأخبار الصَّحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله ونفى عن الله النَّقائص فقد سلك سبيل الهدى اهـ. (١) .

وقال الإمام محمَّد بن عبد الرزَّاق كُرْد عَلي (١٣٧٢هـ) : " ... والحاصل أنَّ كلاً من هذين الإمامين الجليلين أبي الحسن وأبي منصور لم يبدعان من عندهما رأيًا ولم يشتقَّا مذهباً إنَّما هما مقرِّران لمذاهب السَّلف مناضلان عمَّا كان عليه أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . أحدهما قام بنصرة مذهب الشَّافعي وما دلَّ عليه ، والثَّاني قام بنصرة مذهب أبي حنيفة وما دلَّ عليه . وناظر كلٌّ منهما ذوي البدع والضَّلالات حتى انقطعوا . وممَّا ينبغي أن يعلم أنَّه ليس بين هاتين الطَّائفتين اختلاف في أصول الدِّين، وإنَّما اختلفوا في بعض مسائل متفرِّعة عن الأصول لا تستلزم تضليلاً ولا تفسيقاً.

ثمَّ أنَّ عقائد أهل السُّنَّة والجماعة تنحصر في أربعة أركان هي مبنى الإيمان: إلهيَّات والصفات والأفعال والسَّمعيات.

الرُّكن الأوَّل : فيما يجب لله تعالى وما يجوز وما يستحيل العالم بجميع أجزاءه حادث وجد بعد أن لم يكن، وهو قابل للفناء وله صانع واجب الوجود لذاته ممتنع العدم بالنَّظر لذاته، واحد لا شريك ولا مثيل له في ذاته وصفاته وأفعاله، قديم لا بداية له، أبدي لا نهاية له، متَّصف بصفات الكمال، منزَّه عن سمات النَّقص، ليس بجسم ولا جوهر ولا عَرَض، ولا تحلُّه الجواهر ولا الأعراض، ولا يحلُّ في غيره ولا يتَّحد بغيره، ولا يقوم بذاته حادث، منزَّه عن التَّحوُّل والانتقال، استوى على العرش على الوجه الذي عناه بالمعنى الذي أراده، استواء يليق بجلال ذاته، وهو فوق سماواته فوق عرشه، مباين لخلقة لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بقدرته، ومع ذلك فهو قريب من كلِّ موجود بل هو أقرب إلينا من حبل الوريد " (٢) .

وقال الإمام عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد ١٣٩٠هـ) : " وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾... اختلف المفسِّرون في العرش وفى صفته، وفى وظيفته ... كما اختلفوا في الاستواء ... ما هو؟ وكيف يتصوَّر؟

أمَّا العرش، فقد ذكر في القرآن أكثر من مرَّة ... مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ [٧: هود] .

---

(١) انظر : تفسير المراغي (٨/ ١٦٨-١٧٣ باختصار) .

(٢) انظر : خطط الشام (٦/ ٢٤١-٢٤٢) .

فالعرش هنا موجود قبل خلق السَّموات والأرض، فكيف يجيء في الآية السَّابقة معطوفاً على خلق السَّموات والأرض بحرف العطف «ثمَّ» ؟

جاء ذكر العرش في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [٨٦: المؤمنون] ، وفي قوله سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر:٧٥] ، وفي قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج١٥-١٦] .

فالعرش إذن كون من هذه الأكوان التي خلقها الله سبحانه، كما خلق السَّموات والأرض وغيرهما ... إنَّه مربوب لربِّ الأرباب.

ولكن ما صفة هذا العرش؟ وما وظيفته؟

جاء في قوله تعالى عن عرش ملكة سبأ: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل:٣٨] ، وجاء في قوله سبحانه: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ﴾ [النمل:٤٢] .

فالعرش هنا هو مقصورة الملكة، أو مجلس الملك، حيث تتَّخذ منه الملكة مجلسا تتولّى فيه إدارة ملكها، هي وأعوانها ... فهل العرش الذي خلقه الله هو شيء من هذا القبيل، على بعد بعيد، فيما هو لله، وفيما هو لعباد الله؟

ليس ببعيد أن يكون لهذا الوجود فلك يدور فيه، وأن يكون لهذا الفلك مركز، وأن يكون العرش هو مركز هذا الوجود، وهي جميعها من خلق الله، وفي يد القدرة القادرة..

بقي معنى استواء الله على العرش..

وهذا أمر يتعلَّق بذات الله، فكما لا يمكن تصوُّر ذاته، لا يمكن تصور أفعاله ... وقد سئل الإمام مالك رضى عنه- عن معنى الاستواء، فقال قولته المشهورة: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسُّؤال عنه بدعة» ... " .

وقال أيضاً : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي بسط سلطانه على هذا الوجود " .

وقال أيضاً : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ [الفرقان:٥٩] .

الاستواء على العرش، هو القيام على هذا الوجود، والاستيلاء على مركز القوَّة والسُّلطان فيه. فلا تخرج ذرَّة من ذرَّات هذا الوجود عن سلطان الله، وعن علم الله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]

وقال أيضاً : " وفي قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ ما يسأل عنه: ألم يكن الله سبحانه وتعالىٰ عرش يستوىٰ عليه قبل أن يخلق السموات والأرض؟ ألم يكن هناك سلطان لله قبل أن يخلق ما خلق؟.

ومع أنَّ هذا التَّساؤل لا محلَّ له، لأنَّه ممَّا يتعلَّق بذات الله، وممَّا لا تناله العقول، ولا تدركه الأفهام ... فالسُّؤال شطط، والجواب عنه إمعان في هذا الشَّطط- مع هذا، فإنَّنا لكي نرضى هذا التَّطلُّع والفضول منَّا، نقول: إنَّ سلطان الله قائم أبداً، وجد هذا الوجود أم لم يوجد ... فالعلم، والقدرة، والحكمة، والسَّمع، والبصر، وغير ذلك من صفات الله، هي صفات أزليَّة قائمة بالذَّات، سواء ظهرت آثارها أو لم تظهر ... وهذا ما يشير إليه قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠] .. فهداية الله للمخلوقات قائمة قبل الخلق، ولكنَّها تتجلَّىٰ حين يظهر المخلوق، ويأخذ الانجاه الذي توجّهه قدرة الله، وعلمه، وحكمته إليه ...

ومثله قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الروم:٤٠] .

فهذا الخلق، ثمَّ الرِّزق، ثمَّ الإماتة، ثمَّ الإحياء، كلّها واقعة في علم الله، مقدورة لقدرته، ولكنَّها تتجلَّىٰ في كلِّ مخلوق، حالاً بعد حال، وزمناً بعد زمن، حسب علم الله وتقديره.

واستواء الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ العرش، هو تجلِّيه سبحانه علىٰ هذه المخلوقات التي خلقها، وإجراؤها علىٰ النِّظام الذي قدره لها ... " (١) .

وقال الإمام محمَّد الأمين الشَّنقيطي (١٣٩٣هـ) : " قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ الْآيَةَ.

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ وَأَمْثَالُهَا مِنْ آيَاتِ الصِّفَاتِ ... أَشْكَلَتْ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ إِشْكَالًا ضَلَّ بِسَبَبِهِ خَلْقٌ لَا يُحْصَىٰ كَثْرَةً، فَصَارَ قَوْمٌ إِلَىٰ التَّعْطِيلِ وَقَوْمٌ إِلَىٰ التَّشْبِيهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عُلُوًّا كَبِيرًا عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا أَوْضَحَ هَذَا غَايَةَ الْإِيضَاحِ، وَلَمْ يَتْرُكْ فِيهِ أَيَّ لَبْسٍ وَلَا إِشْكَالٍ، وَحَاصِلُ تَحْرِيرِ ذَلِكَ أَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا بَيَّنَ أَنَّ الْحَقَّ فِي آيَاتِ الصِّفَاتِ مُتَرَكِّبٌ مِنْ أَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: تَنْزِيهُ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا عَنْ مُشَابَهَةِ الْحَوَادِثِ فِي صِفَاتِهِمْ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَالثَّانِي: الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ، أَوْ وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَصِفُ اللَّهَ أَعْلَمُ بِاللَّهِ مِنَ اللَّهِ: ﴿ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة:١٤٠] ، وَلَا يَصِفُ اللَّهَ بَعْدَ اللَّهِ أَعْلَمُ بِاللَّهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الَّذِي قَالَ فِيهِ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ * إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤] فَمَنْ نَفَىٰ

---

(١) انظر : التفسير القرآني للقرآن (٤/ ٤١٢-٤١٣) ، (٧/ ٦٦) ، (١٠/ ٥٠) ، (١١/ ٦٠٥-٦٠٦) .

عَنِ اللهَّ وَصْفًا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، أَوْ أَثْبَتَهُ لَهُ رَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَاعِمًا أَنَّ ذَلِكَ الْوَصْفَ يَلْزَمُهُ مَا لَا يَلِيقُ بِاللهَّ جَلَّ وَعَلَا، فَقَدْ جَعَلَ نَفْسَهُ أَعْلَمَ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ بِمَا يَلِيقُ بِاللهَّ جَلَّ وَعَلَا. سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ.

وَمَنِ اعْتَقَدَ أَنَّ وَصْفَ اللهَّ يُشَابِهُ صِفَاتِ الْخَلْقِ، فَهُوَ مُشَبِّهٌ مُلْحِدٌ ضَالٌّ، وَمَنْ أَثْبَتَ للهَّ مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ أَوْ أَثْبَتَهُ لَهُ رَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ تَنْزِيهِهِ جَلَّ وَعَلَا عَنْ مُشَابَهَةِ الْخَلْقِ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ جَامِعٌ بَيْنَ الْإِيمَانِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَالْجَلَالِ، وَالتَّنْزِيهِ عَنْ مُشَابَهَةِ الْخَلْقِ، سَالِمٌ مِنْ وَرْطَةِ التَّشْبِيهِ وَالتَّعْطِيلِ، وَالْآيَةُ الَّتِي أَوْضَحَ اللهُّ بِهَا هَذَا. هِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ فَنَفَى عَنْ نَفْسِهِ جَلَّ وَعَلَا مُمَاثَلَةَ الْحَوَادِثِ بِقَوْلِهِ: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَأَثْبَتَ لِنَفْسِهِ صِفَاتِ الْكَمَالِ وَالْجَلَالِ بِقَوْلِهِ: وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ فَصَرَّحَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِنَفْيِ الْمُمَاثَلَةِ مَعَ الْإِتِّصَافِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَالْجَلَالِ.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ السِّرَّ فِي تَعْبِيرِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ دُونَ أَنْ يَقُولَ مَثَلًا: وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ الْجَامِعَةِ ؛ أَنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ يَتَّصِفُ بِهِمَا جَمِيعُ الْحَيَوَانَاتِ، فَبَيَّنَ أَنَّ اللهَّ مُتَّصِفٌ بِهِمَا، وَلَكِنَّ وَصْفَهُ بِهِمَا عَلَى أَسَاسِ نَفْيِ الْمُمَاثَلَةِ بَيْنَ وَصْفِهِ تَعَالَى، وَبَيْنَ صِفَاتِ خَلْقِهِ، وَلِذَا جَاءَ بِقَوْلِهِ: وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ إِيضَاحٌ لِلْحَقِّ فِي آيَاتِ الصِّفَاتِ لَا لَبْسَ مَعَهُ وَلَا شُبْهَةَ الْبَتَّةَ، وَسَنُوضِّحُ إِنْ شَاءَ اللهُّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ إِيضَاحًا تَامًّا بِحَسْبِ طَاقَتِنَا، وَبِاللهَّ جَلَّ وَعَلَا التَّوْفِيقُ ...

وَالْمَقْصُودُ عِنْدَنَا ذِكْرُ أَمْثِلَةٍ كَثِيرَةٍ مِنْ ذَلِكَ، مَعَ إِيضَاحِ أَنَّ كُلَّ مَا اتَّصَفَ بِهِ جَلَّ وَعَلَا مِنْ تِلْكَ الصِّفَاتِ بَالِغٌ مِنْ غَايَاتِ الْكَمَالِ وَالْعُلُوِّ وَالشَّرَفِ مَا يَقْطَعُ عَلَائِقَ جَمِيعِ أَوْهَامِ الْمُشَابَهَةِ بَيْنَ صِفَاتِهِ جَلَّ وَعَلَا، وَبَيْنَ صِفَاتِ خَلْقِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

فَإِذَا حَقَّقْتَ كُلَّ ذَلِكَ عَلِمْتَ أَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِالِاسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ، وَوَصَفَ غَيْرَهُ بِالِاسْتِوَاءِ عَلَى بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَتَمَدَّحَ جَلَّ وَعَلَا فِي سَبْعِ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِهِ بِاسْتِوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ، وَلَمْ يَذْكُرْ صِفَةَ الِاسْتِوَاءِ إِلَّا مَقْرُونَةً بِغَيْرِهَا مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَالْجَلَالِ ؛ الْقَاضِيَةِ بِعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ جَلَّ وَعَلَا، وَأَنَّهُ الرَّبُّ وَحْدَهُ، الْمُسْتَحِقُّ لِأَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ ...

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا فِي وَصْفِ الْحَادِثِ بِالِاسْتِوَاءِ عَلَى بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ الْآيَةَ [الزخرف:١٣] ،﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ﴾الآية [المؤمنون:٢٨] ، ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ الْآيَةَ [هود:٤٤] ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَقَدْ عَلِمْتَ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّهُ لَا إِشْكَالَ فِي ذَلِكَ، وَأَنَّ لِلْخَالِقِ جَلَّ وَعَلَا اسْتِوَاءً لَائِقًا بِكَمَالِهِ وَجَلَالِهِ، وَلِلْمَخْلُوقِ أَيْضًا اسْتِوَاءً مُنَاسِبًا لِحَالِهِ، وَبَيْنَ اسْتِوَاءِ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ مِنَ الْمُنَافَاةِ مَا بَيْنَ ذَاتِ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ ؛ عَلَىٰ نَحْوِ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ، كَمَا تَقَدَّمَ إِيضَاحُهُ.

وَيَنْبَغِي لِلنَّاظِرِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ التَّأَمُّلُ فِي أُمُورٍ:

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: أَنَّ جَمِيعَ الصِّفَاتِ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ، لِأَنَّ الْمَوْصُوفَ بِهَا وَاحِدٌ، وَلَا يَجُوزُ فِي حَقِّهِ مُشَابَهَةُ الْحَوَادِثِ فِي شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِمْ، فَمَنْ أَثْبَتَ مَثَلًا أَنَّهُ: سَمِيعٌ بَصِيرٌ، وَسَمْعُهُ وَبَصَرُهُ مُخَالِفَانِ لِأَسْمَاعِ الْحَوَادِثِ وَأَبْصَارِهِمْ، لَزِمَهُ مِثْلُ ذَلِكَ فِي جَمِيعِ الصِّفَاتِ ؛ كَالِاسْتِوَاءِ، وَالْيَدِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِهِ جَلَّ وَعَلَا، وَلَا يُمْكِنُ الْفَرْقُ بَيْنَ ذَلِكَ بِحَالٍ.

الْأَمْرُ الثَّانِي: أَنَّ الذَّاتَ وَالصِّفَاتِ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ أَيْضًا، فَكَمَا أَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا، لَهُ ذَاتٌ مُخَالِفَةٌ لِجَمِيعِ ذَوَاتِ الْخَلْقِ، فَلَهُ تَعَالَىٰ صِفَاتٌ مُخَالِفَةٌ لِجَمِيعِ صِفَاتِ الْخَلْقِ.

الْأَمْرُ الثَّالِثُ: فِي تَحْقِيقِ الْمَقَامِ فِي الظَّاهِرِ الْمُتَبَادِرِ السَّابِقِ إِلَىٰ الْفَهْمِ مِنْ آيَاتِ الصِّفَاتِ ؛ كَالِاسْتِوَاءِ وَالْيَدِ مَثَلًا.

اعْلَمْ أَوَّلًا: أَنَّهُ غَلِطَ فِي هَذَا خَلْقٌ لَا يُحْصَىٰ كَثْرَةً مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ، فَزَعَمُوا أَنَّ الظَّاهِرَ الْمُتَبَادِرَ السَّابِقَ إِلَىٰ الْفَهْمِ مِنْ مَعْنَىٰ الِاسْتِوَاءِ وَالْيَدِ مَثَلًا فِي الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ - هُوَ مُشَابَهَةُ صِفَاتِ الْحَوَادِثِ، وَقَالُوا: يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَصْرِفَهُ عَنْ ظَاهِرِهِ إِجْمَاعًا ؛ لِأَنَّ اعْتِقَادَ ظَاهِرِهِ كُفْرٌ ؛ لِأَنَّ مَنْ شَبَّهَ الْخَالِقَ بِالْمَخْلُوقِ فَهُوَ كَافِرٌ، وَلَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ أَدْنَىٰ عَاقِلٍ أَنَّ حَقِيقَةَ مَعْنَىٰ هَذَا الْقَوْلِ: أَنَّ اللهَ وَصَفَ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ بِمَا ظَاهِرُهُ الْمُتَبَادِرُ مِنْهُ السَّابِقُ إِلَىٰ الْفَهْمِ الْكُفْرُ بِاللهِ وَالْقَوْلُ فِيهِ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَالنَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي قِيلَ لَهُ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤] ، لَمْ يُبَيِّنْ حَرْفًا وَاحِدًا مِنْ ذَلِكَ مَعَ إِجْمَاعِ مَنْ يُعْتَدُّ بِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ، عَلَىٰ أَنَّهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا يَجُوزُ فِي حَقِّهِ تَأْخِيرُ الْبَيَانِ عَنْ وَقْتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَأَحْرَىٰ فِي الْعَقَائِدِ وَلَا سِيَّمَا مَا ظَاهِرُهُ الْمُتَبَادِرُ مِنْهُ الْكُفْرُ وَالضَّلَالُ الْمُبِينُ، حَتَّىٰ جَاءَ هَؤُلَاءِ الْجَهَلَةُ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ، فَزَعَمُوا أَنَّ اللهَ أَطْلَقَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الْوَصْفَ بِمَا ظَاهِرُهُ الْمُتَبَادِرُ مِنْهُ لَا يَلِيقُ، وَالنَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَتَمَ أَنَّ ذَلِكَ الظَّاهِرَ الْمُتَبَادِرَ كُفْرٌ وَضَلَالٌ يَجِبُ صَرْفُ اللَّفْظِ عَنْهُ، وَكُلُّ هَذَا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ غَيْرِ اعْتِمَادٍ عَلَىٰ كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ، سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ.

وَلَا يَخْفَىٰ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ مِنْ أَكْبَرِ الضَّلَالِ وَمِنْ أَعْظَمِ الِافْتِرَاءِ عَلَىٰ اللهِ جَلَّ وَعَلَا وَرَسُولِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْحَقُّ الَّذِي لَا يَشُكُّ فِيهِ أَدْنَىٰ عَاقِلٍ أَنَّ كُلَّ وَصْفٍ وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ، أَوْ وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ صَلَّىٰ

اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَظَاهِرُهُ الْمُتَبَادِرُ مِنْهُ السَّابِقُ إِلَى فَهْمِ مَنْ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الْإِيمَانِ، هُوَ التَّنْزِيهُ التَّامُّ عَنْ مُشَابَهَةِ شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْحَوَادِثِ.

فبمجرَّد إضافة الصفة إليه، جل وعلا، يتبادر إلى الفهم أنَّه لا مناسبة بين تلك الصِّفة الموصوف بها الخالق، وبين شيء من صفات المخلوقين، وهل ينكر عاقل، أنَّ السَّابق إلى الْفَهْم الْمُتبادِر لِكُلِّ عَاقِلٍ: هُوَ مُنَافَاةُ الْخَالِقِ لِلْمَخْلُوقِ فِي ذَاتِهِ، وَجَمِيعِ صِفَاتِهِ، لَا وَاللهِ لَا يُنْكِرُ ذَلِكَ إِلَّا مُكَابِرٌ .

وَالْجَاهِلُ الْمُفْتَرِي الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّ ظَاهِرَ آيَاتِ الصِّفَاتِ لَا يَلِيقُ بِاللهِ لِأَنَّهُ كُفْرٌ وَتَشْبِيهٌ – إِنَّمَا جَرَّ إِلَيْهِ ذَلِكَ تَنْجِيسُ قَلْبِهِ، بِقَذَرِ التَّشْبِيهِ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ، فَأَدَّاهُ شُؤْمُ التَّشْبِيهِ إِلَى نَفْيِ صِفَاتِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَعَدَمِ الْإِيمَانِ بِهَا، مَعَ أَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا، هُوَ الَّذِي وَصَفَ بِهَا نَفْسَهُ، فَكَانَ هَذَا الْجَاهِلُ مُشَبِّهًا أَوَّلًا، وَمُعَطِّلًا ثَانِيًا، فَارْتَكَبَ مَا لَا يَلِيقُ بِاللهِ ابْتِدَاءً وَانْتِهَاءً، وَلَوْ كَانَ قَلْبُهُ عَارِفًا بِاللهِ كَمَا يَنْبَغِي، مُعَظِّمًا للهِ كَمَا يَنْبَغِي، طَاهِرًا مِنْ أَقْذَارِ التَّشْبِيهِ – لَكَانَ الْمُتَبَادِرُ عِنْدَهُ السَّابِقُ إِلَى فَهْمِهِ: أَنَّ وَصْفَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، بَالِغٌ مِنَ الْكَمَالِ، وَالْجَلَالِ مَا يَقْطَعُ أَوْهَامَ عَلَائِقِ الْمُشَابَهَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، فَيَكُونُ قَلْبُهُ مُسْتَعِدًّا لِلْإِيمَانِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَالْجَلَالِ الثَّابِتَةِ للهِ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ، مَعَ التَّنْزِيهِ التَّامِّ عَنْ مُشَابَهَةِ صِفَاتِ الْخَلْقِ عَلَى نَحْوِ قَوْلِهِ: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، فَلَوْ قَالَ مُتَنَطِّعٌ: بَيِّنُوا لَنَا كَيْفِيَّةَ الِاتِّصَافِ بِصِفَةِ الِاسْتِوَاءِ وَالْيَدِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ لِنَعْقِلَهَا، قُلْنَا: أَعَرَفْتَ كَيْفِيَّةَ الذَّاتِ الْمُقَدَّسَةِ الْمُتَّصِفَةِ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ؟

فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: لَا، فَنَقُولُ: مَعْرِفَةُ كَيْفِيَّةِ الِاتِّصَافِ بِالصِّفَاتِ مُتَوَقِّفَةٌ عَلَى مَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ الذَّاتِ، فَسُبْحَانَ مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ غَيْرُهُ أَنْ يُحْصِيَ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ هُوَ، كَمَا أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠] ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ، ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ، ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤] .

فَتَحَصَّلَ مِنْ جَمِيعِ هَذَا الْبَحْثِ أَنَّ الصِّفَاتِ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ، وَأَنَّ الْحَقَّ فِيهَا مُتَرَكِّبٌ مِنْ أَمْرَيْنِ:

الْأَوَّلُ: تَنْزِيهُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا عَنْ مُشَابَهَةِ الْخَلْقِ.

وَالثَّانِي: الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، أَوْ وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِثْبَاتًا، أَوْ نَفْيًا ؛ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، وَالسَّلَفُ الصَّالِحُ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَشُكُّونَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا كَانَ يَشْكُلُ عَلَيْهِمْ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ الْفَرَزْدَقِ وَهُوَ شَاعِرٌ فَقَطْ، وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ الْعِلْمِ، فَهُوَ عَامِّيٌّ :

وَكَيْفَ أَخَافُ النَّاسَ وَاللهُ قَابِضٌ ... عَلَى النَّاسِ وَالسَّبْعَيْنِ فِي رَاحَةِ الْيَدِ

وَمُرَادُهُ بِالسَّبْعَيْنِ: سَبْعُ سَمَاوَاتٍ، وَسَبْعُ أَرْضِينَ. فَمَنْ عَلِمَ مِثْلَ هَذَا مِنْ كَوْنِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ فِي يَدِهِ جَلَّ وَعَلَا أَصْغَرَ مِنْ حَبَّةِ خَرْدَلٍ، فَإِنَّهُ عَالِمٌ بِعَظَمَةِ اللهِ وَجَلَالِهِ لَا يَسْبِقُ إِلَى ذِهْنِهِ مُشَابَهَةُ صِفَاتِهِ لِصِفَاتِ الْخَلْقِ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ زَالَ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنَ الْإِشْكَالَاتِ الَّتِي أَشْكَلَتْ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ " (١) .

وقال الإمام أبو زهرة (١٣٩٤هـ) : " العرش: يُطلق على كُرسيِّ الحكم كما في قوله تعالى: ﴿ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل:٤١] . وما قال تعالى عن يوسف – عليه السَّلام: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف:١٠٠] . واستوى بمعنى استقرَّ ، والعلو على هذا العرش.

ويقول علماء الكلام: إنَّ للعلماء في مثل هذا النَّصِّ السَّامي ﴿ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ منهاجين: أحدهما يفسِّر، فيقول: إنَّ معنى استوى استولى على عرش هذا الوجود، وصار له السُّلطان الكامل فيه، لأنَّه مالك كلّ شيء، ولا شيء لغيره فيه، فهو المالك وحده. والثَّاني يفوّض، فيقول: إنَّ الله ذكر أنَّه استوى على العرش، فنؤمن بذلك ولكن لَا نحاول أن نبحث عن مدى هذا المعنى ...

وإنَّه ليبدو لنا غير مفتاتين، ولا مدَّعين، أنَّ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تعبير مجازي، قصد به استيلاء الله تعالى على حكم هذا الذي خلقه فهو تشبيه سلطان الله تعالى فيما خلق من السَّماوات والأرض وما بينهما وتدبيره لهما، وتسييره أمرهما – بمن يستوي على عرش ملك يدبِّره ويسيِّر أمره، ولله – سبحانه وتعالى – المثل الأعلى في السَّماوات والأرض " .

وقال أيضاً : " ... والمعنى استولى على السُّلطان والعرش كناية عن كمال السُّلطان ، فهو صاحب الملك قد استوى على كرسي مُلكه الذي خلقه وأنشأه على غير مثال سبق، وأنَّه يدبِّر شئون ذلك الكون الذي أبدعه " .

وقال أيضاً : " ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ (ثُمَّ) هنا لبيان مراتب الخلق في ستَّة أيَّام، أي أدوار كما مضى القول في ذلك في سورة الأعراف، فإنَّه بعد أدوار الخلق التي تمَّت بإرادة اللهَّ تعالى، والاستواء على العرش كمال سلطانه في الكون، كما يستوي الملك العادل على عرش ملكه، ولله المثل الأعلى، وما مثلنا إلَّا للتَّقريب، فلا مساواة، تعالى اللهَّ عن ذلك علوّاً كبيراً " (٢) .

---

(١) انظر : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢/ ١٨-٣٢ باختصار) .

(٢) انظر : زهرة التفاسير (٦:٢٨٦٣-٢٨٦٤) ، (٧/ ٣٥١٢) ، (٧/ ٣٨٩١) ، بالترتيب .

وقال الإمام عبد القادر بن ملّا حويش السيِّد محمود آل غازي العاني (١٣٩٨هـ) : " والمراد بالاستواء : الاستيلاء ، وعليه قوله :

قد اسْتَوَىٰ بِشْرٌ علىٰ العِرَاقِ   مِن غَيْرِ سَيْفٍ ودم مُهْرَاقِ

لأنَّ الاستواء بمعناه المعروف محال علىٰ الله تعالىٰ ، وهذه من آيات الصِّفات التي مرَّ ذكرها في الآية ٣٠ من سورة (ق) المارَّة ، وفيها ما ترشد إليه من المواضع الأخرىٰ الباحثة عن هذا ، وخصّ العرش بالذِّكر مع أنَّه مستول علىٰ المخلوقات كافَّة ، لأنَّه أعظمها وأعلاها ، ولا يعرفه البشر إلَّا بالاسم ، وهو بما وصفه الله تعالىٰ به نفسه ، فتفسيره تلاوته ، كما مرَّ تفصيله ، وللبحث فيه صلة في الآية ٤ من سورة طه الآتية . هذا وإنَّ المنقول عن جعفر الصَّادق ، والحسن ، وأبي حنيفة ، ومالك ، وغيرهم من أعلام الأئمَّة : أنَّ الإستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والجحود له كفر ، والسُّؤال عنه بدعة ، وقد ألمعنا إلىٰ شيء من هذا أوَّل سورة القمر المارَّة بأنَّه فلك الأفلاك ، والفلك الأطلس (١) ، وأنَّه الجسم المحيط بسائر الأجسام ، ويكنَّىٰ به عن العزَّة والسُّلطان والملك ، وقيل في المعنىٰ :

إذا ما بنوا مروان ثلَّت عروشهم   وأودت كما أودت إياد وحمير

وقول الآخر :

أن يقتلوك فقد ثلَّت عروشهم   بعيينة بن الحارث بن شهاب

وقال أيضاً : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ استواء يليق بذاته ، ويراد به الاستيلاء ، والله أعلم .

وقال أيضاً : " وإنَّ الذي استوىٰ علىٰ العرش هو مظهر الصِّفة الرَّحمانيَّة ، ومن أثبت له مكاناً بالمعنىٰ المعلوم فهو من المجسِّمة ، والله منزَّه عن الجسم " .

وقال أيضاً : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ المبسوط القابل لانعكاس أشعَّة أسمائه تعالىٰ وصفاته ، واستولىٰ عليه استيلاء يليق بذاته ، بلا أين ولا كيف ولا كم ، بصرف النَّظر عمَّا يتصوَّر من معنىٰ ﴿ ثُمَّ ﴾ في تراخي الزَّمن والمهلة " .

وقال أيضاً : " استواء يليق بذاته لا يعرفه خلقه " (٢) .

وقال الإمام محمَّد محمد عبد اللطيف بن الخطيب (١٤٠٢هـ) : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استواء يليق به؛ وليس كاستواء المخلوقين؛ لأنَّ الدَّيَّان يتقدَّس عن المكان، وتعالىٰ المعبود عن الحدود " (١) .

---

(١) ومعناه : فلك الحيرة .

(٢) انظر : بيان المعاني (١/ ٢٦١-٢٦٢) ، (٢/ ٩٥) ، (٢/ ١٩٢) ، (٣/ ٦) ، (٦/ ٣٥) بالترتيب .

وقال الأستاذ سيِّد قطب إبراهيم حسين الشَّاذلي (١٩٦٦م) : " إنَّ عقيدة التَّوحيد الإسلاميَّة، لا تدع مجالًا لأيِّ تصوُّر بشريٍّ عن ذات الله سبحانه؛ ولا عن كيفيَّات أفعاله ... فالله سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾... ومن ثمَّ لا مجال للتَّصوُّر البشريِّ لينشئ صورة عن ذات الله. فكلُّ التَّصوُّرات البشريَّة إنَّما تنشأ في حدود المحيط الذي يستخلصه العقل البشري ممَّا حوله من أشياء. فإذا كان الله سبحانه ليس كمثله شيء، توقَّف التَّصوُّر البشريّ إطلاقًا عن إنشاء صورة معيَّنة لذاته تعالى. ومتى توقَّف عن إنشاء صورة معيَّنة لذاته العليَّة فإنَّه يتوقَّف تبعًا لذلك عن تصوُّر كيفيَّات أفعاله جميعًا. ولم يبق أمامه إلَّا مجال تدبُّر آثار هذه الأفعال في الوجود من حوله.. وهذا هو مجاله ...

ومن ثمَّ تصبح أسئلة كهذه : كيف خلق الله السماوات والأرض؟ كيف استوى على العرش؟ كيف هذا العرش الذي استوى عليه الله سبحانه؟... تصبح هذه الأسئلة وأمثالها لغواً يخالف توجيهها قاعدة الاعتقاد الإسلامي. أمَّا الإجابة عليها فهي اللغو الأشدّ الذي لا يزاوله من يدرك تلك القاعدة ابتداء! ولقد خاضت الطَّوائف– مع الأسف– في هذه المسائل خوضًا شديدًا في تاريخ الفكر الإسلامي، بالعدوى الوافدة على هذا الفكر من الفلسفة الإغريقيَّة ! " (٢) .

وقال الإمام محمَّد الطَّاهر بن عاشور التُّونسي (١٣٩٣هـ) : " وَالِاسْتِوَاءُ حَقِيقَتُهُ الِاعْتِدَالُ، وَالَّذِي يُؤْخَذُ مِنْ كَلَامِ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ عُلَمَاءِ اللُّغَةِ وَالْمُفَسِّرِينَ أَنَّهُ حَقِيقَةٌ فِي الِارْتِفَاعِ وَالِاعْتِلَاءِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي صِفَةِ جِبْرِيلَ : ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النَّجم: ٦–٨] .

وَالِاسْتِوَاءُ لَهُ مَعَانٍ مُتَفَرِّعَةٌ عَنْ حَقِيقَتِهِ، أَشْهَرُهَا الْقَصْدُ وَالِاعْتِلَاءُ، وَقَدِ الْتُزِمَ هَذَا اللَّفْظُ فِي الْقُرْآنِ مُسْنَدًا إِلَى ضَمِيرِ الْجَلَالَةِ عِنْدَ الْإِخْبَارِ عَنْ أَحْوَالٍ سَمَاوِيَّةٍ، كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ. وَنَظَائِرُهَا سَبْعُ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ: هُنَا. وَفِي يُونُسَ، وَالرَّعْدِ، وَطه، وَالْفُرْقَانِ، وَأَلَمِ السَّجْدَةِ، وَالْحَدِيدِ، وَفُصِّلَتْ. فَظَهَرَ لِي أَنَّ لِهَذَا الْفِعْلِ خُصُوصِيَّةً فِي كَلَامِ الْعَرَبِ كَانَ بِسَبَبِهَا أَجْدَرَ بِالدَّلَالَةِ عَلَى الْمَعْنَى الْمُرَادِ تَبْلِيغُهُ مُجْمَلًا مِمَّا يَلِيقُ بِصِفَاتِ اللَّهِ وَيُقَرِّبُ إِلَى الأفهام من مَعْنَى عَظَمَتِهِ، وَلِذَلِكَ اخْتِيرَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي فَسَّرَهُ بِهَا الْمُفَسِّرُونَ.

فَالِاسْتِوَاءُ يُعَبِّرُ عَنْ شَأْنٍ عَظِيم من شؤون عَظَمَةِ الْخَالِقِ تَعَالَى، اخْتِيرَ التَّعْبِيرُ بِهِ عَلَى طَرِيقِ الِاسْتِعَارَةِ وَالتَّمْثِيلِ: لِأَنَّ مَعْنَاهُ أَقْرَبُ مَعَانِي الْمَوَادِّ الْعَرَبِيَّةِ إِلَى الْمَعْنَى الْمُعَبِّرِ عَنهُ من شؤونه تَعَالَى، فَإِنَّ اللَّهَ لَمَّا أَرَادَ تَعْلِيمَ مَعَانٍ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ لَمْ يَكُنْ يَتَأَتَّى ذَلِكَ فِي اللُّغَةِ إِلَّا بِأَمْثِلَةٍ مَعْلُومَةٍ مِنْ عَالَمِ الشَّهَادَةِ، فَلَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنَ التَّعْبِيرِ

---

(١) انظر : أوضح التفاسير (١/ ١٨٦) .

(٢) انظر : في ظلال القرآن (٣/ ١٢٩٦) .

عَنِ الْمَعَانِي الْمُغَيَّبَةِ بِعِبَارَاتٍ تُقَرِّبُهَا مِمَّا يُعَبَّرُ بِهِ عَنْ عَالَمِ الشَّهَادَةِ، وَلِذَلِكَ يَكْثُرُ فِي الْقُرْآنِ ذِكْرُ الاستعارات التّمثيليّة والتّخييليّة فِي مِثْلِ هَذَا.

وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ يَتَلَقَّوْنَ أَمْثَالَهَا بِلَا بَحْثٍ وَلَا سُؤَالٍ لِأَنَّهُمْ عَلِمُوا الْمَقْصُودَ الْإِجْمَالِيَّ مِنْهَا فَاقْتَنَعُوا بِالْمَعْنَى مُجْمَلًا، وَيُسَمُّونَ أَمْثَالَهَا بِالْمُتَشَابِهَاتِ، ثمَّ لَمَّا ظَهَرَ عَصْرُ ابْتِدَاءِ الْبَحْثِ كَانُوا إِذَا سُئِلُوا عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ يَقُولُونَ: اسْتَوَى اللَّهُ عَلَى الْعَرْشِ وَلَا نَعْرِفُ لِذَلِكَ كَيْفًا، وَقَدْ بَيَّنْتُ أَنَّ مِثْلَ هَذَا مِنَ الْقِسْمِ الثَّانِي مِنَ الْمُتَشَابِهِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ، فَكَانُوا يَأْبَوْنَ تَأْوِيلَهَا. وَقَدْ حَكَى عِيَاضٌ فِي «الْمَدَارِكِ» عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ أَنَّهُ قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ مَالِكًا فَقَالَ: الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى. كَيْفَ اسْتَوَى يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ فَسَكَتَ مَالِكٌ مَلِيًّا حَتَّى عَلَاهُ الرُّحَضَاءُ ثمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، فَقَالَ: «الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ وَالسُّؤَالُ عَنْ هَذَا بِدْعَةٌ وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ ضَالًّا» وَاشْتُهِرَ هَذَا عَنْ مَالِكٍ فِي رِوَايَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَفِي بَعْضِهَا أَنَّهُ قَالَ لِمَنْ سَأَلَهُ: «وَأَظُنُّكَ رَجُلَ سُوءٍ أَخْرِجُوهُ عَنِّي» وَأَنَّهُ قَالَ : «وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ» . وَعَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْهَا: «فَقَالَ: فَعَلَ اللَّهُ فِعْلًا فِي الْعَرْشِ سَمَّاهُ اسْتِوَاءً» . قَدْ تَأَوَّلَهُ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنَ الْأَشَاعِرَةِ تَأْوِيلَاتٍ، أَحْسَنُهَا: مَا جَنَحَ إِلَيْهِ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالِاسْتِوَاءِ الِاسْتِيلَاءُ بِقَرِينَةِ تَعْدِيَتِهِ بِحَرْفِ عَلَى، وَأَنْشَدُوا على وَجه الاستيناس لِذَلِكَ قَوْلَ الْأَخْطَلِ:

قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاقِ بِغَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقِ

وَأَرَاهُ بَعِيدًا، لِأَنَّ الْعَرْشَ مَا هُوَ إِلَّا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ فَلَا وَجْهَ لِلْإِخْبَارِ بِاسْتِيلَائِهِ عَلَيْهِ، مَعَ احْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ الْأَخْطَلُ قَدِ انْتَزَعَهُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ، وَقَدْ قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: إِنَّ مَعَانِيَهُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ تَعْدِيَتِهِ بِعَلَى أَوْ بِإِلَى، قَالَ الْبُخَارِيُّ، عَنْ مُجَاهِدٍ: اسْتَوَى عَلَا عَلَى الْعَرْشِ، وَعَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ: اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ ارْتَفَعَ فَسَوَّى خَلْقَهُنَّ.

وَأَحْسَبُ أَنَّ اسْتِعَارَتَهُ تَخْتَلِفُ بِقَرِينَةِ الْحَرْفِ الَّذِي يُعَدَّى بِهِ فِعْلُهُ، فَإِنْ عُدِّيَ بِحَرْفِ (عَلَى) كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَنَظَائِرِهَا فَهُوَ مُسْتَعَارٌ مِنْ مَعْنَى الِاعْتِلَاءِ، مُسْتَعْمَلٌ فِي اعْتِلَاءٍ مَجَازِيٍّ يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى التَّمَكُّنِ، فَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ أُرِيدَ مِنْهُ التَّمْثِيلُ، وَهُوَ تَمْثِيلُ شَأْنِ تَصَرُّفِهِ تَعَالَى بِتَدْبِيرِ الْعَوَالِمِ، وَلِذَلِكَ نَجِدُهُ بِهَذَا التَّرْكِيبِ فِي الْآيَاتِ السَّبْعِ وَاقِعًا عَقِبَ ذِكْرِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَالْمَعْنَى حِينَئِذٍ: خَلَقَهَا ثمَّ هُوَ يُدَبِّرُ أُمُورَهَا تَدْبِيرَ الْمَلِكِ أُمُورَ مَمْلَكَتِهِ مُسْتَوِيًا عَلَى عَرْشِهِ. وَمِمَّا يُقَرِّبُ هَذَا الْمَعْنَى

قَول النّبيء صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ»

. وَلِذَلِكَ أَيْضا عقب هَذَا التَّرْكِيبَ فِي مَوَاقِعِهِ كُلِّهَا بِمَا فِيهِ مَعْنَى التَّصَرُّفِ كَقَوْلِهِ هُنَا يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ إِلَخْ، وَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ يُونُسَ : ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس:٣] ، وَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ : ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [الرعد:٢] ، وَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الم السَّجْدَةِ ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ [السجدة:٤-٥] . وَكَمَالُ هَذَا التَّمْثِيلِ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ كُلُّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ الْهَيْئَةِ الْمُمَثَّلَةِ مُشَبَّهًا بِجُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ الْهَيْئَةِ الْمُمَثَّلِ بِهَا، فَيَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ ثَمَّةَ مَوْجُودٌ مِنْ أَجْزَاءِ الْهَيْئَةِ الْمُمَثَّلَةِ مُشَابِهًا لِعَرْشِ الْمَلِكِ فِي الْعَظَمَةِ، وَكَوْنِهِ مَصْدَرَ التَّدْبِيرِ وَالتَّصَرُّفِ الْإِلَهِيِّ يَفِيضُ عَلَى الْعَوَالِمِ قُوَى تَدْبِيرِهَا. وَقَدْ دَلَّتِ الْآثَارُ الصَّحِيحَةُ مِنْ أَقْوَالِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى وُجُودِ هَذَا الْمَخْلُوقِ الْعَظِيمِ الْمُسَمَّى بِالْعَرْشِ كَمَا سَنُبَيِّنُهُ.

فَأَمَّا إِذَا عُدِّيَ فِعْلُ الِاسْتِوَاءِ بِحَرْفِ اللَّامِ فَهُوَ مُسْتَعَارٌ مِنْ مَعْنَى الْقَصْدِ وَالتَّوَجُّهِ إِلَى مَعْنَى تَعَلُّقِ الْإِرَادَةِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٩] . وَقَدْ نَحَا صَاحِبُ «الْكَشَّافِ» نَحْوًا مِنْ هَذَا الْمَعْنَى، إِلَّا أَنَّهُ سَلَكَ بِهِ طَرِيقَةَ الْكِنَايَةِ عَنِ الْمُلْكِ: يَقُولُونَ اسْتَوَى فُلَانٌ عَلَى الْعَرْشِ يُرِيدُونَ مَلَكَ.

وَالْعَرْشُ حَقِيقَتُهُ الْكُرْسِيُّ الْمُرْتَفِعُ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَيْهِ الْمَلِكُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] ، وَقَالَ: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يُوسُف: ١٠٠] ، وَهُوَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَنَظَائِرِهَا مُسْتَعْمَلٌ جُزْءًا مِنَ التَّشْبِيهِ الْمُرَكَّبِ، وَمِنْ بَدَاعَةِ هَذَا التَّشْبِيهِ أَنْ كَانَ كُلُّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ الْهَيْئَةِ الْمُشَبَّهَةِ مُمَاثِلًا لِجُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ الْهَيْئَةِ الْمُشَبَّهِ بِهَا، وَذَلِكَ أَكْمَلُ التَّمْثِيلِ فِي الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، كَمَا قَدَّمْتُهُ آنِفًا. وَإِذْ قَدْ كَانَ هَذَا التَّمْثِيلُ مَقْصُودًا لِتَقْرِيبِ شَأْنِ من شؤون عَظَمَةِ مُلْكِ اللهِ بِحَالِ هَيْئَةٍ مِنَ الْهَيْئَاتِ الْمُتَعَارَفَةِ، نَاسَبَ أَنْ يَشْتَمِلَ عَلَى مَا هُوَ شِعَارُ أَعْظَمِ الْمُدَبِّرِينَ لِلْأُمُورِ الْمُتَعَارَفَةِ أَعْنِي الْمُلُوكَ، وَذَلِكَ شِعَارُ الْعَرْشِ الَّذِي مِنْ حَوْلِهِ تَصْدُرُ تَصَرُّفَاتُ الْمَلِكِ، فَإِنَّ تَدْبِيرَ اللهِ لِمَخْلُوقَاتِهِ بِأَمْرِ التَّكْوِينِ يَكُونُ صُدُورُهُ بِوَاسِطَةِ الْمَلَائِكَةِ، وَقَدْ بَيَّنَ الْقُرْآنُ عَمَلَ بَعْضِهِمْ مِثْلِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَلَكِ الْمَوْتِ، وَبَيَّنَتِ السُّنَّةُ بَعْضَهَا ...

وَقَدْ قِيلَ إِنَّ الْعَرْشَ هُوَ الْكُرْسِيُّ وَأَنَّهُ الْمُرَادُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كَمَا تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ [٢٥٥] .

وَقَدْ دَلَّتْ (ثُمَّ) فِي قَوْلِهِ: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ عَلَى التَّرَاخِي الرُّتْبِيِّ أَيْ وَأَعْظَمُ مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ اسْتِوَاءُهُ عَلَى الْعَرْشِ، تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَمْ يُحْدِثْ تَغْيِيرًا فِي تَصَرُّفَاتِ اللهِ بِزِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ، وَلِذَلِكَ ذُكِرَ الِاسْتِوَاءُ عَلَى الْعَرْشِ عَقِبَ ذِكْرِ خَلْقِ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ،

وَلَعَلَّ الْمَقْصِدَ مِنْ ذَلِكَ إِبْطَالُ مَا يَقُولُهُ الْيَهُودُ: إِنَّ اللَّهَ اسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ فَهُوَ كَالْمَقْصِدِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] .

وَجُمْلَةُ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنِ اسْمِ الْجَلَالَةِ، ذُكِرَ بِهِ شَيْءٌ مِنْ عُمُومِ تَدْبِيرِهِ تَعَالَىٰ وَتَصَرُّفِهِ الْمُضَمَّنِ فِي الاِسْتِوَاءِ عَلَىٰ الْعَرْشِ، وَتَنْبِيهٌ عَلَىٰ الْمَقْصُودِ مِنَ الاِسْتِوَاءِ، وَلِذَلِكَ جَاءَ بِهِ فِي صُورَةِ الْحَالِ لَا فِي صُورَةِ الْخَبَرِ، كَمَا ذُكِرَ بِوَجْهِ الْعُمُومِ فِي آيَةِ سُورَةِ يُونُسَ ، وَسُورَةِ الرَّعْدِ ، بِقَوْلِهِ: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ وَخَصَّ هَذَا التَّصَرُّفَ بِالذِّكْرِ لِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ عَظِيمِ الْقُدْرَةِ، وَمَا فِيهِ مِنْ عِبْرَةِ التَّغَيُّرِ وَدَلِيلِ الْحُدُوثِ، وَلِكَوْنِهِ مُتَكَرِّرًا حُدُوثُهُ فِي مُشَاهَدَةِ النَّاسِ كُلِّهِمْ " (١) .

وقال الأستاذ محمَّد عزة دروزة (١٩٨٤هـ) : " ولمَّا كانت الآيات والأحاديث التي ورد فيها ذكر عرش الله قد وردت في صدد بيان عظمة الله عزَّ وجلَّ ، وعلوّ شأنه ، وشمول ربوبيَّته ، وسعة كونه ، وبديع خلقه ، ونفوذ أمره في جميع الكائنات خلقاً وتدبيراً وتسخيراً ، فإنَّ هذا قد يكون من الحكمة التي انطوت في الآيات والأحاديث . ولا سيَّما أنَّ الله عزَّ وجلَّ ليس مادَّة يمكن أن تُحدّ بمكان أو صورة أو تحتاج إلىٰ عرش مادِّي يجلس عليه أو تكون فوقه . وفي القرآن آيات نسبت إلىٰ الله عزَّ وجلَّ اليد والرُّوح والنُّزول والمجيء والقبضة والوجه ، ممَّا هو منزَّه سبحانه عن مفهوماتها وممَّا هو بسبيل التَّقريب والتَّشبيه والمجاز. وقد يكون هذا من هذا الباب ، والله تعالىٰ أعلم ..." .

وقال أيضاً : " أمَّا جملة ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ﴾ فإنَّها تأتي هنا للمرَّة الأولىٰ. وقد تكرَّرت بعد ذلك. وقد تعدَّدت الأقوال في مداها فممَّا قاله البغوي : أنَّ المعتزلة أوَّلت الاستواء بالاستيلاء وأنَّ أهل السُّنَّة قالوا : إنَّ الاستواء علىٰ العرش سنَّة لله تعالىٰ بلا كيف ، ويجب علىٰ المسلم الإيمان به ويكِل العلم فيه إلىٰ الله عزَّ وجلَّ...

وممَّا قاله ابن كثير : إنَّ للنَّاس في هذا الأمر مقالات كثيرة جداً. وإنَّ خير مسلك هو مذهب السَّلف الصَّالح مالك والأوزاعي والثَّوري والليث بن سعد والشَّافعي وأحمد وغيرهم من أئمَّة المسلمين قديماً وحديثاً ، وهو إمرار الجُملة كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه، ولا تعطيل. وأنَّ الظَّاهر المتبادر إلىٰ أذهان المشبِّهين منفيٌّ عن الله تعالىٰ ، فإنَّ الله لا يشبهه شيء من خلقه ، و ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ﴾ ...

وممَّا قاله السيِّد رشيد رضا إنَّ حقيقة الاستواء في اللغة التَّساوي واستقامة الشَّيء أو اعتداله. ويستعمل علىٰ الأكثر في المجاز فيقال : استوىٰ علىٰ الدابَّة وعلىٰ السَّرير وعلىٰ الفراش ويكون بمعنىٰ التَّملّك. ثمَّ استطرد

---

(١) انظر : التحرير والتنوير «تحرير المعنىٰ السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» (٨/ ١٦٢-١٦٦) .

إلىٰ القول إنَّ أحداً من أصحاب رسول الله لم يشتبه في معنىٰ استواء الله علىٰ العرش علىٰ علمهم بتنزُّهه سبحانه عن صفات البشر وغيرهم من الخلق إذ كانوا يفهمون أنَّ استواءه علىٰ عرشه عبارة عن استقامة أمر ملك السَّموات والأرض له وانفراده بتدبيره. وإنَّ عقيدة التَّنزيه القطعيَّة الثَّابتة بالنَّقل والعقل مانعة لكلٍّ منهم أن يتوهّم أنَّ في التَّعبير بالاستواء علىٰ العرش شبهة تشبيه للخالق بالمخلوق. وفي تفسير القاسمي فصلٌ طويل جداً بلغت صفحاته خمساً وخمسين ولعلَّه أطول فصل عقَدَهُ علىٰ أيِّ موضوع. وفي هذا الفصل أقوال ومذاهب مختلف الجماعات والفرق الإسلاميَّة من أهل السُّنَّة والجماعة والسَّلف الصَّالح والمعتزلة والمشبِّهة والظَّاهريَّة. ومناقشات وردود علىٰ هؤلاء خاصَّة منه ومن علماء وأئمَّة أهل السُّنَّة والجماعة والسَّلف الصَّالح الذين يلتزم أقوالهم التي لخصَّها ابن كثير والبغوي ورشيد رضا وأوردناها قبل قليل بسبيل تفنيد ما يمكن أن تؤدِّي إليه أقوالهم من مناقضة لما ينبغي أن يكون لله من صفات مبرَّأة من شوائب الجسمانيَّة والمشابهة لخلقه أو الحلول أو التَّحديد في جهة ما. واهتمَّ فيما اهتم لتفنيد تفسير المعتزلة لكلمة " اسْتَوىٰ " بمعنىٰ استولىٰ من حيث أنَّ ذلك يؤدِّي إلىٰ معنىٰ استيلاء الله علىٰ عرشه بعد أن لم يكن مستولياً عليه ممَّا هو مناف لأزليَّته وأزليَّة صفاته التي منها ملك كلّ شيء مع أنَّ المتبادر لنا أنَّ مقصودهم هو نفي الاستواء المادي علىٰ العرش المادي وصرف الكلمة إلىٰ معنىٰ مجازي. ولا يعقل أن يكونوا أرادوا القول إنَّ الله استولىٰ علىٰ العرش بعد أن لم يكن مستولياً عليه بالمعنىٰ الحرفي. وإنَّ من الممكن أن لا تكون ثمَّ في مقام التَّرتيب الزَّمني ويمكن أن تكون في مقام العطف فيكون معنىٰ الجملة إنَّ الله هو الذي خلق السَّموات والأرض وإنَّه استوىٰ علىٰ العرش.

ويبدو من الإمعان في ما نقلناه عن البغوي وابن كثير والطَّبرسي ورشيد رضا واتجاه جمال القاسمي أنَّهم متساوقون فيما قالوه واستندوا إليه ، وأنَّ ذلك هو مذهب السَّلف الصَّالح وأهل السُّنَّة والجماعة. وملخَّصه أنَّ من الواجب الإيمان بما جاء في القرآن والتَّفويض لعلم الله في ما أراده من التَّعبير مع تنزيهه عن الحدود والحلول والجسمانيَّة والمشابهة. ونحن نرىٰ في هذا الوجاهة والسَّداد. وننوِّه بخاصَّة بوجاهة ما ذكره رشيد رضا من أنَّ أحداً من أصحاب رسول الله لم يشتبه في معنىٰ استواء الرَّبّ تعالىٰ علىٰ العرش علىٰ علمهم بتنزُّهه سبحانه عن صفات البشر وغيرهم من الخلق ، وأنَّهم كانوا يفهمون أن استواءه تعالىٰ علىٰ عرشه عبارة عن استقامة أمر ملك السَّموات والأرض له وانفراده هو بتدبيره. وإذا كان من شيء يصحُّ قوله بالإضافة إلىٰ هو فهو وجوب ملاحظة كون العبارة القرآنيَّة هنا وفي أيِّ مكان آخر في القرآن قد جاءت في معرض التَّدليل علىٰ عظمة الله وشمول قدرته وملكه وتقرير كونه الخالق المدبِّر المتصرِّف الوحيد فيه

واستحقاقه بسبب ذلك وحده للعبادة والخضوع. وإنَّ ما شغله هذا الموضوع من حيِّز ليس بسبب العبارة ولكن بسبب ما لمح من مساسها بالصِّفات الإلهيَّة التي كانت من أهم أسباب تعدد المذاهب الكلاميَّة في الإسلام تأثُّراً بالفلسفة اليونانيَّة التي أخذت تنتشر في القرن الثَّاني وبعده وأساليبها وبما كان من انقسامات وخلافات سياسيَّة علىٰ ما ألمعنا إليه في تعليقنا علىٰ موضوع القدر في سياق تفسير سورة (ق) وعلىٰ ما يدلّ عليه عدم انشغال أصحاب رسول الله بهذه المسألة وأمثالها. والله تعالىٰ أعلم " (١) .

وقال الإمام محمَّد المكِّي النَّاصري (١٤١٤هـ) : " والاستواء علىٰ العرش في قوله تعالىٰ هنا: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥] كناية عن انفراده سبحانه وتعالىٰ بالملك والسُّلطان، وهيمنته المطلقة علىٰ جميع الأكوان، فلا عرش في الحقيقة إلَّا عرشه، ولا ملك إلَّا ملكه ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ﴾ [المائدة: ١٢٠] . " والعرش " في كلام العرب مرتبط بمعنىٰ الملك، يقولون: ثُلَّ عرش فلان إذا ذهب ملكه، وتفادياً من أن يفهم معنىٰ الاستواء علىٰ وجه فيه تجسيم وتكييف أجاب الإمام مالك بن أنس من سأله عن الاستواء في هذه الآية فقال: " الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسُّؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب " (٢) .

وقال الإمام إبراهيم بن إسماعيل الأبياري (١٤١٤هـ) : " ... المعنىٰ: ثمَّ كان قد استوىٰ علىٰ العرش قبل أن يخلق السَّموات والأرض. وقيل: التَّقدير: هو الذي خلق السَّموات والأرض، أي : أخبركم بخلقها ثمَّ استوىٰ، ثمَّ أخبركم بالاستواء" (٣) .

وقال الإمام محمَّد متولِّي الشَّعراوي (١٤١٨هـ) : " ... ولا بدَّ أن نعرف العرش ما هو . وسبحانه يقول في ملكة سبأ: ﴿ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴾ [النمل: ٢٣] فالعرش إذن هو سرير الملك؛ لأنَّ الملك لا يجلس علىٰ العرش إلَّا بعد أن تستقرَّ الأمور.

فكأنَّ قوله: ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ كناية عن تمام الأمور؛ وخلقها وانتهت المسألة. لكن العلماء حين جاءوا في ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ ، اختلفوا في فهمها؛ لأنَّ العرش لو كان كرسياً يجلس عليه الله، لكان في ذلك تحييز لله ووضعه وضمّه في جرم ما. وسبحانه منزَّه عن أن يحيزه شيء. ولذلك أخذ العلماء يتلمسون معاني لكلمة

---

(١) انظر : التفسير الحديث (١/ ٥٠٨) ، (٢/ ٤١٢-٤١٥) بالترتيب .

(٢) انظر : التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٦٠) .

(٣) انظر : الموسوعة القرآنية (٢/ ٤٥٧) .

﴿ٱسۡتَوَىٰٓ﴾ منهم من قال: إنَّ معناها هو قصد إليها بخلقه واختراعه، ومنهم من قال: المقصود بها أنَّه استعلىٰ وارتفع أمره، ومنهم من قال: «صعد» أمره إلىٰ السَّماء واستند إلىٰ قوله الحق: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ ﴾ [فصلت: ١١] ، وكلها معانٍ متقاربة. وجماعة من العلماء أرادوا أن يخرجوا من التشبيهات؛ فقالوا: المقصود بـ ﴿ٱسۡتَوَىٰٓ﴾ أنه استوىٰ علىٰ الوجود، ولذلك رأوا أنَّ وجود العرش والجلوس عليه هو سمة لاستقرار الملك. وحتىٰ لا ندخل في متاهات التَّشبيهات، أو متاهات التَّعطيل نقول: علينا أن نأخذ كل شيء منسوب إلىٰ الله في إطار: ﴿ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورىٰ: ١١]

... ولذلك حينما سئل سيِّدنا الإمام مالك عن هذه المسألة قال لمن سأله: «الاستواء معلوم والكيف مجهول والسُّؤال عنه بدعة» وأراك رجل سَوْء! أخرجوه. نعم السُّؤال عنه بدعة لأنَّه يدخل بنا في متاهة التَّشبيه ومتاهة التَّعطيل، وهل سأل أحد من صحابة رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن معنىٰ الاستواء؟ ... لا؛ لأنَّهم فهموا المعنىٰ، ولم يعلق شيء من معناها في أذهانهم حتىٰ يسألوا عنها رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . إنهم فهموها بفِطرتهم التي فطرهم الله عليها في إطار ما يليق بجلال الله وكماله.

وإن قال قائل: أرسول الله كان يعلم المعنىٰ أم لا يعلم؟ ... إن كان يعلم لأخبرنا بها، وإن لم يخبرنا فقد أراد أن يكتمها. وإن لم يكن قد علم الأمر ... فهل تطلب لنفسك أن نعلم ما لم يعلمه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ أو أنّه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ترك لكل واحد أن يفهم ما يريد ولكن في إطار ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ ﴾ ، والذين يمنعون التَّأويل يقولون: إيَّاك أن تؤوِّل اليد بالقدرة؛ لأنَّه إن قال: إنَّ له يداً، فقل ليست كأيدينا في إطار ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ ؛ لأنَّه سبحانه له حياة، وأنت لك حياة، أحياته كحياتك؟ لا، فلماذا إذن تجعل يده مثل يدك؟ ... إذن لابدَّ أن ندخل علىٰ كلِّ صفة لله فننفي عنها التَّعطيل وننفي عنها التَّشبيه. ثمَّ إنَّ من يمنعون التأويل نقول لكل منهم: أنت ستضطر أخيراً إلىٰ أن تؤول؛ لأن الحق يقول: ﴿ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص: ٨٨] (١) .

وقال الإمام علي بن مصطفىٰ الطَّنطاوي (١٩٩٩م) : " لقد اجتنبت في هذا الكتاب الخوض في المسائل الكلاميَّة، وأعرضت عن سرد اختلافات المتكلِّمين، ولكن مسألة (آيات الصِّفات) قد طال فيها المقال، وكثر الجدال، ولا بدَّ من بعض البسط للكلام فيها.

---

(١) انظر : تفسير الشعراوي (٧/ ٤١٦٨-٤١٧٠) .

لقد وصف ربُّنا نفسه في القرآن بألفاظ موضوعة في الأصل للدّلالة على معانٍ أرضيَّة، ومقاصد بشريَّة، مع أنَّ الله ليس كمثله شيء، وهو الرَّب الخالق، تعالىٰ عن أن يشبه المخلوقين. ولا يمكن أن تفهم هذه الألفاظ حين إطلاقها على الله، بالمعنىٰ نفسه الذي تفهم به حين إطلاقها على المخلوق.

فنحن نقول : فلان عليم، وفلان بصير، ونقول : أنَّ الله عليم، بصير، ولكنَّ الكيفيَّة التي يعلم بها العبد ويبصر – ليست هي التي يعلم بها ربُّنا ويبصر ، وعلم العبد وبصره ليس كعلم الله وبصره، كذلك نقول : استوىٰ المعلِّم على منبر الفصل، ونقول : استوىٰ الله على العرش، ونحن نعرف معنىٰ الاستواء (القاموسي) ونطبِّقه على المعلِّم، ولكن هذا المعنىٰ لا يمكن أن يكون هو بذاته المقصود حين نقرأ : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ .

هذا كلّه متَّفق عليه بين العلماء، فهم جميعاً مقرُّون بأنَّ آيات الصِّفات هي كلام الله. فاذا قال الله ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ لم يستطع أحد أن يقول: ما استوىٰ.

وهم جميعاً معترفون بأنَّ المعنىٰ القاموسي البشري لكلمة (استوىٰ). ليس هو المراد من قوله : ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ ، ولكنَّهم مع ذلك اختلفوا اختلافاً كبيراً، في المراد المقصود، بعد اتِّفاقهم على ترك التَّعطيل والتَّشبيه، تساءلوا: هل هذه الآيات حقيقة أم مجاز؟ وهل تؤوّل أم لا تؤول؟

أمَّا الذين أوَّلوا فقالوا : بأنَّ الحقيقة هي استعمال اللفظ بالمعنىٰ الذي وضع له. وهذا هو تعريف الحقيقة عند عامَّة علماء البلاغة. ولا شكَّ أنَّ اللسان العربي الذي نزل به القرآن ، وضعت فيه هذه الألفاظ قبل نزول القرآن ، ووضعت لمعانٍ أرضيَّة ماديَّة، حتىٰ أنَّها لتعجز عن التَّعبير عن العواطف والمشاعر البشريَّة ، فضلاً عن التَّعبير عن صفات الله خالق البشر، فإنَّ مظاهر الجمال وأشكاله لا حدَّ لها ...

واذا كانت الحقيقة هي (استعمال اللفظ فيما وضع له) وكانت ألفاظ: استوىٰ – وجاء – وخادع – ويمكر – ونسيهم ، إنَّما وُضعت للمعاني الأرضيَّة البشريَّة الماديَّة، وكان استعمالها في القرآن في قوله : ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ ... في غير هذا المعنىٰ المادي الأرضي البشري الذي وضعت له – لم تكن إذن (حقيقة) بمقتضىٰ تعريفهم هذا للحقيقة.

ومن ينكر أنَّها مجاز، ومنهم ابن تيمية، يعرِّف (الحقيقة) تعريفاً آخر خاصاً به، غير التَّعريف الذي جرىٰ عليه البلاغيُّون ويقول ما معناه: أنَّ تأويل هذه الألفاظ، أي تفسيرها تفسيراً مجازيَّاً، والجزم بأنَّه هو المراد مردود، لأنَّ المعاني المجازيَّة هي أيضاً معانٍ بشريَّة.

ولقد نظرت فوجدت أنَّ هذه الآيات على ثلاثة أشكال:

١ – آيات وردت على سبيل الإخبار من الله، كقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥] ، فنحن لا نقول: " أنَّه ما استوى"، فنكون قد نفينا ما أثبته الله ، ولا نقول : أنَّه استوى على العرش، كما يستوي القاعد على الكرسي، فنكون قد شبَّهنا الخالق بالمخلوق، ولكن نؤمن بأنَّ هذا هو كلام الله، وأنَّ لله مراداً منه لم نفهم حقيقته وتفصيله، لأنَّه لم يبين لنا مفصَّلاً، ولأنَّ العقل البشري (كما قدَّمنا) يعجز عن الوصول إلى ذلك بنفسه ... " (١) .

وقال الدكتور عبد العظيم إبراهيم محمَّد المطعني (١٤٢٩هـ) : " وقوله : ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ ، فإذا نحينا مذهب " السَّلف " القائل بالتَّسليم . فإنَّ منهج " الخَلف " الآخذ بالتَّأويل يقول بأنَّها القُدرة . ففي التَّعبير مجاز مُرسل علاقته المحليَّة ، لأنَّ القُدرة محلُّها اليد . وفسَّروا : ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ بالاستيلاء بمعنى سلطان الله المسيطر على العرش ، وعلى كلِّ شيء ، كما فسَّروا الظُّروف التي تدلُّ على المكان مضافة إلى الله مثل " عند " في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ [ص:٤٧] ، بالعلم ، أي : في علمنا . وكثير من هذه المشاكل التي تمسّ العقيدة قد تخرَّجت تخريجاً بلاغيَّاً ارتاحت معه النَّفس ، واطمأنَّت إليه العقول أيَّما اطمئنان " (٢) .

وقال الدكتور محمَّد محمود حجازي : " ثمَّ استوى على عرشه استواء يليق بعظمة هذا الملك وصاحبه، استواء لا يعلمه إلَّا هو وعرشه كرسيه أو مركز تدبيره، وفي الحقيقة لا يعلم كُنهه إلَّا هو- سبحانه وتعالى ثمَّ استوى على عرشه يدبِّر أمر ملكوته بما يتناسب مع جلاله، وكماله وعمله وحكمته، والتَّدبير والنَّظر في أدبار الأمور وعواقبها وما تنتهي إليه " .

وقال أيضاً : " ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ وقصد إليه، واستولى عليه، وفي الحقيقة الاستواء والعرش الله أعلم بهما، على أنَّ الآية تدلُّ على نفوذ الأمر، وتمام السُّلطان والتَّدبير " .

وقال أيضاً : ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ استواء يليق بعظمته، وهو أعلم به- وهذا رأى السَّلف- أمَّا الخلف فيؤولون ويقولون ثمَّ استولى على العرش يدبِّر الأمر. ويقضي بالحق وهو خير الفاصلين، وثمَّ للتَّرتيب الإخبارى لا للتَّرتيب الزَّمنى " .

وقال أيضاً : " ... أمَّا الخلف فيقولون: استوى على ملكه يدبِّر أمره، ويحكم سياسته، فالاستواء كناية عن الاستيلاء والتَّدبير سياسته، فالاستواء كناية عن الاستيلاء والتَّدبير " .

---

(١) انظر : تعريف عام بدين الإسلام (ص٧٩-٨١ ببعض الاختصار) .

(٢) انظر : خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ١٨٧) .

وقال أيضاً : " استواء يليق بعظمته وجلاله، وأنَّه لا يحده زمان ولا مكان ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، وهذا رأي من يفوِّض أمثال هذا لله وهم السَّلف، أمَّا الخلف فيقولون: استوىٰ علىٰ ملكه يدبِّر أمره، ويحكم في اللغة علىٰ معان كثيرة: بمعنىٰ استقرَّ. ومنه استوىٰ علىٰ الكرسي، وعلىٰ ظهر الدابَّة، واستوىٰ بمعنىٰ: قصد، وبمعنىٰ: استولىٰ وظهر، ومنه:

«استوىٰ بشر علىٰ العراق» والمراد: استولىٰ وتصرَّف بما يريد. الْعَرْشِ: هو سرير الملك، وعليه قوله تعالىٰ : ﴿ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل:٤١] ، وقد يطلق علىٰ سقف البيت، وعلىٰ هودج المرأة، وعلىٰ الملك والسُّلطان، وعليه قولهم: ثلَّ عرشه وسقط: إذا ذهب ملكه "(١) .

وقال الإمام محمَّد سيِّد طنطاوي (٢٠١٠م) : " وقوله: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ﴾ قال الشَّيخ القاسمىٰ:ورد الاستواء علىٰ معان اشترك لفظه فيها، فجاء بمعنىٰ الاستقرار، ومنه ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّۖ ﴾ [هود:٤٤] وبمعنىٰ القصد ، ومنه ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت:١١] ، وكلُّ من فرغ من أمر وقصد لغيره فقد استوىٰ له وإليه. قال الفرَّاء: تقول العرب استوىٰ إلىٰ يخاصمني أي: قصد لي وأقبل عليَّ. ويأتى بمعنىٰ الاستيلاء.

قال الشَّاعر:

قد اسْتَوَىٰ بِشْرٌ علىٰ العِرَاقِ   مِن غَيْرِ سَيْفٍ ودم مُهْرَاقِ

ويأتي بمعنىٰ العلو ومنه هذه الآية.

قال البخاري في آخر صحيحه في كتاب الرَّد علىٰ الجهميَّة في باب قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧] . قال مجاهد: استوىٰ وعلا علىٰ العرش.

وقال ابن راهويه: سمعت غير واحد من المفسِّرين يقول: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ أي: علا وارتفع .

وعرش الله- كما قال الرَّاغب- ممَّا لا يعلمه البشر إلَّا بالاسم، وليس كما تذهب إليه أوهام العامَّة، فإنَّه لو كان كذلك لكان حاملاً له- تعالىٰ الله عن ذلك- لا محمولاً.

وقد ذكر العرش في إحدىٰ وعشرين آية . وذكر الاستواء علىٰ العرش في سبع آيات.

أمَّا الاستواء علىٰ العرش فذهب سلف الأمة إلىٰ أنه صفة الله- تعالىٰ- بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل لاستحالة اتِّصافه- سبحانه- بصفات المحدَثين، ولوجوب تنزيهه عمَّا لا يليق به ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ ﴾ وأنَّه يجب الإيمان بها كما وردت وتفويض العلم بحقيقتها إليه تعالىٰ.

---

(١) انظر : التفسير الواضح (٢/ ٣٩) ، (٢/ ٢١٣) ، (٢/ ٧٣٣) ، (٣/ ٦١) ، (٣/ ٦٠٩) ، بالترتيب .

فعن أمّ سلمة- رضي الله عنها- في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ أنّها قالت: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإقرار به من الإيمان، والجحود به كفر.

وقال الإمام مالك: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسُّؤال عنه بدعة.

وقال محمَّد بن الحسن: اتَّفق الفقهاء جميعاً علىٰ الإيمان بالصِّفات من غير تفسير ولا تشبيه.

وقال الإمام الرَّازي: إن هذا المذهب هو الذي نقول به ونختاره ونعتمد عليه.

وذهب بعض علماء الخلف إلىٰ وجوب صرفه- أي الاستواء- عن ظاهره لاستحالته، وأنَّ المراد منه- كما قال الإمام القفَّال- أنَّه استقام ملكه، واطرد أمره ونفذ حكمه تعالىٰ في مخلوقاته، والله تعالىٰ دلَّ علىٰ ذاته وصفاته وكيفيَّة تدبيره للعالم علىٰ الوجه الذي ألفوه من ملوكهم واستقرَّ في قلوبهم تنبيهاً علىٰ عظمته وكمال قدرته ، وذلك مشروط بنفي التَّشبيه، ويشهد بذلك قوله تعالىٰ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ ﴾ [يونس:٣]
.

وقال أيضاً : " وقال : " وقوله: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾ معطوف علىٰ ما قبله، لتأكيد مزيد قدرته وعظمته- سبحانه-.

والاستواء من معانيه اللغوية الاستقرار، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ [هود:٤٤] .أي: استقرت، ومن معانيه- أيضا- الاستيلاء والقهر والسلطان، ومنه قول الشَّاعر :

قد اسۡتَوَىٰ بِشۡرٌ علىٰ العِرَاقِ ، أي: استولىٰ عليه وعرش الله- كما قال الرَّاغب- ممَّا لا يعلمه البشر علىٰ الحقيقة إلَّا بالاسم وليس كما تذهب إليه أوهام العامَّة، فإنَّه لو كان كذلك لكان حاملاً له- تعالىٰ الله عن ذلك- لا محمولاً.

وقد ذكر العرش في القرآن الكريم في إحدىٰ وعشرين آية، وذكر الاستواء علىٰ العرش في سبع آيات.

أمَّا الاستواء علىٰ العرش فذهب سلف الأمَّة إلىٰ أنَّه صفة الله- تعالىٰ- بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل لاستحالة اتِّصافه- سبحانه- بصفات المحدَثين، ولوجوب تنزيهه عمَّا لا يليق به ، فيجب الإيمان بها كما وردت وتفويض العلم بحقيقتها إلىٰ الله تعالىٰ .

فعن أمّ سلمة- رضي الله عنها- أنَّها قالت في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ : الكيف غير معقول، والاستواء مجهول، والإقرار به من الإيمان، والجحود به كفر.

وقال الإمام مالك: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسُّؤال عنه بدعة.

وقال محمَّد بن الحسن: اتَّفق الفقهاء جميعاً علىٰ الإيمان بالصِّفات من غير تفسير ولا تشبيه.

وقال الإمام الرَّازي: «إنَّ هذا المذهب هو الذي نقول به ونختاره ونعتمد عليه» .

وذهب بعض علماء الخلف إلىٰ وجوب صرف هذه الصفة وأمثالها عن الظاهر لاستحالة حملها علىٰ ما يفيده ظاهر اللفظ، لأنَّه- سبحانه- مخالف للحوادث، ووجوب حملها علىٰ ما يليق به- سبحانه-.

وعليه فإنَّ الاستواء هنا: كناية عن القهر والعظمة والغلبة والسُّلطان وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [هود:٣] استئناف مسوق لتقرير عظمته- سبحانه- ولبيان حكمة استوائه علىٰ العرش " .

وقال أيضاً : " وقوله- سبحانه- ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ معطوف علىٰ ما قبله، وهو دليل آخر علىٰ قدرة الله- تعالىٰ- عن طريق الغائب الهائل الذي تتقاصر دونه المدارك بعد أن أقام الأدلَّة علىٰ ذلك عن طريق الحاضر المشاهد.

الاستواء في اللغة يطلق علىٰ معان منها الاستقرار كما في قوله تعالىٰ : ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ أي: استقرَّت، وبمعنىٰ الاستيلاء والقهر.

وعرش الله- تعالىٰ- ممَّا لا يعلمه البشر إلَّا بالاسم- كما يقول الرَّاغب-.

وقد ذكر لفظ العرش في إحدىٰ وعشرين آية، كما ذكر الاستواء علىٰ العرش في سبع آيات من القرآن الكريم.

والمعنىٰ: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استواء يليق بذاته- تعالىٰ- بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل، لاستحالة اتصافه- سبحانه- بصفات المحدَثين.

قال الإمام مالك- رحمه الله-: «الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسُّؤال عنه بدعة» .

وقال أيضاً : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استواء واستعلاء يليق بذاته، بلا كيف أو تشبيه أو تمثيل، كما قال الإمام مالك- رحمه الله-: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسُّؤال عنده بدعة. ولفظ «ثمَّ» في قوله : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ لا يدلُّ علىٰ التَّرتيب الزَّمني وإنَّما يدلُّ علىٰ بعد الرُّتبة، رتبة الاستواء والاستعلاء والتَّملك " .

وقال أيضاً : " وقوله- سبحانه-: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ إشارة إلىٰ استعلائه وهيمنته علىٰ شئون خلقه.

وقال بعض العلماء: وعرش الله- تعالىٰ- ممَّا لا يعلمه البشر إلا بالاسم ... وقد ذكر في إحدىٰ وعشرين آية. وذكر الاستواء علىٰ العرش في سبع آيات.

أمَّا الاستواء علىٰ العرش، فذهب سلف الأمَّة، إلىٰ أنَّه صفة الله- تعالىٰ- بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل، لاستحالة اتِّصافه- سبحانه- بصفات المحدَثين، ولوجوب تنزيهه عمَّا لا يليق به: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ .

وأنَّه يجب الإيمان بها كما وردت، وتفويض العلم بحقيقتها إليه- تعالىٰ-.

قال الإمام مالك: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسُّؤال عنه بدعة.

وقال محمَّد بن الحسن: اتَّفق الفقهاء جميعاً علىٰ الإيمان بالصِّفات، من غير تفسير ولا تشبيه.

وقال الإمام الرَّازي: إنَّ هذا المذهب هو الذي نقول به ونختاره ونعتمد عليه ...

وقوله- سبحانه-:﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة:٤] أي: ليس لكم- أيُّها النَّاس- إذا تجاوزتم حدوده- عزَّ وجلَّ- مِنْ وَلِيٍّ أي: من ناصر ينصركم إن أراد عقابكم، وَلا شَفِيعٍ يشفع لكم عنده لكي يعفو عنكم، أفلا تعقلون هذه المعاني الواضحة، وتسمعون هذه المواعظ البليغة، التي من شأنها أن تحملكم علىٰ التَّذكُّر والاعتبار والطَّاعة التَّامَّة لله ربِّ العالمين.

فالآية الكريمة جمعت في توجيهاتها الحكيمة، بين مظاهر قدرة الله- تعالىٰ-، وبين التَّرهيب من معصيته ومخالفة أمره، وبين الحضِّ علىٰ التَّذكُّر والاعتبار " .

وقال أيضاً : " والاستواء في اللغة: يطلق علىٰ الاستقرار، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ ﴾ [هود:٤٤] ، أي : استقرَّت سفينة نوح- عليه السَّلام- عند ذلك الجبل المسمَّىٰ بذلك الاسم ...

كما يطلق بمعنىٰ القصد، ومنه قولهم: استوىٰ إليَّ يخاصمني، أي: قصد لي . كما يطلق بمعنىٰ الاستيلاء والقهر، ومنه قول الشَّاعر: قد اسْتَوَىٰ بِشْرٌ علىٰ العِرَاقِ .

وعرش الله، ممَّا لا يعلمه البشر إلَّا بالاسم أمَّا حقيقته وكيفيته فلا يعلمها إلَّا الله تعالىٰ .

وقد ذكر العرش في إحدىٰ وعشرين آية من القرآن الكريم ، كما ذكر الاستواء علىٰ العرش في سبع آيات.

أيْ: هو- سبحانه- الذي خلق السَّموات والأرض في ستَّة أوقات، ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِى﴾ ، استواء يليق به- تعالىٰ-. بلا كيف، ولا تمثيل، ولا تشبيه، لاستحالة اتِّصافه- تعالىٰ: بصفات المحدثين، ولوجوب تنزيهه عمَّا لا يليق به ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ " (١) .

---

(١) انظر : التفسير الوسيط للقرآن الكريم (٥/ ٢٨٤-٢٨٥) ، (٧/ ٢١-٢٢) ، (٧/ ٤٣٩) ، (١٠/ ٢١٣) ، (١١/ ١٤٤) ، (١٤/ ١٩٩-٢٠٠) بالترتيب .

وقَالَ الدكتور محمَّد سعيد رَمَضَان البوطي (٢٠١٣م) : " ... والْجَوَاب أَنَّ هَذِه النُّصُوص القرآنيَّة من نوع الْمُتَشَابه الَّذِي ذكر الله عزَّ وجلَّ أنَّ فِي كِتَابه الْكَرِيم آيَات مِنْهُ . وَالْمَقْصُود بالمتشابه : كلُّ نَصٍّ تجاذبته الاِحْتِمَالَات حول الْمَعْنىٰ الْمُرَاد مِنْهُ ، وأوهم بِظَاهِرِهِ مَا قَامَت الْأَدِلَّة علىٰ نَفْيه . غير أَن هُنَالك آيَات أُخْرَىٰ تتَعَلَّق بِصِفَات الله تَعَالَىٰ أيضاً ، وَلكنَّها محكمات ، أَي : قاطعة فِي دلالاتها ، لَا تحْتَمل إِلَّا مَعْنَاهَا الْوَاضِح الصَّرِيح ، كَقَوْلِه جلَّ جلاله : ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورىٰ: ١١] ، و ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ * وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ١ – ٤]

وَقد أوضح الله فِي كتابه بصريح العبارة ، ضَرُورَة اتِّبَاع الْمُؤمن للنُّصوص المحكمة فِي كِتَابه ، وَبِنَاء عقيدته فِي الله بموجبها ، ووضع النُّصُوص المتشابهة ، من وَرَائِهَا ، من حَيْثُ فهمها وَالْوُقُوف علىٰ الْمَعْنىٰ الْمُرَاد منهَا . وشدَّد النَّكير علىٰ من يتجاهل النُّصُوص المحكمة النيِّرة القاطعة ليلحق العبارة المتشابهة الغامضة ، ويفسِّرها كَمَا يَشَاء ، وَذَلِكَ فِي قَوْله عزَّ وجلَّ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] .

وَبِنَاء علىٰ ذَلِك ، فقد اتَّفق الْمُسلمُونَ كلُّهم ، علىٰ تَنْزِيه الله تَعَالَىٰ عَمَّا يَقْتَضِيهِ ظَاهر تِلْكَ النُّصُوص القرآنيَّة ، والأحاديث النبويَّة ، من الصِّفات المنافية لكمال الله وألوهيَّته ، تنفيذاً لأمر الله عزَّ وجلَّ ، وانسجاماً مع تحذيره من اتِّبَاع الْمُتَشَابه ، والخوض فِي تَأْوِيله مَعَ ترك الْمُحكم الْوَاضِح .

وَبعد أَن اتَّفقُوا علىٰ ذَلِك – وَهَذَا هُوَ الْقدر الَّذِي يجب أَن يَعْتَقِدهُ الْمُسلم – اخْتلفُوا فِي موقفهم من تِلْكَ النُّصُوص المتشابهة إلىٰ مذهبين :

أَوَّلهمَا : تمسَّك بِهِ السَّلف المتقدِّمون ، وَثَانِيهمَا جنح إِلَيْهِ من بعدهمْ من الْمُتَأَخِّرين ، فَمذهب السَّلف إلىٰ عدم الْخَوْض فِي تَأْوِيل أَوَ تَفْسِير تفصيلي لهَذِهِ النُّصُوص ، والاكتفاء بإثبات ما أثبته الله تعالىٰ لذاته ، مع تنزيهه عزَّ وجلَّ عَن كلِّ نقص ومشابهة للحوادث ، وسبيل ذَلِك التَّأْوِيل الإجمالي لهَذِهِ النُّصُوص ، وتحويل الْعلم التَّفصيلي بِالْمَقْصُودِ مِنْهَا إِلىٰ علم الله عزَّ وجلَّ .

أَمَّا ترك هَذِه النُّصُوص علىٰ ظَاهرهَا دون أي تَأْوِيل لها سَوَاء كَانَ إجماليّاً أَو تفصيليّاً ، فَهُوَ غير جَائِز ، وَهُوَ شَيْء لم يجنح إِلَيْهِ سلف وَلَا خلف . كَيفَ وَلَو فعلت ذَلِك لحملت عقلك معاني متناقضة فِي شأن كثير من هَذِه الصِّفَات . فقد أَسْند الله تَعَالَىٰ إِلىٰ نَفسه الْعين بِالْإِفْرَادِ فِي قَوْله : ﴿ وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩] ، وَأسْندَ مرّة إِلىٰ نَفسه الْأَعْين بِالْجمعِ فَقَالَ : ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ ﴾ [الطور: ٤٨] ، فَلَو ذهبت تفسِّر كلاً من

الأيتين علىٰ ظاهرهما دون أَي تَأْوِيل لألزمت الْقُرْآن الْكَرِيم بتناقض هُوَ مِنْهُ بَرِيء ، وتقرأ قَوله تَعَالَىٰ : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ، وَقَوله : ﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦] ، فإن فسَّرت الْآيَتَيْنِ علىٰ ظاهرهما دون أَي تَأْوِيل إجمالي أَو تفصيلي ألزمت كتاب الله تَعَالَىٰ بالتَّناقض الْوَاضِح ، إِذْ كَيفَ يكوف مستوياً علىٰ عَرْشه وَبِدُون تَأْوِيل ، وَيكون فِي الْوَقْت نَفسه أقرب إليَّ من حَبل الوريد ؟ ! بدون أي تأويل . وتقرأ قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦] ، وَقَوله تَعَالَىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ ﴾ [الزخرف: ٨٤] ، فَلئن فسَّرتهما علىٰ ظاهرهما أقحمت التَّنَاقُض فِي كتاب الله جلَّ جَلَاله كَمَا هُوَ وَاضح .

وَلَكِنَّك عندما تنزِّه الله تَعَالَىٰ حِيَال جَمِيع هَذِه الْآيَات عَن مشابهة مخلوقه فِي أَن يتحيَّز فِي مَكَان ، وَتَكون لَهُ أبعاد وأعضاء وَصُورَة وشكل ، ثمَّ أثبته لله ما أثبته هو لذاته ، علىٰ نحو يليق بكماله ، وذلك بأن تكِل تَفْصِيل الْمَقْصُود بِهَذِهِ النُّصُوص إلىٰ الله جلّ جَلَاله تكون قد سلمت بذلك من التَّنَاقُض فِي الْفَهم ، وسلمت الْقُرْآن من توهُّم أَي تنَاقض فِيهِ .

وَهَذِه هِيَ طَرِيقَة السَّلف رَحِمهم الله . أَلا تراهم يَقُولُونَ عنها : أمرُّوها بِلَا كَيفَ ، إِذْ لَوْلَا أَنَّهم يؤولونها تَأْوِيلاً إجماليَّاً بِالْمَعْنَىٰ الَّذِي أوضحنا ، لما صَحَّ مِنْهُم أَن يَقُولُوا ذلك . إذ لماذا يمرُّونها بِلَا كَيفَ وَدلَالَة اللُّغَة والصِّياغة الْعَرَبيَّة الْوَاضِحَة تمنع كلَّ لُبس أَو جهل ، سَوَاء فِي أصل الْمَعْنىٰ أَو فِي كيفيَّته . وَلَكنَّهمْ أيقنوا أَنَّ الأمر لَيس علىٰ ظَاهر مَا تدلُّ عَلَيْهِ الصِّياغة واللغة ، بِسَبَب مَا دلَّت عَلَيْهِ الْآيَات المحكمة الْأُخْرَىٰ ، وَهَذَا تَأْوِيل إجمالي وَاضح . إِلَّا أَنَّهم لم يقحموا أنفسهم فِي تَفْسِير هَذِه النُّصُوص بكيفيَّات أُخْرَىٰ يلتزمونها ، وهذا هو التَّوقُّف عن التَّأويل التَّفصيلي ، فتأمَّل ذلك فإنَّه دقيق وهو الحقُّ الذي لا ينبغي أن يلتبس عليك بغيره .

وَمذهب الْخلف الَّذين جَاءُوا من بعدهمْ هُوَ تَأْوِيل هَذِه النُّصُوص بِمَا يَضعهَا علىٰ صِرَاط وَاحِد من الْوِفَاق مَعَ النُّصُوص المحكمة الْأُخْرَىٰ الَّتِي تقطع بتنزُّه الله تَعَالَىٰ عَن الْجِهَة وَالْمَكَان والجارحة . ففسَّروا الاسْتوَاء فِي ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] بتسلط الْقُوَّة وَالسُّلْطَان ، وَهُوَ معنىٰ ثَابت فِي اللُّغَة مَعْرُوف . وفسَّروا الْيَدَ فِي الْآيَة الْأُخْرَىٰ ، بِالْقُوَّةِ أَو بِالْكَرمِ ، وَالْعين بالعناية وَالرِّعَايَة ، وفسَّروا الأصبعين فِي الحَدِيث بالإرادة وَالْقُدْرَة ، وَقَالُوا فِي حَدِيث : " إِنَّ الله خلق آدم علىٰ صورته " : إِنَّ الضَّمِير رَاجع إلىٰ آدم لَا إلىٰ ذَات الله ، أَي : إِنَّ الله خلق آدم مُنْذُ اللحظة الأولىٰ الَّتِي أوجده فِيهَا علىٰ صورته وهيئته الَّتِي كَانَ يتمتَّع بهَا فِيمَا بعد ، فَلم يتطوَّر من شكل إلىٰ آخر ، ويحتمل أن يعود الضَّمير فيه علىٰ الأخ المذكور في صدر الحديث ، حسب الرِّواية التي ساقها مسلم في صحيحه ، وهي : " فإذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه ، فإنَّ الله

خلق آدم على صورته " ، أي : فليكرم الوجه الذي هو مظهر لخلقة آدم عليه الصَّلاة والسَّلام ، أو ضمير عائد إلى ذات الله تعالى ، وذلك كما تدلُّ عليه الرِّواية الثَّابتة الأخرى : " إنَّ الله خلق آدم على صورة الرَّحمن " ، ولكنَّ الصُّورة بمعنى الصِّفة ، أي : جهَّزه بصفات العلم والإدراك التي هي من صفات الله عزَّ وجلَّ .

واعلم أنَّ مَذْهَب السَّلف في عصرهم كَانَ هُوَ الْأَفْضَل والأسلم ، مع الْإِيمَان الفطري المرتكز فِي كلٍّ من الْعقل وَالْقلب . وَمذهب الْخلف فِي عصرهم أصبح هُوَ الْمصير الَّذِي لَا يُمكن التَّحَوُّل عَنهُ ، بِسَبَب مَا قَامَ من الْمذَاهب الفكريَّة والمناقشات العلميَّة ، وبسبب ظُهُور عُلُوم البلاغة الْعَرَبيَّة مقعَّدة فِي قَوَاعِد من الْمجَاز ، والتَّشبيه ، والاستعارة .

وَهَكَذَا ، كَانَ بوسع الإِمَام مَالك رَحمَه الله أَن يَقُول فِي عصره لذَلِك الَّذِي سَأَلَهُ عَن معنى الإستواء فِي الْآيَة : " الكيف غير مَعْقُول ، والإستواء غير مَجْهُول ، وَالْإِيمَان بِهِ وَاجِب ، وَالسُّؤَال عَنهُ بِدعَة " . إِذْ كَانَ الْعَصْر عصر إِيمَان ويقين راسخين ، بِسَبَب قرب الْعَهْد بعصر النُّبُوَّة ، وامتداد الْإِشْرَاق إِلَيْهِ . وَلَكِن لم يكن بوسع الأئمَّة الَّذين قاموا فِي عصر التَّدوين وازدهار الْعُلُوم واتساع حلقات الْبَحْث وفنون البلاغة أَن يسلمُوا ذَلِك التَّسْلِيم دون أَن يحلِّلوا هَذِه النُّصُوص على ضوء مَا انْتَهوا إِلَيْهِ من فنون البلاغة وَالْمجَاز ، خُصُوصا أَنَّ فهم الزَّنَادِقَة الَّذين لَا يقنعهم مَنْهَج التَّسْلِيم ، ويتظاهرون بِالْحَاجةِ إِلَى الْفَهم التَّفصيلي ، وَإِن كَانُوا فِي حَقِيقَة الْأَمر معاندين .

والمهم أَن تعلم بأَنَّ كلاً من المذهبين منهجان إِلَى غَايَة وَاحِدَة ، لِأَنَّ الْمَآل فيهمَا إِلَى أَنَّ الله عزَّ وجلَّ لَا يُشبههُ شَيْء من مخلوقاته ، وَأَنَّه منزَّه عَن جَمِيع صِفَات النَّقْص . فَالْخِلَاف الَّذِي تَرَاهُ بَينهمَا خلاف لَفْظِي وشكلي فَقَط " (١) .

وقال الدكتور وهبة بن مصطفى الزُّحيلي (٢٠١٥م) : " العرش أحد المخلوقات بل هو أعظم المخلوقات، لذا خصَّ بالذِّكر، وهو مخلوق معيَّن، وجسم ما، وقد استوى الله على عرشه بعد خلق السَّماوات والأرض، يدبِّر الأمر، ويصرِّف النِّظام، ويمارس السُّلطان، ويستولي على زمام الأمور استيلاء شاملاً، ونحن نؤمن كإيمان الصَّحابة باستواء الله على العرش بكيفيَّة تليق به، من غير تشبيه ولا تجسيد ولا تكييف، أي من غير تحديد بجهة، ولا تقدير بوصف، وتترك معرفة الحقيقة إلى الله تعالى، قال الإمام مالك رحمه الله: الاستواء معلوم (أي في اللغة) والكيف (أي كيفية الاستواء) مجهول، والسُّؤال عنه بدعة " .

(١) انظر : كبرى اليقينيات الكونية (ص١٣٧-١٤١) .

وقال أيضاً : " ثمَّ استوىٰ ربُّنا تبارك وتعالىٰ استواء يليق بعظمته وجلاله، ولا يعلم كيفيَّته إلَّا هو، والعرش أعظم المخلوقات، واستوىٰ بقهره وغلبته، وقد سئل الإمام مالك: كيف استوىٰ؟ فقال: «الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسُّؤال عنه بدعة» .

وقال أيضاً : " والله تعالىٰ في استوائه علىٰ العرش يدبِّر أمر الخلائق والكون بما يتَّفق مع حكمته وعلمه، ويقدِّر أمر الكائنات علىٰ ما اقتضته حكمته، وسبقت به كلمته " .

وقال أيضاً : " ومن مظاهر قدرة الله تعالىٰ وعظيم سلطانه: أنَّه سبحانه هو الذي خلق السَّماوات بغير أعمدة نشاهدها بالعين المجرَّدة، ثمَّ استوىٰ الله علىٰ أعظم المخلوقات وهو العرش استواء يليق به " .

وقال أيضاً : " ثمَّ استوىٰ علىٰ أعظم مخلوقاته: وهو العرش العظيم استواء يليق بذات الله وجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تحديد بزمان أو مكان " (١) .

وقال الأستاذ وهبي سليمان غاوجي الألباني ، في تقديمه لكتاب : " إيضاح الدَّليل " لابن جماعة الكناني الحموي (٧٣٣هـ) : " وَقَالَ الْمُحَقِّق المتقن الشَّيخ شُعَيْب الأرنؤوط ، مُحَقّق سير أَعْلَام النُّبلاء للذَّهبي ، وَشرح السُّنَّة لِلْبَغوِيِّ ، وَزَاد الْمسير لِابْنِ الْجَوْزِيّ ، وَغَيرهَا ، فِي مُقَدّمَة " أقاويل الثِّقَات فِي تَأْوِيل الْأَسْمَاء وَالصِّفَات " للشَّيْخ مرعي بن يُوسُف الْحَنْبَلِيّ : " وَلَا بُدَّ لي من التَّنويه علىٰ أَنَّ مَذْهَب السَّلف لَا يضرُّهُ أَن يكون بعض المنتسبين إِلَيْهِ قد أثبتوا خطأ صِفَات الله تَعَالَىٰ اعْتِمَاداً علىٰ أَحَادِيث ضَعِيفَة واهية ، الْتبس عَلَيْهِم أمرُهَا ، لأَنَّهم لَيْسُوا من أهل الشَّأْن ، فَإِنَّ صنيعهم هَذَا لَا علاقَة لَهُ بِصِحَّة وسلامة الْمنْهَج الذي انْتهىٰ إليه السَّلف ، فَمَا كَانَ من هَذَا الْقَبِيل مِمَّا هُوَ منشور فِي بعض الْكتب يردُّ وَلَا يُقبل ، وَيتّبع فِي ذَلِك الْقَاعِدَة الْعَامَّة فِي هَذَا الْبَاب وَغَيره فِي الِاعْتِمَاد علىٰ مَا صَحَّ من الْأَحَادِيث وردِّ مَا سواهُ .

قلت : وَمَا نسب إِلىٰ ابْن عَبَّاس رَضِي الله عَنْهُمَا أَنَّه قَالَ فِي قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف: ٥٤] ، اسْتَقرَّ علىٰ الْعَرْش ، وَقد امْتَلَأَ بِهِ أَو صعد إِلَيْهِ أَو اسْتَوَت عِنْده الخلائق ، وما إلىٰ ذلك ، فذلك من رواية أبي صاح ومحمد بن مروان الكلبي . قال البيهقي :كلُّهم متروك عِنْد أهل الْعلم بِالْحَدِيثِ لَا يحتجُّون بِشَيْء من رواياتهم ، لِكَثْرَة الْمَنَاكِير فِيهَا ، وَظُهُور الْكَذِب مِنْهُم فِي رواياتهم . وَنقل عَن حبيب بن أبي ثَابت : كُنَّا نُسَمِّيه دروغ زن (٢) يَعْنِي أَبَا صَالح مولىٰ أم هانىء ، وَذكره بِسَنَدِهِ إِلىٰ عَليّ بن الْمَدِينيّ ، قَالَ : سَمِعت يحيىٰ بن سعيد الْقطَّان يحدِّث عَن سُفْيَان ، قَالَ : قَالَ الْكَلْبِيّ : قَالَ لي أبو صَالح : كلُّ مَا حدَّثتك كذب .

---

(١) انظر : التفسير الوسيط للزحيلي (١/ ٦٧٤) ، (٢/ ٩٤٠) ، (٢/ ١١٤٤) ، (٣/ ٢٠٤١) بالترتيب .

(٢) ومعناه بالفارسيَّة : الكذَّاب .

وَعَن سُفْيَان ، عَن الْكَلْبِيّ ، قَالَ : قَالَ لي أَبُو صَالح : انْظُر كلَّ شَيْء رويت عنِّي عَن ابْن عَبَّاس رَضِي الله عَنْهُمَا ، فَلَا ترْوِه .

وَقَالَ أَبُو مُعَاوِيَة : قُلْنَا للكلبي : بَيِّن لنا مَا سَمِعت من أبي صَالح ، وَمَا هُوَ قَوْلك ، فَإِذا الْأَمر عِنْده قَلِيل .

وَقَالَ يحيىٰ بن معِين : الْكَلْبِيّ لَيْسَ بِشَيْء .

وَقَالَ الإِمَام البُخَارِيّ :مُحَمَّد بن مَرْوَان الْكَلْبِيّ الْكُوفِي صَاحب الْكَلْبِيّ سكتوا عَنهُ ، وَلَا يكْتب حَدِيثه الْبَتَّة ، قلت : وَكَيف يجوز أَن تكون مثل هَذِه الْأَقَاوِيل صَحِيحَة عَن ابْن عَبَّاس رَضِي الله عَنْهُمَا ثمَّ لَا يَرْوِيهَا وَلَا يعرفهَا أحد من أَصْحَابه الْأَثْبَات مَعَ شدَّة الْحَاجة إِلىٰ مَعْرِفَتهَا ؟ وَمَا تفرَّد بِهِ الْكَلْبِيّ وَأَمْثَاله يُوجب الْحَدَّ لله تَعَالَىٰ ، وَالْحَدُّ يُوجب الْحَدث ، لحَاجَة الْحَدِّ إِلىٰ حادٍّ خصَّه بِهِ ، والباري قديم لم يزل ، وَقد علم المشتغلون بالتَّفسير والْحَدِيث أَنَّ ابْن عَبَّاس رَضِي الله عَنْهُمَا هُوَ أَكثر من افتري عَلَيْهِ من أقاويل فِي التَّفْسِير والْحَدِيث ، وَلَعَلَّ ذَلِك كَانَ لمكانته رَضِي الله عَنهُ من رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ودعائه لَهُ أَن يفقِّهه الله فِي الدِّين ، ويعلِّمه التَّأْوِيل ، ولكونه ابْن عَمّ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَإِنَّك لتجد لَهُ تفاسير عدَّة فِي آيَة وَاحِدَة ، وتجد فِيهَا تنافراً وتعارضاً ، وَلَا حول وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللهَّ ، أَلا لَيْت من يعدّ رِسَالَة دكتوراة أَن يكْتب فِي ابْن عَبَّاس رَضِي الله عَنهُ وجوانبه الْعَظِيمَة فِي الْعُلُوم ، ويمحِّص تمحيصاً مَا رُوِيَ عَنهُ من أَقْوَال فِي التَّفْسِير ، وَفِي الإعتقاد ، وَأَحَادِيث فِي ذَلِك وَذَاكَ .

وَظهر من قَالَ بِغَيْر دَلِيل من الْكتاب وَالسُّنَّة : إِنَّ الله تَعَالَىٰ اسْتَوىٰ بِذَاتِهِ فَوق الْعَرْش ، بَدَلاً من ﴿ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ الثَّابِت بنَصِّ الْقُرْآن الْكَرِيم ، وَإِنَّ الله بَائِن من خلقه ، قَالَ الإِمَام الكوثري رَحمَه الله تَعَالَىٰ : وَلَفظ بَائِن من خلقه لم يرد فِي كتاب وَلَا سُنَّة ، وإِنَّما أطلق من أطلق من السَّلف بِمَعْنىٰ نفي الممازجة ، ردَّاً علىٰ جهم ، لَا بِمَعْنىٰ الابتعاد بالمسافة ، تَعَالَىٰ الله عَن ذَلِك ، كَمَا صرَّح بذلك فِي الْأَسْمَاء وَالصِّفَات . وَأَمَّا لفظ فَوق الْعَرْش فَلم يرد مَرْفُوعاً إِلَّا فِي بعض طرق حَدِيث الأوعال من رِوَايَة ابْن مندة فِي التَّوحيد ، وَعبد الله بن عميرَة فِي سَنَده مَجْهُول الْحَال ، وَلم يدْرك الْأَحْنَف ، فضلاً عَن العبَّاس .

وَقَالَ السَّلَفِي !!! محمَّد نَاصِر الدِّين الألباني فِي مُقَدّمَة مُخْتَصر كتاب الْعُلُوّ للْإِمَام الذَّهَبِيّ بعد كَلَام : وَمن هَذَا الْعرض تبيَّن أَنَّ هَاتين اللفظتين : بِذَاتِهِ ، بَائِن ، لم تَكُونَا معروفتين فِي عهد الصَّحَابَة رضوَان الله عَلَيْهِم ، قلت : وَلَا فِي عهد التَّابِعين ، وَلَكِن لَمَّا ابتدع الجهم وَأَتْبَاعه القَوْل بِأَنَّ الله فِي كلِّ مَكَان ، اقْتضىٰ ضَرُورَة الْبَيَان أَن يتَلَفَّظ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّة الْأَعْلَام بِلَفْظ بَائِن دون أَن يُنكره أحد مِنْهُم ، أَي : من أُولَئِكَ الَّذين أَحدقُوا . قلت : لقد رأىٰ أُولَئِكَ وَدون دَلِيل أَنَّ سَبِيل الرَّدِّ علىٰ الجهم الَّذِي حكم عَلَيْهِ بالْكفْر ، وَقتل عَلَيْهِ ،

وَالْحَمْد لله ، هُوَ التَّلَفُّظ بِمَا يُوهم التَّشْبِيه والتَّجسيم فِي حقِّ الله تَعَالَىٰ ، والحلول فِي مَكَان ، فَقَالُوا : مستو بِذَاتِهِ ، وبائن عَن خلقه ، فدفعوا تَعْطِيل الجهم وتأويله بِشَيْءٍ قريب غير بعيد من حَيْثُ اللَّفْظ من تجسيم محمَّد بن كرَّام السِّجسْتانِي حَتَّىٰ ظَهَرُوا كَأَنَّهُمْ أَوْلِيَاء علىٰ الله تَعَالَىٰ ، يضيفون إِلَيْهِ مَا شَاءُوا من الألقاب حرصاً علىٰ التَّوحيد !!! أَلا ليتهم سكتوا ، ونزَّهوا ، وفوَّضوا ، كَمَا فعل السَّلف ، وَسَيَأْتِي بَيَان هَذَا ...

وَلَقَد تقدَّم قَول التَّابِعِيّ الْجَلِيل أبي حنيفَة رَحمَه الله تَعَالَىٰ : لَا يَنْبَغِي لأحد أَن ينْطق فِي الله تَعَالَىٰ بِشَيْءٍ من ذَاته ، وَلَكِن يصفه بِمَا وصف سُبْحَانَهُ بِهِ نَفسه ، وَلَا يَقُول فِيهِ بِرَأْيِهِ شَيْئاً .

وَقَالَ إِمَام الْحَرَمَيْنِ رَحمَه الله تَعَالَىٰ : أجمع الْمُسلمُونَ علىٰ منع تَقْدِير صفة مُجْتَهد فِيهَا لله عزَّ وجلَّ لَا يتَوَصَّل فِيهَا إِلىٰ قطع بعقل أَو سمع ، وَأجْمع الْمُحَقِّقُونَ علىٰ أَنَّ الظَّوَاهِر يَصحُّ تخصيصها أَو تَركهَا بما لا يقطع بِهِ من أَخْبَار الْآحَاد والأقيسة وَمَا يتْرك بِمَا لَا يقطع بِهِ كَيفَ يقطع بِهِ " (١) .

ثَانِيَاً : وَمِنَ الآيَاتِ التِيْ يَسْتَدِلُّوْنَ بِهَا عَلَى العُلُوِّ الحِسِّيِّ المَكَانِي لله تَعَالَى : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ [الملك:١٦] .

والنَّاظر فيما قاله جمهور العلماء في تفسير الآية يجد أنَّهم أجمعوا علىٰ وجوب تنزيه الله تعالىٰ عن ظاهر الآية ، لأَنَّ الدَّلِيل الْعقلِيّ الْقَاطِع والنَّقلي الشَّائع يدلَّان علىٰ أَنَّ الْآيَة لَيست علىٰ ظَاهرهَا ، ولذلك يجب صرف الآية عن ظاهرها ، وتأويلها بما يتناسب مع القواعد اللغويَّة وكذا القواطع العقديَّة ... ومن التَّأويلات التي ذكرها العلماء للآية :

(١) أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماء قدرته وسلطانه وعرشه ومملكته .

(٢) أراد الملائكة لأنَّهم سكَّان السَّماء وهم الموكَّلون بالعذاب ، فخوَّفهم بالملائكة أن ينزلوا عليهم العقوبة من السَّماء ، أو يخسفوا بهم الأرض ، وكذلك خوَّفهم أن يرسلوا عليهم حجارة كما أرسلوا علىٰ قوم لوط

(٣) أنَّهم كانوا يعتقدون التَّشبيه، وأنَّه في السَّماء ، وأنَّ الرَّحمة والعذاب ينزلان منه ، وكانوا يدعونه من جهتها ، فقيل لهم علىٰ حسب اعتقادهم : أأمنتم من تزعمون أنَّه في السَّماء ، وهو متعال عن المكان أن يعذِّبكم بخسف أو بحاصب ...

وفيما يلي استعراض لأهمِّ ما ذكره العلماء من تأويلات للآية الكريمة ...

---

(١) انظر : إيضاح الدليل (ص٤٣-٤٥) .

قال الإمام أبو الليث السَّمرقندي (٣٧٣هـ) : " ... ثمَّ خوفهم ، فقال عزَّ وجلَّ : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ قال الكلبي ومقاتل : يعني : أمنتم عقوبة من في السَّماء ؟ يعني : الرَّب تعالىٰ إن عصيتموه . ويقال : هذا علىٰ الاختصار ، ويقال : أمنتم عقوبة من هو جار حكمه في السَّماء ...

وقال أيضاً : ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، يعني : عذاب من في السَّماء " (١) .

وقال الإمام أبو بكر الباقلَّاني (٤٠٣هـ) : " فإن قيل إذا كان مرئيّاً فأين هو ؟ قيل لهم : إن أردتم أين هو في وصف المنزلة والرِّفعة والجلال فهو كما وصف نفسه بقوله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ ، وبقوله : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ ، وبقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ ، وبقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ ، قيل لهم: الأين سؤال عن مكان وليس هو ممَّا يحويه مكان، لما قدَّمنا من الحجج والبراهين بحمد الله الملك المنَّان " (٢) .

وقال الإمام الثَّعلبي (٤٢٧هـ) : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، قال ابن عبَّاس : أمنتم عذاب من في السَّماء أن عصيتموه . وقيل : معنىٰ : أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماء : قدرته وسلطانه وعرشه ومملكته ، وقيل : إنَّما قال : ﴿ مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ لأنَّهم كانوا يعترفون بأنَّه إله السَّماء ، ويزعمون أنَّ الأصنام آلهة الأرض ، وكانوا يدعون الله من جهة السَّماء ، وينتظرون نزول أمره بالرَّحمة والسَّطوة منها .

وقال المحقِّقون : معنىٰ قوله: ﴿ مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي فوق السَّماء ،كقوله تعالىٰ : ﴿ فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [التوبة:٢] ، أي : فوقها ، لا بالمماسَّة والتَّحيُّز ، ولكن بالقهر والتَّدبير " (٣) .

وقال الإمام ابن فورك (٤٠٦هـ) : " قَوْله جلَّ وَعلا ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ وَذَلِكَ بِمَعْنى الْقَهْر وَالتَّدْبِير والمفارقة لَهُ بالنَّعت وَالصِّفة دون التَّحيُّز فِي الْمَكَان وَالْمحلِّ والجهة " (٤) .

وقال الإمام القشيري (٤٦٥هـ) : ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أراد بهم الملائكة الذين يسكنون السَّماء ، فهم موكَّلون بالعذاب ، وخوَّفهم بالملائكة أن ينزلوا عليهم العقوبة من السَّماء ، أو يخسفوا بهم الأرض ، وكذلك

---

(١) انظر : بحر العلوم (٣/ ٤٧٧) .

(٢) انظر : الإنصاف (ص٧٥) .

(٣) انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٩/ ٣٥٩) .

(٤) انظر : مشكل الحديث وبيانه (ص١٦٩) .

خوَّفهم أن يرسلوا عليهم حجارة كما أرسلوا على قوم لوط . وبيَّن أنَّ من كذَّب قبل هؤلاء رسلهم كيف كانت عقوبتهم " (١) .

وقال الإمام الواحدي(٤٦٨هـ) : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ قال المفسِّرون : يعني : عقوبة من السَّماء ، أو عذاب من في السَّماء .

والمعنى : من في السَّماء سُلطانه ، ومُلكه ، وقُدرته ، لا بدَّ من أن يكون المعنى هذا ، لاستحالة أن يكون الله في مكان أو موصوفًا بجهة ، وأهل المعاني يقولون : من في السَّماء هو الملك الموكَّل بالعذاب وهو جبريل " (٢) .

وقال أيضاً : ... قدرته وسلطانه وعرشه " (٣) .

وقال الإمام البغوي (٥١٠هـ) : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ، قَالَ ابن عبَّاس: أي عقاب مَنْ فِي السَّماء إِنْ عَصَيْتُمُوهُ " (٤) .

وقال الإمام الزَّمخشري (٥٣٨هـ) : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فيه وجهان: أحدهما من ملكوته في السَّماء، لأنَّها مسكن ملائكته وثمَّ عرشه وكرسيّه واللوح المحفوظ، ومنها تنزل قضاياه وكتبه وأوامره ونواهيه. والثَّاني: أنَّهم كانوا يعتقدون التَّشبيه، وأنَّه في السَّماء، وأنَّ الرَّحمة والعذاب ينزلان منه، وكانوا يدعونه من جهتها، فقيل لهم على حسب اعتقادهم: أأمنتم من تزعمون أنَّه في السَّماء، وهو متعال عن المكان أن يعذِّبكم بخسف أو بحاصب، كما تقول لبعض المشبِّهة: أما تخاف من فوق العرش أن يعاقبك بما تفعل، إذا رأيته يركب بعض المعاصي " (٥) .

وقال الإمام ابن عطيَّة الأندلسي (٥٤٢هـ) : " وقوله تعالى: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ جار على عرف تلقِّي البشر أوامر الله تعالى، ونزول القدر بحوادثه ونعمه ونقمه وآياته من تلك الجهة، وعلى ذلك صار رفع الأيدي والوجوه في الدُّعاء إلى تلك النَّاحية " (٦) .

---

(١) انظر : لطائف الإشارات (تفسير القشيري) (٣/ ٦١٣) .

(٢) انظر : الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٤/ ٣٢٩) .

(٣) انظر : الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (ص١١١٨) .

(٤) انظر : معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) (٥/ ١٢٦) .

(٥) انظر : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٥٨٠-٥٨١) .

(٦) انظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٣٤١).

وقال الإمام محمود بن أبي الحسن بن الحسين النَّيسابوري (المتوفى: نحو ٥٥٠هـ) : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ من الملائكة ، أو من في السَّماء عرشه أو سلطانه أو في بمعنى فوق ، كقوله : ﴿ فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ، فيكون المراد العلوّ والظُّهور . أو المعنى : من هو المعبود في السَّماء وخصَّ السَّماء للعبادة برفع الأيدي في الأدعية إليها ونزول الأقضية منها " (١) .

وقال الإمام ابن الجوزي (٥٩٧هـ) : ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ قال ابن عبَّاس : أمنتم عذاب مَنْ في السَّماء ، وهو الله عزَّ وجلَّ " (٢) .

وقال الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَظِيرُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ ﴾ [الْأَنعام: ٦٥] وَقَالَ: ﴿ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الْقَصَصِ: ٨١] .

وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُشَبِّهَةَ احْتَجُّوا عَلَى إِثْبَاتِ الْمَكَانِ للهِ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ، وَالْجَوَابُ عَنْهُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةُ لَا يُمْكِنُ إِجْرَاؤُهَا عَلَى ظَاهِرِهَا بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، لِأَنَّ كَوْنَهُ فِي السَّماء يَقْتَضِي كَوْنَ السَّماء مُحِيطًا بِهِ مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ، فَيَكُونُ أَصْغَرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَالسَّمَاءُ أَصْغَرُ مِنَ الْعَرْشِ بِكَثِيرٍ، فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ اللهُ تَعَالَى شَيْئًا حَقِيرًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْعَرْشِ، وَذَلِكَ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ مُحَالٌ، وَلِأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ ﴾ [الْأَنعَام: ١٢] فَلَوْ كَانَ اللهُ فِي السَّماء لَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ مَالِكًا لِنَفْسِهِ وَهَذَا مُحَالٌ، فَعَلِمْنَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ يَجِبُ صَرْفُهَا عَنْ ظَاهِرِهَا إِلَى التَّأْوِيلِ، ثمَّ فِيهِ وُجُوهٌ: أَحَدُهَا: لِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَقْدِيرُ الْآيَةِ: أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماء عَذَابُهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ عَادَةَ اللهِ تَعَالَى جَارِيَةٌ، بِأَنَّهُ إِنَّمَا يَنْزِلُ الْبَلَاءُ عَلَى مَنْ يَكْفُرُ بِاللهِ وَيَعْصِيهِ مِنَ السَّماء فَالسَّمَاءُ مَوْضِعُ عَذَابِهِ تَعَالَى، كَمَا أَنَّه مَوْضِعُ نُزُولِ رَحْمَتِهِ وَنِعْمَتِهِ ، وَثَانِيهَا: قَالَ أَبُو مُسْلِمٍ: كَانَتِ الْعَرَبُ مُقِرِّينَ بِوُجُودِ الْإِلَهِ، لَكِنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّه فِي السَّماء عَلَى وَفْقِ قَوْلِ الْمُشَبِّهَةِ، فَكَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ لَهُمْ: أَتَأْمَنُونَ مَنْ قَدْ أَقْرَرْتُمْ بِأَنَّهُ فِي السَّمَاءِ، وَاعْتَرَفْتُمْ لَهُ بِالْقُدْرَةِ عَلَى مَا يَشَاءُ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْض ، وَثَالِثُهَا: تَقْدِيرُ الْآيَةِ: مَنْ فِي السَّماء سُلْطَانُهُ وَمُلْكُهُ وَقُدْرَتُهُ، وَالْغَرَضُ مِنْ ذِكْرِ السَّماء تَفْخِيمُ سُلْطَانِ اللهِ وَتَعْظِيمُ قُدْرَتِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الْأَنعَام: ٣] فَإِنَّ الشَّيء الْوَاحِدَ لَا يَكُونُ دُفْعَةً وَاحِدَةً فِي مَكَانَيْنِ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْ كونه في السَّموات وَفِي الْأَرْضِ نَفَاذَ أَمْرِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَجَرَيَانَ مَشِيئَتِهِ في السَّموات وفي الأرض، فكذا هاهنا ، وَرَابِعُهَا: لِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: مَنْ فِي السَّماء الْمَلَكَ الْمُوَكَّلَ

---

(١) انظر : إيجاز البيان عن معاني القرآن (٢/ ٨٢٦) .

(٢) انظر : زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٣١٥) .

بِالْعَذَابِ، وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْمَعْنَى أَنْ يَخْسِفَ بِهِمُ الْأَرْض بِأَمْرِ اللهَّ وَإِذْنِهِ. وَقَوْلُهُ: فَإِذا هِيَ تَمُورُ قَالُوا مَعْنَاهُ: إِنَّ اللهَّ تَعَالَى يُحَرِّكُ الْأَرْضَ عِنْدَ الْخَسْفِ بِهِمْ حَتَّى تَضْطَرِبَ وَتَتَحَرَّكَ، فَتَعْلُو عَلَيْهِمْ وَهُمْ يُخْسَفُونَ فِيهَا، فَيَذْهَبُونَ وَالْأَرْضُ فَوْقَهُمْ تَمُورُ، فَتُلْقِيهِمْ إِلَى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ" (١) .

وقال الإمام أحمَدُ بنُ عُمَرَ القرطبيُّ (٦٥٦هـ) : " فقوله تعالىٰ : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ، وقولُ الأَمَةِ للنبيِّ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ حين قال لها : أَيْنَ اللهُ ؟ فقالَتْ : فِي السَّماء ، ولم يُنْكِرْ عليها ذلك ، وما قد رُوِيَ عن بعض السَّلف أنَّهم كانوا يُطْلِقون ذلك : ليس علىٰ ظاهره ، بل هو مُؤَوَّلٌ تأويلاتٍ صحيحةً قد أبداها كثيرٌ من أهل العلمِ في كتبهم ، لكنَّ السلَفَ ـ رضى الله عنهم ـ كانوا يجتنبون تأويلَ المتشابهات ، ولا يتعرَّضون لها ، مع عِلْمهم بأنَّ الله تعالىٰ يستحيلُ عليه سِمَاتُ الْمُحْدَثَات ، ولوازمُ المخلوقات ، واستيفاءُ المباحث في علم الكلام " (٢) .

وقال الإمام محمَّد بن أحمد القرطبي (٦٧١هـ) : " قوله تعالىٰ : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ قال ابن عبَّاس : أأمنتم عذاب من في السَّماء إن عصيتموه. وقيل : تقديره أأمنتم من في السَّماء قدرته وسلطانه وعرشه ومملكته. وخصَّ السَّماء وإن عمَّ ملكه تنبيهاً علىٰ أنَّ الإله الذي تنفذ قدرته في السَّماء لا من يعظمونه في الأرض. وقيل : هو إشارة إلىٰ الملائكة. وقيل : إلىٰ جبريل وهو الملك الموكَّل بالعذاب قلت : ويحتمل أن يكون المعنىٰ : أأمنتم خالق من في السَّماء أن يخسف بكم الأرض كما خسفها بقارون ...

وقال المحقِّقون : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ؛ كقول : ﴿ فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي فوقها لا بالمماسَّة والتَّحيُّز لكن بالقهر والتَّدبير. وقيل : معناه أمنتم من علىٰ السَّماء ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [طه:٧١] أي عليها. ومعناه أنَّه مديرها ومالكها ؛ كما يقال : فلان علىٰ العراق والحجاز ؛ أي وإليها وأميرها. والأخبار في هذا الباب كثيرة صحيحة منتشرة ، مشيرة إلىٰ العلو ؛ لا يدفعها إلَّا ملحد أو جاهل معاند. والمراد بها توقيره وتنزيهه عن السّفل والتّحت. ووصفه بالعلو والعظمة لا بالأماكن والجهات والحدود لأنَّها صفات الأجسام. وإنَّما ترفع الأيدي بالدُّعاء إلىٰ السَّماء لأنَّ السَّماء مهبط الوحي ، ومنزل القطر ، ومحل القدُس ، ومعدن المطهَّرين من الملائكة ، وإليها تُرفع أعمال العباد ، وفوقها عرشه وجنَّته ؛ كما جعل الله الكعبة قِبلة

---

(١) انظر : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (٣٠/ ٥٩٢) .

(٢) انظر : المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢/ ١٠١) .

للدُّعاء والصَّلاة ، ولأنَّه خلق الأمكنة وهو غير محتاج إليها ، وكان في أزله قبل خلق المكان والزَّمان. ولا مكان له ولا زمان. وهو الآن على ما عليه كان " (١) .

وقال الإمام النَّووي (٦٧٦هـ) : " قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ وَلَوْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا سَاكِنُ السَّماء ، لَمْ يَكُنْ مُؤْمِناً ، وَكَذَا لَوْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ سَاكِنُ السَّماء ؛ لِأَنَّ السُّكُونَ مُحَالٌ عَلَى اللهِ تَعَالَى " (٢) .

وقال أيضاً : " قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ : لَا خِلَافَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ قَاطِبَةً فَقِيهُهُمْ وَمُحَدِّثُهُمْ وَمُتَكَلِّمُهُمْ وَنُظَّارُهُمْ وَمُقَلِّدُهُمْ أَنَّ الظَّوَاهِرَ الْوَارِدَةَ بِذِكْرِ اللهِ تَعَالَى فِي السَّماء ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ وَنَحْوِهِ لَيْسَتْ عَلَى ظَاهِرِهَا بَلْ مُتَأَوَّلَةٌ عِنْدَ جَمِيعِهِمْ ، فَمَنْ قَالَ بِإِثْبَاتِ جِهَةِ فَوْقُ مِنْ غَيْرِ تَحْدِيدٍ وَلَا تَكْيِيفٍ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ وَالْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ تَأَوَّلَ فِي السَّماء ، أَيْ : عَلَى السَّماء ، وَمَنْ قَالَ مِنْ دَهْمَاءِ النُّظَّارِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ وَأَصْحَابِ التَّنْزِيهِ بِنَفْيِ الْحَدِّ وَاسْتِحَالَةِ الْجِهَةِ فِي حَقِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَأَوَّلُوهَا تَأْوِيلَاتٍ بِحَسَبِ مُقْتَضَاهَا وَذَكَرَ نَحْوَ مَا سَبَقَ ، قَالَ : وَيَا لَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي جَمَعَ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْحَقِّ كُلَّهُمْ عَلَى وُجُوبِ الْإِمْسَاكِ عَنِ الْفِكْرِ فِي الذَّاتِ كَمَا أُمِرُوا وَسَكَتُوا لِحَيْرَةِ الْعَقْلِ وَاتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ التَّكْيِيفِ وَالتَّشْكِيلِ وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ وُقُوفِهِمْ وَإِمْسَاكِهِمْ غَيْرُ شَاكٍّ فِي الوجود والموجود وَغَيْرُ قَادِحٍ فِي التَّوحيد بَلْ هُوَ حَقِيقَتُهُ ، ثُمَّ تَسَامَحَ بَعْضُهُمْ بِإِثْبَاتِ الْجِهَةِ خَاشِيًا مِنْ مِثْلِ هَذَا التَّسَامُحِ ، وَهَلْ بَيْنَ التَّكْيِيفِ وَإِثْبَاتِ الْجِهَاتِ فَرْقٌ ؟ لَكِنْ إِطْلَاقُ مَا أَطْلَقَهُ الشَّرْعُ مِنْ أَنَّه الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ، وَأَنَّهُ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَعَ التَّمَسُّكِ بِالْآيَةِ الْجَامِعَةِ لِلتَّنْزِيهِ الْكُلِّيِّ الَّذِي لَا يَصِحُّ فِي الْمَعْقُولِ غَيْرُهُ ، وهو قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، عِصْمَةٌ لِمَنْ وَفَّقَهُ اللهُ تَعَالَى ، وَهَذَا كَلَامُ الْقَاضِي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى " (٣) .

وقال الإمام البيضاوي (٦٨٥هـ) : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني الملائكة الموكلين على تدبير هذا العالم، أو الله تعالى على تأويل مَنْ فِي السَّماء أمره أو قضاؤه، أو على زعم العرب فإنَّهم زعموا أنَّه تعالى في السَّماء " (٤) .

وقال الإمام النَّسفي (٧١٠هـ) : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾أي من ملكوته في السَّماء لأنَّها مسكن ملائكته ومنها تنزل قضايا وكتبه وأوامره ونواهيه ، فكأنَّه قال : أأمنتم خالق السَّماء وملكه أو لأنَّهم كانوا يعتقدون التَّشبيه

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٢١٥-٢١٦) .

(٢) انظر : روضة الطالبين وعمدة المفتين (١٠/ ٨٥) .

(٣) انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٥/ ٢٤-٢٥) .

(٤) انظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٥/ ٢٣٠) .

وأنَّه فِي السَّماء وأنَّ الرَّحمة والعذاب ينزلان منه ، فقيل لهم على حسب اعتقادهم : أأمنتم من تزعمون أنَّه في السَّماء وهو متعالٍ عن المكان " (١) .

وقال الإمام ابن جماعة (٧٣٣هـ) : " الْآيَة السَّابِعَة قَوْله تَعَالَى : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾، وَقَوله تَعَالَى :﴿ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾[النمل:٦٥] .

اعْلَم أَنَّ الدَّلِيل الْعقلِيّ الْقَاطِع والنَّقلي الشَّائِع يدلَّان على أَن الْآيَات الْمَذْكُورَة لَيست على ظَاهرهَا لوجوه :

الأوَّل : أَنَّ لَفظة " فِي " للظَّرفيَّة وَتَعَالَى الله أَن يكون مظروفاً لخلق من خلقه . وَأَيْضًا ، فقد قَالَ : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ﴾ [الزخرف:٨٤] ، وَالْجمع بَينهمَا متناقض .

الثَّانِي : اعلم أَنَّ الْخصم يعْتَقد أَنَّ الرَّب تَعَالَى على الْعَرْش ، وَالْآيَة تضَاد ذَلِك ، لِأَنَّ من هُوَ فِي السَّماء لَيْسَ هُوَ على مَا هُوَ أَعلَى مِنْهَا بطبقات وآلاف سِنِين ، وَكَذَلِكَ لَا يَصح أَن يُقَال لمن هُوَ فَوق سطح يسع لدار عَظِيمَة فِي وَسطهَا من أَسْفَل بَيت صَغِير أَنَّه فِي ذَلِك الْبَيْت مَعَ أَنَّ نِسْبَة الْعَرْش إِلَى السَّماء أَضْعَاف أَضْعَاف ذَلِك السَّطْح بِالنِّسْبَةِ إِلَى ذَلِك الْبَيْت .

وَأَيْضًا فَإِنَّ بعض الْخُصُوم يَقُول أَنَّه على الْعَرْش ، وَقد قَامَ الدَّلِيل الْقَاطِع عِنْد الْعُقَلَاء أَن نِسْبَة السَّماء إِلَى الْعَرْش وعظمته قَلِيل جداً ، فَكيف تسع مَعَ لطفها بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْعَرْش من هُوَ ملْء الْعَرْش مَعَ عَظمته فَإِنَّهُ يلْزم إِمَّا اتساع السَّماء أَو تضاؤل الذَّات ، تَعَالَى الله عَن ذَلِك علوّاً كَبِيراً .

الثَّالِث : اعْلَم أَنَّ السَّموات كرية لقِيَام الدَّلِيل الْحسِّي والنَّقلي على ذَلِك فَإِن كَانَ فِي وَجههَا عنْدكُمْ فقد جعلتموه كفلك مِنْهَا وَإِن كَانَ فِي جِهَة الْبَعْض فترجيح من غير مُرَجّح .

فَإِن قيل : الْمُرَاد بالسَّماء الْجِنْس لَا الْمُسَمّى الْجَمِيع ، قُلْنَا يلْزم التَّنَاقُض لِأَنَّ الْعَرْش خَارج السَّموات وقلتم أَنَّه على الْعَرْش ، وَأَيْضًا يلْزم التَّجزيء أَو كَونه متحيِّز دَاخِلاً فِي حيِّزين كَما سَيَأْتِي فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأنعام:٣] ، وَالْكلُّ محَال ، تَعَالَى الله عَن ذَلِك . إِذا ثَبت ذَلِك تعيَّن أَنَّ الْمُرَاد إِمَّا مَلَائِكَة فِي السَّماء مسلَّطون على من شَاءَ الله من الْكفَّار ، لِأَنَّ اللَّفْظَة تحتمله أَو أَنَّ المخاطبين كَانُوا يَعْتَقِدُونَ اعْتِقَاد المجسِّمة ، فَقيل لَهُم بِحَسب مَا كَانُوا يعتقدونه فِي زعمهم أَو أَنَّ الْمُرَاد التَّعْظِيم وعلوّ الرُّتْبَة وَالْقُدْرَة ، أَي : من فِي السَّماء ملكوته وسلطانه وَمَلَائِكَته ، فَيكون الْمُرَاد بالسماء الْعُلُوّ والرِّفعة .

---

(١) انظر : تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) (٣/ ٥١٤) .

فَإن قيل : فِي هَاهُنَا بِمَعْنىٰ علىٰ كَقَوْلِه تَعَالَىٰ : ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ قُلْنَا : هَذَا مَرْدُود لوَجْهَيْنِ ، أَحدهمَا : أَنَّ ذَلِك خلاف الأَصْل وموضوع اللُّغَة الَّتِي نزل بهَا الْقُرْآن وممنوع عِنْد الْمُحَقِّقين من نحاة الْبَصْرَة ، بل هُوَ علىٰ بَابه لتمكّنهم علىٰ الْجُذُوع تمكُّن المظروف من ظرفه لأَنَّهم لم يَكُونُوا مستعلين عَلَيْهَا بل كَانُوا مَعهَا .

الثَّانِي : لَو أُرِيد معنىٰ علىٰ كَانَ لَفظه أفخم وَأعظم ، فَإِن قَوْله : من علىٰ السَّماء أفخم وَأعظم من قَوْله : ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ " (١) .

وقال الإمام الخازن (٧٤١هـ) : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ، قال ابن عبَّاس : يعني : عقاب مَنْ في السَّماء إن عصيتموه " (٢) .

وقال الإمام أبو حيَّان الأندلسي (٧٤٥هـ) : ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ هَذَا مَجَازٌ، وَقَدْ قَامَ الْبُرْهَانُ الْعَقْلِيُّ علىٰ أنَّ الله تَعَالَىٰ لَيْسَ بِمُتَحَيِّزٍ فِي جِهَةٍ، وَمَجَازُهُ أَنَّ مَلَكُوتَهُ فِي السَّماء لِأَنَّ فِي السَّماء هُوَ صِلَةُ مَنْ، فَفِيهِ الضَّمِيرُ الَّذِي كَانَ فِي الْعَامِلِ فِيهِ، وَهُوَ اسْتَقَرَّ، أَيْ مَنْ فِي السَّماء هُوَ، أَيْ مَلَكُوتُهُ، فَهُوَ عَلَىٰ حَذْفِ مُضَافٍ، وَمَلَكُوتُهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ. لَكِنْ خَصَّ السَّماء بِالذِّكْرِ لِأَنَّهَا مَسْكَنُ مَلَائِكَتِهِ وَثَمَّ عَرْشُهُ وَكُرْسِيُّهُ وَاللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ، وَمِنْهَا تَنْزِلُ قَضَايَاهُ وَكُتُبُهُ وَأَمْرُهُ وَنَهْيُهُ، أَوْ جَاءَ هَذَا عَلَىٰ طَرِيقِ اعْتِقَادِهِمْ، إِذْ كَانُوا مُشَبِّهَةً، فَيَكُونُ الْمَعْنَىٰ: أَأَمِنْتُمْ مَنْ تَزْعُمُونَ أَنَّه فِي السَّماءِ؟ وَهُوَ الْمُتَعَالِي عَنِ الْمَكَانِ. وَقِيلَ: مَنْ عَلَىٰ حَذْفِ مُضَافٍ، أَيْ خَالِقُ مَنْ فِي السَّماءِ. وَقِيلَ: مَنْ هُمُ الْمَلَائِكَةُ. وَقِيلَ: جِبْرِيلُ، وَهُوَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِالْخَسْفِ وَغَيْرُهُ. وَقِيلَ: مَنْ بِمَعْنَىٰ عَلَىٰ، وَيُرَادُ بِالْعُلُوِّ الْقَهْرُ وَالْقُدْرَةُ لَا بِالْمَكَانِ، وَفِي التَّحْرِيرِ: الْإِجْمَاعُ مُنْعَقِدٌ عَلَىٰ أَنَّه لَيْسَ فِي السَّماء بِمَعْنَىٰ الِاسْتِقْرَارِ، لِأَنَّ مَنْ قَالَ مِنَ الْمُشَبِّهَةِ وَالْمُجَسِّمَةِ أَنَّه عَلَىٰ الْعَرْشِ لَا يَقُولُ بِأَنَّهُ فِي السَّماء " (٣) .

وقال الإمام الشَّاطبي (٧٩٠هـ) : " ... وَالثَّالِثُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الملك: ١٦] وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ، إِنَّما جَرَىٰ عَلَىٰ مُعْتَادِهِمْ فِي اتِّخَاذِ الْآلِهَةِ فِي الْأَرْضِ، وَإِنْ كَانُوا مُقِرِّينَ بِإِلَهِيَّةِ الْوَاحِدِ الْحَقِّ؛ فَجَاءَتِ الْآيَاتُ بِتَعْيِينِ الْفَوْقِ وَتَخْصِيصِهِ تَنْبِيهًا عَلَىٰ نَفْيِ مَا ادَّعَوْهُ فِي الْأَرْضِ؛ فَلَا يَكُونُ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ إِثْبَاتِ جِهَةٍ أَلْبَتَّةَ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ ﴾ [النَّحْلِ: ٢٦] ؛ فَتَأَمَّلْهُ، وَاجْرِ عَلَىٰ هَذَا الْمَجْرَىٰ فِي سَائِرِ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ " (٤) .

---

(١) انظر : إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل (ص١١٣-١١٦) .

(٢) انظر : تفسير الخازن المسمىٰ لباب التأويل في معاني التنزيل (٧/ ١٢٦) .

(٣) انظر : البحر المحيط في التفسير (١٠/ ٢٢٦-٢٢٧) .

(٤) انظر : الموافقات (٤/ ١٥٥) .

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) : " ... قَوْلُهُ فِي السَّماء ظَاهِرُهُ غَيْرُ مُرَادٍ إِذِ اللهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الْحُلُول فِي الْمَكَانِ لَكِنْ لَمَّا كَانَتْ جِهَةُ الْعُلُوِّ أَشْرَفَ مِنْ غَيْرِهَا أَضَافَهَا إِلَيْهِ إِشَارَةً إِلى عُلُوِّ الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ ، وَبِنَحْوِ هَذَا أَجَابَ غَيْرُهُ عَنِ الْأَلْفَاظِ الْوَارِدَةِ مِنَ الْفَوْقِيَّةِ وَنَحْوِهَا ، قَالَ الرَّاغِبُ : فَوْقَ يُسْتَعْمَلُ فِي الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ وَالْجِسْمِ وَالْعَدَدِ وَالْمَنْزِلَةِ وَالْقَهْرِ فَالْأَوَّلُ بِاعْتِبَارِ الْعُلُوِّ وَيُقَابِلُهُ تَحْتَ نَحْوَ ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ [الأنعام:٦٥] ، وَالثَّانِي بِاعْتِبَارِ الصُّعُودِ وَالِانْحِدَارِ نَحْوَ ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ [الأحزاب:١٠] ، وَالثَّالِثُ فِي الْعَدَدِ نَحْوَ ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ ﴾ [النساء:١١] ، وَالرَّابع فِي الْكِبَرِ وَالصِّغَرِ كَقَوْلِهِ ﴿ بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة:٢٦] ، وَالْخَامِسُ يَقَعُ تَارَةً بِاعْتِبَارِ الْفَضِيلَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ نَحْوَ ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ [الزخرف:٣٢] ، أَوِ الْأُخْرَوِيَّةِ نَحْوَ ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [البقرة:٢١٢] ، وَالسَّادِسُ نَحْوَ قَوْلِهِ ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام:١٨] ، ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل:٥٠] " (١) .

وقال الإمام ابن عادل الحنبلي (المتوفىٰ بعد ٨٨٠ هـ) : " قوله : ﴿ مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، مفعول ﴿ ءَأَمِنتُم ﴾ وفي الكلام حذف مضاف ، أي : أمنتم خالق السَّماوات.

وقيل : " فِي " بمعنىٰ " علىٰ " ، أي : علىٰ السَّماء ، كقوله : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ [طه : ٧١] ، أي : علىٰ جذوع النَّخل.

وإنَّما احتاج القائل بهذين إلىٰ ذلك ؛ لأنَّه اعتقد أنَّ " مَنْ " واقعة علىٰ الباري ، وهو الظَّاهر ، وثبت بالدَّليل القطعي أنَّه ليس بمتحيِّز لئلَّا يلزم التَّجسيم ، ولا حاجة إلىٰ ذلك ؛ فإنَّ " مَنْ " هنا المراد بها : الملائكة سكَّان السَّماء ، وهم الذين يتولَّون الرَّحمة والنِّقمة. وقيل : خوطبوا بذلك علىٰ اعتقادهم ؛ فإنَّ القوم كانوا مجسِّمة مشبِّهة ، والذي تقدَّم أحسن.

قال ابن الخطيب : هذه الآية لا يمكن إجراؤها علىٰ ظاهرها باتِّفاق المسلمين ؛ لأنَّ ذلك يقتضي إحاطة السَّماء به من جميع الجوانب ، فيكونُ أصغر منها ، والعرش أكبر من السَّماء بكثير ، فيكون حقيراً بالنِّسبة إلىٰ العرش ، وهو باطل بالاتِّفاق ، ولأنَّه قال : ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام : ١٢] فلو كان فيهما لكان مالكاً لنفسه ، فالمعنىٰ : إمَّا من في السَّموات عذابه ، وإمَّا أنَّ ذلك ما كانت العرب تعتقد ، وإمَّا من في السَّماء سلطانه وملكه وقدرته ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام : ٣] فإنَّ الشَّيء

---

(١) انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٣/ ٤١٢).

الواحد لا يكون دفعة واحدة في مكانين ، والغرض من ذكر السَّماء تفخيم سلطان الله ، وتعظيم قدرته ، والمراد الملك الموكَّل بالعذاب ، وهو جبريلُ يخسفها بإذن الله " (١) .

وقال الإمام القمِّي النَّيسابوري (٨٥٠هـ) : " واستدلال المشبِّهة بقوله : ﴿ مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ظاهر . وأهل السُّنَّة يتأوَّلونه بوجوه منها: قول أبي مسلم : أنَّ العرب كانوا يقرُّون بوجود الإله لكنَّهم يزعمون أنَّه في السَّماء ، فقيل لهم علىٰ حسب اعتقادهم : أَأَمِنْتُمْ مَنْ تزعمون أنَّه فِي السَّماء ، ومنها : قول جمع من المفسِّرين ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ ملكوته أو سلطانه أو قهره ، لأنَّ العادة جارية بنزول البلاء من السَّماء. ومنها : قول آخرين أنَّ المراد جبرائيل يخسف بهم الأرض بأمر الله " (٢) .

وقال الإمام البقاعي (٨٨٥هـ) : ﴿ ءَأَمِنتُم ﴾ ، أي : أيُّها المكذّبون ، وخاطبهم بما كانوا يعتقدون مع أنَّه إذا حمل علىٰ الرُّتبة وأوَّل السَّماء بالعلو أو جعل كناية عن التَّصرُّف ، لأنَّ العادة جرت غالباً أنَّ من كان في شيء كان متصرِّفاً فيه صحَّ من غير تأويل ، فقال : ﴿ مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، أي : علىٰ زعمكم العالية قاهرة لكم ، أو المعنىٰ : من الملائكة الغلاظ الشِّداد الذي صرفهم في مصالح العباد ، أو المعنىٰ : في غاية العلو رتبة ، أو أنَّ ذلك إشارة إلىٰ أنَّ في السَّماء أعظم أمره ، لأنَّها تُرفع إليها أعمال عباده وهي مهبط الوحي ومنزل القطر ومحلّ القُدس والسُّلطان والكبرياء وجهة العرش ومعدن المطهَّرين والمقرَّبين من الملائكة الذين أقامهم الله في تصريف أوامره ونواهيه ، والذي دعا إلىٰ مثل هذا التَّأويل السَّائغ الماشي علىٰ لسان العرب : قيام الدَّليل المقطعي علىٰ أنَّه سبحانه ليس بمتحيِّز في جهة ، لأنَّه محيط فلا يُحاط به ، لأنَّ ذلك لا يكون إلَّا لمحتاج " (٣) .

وقال الإمام الإِيجي (٩٠٥هـ) : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ملكوته وسلطانه " (٤) .

وقال الإمام الخطيب الشَّربيني (٩٧٧هـ) : " ... ولمَّا كان لم يكن بعد الاستعطاف إلَّا الإنذار ، قال تعالىٰ مهدِّداً للمكذِّبين : ﴿ ءَأَمِنتُم ﴾ ... وقوله تعالىٰ : ﴿ مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فيه وجوه :

أحدها : من ملكوته في السَّماء ، لأنَّها مسكن ملائكته وثمَّ عرشه وكرسيّه واللوح المحفوظ ، ومنها ينزل قضاياه وكتبه وأوامره ونواهيه .

---

(١) انظر : تفسير اللباب (١/ ٤٩٩٠) .

(٢) انظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦/ ٣٢٨) .

(٣) انظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٨/ ٧٧) .

(٤) انظر : تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن (٤/ ٣٤٣) .

والثَّاني : أنَّ ذلك علىٰ حذف مضاف ، أي : أأمنتم خالق من في السَّماء .
والثَّالث : أنَّ في بمعنىٰ علىٰ ، أي : علىٰ السَّماء كقوله : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي : علىٰ جذوع النخل ، وإنَّما احتاج القائل بهذين الوجهين إلىٰ ذلك ، لأنَّه اعتقد أنَّ " مَنْ " واقعة علىٰ الباري تعالىٰ شأنه وهو الظَّاهر ، وثبت بالدَّليل القطعي أنَّه ليس بمتحيِّز لئلَّا يلزم التَّجسيم ، ولا حاجة إلىٰ ذلك ، فإنَّ " مَنْ " هنا المراد بها الملائكة سكان السَّماء وهم الذين يتولَّون الرَّحمة والنِّقمة .
والرَّابع : أنَّهم خوطبوا بذلك علىٰ اعتقادهم ، فإنَّ القوم كانوا مجسِّمة مشبهة ، وأنَّه في السَّماء ، وأنَّ الرَّحمة والعذاب نازلان منه ، وكانوا يدعونه من جهتها ، فقيل لهم علىٰ حسب اعتقادهم : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، أي : من تزعمون أنَّه في السَّماء . قال الرَّازي : هذه الآية لا يمكن إجراؤها علىٰ ظاهرها بإجماع المسلمين ، لأنَّ ذلك يقتضي إحاطة السَّماء به من جميع الجوانب ، فيكون أصغر منها ، والعرش أكبر من السَّماء بكثير ، فيكون حقيراً بالنِّسبة إلىٰ العرش ، وهو باطل بالاتِّفاق ، ولأنَّه تعالىٰ قال : ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٢] ، فلو كان فيها لكان مالكاً لنفسه ، فالمعنىٰ : إمَّا من في السَّماء عذابه ، وإمَّا إنَّ ذلك بحسب ما كانت العرب تعتقده ، وإمَّا من في السَّماء سلطانه وملكه وقدرته ، كما قال تعالىٰ :﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] ، فإنَّ الشَّيء الواحد لا يكون دفعة في مكانين ، والغرض من ذكر السَّماء تفخيم سلطان الله سبحانه وتعظيم قدرته ، والمراد الملك الموكَّل بالعذاب ، وهو جبريل عليه السَّلام " (١) .
وقال الإمام أبو السُّعود العمادي (٩٨٢هـ) :﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ، أي : الملائكةَ الموكَّلينَ بتدبيرِ هذا العالمِ ، أو الله سبحانَهُ علىٰ تأويلِ من في السَّماء أمرُهُ وقضاؤهُ ، أو علىٰ زعمِ العربِ حيثُ كانُوا يزعمونَ أنَّه تعالَىٰ في السَّماء ، أي : أأمنتُم منْ تزعمُونَ أنَّه في السَّماء ، وهُو متعالٍ عن المكانِ " (٢) .
وقال الإمام ابن عجيبة الحسني (١٢٢٤هـ) : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾من ملكوته وأسرار ذاته ، وعبّر بها ؛ لأنَّها منزل قضاياه ، وتدبيراته ووحيه ، ومسكن ملائكته وأوامره ونواهيه ، فكلُّ ما يظهر في الأرض إنَّما يقضي به في السَّماء ، وحينئذ يبرز ، فكأنَّه قال : أأمِنتم خالق السَّموات ؟ وقال اللجائي : كلُّ شيء علا فهو سماء ، وسماء البيت : سقفه ، وليس المقصود في الآية سماء الدُّنيا ؛ ولا غيرها من السَّبع الطِّباق ، وإنَّما المعنىٰ : أأمِنتم مَن في العلو ، وهو علوّ الجلال ، وليس كون الله في سماء الحوادث من صفات الكمال ، تعالىٰ الله عن

---

(١) انظر : السراج المنير في الإعانة علىٰ معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٤/ ٣٣٤) .
(٢) انظر : تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم) (٩/ ٧) .

ذلك علوّاً كبيراً . أهـ. وسيأتي في الإشارة تحقيقة عند أهل التّوحيد ، أي: أأمِنتم مَن في السَّماء أسرار ذاته " (١) .

وقال الإمام محمَّد بن علي الشَّوكاني (١٢٥٠هـ) : " قَالَ الْوَاحِدِيُّ : قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: يَعْنِي عُقُوبَةَ مَنْ فِي السَّماء ، وَقِيلَ : مَنْ فِي السَّماء : قُدْرَتُهُ وَسُلْطَانُهُ وَعَرْشُهُ وَمَلَائِكَتُهُ ، وَقِيلَ : مَنْ فِي السَّماء مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ جِبْرِيلُ ، وَمَعْنَى أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ : يَقْلِعَهَا مُلْتَبِسَةً بِكُمْ ، كَمَا فَعَلَ بِقَارُونَ " (٢) .

وقال الإمام ابن عابدين (١٢٥٢هـ) : " وقَوْله تَعَالَى : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ فَلَا يَكْفُرُ بِإِطْلَاقِهِ عَلَيْهِ تَعَالَى ، وَإِنْ كَانَتْ حَقِيقَةُ الظَّرْفِيَّةِ غَيْرَ مُرَادَةٍ "(٣) .

وقال الإمام محمَّد بن عمر نووي الجاوي البنتني (١٣١٦هـ) :﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ فـ " أن يخسف " بدل اشتمال مِن " مَنْ " ، أي : أتأمنون يا أهل مكَّة من قد أقررتم بأنَّه في السَّماء ، واعترفتم له بالقدرة على ما يشاء ، وهو متعال عن المكان أن يغور بكم الأرض بعد ما جعلها لكم ليِّنة " (٤) .

وقال الإمام محمَّد عبد العظيم الزُّرْقاني (١٣٦٧هـ) : " ... ثالثاً : نقول لهؤلاء : إذا كنتم تأخذون بظواهر النُّصوص على حقيقتها فماذا تفعلون بمثل قوله تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ مع قوله: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام:٣] أتقولون أنَّه في السَّماء حقيقة أم في الأرض حقيقة أم فيهما معاً حقيقة ، وإذا كان في الأرض وحدها حقيقة فكيف تكون له جهة فوق ؟!! وإذا كان فيهما معاً حقيقة فلماذا يقال له جهة فوق ولا يقال له جهة تحت ؟ ولماذا يُشار إليه فوق ولا يشار إليه تحت ؟ ثمَّ ألا يعلمون أنَّ الجهات أمور نسبيَّة ؟ فما هو فوق بالنّسبة إلينا يكون تحتاً بالنِّسبة إلى غيرنا فأين يذهبون ؟! " (٥) .

وقال الإمام محمَّد الطَّاهر بن عاشور التُّونسي (١٣٩٣هـ) : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ انْتِقَالٌ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ إِلَى التَّخْوِيفِ ، لأنَّه لَمَّا تَقَرَّرَ أنَّه خَالِقُ الْأَرْضِ ، وَمُذَلِّلُهَا لِلنَّاسِ ، وَتَقَرَّرَ أَنَّهم مَا رَعَوْا خَالِقَهَا حَقَّ رِعَايَتِهِ ، فَقَدِ اسْتَحَقُّوا غَضَبَهُ وَتَسْلِيطَ عِقَابِهِ ، بِأَنْ يُصَيِّرَ مَشْيَهمْ فِي مَنَاكِبِ الْأَرْضِ إِلَى تَجَلْجُلٍ فِي طَبَقَاتِ الْأَرْضِ . فَالْجُمْلَةُ مُعْتَرِضَةٌ ، وَالِاسْتِفْهَامُ إِنْكَارٌ وَتَوْبِيخٌ وَتَحْذِيرٌ .

---

(١) انظر : البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٧/ ٩٨) .

(٢) انظر : فتح القدير (٥٣١٣/) .

(٣) انظر : رد المحتار على الدر المختار (٣/ ٧١٩) .

(٤) انظر : مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد (٢/ ٥٤٧) .

(٥)انظر : مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/ ٢٩٤-٢٩٥) .

ومَنْ اسْمٌ مَوْصُولٌ وَصِلَتُهُ صَادِقٌ عَلَىٰ مَوْجُودٍ ذِي إِدْرَاكٍ كَائِنٍ فِي السَّماء . وَظَاهِرُ وُقُوعِ هَذَا الْمَوْصُولِ عَقِبَ جُمَلِ : ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥] أَنَّ الْإِتْيَانَ بِالْمَوْصُولِ مِنْ قَبِيلِ الْإِظْهَارِ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ، وَأَنَّ مُقْتَضَىٰ الظَّاهِرِ أَنْ يُقَالَ : أَأَمِنْتُمُوهُ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَيَتَأَتَّىٰ أَنَّ الْإِتْيَانَ بالموصول لما تأذن بِهِ الصِّلَةُ مِنْ عَظِيمِ تَصَرُّفِهِ فِي الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ الَّذِي هُوَ مَصْدَرُ الْقُوَىٰ وَالْعَنَاصِرَ وَعَجَائِبَ الْكَائِنَاتِ فَيَصِيرُ قَوْلُهُ: ﴿مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فِي الْمَوْضِعَيْنِ مِنْ قَبِيلِ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي يُعْطِي ظَاهِرُهُ مَعْنَىٰ الْحُلُولِ فِي مَكَانٍ وَذَلِكَ لَا يَلِيقُ بِاللهِ، وَيَجِيءُ فِيهِ مَا فِي أَمْثَالِهِ مِنْ طَرِيقَتَي التَّفْوِيضِ لِلسَّلَفِ وَالتَّأْوِيلِ لِلْخَلَفِ رَحِمَهُمُ اللهُ أَجْمَعِينَ.

وَقَدْ أَوَّلُوهُ بِمَعْنَىٰ: مَنْ فِي السَّماء عَذَابُهُ أَوْ قُدْرَتُهُ أَوْ سُلْطَانُهُ عَلَىٰ نَحْوِ تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: وَجاءَ رَبُّكَ [الْفجْر: ٢٢] وَأَمْثَالِهِ، وَخُصَّ ذَلِكَ بِالسَّمَاءِ لِأَنَّ إِثْبَاتَهُ للهِ تَعَالَىٰ يَنْفِيهِ عَنْ أَصْنَامِهِمْ.

وَلَكِنَّ هَذَا الْمَوْصُولَ غَيْرُ مَكِينٍ فِي بَابِ الْمُتَشَابِهِ لأَنَّه مُجْمَلٌ قَابِلٌ لِلتَّأْوِيلِ بِمَا يَحْتَمِلُهُ مَنْ أَن يكون مَا صدقه مَخْلُوقَاتٍ ذَاتَ إِدْرَاكٍ مَقَرُّهَا السَّماء وَهِيَ الْمَلَائِكَةُ فَيَصِحُّ أَنْ تَصْدُقَ مَنْ عَلَىٰ طَوَائِفَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُوَكَّلِينَ بِالْأَمْرِ التَّكْوِينِيِّ فِي السَّماء وَالْأَرْضِ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطَّلَاق: ١٢] ، وَيَصِحُّ أَنْ يُرَادَ بِاسْمِ الْمَوْصُولِ مَلَكٌ وَاحِدٌ مُعَيَّنٌ وَظِيفَتُهُ فِعْلُ هَذَا الْخَسْفِ، فَقَدْ قِيلَ: إِنَّ جِبْرِيلَ هُوَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِالْعَذَابِ.

وَإِسْنَادُ فِعْلِ يَخْسِفَ إِلَىٰ «الْمَلَائِكَةِ» أَوْ إِلَىٰ وَاحِدٍ مِنْهُمْ حَقِيقَةٌ لأَنَّه فَاعِلُ الْخَسْفِ قَالَ تَعَالَىٰ حِكَايَةً عَنِ الْمَلَائِكَةِ : ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ [العنكبوت:٣١] ... ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ﴾ [العنكبوت:٣٣] ... ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [العنكبوت: ٣٤] ، وَإِفْرَادُ ضَمِيرِ يَخْسِفَ مُرَاعَاةٌ لِلَفْظِ مَنْ إِذَا أُرِيدَ طَائِفَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَوْ مُرَاعَاةٌ لِلَّفْظِ وَالْمَعْنَى إذا كَانَ مَا صدق مَنْ مَلَكًا وَاحِدًا. وَالْمَعْنَىٰ: تَوْبِيخُهُمْ عَلَىٰ سُوءِ مُعَامَلَتِهِمْ رَبَّهُمْ كَأَنَّهُمْ آمِنُونَ مِنْ أَنْ يَأْمُرَ اللهُ مَلَائِكَتَهُ بِأَنْ يَخْسِفُوا الْأَرْضَ بِالْمُشْرِكِينَ " [1] ...

ثَالِثاً : وَمِنَ الآيَاتِ التِيْ يَسْتَدِلُّوْنَ بِهَا عَلَى العُلُوِّ الحِسِّيِّ المَكَانِي لله تَعَالَى : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨] .

والنَّاظر فيما قاله علماء الأمَّة في معنىٰ الفوقيَّة الوادة في الآية الكريمة يجد أنَّ جمهورهم ذهب إلىٰ ما يُخالف ما ذهب إليه المجسِّمة الذين ذهبوا إلىٰ تفسير الفوقيَّة الواردة في الآية بفوقيَّة المكان والجهة ، والعياذ بالله تعالىٰ ...

فمن أشهر المعاني التي ذكرها العلماء للفوقيَّة الواردة في الآية :

---

(١) انظر : التحرير والتنوير (تحرير المعنىٰ السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) (٢٩/ ٣٣-٣٤) .

(١) ذهب السَّلف إلى إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تأويل ولا إطلاق على جهة ...

(٢) وقال بعض العلماء : والله الغالب عبادَه ، المذلِّلهم ، العالي عليهم علوّ قدرة وقهر لا علوّ انتقال من سُفل ، فهو فوقهم بقهره إيَّاهم، وقهره فوق كلّ قهر ، فكلٌّ من قهر شيئاً فهو مستعل عليه بالقهر والغلبة .

(٣) وقال بعضهم : هُوَ الْمُنفَرد بِالتَّدْبِيرِ، يجْبر الْخلق على مُرَاده .

(٤) أَنَّ فوقيَّة الْمَكَان من حَيْثُ هِيَ لَا تَقْتَضِي فَضِيلَة لَهُ ، فكم من غُلَام أَو عبد كَائِن فَوق مسكن سَيِّده ، وَلَا يُقَال : الْغُلَام فَوق السُّلْطَان أَو السَّيِّد على وَجه الْمَدْح ، وَإِذا قصد الْمَكَان لم يكن فِيهِ مدحه ، بل الْفَوْقِيَّة الممدوحة فوقيَّة الْقَهْر وَالْغَلَبَة والرُّتبة ، والمعنى : يخَافُونَ رَبهم الْقَادِر عَلَيْهِم القاهر لَهُم وَحَقِيقَته يخَافُونَ عَذَاب رَبِّهم لِأَنَّ حَقِيقَة الذَّات المقدسة لَا تخَاف وإِنَّما الْمخوف فِي الْحَقِيقَة عَذَابه وبطشه وانتقامه ، وَإِذا ثَبت ذَلِك فَلَا جِهَة ...

(٥) وقال بعضهم : معنى " فوق " فوقيَّة الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم لا فوقيَّة المكان ، كما تقول : السُّلطان فوق رعيَّته ، أي : بالمنزلة والرِّفعة ...

وفيما يلي طائفة من أقوال علماء الأمَّة في تفسير الفوقيَّة الواردة في الآية الكريمة :

قال الإمام الطَّبري (٣١٠هـ) : " ... يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ وَهُوَ ﴾ [البقرة: ٢٩] نَفْسَهُ، يَقُولُ: وَاللَّهُ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ. وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿ٱلْقَاهِرُ﴾ [الأنعام: ١٨] الْمُذَلِّلُ الْمُسْتَعْبِدُ خَلْقَهُ الْعَالِي عَلَيْهِمْ. وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨] ، لِأَنَّهُ وَصَفَ نَفْسَهُ تَعَالَى بِقَهْرِهِ إِيَّاهُمْ، وَمِنْ صِفَةِ كُلِّ قَاهِرٍ شَيْئًا أَنْ يَكُونَ مُسْتَعْلِيًا عَلَيْهِ. فَمَعْنَى الْكَلَامِ إِذَنْ: وَاللَّهُ الْغَالِبُ عِبَادَهُ، الْمُذِلُّ لَهُمْ، الْعَالِي عَلَيْهِمْ بِتَذْلِيلِهِ لَهُمْ وَخَلْقِهِ إِيَّاهُمْ، فَهُوَ فَوْقَهُمْ بِقَهْرِهِ إِيَّاهُمْ، وَهُمْ دُونَهُ " (١) .

وقال الإمام علي بن إسماعيل الأشعري أبو الحسن (٣٢٤هـ) : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ وأراد به القادر المستولي على العباد ، فجعل قوله : ﴿ فَوْقَ ﴾ بدلاً من قوله مستعل " (٢) .

وقال الإمام أبو الليث السَّمرقندي (٣٧٣هـ) : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ يعني : القادر الغالب عليهم " (٣) .

---

(١) انظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١١/ ٢٨٨) .

(٢) انظر : مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين (ص٥٣٢) .

(٣) انظر : بحر العلوم (١/ ٤٧٤) .

وقال الإمام أبو عبد الرَّحمن السّلمي (٤١٢هـ) : " قوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ ، قيل : جبرهم وقهرهم حتىٰ لو استطاعوا عنه معدلاً ما أطاقوا ، يجحدون ظاهرين وتكذبهم البواطن . وقال الحسين : القاهر يمحو به كلّ موجود . وقال بعضهم : قهرهم علىٰ الإيجاد والإظهار ، كما قهرهم علىٰ الموت والفناء . وقال بعضهم : القاهر : الآمر بالطَّاعة من غير حاجة ، والنَّاهي عن المعصية من غير كراهية ، والمثيب من غير عوض ، والمعاقب من غير حقد ، لا يشتفي بالعقوبة ولا يتعزَّز بالطَّاعة " (١) .

وقال الإمام أبو محمَّد مكِّي بن أبي طالب القرطبي المالكي (٤٣٧هـ) : " قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ الآية . المعنىٰ : والله المُذلّل لعباده ، العالي عليهم علوّ قدرة وقهر ، لا علو انتقال من سفل ، بل استعلىٰ علىٰ خلقه بقدرته فقهرهم بالموت وبما شاء من أمره ، لا إله إلَّا هو . ولمَّا وصف نفسه تعالىٰ بأنَّه المذل القاهر ، ومن صفة القاهر أن يكون مستعلياً، قال ﴿ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ " .

وقال أيضاً : " المعنىٰ : وهو الغالب خلقه، العالي عليهم بقدرته ، قد قَهَرَهم بالموت ، ليس كأصنامهم المقهورة ، المذلَّلة ، المَعْلو عليها " (٢) .

وقال الإمام الماوردي (٤٥٠هـ) : " قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنَّ معناه القاهر لعباده ، وفوق صلة زائدة. والثَّاني: أنَّه بقهره لعباده مستعلٍ عليهم ، فكان قوله فوق مستعملاً علىٰ حقيقته كقوله تعالىٰ: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] لأنَّها أعلىٰ قوَّة. ويحتمل ثالثاً: وهو القاهر فوق قهر عباده ، لأنَّ قهره فوق كلِّ قهر. وفي هذا القهر وجهان: أحدهما: أنَّه إيجاد المعدوم " .

وقال أيضاً : " قوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ فيه وجهان : أحدهما : أنَّه أعلىٰ قهراً ، فلذلك قال: ﴿ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ ، والثَّاني : أنَّ الأقدر إذا استحق صفة المبالغة عبَّر عنه بمثل هذه العبارة ، فقيل : هو فوقه في القدرة أي أقدر ، وفوقه في العلم أي : أعلم " (٣) .

وقال الإمام عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (٤٦٥هـ) : ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ علت رتبة الأحديَّة صفة البشريَّة ، فهذا لم يزل وهذا لم يكن فحصل . ومتىٰ يكون بقاء للحدثان مع وضوح سلطان التَّوحيد ؟ " (١) .

---

(١) انظر : تفسير السلمي وهو حقائق التفسير (١/ ١٩٥) .

(٢) انظر : الهداية إلىٰ بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه (١٩٧٦-١٩٧٧) ، (٣/ ٢٠٤٧) ، بالترتيب .

(٣) انظر : تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٢/ ٩٩) ، (٢/ ١٢٣) بالترتيب .

وقال الإمام أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، النَّيسابوري (٤٦٨هـ) : " القهر: الغلبة، والله القاهر القهَّار، قهر خلقه بقدرته وسلطانه فصرفهم على ما أراد طوعاً وكرهاً، يقال: أخذت الشَّيء قهراً ، إذا أخذته دون رضا صاحبه، ومعنى القاهر في صفة الله تعالى: يعود إلى أنَّه القادر الذي لا يعجزه شيء.

ومعنى فوق ههنا : أنَّ قهره قد استعلى عليهم فهم تحت التَّسخير والتَّذليل بما علاهم من الاقتدار الذي لا ينفكُّ عنه أحد " (٢) .

وقال الإمام أبو المظفَّر السَّمعاني (٤٨٩هـ) : القاهر : الْغَالِب الَّذِي لَا يغلب ، وَقيل : هُوَ الْمُنْفَرد بِالتَّدْبِيرِ، يجْبر الْخلق على مُرَاده ، وَقَوله : ﴿ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ هُوَ صفة الاستعلاء الَّذِي لله تَعَالَى الَّذِي يعرفهُ أهل السُّنَّة " (٣) .

وقال الإمام البغوي (٥١٠هـ) : " الْقَاهِرُ الْغَالِبُ، وَفِي الْقَهْرِ زِيَادَةُ مَعْنًى على القدرة، وهو مَنْعُ غَيْرِهِ عَنْ بُلُوغِ الْمُرَادِ، وَقِيلَ: هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِالتَّدْبِيرِ الَّذِي يُجْبِرُ الْخَلْقَ عَلَى مُرَادِهِ فَوْقَ عِبادِهِ هُوَ صِفَةُ الِاسْتِعْلَاءِ الَّذِي تَفَرَّدَ بِهِ اللهُ عزَّ وجلَّ " (٤) .

وقال الإمام الزَّمخشري (٥٣٨هـ) : ﴿ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ تصوير للقهر والعلوّ بالغلبة والقدرة ، كقوله : ﴿وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾ (٥) .

وقال الإمام ابن عطيَّة (٥٤٢هـ) : " الْقاهِرُ إن أخذ صفة فعل أي مظهر القهر بالصَّواعق والرّياح والعذاب فيصحُّ أن يجعل فَوْقَ ظرفيَّة للجهة لأنَّ هذه الأشياء إنَّما تعاهدها العباد من فوقهم ، وإن أخذ الْقاهِرُ صفة ذات بمعنى القدرة والاستيلاء فـ فَوْقَ لا يجوز أن تكون للجهة، وإنَّما هي لعلو القدر والشَّأن على حدِّ ما تقول : الياقوت فوق الحديد " (٦) .

وقال الإمام ابن الجوزي (٥٩٧هـ) : " قوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨] ، القاهر : الغالب ، والقهر : الغلبة . والمعنى : أنَّه قهر الخلق فصرَّفهم على ما أراد طوعاً وكرهاً ، فهو المستعلي عليهم ، وهم تحت التَّسخير والتَّذليل " (٧) .

---

(١) انظر : لطائف الإشارات (١/ ٤٦٤) .

(٢) انظر : الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٢/ ٢٥٨) .

(٣) انظر : تفسير القرآن (٢/ ٩٣) .

(٤) انظر : معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) (٢/ ١١٥) .

(٥) انظر : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (٢/ ١٢) .

(٦) انظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٣٠٠) .

(٧) انظر : زاد المسير في علم التفسير (٢/ ١٤) .

وقال أيضاً : " واحتج بعضهم بأنَّه علىٰ العرش بقوله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام ١٨] وجعلوا ذلك فوقيَّة حسيَّة ونسوا أنَّ الفوقيَّة الحسيَّة إنَّما تكون لجسم أو جوهر ، وأنَّ الفوقيَّة قد تطلق لعلو المرتبة ، فيقال : فلان فوق فلان ثمَّ أنَّه كما قال : ﴿ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ قال : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ فمن حملها علىٰ العلم حمل خصمه الإستواء علىٰ القهر . أخبرنا علي بن محمَّد بن عمر الدبَّاس قال أنبأنا رزق الله بن عبد الوهَّاب التَّميمي قال كان أحمد بن حنبل يقول : الإستواء صفة مسلَّمة وليست بمعنىٰ القصد ولا الإستعلاء ، قال : وكان أحمد لا يقول بالجهة للباري لأنَّ الجهات تخلَّىٰ عمَّا سواها . وقال ابن حامد : الحقُّ يختصُّ بمكان دون مكان ، ومكانه الذي هو فيه وجود ذاته علىٰ عرشه .

وقال : وذهبت طائفة إلىٰ أنَّ الله تعالىٰ علىٰ عرشه قد ملأه ، والأشبه أنَّه مماسّ للعرش والكرسي موضع قدميه .

قلت : المماسَّة إنَّما تقع بين جسمين ، وما أبقىٰ هذا في التَّجسيم بقيَّة " (١) .

وقال الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) : " ... فيه مَسَائِلُ:

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَىٰ : اعْلَمْ أَنَّ صِفَاتِ الْكَمَالِ مَحْصُورَةٌ فِي الْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ ، فَإِنْ قَالُوا : كَيْفَ أَهْمَلْتُمْ وُجُوبَ الْوُجُودِ .

قُلْنَا : ذَلِكَ عَيْنُ الذَّاتِ لَا صِفَةً قَائِمَةً بِالذَّاتِ ، لِأَنَّ الصِّفَةَ الْقَائِمَةَ بِالذَّاتِ مُفْتَقِرَةٌ إِلَىٰ الذَّاتِ ، وَالْمُفْتَقِرُ إِلَىٰ الذَّاتِ مُفْتَقِرٌ إِلَىٰ الْغَيْرِ ، فَيَكُونُ مُمْكِناً لِذَاتِهِ وَاجِباً بِغَيْرِهِ ، فَيَلْزَمُ حُصُولُ وُجُوبٍ قَبْلَ الْوُجُوبِ ، وَذَلِكَ مُحَالٌ ، فَثَبَتَ أَنَّه عَيْنُ الذَّاتِ ، وَثَبَتَ أَنَّ الصِّفَاتِ الَّتِي هِيَ الْكَمَالَاتُ حَقِيقَتُهَا هِيَ الْقُدْرَةُ وَالْعِلْمُ . فَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ ، إِشَارَةٌ إِلَىٰ كَمَالِ الْقُدْرَةِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ ، إِشَارَةٌ إِلَىٰ كَمَالِ الْعِلْمِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ ﴾ ، يُفِيدُ الْحَصْرَ ، وَمَعْنَاهُ : أَنَّه لَا مَوْصُوفَ بِكَمَالِ الْقُدْرَةِ وَكَمَالِ الْعِلْمِ إِلَّا الْحَقُّ سُبْحَانَهُ ، وَعِنْدَ هَذَا يَظْهَرُ أَنَّه لَا كَامِلَ إِلَّا هُوَ ، وَكُلُّ مَنْ سِوَاهُ فَهُوَ نَاقِصٌ .

إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَنَقُولُ : أَمَّا دَلَالَةُ كَوْنِهِ قَاهِراً عَلَىٰ الْقُدْرَةِ فَلِأَنَّا بَيَّنَّا أَنَّ مَا عَدَا الْحَقِّ سُبْحَانَهُ مُمْكِنٌ بِالْوُجُودِ لِذَاتِهِ ، وَالْمُمْكِنُ لِذَاتِهِ لَا يَتَرَجَّحُ وُجُودُهُ عَلَىٰ عَدَمِهِ وَلَا عَدَمُهُ عَلَىٰ وُجُودِهِ إِلَّا بِتَرْجِيحِهِ وَتَكْوِينِهِ وَإِيجَادِهِ وَإِبْدَاعِهِ ، فَيَكُونُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ الَّذِي قَهَرَ الْمُمْكِنَاتِ تَارَةً فِي طَرَفِ تَرْجِيحِ الْوُجُودِ عَلَىٰ الْعَدَمِ ، وَتَارَةً فِي طَرَفِ تَرْجِيحِ الْعَدَمِ عَلَىٰ الْوُجُودِ . وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْبَابِ كَوْنُهُ قَاهِراً لَهُمْ بِالْمَوْتِ وَالْفَقْرِ وَالْإِذْلَالِ ، وَيَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ فِي قَوْلِهِ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦] إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ . وأما كونه حكيماً ،

(١) انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه (١٣٤-١٣٥) .

فلا يمكن حمله هاهنا عَلَىٰ الْعِلْمِ ، لِأَنَّ الْخَبِيرَ إِشَارَةٌ إِلَىٰ الْعِلْمِ ، فيلزم التكرار أَنَّه لَا يَجُوزُ ، فَوَجَبَ حَمْلُهُ عَلَىٰ كَوْنِهِ مُحْكَماً فِي أَفْعَالِهِ بِمَعْنَىٰ أَنَّ أَفْعَالَهُ تَكُونُ مُحْكَمَةً مُتْقَنَةً آمِنَةً مِنْ وُجُوهِ الْخَلَلِ وَالْفَسَادِ وَالْخَبِيرُ هُوَ الْعَالِمُ بِالشَّيْءِ الْمَرْوِيِّ. قَالَ الْوَاحِدِيُّ: وَتَأْوِيلُهُ أَنَّهُ الْعَالِمُ بِمَا يَصِحُّ أَنْ يُخْبَرَ بِهِ قَالَ: وَالْخَبَرُ عِلْمُكَ بِالشَّيْءِ تَقُولُ: لِي بِهِ خَبَرٌ أَيْ عِلْمٌ وَأَصْلُهُ مِنَ الْخَبَرِ لِأَنَّهُ طَرِيقٌ مِنْ طُرُقِ الْعِلْمِ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : الْمُشَبِّهَةُ اسْتَدَلُّوا بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَىٰ أَنَّه تَعَالَىٰ مَوْجُودٌ فِي الْجِهَةِ الَّتِي هِيَ فَوْقَ الْعَالَمِ ، وَهُوَ مَرْدُودٌ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ وُجُوهٌ :

الْأَوَّلُ : أَنَّه لَوْ كَانَ مَوْجُوداً فَوْقَ الْعَالَمِ لَكَانَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي الصِّغَرِ بِحَيْثُ لَا يَتَمَيَّزُ جَانِبٌ مِنْهُ مِنْ جَانِبٍ ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ ذَاهِباً فِي الْأَقْطَارِ ، مُتَمَدِّداً فِي الْجِهَاتِ . وَالْأَوَّلُ : يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ فِي الصِّغَرِ وَالْحَقَارَةِ كَالْجَوْهَرِ الْفَرْدِ ، فَلَوْ جازَ ذَلِكَ فَلِمَ لا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إله العالم بعض الذرَّات المخلوطة بالهباءات الْوَاقِعَةِ فِي كُوَّةِ الْبَيْتِ ، وَذَلِكَ لا يَقُولُهُ عَاقِلٌ ، وَإِنْ كَانَ الثَّانِي كَانَ مُتبَعِّضاً مُتجَزِّئاً ، وَذَلِكَ عَلَىٰ اللهِ مُحَالٌ .

وَالثَّانِي : أَنَّه إِمَّا أن يكون غير متناه من كل الجوانب فيلزم كون ذاته مخالطاً للقاذورات ، وهو باطل أو يكون متناهياً مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ ، وَحِينَئِذٍ يَصِحُّ عَلَيْهِ الزِّيَادَةُ والنقصان . وكلُّ ما كان كذلك كان اختصاصه بمقداره المعيَّن لِتَخْصِيصِ مُخَصِّصٍ ، فَيَكُونُ مُحْدَثاً أَوْ يَكُونُ مُتَنَاهِياً مِنْ بَعْضِ الْجَوَانِبِ دُونَ الْبَعْضِ ، فَيَكُونُ الْجَانِبُ الْمَوْصُوفُ بِكَوْنِهِ مُتَنَاهِياً غَيْرَ الْجَانِبِ الْمَوْصُوفِ بِكَوْنِهِ غَيْرَ مُتَنَاهٍ ، وَذَلِكَ يُوجِبُ الْقِسْمَةَ وَالتَّجْزِئَةَ .

وَالثَّالِثُ : إِمَّا أَنْ يُفَسَّرَ الْمَكَانُ بِالسَّطْحِ الْحَاوِي أَوْ بِالْبُعْدِ وَالْخَلَاءِ . فَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ : فَنَقُولُ : أَجْسَامُ العالم متناهية ، فخارج العالم لا خلا ولا ملا ، وَلَا مَكَانَ وَلَا حَيْثُ وَلَا جِهَةَ ، فَيَمْتَنِعُ حُصُولُ ذَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ فِيهِ . وَإِنْ كَانَ الثَّانِي ، فَنَقُولُ : الْخَلَاءُ مُتَسَاوِي الْأَجْزَاءِ فِي حَقِيقَتِهِ ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ ، فَلَوْ صَحَّ حُصُولُ اللهِ فِي جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ ذَلِكَ الْخَلَاءِ لَصَحَّ حُصُولُهُ فِي سَائِرِ الْأَجْزَاءِ ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ حُصُولُهُ فِيهِ بِتَخْصِيصِ مُخَصِّصٍ ، وَكُلُّ مَا كَانَ وَاقِعًا بِالْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ فَهُوَ مُحْدَثٌ ، فَحُصُولُ ذَاتِهِ فِي الْجُزْءِ مُحْدَثٌ . وَذَاتُهُ لَا تَنْفَكُّ عَنْ ذَلِكَ الْحُصُولِ ، وَمَا لَا يَنْفَكُّ عَنِ الْمُحْدَثِ فَهُوَ مُحْدَثٌ ، فَيَلْزَمُ كَوْنُ ذَاتِهِ مُحْدَثَةً وهو محال .

والرَّابع : أَنَّ الْبُعْدَ وَالْخَلَاءَ أَمْرٌ قَابِلٌ لِلْقِسْمَةِ وَالتَّجْزِئَةِ ، وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مُمْكِنٌ لِذَاتِهِ ومفتقر إلى الموجد ، ويكون موجده موجوداً قَبْلَهُ ، فَيَكُونُ ذَاتُ اللهِ تَعَالَىٰ قَدْ كَانَتْ مَوْجُودَةً قَبْلَ وُجُودِ الْخَلَاءِ وَالْجِهَةِ وَالْحَيْثِ وَالْحَيِّزِ .

وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا : فَبَعْدَ الْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ وَالْخَلَاءِ وَجَبَ أَنْ تَبْقَى ذَاتُ اللهِ تَعَالَىٰ كَمَا كَانَتْ وَإِلَّا فَقَدَ وَقَعَ التَّغْيِيرُ فِي ذَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ وَذَلِكَ مُحَالٌ .

وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا وَجَبَ الْقَوْلُ بِكَوْنِهِ مُنَزَّهاً عَنِ الْأَحْيَازِ وَالْجِهَاتِ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ .

وَالْخَامِسُ : أَنَّه ثَبَتَ أَنَّ الْعَالَمَ كُرَةٌ .

وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَالَّذِي يَكُونُ فوق رؤوس أَهْلِ الرَّيِّ يَكُونُ تَحْتَ أَقْدَامِ قَوْمٍ آخَرِينَ .

وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا ، فَإِمَّا أَنْ يُقَالَ : أَنَّه تَعَالَىٰ فَوْقَ أَقْوَامٍ بِأَعْيَانِهِمْ . أَوْ يُقَالَ : أَنَّه تَعَالَىٰ فَوْقَ الْكُلِّ . وَالْأَوَّلُ : بَاطِلٌ ، لِأَنَّ كَوْنَهُ فَوْقاً لِبَعْضِهِمْ يُوجِبُ كَوْنَهُ تَحْتاً لِآخَرِينَ ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ . وَالثَّانِي : يُوجِبُ كَوْنَهُ تَعَالَىٰ مُحِيطاً بِكُرَةِ الْفَلَكِ ، فَيَصِيرُ حَاصِلُ الْأَمْرِ إِلَىٰ أَنَّ إِلَهَ الْعَالَمِ هُوَ فَلَكٌ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ الْأَفْلَاكِ ، وَذَلِكَ لَا يَقُولُهُ مُسْلِمٌ .

وَالسَّادِسُ : هُوَ أَنَّ لَفْظَ الْفَوْقِيَّةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَسْبُوقٌ بِلَفْظٍ وَمَلْحُوقٌ بِلَفْظٍ آخَرَ . أَمَّا أَنَّها مَسْبُوقَةٌ فَلِأَنَّهَا مَسْبُوقَةٌ بِلَفْظِ الْقَاهِرِ ، وَالْقَاهِرُ مُشْعِرٌ بِكَمَالِ الْقُدْرَةِ وَتَمَامِ الْمُكْنَةِ .

وَأَمَّا أَنَّها مَلْحُوقَةٌ بِلَفْظٍ فَلِأَنَّهَا مَلْحُوقَةٌ بِقَوْلِهِ عِبادِهِ ، وَهَذَا اللَّفْظُ مُشْعِرٌ بِالْمَمْلُوكِيَّةِ وَالْمَقْدُورِيَّةِ ، فَوَجَبَ حَمْلُ تِلْكَ الْفَوْقِيَّةِ عَلَىٰ فَوْقِيَّةِ الْقُدْرَةِ لَا عَلَىٰ فَوْقِيَّةِ الْجِهَةِ .

فَإِنْ قِيلَ : مَا ذَكَرْتُمُوهُ عَلَىٰ الضِّدِّ مِنْ قَوْلِكُمْ : إِنَّ قَوْلَهُ وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ دَلَّ عَلَىٰ كَمَالِ الْقُدْرَةِ .

فَلَوْ حَمَلْنَا لَفْظَ الْفَوْقِ عَلَىٰ فَوْقِيَّةِ الْقُدْرَةِ لَزِمَ التَّكْرَارُ ، فَوَجَبَ حَمْلُهُ عَلَىٰ فَوْقِيَّةِ الْمَكَانِ وَالْجِهَةِ .

قُلْنَا : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرْتُمْ ، لأَنَّه قَدْ تَكُونُ الذَّاتُ مَوْصُوفَةً بِكَوْنِهَا قَاهِرَةً لِلْبَعْضِ دُونَ الْبَعْضِ ، وَقَوْلُهُ :﴿ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ دَلَّ عَلَىٰ أَنَّ ذَلِكَ الْقَهْرَ وَالْقُدْرَةَ عَامٌّ فِي حَقِّ الْكُلِّ .

وَالسَّابِعُ : وَهُوَ أَنَّه تَعَالَىٰ لَمَّا ذَكَرَ هَذِهِ الْآيَةَ رَدّاً عَلَىٰ مَنْ يَتَّخِذُ غَيْرَ اللهِ وَلِيّاً ، وَالتَّقْدِيرُ : كَأَنَّهُ قَالَ : أَنَّه تَعَالَىٰ فَوْقَ كُلِّ عِبادِهِ ، وَمَتَىٰ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ امْتَنَعَ اتِّخَاذُ غَيْرِ اللهِ وَلِيًّا . وَهَذِهِ النَّتِيجَةُ إِنَّمَا يَحْسُنُ تَرْتِيبُهَا عَلَىٰ تِلْكَ الْفَوْقِيَّاتِ كَانَ الْمُرَادُ مِنْ تِلْكَ الْفَوْقِيَّةِ ، الْفَوْقِيَّةَ بِالْقُدْرَةِ وَالْقُوَّةِ .

أَمَّا لَوْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْهَا الْفَوْقِيَّةَ بِالْجِهَةِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُفِيدُ هَذَا الْمَقْصُودَ لأَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ مُجَرَّدِ كَوْنِهِ حَاصِلاً فِي جِهَةٍ فَوْقَ أَنْ يَكُونَ التَّعْوِيلُ عَلَيْهِ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مُفِيداً ، وَأَنْ يَكُونَ الرُّجُوعُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ الْمَطَالِبِ لَازِماً . أَمَّا إِذَا حملنا ذَلِكَ عَلَىٰ فَوْقِيَّةِ الْقُدْرَةِ حَسُنَ تَرْتِيبُ هَذِهِ النَّتِيجَةِ عَلَيْهِ فَظَهَرَ بِمَجْمُوعِ مَا ذَكَرْنَا أَنَّ الْمُرَادَ مَا ذَكَرْنَاهُ ، لَا مَا ذَكَرَهُ أَهْلُ التَّشبيه ، والله أعلم " (١) .

---

(١) انظر : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (١٢/ ٤٩٥-٥٩٧) .

وقال الإمام أبو عبد الله محمَّد بن أحمد القرطبي (٦٧١هـ) : " القهر : الغلبة ، والقاهر الغالب ، وأقهر الرَّجل إذا صير بحال المقهور الذَّليل ؛ قال الشَّاعر :

تمنَّى حصين أن يسود جذاعه   فأمسى حصين قد أذلّ وأقهرا

وقهر : غلب . ومعنى ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ فوقيَّة الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم ؛ أي : هم تحت تسخيره ، لا فوقيَّة مكان ؛ كما تقول : السُّلطان فوق رعيَّته ، أي : بالمنزلة والرِّفعة . وفي القهر معنى زائد ليس في القدرة ، وهو منع غيره عن بلوغ المراد " .

وقال أيضاً : " .. يعني : فوقيَّة المكانة والرُّتبة ، لا فوقيَّة المكان والجهة " (١) .

وقال الإمام البيضاوي (٦٨٥هـ) : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ تصوير لقهره وعلوه بالغلبة والقدرة. وَهُوَ الْحَكِيمُ في أمره وتدبيره " (٢) .

وقال الإمام النَّسفي (٧١٠هـ) : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾ مبدأ وخبر ، أي : الغالب المقتدر ﴿ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ خبر بعد خبر ، أي : عال عليهم بالقدرة ، والقهر : بلوغ المراد بمنع غيره عن بلوغه " (٣) .

وقال الإمام ابن جماعة الكناني الحموي (٧٣٣هـ) : " اعْلَم أَنَّ لَفْظَة فَوق فِي كَلَام الْعَرَب تسْتَعْمل بِمَعْنى الحيز العالي وتستعمل بِمَعْنى الْقُدْرَة وَبِمَعْنى الرُّتْبَة الْعليَّة ، فَمن فوقيَّة الْقُدْرَة : ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠] ، ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ فَإِنَّ قرينَة ذكر الْقَهْر يدلُّ على ذَلِك ، وَمن فوقية الرُّتْبَة : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦] لم يقل أحد إِنَّ المُرَاد فوقيَّة الْمَكَان بل فوقيَّة الْقَهْر والقدريَّة والرُّتبة .

وَإِذا بَطل بِمَا قدمْنَاهُ مَا سنذكر من إبطال الْجِهَة فِي حقِّ الرَّب تَعَالَى تعين أَن المُرَاد فوقيَّة الْقَهْر وَالْقُدْرَة والرُّتبة وَلذَلِك قرنه بِذكر الْقَهْر كَمَا قدَّمنَا .

وَيدلُّ على مَا قُلْنَاهُ أَنَّ فوقيَّة الْمَكَان من حَيْثُ هِيَ لَا تَقْتَضِي فَضِيلَة لَهُ فكم من غُلَام أَو عبد كَائِن فَوق مسكن سَيِّده وَلَا يُقَال الْغُلَام فَوق السُّلْطَان أَو السَّيِّد على وَجه الْمَدْح إِذا قصد الْمَكَان لم يكن فِيهِ مدحه بل الْفَوْقِيَّة الممدوحة فوقية الْقَهْر وَالْغَلَبَة والرتبة وَلذَلِك قَالَ تَعَالَى : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠] لأَنَّه إِنَّمَا يخَاف الْخَائِف من هُوَ أَعلَى مِنْهُ رُتْبَة ومنزلة وأقدر عَلَيْهِ مِنْهُ فَمَعْنَاه يخَافُونَ رَبهم الْقَادِر عَلَيْهِم القاهر لَهُم

---

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٣٩٩) ، (٧/ ٦) بالترتيب .

(٢) انظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢/ ١٥٧) .

(٣) انظر : تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) (١/ ٤٩٥) .

وَحَقِيقَته يخَافُونَ عَذَاب رَبّهم ، لِأَنَّ حَقِيقَة الذَّات المقدَّسة لَا تخَاف وإنَّما الْمخوف فِي الْحَقِيقَة عَذَابه وبطشه وانتقامه ، وَإِذا ثَبت ذَلِك فَلَا جِهَة .

وَله وَجه آخر وَهُوَ أَن يكون ﴿ مِّن فَوۡقِهِمۡ ﴾ مُتَعَلقاً بِعَذَاب رَبهم الْمُقدر وَيُؤَيّدهُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ ﴾ [الأنعام:٦٥] الْآيَة .

فقد بَان بِمَا ذَكَرْنَاهُ أَن الْمُرَاد بالفوقيَّة فِي الْآيَات الْقَهْر وَالْقُدْرَة والرُّتبة أَو فوقية جِهَة الْعَذَاب لَا فوقيَّة الْمَكَان لَهُ " (١) .

وقال الإمام الخازن (٧٤١هـ) : " قوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ ، يعني : وهو الغالب لعباده ، القاهر لهم ، وهم مقهورون تحت قدرته . والقاهر والقهَّار معناه : الذي يدبِّر خلقه بما يريد ، فيقع في ذلك ما يشق عليهم ويثقل ويغم ويحزن ويفقر ويميت ويذلُّ خلقه ، فلا يستطيع أحد من خلقه ردَّ تدبيره والخروج من تحت قهره وتقديره ، وهذا معنى القاهر في صفة الله تعالى ، لأنَّه القادر والقاهر الذي لا يعجزه شيء أراده . ومعنى ﴿فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ هنا : أنَّ قهره قد استعلى على خلقه ، فهم تحت التَّسخير والتَّذليل بما علاهم به من الاقتدار والقهر الذي لا يقدر أحد على الخروج منه ولا ينفكُّ عنه ، فكلُّ من قهر شيئاً فهو مستعل عليه بالقهر والغلبة .

وقال ابن جرير الطَّبري : معنى القاهر : المتعبِّد خلقه ، العالي عليهم ، وإنَّما قال : ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ ، لأنَّه تعالى وصف نفسه بقهره إيَّاهم ، ومن صفة كلِّ قاهر شيئاً أن يكون مستعلياً عليه ، فمعنى الكلام إذاً : والله الغالب عباده ، المذلِّل لهم ، العالي عليهم بتذليله إيَّاهم ، فهو فوقهم بقهره إيَّاهم وهم دونه . وقيل : ﴿ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ هو صفة الاستعلاء الذي تفرَّد به الله عزَّ وجلَّ " .

وقال أيضاً : " قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ ، يعني : وهو العالي عليهم بقدرته ، لأنَّ كلَّ من قهر شيئاً وغلبه فهو مستعلٍ عليه بالقهر والقدرة .

فهو كما يقال : أمرُ فلانٍ فوقَ أمرِ فلانٍ ، يعني : أنَّه أقدر منه .

وأغلب هذا مذهب أهل التَّأويل في معنى لفظة ﴿ فَوۡقَ﴾ في قوله : ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ ، وأما مذهب السَّلف فيها : فإمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تأويل ولا إطلاق على جهة . والقاهر هو

---

(١) انظر : إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل (ص١٠٨-١٠٩) .

الغالب لغيره ، المذلِّل له ، والله تعالىٰ هو القاهر لخلقه . وقهر كلَّ شيء بضدِّه ، فقهر الحياة بالموت ، والإيجاد بالإعدام ، والغنىٰ بالفقر ، والنُّور بالظُّلمة " (١) .

وقال الإمام أبو حيَّان الأندلسي (٧٤٥هـ) : ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ إِشَارَةٌ إِلىٰ كَمَالِ الْقُدْرَةِ ، ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ إِشَارَةٌ إِلىٰ كَمَالِ الْعِلْمِ . أَمَّا كَوْنُهُ قَاهِراً ، فَلِأَنَّ مَا عَدَاهُ تَعَالَىٰ مُمْكِنُ الْوُجُودِ لِذَاتِهِ ، وَالْمُمْكِنُ لِذَاتِهِ لَا يَتَرَجَّحُ وَجُودُهُ عَلَىٰ عَدَمِهِ وَلَا عَدَمُهُ عَلَىٰ وُجُودِهِ إِلَّا بِتَرْجِيحِهِ تَعَالَىٰ وَإِيجَادِهِ ، فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ الَّذِي قَهَرَ الْمُمْكِنَاتِ تَارَةً فِي طُرُقِ تَرْجِيحِ الْوُجُودِ عَلَىٰ الْعَدَمِ وَتَارَةً فِي طُرُقِ تَرْجِيحِ الْعَدَمِ عَلَىٰ الْوُجُودِ ، وَيَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ مَا ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي قَوْلِهِ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦] .

وقال أيضاً : " قَالَ هُنَا ابْنُ عَطِيَّةَ: الْقَاهِرُ إِنْ أَخَذَ صِفَةَ فِعْلٍ أَيْ مُظْهِرُ الْقَهْرِ بِالصَّوَاعِقِ وَالرِّيَاحِ وَالْعَذَابِ، فَيَصِحُّ أَنَّ تُجْعَلَ فَوْقَ ظَرْفِيَّةً لِلْجِهَةِ لِأَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ إِنَّما تَعَاهُدُهَا لِلْعِبَادِ مِنْ فَوْقِهِمْ وَإِنْ أَخَذَ الْقَاهِرُ صِفَةَ ذَاتٍ بِمَعْنَىٰ الْقُدْرَةِ وَالِاسْتِيلَاءِ فَفَوْقَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِلْجِهَةِ وإِنَّما هُوَ لِعُلُوِّ الْقَدْرِ وَالشَّأْنِ، كَمَا تَقُولُ: الْيَاقُوتُ فَوْقَ الْحَدِيدِ " (٢) .

وقال الإمام ابن كثير (٧٧٤هـ) : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ ، أَيْ : هُوَ الَّذِي خَضَعَتْ لَهُ الرِّقَابُ ، وَذَلَّتْ لَهُ الْجَبَابِرَةُ ، وَعَنَتْ لَهُ الْوُجُوهُ ، وَقَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ وَدَانَتْ لَهُ الْخَلَائِقُ ، وَتَوَاضَعَتْ لِعَظَمَةِ جَلَالِهِ وَكِبْرِيَائِهِ وَعَظَمَتِهِ وَعُلُوِّهِ وَقُدْرَتِهِ الْأَشْيَاءُ ، وَاسْتَكَانَتْ وَتَضَاءَلَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَحْتَ حُكْمِهِ وَقَهْرِهِ " .

وقال أيضاً : " وَقَوْلُهُ : ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ ، أَيْ : هُوَ الَّذِي قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَخَضَعَ لِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ كُلُّ شَيْءٍ " (٣) .

وقال الإمام نظام الدِّين الحسن بن محمَّد النَّيسابوري (٨٥٠هـ) : " قوله : ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ ، والمراد منه الفوقيَّة بالقدرة والتَّسخير ، كما يقال : أمرُ فلان فوق أمرِ فلان ، أي : أنَّه أعلىٰ وأنفذ منه ، ولا ريب أنَّ الممكنات بأسرها تحت تصرُّف الواجب ينقلها من حيِّز العدم إلىٰ حالة الوجود وبالعكس ، ويتصرَّف فيها كيف يشاء ، علويَّات كنَّ أو سفليَّات ، ذوات أو صفات ، نفوساً أو أبداناً ، أخلاطاً وأركاناً . ومن جملة

---

(١) انظر : تفسير الخازن المسمىٰ لباب التأويل في معاني التنزيل (٢/ ١٢٣) ، (٢/ ١٤٢) بالترتيب .

(٢) انظر : البحر المحيط في التفسير (٤/ ٤٥٧) ، (٤/ ٥٣٨) .

(٣) انظر : تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٤٤) ، (٣/ ٢٦٧) بالترتيب .

قهره : إرسال الحفظة – وهي جمع حافظ – على عبيده بضبط أعمالهم من الطَّاعات والمعاصي والمباحات ... " (١) .

وقال الإمام الثَّعالبي (٨٧٥هـ) : " القاهرُ إنْ أُخِذَ صِفَةَ فِعْلٍ ، أي : مظهر القَهْر بالصَّواعقِ والرِّياحِ والعذابِ ، فيصحُّ أنْ تجعل﴿ فَوۡقَ﴾ ظرفيةً للجهةِ ، لأنَّ هذه الأشياء إنَّما تعاهَدَها العبادُ مِنْ فوقهم ، وإنْ أُخِذَ ٱلْقَاهِرُ صفَةَ ذَاتٍ ، بمعنى القُدْرة والاستيلاء ، فـ ﴿فَوۡقَ﴾ : لا يجوزُ أنْ تكون للجهةِ ، وإنَّما هي لعلُوِّ القَدْر والشَّأن ، على حدِّ ما تقولُ : اليَاقُوتُ فَوْقَ الحدي ، والأحرار فوق العبيد " (٢) .

وقال الإمام محمَّد بن عبد الرَّحمن الإِيجي الشَّافعيّ (٩٠٥هـ) : ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ ، قهره : استعلى عليهم فهم تحت تسخيره " .

وقال أيضاً : ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ تصوير لقهره وعلوِّه بالقدرة " (٣) .

وقال الإمام الخطيب الشَّربيني (٩٧٧هـ) : ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ﴾ ، أي : القادر الذي لا يعجزه شيء مستعلياً ﴿ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ ﴾ ، فهم مقهورون تحت قدرته ، وكلُّ من قهر شيئاً فهو مستعل عليه بالقهر والغلبة " (٤) .

وقال الإمام أبو السُّعود العمادي (٩٨٢هـ) : ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ تصويرٌ لقهره وعلوِّه بالغَلَبة والقُدرة " .

وقال أيضاً : ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ ، أي : هو المتصرِّفُ في أمورهم لاغيره ، يفعل بهم ما يشاء إيجاداً وإعداماً ، وإحياءً وإماتة ، وتعذيباً وإثابةً ، إلى غير ذلك" (٥) .

وقال الإمام شهاب الدِّين الخفَّاجي المصري (١٠٦٩هـ) : " قوله : ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ تصوير لقهره وعلوِّه بالغلبة والقدرة ، يعني : أنَّه استعارة تمثيليَّة فلا يلزم الجهة ، وقوله : بالغلبة متعلِّق بعلوِّه ، ويحتمل أنّ الاستعارة في الظَّرف بأن شبَّه الغلبة بمكان محسوس ، وقيل : أنَّه كناية عن القهر والعلوّ بالغلبة والقدرة ، وهما متعلِّقان بالقهر والعلوِّ على طريق اللفِّ والنَّشر ، والحاصل أنَّ قوله : ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ عبارة عن كمال القدرة ، كما أنَّ قوله ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ عبارة عن كمال العلم ، و﴿فَوۡقَ﴾ منصوب على

---

(١) انظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٣/ ٩٤) .

(٢) انظر : الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٢/ ٤٧٥) .

(٣) انظر : تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن (١/ ٥٢٠) ، (١/ ٥٤٣) بالترتيب .

(٤) انظر : السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (١/ ٤١٤) .

(٥) انظر : تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) (٣/ ١١٧) ، (٣/ ١٤٤) بالترتيب .

الظَّرفيَّة معمول للقاهر ، أي : المستعلي فوق عباده بالرُّتبة والمنزلة والشَّرف ، والعرب تستعمل فوق لعلوِّ المنزلة وتفوُّقها " (١) .

وقال لإمام إسماعيل حقّي بن مصطفىٰ الإستانبولي الحنفي الخلوتي (١١٢٧هـ) : " ... فقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨] ، عبارة عن كمال القدرة ، كما أنَّ قوله : ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨] ، عبارة عن كمال العلم ، قال المولىٰ الفناري في تفسيره : الفوقيَّة من حيث القدرة لا من حيث المكان ، لعلوِّ شأنه تعالىٰ عن ذلك ، فإنَّه تعالىٰ قاهر للممكنات ، معدومة كانت أو موجودة ، لأنَّه يقهر كلَّ واحد منهما بضدِّه ، فيقهر المعدومات بالإيجاد والتَّكوين ، والموجودات بالإفناء والإفساد . وفي " التَّأويلات النَّجميَّة " : وقد عمَّ قهره جميع عباده ، فقهر الكفَّار بموت القلوب ، وحياة النُّفوس... " (٢) .

وقال الإمام ابن عجيبة الحسني (١٢٢٤هـ) : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾ لجميع خلقه كلّهم في قبضته ، ﴿ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ بهذه القهريَّة والغلبة والقدرة " .

وقال أيضاً :﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ بالقهر والغلبة " (٣) .

وقال الإمام محمَّد بن علي بن محمَّد بن عبد الله الشَّوكاني اليمني (١٢٥٠هـ) : " قوله : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ القهر : الغلبة ، والقاهر : الغالب ، وأقهر الرَّجل إذا صار مقهوراً ذليلاً ، ومنه قول الشَّاعر :

تمنَّىٰ حصين أن يسود خزاعة فأمسىٰ حصين قد أذلّ وأقهرا

ومعنىٰ : ﴿ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ فوقيَّة الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم ، لا فوقيَّة المكان ، كما تقول : السُّلطان فوق رعيَّته ، أي : بالمنزلة والرِّفعة ، وفي القهر معنىٰ زائد ليس في القدرة ، وهو منع غيره عن بلوغ المراد " .

وقال أيضاً : " قوله : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ المراد : فوقيَّة القدرة والرُّتبة ، كما يقال : السُّلطان فوق الرعيَّة ... " (٤) .

وقال الإمام أبو الطيِّب محمَّد صديق خان القِنَّوجي (١٣٠٧هـ) : ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ ، القهر : الغلبة والقاهر الغالب وأقهر الرَّجل إذا صار مقهوراً ذليلاً، ومن الأوَّل قوله : ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٧] ، ومن الثَّاني : " ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحىٰ:٩] ، قيل : ومعنىٰ فوق فوقيَّة الاستعلاء

---

(١) انظر : حَاشِيَةُ الشِّهَابِ عَلَىٰ تفْسيرِ البَيضَاوِي، المُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِي وكِفَايةُ الرَّاضِي عَلَىٰ تفْسيرِ البَيضَاوي(٤/ ٣٤) .

(٢) انظر : روح البيان (٣/ ١٦-١٧) .

(٣) انظر : البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٢/ ١٠٤) ، (٢/ ١٢٨) بالترتيب .

(٤) انظر : فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير (٢/ ١٠٤) ، (٢/ ١٢٤) بالترتيب .

بالقهر والغلبة عليهم لا فوقيَّة المكان ، كما تقول : السُّلطان فوق رعيَّته ، أي : بالمنزلة والرِّفعة ، وقيل : هو صفة الاستعلاء الذي تفرَّد به سبحانه ، فهو على الذَّات ، وسمى الصِّفات . وقال ابن جرير الطَّبري : معنى القاهر المتعبِّد خلقه العالي عليهم . وإنَّما قال فوق عباده لأنَّه تعالى وصف نفسه بقهره إيَّاهم ومن صفة كلّ قاهر شيئاً أن يكون مستعلياً عليه انتهى، أي استعلاء يليق به وقيل هو القاهر مستعلياً أو غالباً ذكره أبو البقاء والمهدوي ، وفي القهر معنى زائدة ليس في القدرة وهو منع غيره عن بلوغ المراد " (١) .

وقال الإمام محمَّد بن عمر نووي الجاوي البنتني (١٣١٦هـ) : ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ بالقدرة والقوَّة وهذا إشارة إلى كمال القدرة " .

وقال أيضاً : " ... أي وهو الغالب المتصرِّف في أمور عباده يفعل بهم ما يشاء إيجاداً وإعداماً، وإحياء وإماتة وإثابة وتعذيباً إلى غير ذلك فالممكنات كلُّها مقهورة تحت قهر الله تعالى مسخَّرة تحت تسخير الله تعالى" (٢) .

وقال الإمام القاسمي (١٣٣٢هـ) : " أي : هو الغالب بقدرته ، المستعلي فوق عباده ، يدبِّر أمرهم بما يريد ، فيقع في ذلك ما يشق عليهم ويثقل ويغم ويحزن ، فلا يستطيع أحد منهم ردّ تدبيره ، والخروج من تحت قهره وتقديره . قال أبو البقاء : في (فوق) وجهان :

أحدهما : في موضع نصب على الحال من الضمير في (القاهر) ، أي : مستعلياً وغالباً .

والثاني : في موضع رفع على أنَّه بدل من (القاهر) أو خبر ثان " (٣) .

وقال الإمام محمَّد رشيد بن علي رضا القلموني (١٣٥٤هـ) : " ... إِذَا سَمِعَ لَفْظَ الْفَوْقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ﴾ ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ الْفَوْقَ اسْمٌ مُشْتَرَكٌ يُطْلَقُ لِمَعْنَيَيْنِ ؛ أَحَدُهُمَا: نِسْبَةُ جِسْمٍ إِلَى جِسْمٍ بِأَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا أَعْلَى وَالْآخَرُ أَسْفَلَ ، يَعْنِي : أَنَّ الْأَعْلَى مِنْ جَانِبِ رَأْسِ الْأَسْفَلِ ، وَقَدْ يُطْلَقُ لِفَوْقِيَّةِ الرُّتْبَةِ ، وَبِهَذَا الْمَعْنَى يُقَالُ : الْخَلِيفَةُ فَوْقَ السُّلْطَانِ ، وَالسُّلْطَانُ فَوْقَ الْوَزِيرِ ، وَكَمَا يُقَالُ الْعِلْمُ فَوْقَ الْعِلْمِ ، وَالْأَوَّلُ : يَسْتَدْعِي جِسْمًا يُنْسَبُ إِلَى جِسْمٍ .

---

(١) انظر : فتحُ البيان في مقاصد القرآن (٤/ ١١٤-١١٥) .

(٢) انظر : مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد (١/ ٣١٠) ، (١/ ٣٢٣) بالترتيب .

(٣) انظر : محاسن التأويل (٤/ ٣٢٧) .

وَالثَّانِي : لَا يَسْتَدْعِيهِ ، فَلْيَعْتَقِدِ الْمُؤْمِنُ قَطْعاً أَنَّ الْأَوَّلَ غَيْرُ مُرَادٍ ، وَأَنَّهُ عَلَىٰ اللهِ - تَعَالَىٰ - مُحَالٌ ، فَإِنَّهُ مِنْ لَوَازِمِ الْأَجْسَامِ أَوْ لَوَازِمِ أَعْرَاضِ الْأَجْسَامِ ، وَإِذَا عَرَفَ نَفْيَ هَذَا الْمُحَالِ فَلَا عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَعْرِفْ أَنَّه لِمَاذَا أُطْلِقَ وَمَاذَا أُرِيدَ ؟ فَقِسْ عَلَىٰ مَا ذَكَرْنَاهُ مَا لَمْ نَذْكُرْهُ ..." (١) .

وقال أيضاً : " فَسَّرَ أَهْلُ اللُّغَةِ الْقَهْرَ بِالْغَلَبَةِ وَالْأَخْذِ مِنْ فَوْقٍ وَبِالْإِذْلَالِ، وَقَالَ الرَّاغِبُ: الْقَهْرُ الْغَلَبَةُ وَالتَّذْلِيلُ مَعًا وَيُسْتَعْمَلُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا. وَقَدْ جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بَعْدَ إِثْبَاتِ كَمَالِ الْقُدْرَةِ للهِ تَعَالَىٰ فِيمَا قَبْلَهَا تُثْبِتُ لَهُ جَلَّ وَعَلَا كَمَالَ السُّلْطَانِ وَالتَّسْخِيرِ لِجَمِيعِ عِبَادِهِ وَالِاسْتِعْلَاءِ عَلَيْهِمْ مَعَ كَمَالِ الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ الْمُحِيطِ بِخَفَايَا الْأُمُورِ، لِيُرْشِدَنَا إِلَىٰ أَنَّ مَنِ اتَّخَذَ مِنْهُمْ وَلِيًّا مِنْ دُونِهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا لِإِشْرَاكِهِ وَمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الرَّبِّ الْقَاهِرِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ الْحَكِيمِ الْخَبِيرِ، وَبَيْنَ الْعَبْدِ الْمَرْبُوبِ الْمَقْهُورِ الْمُذَلَّلِ الْمُسَخَّرِ الَّذِي لَا حَوْلَ لَهُ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ. فَإِذَا كَانَ هَكَذَا شَأْنُ الرَّبِّ وَهَذِهِ صِفَاتُهُ فَلَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ بِهِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلِيًّا مِنْ عِبَادِهِ الْمَقْهُورِينَ تَحْتَ سُلْطَانِ عِزَّتِهِ، الْمُذَلَّلِينَ لِسُنَنِهِ الَّتِي اقْتَضَتْهَا حِكْمَتُهُ وَعِلْمُهُ بِتَدْبِيرِ الْأَمْرِ فِي خَلْقِهِ، لِأَنَّ أَفْضَلَ الْمَخْلُوقَاتِ وَأَكْمَلَهُمْ مُسَاوُونَ لِغَيْرِهِمْ فِي الْعُبُودِيَّةِ للهِ وَالذُّلِّ لَهُ، وَكَوْنِهِمْ لَا حَوْلَ لَهُمْ وَلَا قُوَّةَ بِأَنْفُسِهِمْ، وَلَمْ يَجْعَلْ مِنْ خَصَائِصِ أَحَدٍ مِنْهُمْ أَنْ يُشَارِكَهُ فِي التَّصَرُّفِ فِي خَلْقِهِ وَلَا فِي كَوْنِهِ يُدْعَىٰ مَعَهُ وَلَا وَحْدَهُ لِكَشْفِ ضُرٍّ وَلَا جَلْبِ نَفْعٍ ﴿ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١٨] ، ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ ﴾ [الأنعام: ٤١] ، ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦] إِلَخْ

وَقَدْ فَسَّرَ ابْنُ جَرِيرٍ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ: وَاللهُ الْغَالِبُ عِبَادَهُ الْمُذِلُّ لَهُمُ الْعَالِي عَلَيْهِمْ بِتَذْلِيلِهِ لَهُمْ وَخَلْقِهِ إِيَّاهُمْ فَهُوَ فَوْقَهُمْ بِقَهْرِهِ إِيَّاهُمْ وَهُمْ دُونَهُ، وَهُوَ الْحَكِيمُ فِي عُلُوِّهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ وَقَهْرِهِ إِيَّاهُمْ بِقُدْرَتِهِ وَسَائِرِ تَدْبِيرِهِ، الْخَبِيرُ بِمَصَالِحِ الْأَشْيَاءِ وَمَضَارِّهَا، الَّذِي لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ عَوَاقِبُ الْأُمُورِ وَبِوَادِيهَا، وَلَا يَقَعُ فِي تَدْبِيرِهِ خَلَلٌ، وَلَا يَدْخُلُ حِكْمَتَهُ دَخَلٌ اهـ.

وَذَهَبَتِ الْمُعْتَزِلَةُ وَالْأَشَاعِرَةُ إِلَىٰ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ تَصْوِيرٌ لِقَهْرِهِ وَعُلُوِّهِ بِالْغَلَبَةِ وَالْقَهْرِ. صَرَّحَ بِذَلِكَ الزَّمَخْشَرِيُّ وَتَبِعَهُ بَعْضُ الْأَشَاعِرَةِ، كَالْبَيْضَاوِيِّ بِنَقْلِ عِبَارَتِهِ بِنَصِّهَا، وَبَعْضُهُمْ، كَالرَّازِيِّ، بِنَقْلِهَا وَإِطَالَةِ الدَّلَائِلِ النَّظَرِيَّةِ بِإِثْبَاتِ مَضْمُونِهَا، وَمَنْعِ إِرَادَةِ فَوْقِيَّةِ الذَّاتِ وَإِطْلَاقِ صِفَةِ الْعُلُوِّ عَلَىٰ اللهِ، إِذْ جَعَلَ ذَلِكَ قَوْلًا بِتَحَيُّزِ الْبَارِي فِي جِهَةٍ مُعَيَّنَةٍ، وَأَطَالَ فِي سَرْدِ الدَّلَائِلِ النَّظَرِيَّةِ عَلَىٰ اسْتِحَالَةِ ذَلِكَ، وَلَفْظُ الْآيَةِ لَا يَأْبَىٰ مَا فَسَّرَهُ بِهِ الزَّمَخْشَرِيُّ وَأَمْثَالُهُ، لِأَنَّ لَهُ نَظِيرًا ذَكَرُوهُ فِي تَفْسِيرِهَا وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ حِكَايَةً عَنْ فِرْعَوْنَ ﴿

(١) انظر : تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) (٣/ ١٧٤-١٨٩ باختصار) .

وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف:١٢٧] وَبَدِيهِيٌّ أَنَّه يَعْنِي فَوْقِيَّةَ الْمَكَانَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ لا الْمَكَانَ، وَلَوِ اكْتَفَوْا بِهَذَا لَكَانَ حَسَنًا لأَنَّه فِي مَعْنَىٰ مَا نُقِلَ عَنْ مُفَسِّرِي السَّلَفِ كَابْنِ جَرِيرٍ، وَلَكِنَّ مِنْهُمْ مَنْ شَنَّعَ عَلَىٰ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ وَسَمَّاهُمْ حَشْوِيَّةً لِعَدَمِ تَأْوِيلِهِمُ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثَ الصَّحِيحَةَ النَّاطِقَةَ بِإِثْبَاتِ صِفَةِ الْعُلُوِّ الْمُطْلَقِ للهِ تَعَالَىٰ، فَسَلَفُ الْأُمَّةِ يُمِرُّونَ هَذِهِ الْآيَاتِ بِغَيْرِ تَأْوِيلٍ وَيَقُولُونَ: إِنَّ اللهَ مُسْتَوٍ عَلَىٰ عَرْشِهِ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ وَفَوْقَ الْعَالَمِ كُلِّهِ لَا فَوْقَ كُلِّ شَخْصٍ وَحْدَهُ، وَهُوَ بِهَذَا بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَإِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، فَلَيْسَ بِمُحَاوِدٍ وَلَا مَحْصُورٍ وَلَا مُتَحَيِّزٍ، فَهَذِهِ اللَّوَازِمُ الَّتِي يَبْنِي عَلَيْهَا الْجَهْمِيَّةُ وَتَلَامِيذُهُمْ تَأْوِيلَ صِفَةِ الْعُلُوِّ مَبْنِيَّةٌ كُلُّهَا عَلَىٰ قِيَاسِ الْخَالِقِ عَلَىٰ الْمَخْلُوقِ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ جَمِيعَ مَا أُطْلِقَ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ مِنَ الصِّفَاتِ حَتَّىٰ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ فَإِنَّمَا وُضِعَ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ لِصِفَاتِ الْبَشَرِ وَهِيَ مُبَايِنَةٌ لِصِفَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَلِمَاذَا يَخُصُّونَ بَعْضَهَا بِالتَّأْوِيلِ دُونَ بَعْضٍ؟ فَالْحَقُّ الَّذِي مَضَىٰ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ وُصِفَ بِكُلِّ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَّ جَمِيعَ تِلْكَ الصِّفَاتِ تُطْلَقُ عَلَيْهِ مَعَ تَنْزِيهِهِ عَنْ مُشَابَهَةِ مَنْ تُطْلَقُ عَلَيْهِمْ أَلْفَاظُهَا مِنَ الْخَلْقِ، فَعِلْمُ اللهِ وَقُدْرَتُهُ وَكَلَامُهُ وَعُلُوُّهُ وَسَائِرُ صِفَاتِهِ شُئُونٌ تَلِيقُ بِهِ لَا تُشْبِهُ عِلْمَ الْمَخْلُوقِينَ وَقُدْرَتَهُمْ وَكَلَامَهُمْ وَعُلُوَّ بَعْضِهِمْ عَلَىٰ بَعْضٍ. وَقَدِ انْتَهَىٰ سُخْفُ بَعْضِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي التَّأْوِيلِ إِلَىٰ جَعْلِ صِفَاتِ الْبَارِي تَعَالَىٰ سَلْبِيَّةً، وَقَدْ تَقَدَّمَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْبَحْثِ، وَسَنَعُودُ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ " (١) .

وقال أيضاً : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ [الأنعام:٦١] بَيَّنَّا مَعْنَىٰ الْجُمْلَةِ الْأُولَىٰ بِنَصِّهَا فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ، وَكَلِمَةُ " فَوْقَ " تُسْتَعْمَلُ – كَمَا قَالَ الرَّاغِبُ – فِي الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ وَالْجِسْمِ وَالْعَدَدِ وَالْمَنْزِلَةِ، وَذَلِكَ أَضْرُبٌ ضَرَبَ لَهَا الرَّاغِبُ الْأَمْثِلَةَ، فَـ " فَوْقَ " الْعُلْوِيَّةُ يُقَابِلُهُ " تَحْتُ "، وَ " فَوْقَ " الصُّعُودِ يُقَابِلُهُ فِي الْحُدُودِ الْأَسْفَلُ، وَ " فَوْقَ " الْعَدَدِ يُقَابِلُهُ الْقَلِيلُ أَوِ الْأَقَلُّ مِنْهُ، وَ " فَوْقَ " الْحَجْمِ يُقَابِلُهُ الصَّغِيرُ أَوِ الْأَصْغَرُ مِنْهُ، وَ " فَوْقَ " الْمَنْزِلَةِ يَكُونُ بِمَعْنَىٰ الْفَضِيلَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾[الزخرف:٣٢] ،﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢] وَبِمَعْنَىٰ الْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ حِكَايَةً عَنْ فِرْعَوْنَ: ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧] وَبِهِ فَسَّرُوا هَذِهِ الْآيَةَ وَمَا قَبْلَهَا " (٢) .

وقال الإمام أحمد بن مصطفى المراغي (١٣٧١هـ) : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي إنَّ الرَّبَّ من شأنه العزَّة والسُّلطان والعلو والكبرياء وهو الحكيم الخبير، فلا ينبغى للمؤمن أن يتَّخذ وليّاً من

(١) انظر : تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) (٧/ ٢٨١-٢٨٢) .

(٢) انظر : تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) (٧/ ٤٠١) .

عباده المقهورين تحت سلطان عزَّته، المذلّلين لسنَّته التي اقتضتها حكمته وعلمه بتدبير الأمر في خلقه " (١)
.

وقال أيضاً : " ... أي أنَّه تعالىٰ هو الغالب خلقه العالي عليهم بقدرته وسلطانه، لا المقهورون من الأوثان والأصنام، المغلوبون علىٰ أمرهم" (٢) .

وقال الإمام الشَّهيد سيِّد قطب إبراهيم حسين الشَّاربي (١٣٨٥هـ) : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾... فهو صاحب السُّلطان القاهر وهم تحت سيطرته وقهره ، هم ضعاف في قبضة هذا السُّلطان لا قوَّة لهم ولا ناصر ، هم عباد ، والقهر فوقهم ، وهم خاضعون له مقهورون ...

وهذه هي العبوديَّة المطلقة للألوهيَّة القاهرة ... وهذه هي الحقيقة التي ينطق بها واقع النَّاس- مهما ترك لهم من الحريَّة ليتصرَّفوا، ومن العلم ليعرفوا، ومن القدرة ليقوموا بالخلافة- إنَّ كلَّ نفس من أنفاسهم بقدر وكلّ حركة في كيانهم خاضعة لسلطان الله بما أودعه في كيانهم من ناموس لا يملكون أن يخالفوه ، وإن كان هذا النَّاموس يجري في كلِّ مرَّة بقدر خاص حتىٰ في النَّفس والحركة " (٣) .

وقال الإمام عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفىٰ: بعد ١٣٩٠هـ) : " قوله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ أي أنَّه ذو السُّلطان القائم فوق عباده، يملكهم ولا يملكونه، ويقضىٰ عليهم ولا يقضون عليه، ويعطي ويمنع، ويعزّ ويذل: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٦] .

وليس سلطان الله سبحانه، القائم فوق عباده، الآخذ علىٰ جوارحهم ومشاعرهم ومدركاتهم- ليس بالسُّلطان المستبدّ الجهول، تعالىٰ عن ذلك علوّاً كبيراً ... وإنَّما هو سلطان قائم بالعدل ، والحكمة ، والعلم والقدرة ، وما كان كذلك، فهو سلطان الرَّحمة والإحسان ... " (٤) .

وقال الإمام محمَّد الطَّاهر بن عاشور التُّونسي (١٣٩٣هـ) : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ هَذِهِ الْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَىٰ جُمْلَةِ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ [الأنعام: ١٧] الْآيَةَ، وَالْمُنَاسَبَةُ بَيْنَهُمَا أَنَّ مَضْمُونَ كِلْتَيْهِمَا يُبْطِلُ اسْتِحْقَاقَ الْأَصْنَامِ الْعِبَادَةَ. فَالْآيَةُ الْأُولَىٰ أَبْطَلَتْ ذَلِكَ بِنَفْيِ أَنْ يَكُونَ لِلْأَصْنَامِ تَصَرُّفٌ فِي أَحْوَالِ

---

(١) انظر : تفسير المراغي (٧/ ٩١) .

(٢) انظر : تفسير المراغي (٧/ ١٤٧) .

(٣) انظر : في ظلال القرآن (٢/ ١١٢٢) .

(٤) انظر : التفسير القرآني للقرآن ، عبد الكريم يونس الخطيب ، (٤/ ١٤٤) .

الْمَخْلُوقَاتِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ أَبْطَلَتْ أَنْ يَكُونَ غَيْرُ اللهَّ قَاهِرًا عَلَىٰ أَحَدٍ أَوْ خَبِيرًا أَوْ عَالِمًا بِإِعْطَاءِ كُلِّ مَخْلُوقٍ مَا يُنَاسِبُهُ، وَلَا جَرَمَ أَنَّ الْإِلَهَ تَجِبُ لَهُ الْقُدْرَةُ وَالْعِلْمُ، وَهُمَا جِمَاعُ صِفَاتِ الْكَمَالِ، كَمَا تَجِبُ لَهُ صِفَاتُ الْأَفْعَالِ مِنْ نَفْعٍ وَضُرٍّ وَإِحْيَاءٍ وَإِمَاتَةٍ، وَهِيَ تَعَلُّقَاتٌ لِلْقُدْرَةِ أُطْلِقَ عَلَيْهَا اسْمُ الصِّفَاتِ عِنْدَ غَيْرِ الْأَشْعَرِيِّ نَظَرًا لِلْعُرْفِ، وَأَدْخَلَهَا الْأَشْعَرِيُّ فِي صِفَةِ الْقُدْرَةِ لِأَنَّهَا تَعَلُّقَاتٌ لَهَا، وَهُوَ التَّحْقِيقُ.

وَلِذَلِكَ تَتَنَزَّلُ هَذِهِ الْآيَةُ مِنَ الَّتِي قَبْلَهَا مَنْزِلَةَ التَّعْمِيمِ بَعْدَ التَّخْصِيصِ لِأَنَّ الَّتِي قَبْلَهَا ذكرت كَمَا تَصَرُّفِهِ فِي الْمَخْلُوقَاتِ وَجَاءَتْ بِهِ فِي قَالَبِ تَثْبِيتِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا قَدَّمْنَا، وَهَذِهِ الْآيَةُ أَوْعَتْ قُدْرَتَهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَعِلْمَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَذَلِكَ أَصْلُ جَمِيعِ الْفِعْلِ وَالصُّنْعِ.

وَالْقَاهِرُ الْغَالِبُ الْمُكْرِهُ الَّذِي لَا يَنْفَلِتُ مِنْ قُدْرَتِهِ مِنْ عُدِّيَ إِلَيْهِ فِعْلُ الْقَهْرِ.

وَقَدْ أَفَادَ تَعْرِيف الجزأين الْقَصْرَ، أَيْ لَا قَاهِرَ إِلَّا هُوَ، لِأَنَّ قَهْرَ اللهَّ تَعَالَىٰ هُوَ الْقَهْرُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي لَا يَجِدُ الْمَقْهُورُ مِنْهُ مَلَاذًا، لِأَنَّهُ قَهْرٌ بِأَسْبَابٍ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ خَلْقَ مَا يُدَافِعُهَا. وَمِمَّا يُشَاهَدُ مِنْهَا دَوْمًا النَّوْمُ وَكَذَلِكَ الْمَوْتُ. سُبْحَانَ مَنْ قَهَرَ الْعِبَادَ بِالْمَوْتِ.

وَ (فَوْقَ) ظَرْفٌ مُتَعَلِّقٌ بِ الْقاهِرُ، وَهُوَ اسْتِعَارَةٌ تَمْثِيلِيَّةٌ لِحَالَةِ الْقَاهِرِ بِأَنَّهُ كَالَّذِي يَأْخُذُ الْمَغْلُوبَ مِنْ أَعْلَاهُ فَلَا يَجِدُ مُعَالَجَةً وَلَا حَرَاكًا. وَهُوَ تَمْثِيلٌ بَدِيعٌ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ حِكَايَةً عَنْ فِرْعَوْنَ ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٢٧].

وَلَا يُفْهَمُ مِنْ ذَلِكَ جِهَةٌ هِيَ فِي عُلُوٍّ كَمَا قَدْ يُتَوَهَّمُ، فَلَا تُعَدُّ هَذِهِ الْآيَةُ مِنَ الْمُتَشَابِهَاتِ.

والعباد: هُمُ الْمَخْلُوقُونَ مِنَ الْعُقَلَاءِ، فَلَا يُقَالُ لِلدَّوَابِّ عِبَادُ اللهَّ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ جَمْعُ عَبْدٍ لَكِنَّ الِاسْتِعْمَالَ خَصَّهُ بِالْمَخْلُوقَاتِ، وَخَصَّ الْعَبِيدَ بِجَمْعِ عَبْدٍ بِمَعْنَى الْمَمْلُوكِ.

وَمَعْنَى الْقَهْرِ فَوْقَ الْعِبَادِ أَنَّهُ خَالِقُ مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ قُدَرِهِمْ بِحَيْثُ يُوجِدُ مَا لَا يُرِيدُونَ وُجُودَهُ كَالْمَوْتِ، وَيَمْنَعُ مَا يُرِيدُونَ تَحْصِيلَهُ كَالْوَلَدِ لِلْعَقِيمِ وَالْجَهْلِ بِكَثِيرٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ، بِحَيْثُ إِنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ أُمُورًا يَسْتَطِيعُ فِعْلَهَا وَأُمُورًا لَا يَسْتَطِيعُ فِعْلَهَا وَأُمُورًا يَفْعَلُهَا تَارَةً وَلَا يَسْتَطِيعُ فِعْلَهَا تَارَةً، كَالْمَشْيِ لِمَنْ خَدِرَتْ رِجْلُهُ فَيَعْلَمُ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّ اللهَّ هُوَ خَالِقُ الْقُدَرِ وَالِاسْتِطَاعَاتِ لِأَنَّهُ قَدْ يَمْنَعُهَا، وَلِأَنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَخْرُجُ عَنْ مَقْدُورِ الْبَشَرِ، ثمَّ يَقِيسُ الْعَقْلُ عَوَالِمَ الْغَيْبِ عَلَىٰ عَالَمِ الشَّهَادَةِ. وَقَدْ خَلَقَ اللهُّ الْعَنَاصِرَ وَالْقُوَىٰ وَسَلَّطَ بَعْضَهَا عَلَىٰ بعض فَلَا يَسْتَطِيع الْمُدَافَعَةَ إِلَّا مَا خَوَّلَهَا اللهُّ" (١) .

(١) انظر : التحرير والتنوير (٧/ ١٦٤-١٦٥) .

وقال الإمام محمَّد متولِّي الشَّعراوي (١٤١٨هـ) : " يقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَـاهِرُ فَوْقَ عِبَـادِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦١] ، وكلمة " قاهر " إذا سمعتها تتطلَّب مقهوراً . وما دام هناك قاهر ومقهور ففي ذلك ميزانان بين مجالين . وما دام هو قاهراً ففي أي مجال وبأيَّة طريقة سيكون الطَّرف الثَّاني مقهوراً له ؟ إنَّنا نعلم أنَّ كلَّ شيء في الكون مقهور له ، فقد قهر العدم فأوجد ، وقهر الوجود فأعدم . وقهر الغنىٰ فأفقر ، وقهر الفقر فأغنىٰ . وقهر الصحَّة فأمرض ، وقهر المرض فأصحّ . إذن فكلُّ شيء في الوجود مقهور لله حتىٰ الرُّوح التي جعلها الله مصدر الحسِّ والحركة للإنسان يقهرها سبحانه . فإذا جاء إنسان وقتل إنساناً آخر بأن ضربه علىٰ المكان الذي لا توجد عند عدمه وفقده حياة ، بأن أذهب صلاحيَّته للبقاء تنسحب الرُّوح . وهذا يوضح لنا أنَّ الرُّوح في الجسم هي المسيطرة ، لكن من ينقض البنية التي تسكنها الرُّوح يُذْهِبُ الرُّوح ويخرجها من الجسم . ومرَّة يقهر المادَّة بالرُّوح ، فيأخذ الرُّوح من غير آفة ، ومن غير أيَّة إصابة ، ويتحوَّل الجسم إلىٰ رمّة . إذن فسبحانه يقهر الرُّوح، ويقهر المادَّة ، ولا توجد متقابلات في الوجود عالية ومتأبِّية ومتمرِّدة عليه – سبحانه – : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَـاهِرُ فَوْقَ عِبَـادِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦١]

والقاهر هو المتحكِّم بقدرة شاملة علىٰ المقهور . وانظر أي تقابل في الحياة تجده مديناً وخاضعاً لصفة القهر. ﴿ وَهُوَ ٱلْقَـاهِرُ فَوْقَ عِبَـادِهِۦ﴾ ، وكلمة ﴿ فَوْقَ ﴾ تقتضي مكانيَّة . ولكن المكانيَّة تحديد ، وما دام القهر يتطلَّب قدرة ، فهل يعني ذلك أنَّ القادر لا بدَّ أن يكون في مكان أعلىٰ ؟ لأننا نجد – علىٰ سبيل المثال ولله المثل الأعلىٰ – من يضع قنبلة تحت العمارة العالية ويقهر من فيها . إذن فالقهر لا يقتضي الفوقيَّة المكانيَّة ، إذن فالفوقيَّة المرادة هي فوقيَّة الاستعلاء ، ونحن عندما تكلَّمنا عن الحقِّ سبحانه وتعالىٰ أوضحنا أن نلتزم بإطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورىٰ:١١] ، فهو ذات لا ككلِّ الذوات . وصفاته ليست ككلِّ الصِّفات .

وكذلك نأتي ونقول في فعله ، وعلىٰ سبيل المثال نجد خلق الله يحتاجون إلىٰ زمن ويحتاجون إلىٰ علاج ، وكل جزئيَّة من الفعل تحتاج إلىٰ جزئيَّة من الزَّمن ، لكن هو سبحانه إذا فعل أيحتاج فعله إلىٰ زمن ؟ لا ؛ لأنَّه لا يفعل بعلاج ، ولا يجلس ليباشر العمليَّة ، إنَّما يفعل سبحانه بـ " كن " ، إذن القهر في قوله : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَـاهِرُ فَوْقَ عِبَـادِهِۦ ﴾ ، هو قهر الاستعلاء ، ولذلك يقول لنا رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " ينزل ربُّنا إلىٰ السَّماء الدُّنيا كلّ ليلة لآخر رمضان " . ففي آية ليلة ينزل فيها الله ؟ ليلتك أم ليلة المقابل لك ؟ أم الليلة التي تشرق الشَّمس فيها في مكان ، وتغيب عن مكان آخر ؟ إذن، فكلُّ واحد من المليون من الثَّانية ينشأ ليل وينشأ نهار ، وهكذا نعلم أنَّ الله معك ومع غيرك ، باسطاً لك ولغيرك يده ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]

لذلك لا تفهم قول رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إنَّ الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنَّهار ليتوب مسيء الليل حتىٰ تطلع الشَّس من مغربها " . لا تفهم ذلك بتخصيص ليل معين أو نهار معين ؛ لأنَّ يده مبسوطة في كلِّ زمان ، وفي كلِّ مكان ، وليس كمثله شيء .

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ ، وعباده من مادَّة العين والباء والدَّال ، ومفردها " عَبْد " ، وجمعها يكون مرَّة " عبيداً " ، وأخرىٰ " عِباداً " . والعباد هم المقهورون لله فيما لا اختيار لهم فيه ، وهم أيضاً المنقادون لحكم الله فيما لهم فيه اختيار ؛ لأنَّ الإنسان مقهور في بعض الأمور ولا تصرُّف له فيها : لا تصرُّف له في نَفَسه ، ولا تصرُّف له في نبضات قلبه ، ولا تصرُّف له في حركة المعدة ، ولا تصرُّف له في حركة الأمعاء ، ولا تصرُّف له في حركة الحالبين ، ولا تصرُّف له في حركة الكُلْيَة ، وكلُّها مسائل تشمل المؤمن والكافر ، والكلُّ مقهور فيها .

إنَّ من رحمة الله أنَّنا مقهورون فيها ولا رأىٰ لنا ؛ لأنَّه لو كان لنا رأي في مثل هذه الأمور لكان لنا أن نسأل : كيف ننظِّم عمليَّة تنفُّسنا في أثناء النوم ؟ إذن فمن رحمة الله أن منع عنَّا الاختيار في بعض الأمور التي تمسّ حياتنا ، ومن رحمة الله أنَّ كلاً منَّا مقهور فيها ، فمن يستطيع أن يقول لمعدته : اهضمي الطَّعام ؟ ومن يستطيع أن يأمر الكلىٰ بالعمل ؟!!

إذن فكلُّ أمر مقهور فيه الإنسان ، هو فيه منقاد لله ولا اختيار له . أمَّا الأمر الذي لك فيه اختيار فهو مناط التَّكليف . ولذلك لا يقول لك المنهج : افعل إلَّا وأنت صالح ألَّا تفعل ، ولا يقول لك : لا تفعل إلَّا وأنت صالح أن تفعل .

إذن الأمور الاختياريَّة هي التي وردت فيها " افعل " و " لا تفعل " . وهي الأمور التي فيها التَّكليف. ومن يطع ربَّنا في منهج التَّكليف يصبح وكأنَّه مقهور للحكم ، ويكون ممَّن يسمِّيهم الله " عباداً " ، فكأنَّهم تنازلوا عن اختيارهم في الأحكام التَّكليفيَّة ، وقالوا : ياربّ لن نفعل إلا ما يريده منهجك .

وكلٌّ منهم ينفِّذ حكم الله فيما له اختيار ألَّا ينفذه . أمَّا العبيد فهم من يتمرَّدون علىٰ التَّكليف ، فالمؤمنون بالله هم عباده . ولذلك يقول الحق : ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ ﴾ [الزمر: ٥٣]

ويوضِّح سبحانه سمات هؤلاء العباد ، فيقول : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]

هؤلاء هم العباد الذين تنازلوا عن اختيارهم في الفعل ، وقبلوا أن يكونوا مأمورين ومطيعين لله فيما كلفَّ به ، وهم في الأمور التي لا اختيار لهم فيها يكونون مثل بقية الكائنات ، فكل الخلق والكون عبيد الله ، فيما لا اختيار لهم فيه أما المؤمنون به فهم عباد الله . ولكن آية واحدَة في القرآن وهي التي تثير بعض الجدل في مثل هذا الموضوع . ساعة يقول الحق سبحانه وتعالىٰ عمَّا يحدث في الآخرة : ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧]

وكأنَّ ﴿عِبَادِى﴾ هنا أطلقت علىٰ الضَّالين ، ويقول : نعم ؛ لأنَّ الكلَّ في الآخرة عباد ؛ إذ لا اختيار لأحد هناك . لكن في الدُّنيا فالمؤمنون فقط هم العباد ، والكافرون عبيد لأنَّهم متمرِّدون في الاختيارات .

﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦١] ومع مجيء معنىٰ القهر يرسل الحقُّ حفظة ، وإذا كان القهر يعني الغلبة والتملُّك والسَّيطرة والقدرة ، فهو قهَّار علىٰ عباده ، وأيضاً يرسل عليهم حفظة .

ويقول في موقع آخر : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ [الرعد: ١١]

وهكذا يكون قهر الله لنا ، لمصلحتنا نحن ؛ لأنَّ الضَّعيف حين يقهره جبَّار ، يمكنه أن يقول : الله هو القهَّار الأعلىٰ ، وفي هذا تذكير للقوي نسبيَّاً أنَّ هناك قهَّاراً فوق كلِّ الكائنات ، فالله قهَّار فوق الجميع ، وبذلك يرتدع القويُّ عن قهره ، فيمتنع عن الذَّنب ، وتمتنع عنه العقوبة ، وفي ذلك رحمة له " (١) .

رَابِعَاً : وَمِنَ الآيَاتِ التِيْ يَسْتَدِلُّوْنَ بِهَا عَلَى العُلُوِّ الحِسِّيِّ المَكَانِي لله تَعَالَى : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٠] .

والنَّاظر فيما قاله علماء الأمَّة في معنىٰ الفوقيَّة الواردة في الآية الكريمة يجد أنَّ جمهورهم ذهب إلىٰ ما يُخالف ما ذهب إليه المجسِّمة الذين ذهبوا إلىٰ تفسير الفوقيَّة بالمكان والجهة ، والعياذ بالله تعالىٰ ...

فمن أشهر المعاني التي ذكرها العلماء للفوقيَّة الواردة في الآية الكريمة :

(١) قال بعضهم : يجب الإعراض عن التَّأويل والإيمان بها كما جاءت ، والإيمان بها صحيح وإن لم يعرف معناها ، وهذا ما ذهب له جمهور السَّلف ، وهو الأقرب إلىٰ السَّلامة .

(٢) وقال بعضهم : يعني: يخافون قدرة ربِّهم أن يأتيهم بالعذاب من فوقهم ، والمقصود هم الملائكة .

(٣) وقال بعضهم : أنَّ الآية من باب حذف المضاف ، علىٰ تقدير : يخافون مِن عِقَاب ربِّهم من فوقهم ، لأنَّ أكثر ما يأتي العقاب المهلك إنَّما يأتي من فوق ، تعالىٰ الله عن الجهة والمكان ، فالفوقيَّة التي يوصف بها الله تعالىٰ هي فوقيَّة القدْر والعظمة والقهر والسُّلطان ...

---

(١) انظر : تفسير الشعراوي (٦/ ٣٦٧٧-٣٦٨١) .

وفيما يلي طائفة من أقوال علماء الأمّة في تفسير الفوقيّة الواردة في الآية الكريمة :

وقال الإمام ابن فورك الأصبهاني (٤٠٦هـ) : " وَقَالَ : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ وَأطلق الْمُسلمُونَ أَن الله تَعَالَىٰ فَوق خلقه كَانَ حمله علىٰ أولىٰ وَعلِيهِ يتَأَوَّل أَيْضا قَوْله :﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ أَي هُوَ فَوق السَّماء إِلَه وَفَوق الأَرْض إِلَه .

أَنْشد بَعضهم : هم صلبوا العبدىٰ فِي جذع ، نَخْلَة مَعْنَاهُ علىٰ جذع نَخْلَة .

وَاعْلَم أَنَّا إِذا قُلْنَا : إِنَّ الله عزَّ وجلَّ فَوق مَا خلق لم يرجع بِهِ إِلىٰ فوقيَّة الْمَكَان والإرتفاع علىٰ الْأَمْكِنَة بالمسافة والإشراف عَلَيْهَا بالممارسة لشَيْء مِنْهَا ، بل قَوْلنَا أَنَّه فَوْقهَا يحْتَمل وَجْهَيْن :

أَحدهمَا : أَنَّه يُرَاد بِهِ أَنَّه قاهر لَهَا مستول عَلَيْهَا إِثْبَاتًا لإحاطة قدرته بهَا وشمول قهره لَهَا وَكَونهَا تَحت تَدْبيره جَارِيَة علىٰ حسب علمه ومشيئته .

وَالْوَجْه الثَّانِي : أَن يُرَاد أَنَّه فَوْقهَا علىٰ معنىٰ أَنَّه مباين لَهَا بِالصّفةِ والنَّعت ، وَأَنَّ مَا يجوز علىٰ المحدثات من الْعَيْب وَالنَّقْص وَالْعجز والآفة وَالْحَاجة لَا يَصح شَيْء من ذَلِك عَلَيْهِ ، ولا يجوز وَصفه بِهِ ، وَهَذَا أَيْضاً مُتَعَارَف فِي اللُّغَة أَن يُقَال : فلَان فَوق فلَان ، وَيُرَاد بذلك رفْعَة الْمرتبَة والمنزلة ، وَالله عزَّ وجلَّ فَوق خلقه علىٰ الْوَجْهَيْنِ جَمِيعًا .

وَإِنَّمَا يمْتَنع الْوَجْه الثَّالِث ، وَهُوَ أَن يكون علىٰ معنىٰ التَّحيُّز فِي جِهَة الإختصاص ببقعه دون بقْعَة ، وَإِذا قُلْنَا أَنَّه فَوق الْأَشْيَاء علىٰ هَذَا الْوَجْه قُلْنَا أَيْضاً فِي تَأْوِيل إِطْلَاق القَوْل بِأَنَّهُ فِيهَا علىٰ مثل هَذَا الْمَعْنىٰ ، وَقد رَأينَا فِي اللُّغَة تعاقب هذَيْن الحرفين علىٰ الْوَجْه الَّذِي ذكرنَا شواهده من آي الْقُرْآن وَالشعر " (١) .

وقال الإمام أبو إسحاق الزَّجَّاج (٣١١هـ) : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ " ، أي : يخافون ربَّهم خوف مُخْلِدِين مُعظمين " (٢) .

وقال الإمام أبو الليث نصر بن محمَّد السَّمرقندي (٣٧٣هـ) : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ، أي : يخافون الله تعالىٰ. وروي عن النَّبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّه قال : " إنَّ لله تَعَالَىٰ مَلائِكَةً فِي السَّماء السَّابعة سجوداً مُذْ خَلَقَهُمُ الله تَعَالَىٰ إلىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ ، تُرْعَدُ فَرَائِصُهُمْ مِنْ مَخَافَةِ الله تَعَالَىٰ ، فَإذا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ فَقَالُوا : ما عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ " ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ ، أي : يخافون خوفاً ، معظِّمين ، مجلِّين . ويقال : خوفهم بالقهر والغلبة والسُّلطان . ويقال : معناه : يخافون ربَّهم

---

(١) انظر : مشكل الحديث وبيانه (ص١٧٣-١٧٤) .

(٢) انظر : معاني القرآن وإعرابه (٣/ ٢٠٣) .

الذي على العرش كما وصف نفسه ، والطَّريق الأوَّل أصحّ كقوله : ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ [الفتح: ١٠]، أي : بالقهر والغلبة والسُّلطان " (١) .

وقال الإمام أحمد بن محمَّد بن إبراهيم الثَّعلبي (٤٢٧هـ) : " يعني: يخافون قدرة ربِّهم أن يأتيهم بالعذاب من فوقهم ، ويدلُّ عليه قوله : ﴿ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠] ، يعني الملائكة ، وقيل : معناه : يخافون ربَّهم الذي فوقهم بالقول والقدرة ، فلا يعجزه شيء ، ولا يغلبه أحد ، يدلُّ عليه قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ ، وقوله إخباراً عن فرعون فرعون : ﴿ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧] (٢) .

وقال الإمام أبو محمَّد مكِّي بن أبي طالب القرطبي المالكي (٤٣٧هـ) : " أي يخاف هؤلاء الملائكة التي في السَّموات والأرض والدَّواب ربَّهم أن يعذِّبهم إن عصَوا أمره " (٣) .

وقال الإمام أبو الحسن الماوردي (٤٥٠هـ) : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ ، فيه وجهان : أحدهما : يعني عذاب ربِّهم من فوقهم ، لأنَّ العذاب ينزل من السَّماء . الثَّاني : يخافون قدرة الله التي هي فوق قدرتهم ، وهي في جميع الجهات " (٤) .

وقال الإمام القشيري (٤٦٥هـ) : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ ، يخافون الله أن ينزل عليهم عذاباً من فوق رءوسهم " (٥) .

وقال الإمام الواحدي (٤٦٨هـ) : " وفي هذه الآية قولان : أحدهما : أنَّ الآية من باب حذف المضاف ، على تقدير : يخافون من عقاب ربِّهم من فوقهم ، لأنَّ أكثر ما يأتي العقاب المهلك إنَّما يأتي من فوق ، والآخر : أنَّ الله تعالى لما كان موصوفاً بأنه عليٌّ متعال علوّ الرُّتبة في القدرة ، حسن أن يقال : ﴿ مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ ، ليدلَّ على أنَّه في أعلى مراتب القادرين ، وهذا معنى قول ابن عبَّاس في رواية مجاهد ، قال : ذلك مخافة الإجلال ، واختاره الزَّجَّاج ، فقال: يخافون ربَّهم خوف مجلِّين .

ويدلُّ على صحَّة هذا المعنى قوله : ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٨] ، وقوله إخباراً عن فرعون : ﴿ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧] ، وذهب بعض النَّاس إلى أنَّ قوله : ﴿ مِّن فَوۡقِهِمۡ ﴾ من صفة الملائكة ،

---

(١) انظر : بحر العلوم (٢/ ٢٧٦) .

(٢) انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٦/ ٢١) .

(٣) انظر : الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه (٦/ ٤٠٠٩) .

(٤) انظر : تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٣/ ١٩٢) .

(٥) انظر : لطائف الإشارات (تفسير القشيري) (٢/ ٣٠٠) .

والمعنىٰ : أنَّ الملائكة الذين هم فوق بني آدم ، وفوق ما في الأرض من دابَّة يخافون الله مع علوِّ رتبتهم ، فلأن يخاف من دونهم أولىٰ " (١) .

وقال أيضاً : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ يعني: الملائكة هم فوق ما في الأرض من دابَّة ومع ذلك يخافون الله فلأَنْ يخافَ مَنْ دونهم أولىٰ " (٢) .

وقال الإمام أبو سعيد عبدالرَّحمن بن محمَّد المتولِّي الشَّافعي (٤٧٨هـ) : " فإن استدلُّوا بظواهر الكتاب والسُّنَّة مثل قوله سبحانه وتعالىٰ ... ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ ... فلأصحابنا في ذلك طريقان:

أحدهما : الإعراض عن التَّأويل والإيمان بها كما جاءت ، والإيمان بها صحيح وإن لم يعرف معناها ، كما أنَّ إيماننا بجميع الأنبياء والملائكة صلوات الله عليهم والكتب المنزلة من الله تبارك وتعالىٰ صحيح وإن لم يعرف شيئاً في ذلك ، وإيماننا بالحروف المقطَّعة في أوائل السُّور صحيح وإن لم نعرف معناها ، وهذا الطَّريق أقرب إلىٰ السَّلامة.

ومن أصحابنا من صار إلىٰ التَّأويل ، والاختلاف صادر عن اختلاف القراءتين في قوله تعالىٰ : ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران:٧] .

فمن صار إلىٰ الوقف علىٰ قوله : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ﴾ أعرض عن التَّأويل ، وجعل قوله : ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ كلاماً مبتدأ ، ومعناه : أنَّ العلماء يقولون آمنَّا به ، ومن صار إلىٰ الوقف علىٰ قوله : ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ فيكون معناه : أنَّ الله تعالىٰ يعلم تأويله ، والرَّاسخون في العلم أيضاً يعلمون تأويله ، صار إلىٰ التَّأويل .

ولكن الطَّريق في الجواب معهم أن نعارضهم بآيات تخالف ظواهرها ظواهر هذه الآيات ، وذلك مثل قوله تعالىٰ : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ﴾ [المجادلة:٧] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ ﴾ [الحديد:٤] ، وموجب الآيتين حلوله في كلِّ مكان وقال تعالىٰ ﴿ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ [فصلت:٥٤] ، ومقتضىٰ ظاهرها أنَّه محيط بالعالم ، فإن أعرضوا عن تأويل هذه الآيات مع الإيمان بظواهرها والاعتقاد بأنَّه لا يكون في كلِّ مكان وأنَّه غير محيط بالعالم أعرضنا نحن عن التَّأويل وصرنا إلىٰ الإيمان بما ورد مع الاعتقاد بأنَّ الحقَّ تعالىٰ منزَّه عن المكان ، وإن

---

(١) انظر : الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٣/ ٦٥) .

(٢) انظر : الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (ص٦٠٩) .

صاروا إلى التَّأويل ، وقالوا : المراد بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ بالعلم لا بالذَّات ، وكذلك قوله تعالى : ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت:٥٤] يعني بالعلم ضرباً إلى التَّأويل ... وقلنا المراد ... وقوله : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ معناه يخافون ربَّهم أن ينزل عليهم عذاباً من فوقهم ، وإنَّما خصَّ جهة فوق لأنَّ الله تعالى أجرى سنَّته أن ينزل العذاب من فوق " (١) .

وقال الإمام أبو المظفَّر ، منصور بن محمَّد السَّمعاني التَّميمي (٤٨٩هـ) : " قَوْله تَعَالَى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ قَالَ بَعضهم مَعْنَاهُ: يخَافُونَ عَذَاب رَبهم من فَوْقهم، وَالْقَوْل الثَّانِي – وَهُوَ الْأَصَح – أَنَّ هَذِه صفة الْعُلُوّ الَّتِي تفرد الله بهَا، وَهُوَ كَمَا وصف بِهِ نَفسه من غير تكييف " (٢) .

وقال الإمام الكرماني (المتوفى: نحو ٥٠٥هـ) : " قوله : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ ، أي : يخافون ربَّهم أن ينزل عليهم عذاباً من فوقهم، وليس قوله : ﴿ مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ حالًا من ربِّهم ، تعالى الله عن الجهة والمكان . وقيل : فوق علو لا فوق مكان " (٣) .

وقال الإمام ابن عطيَّة (٥٤٢هـ) : " وقوله: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم ﴾ عام لجميع الحيوان، وقوله : ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما الفوقيَّة التي يوصف بها الله تعالى ، فهي فوقيَّة القدر والعظمة والقهر والسُّلطان، والآخر أن يتعلَّق قوله : ﴿ مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ بقوله ﴿ يَخَافُونَ ﴾ ، أي يخافون عذاب ربِّهم من فوقهم، وذلك أنَّ عادة عذاب الأمم إنَّما أتى من جهة فوق " (٤) .

وقال الإمام محمود بن أبى الحسن بن الحسين النَّيسابوري (المتوفى: نحو ٥٥٠هـ) : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ : أي عذابه وقضاءه ، إذ قدرته فوق ما أعارهم من القوى والقدر ، كقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ ، أو لمّا وصف الله بالتعالي على معنى لا قادر أقدر منه ، وأنّ صفته في أعلى مراتب صفات القادرين حسن القول مِنْ فَوْقِهِمْ ليدل على هذا المعنى " (٥) .

وقال أيضاً : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ ، أي : عذابه وقضاءه . وقيل : معناه أن قدرته فوق ما أعارهم من القوى والقدر ، على مجاز : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ (٦) .

---

(١) انظر : الغنية في أصول الدين (ص٧٥-٧٨ باختصار) .

(٢) انظر : تفسير القرآن (٣/ ١٧٧) .

(٣) انظر : غرائب التفسير وعجائب التأويل (١/ ٦٠٦) .

(٤) انظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ٣٩٩) .

(٥) انظر : إيجاز البيان عن معاني القرآن (٢/ ٤٨٤) .

(٦) انظر : باهر البرهان في معانى مشكلات القرآن (٢/ ٨٠١) .

وقال الإمام أبو القاسم عبد الرَّحمن بن عبد الله بن أحمد السّهيلي (٥٨١هـ) : " قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النّحْل:٥٠] ، أَيْ يَخَافُونَ عِقَابًا يَنْزِلُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَهُوَ عِقَابُ رَبِّهِمْ " (١) .

وقال الإمام ابن الجوزي (٥٩٧هـ) : " وفي قوله: "مِنْ فَوْقِهِمْ " قولان، ذكرهما ابن الأنباري: أحدهما: أنَّه ثناءٌ علىٰ الله تعالىٰ، وتعظيم لشأنه، وتلخيصه: يخافون ربَّهم عالياً رفيعاً عظيماً. والثَّاني: أنَّه حال، وتلخيصه: يخافون ربهم معظِّمين له عالمين بعظيم سلطانه " (٢) .

وقال الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) : " المسألة الثَّانِيَةُ: قَالَتِ الْمُشَبِّهَةُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ هَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْإِلَهَ تَعَالَىٰ فَوْقَهُمْ بِالذَّاتِ.

وَاعْلَمْ أَنَّا بَالَغْنَا فِي الْجَوَابِ عَنْ هَذِهِ الشُّبْهَةِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٨] والذي نزيده هاهنا أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ مَعْنَاهُ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَإِذَا كَانَ اللَّفْظُ مُحْتَمِلًا لِهَذَا الْمَعْنَىٰ سَقَطَ قَوْلُهُمْ، وَأَيْضًا يَجِبُ حَمْلُ هَذِهِ الْفَوْقِيَّةِ عَلَىٰ الْفَوْقِيَّةِ بِالْقُدْرَةِ وَالْقَهْرِ كَقَوْلِهِ: ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الْأَعْرَافِ: ١٢٧] وَالَّذِي يُقَوِّي هَذَا الوجه أَنَّه تَعَالَىٰ لَمَّا قَالَ: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْمُقْتَضِىٰ لِهَذَا الْخَوْفِ هُوَ كَوْنُ رَبِّهِمْ فَوْقَهُمْ لِمَا ثَبَتَ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ أَنَّ الْحُكْمَ الْمُرَتَّبَ عَلَىٰ الْوَصْفِ يُشْعِرُ بِكَوْنِ الْحُكْمِ مُعَلَّلًا بِذَلِكَ الْوَصْفِ.

إِذَا ثَبَتَ هَذَا فَنَقُولُ: هَذَا التَّعْطِيلُ إِنَّمَا يَصِحُّ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِالْفَوْقِيَّةِ الْفَوْقِيَّةَ بِالْقَهْرِ وَالْقُدْرَةِ لِأَنَّهَا هِيَ الْمُوجِبَةُ لِلْخَوْفِ، أَمَّا الْفَوْقِيَّةُ بِالْجِهَةِ وَالْمَكَانِ فَهِيَ لَا تُوجِبُ الْخَوْفَ بِدَلِيلِ أَنَّ حَارِسَ الْبَيْتِ فَوْقَ الْمَلِكِ بِالْمَكَانِ وَالْجِهَةِ مَعَ أَنَّه أَخَسُّ عَبِيدِهِ فَسَقَطَتْ هَذِهِ الشُّبْهَةُ " (٣) .

وقال الإمام أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي (٦٧١ هـ) : " ومعنىٰ ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ أي عقاب ربِّهم وعذابه ، لأنَّ العذاب المهلك إنَّما ينزل من السَّماء. وقيل : المعنىٰ يخافون قدرة ربِّهم التي هي فوق قدرتهم ؛ ففي الكلام حذف. وقيل : معنىٰ ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ يعني الملائكة ، يخافون ربَّهم وهي من فوق ما في الأرض من دابَّة ومع ذلك يخافون ؛ فلأن يخاف من دونهم أولىٰ ؛ دليل هذا القول قوله تعالىٰ : ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ يعني الملائكة " (٤) .

---

(١) انظر : الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام (٦/ ٢٣٣) .

(٢) انظر : زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٥٦٤) .

(٣) انظر : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (٢٠/ ٢١٨) .

(٤) انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١١٣) .

وقال الإمام ابن جماعة الكناني الحموي (٧٣٣هـ) : " الْآيَة الثَّانِيَة : ... قوله تَعَالَى ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ اعْلَم أَنَّ لَفْظَة فَوق فِي كَلَام الْعَرَب تسْتَعْمل بِمَعْنى الحيز العالي وتستعمل بِمَعْنى الْقُدْرَة وَبِمَعْنى الرُّتْبَة الْعليَّة فَمن فوقية الْقُدْرَة ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ قرينَة ذكر الْقَهْر يدل على ذَلِك وَمن فوقية الرُّتْبَة ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦] لم يقل أحد إِنَّ الْمُرَاد فوقيَّة الْمَكَان بل فوقيَّة الْقَهْر والقدريَّة والرُّتبة ، وَإِذا بَطل بِمَا قدَّمْنَاهُ مَا سنذكر من إِبطَال الْجِهَة فِي حقِّ الرَّبِّ تَعَالَى تعيَّن أَنَّ الْمُرَاد فوقيَّة الْقَهْر وَالْقُدْرَة والرُّتبة وَلذَلِك قرنه بِذكر الْقَهْر كَمَا قدمنَا .

وَيدلُّ على مَا قُلْنَاهُ أَن فوقيَّة الْمَكَان من حَيْثُ هِيَ لَا تَقْتَضِي فَضِيلَة لَهُ ، فكم من غُلَام أَو عبد كَائِن فَوق مسكن سَيِّده وَلَا يُقَال الْغُلَام فَوق السُّلْطَان أَو السَّيِّد على وَجه الْمَدْح إِذا قصد الْمَكَان لم يكن فِيهِ مدحه ، بل الْفَوْقِيَّة الممدوحة فوقية الْقَهْر وَالْغَلَبَة والرتبة وَلذَلِك قَالَ تَعَالَى ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ لأَنَّه إِنَّمَا يخَاف الْخَائِف من هُوَ أَعلَى مِنْهُ رُتْبَة ومنزلة وأقدر عَلَيْهِ مِنْهُ فَمَعْنَاه يخَافُونَ رَبهم الْقَادِر عَلَيْهِم القاهر لَهُم وَحَقِيقَته يخَافُونَ عَذَاب رَبهم لِأَن حَقِيقَة الذَّات المقدسة لَا تخَـــاف وإِنَّمَا الْمخوف فِي الْحَقِيقَة عَذَابه وبطشه وانتقامه وَإِذا ثَبت ذَلِك فَلَا جِهَة .

وَله وَجه آخر وَهُوَ أَن يكون ﴿ مِّن فَوْقِهِمْ﴾ مُتَعَلقاً بِعَذَاب ربِّهم الْمُقدر ، وَيُؤَيِّدهُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام:٦٥] الْآيَة

فقد بَان بِمَا ذكرْنَاهُ أَن الْمُرَاد بالفوقيَّة فِي الْآيَات الْقَهْر وَالْقُدْرَة والرتبة أَو فوقية جِهَة الْعَذَاب لَا فوقية الْمَكَان لَهُ " (١) .

وقال الإمام ناصر الدِّين البيضاوي (٦٨٥هـ) : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ يخافونه أن يرسل عذاباً من فوقهم، أو يخافونه وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ (٢) .

وقال الإمام أبو القاسم، محمَّد بن أحمد بن محمَّد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (٧٤١هـ) : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ هذا إخبار عن الملائكة، وهو بيان نفي الاستكبار، ويحتمل أن يريد فوقيَّة القدرة والعظمة أو يكون من المشكلات التي يمسك عن تأويلها، وقيل: معناه يخافون أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم " (٣) .

---

(١) انظر : إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل (ص١٠٨-١٠٩) .

(٢) انظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٣/ ٢٢٩) .

(٣) انظر : التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٤٢٨) .

وقال الإمام تاج الدِّين عبد الوهَّاب بن تقي الدِّين السُّبكي (٧٧١هـ) : " ... وأردفه بقوله تَعَالَىٰ : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ ، وَتلك أَيْضاً لَا دلَالَة لَهُ فِيهَا عَن سَمَاء وَلَا عرش وَلَا أَنَّه فِي شَيْء من ذَلِك حَقِيقَة .

ثمَّ الْفَوْقِيَّة تردُ لمعنيين :

أَحدهمَا : نِسْبَة جسم إِلَىٰ جسم بِأَن يكون أَحدهمَا أَعلَىٰ وَالْآخر أَسْفَل بِمَعْنىٰ أَنَّ أَسْفَل الْأَعْلَىٰ من جَانب رَأس الْأَسْفَل ، وَهَذَا لَا يَقُول بِهِ من لَا يجسِّم ، وَبِتَقْدِير أَن يكون هُوَ الْمُرَاد وَأَنَّه تَعَالَىٰ لَيْسَ بجسم فَلمَ لَا يجوز أَن يكون ﴿ مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ صلَة لـ ﴿ يَخَافُونَ ﴾ وَيكون تَقْدِير الْكَلَام يخَافُونَ من فَوْقهم رَبهم ، أَي أَن الْخَوْف من جِهَة الْعُلُوّ وَأَنَّ الْعَذَاب يَأْتِي من تِلْكَ الْجِهَة ، وَثَانِيهمَا : بِمَعْنىٰ الْمرتبَة كَمَا يُقَال الْخَلِيفَة فَوق السُّلْطَان وَالسُّلْطَان فَوق الْأَمِير ، وكما يُقَال : جلس فلَان فَوق فلَان ، وَالْعلم فَوق الْعَمَل ، والصِّباغة فَوق الدِّباغة " (١) .

وقال الإمام أبو حفص سراج الدِّين عمر بن علي بن عادل الحنبلي (٧٧٥هـ) : " استدلَّ المشبِّهة بقوله تعالىٰ: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ علىٰ أنَّه – تعالىٰ – فوقهم بالذَّات.

والجواب: أنَّ معناه: يخافون ربَّهم؛ من أن ينزل عليهم العذاب من فوقهم، وإذا احتمل اللفظ هذا المعنىٰ؛ سقط استدلالهم، وأيضاً يجب حمل هذه الفوقيَّة علىٰ الفوقيَّة بالقدرة، والقهر والغلبة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧]

ويقوِّي هذا الوجه أنَّه تعالىٰ قال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ فوجب أن يكون المقتضي لخوفهم هو كون ربِّهم فوقهم؛ لأنَّ الحكم المرتَّب علىٰ وصف يشعر بكون ذلك الحكم معلَّلاً بذلك الوصف، وهذا التَّعليل، إنَّما يصدح إذا كان المراد بالفوقيَّة، القهر والقدرة؛ لأنَّها هي الموجبة للخوف، وأما الفوقية بالجهة، والمكان، فلا توجب الخوف؛ لأنَّ حارس البيت فوق الملك بالمكان والجهة مع أنَّه أخسُّ عبيده " (٢) .

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) : " ... قَوْلُهُ : فِي السَّمَاءِ ظَاهِرُهُ غَيْرُ مُرَادٍ إِذِ اللهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الْحُلُولِ فِي الْمَكَانِ ، لَكِنْ لَمَّا كَانَتْ جِهَةُ الْعُلُوِّ أَشْرَفَ مِنْ غَيْرِهَا أَضَافَهَا إِلَيْهِ إِشَارَةً إِلَىٰ عُلُوِّ الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ ، وَبِنَحْوِ هَذَا أَجَابَ غَيْرُهُ عَنِ الْأَلْفَاظِ الْوَارِدَةِ مِنَ الْفَوْقِيَّةِ وَنَحْوِهَا ، قَالَ الرَّاغِبُ : فَوْقَ يُسْتَعْمَلُ فِي الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ وَالْجِسْمِ وَالْعَدَدِ وَالْمَنْزِلَةِ وَالْقَهْرِ ، فَالْأَوَّلُ بِاعْتِبَارِ الْعُلُوِّ وَيُقَابِلُهُ تَحْتَ نَحْوَ ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ [الأنعام:٦٥] ، وَالثَّانِي بِاعْتِبَارِ الصُّعُودِ وَالِانْحِدَارِ نَحْوَ ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ

---

(١) انظر : طبقات الشافعية الكبرىٰ (٩/ ٤٧) .

(٢) انظر : اللباب في علوم الكتاب (١٢/ ٧٥) .

أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾ [الأحزاب:١٠] ، وَالثَّالِثُ فِي الْعَدَدِ نَحْوَ ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ [النساء:١١] ، وَالرَّابِع فِي الْكِبَرِ وَالصِّغَرِ كَقَوْلِهِ ﴿ بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ ﴾ [البقرة:٢٦] ، وَالْخَامِسُ يَقَعُ تَارَةً بِاعْتِبَارِ الْفَضِيلَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ نَحْوَ ﴿وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ ﴾ [الزخرف:٣٢] أَوِ الْأُخْرَوِيَّةِ نَحْوَ ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [البقرة:٢١٢] ، وَالسَّادِسُ نَحْوَ قَوْلِهِ ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ ﴾ [الأنعام:١٨] ، ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل:٥٠] " (١) .

وقال الإمام أبو زيد عبد الرَّحمن الثَّعالبي (٨٧٥هـ) : " وقوله سبحانه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾ : عامٌّ لجميع الحيوان ، و ﴿ مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ : يريد : فوقيَّة القَدْر والعَظَمة والقَهْر " (٢) .

وقال الإمام عبد الرَّحمن بن أبي بكر ، جلال الدِّين السُّيوطي (٩١١هـ) : " وَمِنْ ذَلِكَ صِفَةُ الْفَوْقِيَّةِ فِي قَوْلِهِ : ... ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ وَالْمُرَادُ بِهَا الْعُلُوُّ مِنْ غَيْرِ جِهَةٍ وَقَدْ قَالَ : فِرْعَوْنُ: ﴿وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٧] وَلَا شَكَّ أَنَّه لَمْ يُرِدِ الْعُلُوَّ الْمَكَانِيَّ " (٣) .

وقال الإمام أحمد بن غانم (أو غنيم) بن سالم النفراوي الأزهري المالكي (١١٢٦هـ) : " قَالَ تَعَالَى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل: ٥٠]مَعْنَاهُ يَخَافُونَ عَذَابَهُ مِنْ فَوْقِهِمْ إنْ عَصَوْهُ بِالْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ " (٤) .

وقال الإمام ابن عجيبة الحسني (١٢٢٤هـ) : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ هو تقرير، وبيان لنفي الاستكبار عنهم، أي: يخافون عظمة ربٍّ هم من فوقهم إذ هم محاطون بأفلاك أسرار الجبروت، مقهورون تحت القدرة والمشيئة، أو: يخافون عذاب ربِّهم أن يُرسَل عليهم من فوقهم، أو: يخافون ربَّهم وهو من فوقهم بالقهر والغلبة " (٥) .

وقال الإمام المظهري ، محمَّد ثناء الله (١٢٢٥هـ) : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ أي : يخافونه أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم أو يخافونه وهو فوقهم ، أي غالب عليهم بالقهر ، كقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ (٦) .

---

(١) انظر : فتح الباري (١٣/ ٤١٢) .

(٢) انظر : الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٣/ ٤٢٦) .

(٣) انظر : الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٢٢) .

(٤) انظر : الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني (١/ ٢٠٨) .

(٥) انظر : البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٣/ ١٣٥) .

(٦) انظر : التفسير المظهري (٥/ ٣٤٥) .

وقال الإمام محمَّد بن علي الشَّوكاني (١٢٥٠هـ) : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ﴾ هَذِهِ الْجُمْلَةُ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَىٰ الْحَالِ، أَيْ: حَالَ كَوْنِهِمْ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، أَوْ جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ لِبَيَانِ نَفْيِ اسْتِكْبَارِهِمْ، وَمِنْ آثار الخوف عدم الاستكبار، ومن فوقهم متعلق بيخافون عَلَىٰ حَذْفِ مُضَافٍ، أَيْ: يَخَافُونَ عَذَابَ رَبِّهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، أَوْ يَكُونُ حَالًا مِنَ الرَّبِّ، أَيْ: يَخَافُونَ رَبَّهُمْ حَالَ كَوْنِهِ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَقِيلَ: مَعْنَىٰ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ يَخَافُونَ الْمَلَائِكَةَ فَيَكُونُ عَلَىٰ حَذْفِ الْمُضَافِ، أَيْ: يَخَافُونَ مَلَائِكَةَ رَبِّهِمْ كَائِنِينَ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَهُوَ تَكَلُّفٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ، وإِنَّما اقْتَضَىٰ مِثْلَ هَذِهِ التأويلات البعيدة المحاماة عَلَىٰ مَذَاهِبَ قَدْ رَسَخَتْ فِي الْأَذْهَانِ، وَتَقَرَّرَتْ فِي الْقُلُوبِ، قِيلَ: وَهَذِهِ الْمَخَافَةُ هِيَ مَخَافَةُ الْإِجْلَالِ، وَاخْتَارَهُ الزَّجَّاجُ فَقَالَ: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم ﴾ خَوْفَ مُجِلِّينَ ، وَيَدُلُّ عَلَىٰ صِحَّةِ هَذَا الْمَعْنَىٰ قَوْلُهُ: ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ ﴾ ، وَقَوْلُهُ إِخْبَارًا عَنْ فِرْعَوْنَ : ﴿ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴾ . (١)

وقال الإمام محمَّد بن عمر نووي الجاوي البنتني إقليماً، التناري بلداً (١٣١٦هـ) : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ﴾ وهذه الجملة بيان لقوله: ﴿ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ [النحل:٤٩] أو حال من ضميره ، أي : خائفين لمالك أمرهم خوف هيبة وإجلال وهو فوقهم بالقهر " (٢) .

وقال الإمام أحمد بن مصطفى المراغي (١٣٧١هـ) : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ أي يخاف هؤلاء الملائكة ، والدَّواب التي في الأرض ربهم الذي هو من فوقهم بالقوَّة والقهر أن يعذِّبهم إن عصوه، ويفعلون ما أمرهم به، فيؤدُّون حقوقه ويجتنبون سخطه " (٣) .

وقال الإمام عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد ١٣٩٠هـ) : " وقوله تعالىٰ: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ ، هو وصف للملائكة الذين دأبهم العبادة ، وشأنهم السُّجود لله ... فهم مع منزلتهم عند الله يخافون ربّهم الذي علا بسلطانه علىٰ كلِّ سلطان " (٤) .

وقال الإمام محمَّد سيِّد طنطاوي : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ ، أي : أنَّ من صفات الملائكة ، أنَّهم يخافون ربَّهم الذي هو من فوقهم بجلاله وقهره وعلوه – بلا تشبيه ولا تمثيل " (٥) .

---

(١) انظر : فتح القدير (٣/ ٢٠٠) .

(٢) انظر : مراح لبيد لكشف معنىٰ القرآن المجيد (١/ ٥٩٥) .

(٣) انظر : تفسير المراغي (١٤/ ٩٠) .

(٤) انظر : التفسير القرآني للقرآن (٧/ ٣٠٥) .

(٥) انظر : التفسير الوسيط للقرآن الكريم (٨/ ١٦٥) .

وقال الإمام محمَّد علي الصَّابوني : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾أي يخافون جلال الله وعظمته ، ويمتثلون أوامره على الدَّوام " [١] .

وقال الإمام محمَّد محمود الحجازي : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ فوقيَّة مكانة لا مكان ، وهم يفعلون ما يؤمرون " [٢] .

خَامِسَاً : وَمِنَ الآيَاتِ الَّتِيْ يَسْتَدِلُّوْنَ بِهَا عَلَى العُلُوِّ الحِسِّيِّ المَكَانِي لله تَعَالَى : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر : ١٠] .

والنَّاظر فيما قاله علماء الأمَّة في معنى الصُّعود الوارد في الآية يجد أنَّ جمهورهم ذهب إلى ما يُخالف ما ذهب إليه المجسِّمة الذين ذهبوا إلى تفسير الصُّعود بالصُّعود إلى مكان وضعوا فيه الله تعالى ، والعياذ بالله ...

فمن أشهر المعاني التي ذكرها العلماء للصُّعود الوارد في الآية :

(١) أنَّ جمهور السَّلف ذهب إلى التَّفويض ...

(٢) أنَّ معنى ذلك : صعود الأقوال والأعمال إلى حيث لا يملك الحكم فيه إلَّا الله سبحانه ، كما يقال : ارتفع أمرُ القوم إلى القاضي ، إذا انتهوا إلى أن يحكم بينهم ، ويفصل خصامهم .

(٣) أنَّ اللهّ سبحانه لَّما كان موصوفاً بالعلوِّ على طريق الجلال والعظمة ، لا على طريق المدى والمسافة ، فكلُّ ما يتقرَّب به إليه من قول زكيّ ، وعمل مرضيّ ، فالإخبار عنه يقع بلفظ الصُّعود والارتفاع ، على طريق المجاز والاتِّساع .

(٤) معنى قوله ﴿ إِلَيْهِ ﴾ إلى محلِّ القبول والرِّضا ، وكلّ ما اتصف بالقبول وُصف بالرِّفعة والصُّعود ، أو إلى حيث لا ينفذ فيه إلَّا حكمه .

(٥) صعود الكلم إلى الله تعالى لا يقتضي كونه في جهة العلو لأنَّ الباري تعالى لا تحويه جهة؛ إذ كان موجودًا ولا جهة، وإذا صحَّ ذلك وجب صرف هذا عن ظاهره وإجراؤه على المجاز؛ لبطلان إجرائه على الحقيقة ...

وفيما يلي طائفة من أقوال علماء الأمَّة في تفسير الصُّعود الوارد في الآية الكريمة :

قال الإمام الشَّريف الرَّضي (٤٠٦هـ) : " قوله سبحانه : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ ، وهذه استعارة . وليس المراد أنَّ هناك على الحقيقة شيئاً يوصف بالصُّعود ، ويرتقي من سفال إلى علو . وإنَّما

---

[١] انظر : صفوة التفاسير (٢/ ١١٩) .

[٢] انظر : التفسير الواضح (٢/ ٣١٤) .

المراد أنَّ القول الطيِّب والعمل الصَّالح متقبَّلان عند اللهّ تعالىٰ ، واصلان إليه سبحانه . بمعنىٰ أنَّهما يبلغان رضاه ، وينالان زلفاه ، وأنَّه تعالىٰ لا يضيعهما ولا يهمل الجزاء عليهما ، وهذا كقول القائل لغيره : قد ترقَّىٰ الأمر إلىٰ الأمير ، أي : بلغه ذلك علىٰ وجهه ، وعرفه علىٰ حقيقته ، وليس يريد به الارتقاء الذي هو الارتفاع ، وضدّه الانخفاض .

ووجه آخر : قيل : إنَّ معنىٰ ذلك صعود الأقوال والأعمال إلىٰ حيث لا يملك الحكم فيه إلَّا الله سبحانه ، كما يقال : ارتفع أمر القوم إلىٰ القاضي ، إذا انتهوا إلىٰ أن يحكم بينهم ، ويفصل خصامهم . ووجه آخر : قيل : إنَّ اللهّ سبحانه لما كان موصوفاً بالعلو علىٰ طريق الجلال والعظمة ، لا علىٰ طريق المدىٰ والمسافة ، فكلُّ ما يتقرَّب به إليه من قول زكيّ ، وعمل مرضيّ ، فالإخبار عنه يقع بلفظ الصُّعـــود والارتفـاع ، علىٰ طريق المجاز والاتِّساع " (١) .

وقال الإمام ابن بطَّال (٤٤٩هـ) : " ... وكذلك لا شبهة لهم في قوله تعالىٰ: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ ، لأنَّ صعود الكلم إلىٰ الله تعالىٰ لا يقتضي كونه في جهة العلو ، لأنَّ الباري تعالىٰ لا تحويه جهة؛ إذ كان موجودًا ولا جهة، وإذا صحَّ ذلك وجب صرف هذا عن ظاهره وإجراؤه علىٰ المجاز؛ لبطلان إجرائه علىٰ الحقيقة " (٢) .

وقال الإمام عبد الكريم القشيري (٤٦٥هـ) : " قوله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر : ١٠] : الكلم الطيِّب هو الصَّادر عن عقيدة طيِّبة – يعنىٰ الشَّهادتين – عن إخلاص . وأراد به صعود قبول ، لأنَّ حقيقة الصُّعود في اللغة بمعنىٰ الخروج – ولا يجوز في صفة الكلام .

﴿ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ : أي : يقبله . ويقال : العمل الصَّالح يرفع الكلم الطيِّب . ويقال : الكلم الطيِّب ما يكون موافقاً للسُّنَّة ، ويقال : هو ما يشهد بصحَّته الإذن والتَّوقيف . ويقال : هو نطق القلب بالثَّناء علىٰ ما يستوجبه الرَّبُّ . ويقال : هو ما يكون دعاء للمسلمين . ويقال : ما يتجرَّد حقّاً للحقِّ ، ولا يكون فيه حظٌّ للعبد . ويقال : ما هو مستخرج من العبد وهو فيه مفقود . ويقال : هو بيان التَّنصُّل وكلمة الاستغفار " (٣) .

---

(١) انظر : تلخيص البيان في مجازات القرآن (٢/ ٢٦٨) .

(٢) انظر : شرح صحيح البخارىٰ (١٠/ ٤٥٣) .

(٣) انظر : لطائف الإشارات (تفسير القشيري) (٣/ ١٩٦) .

وقال الإمام الواحدي (٤٦٨هـ) : " وقوله : ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ ، إلى الله يصعد كلمة التَّوحيد ، وهو قول : لا إله إلَّا الله ، ومعنى يصعد أنَّه يعلم ذلك ، كما يقال : ارتفع الأمر إلى القاضي وإلى السُّلطان ، أي : علمه ، ويجوز أن يكون معنى ﴿ إِلَيۡهِ﴾ : إلى سمائه ، وهو المحلُّ الذي لا يجري لأحد سواه فيه ملك ولا حكم ، فجعل صعوده إلى السَّماء صعود إليه " (١) .

وقال أيضاً: ﴿ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ ، إليه يصل الكلام الذي هو توحيده ، وهو قول لا إله إلَّا الله ﴿ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ ﴾ يرفع ذلك الكلم الطيِّب و ﴿ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ : ذكر الله تعالى ﴿ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ ﴾ : أداء فرائضه ، فمن كان حسناً ، وعمل صالحاً ، رفعه العمل ، ومعنى الرَّفع : رفعه إلى محلِّ القبول " (٢) .

وقال الإمام أبو المظفَّر ، منصور بن محمَّد السَّمعاني (٤٨٩هـ) : ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ ، أي : يقبل الله الْكَلم الطيِّب . وَعَن ابْن مَسْعُود قَالَ : مَا نحدِّثكم بِحَدِيث إِلَّا أَتَيْنَاكُم تَصْدِيق ذَلِك من كتاب الله تَعَالَى ، ثمَّ قَالَ : مَا من عبد يَقُول سُبْحَانَ الله ، وَالْحَمْد لله وَلَا إِلَه إِلَّا الله ، وَالله أكبر ، وتبارك الله ، إِلَّا قبض عَلَيْهِنَّ ملك ، وضمَّهن تَحت جنَاحه ، ثمَّ يصعد بهَا إِلَى السَّماء ، ثمَّ لَا يمرُّ بِجمع من الْمَلَائِكَة إِلَّا اسْتَغْفرُوا لِقَائِلِهِنَّ حَتَّى يَجِيء بهن وَجه الرَّحْمن ، ثمَّ تَلا قَوْله تَعَالَى : ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر : ١٠] ، وَقيل : الْكَلم الطيِّب هُوَ الدُّعَاء من الْعباد . وَفِي بعض المسانيد بِرِوَايَة أنس عَن النَّبِي أَنَّه قَالَ : " يَقُول الله تَعَالَى كل يَوْم : أَنا الْعَزِيز ، فَمن أَرَادَ عزَّ الدَّاريْنِ فليطع الْعَزِيز " (٣) .

وَقَوله : ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ ، فِيهِ ثَلَاثَة أَقْوَال : أَحدهَا : مَا رُوِيَ عَن الْحسن ، وَسَعِيد بن جُبَير ، وَعِكْرِمَة ، وَالضَّحَّاك ، وَغَيرهم أَنَّهم قَالُوا : وَالْعَمَل الصَّالح يرفعهُ ، أَي : الْعَمَل الصَّالح يرفع الْكَلم الطيِّب ، وَالْقَوْل الثَّانِي : قَول قَتَادَة ؛ قَالَ : وَالْعَمَل الصَّالح يرفعهُ ، أَي : يرفعهُ الله .

وَالْقَوْل الثَّالِث : وَالْعَمَل الصَّالح يرفعهُ الْكَلم الطيِّب . وَأولَى الْأَقَاوِيل هُوَ الأوَّل " (٤) .

وقال الإمام البغوي (٥١٠هـ) : ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ ، أَيْ : يَقْبَلُ اللهُ الْكَلِمَ الطيِّب . قَوْلُهُ : ﴿ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ ، أَيْ : يَرْفَعُ العمل الصَّالح الكلام الطيِّب ، فَالْهَاءُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ ، رَاجِعَةٌ إِلَى الْكَلِمِ

---

(١) انظر : الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٣/ ٥٠٢) .

(٢) انظر : الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (ص٨٩٠) .

(٣) أورده المتقي الهندي في الكنز (١٥/ ٧٨٤ برقم ٤٣١٠١ ، وقال : الديلمي ، خط ، والرافعي – عن أنس ؛ وأورده ابن الجوزي في الموضوعات) ، الشوكاني في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ، (١/ ٤٤٤ برقم ٨ ، وقال : رواه الخطيب ، عن أنس مرفوعاً ، وفي إسناده : داود بن عفان بن حبيب النيسابوري ، كان يضع الحديث على أنس) .

(٤) انظر : تفسير القرآن (٤/ ٣٤٩) .

الطيّب ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ، وَالْحَسَنِ ، وَعِكْرِمَةَ ، وَأَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ . وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ : الْكَلِمُ الطيّب : ذِكْرُ اللهَّ ، وَالْعَمَلُ الصَّالح : أَدَاءُ فَرَائِضِهِ ، فَمِنْ ذَكَرَ اللهَّ وَلَمْ يُؤَدِّ فَرَائِضَهُ رُدَّ كَلَامُهُ عَلَىٰ عَمَلِهِ ، وَلَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّمَنِّي وَلَا بِالتَّحَلِّي ، وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقُلُوبِ وَصَدَّقَتْهُ الْأَعْمَالُ ، فَمَنْ قَالَ حَسَناً ، وَعَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ ، رَدَّ اللهُّ عَلَيْهِ قَوْلَهُ ، وَمَنْ قَالَ حَسَناً ، وَعَمِلَ صَالِحاً ، يَرْفَعُهُ الْعَمَلُ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَّ يَقُولُ : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ ، وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ : " لَا يَقْبَلُ اللهُّ قَوْلًا إِلَّا بِعَمَلٍ وَلَا قَوْلًا وَلَا عَمَلًا إِلَّا بِنِيَّةٍ " (١) .

وَقَالَ قَوْمٌ : الْهَاءُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ يَرْفَعُهُۥ ﴾ ، رَاجِعَةٌ إِلَىٰ الْعَمَلِ الصَّالح ، أَيْ : الْكَلِمُ الطيّب يَرْفَعُ الْعَمَلَ الصَّالح ، فَلَا يُقْبَلُ عَمَلٌ إِلَّا أَنْ يَكُونَ صَادِراً عَنِ التَّوحيد ، وَهَذَا مَعْنَىٰ قَوْلِ الْكَلْبِيِّ وَمُقَاتِلٍ : وَقِيلَ: الرَّفْعُ مِنْ صِفَةِ اللهَّ عزَّ وجلَّ مَعْنَاهُ : الْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ اللهُّ عزَّ وجلَّ . وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ : الْعَمَلُ الصَّالح هُوَ الْخَالِصُ ، يَعْنِي : أَنَّ الْإِخْلَاصَ سَبَبُ قَبُولِ الْخَيْرَاتِ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ، دَلِيلُهُ قَوْلُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف : ١١٠] (٢) .

قال الإمام محمود بن أبي الحسن بن الحسين النَّيسابوري (المتوفى : نحو ٥٥٠هـ) : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾: التَّوحيد ﴿ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ ، أي : يرتفع الكلم الطيِّب بالعمل الصَّالح ، أو العمل الصَّالح يرفعه الكلم الطيِّب ، إذ لا يقبل العمل إلَّا من موحِّد " (٣) .

وقال الإمام ابن الجوزي (٥٩٧هـ) : " ... والثَّالث : أنَّها ترجع إلى الله عزَّ وجلَّ ، فالمعنى : والعمل الصَّالح يرفعُه اللهُ إليه ، أي : يَقْبَلُه . قاله قتادة " (٤) .

وقال أيضاً : " واحتجَّ بعضهم بأنه على العرش بقوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ ... وجعلوا ذلك فوقيَّة حسيَّة ونسوا أنَّ الفوقيَّة الحسيَّة إنَّما تكون لجسم أو جوهر ، وأنَّ الفوقيَّة قد تُطلق لعلوِّ المرتبة ، فيقال فلان فوق فلان ثمَّ أنَّه كما قال : ﴿ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨] ، قال : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ [الحديد:٤] ، فمن حملها على العلم حمل خصمه الإستواء على القهر . أخبرنا علي بن محمَّد بن عمر الدبَّاس ، قال : أنبأنا رزق الله بن عبد الوهَّاب التَّميمي ، قال : كان أحمد بن حنبل يقول : الإستواء صفة مسلَّمة وليست بمعنى القصد ولا

(١) لم أجده فيما بين يديَّ من كتب السنة .

(٢) انظر : معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) (٣/ ٦٩٠) .

(٣) انظر : إيجاز البيان عن معاني القرآن (٢/ ٦٨٤) .

(٤) انظر : زاد المسير في علم التفسير (٣/ ٥٠٧-٥٠٨) .

الإستعلاء ، قال : وكان أحمد لا يقول بالجهة للباري ، لأنَّ الجهات تخلَّىٰ عمَّا سواها ، وقال ابن حامد : الحقُّ يختصُّ بمكان دون مكان ، ومكانه الذي هو فيه وجود ذاته علىٰ عرشه " (١) . والعياذ بالله تعالىٰ ...

وقال الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) : " الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ ، تَقْرِيرٌ لِبَيَانِ الْعِزَّةِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْكُفَّارَ كَانُوا يَقُولُونَ : نَحْنُ لَا نَعْبُدُ مَنْ لَا نَرَاهُ وَلَا نَحْضُرُ عِنْدَهُ ، لِأَنَّ الْبُعْدَ مِنَ الْمَلِكِ ذِلَّةٌ ، فَقَالَ تَعَالَىٰ : إِنْ كُنْتُمْ لَا تَصِلُونَ إِلَيْهِ ، فَهُوَ يَسْمَعُ كَلَامَكُمْ ، وَيَقْبَلُ الطيِّب ، فَمَنْ قَبِلَ كَلَامَهُ وَصَعِدَ إِلَيْهِ فَهُوَ عَزِيزٌ ، وَمَنْ رَدَّ كَلَامَهُ فِي وَجْهِهِ فَهُوَ ذَلِيلٌ ، وَأَمَّا هَذِهِ الْأَصْنَامُ لَا يَتَبَيَّنُ عِنْدَهَا الذَّلِيلُ مِنَ الْعَزِيزِ ، إِذْ لَا عِلْمَ لَهَا فَكُلُّ أَحَدٍ يمسها ، وكذلك يرىٰ عملكم فَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً رَفَعَهُ إِلَيْهِ ، وَمَنْ عَمِلَ سَيِّئاً رَدَّهُ عَلَيْهِ ، فَالْعَزِيزُ مَنِ الَّذِي عَمَلُهُ لِوَجْهِهِ ، وَالذَّلِيلُ مَنْ يُدْفَعُ الَّذِي عَمِلَهُ فِي وَجْهِهِ ، وَأَمَّا هَذِهِ الْأَصْنَامُ فَلَا تَعْلَمُ شَيْئاً ، فَلَا عَزِيزَ يُرْفَعُ عِنْدَهَا وَلَا ذَلِيلَ ، فَلَا عِزَّةَ بِهَا بَلْ عَلَيْهَا ذِلَّةٌ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ ذِلَّةَ السَّيِّدِ ذِلَّةٌ لِلْعَبْدِ ، وَمَنْ كَانَ مَعْبُودُهُ وَرَبُّهُ وَإِلَهُهُ حِجَارَةً أَوْ خَشَباً مَاذَا يَكُونُ هُوَ ! .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ ، وُجُوهٌ : أَحَدُهَا : كَلِمَةُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ هِيَ الطَّيِّبَةُ ، وَثَانِيهَا : سُبْحَانَ اللهِ ، وَالْحَمْدُ للهِ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَاللهُ أَكْبَرُ طَيِّبٌ . ثَالِثُهَا : هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الْأَرْبَعُ . وَخَامِسَةٌ : وَهِيَ تَبَارَكَ اللهُ ، وَالْمُخْتَارُ : أَنَّ كُلَّ كَلَامٍ هُوَ ذِكْرُ اللهِ أَوْ هُوَ للهِ كَالنَّصِيحَةِ وَالْعِلْمِ ، فَهُوَ إِلَيْهِ يَصْعَدُ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ ، وَفِي الْهَاءِ وَجْهَانِ ، أَحَدُهُمَا : هِيَ عَائِدَةٌ إِلَىٰ الْكَلِمِ الطيِّب ، أَي : الْعَمَلُ الصَّالح هُوَ الَّذِي يَرْفَعُهُ الْكَلِمُ الطيِّب .

وَرَدَ فِي الْخَبَرِ : لَا يَقْبَلُ اللهُ قَوْلًا بِلَا عَمَلٍ .

وَثَانِيهَا : هِيَ عَائِدَةٌ إِلَىٰ الْعَمَلِ الصَّالح ، وَعَلَىٰ هَذَا فِي الْفَاعِلِ الرَّافِعِ وَجْهَانِ : أحدهما : هو الكلم الطيِّب ، أي : الْكَلِمُ الطيِّب يَرْفَعُ الْعَمَلَ الصَّالح ، وَهَذَا يُؤَيِّدُهُ قوله تَعَالَىٰ : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [النحل : ٩٧] ، وَثَانِيهِمَا : الرَّافِعُ هُوَ اللهُ تَعَالَىٰ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : مَا وَجْهُ تَرْجِيحِ الذِّكْرِ عَلَىٰ الْعَمَلِ عَلَىٰ الْوَجْهِ الثَّانِي حَيْثُ يَصْعَدُ الْكَلِمُ بِنَفْسِهِ وَيُرْفَعُ الْعَمَلُ بِغَيْرِهِ ، فَنَقُولُ : الْكَلَامُ شَرِيفٌ ، فَإِنَّ امْتِيَازَ الْإِنْسَانِ عَنْ كُلِّ حَيَوَانٍ بِالنُّطْقِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠] ، أَيْ : بِالنَّفْسِ النَّاطِقَةِ ، وَالْعَمَلُ حَرَكَةٌ وَسُكُونٌ يَشْتَرِكُ فِيهِ الْإِنْسَانُ وَغَيْرُهُ ، وَالشَّرِيفُ إِذَا وَصَلَ إِلَىٰ بَابِ الْمَلِكِ لَا يُمْنَعُ ، وَمَنْ دُونَهُ لَا يَجِدُ الطَّرِيقَ إِلَّا عِنْدَ الطَّلَبِ ، وَيَدُلُّ عَلَىٰ هَذَا : أَنَّ الْكَافِرَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةِ الشَّهَادَةِ إِنْ كَانَ عَنْ صِدْقٍ أَمِنَ عَذَابَ الدُّنيا وَالْآخِرَةِ ، وَإِنْ كَانَ ظَاهِراً

---

(١) انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه (ص١٣١-١٣٢) .

أَمِنَ فِي نَفْسِهِ وَدَمِهِ وَأَهْلِهِ وَحَرَمِهِ فِي الدُّنيا وَلَا كَذَلِكَ الْعَمَلُ بِالْجَوَارِحِ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾[البقرة : ٨٢] ، وَوَجْهٌ آخَرُ : الْقَلْبُ هُوَ الْأَصْلُ وَقَدْ تَقَدَّمَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ ، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عليه وآله وَسَلَّمَ : " أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ " (١) .

وَمَا فِي الْقَلْبِ لَا يَظْهَرُ إِلَّا بِاللِّسَانِ وَمَا فِي اللسان لا يتبيَّن صدقه إلا بالفعل ، فالقول أقرب إلىٰ القلب من الفعل ، أَلَا تَرَىٰ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَتَكَلَّمُ بِكَلِمَةٍ إِلَّا عَنْ قَلْبٍ ، وَأَمَّا الْفِعْلُ قَدْ يَكُونُ لَا عَنْ قَلْبٍ ، كَالْعَبَثِ بِاللِّحْيَةِ ، وَلِأَنَّ النَّائِمَ لَا يَخْلُو عَنْ فِعْلٍ مِنْ حَرَكَةٍ وَتَقَلُّبٍ ، وَهُوَ فِي أَكْثَرِ الْأَمْرِ لَا يَتَكَلَّمُ فِي نَوْمِهِ إِلَّا نَادِراً ، لِمَا ذَكَرْنَا أَنَّ الْكَلَامَ بِالْقَلْبِ ، وَلَا كَذَلِكَ الْعَمَلُ ، فَالْقَوْلُ أَشْرَفُ " (٢) .

وقال الإمام أبو العبَّاس أحمَدُ بنُ عُمَرَ بنِ إبراهيمَ الحافظ ، الأنصاريُّ القرطبيُّ (٦٥٦هـ) : " وعلىٰ هذا يُحمل قوله تعالىٰ : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ ... ،أي : إلىٰ مقاماتهم في حضرته ، وإنَّما احتجنا إلىٰ إبداء هذا التَّأويل ؛ لئلَّا يتخيَّل الجاهل أنَّه مختصٌّ بجهة فوق فيلزمه التَّجسيم ، ويكفيك ممَّا يدلُّ علىٰ نفي الجهة في حقِّه قوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ ﴾ [الحديد:٤] ، وما في معناه " (٣) .

وقال الإمام أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرْح القرطبي (٦٧١ هـ) : " قَوْلُهُ تَعَالَىٰ:﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ وَتَمَّ الْكَلَامُ. ثمَّ تَبْتَدِئُ" ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ﴾ عَلَىٰ مَعْنَىٰ: يَرْفَعُهُ اللهُ، أَوْ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَىٰ: وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُ الْكَلِمَ الطَّيِّبَ، فَيَكُونُ الْكَلَامُ مُتَّصِلًا عَلَىٰ مَا يَأْتِي بَيَانُهُ. وَالصُّعُودُ هُوَ الْحَرَكَةُ إِلَىٰ فَوْقُ، وَهُوَ الْعُرُوجُ أَيْضًا. وَلَا يُتَصَوَّرُ ذَلِكَ فِي الْكَلَامِ لِأَنَّهُ عَرَضٌ، لَكِنْ ضُرِبَ صُعُودُهُ مَثَلًا لِقَبُولِهِ، لِأَنَّ مَوْضِعَ الثَّوَابِ فَوْقُ، وَمَوْضِعَ الْعَذَابِ أَسْفَلُ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: يُقَالُ ارْتَفَعَ الْأَمْرُ إِلَىٰ الْقَاضِي أَيْ عَلِمَهُ، فَهُوَ بِمَعْنَىٰ الْعِلْمِ. وَخُصَّ الْكَلَامُ وَالطِّبُّ بِالذِّكْرِ لِبَيَانِ الثَّوَابِ عَلَيْهِ. وَقَوْلُهُ" إِلَيْهِ" أَيْ إِلَىٰ اللهَّ يَصْعَدُ. وَقِيلَ: يَصْعَدُ إِلَىٰ سَمَائِهِ وَالْمَحَلِّ الَّذِي لَا يَجْرِي فِيهِ لِأَحَدٍ غَيْرِهِ حُكْمٌ. وَقِيلَ: أَيْ يُحْمَلُ الْكِتَابُ الَّذِي كُتِبَ فِيهِ طَاعَاتُ الْعَبْدِ إِلَىٰ السَّمَاءِ " (٤) .

---

(١) أخرجه البخاري ، (١/ ٢٨ برقم ٥٢) ، مسلم (٥/ ٥٠ برقم ٤١٧٨) ، ابن أبي شيبة في المُصنف (٦/ ٥٦٠ برقم ٢٢٤٣٥) ، الدارمي (٣/ ١٦٤٧ برقم ٢٥٧٣) ، ابن ماجه (٢/ ١٣١٨ برقم ٣٩٨٤) ، البيهقي في الآداب (ص٣٣٤ برقم ٨٦٦) ، شعب الإيمان (٧/ ٤٩٢ برقم ٥٣٥٦) ، السنن الصغير (٢/ ٢٣٧ برقم ١٨٥٥) ، البغوي في شرح السنة (٨/ ١٣ برقم ٢٠٣١) .

(٢) انظر : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (٢٦/ ٢٢٦) .

(٣) انظر : : المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣/ ٢٨) .

(٤) انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٣٣٠-٣٣٢) .

وقال الإمام البيضاوي (٦٨٥هـ) : ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ بيان لما يطلب به العزة وهو التَّوحيد والعمل الصَّالح، وصعودهما إليه مجاز عن قبوله إيَّاهما، أو صعود الكتبة بصحيفتهما " (١) .

وقال الإمام أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدِّين النَّسفي (٧١٠هـ) : ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ ، ومعنى قوله ﴿إِلَيۡهِ﴾إلى محلِّ القبول والرِّضا وكلّ ما اتَّصف بالقبول وصف بالرِّفعة والصُّعود ، أو إلى حيث لا ينفذ فيه إلَّا حُكمه ، والكلم الطيِّب كلمات التَّوحيد أي لا إله إلَّا الله " (٢) .

وقال الإمام ابن جماعة الكناني الحموي (٧٣٣هـ) : " فَإِن قيل ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ وَهَذَا ظَاهر فِي الْجِهَة ... قُلْنَا لَيْسَ الْمُرَاد بالغاية هُنَا غَايَة الْمَكَان بل غَايَة انْتِهَاء الْأُمُور إِلَيْهِ كَقَوْلِه تَعَالَى : ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ [الشورى:٥٣] ،﴿ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود:١٢٣] ، وَقَول إِبْرَاهِيم الْخَلِيل عَلَيْهِ السَّلَام :﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الصافات:٩٩] ، ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ ﴾ [الزمر:٥٤] ،﴿ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ ﴾ [هود:٣] ، وَهُوَ كثير " (٣) .

وقال أيضاً: " ... اعْلَم أَنَّه قد تقدَّم الْكَلَام عَلَيْهِ فِي آيَة الاسْتوَاء ونزيد هَهُنَا أَنَّه إِذا ثَبت اسْتِحَالَة الْجِهَة فِي حَقِّه تَعَالَىٰ وَجب تَأْوِيل هَذِه الْآيَات ، وَأَنَّ الْمُرَاد يصعد ويعرج إِلى مَحَلِّ أمره وإرادته " (٤) .

وقال الإمام عضد الدِّين الإيجي (٧٥٦هـ) : " ... الخامس : الاستدلال بالظَّواهر الموهمة بالتَّجسم من الآيات والأحاديث نحو قوله تعالى : ... ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ ... والجواب : أنَّها ظواهر ظنيَّة لا تعارض اليقينيَّات ، ومهما تعارض دليلان وجب العمل بهما ما أمكن ، فتؤوَّل الظَّواهر إمَّا إجمالاً ويفوَّض تفصيلها إلى الله كما هو رأي من يقف على ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧] ، وعليه أكثر السَّلف ، كما روي عن أحمد : الاستواء معلوم والكيفيَّة مجهولة والبحث عنها بدعة .وأمَّا تفصيلاً كما هو رأي طائفة فنقول : ... و ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ ، أي : يرتضيه ، فإنَّ الكلمَ عَرَضٌ يمتنع عليه الانتقال " (٥) .

وقال الإمام تاج الدِّين عبد الوهَّاب بن تقي الدِّين السُّبكي (٧٧١هـ) نقلاً عن ابن جهبل في ردِّه على ابن تيمية : " ... فَأَوَّل مَا اسْتدلَّ بِهِ قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ ، فليت شعري أَيّ نَصٍّ فِي الْآيَة أَو

---

(١) انظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٤/ ٢٥٥) .

(٢) انظر : تفسير النسفي (٣/ ٢٦٩) .

(٣) انظر : إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل (ص١٠٥) .

(٤) انظر : إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل (ص١١١) .

(٥) انظر : كتاب المواقف (٣/ ٣١-٣٢) .

ظَاهر علىٰ أَنَّ الله تَعَالَىٰ فِي السَّماء أَو علىٰ الْعَرْش ، ثمَّ نِهَايَة مَا يتَمَسَّك بِهِ أَنَّه يدلُّ علىٰ علو يفهم من الصُّعُود وهيهات ، زلَّ حمَار الْعلم فِي الطِّين ، فَإِنَّ الصعُود فِي الْكَلَام كَيفَ يكون حَقِيقَة ، مَعَ أَنَّ الْمَفْهُوم فِي الْحَقَائِق أَنَّ الصعُود من صِفَات الْأَجْسَام ؟ فَلَيْسَ الْمُرَاد إِلَّا الْقبُول ، وَمَعَ هَذَا لَا حدَّ وَلَا مَكَان ... " (١) .

وقال الإمام بدر الدِّين العيني (٨٥٥هـ) : " وقَوْله جلَّ ذِكْرُهُ ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ ... فَرد شبهتهم أَيْضاً لِأَنَّ صعُود الْكَلم إِلَيْهِ لَا يَقْتَضِي كَونه فِي جِهَة إِذْ الْبَارِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَا تحويه جِهَة إِذْ كَانَ مَوْجُودا وَلَا جِهَة، وَوصف الْكَلم بالصُّعود إِلَيْهِ مجَاز ، لِأَن الْكَلم عَرَض وَالْعَرَض لَا يَصح أَن ينْتَقل" (٢) .

وقال الإمام أحمد بن محمَّد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلَّاني (٩٢٣هـ) : " وقوله جلَّ ذكره : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ ، أي : إلىٰ محلِّ القبول والرِّضا ، وكلُّ ما اتَّصف بالقبول وُصف بالرِّفعة والصُّعود ... " (٣) .

وقال الإمام الخطيب الشَّربيني (٩٧٧هـ) : " قوله تعالىٰ : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ ، وقيل: الكلم الطيِّب ذكر الله، وعن قتادة : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ أي: يقبل الله الكلم الطيِّب، وقيل: الكلم الطيِّب يتناول الذِّكر والدُّعاء وقراءة القرآن، وعن الحاكم موقوفاً وعن الثَّعلبي مرفوعاً أَنَّه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «هو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلَّا الله والله أكبر إذا قالها العبد عرج بها الملك إلىٰ السَّماء فحيا بها وجه الرَّحمن فإذا لم يكن عمل صالح لم تقبل» .

﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ أي: يقبله ، فصعود الكلم الطيِّب والعمل الصَّالح مجاز عن قبوله تعالىٰ إيَّاهما، أو صعود الكتبة بصحفهما، أو المستكنّ في يرفعه لله تعالىٰ، وتخصيص العمل بهذا الشَّرف لما فيه من الكُلفة " (٤) .

وقال الإمام سعد الدِّين التَّفتازاني (٧٩١هـ) : " وأمَّا القائلون بحقيقة الجسميَّة والحيِّز والجهة فقد بنوا مذهبهم علىٰ قضايا وهميَّة كاذبة تستلزمها وعلىٰ ظواهر آيات وأحاديث تشعر بها ... وأمَّا الثَّاني فكقوله تعالىٰ : ... ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ ... والجواب : أنَّها ظنيَّات سمعيَّة في معارضة قطعيَّات عقليَّة فيقطع بأنَّها ليست علىٰ ظواهرها ، ويفوَّض العلم بمعانيها إلىٰ الله تعالىٰ مع اعتقاد حقيقتها جرياً علىٰ الطَّريق

---

(١) انظر : طبقات الشافعية الكبرىٰ (٩/ ٤٥-٤٦) .

(٢) انظر : عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٥/ ١١٧) .

(٣) انظر : إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (١٠/ ٣٩٦) .

(٤) انظر : السراج المنير في الإعانة علىٰ معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٣/ ٣١٥-٣١٦) .

الأسلم الموافق للوقف على إلَّا الله في قوله تعالى : ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ [آل عمران:٧] أو تأوّل تأويلات مناسبة موافقة لما عليه الأدلَّة العقليَّة على ما ذُكر في كتب التَّفاسير وشروح الأحاديث سلوكاً للطَّريق الأحكم الموافق للعطف في ﴿إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ ، فإن قيل : إذا كان الدِّين الحقّ نفي الحيِّز والجهة فما بال الكتب السَّماويَّة والأحاديث النَّبويَّة مُشعرة في مواضع لا تحصى بثبوت ذلك من غير أن يقع في موضع منها تصريح بنفي ذلك وتحقيق كما كررت الدِّلالة على وجود الصَّانع ووحدته وعلمه وقدرته وحقيقة المعاد وحشر الأجساد في عدَّة مواضع ، وأكَّدت غاية التَّأكيد مع أنَّ هذا أيضاً حقيقٌ بغاية التَّأكيد والتَّحقيق لما تقرَّر في فطرة العقلاء مع اختلاف الأديان والآراء من التَّوجه إلى العلوِّ عند الدُّعاء ورفع الأيدي إلى السَّماء ، أجيب : بأنَّه لمَّا كان التَّنزيه عن الجهة ممَّا تقصر عنه عقول العامَّة حتى تكاد تجزم بنفي ما ليس في الجهة ، كان الأنسب في خطاباتهم والأقرب إلى صلاحهم والأليق بدعوتهم إلى الحقِّ ما يكون ظاهراً في التَّشبيه وكون الصَّانع في أشرف الجهات مع تنبيهات دقيقة على التَّنزيه المطلق عمَّا هو من سمات الحدوث ، وتوجُّه العقلاء إلى السَّماء ليس من جهة اعتقادهم أنَّه في السَّماء بل من جهة أنَّ السَّماء قبلة الدُّعاء ، إذ منها تتوقع الخيرات والبركات وهبوط الأنوار ونزول الأمطار .

قال : تنبيه : لمَّا ثبت أنَّ الواجب ليس بجسم ظهر أنَّه لا يتَّصف بشيء من الكيفيَّات المحسوسة بالحواس الظَّاهرة أو الباطنة مثل : الصُّورة واللون والطَّعم والرَّائحة واللذَّة والألم والفرح والغم والغضب ونحو ذلك ، إذ لا يعقل منها إلَّا ما يخصُّ الأجسام ، وإن كان البعض منها مختصَّاً بذوات الأنفس ، ولأنَّ البعض منها تغيّرات وانفعالات ، وهي على الله تعالى محال ... " (١) .

وقال الإمام أبو السُّعود العمادي (٩٨٢هـ) : " وقوله تعالى : ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ بيان لما يُطلب به العزَّةُ وهو التَّوحيد والعملُ الصَّالح ، وصعودُهما إليه مجازٌ عن قبولِه تعالى إيَّاهُما أو صعودُ الكَتَبةِ بصحيفتهما ، وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ عبارةٌ عن كمالِ الاعتدادِ به ، كقولِه تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[الشورى:٢٥] ، أي : إليه يصلُ الكلمُ الطيِّب الذي به يُطلب العزَّةَ لا إلى الملائكةِ الموكَّلين بأعمالِ العبادِ فَقطَ ، وهو يعزُّ صاحَبهُ ويعطي طلبته بالذَّات ، والمستكّنُّ في يرفعه للكلم فإنَّ مدارَ قبولِ العملِ هو التَّوحيد " (٢) .

---

(١) انظر : شرح المقاصد في علم الكلام (٢/ ٦٧-٦٨) .

(٢) انظر : تفسير أبي السعود (٧/ ١٤٥) .

وقال الإمام إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي (١١٢٧هـ) : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ الضَّمير إلى الله تعالى وهو الظَّاهر. والصُّعود : الذَّهاب في المكان العالي ، استعير لما يصل من العبد إلى الله كما استعير النُّزول لما يصل من الله إلى العبد. والكلم بكسر اللام جنس كنمر كما ذهب اليه الجمهور ، ولذا وصف بالمذكر لا جمع كلمة كما ذهب اليه البعض واصل الطيِّب الذي به يطلب العزَّة لا إلى الملائكة الموكَّلين بأعمال العباد فقط ، وهو يعزّ صاحبه ويعطي مطلوبه بالذَّات ، وقال بعضهم : الكلم يتناول الدُّعاء والاستغفار وقراءة القرآن والذِّكر من قوله : " سبحان الله والحمد لله ولا إله إلَّا الله والله أكبر " ، ونحو ذلك ممَّا كان كلاماً طيِّباً ، وقيل : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ﴾ أي : إلى سمائه ومحلِّ قبوله وحيث يكتب الأعمال المقبولة لا إلى الله كما قال : ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين:١٨] ، وقال الخليل : ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:٩٩] ، أي : ذاهب إلى الشَّام الذي أمرني بالذَّهاب إليه ، فالظَّاهر أنَّ الكتبة يصعدون بصحيفته إلى حيث أمر الله أن توضع أو يصعد هو بنفسه ، قال بعض الكبار : بعض الأعمال ينتهى إلى سدرة المنتهى وبعضها يتعدَّى إلى الجنَّة وبعضها إلى العرش وبعضها يتجاوز العرش إلى عالم المثال ، وقد يتعدى من عالم المثال إلى اللوح ثمَّ إلى المقام القلمي ثمَّ إلى العماء ، وذلك بحسب تفاوت مراتب العمال في الصِّدق والإخلاص وصحَّة التَّصوُّر والشُّهود والعيان.

فعلى هذا فبعض الأعمال يتجاوز السَّماء وعالم الأجسام كلّها فيكون محلّ قبوله ما فوقها ممَّا ذكر فسدر الانتهاآت إذاً كثيرة بعضها فوق بعض إلى مرتبة العماء ، نسأل الله قبول الأعمال وصحَّة توجُّه البال وقوَّة الحال ..." (١) .

وقال الإمام ابن عجيبة الحسني (١٢٢٤هـ) : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ كلمة التوحيد: لا إله إلَّا الله، وما يلحقها من الأذكار، والدُّعاء، والقراءة. وعنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «هو سُبحان الله والحمدُ لله، ولا إله إلَّا الله، والله أكبرُ ، إذا قالها العبدُ عَرَجَ بها الملكُ إلى السَّماء، فحَيَّا بها وَجْهَ الرَّحمن . وكان القياس: الطيبة، ولكن كلّ جمع ليس بينه وبين واحده إلَّا التاء يُذكَّر ويؤنَّث. ومعنى الصُّعود: القبول والرِّضا، وكلّ ما اتَّصف بالقبول وُصف بالرِّفعة والصُّعود. وَالْعَمَلُ الصَّالح كالعبادة الخالصة يَرْفَعُهُ الله تعالى، أي: يقبله. أو: الكلم الطيِّب، فالرَّافع على هذا الكلم الطيِّب، والمرفوع العمل الصَّالح، أي: والعمل الصَّالح يرفعه الكلم الطيِّب لأنَّ العمل متوقف على التَّوحيد، المأخوذ من الكلم الطيِّب وفيه إشارة إلى أنَّ العمل يتوقف

---

(١) انظر : روح البيان (٧/ ٣٢٤-٣٢٥) .

علىٰ الرفع، والكَلِم الطيِّب يصعد بنفسه، ففيه ترجيح الذِّكر علىٰ سائر العمل. وقيل: بالعكس، أي: والعمل الصَّالح يرفع الكلم الطيِّب، فإذا لم يكن عمل

صالح فلا يقبل منه الكلم الطيِّب. وقيل: والعمل الصَّالح يرفعُ العامل ويشرِّفه ، أي: مَن أراد العزَّة والرِّفعة فليعمل العمل الصَّالح فإنَّه هو الذي يرفع العبد " (١) .

وقال الإمام محمَّد بن علي الشَّوكاني (١٢٥٠هـ) : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ أَيْ: إِلىٰ اللهَّ يَصْعَدُ لَا إِلىٰ غَيْرِهِ، وَمَعْنَىٰ صُعُودِهِ إِلَيْهِ: قَبُولُهُ لَهُ، أَوْ صُعُودُ الْكَتَبَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بِمَا يَكْتُبُونَهُ مِنَ الصُّحُفِ، وَخَصَّ الْكَلِمَ الطيِّب بِالذِّكْرِ لِبَيَانِ الثَّوَابِ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَتَنَاوَلُ كُلَّ كلام يتصف بكونه طيبا من ذكر الله، وَأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ، وَنَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ، وَتِلَاوَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَلَا وَجْهَ لِتَخْصِيصِهِ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، أَوْ بِالتَّحْمِيدِ وَالتَّمْجِيدِ. وَقِيلَ الْمُرَادُ بِصُعُودِهِ: صُعُودُهُ إِلىٰ سَمَاءِ الدُّنْيَا. وَقِيلَ الْمُرَادُ بِصُعُودِهِ:

عِلْمُ اللهَّ بِهِ، وَمَعْنَىٰ: وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ أَنَّ الْعَمَلَ الصَّالح يَرْفَعُ الْكَلِمَ الطَّيِّبَ، كَمَا قَالَ الْحَسَنُ، وَشَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَالضَّحَّاكُ، وَوَجْهُهُ أَنَّه لَا يَقْبَلُ الْكَلِمَ الطيِّب إِلَّا مَعَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ. وَقِيلَ إِنَّ فَاعِلَ يَرْفَعُهُ: هُوَ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ، وَمَفْعُولَهُ: الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَوَجْهُهُ أَنَّ الْعَمَلَ الصَّالح لَا يُقْبَلُ إِلَّا مَعَ التَّوحيد وَالْإِيمَانِ. وَقِيلَ: إِنَّ فَاعِلَ يَرْفَعُهُ ضَمِيرٌ يَعُودُ إِلىٰ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ. وَالْمَعْنَىٰ:أَنَّ اللهَّ يَرْفَعُ الْعَمَلَ الصَّالح عَلىٰ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ، لِأَنَّ الْعَمَلَ يُحَقِّقُ الْكَلَامَ. وَقِيلَ: وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُ صَاحِبَهُ، وَهُوَ الَّذِي أَرَادَ الْعِزَّةَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: الْمَعْنَى أَنَّ اللهَّ يَرْفَعُ الْعَمَلَ الصَّالح لِصَاحِبِهِ ، أَيْ : يَقْبَلُهُ ... " (٢) .

وقال الإمام الألوسي (١٢٧٠هـ) : " ... وقوله تعالىٰ : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] إلىٰ آخره كالبيان لطريق تحصيل العزَّة ، وسلوك السَّبيل إلىٰ نيلها ، وهو الطَّاعة القوليَّة والفعليَّة ، وقيل : بيان لكون العزَّة كلّها لله تعالىٰ وبيده سبحانه ، لأنَّها بالطَّاعة ، وهي لا يعتدُّ بها ما لم تقبل ، وقيل : استئناف كلام ، وعلىٰ الأوَّل المعوَّل . والْكَلِمُ اسم جنس جمعي عند جمع واحده كلمة ، والمراد بالكلم الطيِّب علىٰ ما في الكشَّاف والبحر عن ابن عبَّاس : لا إله إلَّا الله ، ومعنىٰ كونه طيِّباً علىٰ ما قيل : إنَّ العقل السَّليم يستطيبه ويستلذّه لما فيه من الدّلالة علىٰ التَّوحيد الذي هو مدار النَّجاة ، والوسيلة إلىٰ النَّعيم المقيم أو يستلذه الشَّرع أو الملائكة عليهم السّلام ، وقيل : أنَّه حسن يقبله العقل ولا يردُّه ...

---

(١) انظر : البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٤/ ٥٢٢-٥٢٣) .

(٢) انظر : فتح القدير (٤/ ٣٩١) .

وصعود الكلم إليه تعالىٰ مجاز مرسل عن قبوله بعلاقة اللزوم واستعارة بتشبيه القبول بالصُّعود ، وجوّز أن يجعل الكلم مجازاً عمّا كتب فيه بعلاقة الحلول أو يقدر مضاف ، أي : إليه يصعد صحيفة الكلم الطيِّب أو يشبه وجوده الخارجي هنا ثمَّ الكتابي في السَّماء بالصُّعود ثمَّ يطلق المشبه به علىٰ المشبه ويشتق منه الفعل علىٰ ما هو المعروف في الاستعارة التبعيَّة ، وقيل : لا مانع من اعتبار حقيقة الصُّعود للكلم ، فلله تعالىٰ تجسيد المعاني ، وكون الصُّعود إليه عزَّ وجلَّ من المتشابه والكلام فيه شهير ، والكلام بعد ذلك كناية عن قبوله والاعتناء بشأن صاحبه ، وتقديم الجار والمجرور لإفادة الحصر ...﴿ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر: ١٠] ، مبتدأ وخبر علىٰ المشهور ، واختلف في فاعل (يرفع) ، فقيل : ضمير يعود علىٰ العمل الصَّالح ، وضمير النَّصب يعود علىٰ الْكَلِمُ ، أي : والعمل الصَّالح يرفع الكلم الطيِّب ، وروي ذلك عن ابن عبَّاس ، والحسن ، وابن جبير ، ومجاهد ، والضَّحَّاك ، وشهر بن حوشب علىٰ ما أخرجه عنه سعيد بن منصور ، وغيره ...
ولعلَّ المراد برفع العمل الصَّالح الكلم الطيِّب رفع قدره وجعله بحيث يترتَّب عليه من الثَّواب ما لم يترتَّب عليه إذا كان بلا عمل ... " (١) .

وقال الإمام أبو الطيِّب محمَّد صدِّيق خان القِنَّوجي (١٣٠٧هـ) : ﴿ إِلَيْهِ ﴾ تعالىٰ لا إلىٰ غيره ﴿يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ الصُّعود هو الحركة إلىٰ فوق وهو العروج أيضاً ، وموضع الثَّواب فوق، وموضع العذاب أسفل، ومعنىٰ صعوده إليه قبوله له، أو صعود الكتبة من الملائكة بما يكتبونه من الصُّحف ... " (٢) .

وقال الإمام الشَّهيد سيِّد قطب إبراهيم حسين الشَّاربي (١٣٨٥هـ) : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ ... ولهذا التَّعقيب المباشر بعد ذكر الحقيقة الضَّخمة مغزاه وإيحاؤه. فهو إشارة إلىٰ أسباب العزَّة ووسائلها لمن يطلبها عند الله. القول الطيِّب والعمل الصَّالح. القول الطيِّب الذي يصعد إلىٰ الله في علاه والعمل الصَّالح الذي يرفعه الله إليه ويكرمه بهذا الارتفاع. ومن ثمَّ يكرم صاحبه ويمنحه العزَّة والاستعلاء.

والعزَّة الصَّحيحة حقيقة تستقرُّ في القلب قبل أن يكون لها مظهر في دنيا النَّاس. حقيقة تستقرُّ في القلب فيستعلي بها علىٰ كلِّ أسباب الذلَّة والانحناء لغير الله. حقيقة يستعلي بها علىٰ نفسه أوَّل ما يستعلي. يستعلي بها علىٰ شهواته المذلّة، ورغائبه القاهرة، ومخاوفه ومطامعه من النَّاس وغير النَّاس. ومتىٰ استعلىٰ علىٰ هذه

---

(١) انظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، شهاب الدِّين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي ، (١١/ ٣٤٦-٣٤٨) ، تحقيق : علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤١٥هـ .

(٢) انظر : فتحُ البيان في مقاصد القرآن (١١/ ٢٢٧-٢٢٨) .

فلن يملك أحد وسيلة لإذلاله وإخضاعه. فإنَّما تذلّ النَّاس شهواتهم ورغباتهم، ومخاوفهم ومطامعهم. ومن استعلى عليها فقد استعلى على كلِّ وضع وعلى كلِّ شيء وعلى كلِّ إنسان ... وهذه هي العزَّة الحقيقيَّة ذات القوَّة والاستعلاء والسُّلطان ! إنَّ العزَّة ليست عناداً جامحاً يستكبر على الحقِّ ويتشامخ بالباطل. وليست طغياناً فاجراً يضرب في عتوّ وتجبُّر وإصرار. وليست اندفاعاً باغياً يخضع للنَّزوة ويذل للشَّهوة. وليست قوَّة عمياء تبطش بلا حقٍّ ولا عدل ولا صلاح ... كلا ! إنَّما العزَّة استعلاء على شهوة النَّفس، واستعلاء على القيد والذُّل، واستعلاء على الخضوع الخانع لغير الله . ثمَّ هي خضوع لله وخشوع وخشية لله وتقوى، ومراقبة لله في السرَّاء والضرَّاء ... ومن هذا الخضوع لله ترتفع الجباه. ومن هذه الخشية لله تصمد لكلِّ ما يأباه. ومن هذه المراقبـــة لله لا تغنى إلَّا برضاه " (١) .

وقال الإمام محمَّد الطَّاهر بن عاشور التُّونسي (١٣٩٣هـ) : " ... وَجُمْلَةُ ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ مُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِئْنَافًا ابْتِدَائِيًّا بِمُنَاسَبَةِ تَفْصِيلِ الْغَرُورِ الَّذِي يُوقَعُ فِيهِ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ أَعْمَالَ الْمُؤْمِنِينَ هِيَ الَّتِي تَنْفَعُ لِيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّ أَعْمَالَ الْمُشْرِكِينَ سَعْيٌ بَاطِلٌ. وَالْقُرُبَاتُ كُلُّهَا تَرْجِعُ إِلَى أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ، فَالْأَقْوَالُ مَا كَانَ ثَنَاءً عَلَى اللَّهَ تَعَالَى وَاسْتِغْفَارًا وَدُعَاءً، وَدُعَاءَ النَّاسِ إِلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ. وَتَقَدَّمَ ذِكْرُهَا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب:٧٠] وَالْأَعْمَالُ فِيهَا قُرُبَاتٌ كَثِيرَةٌ. وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَتَقَرَّبُونَ إِلَى أَصْنَامِهِمْ بِالثَّنَاءِ وَالتَّمْجِيدِ كَمَا قَالَ أَبُو سُفْيَانَ يَوْمَ أُحُدٍ: اعْلُ هُبَلَ، وَكَانُوا يَتَحَنَّثُونَ بِأَعْمَالٍ مِنْ طَوَافٍ وَحَجٍّ وَإِغَاثَةِ مَلْهُوفٍ وَكَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ مَشُوبًا بِالْإِشْرَاكِ لِأَنَّهُمْ يَنْوُونَ بِهَا التَّقَرُّبَ إِلَى الْآلِهَةِ فَلِذَلِكَ نَصَبُوا أَصْنَامًا فِي الْكَعْبَةِ وَجَعَلُوا هُبَلَ وَهُوَ كَبِيرُهُمْ عَلَى سَطْحِ الْكَعْبَةِ، وَجَعَلُوا إِسَافًا وَنَائِلَةَ فَوْقَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، لِتَكُونَ مَنَاسِكُهُمْ للهَّ مَخْلُوطَةً بِعِبَادَةِ الْآلِهَةِ تَحْقِيقًا لِمَعْنَى الْإِشْرَاكِ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ . فَلَمَّا قُدِّمَ الْمَجْرُورُ مِنْ قَوْلِهِ: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطيِّب أُفِيدَ أَنَّ كُلَّ مَا يُقَدَّمُ مِنَ الْكَلِمِ الطيِّب إِلَى غَيْرِ اللهَّ لَا طَائِلَ تَحْتَهُ . وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ فَ الْعَمَلُ مُقَابِلُ الْكَلِمُ، أَيِ الْأَفْعَالُ الَّتِي لَيْسَتْ مِنَ الْكَلَامِ، وَضَمِيرُ الرَّفْعِ عَائِدٌ إِلَى مَعَادِ الضَّمِيرِ الْمَجْرُورِ فِي قَوْلِهِ: إِلَيْهِ وَهُوَ اسْمُ الْجَلَالَةِ مِنْ قَوْلِهِ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً . وَالضَّمِيرُ الْمَنْصُوبُ مِنْ يَرْفَعُهُ عَائِدٌ إِلَى الْعَمَلُ الصَّالح ، أَي : اللهَّ يَرْفَعُ الْعَمَلَ الصَّالح .

والصُّعود: الْإِذْهَابُ فِي مَكَانٍ عَالٍ. وَالرَّفْع: نَقْلُ الشَّيء مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ أَعْلَى مِنْهُ، فَالصُّعُودُ مُسْتَعَارٌ لِلْبُلُوغِ إِلَى عَظِيمِ الْقَدْرِ وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْقَبُولِ لَدَيْهِ . وَ (الرَّفْعُ) : حَقِيقَتُهُ نَقْلُ الْجِسْمِ مِنْ مَقَرِّهِ إِلَى أَعْلَى مِنْهُ

---

(١) انظر : في ظلال القرآن (٥/ ٢٩٣٠-٢٩٣١) .

وَهُوَ هُنَا كِنَايَةٌ لِلْقَبُولِ عِنْدَ عَظِيمٍ، لِأَنَّ الْعَظِيمَ تَتَخَيَّلُهُ التَّصَوُّرَاتُ رَفِيعَ الْمَكَانِ. فَيَكُونُ كُلٌّ مِنْ (يَصْعَدُ) وَ (يَرْفَعُ) تَبِعَتَيْنِ قَرِينَتَيْ مَكْنِيَّةٍ بِأَنْ شُبِّهَ جَانِبُ الْقَبُولِ عِنْدَ اللهَّ تَعَالَى بِمَكَانٍ مُرْتَفِعٍ لَا يَصِلُهُ إِلَّا مَا يَصْعَدُ إِلَيْهِ.

فَقَوْلُهُ: الْعَمَلُ مُبْتَدَأٌ وَخَبَرُهُ يَرْفَعُهُ، وَفِي بِنَاءِ الْمُسْنَدِ الْفِعْلِيِّ عَلَى الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ مَا يُفِيدُ تَخْصِيصَ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْمُسْنَدِ، فَإِذَا انْضَمَّ إِلَيْهِ سِيَاقُ جُمْلَتِهِ عَقِبَ سِيَاقِ جُمْلَةِ الْقَصْرِ الْمُشْعِرِ بِسَرَيَانِ حُكْمِ الْقَصْرِ إِلَيْهِ بِالْقَرِينَةِ لِاتِّحَادِ الْمَقَامِ إِذْ لَا يُتَوَهَّمُ أَنْ يُقْصَرَ صُعُودُ الْكَلِمِ الطيِّب عَلَى الْجَانِبِ الْإِلَهِيِّ ثمَّ يُجْعَلَ لِغَيْرِهِ شَرِكَةٌ مَعَهُ فِي رَفْعِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، تَعَيَّنَ مَعْنَى التَّخْصِيصِ، فَصَارَ الْمَعْنَى: اللهُّ الَّذِي يَقْبَلُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْوَالَهُمْ وَأَعْمَالَهُمُ الصَّالِحَةَ.وَإِنَّمَا جِيءَ فِي جَانِبِ الْعَمَلِ الصَّالح بِالْإِخْبَارِ عَنْهُ بِجُمْلَةِ يَرْفَعُهُ وَلَمْ يُعْطَفْ عَلَى الْكَلِمُ الطيِّب فِي حُكْمِ الصُّعُودِ إِلَى اللهَّ مَعَ تَسَاوِي الْخَبَرَيْنِ لفائدتين: أولاهما: الْإِيمَاءُ إِلَى أَنَّ نَوْعَ الْعَمَلِ الصَّالح أَهَمُّ مِنْ نَوْعِ الْكَلِمِ الطيِّب عَلَى الْجُمْلَةِ لِأَنَّ مُعْظَمَ الْعَمَلِ الصَّالح أَوْسَعُ نَفْعًا مِنْ مُعْظَمِ الْكَلِمِ الطيِّب (عَدَا كَلِمَةَ الشَّهَادَتَيْنِ وَمَا وَرَدَ تَفْضِيلُهُ مِنَ الْأَقْوَالِ فِي السُّنَّةِ مِثْلَ دُعَاءِ يَوْمِ عَرَفَةَ) فَلِذَلِكَ أُسْنِدَ إِلَى اللهَّ رَفْعُهُ بِنَفْسِهِ ، كَقَوْلِ النَّبِيءِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلَا يَقْبَلُ اللهُّ إِلَّا طيبا تلقَّاها الرَّحمان بِيَمِينِهِ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، فَيُرَبِّيهَا لَهُ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُلُوَّهُ حَتَّى تَصِيرَ مِثْلَ الْجَبَلِ» .

وَثَانِيهِمَا: أَنَّ الْكَلِمَ الطيِّب يَتَكَيَّفُ فِي الْهَوَاءِ فَإِسْنَادُ الصُّعُودُ إِلَيْهِ مُنَاسِبٌ لِمَاهِيَّتِهِ، وَأَمَّا الْعَمَلُ الصَّالح فَهُوَ كَيْفِيَّاتٌ عَارِضَةٌ لِذَوَاتٍ فَاعِلَةٍ وَمَفْعُولَةٍ فَلَا يُنَاسِبُهُ إِسْنَادُ الصُّعُودِ إِلَيْهِ ، وَإِنَّمَا يَحْسُنُ أَنْ يُجْعَلَ مُتَعَلِّقًا لِرَفْعٍ يَقَعُ عَلَيْهِ وَيُسَخِّرُهُ إِلَى الِارْتِفَاعِ " (١) .

وقال الإمام محمَّد سيِّد طنطاوي (١٤٣١هـ) : " وقوله- سبحانه-: ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ حضٌّ للمؤمنين على النُّطق بالكلام الحسن، وعلى الإكثار من العمل الصالح.

ويَصْعَدُ من الصُّعود بمعنى الارتفاع إلى أعلى والعروج من مكان منخفض إلى مكان مرتفع، يقال صعد في السلَّم ويصعد صعوداً إذا ارتقاه وارتفع فيه.

والْكَلِمُ اسم جنس جمعي واحده كلمة.

والمراد بالكلم الطيِّب: كلّ كلام يرضى الله- تعالى- من تسبيح وتحميد وتكبير ، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، وغير ذلك من الأقوال الحسنة.

والمراد بصعوده: قبوله عند الله- تعالى- ورضاه عن صاحبه، أو صعود صحائف هذه الأقوال الطيِّبة.

---

(١) انظر : :التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) (٢٢/ ٢٧٢-٢٧٣) .

والمعنى: إليه- تعالى- وحده، لا إلى غيره يصعد الكلم الطيِّب، أي: يقبل عنده، ويكون مرضيًّاً لديه، أو إليه- وحده- تُرفع صحائف أعمال عباده، الصَّادقين فيجازيهم بما يستحقُّون من ثواب، والعمل الصَّالح الصَّادر عن عباده المؤمنين يرفعه الله- تعالى- إليه، ويقبله منهم، ويكافئهم عليه.

فالفاعل لقوله ﴿ يَرْفَعُهُۥ ﴾ضمير يعود على الله- تعالى-، والضَّمير المنصوب يعود إلى العمل الصَّالح أي: يرفع الله- تعالى- العمل الصَّالح إليه، ويقبله من أصحابه.

ومنهم من يرى أنَّ الفاعل لقوله "يَرْفَعُهُ" هو العمل الصَّالح. والضَّمير المنصوب يعود إلى الكلم الطيِّب، أي : أنَّ العمل الصَّالح هو الذي يرفع الكلم الطيِّب بأنَّه يجعله مقبولاً عند الله- تعالى- ومنهم من يرى العكس، أي: أنَّ الكلم الطيِّب هو الذي يرفع العمل الصَّالح.

قال الشَّوكاني ما ملخَّصه: ومعنى: ﴿ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ أنَّ العمل الصَّالح يرفع الكلم الطيِّب. كما قال الحسن وغيره. ووجهه أنَّه لا يقبل الكلم الطيِّب إلَّا من العمل الصَّالح ، وقيل: إنَّ فاعل ﴿ يَرْفَعُهُۥ ﴾ هو الكلم الطيِّب ، ومفعوله العمل الصَّالح. ووجهه أنَّ العمل الصَّالح لا يقبل إلَّا مع التَّوحيد والإيمان وقيل: إنَّ فاعل يَرْفَعُهُ ضمير يعود إلى الله- تعالى-.

والمعنى: أنَّ الله- تعالى- يرفع العمل الصَّالح على الكلم الطيِّب، لأنَّ العمل يحقِّق الكلام، وقيل: والعمل الصَّالح هو الذي يرفع صاحبه .

ويبدو لنا أنَّ أرجح هذه الأقوال، أن يكون الفاعل لقوله "يَرْفَعُهُ" هو الله- تعالى-، وأنَّ الضَّمير المنصوب عائد إلى العمل الصَّالح لأنَّ الله- تعالى- هو الذي يقبل الأقوال الطيِّبة، وهو- سبحانه- الذي يرفع الأعمال الصَّالحة ويقبلها عنده من عباده المؤمنين " (١) ...

سَادِسَاً : وَمِنَ الآيَاتِ التِيْ يَسْتَدِلُّوْنَ بِهَا عَلَى العُلُوِّ الحِسِّيِّ المَكَانِي لله تَعَالَى : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة:٥].

والنَّاظر فيما قاله علماء الأمَّة في معنى العروج إليه الوارد في الآية يجد أنَّ جمهورهم ذهب إلى ما يُخالف ما ذهب إليه المجسِّمة الذين ذهبوا إلى تفسير العروج بالصُّعود إلى الله تعالى ، والعياذ بالله تعالى ...

فمن أشهر المعاني التي ذكرها العلماء للعروج إليه الوارد في الآية :

(١) ذهب جمهور السَّلف إلى أنَّ هذا التَّعبير وأمثاله ، من المتشابه الذي استأثر سبحانه بعلمه ، مع تنزيهه – عزَّ وجلَّ – عن المكان والجسميَّة . ولوازم الحدوث التي لا تليق بجلاله ...

---

(١) انظر : التفسير الوسيط للقرآن الكريم (١١/ ٣٣٠-٣٣١) .

(٢) وقال بعضهم : أي : إلى مكان الملك الذي أمره الله أن يعرج إليه ؛ كما قال إبراهيم : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ ، أي : إلى أرض الشَّام . وكذلك: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ، أي : إلى المدينة .

(٣) وقال بعضهم : أنَّه جبريل يصعد إلى السَّماء بعد نزوله بالوحي .

(٤) وقال بعضهم : أنَّه الملك الذي يدبِّر الأمر من السَّماء إلى الأرض إلى أن تقوم السَّاعة ، ثمَّ يعرج إليه ذلك الأمر كلّه ؛ أي يصير إليه ليحكم فيه ، وَسُقُوط أَمر الْخلق كلهم ...

وفيما يلي طائفة من أقوال علماء الأمَّة في تفسير المراد من الصُّعود الوارد في الآية الكريمة :

قال الإمام ابن فورك الأنصاري الأصبهاني (٤٠٦هـ) : ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ ، أي : إلى مكان الملك الذي أمره الله أن يعرج إليه ؛ كما قال إبراهيم : ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:٩٩] ، أي : إلى أرض الشَّام . وكذلك: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [النساء:١٠٠] ، أي : إلى المدينة ، ولم يكن الله بالمدينة " [1] .

وقال الإمام الماوردي (٤٥٠هـ) : ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ فيه ثلاثة أقاويل : أحدها : أنَّه جبريل يصعد إلى السَّماء بعد نزوله بالوحي ، قاله يحيى بن سلام . الثَّاني : أنَّه الملك الذي يدبِّر الأمر من السَّماء إلى الأرض، قاله النقَّاش . الثَّالث : أنَّها أخبار أهل الأرض تصعد إليه مع حملتها من الملائكة ، قاله ابن شجرة " [2] .

وقال الإمام عبد الكريم القشيري (٤٦٥هـ) : " خاطب الخلق – على مقدار أفهامهم ويجوز لهم – عن الحقائق التي اعتادوا في تخاطبهم " [3] .

وقال أيضاً : ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أَيْ : يرجع الأمر والتَّدبير إلى السَّماء ويعود إليه بعد انقضاء الدُّنيا وفنائها " [4] .

وقال الإمام أبو المظفَّر السَّمعاني التَّميمي الحنفي (٤٨٩هـ) : " وَقَوله: ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ ثمَّ فِيهِ قَولَانِ: أَحدهمَا: ثمَّ يعرج الْملك إِلَيْهِ بعد نُزُوله بِالْأَمر. وَالْقَوْل الثَّانِي: ثمَّ يعرج إِلَيْهِ أَي: يعرج الْأَمر إِلَيْهِ، وَمعنى عروج الْأَمر إِلَيْهِ: صيرورة الْأَمر كُله إِلَيْهِ، وَسُقُوط أَمر الْخلق كلهم " [5] .

---

[1] انظر : تفسير ابن فورك من أول سورة المؤمنون – آخر سورة السجدة (١/ ٤٦٥) .

[2] انظر : تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٤/ ٣٥٣-٣٥٤) .

[3] انظر : لطائف الإشارات (تفسير القشيري) (٣/ ١٣٩) .

[4] انظر : الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (ص٨٥٢) .

[5] انظر : تفسير القرآن (٤/ ٢٤٣) .

وقال الإمام الكرماني (المتوفى: نحو ٥٠٥هـ) : " قوله : ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ قوله : ﴿ إِلَيْهِ ﴾ يعود إلى السَّماء ، ولفظ السَّماء مذكَّر ، وقيل : يعود إلى الله سبحانه ، كقوله : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ ، وفاعل يعرج في الظَّاهر الأمر ، وقيل : الملك " (١) .

وقال الإمام الزَّمخشري (٥٣٨هـ) : ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ أي يصير إليه ، ويثبت عنده ، ويكتب في صحف ملائكته كل وقت من أوقات هذه المدَّة : ما يرتفع من ذلك الأمر ويدخل تحت الوجود إلى أن تبلغ المدَّة آخرها ، ثمَّ يدبِّر أيضاً ليوم آخر ، وهلمَّ جرًّا إلى أن تقوم السَّاعة . وقيل : ينزل الوحي مع جبريل عليه السَّلام من السَّماء إلى الأرض . ثمَّ يرجع إليه ما كان من قبول الوحي أو ردّه مع جبريل ، وذلك في وقت هو في الحقيقة ألف سنة ؛ لأنَّ المسافة مسيرة ألف سنة في الهبوط والصُّعود ؛ لأنَّ ما بين السَّماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة ، وهو يوم من أيَّامكم لسرعة جبريل ؛ لأنَّه يقطع مسيرة ألف سنة في يوم واحد ، وقيل : يدبر أمر الدُّنيا من السَّماء إلى الأرض إلى أن تقوم السَّاعة ، ثمَّ يعرج إليه ذلك الأمر كلّه ؛ أي يصير إليه ليحكم فيه " (٢) .

وقال الإمام ابن عطيَّة الأندلسي (٥٤٢هـ) : " الأمر " اسم جنس لجميع الأمور والمعنى : ينفذ الله تعالى قضاءه بجميع ما يشاؤه ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ خبر ذلك ﴿ فِي يَوْمٍ ﴾ من أيَّام الدُّنيا ﴿ مِقْدَارُهُ ﴾ أن لو سير فيه السَّير المعروف من البشر ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ لأنَّ ما بين السَّماء والأرض خمسمائة سنة ، هذا أحد الأقوال وهو قول مجاهد وابن عبَّاس وقتادة وعكرمة والضحَّاك ، وقال مجاهد أيضاً : إنَّ المعنى أنَّ الضَّمير في ﴿ مِقْدَارُهُ ﴾ عائد على التَّدبير ، أي : كان مقدار التَّدبير المنقضي في يوم ألف سنة لو دبَّرها البشر ، وقال مجاهد أيضاً : المعنى أنَّ الله تعالى يدبِّر ويلقي إلى الملائكة أمور ألف سنة من عندنا وهو اليوم عنده فإذا فرغت ألقى إليهم مثلها ، فالمعنى أنَّ الأمور تنفذ عنده لهذه المدَّة ثمَّ تصير إليه آخراً ، لأنَّ عاقبة الأمور إليه ، وقيل المعنى ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ في مدَّة الدُّنيا ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ يوم القيامة ويوم القيامة ﴿ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ من عندنا وهو على الكفَّار قدر خمسين ألف سنة لهوله وشنعته حسبما في سورة : " سأل سائل " ... وحكى الطَّبري في هذه الآية عن بعضهم أنَّه قال : قوله ﴿ فِي يَوْمٍ ﴾ إلى آخر الآية متعلِّق بقوله قبل هذا ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [السجدة : ٤] ، ومتَّصل به أي أنَّ تلك السِّتَّة كلّ واحد منها من ألف سنة .

---

(١) انظر : غرائب التفسير وعجائب التأويل (٢/ ٩٠٥) .

(٢) انظر : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (٣/ ٥١٥) .

... وظاهر عود الضَّمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ على اسم الله تعالى كما قال ﴿ ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصافات : ٩٩] وكما قال : ﴿ مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ ﴾ [العنكبوت:٢٦] ، وهذا كلُّه بريء من التَّحيُّز ، وقيل : أنَّ الضَّمير يعود على " السَّماء " لأنَّها قد تذكر " (١) .

وقال الإمام محمود بن أبى الحسن بن الحسين النَّيسابوري (نحو ٥٥٠هـ) : ﴿ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ ﴾ : إلى المكان الذي أمر أن يقوم فيه " (٢) .

وقال أيضاً : ﴿ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾ ، أي : إلى الموضع الذي فيه يثبت الأعمال والآجال . أو مكان الملك الذي أمره الله أن يقوم فيه . وقيل : أنَّه جبريل يصعد إلى السَّماء بعد نزوله بالوحي " (٣) .

وقال الإمام ابن الجوزي (٥٩٧هـ) : ﴿ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾ أي : يعود إليه الأمر والتَّدبير حين ينقطع أمر الأمراء وأحكام الحكَّام ، وينفرد الله تعالى بالأمر ﴿ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ ، وذلك في يوم القيامة ، لأنَّ كلّ يوم من أيَّام الآخرة كألف سنة . وقال مجاهد : يقضي أمر ألف سنة في يوم واحد ، ثمَّ يلقيه إلى ملائكته فاذا مضت قضى لألف سنة آخرى ، ثمَّ كذلك أبداً . وللمفسِّرين في المراد بالأمر ثلاثة أقوال : أحدها : أنَّه الوحي ، قاله السدَّي . والثَّاني : القضاء ، قاله مقاتل . والثَّالث : أمر الدُّنيا . و " يعرُج " بمعنى يصعَد " (٤) .

وقال الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) : " وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ ﴾ مَعْنَاهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ : أَنَّ أَمْرَهُ يَنْزِلُ مِنَ السَّماء عَلَىٰ عِبَادِهِ وَتَعْرُجُ إِلَيْهِ أَعْمَالُهُمُ الصَّالِحَةُ الصَّادِرَةُ عَلَىٰ مُوَافَقَةِ ذَلِكَ الْأَمْرِ، فَإِنَّ الْعَمَلَ أَثَرُ الْأَمْرِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: " فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ " ، فِيهِ وُجُوهٌ أَحَدُهَا: أَنَّ نُزُولَ الْأَمْرِ وَعُرُوجَ الْعَمَلِ فِي مَسَافَةِ أَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ وَهُوَ فِي يَوْمٍ فَإِنَّ بَيْنَ السَّماء وَالْأَرْضِ مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ فَيَنْزِلُ فِي مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَيَعْرُجُ فِي مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، فَهُوَ مِقْدَارُ أَلْفِ سَنَةٍ ثَانِيهَا: هُوَ أَنَّ ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَىٰ امْتِدَادِ نَفَاذِ الْأَمْرِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ مَنْ نَفَذَ أَمْرُهُ غَايَةَ النَّفَاذِ فِي يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ وَانْقَطَعَ لَا يَكُونُ مِثْلَ مَنْ يَنْفُذُ أَمْرُهُ فِي سِنِينَ مُتَطَاوِلَةٍ فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ يَعْنِي يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فِي زَمَانٍ يَوْمٌ مِنْهُ أَلْفُ سَنَةٍ، فَكَمْ يَكُونُ شَهْرٌ مِنْهُ، وَكَمْ تَكُونُ سَنَةٌ مِنْهُ، وَكَمْ يَكُونُ دَهْرٌ مِنْهُ، وَعَلَىٰ هَذَا الْوَجْهِ لَا فَرْقَ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قوله : ﴿ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ

---

(١) انظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ٤١٣) .

(٢) انظر : إيجاز البيان عن معاني القرآن (٢/ ٦٦٣) .

(٣) انظر : باهر البرهان في معانى مشكلات القرآن (٢/ ١١١٦) .

(٤) انظر : زاد المسير في علم التفسير (٣/ ٤٣٨) .

﴾ [المعارج: ٤] لِأَنَّ تِلْكَ إِذَا كَانَتْ إِشَارَةً إِلَى دَوَامِ نَفَاذِ الْأَمْرِ، فَسَوَاءٌ يُعَبَّرُ بِالْأَلْفِ أَوْ بِالْخَمْسِينَ أَلْفًا لَا يَتَفَاوَتُ إِلَّا أَنَّ الْمُبَالَغَةَ تَكُونُ فِي الخمسين أكثر وتبين فَائِدَتَهَا فِي مَوْضِعِهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى: (وَفِي هَذِهِ لَطِيفَةٌ) وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ عَالَمَ الْأَجْسَامِ وَالْخَلْقِ، وَأَشَارَ إِلَى عَظَمَةِ الْمُلْكِ، وَذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَالَمَ الْأَرْوَاحِ وَالْأَمْرِ بِقَوْلِهِ: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ وَالرُّوحُ من عالم الأمر كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] وَأَشَارَ إِلَى دَوَامِهِ بِلَفْظٍ يُوهِمُ الزَّمَانَ وَالْمُرَادُ دَوَامُ الْبَقَاءِ كَمَا يُقَالُ فِي الْعُرْفِ طَالَ زَمَانُ فُلَانٍ وَالزَّمَانُ لَا يَطُولُ، وإِنَّمَا الْوَاقِعُ فِي الزَّمَانِ يَمْتَدُّ فَيُوجَدُ فِي أَزْمِنَةٍ كَثِيرَةٍ فَيَطُولُ ذَلِكَ فَيَأْخُذُ أَزْمِنَةً كَثِيرَةً، فَأَشَارَ هُنَاكَ إِلَى عَظَمَةِ الْمُلْكِ بِالْمَكَانِ وَأَشَارَ إِلَى دوامه هاهنا بِالزَّمَانِ فَالْمَكَانُ مِنْ خَلْقِهِ وَمُلْكِهِ وَالزَّمَانُ بِحُكْمِهِ وَأَمْرِهِ. وَاعْلَمْ أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فِي يَوْمٍ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ أَمْرُهُ فِي يَوْمٍ وَالْيَوْمُ لَهُ ابْتِدَاءٌ وَانْتِهَاءٌ فَيَكُونُ أَمْرُهُ فِي زَمَانٍ حَادِثٍ فَيَكُونُ حَادِثًا وَبَعْضُ مَنْ يَقُولُ بِأَنَّ اللَّهَ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى يَقُولُ بِأَنَّ أَمْرَهُ قَدِيمٌ حَتَّى الْحُرُوفِ، وَكَلِمَةِ كُنْ فَكَيْفَ فُهِمَ مِنْ كَلِمَةِ عَلَى كَوْنُهُ فِي مَكَانٍ، وَلَمْ يُفْهَمْ مِنْ كَلِمَةٍ فِي كَوْنُ أَمْرِهِ فِي زَمَانٍ " (١).

وقال الإمام أبو عبد الله القرطبي (٦٧١هـ) : " قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ قَالَ يَحْيَى بْنُ سَلَّامٍ: هُوَ جِبْرِيلُ يَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ بَعْدَ نُزُولِهِ بِالْوَحْيِ. النَّقَّاشُ: هُوَ الْمَلَكُ الَّذِي يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ. وَقِيلَ: أَنَّهَا أَخْبَارُ أَهْلِ الْأَرْضِ تَصْعَدُ إِلَيْهِ مَعَ حَمَلَتِهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، قَالَهُ ابْنُ شَجَرَةَ. ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾. وَقِيلَ: ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ أَيْ يَرْجِعُ ذَلِكَ الْأَمْرُ وَالتَّدْبِيرُ إِلَيْهِ بَعْدَ انْقِضَاءِ الدُّنْيَا ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. وَعَلَى الْأَقْوَالِ الْمُتَقَدِّمَةِ فَالْكِنَايَةُ فِي ﴿ يَعْرُجُ ﴾ كِنَايَةٌ عَنِ الْمَلَكِ، وَلَمْ يَجْرِ لَهُ ذِكْرٌ لِأَنَّهُ مَفْهُومٌ مِنَ الْمَعْنَى، وَقَدْ جَاءَ صَرِيحًا فِي" سَأَلَ سَائِلٌ" قَوْلُهُ: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج: ٤] . وَالضَّمِيرُ فِي ﴿ إِلَيْهِ ﴾ يَعُودُ عَلَى السَّمَاءِ عَلَى لُغَةِ مَنْ يُذَكِّرُهَا، أَوْ عَلَى مَكَانِ الْمَلَكِ الَّذِي يَرْجِعُ إِلَيْهِ، أَوْ عَلَى اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْمُرَادُ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي أَقَرَّهُ فِيهِ، وَإِذَا رَجَعَتْ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ رَجَعَتْ إِلَى السَّمَاءِ، أَيْ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، فَإِنَّهُ إِلَيْهَا يَرْتَفِعُ مَا يُصْعَدُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ وَمِنْهَا يَنْزِلُ مَا يُهْبَطُ بِهِ إِلَيْهَا، ثَبَتَ مَعْنَى ذَلِكَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ. وَالْهَاءُ فِي ﴿ مِقْدَارُهُۥ ﴾ رَاجِعَةٌ إِلَى التَّدْبِيرِ، وَالْمَعْنَى: كَانَ مِقْدَارُ ذَلِكَ التَّدْبِيرِ أَلْفَ سَنَةٍ مِنْ سِنِي الدُّنْيَا، أَيْ يقضي أمر كل شي لِأَلْفِ سَنَةٍ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يُلْقِيهِ إِلَى مَلَائِكَتِهِ، فَإِذَا مَضَتْ قَضَى لِأَلْفِ سَنَةٍ أُخْرَى،

(١) انظر : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (٢٥/ ١٤٠) .

ثمَّ كَذَلِكَ أَبَدًا، قَالَهُ مُجَاهِدٌ. وَقِيلَ: الْهَاءُ لِلْعُرُوجِ. وَقِيلَ: الْمَعْنَى أَنَّهُ يُدَبِّرُ أَمْرَ الدُّنْيَا إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، ثمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرُ فَيَحْكُمُ فِيهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ" (١) .

وقال الإمام البيضاوي (٦٨٥هـ) : ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ الأمر كلّه يوم القيامة. وقيل : يدبِّر المأمور به من الطَّاعات منزلاً من السَّماء إلى الأرض بالوحي، ثمَّ لا يعرج إليه خالصاً كما يرتضيه إلَّا في مدَّة متطاولة لقلَّة المخلصين والأعمال الخلص " (٢) .

وقال الإمام النَّسفي (٧١٠هـ) : ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ ذلك الأمر كلّه ، أي : يصير إليه ليحكم فيه ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، وهو يوم القيامة ﴿ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ من أيَّام الدُّنيا ، ولا تمسّك للمشبَّهة بقوله : ﴿ إِلَيْهِ﴾ في إثبات الجهة ، لأنَّ معناه : إلى حيث يرضاه أو أمره ، كما لا تشبّث لهم بقوله : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ ، ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ " (٣) .

وقال الإمام ابن جزي الكلبي الغرناطي (٧٤١هـ) : ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال ابن عبَّاس: المعنى ينفذ الله ما قضاه من السَّماء إلى الأرض، ثمَّ يعرج إليه خبر ذلك في يوم من أيَّام الدُّنيا مقداره لو سير فيه السَّير المعروف من البشر ألف سنة ، لأنَّ ما بين السَّماء والأرض خمسمائة عام، فالألف ما بين نزول الأمر إلى الأرض وعروجه إلى السَّماء، وقيل: إنَّ الله يلقى إلى الملائكة أمور ألف سنة من أعوام البشر وهو يوم من أيَّام الله، فإذا فرغت ألقى إليهم مثلها، فالمعنى : أنَّ الأمور تنفذ عنده لهذه المدَّة، ثمَّ تصير إليه آخراً ، لأنَّ عاقبة الأمور إليه " (٤) .

وقال الإمام الخازن (٧٤١هـ) : ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي : يرجع الأمر والتَّدبير إليه بعد فناء الدُّنيا وانقطاع أمر الآمر وحكم الحاكم في يوم كان مقداره ألف سنة وهو يوم القيامة " (٥) .

وقال الإمام أبو حيَّان الأندلسي (٧٤٥هـ) : ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أَيْ يصعد، خبر ذلك فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا، مِقْدَارُهُ: أَنْ لَوْ سِيرَ فِيهِ السَّيْرَ الْمَعْرُوفَ مِنَ الْبَشَرِ أَلْفَ سَنَةٍ، لِأَنَّ مَا بَيْنَ السَّماء وَالْأَرْضِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ أَيْضًا: الضَّمِيرُ فِي مِقْدَارُهُ عَائِدٌ عَلَى التَّدْبِيرِ، أَيْ كَانَ مِقْدَارُ التَّدْبِيرِ الْمُنْقَضِي فِي يَوْمٍ أَلْفَ سَنَةٍ لَوْ دَبَّرَهُ

---

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٨٦) .

(٢) انظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٤/ ٢٢٠) .

(٣) انظر : تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) (٣/ ٦) .

(٤) انظر : التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ١٤١) .

(٥) انظر : تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل (٥/ ٢٢١) .

الْبَشَرُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ أَيْضًا: يُدَبِّرُ وَيُلْقِي إِلىٰ الْمَلَائِكَةِ أُمُورَ أَلْفِ سَنَةٍ مِنْ عِنْدِنَا، وَهُوَ الْيَوْمُ عِنْدَهُ، فَإِذَا فَرَغَتْ أَلْقَى إِلَيْهِمْ مِثْلَهَا. فَالْمَعْنَىٰ: أَنَّ الْأُمُورَ تُنَفَّذُ عَنْهُ لِهَذِهِ الْمُدَّةِ وَتَصِيرُ إِلَيْهِ آخِرًا، لِأَنَّ عَاقِبَةَ الْأُمُورِ إِلَيْهِ. وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ يُدَبِّرُهُ فِي الدُّنيا إِلىٰ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، فَيَنْزِلُ الْقَضَاءُ وَالْقَدَرُ، ثمَّ تَعْرُجُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمِقْدَارُهُ مَا ذُكِرَ لِيَحْكُمَ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ، حَيْثُ يَنْقَطِعُ أَمْرُ الْأُمَرَاءِ، أَوْ أَحْكَامُ الْحُكَّامِ، وَيَنْفَرِدُ بِالْأَمْرِ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ بِأَلْفِ سَنَةٍ، وَهُوَ عَلىٰ الكفار قدر خمسين أَلْفِ سَنَةٍ حَسْبَمَا فِي سُورَةِ سَأَلَ سَائِلٌ، وَتَأْتِي الْأَقْوَالُ فِيهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ. وَقِيلَ : يَنْزِلُ الْوَحْيُ مَعَ جِبْرِيلَ مِنَ السَّماء إِلىٰ الْأَرْضِ، ثمَّ يَرْجِعُ إِلىٰ مَا كَانَ مِنْ قَبُولِ الْوَحْيِ أَوْ رَدِّهِ مَعَ جِبْرِيلَ، وَذَلِكَ فِي وَقْتٍ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ أَلْفُ سَنَةٍ، لِأَنَّ الْمَسَافَةَ مَسِيرَةُ أَلْفِ سَنَةٍ فِي الْهُبُوطِ وَالصُّعُودِ، لِأَنَّ مَا بَيْنَ السَّماء وَالْأَرْضِ مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَهُوَ يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِكُمْ لِسُرْعَةِ جِبْرِيلَ، لأَنَّه يَقْطَعُ مَسِيرَةَ أَلْفِ سَنَةٍ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ. قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: وَبِدَايَةُ الْأَمْرِ الْمَأْمُورِ بِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، يُنْزِلُهُ مُدَبَّرًا مِنَ السَّماء إِلىٰ الْأَرْضِ، ثمَّ لَا يُعْمَلُ بِهِ، وَلَا يَصْعَدُ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْمَأْمُورُ بِهِ خَالِصًا كَما يُرِيدُهُ وَيَرْتَضِيهِ، إِلَّا فِي مُدَّةٍ مُتَطَاوِلَةٍ، لِقِلَّةِ الْأَعْمَالِ للهِ وَالْخُلُوصِ مِنْ عِبَادِهِ، وَقِلَّةِ الْأَعْمَالِ الصَّاعِدَةِ، لأنَّه لَا يُوصَفُ بِالصُّعُودِ إِلَّا الْخَالِصُ، وَدَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ عَلىٰ أَثَرِهِ: قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ . انْتَهىٰ .

وَقِيلَ : يُدَبِّرُ أَمْرَ الشَّمْسِ فِي طُلُوعِهَا مِنَ الْمَشْرِقِ وَغُرُوبِهَا فِي الْمَغْرِبِ، وَمَدَارِهَا فِي الْعَالَمِ مِنَ السَّماء إِلىٰ الْأَرْضِ، لِأَنَّهَا عَلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ تَطْلُعُ إِلىٰ أَنْ تَغْرُبَ، وَتَرْجِعَ إِلىٰ مَوْضِعِهَا مِنَ الطُّلُوعِ فِي يَوْمٍ مِقْدَارُهُ فِي الْمَسَافَةِ أَلْفُ سَنَةٍ. وَالضَّمِيرُ فِي إِلَيْهِ عَائِدٌ إِلىٰ السَّمَاءِ، لِأَنَّهَا تُذَكَّرُ ، وَقِيلَ : إِلىٰ اللهِ .

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَابِطٍ : يُدَبِّرُ أَمْرَ الدُّنيا أَرْبَعَةٌ : جِبْرِيلُ لِلرِّيَاحِ وَالْجُنُودِ، وَمِيكَائِيلُ لِلْقَطْرِ وَالْمَاءِ، وَمَلَكُ الموت لقبض الأرواح، وإسرافيل لِنُزُولِ الْأَمْرِ عَلَيْهِمْ.

وَقِيلَ: الْعَرْشُ مَوْضِعُ التَّدْبِيرِ، وَمَا دُونَهُ مَوْضِعُ التَّفْصِيلِ، وَمَا دون السَّموات مَوْضِعُ التَّعْرِيفِ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: الْأَمْرُ: الْوَحْيُ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: الْقَضَاءُ. وَقَالَ غَيْرُهُمَا: أَمْرُ الدُّنيا " (١) .

وقال الإمام ابن كثير (٧٧٤هـ) : " وَقَوْلُهُ: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ أَيْ: يَتَنَزَّلُ أَمْرُهُ مِنْ أَعْلَىٰ السَّموات إِلىٰ أَقْصَىٰ تُخُومِ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ، كَما قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمَۢا﴾ [الطَّلَاقِ: ١٢] . وَتُرْفَعُ الْأَعْمَالُ إِلىٰ دِيوَانِهَا فَوْقَ سَمَاءِ الدُّنْيَا ..." (٢) .

---

(١) انظر : البحر المحيط في التفسير (٨/ ٤٣٠-٤٣١) .

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٥٩) .

وقال الإمام ابن عادل الحنبلي (٧٧٥هـ) : " قوله:﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ لما بين الخلق بين الأمر ، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] يحكم الأمر، وينزل القضاء، والقدر من السَّماء إلىٰ الأرض. وقيل: ينزل الوحي مع جبريل – عليه السَّلام – بالأمر.

قوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ ... المعنىٰ: أنَّ أمره ينزل من السَّماء علىٰ عباده ويعرج إليه أعمالهم الصَّالحة الصَّادرة علىٰ موافقة ذلك الأمر " (١) .

وقال الإمام محمَّد بن عبد الرَّحمن الإيجي (٩٠٥هـ) : ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ ذلك الأمر كلّه، أي: يصير إلىٰ الله لأن يحكم فيه " (٢) .

وقال الإمام أبو السُّعود العمادي (٩٨٢هـ) : ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ أي يثبت في علمِه موجوداً بالفعل .

﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أي في بُرهةٍ من الزَّمان متطاولةٍ والمرادُ بيانُ طول امتدادِ ما بين تدبيرِ الحوادث وحدوثِها من الزَّمان ، وقيل : يدبِّر أمرَ الحوادثِ اليوميَّةِ بإثباتها في اللَّوحِ المحفوظِ فينزِلَ بها الملائكةُ ثمَّ تعرجُ إليه في زمانٍ هو كألف سنة ممَّا تعدُّون فإنَّ ما بين السَّماء والأرض مسيرةُ خمسمائةِ عامٍ ، وقيل : يقضي قضاءَ ألفِ سنةٍ فينزل به المَلَكُ ثمَّ يعرج بعد الألفِ لألفٍ أُخرَ ، وقيل : يدبِّر أمرَ الدُّنيا جميعاً إلىٰ قيامِ السَّاعةِ ثمَّ يعرج إليه الأمرُ كلُّه عند قيامها ، وقيل : يدبِّرُ المأمور به من الطَّاعاتِ منزلاً من السَّماء إلىٰ الأرض بالوحي ثمَّ لا يعرجُ إليه خالصاً إلَّا في مدَّة متطاولة المخلصين والأعمال الخلَّص ، وأنت خبيرٌ بأنَّ قلَّةَ الأعمال الخالصةِ لا تقتضي بطءَ عروجِها إلىٰ السَّماء بل قِلَّتَه " (٣) .

وقال الإمام إسماعيل حقي بن مصطفىٰ الإستانبولي (١١٢٧هـ) : ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ العروج : ذهاب في صعود من عرج بفتح الرَّاء يعرج بضمِّها صعد ، أي : يصعد ذلك الأمر إليه تعالىٰ ويثبت في علمه موجوداً بالفعل ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أي : في برهة من الزَّمان متطاولة ، والمراد : بيان طول امتداد ما بين تدبير الحوادث وحدوثها من الزَّمان " (٤) .

وقال الإمام ابن عجيبة الحسني (١٢٢٤هـ) : ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ ذلك الأمر، فيحكم فيه في يوم كان مقداره ألف سنة، أو خمسين ألف سنة. فقد قيل: إنَّ مواقف يوم القيامة خمسون موقفاً، كلّ موقف ألف سنة. وقد حكىٰ

(١) انظر : اللباب في علوم الكتاب (١٥/ ٤٧٤) .

(٢) انظر : تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن (٣/ ٣٢٧) .

(٣) انظر : تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم) (٧/ ٨٠) .

(٤) انظر : روح البيان (٧/ ١٠٨) .

هذا ابن عطيَّة، فقال: يُدبِّر الأمر في مدَّة الدُّنيا، ثمَّ يعرج إليه يوم القيامة. وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ: مقداره ألف سنة من عَدِّنا. وهو على الكفَّار قدر خمسين ألف سنة لِهوله، حسبما في سورة المعارج . أهـ.
قلت: والتَّحقيق، في الفرق بين الآيتين، أنَّ الحقَّ تعالى، حيث لم يختص بمكان دون مكان، وكانت الأمكنة في حقِّه تعالى كلّها واحدة، وهو موجود معها وفيها بعلمه وأسرار ذاته، كان العروج إنَّما هو إليه على كلِّ حال، بعدت المسافة أو قربت. لكن لَمَّا علقَ العروج بتدبير الأمور وتنفيذها، قرّب المسافة ليعلم العبد أنَّ القضاء نافذ فيه بسرعة. ولَمَّا عَلَّقَ عروج الملائكة والرُّوح إلى مطلق الذَّات المقدَّسة بَعَّدَ المسافة زيادة في علوِّ شأنه ورفعة قدره " (١) .

وقال الإمام المظهري ، محمَّد ثناء الله (١٢٢٥هـ) : ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ إذ معناه يحكم الله تعالى بالأمر وينزل به جبرئيل من السَّماء إلى الأرض ثمَّ يعرج اليه جبرئيل في يوم من أيَّام الدُّنيا ، وكان قدر سيره ألف سنة خمسمائة سنة نزوله وخمسمائة عروجه ، لأنَّ ما بين السَّماء والأرض خمسمائة عام ، يعني لو سار تلك المسافة واحد من بني آدم لم يقطعه إلَّا في الف سنة لكن الملائكة يقطعون في يوم واحد بل في أدنى زمان " (٢) .

وقال الإمام محمَّد بن علي الشَّوكاني اليمني (١٢٥٠هـ) :﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أَيْ: ثمَّ يَرْجِعُ ذَلِكَ الْأَمْرُ وَيَعُودُ ذَلِكَ التَّدْبِيرُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فِي يَوْمٍ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ بِاعْتِبَارِ مَسَافَةِ النُّزُولِ مِنَ السَّمَاءِ، وَالطُّلُوعِ مِنَ الْأَرْضِ كَمَا قَدَّمْنَا. وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ أَنَّه يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّذِي مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ حِينَ يَنْقَطِعُ أَمْرُ الدُّنْيَا، وَيَمُوتُ مَنْ فِيهَا. وَقِيلَ: هِيَ أَخْبَارُ أَهْلِ الْأَرْضِ تَصْعَدُ إِلَيْهِ مَعَ مَنْ يُرْسِلُهُ إِلَيْهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّه يُثْبِتُ ذَلِكَ عِنْدَهُ، وَيَكْتُبُ فِي صُحُفِ مَلَائِكَتِهِ مَا عَمِلَهُ أَهْلُ الْأَرْضِ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ إلى أَنْ تَبْلُغَ مُدَّةُ الدُّنيا آخِرَهَا. وَقِيلَ: مَعْنَى يَعْرُجُ إِلَيْهِ: يَثْبُتُ فِي عِلْمِهِ مَوْجُودًا بِالْفِعْلِ فِي بُرْهَةٍ مِنَ الزَّمَانِ هِيَ مِقْدَارُ أَلْفِ سَنَةٍ، وَالْمُرَادُ طُولُ امْتِدَادِ مَا بَيْنَ تَدْبِيرِ الْحَوَادِثِ، وَحُدُوثِهَا مِنَ الزَّمَانِ، وَقِيلَ: يُدَبِّرُ أَمْرَ الْحَوَادِثِ الْيَوْمِيَّةِ بِإِثْبَاتِهَا فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ فَتَنْزِلُ بِهَا الْمَلَائِكَةُ، ثمَّ تَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي زَمَانٍ هُوَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا. وَقِيلَ: يَقْضِي قَضَاءَ أَلْفِ سَنَةٍ فَتَنْزِلُ بِهِ الْمَلَائِكَةُ، ثمَّ تَعْرُجُ بَعْدَ الْأَلْفِ لِأَلْفٍ آخَرَ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ أَنَّ الْأَعْمَالَ الَّتِي هِيَ طَاعَاتٌ يُدَبِّرُهَا اللهُ سُبْحَانَهُ، وينزل بها ملائكته، ثمَّ لا يعرج إليه مِنْهَا إِلَّا الْخَالِصُ بَعْدَ مُدَّةٍ مُتَطَاوِلَةٍ لِقِلَّةِ الْمُخْلِصِينَ مِنْ عِبَادِهِ. وَقِيلَ:

---

(١) انظر : البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٤/ ٣٨٧) .

(٢) انظر : التفسير المظهري (١٠/ ٦٢) .

الضَّمِيرُ فِي يَعْرُجُ يَعُودُ إِلَى الْمَلِكِ وَإِنْ لَمْ يَجْرِ لَهُ ذِكْرٌ لأَنَّه مَفْهُومٌ مِنَ السِّيَاقِ، وَقَدْ جَاءَ صَرِيحًا فِي قَوْلِهِ: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾، وَالضَّمِيرُ فِي إِلَيْهِ يَرْجِعُ إِلَى السَّماء عَلَىٰ لُغَةِ مَنْ يَذْكُرُهَا، أَوْ إِلَى مَكَانِ الْمَلِكِ الَّذِي يَرْجِعُ إِلَيْهِ، وَهُوَ الَّذِي أَقَرَّهُ اللهُ فِيهِ. وَقِيلَ الْمَعْنَى: يُدَبِّرُ أَمْرَ الشَّمْسِ فِي طُلُوعِهَا وَغُرُوبِهَا، وَرُجُوعِهَا إِلَى مَوْضِعِهَا مِنَ الطُّلُوعِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ فِي الْمَسَافَةِ أَلْفَ سَنَةٍ. وَقِيلَ الْمَعْنَى: أَنَّ الْمَلَكَ يَعْرُجُ إِلَى اللهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ لَوْ سَارَهُ غَيْرُ الْمَلِكِ أَلْفَ سَنَةٍ، لأَنَّ مَا بَيْنَ السَّماء وَالْأَرْضِ مَسَافَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، فَمَسَافَةُ النُّزُولِ مِنَ السَّماء إِلَى الْأَرْضِ، وَالرُّجُوعِ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى السَّماء أَلْفُ عَامٍ، وَقَدْ رَجَّحَ هَذَا جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مِنْهُمُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقِيلَ: مَسَافَةُ النُّزُولِ أَلْفُ سَنَةٍ، وَمَسَافَةُ الطُّلُوعِ أَلْفُ سَنَةٍ، رُوِيَ ذَلِكَ عَنِ الضَّحَّاكِ. وَهَذَا الْيَوْمُ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ زَمَانٍ يَتَقَدَّرُ بِأَلْفِ سَنَةٍ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ مُسَمَّى الْيَوْمِ الَّذِي هُوَ مُدَّةُ النَّهَارِ بَيْنَ لَيْلَتَيْنِ، وَالْعَرَبُ قَدْ تُعَبِّرُ عن المدة باليوم " (١) .

وقال الإمام الألوسي (١٢٧٠هـ) : " والعروج إليه تعالى : الصَّيرورة إليه سبحانه لا ليثبت في صحف الملائكة بل ليحكم جلَّ وعلا فيه.

وفِي يَوْمٍ متعلق بالعروج ولا تنازع، والمراد بيوم مقداره كذا يوم القيامة، ولا ينافي هذا قوله تعالى: ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: ٤] بناء على أحد الوجهين فيه لتفاوت الاستطالة على حسب الشدَّة أو لأنَّ ثمَّ خمسين موطناً كلُّ موطن ألف سنة، وقيل: المعنى ينزل الوحي مع جبريل عليه السَّلام من السَّماء إلى الأرض ثمَّ يرجع إليه تعالى ما كان من قبوله أو ردِّه مع جبريل عليه السَّلام في يوم مقدار مسافة السَّير فيه ألف سنة وهو ما بين السَّماء والأرض هبوطاً وصعوداً، فالأمر عليه مراد به الوحي كما في قوله تعالى: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ ﴾ [غافر: ١٥] والعروج إليه تعالى عبارة عن خبر القبول والرَّد مع عروج جبريل عليه السَّلام والتَّدبير والعروج في اليوم لكن على التَّوسُّع والتَّوزيع ، فالفعلان متنازعان في الظَّرف ولكن لا اختلاف في الصِّلة ، ولا تنافي الآية على هذا قوله تعالى شأنه: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤] بناء على الوجه الآخر فيه ، وستعرفهما إن شاء الله تعالى ، لأنَّ العروج فيه إلى العرش وفيها إلى السَّماء الدُّنيا وكلاهما عروج إلى الله تعالى على التَّجوُّز.

وقيل: المراد بالأمر المأمور به من الطَّاعات والأعمال الصَّالحات، والمعنى ينزل سبحانه ذلك مدبِّراً من السَّماء إلى الأرض ثمَّ لا يعمل به ولا يصعد إليه تعالى ذلك المأمور به خالصاً يرتضيه إلَّا في مدَّة متطاولة لقلَّة الخلَّص من العباد وعليه ﴿ يُدَبِّرُ ﴾ مضمن معنى الإنزال ومن وإلى متعلّقان به، ومعنى العروج :

(١) انظر : فتح القدير (٤/ ٢٨٦) .

الصُّعود كما في قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] والغرض من الألف استطالة المدَّة، والمعنى استقلال عبادة الخلَّص واستطالة مدَّة ما بين التَّدبير والوقوع، وثُمَّ للاستبعاد، واستدلَّ لهذا المعنى بقوله تعالى إثر ذلك: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠، المؤمنون: ٧٨، السجدة: ٩] لأنَّ الكلام بعضه مربوط بالبعض وقلَّة الشُّكر مع وجود تلك الإنعامات دالَّة على الاستقلال المذكور.

وقيل: المعنى : يدبِّر أمور الشمس في طلوعها من المشرق وغروبها في المغرب ومدارها في العالم من السَّماء إلى الأرض وزمان طلوعها إلى أن تغرب وترجع إلى موضعها من الطُّلوع مقداره في المسافة ألف سنة وهي تقطع ذلك في يوم وليلة. هذا ما قالوه في الآية الكريمة في بيان المراد منها، ولا يخفى على ذي لبٍّ تكلُّف أكثر هذه الأقوال ومخالفته للظَّاهر جداً ، وهي بين يديك فاختر لنفسك ما يحلو، ويظهر لي أنَّ المراد بالسَّماء جهة العلو ، مثلها في قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦] وبعروج الأمر إليه تعالى صعود خبره ، كما سمعت عن الجماعة وفي ﴿يَوْمٍ﴾ متعلِّق بالعروج بلا تنازع، وأقول: إنَّ الآية من المتشابه ، وأعتقد أنَّ الله تعالى يدبِّر أمور الدُّنيا وشؤونها ، ويريدها متقنة ، وهو سبحانه مستو على عرشه ، وذلك هو التَّدبير من جهة العلو ، ثمَّ يصعد خبر ذلك مع الملك إليه عزَّ وجلَّ إظهاراً لمزيد عظمته جلَّت عظمته وعظيم سلطنته عظمت سلطنته إلى حكم هو جلَّ وعلا أعلم بها ، وكلّ ذلك بمعنى لائق به تعالى مجامع للتَّنزيه مباين للتَّشبيه حسبما يقوله السَّلف في أمثاله، وقول بعضهم: العرش موضع التَّدبير وما دونه موضع التَّفصيل ، وما دون السَّماوات موضع التَّصريف فيه رائحة ما ممَّا ذكرنا " (١) .

وقال الإمام أحمد بن مصطفى المراغي (١٣٧١هـ) : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ تدبير الأمر: النَّظر في دابره وعاقبته ليجيء محمود المغبّة، وتدبير الأمر من السَّماء إلى الأرض، ثمَّ عروجه إليه، تمثيل لإظهار عظمته، كما يصدر الملك أوامره، ثمَّ يتلقَّى من أعوانه ما يدلُّ على تنفيذها " (٢) .

وقال الشَّهيد سيِّد قطب إبراهيم حسين الشَّاربي (١٣٨٥هـ) : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ والتَّعبير يرسم مجال التَّدبير منظوراً واسعاً شاملاً: ﴿ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ ليلقي على الحس البشري الظِّلال التي يطيقها ويملك تصوّرها ويخشع لها. وإلَّا فمجال تدبير الله أوسع وأشمل من السَّماء إلى الأرض.

---

(١) انظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١١/ ١١٩-١٢٠) .

(٢) انظر : تفسير المراغي (٢١/ ١٠٥) .

ولكن الحسَّ البشري حسبه الوقوف أمام هذا المجال الفسيح، ومتابعة التَّدبير شاملاً لهذه الرُّقعة الهائلة التي لا يعرف حتىٰ الأرقام التي تحدِّد مداها! ثمَّ يرتفع كلّ تدبير وكلّ تقدير بمآله ونتائجه وعواقبه. يرتفع إليه سبحانه في علاه في اليوم الذي قدره لعرض مآلات الأعمال والأقوال، والأشياء والأحياء ﴿ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ ... وليس شيء من هذا كلّه متروكاً سدىً ولا مخلوقاً عبثاً، إنَّما يدبِّر بأمر الله إلىٰ أجل مرسوم ... يرتفع. فكلُّ شيء وكلُّ أمر وكلُّ تدبير وكلُّ مآل هو دون مقام الله ذي الجلال، فهو يرتفع إليه أو يرفع بإذنه حين يشاء " (١) .

وقال الإمام محمَّد الطَّاهر عاشور التُّونسي (١٣٩٣هـ) : " ... وَالْعُرُوجُ: الصُّعُودُ. وَضَمِيرُ يَعْرُجُ عَائِدٌ عَلَىٰ الْأَمْرِ، وَتَعْدِيَتُهُ بِحَرْفِ الِانْتِهَاءِ مُفِيدَةٌ أَنَّ تِلْكَ الْأُمُورَ الْمُدَبَّرَةَ تَصْعَدُ إِلىٰ اللهَّ تَعَالَىٰ فَالْعُرُوجُ هُنَا مُسْتَعَارٌ لِلْمَصِيرِ إِلىٰ تَصَرُّفِ الْخَالِقِ دُونَ شَائِبَةِ تَأْثِيرٍ مِنْ غَيْرِهِ وَلَوْ فِي الصُّورَةِ كَمَا فِي الدُّنيا مِنْ تَأْثِيرِ الْأَسْبَابِ. وَلَمَّا كَانَ الْجَلَالُ يُشَبَّهُ بِالرِّفْعَةِ فِي مُسْتَعْمَلِ الْكَلَامِ شُبِّهَ الْمَصِيرُ إِلىٰ ذِي الْجَلَالِ بِانْتِقَالِ الذَّوَاتِ إِلىٰ الْمَكَانِ الْمُرْتَفِعِ وَهُوَ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ فِي اللُّغَةِ بِالْعُرُوجِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر: ١٠] ، أَيْ: يَرْفَعُهُ إِلَيْهِ.

وثُمَّ لِلتَّرَاخِي الرُّتْبِيِّ لِأَنَّ مَرْجِعَ الْأَشْيَاءِ إِلىٰ تَصَرُّفِهِ بَعْدَ صُدُورِهَا مِنْ لَدُنْهُ أَعْظَمُ وَأَعْجَبُ.

وَقَدْ أَفَادَ التَّرْكِيبُ أَنَّ تَدْبِيرَ الْأُمُورِ مِنَ السَّماء إِلىٰ الْأَرْضِ مِنْ وَقْتِ خَلْقِهِمَا وَخَلْقِ مَا بَيْنَهُمَا يَسْتَقِرُّ عَلَىٰ مَا دُبِّرَ عَلَيْهِ كُلٌّ بِحَسَبِ مَا يَقْتَضِيهِ حَالُ تَدْبِيرِهِ مِنِ اسْتِقْرَارِهِ، وَيَزُولُ بَعْضُهُ وَيَبْقَىٰ بَعْضُهُ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، ثمَّ يَجْمَعُ ذَلِكَ كُلَّهُ فَيَصِيرُ إِلىٰ اللهَّ مَصِيرًا مُنَاسِبًا لِحَقَائِقِهِ فَالذَّوَاتُ تَصِيرُ مَصِيرَ الذَّوَاتِ وَالْأَعْرَاضُ وَالْأَعْمَالُ تَصِيرُ مَصِيرَ أَمْثَالِهَا، أَيْ: يَصِيرُ وَصْفُهَا وَوَصْفُ أَصْحَابِهَا إِلىٰ عِلْمِ اللهَّ وَتَقْدِيرِ الْجَزَاءِ، فَذَلِكَ الْمَصِيرُ هُوَ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْعُرُوجِ إِلىٰ اللهَّ فَيَكُونُ الْحِسَابُ عَلَىٰ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ يَوْمَئِذٍ " (٢) .

وقال الإمام محمَّد متولي الشَّعراوي (١٤١٨هـ) : ﴿ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾ [السجدة: ٥] فالله سبحانه يرسل إلىٰ الأرض ، ثمَّ يستقبل منها ؛ لأنَّ المدبِّرات أمراً من الملائكة لكلّ منهم عمله واختصاصه ، وهذه المسألة نسمِّيها في عالمنا عمليَّة المتابعة عند البشر ، فرئيس العمل يكلِّف مجموعة من موظَّفيه بالعمل ، ثمَّ لا يتركهم إنَّما يتابعهم ليستقيم العمل ، بل ويحاسبهم كلاً بما يستحق .

---

(١) انظر : في ظلال القرآن (٥/ ٢٨٠٧-٢٨٠٨) .

(٢) انظر : التحرير والتنوير (تحرير المعنىٰ السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) (٢١/ ٢١٢-٢١٣) .

والملائكة هي التي تعرج بالنَّتائج إليه سبحانه ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة: ٥] فالعود سيكون للملائكة ، وخَطْو الملائكة ليس كخَطْوِك ؛ لذلك الذي يعمله البشر في ألف سنة تعمله الملائكة في يوم " (١) .

سَابِعَاً :مِنَ الآيَاتِ التِيْ يَسْتَدِلُّوْنَ بِهَا عَلَى العُلُوِّ الحِسِّيِّ المَكَانِي لله تَعَالَى : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج:٤] .

والنَّاظر فيما قاله علماء الأمَّة في معنى العروج إليه الوارد في الآية يجد أنَّ جمهورهم ذهب إلى ما يُخالف ما ذهب إليه المجسِّمة الذين ذهبوا إلى تفسير العروج بالصُّعود إلى الله تعالى ، والعياذ بالله تعالى ...

فمن أشهر المعاني التي ذكرها العلماء للعروج إليه الوارد في الآية :

قال الإمام ابن بطَّال (٤٤٩هـ) : " غرضه في هذا الباب ردّ شبهة الجهميَّة المجسِّمة في تعلُّقها بظاهر قوله: ﴿ ذِى ٱلْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج:٣-٤] ، وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] ، وما تضمَّنته أحاديث الباب من هذا المعنى، وقد تقدَّم الكلام في الرَّدِّ عليهم وهو أنَّ الدلائل الواضحة قد قامت على أنَّ الباري تعالى ليس بجسم ولا محتاجًا إلى مكان يحلّه ويستقرّ فيه؛ لأنَّه تعالى قد كان ولا مكان وهو على ما كان، ثمَّ خلق المكان فمحال كونه غنيَّاً عن المكان قبل خلقه إيَّاه، ثمَّ يحتاج إليه بعد خلقه له هذا مستحيل، فلا حجَّة لهم في قوله: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ لأنَّه إنَّما أضاف المعارج إليه إضافة فعل، وقد كان لا فعل له موجود، وقد قال ابن عبَّاس في قوله: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ : هو بمعنى: العلو والرِّفعة ... وإذا صحَّ ذلك وجب صرف هذا عن ظاهره وإجراؤه على المجاز؛ لبطلان إجرائه على الحقيقة، فوجب أن يكون تأويل قوله: ﴿ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ رفعته واعتلاؤه على خليقته وتنزيهه عن الكون في جهة؛ لأنَّ في ذلك ما يوجب كونه جسمًا تعالى الله عن ذلك، وأمَّا وصف الكلام بالصُّعود إليه فمجاز أيضًا واتِّساع؛ لأنَّ الكلم عَرَض والعَرَض لا يصحُّ أن يفعل؛ لأنَّ من شرط الفاعل كونه حيًا قادرًا عالمًا مريدًا، فوجب صرف الصُّعود المضاف إلى الكلم إلى الملائكة الصَّاعدين به " (٢) .

---

(١) انظر : تفسير الشعراوي (١١/ ١١٧٩٧) .

(٢) انظر : شرح صحيح البخارى لابن بطال (١٠/ ٤٥٣-٤٥٤) .

وقال الإمام الواحدي النَّيسابوري (٤٦٨هـ) : " وقوله: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج: ٤] أي: إلى الموضع الذي لا يجري لأحد سواه فيه حكم، فجعل عروجهم إلى ذلك الموضع عروجًا إليه، كقول إبراهيم: ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ [الصافات: ٩٩] أي: إلى حيث أمرني ربِّي بالذَّهاب إليه " (١) .

وقال أيضاً : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ يعني: جبريل عليه السَّلام ﴿ إِلَيْهِ ﴾ إلى محلِّ قُربته وكرامته وهو السَّماء "(٢) .

وقال الإمام الزَّمخشري (٥٣٨هـ) : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ إلى عرشه وحيث تهبط منه أوامره " (٣) .

وقال الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) : " ... الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: احْتَجَّ الْقَائِلُونَ بِأَنَّ اللهَّ فِي مَكَانٍ، إِمَّا فِي الْعَرْشِ أَوْ فَوْقَهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ مِنْ وَجْهَيْنِ: الْأَوَّلُ: أَنَّ الْآيَةَ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ اللهَّ تَعَالَى مَوْصُوفٌ بِأَنَّهُ ذُو الْمَعَارِجِ وَهُوَ إِنَّمَا يَكُونُ كَذَلِكَ لَوْ كَانَ فِي جِهَةِ فَوْقٍ ، وَالثَّانِي: قَوْلُهُ: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ فَبَيَّنَ أَنَّ عُرُوجَ الْمَلَائِكَةِ وَصُعُودَهُمْ إِلَيْهِ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي كَوْنَهُ تَعَالَى فِي جِهَةِ فَوْقٍ وَالْجَوَابُ: لَمَّا دَلَّتِ الدَّلَائِلُ عَلَى امْتِنَاعِ كَوْنِهِ فِي الْمَكَانِ وَالْجِهَةِ ثَبَتَ أَنَّه لَا بُدَّ مِنَ التَّأْوِيلِ، فَأَمَّا وَصْفُ اللهَّ بِأَنَّهُ ذُو الْمَعَارِجِ فَقَدْ ذَكَرْنَا الْوُجُوهَ فِيهِ، وَأَمَّا حَرْفُ (إِلَى) فِي قَوْلِهِ: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ فَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنْهُ الْمَكَانَ بَلِ الْمُرَادُ انْتِهَاءُ الْأُمُورِ إِلَى مُرَادِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ﴾ [هُودٍ: ١٢٣] الْمُرَادُ الِانْتِهَاءُ إِلَى مَوْضِعِ الْعِزِّ وَالْكَرَامَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ [الصَّافَّاتِ: ٩٩] وَيَكُونُ هَذَا إِشَارَةً إِلَى أَنَّ دَارَ الثَّوَابِ أَعْلَى الْأَمْكِنَةِ وَأَرْفَعُهَا " (٤) .

وقال الإمام أحمَدُ بنُ عُمَرَ القرطبيُّ (٦٥٦هـ) : " ... والهاء في ﴿ إِلَيْهِ ﴾ عائد إلى الله تعالى لكن على طريقة حذف المضاف ، والمراد به المحلّ الذي ينتهي إليه الملائكة بأعمال العباد ، ولعلَّه سدرة المنتهى ، كما تقدَّم في حديث الإسراء . وهذا كما تقول : رفع المال إلى الملك ؛ أي إلى خزانته. وعلى هذا يحمل قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ ، وقوله ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ ؛ أي : إلى مقاماتهم في حضرته ، وإنَّما احتجنا إلى إبداء هذا التَّأويل ؛ لئلَّا يتخيَّل الجاهل أنَّه مختصٌّ بجهة فوق فيلزمه التَّجسيم ، ويكفيك ممَّا يدلُّ على نفي الجهة في حقِّه قوله تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد:٤] ، وما في معناه" (٥) .

---

(١) انظر : الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٤/ ٣٥١) .

(٢) انظر : الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ١١٣١) .

(٣) انظر : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٦٠٩) .

(٤) انظر : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (٣٠/ ٦٣٩) .

(٥) انظر : المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣/ ٢٨) .

وقال الإمام أبو عبد الله محمد القرطبي (٦٧١هـ) : " قَوْلُهُ: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج: ٤] . وَالضَّمِيرُ فِي ﴿ إِلَيْهِ ﴾ يَعُودُ عَلَى السَّمَاءِ عَلَى لُغَةِ مَنْ يُذَكِّرُهَا، أَوْ عَلَى مَكَانِ الْمَلَكِ الَّذِي يَرْجِعُ إِلَيْهِ، أَوْ عَلَى اسْمِ اللهَّ تَعَالَى، وَالْمُرَادُ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي أَقَرَّهُ فِيهِ، وَإِذَا رَجَعَتْ إِلَى اللهَّ فَقَدْ رَجَعَتْ إِلَى السَّمَاءِ، أَيْ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، فَإِنَّهُ إِلَيْهَا يَرْتَفِعُ مَا يُصْعَدُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ وَمِنْهَا يَنْزِلُ مَا يُهْبَطُ بِهِ إِلَيْهَا، ثَبَتَ مَعْنَى ذَلِكَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ ...

وَذَكَرَ الثَّعْلَبِيُّ عَنْ مُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ وَالضَّحَّاكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ أَرَادَ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى الَّتِي فِيهَا جِبْرِيلُ. يَقُولُ تَعَالَى: يَسِيرُ جِبْرِيلُ وَالْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ مَقَامِهِ مَسِيرَةَ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا. وَقَوْلُهُ: ﴿ إِلَيْهِ ﴾ يَعْنِي إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي أَمَرَهُمُ اللهَّ تَعَالَى أَنْ يَعْرُجُوا إِلَيْهِ. وَهَذَا كَقَوْلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩] أَرَادَ أَرْضَ الشَّامِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا ﴾ [النساء: ١٠٠] أَيْ إِلَى الْمَدِينَةِ " (١) .

وقال الإمام النَّسفي (٧١٠هـ) : ﴿ إِلَيْهِ ﴾ إلى عرشه ومهبط أمره " (٢) .

قال الإمام ابن جماعة الكناني الحموي (٧٣٣هـ) : " فَإِن قيل ... قَوْله تَعَالَى ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾...قُلْنَا لَيْسَ المُرَاد بالغاية هُنَا غَايَة الْمَكَان بل غَايَة انْتِهَاء الْأُمُور إِلَيْهِ ، كَقَوْلِه تَعَالَى ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الشورى:٥٣] ، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود:١٢٣] ، وَقَول إِبْرَاهِيم الْخَلِيل عَلَيْهِ السَّلَام ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصافات:٩٩] ، ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾ [الزمر:٥٤] ، ... وَهُوَ كثير .

فَالْمُرَاد الِانْتِهَاء إِلَى مَا أعده لِعِبَادِهِ وَالْمَلَائِكَة من الثَّوَاب والكرامة والمنزلة " (٣) .

وقال أيضاً : " ... فَإِن قيل : قصَّة الْمِعْرَاج تدلُّ على الْجِهَة والحيِّز ، قُلْنَا : قصَّة الْمِعْرَاج أُرِيد بهَا وَالله أعلم أَن يرِيه الله تَعَالَى أَنْوَاع مخلوقاته وعجائب مصنوعاته فِي الْعَالم الْعلوِي والسُّفلي تكميلاً لصفاته وتحقيقاً لمشاهداته لآياته ، وَلذَلِك قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾ " (٤) .

وقال الإمام أَحْمد بن يحيى ابْن جهبل الْكلابِي (٧٣٣هـ) : " ... وَأتبعهُ بقوله تَعَالَى ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ ، والعروج والصُّعود شَيْء وَاحِد وَلَا دلَالَة فِي الْآيَة على أَنَّ العروج إِلَى سَمَاء وَلَا عرش وَلَا شَيْء من

---

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٨٦-٨٨) .

(٢) انظر : تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) (٣/ ٥٣٦) .

(٣) انظر : إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل، (ص١٠٥-١٠٦) .

(٤) انظر : إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل (ص١٠٥-١٠٦) .

الْأَشْيَاء الَّتِي ادَّعَاهَا بِوَجْه من الْوُجُوه ، لِأَنَّ حَقِيقَته المستعملة فِي لُغَة الْعَرَب فِي الِانْتِقَال فِي حقّ الْأَجْسَام إِذْ لَا تعرف الْعَرَب إِلَّا ذَلِك ، فليت لَو أظهره واستراح من كِتْمَانه " (١) .

وقال الإمام أبو حيَّان الأندلسي (٧٤٥هـ) : " الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، أَيْ إِلَى عَرْشِهِ وَحَيْثُ يَهْبِطُ مِنْهُ أَمْرُهُ تَعَالَى. وَقِيلَ: ﴿ إِلَيْهِ ﴾ ، أَيْ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي هُوَ مَحَلُّهُمْ وَهُوَ فِي السَّماء لِأَنَّهَا مَحَلُّ بِرِّهِ وَكَرَامَتِهِ " (٢) .

وقال الإمام ابن عادل الحنبلي (٧٧٥هـ) : " قوله: ﴿ إِلَيْهِ ﴾ ، أي: إلى المكان الذي هو محلهم، وهو في السماء؛ لأنَّه محلُّ برِّه وكرامته وقيل: هو كقول إبراهيم ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾[الصافات: ٩٩] ، أي: إلى الموضع الذي أمرني به. وقيل: ﴿ إِلَيْهِ ﴾ إلى عرشه.

قال شهاب الدِّين: الضَّمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ ، الظَّاهر عوده على الله تعالى. وقيل: يعود على المكان لدلالة الحال والسِّياق عليه " (٣) .

وقال الإمام ابن الملقِّن (٨٠٤هـ) : " ... وغرضه في هذا الباب ردّ شبهة الجهميَّة المجسِّمة في تعلُّقها بظاهر قوله تعالى ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ ، ... وما تضمَّنته أحاديث الباب، من هذا المعنى، وقد سلف الكلام في الرَّدِّ عليهم، وهو أنَّ الدَّلائل الواضحة قد قامت على أنَّ الباري تعالى ليس بجسم ولا محتاجًا إلى مكان يحلّه ويستقرّ فيه؛ لأنَّه تعالى قد كان ولا مكان وهو على ما كان، ثمَّ خلق المكان، فمحال كونه غنيًّا عن المكان قبل خلقه إيَّاه ثمَّ يحتاج إليه بعد خلقه له - هذا مستحيل- ولا حجَّة لهم في قوله: لأنَّه إنَّما أضاف المعارج إليه إضافة فعل، وقد كان ولا فعل له موجود، وقد قال ابن عبَّاس - رضي الله عنهما - في قوله: ﴿ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴾ هو بمعنى: العلو والرِّفعة.

وكذلك لا شبهة لهم في قوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ [فاطر: ١٠] ؛ لأنَّ صعود الكلم إليه تعالى لا يقتضي كونه في جهة العلو، إذ الباري تعالى لا تحويه جهة، إذ كان موجودًا ولا جهة، وإذا صحَّ ذلك وجب أن يكون تأويل قوله: ﴿ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴾ رفعته واعتلاؤه على خليقته وتنزيهه عن الكون في جهة؛ لأنَّ ذلك ما يوجب كونه جسمًا -تعالى الله عن ذلك- وإنَّما وصف الكلم بالصُّعود إليه (فمحال أيضًا وامتناع) ؛ لأنَّ

---

(١) انظر : طبقات الشافعية الكبرى (٩/ ٤٦-٤٧) .

(٢) انظر : البحر المحيط في التفسير (١٠/ ٢٧٢) .

(٣) انظر : اللباب في علوم الكتاب (١٩/ ٣٥٤) .

الكلم عَرَض، والعَرَض لا يفعل؛ لأنَّ من شرط الفاعل كونه حيًّا قادرًا عالمًا مريدًا، فوجب صرف الصُّعود المضاف إلى الكلم إلى الملائكة الصَّاعدين به " (١) .

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) : " وَعُرُوجُ الْمَلَائِكَةِ هُوَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ فِي السَّماء وَأَمَّا مَا وَقَعَ مِنَ التَّعْبِيرِ فِي ذَلِكَ بِقَوْلِهِ إِلَى اللهَّ فَهُوَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ عَنِ السَّلَفِ فِي التَّفْوِيضِ وَعَنِ الْأَئِمَّةِ بَعْدَهُمْ فِي التَّأْوِيلِ وَقَالَ بن بَطَّالٍ غَرَضُ الْبُخَارِيِّ فِي هَذَا الْبَابِ الرَّدُّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ الْمُجَسِّمَةِ فِي تَعَلُّقِهَا بِهَذِهِ الظَّوَاهِرِ وَقَدْ تَقَرَّرَ أَنَّ اللهَّ لَيْسَ بِجِسْمٍ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى مَكَانٍ يَسْتَقِرُّ فِيهِ فَقَدْ كَانَ وَلَا مَكَانَ وَإِنَّمَا أَضَافَ الْمَعَارِجَ إِلَيْهِ إِضَافَةَ تَشْرِيفٍ وَمَعْنَى الِارْتِفَاعِ إِلَيْهِ اعْتِلَاؤُهُ مَعَ تَنْزِيهِهِ عَنِ الْمَكَانِ انْتَهَى وَخَلْطُهُ الْمُجَسِّمَةَ بِالْجَهْمِيَّةِ مِنْ أَعْجَبِ مَا يُسْمَعُ " (٢) .

وقال الإمام أبو محمَّد محمود بن أحمد بن موسى الغيتابي الحنفي بدر الدِّين العيني (٨٥٥هـ) : " بابُ قَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ ، أَي: هَذَا بَاب فِي قَول الله عز وَجل: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ إِلَى آخِره، ذكر هَاتين القطعتين من الْآيَتَيْنِ الكريمتين وَأَرَادَ بِالْأولَى الرَّدّ على الْجَهْمِيَّة المجسِّمة فِي تعلقهم بظَاهِر قَوْله تَعَالَى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وَقد تقرَّر أَن الله لَيْسَ بجسم فَلَا يَحْتَاج إِلَى مَكَان يسْتَقرّ فِيهِ، فقد كَانَ وَلَا مَكَان وَإِنَّمَا أضَاف المعارج إِلَيْهِ إِضَافَة تشريف، والمعارج جمع معرج كالمصاعد جمع مصعد والعروج الارتقاء، يُقَال: عرج بِفَتْح الرَّاء يعرج بضَمهَا عروجاً ومعرجاً، والمعرج المصعد وَالطَّرِيق الَّذِي تعرج فِيهِ الْمَلَائِكَة إِلَى السَّماء، والمعراج شَبيه سلم أَو درج تعرج فِيهِ الْأَرْوَاح إِذا قبضت وَحَيْثُ تصعد أَعمال بني آدم. وَقَالَ الْفراء: المعارج من نعت الله وَوصف بذلك نَفسه لِأَنَّ الْمَلَائِكَة تعرج إِلَيْهِ. وَقيل: معنى قَوْله: ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ أَي: الفواضل الْعَالِيَة ...

وَأما الْآيَة الثَّانِيَة : فَردّ شبهتهم أَيْضاً ، لِأَنَّ صعُود الْكَلم إِلَيْهِ لَا يَقْتَضِي كَونه فِي جِهَة إِذْ الْبَارِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا تحويه جِهَة إِذْ كَانَ مَوْجُوداً وَلَا جِهَة، وَوصف الْكَلم بالصُّعود إِلَيْهِ مجَاز ، لِأَنَّ الْكَلم عرض وَالْعرض لَا يَصحّ أَن ينْتَقل " (٣) .

---

(١) انظر : التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٣٣/ ٣٠٧-٣٠٨) .

(٢) انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٣/ ٤١٦) .

(٣) انظر : عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٥/ ١١٧-١١٨) .

وقال الإمام أحمد بن إسماعيل الكوراني (٨٩٣ هـ) : " باب قوله تعالىٰ: ﴿ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ ﴾ معنىٰ عروج الملائكة إليه: عروجهم إلىٰ منازلهم بعد نزولهم لإمضاء ما أمروا به. وأمَّا معنىٰ قوله: ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ ﴾ [فاطر: ١٠] ، فأحسن ما قيل فيه قول الفراء: إن العمل الصَّالح إذا قارن الكلم الطيِّب رفعه، وهذه الأمور من الصعود وسائر الأشياء التي تشعر بالمكان فالمراد بها القبول والرضا، وهذا متعارف في لسان العرب كما يقال: رفع الأمر إلىٰ السلطان. إذ ليس معناه: أن السلطان إذا كان في مكانٍ عالٍ " (١) .

وقال الإمام محمَّد بن عبد الرَّحمن الإِيجي (٩٠٥) : " ﴿ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ ﴾ جبريل ، أو خلق أعظم من الملك يشبهون النَّاس ، وليسوا ناسًا ، وعن بعض المفسِّرين : المراد أرواح المؤمنين ، فقد ورد أنَّها يصعد من سماء إلىٰ سماء حتىٰ ينتهي إلىٰ السَّابعة ،﴿ إِلَيۡهِ ﴾ : إلىٰ محلِّ قربته " (٢) .

وقال الإمام أحمد بن محمَّد بن أبىٰ بكر بن عبد الملك القسطلاني (٩٢٣هـ) : ﴿ إِلَيۡهِ ﴾ [المعارج: ٤] أي إلىٰ عرشه أو إلىٰ المكان الذي هو محلّهم وهو في السَّماء لأنَّها محلّ برّه وكرامته وقوله جلَّ ذكره: ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ [فاطر: ١٠] أي : إلىٰ محلّ القبول والرِّضا وكلّ ما اتصف بالقبول وصف بالرِّفعة والصُّعود " (٣) .

وقال الإمام زكريَّا بن محمَّد بن أحمد بن زكريَّا السّنيكي المصري (٩٢٦ هـ) : " قول الله تعالىٰ: ﴿ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ ﴾ أي: إلىٰ عرشه " (٤) .

وقال الإمام أبو الحسن محمَّد بن عبد الهادي السّندي المدني ، الحنفي (١١٣٨هـ) : " قوله : ﴿ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ ﴾ أي : إلىٰ عرشه " (٥) .

وقال الإمام ابن عجيبة (١٢٢٤هـ) : ﴿ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ ﴾ أمَّا الملائكة فتنتهي إلىٰ الدَّهش والهيمان، وأمَّا الرُّوح الصَّافية فتنتهي إلىٰ شهود الذَّات بالصَّحو والتَّمكين، وهذا مقام خاصَّة الخاصَّة من النَّبيِّين والصِّدِّيقين، تنتهي إلىٰ هذا المقام في زمن يسير، إن سبقت العناية واتَّصل صاحبها بالخبير، وفي زمن طويل

---

(١) انظر : الكوثر الجاري إلىٰ رياض أحاديث البخاري (١١/ ٢٣٢) .

(٢) انظر : تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن (٤/ ٣٦٩) .

(٣) انظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (١٠/ ٣٩٦) .

(٤) انظر : منحة الباري بشرح صحيح البخاري المسمىٰ (تحفة الباري) (١٠/ ٣٥٩) .

(٥) انظر : حاشية السندىٰ علىٰ صحيح البخارىٰ (٤/ ١٣٦) .

إن لم يتَّصل بالخبير، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ أي: يقطع ذلك في يوم كان مقداره لو صار بنفسه خمسن ألف سنة .

واعلم أنَّ الحق تعالىٰ لا يتَّصف بقُرب ولا بُعد، هو أقرب إلىٰ كلّ شيء من كلِّ شيء، وإنَّما بعَّد النُّفوسَ جهلُها به تعالىٰ ووهْمُها وغفلتها، فإذا ارتفع الجهل والوهم، وَجَدت الحقَّ كان قريباً وهي لا تشعر. قال الورتجبي: ليس للحقِّ مكان ومنتهىٰ، حتىٰ أنَّ الخلق يعرجون إليه، بل إنَّ ظهور عزَّته وجلاله في كلِّ ذرة عيانٌ، فإذا رَفَعْتَ القُربَ والبُعدَ من حيث المسافة، وأدرجت الأوهام والأفهام؛ لم يكن بين الحقِّ والرُّوح فصل، وصول الحقّ لأهل الحقِّ بأقل طرفة، فإنَّ الوصل منه، وهو قريب غير بعيد " (١) .

وقال الإمام الشَّوكاني (١٢٥٠هـ) : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ ... ومعنىٰ إليه ، أي : إلىٰ المكان الذي ينتهون إليه ، وقيل : إلىٰ عرشه ، وقيل : هو كقول إبراهيم ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أي إلىٰ حيث أمرني ربي " (٢) .

وقال الإمام أبو الطيِّب محمَّد صديق خان القِنَّوجي (١٣٠٧هـ) : " ومعنىٰ ﴿ إِلَيْهِ ﴾ إلىٰ المكان الذي ينتهون إليه وقيل إلىٰ عرشه، وقيل إلىٰ مهبط أمره من السماء، وقيل هو كقول إبراهيم: ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ أي إلىٰ حيث أمرني ربي" (٣) .

وقال الإمام أحمد بن مصطفىٰ المراغي (١٣٧١هـ) : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي تصعد في تلك المعارج الملائكة وجبريل عليه السَّلام إلىٰ مواضع لو أراد واحد من أهل الدُّنيا أن يصعد إليها لبقي في ذلك الصُّعود خمسين ألف سنة، لكنَّهم يصعدون إليها في الزَّمن القليل، وليس المراد من ذكر الخمسين تحديد العدد، بل المقصد أنَّ مقام القدس الإلهي بعيد المدىٰ عن مقام العباد، فهم في المادَّة مغموسون، وهناك عوالم ألطف وألطف، درجات بعضها فوق بعض، وكلّ عالم ألطف ممَّا قبله، وكلما لطف العالم العلوي كان أشدّ قوَّة وهكذا: ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾ [العلق:٤] . " (٤) .

---

(١) انظر : البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٧/ ١٣٧) .

(٢) انظر : فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير (٥/ ٢٨٨) .

(٣) انظر : فتحُ البيان في مقاصد القرآن (١٤/ ٣٠٩) .

(٤) انظر : تفسير المراغي (٢٩/ ٦٧) .

وقال الإمام عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى : بعد ١٣٩٠هـ) : ﴿ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴾ هو إشارة إلىٰ مدىٰ هذا العلو الذي لتلك المعارج ، التي يقوم عليها سلطان الله ، وأنَّ الملائكة والرُّوح ، تصعد هذه المعارج في يوم ... ولكن أي يوم هو؟

إنَّه يعدل خمسين ألف سنة من أزمان الدُّنيا ... أي أنَّ ما يقطعه الملك في عروجه إلىٰ السَّماء في يوم واحد ، يقطعه الإنسان في خمسين ألف سنة بأقوىٰ ما يمكن أن يتوسَّل به من وسائل ، من صواريخ ، ومركبات كوكبيَّة وغيرها ... والمراد بالرُّوح ، إمَّا أن يكون جبريل عليه السَّلام ، أو أرواح البشر ، أو مخلوقات من عالم الرُّوح غير الملائكة . والمراد بهذا أنَّها مخلوقـــــــــات ذات سرعة مطلقة من غير قيد المادَّة ومعوقاتها ... أنَّها أرواح، لا أجساد لها " (١) .

وقال الإمام محمَّد سيِّد طنطاوي (١٤٣١هـ) : " والضَّمير في ﴿ إِلَيۡهِ ﴾ يعود إلىٰ الله – تعالىٰ – أي : تصعد الملائكة وجبريل – عليه السَّلام – معهم ، إليه – تعالىٰ – . والسَّلف علىٰ أنَّ هذا التَّعبير وأمثاله ، من المتشابه الذي استأثر – سبحانه – بعلمه . مع تنزيهه – عزَّ وجلَّ – عن المكان والجسميَّة . ولوازم الحدوث ، التي لا تليق بجلاله .

وقيل : ﴿ إِلَيۡهِ ﴾ ، أي : إلىٰ عرشه – تعالىٰ – أو إلىٰ محلِّ برِّه وكرامته .

قال القرطبي ما ملخَّصه : ...أي : عروج الملائكة إلىٰ المكان الذي هو محلّهم في وقت كان مقداره علىٰ غيرهم لو صعد ، خمسين ألف سنة " (٢) .

وقال الدكتور وهبة بن مصطفىٰ الزّحيلي (١٤٣٦هـ) : ﴿ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ أي : تصعد إلىٰ الله عزَّ وجلَّ في تلك المعارج الملائكة وجبريل عليهم السلام في مدَّة يوم يقدّر بخمسين ألف سنة من سنوات الدُّنيا لو أراد البشر الصُّعود إليها ولكن الملائكة الرَّوحانيين تصعد إليها في زمن قليل. وليس المراد من الخمسين التَّحديد بعدد معين بل المقصود الكثرة المطلقة ، وأنَّ صعود الملائكة في مكان بعيد المدىٰ .

وقوله : ﴿ إِلَيۡهِ ﴾ إلىٰ عرشه أو حكمه أو إلىٰ حيث تهبط أوامره أو إلىٰ مواضع العزّ والكرامة " (٣) .

---

(١) انظر : التفسير القرآني للقرآن (١٥/ ١١٥٨) .

(٢) انظر : التفسير الوسيط للقرآن الكريم (١٥/ ٩٣-٩٤) .

(٣) انظر : التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج (٢٩/ ١١٤) .

ثَامِناً : وَمِنَ الآيَاتِ التِيْ يَسْتَدِلُّوْنَ بِهَا عَلَى العُلُوِّ الحِسِّيِّ المَكَانِي لله تَعَالَى : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ ﴾ [غافر:٣٧].

والنَّاظر فيما قاله علماء الأمَّة في معنىٰ الآية يجد أنَّ جمهورهم ذهب إلىٰ ما يُخالف ما ذهب إليه المجسِّمة الذين ذهبوا إلىٰ الاستدلال بالآية علىٰ اعلوِّ المكانيِّ لله تعالىٰ ، والعياذ بالله تعالىٰ ...

فمن أشهر المعاني التي ذكرها العلماء للآية الكريمة :

(١) أنَّه غلبه الجهل علىٰ قول هذا أو تصوّره أو أنَّه قاله تمويهاً علىٰ قومه مع علمه باستحالته ...

(٢) أَنَّ هَؤُلَاءِ الْجُهَّالَ يَكْفِيهِمْ فِي كَمَالِ الْخِزْيِ وَالضَّلَالِ أَنْ جَعَلُوا قَوْلَ فِرْعَوْنَ اللَّعِينَ حُجَّةً لَهُمْ عَلَىٰ صِحَّةِ دِينِهِمْ ...

(٣) أنَّ التَّنزيه دين موسىٰ ووصفه بالمكان والحيِّز دين فرعون ، وقد دلَّ الدَّليل العقلي علىٰ استحالة حصر الحقِّ في أينيَّة ...

وفيما يلي طائفة من أقوال علماء الأمَّة في تفسير الآية الكريمة :

قال الإمام الماوردي (٤٥٠هـ) : « ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنَّه غلبه الجهل علىٰ قول هذا أو تصوّره. الثَّاني: أنَّه قاله تمويهاً علىٰ قومه مع علمه باستحالته ، قاله الحسن " (١) .

وقال الإمام القُشيري (٤٦٥هـ) : " السَّبب ما يتوصَّل به إلىٰ الشَّيء ، أي : لعلِّي أصل إلىٰ السَّماء فأطَّلع إلىٰ إله موسىٰ. ولو لم يكن من المضاهاة بين من قال : إنَّ المعبود في السَّماء وبين الكافر إلَّا هذا لكفىٰ به خزياً لمذهبهم .

وقد غلط فرعون حين توهَّم أنَّ المعبود في السَّماء، ولو كان في السَّماء لكان فرعون مصيباً في طلبه من السَّماء. قوله جلَّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أخبر أنَّ اعتقاده بأنَّ المعبود في السَّماء خطأ، وأنَّه بذلك مصدود عن سبيل الله " (٢) .

وقال الإمام الواحدي (٤٦٨هـ) : « ﴿ لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴾ [غافر: ٣٦] يعني: الطُّرق من سماء إلىٰ سماء . ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٧] بالرَّفع نسق علىٰ قوله: أبلغ الأسباب أي: لعلِّي أبلغ ولعلِّي أطَّلع، ومن نصب جعله جواباً للفعل بالفاء علىٰ معنىٰ: إنِّي إذا بلغت اطَّلعت ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ ﴾ [غافر: ٣٧] أي:

---

(١) انظر : تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٥/ ١٥٦) .

(٢) انظر : لطائف الإشارات (تفسير القشيري) ، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري ، (٣/ ٣٠٦) ، تحقيق : إبراهيم البسيوني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، الطبعة : الثالثة .

فيما يقول من أنَّ له ربّاً في السَّماء، وما قال موسىٰ له ذلك قطّ، ولكنَّه لَمَّا قال له: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] ، قال موسىٰ: ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشعراء: ٢٤] ظنَّ فرعون باعتقاده الباطل أنَّه لَمَّا لم يره في الأرض، أنَّه في السَّماء، فرامَ الصُّعود إلىٰ السَّماء، لرؤية إله موسىٰ، وكذلك ومثل ما وصفنا، ﴿ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ [غافر: ٣٧] قال ابن عبَّاس: صدَّه الله عن سبيل الهدىٰ " (١) .

وقال الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) : " وَفِي الْآيَةِ مَسَائِلُ:

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: احْتَجَّ الْجَمْعُ الْكَثِيرُ مِنَ الْمُشَبِّهَةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي إِثْبَاتِ أن الله في السَّموات وَقَرَّرُوا ذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ: الْأَوَّلُ: أَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ مِنَ الْمُنْكِرِينَ لِوُجُودِ اللهَّ، وَكُلُّ مَا يَذْكُرُهُ فِي صِفَاتِ اللهَّ تَعَالَىٰ فَذَلِكَ إِنَّما يَذْكُرُهُ لِأَجْلِ أَنَّه سَمِعَ أَنَّ مُوسَىٰ يَصِفُ اللهَّ بِذَلِكَ، فَهُوَ أَيْضًا يَذْكُرُهُ كَما سَمِعَهُ، فَلَوْلَا أَنَّه سَمِعَ مُوسَىٰ يَصِفُ اللهَّ بِأَنَّهُ مَوْجُودٌ فِي السَّماء وَإِلَّا لَمَا طَلَبَهُ فِي السَّماء الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّه قَالَ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا، وَلَمْ يُبَيِّنْ أَنَّه كَاذِبٌ فِي مَاذَا، وَالْمَذْكُورُ السَّابِقُ مُتَعَيِّنٌ لِصَرْفِ الْكَلَامِ إِلَيْهِ فَكَأَنَّ التَّقْدِيرَ فَأَطَّلِعَ إِلىٰ الْإِلَهِ الَّذِي يَزْعُمُ مُوسَىٰ أَنَّه مَوْجُودٌ فِي السَّماءِ، ثمَّ قَالَ: وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً أَيْ وَإِنِّي لَأَظُنُّ مُوسَىٰ كَاذِبًا فِي ادِّعَائِهِ أَنَّ الْإِلَهَ مَوْجُودٌ فِي السَّماءِ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ دِينَ مُوسَىٰ هُوَ أَنَّ الْإِلَهَ مَوْجُودٌ فِي السَّماء الْوَجْهُ الثَّالِثُ: الْعِلْمُ بِأَنَّهُ لَوْ وُجِدَ إِلَهٌ لَكَانَ مَوْجُودًا فِي السَّماء عِلْمٌ بَدِيهِيٌّ مُتَقَرِّرٌ فِي كُلِّ الْعُقُولِ وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الصِّبْيَانَ إِذَا تَضَرَّعُوا إِلىٰ اللهَّ رَفَعُوا وُجُوهَهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ إِلىٰ السَّماءِ، وَإِنَّ فِرْعَوْنَ مَعَ نِهَايَةِ كُفْرِهِ لَمَّا طَلَبَ الْإِلَهَ فَقَدْ طَلَبَهُ فِي السَّماءِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْعِلْمَ بِأَنَّ الْإِلَهَ مَوْجُودٌ فِي السَّماء عِلْمٌ مُتَقَرِّرٌ فِي عَقْلِ الصِّدِّيقِ وَالزِّنْدِيقِ وَالْمُلْحِدِ والموحد وَالْعَالِمِ وَالْجَاهِلِ.

فَهَذَا جُمْلَةُ اسْتِدْلَالَاتِ الْمُشَبِّهَةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَالْجَوَابُ: أَنَّ هَؤُلَاءِ الْجُهَّالَ يَكْفِيهِمْ فِي كَمالِ الْخِزْيِ وَالضَّلَالِ أَنْ جَعَلُوا قَوْلَ فِرْعَوْنَ اللَّعِينَ حُجَّةً لَهُمْ عَلَىٰ صِحَّةِ دِينِهِمْ، وَأَمَّا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّهُ لَمْ يَزِدْ فِي تَعْرِيفِ إِلَهِ الْعَالَمِ عَلَىٰ ذِكْرِ صِفَةِ الْخَلَّاقِيَّةِ فَقَالَ فِي سُورَةِ طه : ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] ، وَقَالَ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ : ﴿ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:٢٦] ... ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ ﴾ [الشُّعَرَاءِ: ٢٨] فَظَهَرَ أَنَّ تَعْرِيفَ ذَاتِ اللهَّ بِكَوْنِهِ فِي السَّماء دِينُ فِرْعَوْنَ وَتَعْرِيفَهُ بِالْخَلَّاقِيَّةِ وَالْمَوْجُودِيَّةِ دِينُ مُوسَىٰ، فَمَنْ قَالَ بِالْأَوَّلِ كَانَ عَلَىٰ دِينِ فِرْعَوْنَ، وَمَنْ قَالَ بِالثَّانِي كَانَ عَلَىٰ دِينِ مُوسَىٰ، ثمَّ نَقُولُ لَا نُسَلِّمُ أَنَّ كُلَّ مَا يَقُولُهُ فِرْعَوْنُ فِي صِفَاتِ اللهَّ تَعَالَىٰ فَذَلِكَ قَدْ سَمِعَهُ مِنْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَلْ لَعَلَّهُ كَانَ عَلَىٰ دِينِ

---

(١) انظر : الوسيط في تفسير القرآن المجيد ، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمَّد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي ، (٤/ ١٣-١٤) ، تحقيق : الشَّيخ عادل أحمد عبد الموجود ، ورفاقه ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤١٥هـ ، ١٩٩٤م .

الْمُشَبِّهَةِ فَكَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْإِلَهَ لَوْ كَانَ مَوْجُودًا لَكَانَ حَاصِلًا فِي السَّمَاءِ، فَهُوَ إِنَّمَا ذَكَرَ هَذَا الِاعْتِقَادَ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ لَا لِأَجْلِ أَنَّه قَدْ سَمِعَهُ مِنْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ : وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً ، فَنَقُولُ : لَعَلَّهُ لَمَّا سَمِعَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ظن أَنَّه عنىٰ به أَنَّه رب السموات، كَمَا يُقَالُ لِلْوَاحِدِ مِنَّا أَنَّه رَبُّ الدَّارِ بِمَعْنَىٰ كَوْنِهِ سَاكِنًا فِيهِ، فَلَمَّا غَلَبَ عَلَىٰ ظَنِّهِ ذَلِكَ حَكَىٰ عَنْهُ، وَهَذَا لَيْسَ بِمُسْتَبْعَدٍ، فَإِنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ بَلَغَ فِي الْجَهْلِ وَالْحَمَاقَةِ إِلَىٰ حَيْثُ لَا يَبْعُدُ نِسْبَةُ هَذَا الْخَيَالِ إِلَيْهِ، فَإِنِ اسْتَبْعَدَ الْخَصْمُ نِسْبَةَ هَذَا الْخَيَالِ إِلَيْهِ كَانَ ذَلِكَ لائِقًا بِهِمْ، لِأَنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا عَلَىٰ دِينِ فِرْعَوْنَ وَجَبَ عَلَيْهِمْ تَعْظِيمُهُ. وَأَمَّا قَوْلُهُ إِنَّ فِطْرَةَ فِرْعَوْنَ شَهِدَتْ بِأَنَّ الْإِلَهَ لَوْ كَانَ مَوْجُودًا لَكَانَ فِي السَّمَاءِ، قُلْنَا نَحْنُ لَا نُنْكِرُ أَنَّ فِطْرَةَ أَكْثَرِ النَّاسِ تُخَيِّلُ إِلَيْهِمْ صِحَّةَ ذَلِكَ لَا سِيَّمَا مَنْ بَلَغَ فِي الْحَمَاقَةِ إِلَىٰ دَرَجَةِ فِرْعَوْنَ فَثَبَتَ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ سَاقِطٌ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي أَنَّ فِرْعَوْنَ هَلْ قَصَدَ بِنَاءَ الصَّرْحِ لِيَصْعَدَ مِنْهُ إِلَىٰ السَّماء أَمْ لَا؟ أَمَّا الظَّاهِرِيُّونَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ فَقَدْ قَطَعُوا بِذَلِكَ، وَذَكَرُوا حِكَايَةً طَوِيلَةً فِي كَيْفِيَّةِ بِنَاءِ ذَلِكَ الصَّرْحِ، وَالَّذِي عِنْدِي أَنَّه بَعِيدٌ وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنْ يُقَالَ فِرْعَوْنُ لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يُقَالَ أَنَّه كَانَ مِنَ الْمَجَانِينِ أَوْ كَانَ مِنَ الْعُقَلَاءِ، فَإِنْ قُلْنَا أَنَّه كَانَ مِنَ الْمَجَانِينِ لَمْ يَجُزْ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ إِرْسَالُ الرَّسُولِ إِلَيْهِ، لِأَنَّ الْعَقْلَ شَرْطٌ فِي التَّكْلِيفِ، وَلَمْ يَجُزْ مِنَ اللهِ أَنْ يَذْكُرَ حِكَايَةَ كَلَامِ مَجْنُونٍ فِي الْقُرْآنِ، وَأَمَّا إِنْ قُلْنَا أَنَّه كَانَ مِنَ الْعُقَلَاءِ فَنَقُولُ إِنَّ كُلَّ عَاقِلٍ يَعْلَمُ بِبَدِيهَةِ عَقْلِهِ أَنَّه يَتَعَذَّرُ فِي قُدْرَةِ الْبَشَرِ وَضْعُ بِنَاءٍ يَكُونُ أَرْفَعَ مِنَ الْجَبَلِ الْعَالِي، وَيَعْلَمُ أَيْضًا بِبَدِيهَةِ عَقْلِهِ أَنَّه لَا يَتَفَاوَتُ فِي الْبَصَرِ حَالُ السَّماء بَيْنَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ مِنْ أَسْفَلِ الْجِبَالِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ مِنْ أَعْلَىٰ الْجِبَالِ، وَإِذَا كَانَ هَذَانِ الْعِلْمَانِ بَدِيهِيَّيْنِ امْتَنَعَ أَنْ يَقْصِدَ الْعَاقِلُ وَضْعَ بِنَاءٍ يَصْعَدُ مِنْهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ، وَإِذَا كَانَ فَسَادُ هَذَا مَعْلُومًا بِالضَّرُورَةِ امْتَنَعَ إِسْنَادُهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ، وَالَّذِي عِنْدِي فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ مِنَ الدَّهْرِيَّةِ وَغَرَضُهُ مِنْ ذِكْرِ هَذَا الْكَلَامِ إِيرَادُ شُبْهَةٍ فِي نَفْيِ الصَّانِعِ وَتَقْرِيرُهُ أَنَّه قَالَ: إِنَّا لَا نَرَىٰ شَيْئًا نَحْكُمُ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ إِلَهُ الْعَالَمِ فَلَمْ يَجُزْ إِثْبَاتُ هَذَا الْإِلَهِ، أَمَّا أَنَّه لَا نَرَاهُ فَلِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مَوْجُودًا لَكَانَ فِي السَّماء وَنَحْنُ لَا سَبِيلَ لنا إِلَىٰ صعود السَّموات فَكَيْفَ يُمْكِنُنَا أَنْ نَرَاهُ، ثمَّ أَنَّه لِأَجْلِ الْمُبَالَغَةِ فِي بَيَانِ أَنَّه لَا يُمْكِنُهُ صُعُودُ السَّموات قال يَا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ وَالْمَقْصُودُ أَنَّه لَمَّا عَرَفَ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّ هَذَا الطَّرِيقَ مُمْتَنِعٌ كَانَ الْوُصُولُ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ وُجُودِ اللهِ بِطَرِيقِ الْحِسِّ مُمْتَنِعًا، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾ [الْأنعَام: ٣٥] وَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنْهُ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَلَبَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ وَضَعَ سُلَّمًا إِلَىٰ السَّمَاءِ، بَلِ الْمَعْنَىٰ أَنَّه لَمَّا عُرِفَ أَنَّ هَذَا الْمَعْنَىٰ مُمْتَنِعٌ فَقَدْ عُرِفَ أَنَّه لَا سَبِيلَ لَكَ إِلَىٰ تَحْصِيلِ ذَلِكَ

الْمَقْصُودِ، فَكَذَا هَاهُنَا غَرَضُ فِرْعَوْنَ من قوله يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً يَعْنِي أَنَّ الاِطِّلَاعَ عَلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ لَمَّا كَانَ لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ إِلَّا بِهَذَا الطَّرِيقِ وَكَانَ هَذَا الطَّرِيقُ مُمْتَنِعًا، فَحِينَئِذٍ يَظْهَرُ مِنْهُ أَنَّه لَا سَبِيلَ إِلىٰ مَعْرِفَةِ الْإِلَهِ الَّذِي يُثْبِتُهُ مُوسَىٰ فَنَقُولُ هَذَا مَا حَصَّلْتُهُ فِي هَذَا الْبَابِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الشُّبْهَةَ فَاسِدَةٌ لِأَنَّ طُرُقَ الْعِلْمِ ثَلَاثَةٌ الْحِسُّ وَالْخَبَرُ وَالنَّظَرُ، وَلَا يَلْزَمُ مِنَ انْتِفَاءِ طَرِيقٍ وَاحِدٍ وَهُوَ الْحِسُّ انْتِفَاءَ الْمَطْلُوبِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ قَدْ بَيَّنَ لِفِرْعَوْنَ أَنَّ الطَّرِيقَ فِي مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ إِنَّمَا هُوَ الْحُجَّةُ وَالدَّلِيلُ كَمَا قَالَ: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ... ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [الشُّعَرَاءِ: ٢٦، ٢٨] إِلَّا أَنَّ فِرْعَوْنَ لِخُبْثِهِ وَمَكْرِهِ تَغَافَلَ عَنْ ذَلِكَ الدَّلِيلِ، وَأَلْقَى إِلىٰ الْجُهَّالِ أَنَّه لَمَّا كان لا طريق إلىٰ الْإِحْسَاسُ بِهَذَا الْإِلَهِ وَجَبَ نَفْيُهُ، فَهَذَا مَا عِنْدِي فِي هَذَا الْبَابِ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : ذَهَبَ قَوْمٌ إِلىٰ أَنَّه تَعَالَىٰ خَلَقَ جَوَاهِرَ الْأَفْلَاكِ وَحَرَكَاتِهَا بِحَيْثُ تَكُونُ هِيَ الْأَسْبَابُ لِحُدُوثِ الْحَوَادِثِ فِي هَذَا الْعَالَمِ الْأَسْفَلِ، وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ أَسْبابَ السَّماواتِ وَمَعْلُومٌ أَنَّهَا لَيْسَتْ أَسْبَابًا إِلَّا لِحَوَادِثِ هَذَا الْعَالَمِ قَالُوا وَيُؤَكِّدُ هَذَا بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ (ص) ﴿ فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ [ص:١٠] . أَمَّا الْمُفَسِّرُونَ فَقَدْ ذَكَرُوا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ * أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أَنَّ المراد بأسباب السَّموات طُرُقُهَا وَأَبْوَابُهَا وَمَا يُؤَدِّي إِلَيْهَا ، وَكُلُّ مَا أَدَّاكَ إِلىٰ شَيْءٍ فَهُوَ سَبَبٌ كَالرَّشَادِ وَنَحْوِهِ ..." (١) .

وقال الإمام أبو عبد الله محمَّد بن أحمد القرطبي (٦٧١ هـ) : " وأسباب السَّماء أبوابها في قول قتادة والزُّهري والسدِّي والأخفش ؛ وأنشد :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السَّماء بسلَّم

وقال أبو صالح : أسباب السَّموات طرقها . وقيل : الأمور التي تستمسك بها السَّموات . وكرر أسباب تفخيماً ؛ لأنَّ الشَّيء إذا أبهم ثمَّ أوضح كان تفخيماً لشأنه . والله أعلم . ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ فأنظر إليه نظر مشرف عليه . توهَّم أنَّه جسم تحويه الأماكن . وكان فرعون يدَّعي الألوهيَّة ويرىٰ تحقيقها بالجلوس في مكان مشرف . وقراءة العامَّة ﴿ فَأَطَّلِعَ ﴾ بالرَّفع نسقاً علىٰ قوله : ﴿ أَبْلُغُ ﴾ ، وقرأ الأعرج والسلمي وعيسىٰ وحفص﴿ فَأَطَّلِعَ ﴾ بالنَّصب ؛ قال أبو عبيدة : علىٰ جواب (لَعلَّ) بالفاء . النحَّاس : ومعنىٰ النَّصب خلاف معنىٰ الرَّفع ؛ لأنَّ معنىٰ النَّصب متىٰ بلغت الأسباب اطَّلعت . ومعنىٰ الرَّفع ﴿ لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴾ ثمَّ لعلِّي أطَّلع بعد ذلك ؛ إلَّا أنَّ ثمَّ أشدّ تراخياً من الفاء . ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ ﴾ ، أي : وإنِّي لأظنُّ موسىٰ

---

(١) انظر : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (٢٧/ ٥١٤-٥١٦) .

كاذباً في ادِّعائه إلهاً دوني ، وإنَّما أفعل ما أفعل لإزاحة العلَّة . وهذا يوجب شكَّ فرعون في أمر الله . وقيل : إنَّ الظَّنَّ بمعنى اليقين ، أي : وأنا أتيقَّن أنَّه كاذب ، وإنَّما أقول ما أقول لإزالة الشُّبهة عمَّن لا أتيقَّن ما أتيقَّنه ... " (١) .

وقال الإمام البيضاوي (٦٨٥هـ) : ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ عطف على ﴿ أَبْلُغُ ﴾ . وقرأ حفص بالنصب على جواب الترجي ، ولعلَّه أراد أن يبني له رصداً في موضعٍ عال يرصد منه أحوال الكواكب التي هي أسباب سماويَّة تدلُّ على الحوادث الأرضيَّة ، فيرى هل فيها ما يدلُّ على إرسال الله إيَّاه ، أو إن يرى فساد قول موسى بأنَّ أخباره من إله السَّماء يتوقف على إطلاعه ووصوله إليه ، وذلك لا يتأتَّى إلَّا بالصُّعود إلى السَّماء وهو مما لا يقوى عليه الإنسان ، وذلك لجهله بالله وكيفية استنبائه . ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ ﴾ في دعوى الرِّسالة " (٢) .

وقال الإمام ابن كثير (٧٧٤هـ) : " وَقَوْلُهُ: ﴿ لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ * أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [غافر:٣٧،٣٦] قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَأَبُو صَالِحٍ: أَبْوَابَ السموات. وقيل: طرق السَّموات ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ ﴾ ، وَهَذَا مِنْ كُفْرِهِ وَتَمَرُّدِهِ، أَنَّه كَذَّبَ مُوسَىٰ فِي أَنَّ اللهَّ، عَزَّ وَجَلَّ، أَرْسَلَهُ إِلَيْهِ، قَالَ اللهُّ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ ﴾ ، أَيْ: بِصَنِيعِهِ هَذَا الَّذِي أَرَادَ أَنْ يُوهِمَ بِهِ الرَّعِيَّةَ أَنَّه يَعْمَلُ شَيْئًا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلىٰ تَكْذِيبِ مُوسَىٰ، عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُّ عَنْهُمَا ، وَمُجَاهِدٌ: يَعْنِي إِلَّا فِي خَسَارٍ " (٣) .

وقال الإمام ابن عادل الحنبلي (٧٧٥هـ) : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ * أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧] فطلب الإله في السَّماء، فعلمنا أنَّ وصف الإله بالخلاقيَّة، وعدم وصفه بالمَكَانِ والجهة دين موسى وجميع الأنبياء ووصفه تعالى بكونه في السَّماء دينُ فرعون، وإخوانه مِنَ الكَفَرَةِ

ومنها قوله تعالى في هذه الآية : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف:٥٤] .

---

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ٣١٤-٣١٥) .

(٢) انظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٥/ ٥٨) .

(٣) انظر : تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٤٤) .

وكلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ للتَّراخي ، وهذا يدلُّ علىٰ أنَّه تعالىٰ إنَّما استوىٰ علىٰ العرش بعد تخليق السَّموات والأرض ، فإنْ كان المُرَادُ من الاستواء الاستقرار ؛ لَزِمَ أن يقال : أنَّه ما كان مستقرَّاً علىٰ العرش ، بل كان مُعْوَجاً مُضطرباً ، ثمَّ استوىٰ عليه بعد ذلك ، وذلك يُوجِبُ وصفه بصِفَاتِ الأجْسامِ من الاضطراب والحركة تَرَاةً ، والسُّكون أخرىٰ ، وذلك لا يَقُوله عاقِلٌ " (١) .

وقال الإمام نظام الدِّين الحسن بن محمَّد بن حسين القمِّي النَّيسابوري (٨٥٠هـ) : " وأمَّا فرعون فقد طلب الإله في السَّماء في قوله : ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ [القصص: ٣٨] ، فعلمنا أنَّ التَّنزيه دين موسىٰ ووصفه بالمكان والحيِّز دين فرعون . والجواب : لا نزاع في أن حقيقة ذاته كما هي لا يعلمها إلَّا هو ، والبسائط المحضة لا تعرف إلَّا بلوازم ، وطلب فرعون إنَّما كان مذموماً لأنَّه تصور أن يكون الإله شخصاً مثله علىٰ تقدير وجوده لقوله : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص: ٣٨] " (٢) .

وقال الإمام نظام الدِّين الحسن بن محمَّد بن حسين القمي النَّيسابوري (٨٥٠هـ) : " استدلَّ كثير من المشبِّهة بالآية علىٰ أنَّ الله في السَّماء قالوا : أنَّ بديهة فرعون قد شهدت بأنَّه في ذلك الصَّوب وأنَّه سمع من موسىٰ أنَّه يصف الله بذلك وإلَّا لما رام بناء الصَّرح . والجواب : أنَّ بديهة فرعون لا حجَّة فيها ، وسماعه ذلك من موسىٰ ممنوع . وقد يطعن بعض اليهود بل كلّهم في الآية بأنَّ تواريخ بني إسرائيل تدلُّ علىٰ أنَّ هامان لم يكن موجوداً في زمان موسىٰ وفرعون ، وإنَّما ولد بعدهما بزمان طويل ، ولو كان مثل هذا الشَّخص موجوداً في عصرهما لنقل لتوفَّرت الدَّواعي علىٰ نقله . والجواب : أنَّ الطَّعن بتاريخ اليهود المنقطع الوسط لكثرة زمان الفترة أولىٰ من الطَّعن في القرآن المعجز المتواتر أوَّلاً ووسطاً وآخراً "(٣) .

وقال الإمام البقاعي (٨٨٥هـ) : ﴿ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ، أي : الأمور الموصلة إليها ، وكلُّ ما أدَّاك إلىٰ شيء فهو سبب إليه .

ولَّما ذكر هذا السَّبب ، ذكر المسبّب عنه فقال : ﴿ فَأَطَّلِعَ ﴾ ، أي : فلعلَّه يتسبَّب عن ذلك ويتعقّبه أنِّي أتكلَّف الطُّلوع ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ فيكون كما ترىٰ عطفاً علىٰ " أبلغ " ، ونصبه حفص عن عاصم علىٰ الجواب تنبيهاً علىٰ أنَّ ما أبرزه الخبيث في عداد الممكن إنَّما هو تمنِّي محال غير ممكن في العادة .

---

(١) انظر : اللباب في علوم الكتاب (٩/ ١٤٩) .

(٢) انظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٣/ ٢٥١) .

(٣) انظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦/ ٣٦-٣٧) .

ولَمَّا كان من جملة إرادته بذلك مع إيقاف قومه إلى وقت ما عن المتابعة أن يخيلهم بأن يقول : طلعت فبحثت عمَّا قال موسى فلم أقف له على صحَّة ، قدم لهم قوله مبيناً لحاله إذ ذاك لَمَّا ظنَّ من ميل قلوبهم إلى تصديق موسى عليه السَّلام : ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ﴾ ، أي : موسى ﴿كَٰذِبًاۚ﴾ فترك الكلام على احتمـــال أن يريد في الرِّسالة أو في الإلهية .

ولَمَّا كان هذا أمراً عجيباً ، وهو كون أحد يظن أنَّه يخيل للعقول أنَّه يصعد إلى السَّماء ، وأنَّ الإله الذي هو غنيٌّ عن كلِّ شيء وقد كان ولا شيء معه يكون في السَّماء ، أو في محلّ من المحال ، فإنَّ كلّ حال في شيء يحتاج إلى محلِّه ، وكلُّ محتاج عاجز ولا يصلح العاجز للإلهيَّة لو لم يجئ عن الله لما كان أهلاً لأن يصدق" (١) .

وقال الإمام أبو السُّعود العمادي (٩٨٢هـ) : ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ بالنَّصبِ على جوابِ التَّرجِّي وقرئ بالرَّفع عطفاً على أبلغُ ، ولعلَّه أرادَ أنْ يبنيَ له رَصَداً في موضعٍ عالٍ ليرصُدَ منْهُ أحوالَ الكواكبِ التي هي أسبابٌ سماويةٌ تدلُّ على إرسالِ الله تعالَى إيَّاهُ أو أنْ يَرَىٰ فسادَ قوله عليه الصَّلاة والسَّلام بأنَّ إخبارَهُ من إلِه السَّماء يتوقَّفُ على اطِّلاعِه عليهِ ووصولِه إليهِ ، وذلكَ لا يتأتَّى إلا بالصُّعودِ إلى السَّماء وهُو ممَّا لا يقْوَىٰ عليهِ الإنسانُ ، وما ذاكَ إلَّا لجهلِه بالله سبحانَهُ وكيفيةِ استنبائِه ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾ فيما يدَّعيه من الرِّسالة ، أيْ : ومثلَ ذلكَ التزيينِ البليغِ المُفْرطِ ﴿ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فانهمكَ فيهِ انهماكاً لا يرْعَوِي عنه بحال ﴿ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ سبيلِ الرَّشادِ والفاعلُ في الحقيقةِ هُو الله تعالَى " (٢) .

وقال الإمام إسماعيل حقّي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي ، المولى أبو الفداء (١١٢٧هـ) : ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٧] ، بقطع الهمزة ونصب العين على جواب التَّرجِّي ، أي : انظر إليه ، الاطلاع ... وفي عين المعاني : الاستعلاء على شيء لرؤيته ، ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ﴾ ، أي : موسى ﴿ كَٰذِبًاۚ ﴾ فيما يدَّعيه من الرِّسالة . يقول الفقير : لم يقل كذَّاباً ، كما قال عند إرساله إليه ، لأنَّ القائل هنا هو فرعون وحده ، وحيث قال كذَّاب رجع المبالغة إلى فرعون وهارون وقارون ، فافهم .

اعلم أنَّ اكثر المفسِّرين حملوا هذا الكلام على ظاهره، وذكروا في كيفيَّة بناء ذلك الصَّرح حكاية سبقت في القصص ، وقال بعضهم : إنَّ هذا بعيد جداً من حيث أنَّ فرعون ان كان مجنوناً لم يجز حكاية كلامه ، ولا

---

(١) انظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٦/ ٥١٣) .

(٢) انظر : تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) ، أبو السعود العمادي محمَّد بن محمَّد بن مصطفى ، (٧/ ٢٧٦-٢٧٧) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

إرسال رسول يدعوه ، وان كان عاقلاً فكلُّ عاقل يعلم بديهة أنَّه ليس في قوَّة البشر وضع بناء أرفع من الجبل ، وأنه لا يتفاوت في البصر حال السَّماء بين أن ينظر من أسفل الجبل ومن أعلاه ، فامتنع إسناده إلىٰ فرعون ، فذكروا لهذا الكلام توجُّهين يقرّبان من العقل ، الأوَّل : أنَّه أراد أن يبني له هامان رصداً في موضع عالٍ ليرصد منه أحوال الكواكب التي هيٰ أسباب سماويَّة تدلُّ علىٰ الحوادث الأرضيَّة فيرىٰ هل فيها ما يدلُّ علىٰ إرسال الله إيَّاه . والثَّاني : أن يرىٰ فساد قول موسىٰ عليه السَّلام بأنَّ أخباره من إله السَّماء ، ويتوقَّف علىٰ اطلاعه عليه ، ووصوله إليه ، وذلك لا يتأتَّىٰ إلا بالصُّعود إلىٰ السَّماء ، وهو ممَّا لا يقوىٰ عليه الإ نسان ، وإن كان أقدر أهل الأرض كالملوك ، فاذا لم يكن طريق إلىٰ رؤيته وإحساسه ، وجب نفيه وتكذيب من ادعىٰ أنَّه رسول من قبله ، وهو موسىٰ .

فعلىٰ هذا التَّوجيه الثَّاني يكون فرعون من الدَّهريَّة الزَّنادقة ، وشبهته فاسدة ، لأنَّه لا يلزم من امتناع كون الحسِّ طريقاً إلىٰ معرفة الله ، امتناع معرفته مطلقاً ، إذ يجوز أن يعرف بطريق النَّظر والاستدلال بالآثار ، كما قال : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٦] ، وقال : ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ [الشعراء: ٢٨] ، ولكمال جهل اللعين بالله وكيفيَّة استنبائه ، أورد الوهم المزخرف في صورة الدَّليل .

وقال الكلبي : اشتغل فرعون بموسىٰ ولم يتفرَّغ لبنائه ، وقال بعضهم : قال فرعون ذلك تمويهاً ، وبعضهم قال : لغلبة جهله ، والظَّاهر أنَّ الله تعالىٰ إذا شاء يعمي ويصم من شاء ، فخلَّىٰ فرعون ونفسه ليتفرَّغ لبناء الصَّرح ليرىٰ منه آية أُخرىٰ له ، وتتأكَّد العقوبة ، وذلك لأنَّ الله تعالىٰ هدمه بعد بنائه علىٰ ما سبق في القصص . وأيضاً هذا من مقتضىٰ التَّكبُّر والتَّجبُّر الذي نقل عنه كما مثله عن بخت نصَّر ، فانه أيضاً لغاية عتوِّه واستكباره بنىٰ صرحاً ببابل علىٰ ما سبقت قصَّته ...

وفي " التَّأويلات النَّجميَّة " يشير إلىٰ أنَّ من ظنَّ أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ في السَّماء كما ظنَّ فرعون فإنَّه فرعون وقته ، ولو لم يكن من المضاهاة بين من يعتقد أنَّ الله سبحانه في السَّماء وبين الكافر إلَّا هذا لكفىٰ به في زيغ مذهبه وغلط اعتقاده ، فإنَّ فرعون غلط إذ توهَّم أنَّ الله في السَّماء ، ولو كان في السَّماء لكان فرعون مصيباً في طلبه من السَّماء ، وقوله وكذلك إلخ يدلُّ علىٰ أنَّ اعتقاده بأنَّ الله في السَّماء خطأ ، وأنَّه بذلك مصدود عن سبيل الله ، وما كيد فرعون في طلب الله من السَّماء إلَّا في تباب ، أي : خسران وضلال انتهىٰ .

وعن النَّبي عليه السَّلام أنَّ الله تعالىٰ احتجب عن البصائر كما احتجب عن الأبصار ، وأنَّ الملأ الأعلىٰ يطلبونه كما تطلبونه أنتم ، يعني : لو كان في السَّماء لما طلبه أهل السَّماء ، ولو كان في الأرض لما طلبه أهل الأرض ، فاذاً هو الآن علىٰ ما كان عليه قبل من التَّنزُّه عن المكان . وفي " هديَّة المهديين " : إذا قال الله في

السَّماء وأراد به المكان يكفر اتِّفاقاً ، لأنَّه ظاهر في التَّجسيم وإن لم يكن له نيَّة يكفر عند أكثرهم ، وإن أراد به الحكاية عن ظاهر الأخبار لا يكفر ...

اعلم أنَّه قد دلَّ الدَّليل العقليُّ علىٰ استحالة حصر الحقِّ في أينيَّة ، والشَّارع لَّما علم أنَّ الجارية المذكورة ليس في قوتها أن تتعقَّل موجدها الأعلىٰ تصوير في نفسها خاطبها بذلك ، ولو أنَّه خاطبها بغير ما تصوَّرته في نفسها لارتفعت الفائدة المطلوبة ولم يحصل القبول ، فكان من حكمته عليه السَّلام أن سأل مثل هذه الجارية بمثل هذا السُّؤال وبمثل هذه العبارة ، ولذلك لَّما أشارت إلىٰ السَّماء قال فيها : أنَّها مؤمنة ، يعني : مصدِّقة بوجود الله تعالىٰ ، ولم يقل أنَّها عالمة لأنَّها صدَّقت قول الله : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأنعام:٣] ، ولو كانت عالمة لم تقيِّده بالسَّماء ، فعلم أنَّ للعالم أن يصحب الجاهل في جهله تنزُّلاً لعقله ، والجاهل لا يقدر علىٰ صحبته العالم بغير تنزّل كذا في " الفتوحات المكيَّة " ، وفيه أيضاً : أنَّه لا يلزم من الايمان بالفوقيَّة الجهة ، فقد ثبتت فانظر ماذا ترىٰ وكن مع أهل السُّنَّة من الورىٰ ، انتهىٰ " (١) .

وقال الإمام ابن عجيبة (١٢٢٤هـ) : " يقول الحقُّ جلَّ جلاله : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴾ [غافر: ٣٦] ، تمويهاً علىٰ قومه ، وجهلاً منه : ﴿يَٰهَٰمَٰنُ﴾ وزيره ﴿ ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾ ، أي : قصراً عالياً ، وقيل : الصَّرح : البناء الظَّاهر الذي لا يخفىٰ علىٰ النَّاظر ، وإن بَعُد منه .

يقال : صَرِح الشَّيء : إذا ظهر ﴿ لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴾ ، أي: الطُّرق . ثمَّ أبدل منها تفخيماً لشأنها ، وإظهاراً أنَّه يقصد أمراً عظيماً : ﴿ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ، أي : طرُقها وأبوابها ، وما يُؤدّي إليها ، وكلُّ ما أدّاك إلىٰ الشَّيء فهو سبب إليه ،﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ ، أي : فأنظر إليه وأتحقَّق وجوده ، قرأه حفص بالنَّصب ، جواب التمنِّي ، والباقي بالرفع ، عطفاً علىٰ﴿ أَبْلُغُ ﴾ . قال البيضاوي : ولعلَّه أراد أن يبني له صرحاً في موضع عال ، يرصد منه أحوال الكواكب ، التي هي أسباب سماويَّة ، تدلُّ علىٰ الحوادث الأرضيَّة ، فيرىٰ هل فيها ما يدلُّ علىٰ إرسال الله تعالىٰ إياه ، أو أن يرىٰ فساد قوله عليه السَّلام ، فإنَّ إخباره عن إله السَّماء يتوقَّف علىٰ اطلاعه ووصوله إليه ، وذلك لا يتأتّىٰ إلَّا بالصُّعود للسَّماء ، وهو ممَّا لا يقوىٰ عليه الإنسان ، وما ذلك إلَّا لجهله بالله وكيفيَّة استنبائه .

---

(١) انظر : روح البيان (٨/ ١٨٣-١٨٥) .

قلت : والظَّاهر أنَّه كان مجسِّماً ، يعتقد أنَّ الله في السَّماء ، وأنَّ اطلاعه إليه إنَّما كان ليرىٰ هل ثمَّ إله ، وإن قوله : ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ ، أي : في ادِّعاء إله غيري ، بدليل قوله : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] ، مع أنَّ هذا كلّه إنَّما هو تمويه منه علىٰ قومه ، وجرأة علىٰ الله ، لا حقيقة له " (١) .

وقال الإمام الألوسي (١٢٧٠هـ) : " وأراد بقوله : ﴿يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ إلخ ، إعلام النَّاس بفساد دعواه تلك ، بناء علىٰ توهُّمه أنَّه تعالىٰ إن كان في السَّماء بأنَّه لو كان رسولاً منه تعالىٰ فهو ممَّن يصل إليه ، وذلك بالصُّعود إليه ، وهو ممَّا لا يقوىٰ عليه الإنسان ، فيكون من نوع المحال بالنِّسبة إليه ، فما بني عليه وهي الرِّسالة منه تعالىٰ مثله ، فقوله : ﴿ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ ، لإظهار عدم إمكان الصُّعود الموقوف عليه صحَّة دعوىٰ الرِّسالة في زعمه ، و " لعلَّ " للتَّهكُّم .

الثَّاني : أنَّه أراد أيضاً نفي العلم بالوجود دون الوجود نفسه ، لكنَّه كان في نفي العلم ملبِّساً علىٰ قومه ، كاذباً فيه ، حيث كان يعلم أنَّ لهم إلهاً غيره هو إله الخلق أجمعين ، وهو الله عزَّ وجلَّ وأراد بقوله : " وَإِنِّي " إلخ إنِّي لأظنُّه كاذباً في دعوىٰ الرِّسالة ، كما في سابقه ، وأراد بقوله : ﴿ يَٰهَٰمَٰنُ﴾ إلخ طلب أن يجعل له ما يزيل به شكَّه في الرِّسالة ، وذلك بأن يبني له رصداً في موضع عال يرصد منه أحوال الكواكب الدالَّة علىٰ الحوادث الكونيَّة بزعمه ، فيرىٰ : هل فيها ما يدلُّ علىٰ إرسال الله تعالىٰ إيَّاه ؟

وتعقب بأنَّه لا يناسب ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر:٣٧] ، إلَّا أن يراد فأطلع علىٰ حكم إله موسىٰ بأوضاع الكواكب والنَّظر فيها هل أرسل موسىٰ كما يقول أم لا ؟ فيكون الكلام علىٰ تقدير مضاف وإلىٰ فيه بمعنىٰ علىٰ ، وجوّز علىٰ هذا الوجه أن يكون قد أراد بإله موسىٰ الكواكب ، فكأنَّه قال : لعلِّي أصعد إلىٰ الكواكب التي هي إله موسىٰ ، فأنظر هل فيها ما يدلُّ علىٰ إرسالها إيَّاه أو لعلِّي أطَّلع علىٰ حكم الكواكب التي هي إله موسىٰ في أمر رسالته ، وهو كما ترىٰ ، وبالجملة هذا الوجه ممَّا لا ينبغي أن يلتفت إليه .

الثَّالث : أنَّه أراد بنفي علمه بإله غيره نفي وجوده وبظنّه كاذباً ظنه كاذباً في إثباته إلهاً غيره ، ويفسِّر الظَّنّ باليقين ، كما في قول دريد بن الصمّة :

فقلت لهم ظنّوا بألفي مدجج   سراتهم في الفارسي المسرد

فإثبات الظنِّ المذكور لا يدفع إرادة ذلك النَّفي ، وجوّز بعضهم إبقاءه علىٰ ظاهره ، وقال في دفع المنافاة : يمكن أن يقال : الظَّاهر أنَّ كلامه الأول كان تمويهاً وتلبيساً علىٰ القوم ، والثَّاني كان مواضعة مع صاحب سرِّه هامان ، فإثبات الظنِّ في الثَّاني لا يدفع أن يكون العلم في الأوَّل لنفي المعلوم ، وفيه أنَّه يأبىٰ ذلك

(١) انظر : البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٥/ ١٣٤) .

سوق الآية، والفاء في ﴿فَأَوْقِدْ لِى﴾ [القصص:٣٨] ، وطلبه بناء الصَّرح راجياً الصُّعود إلىٰ إله موسىٰ عليه السَّلام ، أراد به التهكُّم ، كأنَّه نسب إلىٰ موسىٰ عليه السَّلام القول بأنَّ إلهه في السَّماء ، فقال : ﴿ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ [غافر : ٣٦] ، لأصعد إلىٰ إله موسىٰ متهكِّماً به ، وهذا نظير ما إذا أخبرك شخص بحياة زيد وأنَّه في داره ، وأنت تعلم خلاف ذلك ، فتقول لغلامك بعد أن تذكر علمك بما يخالف قوله متهكِّماً به : يا غلام أسرج لي الدابَّة لعلِّي أذهب إلىٰ فلان وأستأنس به ، بل ما قاله فرعون أظهر في التَّهكُّم مما ذكر ، فطلبه بناء الصَّرح بناء علىٰ هذا لا يكون منافياً لما ادعاه أوَّلاً وآخراً من العلم واليقين ... " (١) .

وقال الإمام أبو الطيِّب محمَّد صديق خان القِنَّوجي (١٣٠٧هـ) : ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر : ٣٧] ، أي : أنظر إليه ، وأطلع علىٰ حاله ، قرأ الأعرج السّلمي ، وعيسىٰ بن عمر ، وحفص بالنَّصب علىٰ جواب الأمر في قوله :﴿ ٱبْنِ لِى﴾ ، وهذا رأي البصريِّين . أو علىٰ جواب الترجِّي كما قال أبو عبيدة وغيره ، وهذا رأي الكوفيِّين .

قال النَّحَّاس : معنىٰ النَّصب خلاف معنىٰ الرَّفع ، لأنَّ معنىٰ النَّصب متىٰ بلغت الأسباب اطَّلعت ، وقرأ الجمهور بالرَّفع عطفاً علىٰ ﴿ أَبْلُغُ ﴾ ، فهو علىٰ هذا داخل في حيِّز الترجِّي ، ومعناه لعلِّي أبلغ ، ولعلِّي أطلع بعد ذلك، وقيل : غير ذلك ، وفي هذا دليل علىٰ أنَّ فرعون كان بمكان من الجهل عظيم ، وبمنزلة من فهم حقائق الأشياء سافلة جداً .

﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ﴾ ، أي : موسىٰ ﴿كَـٰذِبًا﴾ ، في ادِّعائه بأنَّ له إلهاً غيري ، مستوياً علىٰ العرش فوق السَّموات أو فيما يدَّعيه من الرسالة ، قيل : قال فرعون ذلك تمويهاً وتلبيساً ، وتخليطاً علىٰ قومه ، وإلَّا فهو يعرف ويعتقد حقيقة الإله ، وأنَّه ليس في جهة العلو ، ولكنَّه أراد التَّلبيس علىٰ قومه توصُّلاً لبقائهم علىٰ الكفر ، فكأنَّه يقول : لو كان إله موسىٰ موجوداً لكان له محلّ ، ومحلُّه إمَّا الأرض وإمَّا السَّماء ، ولم نره في الأرض فيبقىٰ أن يكون في السَّماء ، والسَّماء لا توصُّل إليها إلَّا بسلَّم ، قاله الحفناوي " (٢) .

وقال الإمام أحمد بن مصطفىٰ المراغي (١٣٧١هـ) : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ * أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ﴾ [غافر : ٣٦ - ٣٧] ، أي : وقال فرعون بعد سماعه عظة المؤمن وتحذيره له من بأس الله إذا كذب بموسىٰ وقتله : يا هامان ابن لي قصراً منيفاً عالي الذّرا رفيع

---

(١) انظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، شهاب الدِّين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي ، (١٠/ ٢٨٩-٢٩٠) ، تحقيق : علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤١٥هـ .

(٢) انظر : فتحُ البيان في مقاصد القرآن (١٢/ ١٩٠-١٩١) .

العماد ، علَّني أبلغ أبواب السَّماء وطرقها ، حتىٰ إذا وصلت إليها رأيت إله موسىٰ ، ولا يريد بذلك إلَّا الاستهزاء والتَّهكُّم ، وتكذيب دعوىٰ الرِّســـالة من ربِّ السَّموات والأرض . والخلاصة : إنَّ هذا نفيٌ لرسالته من عند ربِّه .

ثمَّ أكَّد هذا النَّفي الضِّمني بالتَّصريح به بقوله : ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٧] ، أي : وإنِّي لأظنُّه كاذباً فيما يقول ويدَّعي من أنَّ له في السَّماء ربَّاً أرسله إلينا ، وقد قال هذا تمويهاً وتلبيساً علىٰ قومه، توصُّلاً بذلك إلىٰ بقائهم علىٰ الكفر ، وإلَّا فهو يعلم أنَّ الإله ليس في جهة العلو فحسب ، وكأنَّه يقول : لو كان إله موسىٰ موجوداً لكان له محلٌّ ، ومحلُّه إمَّا الأرض وإمَّا السَّماء ، ولم نره في الأرض ، فإذاً هو في السَّماء ، والسَّماء لا يتوصَّل إليها إلَّا بسلَّم ، فيجب أن نبني الصَّرح لنصل إليه " (١) .

وقال الشَّهيد سيِّد قطب إبراهيم حسين الشَّاربي (١٣٨٥هـ) : ﴿ لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ * أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٦ – ٣٧] ، لأنظر وأبحث عن إله موسىٰ هناك ... هكذا يموِّه فرعون الطَّاغية ، ويحاور ويداور ، كي لا يواجه الحقَّ جهرة ، ولا يعترف بدعوة الوحدانيَّة التي تهزُّ عرشه ، وتهدِّد الأساطير التي قام عليها ملكه . وبعيد عن الاحتمال أن يكون هذا فهم فرعون وإدراكه .

وبعيد أن يكون جادَّاً في البحث عن إله موسىٰ علىٰ هذا النَّحو المادِّي السَّاذج . وقد بلغ فراعنة مصر من الثَّقافة حدَّاً يبعد معه هذا التَّصوُّر . إنَّما هو الاستهتار والسُّخرية من جهة ، والتَّظاهر بالإنصاف والتثبُّت من جهة أُخرىٰ . وربَّما كانت هذه خطة للتَّراجع أمام مطارق المنطق المؤمن في حديث الرَّجل المؤمن ! وكلُّ هذه الفروض تدلُّ علىٰ إصراره علىٰ ضلاله ، وتبجُّحه في جحوده " (٢) .

وقال الإمام نظام الدِّين الحسن بن محمَّد بن حسين القمِّي النَّيسابوري (٧٢٨هـ) : " ... ومنها أنَّ فرعون طلب حقيقة الإله في قوله : ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] ، ولم يزد موسىٰ علىٰ ذكر الأوصاف . وأمَّا فرعون فقد طلب الإله في السَّماء في قوله : ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٧] ، فعلمنا أنَّ التَّنزية دين موسىٰ ، ووصفه بالمكان والحيِّز دين فرعون ، والجواب : لا نزاع في أنَّ حقيقة ذاته كما هي لا يعلمها إلَّا هو ، والبسائط المحضة لا تعرف إلَّا بلوازم ، وطلب فرعون إنَّما كان مذموماً ، لأنَّه تصوَّر أن يكون الإله شخصاً مثله علىٰ تقدير وجوده لقوله : ﴿ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨] (٣) .

---

(١) انظر : تفسير المراغي (٢٤/ ٧١-٧٢) .

(٢) انظر : في ظلال القرآن (٥/ ٣٠٨٣) .

(٣) انظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٣/ ٢٥١) .

وقال الإمام تاج الدِّين عبد الوهَّاب بن تقيِّ الدِّين السُّبكي (٧٧١هـ) نقلاً عن ابن جهبل في ردِّه علىٰ ابن تيمية : " وَاسْتدلَّ بقوله تَعَالَىٰ حِكَايَة عَن فِرْعَوْن : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ * أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٦ – ٣٧] ، فليت شعري ، كَيفَ فهم من كَلَام فِرْعَوْن أَنَّ الله تَعَالَىٰ فَوق السَّموات وَفَوق الْعَرْش، يطلع إِلىٰ إِلَه مُوسَىٰ ، أما أَنَّ إِلَه مُوسَىٰ فِي السَّموات ، فَمَا ذكره ، وعَلىٰ تَقْدِير فهم ذَلِك من كَلَام فِرْعَوْن ، فَكيف يسْتَدلّ بِظَنِّ فِرْعَوْن وفهمه مَعَ إِخْبَار الله تَعَالَىٰ عَنهُ أَنَّه زيِّن لَهُ سوء علمه ، وَأَنَّه حاد عَن سَبِيل الله عزَّ وجلَّ ، وَأَنَّ كَيده فِي ضلال ، مَعَ أَنَّه لما سَأَلَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام ، وَقَالَ : وَمَا ربُّ السَّموات ، لم يتَعَرَّض مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام للجهة ، بل لم يذكر إِلَّا أخصّ بِالصِّفَاتِ وَهِي الْقُدْرَة علىٰ الاختراع ، وَلَو كَانَت الْجِهَة ثَابِتَة لَكَانَ التَّعْرِيف بهَا أولىٰ ، فَإِن الْإِشَارَة الحسِّيَّة من أقوىٰ المعرفات حسَّاً وَعرفاً ، وَفرْعَوْن سَأَلَ بِلَفْظَة مَا فَكَانَ الْجَواب بالتَّحيُّز أولىٰ من الصِّفة ، وَغَايَة مَا فهمه من هَذِه الْآيَة وَاسْتدلَّ بِهِ فهم فِرْعَوْن ، فَيكون عُمْدَة هَذِه العقيدة كَون فِرْعَوْن ظَنّهَا ، فَيكون هُوَ مستندها ، فليت شعري ، لم لَا ذكر النِّسْبَة إِلَيْهِ كَمَا ذكر أَنَّ عقيدة سَادَات أمَّة محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذين خالفوا اعْتِقَاده فِي مَسْأَلَة التحيُّز والجهة الَّذين ألحقهم بالجهميَّة مُتَلَقَّاة من لبيد بن الأعصم الْيَهُودِيّ الَّذِي سحر النَّبِي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " (١) .

تَاسِعَاً : وَمِنَ الآيَاتِ التِيْ يَسْتَدِلُّوْنَ بِهَا عَلَى العُلُوِّ الحِسِّيِّ المَكَانِي لله تَعَالَى : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران:٥٥] .

والنَّاظر فيما قاله علماء الأمَّة في معنىٰ الرَّفع الوارد في الآية الكريمة يجد أنَّ جمهورهم ذهب إلىٰ ما يُخالف ما ذهب إليه المجسِّمة الذين ذهبوا إلىٰ الاستدلال بالآية الكريمة علىٰ العلوِّ المكانيِّ لله تعالىٰ ، والعياذ بالله تعالىٰ …

فمن أشهر المعاني التي ذكرها العلماء للرَّفع الوارد في الآية :

(١) رافعك إلىٰ السَّماء حيث لا ينفذ إلَّا حكمي، ولا يريد أن اللهَّ في السماء، وشبَّه رفعه إلىٰ السَّماء بالموت؛ لأنَّه يفقد عند الرفع كما يفقد عند الموت، وقيل: الرفع هنا رفع المنزلة .

(٢) أي: إلىٰ سمائي ومحلّ كرامتي، فجعل ذلك رفعاً إليه للتَّفخيم والتَّعظيم .

(٣) إلىٰ مقرِّ ملائكتي ومحلِّ كرامتي، وعلىٰ كلٍّ فالكلام علىٰ حذف مضاف إذ من المعلوم أنَّ البارئ سبحانه ليس بمتحيِّز في جهة …

---

(١) انظر : طبقات الشافعية الكبرىٰ (٩/ ٥٠) .

وفيما يلي طائفة من أقوال علماء الأمَّة في تفسير الرَّفع الوارد في الآية :

قال الإمام أبو بكر الباقلَّاني المالكي (٤٠٣هـ) : ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [ل عمران:٥٥] ، قالوا: وما الفائدة في أن يُرفع إليه أو إلى ملائكته ميتاً، وكيفَ يَرفعه إليه حيَّاً أو ميتاً وليس هو في مكانٍ ولا تحويه الأقطار، فيقال لهم: هذا من المقدَّم المؤخَّر فكأنّه قال: إنِّي رافِعُك إليَّ ومتوفِّيك، والواو لا توجبُ التَّرتيب، وإنَّما توجبُ الجمعَ بينَ المذكورين، وقد قال قوم : أنَّه أرادَ برفعه رفعَ درجته وتعظيمَ شأنه وتبليغه المنزلة التي مَن بلغها عَظُمت منزلته.

قالوا: وقولُه إليَّ، أي: إلى موضع كرامتي ومواضع أوليائي وهو بمثابة قول إبراهيم: ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصافات:٩٩] ، أي: إلى حيثُ أولياؤهُ وحيث يُعبد ويُذْكر.

وقال أكثر الأمَّة: أراد بقوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أنَّه رفَعهُ إلى السَّماء حيَّاً. وأنَّه لا يموتُ حتى ينزلَ فيصلِّي خلفَ المهدي، ويكون داعياً إلى شريعة نبيِّنا عليه السَّلام ، ومؤكِّداً لها غير داعٍ إلى شريعته " (١) .

قال الإمام الماوردي (٤٥٠هـ) : ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ قولان: أحدهما: رافعك إلى السَّماء. والثَّاني: معناه : رافعك إلى كرامتي " (٢) .

وقال الإمام أبو سعد بن أبي سعيد المتولي النَّيسابوري (هـ٤٧٨) : " فإن استدلُّوا بظواهر الكتاب والسُّنَّة مثل قوله ... ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ ... وغير ذلك من الآيات والأخبار فلأصحابنا في ذلك طريقان :

أحدهما : الإعراض عن التَّأويل والإيمان بها كما جاءت ، والإيمان بها صحيح وإن لم يعرف معناها ، كما أنَّ إيماننا بجميع الأنبياء والملائكة صلوات الله عليهم والكُتب المنزلة من الله تبارك وتعالى صحيح وإن لم يعرف شيئاً في ذلك ، وإيماننا بالحروف المقطَّعة في أوائل السُّور صحيح وإن لم نعرف معناها ، وهذا الطَّريق أقرب إلى السَّلامة .

ومن أصحابنا من صار إلى التَّأويل ، والاختلاف صادر عن اختلاف القراءتين في قوله تعالى : ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران:٧] .

فمن صار إلى الوقف على قوله : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ﴾ [آل عمران:٧] أعرض عن التَّأويل وجعل قوله : ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران:٧] كلاماً مبتدأ ، ومعناه : أنَّ العلماء يقولون آمنَّا به ، ومن صار إلى الوقف

(١) انظر : الانتصار للقرآن (٢/ ٧٤٤-٧٤٥) .

(٢) تفسير الماوردي (النكت والعيون) (١/ ٣٩٧) .

علىٰ قوله : ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران:٧] فيكون معناه : أنَّ الله تعالىٰ يعلم تأويله ، والرَّاسخون في العلم أيضاً يعلمون تأويله صار إلىٰ التَّأويل .

ولكن الطَّريق في الجواب معهم أن نعارضهم بآيات تُخالف ظواهرها ظواهر هذه الآيات ، وذلك مثل قوله تعالىٰ : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾ [المجادلة:٧] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ ﴾ [الحديد:٤] ، وموجب الآيتين حلوله في كلِّ مكان وقال تعالىٰ ألا أنَّه بكل شيء محيط ومقتضىٰ ظاهرها أنَّه محيط بالعالم .

فإن أعرضوا عن تأويل هذه الآيات مع الإيمان بظواهرها والاعتقاد بأنَّه لا يكون في كلِّ مكان ، وأنَّه غير محيط بالعالم أعرضنا نحن عن التَّأويل وصرنا إلىٰ الإيمان بما ورد مع الاعتقاد بأنَّ الحقَّ تعالىٰ منزَّه عن المكان ، وإن صاروا إلىٰ التَّأويل وقالوا : المراد بقوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ ﴾ بالعلم لا بالذَّات ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ مُّحِيطُۢ﴾ يعني بالعلم ضرباً إلىٰ التَّأويل ... وأمَّا قوله تعالىٰ : ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ معناه : إلىٰ كرامتي ورحمتي " (١) .

وقال الإمام الواحدي (٤٦٨هـ) : " وقوله: ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أي: إلىٰ سمائي ومحلِّ كرامتي، فجعل ذلك رفعاً إليه للتَّفخيم والتَّعظيم " (٢) .

وقال أيضاً : " وقوله تعالىٰ: ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ ، أي : إلىٰ سمائي ومحلِّ كرامتي. فجعل ذلك رَفْعًا إليه ؛ للتَّفخيم والتَّعظيم، ومثله، قوله: ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩] ، وإنَّما ذهب إبراهيم عليه السَّلام من العراق إلىٰ الشَّام، والتَّقدير: إلىٰ أمر ربِّي، لأنَّه أمره بذلك المكان " (٣) .

وقال الإمام الرَّاغب الأصفهاني (٥٠٢هـ) : ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ عن شهوتك، ولم يكن ذلك رفعاً مكانيَّاً، وإنَّما هو رفعة المحل " (٤) .

وقال الإمام الزَّمخشري (٥٣٨هـ) : ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ إلىٰ سمائي ومقرِّ ملائكتي " (٥) .

---

(١) انظر: الغنية في أصول الدِّين (ص٧٥-٧٨ باختصار) .

(٢) الوسيط في تفسير القرآن المجيد (١/ ٤٤٢) .

(٣) انظر : التَّفْسِيرُ البَسِيْط (٥/ ٣٠٦) .

(٤) انظر : تفسير الراغب الأصفهاني(المقدمة وتفسير الفاتحة والبقرة) (٢/ ٥٩٢) .

(٥) انظر : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ٣٦٦) .

وقال الإمام ابن عطيَّة الأندلسي (٥٤٢هـ) : " وقوله تعالىٰ: ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ عن نقله إلىٰ علو من سفل وقوله " إِلَيَّ " إضافة تشريف لما كانت سماءه والجهة المكرَّمة المعظمة المرجوة، وإلَّا فمعلوم أنَّ الله تعالىٰ غير متحيِّز في جهة " (١) .

وقال الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) : " وَالْمُشَبِّهَةُ يَتَمَسَّكُونَ بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي إِثْبَاتِ المكان لله تعالىٰ وأنَّه في السَّماء، وَقَدْ دَلَّلْنَا فِي الْمَوَاضِعِ الْكَثِيرَةِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ بِالدَّلَائِلِ الْقَاطِعَةِ عَلَىٰ أَنَّه يَمْتَنِعُ كَوْنُهُ تَعَالَىٰ فِي الْمَكَانِ فَوَجَبَ حَمْلُ اللَّفْظ عَلَىٰ التَّأْوِيلِ، وَهُوَ مِنْ وُجُوهٍ:

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: أَنَّ الْمُرَادَ إِلىٰ مَحَلِّ كَرَامَتِي، وَجعَلَ ذَلِكَ رَفْعًا إِلَيْهِ لِلتَّفْخِيمِ وَالتَّعْظِيمِ وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ [الصَّافَّاتِ: ٩٩] وَإِنَّمَا ذَهَبَ إِبْرَاهِيمُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْعِرَاقِ إِلىٰ الشَّامِ وَقَدْ يَقُولُ السُّلْطَانُ: ارْفَعُوا هَذَا الْأَمْرَ إِلىٰ الْقَاضِي، وَقَدْ يُسَمَّىٰ الْحُجَّاجُ زُوَّارَ اللهِ، وَيُسَمَّىٰ الْمُجَاوِرُونَ جِيرَانَ اللهِ، وَالْمُرَادُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ التَّفْخِيمُ وَالتَّعْظِيمُ فَكَذَا هَاهُنَا.

الْوَجْهُ الثَّانِي: فِي التَّأْوِيلِ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ :﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ مَعْنَاهُ : أَنَّه يُرْفَعُ إِلىٰ مَكَانٍ لَا يَمْلِكُ الْحُكْمَ عَلَيْهِ فِيهِ غَيْرُ اللهِ لِأَنَّ فِي الْأَرْضِ قد يتولىٰ الخلق أنواع الأحكام فأما السموات فَلَا حَاكِمَ هُنَاكَ فِي الْحَقِيقَةِ وَفِي الظَّاهِرِ إِلَّا اللهُ.

الْوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنَّ بِتَقْدِيرِ الْقَوْلِ بِأَنَّ اللهَ فِي مَكَانٍ لَمْ يَكُنِ ارْتِفَاعُ عِيسَىٰ إِلىٰ ذَلِكَ سَبَبًا لِانْتِفَاعِهِ وَفَرَحِهِ بَلْ إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِذَلِكَ لَوْ وَجَدَ هُنَاكَ مَطْلُوبَهُ مِنَ الثَّوَابِ وَالرَّوْحِ وَالرَّاحَةِ وَالرَّيْحَانِ، فَعَلَىٰ كِلَا الْقَوْلَيْنِ لَا بُدَّ مِنْ حَمْلِ اللَّفْظِ عَلَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ: وَرَافِعُكَ إِلىٰ مَحَلِّ ثَوَابِكَ وَمُجَازَاتِكَ، وَإِذَا كَانَ لَا بُدَّ مِنْ إِضْمَارِ مَا ذَكَرْنَاهُ لَمْ يَبْقَ فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَىٰ إِثْبَاتِ الْمَكَانِ للهِ تَعَالَىٰ.

الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ: مِنْ صِفَاتِ عِيسَىٰ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَالْمَعْنَىٰ مُخْرِجُكَ مِنْ بَيْنِهِمْ وَمُفَرِّقٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَكَمَا عَظَّمَ شَأْنَهُ بِلَفْظِ الرَّفْعِ إِلَيْهِ أَخْبَرَ عَنْ مَعْنَىٰ التَّخْلِيصِ بِلَفْظِ التَّطْهِيرِ وَكُلُّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَىٰ الْمُبَالَغَةِ فِي إِعْلَاءِ شَأْنِهِ وَتَعْظِيمِ مَنْصِبِهِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ.

الصِّفَةُ الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ وجاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلىٰ يَوْمِ الْقِيامَةِ وَجْهَانِ الْأَوَّلُ: أَنَّ الْمَعْنَىٰ: الَّذِينَ اتَّبَعُوا دِينَ عِيسَىٰ يَكُونُونَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِ، وَهُمُ الْيَهُودُ بِالْقَهْرِ وَالسُّلْطَانِ وَالِاسْتِعْلَاءِ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ إخباراً عن ذلِّ اليهود وإنهم يكونوا مَقْهُورِينَ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَأَمَّا الَّذِينَ اتَّبَعُوا الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَأَمَّا بَعْدَ الْإِسْلَامِ فَهُمُ الْمُسْلِمُونَ، وَأَمَّا النَّصَارَىٰ

(١) انظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٤٤٤) .

فَهُمْ وَإِنْ أَظْهَرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ مُوَافَقَتَهُ فَهُمْ يُخَالِفُونَهُ أَشَدَّ الْمُخَالَفَةِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ صَرِيحَ الْعَقْلِ يَشْهَدُ أَنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا كَانَ يَرْضَى بِشَيْءٍ مِمَّا يَقُولُهُ هَؤُلَاءِ الْجُهَّالُ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّا نَرَىٰ أَنَّ دَوْلَةَ النَّصَارَىٰ فِي الدُّنيا أَعْظَمُ وَأَقْوَىٰ مِنْ أَمْرِ الْيَهُودِ فَلَا نَرَىٰ فِي طَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِ الدُّنيا مُلْكًا يَهُودِيًّا وَلَا بَلْدَةً مَمْلُوءَةً مِنَ الْيَهُودِ بَلْ يَكُونُونَ أَيْنَ كَانُوا بالذلة والمسكنة وَأَمَّا النَّصَارَىٰ فَأَمْرُهُمْ بِخِلَافِ ذَلِكَ الثَّانِي: أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ هَذِهِ الْفَوْقِيَّةِ الْفَوْقِيَّةُ بِالْحُجَّةِ وَالدَّلِيلِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ رَفْعَهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ هُوَ الرِّفْعَةُ بِالدَّرَجَةِ وَالْمَنْقَبَةِ، لَا بِالْمَكَانِ وَالْجِهَةِ، كَمَا أَنَّ الْفَوْقِيَّةَ فِي هَذِهِ لَيْسَتْ بِالْمَكَانِ بَلْ بِالدَّرَجَةِ وَالرِّفْعَةِ " (١) .

وقال الإمام عز الدِّين عبد العزيز بن عبد السَّلام (٦٦٠هـ) : ﴿ إِلَيَّ ﴾ إلىٰ سمائي، أو كرامتي " (٢) .

وقال الإمام البيضاوي (٦٨٥هـ) : ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ إلىٰ محلِّ كرامتي ومقرِّ ملائكتي " (٣) .

وقال الإمام النَّسفي (٧١٠هـ) : ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ إلىٰ سمائي ومقرِّ ملائكتي " (٤) .

وقال الإمام ابْن جهبل الْكلابِي (٧٣٣هـ) في ردِّه علىٰ ابن تيمية : " ... وأتبعها بقوله تَعَالَىٰ ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ وَمَا أَدْرِي من أَيْن استنبط من هَذَا الْخَبَر أَن الله تَعَالَىٰ فَوق الْعَرْش من هَذِه الْآيَة هَل ذَلِك بدلَالَة الْمُطَابقَة أَو التَّضمن أَو الِالْتِزَام أَو هُوَ شَيْء أَخذه بطرِيق الْكَشْف والنَّفث فِي الرُّوع ، وَلَعَلَّه اعْتقد أَن الرّفْع إِنَّمَا يكون فِي الْعُلُوّ فِي الْجِهَة ، فَإِن كَانَ كَمَا خطر لَهُ فَذَاك أَيْضاً لَا يعقل إِلَّا فِي الجسميَّة والحديَّة و،إِن لم يقل بهما فَلَا حَقِيقَة فِيمَا اسْتدلَّ بِهِ ، وَإِن قَالَ بهما فَلَا حَاجَة إِلىٰ المغالطة ، وَلَعَلَّه لم يسمع الرَّفْع فِي الْمرتبَة والتَّقريب فِي المكانة من اسْتِعْمَال الْعَرَب وَالْعرْف وَلَا فلَان رفع الله شَأْنه " (٥) .

وقال الإمام ابن جماعة الكناني الحموي (٧٣٣هـ) : " اعْلَم أَنَّه قد تقدم الْكَلَام عَلَيْهِ فِي آيَة الاسْتوَاء ونزيد هَهُنَا أَنَّه إِذا ثَبت اسْتِحَالَة الْجِهَة فِي حَقه تَعَالَىٰ وَجب تَأْوِيل هَذِه الْآيَات ... قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ ، وَقَوله : ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ ﴾ إِلىٰ مَحَلِّ كرامته كَمَا يُقَال : رفع السُّلْطَان فلَانا إِلَيْهِ لَيْسَ الْمُرَاد مَكَانا وَلَا جِهَة علو بل قرب رُتْبَة ومنزلة " (٦) .

---

(١) انظر : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (٨/ ٢٣٨ فما بعدها) .

(٢) انظر : تفسير القرآن (وهو اختصار لتفسير الماوردي) (١/ ٢٦٤) .

(٣) انظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢/ ١٩) .

(٤) انظر : تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) (١/ ٢٥٩) .

(٥) انظر : طبقات الشافعية الكبرىٰ (٩/ ٤٦) .

(٦) انظر : إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل (١/ ١١٢) .

وقال الإمام ابن جزي الكلبي الغرناطي (٧٤١هـ) : ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ أي إلى السَّماء " (١) .

وقال الإمام الخازن (٧٤١هـ) : " أخبر الله تعالى أنَّه رفع بتمامه إلى السَّماء بروحه وجسده جميعاً " (٢) .

وقال الإمام أبو حيَّان الأندلسي (٧٤٥هـ) : ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ الرَّفْعُ نَقْلٌ مِنْ سُفْلٍ إلى عُلُوٍّ و: إليّ، إِضَافَةُ تَشْرِيفٍ. وَالْمَعْنَى: إِلَى سَمَائِي وَمَقَرِّ مَلَائِكَتِي. وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ الْبَارِيَ تَعَالَى لَيْسَ بِمُتَحَيِّزٍ فِي جِهَةٍ، وَقَدْ تَعَلَّقَ بِهَذَا الْمُشَبِّهَةُ فِي ثُبُوتِ الْمَكَانِ لَهُ تَعَالَى. وَقِيلَ: إلى مَكَانٍ لَا يَمْلِكُ الْحُكْمَ فِيهِ فِي الْحَقِيقَةِ وَلَا فِي الظَّاهِرِ إِلَّا أَنَا، بِخِلَافِ الْأَرْضِ، فَإِنَّهُ قَدْ يَتَوَلَّى الْمَخْلُوقُونَ فِيهَا الْأَحْكَامَ ظَاهِرًا. وَقِيلَ: إلى مَحَلِّ ثَوَابِكَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: رَفْعُهُ إلى السَّمَاءِ، سَمَاءُ الدُّنيا " (٣) .

وقال الإمام ابن كثير (٧٧٤هـ) : "وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: صَلَبُوا رَجُلًا شَبَّهُوهُ بِعِيسَى، وَرَفَعَ اللهُ، عَزَّ وَجَلَّ، عِيسَى إلى السَّماء حَيًّا " (٤) .

وقال الإمام ابن عادل الحنبلي (٧٧٥هـ) : ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ ، أي: ورافع عملك إليّ، كقوله: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر: ١٠] ، والمرادُ منه: أنَّه تعالى بشره بقبول طاعاتِهِ وأعماله، وعرَّفه أن ما يصل إليه من المتاعب والمشاق – في نشر دينه، وإظهار شريعته من الأعداء فهو لا يُضيع أجره، ولا يهدر ثوابهُ " (٥) .

وقال الإمام نظام الدِّين الحسن بن محمَّد بن حسين القمِّي النَّيسابوري (٨٥٠هـ) : " أمَّا قوله : ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ فالمشبِّهة تمسَّكوا بمثله في إثبات المكان لله تعالى ، وأنَّه في السَّماء، لكن الدَّلائل القاطعة دلَّت على أنَّه متعال عن الحيِّز والجهة ، فوجب حمل هذا الظَّاهر على التَّأويل بأنَّ المراد : إلى محلِّ كرامتي ومقرِّ ملائكتي ، ومثله قول إبراهيم: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩] وإنما ذهب من العراق إلى الشام، وقد سمي الحجاج زوّار الله، والمجاورون جيران الله. والمراد : التَّفخيم والتَّعظيم، أو المراد : إلى مكان لا يملك الحكم عليه هناك غير الله ، فإنَّ في الأرض ملوكاً مجازيَّة. ولئن سلم أنَّه تعالى يمكن أن يكون في مكان فليس رفع عيسى عليه السَّلام إلى ذلك المكان سبباً لبشارته ما لم يتيقَّن الثَّواب والكرامة والرّوح والرَّاحة، فلا بدَّ من

---

(١) انظر : التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ١٥٤) .

(٢) انظر : تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل (١/ ٣٥٦) .

(٣) انظر : البحر المحيط في التفسير (٣/ ١٧٧) .

(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٥٢) .

(٥) انظر : اللباب في علوم الكتاب (٥/ ٢٦٧) .

صرف اللفظ عن ظاهره وهو أن يقال: المراد رفعه إلى محلِّ كرامته، وإذا لم يكن بدٌّ من الإضمار فلم يبق في الآية دلالة على إثبات المكان له تعالى " (١) .

وقال الإمام الثَّعالبي (٨٧٥هـ) : " وقوله تعالى: ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ عبارةٌ عَنْ نَقْلِهِ من سُفْلٍ إلى عُلْو، وإضافه اللهَّ سبحانه إضافةُ تشريفٍ، وإلَّا فمعلومٌ أنَّه سبحانه غَيْرُ متحيِّزٍ في جهةٍ " (٢) .

وقال الإمام محمَّد بن عبد الرَّحمن الإيجي الشَّافعيّ (٩٠٥هـ) : ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ إلى محلِّ كرامتي " (٣) .

وقال الإمام الخطيب الشَّربيني (٩٧٧هـ) : ﴿ مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أي: إلى محلِّ كرامتي ومقرّ ملائكتي " (٤)

وقال الإمام أبو السُّعود العمادي (٩٨٢هـ) : ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾أي : إلى محلِّ كرامتي ومقرِّ ملائكتي " (٥) .

وقال الإمام ابن عجيبة (١٢٢٤هـ) : ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أي: إلى محلِّ كرامتي ومقرِّ ملائكتي " (٦) .

وقال الإمام القاضي مولوي محمَّد ثناء الله الهندي الفاني فتي النَّقشبندى الحنفي العثماني المظهري (١٢٢٥هـ) : ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أي : إلى محلِّ كرامتي ومقرِّ ملائكتي " (٧) .

وقال الإمام الألوسي (١٢٧٠هـ) : " وأراد سبحانه بقوله: ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ رافعك إلى سمائي، وقيل: إلى كرامتي، وعلى كلٍّ فالكلام على حذف مضاف ، إذ من المعلوم أنَّ البارئ سبحانه ليس بمتحيِّز في جهة، وفي رفعه إلى أي سماء خلاف ، والذي اختاره الكثير من العارفين أنَّه رفع إلى السَّماء الرَّابعة، وعن ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما أنَّه رفعه إلى السَّماء الدُّنيا فهو فيها يسبح مع الملائكة ... " (٨) .

وقال الإمام محمَّد بن عمر نووي الجاوي (١٣١٦هـ) : ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ من الأرض إلى محلِّ كرامتي وإلى محلّ ثوابك " (٩) .

وقال الدكتور وهبة بن مصطفى الزّحيلي : ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ ، أي : إلى كرامتي " (١) .

---

(١) انظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٢/ ١٧١) .

(٢) انظر : الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٢/ ٥٣) .

(٣) انظر : تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الشافعيّ ، (١/ ٢٥١) .

(٤) انظر : السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (١/ ٢٢٠) .

(٥) انظر: تفسير أبي السعود) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٢/ ٤٤) .

(٦) انظر : البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (١/ ٣٦٠) .

(٧) انظر : التفسير المظهري (٢/ ٥٦) .

(٨) انظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (٢/ ١٧٤-١٧٥) .

(٩) انظر : مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد (١/ ١٢٨) .

وقال الشَّيخ سعيد حوَّىٰ (١٤٠٩هـ) : ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ ، أي: إلىٰ سمائي، ومقرّ ملائكتي؛ بدليل رؤيته من رسولنا عليه الصَّلاة والسَّلام يوم المعراج في السَّماء " (٢) .

عَاشِرَاً : وَمِنَ الآيَاتِ التِيْ يَسْتَدِلُّوْنَ بِهَا عَلَى العُلُوِّ الحِسِّيِّ المَكَانِي لله تَعَالَى : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء:١٥٨] .

والنَّاظر فيما قاله علماء الأمَّة في معنىٰ الرَّفع الوارد في الآية الكريمة يجد أنَّ جمهورهم ذهب إلىٰ ما يُخالف ما ذهب إليه المجسِّمة الذين ذهبوا إلىٰ الاستدلال بالرَّفع علىٰ العلوِّ المكاني لله تعالىٰ ، والعياذ بالله تعالىٰ ...

فمن أشهر المعاني التي ذكرها العلماء للرَّفع الوارد في الآية :

(١) رَفعه إِلىٰ الْموضع الَّذِي لَا يعبد فِيهِ إِلَّا الله وَلَا يذكر فِيهِ غَيره لَا علىٰ معنىٰ أَنَّه ارْتَفع إِلَيْهِ كَمَا يترفَّع الْجِسْم من سفل إِلىٰ جسم فِي علو بِأَن يقرب مِنْهُ بالمسافة والمساحة .

(٢) أنَّه رفعه إلىٰ موضع لا يجري عليه حكم أحد من العباد ، فصار رفعه إلىٰ حيث لا يجري عليه حكم العباد رفعاً إليه .

(٣) أنَّه رفعه إلىٰ السَّماء ، والله متعال عن المكان ...

وفيما يلي طائفة من أقوال علماء الأمَّة في تفسير الرَّفع الوارد في الآية :

قال الإمام محمَّد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني، أبو بكر (٤٠٦هـ) : " وَأمَّا قَوْله تَعَالَىٰ فِي قصَّة عِيسَىٰ ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ ﴾ فَمَعْنَاه : رَفعه إِلىٰ الْموضع الَّذِي لَا يعبد فِيهِ إِلَّا الله ، وَلَا يذكر فِيهِ غَيره ، لَا علىٰ معنىٰ أَنَّه ارْتَفع إِلَيْهِ كَمَا يترفع الْجِسْم من سفل إِلىٰ جسم فِي علوّ بِأَن يقرب مِنْهُ بالمسافة والمساحة " . (٣) .

وقال الإمام الماوردي (٤٥٠هـ) :﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنَّه رفعه إلىٰ موضع لا يجري عليه حكم أحد من العباد ، فصار رفعه إلىٰ حيث لا يجري عليه حكم العباد رفعاً إليه ، وهذا قول بعض البصريِّين. والثَّاني: أنَّه رفعه إلىٰ السَّماء ، وهو قول الحسن " (٤) .

وقال الإمام الواحدي (٤٦٨هـ) : " ومعنىٰ ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ أي إلىٰ الموضع الذي لا يجري لأحد سوىٰ الله فيه حكم، وكان رفعه إلىٰ ذلك الموضع رفعًا إليه، لأنَّ رفع عن أن يجري عليه حكم أحد من العباد،

---

(١) انظر : التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج (٣/ ٢٣٨).

(٢) انظر : الأساس في التفسير (٢/ ٧٧٠) .

(٣) انظر : مشكل الحديث وبيانه (ص٣٩٣) .

(٤) انظر : تفسير الماوردي (النكت والعيون) (١/ ٥٤٤) .

كقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠] ، ولم تخرج الأمور اليوم من حكمه فترجع إليه، ولكن المعنى أنَّ الأمور تصير بحيث لا يجري لأحد حكم فيها حقيقة ولا مجازًا سوى الله تعالى يوم القيامة.
يؤكِّد ما قلنا أنَّ الحسن قال: ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ إلى السَّماء . كما قال: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٠٠] ، وكانت الهجرة يومئذٍ إلى المدينة، وكذلك ما أخبر به عن إبراهيم في قوله: ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩] ، وكان ذاهبًا إلى الشَّام، فجعل ذهابه إلى الموضع الذي أمره ربه ذهابًا إلى ربِّه " (١) .
وقال أيضاً : ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى الموضع الذي لا يجري لأحد سوى الله فيه حكم، فكان رفعه إلى ذلك الموضع رفعا لأنَّه رفع عن أن يجري عليه حكم العباد.
يؤكِّد هذا أنَّ الحسن قال: ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى السَّماء، كما قال: ﴿ يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠] ، وكانت الهجرة إلى المدينة " (٢) .
وقال الإمام أيضاً : ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ أَيّ: إلى الموضع الذي لا يجري لأحدٍ سوى الله فيه حكمٌ وكان رفعُه إلى ذلك الموضع رفعاً إليه لأنَّه رُفع عن أن يجري عليه حكم أحدٍ من العباد " (٣) .
وقال الإمام الرَّاغب الأصفهاني (٥٠٢هـ) : " وقوله تعالى: ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ قيل: معناه رقى بشخصه كما هو إلى السَّماء، وإليه ذهب - جماعة من أصحاب الحديث، وقيل معناه: مع ذلك أنَّه شرف مكانه من بين الأنام كقوله: ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم:٥٧]، وكقول الشَّاعر :

بلغنا السَّما حسابنا لولا السَّما لحر بالسملة

وقول الآخر: لَنا بَيْتٌ على عُنُق الثُّريّا ...
وذكر قول ﴿ إِلَيْهِ﴾ تنبيهاً على تعظيم المرفوع، لا إلى إشارة إلى حدٍّ محدود، تنبيهاً على أنَّه حصل له به أعلى الشَّرف، وإلى نحوه أشار ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ ، ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ، ومثل هذا يشار إليه ولا يمكن الكشف عن حقائقه باللفظ، وإنَّما يدركه الإنسان بحسب ما جعله له من نوره" (٤) .

---

(١) انظر : التَّفْسِيرُ البَسِيْط (٧/ ١٨٥) .
(٢) انظر : الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٢/ ١٣٧) .
(٣) انظر : الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٣٠١) .
(٤) انظر : تفسير الراغب الأصفهاني (المقدمة وتفسير الفاتحة والبقرة) (٤/ ٢٢١-٢٢٢) .

وقال الإمام ابن عطيَّة الأندلسي (٥٤٢هـ) : " وقوله تعالىٰ ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ يعني إلىٰ سمائه وكرامته ، وعيسىٰ عليه السَّلام حي في السَّماء الثَّانية علىٰ ما تضمَّن حديث الإسراء في ذكر ابني الخالة عيسىٰ ويحيىٰ ، ذكره البخاري في حديث المعراج ، وذكره غيره ، وهو هناك مُقيم حتىٰ ينزله الله لقتل الدجَّال ، وليملأ الأرض عدلاً ، ويحيا فيها أربعين سنة ثمَّ يموت كما يموت البشر" (١) .

وقال الإمام محمود بن أبيٰ الحسن بن الحسين النَّيسابوري (المتوفىٰ: نحو ٥٥٠هـ) : ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾: إلىٰ موضع لا يجري عليه أمر أحد من العباد " (٢) .

وقال أيضاً : ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ ، أي: رفعه إلىٰ موضع لا يجري عليه أمر أحد من العباد، كقول إبراهيم: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ ، أي: إلىٰ حيث أمرني ربِّي" (٣) .

وقال الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) : " الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: الْمُشَبِّهَةُ احْتَجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ فِي إِثْبَاتِ الْجِهَةِ.

وَالْجَوَابُ: الْمُرَادُ الرَّفْعُ إِلىٰ مَوْضِعٍ لَا يَجْرِي فِيهِ حُكْمُ غَيْرِ اللهِ تَعَالَىٰ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ [الْبَقَرَةِ: ٢١٠] وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النِّسَاءِ: ١٠٠] ، وَكَانَتِ الْهِجْرَةُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ إِلىٰ الْمَدِينَةِ، وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الصَّافَّاتِ: ٩٩] .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: رَفْعُ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلىٰ السَّماء ثَابِتٌ بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ فِي آلِ عِمْرَانَ : ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٥٥] وَاعْلَمْ أَنَّه تَعَالَىٰ لَمَّا ذَكَرَ عَقِيبَ مَا شَرَحَ أَنَّه وَصَلَ إِلىٰ عِيسَىٰ أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْمِحْنَةِ أَنَّه رَفَعَهُ إِلَيْهِ دَلَّ ذَلِكَ علىٰ أنَّ رفعه إلىٰ أَعْظَمُ فِي بَابِ الثَّوَابِ مِنَ الْجَنَّةِ وَمِنْ كُلِّ مَا فِيهَا مِنَ اللَّذَّاتِ الْجُسْمَانِيَّةِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ تَفْتَحُ عَلَيْكَ بَابَ مَعْرِفَةِ السَّعَادَاتِ الرُّوحَانِيَّةِ " (٤) .

وقال الإمام أبو عبد الله محمَّد بن أحمد القرطبي (٦٧١هـ) : ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ ابْتِدَاءُ كَلَامٍ مُسْتَأْنَفٍ، أَيْ إِلىٰ السَّماءِ، وَاللهُ تَعَالَىٰ مُتَعَالٍ عَنِ الْمَكَانِ " (٥) .

---

(١) انظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ١٥٨) .

(٢) انظر : إيجاز البيان عن معاني القرآن (١/ ٢٦١) .

(٣) انظر : باهر البرهان في معانىٰ مشكلات القرآن (١/ ٣٩٧) .

(٤) انظر : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (١١/ ١٦١) .

(٥) انظر : الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) (٦/ ١٠) .

وقال الإمام النَّسفي (٧١٠هـ) : ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ ﴾ إلى حيث لا حكم فيه لغير الله أو إلى السَّماء " (١) .

وقال الإمام ابن جزي الكلبي الغرناطي (٧٤١هـ) : ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ أي : إلى سمائه وقد ورد في حديث الإسراء أنَّه في السَّماء الثَّانية " (٢) .

وقال الإمام أبو حيَّان الأندلسي (٧٤٥هـ) : ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ هَذَا إِبْطَالٌ لِمَا ادَّعَوْهُ مِنْ قَتْلِهِ وَصَلْبِهِ، وَهُوَ حَيٌّ فِي السَّماء الثَّانِيَةِ عَلَى مَا صَحَّ عَنِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ الْمِعْرَاجِ. وَهُوَ هُنَالِكَ مُقِيمٌ حَتَّى يُنْزِلَهُ اللهُ إِلَى الْأَرْضِ لِقَتْلِ الدَّجَّالِ، وَلِيَمْلَأَهَا عَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا، وَيَحْيَا فِيهَا أَرْبَعِينَ سَنَةً ثم يَمُوتُ كَمَا تَمُوتُ الْبَشَرُ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: رَفَعَ اللهُ عِيسَى إِلَيْهِ فَكَسَاهُ الرِّيشَ وَأَلْبَسَهُ النور، وقطع عنه المطعم والمشرب، فَصَارَ مَعَ الْمَلَائِكَةِ، فَهُوَ مَعَهُمْ حَوْلَ الْعَرْشِ، فَصَارَ إِنْسِيًّا مَلَكِيًّا سَمَاوِيًّا أَرْضِيًّا. وَالضَّمِيرُ فِي ﴿ إِلَيۡهِۚ ﴾ عَائِدٌ إِلَى ﴿ ٱللَّهُ ﴾ تَعَالَى عَلَى حَذْفِ التَّقْدِيرِ إِلَى سَمَائِهِ، وَقَدْ جَاءَ ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾. وَقِيلَ: إِلَى حَيْثُ لَا حُكْمَ فِيهِ إِلَّا لَهُ. وَلَا يُوَجَّهُ الدُّعَاءُ إِلَّا نَحْوَهُ، وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى الْأَوَّلِ " (٣) .

وقال الإمام السَّمين الحلبي (٧٥٦هـ) : " وقوله: ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ ردٌّ لما ادَّعَوْه مِنْ قتله وصلبه. والضَّمير في ﴿ إِلَيۡهِۚ ﴾ عائد على ﴿ ٱللَّهُ ﴾ على حَذْفِ مضاف أي: إلى سمائِه ومحلِّ أمره ونهيه" (٤) .

وقال الإمام ابن عادل الحنبلي (المتوفى بعد سنة ٨٨٠ هـ) : " وقوله : ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ رَدٌّ لما ادَّعَوْهُ مِنْ قتله وصلبه ، والضَّمير في ﴿ إِلَيۡهِۚ ﴾ عائدٌ على ﴿ ٱللَّهُ ﴾ على حَذْفِ مضاف ، أي : إلى سمائه ومحلِّ أمره ونهيه.

فصل : إثبات المشبِّهة للجهة ودفع ذلك : احتجَّ الْمُشَبِّهَةُ بقوله تعالى : ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ ﴾ في إِثْبَات الجِهَةِ.

والجوابُ : أنَّ الْمُراد الرَّفْعُ إلى موضعٍ لا يَجْرِي فِيهِ حُكْمُ غير الله تعالى ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [آل عمران : ١٠٩] وقوله تعالى : ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء : ١٠٠] ، وكانت الهِجْرَة في ذلك الوَقْت ، إلى المَدِينَةِ. وقال إبراهيمُ : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الصافات : ٩٩] (٥) .

---

(١) انظر : تفسير النسفي (١/ ٢٤٩) .

(٢) انظر : التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٢١٦) .

(٣) انظر : البحر المحيط في التفسير (٤/ ١٢٨) .

(٤) انظر : الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٤/ ١٤٨) .

(٥) انظر : تفسير اللباب (١/ ١٦٦٣) .

وقال الإمام أبو زيد عبد الرَّحمن الثَّعالبي (٨٧٥هـ) : " وقوله تعالىٰ: ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ ﴾: يعني: إلىٰ سمائِهِ وكرامتِهِ، وعيسىٰ- عليه السَّلام- في السَّماء علىٰ ما تضمَّنه حديثُ الإِسراء في ذِكْرِ ابني الخالةِ عيسىٰ ويحيىٰ، ذكره البخاريُّ في حديث المعراج، وذكره غيره، وهو هنالك مُقِيمٌ حتىٰ يُنزله اللهّٰ تعالىٰ لِقَتْلِ الدَّجَّال، وليملأَ الأَرْضَ عَدْلاً وَيَحْيَا فيها أربعين سَنَةً، ثمَّ يموت، كما يموت البشر " (١) .

وقال الإمام البقاعي (٨٨٥هـ) : ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ ﴾ بما له من العظمة البالغة والحكمة الباهرة، رفع عيسىٰ عليه الصَّلاة والسَّلام ﴿ إِلَيۡهِۚ ﴾ أي إلىٰ مكان لا يصل إليه حكم آدمي " (٢) .

وقال الإمام محمَّد بن عبد الرَّحمن الإِيجي الشَّافعيّ (٩٠٥هـ) : ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ ﴾ فإنَّ السَّماء محلّ ظهور سلطانه " (٣) .

وقال الإمام الخطيب الشَّربيني (٩٧٧هـ) : ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ ﴾ أي: إلىٰ مكان لا يصل إليه حكم آدمي " (٤) .

وقال الإمام إسماعيل حقي الإستانبولي (١١٢٧هـ) : ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ ﴾ ردٌّ وإنكار لقتله وإثبات لرفعه.

قال الحسن البصري : أي إلىٰ السَّماء التي هي محلّ كرامة الله تعالىٰ ومقرّ ملائكته ولا يجري فيها حكم أحد سواه ، فكان رفعه إلىٰ ذلك الموضع رفعاً إليه تعالىٰ ، لأنَّه رفع عن أن يجري عليه حكم العباد ، ومن هذا القبيل قوله تعالىٰ : ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء : ١٠٠] وكانت الهجرة إلىٰ المدينة ، وقوله : ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الصافات : ٩٩] أي : إلىٰ موضع لا يمنعني أحد من عبادة ربِّي ، والحكمة في الرَّفع أنَّه تعالىٰ أراد به صحبة الملائكة ليحصل لهم بركته لأنَّه كلمة الله وروحه ، كما حصل للملائكة بركة صحبة آدم أبي البشر من تعلّم الأسماء والعلم وأنَّ مثل عيسىٰ عند الله كمثل آدم ، كما ذكر في الآية.

وقيل : رفع إلىٰ السَّماء لَمَّا لم يكن دخوله إلىٰ الوجود الدُّنيوي من باب الشَّهوة وخروجه لم يكن من باب المنيّة ، بل دخل من باب القدرة وخرج من باب العزَّة " (٥) .

وقال الإمام ا بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصُّوفي (١٢٢٤هـ) : ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ ﴾ فهو في السَّماء الثَّانية مع يحيىٰ عليه السَّلام " (٦) .

---

(١) انظر : الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٢/ ٣٢٧) .

(٢) انظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٤٦٦-٤٦٧) .

(٣) انظر : تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن (١/ ٤٢٨) .

(٤) انظر : السراج المنير في الإعانة علىٰ معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (١/ ٣٤٤) .

(٥) انظر : تفسير روح البيان (٢/ ٢٥٤) .

(٦) انظر : البحر المديد (٢/ ١٨٠) .

وقال الإمام أبو الطيِّب محمَّد صديق خان القِنَّوجي (١٣٠٧هـ) : ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ ﴾ أي : إلى موضع لا يجري فيه حكم غير الله ، كما في الفخر، وهذا الوضع هو السَّماء الثَّالثة كما في حديث " الجامع الصغير " ، وفي بعض المعاريج أنَّه في السَّماء الثَّانية ردّ عليهم وإثبات لما هو الصَّحيح، وقد تقدَّم ذكر رفعه عليه السَّلام في آل عمران بما فيه كفاية ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ ﴾ في إنجاء عيسى وتخليصه من اليهود وانتقامه منهم ورفعه إليه " (١) .

وقال الإمام محمَّد بن عمر نووي الجاوي البنتني (١٣١٦هـ) : ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ ﴾أي : إلى موضع لا يجري فيه حكم غير الله تعالى ، ولا يصل إليه حكم آدمي ، وذلك الموضع هو السَّماء الثَّالثة " (٢) .

وقال الإمام أحمد بن مصطفى المراغي (١٣٧١هـ) : ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ ﴾ هذه الآية كآية آل عمران ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ، وقد روى عن ابن عبَّاس أنَّه فسَّر التَّوفِّي بالإماتة، وعن ابن جريج تفسيره بالأخذ والقبض والمراد منه ومن الرَّفع : إنقاذه من الذين كفروا بعناية من الله بعد أن اصطفاه إليه وقرَّبه.

وقال ابن جرير نقلاً عن ابن جريج: فرفعه إيَّاه توفيه إيَّاه وتطهيره من الذين كفروا ، أي : فليس المراد الرَّفع إلى السَّماء بالرُّوح والجسد ولا بالرُّوح فقط، وفي تفسير ابن عبَّاس : معنى الرَّفع رفع الرُّوح، ولكن المشهور بين جمهرة المفسِّرين وغيرهم أنَّ الله تعالى رفعه بروحه وجسده إلى السَّماء بدليل حديث المعراج، إذ أنَّ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رآه هو وابن خالته يحيى في السَّماء الثَّانية، وأنت ترى أنَّه لا دليل لهم في ذلك إذ لو دلَّ هذا على ما يقولون لدلَّ على رفع يحيى وسائر من رآهم من الأنبياء في سائر السَّموات ولا قائل بذلك.

وقال الرَّازي: المعنى رافعك إلى محلِّ كرامتي، وجعله رفعاً للتَّفخيم والتَّعظيم ، كقوله حكاية عن إبراهيم : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ وهو إنَّما ذهب من العراق إلى الشَّام، والمراد رفعه إلى مكان لا يملك الحكم فيه عليه إلَّا الله " (٣) .

(١) انظر : فتحُ البيان في مقاصد القرآن (٣/ ٢٩٢) .

(٢) انظر : مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد (١/ ٢٤١) .

(٣) انظر : تفسير المراغي (٦/ ١٤-١٥) .

وقال الإمام محمَّد الطَّاهر بن عاشور التُّونسي (١٣٩٣هـ) : ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ أَيْ فَلَمْ يَظْفَرُوا بِهِ. وَالرَّفْعُ: إِبْعَادُهُ عَنْ هَذَا الْعَالَمِ إِلَىٰ عَالَمِ السَّمَاوَاتِ، وَ (إِلَى) إِفَادَةُ الِانْتِهَاءِ الْمَجَازِيِّ بِمَعْنَىٰ التَّشْرِيفِ، أَيْ رَفَعَهُ اللهُ رَفْعَ قُرْبٍ وَزُلْفَىٰ." (١) .

وجاء في التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم : ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ أَي: بل رفعه الله إلىٰ موضع؛ تولَّىٰ الله فيه حفظه وحمايته، حتىٰ لا يجريَ فيه حكم أعدائه " (٢) .

وقال الشَّيخ العلامة محمَّد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشَّافعي : ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ أي: بل رفع الله سبحانه وتعالىٰ عيسىٰ بن مريم بروحه وجسده إلىٰ موضع لا يجري فيه حكمُ غيرِ الله تعالىٰ ولا يصل إليه حكم آدمي، وذلك الموضع هو السَّماء الثَّالثة كما في حديث "الجامع الصغير": "آدم في السَّماء الدُّنيا تعرض عليه أعمال ذريَّته، ويوسف في السَّماء الثَّانية، وابنا الخالة يحيىٰ وعيسىٰ في السَّماء الثَّالثة .. إلخ" وفي بعض كتب المعاريج أنَّه في السَّماء الثَّانية " (٣) .

الفَصْلُ الرَّابِعُ

أَقْوَالُ العُلَمَاءِ فِي الأَحَادِيْثِ التِيْ يُوْهِمُ ظَاهِرُهَا العُلُو المَكَانِي لله تَعَالَى

يستدلُّ المتمسلفة علىٰ العلوِّ المكانيِّ لله تعالىٰ بالعديد من الأحاديث النبويَّة الشَّريفة ... وسنقصر الكلام هنا علىٰ : حديث الجارية ، وأحاديث النُّزول ...لأنَّهما من أهمِّ ما يحتجُّون به علىٰ العلوِّ المكانيِّ لله تعالىٰ ....

أَوَّلاً : حَدِيْثُ الجَارِيَةُ :

عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ ، قَالَ : ... كَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَىٰ غَنَمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ، فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّيبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ، لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا أُعْتِقُهَا؟ قَالَ: «ائْتِنِي بِهَا»

(١) انظر : التحرير والتنوير «تحرير المعنىٰ السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» (٦/ ٢٣) .

(٢) انظر : التفسير الوسيط للقرآن الكريم (٢/ ٩٦٨) .

(٣) انظر : تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (٧/ ٢٣) .

فَأَتَيْتُهُ بِهَا، فَقَالَ لَهَا: «أَيْنَ اللهُ؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُـــــولُ اللهِ، قَالَ: «أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ " (١) .

وقد اعتاد المتمسلفون على الاحتجاج بهذا الحديث على أنَّ الله تعالى في السَّماء ... قال شيخهم الألباني بعد ذكره للحديث : " ففي الخبر مسألتان :

إحداهما شريعة : قول المسلم : أين الله ؟

وثانيهما [هكذا] : قول المسئول : في السَّماء . فمن أنكر هاتين المسألتين ، فإنَّما ينكر على المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " (٢) ...

والكلام على حديث الجارية ينتظم في النّقاط التَّالية :

أَوَّلاً : أنَّ الحديث من أخبار الآحاد ، وأخبار الآحاد ليست حجَّة في العقيدة ، على ما ذهب إليه جمهور الأصوليين ، منهم: الباقلَّاني ، الخطيب البغدادي ، ابن فورك ، الغزالي ، القاضي عبد الجبَّار ، الرَّازي ، البيهقي ، الكرماني ، القاسمي ، النَّووي ، الكاساني ، ابن عبد البر ، عبد القاهر البغدادي ، وغيرهم كثير (٣) ...

ونسبهُ جماعة إلى الأكثر من أهل الأصول (٤) ...

كما نسبه ابن حزم إلى الحنفيَّة والشَّافعيَّة وجمهور المالكيَّة ، وإلى جميع المعتزلة (٥) ...

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (١/ ٣٨١ برقم ٥٣٧) ، الطيالسي في المسند (٢/ ٤٢٨ برقم ١٢٠١) ، ابن أبي شيبة في المسند (٢/ ٣٢٦ برقم ٨٢٥) ، أحمد في المسند (٣٩/ ١٨٤ برقم ٢٣٧٦٧) ، أبو داود (١/ ٢٤٤ برقم ٩٣٠) ، النسائي في السنن الكبرى (٨/ ١٠ برقم ٨٥٣٥) ، ابن خزيمة في كتاب التَّوحيد وإثبات صفات الرب عزَّ وجلَّ (١/ ٢٧٨) ، أبو عوانة في المستخرج (١/ ٤٦٦ برقم ١٧٢٨) ، ابن حبان في الصحيح (١/ ٣٨٣ برقم ١٦٥) ، الطبراني في المعجم الكبير (١٩/ ٣٩٨ برقم ٩٣٨) ، ابن منده في الإيمان (١/ ٢٣٠ برقم ٩١) ، اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٤٣٤ برقم ٦٥٢) .

(٢) انظر : مختصر العلو للعلي العظيم للذهبي (٨١) .

(٣) انظر : الفرق بين الفرق (ص٣٢٥) ، المستصفى (١/ ١٤٢) ، شرح الكوكب المنير (٢/ ٣٥١) ، فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت (٢/ ١٢٣) ، الإحكام ، الآمدي (٢/ ٣٢ فما بعدها) ، شرح العضد على ابن الحاجب (٢/ ٥٦) ، نهاية السول في شرح منهاج الوصول إلى علم الأصول (١/ ٢٣) ، (٢/ ٣٧٥) ، أساس التقديس (ص١٩٢) ، الأسماء والصفات (ص٤٥٠) .

(٤) انظر : المعتمد في أصول الفقه ، (٢/ ٥٥٦) ، فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت (٢/ ١٢٣) .

(٥) انظر : الإحكام في أصول الأحكام (١/ ١٠٧) ، إرشاد الفحول (ص٤٨) ، المسودة في أصول الفقه (ص٢٤٧-٢٤٨) .

ثَانِياً : أنَّ الحديث مُخالفٌ لما تواتر عن سيِّدنا رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أنَّه كان إذا أتاه من يُريد الدُّخول في دين الله تعالىٰ ، يطلب منه النُّطق بالشَّهادتين ... ولم يسأله مثل هذا السُّؤال ... فالحديث على هذا شاذ ، والشَّاذ من أقسام الحديث الضَّعيف .

ثَالِثَاً : أنَّ الحديث مرويٌّ بالمعنىٰ ، شأنه في ذلك شأن أغلب الأحاديث ، قال الخطيب البغدادي : " أَخْبَرَنِي أَبُو محمَّد عَبْدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ شَاذَانَ الصَّيْرَفِيُّ، أنا أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ محمَّد بْنِ أَحْمَدَ بْنِ الْجَهْمِ الْكَاتِبُ، أنا محمَّد بْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ، حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ عَمْرٍو السَّكُونِيُّ، ثنا الْوَلِيدُ بْنُ سَلَمَةَ الْفِلَسْطِينِيُّ، أَخْبَرَنِي يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ أُكَيْمَةَ اللَّيْثِيُّ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ ، قَالَ: قُلْنَا لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بِأَبِينَا أَنْتَ وَأُمِّنَا يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّا لَنَسْمَعُ الْحَدِيثَ فَلَا نَقْدِرُ عَلَىٰ تَأْدِيَتِهِ كَمَا سَمِعْنَاهُ قَالَ: " إِذَا لَمْ تُحِلُّوا حَرَامًا وَلَا تُحَرِّمُوا حَلَالًا فَلَا بَأْسَ " (١) ... فكيف لو كان الأمر متعلِّقاً بالعقيدة التي يترتَّب عليها كفرٌ وإيمان ؟!!

وقال أيضاً : " أَخْبَرَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ الطَّنَاجِيرِيُّ، أنا عُمَرُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عُثْمَانَ الْوَاعِظُ، ثنا الْحُسَيْنُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ بِسْطَامٍ الزَّعْفَرَانِيُّ، ثنا سَلَمَةُ بْنُ شَبِيبٍ، ثنا عَبْدُ الرَّزَّاقِ قَالَ: قُلْتُ لِسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ: حَدِّثْنَا بِحَدِيثِ أَبِي الزَّعْرَاءِ كَمَا سَمِعْتَ ، قَالَ: " يَا سُبْحَانَ اللهِ ، وَمَنْ يُطِيقُ ذَلِكَ ، إِنَّمَا نَجِيئُكُمْ بِالْمَعْنَىٰ " (٢) .

وقال أيضاً : أَخْبَرَنَا أَبُو الْفَرَجِ عَبْدُ السَّلَامِ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ الْقُرَشِيُّ ، بِأَصْبَهَانَ، أنا سُلَيْمَانُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ أَيُّوبَ الطَّبَرَانِيُّ، ثنا مُطَّلِبُ بْنُ شُعَيْبٍ الْأَزْدِيُّ، ثنا عَبْدُ اللهِ بْنُ صَالِحٍ، حَدَّثَنِي مُعَاوِيَةُ بْنُ صَالِحٍ ، ح وَأَخْبَرَنَا أَبُو طَاهِرٍ محمَّد بْنُ الْحَسَنِ بْنِ عِيسَىٰ النَّاقِدُ ، وَاللَّفْظُ لَهُ، أنا أَحْمَدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ حَمْدَانَ، ثنا جَعْفَرُ بْنُ محمَّد الْفِرْيَابِيُّ، حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ خَالِدٍ، ثنا مَعْنٌ، ثنا مُعَاوِيَةُ بْنُ صَالِحٍ ، عَنِ الْعَلَاءِ بْنِ الْحَارِثِ ، عَنْ مَكْحُولٍ ، قَالَ دَخَلْنَا عَلَىٰ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ فَقُلْنَا: يَا أَبَا الْأَسْقَعِ ، حَدِّثْنَا حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لَيْسَ فِيهِ وَهْمٌ وَلَا نِسْيَانٌ ، فَقَالَ ، هَلْ قَرَأَ أَحَدٌ مِنْكُمُ اللَّيْلَةَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْئًا؟ قَالُوا: نَعَمْ ، قَالَ: فَهَلْ زِدْتُمْ أَلِفًا أَوْ وَاوًا أَوْ شَيْئًا؟ فَقُلْتُ: إِنَّا لَنَزِيدُ وَنَنْقُصُ ، وَمَا نَحْنُ بِأُولَئِكَ فِي الْحِفْظِ؟ فَقَالَ: فَهَذَا الْقُرْآنُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ وَأَنْتُمْ تَدْرُسُونَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، فَكَيْفَ وَنَحْنُ نُحَدِّثُ بِحَدِيثٍ سَمِعْنَاهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ، إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَلَىٰ مَعْنَاهُ فَحَسْبُكُمْ " (٣) .

---

(١) انظر : الكفاية في علم الرواية (ص١٩٩) .

(٢) انظر : الكفاية في علم الرواية (ص٢٠٩) .

(٣) انظر : الكفاية في علم الرواية (ص٢٠٣) .

وقال أيضاً : أَخْبَرَنَا الْبَرْقَانِيُّ، أنا ابْنُ خَمِيرَوَيْهِ الْهَرَوِيُّ، أنا الْحُسَيْنُ بْنُ إِدْرِيسَ، ثنا ابْنُ عَمَّارٍ، ثنا الْمُعَافَى ، عَنْ مِسْعَرٍ ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ ، قَالَ: " إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُحَدِّثَكُمُ الْحَدِيثَ كَمَا سَمِعْنَاهُ ، وَلَكِنْ عَمُـــودُهُ ، وَنَحْوُهُ " (١) .

أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الْحُسَيْنُ بْنُ عُمَرَ بْنِ بُرْهَانٍ الْغَزَّالُ وَأَبُو الْفَتْحِ هِلَالُ بْنُ محمَّد بْنِ جَعْفَرٍ الْحَفَّارُ ، قَالَا: أنا إِسْمَاعِيلُ بْنُ محمَّد الصَّفَّارُ ، قَالَ: قَالَ أَبُو محمَّد العبَّاس بْنُ عَبْدِ اللهِ التَّرْقُفِيُّ ، سَمِعْتُ الْفِرْيَابِيَّ ، يَقُولُ: سَمِعْتُ سُفْيَانَ ، يَقُولُ: " لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نُحَدِّثَكُمْ بِالْحَدِيثِ كَمَا سَمِعْنَاهُ – وَقَالَ ابْنُ بُرْهَانٍ: كَمَا سَمِعْنَا – مَا حَدَّثْنَاكُمْ بِحَدِيثٍ وَاحِدٍ " (٢) .

ويؤكِّد ما قلناه من أنَّ الحديث روي بالمعنى : أنَّه وردت أحاديث قريبة في موضوعها من موضوع رواية حديث معاوية بن الحكم ، تعارضها ، منها :

– عَنْ عَوْنٍ ، عَنْ أَخِيهِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِجَارِيَةٍ سَوْدَاءَ أَعْجَمِيَّةٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ عَلَيَّ عِتْقَ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ. فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ: " أَيْنَ اللهُ؟ " فَأَشَارَتْ إِلَى السَّمَاءِ بِإِصْبَعِهَا السَّبَّابَةِ، فَقَالَ لَهَا: " مَنْ أَنَا؟ " فَأَشَارَتْ بِإِصْبَعِهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ وَإِلَى السَّمَاءِ، أَيْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ: " أَعْتِقْهَا " (٣) .

---

(١) انظر : الكفاية في علم الرواية (ص٢٠٨) .

(٢) انظر : الكفاية في علم الرواية (ص٢٠٩) .

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١٣/ ٢٨٦ برقم ٧٩٠٦) قال الأرنؤوط : وأخرجه ابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٨٤–٢٨٥) عن محمَّد بن رافع، وأبو داود (٣٢٨٤) ، ومن طريقه البيهقي (٧/ ٣٨٨) عن إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني، وابن عبد البر في "التمهيد" ٩/ ١١٥ من طريق محمَّد بن العوام، ثلاثتهم عن يزيد بن هارون، بهذا الإسناد. وجعل إبراهيم بن يعقوب الراوي عن أبي هريرة في حديثه هو عبد الله بن عتبة وليس ابنه عبيد الله.

وأخرجه ابن خزيمة ١/ ٢٨٥–٢٨٦ من طريق أسد بن موسى، و٢٨٦ من طريق أبي داود الطيالسي، كلاهما عن المسعودي، به.

وأخرجه ابن خزيمة أيضاً ١/ ٢٨٨ من طريق الحسين بن الوليد، عن مالك بن أنس، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن أبي هريرة، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يسق لفظه، لكن ذكر ابن عبد البر أنَّه بلفظ حديث "الموطأ" سواء، وهو: أن رجلاً من الأنصار جاء إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجارية له سوداء، فقال: يا رسول الله، إن عليَّ رقبةً مؤمنةً، فإن كنت تراها مؤمنة أُعتِقُها. فقال لها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أتشهدين أن لا إله إلا الله؟ " قالت: نعم. قال: "أتشهدين أن محمداً رسولُ الله؟ " قالت: نعم. قال: "أتوقنين بالبعث بعد الموت؟ " قالت: نعم. فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أعتِقْها".

قلنا: هذا هو اللفظ الصحيح للحديث إن شاء الله، لكن أخطأ الحسين بن الوليد في إسناد هذا الحديث عن مالك، فقد اتفق رواة "الموطأ" على إرساله، لم يذكروا فيه أبا هريرة، قاله ابن عبد البر في "التمهيد" ٩/ ١١٤، والحديث مرسلاً في "الموطأ" برواية يحيى الليثي ٢/ ٧٧٧.

- وَعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ جَاءَ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِجَارِيَةٍ لَهُ سَوْدَاءَ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ عَلَيَّ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً. فَإِنْ كُنْتَ تَرَاهَا مُؤْمِنَةً أُعْتِقُهَا. فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتَشْهَدِينَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: «أَتَشْهَدِينَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ» قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: «أَتُوقِنِينَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ؟» قَالَتْ: نَعَمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعْتِقْهَا " (١) .

- وَعَنْ عُبَيْدِ الله ابْنِ عَبْدِ الله، عَنْ رَجُلٍ، مِنَ الْأَنْصَارِ أَنَّه جَاءَ بِأَمَةٍ سَوْدَاءَ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ عَلَيَّ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً، فَإِنْ كُنْتَ تَرَىٰ هَذِهِ مُؤْمِنَةً أَعْتَقْتُهَا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَتَشْهَدِينَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟ " قَالَتْ: نَعَمْ قَالَ: " أَتَشْهَدِينَ أَنِّي رَسُولُ الله؟ " قَالَتْ: نَعَمْ قَالَ: " أَتُؤْمِنِينَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ؟ " قَالَتْ: نَعَمْ قَالَ: " أَعْتِقْهَا " (٢) .

وتابع مالكاً علىٰ إرساله يونسُ بن يزيد عند البيهقي ١٠/ ٥٧ من طريق محمَّد بن عبد الله بن الحكم، عن ابن وهب، عنه، عن الزهري، به.

ووصله معمر، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن رجل من الأنصار: أنَّه جاء بأمة سوداء ... فذكره، وهذا إسناد صحيح، وسيأتي تخريجه في "المسند" ٣/ ٤٥١-٤٥٢.

وله شاهد من حديث الشريد بن سويد الثقفي: أن أُمَّه أوصت أن يعتق عنها رقبة مؤمنة، فسأل رسولَ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك، فقال: عندي جارية سوداء، أو نوبية، فأُعتقها؟ فقال: "ائتِ بها" فدعوتها، فجاءت، فقال لها: "من ربُّك؟ " قالت: الله.

قال: "من أنا؟ " فقالت: أنت رسول الله. قال: "أعتقها، فإنها مؤمنة". وسيأتي في مسنده ٤/ ٢٢٢، وإسناده حسن.

وآخر من حديث ابن عباس عند البزار (١٣- كشف الأستار) ، والطبراني في "الكبير" (١٢٣٦٩) : أن رجلاً أتىٰ النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: "إن عليَّ رقبة، وعندي جارية سوداء أعجمية، فقال: "ائتني بها" فقال: "أتشهدين أن لا إله إلا الله؟ " قالت: نعم. قال: "أتشهدين أني رسول الله؟ " قالت: نعم. قال: "أعتقها". وفيه محمَّد بن عبد الرَّحمن بن أبي ليلىٰ، وهو سيىء الحفظ. لكنه يُحسَّن في المتابعات

والشواهد.

وثالث من حديث معاوية بن الحكم، سيأتي في مسنده ٥/ ٤٤٧، لكن قال فيه: "أين الله؟ " فقالت: في السماء. قال: "من أنا؟ " قالت: أنت رسول الله.

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٧٧٧ برقم ٩) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢٥/ ١٩ برقم ١٥٧٤٣) ، تحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠١م ، قال الأرنؤوط في تخريجه : " إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير صحابيه. عبد الرزاق: هو ابن همام الصنعاني، ومعمر: هو ابن راشد البصري، وعبيد الله بن عبد الله: هو ابن عتبة ابن عبد الله بن مسعود.

وهو عند عبد الرزاق في "المصنف" (١٦٨١٤) ، ومن طريقه أخرجه ابن خزيمة في "التوحيد" ص ١٢٤.

- وَعَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللهِّ، عَنْ أَخِيهِ عُبَيْدِ اللهَّ بْنِ عَبْدِ اللهِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: أَتَىٰ رَجُلٌ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِجَارِيَةٍ سَوْدَاءَ، فَقَالَ: إِنَّ عَلَيَّ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ رَبُّكِ؟» فَأَشَارَتْ إِلىٰ السَّمَاءِ، فَقَالَتْ: اللهُّ، فَقَالَ: «فَمَنْ أَنَا؟» فَقَالَتْ: رَسُولُهُ، وَأَوْمَأَتْ بِيَدِهَا إِلىٰ الْأَرْضِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ» (١) .

- وَعَنْ عَوْنَ بْنَ أَبِي جُحَيْفَةَ يُحَدِّثُ ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ : أَتَتْ رَسُولَ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امْرَأَةٌ ، وَمَعَهَا جَارِيَةٌ سَوْدَاءُ فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : يَا رَسُولَ الله ، إِنَّ عَلَيَّ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً أَفَتُجزِئُ عَنِّي هَذِهِ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَيْنَ اللهُّ ؟ قَالَتْ : فِي السَّماء قَالَ : فَمَنْ أَنَا ؟ قَالَتْ : أَنْتَ رَسُولُهُ قَالَ : أَتَشْهَدِينَ أَنَّ لاَ إِلَهَ إِلاَّالله " (٢) .

وأخرجه مالك في "الموطأ" ٢/ ٧٧٧، وأخرجه البيهقي في "السنن" ١٠/ ٥٧ من طريق يونس بن يزيد، كلاهما عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة، أن رجلاً من الأنصار ...

قال البيهقي: هذا مرسل.

قال ابن عبد البر في "التمهيد" ٩/ ١١٤: ظاهره الإرسال، لكنه محمولٌ علىٰ الاتصال، للقاء عبيد الله جماعة من الصحابة. وتعقَّبه الزرقاني في "شرح الموطأ" ٤/ ٨٥ بقوله: وفيه نظر، إذ لو كان كذلك ما وجد مرسلٌ قط، ثمَّ قال: فلعله أراد للقاء عبيد الله جماعة من الصحابة الذين رووا هذا الحديث.

وأورده الهيثمي في "مجمع الزوائد" ١/ ٢٣، وقال: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

قلنا: ورواه المسعودي وهو مختلط- فيما سلف في مسند أبي هريرة (٧٩٠٦) - عن عون بن عبد الله، عن أخيه عبيد الله، عن ابي هريرة، أن رجلاً أتىٰ النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجارية سوداء أعجمية، فقال: يا رسول الله، إنّ علي عتق رقبة مؤمنة، فقال لها رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أين الله؟ " فأشارت إلىٰ السَّماء بأصبعها السبابة، فقال لها: "من أنا؟ " فأشارت بأصبعها إلىٰ رسول الله وإلىٰ السماء، أي: أنت رسولُ الله. فقال: "أعتقها". قال الزرقاني في "شرح الموطأ" ٤/ ٨٦: أخرجه ابن عبد البر، وقال: أنَّه خالف حديث ابن شهاب في لفظه ومعناه، وجعله عن أبي هريرة، وابنُ شهاب يقول: رجل من الأنصار أنَّه جاء بأمةٍ له سوداء، وهو أحفظ من عون، فالقولُ قولُه. انتهىٰ. ثمَّ قال الزرقاني: فإن كانت القصة تعددت فلا خلف، وإن كانت متحدة، فيمكن أن لعبيدِ الله فيه

شيخين، رجل من الأنصار رواها له عن نفسه، وأبو هريرة رواها عن قصة ذلك الرجل، ويُؤول قولُه: قالت: نعم، علىٰ أنَّها قالت بالإشارة، وأنه وقع منها الأمران، فقالت: نعم باللفظ حين قوله: "أتشهدين.. الخ"، وأشارت إلىٰ السَّماء حين قوله: "أين الله"، و"من أنا"، فذكر كل من الزهري وعون ما لم يذكر الآخر، والعلم عند الله.

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٣/ ٩٥ برقم ٢٥٩٨) .

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ١١٦ برقم ٢٩٧) ، البيهقي في السنن الكبرىٰ (٧/ ٦٣٧ برقم ١١٥٢٦) .

- وَعَنِ الشَّرِيدِ بْنِ سُوَيْدٍ الثَّقَفِيِّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ أُمِّي أَوْصَتْ إِلَيَّ أَنْ أَعْتِقَ عَنْهَا رَقَبَةً وَإِنَّ عِنْدِي جَارِيَةً سَوْدَاءَ نُوبِيَّةً ، فَقَالَ رَسُولُ الله صلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " ادْعُ بِهَا " فَقَالَ: " مَنْ رَبُّكِ؟ " قَالَتْ: اللهُ، قَالَ: " فَمَنْ أَنَا؟ " قَالَتْ: رَسُولُ الله قَالَ: " أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ " (١) .

- وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِي اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَتَىٰ رَجُلٌ النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ عَلَىٰ أُمِّي رَقَبَةً وَعِنْدِي أَمَةٌ سَوْدَاءُ فَقَالَ النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيه وَسَلَّم: ائْتِنِي بِهَا فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ: أَتَشْهَدِينَ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قال: فأعتقها (٢) ...وهناك روايات عديدة في هذا الباب ...

فالنَّاظر في الرِّوايات السَّابقة يجد أنَّها جاءت بألفاظ مغايرة للفظ " أين الله " ... فقد جاء الحديث بلفظ : " مَنْ رَبُّكِ " ، " أَتَشْهَدِينَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله " ، قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: " أَتَشْهَدِينَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله " ، قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: " أَتُوقِنِينَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ " ...

قال الشَّيخ محمَّد زاهد الكوثري في تعليقه علىٰ " السَّيف الصَّقيل في الرَّدِّ علىٰ ابن زَفِيْل " للسُّبكي ، عند ذكر حديث الجارية ما نصّه : " وراوي هذا الحديث عن ابن الحكم هو عطاء بن يسار ، وقد اختلفت ألفاظه فيه ، ففي لفظ له : "فمدَّ النَّبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يده إليها وأشار إليها مستفهماً مَن في السَّماء ..." الحديث، فتكون المحادثة بالإشارة علىٰ أنَّ اللفظ يكون ضائعاً مع الخرساء الصمَّاء ، فيكون اللفظ الذي أشار إليه النَّاظم والمؤلِّف لفظ أحد الرُّواة علىٰ حسب فهمه لا لفظ الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ومثل هذا الحديث يصحُّ الأخذ به فيما يتعلَّق بالعمل دون الاعتقاد ، ولذا أخرجه مسلم في باب تحريم الكلام في الصَّلاة دون كتاب الإيمان !!! حيث اشتمل علىٰ تشميت العاطس في الصَّلاة ومنع النَّبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك ، ولم يخرجه البخاري في صحيحه ، وأخرج في جزء خلق الأفعال ما يتعلَّق بتشميت العاطس من هذا الحديث مقتصراً عليه دون ما يتعلَّق بكون الله في السَّماء ، بدون أي إشارة إلىٰ أنَّه اختصر الحديث... " (٣) .

وإذا أردنا التَّرجيح بينها ، فليس إلَّا رواية : " أَتَشْهَدِينَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله ؟" أَتَشْهَدِينَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهَّ " ، لأنَّهما مفتاح الدُّخول في الإسلام ، فلا يُعتبر الإنسان مسلماً إلَّا إذا نطق بهما ، إلَّا إذا كان عاجزاً عن ذلك لِعِلَّة . وهما شعار الإسلام ، لا يصحُّ الدِّين إلَّا بهما ، وهذا من المعلوم من الدِّين بالضَّرورة ، فَعَنِ ابْنِ

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرىٰ (٧/ ٦٣٨ برقم ١٥٢٧٢) .

(٢) أخرجه البزار في المسند ، (١١/ ٥٥ برقم ٤٧٤٩) .

(٣) انظر : السَّيف الصَّقيل في الرَّد علىٰ ابن زفيل (ص١٠٧) .

عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَىٰ الْيَمَنِ، قَالَ: " إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَادْعُهُم إِلىٰ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ الله، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله عزَّ وجلَّ حِجَابٌ " (١) .

أمَّا عن مفتاح الدُّخول في الإيمان ، فقد وضَّحه الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث جبريل الشَّهير ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ، إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ يَمْشِي، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهَّ مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: " الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهَّ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَلِقَائِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الآخِرِ " (٢) ...

رَابِعَاً : أنَّ العديد من أهل العلم تكلَّموا علىٰ الحديث ...

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٤٩٨ برقم ٢٠٧١) ، قال الأرنؤوط في تخريجه للحديث : " إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين. يحيىٰ بن عبد الله بن صيفي: هو يحيىٰ بن عبد الله بن محمَّد بن يحيىٰ بن صيفي المكي، وأبو معبد: اسمه نافذ المكي.

وأخرجه أبو داود (١٥٨٤) ، وابن منده في "الإيمان" (١١٧) من طريق أحمد بن حنبل، بهذا الإسناد.

وأخرجه البخاري (٢٤٤٨) ، وابن ماجه (١٧٨٣) ، والترمذي (٦٢٥) و (٢٠١٤) ، والنسائي ٥/ ٥٥، وابن خزيمة (٢٣٤٦) ، والدارقطني ٢/ ١٣٥-١٣٦، والبيهقي ٧/ ٨، والبغوي (١٥٥٧) من طرق عن وكيع، به.

وأخرجه ابن أبي شيبة ٣/ ١١٤، وعنه مسلم (١٩) (٢٩) عن وكيع، عن زكريا بن إسحاق، عن يحيىٰ بن عبد الله بن صيفي، عن أبي معبد، عن ابن عباس، عن معاذ بن جبل، وقال مسلم: قال أبو بكر: ربما قال وكيع: عن ابن عباس أن معاذاً قال: بعثني ... وأخرجه الدارمي (١٦١٤) و (١٦٣١) ، والبخاري (١٣٩٥) و (١٤٩٦) و (٤٣٤٧) و (٧٣٧٢) ، ومسلم (١٩) (٣٠) ، والنسائي ٢/ ٥-٤، وابن خزيمة (٢٢٧٥) ، وابن منده (١١٦) ، والبيهقي ٤/ ٩٦ و٧/ ٧ من طرق عن زكريا بن إسحاق، به.

وأخرجه البخاري (١٤٥٨) و (٧٣٧١) ، ومسلم (١٩) (٣١) ، وابن حبان (١٥٦) ، والطبراني (١٢٢٠٧) و (١٢٢٠٨) ، والدارقطني ٢/ ١٣٦، وابن منده (٢١٣) و (٢١٤) ، والبيهقي ٤/ ١٠١ و٢/ ٧ من طريق إسماعيل بن أمية، عن يحيىٰ بن عبد الله، به قوله: "كرائم أموالهم "، قال ابن الألثير في "النهاية" ٤/ ١٦٧؟ أي نفائسَها التي تتعلَّقُ بها نفسُ مالكها ويختصُها لها، حيث هي جامعة للكمال الممكن في حقّها، وواحدتها: كريمة.

وقوله: "فادعهم إلىٰ شهادة ... الخ "، قال السندي: أراد أن يَدعُوَهم إلىٰ الإسلام بالتدريج، لأنَّه أقربُ إلىٰ الطاعة بخلاف ما لو عرض عليهم دينا مخالفا لدينهم في أشياءَ كثيرة، فإن ذلك يُنَفرهم ويبعدهم عن القَبُول، فلا دلالة في الحديث علىٰ أن مع أن التكليف بالفروع بعد الإيمان، كيف وقد أخر الدعوة إلىٰ الزكاة عن الدعوة إلىٰ الصلاة، مع أن التكليف بالزكاة لا يتأخر عن التكليف بالصلاة.

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ١١٥ برقم ٤٧٧٧) .

قال الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزَّار : " وهذا الحديث قد رُوِيَ بنحو معناه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ وُجُوهٍ بِأَلْفَاظٍ مُخْتَلِفَةٍ " (١) .

وقال الإمام أحمد بن الحسين بن علي بن موسىٰ الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي : " وَهَذَا صَحِيحٌ، قَدْ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مُقَطَّعًا مِنْ حَدِيثِ الْأَوْزَاعِيِّ وَحَجَّاجٍ الصَّوَّافِ، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ أَبِي كَثِيرٍ دُونَ قِصَّةِ الْجَارِيَةِ، وَأَظُنُّهُ إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنَ الْحَدِيثِ لِاخْتِلَافِ الرُّوَاةِ فِي لَفْظِهِ. وَقَدْ ذَكَرْتُ فِي كِتَابِ الظِّهَارِ مِنَ السُّنَنِ مُخَالَفَةَ مَنْ خَالَفَ مُعَاوِيَةَ بْنَ الْحَكَمِ فِي لَفْظِ الْحَدِيثِ " (٢) .

أمَّا الحافظ ابن حجر فأشار في كتابه " التَّلخيص الحبير " بعد أن ذكر روايات الحديث إلى اضطراب الحديث بقوله : " وَفِي اللَّفْظِ مُخَالَفَةٌ كَثِيرَةٌ " (٣) .

وقال الحافظ ابن حجر في " الفتح " : فَإِنَّ إِدْرَاكَ الْعُقُولِ لِأَسْرَارِ الرُّبُوبِيَّةِ قَاصِرٌ فَلَا يَتَوَجَّهُ عَلَىٰ حُكْمِهِ لِمَ وَلَا كَيْفَ كَمَا لَا يَتَوَجَّهُ عَلَيْهِ فِي وجوده أَيْن وَحَيْثُ " (٤) .

وقال الإمام محمَّد زاهد الكوثري في تعليقه علىٰ "الأسماء والصِّفات " للبيهقي : " وقصَّة الجارية مذكورة فيما بأيدينا من نسخ مسلم لعلَّها زيدت فيها بعد إتماماً للحديث ، أو كانت نسخة المصنِّف ناقصة ؟ وقد أشار المصنِّف أي البيهقي إلىٰ اضطراب الحديث بقوله : " وقد ذكرت في كتاب الظِّهار من " السُّنَنْ " مخالفة من خالف معاوية بن الحكم في لفظ الحديث " (٥) .

وقال الإمام عبد الله بن الصدِّيق الغُماري : " رواه مسلم وأبو داود والنَّسائي . وقد تصرَّف الرُّواة في ألفاظه ، فروي بهذا اللفظ كما هنا وبلفظ " من ربُّك؟ " قالت: الله ربِّي. وبلفظ "أتشهدين أن لا إله إلَّا الله؟ " قالت: نعم . وقد أستوعب تلك الألفاظ بأسانيدها الحافظ البيهقي في " السُّنَن الكُبْرَىٰ " بحيث يجزم الواقف عليها أنَّ اللفظ المذكور هنا مرويٌّ بالمعنىٰ حسب فهم الرَّاوي ... " (٦) .

خَامِسَاً : أنَّ ظاهرالحديث يدلُّ علىٰ أنَّ الله تعالىٰ في السَّماء ، بمعنىٰ أنَّ السَّماء تحويه ، وهذا عين الحلول ، وهي عقيدة باطلة ، فلا يجوز أبداً اعتقاد أنَّ الله يحلُّ في شيء من مخلوقاته ، لأنَّه سبحانه الغني الذي لا

---

(١) انظر : مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار (١١/ ٢٤١) .

(٢) انظر : الأسماء والصفات (٢/ ٣٢٥) .

(٣) انظر : التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير (٣/ ٤٨٠) .

(٤) انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/ ٢٢٠-٢٢١) .

(٥) انظر : الأسماء والصفات ، البيهقي ، (هامش ص٥٣٣) ، تحقيق : الكوثري ، دار الكتب اعلمية ، بيروت .

(٦) انظر : التمهيد (٧/ ١٣٥ هامش) .

يحتاج إلىٰ ما سواه من خلقه ، وكلُّ ما سواه من خلقه محتاج له ... فمقولة " الله في السَّماء " ، تعني : أن السَّماء تحيط به سبحانه وتعالىٰ من سائر الجهات بحيث يكون سبحانه أصغر منها !!! ثمَّ إنَّ صرف المتمسلفة لعبارة : " في السَّماء " إلىٰ " علىٰ السَّماء " هو نوع من التَّأويل الذي يفرُّون منه ، وإن ادَّعوا أنَّه ليس تأويلاً .

سَادِسَاً : أنَّ الحديث ينسب إلىٰ الله تعالىٰ المكان ، وقد اجتمعت كلمة الأمَّة علىٰ تنزيه الله تعالىٰ عنه ...

قال الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفيّ (١٥٠هـ) في كتابه " الفقه الأبسط " ما نصّه : " مَن قَالَ لَا أعرِفُ رَبِّي فِي السَّماء اَوْ فِي الأَرْض فَقَد كَفَر " (١) .

ومراد الإمام أنَّ من نسب إلىٰ الله التَّحيُّز والـمكان ثمَّ قال لا أعرف هل مكانه السَّماء أم الأرض فهو كافرٌ .

وقال الإمام إبراهيم بن السَّري بن سهل، أبو إسحاق الزجَّاج (٣١١هـ) : " الْعليُّ هُوَ فعيل فِي معنىٰ فَاعل فَالله تَعَالَىٰ عَال علىٰ خلقه وَهُوَ عَليّ عَلَيْهِم بقدرته ، وَلَا يجب أَن يذهب بالعلوّ ارْتِفَاع مَكَان إِذْ قد بَينَّا أَنَّ ذَلِك لَا يجوز فِي صِفَاته تقدَّست ، وَلَا يجوز أَن يكون علىٰ أَن يتَصَوَّر بذهن أَو يتجلَّىٰ لطرف تَعَالَىٰ عَن ذَلِك علوّاً كَبِيراً " (٢) .

وقال الإمام الطَّحاوي الحنفي (٣٢١هـ) في " عقيدته " ما نصّه : " وتعالىٰ – أي الله – عن الحدودِ والغاياتِ والأركانِ والأعضاءِ والأدواتِ ، لا تحويه الجهات السِّتُّ كسائر الـمبتدعات " .

وقال الإمام أبو الحسن الأشعري (٣٢٤هـ) : " وأنَّ الله تعالىٰ استوىٰ علىٰ العرش علىٰ الوجه الذي قاله، وبالمعنىٰ الذي أراده، استواء منزَّهاً عن المماسَّة والاستقرار والتَّمكُّن والحلول والانتقال، لا يحمله العرش، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته، ومقهورون في قبضته، وهو فوق العرش، وفوق كلِّ شيء، إلىٰ تُخوم الثَّرىٰ، فوقيَّة لا تزيده قرباً إلىٰ العرش والسَّماء، بل هو رفيع الدَّرجات عن العرش، كما أنَّه رفيع الدَّرجات عن الثَّرىٰ، وهو مع ذلك قريب من كلِّ موجود، وهو أقرب إلىٰ العبد من حبل الوريد، وهو علىٰ كلِّ شيء شهيد "(٣) .

وقال الإمام أبو منصور الماتريدي (٣٣٣هـ) : " الأَصْل فِيهِ أَنَّ الله سُبْحَانَهُ كَانَ وَلَا مَكَان ، وَجَائِز ارْتِفَاع الْأَمْكِنَة وبقاؤه علىٰ مَا كَانَ ، فَهُوَ علىٰ مَا كَانَ وَكَانَ علىٰ مَا عَلَيْهِ الْآن ، جلَّ عَن التَّغَيُّر والزَّوال والاستحالة

---

(١) انظر : الفقه الأكبر (مطبوع مع الشرح الميسر علىٰ الفقهين الأبسط والأكبر) (١٣٥) .

(٢) انظر : تفسير أسماء الله الحسنىٰ (ص٤٨) .

(٣) انظر : الإبانة عن أصول الديانة (ص٢١) .

والبطلان إِذْ ذَلِك أَمَارَات الْحَدث الَّتِي بهَا عرف حدث الْعَالم وَدلَالَة إحتمال الفناء ، إِذْ لَا فرق بَين الزَّوَال من حَال إِلَىٰ حَال ليعلم أَنَّ حَاله الأولىٰ لم تكن لذاته إِذْ لَا يحْتَمل زَوَال مَا لزم ذَاته وَبَين أَنَّهَا لَيست لذاته لما احْتمل هُوَ قبُول الْأَعْرَاض وانتقال الْأَحْوَال ، وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللهَّ " (١) .

وقال أيضاً : " فَإِن قيل كَيفَ يرىٰ ؟!! قيل : بِلَا كَيفَ ، إِذْ الْكَيْفِيَّة تكون لذي صُورَة بل يرىٰ بِلَا وصف قيام وقعود ، وإتّكاء وَتعلّق ، وإتّصال وانفصال ، ومقابلة ومدابرة ، وقصير وطويل ، وَنور وظلمة ، وَسَاكن ومتحرّك ، ومماسّ ومباين ، وخارج وداخل ، وَلَا معنىٰ يَأْخُذهُ الْوَهم أَو يقدره الْعقل لتعاليه عَن ذَلِك " (٢) .

وقال أيضاً : " ... ثمَّ الله سُبْحَانَهُ كَانَ وَلَا مَكَان وعَلىٰ ذَلِك اعْتِقَاد الْأَنَام لم يجز أَن يتَغَيَّر الْفَهم عَن الْإِضَافَة عَمَّا كَانَ من قبل وَإِلَيْهِ ينْصَرف الْفَهم عَن الْإِضَافَة إِلىٰ خلقه " (٣) .

وقال أيضاً : " أَنَّ الله سُبْحَانَهُ كَانَ وَلَا مَكَان وَجَائِز ارْتِفَاع الْأَمْكِنَة وبقاؤه علىٰ مَا كَانَ فَهُوَ علىٰ مَا كَانَ وَكَانَ علىٰ مَا عَلَيْهِ الْآن جلَّ عَن التَّغَيُّر والزَّوال والاستحالة والبطلان ، إِذْ ذَلِك أَمَارَات الْحَدث الَّتِي بهَا عرف حدث الْعَالم وَدلَالَة احتمال الفناء إِذْ لَا فرق بَين الزَّوَال من حَال إِلَىٰ حَال ليعلم أَنَّ حَاله الأولىٰ لم تكن لذاته إِذْ لَا يحْتَمل زَوَال مَا لزم ذَاته وَبَين أَنَّهَا لَيست لذاته لما احْتمل هُوَ قبُول الْأَعْرَاض وانتقال الْأَحْوَال وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللهَّ ... " (٤) .

وقال الإمام ابن حبَّان (٣٥٤هـ) : " الْحَمد لله الَّذِي لَيْسَ لَهُ حد مَحْدُود فيحوىٰ ، وَلَا لَهُ أجل مَعْدُود فيفنىٰ ، وَلَا يُحِيط بِهِ جَوَامِع الْمَكَان ، وَلَا يشْتَمل عَلَيْهِ تَوَاتر الزَّمَان ، وَلَا يدْرك نعْمَته بالشواهد والحواس ، وَلَا يُقَاس صِفَات ذَاته بِالنَّاسِ ، تعاظم قدره عَن مبالغ نعت الواصفين ، وَجلَّ وَصفه عَن إِدْرَاك غَايَة الناطقين " (٥) .

وقال الإمام ابن فورك الأنصاري الأصبهاني (٤٠٦هـ) : " وَاعْلَم أَنَّا إِذا قُلْنَا إِنَّ الله عزَّ وَجلَّ فَوق مَا خلق لم يرجع بِهِ إِلىٰ فوقيَّة الْمَكَان والإرتفاع علىٰ الْأَمْكِنَة بالمسافة والإشراف عَلَيْهَا بالمماسَّة لشَيْء مِنْهَا " (٦) .

---

(١) انظر : التَّوحيد (ص٦٩) .

(٢) انظر : المرجع السابق (ص٨٥) .

(٣) انظر : المرجع السابق (ص١٠٦) .

(٤) انظر : التَّوحيد (ص٦٨-٧٧ باختصار) .

(٥) انظر : الثقات (١/ ١) .

(٦) انظر : مشكل الحديث وبيانه (ص١٧٣) .

وقال الإمام أبو الفضل عبد الواحد بن عبد العزيز التَّميمي الحنبلي (٤١٠هـ) إمام وفقيه ، رئيس الحنابلة في عصره في كتابه " اعتقاد الإمام المبجَّل ابن حنبل " : " وأنكر علىٰ من يقول بالجسم ، وقال : إنَّ الأسماء مأخوذة بالشَّريعة واللغة ، وأهل اللغة وضعوا هذا الاسم علىٰ كلِّ ذي طول وعرض وسمك وتركيب وصورة وتأليف ، والله تعالىٰ خارج عن ذلك كلّه ، فلم يجز أن يسمَّىٰ جسماً لخروجه عن معنىٰ الجسميَّة ولم يجيء في الشَّريعة ذلك فبطل " (١) .

وقال الإمام ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (٤٤٩هـ) ، علىٰ ما نقل الحافظ ابن حجر في فتح الباري ، قال : " وَقَالَ بن بَطَّالٍ : غَرَضُ الْبُخَارِيِّ فِي هَذَا الْبَابِ الرَّدُّ عَلَىٰ الْجَهْمِيَّةِ الْمُجَسِّمَةِ فِي تَعَلُّقِهَا بِهَذِهِ الظَّوَاهِرِ وَقَدْ تَقَرَّرَ أَنَّ اللهَ لَيْسَ بِجِسْمٍ فَلَا يَحْتَاجُ إِلىٰ مَكَانٍ يَسْتَقِرُّ فِيهِ ، فَقَدْ كَانَ وَلَا مَكَانَ " (٢) .

وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٤٥٨ هـ) ما نصّه : " وَاسْتَدَلَّ بَعْضُ أَصْحَابِنَا فِي نَفْيِ الْمَكَانِ عَنْهُ بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ» . وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ ". وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فَوْقَهُ شَيْءٌ وَلَا دُونَهُ شَيْءٌ لَمْ يَكُنْ فِي مَكَانٍ " (٣) .

وقال الإمام أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني الأشعري (٤٧٨ هـ) : " الباريء سبحانه وتعالىٰ قائمٌ بنفسه ، متعال عن الافتقار إلىٰ محلٍّ يحلّه أو مكانٍ يُقله " (٤) .

وقال الإمام أبو حامد محمَّد بن محمَّد الغزالي الطُّوسي (٥٠٥هـ) : " وَأَنَّهُ لَا يَحُلُّ فِي شَيْءٍ وَلَا يَحُلُّ فِيهِ شَيْءٌ تَعَالَىٰ عَنْ أَنْ يَحْوِيَهُ مَكَانٌ كَمَا تَقَدَّسَ عَنْ أَنْ يَحُدَّهُ زَمَانٌ بَلْ كَانَ قَبْلَ أَنْ خَلَقَ الزَّمَانَ وَالْمَكَانَ ، وَهُوَ الْآنَ عَلَىٰ ما عليه كان " (٥) .

وقال أيضاً : " الأصل السَّابع : العلم بأنَّ الله تعالىٰ منزَّه الذَّات عن الاختصاص بالجهات ، فإنَّ الجهة إمَّا فوق وإمَّا أسفل وإمَّا يمين وإمَّا شمال أو قدَّام أو خلْف ، وهذه الجهات هو الذي خلقها وأحدثها بواسطة خلق الإنسان إذ خلق له طرفين ، أحدهما : يعتمد علىٰ الأرض ويسمَّىٰ رِجْلاً ، والآخر يقابله ويسمَّىٰ رأساً

---

(١) انظر : اعتقاد الإمام ابن حنبل (ص٢٩٨) .

(٢) انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٣/ ٤١٦) .

(٣) انظر : الأسماء والصفات (٢/ ٢٨٧) .

(٤) انظر : الإرشاد إلىٰ قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد (ص٣٣) .

(٥) انظر : إحياء علوم الدين (١/ ٩٠) .

، فحدث اسم الفوق لما يلي جهة الرَّأس ، واسم السّفل لما يلي جهة الرِّجل ، حتىٰ إنَّ النَّملة التي تدبُّ منكَّسة تحت السَّقف تنقلب جهة الفوق في حقِّها تحتاً ، وإن كان في حقِّنا فوقاً " (١).

وقال الإمام أحمد بن علي بن ثابت الرِّفاعي الحسيني (٥٧٨ هـ) : " أي سادة نزِّهوا الله عن سمات المحدثين وصفات المخلوقين وطهِّروا عقائدكم من تفسير معنىٰ الاستواء في حقِّه تعالىٰ بالاستقرار كاستواء الأجسام علىٰ الأجسام المستلزم للحلول ، تعالىٰ الله عن ذلك ، وأيَّاكم والقول بالفوقيَّة والسُّفليَّة والمكان " (٢) .

وقال الإمام ابن الجوزي (٥٩٧هـ) : " ما أكثر تفاوت النَّاس في الفُهوم ! حتىٰ العلماء يتفاوتون التَّفاوت الكثير في الأصول والفروع : فترىٰ أقوامًا يسمعون أخبار الصِّفات ، فيحملونها علىٰ ما يقتضيه الحسّ ، كقول قائلهم : ينزل بذاته إلىٰ السَّماء ، وينتقل!! وهذا فهم رديء ؛ لأنَّ المنتقل يكون من مكان إلىٰ مكان ، ويوجب ذلك كون المكان أكبر منه، ويلزم منه الحركة ، وكلُّ ذلك محال علىٰ الحقّ عزَّ وجلَّ " (٣) .

وقال الإمام ابن الأثير (٦٠٦هـ) : " الْمُرَادُ بقُرْب الْعَبْدِ مِنَ اللهَّ تَعَالَىٰ القُرْب بالذِكْر وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، لَا قُرْبُ الذَّاتِ وَالْمَكَانِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ ، واللهَّ يَتَعالىٰ عَنْ ذَلِكَ ويَتَقدّس " (٤) .

وقال الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) : " وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُشَبِّهَةَ احْتَجُّوا عَلَىٰ إِثْبَاتِ الْمَكَانِ للهَّ تَعَالَىٰ بِقَوْلِهِ : ﴿ مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الملك:١٦] ، وَالْجَوَابُ عَنْهُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةُ لَا يُمْكِنُ إِجْرَاؤُهَا عَلَىٰ ظَاهِرِها بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ ، لِأَنَّ كَوْنَهُ فِي السَّماء يَقْتَضِي كَوْنَ السَّماء مُحِيطًا بِهِ مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ ، فَيَكُونُ أَصْغَرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَالسَّماءُ أَصْغَرُ مِنَ الْعَرْشِ بِكَثِيرٍ ، فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ اللهُّ تَعَالَىٰ شَيْئًا حَقِيرًا بِالنِّسْبَةِ إِلىٰ الْعَرْشِ ، وَذَلِكَ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ مُحَالٌ ، وَلِأَنَّهُ تَعَالَىٰ قَالَ : ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ ﴾ [الأنعام: ١٢] فَلَوْ كَانَ اللهُّ فِي السَّماء لَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ مَالِكًا لِنَفْسِهِ وَهَذَا مُحَالٌ، فَعَلِمْنَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ يَجِبُ صَرْفُهَا عَنْ ظَاهِرِهَا إِلىٰ التَّأْوِيلِ " (٥) .

وقال الإمام ابن الحاج (٧٣٧هـ) : " ... إذْ لَيْسَ فِي مَكَان فَقَدْ كَانَ قَبْلَ أَنْ يُخْلَقَ الْمَكَانُ " (٦) .

وقال الإمام أبو عبد الله محمَّد بن أحمد القرطبي (٦٧١هـ) : " وَ (الْعَلِيُّ) يُرَادُ بِهِ عُلُوُّ الْقَدْرِ وَالْمَنْزِلَةِ لَا عُلُوُّ الْمَكَانِ، لِأَنَّ اللهَّ مُنَزَّهٌ عَنِ التَّحَيُّزِ " (١) .

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين (١/ ١٠٧) .

(٢) انظر : البرهان المؤيد (ص١٦) .

(٣) انظر : صيد الخاطر (ص٤٨٧-٤٨٨) .

(٤) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٣٢) .

(٥) انظر : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (٣٠/ ٥٩٢) .

(٦) انظر : المدخل (٢/ ١٤٩) .

وقال الإمام النَّسفي (٧١٠هـ) : " ... لأنَّه تعالىٰ كان ولا مكان ، فهو علىٰ ما كان قبل خلق المكان ، لم يتغيَّر عمَّا كان " (٢) .

وقال الإمام ابن حيَّان الأندلسي (٧٤٥هـ) : " ... وعند هُنَا لَا يُرَادُ بِهَا ظَرْفُ الْمَكَانِ ، لِأَنَّهُ تَعَالَىٰ مُنَزَّهٌ عَنِ الْمَكَانِ ، بَلِ الْمَعْنَىٰ شَرَفُ الْمَكَانَةِ وَعُلُوُّ الْمَنْزِلَةِ " (٣) .

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) : " وَلَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ جِهَتَي الْعُلُوِّ وَالسُّفْلِ مُحَالٌ عَلَىَ اللهِّ أَنْ لَا يُوصَفَ بِالْعُلُوِّ ، لِأَنَّ وَصْفَهُ بِالْعُلُوِّ مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَىٰ ، وَالْمُسْتَحِيلُ كَوْنُ ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ الْحِسِّ " (٤) .

وقال الإمام الزَّبيدي : " ... أنَّه سبحانه لا مكان له ولا جهة ، قال الشَّافعيُّ رحمه الله تعالىٰ : والدَّليل عليه هو أنَّه تعالىٰ كان ولا مكان فخلق المكان وهو علىٰ صفة الأزليَّة كما كان قبل خلقه المكان ، لا يجوز عليه التَّغيير في ذاته ، ولا التَّبديل في صفاته " (٥) .

وقال أيضاً : " (إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام كما لا تماثل ذاته) الشَّريفة (ذات الأجسام وأنَّه) تعالىٰ (لا يحلُّ في شيءٍ) لا ذاته ولا صفاته ، أمَّا ذاته فلانَّ الحلول هو الحصول في الحيِّز تبعاً ، والله تعالىٰ منزَّه عن التَّحيز ، ولأنَّ الحلول ينافي الوجوب الذاتي لافتقار الحال إلىٰ المحل ، وأمَّا صفاته فلانَّ الانتقال من صفات الأجسام والله تعالىٰ منزَّه عن الجسميَّة كما مرَّ (ولا يحلُّ فيه شيءٌ تعالىٰ) وتقدَّس (عن أن يحويه مكان) فيشار إليه أو تضمُّه جهة ، وإنَّما اختصَّت السَّماء برفع الأيدي إليها عند الدُّعاء لأنَّها جعلت قبلة الأدعية كما أنَّ الكعبة جعلت قبلة المصلِّي يستقبلها في الصَّلاة ، ولا يقال : أنَّ الله تعالىٰ في جهة الكعبة (كما تقدَّس عن أن يحدّه زمان) لأنَّ المحدود محتو علىٰ أجزاء الماهيَّة ، والله تعالىٰ منزَّه عن ذلك ، كما تقدَّم (بل كان) تعالىٰ (قبل أن خلق الزمان والمكان) والعرش والكرسيُّ والسماوات والأرضيين (وهو الآن علىٰ ما عليه) من سلطة الأزليَّة كما (كان) قبل خلقه الزَّمان والمكان وغيرهما (وأنَّه) تعالىٰ (بائن عن خلقه بصفاته) العليَّة (ليس في ذاته سواه جلَّ وعزَّ ولا في سواه ذاته) الشَّريفة (وأنَّه) تعالىٰ (مقدَّس) منزَّه (عن التَّغير) من حال إلىٰ حال

---

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٢٧٨) .

(٢) انظر : تفسير النسفي (٢/ ٣٥٧) .

(٣) انظر : البحر المحيط في التفسير (٧/ ٤١٦) .

(٤) انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (٦/ ١٣٦) .

(٥) انظر : اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدِّين (٢/ ٢٣) .

(والانتقال) من مكان إلىٰ مكان وكذا الاتِّصال والانفصال ، فانَّ كلاً من ذلك من صفات المخلوقين ... " ... [1] .

سَابِعَاً : أنَّ العلماء أوَّلوا وتكلَّموا عمَّا جاء في الحديث من قول الجارية " في السَّماء " ، وصرَّحوا بضرورة عدم حمل اللفظ علىٰ ظاهر معناه ، وأنَّه يجب تأويله ونظيره بما ينسجم مع القواطع العقليَّة وكذا قواعد اللغة العربيَّة ، مع التَّأكيد علىٰ أنَّه تعالىٰ لا يَتَوجَّهُ علَيهِ في وجوده أَيْن ...

ومن تأويلات العلماء لما جاء في حديث الجارية من لفظ العين :

جاء في منح الجليل شرح مختصر خليل : " قَالَ عَلِيٌّ كَرَّمَ اللهُ تَعَالَىٰ وَجْهَهُ حِين قِيلَ لَهُ: أَيْنَ اللهُ : الَّذِي أَيَّنَ الْأَيْنُ لَا يُقَالُ فِيهِ أَيْنَ؟ فَبَيَّنَ لِلسَّائِلِ فَسَادَ سُؤَالِهِ بِأَنَّ الْأَيْنِيَّةَ مَخْلُوقَةٌ، وَالَّذِي خَلَقَهَا كَانَ مَوْجُودًا قَبْلَ خَلْقِهَا لَا مَحَالَةَ، وَلَا أَيْنِيَّةَ لَهُ، وَصِفَاتُهُ تَعَالَىٰ لَا تَتَغَيَّرُ فَهُوَ بَعْدَ أَنْ خَلَقَ الْأَيْنِيَّةَ عَلَىٰ مَا كَانَ قَبْلَ خَلْقِهَا " [2] .

وجاء في " كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال " : " عن الأصبغ بن نباتة قال: كنَّا جلوساً عند علي بن أبي طالب فأتاه يهودي فقال: يا أمير المؤمنين متىٰ كان الله؟ فقمنا إليه فلهزناه حتىٰ كدنا نأتي علىٰ نفسه، فقال عليٌّ: خلُّوا عنه، ثمَّ قال : اسمع يا أخا اليهود ما أقول لك بأذنك واحفظه بقلبك، فإنَّما أحدثك عن كتابك الذي جاء به موسىٰ بن عمران، فإن كنت قد قرأت كتابك وحفظته فإنَّك ستجده كما أقول، إنَّما يقال متىٰ كان لمن لم يكن ثمَّ كان، فأمَّا من يزل بلا كيف يكون كان بلا كينونة، كائن لم يزل قبل القَبْل وبعد البَعْد لا يزال بلا كيف ولا غاية ولا منتهىٰ، إليه انقطعت دونه الغايات فهو غاية كلّ غاية. فبكىٰ اليهودي وقال: والله يا أمير المؤمنين أنَّها لفي التَّوراة هكذا حرفاً حرفاً، وإنِّي أشهد أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمَّداً عبده ورسوله". (الأصبهاني في الحجَّة) " [3] .

قال الإمام أبو حنيفة : " قلت : أَرَأَيْت لَو قيل : أَيْن الله تَعَالَىٰ ؟ فَقَالَ : يُقَال لَهُ : كَانَ الله تَعَالَىٰ وَلَا مَكَان قبل أن يخلق الْخلق ، وَكَانَ الله تَعَالَىٰ وَلم يكن أَيْن وَلَا خلق كل شَيْء وَهُوَ خَالق كل شَيْء " [4] .

---

(١) انظر : اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدِّين (٢/ ٢٥) .

(٢) انظر : منح الجليل شرح مختصر خليل (٤/ ٢٤٨) .

(٣) انظر : كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال (١/ ٤٠٧-٤٠٨) ، وانظر : الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة ، الأصبهاني (٢/ ١٩٥) ، تحقيق: محمد بن ربيع بن هادي عمير المدخلي ، دار الراية ، الرياض ، الطبعة: الثانية، ١٤١٩هـ ، ١٩٩٩م .

(٤) انظر : الفقه الأكبر (مطبوع مع الشرح الميسر علىٰ الفقهين الأبسط والأكبر) (ص١٦١) .

وقال الإمام الخطَّابي (٣٨٨هـ) : " وأمَّا قول النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أعتقها فإنَّها مؤمنة " ، ولم يكن ظهر له من إيمانها أكثر من قوله حين سألها : أين الله ؟ فقالت : في السَّماء ، وسألها : من أنا ؟ فقالت : رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فإنَّ هذا السُّؤال عن أمارة الإيمان وسمة أهله ، وليس بسؤال عن أصل الإيمان وصفة حقيقته !!! ولو أنَّ كافراً يريد الانتقال من الكفر إلىٰ دين الإسلام فوصف من الإيمان هذا القدر الذي تكلَّمت به الجارية لم يصرّ به مسلماً حتىٰ يشهد أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمَّداً رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ويتبرَّىٰ من دينه الذي كان يعتقده، وإنَّما هذا كرجل وامرأة يوجدان في بيت فيقال للرَّجل من هذه منك ؟ فيقول : زوجتي وتصدِّقه المرأة ، فإنَّا نصدِّقهما في قولهما ، ولا نكشف عن أمرهما ، ولا نطالبهما بشرائط عقد الزَّوجية حتىٰ إذا جاءانا وهما أجنبيان يريدان ابتداء عقد النِّكاح بينهما فإنَّا نطالبهما حينئذ بشرائط عقد الزَّوجية من إحضار الولي والشُّهود وتسمية المهر. كذلك الكافر إذا عُرض عليه الإسلام لم يقتصر منه علىٰ أن يقول : إنِّي مسلم حتىٰ يصف الإيمان بكماله وشرائطه ، وإذا جاءنا من نجهل حاله بالكفر والإيمان ، فقال : إنِّي مسلم قبلناه، وكذلك إذا رأينا عليه أمارة المسلمين من هيئة وشارة ونحوهما حكمنا بإسلامه إلىٰ أن يظهر لنا منه خلاف ذلك " (١) .

وقال الإمام ابن فورك الأصبهاني (٤٠٦هـ) : " ذكر خبر آخر مِمَّا يَقْتَضِي التَّأْوِيل ويوهم ظَاهره التَّشْبِيه .

وَهُوَ من الْأَخْبَار الْمَشْهُورَة عِنْد أهل النَّقْل ، وَذَلِكَ مِمَّا يتعَلَّق بِذكر الْمَكَان ، وَقد رُوِيَ فِي مَعْنَاهُ أَخْبَار سنذكرها أَوَّلاً فأوَّلاً فمن ذَلِك : مَا رُوِيَ فِي الْخَبَر أَنَّ جَارِيَة عرضت علىٰ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّن أُرِيد عتقهَا فِي الْكَفَّارَة ، فَقَالَ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهَا : " أَيْن الله " ؟ فَأَشَارَتْ إلىٰ السَّماء ، فَقَالَ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " اعتقها فَإِنَّهَا مُؤمنَة " .

اعْلَم أَنَّ الْكَلَام فِي ذَلِك من وَجْهَيْن :

أَحدهمَا : فِي تَأْوِيل قَوْله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَيْن الله " مَعَ إستحالة كَونه فِي مَكَان .

وَالثَّانِي : قَوْله : " أَنَّهَا مُؤمنَة " من غير ظُهُور عمل مِنْهَا .

فَأَمَّا الْكَلَام فِيمَا يتَضَمَّن قَوْله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَيْن الله " فَإِنَّ ظَاهر اللُّغَة تدل من لفظ أَيْن أَنَّهَا مَوْضُوعَة للسُّؤَال عَن الْمَكَان ، ويستخبر بهَا عَن مَكَان المسؤول عَنهُ بأين إِذا قيل : أَيْن هُوَ ، وَذَلِكَ أَنَّ أهل اللُّغَة قَالُوا لما ثقل علىٰ أهل اللِّسَان فِي الإستفهام عَن الْمَكَان أَن يَقُولُوا : أهوَ فِي الْبَيْت أم فِي الْمَسْجِد أم فِي السُّوق أم فِي بقْعَة كَذَا وَكَذَا وضعُوا لَفْظَة تجمع لجمع الْأَمْكِنَة يستفهمون بهَا عَن مَكَان المسؤول عَنهُ بأين ،

---

(١) انظر : معالم السنن، وهو شرح سنن أبي داود (١/ ٢٢٢-٢٢٣) .

وَهَذَا هُوَ أصل هَذِه الْكَلِمَة ، غير أَنَّهم قد استعملوها عَن مَكَان الْمَسْئُول عَنهُ فِي غير هَذَا الْمَعْنى توسُّعاً أَيْضاً تَشْبِيهاً بِمَا وضع لَهُ ، وَذَلِكَ أَنَّهم يَقُولُونَ عِنْد استعلام منزلَة المستعلم عِنْد من يستعلمه : أَيْن منزلَة فلَان مِنْك ؟ وَأَيْنَ فلَان من الْأَمِير ؟ واستعملوه فِي إستعلام الْفرق بَين الرُّتبتين بِأَن يَقُولُوا : أَيْن فلَان من فلَان ، وَلَيْسَ يُرِيدُونَ الْمَكَان وَالْمحل من طَرِيق التَّجاوز فِي الْبِقَاع بل يُرِيدُونَ الإستفهام عَن التُّربة والمنزلة ، وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ : لفُلَان عِنْد فلَان مَكَان ومنزلة ، وَمَكَان فلَان فِي قلب فلَان حسن ، ويريدون بذلك الْمرتبَة والدَّرجة فِي التَّقْرِيب والتَّبعيد وَالْإِكْرَام والإهانة ، فَإِذا كَانَ ذَلِك مَشْهُوراً فِي اللُّغَة احْتمل أَن يُقَال : إِنَّ معنى قَوْله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَيْن الله استعلام لمنزلته وَقدره عِنْدهَا وَفِي قَلبهَا ، وأشارت إِلَى السَّماء ودلَّت بإشارتها على أَنَّه فِي السَّماء عِنْدهَا على قَول الْقَائِل :إِذا أَرَادَ أَن يخبر عَن رفْعَة وعلو منزلَة فلَان فِي السَّماء ، أَي : هُوَ رفيع الشَّأْن عَظِيم الْمِقْدَار ، كَذَلِك قَوْلهَا فِي السَّماء على طَرِيق الْإِشَارَة إِلَيْهَا تَنْبِيها عَن محَله فِي قَلبهَا ومعرفتها بِهِ .

وَإِنَّمَا أشارت إِلَى السَّماء لِأَنَّهَا كَانَت خرساء ، فدلَّت بإشارتها على مثل دلَالَة الْعبارَة على نَحْو هَذَا الْمَعْنى ، وَإِذا كَانَ كَذَلِك لم يجز أَن يحمل على غَيره مِمَّا يَقْتَضِي الْحَد والتَّشبيه والتَّمكين فِي الْمَكَان والتَّكييف .

وَمن أَصْحَابنَا من قَالَ : إِنَّ الْقَائِل إِذا قَالَ : إِنَّ الله فِي السَّماء وَيُرِيد بذلك أَنَّه فَوْقهَا من طَرِيق الصّفة لَا من طَرِيق الْجِهَة على نَحْو قَوْله سُبْحَانَهُ : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الملك:١٦] لم يُنكر ذَلِك .

وَأمَّا قَوْله عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام : " اعتقها فَإِنَّهَا مُؤمنَة " ، فَيحْتَمل أَن يكون قد عرف إيمَانهَا بِوَحْي فَأخْبر بذلك عَن ظُهُور إشارتها الَّتِي هِيَ عَلامَة من عَلَامَات الْإِيمَان .

وَيحْتَمل أَن يكون سَمَّاهَا مُؤمنَة على الظاهرمن حَالهَا وَأَنَّ ذَلِك الْقدر يَكْفِي من الْمَطْلُوب من إِيمَان من يُرَاد عتقه وَأَنَّه لَا يعْتَبر بعد ذَلِك ظُهُور الْأَعْمَال وَالْوَفَاء بالعبادات " (١) .

وقال الإمام طاهر بن محمَّد الأسفراييني، أبو المظفَّر (٤٧١هـ) : " وَأَن تعلم أَنَّه لَا يجوز عَلَيْهِ الْكَيْفِيَّة والكميَّة والأينيَّة ، لِأَنَّ من لَا مثل لَهُ لَا يُمكن أَن يُقَال فِيهِ : كَيفَ هُوَ ؟ وَمن لَا عدد لَهُ لَا يُقَال فِيهِ كم هُوَ ؟ وَمن لَا أَوَّل لَهُ لَا يُقَال لَهُ مِم كَانَ ؟ وَمن لَا مَكَان لَهُ لَا يُقَال فِيهِ أَيْن كَانَ . وَقد ذكرنَا من كتاب الله تَعَالَى مَا يدلُّ على التَّوحيد وَنفي التَّشْبِيه وَنفي الْمَكَان والجهة وَنفي الِابْتِدَاء والأوليَّة ، وَقد جَاءَ فِيهِ عَن أَمِير الْمُؤمنِينَ عَليّ

(١) انظر : مشكل الحديث وبيانه (ص١٥٨-١٦١) .

رَضِي الله عَنهُ أشفىٰ الْبَيَان حِين قيل لَهُ أَيْن الله ؟ فَقَالَ : إِنَّ الَّذِي أَيَّن الأين لَا يُقَال لَهُ أَيْن ، فَقيل لَهُ : كَيفَ الله ؟ فَقَالَ : إِنَّ الَّذِي كَيَّفَ الكيف لَا يُقَال لَهُ كَيفَ " (١) .

وقال الإمام أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد التّجيبي القرطبي الباجي الأندلسي (٤٧٤هـ) : " وَقَوْلُهُ: لِلْجَارِيَةِ أَيْنَ اللهُ؟ فَقَالَتْ: فِي السَّمَاءِ لَعَلَّهَا تُرِيدُ وَصْفَهُ بِالْعُلُوِّ وَبِذَلِكَ يُوصَفُ كُلُّ مَنْ شَأْنُهُ الْعُلُوُّ فَيُقَالُ مَكَانُ فُلَانٍ فِي السَّمَاءِ بِمَعْنَىٰ عُلُوِّ حَالِهِ وَرِفْعَتِهِ وَشَرَفِهِ " (٢) .

وقال الإمام السَّرخسي (٤٨٣هـ) : " فَأَمَّا الْحَدِيثُ فَقَدْ ذُكِرَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّ الرَّجُلَ قَالَ : عَلَيَّ عِتْقُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ أَوْ عَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِطَرِيقِ الْوَحْيِ أَنَّ عَلَيْهِ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً ، فَلِهَذَا امْتَحَنَهَا بِالْإِيمَانِ مَعَ أَنَّ فِي صِحَّةِ ذَلِكَ الْحَدِيثِ كَلَامًا ، فَقَدْ رُوِيَ «أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: أَيْنَ الله ؟ فَأَشَارَتْ إلىٰ السَّمَاءِ» وَلَا نَظُنُّ بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّه يَطْلُبُ مِنْ أَحَدٍ أَنْ يُثْبِتَ للهِ تَعَالَىٰ جِهَةً وَلَا مَكَانًا، وَلَا حُجَّةَ لَهُمْ فِي الْآيَةِ لِأَنَّ الْكُفْرَ خَبَثٌ مِنْ حَيْثُ الِاعْتِقَادِ، وَالْمَصْرُوفُ إلىٰ الْكَفَّارَةِ لَيْس هُوَ الِاعْتِقَادُ إنَّمَا الْمَصْرُوفُ إلىٰ الْكَفَّارَةِ الْمَالِيَّةُ وَمِنْ حَيْثُ الْمَالِيَّةِ هُوَ عَيْبٌ يَسِيرٌ عَلَىٰ شَرَفِ الزَّوَالِ " (٣) .

وقال الإمام المازري المالكي (٥٣٦هـ) : " ... قيل : إنَّما أراد عليه السَّلام أن يتطلَّب دليلاً علىٰ أنَّها موحِّدة فخاطبها بما تفهم به قصده ، إذ من علامات الموحِّدين التَّوجُّه إلىٰ السَّماء عند الدُّعاء وطلب الحوائج ، لأنَّ العرب التي تعبد الأصنام تطلب حوائجها من الأصنام والعجم من النِّيران ، فأراد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكشف عن معتقدها: هل هي من جملة من آمن؟ فأشارت إلىٰ السَّماء وهي الجهة المقصودة عند الموحِّدين كما ذكرنا. وقيل: إنَّما وَجْهُ السُّؤال بـ (أين) هاهنا سؤال عمَّا تعتقده من جلال الباري سبحانه وعظمته، وإشارتها إلىٰ السَّماء إخبار عن جلالته تعالىٰ في نفسها ، والسَّماء قبلة الدَّاعين كما أنَّ الكعبة قبلة المصلِّين ، فكما لم يدلّ استقبال الكعبة علىٰ أنَّ الله جلَّت قدرته فيها لم يدل التَّوجُّه إلىٰ السَّماء، والإشارة علىٰ أنَّ الله سبحانه حالٌّ فيها " (٤) .

---

(١) انظر : التبصير في الدِّين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين (ص١٦١) .

(٢) انظر : المنتقىٰ شرح الموطإ (٦/ ٢٧٤) .

(٣) انظر : المبسوط (٧/ ٤) .

(٤) انظر : المُعْلم بفوائد مسلم (١/ ٤١٢) .

وقال الإمام ابن العربي المالكي (٥٤٣هـ) : " والمراد بالسُّؤال بها عنه تعالىٰ المكانة ، فإنَّ المكان يستحيل عليه " (١) .

وقال الإمام عياض بن موسىٰ اليحصبي السّبتي (٥٤٤هـ) : " وقول النَّبىِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للجارية: " أين الله؟ "، قال الإمام: إنَّما أراد النبىِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يطلب دليلاً علىٰ أنَّها موحدة، فخاطبها بما يفهم قصده، إذ علامة الموحِّدين التَّوجُّه إلىٰ الله إلىٰ السَّماء عند الدُّعاء وطلب الحوائج؛ لأنَّ العرب التىِ تعبد الأصنام، وتطلب حوائجها من الأصنام، والعجم من النِّيران، فأراد - عليه السَّلام - الكشف عن معتقدها هل هي ممَّن آمن؟ فأشارت إلىٰ السَّماء، وهىِ الجهة المقصودة عند الموحِّدين ، كما ذكرنا .

وقيل: إنَّما السُّؤال بأين هاهنا سؤال عمَّا تعتقده من جلالة الباري سبحانه وعظمته. وإشاراتها إلىٰ السَّماء إخبار عن جلالته تعالىٰ في نفسها، والسَّماء قِبْلَةُ الدَّاعين، كما أنَّ الكعبةَ قِبْلَةُ المصلين، كما لم يدل استقبال القبلة علىٰ أنَّ الله تعالىٰ فيها، كذلك لم يدل التَّوجُّه إلىٰ السَّماء والإشارة إلىٰ السَّماء علىٰ أنَّ الله سبحانه فيها .

قال القاضي: لا خلاف بين المسلمين قاطبة - محدِّثهم وفقيههم ومتكلِّمهم ومقلِّدهم ونُظَّارِهم - أَنَّ الظَّواهر الواردة بذكر الله في السَّماء كقوله: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الملك:١٦] ، أنَّها ليست علىٰ ظاهرها، وأنَّها متأوَّلة عند جميعهم، أمَّا من قال منهم بإثبات جهة فوق لله تعالىٰ من غير تحديد ولا تكييف من دهماء المحدثين والفقهاء، وبعض المتكلِّمين منهم، فتأوَّل في السَّماء بمعنىٰ علىٰ، وأمَّا دهماء النظَّار والمتكلِّمين ، وأصحاب الإثبات والتَّنزيه المحيلين، أن يختص بجهة أو يحيط به حد، فلهم فيها تأويلات بحسب مقتضاها، منها ما تقدَّم ذكره في كلام الإمام أبي عبد الله " (٢) .

وقال الإمام ابن الجوزي الحنبلي (٥٩٧هـ) : " قد ثبت عند العلماء أنَّ الله تعالىٰ لا يحويه السَّماء والأرض ولا تضمُّه الأقطار ، وإنَّما عرف بإشارتها تعظيم الخالق عندها " (٣) .

وقال الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) : " إنَّ لفظ " أين " كما يجعل سؤالاً عن المكان ، فقد يجعل سؤالاً عن المنـزلة والدَّرجة ، يقال : أين فلان من فلان ، فلعلَّ السُّؤال كان عن المنـزلة ، وأشار تها إلىٰ السَّماء ، أي : هو رفيع القدْر جداً " (٤) .

(١) انظر : عارضة الأحوذي (١١/ ١٩٤) .

(٢) انظر : شَرْحُ صَحِيح مُسْلِمِ لِلقَاضِى عِيَاض المُسَمَّىٰ إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم (٢/ ٤٦٥) .

(٣) انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه (ص١٨٩) .

(٤) انظر : أساس التقديس (ص١٨٦) .

وقال الإمام أبو العبَّاس أحمَدُ القرطبيُّ (٦٥٦هـ) : " وقوله ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ للجارية : " أين الله ؟ " هذا السُّؤال من النَّبي ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ تَنَزُّلٌ مع هذه الجارية علىٰ قدْر فهمها ؛ إذ أراد أن يظهر منها ما يدلُّ علىٰ أنَّها ليست ممَّن يعبد الأصنام ولا الحجارة التي في الأرض ... فأراد النّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتعرَّف منها : هل هي ممن يعتقد أنَّ معبوده في بيت الأصنام أم لا ؟ فقال لها : أين الله ؟ فقالت : في السَّماء ، فقنع منها بذلك وحكم بإيمانها ، إذ لم تتمكَّن من فهم غير ذلك ، وإذ نزَّهت الله تعالىٰ عن أن يكون من قبيل معبوداتهم وأصنامهم ، ورفعته عن أن يكون في مثل أمكنتهم ، وحملها علىٰ ذلك أنَّها رأت المسلمين يرفعون أبصارهم وأيديهم إلىٰ السَّماء عند الدُّعاء ، فتُرِكت علىٰ ذلك في تلك الحال لقصور فهمها إلىٰ أن يتمكَّن فهمها وينشرح صدرها ، إذ لو قيل لها في تلك الحالة : الله تعالىٰ يستحيل عليه المكان والزَّمان لخيْف عليها أن تعتقد النَّفي المْحْض والتَّعطيل ؛ إذ ليس كلّ عقل يقبل هذا ، ويعقله علىٰ وجهه ، بل إنَّما يعقله العالمون الذين شرح الله صدورهم لهدايته ، ونوَّر قلوبهم بنور معرفته ، وأمدّهم بتوفيقه ومعونته ، وأكثر الخلق تغلب عليهم الأوهام ، وتَكِلّ منهم الأفهام .

وقيل في تأويل هذا الحديث : أنَّ النَّبي ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ إنَّما سألها بـ " أين " عن الرُّتبة المعنويَّة التي هي راجعة إلىٰ جلاله تعالىٰ وعظمته التي بها بَايَنَ كلَّ من نُسبت إليه الإلهيَّة ، وهذا كما يقال : أين الثُّريَّا من الثَّرَىٰ ، والبصرُ من العَمَىٰ ؛ أي : بَعُدَ ما بينهما ، واختصَّت الثُّريَّا والبصر بالشَّرف والرِّفعة . وعلىٰ هذا يكون قولها : " في السَّماء " ؛ أي : في غاية العلوّ والرفعة ، وهذا كما يقال : فلان في السَّماء ومناط الثُّريَّا ، كما قال :

وإنَّ بني عوف كما قد علمتم ... مناط الثُّريَّا قد تعلّت نجومُها

أقول هذا ، والله ورسوله أعلم ، والتَّسليم أسلم .

تنبيه : ثمَّ اعلم أنَّه لا خلاف بين المسلمين قاطبة ، محدثهم ، وفقيههم ، ومتكلِّمهم ، ومقلِّدهم ، ونُظَّارهم : أنَّ الظَّواهر الواردة بذكر الله في السَّماء ؛ كقوله : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[الملك:١٦] ليست علىٰ ظاهرها ، وأنَّها متأوَّلة عند جميعهم . أمَّا من قال منهم بالجهة ، فتلك الجهة عنده هي جهة الفوق ، كما جاء في الأحاديث فلا بدَّ أن يُتَأَوَّل كونه في السَّماء ، وقد تأَوَّلوه تأويلات ، وأشبه ما فيه : أنَّ " في " بمعنىٰ : " علىٰ " ، كما قال : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١] ؛ أي : علىٰ جذوع النَّخل ، ويكون العلوّ بمعنىٰ الغلبة ، وأمَّا من يعتقد نفي الجهة في حقِّ الله تعالىٰ ، فهو أحقُّ بإزالة ذلك الظَّاهر ، وإجلال الله تعالىٰ عنه ، وأَوْلىٰ الفرق بالتَّأويل . وقد حصل من هذا الأصل المحقَّق : أنَّ قول الجارية : " في السَّماء " ليس علىٰ ظاهره

باتِّفاق المسلمين ، فيتعيَّن أن يعتقد فيه أنَّه مُعَرَّض لتأربل المتأوِّلين ، وأن مَنْ حمله على ظاهره فهو ضالٌّ من الضَّالِّين " (١) .

وقال الإمام أبو عبد الله محمَّد بن أحمد القرطبي (٦٧١هـ) : " ... لأنَّ كلّ من في السَّماوات والأرض وما فيهما وما بينهما خلق الله تعالى وملك له، وإذا كان ذلك كذلك يستحيل على الله أن يكون في السَّماء أو في الأرض، إذ لو كان في شيء لكان محصوراً أو محدوداً، ولو كان ذلك لكان محدثاً، وهذا مذهب أهل الحقِّ والتَّحقيق .

وعلى هذه القاعدة قوله تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الملك:١٦] ، وقوله : عليه السَّلام للجارية " أين الله؟ " قالت في السَّماء ، ولم ينكر عليها وما كان مثله ليس على ظاهره بل هو مؤوَّل تأويلات صحيحة قد أبداها كثير من أهل العلم في كتبهم " (٢) .

وقال الإمام أبو زكريَّا محيي الدِّين يحيى بن شرف النَّووي (٦٧٦هـ) : " ... هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ أَحَادِيثِ الصِّفَاتِ ، وَفِيهَا مَذْهَبَانِ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمَا مَرَّاتٍ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ ، أَحَدُهُمَا : الْإِيمَانُ بِهِ مِنْ غَيْرِ خَوْضٍ فِي مَعْنَاهُ مَعَ اعْتِقَادِ أَنَّ اللهَّ تَعَالَى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَتَنْزِيهِهِ عَنْ سِمَاتِ الْمَخْلُوقَاتِ . وَالثَّانِي : تَأْوِيلُهُ بِمَا يَلِيقُ بِهِ ، فَمَنْ قَالَ بِهَذَا قَالَ : كَانَ الْمُرَادُ امْتِحَانَهَا هَلْ هِيَ مُوَحِّدَةٌ تُقِرُّ بِأَنَّ الْخَالِقَ الْمُدَبِّرَ الْفَعَّالَ هُوَ اللهُّ وَحْدَهُ وَهُوَ الَّذِي إِذَا دَعَاهُ الدَّاعِي اسْتَقْبَلَ السَّماء كَمَا إِذَا صَلَّى الْمُصَلِّي اسْتَقْبَلَ الْكَعْبَةَ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لأَنَّه مُنْحَصِرٌ فِي السَّماء ، كَمَا أَنَّه لَيْسَ مُنْحَصِرًا فِي جِهَةِ الْكَعْبَةِ بَلْ ذَلِكَ لِأَنَّ السَّماء قِبْلَةُ الدَّاعِينَ كَمَا أَنَّ الْكَعْبَةَ قِبْلَةُ الْمُصَلِّينَ أَوْ هِيَ مِنْ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ الْعَابِدِينَ لِلْأَوْثَانِ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، فَلَمَّا قَالَتْ : فِي السَّماء عَلِمَ أَنَّها مُوَحِّدَةٌ وَلَيْسَتْ عَابِدَةً لِلْأَوْثَانِ . قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ : لَا خِلَافَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ قَاطِبَةً فَقِيهُهُمْ وَمُحَدِّثُهُمْ وَمُتَكَلِّمُهُمْ وَنُظَّارُهُمْ وَمُقَلِّدُهُمْ أَنَّ الظَّوَاهِرَ الْوَارِدَةَ بِذِكْرِ اللهَّ تَعَالَى فِي السَّماء ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ ، وَنَحْوِهِ لَيْسَتْ عَلَى ظَاهِرِهَا بَلْ مُتَأَوَّلَةٌ عِنْدَ جَمِيعِهِمْ " (٣) .

وقال الإمام القاضي ناصر الدِّين عبد الله بن عمر البيضاوي (٦٨٥هـ) : " لم يرد به السُّؤال عن مكانه، فإنَّه منزَّه عنه، والرَّسول أعلى من أن يسأل أمثال ذلك " (٤) .

---

(١) انظر : المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٥/ ٧٣-٧٦) .

(٢) انظر : التذكار في أفضل الأذكار من القرآن الكريم (ص١٨-١٩) .

(٣) انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٥/ ٢٤) .

(٤) انظر : تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة (٢/ ٣٩٥) .

وقال الإمام ابن جماعة الكناني (٧٣٣هـ) : " وَقد تمسَّك بِهَذَا الحَدِيث من قَالَ بالجهة وجعلوه عمدتهم .
وَقد تقدَّم أَنَّ المهم فِي صدر الْبعْثَة بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْعَامَّة إِنَّمَا كَانَ إِثْبَات وجود الْبَارِي تَعَالَى ووحدانيَّته بالإلهيَّة ، فعاملهم بِمَا يؤنسهم مِمَّا ألفوه ، وأقرَّهم على اعْتِقَاد ثُبُوت وجوده تَعَالَى وانفراده بالإلهيَّة ، لِأَنَّ أذهانهم لَا تحْتَمل النَّظر فِيمَا لم يألفوه من الْأَدِلَّة الدَّقيقة وَالتَّفْصِيل الْكُلِّي ، فَيَقَع مِنْهُم أَولاً بالإثبات الْجملِي فِي ذَلِك ، وَلَا طَرِيق لَهُ إِلَّا بِمَا ألفوه مِمَّا تقبله أذهانهم .
فَلَمَّا أشارت إِلَى السَّماء علم النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَظمَة الله تَعَالَى عِنْدهَا ووحدانيَّته ونفرتها من آلِهَة الأَرْض عِنْدهَا الَّتِي كَانُوا يعبدونها ، فَلَمَّا فهم ذَلِك مِنْهَا سَأَلَهَا عَن نَفسه الْكَرِيمَة ليعلم إِقْرَارهَا بنبوته الَّتِي هِيَ ثَانِيَة عقد الْإِسْلَام ، فَلَمَّا قَالَت رَسُول الله علم إسْلَامهَا .
وَقيل : يجوز أَن يُرَاد بـ أَيْن الْمنزلَة والرُّتبة فِي صدرها كَمَا يُقَال : أَيْن فلَان من فلَان ، وَأَيْنَ زيد مِنْك ، توسُّعاً فِي الْكَلَام ، وَلَا يُرَاد بذلك إِلَّا الرُّتْبَة والمنزلة .
وَيَقُول الْإِنْسَان لصَاحبه : أَيْن محلِّي مِنْك ؟!! فَيَقُول : فِي السَّماء يُرِيد أَعْلَى مَحل ، انْتهى " (١) .
وقال الإمام تقي الدِّين السُّبكي (٧٥٦هـ) في ردِّه على نونيَّة ابن قيِّم الجوزيَّة المسمَّى بـ " السَّيف الصَّقيل " : " ... أمَّا القول فقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للجارية : أين الله ؟ قالت في السَّماء ، وقد تكلَّم النَّاس عليه قديماً وحديثاً ، والكلام عليه معروف ولا يقبله ذهن هذا الرَّجل ، لأنَّه مشَّاء على بدعة لا يقبل غيرها " (٢) .

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) : " يَجِبُ عَلَى الْخَلْقِ الرِّضَا وَالتَّسْلِيمُ فَإِنَّ إِدْرَاكَ الْعُقُولِ لِأَسْرَارِ الرُّبُوبِيَّةِ قَاصِرٌ فَلَا يَتَوَجَّهُ عَلَى حُكْمِهِ لِمَ وَلَا كَيْفَ كَمَا لَا يَتَوَجَّهُ عَلَيْهِ فِي وجوده أَيْن وَحَيْثُ " (٣) .
وقال الإمام كمال الدِّين البيَّاضي الحنفي (١٠٩٧هـ) : " في كتاب " إشارات المرام " (ممزوجاً بالمتن) : " ولا يتطرَّق إليه سمات الـحدوث والفناء ، كما أشار إليه بقوله [فيه وعليه] أي يُخرّج على أنَّه يُدعى من أعلى ، ويوصف بنعوت الجلال وصفات الكبرياء [ما روي في الحديث أنَّ رجلاً] وهو عمرو بن الشَّريد كما رواه أبو هريرة وعبد الله بن رواحة كما بيَّنه الإمام في مسنده بتخريج الحارثي وطلحة والبلخي والخوارزمي [أتى إلى النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأمة سوداء فقال: وجب عليَّ عتق رقبة مؤمنة] ، قال: إنَّ أمِّي هلكت

(١) انظر : إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل (ص١٧١-١٧٢) .
(٢) انظر : السيف الصقيل في الرد على ابن زفيل (ص١٠٧-١٠٩) .
(٣) انظر : فتح الباري (١/ ٢٢٠-٢٢١) .

وأُمرتُ أن أعتق عنها رقبة مؤمنة ولا أملك إلَّا هذه وهي جارية سوداء أعجميَّة لا تدري ما الصَّلاة أفتجزيني هذه ؟ عمَّا لزم بالوصيَّة ، كما في مصنَّف الحافظ عبد الرزَّاق ، وليس في الرِّوايات الصَّحيحة أنَّها كانت خرساء كما قيل [فقال لها النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أمؤمنة أنت؟ قالت نعم، فقال النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام: أين الله؟] سائلاً عن المنزلة والعلو علىٰ العباد علوّ القهر والغلبة ، ومشيراً أنَّه إذا دعاه العباد استقبلوا السَّماء دون ظاهره من الجهة ، لكن لَمَّا كان التَّنـزيه عن الجهة ممَّا يقصر عنه عقول العامَّة فضلاً عن النِّساء حتىٰ يكاد يجزم بنفي ما ليس في الجهة، كان الأقرب إلىٰ إصلاحهم والأليق بدعوتهم إلىٰ الحقِّ ما يكون ظاهراً في الجهة ،كما في " شرح المقاصد " ، [فأشارت إلىٰ السَّماء] إشارة إلىٰ أعلىٰ المنازل ، كما يقال : فلان في السَّماء أي رفيع القدْر جداً ، كما في" التَّقديس " للرَّازي [فقال: أعتقها فإنَّها مؤمنة]. ثمَّ قال: [فأشار إلىٰ الجواب بأنَّ السُّؤال والتَّقرير لا يدلَّان علىٰ المكان بالجهة لمنع البراهين اليقينيَّة عن حقيقة الأينيَّة] ... ثمَّ قال البيَّاضي:ـ

الرَّابعة: أنَّه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد امتحانها ، هل تُقرُّ بأن الخالق الفعَّال المتعالي هو الله الذي إذا دعاه الدَّاعي استقبل السَّماء ، كما دلَّ السُّؤال والتَّقرير كما في شرح مسلم للنَّووي ، وإليه أشار بترتيب التَّخريج أنَّه يُدعىٰ من أعلىٰ لا من أسفل .

الخامسة: أنَّها كانت أعجميَّة لا تقدر أن تفصح عمَّا في ضميرها من اعتقاد التَّوحيد بالعبارة ، فتعرف بالإشارة أنَّ معبودها إله السَّماء ، فإنَّهم كانوا يسمُّون الله إله السَّماء كما دلَّ السُّؤال، والاكتفاء بتلك الإشارة ، كما في الكفاية لنور الدِّين البخاري " (١) ...

ثَانِيَاً : أَحَادِيْثُ النُّزُوْل :

إنَّ النَّاظر في كتب أهل العلم يجد أنَّ كَلِمَتَهُم قد اجتمعت علىٰ وجوب تنزيه الله تعالىٰ عن الجسميَّة ولوازمها من الحركة ، والنُّقلة ، والجلوس ، والجهة ، وسائر سمات ولوازم المحدثات ، وكذا اجتمعت كَلِمَتُهُم علىٰ وجوب تنزيهه سبحانه وتعالىٰ عن النَّقائص وعن كلِّ ما يتعارض مع كماله المطلق سبحانه وتعالىٰ ، ولذلك منعوا من إجراء الألفاظ المتشابهة علىٰ ظاهر معناها ... ومن المعلوم يقيناً أنَّ جمهور السَّلف قال بوجوب إمرارها علىٰ ظاهر لفظها لا ظاهر معناها مع الإيمان بأنَّها حقّ علىٰ ما يليق به سبحانه ، وأنَّ ظاهرها المتعارف عليه في حقِّنا غير مراد ، ومنعوا من تأويلها مع التَّأكيد علىٰ وجوب تنزيهه تعالىٰ عن الحركة والنُّقلة والانتقال وسائر صفات ولوازم المحدثات ، بينما ذهب جمهور الخلف إلىٰ تأويلها بما يتوافق

(١) انظر : إشارات المرام من عبارات الإمام (ص١٦٦-١٦٨ باختصار) .

مع تنزيه الله تعالىٰ عن مشابهة الحوادث ، وذلك لأمور استجدَّت لم تكن في زمان السَّلف ، ومن تلك الألفاظ : النُّزول ، والمجيء ، والإتيان ، والهرولة ... فلا يجوز أن تُحمل هذه الألفاظ علىٰ ظاهر معناها ...

وهاأنذا مورد بعضاً من أقوال السَّلف والخلف في هذا الباب :

قَالَ الإمام أحمد بن محمَّد بن هارون بن يزيد الخَلَّال أبو بكر (٣١١هـ) : أَخْبَرَنِي عَلِيُّ بْنُ عِيسَىٰ ، أَنَّ حَنْبَلاً حَدَّثَهُمْ ، قَالَ : سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللهَّ (يقصد أحمد بن حنبل) عَنِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي تُرْوَىٰ : " أَنَّ اللهَّ عزَّ وجلَّ يَنْزِلُ إِلىٰ سَمَاءِ الدُّنيا " ، ... وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهَّ : نُؤْمِنُ بِهَا ، وَنُصَدِّقُ بِهَا ، **وَلَا كَيْفَ وَلَا مَعْنَى** ، وَلَا نَرُدُّ مِنْهَا شَيْئاً ، وَنَعْلَمُ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسول حَقٌّ إِذَا كَانَتْ بِأَسَانِيدَ صِحَاحٍ ، وَلَا نَرُدُّ عَلَىٰ اللهَّ قَوْلَهُ ، وَلَا نَصِفُ اللهَّ بِأَكْثَرَ مِمَّا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ ، بِلَا حَدٍّ وَلَا غَايَةٍ ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[الشورىٰ : ١١] (١) .

قلت : وقد خالف ابن القيِّم هذه القواعد ، ولم يلتزمها في كتبه كـ " الصَّواعق " ، و " اجتماع الجيوش " ، و " البدائع " ، وغيرها ... وكلام أحمد هذا يصوِّر بحقٍّ عقيدة جمهور السَّلف الصَّالح في مسألة النُّزول وغيرها من المسائل المتعلِّقة بالمتشابه ، وقد نقلها ابن تيمية في غير ما كتاب من كتبه من غير نكير (٢) .

وهذا أمرٌ لم يَرُق للقائمين علىٰ المكتبة الشَّاملة ، لذا قاموا بشطب الفقرة السَّابقة من كتاب " السُّنَّة " للخلَّال ، الموجود ضمن المكتبة الشَّاملة ، الإصدار السَّادس ، كما وضعوا مكان قوله : (**وَلَا كَيْفَ وَلَا مَعْنَى**) مجموعة من النِّقاط (...) في كتاب " اجتماع الجيوش الإسلاميَّة " لابن القيِّم ، تحقيق : عواد عبد الله المعتق ، نشر : مطابع الفرزدق التِّجاريَّة ، الرِّياض ، (الطبعة : الأولىٰ ، ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٨م) ، المكتبة الشَّاملة ، الإصدار السَّادس ، وهذه إحدىٰ صور عبثهم بكتب أهل العلم ، وهو مندرجٌ تحت : عدم الأمانة العلميَّة ، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله ....

وقال الإمام التِّرمذي (٢٧٩هـ) : " وَقَدْ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ فِي هَذَا الحَدِيثِ – حديث النُّزول – وَمَا يُشْبِهُ : هَذَا مِنَ الرِّوَايَاتِ مِنَ الصِّفات : وَنُزُولِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كُلَّ لَيْلَةٍ إلىٰ السَّماء الدُّنيا ، قَالُوا : قَدْ تَثْبُتُ الرِّوَايَاتُ فِي هَذَا وَيُؤْمَنُ بِهَا ، وَلاَ يُتَوَهَّمُ ، وَلاَ يُقَالُ : كَيْفَ ؟ هَكَذَا رُوِيَ عَنْ مَالِكٍ (١٧٩هـ) ،

---

(١) انظر : مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة (ص٤٦٩) .

(٢) انظر مثلاً : الفتاوىٰ الكبرىٰ (٦/ ٣٨٧) ، بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٢/ ٦٢٣) ، درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٣١) .

وَسُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ (١٩٨هـ) ، وَعَبْدِ الله بْنِ الْمُبَارَكِ (١٨١هـ) أَنَّهم قَالُوا فِي هَذِهِ الأَحَادِيثِ : أَمِرُّوهَا بِلاَ كَيْفٍ ، وَهَكَذَا قَوْلُ أَهْلِ العِلْمِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّة وَالجَمَاعَةِ " (١) .

فالإمام التِّرمذي السَّلفي يذهب إلىٰ وجوب الإيمان والتَّسليم مع التَّفويض المطلق في هذه المسألة ، فلا يُقال : كيف ، ولا تتوهَّم !!! ، " والتَّوهُّم : من قبيل التَّجويز ، والتَّجويز يُنَافِي الْعلم ، وَقَالَ بَعضهم : التَّوَهُّم يجْرِي مجْرىٰ الظُّنون " (٢) . فالتَّوهُّم ، والكيْفُ عليه سبحانه وتعالىٰ غير معقول ، وهذا هو معتقد أهل العلم من أهل الكتاب والسُّنَّة ...

وقال الإمام السَّلفي عَلِيُّ بنُ إِسْمَاعِيْل بنِ إِسْحَاقَ العَلاَّمَةُ ، إِمَامُ الْمُتَكَلِّمِين ، أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ إِسْمَاعِيْل بنِ أَبِي بِشْرٍ إِسْحَاقَ بنِ سَالِمِ بنِ إِسْمَاعِيْل بنِ عَبْدِ الله بنِ مُوْسَىٰ ابنِ أَمِيْرِ البَصْرَةِ بِلاَل بنِ أَبِي بُرْدَةَ ابنِ صَاحِب رَسُوْل الله – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَبِي مُوْسَىٰ عَبْدِ الله بنِ قَيْس بن حَضَّارٍ الأَشْعَرِيُّ ، اليَمَانِيُّ ، البَصْرِيُّ (٣٢٤هـ) : " ... فأمَّا الحركة والسُّكون والكلام فيهما ، فأصلهما موجود في القرءان ، وهما يدلَّان علىٰ التَّوحيد ، وكذلك الاجتماع والافتراق ، قال الله تعالىٰ مخبراً عن خليله إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٦] ، في قصَّة أُفول الكوكب والشَّمس والقمر ، وتحريكها من مكان إلىٰ مكان ما دلَّ علىٰ أنَّ ربَّه عزَّ وجلَّ لا يجوز عليه شيء من ذلك ، وأنَّ من جاز عليه الأفول والانتقال من مكان إلىٰ مكان فليس بإله " (٣) .

فالإمام الأشعري السَّلفي ، ينفي عن الله تعالىٰ الحركة والانتقال والأُفولِ ، لأنَّها أعراضٌ لا تقومُ إلَّا بجواهرَ وأجسام ، والله تعالىٰ يتنزَّه عن ذلك ، فمن جاز عليه الأُفول والانتقال من مكان إلىٰ مكان فليس بإله ، ومع أنَّ جمهور أهل العلم يقولون بامتناع الحركة والنُّقلة علىٰ الله تعالىٰ ، إلَّا أنَّ الإمام ابن تيمية (٧٢٨هـ) قلب لكلامهم ظَهْرَ المِجَنِّ ، وأبىٰ إلَّا تفسير النُّزول بحسب ظاهر المعنىٰ ، وأنَّ الله تعالىٰ ينزل بذاته إلىٰ السَّماء الدُّنيا ، وافترىٰ علىٰ جمهور أهل الكتاب السُّنَّة ، فزعم بأَنَّهم يقولون : أنَّ الله تعالىٰ ينزل من مكانه ، ولا يخلو منه العرش ، قال : " ثمَّ إِنَّ جُمْهُورَ أَهْلِ السُّنَّة !! يَقُولُونَ : أَنَّه يَنْزِلُ وَلَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ !! كَمَا

(١) انظر : سنن الترمذي (٢/ ٤٢-٤٣) .

(٢) انظر : الفروق اللغوية (ص٩٨) .

(٣) انظر : استحسان الخوض في علم الكلام (ص٤٥) .

نُقِلَ مِثْلُ ذَلِكَ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ رَاهَوَيْهِ (٢٣٨هـ) ، وَحَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ (١٧٩هـ) ، وَغَيْرِهِمَا ، وَنَقَلُوهُ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ (٢٤١هـ) فِي رِسَالَتِهِ إِلَىٰ مُسَدَّدٍ (٢٢٨هـ) (١) .

وقال الإمام ابن تيمية أيضاً : " وَالْمَقْصُودُ هُنَا : الْكَلَامُ عَلَىٰ مَنْ يَقُولُ : يَنْزِلُ وَلَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ ، وَإِنَّ أَهْلَ الْحَدِيثِ فِي هَذَا عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : مِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ أَنْ يُقَالَ : يَخْلُو أَوْ لَا يَخْلُو ، كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ الْحَافِظُ عَبْدُ الْغَنِيِّ (٦٠٠هـ) وَغَيْرُهُ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : بَلْ يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ . وَقَدْ صَنَّفَ عَبْدُ الرَّحمن بْنُ منده (٤٧٠هـ) مُصَنَّفاً فِي الْإِنْكَارِ عَلَىٰ مَنْ قَالَ : لَا يَخْلُو مِنَ الْعَرْشِ أَوْ لَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ – كَمَا تَقَدَّمَ بَعْضُ كَلَامِهِ – . وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ يَتَوَقَّفُ عَنْ أَنْ يَقُولَ يَخْلُو أَوْ لَا يَخْلُو . وَجُمْهُورُهُمْ عَلَىٰ أَنَّه لَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ " (٢) .

قلت : وأين ما ادَّعاه ابن تيمية علىٰ الإمام ابن منده ، وهو القائل : " ... وَأَنَا متمسِّكٌ بِالكِتَابِ والسُّنَّة ، مُتَبَرِّئٌ إِلىٰ الله مِنَ الشِّبْه وَالمِثْلِ وَالنِّدِّ وَالضِّدِّ وَالأَعضَاء وَالجِسْم وَالآلاَت ، وَمِنْ كُلِّ مَا يَنسُبه النَّاسبُوْنَ إِلَيَّ !!! وَيَدَّعيه المدعُوْنَ عليَّ مِنْ أَنْ أَقُوْلَ فِي الله – تَعَالَىٰ – شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ ، أَوْ قُلته ، أَوْ أَرَاهُ ، أَوْ أَتوَهَّمُه ، أَوْ أَصفه بِهِ " (٣) . فإذا ثبت أنَّه قال ما نسبه له ابن تيمية ، فهو متناقض مع نفسه ، وكم في كلامهم من التَّناقض والتَّباين ...

وقال الإمام ابن تيمية أيضاً : " ثمَّ إِنَّ جُمْهُورَ أَهْلِ السُّنَّة !! يَقُولُونَ : أَنَّه يَنْزِلُ وَلَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ " (٤) .

وهنا ينسب ابن تيمية ما قاله لجمهور السَّلف ، مع أنَّ السَّلف لم يتكلَّم أحد منهم بما نَسبه ابنُ تيمية لجمهورهم ، فهذا كذبٌ ...!!! ثمَّ إنَّ ابن تيمية لم يستند في كلامه علىٰ أيِّ حديث صحيح ، بل هو مجرَّد أقوال لعلماء ، ومتىٰ كان الدِّين يُبنىٰ علىٰ أقوال العلماء التي لا تستند في وجودها وصحَّتها لكتاب ولا سنَّة ؟!!! فلا حول ولا قوَّة إلَّا بالله ...

وقال الإمام ابن تيمية ما هو أعظم من قوله السَّابق ، فقد قال : " فمن أين في القرآن ما يدلُّ دلالة ظاهرة علىٰ أنَّ كلَّ متحرِّك مُحدَث أو مُمكن ؟! وأنَّ الحركة لا تقوم إلَّا بحادث أو ممكن ؟ وأنَّ ما قامت به الحوادث

---

(١) انظر : منهاج السُّنَّة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية (٢/ ٦٣٨-٦٣٩) .

(٢) انظر : مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٤١٤) .

(٣) انظر : سير أعلام النبلاء (١٨/ ٣٥١) .

(٤) انظر : منهاج السُّنَّة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية (٢/ ٦٣٨) .

لم يخل منها ؟!! وأنَّ ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث ؟!! وأين في القرآن امتناع حوادث لا أوَّل لها ؟! " (١) .

وكلام ابن تيمية هذا اشتمل على طامَّاتٍ وأوابد ، مجموع ما ذكرناه في هذا الكتاب يردُّ عليه ، أمَّا مسألة : " امتناع حوادث لا أول لها " ، التي يؤمن بها ابن تيمية ، وذكرها في أكثر من كتاب من كتبه ، وهو فيها متابع للكراميَّة المجسِّمة ، سلفه في هذه المسألة ، خاصَّة وأنَّه أثنى عليهم في كتابه : " منهاج السُّنَّة " ، وسمَّاهم بـ : " نظَّار المسلمين " (٢) .

وقد ردَّ عليه فيها العديد من أهل العلم ، ومن ضمنهم : الإمام بهاء الدِّين عبد الوهَّاب بن عبد الرَّحمن الإخميمي (٧٦٤هـ) ، في رسالة سمَّاها : " رسالة في الرَّدِّ على ابن تيمية في مسألة حوادث لا أوَّل لها " ، وهي من تحقيق أخينا الفاضل الدُّكتور سعيد فوده – حفظه الله – ، ونشرتها دار الذَّخائر ، بيروت . وهذه المسألة سنناقش ابن تيمية فيها في كتاب آخر ... بإذن الله تعالى .

وبسبب جرأة من يزعمون ويدَّعون السَّلفيَّة في إظهار باطلهم ، فقد اضطرَّ العديد من علماء الأمَّة إلى أن يكتبوا محاضر في العقائد الصَّحيحة ، حرصاً منهم على التَّصحيح والتَّصويب ، ونشر الحقِّ بين الأمَّة وخاصَّة في أمور العقيدة ، ومن ذلك المحضر الذي كتبه جماعة من أئمَّة الشَّافعيَّة ، منهم : الشَّيخ أبو إسحاق الشِّيرازي (٤٧٦هـ) ، والإمام أبو بكر الشَّاشي (٥٠٧هـ) ، وغيرهما ، وهذا نصُّه :

بِسم اللهَّ الرَّحمن الرَّحِيم : يشْهد من ثَبت اسْمه وَنسبه ، وَصَحَّ نهجه ومذهبه ، واختبر دينه وأمانته ، من الْأَئِمَّة الْفُقَهَاء ، والأماثل الْعلمَاء ، وَأهل الْقُرْآن والمعدلين الْأَعْيَان ، وَكَتَبُوا خطوطهم الْمَعْرُوفَة ، بعباراتهم المألوفة ، مسارعين إِلَى أَدَاء الْأَمَانَة ، وتوخَّوا فِي ذَلِك مَا تحظره الدّيانَة ، مَخَافَة قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ١٤٠] ، إِنَّ جمَاعَة من الحشويَّة والأوباش الرّعاع ، المتوسِّمين بالحنبليَّة ، أظهرُوا بِبَغْدَادَ من الْبدع الفظيعة والمخازي الشَّنيعة ، مالم يتسمح بِهِ ملحد فضلاً عَن موحد ، وَلَا تجوز بِهِ قَادِح فِي أصل الشَّرِيعَة ، وَلَا معطِّل ، ونسبوا كلَّ من ينزِّه الْبَارِي تَعَالَى وَجلَّ عَن النَّقائص والآفات ، وينفي عَنهُ الْحُدُوث والتَّشبيهات ، ويقدِّسه عَن الْحُلُول والزّوال ، ويعظمه عَن التَّغَيُّر من حَال إِلَى حَال ، وَعَن حُلُوله فِي الْحَوَادِث ، وحدوث الْحَوَادِث فِيهِ ، إِلَى الْكفْر والطغيان ، ومنَافاة أهل الْحق وَالْإِيمَان ، وتنَاهوا فِي قذف الْأَئِمَّة الماضين ، وثلب أهل الْحق وعصابة الدِّين ، ولعنهم فِي الْجَوَامِع والمشاهد والمحافل

(١) انظر : درء تعارض العقل والنقل (١/ ١١٨) .

(٢) انظر : منهاج السُّنَّة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية (٢/ ١٣٨) .

والمساجد والأسواق والطُّرقات وَالْخَلْوَة وَالْجَمَاعَات ، ثمَّ غرَّهم الطَّمع والإهمال ، ومدَّهم فِي طغيانهم الغيُّ والضَّلال ، إِلىٰ الطَّعْن فِيمَن يعتضد بِهِ أَئِمَّة الْهدىٰ ، وَهُوَ للشَّريعة العروة الوثقىٰ ، وَجعلُوا أَفعاله الدِّينِيَّة معاصي دنيَّة ، وترقّوا من ذَلِك إِلىٰ الْقدح فِي الشَّافِعِي (٢٠٤هـ) رَحْمَة الله عَلَيْهِ وَأَصْحَابه ، وَاتفقَ عود الشَّيخ الإِمَام الأوحد أَبِي نصر ابْن الْأُسْتَاذ الإِمَام زين الْإِسْلَام أبي الْقاسم الْقشيرِي (٤١٨هـ) رَحْمَة اللهَّ عَلَيْهِ من مَكَّة حرسها اللهَّ ، فَدَعَا النَّاس إِلىٰ التَّوحيد ، وَقدَّس الْباري عَن الْحَوَادِث والتَّحديد ، فَاسْتَجَاب لَهُ أهل التَّحْقِيق ، من الصُّدُور الْفَاضِل السَّادة الأماثل ، وتمادت الحشويَّة فِي ضلالتها ، والإصرار علىٰ جهالتها ، وَأَبُو إِلَّا التَّصْرِيح بِأَنَّ المعبود ذُو قدم وأضراس ، ولهوات وأنامل ، وَأَنَّه ينزل بِذَاتِهِ ، ويتردَّد علىٰ حمَار فِي صُورَة شَاب أَمْرَد ، بِشعر قطط ، وَعَلِيهِ تَاج يلمع ، وَفِي رجلَيْهِ نَعْلَانِ من ذهب ، وَحفظ ذَلِك عَنْهُم ، وعلَّلوه ودوَّنوه فِي كتبهمْ ، وَإِلَىٰ الْعَوام ألقوه ، وَأَنَّ هَذِهِ الْأَخْبَار لَا تَأْوِيل لَهَا ، وأَنَّها تجرىٰ علىٰ ظواهرها ، وتعتقد كَمَا ورد لَفظهَا ، وأَنَّه تَعَالَىٰ يتكَلَّم بِصَوْت كالرَّعد ، كصهيل الْخَيل ، وينقمون علىٰ أهل الْحق ، لقَولهم : إِنَّ اللهَّ تَعَالَىٰ مَوْصُوف بِصِفَات الْجَلَال ... " (١) .

قلت : سبحان الله ... أحداثُ التَّاريخ تعود كما حدثت في السَّابق ... فأعمال هذه الشِّرذمة القليلة هي هي علىٰ مدار التَّاريخ ، فما وجدوا في زمن إلَّا أفسدوه ، ولا دخلوا بلداً إلَّا جعلوا أهله شيعاً وأحزاباً ، يلعنُ بعضُهم بعضاً ، ويسبُّ بعضُهم بعضاً ، ويكفِّرُ بعضُهم بعضاً ، وإلَّا قل لي بربِّك : ماذا أفادت هذه الشِّرذمة أُمَّة الإسلام مُذ وجدت ، ألسنا في كلِّ يوم نرجع القهقرىٰ إلىٰ الورىٰ ، فبعد أن كنَّا نناطح السَّحاب شموخاً وعزَّة ، أصبحنا يُضرب بنا المثل في الخنوع والخضوع ، وصرنا في وضع لا نُحسد عليه ... لقد أنهكوا أهل العلم بالرَّدِّ علىٰ ترَّهاتهم وخزعبلاتهم ، بدلاً من أن تُوجَّه جُهودهم لنصرة الإسلام والرَّدِّ علىٰ كلِّ من يكيد للإسلام من خارج أبناء الأمَّة ، ولكن أبىٰ هؤلاء إلَّا أن يُوقفوا المسيرة ، وهذا هو دَوْرُهم المرسُوم لهم... ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العلي العظيم .

ولأجل نصرة ما يعتقد مدَّعو السَّلفيَّة ، جيَّشوا جيوشهم ، وجاءوا بقضِّهم وقضيضهم ، ففتَّشوا ، ونقَّبوا ، وبحثوا في كلِّ صعيد ، فجمعوا كلَّ ما يتعلق بمسألة النُّزول ، من روايات صحيحة وتالفة وشاذَّة وباطلة ... لنصرة مذهبهم ، فقد ذكر إمامهم حافظ حكمي (١٣٧٧هـ) العديد العديد من الرِّوايات التي تُضحك الثَّكلىٰ ، مع زعمه بصحَّتها ، – مع أنَّ الكثير منها روايات وأحاديث تالفة ، كما قال محقِّق الكتاب السَّلفي !!! – ، ومن تلك الرِّوايات : " ... عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، قَالَ

(١) انظر : تبيين كذب المفتري فيما نسب إلىٰ الإمام أبي الحسن الأشعري (ص٣١٠-٣١١) .

: " إِنَّ اللهَّ يَنْزِلُ إِلىٰ السَّماء الدُّنيا ، وَلَهُ فِي كُلِّ سَمَاءٍ كُرْسِيٌّ !! فَإِذَا نَزَلَ إِلىٰ سَمَاءِ الدُّنيا جَلَسَ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ ثمَّ مَدَّ سَاعِدَيْهِ ، فَيَقُولُ : مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ غَيْرَ عَدِيمٍ وَلَا ظَلُومٍ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَتُوبُ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ ، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الصُّبْحِ ارْتَفَعَ فَجَلَسَ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ " ، رَوَاهُ ابْنُ مَنْدَهْ ، قَالَ : وَلَهُ أَصْلٌ مُرْسَلٌ .

وَعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ الله عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، قَالَ : " يَنْزِلُ الله إِلىٰ سَمَاءِ الدُّنيا كُلَّ لَيْلَةٍ ، فَيَقُولُ جَلَّ جَلَالُهُ : هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ " . حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَأَبُو الْوَلِيدِ الطَّيَالِسِيُّ .

وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهَّ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، قَالَ : " إِنَّ اللهَّ يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلىٰ سَماءِ الدُّنيا لِثُلُثِ اللَّيْلِ ، فَيَقُولُ : أَلَا عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ، أَوْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ يَدْعُونِي فَأَغْفِرَ لَهُ ، أَلَا مُقَتَّرٌ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ، أَلَا مَظْلُومٌ يَسْتَنْصِرُنِي فَأَنْصُرَهُ ، أَلَا عَانٍ يَدْعُونِي فَأَفُكَّ عَنْهُ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ مَكَانَهُ حَتَّىٰ يَفِيءَ الْفَجْرُ ثُمَّ يَعْلُو رَبُّنَا عزَّ وجلَّ إِلىٰ السَّماء الْعُلْيَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ " . رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيُّ .

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ الله عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، قَالَ : " إِنَّ اللهَّ تَعَالَىٰ إِذَا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ نَزَلَ إِلىٰ سَماءِ الدُّنيا ثمَّ بَسَطَ يَدَهُ ، فَقَالَ : مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ، حَتَّىٰ يَطْلُعَ الْفَجْرُ " . حَدِيثٌ حَسَنٌ رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وَرِجَالُهُ أَئِمَّةٌ ، وَرَوَاهُ أَبُو مُعَاوِيَةَ بِلَفْظِ : " إِنَّ اللهَّ تَعَالَىٰ يَفْتَحُ أَبْوَابَ السَّماء ثمَّ يَهْبِطُ إِلىٰ السَّماء الدُّنيا ثمَّ يَبْسُطُ يَدَهُ ، فَيَقُولُ : أَلَا عَبْدٌ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ حَتَّىٰ يَطْلُعَ الْفَجْرُ " .

وَعَنْ رِفَاعَةَ الْجُهَنِيِّ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهَّ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِذَا مَضَىٰ نِصْفُ اللَّيْلِ أَوْ ثُلُثُ اللَّيْلِ نَزَلَ الله إِلىٰ سَماءِ الدُّنيا ، فَقَالَ : لَا أَسْأَلُ عَنْ عِبَادِي غَيْرِي ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ، حَتَّىٰ يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ " . حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ . وَعَنْ عُثْمانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ الثَّقَفِيِّ رَضِيَ الله عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يَنْزِلُ الله إِلىٰ سَماءِ الدُّنيا كُلَّ لَيْلَةٍ ، فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ، هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ . وَأَنَّ دَاوُدَ خَرَجَ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، فَقَالَ : لَا يُسْأَلُ الله شَيْئاً إِلَّا أَعْطَاهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ سَاحِراً أَوْ عَشَّاراً " . رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِنَحْوِهِ . وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ الله عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهَّ ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يَنْزِلُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي آخِرِ ثَلَاثِ سَاعَاتٍ بَقِينَ مِنَ اللَّيْلِ ، يَنْظُرُ فِي السَّاعَةِ الْأُولَىٰ مِنْهُنَّ فِي الْكِتَابِ الَّذِي لَا يَنْظُرُ فِيهِ غَيْرُهُ ، فَيَمْحُو مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ، ثمَّ يَنْظُرُ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ وَهِيَ مَسْكَنُهُ الَّذِي يَسْكُنُ ، لَا يَكُونُ مَعَهُ فِيهَا إِلَّا الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ وَالصِّدِّيقُونَ ، وَفِيهَا مَا لَمْ يَرَ أَحَدٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ ، ثمَّ يَهْبِطُ فِي

آخِرِ سَاعَةٍ مِنَ اللَّيلِ ، يَقُولُ : أَلَا مُسْتَغْفِرٌ فَأَغْفِرَ لَهُ ، أَلَا سَائِلٌ فَأُعْطِيَهُ ، أَلَا دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ " . رَوَاهُ عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ الدَّارِمِيُّ .

وَرَوَىٰ مُوسَىٰ بْنُ عُقْبَةَ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ يَحْيَىٰ بْنِ الْوَلِيدِ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ الله عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهَّ ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يَنْزِلُ الله كُلَّ لَيْلَةٍ إِلىٰ سَمَاءِ الدُّنيا حِينَ يَبْقَىٰ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ ، فَيَقُولُ : أَلَا عَبْدٌ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ، أَلَا ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ يَدْعُونِي فَأَقْبَلَهُ ، فَيَكُونُ كَذَلِكَ إِلىٰ مَطْلِعِ الصُّبْحِ وَيَعْلُو عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ " . وَعَنْ أَبِي الْخَطَّابِ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّه قَالَ : وَقَدْ سُئِلَ عَنِ الْوِتْرِ : أُحِبُّ أُوتِرُ نِصْفَ اللَّيْلِ ، فَإِنَّ اللهَّ يَهْبِطُ مِنَ السَّماء السَّابِعَةِ إِلىٰ السَّماء الدُّنيا فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ مُذْنِبٍ ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ ، هَلْ مِنْ دَاعٍ ، حَتَّىٰ إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ ارْتَفَعَ " (١) ...

وقد دفعت أمثال هذه الرِّوايات الحنابلة إلىٰ الغلوّ والتَّعصُّب في مسألة النُّزول ، حتىٰ وقعوا في التَّجسيم البحت ... قال الإمام أبو محمَّد عفيف الدِّين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي (٧٦٨هـ) في كتابه الطيِّب : " مرهم العلل المعضلة في دفع الشُّبَه والردِّ علىٰ المعتزلة : " ومتأخِّرو الحنابلة غلوا في دينهم غلوَّاً فاحشاً ، وتسفَّهوا سفهاً عظيماً ، وجسَّموا تجسيماً قبيحاً ، وشبَّهوا الله بخلقه تشبيهاً شنيعاً ، وجعلوا له من عباده أمثالاً كثيرة ؛ حتىٰ قال أبوبكر ابن العربي في (العواصم) : " أخبرني من أثق به من مشيختي ، أنَّ القاضي أبا يعلىٰ الحنبلي كان إذا ذكر الله سبحانه يقول فيما ورد من هذه الظَّواهر في صفاته تعالىٰ : ألزموني ما شئتم فإنِّي ألتزمه إلَّا اللحية والعورة !!!

قال أئمَّة بعض أهـل الحقّ : وهـذا كفرٌ قبيحٌ ، واستهزاء بالله تعالىٰ شنيع ، وقائله جاهل به تعالىٰ ، لا يُقتدىٰ به ولا يُلتفت إليه ، ولا هو متَّبع لإمامه الذي ينتسب إليـه ويتستَّر به ؛ بل هـو شريك للمشركين في عبادة الأصنام ؛ فإنَّه ما عبَد الله ولا عرفه ، وإنَّما صوَّر صنماً في نفسه ، فتعالىٰ الله عمَّا يقول الملحدون والجاحدون علواً كبيراً " . ومثل ما نقله ابن العربي عن أبي يعلىٰ هذا ، منقول في كتب الملل والنِّحل عن داود الجواربي ، تعالىٰ الله عن ذلك . ثمَّ قال اليافعي : " ولقد أحسن ابن الجوزي من الحنابلة حيث صنَّف كتاباً في الرَّدِّ عليهم ، ونقل عنهم أنَّهم أثبتوا لله صورة كصورة الآدمي في أبعاضها ، وقال في كتابه : " دفع شُبه التَّشبيه " : هؤلاء قد كَسَوا هذا المذهب شيناً قبيحاً حتىٰ صار لا يُقال عن حنبلي إلَّا مجسِّم ، قال : وهؤلاء متلاعبون !!! وما عرفوا الله ولا عندهم من الإسلام خبر ولا يحدَّثون ، فإنَّهم يكابرون العقول ، وكأنَّهم يحدِّثون

(١) انظر : معارج القبول بشرح سلم الوصول إلىٰ علم الأصول (١/ ٢٩٥-٢٩٧) .

الصِّبيان والأطفال ، قال : وكلامهم صريحٌ في التَّشبيه ، وقد تبعهم خلقٌ من العوام !!! وفضحوا التَّابع والمتبوع " (١) .

ومن المؤسف حقّاً أن يقوم القائمون على المكتبة الشَّاملة / الإصدار السَّادس ، بشطب هذه الفقرة من كتاب : " مرهم العلل المعضلة في دفع الشُّبه والردِّ على المعتزلة " ، وهذه خيانة من خياناتهم ، حتى أنَّني أجزم أنَّ من أهم الأسباب التي دعتهم لإصدار المكتبة الشَّاملة : العبث بكتب أهل العلم ، كي توافق هواهم وعقائدهم ، ولكن هيهات ، فإنَّ للحقِّ رجال ، يأبى الله تعالى إلَّا أن يسخِّرهم ويستخدمهم لكشف مخازي القوم وسقطهم وخياناتهم على مدى الزَّمان ...

وقال الإمام الماتريدي (٣٣٣هـ) : " وَالله تَعَالَى لم يزل وَلَا يزَال ، بِلَا تغيُّر وَلَا زَوَال ، وَلَا انْتِقَال من حَال إِلَى حَال ، وَلَا تحرُّك وَلَا قَرَار ، إِذْ هُوَ وصف اخْتِلَاف الْأَحْوَال ، وَمن تخْتَلف الْأَحْوَال عَلَيْهِ فَهُوَ غير مفارق لَهَا ، وَمن لَا يُفَارق الْأَحْوَال وَهن أَحْدَاث فَيجب بهَا الْوَصْف بالإحداث ، وَفِي ذَلِك سُقُوط الوحدانيَّة ثمَّ الْقدَم ثمَّ جرى لتدبير الْغَيْر عَلَيْهِ إِذْ حَال من الْأَحْوَال لَو كَانَت لذاته لم يجز تغيُّرها مَا دَامَت ذَاته ، فَثَبت بذلك الْغَيْر لتغيُّر الْأَحْوَال عَلَيْهِ وبنقله من حَال إِلَى حَال ، وَذَلِكَ دَلِيل تعاليه عَن الْوَصْف بِالْمَكَانِ ، إِذْ قد ثَبت أَن كَانَ وَلَا مَكَان " (٢) .

فالإمام الماتريدي السَّلفي ينزِّه الله تعالى عن كلِّ ما من شأنه أن يؤدِّي إلى اختلاف الأحوال التي منها : التَّغيُّر والزَّوال ، والحركة والانتقال ، لأنَّها تتعارض مع صفات الله التي لا يطالها تغيير ولا تبديل ، لأنَّ التَّغيُّر والتَّبدُّل من علامات الحدث ، والله تعالى أزليٌّ أبديٌّ لا يزول ولا يحول ... جلَّ عن الشَّبيه والمثيل والنِّد والكفء والنَّظير ...

وقال الإمَامُ ابنُ حِبَّانَ (٣٥٤هـ) : " قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رَضِيَ الله عَنْهُ : صِفَاتُ اللهَّ جَلَّ وَعَلَا لَا تُكَيَّفُ ، وَلَا تُقَاسُ إِلَى صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ ، فَكَمَا أَنَّ اللهَّ جَلَّ وَعَلَا مُتَكَلِّمٌ مِنْ غَيْرِ آلَةٍ بِأَسْنَانٍ ، وَلَهَوَاتٍ وَلِسَانٍ ، وَشَفَةٍ كَالْمَخْلُوقِينَ ، جَلَّ رَبُّنَا وَتَعَالَى عَنْ مِثْلِ هَذَا وَأَشْبَاهِهِ ، وَلَمْ يَجُزْ أَنْ يُقَاسَ كَلَامُهُ إِلَى كَلَامِنَا ، لِأَنَّ كَلَامَ الْمَخْلُوقِينَ لَا يُوجَدُ إِلَّا بِآلَاتٍ ، وَاللهُّ جَلَّ وَعَلَا يَتَكَلَّمُ كَمَا شَاءَ بِلَا آلَةٍ ، كَذَلِكَ يَنْزِلُ بِلَا آلَةٍ ، وَلَا تَحَرُّكٍ ، وَلَا انْتِقَالٍ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ ، وَكَذَلِكَ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ ، فَكَمَا لَمْ يَجُزْ أَنْ يُقَالَ : الله يُبْصِرُ كَبَصَرِنَا بِالْأَشْفَارِ وَالْحَدَقِ وَالْبَيَاضِ ، بَلْ يُبْصِرُ كَيْفَ يَشَاءُ بِلَا آلَةٍ ، وَيَسْمَعُ مِنْ غَيْرِ أُذُنَيْنِ ، وَسِمَاخَيْنِ ، وَالْتِوَاءٍ ، وَغَضَارِيفَ

(١) انظر : السيف الصقيل في الردّ على ابن زفيل (ص١٣٠-١٣١) .

(٢) انظر : التَّوحيد (ص١٠٥) .

فِيهَا ، بَلْ يَسْمَعُ كَيْفَ يَشَاءُ بِلَا آلَةٍ ، وَكَذَلِكَ يَنْزِلُ كَيْفَ يَشَاءُ بِلَا آلَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُقَاسَ نُزُولُهُ إِلَى نُزُولِ الْمَخْلُوقِينَ ، كَمَا يُكَيَّفُ نُزُولُهُمْ ، جَلَّ رَبُّنَا وَتَقَدَّسَ مِنْ أَنْ تُشَبَّهَ صِفَاتُهُ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ " (١) .

فابن حبَّان يؤمن بالنُّزول ، وأنَّ نزوله تعالى ليس كنزول خلقة ، فنزولنا لا يكون إلَّا بجسم ينتقل من مكان إلى مكان ، ولما كان الله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] ، فمن الغباوة أن يُقاس نزوله بنزولنا ، فنزوله تعالى لا يكيَّف ، وصفاته سبحانه لا تشبه صفاتنا بشيء ، جلَّ تعالى عن النَّظير ، والمثيل ، والشَّبيه ، والنِّد ، والكفء ...

وهذا أمر لا يُعجب من يدَّعون السَّلفيَّة ، فقد قال أئمَّتهم وصرَّحوا بأنَّ نزول الله تعالى نزول حقيقي من علو إلى سفلٍ ... ، قال إمامهم صدر الدِّين محمَّد بن علاء الدِّين عليّ بن محمَّد ابن أبي العزّ الحنفي ، الأذرعي الصَّالحي الدِّمشقي (٧٩٢هـ) : " ...التَّصْرِيحُ بِنُزُولِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنيا ، والنُّزول الْمَعْقُولُ عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ عُلُوٍّ إِلَى سُفْلٍ " (٢) .

ومن المعلوم أنَّ ابن أبي العز هذا قد شرح عقيدة الإمام الطّحاوي التي تلقَّتها الأمَّة بالقبول ، كما قال الإمام السُّبكي ، ومع هذا فقد خالف الطَّحاوي في عقيدته في العديد من المسائل ، منها :

(١) أنَّه قال بالقِدَم النَّوعي للعالم ، فقد قال : " أَنَّ نَوْعَ الْحَوَادِثِ هَلْ يُمْكِنُ دَوَامُهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَالْمَاضِي أَمْ لَا ؟ أَوْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ فَقَطْ ؟ أَوِ الْمَاضِي فَقَطْ ؟ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ مَعْرُوفَةٍ لِأَهْلِ النَّظَرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ : أَضْعَفُهَا : قَوْلُ مَنْ يَقُولُ ، لَا يُمْكِنُ دَوَامُهَا لَا فِي الْمَاضِي وَلَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، كَقَوْلِ جَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ وَأَبِي الْهُذَيْلِ الْعَلَّافِ . وَثَانِيهَا قَوْلُ مَنْ يَقُولُ : يُمْكِنُ دَوَامُهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ دُونَ الْمَاضِي ، كَقَوْلِ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَغَيْرِهِمْ . وَالثَّالِثُ : قَوْلُ مَنْ يَقُولُ : يُمْكِنُ دَوَامُهَا فِي الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ ، كَمَا يَقُولُهُ أَئِمَّةُ الْحَدِيثِ " (٣)

وابن أبي العز هنا ينسب القول بالقِدَم النَّوعي للعالم إلى أئمَّة الحديث ، وهم من هذا الافتراء براء ، وكيف وأنَّى لهم أن يخالفوا قول الله تعالى : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ ﴾ [الحديد : ٣] ، وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما رواه البخاري : " كان الله ولم يكن شيء غيره " ؟!!!

---

(١) انظر : صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان (٣/ ١٩٩) .

(٢) انظر : شرح العقيدة الطحاوية (ص٢٨٦) .

(٣) انظر : شرح العقيدة الطحاوية (١/ ١٠٥) .

(٢) أنَّه قال بقيام الحوادث بالله تعالى ، وفي ذلك يقول : " فَإِذَا قَالُوا لَنَا : فَهَذَا يَلْزَمُ أَنْ تكُونَ الْحَوَادِثُ قَامَتْ بِهِ . قُلْنَا : هَذَا الْقَوْلُ مُجْمَلٌ ، وَمَنْ أَنْكَرَ قَبْلَكُمْ قِيَامَ الْحَوَادِثِ بِهَذَا الْمَعْنَى بِهِ تَعَالَى مِنَ الْأَئِمَّةِ ؟ وَنُصُوصُ الْقُرْآنِ والسُّنَّة تَتَضَمَّنُ ذَلِكَ ، وَنُصُوصُ الْأَئِمَّةِ أَيْضًا ، مَعَ صَرِيحِ الْعَقْلِ " (١) .

(٣) أنَّه قال بالصَّوت لله تعالى ، فقال : " وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِهِ بِصَوْتٍ يُسْمَعُ " ، وقال : " وَأَنَّهُ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ " (٢) ...

(٤) أنَّه قال بإثبات الحدِّ لله تعالى ، فقال : " فَالْحَدُّ بِهَذَا الْمَعْنَى لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ مُنَازَعَةٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ أَصْلًا ، فَإِنَّهُ لَيْسَ وَرَاءَ نَفْيِهِ إِلَّا نَفْيُ وُجُودِ الرَّبِّ وَنَفْيُ حَقِيقَتِهِ " (٣) .

مع أنَّ هذا مخالفٌ لما اتَّفقت عليه كلمة الأمَّة ...وهو فيه متابعٌ لابن تيمية ...

(٥) أنَّه قال بإثبات الجهة لله تعالى ، فقال : " وأمَّا لَفْظُ الْجِهَةِ ، فَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا هُوَ مَوْجُودٌ ، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا هُوَ مَعْدُومٌ ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّه لَا مَوْجُودَ إِلَّا الْخَالِقُ وَالْمَخْلُوقُ وَإِنْ أُرِيدَ بِالْجِهَةِ أَمْرٌ عَدَمِيٌّ ، وَهُوَ مَا فَوْقَ الْعَالَمِ ، فَلَيْسَ هُنَاكَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ . فَإِذَا قِيلَ : أَنَّه فِي جِهَةٍ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ ، فَهُوَ صَحِيحٌ ، وَمَعْنَاهُ : أَنَّه فَوْقَ الْعَالَمِ حَيْثُ انْتَهَتِ الْمَخْلُوقَاتُ فَهُوَ فَوْقَ الْجَمِيعِ، عَالٍ عَلَيْهِ " (٤) .

بينما قال الطّحاوي في عقيدته : " وَتَعَالَى عَنِ الْحُدُودِ وَالْغَايَاتِ ، وَالْأَرْكَانِ وَالْأَعْضَاءِ وَالْأَدَوَاتِ ، لَا تَحْوِيهِ الْجِهَاتُ السِّتُّ كَسَائِرِ الْمُبْتَدَعَاتِ " .

(٦) أنَّه قال بدنو الله تعالى من بعض خلقه ، فقال : " فَكَيْفَ يَسْتَبْعِدُ الْعَقْلُ مَعَ ذَلِكَ أَنَّه يَدْنُو سُبْحَانَهُ مِنْ بَعْضِ أَجْزَاءِ الْعَالَمِ وَهُوَ عَلَى عَرْشِهِ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ ؟ أَوْ يُدْنِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ ؟ فَمَنْ نَفَى ذَلِكَ لَمْ يَقْدِرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ " (٥) .

(٧) أنَّه قال بالنُّزول الحقيقي لله تعالى إلى السَّماء الدُّنيا ، فقال : " الثَّانِي عَشَرَ : التَّصْرِيحُ بِنُزُولِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنيا ، والنُّزول الْمَعْقُولُ عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ عُلُوٍّ إِلَى سُفْلٍ " (٦) .

وهناك طامَّات وأوابد في شرحه للطَّحاويَّة ، قد نخصِّص لها رسالة مستقلَّة بإذن الله تعالى ....

---

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية (١/ ١٨٨) .

(٢) انظر : شرح العقيدة الطحاوية (١/ ١٧٤) ، (١/ ٢١٨) بالترتيب .

(٣) انظر : شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٦٣) .

(٤) انظر : شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٦٦) .

(٥) انظر : شرح العقيدة الطحاوية (٢/ ٣٧٤) .

(٦) انظر : شرح العقيدة الطحاوية (٢/ ٣٨٤) .

وقال الشَّيخ ابن عثيمين (١٤٢١هـ) : " وأجمع السَّلف على ثبوت النُّزول لله ، فيجب إثباته له من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، وهو نزول حقيقي يليق بالله " (١) .

وقال الشَّيخ ابن عثيمين أيضاً : " ... فهذا ليس عند الإنسان شَكٌّ في أنَّه نزول حقيقي " (٢) .

وقال الشَّيخ ابن عثيمين أيضاً : " ... كذلك النُّزول إلى السَّماء الدُّنيا حينما يبقى ثلث الليل الآخر نؤمن به على أنَّه نزول حقيقي ... " (٣) .

قلت : والنُّزول الحقيقي هو النُّزول المعهود الذي يعني انتقال الجسم بالحركة من مكان إلى مكان آخر ...

وقال المدعو خالد بن عبد الله بن محمَّد المصلح : " ونزوله هو نزول حقيقي ، ولا تقل : كيف ينزل ؟ ولا يشكل عليك ماهيَّة ذلك وحقيقته وكُنهه ، فإنَّك لم تكلَّف بذلك ، وإنَّما كلِّفت بأن تؤمن بكل ما أخبر الله به عن نفسه ، وأخبر به رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه .

وتأويل النُّزول بغير ما دلَّ عليه ظاهر النَّصِّ !! كمن يقولون : تنزل رحمته ، أو ينزل ملك من الملائكة ، فإنَّ هذا خطأ كبير ، وتحريف خطير للنصِّ ؛ لأنَّ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول : " ينزل ربُّنا تبارك وتعالى كلّ ليلة إلى السَّماء الدُّنيا ، فيقول : هل من داعٍ فأجيبه ، هل من سائل فأعطيه ، هل من مستغفر فأغفر له " ، فهل يسوغ أن يقول هذا القول مَلكٌ من الملائكة ؟ " (٤) .

وبحسب ما قاله هذا الرَّجل ، فإنَّ جمهور علماء الأمَّة ممَّن نقلنا عنهم في هذا الكتاب أنَّهم أوَّلوا نزول الله تعالى ، ولم يجروه على ظاهر معناه ، قد وقعوا في خطأ كبير ، وحرَّفوا الكلم عم مواضعه ، ومنهم : ، مالك (١٧٩هـ) ، محمَّد بنُ حِبَّانَ البُسْتِيُّ (٣٥٤هـ) ، أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بنُ عَلِيٍّ الرَّازي الحَنَفِيُّ (٣٧٠هـ) ، أَبُو بَكْرٍ محمَّد بنُ الطيِّب بنِ محمَّد بنِ جَعْفَرِ بنِ قَاسِم البَصْرِيُّ ، ثمَّ البَغْدَادِيُّ ، ابْنُ البَاقِلاَّنِيّ (٤٠٣هـ) ، أَبُو عَبْدِ الله الحُسَيْنُ بنُ الحَسَنِ بنِ محمَّد بنِ حَلِيْم البُخَارِيُّ (٤٠٣هـ) ، ابنِ فُوْرَكَ الأَصْبَهَانِيّ (٤٠٦هـ) ،أَبُو محمَّد عَبْدُ الوَهَّابِ بنُ عَلِيّ بن نَصْرِ بن أَحْمَدَ بنِ حُسَيْن بن هَارُوْنَ ابْنِ أَمِيْرِ العَرَبِ مَالِكِ بن طوق التَّغْلِبِيُّ (٤٢٢هـ) ، أَبُو مَنْصُوْرٍ عبد القاهر البَغْدَادِيُّ (٤٢٩هـ) ، أَبُو عَمْرٍو عُثْمَانُ بنُ سَعِيْدِ بنِ عُثْمَانَ بنِ سَعِيْدِ بنِ عُمَرَ الأُمَوِيُّ مَوْلاَهُمُ ، الأَنْدَلُسِيُّ ، القُرْطُبِيُّ ، ثمَّ الدَّانِي ، المعروف بِابْنِ الصَّيْرَفِيِّ (٤٤٤هـ) ، أَبُو محمَّد عَلِيُّ بنُ أَحْمَدَ بنِ سَعِيْدِ بنِ حَزْمٍ

---

(١) انظر : تعليق مختصر على كتاب لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد (ص٥٨) .

(٢) انظر : شرح العقيدة السفارينية (الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية) (ص٣٠٩) .

(٣) انظر : منهاج أهل السُّنَّة والجماعة في العقيدة والعمل (ص١٥) .

(٤) انظر : شرح لمعة الاعتقاد (٣/ ٢٤) .

الظَّاهِرِيُّ (٤٥٦هـ) ، أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بنُ الحُسَيْنِ بنِ عَلِيِّ بنِ مُوْسَىٰ الخُسْرَوْجِردِيُّ ، البيهقي (٤٥٨هـ) ، ابن عبد البرّ (٤٦٣هـ) ، أَبُو المُظَفَّرِ طَاهِرُ بنُ محمَّد الإسفرَاييني ، (٤٧١هـ) ، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشِّيرازي (٤٧٦هـ) ، أَبُو سَعْدٍ عَبْدُ الرَّحمن بنُ مَأْمُوْنِ بنِ عَلِيٍّ النَّيسَابورِيُّ المُتَوَلِّي الشَّافعي (٤٧٨هـ) ، أَبُو المَعَالِي عَبْدُ المَلِكِ الجُوَيْنِيُّ (٤٧٨هـ) ، البزدَوي (٤٩٣هـ) ، أبو حامد الغَزَّالِي (٥٠٥هـ) ، أَبُو المُعِين النَّسَفِيّ المكحولي (٥٠٨هـ) ، ابنِ رشد القُرْطُبِيُّ (٥٢٠هـ) ، ابْنُ العَرَبِيِّ المالكي (٥٤٣هـ) ، القَاضِي عِيَاضِ اليحصبي (٥٤٤هـ) ، أَبُو العبَّاس أَحْمَدُ بنُ أَبِي الحَسَنِ عَلِيِّ بنِ أَحْمَدَ بنِ يَحْيَىٰ بنِ حَازِمِ بنِ عَلِيِّ بنِ رِفَاعَةَ الرِّفَاعِيُّ (٥٧٨هـ) ، أحمد بن محمَّد بن محمود بن سعيد القابسي (٥٩٣هـ) ، أَبُو الفَرَجِ ابن الجوزي الحَنْبَلِيُّ (٥٩٧هـ) ، عثمان بن عبد الله القيسي القرشي ، أبو عمرو ، المعروف بالسّلاجي (٥٩٤هـ) ، ابْنُ الأَثِيْرِ (٦٠٦هـ) ، فَخْرُ الدِّين الرَّازي (٦٠٦هـ) ، أبو العبَّاس أحمَدُ بن عُمَرَ بنِ إبراهيمَ الحافظ ، الأنصاريُّ القرطبيُّ (٦٥٦هـ) ، سلطان العلماء الشَّيخ العز بن عبد السَّلام (٦٦٠هـ) ، أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري ، الخزرجي ، شمس الدِّين القرطبي (٦٧١هـ) ، يحيىٰ بن شرف النَّووي (٦٧٦هـ) ، ابن منظور (٧١١هـ) ، ابْنِ جَمَاعَةَ الْكِنَانِيُّ الْحَمَوِيُّ (٧٣٣هـ) ، ابْن جهبل الْكلابِي الْحَلَبِي (٧٣٣هـ) ، الْحُسَيْن بن محمَّد بن عبد الله الطِّيِّبِيّ (٧٤٣هـ) ، عبد الله بن أسعد اليافعي اليمني أَبُو السَّعادات عفيف الدِّين (٧٦٨ هـ) ، محمَّد بن يوسف الكرماني (٧٨٦هـ) ، إبراهيم بن موسىٰ بن محمَّد اللخمي الغرناطي الشَّهير بالشَّاطبي (٧٩٠هـ) ، عبد الرَّحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (٧٩٥هـ) ، سراج الدِّين أبو حفص عمر ابن الملقِّن (٨٠٤هـ) ، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشَّافعي (٨٥٢هـ) ، بدر الدِّين العيني (٨٥٥هـ) ، أبو عبد الله السَّنوسي هو محمَّد بن يوسف بن عمر بن شعيب السَّنوسي (٨٩٥هـ) ، عبد الرَّحمن بن أبي بكر ، جلال الدِّين السُّيوطي (٩١١هـ) ، أحمد بن محمَّد بن أبىٰ بكر بن عبد الملك القسطلاني (٩٢٣هـ) ، عبد الوهَّاب بن أحمد الشَّعراني (٩٧٣هـ) ، ابن حجر الهيتمي (٩٧٣هـ) ، محمَّد بن أحمد الخطيب الشَّربيني الشَّافعي (٩٧٧هـ) ، علي بن سلطان محمَّد ، أبو الحسن نور الدِّين الملا الهروي القاري (١٠١٤هـ) ، عبد الرَّؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثمَّ المناوي (١٠٣١هـ) ، مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد الكرمي المقدسي الحنبلي (١٠٣٣هـ) ، عبد الباقي بن عبد الباقي بن عبد القادر بن عبد الباقي بن إبراهيم البعلي (١٠٧١هـ) ، محمَّد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني (١١٢٢هـ) ، محمَّد بن عبد الهادي التتوي أبو الحسن ، نور الدِّين السّندي (١١٣٨هـ) ، محمَّد بن أحمد بن سالم السَّفاريني الحنبلي (١١٨٨هـ) ، محمَّد بن محمَّد بن الحسيني الزَّبيدي الشَّهير بمرتضىٰ (١٢٠٥هـ) ، محمَّد بن علي بن محمَّد بن عبد الله الشَّوكاني اليمني (١٢٥٠هـ) ، سليم بن أبي فراج بن سليم بن أبي فراج البِشْري ، شيخ

الجامع الأزهر (١٣٣٥هـ) ، محمَّد الخَضِر بن سيِّد عبد الله بن أحمد الجكني الشَّنقيطي (١٣٥٤هـ) ، محمَّد عبد العظيم الزُّرْقاني (١٣٦٧هـ) ، محمَّد بن زاهد الكوثري (١٣٧١هـ) ، عبيد الله بن محمَّد عبد السَّلام بن خان محمَّد بن أمان الله بن حسام الدِّين الرحماني المباركفوري (١٤١٤هـ) ، وغيرهم كثير ...

فهل بعد كلام هؤلاء الفحول الأساطين من علماء الأمَّة الربَّانيِّين كلام ؟!! فإذا كان هؤلاء مبتدعة ضالُّون محرِّفون للكَلِم عن موضعه – كما يزعم مدَّعو السَّلفيَّة – فمن بقي بعدهم من علماء الأمَّة الذين يعوَّل على كلامهم ؟!! ، ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم : ٣٦] ، ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس : ٣] ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصافات : ١٥٦] ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الصافات : ١٥٧] ، ولذا فإنَّ الواجب على علماء الأمَّة أن يوقفوا هؤلاء وأمثالهم عند حدِّهم ، فقد بغوا وطغوا وتطاولوا على علماء الأمَّة بجهلهم وأموالهم وكذا بالكُتب المزوَّقة التي تُوزَّع بالملايين فتُهدى ولا تُباع في مختلف الأصقاع !!! ، ... فالواجب أن تجتمع الكلمة على التَّحذير منهم ، بكشف مخازيهم وضلالاتهم ، وعيوبهم ، وإفلاسهم العلمي ، فقد استغلُّوا غفلة النَّاس وجهلهم ، فعمدوا إلى نشر ترَّهاتهم وخُزعبلاتهم التي أخمدها علماء الأمَّة في القرن الثَّامن الهجري ، وبقيت هامدة خامدة الأنفاس لا تقوى على الحراك حتى القرن الثَّاني عشر ، فوجدت الهمج الرّعاع الذين اعتنقوها واعتقدوها مرَّة ثانية بعد أسلافهم من الحشويَّة والمشبِّهة ، الذين طغوا في البلاد ، وأكثروا فيها الفساد ...

وقال إمامهم عبد الرَّحمن السَّعدي (١٣٧٦هـ) : " ونزوله سبحانه نزول حقيقي يليق بجلاله وعظمته ، ولا يصحُّ تحريف معناه إلى غير ذلك من التَّحريفات الباطلة ، مثل قولهم : معنى النُّزول : نزول أمره أو رحمته أو ملك من ملائكته ، فهذا من أبطل الباطل " (١) .

فهل تأويل الإمام مالك (١٧٩هـ) لنزول الله تعالى بنزول أمره من أبطل الباطل ؟!!! وهل من نقلنا عنهم تأويل النُّزول بنزول أمره أو غيره من التَّأويلات المراعية جلال الله تعالى وعظمته وتنزيهه عن مشابهة الحوادث في كتابنا " إِرْشَادُ الفُحُوْلِ إِلَى مَا قَالَهُ أَسَاطِيْنُ العِلْمِ فِيْ تَنْزِيْهِ اللهِ عَنِ الحَرَكَةِ وَالنُّزُوْلِ " ... من أبطل الباطل ؟!!! لقد استهوى سلطان المخالفة هؤلاء ، وسيطر على كيانهم حتى جعلوا – وعلى الدَّوام – أقوالهم وأقوال علمائهم هي الصَّواب الذي لا يحتمل الخطأ ، وأقوال غيرهم ولو كانت مجموع الأمَّة خطأ لا يحتمل الصَّواب ...

وكذا صرَّح إمامهم الألباني بأنَّ نزول الله تعالى نزول حقيقي ، فقال : " فنزوله نزول حقيقي يليق بجلاله ، لا يُشبه نزول المخلوقين ، وكذلك دنوُّه عزَّ وجلَّ دنوٌّ حقيقي يليق بعظمته ، وخاص بعباده المتقرِّبين إليه

(١) انظر : شرح رسالة في أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة (ص١١) .

بطاعته ، ووقوفهم بعرفة تلبية لدعوته عزَّ وجلَّ . فهذا هو مذهب السَّلف في النُّزول والدُّنو ، فكن علىٰ علم بذلك " (١) ، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله ... فما قالوه ... مغالطة كبيرة ، لأنَّه لا بدَّ من الاحتكام للغة العربيَّة في معرفة معاني الآيات الكريمة ، وكذا الأحاديث النَّبويَّة الشَّريفة ... ولا يوجد في معاجم وقواميس لغة معنىٰ من المعاني كالذي قالوا ، فإنَّ قولهم لا مكان له من الإعراب في لغة العرب ، إلَّا إذا قلنا بتفويض الكيْف والمعنىٰ ، وهم يأبون علينا ... بل يقولون بأنَّ التَّفويض من شرِّ أقوال أهل البدع والإلحاد ، كما قال ابن تيمية في " درء التَّعارض " : " فتبيَّن أنَّ قول أهل التَّفويض الذين يزعمون أنَّهم متَّبعون للسُّنَّة والسَّلف : من شرِّ أقوال أهل البدع والإلحاد !!! " (٢) ، والعياذ بالله تعالىٰ ...

بقي أمرٌ قاله الألباني ، وهو قوله : " وكذلك دنوُّه عزَّ وجلَّ دنوٌّ حقيقي يليق بعظمته " . والدُّنو الذي يقصده الألباني ومن معه من مدَّعي السَّلفيَّة : هو دنوُّ الله تعالىٰ من محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وهم بذلك يفسِّرون الدُّنو والتَّدلي الواردين في سورة " النَّجم " ، وهم به مخالفون لجمهور أهل العلم ... قال الإمام الطَّبري (٣١٠هـ) : " الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم ٨-٩] : يَقُولُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ : ثمَّ دَنَا جِبْرِيلُ مِنْ محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَدَلَّىٰ إِلَيْهِ ، وَهَذَا مِنَ الْمُؤَخَّرِ الَّذِي مَعْنَاهُ التَّقْدِيمُ ، وإنَّما هُوَ : ثمَّ تَدَلَّىٰ فَدَنَا ، وَلَكِنَّهُ حَسُنَ تَقْدِيمُ قَوْلِهِ : ﴿ دَنَا ﴾ [النجم : ٨] ، إِذْ كَانَ الدُّنُوُّ يَدُلُّ عَلَىٰ التَّدَلِّي وَالتَّدَلِّي عَلَىٰ الدُّنُوِّ، كَمَا يُقَالُ : زَارَنِي فُلَانٌ فَأَحْسَنَ ، وَأَحْسَنَ إِلَيَّ فَزَارَنِي ، وَشَتَمَنِي فَأَسَاءَ ، وَأَسَاءَ فَشَتَمَنِي لِأَنَّ الْإِسَاءَةَ هِيَ الشَّتْمُ : وَالشَّتْمُ هُوَ الْإِسَاءَةُ ، وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأويل ... ثمَّ ذكر من القائلين بذلك : الحسن البصري ، قتادة ، والرَّبيع " (٣) .

وقال الإمام البغوي (٥١٦هـ) : قَوْلُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم : ٨-٩] ، اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَاهُ .

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَحْمَدَ الْمَلِيحِيُّ أَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللهِّ النَّعِيمِيُّ أَنَا محمَّد بن يوسف ثنا محمَّد بْنُ إِسْمَاعِيلَ ثَنَا محمَّد بن يوس ثنا أبو أسامة ثنا زَكَرِيَّا بْنِ أَبِي زَائِدَةَ عَنْ أبي الْأَشْوَعِ عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنْ مَسْرُوقٍ ، قَالَ : قُلْتُ لِعَائِشَةَ : فَأَيْنَ قَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم : ٨-٩] ؟ قَالَتْ : ذَلِكَ جِبْرِيلُ كَانَ يَأْتِيهِ فِي صُورَةِ الرَّجُلِ وَإِنَّهُ أَتَاهُ هَذِهِ الْمَرَّةَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي هِيَ صُورَتُهُ ، فَسَدَّ الْأُفُقَ .

---

(١) انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٦/ ١٠٨) .

(٢) انظر : درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٠٥) .

(٣) انظر : تفسير الطَّبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) (٢٢/ ١٣-١٤) .

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَحْمَدَ الْمَلِيحِيُّ أَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّعِيمِيُّ أَنَا محمَّد بْنُ يُوسُفَ ثَنَا محمَّد بن إسماعيل ثنا طلق بن غنّام ثنا زَائِدَةُ عَنِ الشَّيْبَانِيِّ قَالَ : سَأَلْتُ زِرّاً عَنْ قَوْلِهِ : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم : ٩] ، قَالَ أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ أَنَّ محمَّدا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَىٰ جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ .

فَمَعْنَى الْآيَةِ : ثمَّ دَنَا جِبْرِيلُ بَعْدَ اسْتِوَائِهِ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ مِنَ الْأَرْضِ ، فَتَدَلَّىٰ فَنَزَلَ إِلىٰ محمَّد صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَانَ مِنْهُ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ، بَلْ أَدْنَىٰ ، وَبِهِ قَالَ ابن عبَّاس ، والحسن ، وقتادة (١١٨هـ) .

وقيل : فِي الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ ، تَقْدِيرُهُ : ثمَّ تَدَلَّىٰ فَدَنَا ، لِأَنَّ التَّدَلِّيَ سَبَبُ الدُّنُوِّ " (١) . وعليه : فابن عبَّاس ، والحسن البصري ، وقتادة ، والرَّبيع ... قالوا : إنَّ مسألة التَّدلي مرتبطة بأمين الوحي جبريل عليه السَّلام ، وليس الأمر كما يعتقد مدَّعو السَّلفيَّة : أنَّ المتدلِّي هو الله تعالىٰ ، ... والذي ذكرناه هو قول جمهور المفسِّرين (٢) ...

وقد انتهىٰ بهم الأمر في هذه المسألة إلىٰ قياس الخالق علىٰ المخلوق ، حيث جعلوا الحركة أمارة ما بين الحيِّ والميِّت ، وفي ذلك قال الإمام ابن تيمية : " ... لأنَّ الحيَّ القيوم يفعل ما يشاء ، ويتحرَّك إذا شاء ، ويهبط ويرتفع إذا شاء ، ويقبض ويبسط ، ويقوم ويجلس إذا شاء ، لأنَّ أمارة ما بين الحي والميِّت التَّحرُّك ، كلُّ حيٍّ متحرِّك لا محالة ، وكلُّ ميِّت غير متحرِّك لا محالة " (٣) .

وأنا أقول له : يا ابن تيمية : إنَّ الأرض جماد لا روح فيها ، وهي تتحرَّك ، ولا يخالف في ذلك إلَّا أعمىٰ البصر والبصيرة ، تماماً كما فعل الشَّيخ ابن باز فألَّف كتاباً بعنوان : " الأدلَّة النَّقليَّة والعقليَّة علىٰ سكون الأرض وحركة الكواكب والنُّجوم " ، وما ألَّف هذا الكتاب المتهالك إلَّا لنصرة باطل مذهبه ، بالغشِّ والتَّدليس والكذب والخيانة والتَّلاعب بعقول الجهَّال والعميان ، فسبحان مقلِّب القلوب ، ومقسِّم العقول ...

وقد ذكر الله تعالىٰ في الكتاب المجيد أنَّ الجبال تتحرَّك ، فقال : ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل : ٨٨] . قال الإمام الشَّعراوي : " فليس غريباً الآن أن نعرف أنَّ للجبال حركة ، وإنْ كنا لا نراها ؛ لأنَّها ثابتة بالنِّسبة لموقعك منها ؛ لأنَّك تسير بنفس حركة

---

(١) انظر : معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) (٤/ ٣٠١-٣٠٢) .

(٢) للاستزادة في هذه المسألة انظر : الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٤/ ١٩٤) ، زاد المسير في علم التفسير (٤/ ١٨٥) ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦/ ٢٠١) ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٥/ ٣٢٣) ، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٥/ ٥٠١) .

(٣) انظر : درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٥١) ، (٢/ ٧٢) ، شرح العقيدة الأصفهانية (ص٧٩) .

سيرها ، كما لو أنَّك وصاحبك في مركب ، والمركب تسير بكما ، فأنت لا تدرك حركة صاحبك لأنَّك تتحرَّك بنفس حركته .

وقد شبَّه الله حركة الجبال بمرِّ السَّحاب ، فالسَّحاب لا يمرُّ بحركة ذاتيَّة فيه ، إنَّما يمرُّ بدفْع الرِّياح ، كذلك الجبال لا تمرُّ بحركة ذاتيَّة إنَّما بحركة الأرض كلّها ، وهذا دليل واضح على حركة الأرض ... " (١) .

فالنَّاظر في ما قاله ابن تيمية يجد غلوَّاً فادحاً ، حيث خالف عموم الأمَّة ، وقد دفع هذا الغلو تلميذه الإمام الذَّهبي لتوجيه رسالة له ، اشتهرت باسم : " الرِّسالة الذَّهبيَّة " ، نصح فيها شيخه ابن تيمية للعدول عن غيِّه وضلاله ، ونصُّ الرِّسالة هو : " الحمد لله على ذلَّتي ، يا ربِّ ارحمني وأقلني عثرتي ، واحفظ عليَّ إيماني ، واحزناه على قلَّة حزني ، واأسفاه على السُّنَّة وذهاب أهلها ، واشوقاه إلى إخوان مؤمنين يعاونونني على البكاء ، واحزناه على فَقْد أُناس كانوا مصابيح العلم وأهل التَّقوى وكنوز الخيرات ، آه على وجود درهم حلال وأخ مؤنس .

طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب النَّاس ، وتَبّاً لمن شغله عيوبُ النَّاس عن عيبه ، إلى كم ترى القذاة في عين أخيك وتنسى الجذع في عينك ؟ إلى كم تمدح نفسك وشقاشقك وعباراتك وتذمُّ العلماء ، وتتبع عورات النَّاس مع علمك بنهي الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لا تذكروا موتاكم إلَّا بخير ، فإنَّهم قد أفضوا إلى ما قدموا " (٢) ، بلى أعرفُ أنَّك تقول لي لتنصُرَ نفسك : إنَّما الوقيعة في هؤلاء الذين ما شمُّوا رائحة الإسلام ولا عرفوا ما جاء به محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو جهاد ، بلى والله عرفوا خيراً ممَّا إذا عمل به العبد فقد فاز ، وجهلوا شيئاً كثيراً ممَّا لا يعنيهم و" من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " (٣) ...

يا رجل ، بالله عليك كفَّ عنَّا ، فإنَّك مِحجاجٌ عليم اللسان لا تقرّ ولا تنام ، إيَّاكم والأغلوطات في الدِّين ، كره نبيُّك صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسائل وعابها ونهى عن كثرة السُّؤال ، وقال : " إنَّ أخوف ما أخاف على أمَّتي كلّ منافق عليم اللسان " (٤) .

وكثرة الكلام بغير زلل تقسِّي القلب إذا كان في الحلال والحرام ، فكيف إذا كان في عبارات اليُونسيَّة والفلاسفة وتلك الكفريَّات التي تعمي القلوب ؟ والله قد صرنا ضحكة في الوجود ، فإلى كم تنبشُ دقائق

---

(١) انظر : تفسير الشعراوي ، الخواطر (١٥/ ٩٥٢٧) .

(٢) أخرج الشق الأول منه : الطيالسي في المسند (٣/ ٩٥ برقم ١٥٩٧) .

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ، (١/ ٢٦٤ برقم ٥٣) ، وغيره .

(٤) أخرجه أحمد في المسند ، (١/ ٢٨٩ برقم ١٤٤) ، وغيره .

الكفريَّات الفلسفيَّة بعقولنا ، يا رجل قد بلعتَ سموم الفلاسفة وتصنيفاتهم مرَّات ، وكثرة استعمال السُّموم يُدمن عليه الجسم وتكمن والله في البدن . واشوقاه إلىٰ مجلس فيه تلاوة بتدبُّر ، وخشية بتذكُّر ، وصمت بتفكُّر ، واهاً لمجلس يُذكرُ فيه الأبرار ، فعند ذكر الصَّالحين تنزل الرَّحمة ، لا عند ذكر الصَّالحين يُذكرون بالازدراء واللعنة ، كان سيف الحجاج ولسان ابن حزم شقيقين فواخَيتَهما ، بالله خلُّونا من ذكر بدعة الخميس وأكل الحبوب ، وجدوا في ذكر بدع كنَّا نعدها من أساس الضَّلال ، قد صارت هي محض السُّنَّة وأساس التَّوحيد ، ومن لم يعرفها فهو كافر أو حمار ، ومن لم يكفّر فهو أكفر من فرعون ، وتعد النَّصارىٰ مثلنا ، والله في القلوب شكرك إن سَلِمَ لكَ إيمانك بالشَّهادتين فأنت سعيد .

يا خيبة من اتَّبعك فإنَّه مُعَرَّضٌ للزَّندقة والانحلال !!! ولا سيَّما إذا كان قليل العلم والدِّين باطوليّاً شهوانيّاً ، لكنَّه ينفعك ويجاهد عنك بيده ولسانه وفي الباطن عدو لك بحاله وقلبه ، فهل معظم أتباعك إلَّا قعيدٌ مربوط خفيف العقل ، أو عامي كذّاب بليد الذِّهن ، أو غريب واجم قوي المكر ، أو ناشف صالح عديم الفهم ، فإن لم تصدِّقني ففتشهم وزنهم بالعدل .

يا مسلم ، أقدم حمار شهوتك لمدح نفسك ، إلىٰ كم تصادقها وتعادي الأخيار ؟ إلىٰ كم تصدقها وتزدري الأبرار ، إلىٰ كم تعظِّمها وتصغر العباد ، إلىٰ متىٰ تُخاللها وتمقت الزُّهَّاد ، إلىٰ متىٰ تمدح كلامك بكيفيَّة لا تمدح بها والله أحاديث الصَّحيحين ، يا ليت أحاديث الصَّحيحين تسلم منك !!! بل في كلِّ وقت تُغيرُ عليها بالتَّضعيف والإهدار !!! أو بالتَّأويل والإنكار (١) .

أما آن لك أن ترعوي ؟ أما حان لك أن تتوب وتنيب ، أمَّا أنت في عشر السَّبعين وقد قرب الرَّحيل . بلىٰ والله ما أذكر أنَّك تذكر الموت بل تزدري بمن يذكر الموت ، فما أظنُّك تقبل علىٰ قولي ولا تُصغي إلىٰ وعظي ، بل لك همَّة كبيرة في نقض هذه الورقة بمجلَّدات وتقطع لي أذناب الكلام ، ولا تزال تنتصر حتىٰ أقول لكَ : والبتَّة سكت .

فإذا كان هذا حالك عندي وأنا الشَّفوق المحبُّ الواد ، فكيف يكون حالك عند أعدائك ، وأعداؤك والله فيهم صُلحاء وعقلاء وفضلاء ، كما أنَّ أولياءك فيهم فجرة وكذبة وجهلة وبطلة وعور وبقر .

---

(١) من المعلوم أنَّ ابن تيمية وكذا ابن القيم ومعهم الألباني ردُّوا وانتقدوا أكثر من خمسين حديثاً في الصَّحيحين ... وقد أثبتُّ ذلك في كتابي : " إتقان الصنعة في تحقيق معنىٰ البدعة " ...

قد رضيتُ منك بأن تسبَّني علانية ، وتنتفع بمقالتي سرّاً : " فرحم الله امرءاً أهدىٰ إليَّ عيوبي " (١) ، فإنِّي كثير العيوب غزير الذُّنوب ، الويل لي إن أنا لا أتوب ، ووافضيحتي من علَّام الغيوب ، ودوائي عفو الله ومسامحته وتوفيقه وهدايته ، والحمد لله ربِّ العالمين ، وصلَّىٰ الله علىٰ سيِّدنا محمَّد خاتم النَّبيين ، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين " (٢) .

والرِّسالة ثابتة لا مجال للطَّعن فيها ، وذلك لـ :

١-أنَّ الإمام الذَّهبي تلميذ من تلاميذ ابن تيمية المشهورين ، وهو لا يعتقد في ابن تيمية العصمة ، بل خالفه وناقشه في العديد من المسائل ، قال الإمام الذَّهبي في معرض كلامه عن ابن تيمية ، علىٰ ما نقله عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني : " وَأَنا لَا أعتقد فِيهِ عصمَة ، بل أَنا مُخَالف لَهُ فِي مسَائِل أَصْلِيَّة وفرعيَّة !!! ... " (٣) .

وقال الذَّهبي في " تذكرة الحفَّاظ " في حديثه عن ابن تيمية : " وقد انفرد بفتاوىٰ نيل من عِرضِهِ لأجلها ،... فالله تعالىٰ يسامحه ويرضى عنه ، وكلّ أحد من الأمَّة فيؤخذ من قوله ويترك " (٤) .

وهذا بعكس من يدَّعون السَّلفيَّة في زماننا ، أولئك الذين أضفوا علىٰ كلام ابن تيمية هالة عظيمة من الجلال والإعظام ، حتىٰ وصل الأمر ببعضهم إلىٰ الاعتقاد بأنَّ كلامه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، بدليل أنَّنا لم نرَ عالماً منهم تجاسر علىٰ تخطئة ابن تيمية ، اللهمَّ إلَّا الألباني – فيما اطَّلعت – وقد ناقشه وخالفه علىٰ استحياء ، بل أنَّه حين ناقشه في مسألة فناء النَّار ذكر أنَّ لابن تيمية أجراً !!! فيما اجتهد فيه من القول بفناء النَّار ، مع أنَّه لا مجال فيها للاجتهاد ...

فلا مجال البتَّة لاعتقاد عدم صحَّة نسبة الرِّسالة للإمام الذَّهبي ، لأنَّ الدِّين النَّصيحة ، والإنسان أيّاً كان لا يستغني عن النَّصيحة ، والرِّسالة برمَّتها ما خرجت إلَّا مخرج النَّصيحة ، وقد وصف الإمام الذَّهبي أتباع ابن تيمية في النَّصيحة بقوله : " يا خيبة من اتبعك ، فإنَّه معرَّض للزَّندقة والانحلال ، لاسيَّما إذا كان قليل العلم والدِّين باطولياً شهوانيَّاً . لكنَّه ينفعك ويجاهد عنك بيده ولسانه ، وفي الباطن عدو لك بحاله وقلبه ، فهل معظم أتباعك إلَّا قعيد مربوط خفيف العقل ، أو عامِّي كذَّاب بليد الذّهن أو غريب واجم ، قوي

---

(١) أخرجه من كلام عمر بن الخطَّاب : الدارمي (١/ ٥٠٦ برقم ٦٧٥) .

(٢) انظر : السيف الصقيل في الردِّ علىٰ رد ابن زفيل (ص٢١٧-٢١٩) .

(٣) انظر : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (١/ ١٧٦) .

(٤) انظر : تذكرة الحفاظ (٤٤/ ١٩٢) .

المكر أو ناشف صالح عديم الفهم ، فإن لم تصدقني ففتّشهم وزنهم بالعدل ... كما أنَّ أولياءك فيهم فجرة وكذبة وجهلة وبطلة وعور وبقر " . ففي هذا المقطع قيّم ووزن الذَّهبي أتباع ابن تيمية ممَّن يدَّعون السَّلفيَّة ، وهذا مدعاة لأن يراجعوا أنفسهم ، فقد وصف أتباعه بأنَّ منهم القعيد والمربوط وخفيف العقل ، وبليد الذّهن وقوي المكر ، كما أنَّ أوليائه فيهم الفجرة والكذبة والبقر والعور . وفي هذا إشارة إلى أنَّ فكرهم فيه جهل وكذب . وكم نتمنَّى أن تكون نصيحة الإمام الذَّهبي لشيخه ابن تيمية مدعاة لمدَّعي السَّلفيَّة في زماننا كي يراجعوا حساباتهم وأنفسهم ، خاصَّة وأنَّهم ما تركوا عالماً من غير طريقتهم إلَّا وصموه بالكفر والنِّفاق والتَّعطيل والتَّجهُّم والتَّفسيق والتَّضليل ...

٢-أنَّ الإمام الذَّهبي انتقد ابن تيمية غير مرَّة ، من ذلك قوله : " فإن برعت في الأصول وتوابعها من المنطق والحكمة والفلسفة ، وآراء الأوائل ومجازات العقول ، واعتصمت مع ذلك بالكتاب والسُّنَّة وأصول السَّلف ، ولفَّقت بين العقل والنَّقل ، فما أظنُّك في ذلك تبلغ رتبة ابن تيمية ولا والله تقربها ، وقد رأيت ما آل أمره إليه من الحطِّ عليه ، والهجر والتَّضليل والتَّكفير والتَّكذيب بحقٍّ وبباطل ، فقد كان قبل أن يدخل في هذه الصِّناعة منوَّراً مضيئاً ، على محيَّاه سيما السَّلف ، ثمَّ صار مظلماً مكسوفاً ، عليه قتمة عند خلائق من النَّاس ، ودجَّالاً أفَّاكاً كافراً عند أعدائه ، ومبتدعاً فاضلاً محقِّقاً بارعاً عند طوائف من عقلاء الفضلاء ، وحامل راية الإسلام وحامي حوزة الدِّين ومحيي السُّنَّة عند عوام أصحابه " (١) .

فالذَّهبي ذمَّ ابن تيمية بسبب خوضه بالفلسفة ، وهذا الذَّمُّ منه ينسف مدحه له في " تذكرة الحفَّاظ " حين قال : فما رأيت مثله " (٢) .

وقال الإمام الذَّهبي : " فوالله ما رمقت عيني أوسع علماً ولا أقوى ذكاء من رجل يقال له : ابن تيمية ، مع الزُّهد في المأكل والملبس والنِّساء ، ومع القيام في الحقّ والجهاد بكلِّ ممكن ، وقد تعبتُ في وزنه وفتَّشته حتى مللت في سنين متطاولة ، فما وجدت قد أخره بين أهل مصر والشَّام ومقتته نفوسهم وازدروا به وكذَّبوه وكفَّروه إلّا الكبر والعجب ، وفرط الغرام في رياسة المشيخة والازدراء بالكبار ، فانظر كيف وبال الدَّعاوي ومحبَّة الظُّهور ، نسأل الله تعالى المسامحة ، فقد قام عليه أناس ليسوا بأورع منه ، ولا أعلم منه ، ولا أزهد منه ، بل يتجاوزون عن ذنوب أصحابهم وآثام أصدقائهم ، وما سلَّطهم الله عليه بتقواهم وجلالتهم

---

(١) انظر : زغل العلم (ص٤٢) .

(٢) انظر : تذكرة الحفاظ (٤٤/ ١٩٢) .

بل بذنوبه ، وما دفعه الله عنه وعن أتباعه أكثر ، وما جرىٰ عليهم إلَّا بعض ما يستحقُّون ، فلا تكن في ريب من ذلك " ([1]) .

٣-أثبت رسالة الإمام الذَّهبي لشيخه ابن تيمية الإمام شمس الدِّين محمَّد بن عبد الرَّحمن السَّخاوي (٩٠٢هـ) ، فقال : " وقد رأيت له - أي للذَّهبي - عقيدة مجيدة ، ورسالة كتبها لابن تيمية هي لدفع نسبته لمزيد تعصُّبه مفيدة " ([2]) .

وكذلك أثبتها الأستاذ الدكتور بشَّار عواد معروف ، فقال عن الرِّسالة : " وهي رسالة بعث بها الذَّهبي إلىٰ شيخه ورفيقه أبي العبَّاس ابن تيمية الحرَّاني ينصحه فيها ويعاتبه في بعض تصرُّفاته ، وهي رسالة مفيدة في تبيان عقيدة الذَّهبي وقد ذكرها السَّخاوي في الإعلان ... وذهب بعضهم إلىٰ القول بأنَّها مزوَّرة ، ولا عبرة بذلك !!! " ([3]) .

وذكر الأستاذ الدكتور بشار عواد معروف نُسخ الرِّسالة ، وأنَّها موجودة في : دار الكتب المصريَّة بخطِّ تقي الدِّين ابن قاضي شهبة الأسدي المتوفَّىٰ سنة (٨٥١ هـ) رقم (١٨٨٢٣) ، وفي : دار الكتب الظَّاهريَّة برقم (١٣٤٧) أ.هـ وقد نقلتها من كتاب : " السَّيف الصَّقيل في الرَّدِّ علىٰ ابن زفيل " للإمام تقي الدِّين علي بن عبد الكافي السُّبكي المتوفَّىٰ سنة (٧٥٦هـ) ...

وبعد هذه الإطلالة السَّريعة علىٰ بعض من عقائد من أجروا النُّزول علىٰ ظاهر معناه ... نعود ثانية إلىٰ أقوال فحول الأمَّة وأساطينها المنزِّهين لله تعالىٰ عن الحركة والانتقال ... فنقول :

قال الإِمَامُ ، العَلاَّمَةُ ، المُفْتِي ، المُجْتَهِدُ ، عَلَمُ العِرَاقِ ، أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بنُ عَلِيٍّ الرَّازي ، الحَنَفِيُّ ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ (٣٧٠هـ) : " وأمَّا الخبر بنزول الباري إلىٰ السَّماء الدُّنيا ، فذلك أمره وفضله ورحمته ، لا نقول : وحركته ... " ([4]) .

وقال الإِمَامُ ، العَلاَّمَةُ ، أَوْحَدُ المُتَكَلِّمِيْن ، مُقَدَّم الأُصُوْلِيين ، القَاضِي ، أَبُو بَكْرٍ محمَّد بنُ الطيِّب بنِ محمَّد بنِ جَعْفَرِ بنِ قَاسِم البَصْرِيُّ ، ثمَّ البَغْدَادِيُّ ، ابْنُ البَاقِلاَّنِيّ ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ ، المضروب به المَثَلُ بِفَهْمِهِ وَذَكَائِه (٤٠٣هـ) : " ويجب أن يعلم : أنَّ كلّ ما يدلُّ علىٰ الحدوث أو علىٰ سمة النَّقص ، فالرَّبُّ تعالىٰ يتقدَّس

([1]) انظر : زغل العلم (ص٣٨) .

([2]) انظر : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (ص٧٧) .

([3]) انظر : الذَّهبي ومنهجه في كتابه تأريخ الإسلام (ص١٤٦) .

([4]) انظر : شرح بدء الأمالي (ص٢٠٦) .

عنه ، فمن ذلك : أنَّه تعالىٰ متقدِّس عن الاختصاص بالجهات ، والاتِّصاف بصفات المحدثات ، وكذلك لا يُوصف بالتَّحوُّل ، والانتقال ، ولا القيام ، ولا القعود ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ: ١١] ، وقوله : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص : ٤] ، ولأنَّ هذه الصِّفات تدلُّ علىٰ الحدوث ، والله تعالىٰ يتقدَّس عن ذلك " (١) .

فالله تعالىٰ متعالٍ عن المكان ، فهو تعالىٰ غيرُ متمكّن في مكان ، ولا متحيِّز إلىٰ جهة ، لأنَّه سبحانه وتعالىٰ ليس بجوهر يتحيَّز ، فهو يتقدّس عن الحيِّز ، إذ التَّحيُّز خاصٌّ بالجواهر ، وكلُّ متحيِّز فهو مختصٌّ بحيِّزه ، ولا يخلو من أن يكون ساكناً فيه أو متحرِّكاً عنه ، والحركة والسُّكون حادثان وهما من أعراض الحوادث ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، والله تعالىٰ القديم يتعالىٰ عن ذلك ويتنزَّه ، سبحانه وتعالىٰ عمَّا يصفون ...

وقال الإمام ، العَلاَّمَةُ ، رَئِيْسُ المُحَدِّثِيْنَ وَالمُتَكَلِّمِيْنَ بِمَا وَرَاء النَّهر ، أَبُو عَبْدِ الله الحُسَيْنُ بنُ الحَسَنِ بنِ محمَّد بنِ حَلِيْم البُخَارِيُّ ، الشَّافِعِيُّ ، أَحَدُ الأَذكيَاء المَوْصُوفِيْنَ ، وَمن أَصْحَابِ الوُجُوه فِي المَذْهَب ، المُتفنِّن ، سيَّال الذِّهن ، المُنَاظِر ، طَوِيْلَ البَاعِ فِي الأَدب وَالبيَان (٤٠٣ هـ) : " وأمَّا البراءة من التَّشبيه بإثبات أنَّه – تعالىٰ – ليس بجوهر ولا عَرَض ، فلأنَّ قوماً زاغوا عن الحقِّ فوصفوا الباریٔ جلَّ ثناؤه ببعض صفات المحدثين ، فمنهم من قال : أنَّه جوهر ، ومنهم من قال : أنَّه جسم ، ومنهم من أجاز أن يكون علىٰ العرش ، كما يكون الملك علىٰ سريره ، وكان ذلك في وجوب اسم الكفر لقائله كالتَّعطيل والتَّشريك . فإذا أثبت المثبت أنَّه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ: ١١] ، وجماع ذلك أنَّه ليس بجوهر ولا عَرَض ، فقد انتفىٰ التَّشبيه ، لأنَّه لو كان جوهراً أو عَرَضاً لجاز عليه ما يجوز علىٰ سائر الجواهر والأعراض ، ولأنَّه إذا لم يكن جوهراً ولا عَرَضاً لم يجز عليه ما يجوز علىٰ الجواهر من حين أنَّها جواهر كالتَّألف والتَّجسم ، وشغل الأمكنة ، والحركة والسُّكون ، ولا ما يجوز علىٰ الأعراض من حيث أنَّها أعراض كالحدوث وعدم البقاء " (٢) .

فالإمام الحليمي يؤكِّد ويبرهن علىٰ تنزيه الله تعالىٰ عن الجسميَّة ، وعن لوازمها من الحركة والسُّكون ، إذ كلَّ جسم لا ينفكُّ عن الحركة والسُّكون والاجتماع والافتراق ، وهي أعراض ملازمة للأجسام ، ولا تقوم إلَّا بها ، وهي حادثة لتغيرُّها وتبدُّلها ، وما لا ينفكُّ عن الحوادث فهو حادث ، والله تعالىٰ واجب الوجود

---

(١) انظر : الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به (ص٤٠-٤١) .

(٢) انظر : المنهاج في شعب الإيمان (١/ ١٨٤) .

لذاته ، فلا يجوز أن يكون جسماً أو عَرَضاً ، فلو كان جسماً أو عَرَضاً لاحتاج للمحلّ ، وافتقر إليه ، وبالحاجة للمكان يصبح الواجب مفتقراً للغير فيكون ممكناً ، واللازم باطل فالملزوم مثله ، وبالتَّالي لا يجوز عليه ما يجوز على المحدثات من الحركة والسُّكون والانتقال من مكان إلى آخر ، فهو تعالى ليس محلّاً للحوادث ، فلا يحُلُّ بها ولا تحُلُّ فيه سبحانه وتعالى ...

وقال الإِمَامُ ، العَلاَّمَةُ ، الصَّالح ، شَيْخُ المُتَكَلِّمِيْن ، أَبُو بَكْرٍ محمَّد بنُ الحَسَنِ بنِ فُوْرَكَ الأَصْبَهَانِيّ ، الأُصُوْلِيّ ، الأَدِيْبُ ، النَّحوِيُّ ، الوَاعِظُ ، صاحب التَّصَانِيْفَ الكَثِيْرَة (٤٠٦هـ) : " ... وَقَوله : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح : ٤] ، يكْشف أَيْضاً على أَنَّه لَيْسَ كلّ نزُول وإنزال نقل وتحويل ، بل ذَلِك لفظ مُشْتَرك الْمَعْنى ، قد يكون نقلاً وتحويلاً ، وَيكون على غير هَذَا الْوَجْه أَيْضاً ، على الْمُتَعَارف والمعهود بَين أهل اللُّغَة ، وَإِذا كَانَ اللَّفْظ مُشْتَرك الْمَعْنى وَجب التَّرْتِيب وَإِضَافَة مَا يَلِيق فِي الْمَذْكُور والمضاف إِلَيْهِ على حسب مَا يَلِيق بِهِ ، أَلا ترى أَنَّه إِذا أضيف إِلَى السَّكينَة لم يكن حَرَكَة وَلَا نقلة ، وَإِذا أضيف إِلَى الْكَلَام لم يكن أَيْضاً تَفْرِيغ مَكَان وشغل مَكَان ، وَإِذا أُرِيد بِهِ الحكم وَتغير الْمرتبَة فَكَذَلِك ، وَإِذا كَانَ مَا وصف بِهِ الربُّ جلَّ ذكره من النُّزول مَحْمُولاً على بعض هَذِه الْمعَانِي الَّتِي لَا تَقْتَضِي لَهُ مَا لَا يَلِيق بنعته من إِيجَاب حدث يحدث فِي ذَاته ، وتغيير يلْحقهُ ، أَو نقص تمثيلاً أَو تحديداً ، وَهُوَ أَن يكون على أحد وُجُوه من الْمعَانِي .
إِمَّا أَن يُرَاد بِهِ : إقباله على أهل الأَرْض بِالرَّحْمَةِ والاستعطاف بالتَّذكير والتَّنبيه الَّذِي يلقى فِي قُلُوب أهل الْخَيْر مِنْهُم من أسعده بتوفيقه لطاعته حَتَّى يزعجهم إِلَى الْجد والانكماش فِي التَّوْبَة والإنابة والإقبال على الطَّاعَة . وَوجدنَا الله عزَّ وجلَّ قد خصَّ بالمدح المستغفرين بالأسحار ، وَقَالَ فِي وَصفهم أَيْضاً : ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات : ١٧-١٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران : ١٧] . فَيحْتَمل أَن يكون ذَلِك هُوَ الْمُرَاد بِهِ ، وَهُوَ الإِخْبَار عَمَّا يظْهر من ألطافه ومعونته وتأييده لأَهل ولَايَته فِي مثل هَذَا الْوَقْت ، بالزَّواجر الَّتِي يقيمها فِي نُفُوسهم ، والمواعظ الَّتِي تنبِّههم بِقُوَّة التَّرْغِيب والتَّرهيب .

وَيحْتَمل أَن يكون ذَلِك فعلاً يظهره بِأَمْرِه فيضاف إِلَيْهِ ، كَمَا يُقَال : ضرب الْأَمِير اللصَّ ، ونادى الْأَمِير فِي الْبَلَد الْيَوْم ، وإِنَّمَا أَمر بذلك فيضاف إِلَيْهِ على معنى أَنَّه عَن أمره ظهر ، وبأمره حصل ، وَإِذا كَانَ ذَلِك مُحْتملاً فِي اللُّغَة لم يُنكر أَن يكون لله عزَّ وجلَّ مَلَائِكَة يَأْمُرهُم بالنُّزول إِلَى السَّماء الدُّنيا بِهَذَا النِّداء وَالدُّعَاء ، فيضاف ذَلِك إِلَى الله عزَّ وجلَّ على الْوَجْه الَّذِي يُقَال : ضرب الْأَمِير اللصَّ ، ونادى فِي الْبِلَاد

وَقد روىٰ لنا بعض أهل النَّقْل هَذَا الْخَبَر عَن النَّبِي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا يُؤَيِّد هَذَا الْبَاب ، وَهُوَ بِضَم الْيَاء من " ينزل " وَذكر أَنَّه قد ضَبطه عَمَّن سَمعه عَنهُ من الثِّقَات الضَّابطين . وَإِذا كَانَ ذَلِك مَحْفُوظاً مضبوطاً كَمَا قَالَ ، فوجهه ظَاهر ، وَلما ذَكَرْنَاهُ مِمَّا يحْتَملهُ من التَّأْويل مؤيِّد شَاهد ، وَيحْتَمل أَيْضاً أَن يكون علىٰ معنىٰ أَنَّهم يَقُولُونَ : مازلنا فِي خير حَتَّىٰ نزل بِنَا بَنو فلَان ، علىٰ معنىٰ نُزُول حكمهم وَأمرهمْ ، فَيكون تَقْدِير التَّأْويل مَا قُلْنَا فِيهِ من الْإِخْبَار عَمَّا يَفْعَله الله تَعَالَىٰ فِي كلِّ لَيْلَة من أَفعاله الَّتِي هِيَ ترغيب لأهل الْخَيْر فِي الْخَيْر ، وَزِيَادَة فِي الدَّوَاعِي إِلىٰ الطَّاعَة والاستعطاف لأهل الْعَطف ، مَعَ أَنَّه إِذا لم يحل مَا أطلق عَلَيْهِ من هَذَا الْوَصْف من أَن يكون مِمَّا يلْزم الذَّات لأجل فعل أَو يكون مِمَّا يجب لأجل إفعال ، وَبَطل أَن يكون ذَلِك مِمَّا يلْزم الذَّات ، وَجب أَن يكون ذَلِك مِمَّا يُوصف بِهِ من أجل فعل يَفْعَله .

وَقد رُوِيَ لنا عَن الْأَوْزَاعِيّ (١٥٧هـ) رَحمَه الله أَنَّه سُئِلَ عَن هَذَا الْخَبَر ، فَقَالَ : يفعل مَا يَشَاء ، وَهَذَا إِشَارَة مِنْهُ إِلىٰ أَنَّ ذَلِك فعلٌ يظْهر مِنْهُ عزَّ ذكره .

وَرُوِيَ عَن مَالك بن أنس (١٧٩هـ) أَنَّه قَالَ فِي هَذَا الْخَبَر : ينزل أمرُه فِي كل شَيْء ، وأَمَّا هُوَ جلَّ ذكره فَهُوَ دَائِم لَا يَزُول ...

فَإِن قَالَ قَائِل : فَإِذا حملتم مَا رُوِيَ من النُّزول فِي الْخَبَر علىٰ مَا ذكرْتُمْ فعلام تحملون قَوْله : ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾ [النحل : ٢٦] ، وَقَوله سُبْحَانَهُ : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ [الفجر: ٢٢] ، وَقَوله : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، قيل : هَذَا تَأْوِيل أهل الْعلم هَذِه الْآي فِي وُجُوه كَثِيرَة ، فَمن ذَلِك أَنَّهم تأولوا قَوْله عزَّ وجلَّ : ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾[النحل : ٢٦] ، أَنَّ مَعْنَاهُ : الاستئصال فِي الْهَلَاك والدَّمار بإرسال الْعَذَاب ، كَمَا يَقُول النَّاس : أتىٰ السُّلْطَان بلد كَذَا فقلبه ظهراً لبطن ، أَي : استأصله ، وَلَيْسَ يُرِيدُونَ حُضُوره الْبَلَد بِنَفسِهِ ، وَلَا شُهُوده ، بل يُرِيدُونَ الْهَلَاك والتَّدمير . وَقَالَ بَعضهم : إِنَّمَا أَرَادَ بذلك ظُهُور فعل من جِهَته فِي الْبُنيان سَمَّاهُ إتياناً ، وَللهِ أَن يُسَمِّي أَفعاله بِمَا شَاءَ ، وَأَن يصف نَفسه من ذَلِك بِمَا أَرَادَ .

وأَمَّا قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] ، فَمنهمْ من قَالَ : إِن مَعْنَاهُ : جَاءَ رَبُّك بِالْملكِ صفاً ، وَزعم أَنَّ الْوَاو هُنَا بِمَعْنىٰ الْبَاء . وَمِنْهُم من قَالَ : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] ، أَمر رَبّك وَحكمه ، يُرِيد أَمر الْقِيَامَة وَمَا يخْتَص بِهِ ذَلِك الْوَقْت ، من أمره الْمَخْصُوص ، وَحكمه الَّذِي لَا يَقع الشّركَة فِيهِ بِالدُّعَاءِ والنِّداء .

وَقد بَيَّنَّا فِيمَا قبل أَنَّه لَا تدافع بَين أهل اللُّغَة فِي قَوْلهم : ضرب الْأَمِيرُ اللصَّ ، ونادىٰ الْأَمِيرُ فِي الْبَلَد بِكَذَا ، وإِنَّمَا يُرَاد بذلك : أَنَّ ذَلِك الْفِعْل وَقع بِأَمْرِه وَعَن حكمه ، فيُضاف الْفِعْل إِلَيْهِ بِاللَّفْظِ الَّذِي يُضَاف إِلىٰ من

فعله وتولَّاه ، وَنَظِير ذَلِك قَوْله عزَّ وجلَّ فِي قصَّة قوم لوط : ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر : ٣٧] ، وَكَانَ الطَّمس للأعين من الْمَلَائِكَة بِأَمْر الله عزَّ وجلَّ ، وَإِذا كَانَ مثله مُتَعَارَف فِي اللُّغَة ، وإنَّما ورد الْخطاب فِي الْقُرْآن علىٰ الْمُتَعَارف فِي اللُّغَة والمعهود فِيمَا بَين أَهلهَا لم يُنكر أَن يحمل علىٰ ذَلِك قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] . وأمَّا قَوْله سُبْحَانَهُ : ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، فقد قَالَ بعض أهل التَّفْسِير : إِنَّ مَعْنَاهُ : هَل ينظرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيهم الله بِالْعَذَابِ فِي ظُلل من الْغَمَام ، وَهَذَا سَائِغ فِي اللُّغَة أَن يعبَّر عَن الشَّيْء بِفِعْلِهِ إِذا وَقع عَن أمره وتدبيره ، كَقَوْلِهِم : أَتَىٰ الْأَمِيرُ بلد فلَان ، إِذا وصل إِلَيْهِ جَيْشه ، وَدخل السُّلْطَانُ بلد كَذَا إِذا نفذ فِيهِ أمْره وَحكمه " (١) .

فالإمام ابن فورك ذكر معاني عديدة للنُّزول ، وأكَّد علىٰ أَنَّه لَيْسَ كل نزُول وإنزال نقل وتحويل ... ، وأنَّ المعنىٰ الذي يتناسب مع جلال الله وتنزيهه سبحانه هو : إقباله علىٰ أهل الأَرْض بِالرَّحْمَةِ والاستعطاف بالتَّذكير والتَّنبيه الَّذِي يلقىٰ فِي قُلُوب أهل الْخَيْر مِنْهُم من أسعده بتوفيقه لطاعته حَتَّىٰ يدفعهم إلىٰ الْجد والتَّوْبَة والإنابة والإقبال علىٰ الطَّاعَة أو بمعنىٰ الْإِخْبَار عَمَّا يظْهر من أَلطافه ومعونته وتأييده لأَهل ولَايَته فِي مثل هَذَا الْوَقْت بالزَّواجر الَّتِي يقيمها فِي نُفُوسهم والمواعظ الَّتِي تنبِّههم بِقُوَّة التَّرْغِيب والتَّرهيب .

وَيحْتَمل أَن يكون ذَلِك فعلاً يظهره بِأَمْره فيضاف إِلَيْهِ ، وَإِذا كَانَ ذَلِك مُحْتملاً فِي اللُّغَة لم يُنكر أَن يكون لله عزَّ وجلَّ مَلَائِكَة يَأْمُرهُم بالنُّزول إِلىٰ السَّماء الدُّنيا بِهَذَا النداء وَالدُّعَاء ، فيضاف ذَلِك إِلىٰ الله عزَّ وجلَّ علىٰ الْوَجْه الَّذِي يُقَال : ضرب الْأَمِيرُ اللصَّ ، ونادىٰ فِي الْبِلَاد ، ويشهد لذلك أنَّ حديث النُّزول روي بِضَم الْيَاء من " ينزل " حيث ضَبطه البعض عَمَّن سَمعه عَنهُ من الثِّقَات الضابطين ...

ويؤيِّد هذا ما رواه النَّسائي ، قال : أَخْبَرَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ يَعْقُوبَ ، حدَّثنا عُمَرُ بْنُ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ ، حدَّثنا أَبِي ، حدَّثنا الْأَعْمَشُ ، حدَّثنا أَبُو إِسْحَاقَ ، حدَّثنا أَبُو مُسْلِمٍ الْأَغَرُّ ، سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ ، وَأَبَا سَعِيدٍ يَقُولَانِ : قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُمْهِلُ حَتَّىٰ يَمْضِي شَطْرُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ ، ثمَّ يَأْمُرُ مُنَادِياً يُنَادِي يَقُولُ : هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ ، هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَىٰ " (٢) .

وأخيراً ذكر الإمام ابن فورك بعضاً من تأويلات السَّلف للنُّزول ، فذكر أَنَّه سئل الأوزاعي (١٥٧هـ) عَن هَذَا الْخَبَر ، فَقَالَ : يفعل مَا يَشَاء ، وَهَذَا إِشَارَة مِنْهُ إِلىٰ أَنَّ ذَلِك فعل يظْهر مِنْهُ عزَّ ذكره ، وعَن مَالك بن أنس (١٧٩هـ) أَنَّه قَالَ فِي هَذَا الْخَبَر : ينزل أمْره فِي كل شَيْء ، وأَمَّا هُوَ جلَّ ذكره ، فَهُوَ دَائِم لَا يَزُول ولا

---

(١) انظر : مشكل الحديث وبيانه (ص٢٠٣-٢٠٩) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرىٰ (٩/ ١٨٠ برقم ١٠٢٤٣) ، عمل اليوم والليلة (ص٣٤٠ برقم ٤٨٢) .

يحول ، لأنَّ النُّزول بمعنىٰ الحركة ، يتعارض مع وجوب تنزيه الله تعالىٰ عن مشابهة الحوادث ، إذ الحركة والانتقال من لوازم المحدثات ...

وقال الإمام العَلاَّمَةُ ، شَيْخُ المَالِكِيَّة ، أَبُو محمَّد عَبْدُ الوَهَّابِ بنُ عَلِيّ بن نَصْرِ بن أَحْمَدَ بنِ حُسَيْن بن هَارُوْنَ ابْنِ أَمِيْرِ العَرَبِ مَالِكِ بن طوق التَّغْلِبيُّ ، العِرَاقِيُّ ، الفَقِيْهُ، المَالِكِيُّ ، مِنْ أَولاَدِ صَاحِبِ الرَّحْبَة (٤٢٢هـ) : " ولا يجوز أنْ يثبت له كيفيَّة ، لأنَّ الشَّرعَ لم يَرِد بذلك ، ولا أخبر النبيُّ عليه السَّلام فيه بشيء ، ولا سألته الصَّحابة عنه ، ولأنَّ ذلك يرجع إلىٰ التَّنقُّل والتَّحوُّل وإشغال الحَيِّز والافتقار إلىٰ الأماكِن ، وذلك يَؤُول إلىٰ التَّجسِيم وإلىٰ قِدَم الأجسام ، وهذا كُفرٌ عِند كافَّة أهل الإسلام " (١) .

فتفسير النُّزول بمعنىٰ الحركة والنُّقلة والتَّحوُّل وإشغال الحَيِّز ، تصريح بالجسميَّة والافتقار إلىٰ الأماكِن ، وذلك يَؤُول إلىٰ التَّجسِيم وإلىٰ قِدَم الأجسام ، وهذا كُفرٌ عِند كافَّة أهل الإسلام ، كما ذكر شَيْخُ المَالِكِيَّة ، أَبُو محمَّد عَبْدُ الوَهَّابِ بنُ عَلِيّ بن نَصْرِ بن أَحْمَدَ بنِ حُسَيْن بن هَارُوْنَ ابْنِ أَمِيْرِ العَرَبِ مَالِكِ بن طوق التَّغْلِبيُّ الذي قال عنه الخطيب في تاريخه : " وكان ثقة ، ولم يلق من المالكيِّين أحداً أفقه منه ، وكان حسن النَّظر جيِّد العبارة ، وذكره ابن بسَّام في كتاب " الذَّخيرة " ، فقال : كان بقية النَّاس ، ولسان أصحاب القياس (٢)...

وقال الإمام العَلاَّمَةُ ، البَارِعُ ، المُتَفَنِّنُ ، الأُسْتَاذُ ، أَبُو مَنْصُوْرٍ البَغْدَادِيُّ ، نَزِيْلُ خُرَاسَان ، وَصَاحِبُ التَّصَانِيْفِ البَدِيْعَةِ ، وَأَحَدُ أَعلاَمِ الشَّافِعِيَّةِ ، الذي كَانَ يُدَرِّس فِي سَبْعَةَ عَشَرَ فَنّاً ، وَيُضْرَبُ بِهِ المَثَلُ ، وَكَانَ رَئِيْساً مُحْتَشِماً مُثرياً ، والذي قَالَ عنه أَبُو عثْمَان الصَّابُوْنِيّ (٤٤٩هـ) : كَانَ الأُسْتَاذُ أَبُو مَنْصُوْرٍ مِنْ أَئِمَّةِ الأُصُوْلِ (٤٢٩هـ) : " وأجمعوا ... عَلىٰ نفي الْحَرَكَة والسُّكون عَنهُ " (٣) .

فالأمَّة – علىٰ ما نقل الإمام عبد القاهر البغدادي – أجمعت عَلىٰ نفي الْحَرَكَة والسُّكون عَنهُ سبحانه وتعالىٰ ، فمن فسَّر النُّزول بمعنىٰ الحركة والنُّقلة فقد خالف الإجماع ، ومن خالف الإجماع ، باء بالخسار والضَّياع ... قال تعالىٰ : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء : ١١٥] .

---

(١) انظر : شرح عقيدة مالك الصغير ، عبد الوهاب البغدادي المالكي (ص٢٨) .

(٢) انظر : تاريخ بغداد وذيوله ، الخطيب البغدادي (١١/ ٣٢) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (٣/ ٢١٩) .

(٣) انظر : الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية (ص٣٢١) .

وقال الإِمَامُ ، الحَافِظُ ، المُجَوِّدُ ، المُقرِئُ ، الحَاذِقُ ، عَالِمُ الأَنْدَلُسِ ، أَبُو عَمْرٍو عُثْمَانُ بنُ سَعِيْدِ بنِ عُثْمَانَ بنِ سَعِيْدِ بنِ عُمَرَ الأُمَوِيُّ مَوْلاَهُمُ ، الأَنْدَلُسِيُّ ، القُرْطُبِيُّ ، ثمَّ الدَّانِي ، وَيُعْرَف قَدِيْماً : بِابْنِ الصَّيْرَفِيِّ (٤٤٤هـ) : " ومن قولهم : إنَّ الله جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه : ينزل في كلِّ ليلة إلىٰ السَّماء الدُّنيا في الثُّلث الباقي من الليل ، فيقول : " هل من داع يدعوني فأستجيب له ؟ وهل من سائل يسألني فأعطيه ؟ وهل من مستغفر يستغفرني فأغفر له " ؟ حتىٰ ينفجر الصُّبح ، علىٰ ما صحَّت به الأخبار ، وتواترت به الآثار عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ونزوله تبارك وتعالىٰ كيف شاء، بلا حدٍّ ، ولا تكييف ، ولا وصف بانتقال ، ولا زوال .

وقال بعض أصحابنا : ينزل أمره تبارك وتعالىٰ ، واحتجَّ بقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [الطلاق : ١٢] . وكذا روىٰ حبيب عن مالك بن أنس (١٧٩هـ) رحمه الله . وسئل الأوزاعي (١٥٧هـ) عن التَّنزُّل ، فقال : يفعل الله ما يشاء ، أي : يظهر من أفعاله ما يشاء !! حدَّثنا عبد الرَّحمن بن عثمان ، قال : نا قاسم بن أصبغ ، قال : نا أحمد بن زهير ، قال : نا عبد الوهَّاب بن نجدة ، قال : نا بقية بن الوليد ، قال : نا الأوزاعي (١٥٧هـ) ، قال : كان مكحول (١١٢هـ) والزُّهري (١٢٤هـ) يقولان : أمرّ الأحاديث كما جاءت .

قال أبو عمرو : وهذا دين الأمَّة ، وقول أهل السُّنَّة في هذه الصِّفات أن تمرَّ كما جاءت بغير تكييف ، ولا تحديد ، فمن تجاوز المرويَّ فيها ، وكيَّف شيئاً منها ، ومثلها بشيء من جوارحنا وآلتنا ، فقد ضلَّ واعتدىٰ ، وابتدع في الدِّين ما ليس منه ، وخرق إجماع المسلمين ، وفارق أئمَّة الدِّين " (١) .

قلت : وهذا الذي نقله الإمام أَبُو عَمْرٍو الدَّانِي عن الإمام الأوزاعي (١٥٧هـ) ، وكذا عن مكحول (١١٢هـ) ، والزُّهري (١٢٤هـ) ، والذي وصفه بأنَّه دين الأمَّة ، وقول أهل السُّنَّة والجماعة في هذه الصِّفات ، هو ما كان عليه السَّلف الصَّالح من عقيدة التَّفويض ، قال الإمام عياض بن موسىٰ بن عياض بن عمرون اليحصبي السَّبتي ، أبو الفضل (٥٤٤هـ) : " وَقَوله : " ينزل رَبُّنَا تبَارك وَتَعَالَىٰ كلّ لَيْلَة " ، روىٰ ابْن حبيب عَن مَالك (١٧٩هـ) : ينزل أمره وَنَهْيه ، وأَمَّا هُوَ تَعَالَىٰ فدائم لَا يَزُول ، وَقَالَهُ غَيره ، وَاعْترض بَعضهم علىٰ هَذَا بِأَنَّ أمره ينزل فِي كلِّ حِين ، فَلَا يخْتَصُّ بِوَقْت دون وَقت ، وَهَذَا لَا يلْزم ، لِأَنَّ الَّذِي يخْتَصُّ نزُول أمره بِهِ هَذَا الْوَقْت هُوَ مَا اقْترن بِهَذَا القَوْل : " هَل من سَائل ، هَل من دَاع " الحَدِيث ، وَأمره ينزل أبداً من غير

---

(١) انظر : الرسالة الوافية لمذهب أهل السُّنَّة في الاعتقادات وأصول الديانات (ص١٣٤-١٣٨) .

هَذِه الْقَرِينَة ... (١) . وقد استوفيت المسألة من جميع جوانبها – بحمد الله – في رسالتي للماجستير ، وكانت بعنوان : " التَّفويض في صفات الله تعالىٰ بين السَّلف والخلف " ...

وقال الإِمَامُ الأَوْحَدُ ، البَحْرُ ، ذُو الفُنُوْنِ وَالمعَارِفِ ، أَبُو محمَّد عَلِيُّ بنُ أَحْمَدَ بنِ سَعِيْدِ بنِ حَزْمِ بنِ غَالِبِ بنِ صَالِحِ بنِ خَلَفِ بنِ مَعْدَانَ بنِ سُفْيَانَ بنِ يَزِيْدَ الفَارِسِيُّ الأَصْلِ ، ثمَّ الأَنْدَلُسِيُّ القُرْطُبِيُّ اليَزِيْدِيُّ مَوْلَىٰ الأَمِيْرِ يَزِيْدَ بنِ أَبِي سُفْيَانَ بنِ حَرْبٍ الأُمَوِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – المَعْرُوف بيَزِيْد الخَيْر ، نَائِب أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ أَبِي حَفْصٍ عُمَر عَلَىٰ دِمَشْقَ ، الفَقِيْهُ الحَافِظُ ، المُتَكَلِّمُ ، الأَدِيْبُ ، الوَزِيْرُ ، الظَّاهِرِيُّ ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ (٤٥٦هـ) : " ... وَهَذَا إِنَّما هُوَ فعل يَفْعَله الله تَعَالَىٰ فِي سَماء الدُّنيا من الْفَتْح لقبُول الدُّعَاء ، وَإِنَّ تِلْكَ السَّاعَة من مظانِّ الْقبُول والإجابة وَالْمَغْفِرَة للمجتهدين والمستغفرين والتَّائبين . وَهَذَا مَعْهُود فِي اللُّغَة ، تَقول : نزل فلَان عَن حَقِّه ، بِمَعْنىٰ : وهبه لي وتطوَّل بِهِ عَليّ . وَمن الْبُرْهَان علىٰ أَنَّه صفة فعل لَا صفة ذَات : أَنَّ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علَّق التَّنزُّل الْمَذْكُور بِوَقْت محدَّد ، فصحَّ أَنَّه فعلٌ مُحدث فِي ذَلِك مفعول حينئذٍ .

وَقد علمنَا أَنَّ مَا لم يزل فَلَيْسَ مُتَعَلقاً بِزَمَان الْبَتَّة ، وَقد بَيَّن رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بعض أَلْفَاظ الحَدِيث الْمَذْكُور مَا ذَلِك الْفِعْل ، وَهُوَ أَنَّه ذكر عَلَيْهِ السَّلَام أَنَّ الله يَأْمر مَلَكاً يُنَادي فِي ذَلِك الْوَقْت بذلك ، وَأَيْضاً فَإِنَّ ثلث اللَّيْل مُخْتَلف فِي الْبِلَاد باخْتلَاف الْمطَالع والمغارب ، يعلم ذَلِك ضَرُورَة من بحث عَنهُ ، فصحَّ ضَرُورَة أَنَّه فعل يَفْعَله رَبُّنا تَعَالَىٰ فِي ذَلِك الْوَقْت لأهل كلِّ أُفق .

وأمَّا من جعل ذَلِك نُقلة ، فقد قدَّمنَا بطلَان قَوْله فِي إِبطَال القَوْل بالجسم بعون الله وتأييده . وَلَو انْتقل تَعَالَىٰ لَكَانَ محدوداً مخلوقاً مؤلّفاً شاغلاً لمكَان ، وَهَذِه صفة المخلوقين ، تَعَالَىٰ الله عَن ذَلِك علوّاً كَبِيراً .

وَقد حمد الله إِبْرَاهِيم خَلِيله وَرَسُوله وَعَبده صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ بَيَّن لِقَوْمِهِ بنقلة الْقَمَر أَنَّه لَيْسَ رَبًّا ، فَقَالَ : ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴾[الأنعام : ٧٦] ، وكلُّ منتقل عَن مَكَان فَهُوَ آفل عَنهُ ، تَعَالَىٰ الله عَن هَذَا .

وَكَذَلِكَ القَوْل فِي قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] ، وَقَوله تَعَالَىٰ : ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، فَهَذَا كُله علىٰ مَا بَينا من أَنَّ الْمَجِيء والإتيان يَوْم الْقِيَامَة فعل يَفْعَله الله تَعَالَىٰ فِي ذَلِك الْيَوْم يُسمىٰ ذَلِك الْفِعْل مجيئاً وإتياناً .

وَقد رُوِّينَا عَن أَحْمد بن حَنْبَل (٢٤١هـ) رَحمَه الله ، أَنَّه قَالَ :﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] ، إِنَّما مَعْنَاهُ : وَجَاء أَمر رَبك " (١) .

---

(١) انظر : مشارق الأنوار علىٰ صحاح الآثار (٢/ ٩) .

وكلام الإمام ابن حزم واضحٌ في الرَّدِّ علىٰ من فسَّر النُّزول بالحركة والنُّقلة ، وأنَّها من صفات الحوادث المتعلِّقة بالزَّمان والمكان اللذين هما خلق من خلق الله تعالىٰ ، وردَّ علىٰ القائلين بالنُّقلة والجسم ، وَأنَّه تعالىٰ لَو انْتقل لَكَانَ محدوداً مخلوقاً مؤلَّفاً شاغلاً لمَكَان ، وَهَذِه صفة المخلوقين ، وذهب إلىٰ تفسير النُّزول بأنَّه فعلٌ يَفْعَله الله تَعَالَىٰ فِي سَمَاء الدُّنيا من الْفَتْح لقبُول الدُّعَاء ، وَإِنَّ تِلْكَ السَّاعَة من مظانِّ الْقبُول والإجابة وَالْمَغْفِرَة للمجتهدين والمستغفرين والتَّائبين... وختم كلامه بالنَّقل عن أحمد أنَّه أوَّل المجيء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ [الفجر : ٢٢] ، فقال : وَجَاء أَمر رَبِّك ...

وقال الإمام أبو محمَّد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظَّاهري (٤٥٦هـ) : " مسألة الله يتنزَّل كلّ ليلة إلىٰ سماء الدُّنيا :

مسألة : وأنَّ الله تعالىٰ يتنزَّل كلّ ليلة إلىٰ سماء الدُّنيا ، وهو فعل يفعله عزَّ وجلَّ ليس حركة ولا نُقلة . برهان ذلك ما حدَّثناه عبد الله بن يوسف ، ثنا أحمد بن فتح ، ثنا عبد الوهَّاب بن عيسىٰ ، ثنا أحمد بن محمَّد ، ثنا أحمد بن علي ، ثنا مسلم بن الحجَّاج ، ثنا يحيىٰ بن يحيىٰ : قرأت علىٰ مالك بن أنس ، عن ابن شهاب ، عن أبي عبد الله الأغرّ ، وعن أبي سلمة بن عبد الرَّحمن ، عن أبي هريرة أنَّ رسول الله – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال : " يتنزَّل الله كلّ ليلة إلىٰ سماء الدُّنيا حين يبقىٰ ثلث الليل الآخر ، فيقول : من يدعوني فأستجيب له ، ومن يسألني فأعطيه ، ومن يستغفرني فأغفر له " .

قال مسلم : وحدَّثناه قتيبة بن سعيد ، ثنا يعقوب – هو ابن عبد الرَّحمن القاري – ، عن سهيل بن أبي صالح ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال " : ينزل الله إلىٰ سماء الدُّنيا كلّ ليلة حين يمضي ثلث الليل الأوَّل ، فيقول : أنا الملك ، أنا الملك ، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له ؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه ؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له ؟ فلا يزال كذلك حتىٰ يضيء الفجر " . قال مسلم : وحدَّثناه إسحاق بن منصور ، ثنا أبو المغيرة ، ثنا الأوزاعي ، ثنا يحيىٰ هو ابن أبي كثير – ، ثنا أبو سلمة بن عبد الرَّحمن ، ثنا أبو هريرة ، قال : قال رسول الله – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " إذا مضىٰ شطر الليل أو ثلثاه ، ينزل الله تبارك وتعالىٰ إلىٰ السَّماء الدُّنيا ، فيقول : هل من سائل يعطىٰ ؟ هل من داع يُستجاب له ؟ هل من مستغفر يغفر له ؟ حتىٰ ينفجر الصُّبح " . قال علي : فالرِّواية عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة من طريق الزُّهري : " إذا بقي ثلث الليل الآخر " ، ومن طريق يحيىٰ بن أبي كثير : " إذا مضىٰ شطر

---

(١) انظر : الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/ ١٣٢) ، وانظر أيضاً : الدرة فيما يجب اعتقاده ، أبو محمَّد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (ص٣٣٨-٣٣٩) .

الليل أو ثلثاه " ، ومن طريق أبي صالح ، عن أبي هريرة : " إذا مضىٰ ثلث الليل الأول إلىٰ أن يضيء الفجر " ، وهكذا رواه ابنا أبي شيبة ، وابن راهويه ، عن جرير ، عن منصور ، عن أبي إسحاق السّبيعي ، عن الأغرّ ، عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري ، وأوقات الليل مختلفة باختلاف تقدُّم غروب الشَّمس عن أهل المشرق وأهل المغرب ، فصحَّ أنَّه فعل يفعله الباري عزَّ وجلَّ من قبول الدُّعاء في هذه الأوقات ، لا حركة ، والحركة والنُّقلة من صفات المخلوقين ، حاشا الله تعالىٰ منها " (١) .

فابن حزم هنا يؤكِّد علىٰ أنَّ نزول الله تعالىٰ فعل يفعله الله تعالىٰ في ذلك الوقت من إجابة الدَّاعين ، وإغاثة المستغيثين ، وغفران ذنوب المستغفرين ، وقبول توبة التَّائبين ، لأنَّ الارتماء في أعتاب المولىٰ جلَّ جلاله في وقت السَّحر لا يوفِّق الله له إلَّا من أخلص قلبه وقالبه لله تعالىٰ ، أولئك الذين هجروا دفء الفراش وليونته ، ونفضوا الكرىٰ عن عيونهم ، والكسل عن أبدانهم ، وأقبلوا علىٰ الله تعالىٰ وَجِلِين مُشفقين من ذنوبهم وتقصيرهم ، راغبين بفيض عطاء ربِّهم ، فالليل مَعبَد العابدين ، وخلوة الصَّادقين ، ووقت مناجاة الله ربِّ العالمين ، وسؤال المحتاجين ، واستغفار المستغفرين التَّائبين ، وشرف النُّسَّاك المتعبِّدين ، وهو محطُّ نزول البركات ، والرَّحمات ، وإجابة السُّؤالات وغفران الخطيئات ، وهو بحقٍّ مدرسة طلَّاب الآخرة الذين وصفهم الله تعالىٰ بقوله سبحانه : ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة : ١٦] ، وهم الذين امتدحهم الله تعالىٰ بقوله : ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الذاريات : ١٧ - ١٨] ، أولئك الصِّيد الذين أقضَّ الخوفُ مضاجعهم ، وكأنَّ زفير جهنَّم في آذانهم ، فهم يخافونه ويرجونه سبحانه ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَٓخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر : ٩] ، فهم بين الخوف والرَّجاء ، في الصَّباح والمساء ، لا يملُّون ولا يفترون ، وقد آمنوا وأيقنوا أنَّ يد الله سبحانه وتعالىٰ أبداً مبسوطة بالعطاء والقبول ، وعلموا كذلك أنَّ عمل الليل ليس كعمل النَّهار ، كيف لا والله تعالىٰ قد امتدح المستغفرين بالأسحار فقال : ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران : ١٧] ، وذلك لأنَّ الاستغفار في وقت السَّحر فيه من المكابدة والمجاهدة ما لا يوجد في النَّهار ... ويؤكِّد الإمام ابن حزم في النِّهاية علىٰ أنَّ نزول الله تعالىٰ ليس بحركة ولا نُقلة ، لانَّهما لازمان ولا ينفكَّان عن الجسميَّة ، والله يتعالىٰ عن ذلك كلِّه ، سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] .

---

(١) انظر : المحلىٰ بالآثار (١/ ٥١-٥٢) .

وقال الإمام ، العَلاَّمَةُ ، الثَّبْتُ ، شَيْخُ الإِسْلاَمِ ، أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بنُ الْحُسَيْنِ بنِ عَلِيِّ بنِ مُوسَىٰ الخُسْرَوْجِرديُّ ، البيهقي ، الخُرَاسَانِيُّ ، الفَقِيْهُ ، الحَافِظُ الأُصُوْلِي ، الدِّين الوَرِع ، وَاحِدُ زَمَانِهِ فِي الحِفْظِ ، وَفَرِدُ أَقرانه فِي الإِتْقَان وَالضَّبط (٤٥٨هـ) أيضاً : " أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ الْحَارِثِ الْفَقِيهُ ، أنا أَبُو محمَّد بْنُ حَيَّانَ أَبُو الشَّيخ الْأَصْبَهَانِيُّ ، قَالَ : وَفِيمَا أَجَازَنِي جَدِّي يَعْنِي مَحْمُودَ بْنَ الْفَرَحِ ، قَالَ : قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ (٢٣٨هـ) : سَأَلَنِي ابْنُ طَاهِرٍ عَنْ حَدِيثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَعْنِي فِي النُّزول ـ فَقُلْتُ لَهُ : النُّزول بِلَا كَيْفٍ .

قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ (٣٨٨هـ) : هَذَا الْحَدِيثُ وَمَا أَشْبَهَهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي الصِّفات كَانَ مَذْهَبُ السَّلف فِيهَا الْإِيمَانَ بِهَا ، وَإِجْرَاءَهَا عَلَىٰ ظَاهِرِهَا وَنَفْيَ الْكَيْفِيَّةِ عَنْهَا . وَذَكَرَ الْحِكَايَةَ الَّتِي أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ الْحَارِثِ الْفَقِيهُ ، أنا أَبُو محمَّد بْنُ حَيَّانَ ، ثنا الْحَسَنُ بْنُ محمَّد الدَّارَكِيُّ ، ثنا أَبُو زُرْعَةَ ، ثنا ابْنُ مُصَفَّىٰ ، ثنا بَقِيَّةُ ، ثنا الْأَوْزَاعِيُّ (١٥٧هـ) ، عَنِ الزُّهري (١٢٤هـ) ، وَمَكْحُولٍ (١١٢هـ) ، قَالَا : امْضُوا الْأَحَادِيثَ عَلَىٰ مَا جَاءَتْ .

وَأَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهَّ الْحَافِظُ ، ثنا أَبُو بَكْرٍ محمَّد بْنُ أَحْمَدَ بْنِ بَالَوَيْهِ ، ثنا محمَّد بْنُ بِشْرِ بْنِ مَطَرٍ ، ثنا الْهَيْثَمُ بْنُ خَارِجَةَ ، ثنا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ ، قَالَ : سُئِلَ الْأَوْزَاعِيُّ (١٥٧هـ) ، وَمَالِكٌ (١٧٩هـ) ، وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ (١٦١هـ) ، وَاللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ (١٧٥هـ) عَنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي جَاءَتْ فِي التَّشْبِيهِ ، فَقَالُوا : أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ بِلَا كَيْفِيَّةٍ .

قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ (٣٨٨هـ) : وَقَدْ رُوِّينَا عَنْ عَبْدِ اللهَّ بْنِ الْمُبَارَكِ (١٨١هـ) أَنَّ رَجُلاً قَالَ لَهُ : كَيْفَ يَنْزِلُ ؟ فَقَالَ لَهُ بِالْفَارِسِيَّةِ : (كدخداىٔ كارخويش كن) يَنْزِلُ كَمَا يَشَاءُ .

أَخْبَرَنَا أَبُو عُثْمَانَ ، ثنا أَبُو يَعْقُوبَ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْعَدْلُ ، ثنا مَحْبُوبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحمن الْقَاضِي ، ثنا جَدِّي أَبُو بَكْرٍ محمَّد بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مَحْبُوبٍ ، ثنا أَحْمَدُ بْنُ حَيَوَيْهِ ، حدَّثنا أَبُو عَبْدِ الرَّحمن الْعَتَكِيُّ ، ثنا محمَّد بْنُ سَلَّامٍ ، قَالَ : سَأَلْتُ عَبْدَ اللهَّ بْنَ الْمُبَارَكِ (١٨١هـ) ، فَذَكَرَ حِكَايَةً قَالَ فِيهَا : فَقَالَ الرَّجُلُ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحمن ، كَيْفَ يَنْزِلُ ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللهَّ بْنِ الْمُبَارَكِ : " كدخاي كارخويش كن " يَنْزِلُ كَيْفَ يَشَاءُ .

قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ رَحِمَهُ الله : وإِنَّمَا يُنْكِرُ هَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ مِنَ الْحَدِيثِ مَنْ يَقِيسُ الْأُمُورَ فِي ذَلِكَ بِمَا يُشَاهِدُهُ مِنَ النُّزول الَّذِي هُوَ نَزْلَةٌ مِنْ أَعْلَىٰ إِلَىٰ أَسْفَلَ ، وَانْتِقَالٌ مِنْ فَوْقٍ إِلَىٰ تَحْتٍ ، وَهَذَا صِفَةُ الْأَجْسَامِ وَالْأَشْبَاحِ ، فَأَمَّا نُزُولُ مَنْ لَا يَسْتَوْلِي عَلَيْهِ صِفَاتُ الْأَجْسَامِ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْمَعَانِي غَيْرُ مُتَوَهَّمَةٍ فِيهِ ، وإِنَّمَا هُوَ خَبَرٌ عَنْ قُدْرَتِهِ وَرَأْفَتِهِ بِعِبَادِهِ ، وَعَطْفِهِ عَلَيْهِمْ وَاسْتِجَابَتِهِ دُعَائِهِمْ وَمَغْفِرَتِهِ لَهُمْ ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ، لَا يَتَوَجَّهُ عَلَىٰ صِفَاتِهِ كَيْفِيَّةٌ ، وَلَا عَلَىٰ أَفْعَالِهِ كِمِّيَّةٌ ، سُبْحَـانَهُ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[الشورى: ١١] .

وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ (٣٨٨هـ) رَحِمَهُ الله فِي مَعَالِمِ السُّنَنِ : وَهَذَا مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي أُمِرْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِظَاهِرِهِ ، وَأَنْ لَا نَكْشِفَ عَنْ بَاطِنِهِ ، وَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي ذَكَرَهُ الله تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ ، فَقَالَ : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ

مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾ [آل عمران : ٧] الْآيَة ، فَالْمُحْكَمُ مِنْهُ يَقَعُ بِهِ الْعِلْمُ الْحَقِيقِيُّ وَالْعَمَلُ ، وَالْمُتَشَابِهُ يَقَعُ بِهِ الْإِيمَانُ وَالْعِلْمُ الظَّاهِرُ ، وَيُوكَلُ بَاطِنُهُ إِلَى اللهَّ عزَّ وجلَّ ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ ﴾ [آل عمران : ٧] ، وإِنَّما حَظُّ الرَّاسِخِينَ أَنْ يَقُولُوا : آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا .

وَكَذَلِكَ مَا جَاءَ مِنْ هَذَا الْبَابِ فِي الْقُرْآنِ ، كَقَوْلِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[الفجر : ٢٢] ، وَالْقَوْلُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ عِنْدَ عُلَماءِ السَّلف هُوَ مَا قُلْنَاهُ ، وَرُوِيَ مِثْلُ ذَلِكَ عَنْ جَماعَةٍ مِنَ الصَّحابَةِ رَضِيَ الله عَنْهُمْ .

وَقَدْ زَلَّ بَعْضُ شُيُوخِ أَهْلِ الْحَدِيثِ مِمَّنْ يُرْجَعُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ بِالْحَدِيثِ وَالرِّجَالِ ، فَحَادَ عَنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ حِينَ رَوَى حَدِيثَ النُّزول ، ثمَّ أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ ، فَقَالَ : إِنْ قَالَ قَائِلٌ : كَيْفَ يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّماء ؟ قِيلَ لَهُ : يَنْزِلُ كَيْفَ يَشَاءُ . فَإِنْ قَالَ : هَلْ يَتَحَرَّكُ إِذَا نَزَلَ ؟ فَقَالَ : إِنْ شَاءَ يَتَحَرَّكُ وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَتَحَرَّكْ . وَهَذَا خَطَأٌ فَاحِشٌ عَظِيمٌ ، وَاللهَّ تَعَالَى لَا يُوصَفُ بِالْحَرَكَةِ ، لِأَنَّ الْحَرَكَةَ وَالسُّكُونَ يَتَعَاقَبَانِ فِي مَحَلٍّ وَاحِدٍ ، وإِنَّما يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ بِالْحَرَكَةِ مَنْ يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ بِالسُّكُونِ ، وَكِلَاهُمَا مِنْ أَعْرَاضِ الْحَدَثِ ، وَأَوْصَافِ الْمَخْلُوقِينَ ، وَاللهَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُتَعَالٍ عَنْهُما ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . فَلَوْ جَرَى هَذَا الشَّيخ عَلَى طَرِيقَةِ السَّلف الصَّالح وَلَمْ يُدْخِلْ نَفْسَهُ فِيما لَا يَعْنِيهِ لَمْ يَكُنْ يَخْرُجُ بِهِ الْقَوْلُ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْخَطَأِ الْفَاحِشِ . قَالَ : وإِنَّما ذَكَرْتُ هَذَا لِكَيْ يُتَوَقَّى الْكَلَامُ فِيما كَانَ مِنْ هَذَا النَّوْعِ ، فَإِنَّهُ لَا يُثْمِرُ خَيْراً وَلَا يُفِيدُ رُشْداً ، وَنَسْأَلُ اللهَّ الْعِصْمَةَ مِنَ الضَّلَالِ ، وَالْقَوْلِ بِما لَا يَجُوزُ مِنَ الْفَاسِدِ وَالْمُحَالِ .

وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ (٢٧٦هـ) : قَدْ يَكُونُ النُّزول بِمَعْنَى إِقْبَالٍ عَلَى الشَّيء بِالْإِرَادَةِ وَالنِّيَّةِ ، وَكَذَلِكَ الْهُبُوطُ وَالِارْتِفَاعُ وَالْبُلوغُ وَالْمَصِيرُ ، وَأَشْبَاهُ هَذَا الْكَلَامِ ، وَذَكَرَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ . قَالَ : وَلَا يُرَادُ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا انْتِقَالٌ يَعْنِي بالذَّات ، وإِنَّما يُرَادُ بِهِ الْقَصْدُ إِلَى الشَّيء بِالْإِرَادَةِ وَالْعَزْمِ وَالنِّيَّةِ .

قُلْتُ : وَفِيما قَالَهُ أَبُو سُلَيْمانَ رَحِمَهُ الله كِفَايَةٌ ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى مَعْنَاهُ الْقُتَيْبِيُّ فِي كَلَامِهِ ، فَقَالَ : لَا نُحَتِّمُ عَلَى النُّزول مِنْهُ بِشَيْءٍ ، وَلَكِنَّا نُبَيِّنُ كَيْفَ هُوَ فِي اللُّغَةِ ، وَاللهَّ أَعْلَمُ بِما أَرَادَ .

وَقَرَأْتُ بِخَطِّ الْأُسْتَاذِ أَبِي عُثْمانَ رَحِمَهُ الله فِي كِتَابِ الدَّعَوَاتِ عَقِيبَ حَدِيثِ النُّزول : قَالَ الْأُسْتَاذُ أَبُو مَنْصُورٍ يَعْنِي الْحَمْشَاذِيَّ (٣٨٨هـ) عَلَى إِثْرِ الْخَبَرِ : وَقَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَماءُ فِي قَوْلِهِ : " يَنْزِلُ الله " فَسُئِلَ أَبُو حَنِيفَةَ (١٥٠هـ) عَنْهُ ، فَقَالَ : يَنْزِلُ بِلَا كَيْفٍ .

وَقَالَ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ (١٧٩هـ) : نُزُولُهُ إِقْبَالُهُ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : يَنْزِلُ نُزُولاً يَلِيقُ بِالرُّبُوبِيَّةِ بِلَا كَيْفٍ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ نُزُولُهُ مِثْلَ نُزُولِ الْخَلْقِ بِالتَّجَلِّي وَالتَّمَلِّي ، لأنَّه جَلَّ جَلالُهُ مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ تَكُونَ صِفَاتُهُ مِثْلَ صِفَاتِ

الْخَلْقِ ، كَمَا كَانَ مُنَزَّهاً عَنْ أَنْ تَكُونَ ذَاتُهُ مِثْلَ ذَاتِ الْغِيَرِ ، فَمَجِيئُهُ وَإِتْيَانُهُ وَنُزُولُهُ عَلَى حَسْبِ مَا يَلِيقُ بِصِفَاتِهِ مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ وَكَيْفِيَّةٍ . ثمَّ رَوَىٰ الْإِمَامُ رَحِمَهُ الله عُقَيْبَ حِكَايَةِ ابْنِ الْمُبَارَكِ (١٨١هـ) حِينَ سُئِلَ عَنْ كَيْفِيَّةِ نُزُولِهِ ، فَقَالَ عَبْدُ اللهَّ : " كد خداي كارخويش كن " يَنْزِلُ كَيْفَ يَشَاءُ . وَقَدْ سَبَقَتْ مِنْهُ هَذِهِ الْحِكَايَةُ بِإِسْنَادِهِ وَكَتَبْتُهَا حَيْثُ ذَكَرَهَا أَبُو سُلَيْمَانَ رَحِمَهُ الله " (١) .

وقال الإمام البيهقي – أيضاً – في كلامه علىٰ حديث النُّزول : " ... وهذا حديث صحيح رواه جماعة من الصَّحابة عن النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحاب الحديث فيما ورد به الكتاب والسُّنَّة من أمثال هذا ، ولم يتكلَّم أحد من الصَّحابة والتَّابعين في تأويله علىٰ قسمين : منهم من قبِلَه وآمن به ولم يؤوله ، وَوَكَل علمه إلىٰ الله ، ونفىٰ الكيفيَّة والتَّشبيه عنه ، ومنهم من قبله وآمن به وحمله علىٰ وجه يصحُّ استعماله في اللغة ولا يناقض التَّوحيد .

وقد ذكرنا هاتين الطَّريقتين في كتاب " الأسماء والصِّفـــات " في المسائل التي تكلَّموا فيها من هذا الباب .

وفي الجملة : يجب أن يُعلم ... أنَّ إتيانه ليس بإتيان من مكان إلىٰ مكان ، وأنَّ مجيئه ليس بحركة ، وأنَّ نزوله ليس بنُقلة ، وأنَّ نفسه ليس بجسم ، وأنَّ وجهه ليس بصورة ، وأنَّ يده ليست بجارحة ، وأنَّ عينه ليست بحدقة ، وإنَّما هذه أوصاف جاء بها التَّوقيف فقلنا بها ونفينا عنها التَّكييف ، فقد قال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] ، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص : ٤] ، وقـــال : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] .

أخبرنا محمَّد بن عبد الله الحافظ ، أنا أبو بكر محمَّد بن أحمد بن بالويه ، ثنا محمَّد بن بشر بن مطر ، ثنا الهيثم بن خارجة حدَّثنا الوليد بن مسلم ، قال : سئل الأوزاعي (١٥٧هـ) ، ومالك (١٧٩هـ) ، وسفيان الثَّوري (١٦١هـ) ، والليث بن سعد (١٧٥هـ) عن هذه الأحاديث ، فقالوا : أمرُّوها كما جاءت بلا كيفيَّة .

أخبرنا محمَّد بن عبد الله الحافظ ، أخبرني محمَّد بن يزيد ، سمعت أبا يحيىٰ البزَّار ، يقول : سمعت العبَّاس بن حمزة ، يقول : سمعت أحمد بن أبي الحوَّاري ، يقول : سمعت سفيان بن عيينة (١٩٨هـ) ، يقول : كل ما وصف الله من نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسُّكوت عليه . قال الشَّيخ : وإنَّما أراد به – والله أعلم – فيما تفسيره يؤدِّي إلىٰ تكييف ، وتكييفه يقتضي تشبيهه له بخلقه في أوصاف الحدوث .

أخبرنا أبو علي الحسين بن محمَّد الروذباري ، أنا محمَّد بن بكر ، ثنا أبو داود ، ثنا القعنبي ، ثنا يزيد بن إبراهيم عن عبد الله بن أبي مليكة ، عن القاسم بن محمَّد ، عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : قرأ رسول الله

(١) انظر : الأسماء والصِّفات (٢/ ٣٧٦-٣٧٨) .

صلى الله عليه و سلم هذه الآية : ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران : ٧] ، قالت رضي الله عنها : قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " فإذا رأيتم الذين يتَّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمَّى الله فاحذروهم " .

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، حدثني أبو بكر محمَّد بن علي الفقيه القفال ، ثنا عمر بن محمَّد بن بحير ، ثنا يونس بن عبد الأعلى ، قال : قال لي محمَّد بن إدريس الشَّافعي (٢٠٤هـ) رحمه الله : لا يقال للأصيل لِمَ ولا كيف " (١) .

وقال الإمام البيهقي (٤٥٨هـ) أيضاً : " أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ الله الْحَافِظُ ، قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا محمَّد أَحْمَدَ بْنَ عَبْدِ الله الْمُزَنِيَّ (٣٥٦هـ) يَقُولُ : " حَدِيثُ النُّزول قَدْ ثَبَتَ عَنْ رَسُولِ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ وُجُوهٍ صَحِيحَةٍ . وَوَرَدَ فِي التَّنْزِيلِ مَا يُصَدِّقُهُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] ، والنُّزول وَالْمَجِيءُ صِفَتَانِ مَنْفِيَّتَانِ عَنِ الله تَعَالَىٰ مِنْ طَرِيقِ الْحَرَكَةِ وَالِانْتِقَالِ مِنْ حَالٍ إِلىٰ حَالٍ ، بَلْ هُمَا صِفَتَانِ مِنْ صِفَاتِ الله تَعَالَىٰ بِلَا تَشْبِيهٍ ، جَلَّ اللهُ تَعَالَىٰ عَمَّا تَقُولُ الْمُعَطِّلَةُ لِصِفَاتِهِ ، وَالْمُشَبِّهَةُ بِهَا عُلُوًّا كَبِيرًا " .

قُلْتُ : وَكَانَ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ (٣٨٨هـ) رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ : إِنَّمَا يُنْكِرُ هَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ مِنَ الْحَدِيثِ مَنْ يَقِيسُ الْأُمُورَ فِي ذَلِكَ بِمَا يُشَاهِدُهُ مِنَ النُّزول الَّذِي هُوَ تَدَلٍّ مِنْ أَعْلَىٰ إِلىٰ أَسْفَلَ ، وَانْتِقَالٌ مِنْ فَوْقٍ إِلىٰ تَحْتٍ وَهَذِهِ صِفَةُ الْأَجْسَامِ وَالْأَشْبَاحِ ، فَأَمَّا نُزُولُ مَنْ لَا تَسْتَوْلِي عَلَيْهِ صِفَاتُ الْأَجْسَامِ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْمَعَانِيَ غَيْرُ مُتَوَهَّمَةٍ فِيهِ ، وإِنَّمَا هُوَ خَبَرٌ عَنْ قُدْرَتِهِ وَرَأْفَتِهِ بِعِبَادِهِ ، وَعَطْفِهِ عَلَيْهِمْ ، وَاسْتِجَابَتِهِ دُعَاءَهُمْ ، وَمَغْفِرَتِهِ لَهُمْ ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ لَا يَتَوَجَّهُ عَلَىٰ صِفَاتِهِ كَيْفِيَّةٌ وَلَا عَلَىٰ أَفْعَالِهِ كَمِّيَّةٌ ، سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ " (٢) .

فقد أكَّد الإمام البيهقي في كلامه السَّابق علىٰ أنَّه لا مجال البتَّة لإنكار النُّزول فقَدْ ثَبَتَ عَنْ رَسُولِ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ وُجُوهٍ صَحِيحَةٍ ، لكن لا يجوز البتَّة أن يفسَّر النُّزول بأي معنىٰ من معـــــاني البشر ، كالْحَرَكَةِ وَالِانْتِقَالِ مِنْ حَالٍ إِلىٰ حَالٍ ...

---

(١) انظر : الاعتقاد والهداية إلىٰ سبيل الرشاد علىٰ مذهب السَّلف وأصحاب الحديث (ص١١٧-١١٩) .

(٢) انظر : السنن الكبرىٰ (٣/ ٤) .

وقال الإِمَامُ ، العَلاَّمَةُ ، حَافظُ المَغْرِبِ ، شَيْخُ الإِسْلاَمِ ، أَبُو عُمَرَ يُوْسُفُ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ محمَّد بنِ عَبْدِ البَرِّ بنِ عَاصِمٍ النَّمَرِيُّ ، الأَنْدَلُسِيُّ ، القُرْطُبِيُّ ، المَالِكِيُّ ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ الفَائِقَة (٤٦٣هـ) : " وَقَوْلُ رَسُولِ اللهِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلىٰ السَّماء الدُّنيا " عِنْدَهُمْ مِثْلُ قَوْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، وَمِثْلُ قَوْلِهِ : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ [الفجر : ٢٢] ، كُلُّهُمْ يَقُولُ : يَنْزِلُ وَيَتَجَلَّىٰ وَيَجِيءُ بِلاَ كَيْفٍ ، لَا يَقُولُونَ : كَيْفَ يَجِيءُ وَكَيْفَ يَتَجَلَّىٰ ، وَكَيْفَ يَنْزِلُ ، وَلَا مِنْ أَيْنَ جَاءَ ، وَلَا مِنْ أَيْنَ تَجَلَّىٰ ، وَلَا مِنْ أَيْنَ يَنْزِلُ ، لأَنَّه لَيْسَ كَشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ ، وَتَعَالَىٰ عَنِ الْأَشْيَاءِ وَلَا شَرِيكَ لَهُ " (١) .

وقال الإِمَامُ ابن عَبْدِ البَرِّ (٤٦٣هـ) أيضاً : " وَقَدْ رَوَىٰ محمَّد بْنُ عَلِيٍّ الْجَبَلِيُّ ، وَكَانَ مِنْ ثِقَاتِ الْمُسْلِمِينَ بِالْقَيْرَوَانِ ، قَالَ : حدَّثنا جَامِعُ بْنُ سَوَادَةَ بِمِصْرَ ، قَالَ : حدَّثنا مُطَرِّفٌ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ (١٧٩هـ) أنَّه سُئِلَ عَنِ الْحَدِيثِ : " إِنَّ اللهَّ يَنْزِلُ فِي اللَّيْلِ إِلىٰ سَماءِ الدُّنيا " ، فَقَالَ مَالِكٌ : يَتَنَزَّلُ أَمْرُهُ ، وَقَدْ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ الله عَلَىٰ مَعْنَىٰ أَنَّه تَتَنَزَّلُ رَحْمَتُهُ وَقَضَاؤُهُ بِالْعَفْوِ وَالاِسْتِجَابَةِ ، وَذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِ ، أَيْ : أَكْثَرُ مَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَاللهُّ أَعْلَمُ .

وَلِذَلِكَ مَا جَاءَ فِيهِ التَّرْغِيبُ فِي الدُّعَاءِ ، وَقَدْ رَوَىٰ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ أَنَّه قَالَ : يَا رَسُولَ اللهَّ ، أَيُّ اللَّيْلِ أَسْمَعُ ؟ قَالَ : جَوْفُ اللَّيْلِ الْغَابِرُ يَعْنِي الْآخِرَ ، وَهَذَا عَلَىٰ مَعْنَىٰ مَا ذَكَرْنَا ، وَيَكُونُ ذَلِكَ الْوَقْتُ مَنْدُوباً فِيهِ إِلىٰ الدُّعَاءِ ، كَمَا نُدِبَ إِلىٰ الدُّعَاءِ عِنْدَ الزَّوَالِ ، وَعِنْدَ النِّدَاءِ ، وَعِنْدَ نُزُولِ غَيْثِ السَّماء ، وَمَا كَانَ مِثْلَهُ مِنَ السَّاعَاتِ الْمُسْتَجَابِ فِيهَا الدُّعَاءُ ، وَاللهُّ أَعْلَمُ . وَقَالَ آخَرُونَ : يَنْزِلُ بِذَاتِهِ .

أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللهَّ أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ ، قَالَ : حدَّثنا أَحْمَدُ بْنُ خَالِدٍ ، قَالَ : حدَّثنا يَحْيَىٰ بْنُ عُثْمانَ بْنِ صَالِحٍ بِمِصْرَ ، قَالَ : سَمِعْتُ نُعَيْمَ بْنَ حَمَّادٍ (٢٢٨هـ) ، يَقُولُ : حَدِيثُ النُّزول يَرُدُّ عَلَىٰ الْجَهْمِيَّةِ قَوْلَهُمْ ، قَالَ : وَقَالَ نُعَيْمٌ : يَنْزِلُ بِذَاتِهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ ، قَالَ أَبُو عُمَرَ : لَيْسَ هَذَا بِشَيْءٍ عِنْدَ أَهْلِ الْفَهْمِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّة ، لِأَنَّ هَذَا كَيْفِيَّةٌ ، وَهُمْ يَفْزَعُونَ مِنْهَا ، لِأَنَّهَا لَا تَصْلُحُ إِلَّا فِيمَا يُحَاطُ بِهِ عِيَاناً ، وَقَدْ جَلَّ الله وَتَعَالَىٰ عَنْ ذَلِكَ وَمَا غَابَ عَنِ الْعُيُونِ ، فَلَا يَصِفُهُ ذَوُو الْعُقُولِ إِلَّا بِخَبَرٍ وَلَا خَبَرَ فِي صِفَاتِ اللهَّ إِلَّا مَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَا نَتَعَدَّىٰ ذَلِكَ إِلىٰ تَشْبِيهٍ أَوْ قِيَاسٍ أَوْ تَمْثِيلٍ أَوْ تَنْظِيرٍ ، فَإِنَّهُ : " لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البصير " (٢) .

وكلام ابن عبد البر تضمَّن ثلاثة أمور ، هي :

---

(١) انظر : التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٧/ ١٥٣) .

(٢) انظر : التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٧/ ١٤٤-١٤٥) .

١-نقل عن الإمام مالك أنَّه أوَّل النُّزول بـ : نزول أَمْرُهُ ، أَيْ نُزُوْل رَحْمَتُهُ وَقَضَاؤُهُ بِالْعَفْوِ وَالِاسْتِجَابَةِ ، وأَكْثَرُ مَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، لأنَّه وقت التَّجلِّيات التي لا يستحقُّها إلَّا الذين هجروا الدُّنيا بما فيها وأقبلوا على الله تعالى يذكرون ويصلُّون ويستغفرون ويبتهلون ...

٢-لا أرى صحَّة الكلام الذي نسبه ابن عبد البر لنعيم بن حمَّاد ، حيث قال : يَنْزِلُ بِذَاتِهِ وَهُوَ عَلَى كُرْسِيِّهِ ، فهو من رواية : يَحْيَى بْنُ عُثْمَانَ بْنِ صَالِحٍ ، وهو متكلَّمٌ فيه (١) ، وكان يحدِّث بالأحاديث الموضوعة " (٢) ، وله أحاديث منكرة (٣) .

قال فيه مغلطاي (٧٦٢هـ) : " وكان يتشيَّع ، وكان صاحب وراقة ، يحدِّث من غير كُتبه فطعن عليه " (٤) .

وقال فيه الحافظ ابن حجر : " قال بن أبي حاتم : كتبت عنه وكتب عن أبي وتكلَّموا فيه . وقال بن يونس : كان عالماً بأخبار البلد ، وبموت العلماء ، وكان حافظاً للحديث ، وحدَّث بما لم يكن يوجد عند غيره ، وتوفِّي في ذي القعدة سنة اثنتين وثمانين ومائتين . قلت : وقال مسلمة بن قاسم : يتشيَّع ، وكان صاحب وراقة ، يحدِّث من غير كُتبه ، فطعن فيه لأجل ذلك " (٥) .

٣- انتقد الإمام ابن عبد البر من يقولون من مدَّعي السَّلفيَّة : يَنْزِلُ بِذَاتِهِ ، وَهُوَ عَلَى كُرْسِيِّهِ ، قَالَ أَبُو عُمَرَ : لَيْسَ هَذَا بِشَيْءٍ عِنْدَ أَهْلِ الْفَهْمِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّة ، لِأَنَّ هَذَا كَيْفِيَّةٌ ، وَهُمْ يَفْزَعُونَ مِنْهَا ، لِأَنَّهَا لَا تَصْلُحُ إِلَّا فِيمَا يُحَاطُ بِهِ عِيَاناً ، وَقَدْ جَلَّ الله وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ وَمَا غَابَ عَنِ الْعُيُونِ ، فَلَا يَصِفُهُ ذَوُو الْعُقُولِ إِلَّا بِخَبَرٍ وَلَا خَبَرَ فِي صِفَاتِ اللهَّ إِلَّا مَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَا نَتَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى تَشْبِيهٍ أَوْ قِيَاسٍ أَوْ تَمْثِيلٍ أَوْ تَنْظِيرٍ ، فَإِنَّهُ : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] .

وهذا كلام نفيس من الإمام ابن عبد البر (٤٦٣هـ) ، يردُّ على من يدَّعون السَّلفيَّة بالباطل والبهتان ، لأنَّ

---

(١) انظر : الجرح والتعديل (٩/ ١٧٥) ، المغني في الضعفاء (٢/ ٧٤٠) ، تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام (٦/ ٨٥٠) ، خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال (وعليه إتحاف الخاصة بتصحيح الخلاصة للعلامة الحافظ البارع علي بن صلاح الدِّين الكوكباني الصنعاني) (ص٤٢٦) .

(٢) انظر : المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين (٣/ ٨٢) .

(٣) انظر : الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة (٢/ ٣٧١) .

(٤) انظر : إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال (١٢/ ٣٤٧) .

(٥) انظر : تهذيب التهذيب (١١/ ٢٥٧) .

السَّلف الصَّالح لم يتطرَّقوا في كلامهم للذَّات ، قال الإمام الذَّهبي : " قد ذكرنَا أَنَّ لفظَة (بِذَاته) لاَ حَاجَةَ إِلَيْهَا ، وَهِيَ تَشْغَبُ النُّفُوسَ ، وَتركُهَا أَوْلَىٰ – وَاللهُ أَعْلَمُ – " (١) .

وقد اعترف الشَّيخ الألباني بأنَّ لفظة الذَّات لم تكن معروفة في عهد الصَّحابة ، وفي ذلك قال : " قلت : ومن هذا العرض يتبيَّن أنَّ هاتين اللفظتين : " بذاته " و" بائن " لم تكونا معروفتين في عهد الصَّحابة ، رضي الله عنهم " (٢) .

وفي كتابه الطيِّب : " سير أعلام النُّبلاء " ، قال الإمام الذَّهبي في ترجمة : عبد الجليل بن محمَّد بن عبد الواحد بن محمَّد الأصبهاني كوتاه : " قالَ السَّمْعَانِيُّ : لَمَّا وَردْتُ أَصْبَهَانَ ، كَانَ مَا يَخْرُجُ مِنْ دَارِهِ إِلَّا لِحَاجَةٍ مُهِمَّةٍ ، كَانَ شَيْخُهُ إِسْمَاعِيْلُ الحَافِظُ هَجَرَهُ ، وَمَنَعَهُ مِنْ حُضُوْرِ مَجْلِسِهِ لِمَسْأَلَةٍ جَرَتْ فِي النُّزول ، وَكَانَ كُوتَاهُ يَقُوْلُ: النُّزول بالذَّات ، فَأَنْكَرَ إِسْمَاعِيْلُ هَذَا ، وَأَمرَهُ بِالرُّجُوْعِ عَنْهُ ، فَمَا فعلَ ... وَمَسْأَلَةُ النُّزول فَالإِيْمَانُ بِهِ وَاجِبٌ ، وَتَرْكُ الخوضِ فِي لوازِمِهِ أَوْلَىٰ ، وَهُوَ سَبِيْلُ السَّلف ، فَمَا قَالَ هَذَا : نُزُولُهُ بِذَاتِهِ ، إِلَّا إرغَاماً لِمَنْ تَأَوَّلَهُ ، وَقَالَ : نُزولُهُ إِلىٰ السَّماء بِالعِلْمِ فَقَطْ ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ المِرَاءِ فِي الدِّين . وَكَذَا قَوْلُهُ : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] ، وَنَحْوُهُ ، فَنَقُوْلُ : جَاءَ ، وَيَنْزِلُ ، وننهَىٰ عَنِ القَوْلِ : يَنْزِلُ بِذَاتِهِ ، كَمَا لاَ نَقُوْلُ : يَنْزِلُ بِعِلْمِهِ ، بَلْ نَسكتُ ، وَلاَ نَتفَاصَحُ عَلَىٰ الرَّسول –صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِعبَارَاتٍ مُبْتَدَعَةٍ – وَاللهُ أَعْلَمُ – " (٣) .

وقال الفقيه ، المتكلِّم ، العَلاَّمَةُ ، المُفْتِي ، أَبُو المُظَفَّرِ طَاهِرُ بنُ محمَّد الإِسفرَايينِيّ ، ثمَّ الطُّوْسِيُّ ، الشَّافِعِيُّ ، الأشعري ، صَاحِبُ التَّفْسِيْرِ الكَبِيْرِ (٤٧١هـ) : " ... وأن تعلم أنَّ الحركة ، والسُّكون ، والذَّهاب ، والمجيء ، والكون في المكان ، والاجتماع ، والافتراق ، والقُرب ، والبُعد من طريق المسافة ، والاتِّصال ، والانفصال ، والحجم ، والجِرم ، والجثَّة ، والصُّورة ، والشَّكل ، والحيِّز ، والمقدار ، والنّواحي ، والأقطار ، والجوانب ، والجهات كلَّها لا تجوز عليه تعالىٰ ، لأنَّ جميعها يوجب الحدَّ والنِّهاية .... وأن تعلم أنَّ كل ما دلَّ علىٰ حدوث شيء من الحدِّ ، والنِّهاية ، والمكان ، والجهة ، والسُّكون ، والحركة ، فهو مستحيل عليه سبحانه وتعالىٰ ، لأنَّ ما لا يكون محدثاً لا يجوز عليه ما هو دليل علىٰ الحدوث " (٤) .

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (١٩/ ٦٠٧) .

(٢) انظر : مختصر العلو للعلي العظيم (ص١٧) .

(٣) انظر : سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٣٠-٣٣١) .

(٤) انظر : التبصير في الدِّين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين (ص١٦٠-١٦١) .

فالإمام الإسفرَايينِيّ يقول بوجوب تنزيه الله تعالىٰ عن جميع لوازم المحدثات ، مثل : الحركة ، والسُّكون ، والذَّهاب ، والمجيء ، والكون في المكان ، والاجتماع ، والافتراق ، والقُرب ، والبُعد من طريق المسافة ، والاتِّصال ، والانفصال ، والحجم ، والجِرم ، والجثَّة ، والصُّورة ، ... لأنَّ جميعها يوجب الحدَّ والنِّهاية ... وهي مستحيلة عليه سبحانه وتعالىٰ ، وهذه عقيدة ودين جمهور أهل السُّنَّة والجماعة ، ولا عبرة بمن خالف ، فرأيه زائف تالف ...

وقال الإمام أبو اسحاق إبراهيم بن علي الشِّيرازي (٤٧٦هـ) : " ... والرَّبُّ عزَّ وجلَّ قديم أزلي أبداً كان وأبداً يكون ، لا يجوز عليه التَّغيير ، ولا التَّبديل ، ولا الانتقال ، ولا التَّحريك " (١) .

فالتَّغيّر في الذَّات والتَّبدُّل في الصِّفات مُستحيل علىٰ الله تعالىٰ ، لأنَّ ذلك مِن صفات المخلوقات ، وبناء علىٰ ذلك : يستحيل عليه تعالىٰ النُّزول بمعنىٰ الانتقال ، لأنَّ هذا المعنىٰ فيه وصف لله بالحركة ، والله مُنَزَّه عن الحركة بإجماع الأمَّة ، كما نقلنا عن الإمام أبي منصور البغداديّ وغيره من أهل العلم ...

وقال الإمام ، العَلاَّمَةُ ، شَيْخُ الشَّافِعِيَّةِ ، أَبُو سَعْدٍ عَبْدُ الرَّحمن بنُ مَأْمُوْنِ بنِ عَلِيٍّ النَّيسَابورِيُّ المُتَوَلِّي الشّافعي (٤٧٨هـ) : " وأمَّا قوله عليه السَّلام : " ينزل الله في كلِّ ليلة إلىٰ سماء الدُّنيا " ، والمراد به أنَّه يبعث مَلَكاً إلىٰ سماء الدُّنيا حتىٰ ينادي ، علىٰ ما ورد في الخبر ، ثمَّ أضاف نزول الملك إلىٰ نفسه ، كما يُقال : نادىٰ الأميرُ في البلد ، إذا أمر بالنِّداء ، ويُقال : قتَلَ الأميرُ فلاناً ، والقاتل غيره ، ويضاف إلىٰ الأمير من حيث أنَّه هو الآمر به " (٢) .

فالإمام المتولِّي الشَّافعي يذهب إلىٰ تأويل النُّزول ، وأنَّ الله تعالىٰ يبعث مَلَكاً إلىٰ سماء الدُّنيا حتىٰ يُنادي ، علىٰ ما ورد في الخبر ، ثمَّ أضاف نزول المَلك إلىٰ نفسه ، كما يقال : نادىٰ الأميرُ في البلد ، إذا أمر بالنِّداء ، ويقال : قتل الأميرُ فلاناً ، والقاتل غيره ... فالنَّازل هو المَلك الذي ينزلُ بأمره ونهيه تعالىٰ ، وقد حكىٰ ابن فورك – كما تقدَّم – أنَّ بعض المشايخ ضبطه بضم الياء من ينزل ، وذكر أنَّه ضبط عمَّن سمع منه من الثِّقات الضَّابطين ، ، فيكون معدَّىٰ إلىٰ مفعول محذوف ، أي : ينزلُ اللهُ مَلكاً يأمره أن ينادي في ذلك الوقت ...

وقال الإمَامُ الكَبِيْرُ ، شَيْخُ الشَّافِعِيَّةِ ، إِمَامُ الحَرَمَيْنِ ، أَبُو المَعَالِي عَبْدُ المَلِكِ ابْنُ الإِمَامِ أَبِي محمَّد عَبْد الله بنِ يُوْسُفَ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ يُوْسُفَ بنِ محمَّد بنِ حَيُّوْيَه الجُوَيْنِيُّ ، ثمَّ النَّيْسَابُوْرِيُّ ، ضِيَاءُ الدِّين ، الشَّافِعِيُّ ،

(١) انظر : الإشارة إلىٰ مذهب أهل الحق (ص٢٣٥) .

(٢) انظر : الغنية في أصول الدِّين (ص٧٨) .

صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ (٤٧٨هـ) ، في كلامـه عمَّا رُوي بشأن حديث النُّزول : " وأمَّا الأحاديث التي يتمسَّكون بها ، فآحاد لا تُفضي إلى العلم ، ولو أضربنا عن جميعها لكان سائغاً ، لكنَّا نومئ إلى تأويل ما دُوِّن منها في الصِّحاح ، فمنها حديث النُّزول ، وهو ما روي عن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال : " ينزل الله تعالى إلى السَّماء الدُّنيا كلّ ليلة جمعة ويقول : هـل من تائب فأتـوب عليه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من داع فأجيب له " الحديث . ولا وجه لحمل النُّزول على التَّحوُّل ، وتفريغ مكان وشغل غيره ، فإنَّ ذلك من صفات الأجسام ونعوت الأجرام ، وتجويز ذلك يؤدِّي إلى طرفي نقيض ، أحدهما : الحكم بحدوث الإله ، والثَّاني : القدح في الدَّليل على حدوث الأجسام ، والوجه حمل النُّزول ، وإنْ كان مضافاً إلى الله تعالى ، على نزول ملائكته المقربين ، وذلك سائغ غير بعيد ، ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المائدة : ٣٣] ، معنـاه : إنَّما جـزاء الـذين يحاربون أوليـاء الله ، ولا يبعـد حـذف المضاف وإقامـة المضـاف إليه تخصيصاً .

وممَّا يتَّجه في تأويل الحديث أن يُحمل النُّزول على إسباغ الله نعماءه على عباده مع تماديهم وإصرارهم على العصيان ، وذهولهم في الليالي عن تدبُّر آيات الله تعالى ، وتذكر ما هم بصدده من أمر الآخرة .

وقد يُطلق النُّزول في حقِّ الواحد منا على إرادة التَّواضع ، فيُقال : نزل المَلك عن كبريائه إلى الدَّرجة الدُّنيا ، إذا حلم على رعيته ، وانحطَّ عن سطوته ، مع تمكُّنه من تشديد الوطأة عليهم .

ومن الدَّليل على أنَّ النُّزول ليس من شرطه الانتقال : إطلاق النُّزول مضافاً إلى القرآن ، مع العلم باستحالة انتقال الكلام كما سبق ... " (١) .

وقد أفاد كلام الإمام الجويني أنَّ حديث النُّزول حديث آحاد ، وحديث الآحاد ليس حجَّة في العقائد ، لأنَّها لا تُفيد إلَّا الظَّن ، قال الإمام أبو منصور عبدالقادر البغدادي (٤٢٩هـ) : " وأخبار الآحاد متى صحَّ إسنادها وكانت متونها غير مستحيلة في العقل ، كانت موجبة العمل بها دون العلم " (٢) .

وقال الإمام أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني ، أبو بكر البيهقي (٤٥٨هـ) : " ... ذَهَبَ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ رَحِمَهُ الله إلى أَنَّ الْأَصْلَ فِي هَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ فِي إِثْبَاتِ الصِّفات أنَّه لَا يَجُوزُ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ بِكِتَابٍ نَاطِقٍ أَوْ خَبَرٍ مَقْطُوعٍ بِصَحَّتِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُونَا فِيمَا يَثْبُتُ مِنْ أَخْبَارِ الْآحَادِ الْمُسْتَنِدَةِ إلى أَصْلٍ

---

(١) انظر : كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد (ص١٦١-١٦٢) .

(٢) انظر : أصول الدِّين (ص١٢) .

فِي الْكِتَابِ أَوْ فِي السُّنَّة الْمَقْطُوعِ بِصِحَّتِهَا أَوْ بِمُوَافَقَةِ مَعَانِيهَا ، وَمِمَّا كَانَ بِخِلَافِ ذَلِكَ فَالتَّوَقُّفُ عَنْ إِطْلَاقِ الِاسْمِ بِهِ هُوَ الْوَاجِبُ " (١) .

وقال الإمام الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ) : " خَبَرُ الْوَاحِدِ لَا يُقْبَلُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَبْوَابِ الدِّين الْمَأْخُوذِ عَلَىٰ الْمُكَلَّفِينَ الْعِلْمُ بِهَا ، وَالْقَطْعُ عَلَيْهَا ، وَالْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ أَنَّه إِذَا لَمْ يُعْلَمْ أَنَّ الْخَبَرَ قَوْلٌ لِلرَّسُول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كَانَ أَبْعَدَ مِنَ الْعِلْمِ بِمَضْمُونِهِ ، فَأَمَّا مَا عَدَا ذَلِكَ مِنَ الْأَحْكَامِ الَّتِي لَمْ يُوجَبْ عَلَيْنَا الْعِلْمُ بِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَّرَهَا ، وَأَخْبَرَ عَنِ اللهَّ تَعَالَىٰ بِهَا ، فَإِنَّ خَبَرَ الْوَاحِدِ فِيهَا مَقْبُولٌ ، وَالْعَمَلَ بِهِ وَاجِبٌ " (٢) .

وقال الإمام أبو إسحاق الشِّيرازي (٤٧٦هـ) : " أَخْبَار الْآحَاد لَا توجب الْعلم ، ... لنا هُوَ أَنَّه لَو كَانَ خبر الْوَاحِد يُوجب الْعلم لأوجب خبر كل وَاحِد ، وَلَو كَانَ كَذَلِك ، لوَجَبَ أَن يَقع الْعلم بِخَبَر من يَدعِي النُّبُوَّة ، وَمن يَدعِي مَالا على غَيره ، وَلما لم يقل هَذَا ، أحد دلّ على أَنَّه لَيْسَ فِيهِ مَا يُوجب الْعلم . وَلِأَنَّهُ لَو كَانَ خبر الْوَاحِد يُوجب الْعلم ، لما اعْتبر فِيهِ صِفَات الْمخبر من الْعَدَالَة وَالْإِسْلَام وَالْبُلُوغ وَغير ذَلِك ، كَمَا لم يعْتَبر ذَلِك فِي أَخْبَار التَّوَاتُر . وَلِأَنَّهُ لَو كَانَ يُوجب الْعلم ، لوَجَبَ أَن يَقع التبري بَين الْعلمَاء فِيمَا فِيهِ خبر وَاحِد ، كَمَا يَقع التبري فِيمَا فِيهِ خبر متواتر . وَلِأَنَّهُ لَو كَانَ يُوجب الْعلم ، لوَجَبَ إِذا عَارضه خبر متواتر أَن يتعارضا ، وَلما ثَبت أَنَّه يقدم عَلَيْهِ الْمُتَوَاتر دلّ على أَنَّه غير مُوجب للْعلم . وَأَيْضًا هُوَ أَنَّه يجوز السَّهْو وَالْخَطَأ وَالْكذب على الْوَاحِد فِيمَا نَقله فَلَا يجوز أَن يَقع الْعلم بخبرهم " (٣) .

وقال الإمام الجويني (٤٧٨هـ) : " ذهبت الحشويَّة من الحنابلة وكتبة الحديث إلى أنَّ خبر الواحد العدل يوجب العلم ، وهذا خزي لا يخفى مدركه على ذي لبّ .

فنقول لهؤلاء : أتجوِّزون أن يزل العدل الذي وصفتموه ويخطئ ، فإن قالوا لا ، كان ذلك بهتاً وهتكاً وخرقاً لحجاب الهيبة ، ولا حاجة إلى مزيد البيان فيه .

والقول القريب فيه أن قد زلَّ من الرُّواة والأثبات جمعٌ لا يعدون كثرة ، ولو لم يكن الغلط متصوَّراً لما رجع راو عن روايته ، والأمر بخلاف ما تخيَّلوه .

---

(١) انظر : الأسماء والصِّفات (٢/ ١٦٧) .

(٢) انظر : الكفاية في علم الرواية (ص٤٣٢) .

(٣) انظر : التبصرة في أصول الفقه (ص٢٩٨-٢٩٩) .

فإذا تبيَّن إمكان الخطأ ، فالقطع بالصِّدق مع ذلك محال ثمَّ هذا في العدل في علم الله تعالى ، ونحن لا نقطع بعدالة واحد ، بل يجوز أن يضمر خلاف ما يظهر ، ولا متعلّق لهم إلَّا ظنُّهم أنَّ خبر الواحد يوجب العمل ، وقد تكلَّمنا عليه بما فيه مقنع " (١) .

وقال الإمام الغزالي (٥٠٥هـ) : " اعْلَمْ أَنَّا نُرِيدُ بِخَبَرِ الْوَاحِدِ فِي هَذَا الْمَقَامِ مَا لَا يَنْتَهِي مِنْ الْأَخْبَارِ إلَى حَدِّ التَّوَاتُرِ . الْمُفِيدِ لِلْعِلْمِ ، فَمَا نَقَلَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ خَمْسَةٍ أَوْ سِتَّةٍ مَثَلًا فَهُوَ خَبَرُ الْوَاحِدِ ، وأمَّا قَوْلُ الرَّسول – عَلَيْهِ السَّلَامُ – مِمَّا عُلِمَ صِحَّتُهُ فَلَا يُسَمَّى خَبَرَ الْوَاحِدِ . وَإِذَا عَرَفْت هَذَا فَنَقُولُ : خَبَرُ الْوَاحِدِ لَا يُفِيدُ الْعِلْمَ ، وَهُوَ مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ فَإِنَّا لَا نُصَدِّقُ بِكُلِّ مَا نَسْمَعُ ، وَلَوْ صَدَّقْنَا وَقَدَّرْنَا تَعَارُضَ خَبَرَيْنِ فَكَيْفَ نُصَدِّقُ بِالضِّدَّيْنِ وَمَا حُكِيَ عَنْ الْمُحَدِّثِينَ مِنْ أَنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ الْعِلْمَ فَلَعَلَّهُمْ أَرَادُوا أَنَّه يُفِيدُ الْعِلْمَ بِوُجُوبِ الْعَمَلِ ؛ إذْ يُسَمَّى الظَّنُّ عِلْماً ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُهُمْ : يُورِثُ الْعِلْمَ الظَّاهِرَ وَالْعِلْمُ لَيْسَ لَهُ ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ وإنَّما هُوَ الظَّنُّ " (٢) .

وقال الإمام النَّووي (٦٧٦هـ) : " وأمَّا خبر الواحد فهو ما لم يوجد فيه شروط المتواتر سواء كان الرَّاوي له واحدا أو أكثر ، واختلف في حكمه ، فالذي عليه جماهير المسلمين من الصَّحابة والتَّابعين فمن بعدهم من المحدِّثين والفقهاء وأصحاب الأصول أنَّ خبر الواحد الثِّقة حجَّة من حجج الشَّرع يلزم العمل بها ويفيد الظَّن ولا يفيد العلم ... وذهبت طائفة من أهل الحديث إلى أنَّه يوجب العلم ، وقال بعضهم يوجب العلم الظَّاهر دون الباطن ، وذهب بعض المحدِّثين إلى أنَّ الآحاد التي في صحيح البخاري أو صحيح مسلم تفيد العلم دون غيرها من الآحاد ، وقد قدَّمنا هذا القول وإبطالـــه في الفصول ، وهذه الأقاويل كلّها سوى قول الجمهور باطلة " (٣) .

والقول بعدم حجِّيَّة خبر الآحاد في العقيدة هو ما ذهب إليه جمهور العلماء ، منهم : الباقلَّاني ، والجويني ، ، والغزالي ، وابن عقيل ، وابن برهان ، وابن الجوزي ، والرَّازي ، والآمدي ، والنَّووي ، والسُّبكي ، والبيضاوي ، وأبو الحسين البصري ، والأسنوي ، والزّركشي ، وغيرهم كثير ... وقد فصَّلت الكلام في هذه المسألة في كتاب خاص بخبر الآحاد ومدى حُجيّته في باب العقيدة ...

---

(١) انظر : البرهان في أصول الفقه (١/ ٢٣١) .

(٢) انظر : المستصفى (ص١١٦) .

(٣) انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١/ ١٣١-١٣٢) .

ومن المعلوم أنَّ النُّزول ليس من شرطه الانتقال ، بدليل إطلاق النُّزول مضافاً إلىٰ القرآن ، مع العلم باستحالة انتقال الكلام ... كما أنَّ القرآن الكريم ، فضلاً عن السُّنَّة المطهَّرة ، جاء فيهما النُّزول بمعاني لا يُقصد منها النُّزول من علو إلىٰ سفل ، من ذلك :

قوله تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [الصافات : ١٧٧] ، والمعنىٰ : فإذا حلَّ بهم العذاب ...

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام : ٩٣] ، والمعنىٰ سأقول ...

وقوله تعالىٰ : ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة : ٤٠] ، والمعنىٰ : ألقىٰ السَّكينة في قلبه ...

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾ [الزمر : ٦] ، والمعنىٰ : جعل أو خلق لكم ...

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد : ٢٥] ، والمعنىٰ : خلقنا أو جعلنا ...

وقوله تعالىٰ : ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٤] ، والكلام خرج مخرج الثَّناء علىٰ الله علىٰ ما رزقه ومنحه وأعطاه ...

وقد ذكرنا أقوال فحول العلماء في تفسير هذه الآيات في غير ما مكان من كتابنا " إِرْشَادُ الفُحُوْلِ إِلَىٰ مَا قَالَهُ أَسَاطِيْنُ العِلْمِ فِيْ تَنْزِيْهِ اللهِ عَنِ الحَرَكَةِ وَالنُّزُوْلِ " ...

وقال الإمام ، القَاضِي الصَّدْر ، العَلاَّمَةُ ، شَيْخُ الحَنَفِيَّة بَعْد أَخِيْهِ الكَبِيْر ، إِمَامَ الأَئِمَّة عَلَىٰ الإِطلاَق ، وَالموفودَ إِلَيْهِ مِنَ الآفَاق ، الذي ملأ الكَوْن بِتَصَانِيْفِه فِي الأُصُوْل وَالفُرُوْع أَبُو اليُسْرِ محمَّد بنُ محمَّد بنِ الحُسَيْنِ ابنِ المُحَدِّث عبد الكَرِيْم بن مُوْسَىٰ بن مُجَاهِدٍ النَّسَفِي ، البزدوي (٤٩٣هـ) في كلامه علىٰ حديث : " أنَّ الله ينزل إلىٰ سماء الدُّنيا ليلة النِّصف من شعبان " : " وأمَّا حديث النُّزول : بعضهم قالوا : إنَّ هذا الحديث ليس بمشهور ، وهذا من باب العلم ، والعلم لا يثبت إلَّا بخبر مشهور ، فلا يكون هذا الخبر حجَّة في هذا الباب . علىٰ أنَّه إن ثبت النُّزول فليس النُّزول من صفات الأجسام . فإنَّ النُّزول ليس بانتقال ، بل هو اتِّصال أثر الشَّيء بالشَّيء ، يقال : نزل بفلان المُلاء (١) ، ونزل إليه المرض ونزل به ، وليس هذا بانتقال ، وكذا يقال : نزل إلىٰ سخطة فلان ونزل فيَّ سخطةُ فلان ، ونزل فلان إلىٰ غضب فلان بي ، أي : اتَّصل بي أثر غضبه ، وقام بي أثره . فيكون معنىٰ قوله : " أنَّ الله ينزل إلىٰ سماء الدُّنيا ليلة النِّصف من شعبان " ، فإنَّ هذه ليلة يقسم فيها أرزاق العباد ، ويكتب فيها الآجال ، قال الله تعالىٰ : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ

---

(١) يعني : أشرافُ القوم وسَراتهم .

﴿مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ * أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ [الدخان : ٣-٥] . وهي ليلة النِّصف من شعبان بإجماع أهل التَّفسير .

فإن قالوا : هذه إضافة للنُّزول إلىٰ غير ما أضاف رسول الله تعالىٰ إليه . فنقول : بلىٰ ، هكذا ، ولكن هذا مستعمل بين أهل اللغة لما بينَّا أنَّه يقال : نزل في غضب فلان وسخطة فلان ، أي : اتَّصل بي آثار سخطه وغضبه لا عينه " (١) .

فالإمام البزدوي يؤكِّد علىٰ أنَّه ليس من شرط النُّزول الانتقال ، بل قد يُطلق النُّزول علىٰ أشياء عديدة ، لا تتعلَّق بالحركة والنُّقلة ، كما يقال : نزل بفلان المُلاء ونزل إليه المرض ونزل به ، وليس هذا بانتقال ، وكذا يقال : نزل إلىٰ سخطة فلان ونزل فيَّ سخطةُ فلان ، ونزل فلان إلىٰ غضب فلان بي ، أي : اتَّصل بي أثر غضبه ، وقام بي أثره ، وهو بذلك يذهب إلىٰ التَّأويل في مسألة النُّزول ...

وقال الشَّيخ ، الإِمَامُ ، البَحْر ، حجَّةُ الإِسْلاَم ، أُعجوبَة الزَّمَان ، زَيْنُ الدِّين ، أَبُو حَامِد محمَّد بنُ محمَّد بنِ محمَّد بنِ أَحْمَدَ الطُّوْسِيّ ، الشَّافِعِيّ ، الغَزَّالِي ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ ، وَالذَّكَاءِ المُفرِط (٥٠٥هـ) : " ... إذا قرع سمعه النُّزول في قوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " ينزل الله تعالىٰ في كلِّ ليلة إلىٰ السَّماء الدُّنيا " ، فالواجب عليه أن يعلم : أنّ النُّزول اسم مشترك ، قد يطلق إطلاقاً يفتقر فيه إلىٰ ثلاثة أجسام ، جسم عالٍ هو مكان لساكنه ، وجسم سافل كذلك ، وجسم متنقّل من السَّافل إلىٰ العالي ، ومن العالي إلىٰ السَّافل . فإن كان من أسفل إلىٰ علوّ سُمِّي : صعوداً وعروجاً ورقيّاً ، وإن كان من علوّ إلىٰ أسفل سُمّي : نزولاً وهبوطاً .

وقد يطلق علىٰ معنىٰ آخر ولا يفتقر فيه إلىٰ تقدير انتقال وحركة في جسم ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ﴾[الزمر : ٦] ، وما رؤي البعير والبقر نازلاً من السَّماء بالانتقال ، بل هي مخلوقة في الأرحام ، ولإنزالها معنىٰ لا محالة ، كما قال الشَّافعي (٢٠٤هـ) رضي الله عنه : دخلت مصر فلم يفهموا كلامي ، فنزلت ، ثمَّ نزلت ، ثمَّ نزلت . فلم يرد به انتقال جسده إلىٰ أسفل .

فتحقَّق للمؤمن أنَّ النُّزول في حقِّ الله تعالىٰ ليس بالمعنىٰ الأوَّل ، وهو انتقال شخص وجسد من علوّ إلىٰ أسفل ، فإنَّ الشَّخص والجسد أجسام ، والرَّبّ جلَّ جلاله ليس بجسم ، فإن خطر له أنَّه لم يرد هذا فما الذي أراد ؟ فيقال له : أنت إذا عجزت عن فهم نزول البعير ، فأنت عن فهم نزول الله تعالىٰ أعجز ، فليس هذا بعشّك فأدرجي ، واشتغل بعبادتك أو حرفتك واسكت ، واعلم أنَّه أُريد به معنىٰ من المعاني التي يجوز

---

(١) انظر : أصول الدِّين ، أبو اليسر محمَّد البزدوي (ص٣٨-٣٩) .

أن تُراد بالنُّزول في لغة العرب ، ويليق ذلك المعنىٰ بجلال الله تعالىٰ وعظمته ، وإن كنت لا تعلم حقيقته وكيفيَّته " (١) .

وقد أكَّد الإمام الغَزَّالِي علىٰ المعاني السَّابقة ، فقال في موضع آخر : " وأمَّا قوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " ينزل اللهّ تعالىٰ إلىٰ السَّماء الدُّنيا " ، فلفظ مفهوم ذكر للتَّفهم وعلم أنَّه يسبق إلىٰ الإفهام منه المعنىٰ الذي وضع له أو المعنىٰ الذي يُستعار ، فكيف يقال : أنَّه متشابه ، بل هو مخيل معنىٰ خطأ عند الجاهل ، ومفهم معنىٰ صحيحاً عند العالِم ، وهو كقوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد : ٤] . فإنَّه يخيل عند الجاهل اجتماعاً مناقضاً لكونه علىٰ العرش ، وعند العالم يفهم أنَّه مع الكلِّ بالإحاطة والعلم ، وكقوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرَّحمن "(٢) ، فإنَّه عند الجاهل يخيَّل عضوين مركَّبين من اللحم والعظم والعصب ، مشتملين علىٰ الأنامل والأظفار ، نابتين من الكفِّ ، وعند العالِم يدلُّ علىٰ المعنىٰ المستعار له دون الموضوع له ، وهو ما كان الاصبع له ، وكان سرّ الإصبع وروحه وحقيقته ، وهو القدرة علىٰ التَّقليب كما يشاء ، كما دلَّت المعيَّة عليه في قوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد : ٤] ، علىٰ ما تراد المعيَّة له ، وهو العلم والإحاطة ، ولكن من شائع عبارات العرب : العبارة بالسَّبب عن المسبّب ، واستعارة السَّبب للمستعار منه ، وكقوله تعالىٰ : " من تقرَّب إليَّ شبراً ، تقرَّبت إليه ذراعاً ، ومن أتاني بمشي أتيته بهرولة " (٣) ، فإنَّ الهرولة عند الجاهل تدلُّ علىٰ نقل الأقدام وشدَّة العدْو ، وكذا الاتيان يدلُّ علىٰ القُرب في

---

(١) انظر : إلجام العوام عن علم الكلام (ص٥٧-٥٨) .

(٢) لم أجده بهذا اللفظ ، وإنَّما روي بلفظ : " إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحمن عزَّ وجلَّ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ ، يُصَرِّفُ كَيْفَ يَشَاءُ " . جاء في هامش مسند أحمد : " إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير أبي هانىٔ - وهو حميد بن هانىٔ الخولاني المصري- ، وأبي عبد الرَّحمن الحبلي - وهو عبد الله بن يزيد المعافري - فمن رجال مسلم . أبو عبد الرَّحمن ، شيخ أحمد : هو عبد الله بن يزيد المقرئ ، وحيْوة : هو ابن شُريح . وأخرجه مسلم (٢٦٥٤) ، وابنُ أبي عاصم في " السُّنَّة " (٢٢٢) و (٢٣١) ، وابنُ حبان (٩٠٢) ، والآجُري في " الشريعة " (ص ٣١٦) ، والبيهقي في " الأسماء والصِّفات " ص ١٤٧، من طريق أبي عبد الرَّحمن المقرئ ، بهذا الإسناد . وأخرجه النسائي في "الكبرىٰ" (٧٧٣٩) ، والطبري في " التفسير " (٦/ ٦٦٥٧) من طريق عبد الله بن المبارك ، عن حيوة ، به " انظر : مسند الإمام أحمد بن حنبل (١١/ ١٣٠-١٣١) .

(٣) أخرجه بهذا اللفظ : البخاري في : خلق أفعال العباد ، (ص٩٤) ، البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ١٧ برقم١٠٤٣) ، الأصبهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٢٦٨) .

المسافة ؟ وعند العاقل يدلُّ على المعنى المطلوب من قرب المسافة بين النَّاس ، وهو قرب الكرامة والإنعام ، وإنَّ معناه : أنَّ رحمتي ونعمتي أشدّ انصباباً إلى عبادي من طاعتهم إليَّ " (١) .

وقال الإمام الزَّاهِد مَيْمُون بن محمَّد بن محمَّد بن مُعْتَمد بن محمَّد بن محمَّد بن مَكْحُول ابْن الْفضل أَبُو الْمعِين النَّسَفِيّ المكحولي (٥٠٨هـ) : " ولا يجوز أنْ يوصَفَ الله تعالى بالمَجيء والذَّهاب ، لأنَّ المَجيءَ والذَّهابَ مِن صفاتِ المخلوقين وأمَارات المُحدَثين ، وهما صفتان منفيَّتان عن الله تعالى ، ألا ترى أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلام كيف استدلَّ بالمُنتقِل مِن مكان إلى مكان أنَّه ليس بربٍّ حيث قال : ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٦] ، ومعنى قولِه تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ [الفجر : ٢٢] ، أي : أمرُ ربِّك .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ ﴾ [الحشر : ٢] ، أي : جاء بهم عذاب الله من حيث لم يحتسبوا ، يعني قيل : كعب الأشرف .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ ﴾ [النحل : ٢٦] ، يعني : استهلكهم ، واستأصلهم فلم يبق منهم نافخ نار ولا ساكن ديار ، نزلت في غزو نمرود بن كنعان لعنه الله .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ ﴾ [البقرة : ٢١٠] . يعني بعدما أثبتنا من الدَّلائل أنَّه لا شبيه له ولا شريكم له ولا مجيء له ينظرون إتيانه في ظلل من الغمام ، ويعتقدون هذا ليؤمنوا به ، وهذا في صفات الله تعالى محال .

ومعنى الخبر : ينزل الله تعالى كل يوم وليلة النّصف من شعبان إلى السَّماء الدُّنيا ، فيقول : هل من تائب فيتاب عليه .

قلنا : النُّزول من الله تعالى الاطلاع والاقبال على عباده ، يعني : ينظر إلى عباده بالرَّحمة ، هكذا نقل عن علي بن أبي طالب ، كرَّم الله وجهه " (٢) .

وقال الإِمَامُ ، العَلاَّمَةُ ، شَيْخُ المَالِكِيَّة ، قَاضِي الجَمَاعَة بقُرْطُبَة ، الفَقِيْه العَالِم ، الحَافِظ لِلْفقه ، المقدَّم فِيْهِ عَلَى جَمِيْع أَهْلِ عصره ، العَارِف بِالفَتْوَى ، البَصِيْر بِأَقْوَال أَئِمَّة المَالِكِيَة ، النَافذ فِي علم الفَرَائِض وَالأُصُوْل ، أَبُو الوَلِيْدِ محمَّد بنُ أَحْمَدَ بنِ أَحْمَدَ بن رشد القُرْطُبِيُّ ، المَالِكِيُّ (٥٢٠هـ) : " ... ونحو ذلك من الأحاديث التي يقتضي ظاهرها التَّشبيه مخافة أن يتحدَّث بها ، فيكثر التَّحدث بها وتشيع في النَّاس ، فيسمعها الجهَّال الذين لا يعرفون تأويلها ، فيسبق إلى ظنونهم التَّشبيه بها . وسبيلها- إذا صحَّت الرِّوايات بها- أن تتأوَّل على ما

(١)انظر : الاقتصاد في الاعتقاد (ص٨٥-٨٦) .

(٢) انظر : بحر الكلام (ص١١٠-١١٢) .

يصحُّ ممَّا ينتفي به التَّشبيه عن الله عزَّ وجلَّ بشيء من خلقه ، كما يصنع بما جاء في القرآن مما يقتضي ظاهره التَّشبيه ، وهو كثير ، كالإتيان في قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، والمجيء في قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ [الفجر : ٢٢] ، والاستواء في قوله : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف : ٥٤] . وكما يفعل أيضاً بما جاء من ذلك في السُّنن المتواترة ، كالضَّحك ، والتَّنزيل ، وشبه ذلك ممَّا لم يكره روايتها لتواتر الآثار بها ، لأنَّ سبيلها كلّها في اقتضاء ظاهرها التَّشبيه وإمكان تأويلها على ما ينتفي به تشبيه الله عزَّ وجلَّ بشيء من خلقه سواء . وأبعدها كلّها من التَّشبيه ما جاء من أنَّ عرش الرَّحمن اهتزَّ لموت سعد بن معاذ ، لأنَّ العرش مخلوق خلق من خلق الله عزَّ وجلَّ ، فلا يستحيل عليه الحركة والاهتزاز ، وإضافته إلى الله تعالى إنَّما هي بمعنى التَّشريف له ، كما يقال : بيت الله وحرمه ، لا بمعنى أنَّه يحلُّ فيه وموضع لاستقراره ، إذ ليس في مكان ولا مستقرا بمكان ، فقد كان قبل أن يخلق المكان ، فلا يلحقه عزَّ وجلَّ باهتزاز عرشه ما يلحق من اهتزَّ عرشه من المخلوقين ، وهو جالس عليه من تحركه بحركته ، تعالى الله عن ذلك علوَّاً كبيراً . ويحتمل أن يكون الكلام مجازاً ، فيكون المراد بتحرُّك العرش تحرُّك حملته استبشاراً وفرحاً بقدوم روحه ، وهذا جائز في كلام العرب أن يقال : اهتزَّ المجلس لقدوم فلان عليه ، أي : اهتزَّ أهله لقدومه ، كقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ﴾ [يوسف : ٨٢] ، يريد أهلها ، ومثل قول النَّبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: " هذا جبل يحبُّنا ونحبُّه " (١) ، أي : يحبُّنا أهله ونحبُّ أهله . وقد قيل : إنَّ المراد باهتزاز العرش : سريره الذي حُمل عليه ؛ وهذا يردُّه النَّص الذي في بعض الآثار من إضافة العرش الذي اهتزَّ بموته إلى الرَّحمن عزَّ وجلَّ " (٢) .

وقال الإمام ، العَلاَّمَةُ ، أبو محمَّد عبد الله بن محمَّد بن السيِّد البطليوسي ، النَّحْوِيّ ، اللُّغَوِيّ ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ (٥٢١هـ) : " وَمن هَذَا الْبَاب : قَوْله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " ينزل رَبُّنَا كلّ لَيْلَة إِلَى سَمَاء الدُّنيا ثلث اللَّيْل الْأَخير ، فَيَقُول : هَل من سَائل فَأُعْطِيه هَل من مُسْتَغْفِر فَأَغْفِر لَهُ هَل من تائب فأتوب عَلَيْهِ " . جعلته المجسِّمة نزولاً على الْحَقِيقَة ، تَعَالَى الله عَمَّا يَقُول الظَّالِمُونَ علوَّاً كَبِيراً ، وَقد أجمع العارفون بِاللهَّ عزَّ وجلَّ على أَنَّه لَا ينْتَقل لِأَن الِانْتِقَال من صِفَات المحدثات ، وَلِهَذَا الحَدِيث تَأْوِيلَانِ صَحِيحَانِ لَا يقتضيان شَيْئاً من التَّشْبِيه :

(١) أخرجه البخاري (٥/ ١٠٣ برقم ٤٠٨٣) .

(٢) انظر : البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة (١٨/ ٥٠٤-٥٠٦) .

أَحدهمَا : أَشَارَ اليه مَالك (١٧٩هـ) رَحمَه الله ، وَقد سُئِلَ عَن هَذَا الحَدِيث ، فَقَالَ : ينزل أمره كلّ سحر ، فَأَما هُوَ عزَّ وجلَّ فَإِنَّهُ دَائِم لَا يَزُول وَلَا ينْتَقل ، سُبْحَانَهُ لَا إله إلَّا هُوَ ، وَسُئِلَ عَنهُ الْأَوْزَاعِيّ (١٥٧هـ) ، فَقَالَ : يفعل الله مَا يَشَاء ، وَهَذَا تلويح يحْتَاج إِلى تَصْرِيح وخفي إشارة يحْتَاج إِلى تَبْيِين عبارَة .

وَحَقِيقَة الَّذِي ذَهَبا إليه رحمهمَا الله أَنَّ الْعَرَب تنْسب الْفِعْل إِلى من أَمر بِهِ كَمَا تنسبه إِلى من فعله وباشره بِنَفسِهِ ، فَيَقُولُونَ : كتب الْأَمِير لفُلَان كتاباً ، وَقطع الْأَمِير يَد اللصّ ، وَضرب السُّلْطَان فلَاناً ، وَلم يُبَاشر شَيْئاً من ذَلِك بِنَفسِهِ إِنَّمَا أَمر بذلك . وَلأَجل هَذَا احْتِيجَ إِلى التَّأْكِيد الْمَوْضُوع فِي الْكَلَام ، فَقيل : جَاءَ زيد نَفسه وَرَأَيْت زيداً نَفسه ، فَمَعْنَاه علىٰ هَذَا : أَنَّ الله تَعَالَىٰ يَأْمرُ مَلَكاً بالنُّزول إِلى السَّماء الدُّنيا فينادي بِأَمْره ، وَقد تَقول الْعَرَب جَاءَ فلَان اذا جَاءَ كِتَابه أَو وَصيته ، وَيَقُولُونَ للرَّجل : أَنْت ضربت زيداً ، وَهُوَ لم يضْربهُ إذا كَانَ قد رَضِي بذلك وشايع عَلَيْهِ ، قَالَ الله تَعَالَىٰ : ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة : ٩١] ، المخاطبون بهَا لم يقتلُوا نَبياً ، وَلَكنهُمْ لما رَضوا بذلك وتولوا قتلة الْأَنْبِيَاء وشايعوهم علىٰ فعلهم نسب الْفِعْل إليهم وان كَانُوا لم يباشروه ، وعَلىٰ هَذَا يتَأَوَّل قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ [النحل : ٢٦] . فَهَذَا تَأْوِيل كَمَا ترَاهُ صَحِيح جَار علىٰ فصيح كَلَام الْعَرَب فِي محاوراتها والمتعارف من أساليبها ومخاطباتها وَهُوَ شرح لما أَرَادَهُ مَالك (١٧٩هـ) ، وَالْأَوْزَاعِيّ (١٥٧هـ) رحمهمَا الله ، وَمِمَّا يُقَوي هَذَا التَّأْوِيل وَيشْهد بِصِحَّتِهِ : أَنَّ بعض أهل الحَدِيث رَوَاهُ ينزل بِضَم الْيَاء وَهَذَا وَاضح .

والتَّأويل الثَّاني : أَنَّ الْعَرَب تسْتَعْمل النُّزول علىٰ وَجْهَيْن ، أَحدهمَا : حَقِيقَة ، وَالْآخر مجَاز واستعارة . فَأَما الْحَقِيقَة : فانحدار الشَّيء من علو إِلى سفل ، كَقَوْلِه تَعَالَىٰ : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾ [النور : ٤٣] . وكقول امْرِئ الْقَيْس :

هُوَ الْمنزل الألاف من جو ناعط   بني أَسد حزناً من الأَرْض أوعرا

وأَمَّا الِاسْتِعَارَة وَالْمجَاز ، فعلىٰ أَرْبَعَة أوجه :

أَحدهَا : الإقبال علىٰ الشَّيء بعد الْأَعْرَاض عَنهُ والمقاربة بعد المباعدة ، يُقَال : نزل البَائِع فِي سلْعَته إذا قَارب الْمُشْتَرِي فِيهَا بعد مباعدته وَأمكنهُ مِنْهَا بعد مَنعه ، وَيُقَال : نزل فلَان عَن أَهله ، أَي : تَركهَا وَأَقْبل علىٰ غَيرهَا ، وَمِنْه قَول الشَّاعِر :

أنزلني الدَّهْر علىٰ حكمه   من شَاهِق عَالٍ إِلى خفض

أَي : جعلني أقَارِب من كنت أباعده ، وَأَقْبل علىٰ من كنت أعرض عَنهُ ، فَيكون معنىٰ الحَدِيث علىٰ هَذَا : أَن العَبْد فِي هَذَا الْوَقْت أقرب إِلى رَحْمَة الله مِنْهُ فِي غَيره من الأوقات ، وَأَنَّ البارئ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقبل علىٰ

عباده بالتحنن والتعطف فِي هَذَا الْوَقْت لما يلقيه فِي قُلُوبهم من التَّنْبِيه والتَّذكير الباعثين لَهُم علىٰ الطَّاعَة وَالْجد فِي الْعَمَل ، فَهَذَا تَأْوِيل أَيْضاً مُمكن صَحِيح ... " (١) .

وقال الإمام إسماعيل بن محمَّد بن الفضل بن علي القرشي الطليحي التَّيمي الأصبهاني ، أبو القاسم ، الملقَّب بقوام السُّنَّة (٥٣٥هـ) : " سبيل الأخبار الواردة في الصِّفات : أن يؤمن بها ، ولا يتعرَّض لها ، وتمضي كما أمضاها الأسلاف من غير تمثيل ولا تأويل " (٢) .

قلت : وكلام الإمام الأصبهاني يصبُّ في مصبِّ جمهور السَّلف الذين ذهبوا إلىٰ تفويض معاني المتشابه إلىٰ الله تعالىٰ ، مع تنزيههم لله تعالىٰ عن ظاهر معناها ، وهذا هو المراد من قول السَّلف (بلا كيف) ، ومنه يتبيَّن للإنسان الحصيف طالب الحقّ : أنَّ الذين ينسبون للسَّلف إثبات ظواهر المعاني الحقيقية للألفاظ المتشابهة مع تفويض الكيفيَّة ، ينسبون للسَّلف بقولهم هذا : التَّشبيه ، وقد سال بهم السَّيل وهم لا يدرون ...

وقال الإِمَامُ ، العَلاَّمَةُ ، الحَافِظُ ، القَاضِي ، أَبُو بَكْرٍ محمَّد بنُ عَبْدِ الله بنِ محمَّد بن عَبْدِ الله، ابْنُ العَرَبِيِّ ، الأَنْدَلُسِيّ ، الإِشْبِيْلِيّ ، المَالِكِيّ ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ (٥٤٣هـ) : " وأمَّا قوله : " ينزل ربُّنا كلَّ ليلة إلىٰ سماء الدُّنيا " ، فإنَّ الحركة والانتقال ، وإن كان محالاً عليه عقلاً ، فإنه يلزمهم علىٰ محالهم أن يكون محالاً ، فإنَّهم قد قالوا : أنَّه أكبر من العرش بمقدار يسير ، فكيف ينزل إلىٰ السَّماء وهو أكبر من جميعها ؟ أي حتىٰ بحمله تعالىٰ علىٰ الوجهين ، ولم يفهموا أنَّ النَّبي إنَّما خاطب بذلك العرب والفصحاء اللسن ، وقد ثبت فيها أنَّ التَّنزيل علىٰ الوجهين : نزول حركة ، ونزول إحسان وبركة ، فإنَّ من أعطاك قد نزل إليك إلىٰ درجة النَّيل المحبوبة عندك عن درجة المنع المكروهة ، كما أنَّه نزل من ودِّه لك عن حال البغضاء والإعراض عنك ، وهو نزل حقيقة في بابه ، كما أنَّ نزول المرء علىٰ الجبل إلىٰ السَّفح حقيقة في بابه ، ألا ترىٰ إلىٰ قول عنترة :

ولقد نزلت فلا تظنِّي غيره   منِّي بمنزلة المحبِّ الأكرم

وقال عمر رضي الله عنه في الإسلام : " وما ينزل بعبد مسلم من منزل شدّة " ، وهو معنوي ، لا حركة فيه ولا انتقال ، وفائدته أنَّ الكريم إذا حلَّ بموضع ، ونزل بأرض ، ظهرت فيها أفعاله ، وانتشرت بركته وبدت آثاره ، فما بثَّ الله من رحمته من السَّماء الدُّنيا علىٰ الخلق في تلك السَّاعة عبَّر عنه بالنُّزول فيه ، عربية صحيحة " (٣) .

---

(١) انظر : الإنصاف في التنبيه علىٰ المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف (ص٨٢-٨٥) .

(٢) انظر : الترغيب والترهيب ، قوام السُّنَّة (١/ ٢٥٢) .

(٣) انظر : العواصم من القواصم (النص الكامل) (ص٢١٦-٢١٧) .

وقال الإِمَامُ ابْنُ العَرَبِيِّ – أيضاً – في كلامه على حديث النُّزول : " اختلفَ النَّاس في هذا الحديث وأمثاله من الأحاديث المشكلات والآيات المتشابهات :

فمنهم من ردَّ هذا الخبر ؛ لأنَّه خبر آحاد ، وردَّ بما لا يجوز ظاهرُه على الله تعالى ، وهم الْمُبْتَدِعَة .

ومنهم مَنْ قَبِلَهُ وأَمَرَّهُ كما جاء ولم يتأوَّله ولا تكلَّم فيه ، مع اعتقاده أنَّ الله ليس كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .

ومنهم من تأَوَّلَهُ وفَسَّرَهُ – وبه أقول – لأنَّه معنى قريب عربيٌّ فصيح . أمَّا أنَّه قد تَعَدَّى إليه قومٌ ليسوا من أَهْلِ العِلْم بالتَّفسيرِ ، فَتَعدّوا عليه بالقول النَّكِير .

وأمَّا المبتدعة ، قالوا : هذا الحديث مُحَالٌ ؛ لأنَّه إذا نزلَ من يَخْلفُه ؟ وهذا جهلٌ عظيمٌ ؛ لأنَّه يقال لهم : من يَخلفُه في الأرض حين يصعَدُ علمه بما في الأرض ، كما يصعد علمه بما في السَّماء ، وعِلْمُه بما في الأرض سواءٌ لا يَخْتَلِف .

إيضاحُ مُشكِلٍ :

قال الإمام أبو بكر بن فُورَك في هذا الحديث والنُّزول والمجيء : " اعْلَمْ أنَّه أوّل ما يجبُ أنّ تعلمَ في ذلك قَبْلَ شُرُوعِنَا في تأويله ، هو : أنّ تعلمَ أوَّلاً أنَّ جميعَ أوصافه تعالى تتعلَّق بما لا يخرج عن وجهين : إمَّا أنّ يكون اسْتَحَقَّه لنفسه ، أو لِصِفَةٍ قامت به ، أو لِفِعْلٍ يفعله . وأنّه لا يُطْلَقُ شيءٌ من الألفاظِ في أوصافه وأسمائه الْمُتَفَرِّعَة من هذين الأصلّين إلَّا بعد ورود التَّوقِيفِ في الكتاب والسُّنَّة ، وعن اتِّفاقٍ من الأمَّة ، ولا مجالَ للقياسِ في ذلك بِوَجْهٍ من الوجوهِ .

واعلم أنَّه لا فرقَ بين الإتيانِ والمجيءِ والنُّزول إذا أُضيفَ جميع ذلك إلى الأجسام الّتي تتحرَّك وتنتقل ، أو تحاذي مكانَها أو مكانًا بعد مكان ، إنَّ جميعَ ذلك يُعْقَلُ من طريق المعنى الّذي هو الحَرَكَة والنُّقلة الّتي هي تفريغ مكان شغل مكان ، فهذا أُضِيفَ إلى ما لا يليق به الانتقال من مكانٍ إلى مكانٍ ؛ لاستحالته بأنّه جوهرٌ ، أو جِسْمٌ ، أو مَحْدُودٌ ، أو مُتَمَكِّنٌ ، أو مُمَاسٌّ " .

تحقيق وتبيين :

اعلم أنّ معنى النُّزول في اللُّغة والقُرآن والسُّنَّة ينطلقُ على تِسْعَة معانٍ ، منها معاني مختلفة ، ولم يكن هذا اللّفظ ممّا يخصُّ أمراً واحداً حتّى لا يمكن العدول عنه إلى غيره ، بل وَجَدْنَاهُ مشترك المعنى ، فاحتملَ التَّأويل والتَّخريج والتّرتيب في ذلك .

الأوّل – فمن ذلك : النُّزول بمعنى الانْتِقَال ، والبارئ تعالى يتنزَّهُ عنه ، وإنَّما ذلك في كون المخلوقات ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾ [الفرقان : ٤٨] ، هذا على معنى النُّقلة والتَّحويل .

المعنىٰ الثَّاني : النُّزول بمعنىٰ الإعلام ، كقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ [الشعراء : ١٩٣] ، أي : أَعْلَمَ به الأمينُ محمَّداً - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

المعنىٰ الثَّالث : النُّزول بمعنىٰ القول والعبارة ، وذلك في قوله تعالىٰ حاكيًا عن مُسَيْلِمَة في قوله : ﴿ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام : ٩٣] ، فيما أخبر به عن المشركين الّذين يقولون ويعارضون القرآن ﴿ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام : ٩٣] .

المعنىٰ الرَّابع : النُّزول بمعنىٰ الإقبال علىٰ الشَّيء ، وذلك هو المستعمل في المجاز لقولهم : إنّ فلاناً أخذ بِمكارم الأخلاق ثمَّ نزل منها إلىٰ سفسافها ، أي : أقبل منها إلىٰ رَدِيّها . ومثله في نقصان المرتبة والدَّرَجَة ؛ لأنَّهم يقولون : نزلت منزلة فلان عند فلان .

المعنىٰ الخامس : النُّزول بمعنىٰ الحُكم ، من ذلك قولهم : قد كنَّا في خير وعافية وعَدْلٍ وأَمْنٍ ، حتّىٰ نزلَ بنا بنو فلان ، أي : حكمهم ، وكان ذلك في معنىٰ النُّزول ، مُتَعَارَف من أهل اللُّغة غير مدفوع عندهم اشتراك معناه .

المعنىٰ السَّادس : قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ [الحديد : ٢٥] ، فمن أهل التَّأويل من قال : معناه وخلقنا الحديد .

ومن العلمــاء من قال : إنَّ الحديدَ أُنْزل علىٰ معنىٰ النَّقلِ من عُلُوٍّ إلىٰ سفل ، وهذا بعيدٌ جدّاً ، فَتَدَبَّرْهُ .

ومن الفلاسفة من قال : أنَّه يتكوَّن في الأرض بما تفعل الكواكب في الأقاليم ، وهذا كُفْرٌ منهم ودَعْوىٰ بغير دَليلٍ .

والمعنىٰ فيه : أنّ الإنزال بمعنىٰ الخَلْق ، معناه : خلقنا الحديد في الأرض فيه منافع للنّاس .

المعنىٰ السَّابع : قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر : ١] ، ليس هو بمعنىٰ النَّقْل والتّحويل من عُلُّو إلىٰ سفل ، لاستحالة الانتقال علىٰ الكلام ، وإنَّما معناه : الإعلام والإسمـــاع والإفهام إلىٰ الموصل .

المعنىٰ الثَّامن : قوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح : ٤] الآية ، وهذا أيضاً يُبَيِّنُ لك أنَّه ليس كلّ نزول وإنزال نقل وتحويلٌ ، بل ذلك لفظٌ يشترك المعنىٰ فيه ، وقد يكون نقلاً وتحويلاً ، وقد يكون علىٰ غير ذلك من المعاني المُتَأَوَّلَة .

المعنىٰ التَّاسع : قوله جلَّ جلالُه : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾ [الزمر : ٦] الآية . قال بعض علمائنا : المعنىٰ فيه - أنَّه خَلَقَ في الأرض الأنعام ؛ لأنَّه لَمْ يُرَ قطّ ولا سُمِعَ أنَّه نزل من السَّماء الحديد ولا الأنعام ، ولو كان كذلك لكان أصل ذلك معلوماً مذكوراً .

وهذه الوجوه من القرآن واللُّغة علىٰ أنَّ البارئ تعالىٰ لا يجوز عليه النّقل ولا الحركة ، وأنَّ نزولَهُ بخلاف مخلوقاته ، إنَّما نزوله نزول رحمةٍ وإحسانٍ ، أو يكون كما قال بعض العلماء الصُّوفيّة : إنّ نزوله ثُلُث اللَّيل إنّما هو نزولٌ من حال الغَضَبِ إلىٰ حالة الرَّحْمَة ، وإلّا إذا أضفتَ النُّزول إلىٰ السَّكينة لم يكن ، وإذا أَضَفْتَهُ إلىٰ الكلام لم يكن أيضاً تفريغ مكانٍ ولا شُغل مكانٍ ، وإنَّما أراد به : إقباله علىٰ أهل الأرض بالرَّحْمَة ، والاستعطاف بالتَّوْبَة والإنَابَة . هذا تفسيرُه عند علمائنا من أهل الكلام .

وأمّا من تَعَدَّىٰ عليه بالتّفسير والقَوْلِ النَّكِيرِ ، فإنّهم قالوا : في هذا الحديث دليلٌ علىٰ أنَّ الله تعالىٰ في السَّماء علىٰ العَرْشِ من فَوْق سبع سماوات .

قلنا : هذا جَهْلٌ عظيمٌ ، إنَّما قال : " يَنْزِلُ إلىٰ سَمَاءِ الدُّنيا " . ولم يقل في الحديث من أينَ ينزلُ ، ولا كيف ينزل ...

قال الإمام : والّذي يجب أنّ يُعْتَقَد في ذلك : أنَّ الله كان ولا شيءَ معه ، ثمَّ خَلَقَ المخلوقات من العَرشِ إلىٰ الفَرْشِ ، فلم يتغيَّر ، ولا حدثت له جِهَة منها ، ولا كان له مكان فيها ، فإنّه لا يَحُول ولا يَزُول ، قُدُّوسٌ لا يحولُ ولا يتغَيَّر ...

وأمَّا قوله: " يَنْزِل " و " يَجيء" و " يَأْتِي" ، وما أشبه ذلك من الألفاظ الّتي لا تجوز علىٰ الله في ذاته معانيها ، فإنّها ترجع إلىٰ أفعاله ، وههنا نكتة ، وهي أنّ أفعالَكَ أيّها العبدُ إنَّما هي في ذَاتِكَ ، وأَفعالُ اللهِ لا يَجوزُ أنّ تكونَ في ذَاتِهِ ولا ترجع إليه ، وإنَّما تكونُ في مخلوقاتِهِ ، فإذا سَمِعْتَ أنّ الله يفعلُ كذا ، فمعناه في المخلوقات لا في الذَّاتِ، وقد بَيَّنَ ذلك الأَوزاعيّ (١٥٧هـ) حين سُئِلَ عن هذا الحديث ، فقال : يَفْعَلُ اللهُ ما يَشَاء . وأمَّا أنّ يعلَم أو يعتقدَ أنّ اللهَ لا يُتَوَهَّم علىٰ صِفَةٍ من المخلوقات ، ولا يُشْبِه شيئًا من المخلوقات ، ولا يدخل بابًا من التَّأويلات .

قالوا : نقول : ينزلُ ربُّنا ولا نكَيِّف .

قلنا: معاذَ الله أنّ نقول ذلك ، إنَّما نقول كما علَّمَنَا رسول الله – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وكما علِمْنَا من العربيّة الّتي نَزَلَ بها القرآنُ وتكَلَّم بها رسُولُ الله – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قال رسولُ الله – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " يقولُ الله تعالىٰ : عَبْدِي مرضتُ فلم تَعُدْنِي ، وجعْتُ فلم تُطعِمْنِي ، وعَطشتُ فلم تَسْقِنِي " (١) ، وهذا لا يجوزُ علىٰ اللهِ تعالىٰ بحالٍ ، ولكن شرف هؤلاء بأن عَبَّرَ عنهم كذلك .

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٩٠ برقم٢٥٦٩) ، البخاري في الأدب المفرد (١/ ١٨٢برقم٥١٧) ، ابن حبَّان في الصَّحيح (١/ ٥٠٣برقم٢٦٩) ، البيهقي في الأسماء والصِّفات (١/ ٥٤٦برقم٤٧٣) ، شعب الإيمان (١١/ ٤١٢برقم٨٧٥٢) ، البغوي في شرح السُّنَّة (٥/ ٢١٨) .

وقولُه : " يَنْزِلُ رَبُّنَا " عَبَّرَ به عن عَبْدِهِ ومَلَكِهِ الّذي نَزَلَ بأمْرِه بِاسْمِه ، فيما يُعْطِي من رحمته ويَهب من كَرَمِهِ ويفيض على الخَلْقِ من عَطَائِه ، قال الشَّاعر :

وَلَقَدْ نَزَلْتِ فَلاَ تَظُنِّي غَيْرَهُ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ المُحِبِّ المُكَرَّمِ

والنُّزول قد يكون في المعاني والأجسام كما تقدَّمَ بيانُه ، والنُّزول الّذي أخبر اللهُ عنه إنْ حَمَلْتَهُ على أنَّه جسمٌ ، فذلك مَلَكُهُ ورسولُه وعَبْدُهُ . وإن حملته على أنَّه كان لا يفعلُ شيئاً من ذلك ، ثمَّ فَعَلَهُ عند ثُلُثِ اللَّيلِ فاستجابَ وغَفَر وأَعْطَى ، وسَمَّى ذلك نزولاً عن مرتبة إلى مرتبة ، وصِفَةٍ إلى صِفَةٍ ، فتلك عربيَّةٌ مَحْضَةٌ خَاطبَ بِهَا أَعرف منكم وأعقل وأكثر توحيداً ، وأقلّ بل أعدم تَخْلِيطاً .

قالوا بجَهْلِهِم : لو أراد نزول رحمتـــه لما خصّ بذلك الثُلُثَ من اللَّيل ؛ لأنَّ رحمته تنزل باللّيلِ والنَّهَارِ .

قلنا : هي باللَّيلِ ، وفي يومِ عَرَفة ، وفي ساعة الجُمُعَة ، فيكونُ نزولُها باللَّيلِ أكثر ، وعطاؤُها أَوْسَع ، وقد بَيَّنَ اللهُ ذلك في قوله : ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران : ١٧] .

قالوا : لا حُجَّةَ لنا في التَّأويل ؛ لأنَّ السَّلف قالوا في هذه الأحاديث وأمثالها : أَمِرُّوها كما جاءَت ، فلا تُتَأَوَّلُ .

قلنا : هذه جَهَالَة عظيمةٌ ؛ لأنَّه قد اشتهرَ التَّأويل في ذلك عن السَّلف ، أمَّا مالكٌ (١٧٩هـ) – رحمه الله – فقد بَدَّع السَّائل عن أمثاله ، وصَرَفهُ عن إشكَالِهِ ، ووقَفَ عند الإيمانِ به ، وهو لنا أفضل .

وأمَّا الأوزاعي (١٥٧هـ) فقد نزع بالتَّأويلِ ، قال : سئِل عن قول النَّبيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: " يَنْزِلُ رَبُّنَا " ؟ فقالَ : يفعلُ اللهُ ما يشاء . ففتحَ باباً من المعرفةِ عظيماً ، ونهجَ إلى التَّأويل طريقاً مستقيماً .

تشريفٌ :

إنّ اللهَ سبحانه مُنَزَّهٌ عن الحركة والانتقال ؛ لأنَّه لا يَحْوِيهِ مكانٌ ، كما لا يشتمل عليه زمانٌ ، ولا يَشغَلُ جُزءاً ، ولا يَدْنُو إلى مسافة بشيءٍ ، ولا يغيبُ عن عِلْمِهِ شيءٌ . مُتَقَدِّس الذَّات عن الآفاتِ ، منزَّه عن التَّغير والاسْتِحَالاَتِ ، إلهٌ في الأرض إلهٌ في السَّموات . وهذه عقيدةٌ مستقرَّةٌ في القلوبِ ، ثابتةٌ بواضِحِ الدَّليل في المعقولِ " (١) .

وقال الإمام ابْنُ العَرَبِيِّ أيضاً : " واختلف النَّاس في هذا الحديث وأمثاله على ثلاثة أقوال : فمنهم من ردّه ، لأنَّه خبر واحد وَرَدَ بما لا يجوز ظاهره على الله ، وهم المبتدعة ، ومنهم من قبله ، وأمرَّه كما جاء ولم يتأوَّله

(١) انظر : المسالِك في شرح مُوَطَّأ مالك (٣/ ٤٤٤-٤٥٤) .

ولا تكلَّم فيه ، مع اعتقاده أنَّ الله ليس كمثله شيء ، ومنهم من تأوَّله وفسَّره ، وبه أقول ، لأنَّه معنىٰ قريب عربي فصيح .

أمَّا أنَّه قد تعدَّىٰ إليه قوم ليسوا من أهل العلم بالتَّفسير فتعدّوا عليه بالقول بالتكثير ، قالوا : في هذا الحديث دليل علىٰ أنَّ الله في السَّماء علىٰ العرش من فوق سبع سموات .

قلنا : هذا جهل عظيم ، وإنَّما قال : " ينزل إلىٰ السَّماء " ، ولم يقل في هذا الحديث من أين ينزل ، ولا كيف ينزل . قالوا وحجَّتهم ظاهرة : : قال الله تعالىٰ : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه : ٥] . قلنا له : وما العرش في العربيَّة ؟ وما الاستواء؟ ...

والذي يجب أن يعتقد في ذلك : أنَّ الله كان ولا شيء معه ، ثمَّ خلق المخلوقات من العرش إلىٰ الفرش ، فلم يتغيَّر بها ، ولا حدث له جهة منها ، ولا كان له مكان فيها ، فإنَّه لا يحول ولا يزول ، قدوس لا يتغيَّر ولا يستحيل ، وللاستواء في كلام العرب خمسة عشر معنىٰ ما بين حقيقة ومجاز ، منها ما يجوز علىٰ الله فيكون معنىٰ الآية ، ومنها ما لا يجوز علىٰ الله بحال ، وهو إذا كان الاستواء بمعنىٰ التَّمكُّن أو الاستقرار أو الاتِّصال أو المحاذاة ، فإنَّ شيئاً من ذلك لا يجوز علىٰ الباري تعالىٰ ، ولا يضرب له الأمثال في المخلوقات ، وإمَّا أن لا يفسَّر كما قال مالك (١٧٩هـ) وغيره : إنَّ الاستواء معلوم ، يعني مورده في اللغة . والكيفيَّة التي أراد الله ممَّا يجوز عليه من معاني الاستواء مجهولة ، فمن يقدر أن يعيّنها ؟ والسُّؤال عنه بدعة : لأنَّ الاشتغال به وقد تبيَّن طلب التَّشابه ابتغاء للفتنة . فتحصَّل لك من كلام إمام المسلمين مالك (١٧٩هـ) : أنَّ الاستواء معلوم ، وأنَّ ما يجوز علىٰ الله غير متعيّن ، وما يستحيل عليه هو منزَّه عنه ، وتعيُّن المراد بما لا يجوز عليه لا فائدة لك فيه ، إذ قد حصل لك التَّوحيد والإيمان بنفي التَّشبيه والمحال علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ ، فلا يلزمك سواه ، وقد بينَّا ذلك في المشكلين علىٰ التَّحقيق ، وأمَّا قوله : " ينزل " ، " ويجيء " ، " ويأتي " ، وما أشبه ذلك من الألفاظ التي لا تجوز علىٰ الله في ذاته معانيها ، فإنَّها ترجع إلىٰ أفعاله ، وهنا نكتة ، وهي : أنَّ أفعالك أيُّها العبد إنَّما هي في ذاتك ، وأفعال الله سبحانه لا تكون في ذاته ، ولا ترجع إليه ، وإنَّما تكون في مخلوقاته ، فإذا سمعت الله يقول كذا ، فمعناه في المخلوقات لا في الذَّات ، وقد بيَّن ذلك الأوزاعي (١٥٧هـ) حين سئل عن هذا الحديث – أي حديث النُّزول – ، فقال : يفعل الله ما يشاء . وإمَّا أن تعلم وتعتقد أنَّ الله لا يتوهَّم علىٰ صفة من المحدثات ، ولا يشبهه شيء من المخلوقات ولا يدخل باباً من التَّأويلات . فقالوا : يقول ينزل ولا نكيف ، قلنا : معاذ الله أن نقول ذلك ، إنَّما نقول كما علَّمنا رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ، وكما علمنا من العربيَّة التي نزل بها القرآن ، قال النَّبي عليه السَّلام : " يقول الله : عبدي مرضتُ فلم تعُدني

، وجعتُ فلم تطعِمني ، وعطشتُ فلم تسقني " ، وهو لا يجوز عليه شيء من ذلك ، ولكن شرّف هؤلاء بأن عبّر به عنهم ، كذلك قوله : " ينزلُ ربُّنا " ، عبّر عن عبده وملَكه الذي ينزل بأمره باسمه ، فيما يعطي من رحمته ...

والنُّزول قد يكون في المعاني ، وقد يكون في الأجسام ، والنُّزول الذي أخبر الله عنه إن حملته على أنَّه جسم فذلك مَلَكُه ورسوله وعبده ، وإن حملته على أنَّه كان لا يفعل شيئاً من ذلك ثمَّ فعله عند ثلث الليل فاستجاب وغفر وأعطى ، وسمّى ذلك نزولاً عن مرتبة إلى مرتبة ، ومن صفة إلى صفة ، فتلك عربيَّة محضة خاطب بها من هم أعرف منكم – يعني أهل الظَّاهر – وأعقل وأكثر توحيداً وأقلّ بل أعدم تخليطاً . قالوا بجهلهم : لو أراد نزول رحمته لما خصَّ بذلك الثُّلث من الليل ، لأنَّ رحمته تنزل بالليل والنَّهار . قلنا : ولكنَّها بالليل ، وفي يوم عرفة ، وفي ساعة الجمعة يكون نزولها أكثر وعطاؤها أوسع ... وقد نبّه الله على ذلك بقوله تعالى : ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران : ١٧] (١) .

وقال الإِمَامُ ، الحَافِظُ الأَوْحَدُ ، شَيْخُ الإِسْلاَمِ ، القَاضِي ، أَبُو الفَضْلِ عِيَاضُ بنُ مُوْسَى بنِ عِيَاضِ بنِ عَمْرِو بنِ مُوْسَى بنِ عِيَاضٍ اليَحْصَبيُّ ، الأَنْدَلُسِيُّ ، ثمَّ السَّبْتِيُّ ، المَالِكِيُّ (٥٤٤هـ) : " قوله : " ينزلُ ربُّنا كلّ ليلة " : قيل : معناه : ينزل مَلك ربّنا ، على تقدير حذف مضاف ، كما يقال : فعل السُّلطان كذا ، وإن كان الفعل وقع من أتباعه ، ويضاف الفعل إليه لما كان عن أمره ويحتمل أن يكون عبَّر بالنُّزول عن تقريب الباري تعالى للدَّاعين حينئذ واستجابته لهم ، وخاطبهم – عليه السَّلام – بما جرت به عادتهم ، ليفهموا عنه ، وكان المتقرّب منَّا إذا كان في بساط واحد مع من يريد الدُّنو منه يخبر عنه بأن يقال : جاء وأتى ، وإذا كان في علو ، قيل : نزل وتجلى ، وقد ورد في الكتاب والسُّنَّة : جاء ، وأتى ونزل ، وتجلى .

قال القاضي : على هذين الطريقين اختلف تأويل السَّلف في الحديث ، بل قد جاءت مفسَّرة فيه ، فجاء في حديث الأغرّ أبي مسلم الذي ذكره مسلم عنه عن أبي سعيد وأبي هريرة قالا : قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إنَّ الله يُمهل ، حتى إذا ذهب ثلث الليل الأوَّل ينزل إلى السَّماء الدُّنيا ، فيقول : هل من مستغفر ... " الحديث رواه الأعمش عن السَّبيعي عن أبي مسلم بمعناه ، وذكر مكان " ينزل ": " ثمَّ يأمر منادياً ينادي يقول : هل من داع " الحديث . أخرجه النَّسائي ، فهذا مفسّر لأحد التَّأويلين ، وهو من معنى المروي عن مالك (١٧٩هـ) في تفسير هذا الحديث : ينزل أمره ورحمته ، وعلى التَّأويل الآخر قول الأوزاعي (١٥٧هـ) فيه : يفعل الله ما يشاء . وإليه الإشارة في الحديث نفسه بقوله : " ثمَّ يبسط يديه " عبارة عن نشر

(١) انظر : عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي (٢/ ١٩٨-٢٠٠ ببعض الاختصار) .

رحمته واستعارة بكثرة عطائه وإجابته وإسباغ نعمته ، ولا يعترض علىٰ هذا بأنَّ أمره ونهيه وأفعاله في كلِّ حين لا يختصُّ بوقت دون وقت ، فقد يكون المراد بالأمر هنا في هذه القضيَّة يختصّ لقائم الليل ، كما يختصّ رمضان ويوم عرفة وليلة القدر وليلة نصف شعبان – وغيرها من الأوقات بأوامر من أوامره ، وقضايا من قضاياه لا تكون في سائر الأوقات ، كما جاء في كتاب الله وحديث نبيه – عليه السَّلام . وقيل : يكون النُّزول بمعنىٰ القول ، كقوله : ﴿ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام : ٩٣] ، وبمعنىٰ الإقبال علىٰ النَّبي ، فيكون النُّزول إظهار ذلك وتبليغه إلىٰ أهل السَّماء الدُّنيا ، أو بإقباله علىٰ عباده المؤمنين كما في الحديث ، وذلك من أفعاله كما تقدَّم ، أو يفعل فعلاً يظهر به لطفه لهم ...

وقوله : " حتىٰ إذا ذهب ثلث الليل الأوَّل " : في بعض الرِّوايات " وشطره " في بعضها ، والصَّحيح الرِّواية الأخرىٰ : " حين يبقىٰ ثلث الليل الآخر " ، قال شيوخ أهل الحديث : وهو الذي تتظاهر الأخبار بمعناه ولفظه ، وقد يحتمل الجمع بين الحديثين أن يكون النُّزول الذي أراده النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعناه ، والله أعلم بحقيقته عند مضىٰ الثُّلث الأوَّل . والقول : " من يدعوني " إلىٰ آخره في الثُّلث الآخر " .(١)

فالقاضي عياض ذهب – كما ذهب غيره من العلماء المحقِّقين – إلىٰ تأويل النُّزول بنزول مَلَكِ ربّنا ، وذكر أنَّه يحتمل أن يكون عبَّر بالنُّزول عن تقريب الباري تعالىٰ للدَّاعين حينئذ واستجابته لهم ، واستشهد علىٰ ما ذهب إليه من التَّأويل بحديث رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إنَّ الله يُمهل ، حتىٰ إذا ذهب ثلث الليل الأوَّل ، ينزل إلىٰ السَّماء الدُّنيا ، فيقول : هل من مستغفر ... " ، الحديث رواه الأعمش عن السَّبيعي عن أبىٰ مسلم بمعناه ، وذكر مكان " ينزل " : " ثمَّ يأمر منادياً ينادىٰ يقول : هل من داع " ، الحديث . أخرجه النَّسائي ، فهذا مفسِّر لأحد التَّأويلين ، وهو من معنىٰ المروي عن مالك (١٧٩هـ) في تفسير هذا الحديث : ينزل أمره ورحمته ، وعلىٰ التَّأويل الآخر قول الأوزاعي (١٥٧هـ) فيه : يفعل الله ما يشاء . وإليه الإشارة في الحديث نفسه بقوله : " ثمَّ يبسط يديه " عبارة عن نشر رحمته ، واستعارة بكثرة عطائه وإجابته وإسباغ نعمته ، ولا يعترض علىٰ هذا بأنَّ أمره ونهيه وأفعاله في كلِّ حين لا يختصُّ بوقت دون وقت ، فقد يكون المراد بالأمر هنا في هذه القضيَّة يختصُّ بقائم الليل ، كما يختصُّ رمضان ويوم عرفة وليلة القدر وليلة نصف شعبان – وغيرها من الأوقات بأوامر من أوامره ، وقضايا من قضاياه لا تكون في سائر الأوقات ...

---

(١) انظر : شَرْحُ صَحِيح مُسْلِمِ لِلقَاضِي عِيَاض المُسَمَّىٰ إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم (٣/ ١٠٩-١١١) .

وقال الإمام عَبْد الخالق بْن أسد بْن ثابت ، الفقيه أَبُو محمَّد الدِّمشقيّ الحنفيّ المحدِّث الأَطْرابُلُسيّ الأصل (٥٦٤هـ) : " النُّزول بلا تَكييفٍ ولا تَشبيهٍ ، وهو ممَّا يجبُ الإيمانُ به ، وأنَّه لا كنُزولِنا الذي هو حَركةٌ وانتقالٌ مِن مكانٍ إلىٰ مكانٍ ، ومِن النَّاس مَن تأوَّلَه علىٰ ما يُعرفُ في مَوضعِهِ " (١) .

وقال الشَّيخ ، الإِمَامُ ، القُدْوَةُ ، العَابِدُ ، الزَّاهِدُ ، شَيْخُ العَارِفِيْن ، أَبُو العبَّاس أَحْمَدُ بنُ أَبِي الحَسَنِ عَلِيِّ بنِ أَحْمَدَ بنِ يَحْيَىٰ بنِ حَازِمِ بنِ عَلِيِّ بنِ رِفَاعَةَ الرِّفَاعِيُّ ، المَغْرِبِيُّ ، ثمَّ البَطَائِحِيُّ (٥٧٨هـ) : " أي سادة : نزِّهوا الله عن سمات المحدثين وصفات المخلوقين ، وطهروا عقائدكم من تفسير معنىٰ الاستواء في حقِّه تعالىٰ بالاستقرار ، كاستواء الأجسام علىٰ الأجسام المستلزم للحلول ، تعالىٰ الله عن ذلك ، وأيَّاكم والقول بالفوقيَّة ، والسُّفليَّة ، والمكان ، واليد ، والعين بالجارحة ، والنُّزول بالإتيان والانتقال ، فإنَّ كلَّ ما جاء في الكتاب والسُّنَّة ممَّا يدلُّ ظاهره علىٰ ما ذكر ، فقد جاء في الكتاب والسُّنَّة مثله ، ممَّا يؤيِّد المقصود ، فما بقي إلَّا ما قاله صلحاء السَّلف ، وهو الإيمان بظاهر كلِّ ذلك ، وردِّ علم المراد إلىٰ الله ورسوله ، مع تنزيه الباري تعالىٰ عن الكيْف وسمات الحدوث ، وعلىٰ ذلك درج الأئمَّة ، وكلُّ ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره قراءته والسُّكوت عنه ، ليس لأحد أن يفسِّره إلَّا الله تعالىٰ ورسوله ، ولكم حمل المتشابه علىٰ ما يوافق أصل المحكم ، لأنَّه أصل الكتاب ، والمتشابه لا يعارض المحكم " (٢) .

ومجمل ما قاله الإمام أحمد بن علي بن ثابت الرِّفاعي الحسيني : وجوب تنزيه الله تعالىٰ عن الفوقيَّة ، والسُّفليَّة ، والمكان ، والحركة والانتقال ، والدَّعوة إلىٰ الإيمان بظاهر كلّ ذلك ، وردِّ علم معنىٰ المراد إلىٰ الله ورسوله ، مع تنزيه الباري تعالىٰ عن الكيْف وسمات الحدوث ، وعلىٰ ذلك درج سلف الأمَّة ، وقالوا : كلُّ ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره قراءته والسُّكوت عنه ، ليس لأحد أن يفسِّره إلَّا الله تعالىٰ ورسوله ...

وقال الإمام أحمد بن محمَّد بن محمود بن سعيد القابسي (٥٩٣هـ) : " ... نزوله إلىٰ السَّماء الدُّنيا ، تفضُّلٌ ورحمة ، لا نُقلة وحركة ... " (٣) .

وقال الإمام ، الأصولي ، المتكلِّم ، الحجَّة ، القدوة ، الهمام ، العلم ، المفيد ، الفقيه ، الصَّالح ، عثمان بن عبد الله القيسي القرشي ، أبو عمرو ، المعروف بالسّلالجي (٥٩٤هـ) : " الدَّليل علىٰ استحالة حلول ذات الله تعالىٰ

---

(١) انظر : كتاب المعجم (ص٣٣٠-٣٣١) .

(٢) انظر : البرهان المؤيد (ص١٦) .

(٣) أصول الدِّين ، القابسي (ص٦٦) .

في جهة من الجهات : أمَّا الاختصاص بالجهة ، فلأنَّ المختصَّ بالجهة حاصلٌ في محلٍّ لا محالة ، وكلُّ حاصلٍ في محلٍّ فهو إمَّا متحرِّك إن انتقل ، وإمَّا ساكن إن لم ينتقل ، وكلُّ ما كان إمَّا متحرِّكاً وإمَّا ساكناً فهو حادث " (١) .

وقال الإمام الشَّيخ ، العَلاَّمَةُ ، الحَافِظُ ، المُفَسِّرُ ، شَيْخُ الإِسْلاَمِ ، مَفْخَرُ العِرَاقِ ، جَمَالُ الدِّين ، أَبُو الفَرَجِ عَبْدُ الرَّحْمَانِ بنُ عَلِيِّ بنِ محمَّد بن عَلِيِّ بنِ عُبَيْدِ الله بنِ عَبْدِ الله بنِ حَمَّادِيِّ بنِ أَحْمَدَ بنِ محمَّد بنِ جَعْفَرِ بن عَبْدِ الله بنِ القَاسِمِ بنِ النَّضْرِ بنِ القَاسِمِ بنِ محمَّد بنِ عَبْدِ الله ابْنِ الفَقِيْهِ عَبْدِ الرَّحْمَانِ ابْنِ الفَقِيْهِ القَاسِمِ بنِ محمَّد ابْنِ خَلِيْفَةَ رَسُوْلِ الله – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيْقِ، القُرَشِيُّ ، التَّيمي ، البَكْرِيُّ ، الجوزي ، البَغْدَادِيُّ ، الحَنْبَلِيُّ ، الوَاعِظُ ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ (٥٩٧هـ) أيضاً : " وَفِي الحَدِيث التسعين : " ينزل رَبُّنَا كلّ لَيْلَة إِلىٰ السَّماء الدُّنيا حِين يبْقىٰ ثلث اللَّيْل الآخر" ، وَفِي رِوَايَة : " إِذا ذهب ثلثُ اللَّيْل الأوَّل " .

أصحُّ الرِّوَايَات عَن أبي هُرَيْرَة : " إِذا بَقِي ثلث اللَّيْل الآخر " ، كَذَلِك قَالَ التِّرْمِذِيّ . وَحَدِيث النُّزول قد رَوَاهُ جمَاعَة عَن رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، مِنْهُم : أَبُو بكر : وَعلي ، وَابْن مَسْعُود ، وَأَبُو الدَّرْدَاء ، وَابْن عبَّاس ، وَأَبُو هُرَيْرَة ، وَجبير بن مطعم ، وَرِفَاعَة الْجُهَنِيّ ، والنواس بن سمْعَان ، وَأَبُو ثَعْلَبَة الْخُشَنِي ، وَعُثْمَان بن أبي الْعَاصِ ، وَعَائِشَة فِي آخَرين . وَقد ذكرت فِيمَا تقدم من مُسْند ابْن عمر وَأنس وَغَيرهمَا فِي مثل هَذِه الْأَشْيَاء أَنَّه يجب علينا أَن نَعْرِف مَا يجوز علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَمَا يَسْتَحِيل . وَمن المستحيل عَلَيْهِ : الْحَرَكَة والنُّقلة والتَّغيُّر ، فَيبقىٰ مَا ورد فِي هَذَا ، فَالنَّاس فِيهِ قائلان :

أَحدهمَا : السَّاكِت عَن الْكَلَام فِيهِ ، وَقد حكىٰ أَبُو عِيسَىٰ التِّرْمِذِيّ عَن مَالك بن أنس (١٧٩هـ) ، وسُفْيَان بن عُيَيْنَة (١٩٨هـ) ، وَعبد الله بن الْمُبَارك (١٨١هـ) ، أَنَّهم قَالُوا فِي هَذِه الْأَحَادِيث : أمرُّوها بِلَا كَيفَ ، فَهَذِهِ كَانَت طَرِيقَة عَامَّة السَّلف .

والثَّاني : المتأول ، فَهُوَ يحملهَا علىٰ مَا توجبه سَعَة اللُّغَة ، لعلمه بِأَن مَا يتضمَّنه النُّزول من الْحَرَكَة مُسْتَحِيل علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، وَقد قَـالَ الإِمَام أَحْمد : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ [الفجر: ٢٢] ، أَي : جَاءَ أَمرُه " (٢) .

وقال الإمام ابن الجوزي أيضاً : " وقد روىٰ حديث النُّزول عشرون صحابيَّاً ، وقد سبق القول أنَّه يستحيل علىٰ الله عزَّ وجلَّ الحركة والنُّقلة والتَّغيُّر ، فيبقىٰ النَّاس رجلين :

---

(١) انظر : العقيدة البرهانية والفصول الإيمانية (ص٦٥) .

(٢) انظر : كشف المشكل من حديث الصحيحين (٣/ ٣٧٩) .

أحدهما : المتأوِّل له بمعنىٰ أنَّه يقرب رحمته ، وقد ذكر أشياء بالنُّزول ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ [الحديد : ٢٥] ، وإن كان معدنه بالأرض . وقال تعالىٰ : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾ [الزمر : ٦] ، ومن لم يعرف كيف نزول الجَمل كيف يتكلَّم في تفصيل هذه الجُمل ؟

والثَّاني : السَّاكت عن الكلام في ذلك مع اعتقاد التَّنزيه . روىٰ أبو عيسىٰ التِّرمذي عن مالك بن أنس (١٧٩هـ) ، وسفيان بن عيينة (١٩٨هـ) ، وابن المبارك (١٨١هـ) ، أنَّهم قالوا : أمرُّوا هذه الأحاديث بلا كيف .

قلت : والواجب علىٰ الخلق اعتقاد التَّنزيه وامتناع تجويز النُّقلة ، وأنَّ النُّزول الذي هو انتقال من مكان إلىٰ مكان يفتقر إلىٰ ثلاثة أجسام : جسمٌ عالي ، وهو مكان السَّاكن ، وجسمٌ سافل ، وجسمٌ ينتقل من علوٍّ إلىٰ أسفل ، وهذا لا يجوز علىٰ الله تعالىٰ قطعاً .

فإن قال العامِّي : فما الذي أراد بالنُّزول ؟ قيل : أراد به معنىٰ يليق بجلاله ، لا يلزمك التَّفتيش عنه . فإن قال : كيف حدَّث بما لا أفهمه ؟ قلنا : قد علمت أنَّ النَّازل إليك قريب منك ، فاقتنع بالقُرب ولا تظنُّه كقُرب الأجسام " (١) .

وقال الإمام ابن الجوزي أيضاً : " ... روت خولة بنت حكيم عن النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال : " آخر وطأة وطئها الرَّحمن بوج " ، ووج : واد بالطَّائف ، وهي آخر وقعة أوقعها الله بالمشركين علىٰ يد رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .... والوطأة : مأخوذة من القدم ، وإلىٰ هذا ذهب ابن قتيبة (٢٧٦هـ) ، وغيره . وقال سفيان بن عيينة (١٩٨هـ) في تفسير هذا الحديث : آخر غزاة غزاها رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالطَّائف . وقال القاضي أبو يعلىٰ (٤٥٨هـ) : غير ممتنع علىٰ أصولنا !!! حمل هذا الخبر علىٰ ظاهره ، وإنَّ ذلك المعنىٰ بالذَّات دون الفعل ، لأنا حملنا قوله : " ينزل " ، " ويضع قدَمه في النَّار " علىٰ الذَّات .

قلت : وهذا الرَّجل يشير بأصولهم إلىٰ ما يوجب التَّجسيم والانتقال والحركة ، وهذا مع التَّشبيه بعيدٌ عن اللغة ، ومعرفة التَّواريخ ، وأدلة العقول ، وإنَّما اغترَّ بحديث روي عن كعب أنَّه قال : " ووج مقدَّس ، منه عرج الربُّ إلىٰ السَّماء ، ثمَّ قضىٰ خلق الأرض " . وهذا لو صحَّ عن كعب احتمل أن يكون حاكياً عن أهل الكتاب ، وكان يحكي عنهم كثيراً ، ولو قدرناه من قوله كان معناه : أنَّ ذلك المكان آخر ما استوىٰ من الأرض لما خلقت ، ثمَّ عرج الربُّ ، أي : عمد إلىٰ خلق السَّماء ، وهو قوله : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [البقرة : ٢٩] (٢) .

---

(١) انظر : دفع شبه التشبيه بأكفِّ التنزيه (ص١٩٤-١٩٦) .

(٢) انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه (ص٢٢٢-٢٢٣) .

وقال الإمام ابن الجوزي أيضاً : " ما أكثر تفاوت النَّاس في الفهوم ! حتىٰ العلماء يتفاوتون التَّفاوت الكثير في الأصول والفروع : فترىٰ أقواماً يسمعون أخبار الصِّفات ، فيحملونها علىٰ ما يقتضيه الحسّ ، كقول قائلهم : ينزل بذاته إلىٰ السَّماء، وينتقل !! وهذا فهمٌ رديء ؛ لأنَّ المنتقل يكون من مكان إلىٰ مكان ، ويوجب ذلك كون المكان أكبر منه ، ويلزم منه الحركة ، وكلُّ ذلك محال علىٰ الحق عزَّ وجلَّ " (١) .

وقال الإمام ابن الجوزي (٥٩٧هـ) أيضاً : " وقد وقف أقوام مَعَ الظَّواهر ، فحملوها عَلَىٰ مقتضىٰ الحسِّ ، فَقَالَ بعضهم : إنَّ اللهَّ جسم ، تعالىٰ اللهَّ عَنْ ذلك ، وهذا مذهب هشام بْن الحكم (١٩٩هـ) ، وعلي بْن منصور ومحمَّد بْن الخليل ويونس بْن عَبْدِ الرَّحمن ، ثمَّ اختلفوا فَقَالَ بعضهم : جسم كالأجسام ، ومنهم من قَالَ : لا كالأجسام ثمَّ اختلفوا ...

ومن الواقفين مَعَ الحسِّ أقوام ، قالوا : هو عَلَىٰ العرش بذاته عَلَىٰ وجه المماسَّة ، فَإِذَا نزل انتقل وتحرَّك ، وجعلوا لذاته نهاية ، وهؤلاء قد أوجبوا عَلَيْهِ المساحة والمقدار ، واستدلُّوا عَلَىٰ أنَّه عَلَىٰ العرش بذاته بقول النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " ينزل اللهَّ إلىٰ سماء الدُّنيا " ، قالوا : ولا ينزل إلا من هو فوق ، وهؤلاء حملوا نزوله عَلَىٰ الأمر الحسِّي الذي يوصف به الأجسام ، وهؤلاء المشبِّهة الذين حملوا الصِّفات عَلَىٰ مقتضىٰ الحس . وَقَدْ ذكرنا جمهور كلامهم فِي كتابنا المسمَّىٰ : بـ" منهاج الوصول إلىٰ علم الأصول " ، ... وإنَّما الصَّواب قراءة الآيات والأحاديث من غير تفسير ولا كلام فيها ، ... والذي أراه : السُّكوت عَلَىٰ هَذَا التَّفسير أيضاً ، إلَّا أنَّه يجوز أن يكون مراداً ، ولا يجوز أن يكـــون ثمَّ ذات تقبل التَّجزِّي ... " (٢) .

وقال الإمام ، القَاضِي ، الرَّئِيْسُ ، العَلاَّمَةُ ، البَارِعُ ، الأَوحدُ ، البَلِيْغُ ، مَجْدُ الدِّين ، أَبُو السَّعَادَاتِ المُبَارَكُ بنُ محمَّد بنِ محمَّد بنِ عَبْدِ الكَرِيْم بنِ عَبْدِ الوَاحِدِ الشَّيْبَانِيُّ ، الجَزَرِيُّ ، ثمَّ المَوْصِلِيُّ ، الكَاتِبُ ، ابْنُ الأَثِيْرِ (٦٠٦هـ) : " ... فِيهِ : " إِنَّ اللهَّ تَعَالَىٰ يَنْزِلُ كلَّ ليلةٍ إلىٰ سَمَاءِ الدُّنيا " النُّزول ، والصُّعود ، وَالْحَرَكَةُ ، وَالسُّكُونُ مِنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ ، واللهَّ يَتَعالىٰ عَنْ ذَلِكَ ويتقدَّس . وَالْمُرَادُ بِهِ نُزُولُ الرَّحْمَةِ وَالْأَلْطَافِ الْإِلَهِيَّةِ ، وقُربُها مِنَ الْعِبَادِ ، وَتَخْصِيصُهَا بِاللَّيْلِ وَالثُّلُثِ الْأَخِيرِ مِنْهُ ؛ لأنَّه وَقْتُ التَّهجُّد ، وَغَفْلَةِ النَّاس عَمَّنْ يتعرَّض لنفحاتِ يتعرَّض لنفحاتِ رَحْمَةِ اللهَّ . وَعِنْدَ ذَلِكَ تَكُونُ النِّيَّة خَالِصَةً ، وَالرَّغْبَةُ إلى اللهَّ وَافِرَةً ، وَذَلِكَ مَظِنَّة الْقَبُولِ وَالْإِجَابَةِ " (٣)

---

(١) انظر : صيد الخاطر (ص٤٨٧) .

(٢) انظر : تلبيس إبليس (ص٧٨-٨٠ باختصار) .

(٣) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٤٢) .

وقال الإمام العَلاَّمَةُ الكَبِيْرُ ، ذُو الفُنُوْنِ ، فَخْرُ الدِّين ، محمَّد بنُ عمَرَ بنِ الحُسَيْنِ القُرَشِيُّ ، الرَّازي ، البَكْرِيُّ ، الطَّبَرَستَانِيُّ ، الأُصُوْلِيُّ ، المُفَسِّرُ ، كَبِيْرُ الأَذكيَاءِ وَالحُكَمَاءِ وَالمُصَنِّفِيْنَ (٦٠٦هـ) : " فأمَّا الحديث المشتمل على النُّزول إلى السَّماء الدُّنيا ، فالكلام عليه من وجهين :

الأوَّل : بيان النُّزول ، وهو أنَّ النُّزول قد يُستعمل في غير الانتقال ، وتقريره من وجوه :

أحدها : قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾ [الزمر : ٦] ، ونحن نعلم بالضرورة : أنَّ الجمل أو البقر ، ما نزل من السَّماء إلى الأرض ، على سبيل الانتقال . وقال الله تعالى : ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح : ٢٦] ، والانتقال على السكينة محال ، وقال الله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٣-١٩٤] ، والقرآن سواء قلنا : أنَّه عبارة عن صفة قديمة ، أو قلنا : أنَّه عبارة عن الحرف والصَّوت !!! الانتقال عليه محال . وقال الشَّافعي (٢٠٤هـ) المطلبي رضي الله عنه : دخلتُ مصر فلم يفهموا كلامي ، فنزلت ، ثمَّ نزلت ، ولم يكن المراد من هذا النُّزول : الانتقال .

الثَّاني : أنَّه إن كان المقصود من النُّزول من العرش إلى السَّماء الدُّنيا ، أن يسمع نداؤه ، فهذا المقصود ما حصل ، وان كان المقصود مجرَّد النِّداء ، سواء سمعناه أو لم نسمعه ، فهذا ممَّا لا حاجة فيه إلى النُّزول من العرش إلى السَّماء الدُّنيا ، بل كان يمكنه أن ينادينا ، وهو على العرش . ومثاله : أن يريد من في المشرق إسماع من في المغرب ومناداته ، فيتقدَّم إلى جهة المغرب ، بأقدام معدودة ، ثمَّ يناديه ، وهو يعلم أنَّه لا يسمعه البتَّة . فههنا تكون تلك الخطوات عملاً باطلاً ، وعبثاً فاسداً ، فيكون كفعل المجانين ، فعلمنا أنَّ ذلك غير لائق بحكمة الله تعالى .

الثَّالث : أنَّ القوم رأوا أنَّ كلَّ سماء في مقابلة السَّماء التي فوقها تكون كقطرة في بحر ، وكدرهم في مفازة . ثمَّ كلّ السَّموات في مقابلة الكرسي ، كقطرة في البحر ، والكرسي في مقابلة العرش كذلك ، ثمَّ يقولون : أنَّ العرش مملوٌ منه ، والكرسي موضع قدمه ، فإذا نزل إلى السَّماء الدُّنيا ، وهي في غاية الصِّغر ، بالنِّسبة إلى ذلك الجسم العظيم ، فإمَّا أن يقال : أنَّ أجزاء ذلك الجسم العظيم يدخل بعضها في بعض ، وذلك يوجب القول بأنَّ تلك الأجزاء قابلة للتَّفرُّق والتَّمزُّق ، ويوجب القول أيضاً بتداخل الأجزاء بعضها في بعض ، وذلك يقتضي جواز تداخل جملة العالم في خردلة واحدة ، وهو محال ، وإمَّا أن يقال : إنَّ تلك الأجزاء بليت عند النُّزول إلى السَّماء الدُّنيا ، وذلك قول بأنه قابل للعدم والوجود ، وذلك ممَّا لا يقوله عاقل في صفة الإله تعالى . فثبت بهذا البرهان القاهر : أنَّ القول بالنُّزول على الوجه الذي قالوه باطل .

الرَّابع : أنَّا قد دللنا علىٰ أنَّ العالم كرة . وإذا كان كذلك ، وجب القطع بأنَّه أبداً يكون الحاصل في أحد نصفي الأرض هو الليل ، وفي النِّصف الآخر هو النَّهار . فإذا وجب نزوله إلىٰ السَّماء الدُّنيا في الليل ، وقد دللنا علىٰ أنَّ الليل حاصل أبداً ، فهذا يقتضي أن يبقىٰ في السَّماء الدُّنيا إلَّا أنَّه يستدير علىٰ ظهر الفلك بحسب استدارة الفلك ، وبحسب انتقال الليل من جانب من الأرض إلىٰ جانب آخر ، ولو جاز أن يكون الشَّيء المستدير مع الفلك أبداً : إلهاً للعالم . فلم لا يجوز أن يكون إله العالم هو الفلك ؟ ومعلوم أنَّ ذلك لا يقوله عاقل .

النَّوع الثَّاني من الكلام في هذا الحديث : بناؤه علىٰ التَّأويل علىٰ سبيل التَّفصيل ، وهو أن يحمل هذا النُّزول علىٰ نزول رحمته إلىٰ الأرض . في ذلك الوقت ، والسَّبب في تخصيص ذلك الوقت بهذا الفعل وجوه :

الأوَّل : أنَّ التَّوبة التي يؤتىٰ بها في قلب الليل : الظَّاهر أنَّها تكون خالية عن شوائب الدُّنيا ، لأنَّ الأغيار لا يطلعون عليها ، فتكون أقرب إلىٰ القبول .

والثَّاني : أنَّ الغالب علىٰ الإنسان في قلب الليل الكسل والنَّوم والبطالة ، فلولا الجد العظيم في طلب الدِّين ، والرَّغبة الشَّديدة في تحقُّقه ، لما تحمَّل مشاق السَّهر ، ولما أعرض عن اللذَّات الجسمانيَّة ، ومتىٰ كان الجد والرَّغبة والإخلاص ، أتمّ وأكمل ، كان الثَّواب أوفر .

الثَّالث : أنَّ الليل وقت الكسل والفتور ، فاحتيج في التَّرغيب في الاشتغال بالعبادة في الليل إلىٰ مزيد أمور تؤثِّر في تحريك دواعي الاشتغال والتَّهجُّد ، فيحسن أنَّ الشَّارع إنَّما خصَّ هذا الوقت بمثل هذا الكلام . ليكون توفُّر الدواعي علىٰ التَّهجُّد : أتم ، فهذه الجهات الثَّلاث تصلح أن تكون سبباً لتخصيص الشَّرع هذا الوقت بهذا التَّشريف . ولأجلها قال الله تعالىٰ : ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات : ١٨] ، وقال : ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران : ١٧] .

الوجه الرَّابع : أنَّ جمعاً من أشراف الملائكة ينزلون في ذلك الوقت بأمر الله تعالىٰ ، فأضيف ذلك إلىٰ الله تعالىٰ ، لأنَّه حصل بسبب أمر الله تعالىٰ . كما يقال : بنىٰ الأمير داراً ، وضرب ديناراً . وممَّن ذهب إلىٰ هذا التَّأويل : من يروي الخبر بضم الياء تحقيقاً لهذا المعنىٰ .

واعلم : أنَّ تمام التقرير في هذا الخبر : أنَّ من نزل من الملوك عند إنسان لإصلاح شأنه ، والاهتمام بأمره ، فأنه يكرمه جداً . بل يكون نزوله عنده مبالغة في إكرامه ، ولما كان النُّزول موجباً للإكرام ، أو موجباً له ،

أطلق اسم النُّزول علىٰ الإكرام . وهذا أيضاً هو المراد بقوله تعالىٰ : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ [الفجر : ٢٢] ، وذلك أنَّ الملك إذا جاء وحضر لفصل الخصومات ، عظم وقعه ، واشتدَّت هيبته ، والله أعلم " (١) .

وقال الإمام أبو العبَّاس أحمَدُ بنُ الشَّيخ المرحومِ الفقيهِ أبي حَفْصٍ عُمَرَ بنِ إبراهيمَ الحافظ ، الأنصاريُّ القرطبيُّ (٦٥٦هـ) : " وقوله : " ينزل ربُّنا " كذا صحَّتِ الروايةُ هنا ، وهي ظاهِر في النُّزول المعنوي ، وإليها يردُّ " ينزلُ " علىٰ أحد التَّأويلات ، ومعنىٰ ذلك : أنَّ مقتضىٰ عظمةِ الله تعالىٰ وجلاله ، واستغنائه ، إلَّا يعبأ بحقيرٍ ، ذليل ، فقير ، لكن ينزل بمقتضىٰ كرمه ولُطفه ؛ لأنْ يقول : " من يقرضُ غيرَ عَدُوم ولا ظَلُوم " . ويكون قولُه : " إلىٰ السَّماء الدُّنيا " عبارةً عن الحاجة القريبة إلينا ، والدُّنيا بمعنىٰ : القُربىٰ ، والله أعلم . وقد قيَّده بعضُ النَّاس " يُنزِل " بضم الياء ، من : أنزل ، فيكون مُعدَّىٰ إلىٰ مفعولٍ محذوف ؛ أي : يُنزلُ اللهُ مَلَكًا فيقولُ : كذا . وأمَّا رواية : " ينزل " ثلاثيًّا ، مِن " نزل " ، فهي صحيحةٌ أيضاً ، وهي من باب حَذْف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه . كما قال : ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ﴾ [يوسف : ٨٢] . وقد دلَّ علىٰ صحَّة هذا التَّأويل ما رواه النسائيُّ عن أبي هريرة وأبي سعيد ، قالا : قال رسولُ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إنَّ الله عزَّ وجلَّ يُمهلُ حتىٰ يمضي شطرُ الليل الأول ، ثمَّ يأمرُ منادياً يقول : هل مِن داعٍ يُستجاب له ؟ هل من مُستغفرٍ يُغفر له ؟ هل من سائلٍ يُعطىٰ " ؟ وهذا صحيح ، وهو نمو ، وبه يرتفع الإشكال ، وقد قدَّمنا في كتاب الإيمان ما تُحمل عليه هذه المشكلات كلُّها " (٢) .

وقال الإمام عبد العزيز بن عبد السَّلام بن أبي القاسم بن الحسن ، شيخ الإسلام وبقيَّة الأعلام ، الشَّيخ عز الدِّين أبو محمَّد الدِّمشقيُّ الشافعيُّ (٦٦٠هـ) ، فيما نقله عنه الإمام تاج الدِّين السُّبكي : " وَأَنَّه لَيْسَ بجسم مُصَور ، وَلَا جَوْهَر مَحْدُود مُقَدّر ، وَأَنَّه لَا يماثل الْأَجْسَام ، لَا فِي التَّقْدِير وَلَا فِي قبُول الانقسام ، وَأَنه لَيْسَ بجوهر وَلَا تحلُّه الْجَوَاهِر ، وَلَا بِعرْض وَلَا تحله الْأَعْرَاض ، بل لَا يماثل مَوْجُوداً ، وَلَا يماثله مَوْجُود ، ولَيْسَ كمثله شَيْء ، ولا هو مثل شَيْء ، وَأَنه لَا يحدُّه الْمِقْدَار ، وَلَا تحويه الأقطار ، وَلَا تحيط بِهِ الْجِهَات ، وَلَا تكتنفه الأرضون وَالسَّمَوَات ، وَأَنه اسْتَوَىٰ علىٰ الْعَرْش علىٰ الْوَجْه الَّذِي قَالَه ، وبالمعنىٰ الَّذِي أَرَادَهُ ، اسْتِوَاء منزَّهاً عَن المماسَّة والاستقرار ، والتَّمكُّن والحلول والانتقال ... " (٣) .

---

(١) انظر : أساس التقديس (ص٢٠٤-٢٠٧) .

(٢) انظر : المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/ ٢٠) .

(٣) انظر : طبقات الشافعية الكبرىٰ (٦/ ٢٣١) .

وقال الإمام المتفنّن ، المتبحّر فِي العلم ، العالم ، الجليل ، الفاضل ، الفقيه ، المفسّر ، المحصل ، المحدِّث ، المتفنِّن ، أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري ، الخزرجي ، شمس الدِّين القرطبي ، صاحب التَّصانيف المفيدة التي تدلّ علىٰ كثرة اطّلاعه ووُفُور فضْله ، ومُصَنف التَّفْسِير المُشْهُور الَّذِي سَارَتْ بِهِ الركْبَان (٦٧١هـ) : " ... وَاخْتُلِفَ فِي مَعْنَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران : ١٧] ، فَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ (١٧٩هـ) : هُمُ السَّائِلُونَ الْمَغْفِرَةَ . قَتَادَةُ (١١٨هـ) : الْمُصَلُّونَ .

قُلْتُ : وَلَا تَنَاقُضَ ، فَإِنَّهُمْ يُصَلُّونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ ، وَخَصَّ السَّحَرَ بِالذِّكْرِ لأَنَّه مَظَانُّ الْقَبُولِ وَوَقْتُ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ مُخْبِراً عَنْ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِبَنِيهِ : ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف : ٩٨] : " أَنَّه أَخَّرَ ذَلِكَ إِلىٰ السَّحَرِ " . خَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ ...

وَسَأَلَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِبْرِيلَ : " أَيُّ اللَّيْلِ أَسْمَعُ " ؟ فَقَالَ : " لَا أَدْرِي ، غَيْرَ أَنَّ الْعَرْشَ يَهْتَزُّ عِنْدَ السَّحَرِ " . يُقَالُ سَحَرٌ وَسَحْرٌ ، بِفَتْحِ الْحَاءِ وَسُكُونِهَا ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ (٣١٠هـ) : السَّحَرُ مِنْ حِينِ يُدْبِرُ اللَّيْلُ إِلىٰ أَنْ يَطْلُعَ الْفَجْرُ الثَّاني ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : السَّحَرُ هُوَ سدس الليل الأخر .

قُلْتُ : أَصَحُّ مِنْ هَذَا مَا رَوَىٰ الْأَئِمَّةُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " يَنْزِلُ الله عزَّ وجلَّ إِلىٰ سَمَاءِ الدُّنيا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَمْضِي ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ ، فَيَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الْمَلِكُ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبُ لَهُ ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيهِ ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرُ لَهُ ؟ فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّىٰ يَطْلُعَ الْفَجْرُ " ، فِي رِوَايَةٍ : " حَتَّىٰ يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ " لَفْظُ مُسْلِمٍ (١) .

وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي تَأْوِيلِهِ ، وَأَوْلَىٰ مَا قِيلَ فِيهِ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ النَّسَائِيِّ مُفَسَّرًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا ، قَالَا : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّ اللهَّ عزَّ وجلَّ يُمْهِلُ حَتَّىٰ يَمْضِيَ شَطْرُ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ ، ثمَّ يَأْمُرُ مُنَادِياً ، فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ ، هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَىٰ " . صَحَّحَهُ أَبُو محمَّد عَبْدُ الْحَقِّ ، وَهُوَ يَرْفَعُ الْإِشْكَالَ وَيُوَضِّحُ كُلَّ احْتِمَالٍ ، وَأَنَّ الْأَوَّلَ مِنْ بَابِ حَذْفِ الْمُضَافِ ، أَيْ : يَنْزِلُ مَلَكُ رَبِّنَا فَيَقُولُ . وَقَدْ رُوِيَ " يُنْزِلُ " بِضَمِ الْيَاءِ ، وَهُوَ يُبَيِّنُ مَا ذَكَرْنَا ، وَبِاللهَّ تَوْفِيقُنَا . وَقَدْ أَتَيْنَا عَلَىٰ ذِكْرِهِ فِي " الْكِتَابِ الْأَسْنَىٰ فِي شَرْحِ أَسْمَاءِ اللهَّ الْحُسْنَىٰ وَصِفَاتِهِ الْعُلَىٰ " (٢) .

---

(١) انظر : صحيح مسلم (١/ ٥٢٢ برقم ٧٥٨) .

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٣٨-٣٩) .

فوقت السَّحر هو وقت الْقَبُولِ والإجابة ... وبعد أن ذكر حديث النُّزول ، قال : وَأَوْلَىٰ مَا قِيلَ فِيهِ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ النَّسَائِيِّ مُفَسَّراً عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا ، قَالَا : قَالَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّ اللهَّ عزَّ وجلَّ يُمْهِلُ حَتَّىٰ يَمْضِيَ شَطْرُ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ ، ثمَّ يَأْمُرُ مُنَادِياً ، فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ ، هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَىٰ " ، وَهُوَ يَرْفَعُ الْإِشْكَالَ وَيُوَضِّحُ كُلَّ احْتِمَالٍ ، وَأَنَّ الْأَوَّلَ مِنْ بَابِ حَذْفِ الْمُضَافِ ، أَيْ : يَنْزِلُ مَلَكُ رَبِّنَا فَيَقُولُ . وَقَدْ رُوِيَ " يُنْزِلُ " بِضَمِ الْيَاءِ ، وَهُوَ يُبَيِّنُ مَا ذَكَرْنَا ، وَبِاللهَّ تَوْفِيقُنَا .

وهو يرىٰ أنَّ رواية النَّسائي : " إِنَّ اللهَّ عزَّ وجلَّ يُمْهِلُ حَتَّىٰ يَمْضِيَ ... تفسير لحديث النُّزول ، وبالتَّالي فإنَّ الإمام القرطبي يذهب في النُّزول مذهب المؤولة الذين رأوا فيه نزولاً معنوياً بعيداً عن الحركة والنُّقلة ...

وقال الإمام محمَّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرْح الأنصاري القرطبي (٦٧١هـ) : " وحديث النُّزول ثابت في الأمَّهات ، خرَّجه الثِّقات الأثبات ، والمسلمون مجمعون علىٰ أنَّ النُّزول غير محمول علىٰ الاتِّصال ، والانتقال ، والاستقرار ، والزَّوال ، وشغل مكان وتفريغ مكان . وذكر الخطَّابي في المعالم في كلامه علىٰ حديث النُّزول : وَقَدْ زَلَّ بَعْضُ شُيُوخِ الْحَدِيثِ بأن قَالَ : فإِنْ قَالَ قَائِلٌ : كَيْفَ يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلىٰ السَّماء ؟ قِيلَ: يَنْزِلُ كَيْفَ شَاءُ . فَإِنْ قَالَ :كيف يَتَحَرَّكُ ؟ قيل له : إِنْ شَاءَ تَحَرَّكُ وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَتَحَرَّكْ . قال الخطابيُّ : وَهَذَا خَطَأٌ فَاحِشٌ عَظِيمٌ ، وَاللهُّ تَعَالَىٰ لَا يُوصَفُ بِالْحَرَكَةِ ، لِأَنَّ الْحَرَكَةَ وَالسُّكُونَ يَتَعَاقَبَانِ فِي مَحِلٍّ وَاحِدٍ ، وإِنَّما يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ بِالْحَرَكَةِ مَنْ يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ بِالسُّكُونِ ، وَكِلَاهُمَا مِنْ أَعْرَاضِ الْمحَدَثِ ، وَأَوْصَافِ الْمخْلُوقِينَ ، وَاللهُّ تَعَالَىٰ مُتَعَالٍ عَنْهُمَا ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . فَلَوْ جَرَىٰ هَذَا الشَّيخ – عفا الله عنا وعنه – عَلَىٰ طَرِيقَةِ السَّلف الصَّالح ، وَلَمْ يُدْخِلْ نَفْسَهُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ لَمْ يَكُنْ يَخْرُجُ بِهِ الْقَوْلُ إِلىٰ مِثْلِ هَذَا الْخَطَأِ الْفَاحِشِ الذي لَا يُثْمِرُ خَيْراً وَلَا يُفِيدُ رُشْداً ، نَسْأَلُ اللهَّ الْعِصْمَةَ مِنَ الضَّلَالِ ، وَالْقَوْلِ بِمَا لَا يَجُوزُ مِنَ الْفَاسِدِ وَالْمحَالِ .

قلت : حديث النُّزول نحمله عندنا علىٰ أحد معنيين : إمَّا علىٰ حذف مضاف ، كما رواه النَّسائي وغيره عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما ، قالا : قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّ اللهَّ عزَّ وجلَّ يُمْهِلُ حَتَّىٰ يَمْضِيَ شَطْرُ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ ، ثمَّ يَأْمُرُ مُنَادِياً ، فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ ، هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَىٰ " . صَحَّحَهُ أَبُو محمَّد عَبْدُ الْحَقِّ ، وَهُوَ يَرْفَعُ الْإِشْكَالَ وَيُوَضِّحُ كُلَّ احْتِمَالٍ . فمعنىٰ ينزل ربُّنا : ينزل مَلَك ربّنا . وقد روي بضم الياء ، وهو يبيِّن ما ذكرنا ، والسُّنَّة تفسِّر بعضها بعضاً ، وكذلك الآيات .

والمعنى الثَّاني : أن يكون نزول الله تعالى عبارة عن إفضاله وإحسانه وقُربه من العبد قُرب إكرام وقبول توبة وغفران . ومنه قول النَّاس : نزل السُّلطان إلى النَّاس : إذا عدل عليهم وخفض جناحه لهم ، فيكون من صفات الأفعال . ولا سبيل إلى حمله على صفات الذَّات ، فإنَّ الحديث فيه مصرَّح بتجدُّد النُّزول ، واختصاصه ببعض الأوقات والسَّاعات . والصِّفات التي تثبت للذَّات يجب اتِّصافها بالقدم ، وتنزيهها عن الحدوث والتَّجدُّد والاختصاص بالزَّمان ، والاستواء من هذا القبيل أيضاً ، فإنَّ كلّ ما لم يكن فكان أو لم يثبت ثمَّ ثبت فهو من قبيل الأفعال ، ويستحيل أن يكون الحادث المفتتح الوجود صفة لله تعالى ، فإنَّه يتعالى عن قبول الحوادث ، وكلّ قابل للحوادث فهو حادث . وإنَّما النُّزول والاستواء من صفات الأفعال . فالحادثات المتجدِّدات المتخصِّصة بالأوقات أفعال الله . والقول في المجيء يحُلُّ هذا المحل ، فإنَّه يتخصَّص بوقت فعل حادث ، والحوادث لا تكون صفة ذات لله تعالى " (١) .

وقال الإمام يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسين بن محمَّد بن جمعة بن حرام الشَّيخ الإمام العلَّامة محيي الدِّين أبو زكريَّا الحزامي ، النَّووي ، الحافظ ، الفقيه ، الشَّافعي ، النَّبيل ، محرِّرُ المذهب ومهذِّبه ، وضابطه ، ومرتِّبه ، أحد العُبَّاد والعلماء الزهَّاد (٦٧٦هـ) في كلامه على حديث النُّزول : " فِي هَذَا الْحَدِيثِ وَشَبَهِهِ مِنْ أَحَادِيثِ الصِّفات وَآيَاتِهَا مَذْهَبَانِ مَشْهُورَانِ :

أَحَدُهُمَا : تَأْوِيلُهُ عَلَى مَا يَلِيقُ بِصِفَاتِ اللهَّ سبحانه وتعالى ، وتنزيهه من الِانْتِقَالِ وَسَائِرِ صِفَاتِ الْمُحْدَثِ ، وَهَذَا هُوَ الْأَشْهَرُ عن الْمُتَكَلِّمِينَ .

والثَّاني : الْإِمْسَاكُ عَنْ تَأْوِيلِهَا ، مَعَ اعْتِقَادِ تَنْزِيهِ اللهَّ سُبْحَانَهُ عَنْ صِفَاتِ الْمُحْدَثِ ، لِقَوْلِهِ تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[الشورى: ١١] ، وَهَذَا مَذْهَبُ السَّلف وَجَمَاعَةٍ مِنْ الْمُتَكَلِّمِينَ ، وَحَاصِلُهُ : أَنْ يُقَالَ : لَا نَعْلَمُ الْمُرَادَ بِهَذَا ، وَلَكِنْ نُؤْمِنُ بِهِ مَعَ اعْتِقَادِنَا أَنَّ ظَاهِرَهُ غَيْرُ مُرَادٍ ، وَلَهُ مَعْنًى يَلِيقُ بِاللهَّ تَعَالَى ، وَاللهَّ أَعْلَمُ " (٢) .

وقال الإمام النَّووي (٦٧٦هـ) في كلامه على حديث النُّزول أيضاً : مِنْ أَحَادِيثِ الصِّفات وَفِيهِ مَذْهَبَانِ مَشْهُورَانِ لِلْعُلَمَاءِ سَبَقَ إِيضَاحُهُمَا فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ وَمُخْتَصَرُهُمَا أَنَّ : أَحَدُهُمَا : وَهُوَ مَذْهَبُ جُمْهُورِ السَّلف وَبَعْضِ الْمُتَكَلِّمِينَ : أَنَّه يُؤْمِنُ بِأَنَّهَا حَقٌّ عَلَى مَا يَلِيقُ بِاللهَّ تَعَالَى ، وَأَنَّ ظَاهِرَهَا الْمُتَعَارَفُ فِي حَقِّنَا غَيْرُ مُرَادٍ ، وَلَا

(١) انظر : الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى (٢/ ٢٠١-٢٠٣) .

(٢) انظر : المجموع شرح المهذب (مع تكملة السبكي والمطيعي) (٤/ ٤٧-٤٨) .

يَتَكَلَّمُ فِي تَأْوِيلِهَا مَعَ اعْتِقَادِ تَنْزِيهِ اللهِ تَعَالَى عَنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِ وَعَنِ الِانْتِقَالِ والحركات وسائر سمات الخلق .

والثَّاني : مذهب أكثر المتكلِّمين وَجَمَاعَاتٍ مِنَ السَّلف ، وَهُوَ مَحْكِيٌّ هُنَا عَنْ مَالِكٍ وَالْأَوْزَاعِيِّ (١٥٧هـ) : أَنَّهَا تُتَأَوَّلُ عَلَىٰ مَا يَلِيقُ بها بِحَسَبِ مَوَاطِنِهَا . فَعَلَىٰ هَذَا تَأَوَّلُوا هَذَا الْحَدِيثَ تَأْوِيلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : تَأْوِيلُ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ (١٧٩هـ) وَغَيْرُهُ ، مَعْنَاهُ : تَنْزِلُ رَحْمَتُهُ وَأَمْرُهُ وَمَلَائِكَتُهُ ، كَمَا يُقَالُ : فَعَلَ السُّلْطَانُ كَذَا إِذَا فَعَلَهُ أَتْبَاعُهُ بِأَمْرِهِ . والثَّاني : أَنَّه عَلَىٰ الِاسْتِعَارَةِ ، وَمَعْنَاهُ : الْإِقْبَالُ عَلَى الدَّاعين بالإجابة واللطف ، والله أعلم " (١) .

وما ذكره الإمام النَّووي مُلخَّصاً ، هو الحقُّ الذي ليس بعده إلَّا الضَّلال ، وقد استوفيت هذا كلّه في رسالتي للماجستير ، وكانت بعنوان : " التَّفويض في صفات الله تعالىٰ بين السَّلف والخلف " ...

وقال الإمام محمَّد بن مكرَّم ، بتشديد الراء ، ابن علي بن أحمد الأنصاري ، الرّويفعي ، الأفريقي ، ثمَّ المصري ، القاضي الفاضل جمال الدِّين أبو الفضل ، ابن منظور (٧١١هـ) : " وَفِي الْحَدِيثِ : " إن اللهَّ تَعَالَىٰ وَتَقَدَّسَ يَنْزِل كُلَّ لَيْلَةٍ إلىٰ سَماءِ الدُّنيا " ؛ النُّزول والصُّعود وَالْحَرَكَةُ والسُّكونُ مِنْ صِفَاتِ الأَجسام ، وَاللهُّ عزَّ وجلَّ يَتَعَالَىٰ عَنْ ذَلِكَ وَيَتَقَدَّسُ ، وَالْمُرَادُ بِهِ : نُزول الرَّحْمَةِ والأَلْطافِ الإلهية وقُرْبها مِنَ الْعِبَادِ ، وتخصيصُها بِاللَّيْلِ وبالثُلث الأَخيرِ مِنْهُ ، لأَنَّه وقتُ التهجُّد ، وغفلةِ النَّاس عمَّن يتعرَّض لِنَفَحَاتِ رَحْمَةِ اللهَّ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ تَكُونُ النيةُ خَالِصَةً ، والرغبـــةُ إلىٰ اللهَّ عزَّ وجلَّ وافِرة ، وَذَلِكَ مَظِنَّة الْقَبُولِ والإِجابة " (٢) .

وقال الإمام الخازن (٧٢٥هـ) في معرض كلامه علىٰ حديث النُّزول : " هذا الحديث من أحاديث الصِّفات ، وللعلماء فيه وفي أمثاله مذهبان معروفان : مذهب السَّلف : الإيمان به ، وإجراءه علىٰ ظاهره ، ونفي الكيفيَّة عنه ، والمذهب الثَّاني : هو مذهب من يتأوَّل أحاديث الصِّفات .

قال أبو سليمان الخطابي : إنَّما يُنكرُ هذا الحديث من يقيسُ الأمور علىٰ ما يشاهده من النُّزول الذي هو تدلٍّ علىٰ من أعلىٰ إلىٰ أسفل ، وانتقال من فوق إلىٰ تحت ، وهذا صفة الأجسام ، فأمَّا نزول من لا تستولي عليه صفات الأجسام ، فإنَّ هذه المعاني غير متوهَّمة فيه ، وإنَّما هو خبرٌ عن قدرته ورأفته بعباده وعطفه عليهم واستجابته دعاءهم ، ومغفرته لهم ، يفعل ما يشاء ، لا يتوجَّه علىٰ صفاته كيفيَّة ، ولا علىٰ أفعاله كميَّة ، سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ: ١١] (٣) .

---

(١) انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٦/ ٣٦-٣٧) .

(٢) انظر : لسان العرب (١١/ ٦٥٧) .

(٣) انظر : تفسير الخازن المسمىٰ لباب التَّأويل في معاني التنزيل (١/ ٣٢٨) .

وقال الإمام محمَّد بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَعْدِ اللهَّ بْنِ جَمَاعَةَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ جَمَاعَةَ الْكِنَانِيُّ الْحَمَوِيُّ الشَّافِعِيُّ، قَاضِي الْقُضَاةِ بَدْرُ الدِّين أَبُو عَبْدِ اللهَّ الإِمَامُ الْمُفْتِي (٧٣٣هـ) : " اعْلَم أَنَّ النُّزول الَّذِي هُوَ الاِنْتِقَال من علو إِلىٰ سفل لَا يجوز حمل الحَدِيث عَلَيْهِ لوجوه :

الأوَّل : النُّزول من صِفَات الْأَجْسَام والمحدثات ، وَيحْتَاج إِلىٰ ثَلَاثَة أجسام : منتقلٌ ، ومنتقل عَنهُ ، ومنتقل إِلَيْهِ ، وَذَلِكَ علىٰ الله تَعَالَىٰ محَال .

الثَّاني : لَو كَانَ النُّزول لذاته حَقِيقَة لتجدَّدت لَهُ فِي كلِّ يَوْم وَلَيْلَة حركات عديدة تستوعب اللَّيْل كُله ، وتنقلات كَثِيرَة ، لِأَنَّ ثلث اللَّيْل يَتَجَدَّد علىٰ أهل الأَرْض مَعَ اللحظات شَيْئاً فَشَيْئاً ، فيلْزم انْتِقَاله فِي السَّماء الدُّنيا لَيْلاً وَنَهَاراً ، من قوم إِلىٰ قوم ، وعودة إِلىٰ الْعَرْش فِي كل لَحْظَة علىٰ قَوْلهم ، ونزوله فِيهَا إِلىٰ سَمَاء الدُّنيا ، وَلَا يَقُول ذَلِك ذو لبٍّ وَتَحْصِيل .

الثَّالِث : أَنَّ الْقَائِل بِأَنَّهُ فَوق الْعَرْش ، وَأَنه ملأَهُ ، كَيفَ تسعه سَمَاء الدُّنيا ؟! وَهِي بِالنِّسْبَةِ إِلىٰ الْعَرْش كحلقة فِي فلاة ، فَيلْزم عَلَيْهِ أحد أَمريْن : أَمَّا اتساع سَماء الدُّنيا كل سَاعَة حَتَّىٰ تِسْعَة ، أَو تضاؤل الذَّات المقدسة عَن ذَلِك حَتَّىٰ تِسْعَة ، وَنحن نقطع بِانْتِفَاء الْأَمريْنِ .

الرَّابع : إِن كَانَ الْمُرَاد بالنُّزول اسْتِمَاع الْخلق إِلَيْهِ ، فَذَلِك لم يحصل بِاتِّفَاق ، وَإِن كَانَ الْمُرَاد بِهِ النداء من غير إسماع فَلَا فَائِدَة فِيهِ ، ويتعالىٰ الله عَن ذَلِك .

إِذا ثَبت ذَلِك فقد ذهب جمَاعَة من السَّلف إِلىٰ السُّكُوت عَن الْمُرَاد بذلك النُّزول ، مَعَ قطعهم بِأَنَّ مَالا يَلِيق بجلاله تَعَالَىٰ غير مُرَاد ، وتنزيهه عَن الْحَرَكَة والانتقال .

قَالَ الْأَوْزَاعِيّ (١٥٧هـ) : وَقد سُئِلَ عَن ذَلِك ، فَقَالَ : يفعل الله مَا يَشَاء " (١) .

ومن المعلوم أن من يدَّعون السَّلفيَّة يزعمون أنَّ السَّماء الدُّنيا بِالنِّسْبَةِ إِلىٰ الْعَرْش كحلقة فِي فلاة ، مستشهدين بحديث : " ... مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَىٰ الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَىٰ الْحَلْقَةِ ... " ، مع أنَّ الحديث بطرقه السَّبعة ضعيف ، ضعَّفه غير واحد من أهل العلم ... وهو خبر منكر ... وَيلْزم عَلَيْهِ أحد أَمريْن : إِمَّا اتِّساع سَماء الدُّنيا كل سَاعَة حَتَّىٰ تِسْعَة ، أَو تضاؤل الذَّات المقدسة عَن ذَلِك حَتَّىٰ تَسْعَة والعياذ بالله ، وَنحن نقطع بِانْتِفَاء الْأَمريْنِ ...

ثم إِن كَانَ الْمُرَاد بالنُّزول اسْتِمَاع الْخلق إِلَيْهِ ... فَذَلِك – كما وضَّح ابن جماعة – لم يحصل بِاتِّفَاق ، وَإِن كَانَ الْمُرَاد بِهِ النِّداء من غير إسماع فَلَا فَائِدَة فِيهِ ، ويتعالىٰ الله عَن ذَلِك .

---

(١) انظر : إيضاح الدَّليل في قطع حجج أهل التعطيل (ص١٦٤-١٦٥) .

وأخيراً خلص إلىٰ ما قاله جمهور السَّلف من السُّكُوت عَن المُرَاد بذلك النُّزول ، مَعَ قطعهم بِأَنَّ مَالا يَلِيق بجلاله تَعَالَىٰ غير مُرَاد ، والواجب تنزيه سبحانه وتعالىٰ عَن الْحَرَكَة والانتقال ...

هذا باختصار مُجمل ما لخَّصه الإمام ابن جماعة في مسألة النُّزول ، ومن المعلوم أنَّ الإمام الذَّهبي – تلميذ ابن تيمية – قد نعت الإمام ابن جماعة بنعوت طيِّبة ، فقال عنه : " ... قَاضِي الْقُضَاةِ ، شَيْخُ الإِسْلامِ ، الْمُفَسِّرُ ، صاحب التَوَالِيفُ فِي الْفِقْهِ ، وَالْحَدِيثِ ، وَالأُصُولِ ، وَالتَّارِيخِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَلَهُ مُشَارَكَةٌ حَسَنَةٌ فِي عُلُومِ الإِسْلامِ مَعَ دِينٍ ، وَتَعَبُّدٍ ، وَتَصَوُّفٍ ، وَأَوْصَافٍ حَمِيدَةٍ ، وَأَحْكَامٍ مَحْمُودَةٍ . وَلَهُ النَّظْمُ ، وَالنَّثْرُ ، وَالْخُطَبُ ، وَالتَّلامِذَةُ ، وَالْجَلالَةُ الْوَافِرَةُ ، وَالْعَقْلُ التَّامُّ ، وَالْخُلُقُ الرَّضِيُّ ، فَاللهُ يُحْسِنُ خَاتِمَتَهُ ، وَهُوَ أَشْعَرِيٌّ فَاضِلٌ !!! " (١) ... مع التَّأكيد علىٰ أنَّ أغلب النُّعوت التي صدَّرتها عند نقل كلام العلماء ... هي من ثناء الإمام الذّهبي عليهم في ترجمته لهم ...

وقال الإمام أَحْمد بن يحيىٰ بن إِسْمَا عِيل الشَّيخ شهَاب الدِّين ابْن جهبل الْكلابِي الْحَلَبِي (٧٣٣هـ) فيما نقله عنه الإمام تاج الدِّين عبد الوهَّاب بن تقي الدِّين السُّبكي (٧٧١هـ) ما نصّه : " أمَّا التَّقْدِيس فَهُوَ أَن يعْتَقد فِي كلِّ آيَة أَو خبر معنىً يَلِيق بِجلَال الله تَعَالَىٰ ، مِثَال ذَلِك : إِذا سمع قَوْله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّ الله ينزل كل لَيْلَة إِلىٰ سَمَاء الدُّنيا " ، وَكَانَ النُّزول يُطلق علىٰ مَا يفْتَقر إِلىٰ جسم عَال ، وجسم سافل ، وجسم منتقل من العالي إِلىٰ السَّافل .

والنُّزول انْتِقَال جسم من علو إِلىٰ سفل ، وَيُطلق علىٰ معنىً آخر لَا يفْتَقر إِلىٰ انْتِقَال وَلَا حَرَكَة جسم ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر : ٦] ، مَعَ أَنَّ النَّعم لم تنزل من السَّماء ، بل هِيَ مخلوقة فِي الْأَرْحَام قطعاً ، فالنُّزول لَهُ معنىً غير حَرَكَة الْجِسْم لَا محَالة .

وَفهم ذَلِك من قَول الإِمَام الشَّافِعِي (٢٠٤هـ) رَضِي الله عَنهُ : دخلت مصر فَلم يفهموا كَلَامي ، فَنزلت ثمَّ نزلت ثمَّ نزلت ، وَلم يرد حِينَئِذٍ الِانْتِقَال من علو إِلىٰ سفل .

فليتحقَّق السَّامعُ أَنَّ النُّزول لَيْسَ بِالْمَعْنَىٰ الأَوَّل فِي حقِّ الله تَعَالَىٰ ، فَإِنَّ الْجِسْم علىٰ الله مُحَال ، وَإِن كَانَ لَا يفهم من النُّزول الِانْتِقَال ، فَيُقَال لَهُ : من عجز عَن فهم نزُول الْبَعِير ، فَهُوَ عَن فهم نزُول الله عزَّ وجلَّ أعجز . فَاعْلَم أَنَّ هَذَا معنىً يَلِيق بجلاله ...

(١) انظر : معجم الشيوخ الكبير (٢/ ١٣٠) .

وَكَذَلِكَ لَفْظَة " فوق " الْوَارِدَة فِي الْقُرْآن وَالْخَبَر ، فَليعلم أَنَّ " فوق " تَارَة تكون للجسميَّة ، وَتارَة للمرتبة ، كَمَا سبق ، فَليعلم أَنَّ الجسميَّة على الله محَال ، وَبعد ذَلِك : إِنَّ لَهُ معنى يَلِيق بجلاله تَعَالَى " (١) ...

الفَصْلُ الخَامِس

الآيَاتُ المغايرة لِلآيَاتِ التِي يُوْهِمُ ظَاهِرُهَا العُلُوّ المَكَانِي لله تَعَالَى

من المعلوم أنَّ الكتاب العزيز اشتمل على العديد من الآيات المطهَّرة المغايرة للآيات التي يستشهد بها المتمسلفون على العلوِّ المكانيِّ لله تعالى ... ومن تلك الآيات :

أَوَّلاً : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦] ، **وقوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾** [الواقعة:٨٥] .

وتالياً باقة من كلام العلماء في شرحهم للآيتين الكريمتين :

قال الإمام أبو سعيد عثمان بن سعيد الدَّارمي (٢٨٠هـ) : " قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ ، أَيْ : نَحْنُ نَعْلَمُ مِنْهُ مَا ظهر وَمَا بطن، مَا غِيبَ مِنْهُ الْجُلُودُ، وَوَارَاهُ الْجَوْفُ، وأخفته الصُّدُور وَأَنْتُم لاتبصرون، فَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ بِالْعِلْمِ بِذَلِكَ ... " (١) .

---

(١) انظر : طبقات الشافعية الكبرى (٩/ ٨١) .

فعثمان بن سعيد الدَّارمي هنا اضطرَّ إلى التَّأويل ... لأنَّ ظاهر الآية الكريمة يتعارض بل ينسف مذهبه القاضي باستقرار الله على العرش ... وهذا هو ديدن هذه الفئة من النَّاس ... يلجؤون إلى التَّأويل – الذي لا يقولون به أصلاً – إذا ما واجههم نصٌّ يتعارض مع مذهبهم ومنهجهم ...

وقال الإمام أبو منصور الماتريدي (٣٣٣هـ) : " وَمِنْهُم من يَقُول : هُوَ بِكُل مَكَان بقوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ [المجادلة:٧] ، وَقَوله : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق:١٦] ، وَقَوله : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ [الواقعة:٨٥] ، وَقَوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الزخرف:٨٤] ، وظنُّوا أَنَّ القَوْل بِأَنَّهُ فِي مَكَان دون مَكَان يُوجب الْحَدّ وكلّ ذِي حدّ مقصر عَمَّا هُوَ أعظم مِنْهُ وَذَلِكَ عيب وَآفَة وَفِي ذَلِك إِيجَاب الْحَاجة إِلَى الْمَكَان مَعَ مَا فِيهِ إِيجَاب الْحَد إِذْ لَا يحْتَمل أَن يكون أعظم من الْمَكَان لما هُوَ سخف فِي الْمُتَعَارف أَن يخْتَار أُحدُ مَكَاناً لَا يَسعهُ فَيصير حدُّ الْمَكَان حَدّه جلَّ رَبُّنَا عَن ذَلِك وَتَعَالَى " (٢) .

وقال أيضاً : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ ، أَي : بالسُّلطان وَالْقُوَّة وبألوهيته فِي الْبِقَاع كلهَا لِأَنَّهَا أمكنة الْعِبَادَة " (٣) .

وقال أيضاً : " وَالله تَعَالَى لم يزل وَلَا يزَال بِلَا تغير وَلَا زَوَال وَلَا انْتِقَال من حَال إِلَى حَال وَلَا تحرّك وَلَا قَرَار ، إِذْ هُوَ وصف اخْتِلَاف الْأَحْوَال ، وَمن تخْتَلف الْأَحْوَال عَلَيْهِ فَهُوَ غير مفارق لَهَا ، وَمن لَا يُفَارق الْأَحْوَال وَهن أَحْدَاث فَيجب بهَا الْوَصْف بالإحداث وَفِي ذَلِك سُقُوط الوحدانيَّة ثمَّ الْقدَم ثمَّ جرى لتدبير الْغَيْر عَلَيْهِ إِذْ حَال من الْأَحْوَال لَو كَانَت لذاته لم يجز تغيّرها مَا دَامَت ذَاته ، فَثَبت بذلك الْغَيْر لتغيُّر الْأَحْوَال عَلَيْهِ وبنقله من حَال إِلَى حَال ، وَذَلِكَ دَلِيل تعاليه عَن الْوَصْف بِالْمَكَانِ ، إِذْ قد ثَبت أَن كَانَ وَلَا مَكَان ، وَلَيْسَ فِي الْإِضَافَة إِلَى أَنَّه على الْعَرْش اسْتَوَى تثبيت مَكَان كَمَا لم يكن فِي قَوْله : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ ، وَقَوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ ، وَقَوله : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾، ذَلِك على أَنَّ القَوْل بِالْمَكَانِ لَيْسَ من نوع التَّعْظِيم والتَّبجيل بل الْأَمْكِنَة إِنَّمَا شرفت بِهِ وتفاوتت أقدارها بتفضيله مَكَاناً على مَكَان بِجعله مَخْصُوصًا لأخيار خلقه أَو لما جعل لعبادته وتعظيمه فِيهِ ، فَأَمَّا أَن يكون أحد تعلو رتبته بِالْمَكَانِ من مُلُوك الأَرْض أَو الأخيار فَلَيْسَ بِهِ فَكيف بِالْملكِ الْجَبَّار الَّذِي مَا ارْتَفع قدر مَكَان وَلَا جلَّ خطره إِلَّا بِهِ وَإِذا كَانَ كَذَلِك بَطل أَن يكون فِي الْإِضَافَة تَعْظِيمه ثمَّ يكون فِيمَا بعد ذَلِك للْحَاجة وَهُوَ يتعالى

---

(١) انظر : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عزَّ وجلَّ من التَّوحيد (١/ ٤٤٨-٤٤٩) .

(٢) انظر : التَّوحيد (ص٦٨) .

(٣) انظر : التَّوحيد (ص٧١) .

عَنْهَا ، فَلذَلِك لم يجب بقوله : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ معنىٰ الْكَوْن فِي الْمَكَان إِذْ ذَلِك الْحَرْف يعبر بِهِ عَن الْعُلُوّ والجلال ومحال مثله لَهُ بخلقه فَثَبت أَن ذَلِك من الْوَجْه الَّذِي يسْتَحقّهُ بِذَاتِهِ من الْعُلُوّ والرفعة وَمَا هُوَ بِذَاتِهِ عَلَيْهِ فَهُوَ كَانَ كَذَلِك وَلَا خلق لم يجز الْوَصْف لَهُ بالخلق وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللهَّ " (١) .

وقال الإمام ابن حزم الأندلسي (٤٥٦هـ) : " قَالَ أَبُو مُحَمَّد ذهبت الْمُعْتَزلَة إِلىٰ أَن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي كل مَكَان وَاحْتَجُّوا بقول الله تَعَالَىٰ : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ [المجادلة:٧] ، وَقَوله تَعَالَىٰ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦] ، وَقَوله تَعَالَ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة:٨] .

قَالَ أَبُو مُحَمَّد : قَول الله تَعَالَىٰ يجب حمله علىٰ ظَاهره مَا لم يمْنَع من حمله علىٰ ظَاهره نَصٌّ آخر أَو إِجْمَاع أَو ضَرُورَة حسّ ، وَقد علمنَا أَنَّ كلَّ مَا كَانَ فِي مَكَان فَإِنَّهُ شاغل لذَلِك الْمَكَان وَمَالِي لَهُ ومتشكِّل بشكل الْمَكَان وَالْمَكَان متشكِّل بشكله ، وَلَا بُدَّ من أحد الْأَمريْنِ ضَرُورَة ، وَعلمنَا أَنَّ مَا كَانَ فِي مَكَان فَإِنَّهُ متناه بتناهي مَكَانَهُ ، وَهُوَ ذُو جِهَات سِتّ أَو خمس متناهية فِي مَكَانَهُ ، وَهَذِه كلّهَا صِفَات الْجِسْم ، فَلَمَّا صَحَّ مَا ذكرنَا علمنَا أَنَّ قَوْله تَعَالَىٰ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ ، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ ، وَقَوله تَعَالَىٰ : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ إِنَّمَا هُوَ التَّدْبِير لذَلِك والإحاطة بِهِ فَقَط ضَرُورَة لانْتِفَاء مَا عدا ذَلِك ، وَأَيْضًا فَإِن قَوْلهم فِي كلِّ مَكَان خطأ لأَنَّه يلْزم بِمُوجب هَذَا القَوْل أَنَّه يمْلأ الْأَمَاكِن كلَّهَا وَأَن يكون مَا فِي الْأَمَاكِن فِيهِ الله ، تَعَالَىٰ الله عَن ذَلِك ، وَهَذَا محَال ، فَإِن قَالُوا : هُوَ فِيهَا بِخِلَاف كَون المتمكّن فِي الْمَكَان ، قيل لَهُم : هَذَا لَا يعقل وَلَا يقوم عَلَيْهِ دَلِيل ، وَقد قُلْنَا أَنَّه لَا يجوز إِطْلَاق اسْم علىٰ غير مَوْضُوعه فِي اللُّغَة إِلَّا أَن يَأْتِي بِهِ نَصّ فيقف عِنْده وندري حِينَئِذٍ أَنَّه مَنْقُول إِلىٰ ذَلِك الْمَعْنىٰ الآخر وَإِلَّا فَلَا ، فَإِذْ قد صَحَّ مَا قد ذكرنَا فَلَا يجوز أَن يُطلق القَوْل بِأَنَّ الله تَعَالَىٰ فِي كلّ مَكَان لَا علىٰ تَأْوِيل وَلَا غَيره لأَنَّه حكم بِأَنَّهُ تَعَالَىٰ فِي الْأَمْكِنَة لَكِن يُطلق القَوْل بِأَنَّهُ تَعَالَىٰ مَعنا فِي كلّ مَكَان وَيكون قَوْلنَا حينئذٍ فِي كلِّ مَكَان إِنَّمَا هُوَ من صلَة الضَّمِير الَّذِي هُوَ النُّون وَالْألف اللَّذَان فِي مَعنا لَا مِمَّا يخبر بِهِ عَن الله تَعَالَىٰ ، وَهَذَا هُوَ معنىٰ قَوْله : ﴿ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ﴾ [المجادلة:٧] ،﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد:٤] ... " (٢) .

وقال الإمام ابن جماعة الكناني (٧٣٣هـ) : " ... الْآيَة السَّادِسَة عشر قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ ، ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ ، ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ ﴾ [البقرة:١٨٦] ، ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود:٦١]

---

(١) انظر : التَّوحيد (ص١٠٥) .

(٢) انظر : الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/ ٩٦فما بعدها) .

إذا ثبت تَنْزِيه الرَّبِّ تَعَالَىٰ عَن الحيِّز والجهة والقُرب الحْسِّي والبُعد الْعرفِيّ وَجب تَأْوِيل ذَلِك علىٰ مَا يَلِيق بجلاله وَهُوَ قُرب علمه وَرَحمته ولطفه ، وَيُؤَيِّدهُ قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦] أَو قرب الْمنزلَة عِنْده كَمَا يُقَال السُّلْطَان قريب من فلَان إِذا كَانَت لَهُ عِنْده منزله رفيعة وَالسَّيِّد قريب من غلمانه إِذا كَانَ يتنازل مَعَهم فِي مخاطبتهم وملاطفتهم وَلَيْسَ المُرَاد هَهُنَا قرب مَسَافَة وَلَا مَكَان . وَإِذا كَانَ ذَلِك مُسْتَعْملاً فِي لِسَان الْعَرَب وَالْعرْف وَجب حمله عَلَيْهِ لِاسْتِحَالَة ظَاهر الْمسَافَة فِي حقِّ الرَّب تَعَالَىٰ " (١) .

وقال الإمام ابن قيِّم الجوزيَّة (٧٥١هـ) : " وأبلغ وأكفىٰ من ذَلِك كُله قَول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة:٨٣-٨٥] ، أي : أقرب إِلَيْهِ بملائكتنا وَرُسُلنَا وَلَكِنَّكُمْ لَا ترونهم فَهَذَا أول الْأَمر وَهُوَ غير مرئىٰ لنا وَلَا مشَاهد وَهُوَ فِي هَذِه الدَّار " (٢) .

وقال الإمام مرعي بن يوسف الكرمىٰ (١٠٣٣هـ) : " فَقَوله سُبْحَانَهُ : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُونَ جَمِيعًا هُوَ كِنَايَة عَن الْعلم بِهِ وبأحواله أَي وَنحن أعلم بِحَالِهِ مِمَّن كَانَ أقرب إِلَيْهِ من حَبل الوريد ، فَهُوَ تجوُّز بِقُرب الذَّات لقُرب الْعلم لأَنَّه مُوجبه بِحَيْثُ لَا يخفىٰ عَلَيْهِ شَيْء من خفيَّاته فَكَأَن ذَاته قريبَة مِنْهُ .

قَالَ الإِمَام أَبُو حَيَّان : كَمَا يُقَال أَنَّه تَعَالَىٰ فِي كلِّ مَكَان ، أَي : بِعِلْمِهِ وَهُوَ تَعَالَىٰ منزَّه عَن الْأَمْكِنَة ، انْتهىٰ .

وَالَّذِي يدلُّ علىٰ أَنَّ المُرَاد بِالْقُربِ هُوَ الْقُرب بِالْعلمِ سِيَاق الْآيَة فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ قَال : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ﴾ ثمَّ قَالَ : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ أَي : بِالْعلمِ الْمَفْهُوم من نعلم وحبل الوريد مثل فِي فرط الْقُرب كَقَوْل الْعَرَب هُوَ مني مقْعد الْقَابِلَة ومعقد الْإِزَار وَالْحَبل الْعرق فَشبه بِوَاحِد " (٣) .

وقال أيضاً : " وَأما قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ فَالْمُرَاد بِهِ قرب أعوان ملك الْمَوْت من المحتضر بِدَلِيل سِيَاق الْآيَة وَهُوَ قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الْوَاقِعَة : ٨٣-٨٤] ، ﴿ وَنَحْنُ﴾ أَي : ملائكتنا وَعبر بهم عَنهُ سُبْحَانَهُ لأَنَّهم رسله ومأموروه أَو المُرَاد وَنحن أقرب إِلَيْهِ ، أَي : بِالْعلمِ .

---

(١) انظر : إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل (ص١٣٥-١٣٦) .

(٢) انظر : الروح في الكلام علىٰ أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة (ص٦٥) .

(٣) انظر : أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات (ص٩٨) .

فَإن قيل : لَو كَانَ الْمُرَاد بِهِ الْعلم لما صَحَّ أَن يَقُول : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾ ، لِأَنَّ الْعلم لَا يبصر بل كَانَ يَقُول : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾ لِأَنَّ الْعلم لَا يبصر .

فَجَوَابه : أَن تبصرون يُطلق علىٰ الْبَصَر بِالْعينِ وَيُطلق علىٰ الشُّعُور وَالْعلم بِالْغَيْبِ كَمَا قَالَه أهل اللُّغَة لأَنَّه يُقَال بصرته بعيني وبصرته بقلبي فارتفع الْإِشْكَال" (١) .

وقال الإمام الأخفش الأوسط (٢١٥هـ) : " وقال : ﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ يقول: أَمْلَكُ بِهِ وأَقْرَبُ إِلَيْهِ في المقدرة عليه " (٢) .

وقال الإمام الطَّبري (٣١٠هـ) : " وقد اختلف أهل العربية في معنىٰ قوله : ﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾ فقال بعضهم: معناه: نحن أملك به، وأقرب إليه في المقدرة عليه .

وقال آخرون: بل معنىٰ ذلك : ﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾ بالعلم بما تُوَسّوس به نفسه " (٣) .

وقال أيضاً : ﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ ﴾ يقول : ورسلنا الذين يقبضون روحه أقرب إليه منكم " (٤) .

وقال الإمام إبراهيم الزجَّاج (٣١١هـ) : ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾ ، أي : نَعلَمُ ما يخفي وما يكنه في نفسه " (٥) .

وقال الإمام أبو الليث السَّمرقندي (٣٧٣هـ) : ﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ ﴾ يعني: أمر الله تعالىٰ وهو ملك الموت أقرب إليه منكم، حين أتاه لقبض روحه وَلكِنْ لاَّ تُبْصِرُونَ ما حضر الميت " (٦) .

وقال الإمام الشَّريف الرَّضى (٤٠٦هـ) : ﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾ ، وأراد سبحانه أنَّه يعلم غيب الإنسان ووساوس إضماره ، ونجيّ أسراره. فكأنَّه باستبطانه ذلك منه أقرب إليه من وريده. لأنَّ العالِم بخفايا قلبه ، أقرب إليه من عروقه وعصبه ، وليس القُرب هاهنا من جهة المسافة والمساحة ، ولكن من جهة العلم والإحاطة. " (٧) .

---

(١) انظر : أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات (ص١٠١) .

(٢) انظر : معانى القرآن (٢/ ٥٢٢) .

(٣) انظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٢/ ٣٤٢) .

(٤) انظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٣/ ١٥٧) .

(٥) انظر : معاني القرآن وإعرابه (٥/ ٤٤) .

(٦) انظر : بحر العلوم (٣/ ٣٧٧) .

(٧) انظر : تلخيص البيان في مجازات القرآن (٢/ ٣١٠) .

وقال الإمام محمَّد السّلمي (٤١٢هـ) : " قوله تعالىٰ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ قال الواسطي رحمة الله عليه : أي نحن أولىٰ به وأحقّ لأنَّا جمعناه بعد الافتراق وأنشأناه بعد العدم ونفخنا فيه الرُّوح فالأقرب إليه من هو أعلم به منه بنفسه . قال أيضاً في هذه الآية : به عرفت نفسك وبه عرفت روحك ، كان ذلك إظهار النُّعوت علىٰ قدر طاقة الخلق ، فأمَّا الحقيقة فلا يتحمَّلها أحد سماعاً . قال بعضهم : القُرب لعبد شاهد بقلبه قُرب الله منه فتقرَّب إلىٰ الله بطاعته وجمع همَّه بين يديه بدوام ذكره في علانيته وسرِّه " (١) .

وقال أيضاً : " قوله تعالىٰ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ [الواقعة:٨٥] قال ابن عطاء : إنَّما ذكر هذا ليعرفوا قُربه منهم لأنَّ بينه وبينهم مسافة ولكن خطاب التَّحذير والتَّرهيب . قال بعضهم : يتقرَّب المتقرِّبون إليه بأنواع الطَّاعات لعلمهم بعلم الله بهم وقدرته عليهم ، ومن تحقَّق بذلك كان كعامر بن عبد قيس حين قال : ما نظرت إلىٰ شيء إلَّا ورأيت الله أقرب إلىٰ منه ، كما قال بعضهم :

وتحققتك في سرِّي فناجاك لســـــاني ... فاجتمعنا لمعان وافترقنا لمعـــــاني
إن يكن غيبك التَّعظيم عن لحظ عياني ... فلقد سيرك الوجد من الاحشاء داني

قال الجُنيد : قُرب الحق إلىٰ قلوب العبيد علىٰ حسب ما يرىٰ من قُرب قلوب عبيده منه فانظر ماذا يقرب من قلبك . وقال بعضهم : إنَّ لله عباداً قُربهم منه بما هو قريب منهم فكانوا قريبين منه بما هو قريب إليهم . وقال أبو الحسين الثَّوري : قُرب القُرب في معنىٰ ما يشيرون إليه بعد البعد . وقال أبو يعقوب السُّوسي : ما دام العبد في القُرب لم يكن قرباً حتىٰ يغيب عن القُرب بالقُرب فإذا ذهب عن رؤية القُرب بالقُرب فذاك قُرب " (٢) .

وقال الإمام الثَّعلبي (٤٢٧هـ) : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ أي أعلم به، وأقدر عليه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ لأنَّ أبعاضه، وأجزاءه يحجب بعضها بعضاً، ولا يحجب علم الله سبحانه عن جميع ذلك شيء"(٣) .

وقال أيضاً : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ بالقدرة والعلم ولا قدرة لكم علىٰ دفع شيء عنه . قال عامر بن عبد قيس : ما نظرت إلىٰ شيء إلَّا رأيت الله سبحانه أقرب إليَّ منه " (٤) .

---

(١) انظر : تفسير السلمي وهو حقائق التفسير (٢/ ٢٦٦-٢٦٧) .

(٢) انظر : تفسير السلمي وهو حقائق التفسير (٢/ ٣٠٢-٣٠٣) .

(٣) انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٩/ ٩٨) .

(٤) انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٩/ ٢٢٣) .

وقال الإمام أبو محمَّد مكي بن أبي طالب المالكي (٤٣٧هـ) : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ أي: ونحن أقرب إلى الإنسان من قتل العاتق ، وقيل معناه : ونحن أملك به وأقرب إليه . وقيل : معناه : ونحن أقرب إليه في العلم بما توسوس به نفسه من حبل الوريد . وهنا من الله جلَّ ذكره زجر للإنسان عن إضمار المعصية " (١) .

وقال أيضاً : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ أي: ورسلنا أقرب إلى الميِّت منكم يقبضون روحه ولكن لا تبصرونهم، وهذا كلّه جواب لمن ادَّعى أنَّه يمتنع من الموت ويدفعه " (٢) .

وقال الإمام أبو الحسن الماوردي (٤٥٠هـ) : " وفي قوله : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ تأويلان: أحدهما: ونحن أقرب إليه من حبل وريده الذي هو منه ، الثَّاني: ونحن أملك به من حبل وريده ، مع استيلائه عليه. ويحتمل ثالثاً: ونحن أعلم بما توسوس به نفسه من حبل وريده ، الذي هو من نفسه ، لأنَّه عرق يخالط القلب ، فعلم الرَّب أقرب إليه من علم القلب " (٣) .

وقال الإمام عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (٤٦٥هـ) : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ فحبل الوريد أقرب أجزاء نفسه إلى نفسه ، والمراد من ذلك العلم والقدرة ، وأنَّه يسمع قولهم ، ولا يشكل عليه شيء من أمرهم . وفي هذه الآية هيبة وفزع وخوف لقوم ، وروح وسكون وأنس قلب لقوم " (٤) .

وقال أيضاً : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ بالعلم والرُّؤية والقدرة ... ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ ويقال: أقرب ما يكون العبد من الحقّ عندما يتم استيلاء ذكره وشهوده عليه، فينتفي إحساس العبد بغيره، وعلى حسب انتفاء العلم والإحساس بالأغيار- حتى عن نفسه- يكون تحقّق العبد في سرِّه حتى لا يرى غير الحقّ .

فالقُرب والبُعد معناهما: أنَّ العبد في أوان صحوه ، وأنَّه لم يؤخذ- بعد- عن نفسه فإذا أخذ عنه فلا يكون إلَّا الحق ... لأنَّه حينئذ لا قُرب ولا بُعد " (٥) .

وقال الإمام الواحدي النَّيسابوري (٤٦٨هـ) : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ [ق: ١٦] بالعلم " (٦) .

وقال أيضاً : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ بالعلم والقدرة " (١) .

---

(١) انظر : الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره ، وأحكامه، وجمل من فنون علومه (١١/ ٧٠٣٦-٧٠٣٧) .

(٢) انظر : الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره ، وأحكامه ، وجمل من فنون علومه (١١/ ٧٢٩٥) .

(٣) انظر : تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٥/ ٣٤٦-٣٤٧) .

(٤) انظر : لطائف الإشارات (تفسير القشيري) (٣/ ٤٥٠) .

(٥) انظر : لطائف الإشارات (تفسير القشيري) (٣/ ٥٢٦) .

(٦) انظر : الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٤/ ١٦٤) .

وقال الإمام السَّمعاني (٤٨٩هـ) : " وَقَوله: ﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾ ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّ الله تَعَالَى أقرب إِلَيْهِ من كلِّ شَيْء حَتَّى أَنَّه أقرب إِلَيْهِ من مماته وحياته ، وحياة الْإِنْسَان بِهَذَا الْعِرق ، حَتَّى إِذا انْقَطع لم يبْق حَيَّاً " (٢) .

وقال أيضاً : " وَقَوله: ﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ ﴾ ، أي : بِالْقُدْرَةِ ، وَقد قيل ملك الْمَوْت وأعوانه يَعْنِي: أَنَّهم أقرب إِلَى الْمَيِّت مِنْكُم" (٣) .

وقال الإمام البغوي (٥١٠هـ) : ﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ ﴾ ، أَعْلَمُ بِهِ، ﴿ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾ ، لِأَنَّ أَبْعَاضَهُ وَأَجْزَاءَهُ يَحْجُبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَلَا يَحْجُبُ علم الله شيء " (٤) .

وقال أيضاً : ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ ﴾ ، بِالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالرُّؤْيَةِ. وَقِيلَ: وَرُسُلُنَا الَّذِينَ يَقْبِضُونَ رُوحَهُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ، ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾ َ، الَّذِينَ حَضَرُوهُ " (٥) .

وقال الإمام الزَّمخشري (٥٣٨هـ) : ﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾ مجاز ، والمراد : قُرب علمه منه ، وأنَّه يتعلَّق بمعلومه منه ومن أحواله تعلُّقاً لا يخفى عليه شيء من خفيَّاته ، فكأنَّ ذاته قريبة منه ، كما يقال : الله في كلِّ مكان ، وقد جلَّ عن الأمكنة . و ﴿ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ : مثل في فرط القُرب ، كقولهم : هو منِّي مقعد القابلة ومعقد الإزار " (٦) .

وقال أيضاً : ﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ ﴾ يا أهل الميِّت بقدرتنا وعلمنا ، أو بملائكة الموت " (٧) .

وقال الإمام ابن عطيَّة الأندلسي (٥٤١هـ) : " وقوله تعالى : ﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ ﴾ يحتمل ان يريد ملائكته ورسله ويحتمل أن يريد بقدرتنا وغلبتنا " (٨) .

وقال الإمام ابن الجوزي (٥٩٧هـ) : " قوله تعالى : ﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ ﴾ ، أي : بالعِلْم ... والمعنى : ونحن أقربُ إليه حين يَتلقَّى المُتلقِّيان ، وهما الملَكان الموكَّلان بابن آدم يتلقيَّانِ عمله ... " (١) .

---

(١) انظر : الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (ص١٠٦٤) .

(٢) انظر : تفسير القرآن (٥/ ٢٣٩) .

(٣) انظر : تفسير القرآن ، أبو المظفر(٥/ ٢٣٩) .

(٤) انظر : معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) (٤/ ٢٧٢) .

(٥) انظر : معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) (٥/ ٢٢) .

(٦) انظر : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (٤/ ٣٨٧) .

(٧) انظر : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (٤/ ٤٦٨) .

(٨) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٢٢٩) .

وقال أيضاً : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ فيه قولان: أحدهما: ملك الموت أدنى إليه من أهله ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ الملائكة، رواه أبو صالح عن ابن عبَّاس. والثَّاني: ونحن أقرب إليـــه منكم بالعلم والقدرة والرُّؤية " (٢) .

وقال الإمام فخر الدِّين الرَّازي (٦٠٦هـ) : " وَقَالَ: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦] ، وَقَالَ: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ [المُجادَلَة: ٧] ، وَالْمُسْلِمُونَ يَقُولُونَ أَنَّه تَعَالَىٰ بِكُلِّ مَكَانٍ وَيُرِيدُونَ بِهِ التَّدْبِيرَ وَالْحِفْظَ وَالْحِرَاسَةَ إِذَا عَرَفْتَ هَذِهِ الْمُقَدِّمَةَ فَنَقُولُ: لَا يَبْعُدُ أَنْ يُقَالَ أَنَّه كَانَ فِي بَعْضِ أُولَئِكَ الْحَاضِرِينَ مَنْ كَانَ قَائِلًا بِالتَّشْبِيهِ، فَقَدْ كَانَ فِي مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَفِي الْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ مَنْ هَذِهِ طَرِيقَتُهُ، فَإِذَا سَأَلُوهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَقَالُوا: أَيْنَ رَبُّنَا؟ صَحَّ أَنْ يَكُونَ الْجَوَابُ: فَإِنِّي قَرِيبٌ، وَكَذَلِكَ إِنْ سَأَلُوهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَقَالُوا: هَلْ يَسْمَعُ رَبُّنَا دُعَاءَنَا؟ صَحَّ أَنْ يَقُولَ فِي جَوَابِهِ: فَإِنِّي قَرِيبٌ فَإِنَّ الْقَرِيبَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِ يَسْمَعُ كَلَامَهُ، وَإِنْ سَأَلُوهُ كَيْفَ نَدْعُوهُ بِرَفْعِ الصَّوْتِ أَوْ بِإِخْفَائِهِ؟ صَحَّ أَنْ يجب أن بِقَوْلِهِ: فَإِنِّي قَرِيبٌ، وَإِنْ سَأَلُوهُ هَلْ يُعْطِينَا مَطْلُوبَنَا بِالدُّعَاءِ؟ صَلَحَ هَذَا الْجَوَابُ أَيْضًا، وَإِنْ سَأَلُوهُ إِنَّا إِذَا أَذْنَبْنَا ثمَّ تُبْنَا فَهَلْ يَقْبَلُ اللهُ تَوْبَتَنَا؟ صَلَحَ أَنْ يُجِيبَ بِقَوْلِهِ: فَإِنِّي قَرِيبٌ أَيْ فَأَنَا الْقَرِيبُ بِالنَّظَرِ لَهُمْ وَالتَّجَاوُزِ عَنْهُمْ وَقَبُولِ التَّوْبَةِ مِنْهُمْ، فَثَبَتَ أَنَّ هَذَا الْجَوَابَ مُطَابِقٌ لِلسُّؤَالِ عَلَىٰ جَمِيعِ التَّقْدِيرَاتِ ...

وَاعْلَمْ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: فَإِنِّي قَرِيبٌ فِيهِ سِرٌّ عَقْلِيٌّ وَذَلِكَ لِأَنَّ اتِّصَافَ مَاهِيَّاتِ الْمُمْكِنَاتِ بِوُجُودَاتِهَا إِنَّمَا كَانَ بِإِيجَادِ الصَّانِعِ، فَكَانَ إِيجَادُ الصَّانِعِ كَالْمُتَوَسِّطِ بَيْنَ مَاهِيَّاتِ الْمُمْكِنَاتِ وَبَيْنَ وُجُودَاتِهَا فَكَانَ الصَّانِعُ أَقْرَبَ إِلَىٰ مَاهِيَّةِ كُلِّ مُمْكِنٍ من وجود تلك الماهية إليها، بل هاهنا كَلَامٌ أَعْلَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ أَنَّ الصَّانِعَ هُوَ الَّذِي لِأَجْلِهِ صَارَتْ مَاهِيَّاتُ الْمُمَكَّنَاتِ مَوْجُودَةً فَهُوَ أَيْضًا لِأَجْلِهِ كَانَ الْجَوْهَرُ جَوْهَرًا وَالسَّوَادُ سَوَادًا وَالْعَقْلُ عَقْلًا وَالنَّفْسُ نَفْسًا، فَكَمَا أَنَّ بِتَأْثِيرِهِ وَتَكْوِينِهِ صَارَتِ الْمَاهِيَّاتُ مَوْجُودَةً فَكَذَلِكَ بِتَأْثِيرِهِ وَتَكْوِينِهِ صَارَتْ كُلُّ مَاهِيَّةٍ تِلْكَ الْمَاهِيَّةَ، فَعَلَىٰ قِيَاسِ مَا سَبَقَ كَانَ الصَّانِعُ أَقْرَبَ إِلَىٰ كُلِّ مَاهِيَّةٍ مِنْ تِلْكَ الْمَاهِيَّةِ إِلَىٰ نَفْسِهَا ... " (٣) .

وقال الإمام النَّسفي (٧١٠هـ) : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ المراد : قُرب علمه منه" (٤) .

---

(١) انظر : زاد المسير في علم التفسير (٤/ ١٥٩) .

(٢) زاد المسير (٤/ ٢٣٠) .

(٣) انظر : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (٥/ ٢٦٢) .

(٤) انظر : تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) (٣/ ٣٦٤) .

وقال الإمام ابن تيمية (٧٢٨هـ) : فَالْمُرَادُ بِهِ قُرْبُهُ إِلَيْهِ بِالْمَلَائِكَةِ ، وَهَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ عَنْ الْمُفَسِّرِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْ السَّلَفِ ، قَالُوا: مَلَكُ الْمَوْتِ أَدْنَى إلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ الْمَلَائِكَةَ وَقَدْ قَالَ طَائِفَةٌ: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ بِالْعِلْمِ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بِالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَلَفْظُ بَعْضِهِمْ بِالْقُدْرَةِ وَالرُّؤْيَةِ ... " (١) .

وقال أيضاً : " قال أبو عمرو الطَّلمنكي : ومن سأل عن قوله : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ فَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ عَلَى مَعْنَى الْعِلْمِ بِهِ وَالْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَالدَّلِيلُ مِنْ ذَلِكَ صَدْرُ الْآيَةِ؛ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ لِأَنَّ اللَّهَ لَمَّا كَانَ عَالِمًا بِوَسْوَسَتِهِ؛ كَانَ أَقْرَبَ إلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ وَحَبْلُ الْوَرِيدِ لَا يَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ النَّفْسُ. وَيَلْزَمُ الْمُلْحِدَ عَلَى اعْتِقَادِهِ أَنْ يَكُونَ مَعْبُودُهُ مُخَالِطًا لِدَمِ الْإِنْسَانِ وَلَحْمِهِ وَأَنْ لَا يُجَرِّدَ الْإِنْسَانُ تَسْمِيَةَ الْمَخْلُوقِ حَتَّى يَقُولَ: خَالِقٌ وَمَخْلُوقٌ لِأَنَّ مَعْبُودَهُ بِزَعْمِهِ دَاخِلُ حَبْلِ الْوَرِيدِ مِنْ الْإِنْسَانِ وَخَارِجَهُ فَهُوَ عَلَى قَوْلِهِ مُمْتَزِجٌ بِهِ غَيْرُ مُبَايِنٍ لَهُ. قَالَ: وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ وَتَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِ أَهْلِ الزَّيْغِ وَعَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا. قَالَ: وَكَذَلِكَ الْجَوَابُ فِي قَوْلِهِ فِيمَنْ يَحْضُرُهُ الْمَوْتُ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ ، أَيْ : بِالْعِلْمِ بِهِ وَالْقُدْرَةِ عَلَيْهِ إذْ لَا يَقْدِرُونَ لَهُ عَلَى حِيلَةٍ وَلَا يَدْفَعُونَ عَنْهُ الْمَوْتَ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ . قُلْت: وَهَكَذَا ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ مِثْلَ الثَّعْلَبِيِّ وَأَبِي الْفَرَجِ ابْنِ الْجَوْزِيِّ وَغَيْرِهِمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ، وَأَمَّا فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ فَذَكَرَ أَبُو الْفَرَجِ الْقَوْلَيْنِ: إنَّهُمْ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَإِنَّهُ الْقُرْبُ بِالْعِلْمِ. وَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ مَقْصُودُهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّ ذَاتَ الْبَارِي جَلَّ وَعَلَا قَرِيبَةٌ مِنْ وَرِيدِ الْعَبْدِ وَمِنْ الْمَيِّتِ وَلَمَّا ظَنُّوا أَنَّ الْمُرَادَ قُرْبُهُ وَحْدَهُ دُونَ قُرْبِ الْمَلَائِكَةِ فَسَّرُوا ذَلِكَ بِالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ كَمَا فِي لَفْظِ الْمَعِيَّةِ وَلَا حَاجَةَ إلَى هَذَا؛ فَإِنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾، أَيْ : بِمَلَائِكَتِنَا فِي الْآيَتَيْنِ وَهَذَا بِخِلَافِ لَفْظ الْمَعِيَّةِ" (٢) .

وقال الإمام ابن جزي الكلبي (٧٤١هـ) : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ هو عِرقٌ كبيرٌ في العُنق، وهما وريدان عن يمين وشمال، وهذا مثل في فرط القُرب، والمراد به: قُرب علم الله واطِّلاعه على عبده " (٣) .

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى (٥/ ٤٩٤) .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى (٥/ ٥٠١-٥٠٢) .

(٣) انظر : التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٣٠٢) .

وقال الإمام علاء الدِّين علي الشَّهير بالخازن (٧٤١هـ) : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ بيان لكمال علمه ، أي : نحن أعلم به منه ، والوريد : العرق الذي يجري فيه الدَّم ويصل إلىٰ كلِّ جزء من أجزاء البدن ، وهو بين الحلقوم والعلباوين ، ومعنىٰ الآية : أنَّ أجزاء الإنسان وأبعاضه يحجب بعضها بعضاً ولا يحجب عن علم الله شيء . وقيل : يحتمل أن يكون المعنىٰ : ونحن أقرب إليه بنفوذ قدرتنا فيه ويجري فيه أمرنا كما يجري الدَّمُ في عروقه " (١) .

وقال أيضاً : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ ، أي : بالعلم والقدرة والرُّؤية ، وقيل : ورسلنا الذين يقبضون روحه أقرب إلىٰ الميِّت منكم " (٢) .

وقال الإمام أبو حيَّان (٧٤٥هـ) : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ بِالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ، ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ : مِنَ الْبَصِيرَةِ بِالْقَلْبِ، أَوْ أَقْرَبُ: أَيْ مَلَائِكَتُنَا وَرُسُلُنَا " (٣) .

وقال الإمام ابن كثير (٧٧٤هـ) : " وَقَوْلُهُ: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ يَعْنِي: مَلَائِكَتُهُ تَعَالَىٰ أقربُ إلىٰ الْإِنْسَانِ مِنْ حَبْلِ وَرِيدِهِ إِلَيْهِ. وَمَنْ تَأَوَّلَهُ عَلَىٰ الْعِلْمِ فَإِنَّمَا فَرَّ لِئَلَّا يَلْزَمَ حُلُولٌ أَوِ اتِّحَادٌ، وَهُمَا مَنْفِيَّانِ بِالْإِجْمَاعِ، تَعَالَىٰ اللهُ وَتَقَدَّسَ، وَلَكِنَّ اللَّفْظَ لَا يَقْتَضِيهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ: وَأَنَا أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ كَمَا قَالَ فِي الْمُحْتَضِرِ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الْوَاقِعَةِ: ٨٥] ، يَعْنِي مَلَائِكَتَهُ ... وَكَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ أَقْرَبُ إِلَىٰ الْإِنْسَانِ مِنْ حَبْلِ وَرِيدِهِ إِلَيْهِ بِإِقْدَارِ اللهِ لَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ" (٤) .

وقال أيضاً :﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ أَيْ: بِمَلَائِكَتِنَا" (٥) .

وقال الإمام ابن عادل الحنبلي الدِّمشقي النُّعماني (٧٧٥هـ) : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾... والمعنىٰ: ونحنُ أقرب إليه منكم بالقدرة والعلم والرُّؤية " (٦) .

وقال الإمام النَّيسابوري (٨٥٠هـ) : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ بالقدرة والعلم أو بملائكة الموت " (٧) .

وقال الإمامان : جلال الدِّين المحلي (٨٦٤هـ) ، والسُّيوطي (٩١١هـ) : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ بِالْعِلْمِ" (١) .

---

(١) انظر : تفسير الخازن المسمىٰ لباب التأويل في معاني التنزيل (٦/ ٢٣٥) .

(٢) انظر : تفسير الخازن المسمىٰ لباب التأويل في معاني التنزيل (٧/ ٢٧) .

(٣) انظر : البحر المحيط في التفسير (١٠/ ٩٤) .

(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٩٨) .

(٥) انظر : تفسير القرآن العظيم (٧/ ٥٤٨) .

(٦) انظر : اللباب في علوم الكتاب (١٨/ ٤٤٣) .

(٧) انظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦/ ٢٤٥) .

وقال الإمام أبو زيد عبد الرَّحمن بن محمَّد بن مخلوف الثَّعالبي (٨٧٥هـ) : " وقوله تعالىٰ: ﴿ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾: عبارة عن قُدْرَةِ الله علىٰ العبد ، وكونُ العبد في قبضة القدرة والعلم قد أُحِيط به، فالقُرب هو بالقدرة والسُّلطان، إذ لا يَنْحَجِبُ عن علم اللهَّ لا باطنٌ ولا ظاهر" (٢) .

وقال أيضاً : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ ، أي : بالقدرة والعلم ، ولا قدرةَ لكم علىٰ دفع شيء عنه ، وقيل : المعنىٰ: وملائكتنا أقربُ إليه منكم ، ولكن لا تبصرونهم ، وعلىٰ التأويل الأَوَّل من البصر بالقلب " (٣) .

وقال الإمام أبو السُّعود العمادي (٩٨٢هـ) : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ أعلمُ بحالِه ممَّنْ كانَ أقربُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريدِ ، عبَّر عنْ قُربِ العلمِ بقُربِ الذَّاتِ تجوُّزاً لأنَّه موجبٌ لَهُ " (٤) .

وقال الإمام إسماعيل حقي بن مصطفىٰ الإستانبولي (١١٢٧هـ) : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ ، أي : إلىٰ المحتضر علماً وقدرة وتصرفاً ، قال بعضهم : عبَّر عن العلم بالقُرب الذي هو أقوىٰ سبب الاطلاع مِنْكُمْ حيث لا تعرفون حاله إلَّا ما تشاهدونه من آثار الشدَّة من غير أن تقفوا علىٰ كُنهها وكيفيَّتها وأسبابها ، ولا أن تقدروا علىٰ دفع أدنىٰ شيء منها ونحن المتولُّون لتفاصيل أحواله بعلمنا وقدرتنا أو بملائكة الموت الذين يقبضون روحه " (٥) .

وقال الإمام ابن عجيبة الحسني (١٢٢٤هـ) : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ في جميع أحواله ، في حياته ، ووقت مجيء سكرة الموت ، أي : شدَّته الذَّاهبة بالعقل ، ملتبسة بِالْحَقِّ أي : بحقيقة الأمر، وجلاء الحال، من سعادة الميِّت أو شقاوته " (٦) .

وقال الإمام محمَّد ثناء الله المظهري (١٢٢٥هـ) : " واختلف أقوال العلماء في تصوير هذه القربيَّة ، فقال علماء الظَّاهر : المراد قُرب علمه منه ، قال البيضاوي : معناه : نحن أعلم بحاله ممَّن كان أقرب إليه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، تجوُّز بقرب الذَّات لقُرب العلم لأنَّه موجبه ، وحَبْلِ الْوَرِيدِ مثل في القرب قال: والموت أدنىٰ من الوريد . قال البغوي : معناه نحن أعلم به منه لِأَنَّ أَبْعَاضَهُ وَأَجْزَاءَهُ يَحْجُبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَلَا يَحْجُبُ عِلْمَ اللهَّ شَيْءٌ، وعلىٰ هذا التَّأويل يلزم جواز أن يقال : الطَّبيب أقرب إلىٰ المريض من حبل الوريد ، فإنَّ المريض

---

(١) انظر : تفسير الجلالين (ص٦٩٠) ، (ص٧١٧) .

(٢) انظر : الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٥/ ٢٨١-٢٨٢) .

(٣) انظر : الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٥/ ٣٧٣) .

(٤) انظر : تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم) (٨/ ١٢٨) ، (٨/ ٢٠١) .

(٥) انظر : روح البيان (٩/ ٣٣٩) .

(٦) انظر : البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٥/ ٤٥٠) ، (٧/ ٣٠٣) .

لا يعلم بعض أحواله من الصحَّة والمرض ما يعلمه الطَّبيب ولو بالاستدلال لا سيَّما إذا كان شيء عديم العلم والعقل يعلم بعض أحواله وهو لا يعلم شيئاً من أحوال نفسه " (١) .

وقال الإمام محمَّد بن علي الشَّوكاني اليمني (١٢٥٠هـ) : " . كقوله :﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّه مُطَّلِعٌ عَلَىٰ ضَمَائِرِ الْقُلُوبِ لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْهَا خَافِيَةٌ. وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ الْإِخْبَارِ مِنَ اللهِّ عَزَّ وَجَلَّ، بِأَنَّهُ أَمْلَكُ لِقُلُوبِ عِبَادِهِ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُ يَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا إِذَا شَاءَ، حَتَّىٰ لَا يُدْرِكَ الْإِنْسَانُ شَيْئًا إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا يَخْفَاكَ أَنَّه لَا مَانِعَ مِنْ حَمْلِ الْآيَةِ عَلَىٰ جَمِيعِ هَذِهِ الْمَعَانِي " (٢) .

وقال أيضاً : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ ، أَيْ: بِالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالرُّؤْيَةِ، وَقِيلَ: أَرَادَ وَرُسُلُنَا الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ قَبْضَهُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴿ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ ، أَيْ: لَا تُدْرِكُونَ ذَلِكَ لِجَهْلِكُمْ بِأَنَّ اللهَّ أَقْرَبُ إِلَىٰ عَبْدِهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، أَوْ لَا تُبْصِرُونَ مَلَائِكَةَ الْمَوْتِ الَّذِينَ يَحْضُرُونَ الْمَيِّتَ وَيَتَوَلَّوْنَ قَبْضَهُ " (٣) .

وقال الإمام الألوسي (١٢٧٠هـ) : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ ، أي : نعلم به وبأحواله لا يخفىٰ علينا شيء من خفيَّاته علىٰ أنَّه أطلق السَّبب وأريد المسبّب ، لأنَّ القُرب من الشَّيء في العادة سبب العلم به وبأحواله أو الكلام من باب التَّمثيل ، ولا مجال لحمله علىٰ القُرب المكاني لتنزُّهه سبحانه عن ذلك " (٤) .

وقال أيضاً : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ أي : المحتضر المفهوم من الكلام ﴿مِنكُمْ ﴾ ، والمراد بالقرب العلم وهو من إطلاق السَّبب وإرادة المسبّب ، فإنَّ القُرب أقوىٰ سبب للاطلاع والعلم، وقال غير واحد: المراد القُرب علماً وقدرة ، أي : نحن أقرب إليه من كلِّ ذلك منكم حيث لا تعرفون من حاله إلَّا ما تشاهدونه من آثار الشدَّة من غير أن تقفوا علىٰ كُنهها وكيفيَّتها وأسبابها الحقيقية ، ولا أن تقدروا علىٰ مباشرة دفعها إلَّا بها لا ينجع شيئاً ، ونحن المستولون لتفاصيل أحواله بعلمنا وقدرتنا أو بملائكة الموت ، ﴿ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ لا تدركون كوننا أقرب إليه منكم لجهلكم بشؤوننا ، وقد علمت أن الخطاب للكفَّار، وقيل: لا تدركون كُنه ما يجري عليه علىٰ أنَّ الاستدراك من تنظرون والابصار من البصر بالعين تجوّز به عن الإدراك أو هو من

---

(١) انظر : التفسير المظهري (٩/ ٦٧) .

(٢) انظر : فتح القدير (٢/ ٣٤٢) .

(٣) انظر : فتح القدير (٥/ ١٩٤) .

(٤) انظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١٣/ ٣٢٨) .

البصيرة بالقلب ، وقيل: أريد بأقربيَّته تعالىٰ إليه منهم أقربيَّة رُسله عزَّ وجلَّ ، أي : ورسلنا الذين يقبضون روحه ويعالجون إخراجها أقرب إليه منهم ولكن لا تبصرونهم " (١) .

وقال الإمام أبو الطيِّب محمَّد صديق خان القِنَّوجي (١٣٠٧هـ) : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ ، أي : إلىٰ الإنسان ، لأنَّ أبعاضه وأجزاءه يحجُب بعضها بعضاً ، ولا يحجب علىٰ الله شيء " (٢) .

وقال الإمام محمَّد بن عمر نووي الجاوي البنتني (١٣١٦هـ) : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ ، أي : ونحن أقرب إلىٰ الإنسان من العِرق الذي يجري فيه الدَّم، ويصل إلىٰ كلِّ جزء من أجزاء البدن بعلمنابحاله، وبنفوذ قدرتنا فيه يجري فيه أمرنا كما يجري الدَّمُ في عروقه " (٣) .

وقال أيضاً : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ ، أي : ونحن أقرب إلىٰ الميِّت من أهله الحاضرين عنده بعلمنا وقدرتنا، ولكن لا تدركون ذلك لجهلكم بشئوننا " (٤) .

وقال الإمام محمَّد جمال الدِّين القاسمي (١٣٣٢هـ) " قوله تعالىٰ:﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ تمثيلٌ للقُرب المعنوي، بالصُّورة الحسِّيَّة المشاهدة. وقد جعل ذاك القرب أتمّ من غاية القُرب الصُّوريّ، الذي لا اتِّصال أشدّ منه في الأجسام، إذ لا مسافة بين الجزء المتَّصل به وبينه .

قال الشِّهاب: تجوَّز بقُرب الذَّات عن قُرب العلم، لتنزُّهه عن القُرب المكاني، إمَّا تمثيلاً، وإمَّا من إطلاق السَّبب وإرادة المسبّب، لأنَّ القُرب من الشَّيء سبب للعلم به وبأحواله في العادة. والمعنىٰ: أنَّه تعالىٰ أعلم بأحواله، خفيّها وظاهرها، من كلِّ عالِم. وقد ضربُ المثل في القُرب بحبل الوريد، لأنَّ أعضاء المرء وعروقه متَّصلة علىٰ طريق الجزئيَّة، فهي أشدّ من اتِّصال ما اتَّصل به من الخارج. وخص هذا لأنَّ به حياته، وهو بحيث يشاهده كلُّ أحد " (٥) .

وقال الإمام أحمد بن مصطفىٰ المراغي (١٣٧١هـ) : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ، أي : ونحن أعلم به وبخفيات أحواله لا يخفىٰ علينا شيء من أمره " (٦) .

---

(١) انظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١٤/ ١٥٧-١٥٨) .

(٢) انظر : فتحُ البيان في مقاصد القرآن (١٣/ ١٦٧) .

(٣) انظر : مراح لبيد لكشف معنىٰ القرآن المجيد (٢/ ٤٤٦) .

(٤) انظر : مراح لبيد لكشف معنىٰ القرآن المجيد (٢/ ٤٨٧) .

(٥) انظر : محاسن التأويل (٩/ ١١) .

(٦) انظر : تفسير المراغي (٢٦/ ١٥٩) .

وقال الشَّهيد سيِّد قطب إبراهيم حسين الشَّاربي (١٣٨٥هـ) : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ ... الوريد الذي يجري فيه دمه . وهو تعبير يمثِّل ويصوِّر القبضة المالكة، والرَّقابة المباشرة. وحين يتصوَّر الإنسان هذه الحقيقة لا بدَّ يرتعش ويحاسب . ولو استحضر القلب مدلول هذه العبارة وحدها ما جرؤ على كلمة لا يرضى الله عنها. بل ما جرؤ على هاجسة في الضَّمير لا تنال القبول. وإنَّها وحدها لكافية ليعيش بها الإنسان في حذر دائم ، وخشية دائمة ، ويقظة لا تغفل عن المحاسبة " (١) .

وقال الإمام عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد ١٣٩٠هـ) : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق:١٦] ...

في هذه الآية عرض آخر لقدرة الله سبحانه وتعالى، وقد غاب مفهوم هذه القدرة عن عقول هؤلاء المشركين ... وفي إعادة هذا العرض لقدرة الله ، تذكير لهم ببعض مظاهرة هذه القدرة ، ليراجعوا عقولهم مرَّة أخرى ، وليرجعوا من طريق الضَّلال الذي هم سائرون فيه ...

فالله سبحانه، هو الذي خلق هذا الإنسان من تراب الأرض، فجعل منه هذا الكائن العاقل، السَّميع، البصير، وهو سبحانه الذي يعلم من أمر هذا الإنسان ما توسوس به نفسه من خواطر، وما يضطرب فيها من خلجات ...

وهو سبحانه أقرب إلى الإنسان- كلّ إنسان- من حبل الوريد " (٢) .

وقال الإمام محمَّد الطَّاهر بن محمَّد بن محمَّد الطَّاهر بن عاشور التُّونسي (١٣٩٣هـ) : " وَجُمْلَةُ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنْ مَفْعُولِ تَنْظُرُونَ الْمَحْذُوفِ، أَوْ مُعْتَرِضَةٌ وَالْوَاوُ اعْتِرَاضِيَّةٌ .

وَأَيًّا مَا كَانَتْ فَهِيَ احْتِرَاسٌ لِبَيَانِ أَنَّ ثَمَّةَ حُضُورًا أَقْرَبَ مِنْ حُضُورِهِمْ عِنْدَ الْمُحْتَضِرِ وَهُوَ حُضُورُ التَّصْرِيفِ لِأَحْوَالِهِ الْبَاطِنَةِ.

وَقُرْبُ اللهَّ: قُرْبُ عِلْمٍ وَقُدْرَةٍ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ [الْفجر: ٢٢] أَوْ قُرْبُ مَلَائِكَتِهِ الْمُرْسَلِينَ لِتَنْفِيذِ أَمْرِهِ فِي الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾ [الْأَعْرَاف: ٥٢] ، أَيْ جَاءَهُمْ جِبْرِيلُ بِكِتَابٍ، قَالَ تَعَالَى: حَتَّى إذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ [الْأَعْرَاف: ٣٧] " (٣) ...

ثَانِياً : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق :١٩] .

(١) انظر : في ظلال القرآن (٦/ ٣٣٦٢) .

(٢) انظر : التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ٤٧٨) .

(٣) انظر : التحرير واالتنوير (٢٧/ ٣٤٤) .

ومن أقوال العلماء في تفسير الآية الكريمة :

قال الإمام الشَّافعي (٢٠٤هـ) : ﴿ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ﴾ ، يَعْنِي: افْعَلْ وَاقْرُبْ " (١) .

وقال الإمام أبو جعفر النَّحَّاس (٣٣٨هـ) : ﴿ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ﴾ إلى الله جلَّ وعزَّ بطاعته ، فإنَّه يعظمك ويمنع منك ، وفي الحديث : أقرب ما يكون العبد من الله تعالى إذا كان ساجداً ، فأكثروا من الدُّعاء في السُّجود فإنَّه قمن أن يستجاب لكم " (٢) .

قال الإمام أبو الليث السَّمرقندي (٣٧٣هـ) : " قوله : ﴿ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ﴾ يعني: اقترب إلى ربِّك بالسُّجود " (٣) .

وقال الإمام ابن فورك (٤٠٦هـ) : " ... وَقَوله تَعَالَى : ﴿ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ﴾ إِنَّ جَمِيع ذَلِك لَا يَخْلُو أَن يكون قرباً بِالطَّاعَةِ من العَبْد أَو قرباً بالكرامة ، وَإِظْهَار الرَّحْمَة من الله تَعَالَى . فعلى ذَلِك جَمِيع مَا يُوصف بِهِ الله عزَّ ذكره من قُربه من الْخلق ويوصف بِهِ العَبْد من قُربه من الله ، وَكَذَلِكَ القَوْل فِي الْبعد " (٤) .

وقال الإمام الثَّعلبي (٤٢٧هـ) : ﴿ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ﴾ وصلّ واقترب من الله سبحانه وتعالى " (٥) .

وقال الإمام أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (٥٤٣هـ) : ﴿ وَٱقۡتَرِب ﴾ الْمَعْنَى اكْتَسِبْ الْقُرْبَ مِنْ رَبِّك فِي السُّجُودِ فَإِنَّهُ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ فِي سُجُودِهِ؛ لِأَنَّهَا نِهَايَةُ الْعُبُودِيَّةِ وَالذِّلَّةِ لله، وَللهِ غَايَةُ الْعِزَّةِ، وَلَهُ الْعِزَّةُ الَّتِي لَا مِقْدَارَ لَهَا، فَلَمَّا بَعُدْت مِنْ صِفَتِهِ قَرُبْت مِنْ جَنَّتِهِ، وَدَنَوْت مِنْ جِوَارِهِ فِي دَارِهِ " (٦) .

وقال الإمام الماوردي (٤٥٠هـ) : ﴿ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ﴾ فيه وجهان: أحدهما: اسجد أنت يا محمَّد مصلِّياً ، واقترب أنت يا أبا جهل من النَّار ، قاله زيد بن أسلم. الثَّاني: اسجد أنت يا محمَّد في صلاتك لتقرب من ربِّك ، فإنَّ أقرب ما يكون العبد إلى الله تعالى إذا سجد له " (٧) .

وقال الإمام الزَّمخشري (٥٣٨هـ) : ﴿ وَٱسۡجُدۡ ﴾ ودم على سجودك، يريد: الصَّلاة ، ﴿ وَٱقۡتَرِب ﴾ وتقرَّب إلى ربِّك. وفي الحديث: أقرب ما يكون العبد إلى ربِّه إذا سجد " (١) .

---

(١) انظر : أحكام القرآن ، الشافعي (١/ ٧١) .

(٢) انظر : إعراب القرآن (٥/ ٢٦٤) .

(٣) انظر : بحر العلوم (٣/ ٦٠٠)

(٤) انظر : مشكل الحديث وبيانه (ص٢٢٣) .

(٥) انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن (١٠/ ٢٤٦) .

(٦) انظر : أحكام القرآن (٤/ ٤٢٥) .

(٧) انظر : تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٦/ ٣٠٩) .

وقال الإمام ابن عطيَّة (٥٤٢هـ) : ﴿ وَٱسْجُدْ ﴾ لربِّك ﴿ وَٱقْتَرِب ﴾ إليه بسجودك وبالطَّاعة والأعمال الصَّالحة" (٢) .

وقال الإمام النَّووي (٦٧٦هـ) : " ... وَفِي الْحَدِيثِ الآخر : أسألك مرافقتك في الجنَّة ، قال : أو غير ذَلِكَ ؟ قَالَ : هُوَ ذَلِكَ ، قَالَ : فَأَعِنِّي عَلَىٰ نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ . فِيهِ الْحَثُّ عَلَىٰ كَثْرَةِ السُّجُودِ وَالتَّرْغِيبُ ، وَالْمُرَادُ بِهِ السُّجُودُ فِي الصَّلَاةِ . وَفِيهِ دَلِيلٌ لِمَنْ يَقُولُ : تَكْثِيرُ السُّجُودِ أَفْضَلُ مِنْ إِطَالَةِ الْقِيَامِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْمَسْأَلَةُ وَالْخِلَافُ فِيهَا فِي الْبَابِ الَّذِي قَبْلَ هَذَا ، وَسَبَبُ الْحَثِّ عَلَيْهِ مَا سَبَقَ فِي الْحَدِيثِ الْمَاضِي : " أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ " ، وَهُوَ مُوَافِقٌ لِقَوْلِ اللهَّ تَعَالَىٰ : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾، وَلِأَنَّ السُّجُودَ غَايَةُ التَّوَاضُعِ وَالْعُبُودِيَّةِ للهَّ تَعَالَىٰ ، وَفِيهِ تَمْكِينُ أَعَزِّ أَعْضَاءِ الْإِنْسَانِ وَأَعْلَاهَا ، وَهُوَ وَجْهُهُ مِنَ التُّرَابِ الَّذِي يُدَاسُ وَيُمْتَهَنُ ، وَاللهَّ أعلم " (٣) .

وقال الإمام النَّسفي (٧١٠هـ) : ﴿ وَٱقْتَرِب ﴾ وتقرَّب إلىٰ ربِّك بالسُّجود ، فإنَّ أقرب ما يكون العبد إلىٰ ربِّه إذا سجد ، كذا الحديث ، والله أعلم " (٤) .

وقال الإمام نجم الدِّين الطُّوفي الصّرصري الحنبلي (٧١٦هـ) : ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾فيه أنَّ السُّجود سبب القُرب من الرَّب-جلَّ جلاله-قُرباً عقليَّاً لا حسيَّاً، أمَّا عند مثبتي الجهة فظاهر، وأمَّا عند غيرهم فلأنَّه-عزَّ وجلَّ- لا في السَّماء ولا في الأرض ولا داخل العالم ولا خارجه، ولا متَّصل ولا منفصل ، فيستحيل التَّقرُّب منه حسَّاً عندهم " (٥) .

وقال الإمام ابْن جهبل الْكلابِي (٧٣٣هـ) في ردِّه علىٰ ابن تيمية : " وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ وَمَعْلُوم أَنَّ التَّقَرُّب فِي الْجِهَة لَيْسَ إِلَّا بالمسافة فَلم لَا بَينه الله تَعَالَىٰ وَلَا رَسُوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا سلف الْأمة " (٦) .

---

(١) انظر : الكشاف (٤/ ٧٧٩) .

(٢) انظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٣٠٥) .

(٣) انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٤/ ٢٠٦) .

(٤) انظر : تفسير النسفي (٣/ ٦٦٤) .

(٥) انظر : الإشارات الإلهية إلي المباحث الأصولية ، نجم الدين الطوفي الصرصري الحنبلي (ص٦٨٦) ، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل ، دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٦ هـ ، ٢٠٠٥ م .

(٦) انظر : طبقات الشافعية الكبرىٰ ، السبكي (٩/ ٦٧) .

وقال الإمام ابن جزي الكلبي الغرناطي (٧٤١هـ) : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ ، أي : تقرَّب إلىٰ الله بالسُّجود ، كما قال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وسلم: " أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد " (١) .

وقال الإمام الخازن (٧٤١هـ) : ﴿ وَٱسْجُدْ ﴾ (يعني : صلِّ لله ، ﴿ وَٱقْتَرِب ﴾ أي : من الله . عن أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه أنَّ رسول الله قال : " أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد ، فأكثروا من الدُّعاء" (٢) .

وقال الإمام أبو حيَّان (ـ٧٤٥هـ) : ﴿ وَٱسْجُدْ﴾ أَمْرٌ لَهُ بِالسُّجُودِ، وَالْمَعْنَىٰ: دُمْ عَلَىٰ صَلَاتِكَ، وَعَبَّرَ عَنِ الصَّلَاةِ بِأَفْضَلِ الْأَوْصَافِ الَّتِي يَكُونُ الْعَبْدُ فِيهَا أَقْرَبَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، ﴿ وَٱقْتَرِب ﴾ وَتَقَرَّبَ إِلَىٰ رَبِّكَ" (٣) .

وقال الإمام البقاعي (٨٨٥هـ) : ﴿ وَٱقْتَرِب ﴾ أي : اجتهد بسرِّك في بلوغ درجة القُرب إلىٰ ربِّك والتَّحبُّب إليه بكلِّ عبادة ، لا سيَّما الصَّلاة ، فإنَّه أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد" (٤) .

وقال الإمام ابن علَّان بن إبراهيم البكري الصِّدِّيقي (١٠٥٧هـ) : ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ فكلُّ سجدة فيها قُربٌ مخصوص لتكفُّلها بالرُّقيِّ إلىٰ درجة من درجات القُرب ، وهكذا حتىٰ ينتهي إلىٰ درجة المرافقة لحبيبه، فنتج من هذا الذي هو علىٰ منوال قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] أنَّ القرب من رسول الله – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لا يحصل إلَّا بالقُرب من الله تعالىٰ، وأنَّ القُرب من الله تعالىٰ لا ينال إلَّا بالقُرب من رسوله. فالقُربان متلازمان لا انفكاك لأحدهما عن الآخر البتَّة: ومن ثمَّ أوقع تعالىٰ متابعة رسوله بتلك المحبَّتين ليعلِّمنا أنَّ محبَّة العبد ومحبَّته للعبد متوقِّفتان علىٰ متابعة رسوله " (٥) .

وقال الإمام الزَّبيدي (١٢٠٥هـ) : " وقوله عزَّ وجلَّ لنبيِّه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ دليل علىٰ أنَّ المراد به قُرب المنزلة لا قُرب المكان كما زعمت المجسِّمة : أنَّه مماسّ لعرشه إذ لو كان كذلك لازداد بالسُّجود منه بعداً لا قُرباً " (٦) .

وقال الإمام محمد الطَّاهر بن عاشور التُّونسي (١٣٩٣هـ) : " وَالِاقْتِرَابُ: افْتِعَالٌ مِنَ الْقُرْبِ، عَبَّرَ بِصِيغَةِ الِافْتِعَالِ لِمَا فِيهَا مِنْ مَعْنَىٰ التَّكَلُّفِ وَالتَّطَلُّبِ، أَيِ اجْتَهَدَ فِي الْقُرْبِ إِلَىٰ اللهِ بِالصَّلَاةِ. " (١) .

---

(١) انظر : التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٤٩٨) .

(٢) انظر : تفسير الخازن المسمىٰ لباب التأويل في معاني التنزيل (٧/ ٢٧١) .

(٣) انظر : البحر المحيط في التفسير (١٠/ ٥١٢) .

(٤) انظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٨/ ٤٤٨) .

(٥) انظر : دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ، ابن علان بن إبراهيم البكري الصديقي ، (٢/ ٣٢٥) ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٥هـ ، ٢٠٠٤م .

(٦) انظر : اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين (٢/ ٢٤) .

وقال الإمام محمد الأمين الشَّنقيطي (١٣٩٣هـ) : " ... رَبَطَ بَيْنَ السُّجُودِ وَالاِقْتِرَابِ مِنَ اللهَّ كَمَا قَالَ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ [الإنسان:٢٦] ، وَقَوْلُهُ فِي وَصْفِ أَصْحَابِهِ رَضِيَ اللهُّ عَنْهُمْ: ﴿ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾ [الفتح:٢٩] ، فَقَوْلُهُ: يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهَّ وَرِضْوَانًا، فِي مَعْنَىٰ يَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ يُبَيِّنُ قَوْلَهُ: وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ.

وَهَذَا مِمَّا يَدُلُّ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ أَنَّ الصَّلَاةَ أَعْظَمُ قُرْبَةٍ إِلَىٰ اللهَّ، حَيْثُ وَجَّهَ إِلَيْهَا الرَّسُولُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ، كَمَا بَيَّنَ تَعَالَىٰ فِي قَوْلِهِ: وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ .

وَقَالَ صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ إِلَىٰ اللهَّ وَهُوَ سَاجِدٌ» " (٢) .

وقال الإمام محمَّد متولِّي الشَّعراوي (١٤١٨هـ) : " وفي قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾ فاقترب غير قَرُب، قرُب: يعني دنا، أمَّا اقترب أي: دنا جدَّاً حتىٰ صار قريباً منك " (٣) .

ثَالِثَاً : قَوْلُهُ تَعَالَى :﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ ﴾ [المجادلة:٧] .

ومن أقوال العلماء في تفسير الآية الكريمة :

قال الإمام الزَّجَّاج (٣١١هـ) : " وقوله عزَّ وجلَّ: (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ) . أي : ما يكون من خَلْوَةِ ثلاثةٍ يسرُّون شيئاً وَيتناجون به إلَّا وهو رابعهم عالم به، وهو في كلِّ مكانٍ، أي بالعلم " (٤) .

وقال الإمام أبو منصور الماتريدي (٣٣٣هـ) : " وَقَوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ ﴾ ... ذلك علىٰ أَنَّ القَوْل بِالْمَكَانِ لَيْسَ من نوع التَّعْظِيم والتَّبجيل بل الْأَمْكِنَة إِنَّمَا شرفت بِهِ وتفاوتت أقدارها بتفضيله مَكَاناً علىٰ مَكَان يَجعله مَخْصُوصًاً لأخيار خلقه أَو لما جعل لعبادته وتعظيمه فِيهِ ، فَأَمَّا أَن يكون أحد تعلو رتبته بِالْمَكَانِ من مُلُوك الأَرْض أَو الأخيار فَلَيْسَ بِهِ ، فَكيف بِالْملكِ الْجَبَّار الَّذِي مَا ارْتَفع قدْر مَكَان وَلَا جلّ خطره إِلَّا بِهِ ، وَإِذا كَانَ كَذَلِك بَطل أَن يكون فِي الْإِضَافَة تَعْظِيمه ثمَّ يكون فِيمَا بعد ذَلِك للْحَاجة وَهُوَ يتعالىٰ عَنْهَا " (٥) .

---

(١) انظر : التحرير والتنوير «تحرير المعنىٰ السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» (٣٠/ ٤٥٣) .

(٢) انظر : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٩/ ٢٩) .

(٣) انظر : تفسير الشعراوي (١٥/ ٩٤٧٣) .

(٤) انظر : معاني القرآن وإعرابه (٥/ ١٣٧) .

(٥) انظر : التوحيد (ص١٠٥) .

وقال الإمام الزجَّاجي (٣٣٧هـ) : " القريب في اللغة على أوجه، القريب: الذي ليس ببعيد، فالله عزَّ وجلَّ قريب ليس ببعيد، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:١٨٦] ، أي أنا قريب الإجابة. وهو مثل قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ﴾ ... والله عزَّ وجلَّ محيط بالأشياء كلها علمًا لا يعزب عنه منها شيء. وكلّ هذا يراد به والله أعلم إحاطة علمه بكلِّ شيء، وكون كلّ شيء تحت قدرته وسلطانه وحكمه وتصرفه، ولا يراد بذلك قرب المكان والحلول في بعضه دون بعض جلَّ الله وتعالى عمّا يقول الظَّالمون علوّاً كبيرًا " (١) .

وقال الإمام الشَّريف الرَّضي : " وظاهر هذا الكلام محمول على المجاز والاتّساع ، لأنَّ المراد به إحاطته تعالى بعلم نجوى المتناجين ، ومعاريض المتخافتين ، فكأنَّه سبحانه يعلم جميع ذلك ، سامع للحوار ، وشاهد للسّرار.

ولو حمل هذا الكلام على ظاهره لتناقض. ألا ترى أنَّه تعالى لو كان رابعاً لثلاثة في مكان على معنى قول المخالفين ، استحال أن يكون سادساً لخمسة في غير ذلك المكان إلَّا بعد أن يفارق المكان الأوَّل ، ويصير إلى المكان الثَّاني ، فينتقل كما تنتقل الأجسام ، ويجوز عليه الزَّوال والمقام. وهذا واضح بحمد الله وتوفيقه " (٢)

.

وقال الإمام بن حزم الأندلسي (٤٥٦هـ) : " قَالَ أَبُو مُحَمَّد : قَول الله تَعَالَى يجب حمله على ظَاهره مَا لم يمْنَع من حمله على ظَاهره نَصُّ آخر أَو إِجْمَاع أَو ضَرُورَة حسّ ، وَقد علمنَا أَنَّ كلّ مَا كَانَ فِي مَكَان فَإِنَّهُ شاغل لذَلِك الْمَكَان وَمَالِي لَهُ ومتشكّل بشكل الْمَكَان وَالْمَكَان متشكّل بشكله ، وَلَا بُدَّ من أحد الْأَمريْنِ ضَرُورَة ، وَعلمنَا أَنَّ مَا كَانَ فِي مَكَان فَإِنَّهُ متناه بتناهي مَكَانَهُ ، وَهُوَ ذُو جِهَات سِتّ أَو خمس متناهية فِي مَكَانَهُ ، وَهَذِه كلّهَا صِفَات الْجِسْم ، فَلَمَّا صَحَّ مَا ذكرنَا علمنَا أَنَّ قَوْله تَعَالَى ... ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾إِنَّمَا هُوَ التَّدْبِير لذَلِك والإحاطة بِهِ فَقَط ضَرُورَة لانْتِفَاء مَا عدا ذَلِك " (٣) .

وقال الإمام الاسفراييني (٤٧١هـ) : " وَأَن تعلم أَنَّ خَالق الْعَالم لَا يجوز عَلَيْهِ الْحَد وَالنِّهَايَة لِأَنَّ الشَّيْء لَا يكون مَخْصُوصًا بِحَدّ إِلَّا أَن يَخُصُّهُ مُخَصص بذلك الْحَدّ ويقرِّره على تِلْكَ النِّهَايَة بِجَوَاز غَيره من الْحُدُود

(١) انظر : اشتقاق أسماء الله (ص١٤٦-١٤٧) .

(٢) انظر : تلخيص البيان في مجازات القرآن (٢/ ٣٢٨) .

(٣) انظر : الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/ ٩٦) .

عَلَيْهِ والصَّانع لَا يكون مصنوعاً وَلَا محدوداً وَلَا مُخَصّصاً ، وَأَصله فِي كتاب الله تَعَالَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ الْآيَة ، مَعَ قَوْله ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾ [النحل:٢٦] ، وَمَعَ قَوْله ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾

، وَلَو كَانَ مَخْصُوصًا بِحَدّ وَنِهَايَة وَجُمْلَة لم يجز أَن يكون مَنْسُوباً إِلَى أَمَاكِن مُخْتَلفَة متضادَّة ، وَكَانَ لَا يجوز أَن يكون مَعَ كلّ وَاحِد وَأَن يكون على الْعَرْش وَأَن يَأْتِي ببنيان قوم سلّط عَلَيْهِم الْهَلَاك ، فجَاء من الْجمع بَين هَذِه الْآيَات تَحْقِيق القَوْل بِنَفْي الْحَد وَالنِّهَايَة واستحالة كَونه مَخْصُوصًا بِجِهَة من الْجِهَات ، وَفِي الْجمع بَين هَذِه الْآيَات دَلِيل على أَنَّ معنى قَوْله : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ إِنَّمَا هُوَ بِمَعْنى الْعلم بأسرارهم " (١) .

وقال الإمام الآمدي (٦٣١هـ) : " وَلَيْسَ تَأْوِيل هَذِه الظَّوَاهِر وَحملهَا على هَذِه المحامل بمستبعد كَمَا حمل ... قَوْله تَعَالَى : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ على معنى الْحِفْظ وَالرِّعَايَة " (٢) .

وقال الإمام ابن كثير (٧٧٤هـ) : " حَكَى غَيْرُ وَاحِدٍ الْإِجْمَاعَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَعِيَّةُ عِلْمِ اللهَّ تَعَالَى ، وَلَا شَكَّ فِي إِرَادَةِ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّ سَمْعَهُ أَيْضًا مَعَ عِلْمِهِ مُحِيطٌ بِهِمْ، وَبَصَرَهُ نَافِذٌ فِيهِمْ، فَهُوَ، سُبْحَانَهُ، مُطَّلِعٌ عَلَى خَلْقِهِ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْ أُمُورِهِمْ شَيْءٌ " (٣) .

وقال الإمام أبو السُّعود (٩٨٢هـ) : ﴿ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ﴾ يعلمُ ما يجرى بينهم وقرئ ولاَ أكثرُ بالرَّفعِ عطفاً عَلى محلِّ منْ نَجْوى أو محلِ ولا أدْنَى بأنْ جُعِلَ لاَ لنفي الجنس ﴿ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ﴾ من الأماكنِ ولو كانُوا تحتَ الأرضِ فإنَّ علمَهُ تعالَى بالأشياءِ ليسَ لقربٍ مكانيَ حتَّى يتفاوت باختلافِ الأمكنةِ قُرباً وبُعداً " (٤) .

وقال الإمام إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي (١١٢٧هـ) : ﴿ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾ أي : الله مع المتناجين بالعلم والسَّماع ، يعلم ما يجري بينهم ، ولا يخفى عليه ما هم فيه ، فكأنَّه مشاهدهم ومحاضرهم ، وقد تعالى عن المشاهدة والحضور معهم حضوراً جسمانياً ﴿ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ﴾ أي : في أيِّ مكان كانوا من الأماكن ، ولو

---

(١) انظر : التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين (ص١٥٨) .

(٢) انظر : غاية المرام في علم الكلام (ص١٤٣) .

(٣) انظر : تفسير القرآن العظيم (٨/ ٤٢) .

(٤) انظر : تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) (٨/ ٢١٩) .

كانوا تحت الأرض فإنَّ علمه تعالىٰ بالأشياء ليس لقرب مكاني حتىٰ يتفاوت باختلاف الأمكنة قُرباً وبُعداً " (١) .

رَابِعَاً : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الصافات:٩٩] .

ومن أقوال أهل العلم في تفسير الآية الكريمة :

قال الإمام مقاتل بن سليمان (١٥٠هـ) : " يعني إلىٰ رضا ربي " (٢) .

وقال الإمام يحيىٰ بن سلام بن أبي ثعلبة (٢٠٠هـ) : " يَعْنِي: الْهِجْرَةَ، هَاجَرَ مِنْ أَرْضِ الْعِرَاقِ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ " (٣) .

وقال الإمام الطبري (٣١٠هـ) : " وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لَمَّا أَفْلَجَهُ اللهُ عَلَىٰ قَوْمِهِ وَنَجَّاهُ مِنْ كَيْدِهِمْ: ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ يَقُولُ: إِنِّي مُهَاجِرٌ مِنْ بَلْدَةِ قَوْمِي إِلَى اللهِ: أَيْ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، وَمُفَارِقُهُمْ، فَمُعْتَزِلُهُمْ لِعِبَادَةِ اللهِ " (٤) .

وقال الإمام أبو الليث السَّمرقندي (٣٧٣هـ) : " يعني: إنِّي مهاجر إلىٰ طاعة ربِّي " (٥) .

وقال الإمام ابن أبي زَمَنِين المالكي (٣٩٩هـ) : " يَعْنِي: سيهديني الطَّرِيق، هَاجر من أَرْضِ الْعِرَاقِ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ " (٦) .

وقال الإمام الحليمي (٤٠٣هـ) : " يعني الهجرة " (٧) .

وقال الإمام ابن فورك (٤٠٦هـ) : " أي: إلىٰ أرض الشَّام " .

وقال أيضاً : " أي: إلىٰ مرضاة ربِّي، وهو المكان الذي أمرني بالذَّهاب إليه. وقيل: إلىٰ الأرض المقدَّسة. قيل: أرض الشَّام " (٨) .

وقال الإمام أحمد بن محمد بن إبراهيم الثَّعلبي (٤٢٧هـ) : " أي إلىٰ مرضاة ربِّي، وهو المكان الذي أمر بالذَّهاب إليه ... وقيل: ذاهِبٌ إِلىٰ رَبِّي بنفسي وعملي " (١) .

---

(١) انظر : تفسير روح البيان (٩/ ٣٢٥) .

(٢) انظر : تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ٣٨٠) .

(٣) انظر : تفسير يحيىٰ بن سلام (٢/ ٨٣٨) .

(٤) انظر : تفسير الطبري (١٩/ ٥٧٦) .

(٥) انظر : بحر العلوم (٣/ ١٣٩) .

(٦) انظر : تفسير القرآن العزيز (٤/ ٦٥) .

(٧) انظر : المنهاج في شعب الإيمان (٢/ ١٦٢) .

(٨) انظر : تفسير ابن فورك من أول سورة المؤمنون – آخر سورة السجدة (١/ ٤٦٥) ، (٢/ ٢٣٦) بالترتيب.

وقال الإمام محمد مكي بن أبي طالب المالكي (٤٣٧هـ) : " أي: إلى موعد ربِّي. وليس الإتيان إلى الله إتيان مقاربة منه، لأنَّه قريب في كلِّ أوان لا يبعده مكان ولا يقربه مكان، ولا يحويه مكان دون مكان، ولا يحتاج إلى مكان لأنَّه تعالى لم يزل قديماً قبل المكان ولا تجوز صفة القرب بالمكان إلَّا على الأجسام، لأنَّها محدثة بعد حدوث المكان، وكان الله ولا مكان " (٢) .

وقال الإمام الماوردي (٤٥٠هـ) : " في هذا القول ثلاثة تأويلات: أحدها: إنِّي منقطع إلى الله بعبادتي ، حكاه النقَّاش. الثَّاني: ذاهب إليه بقلبي وديني وعملي ، قاله قتادة. الثَّالث: مهاجر إليه بنفسي فهاجر من أرض العراق. قال مقاتل: هو أوَّل من هاجر من الخلق مع لوط وسارة. وفي البلد الذي هاجر إليه قولان: أحدهما: إلى أرض الشَّام. الثَّاني: إلى أرض حرَّان، حكاه النَّسائي " (٣) .

وقال الإمام الواحدي (٤٦٨هـ) : " قال ابن عبَّاس: مهاجر إلى ربِّي " (٤) .

وقال أيضاً : " إلى المكان الذي أمرني بالهجرة إليه " (٥) .

وقال الإمام البغوي (٥١٠هـ) : " أَيْ مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي، وَالْمَعْنَى: أَهْجُرُ دَارَ الْكُفْرِ وَأَذْهَبُ إِلَى مَرْضَاةِ رَبِّي " (٦) .

وقال الإمام الزَّمخشري (٥٣٨هـ) : " أراد بذهابه إلى ربِّه: مهاجرته إلى حيث أمره بالمهاجرة إليه من أرض الشَّام " (٧) .

وقال الإمام محمود بن أبي الحسن الغزنوي (المتوفى: بعد ٥٥٣هـ) : " أي: إلى حيث أمرني ربِّي " (٨) .

وقال الإمام ابن الجوزي (٥٩٧هـ) : " في هذا الذَّهاب قولان: أحدهما: أنَّه ذاهب حقيقة، ثمَّ في وقت قوله هذا قولان: أحدهما: أنَّه حين أراد هِجرة قومه ، فالمعنى: إنِّي ذاهب إلى حيث أمرني ربِّي عزَّ وجلَّ ﴿سَيَهْدِينِ﴾ إلى حيث أمرني، وهو الشَّام، قاله الأكثرون. والثَّاني: حين أُلقي في النَّار، قاله سليمان بن صُرَد

---

(١) انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٨/ ١٤٩) .

(٢) انظر : الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه (٧/ ٤٦٧٣-٤٦٧٣) .

(٣) انظر : تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٥/ ٥٩) .

(٤) انظر : الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٣/ ٥٢٩) .

(٥) انظر : الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٩١٢) .

(٦) انظر : تفسير البغوي (٤/ ٣٥) .

(٧) انظر : الكشاف (٤/ ٥٢) .

(٨) انظر : باهر البرهان فى معانى مشكلات القرآن (١/ ٣٩٧) .

فعلىٰ هذا، في المعنىٰ قولان: أحدهما: ذاهب إِلىٰ الله بالموت، سيَهدينِ إلىٰ الجنَّة. والثَّاني: ذاهب إلىٰ ما قضىٰ به ربِّي سيَهدين إِلىٰ الخَلاص من النَّار. والقول الثَّاني:إِنِّي ذاهب إلىٰ ربِّي بقلبي وعملي ونيَّتي، قاله قتادة " [١] .

وقال الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) : " قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ يَدُلُّ عَلَىٰ فَسَادِ تَمَسُّكِ الْمُشَبِّهَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فَاطِرٍ: ١٠] لِأَنَّ كَلِمَةَ إِلَىٰ مَوْجُودَةٌ فِي قَوْلِهِ: إِنِّي ذاهِبٌ إِلىٰ رَبِّي مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَلْزَمْ أَنْ يَكُونَ الْإِلَهُ موجودا في ذلك المكان، فكذلك هاهنا " [٢] .

وقال الإمام القرطبي (٦٧١هـ) : " هذه الآية أصل في الهجرة والعزلة. وأوَّل من فعل ذلك إبراهيم عليه السَّلام ، وذلك حين خلَّصه الله من النَّار ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أي : مهاجر من بلد قومي ومولدي إلىٰ حيث أتمكَّن من عبادة ربِّي ، فإنه ﴿ سَيَهْدِينِ﴾ فيما نويت إلىٰ الصَّواب. قال مقاتل : هو أوَّل من هاجر من الخلق مع لوط وسارة ، إلىٰ الأرض المقدَّسة وهي أرض الشَّام. وقيل : ذاهب بعملي وعبادتي ، وقلبي ونيَّتي. فعلىٰ هذا ذهابه بالعمل لا بالبدن " [٣] .

وقال الإمام البيضاوي (٦٨٥هـ) : " إلىٰ حيث أمرني ربي وهو الشَّام، أو حيث أتجرَّد فيه لعبادته " [٤] .

وقال الإمام النَّسفي (٧١٠هـ) : " إلىٰ موضع أمرني بالذَّهاب إليه " [٥] .

وقال الإمام ابن الوزير (٨٤٠هـ) : " أي: إلىٰ حيث أمرني ربي " [٦] .

وبمثل الأقوال السَّابقة قال أهل العلم [٧] ...

---

[١] انظر : زاد المسير (٣/ ٥٤٦) .

[٢] انظر : تفسير الرازي (٢٦/ ٣٤٤) .

[٣] انظر : تفسير القرطبي (١٥/ ٩٧) .

[٤] انظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٥/ ١٤) .

[٥] انظر : تفسير النسفي (٣/ ١٣٠) .

[٦] انظر: العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم ، ابن الوزير (٥/ ٢٢٦، ٥/ ٢٣١) ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ، الطبعة: الثالثة، ١٤١٥هـ ، ١٩٩٤م .

[٧] انظر : البحر المحيط (٩/ ١١٥) ، اللباب في علوم الكتاب (١٦/ ٣٢٩) ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٥/ ٥٧٠) ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٥/ ٤١) ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٦/ ٣٢٥) ، تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن (٣/ ٤٥١) ، الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية (٢/ ٢١٨) ، السراج المنير في الإعانة علىٰ معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٣/ ٣٨٥) ، إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم (٧/ ١٩٩) ، روح البيان (٧/ ٤٧٢) ، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٤/ ٦٠٨) ، التفسير المظهري (٨/ ١٢٥) ، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير (٤/ ٤٠٣) ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١٢/ ١٢١) ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن (١١/ ٤٠٥) ، مراح

وكما قيل في الآية السَّابقة قيل في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [النساء:١٠٠] .

والمعنىٰ : أنَّ من ترك البلد التي يعصىٰ الله فيها جهاراً ولا يُطاع فراراً بدينه وهرباً إلىٰ أرض لا يُعصىٰ الله فيها ....فقد وقع أجره علىٰ الله تعالىٰ ...

خَامِسَاً : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الزخرف:٨٤] .

ومن أقوال أهل العلم في تفسير الآية الكريمة :

قال الإمام عبد الرزَّاق الصَّنعاني (٢١١هـ) : " عَنْ مَعْمَرٍ ، عَنْ قَتَادَةَ ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ قَالَ: «يُعْبَدُ فِي السَّمَاءِ وَيُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ " (١) .

وقال الإمام الطَّبري (٣١٠هـ) : " يَقُولُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ: وَاللهُ الَّذِي لَهُ الْأُلُوهَةُ فِي السَّمَاءِ مَعْبُودٌ، وَفِي الْأَرْضِ مَعْبُودٌ كَمَا هُوَ فِي السَّمَاءِ مَعْبُودٌ، لَا شَيْءَ سِوَاهُ تَصْلُحُ عِبَادَتُهُ؛ يَقُولُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ: فَأَفْرِدُوا لِمَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ الْعِبَادَةَ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا غَيْرَهُ " (٢) .

وقال الإمام الزَّجَّاج (٣١١هـ) : " المعنىٰ هو الموحَّدُ في السَّماء وفي الأرْضِ " (٣) .

وقال الإمام أبو الليث نصر بن محمَّد بن أحمد بن إبراهيم السَّمرقندي (٣٧٣هـ) : " يعني: إله كلّ شيء، ويعلم كلّ شيء. ويقال: هو إله في السَّماء يعبد، وفي الأرض إله يعبد. ويقال: يوحَّد في السَّماء ويوحَّد في الأرض " (٤) .

وقال الإمام مكِّي بن أبي طالب المالكي (٤٣٧هـ) : " أي: هو المعبود في السَّماء وفي الأرض، فلا شيء تصلح له الألوهيَّة إلَّا هو. قال قتادة: معنىٰ الآية: وهو الذي يعبد في السَّماء ويعبد في الأرض" (٥) .

لبيد لكشف معنىٰ القرآن المجيد (٢/ ٣٠٥) ، محاسن التأويل (٨/ ٢١٧) ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (٢٣/ ١٢٦) ، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) (٦/ ١٨) ، تفسير المراغي (٢٣/ ٧١) ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/ ٧٠٥) ، التفسير القرآني للقرآن (١٢/ ١٠٠٣) ، التحرير والتنوير «تحرير المعنىٰ السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» (٢٣/ ١٤٦-١٤٧) ، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٤/ ١٦٥) ، التفسير الوسيط للقرآن الكريم (١٢/ ٩٩) ...

(١) انظر : تفسير عبد الرزاق (٣/ ١٧٨) .

(٢) انظر : تفسير الطبري (٢٠/ ٦٥٩) .

(٣) انظر : معاني القرآن وإعرابه (٤/ ٤٢١) .

(٤) انظر : بحر العلوم (٣/ ١٦٦) .

(٥) انظر : الهداية إلىٰ بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه (١٠/ ٦٧١١) .

وقال الإمام الماوردي (٤٥٠هـ) : " وهذا إبطال أن يكون غير الله إلَهاً وأنَّ الإلَه هو الذي يكون في السَّماء إلهاً وفي الأرض إلهاً وليست هذه صفة لغير الله ، فوجب أن يكون هو الإله. وفي معنىٰ الكلام وجهان: أحدهما: أنَّه الموحَّد في السَّماء والأرض ، قاله مقاتل. الثَّاني: أنَّه المعبود في السَّماء والأرض ، قاله الكلبي." (١) .

وقال الإمام الواحدي (٤٦٨هـ) : " قال قتادة: يُعبد في السَّماء، وفي الأرض، وهو إله واحد لا إله إلَّا الله. وقال أبو علي الفارسي: المعنىٰ عن الإخبار بإلهيَّته، لا عن الكون في السَّماء، أي: أنَّه تبارك اسمه يقصد بالعبادة في السَّماء والأرض" (٢) .

وقال الإمام الزَّمخشري (٥٣٨هـ) : " ضمن اسمه تعالىٰ معنىٰ وصف، فلذلك علق به الظَّرف في قوله : " فِي السَّماءِ وَفِي الْأَرْضِ "،كما تقول، هو حاتم في طيّ حاتم في تغلب، علىٰ تضمين معنىٰ الجواد الذي شهر به، كأنَّك قلت: هو جواد في طيّ جواد في تغلب. وقرئ: وهو الذي في السَّماء الله وفي الأرض الله. ومثله قوله تعالىٰ : وَهُوَ اللهُ فِي السَّماواتِ وَفِي الْأَرْضِ كأنَّه ضمن معنىٰ المعبود أو المالك أو نحو ذلك.
والرَّاجع إلىٰ الموصول محذوف لطول الكلام، كقولهم: ما أنا بالذي قائل لك شيئاً، وزاده طولا أنَّ المعطوف داخل في حيِّز الصِّلة. ويحتمل أن يكون فِي السَّماءِ صلة الذي وإله خبر مبتدإ محذوف، علىٰ أنّ الجملة بيان للصِّلة. وأنّ كونه في السَّماء علىٰ سبيل الإلهيَّة والرُّبوبيَّة، لا علىٰ معنىٰ الاستقرار. وفيه نفىٰ الآلهة التي كانت تعبد في الأرض" (٣) .

وقال الإمام ابن كثير (٧٧٤هـ) : " أَيْ : هُوَ إِلَهُ مَنْ فِي السَّماءِ وَإِلَهُ من في الأرض يعبده أهلها وَكُلُّهُمْ خَاضِعُونَ لَهُ أَذِلَّاءُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ، وهذه الآية كقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ [الْأَنْعَامِ: ٣] ، أَيْ : هُوَ الْمَدْعُوُّ اللهُ فِي السَّموات والأرض وَتَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما ، أَيْ : هُوَ خَالِقُهُمَا وَمَالِكُهُمَا، وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهِمَا بِلَا مُدَافَعَةٍ وَلَا مُمَانَعَةٍ، فَسُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَنِ الْوَلَدِ وَتَبَارَكَ، أَيِ اسْتَقَرَّ لَهُ السَّلَامَةُ مِنَ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ، لِأَنَّهُ الرَّبُّ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ الْمَالِكُ لِلْأَشْيَاءِ الَّذِي بِيَدِهِ أَزِمَّةُ الْأُمُورِ نَقْضًا وَإِبْرَامًا." (٤) .

---

(١) انظر : تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٥/ ٢٤١) .

(٢) انظر : الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٤/ ٨٣) .

(٣) انظر : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٢٦٧) .

(٤) انظر : تفسير ابن كثير (٧/ ٢٢٣) .

وبمثل الأقوال السَّابقة قال أهل العلم (١) ...

وكما قيل في الآية السَّابقة قيل في قوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام:٣] . والمعنىٰ : أنَّ الله تعالىٰ فِي السَّمَاءِ مَعْبُودٌ، وَفِي الْأَرْضِ مَعْبُودٌ ، أو أنَّه الموحَّدُ في السَّماء وفي الأرْضِ ، كما تقول : هو الخليفة في الشَّرق والغرب ...

سَادِسَاً : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد : ٤] .

ومن أقوال أهل العلم في تفسير الآية الكريمة :

وقال الإمام أبو المظفَّر السَّمعاني (٤٨٩هـ) : " وَقَوله: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ أَي: بِعِلْمِهِ وَقدرته، ذكره ابْن عَبَّاس وَغَيره. وَقَالَ الْحسن: هُوَ مَعكُمْ بِلَا كَيفَ. وَقَوله: ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ أَي: حَيْثُمَا كُنْتُم." (٢) .

وقال الإمام ابن عطيَّة الأندلسي : " معناه : بقدرته وعلمه وإحاطته ، وهذه آية أجمعت الأمَّة علىٰ هذا التَّأويل فيها ، وأنَّها مخرجة عن معنىٰ لفظها المعهود ودخل في الإجماع من يقول بأنَّ المشتبه كلّه ينبغي أن يمرّ ويؤمن به ولا يفسَّر ، فقد أجمعوا علىٰ تأويل هذه لبيان وجوب إخراجها عن ظاهرها . قال سفيان الثَّوري : معناه : علمه معكم وتأوّلهم هذه حجَّة عليهم في غيرها " (٣) .

وقال الإمام محمد صديق خان القِنَّوجي (١٣٠٧هـ) : " بقدرته وسلطانه وعلمه عموماً، وبفضله ورحمته خصوصاً، فليس ينفكّ أحد من تعليق علم الله تعالىٰ وقدرته به أينما كان من أرض أو سماء، بر أو بحر، وقيل : هو معكم بالحفظ والحراسة، قال ابن عبَّاس: عالم بكم، وهذا تمثيل للإحاطة بما يصدر منهم، أينما داروا في الأرض من برّ وبحر" (٤) .

---

(١) انظر : تفسير القرطبي (١٦/ ١٢١) ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٥/ ٩٧) ، تفسير الخازن المسمىٰ لباب التأويل في معاني التنزيل (٦/ ١٤٢) ، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٩/ ٦٠٩) ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٥/ ١٩٢) ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٥٧) ، تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن (٤/ ٩٥) ، السراج المنير في الإعانة علىٰ معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٣/ ٥٧٦) ، تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم) (٨/ ٥٧) ، روح البيان (٨/ ٣٩٧) ، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٥/ ٢٧٣) ، التفسير المظهري (٨/ ٣٦٥) ، فتح القدير (٤/ ٦٤٩) ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١٣/ ١٠٥) ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن (١٢/ ٣٧٩) ، مراح لبيد لكشف معنىٰ القرآن المجيد (٢/ ٣٨٩) ، تفسير المراغي (٢٥/ ١١٥) ، ...

(٢) انظر : تفسير القرآن (٥/ ٣٦٥) .

(٣) انظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٢٣٣) .

(٤) انظر : فتحُ البيان في مقاصد القرآن (١٣/ ٣٩٨) .

وقال الإمام محمَّد سيِّد طنطاوي (١٤٣١هـ) : " أي: وهو معكم بعلمه ولطفه ورحمته ... أينما كنتم وحيثما وجدتم.

قال الآلوسي: قوله- تعالى-: وهو معكم أينما كنتم تمثيل لإحاطة علمه- تعالى- بهم، وتصوير لعدم خروجهم عنه أينما كانوا، وقيل : المعيَّة مجاز مرسل عن العلم بعلاقة السَّببيَّة والقرينة السّياق واللحاق مع استحالة الحقيقة.

وقد أوَّل السَّلف هذه الآية بذلك، أخرج البيهقي في " الأسماء والصِّفات " عن ابن عبَّاس أنَّه قال فيها: عالم بكم أينما كنتم.

وأخرج- أيضاً- عن سفيان الثَّوري أنَّه سئل عنها فقال: علمه معكم.

وفي البحر: أنَّه أجمعت الأمَّة على هذا التَّأويل فيها، وأنَّها لا تحمل على ظاهرها من المعيَّة بالذَّات " (١) .

وكما قيل في الآية السَّابقة قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه:٤٦] ، وقوله : ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ ﴾ [محمد : ٣٥] ...

والمعنى : هو معهم بالْإِحَاطَة وَالْعلم والقدرته والسُّلطان ...

سَابِعاً : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ ﴾ [النور: ٣٩] .

ومن أقوال أهل العلم في تفسير الآية الكريمة :

وقال الإمام يحيى بن سلام القيرواني (٢٠٠هـ) : " ثَوَابَ عَمَلِهِ " (٢) .

وقال الإمام الشَّريف الرَّضي (٤٠٦هـ) : " المعنى : فوجد وعيد اللهّ سبحانه عند انتهائه إلى منقطع عمله السَّيّء ، فكاله بصواعه ، وجازاه بجزائه " (٣) .

وقال الإمام مكِّي بن أبي طالب المالكي (٤٣٧هـ) : " أي : ووجد هذا الكافر وعد الله بالجزاء على عمله بالمرصاد، فوفَّاه حساب عمله وجازاه عليه. هذا معنى قول ابن عبَّاس وأبي بن كعب، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وابن زيد.

---

(١) انظر : التفسير الوسيط للقرآن الكريم (١٤/ ٢٠٠) .

(٢) انظر : تفسير يحيى بن سلام (١/ ٤٥٣) .

(٣) انظر : تلخيص البيان فى مجازات القرآن (٢/ ٢٤٥) .

فالضَّمير في ﴿لَمۡ يَجِدۡهُ﴾ و ﴿جَآءَهُۥ﴾ للظَّمآن، والضَّمير في ﴿وَوَجَدَ﴾ للكافر الذي ضرب الله مثلاً بالظمآن. فالمعنىٰ : أنَّ الكافر يأتي يوم القيامة أحوج ما كان إلىٰ عمله فلا يجد شيئاً، كهذا الظمآن يأتي إلىٰ السَّراب الذي يظنُّه ماء أحوج ما كان إليه لشدَّة عطشه فلا يجد شيئاً " (١) .

وقال الإمام ابن الجوزي (٥٩٧هـ) : " أي: قَدِم علىٰ الله فَوَفَّاهُ حِسابَهُ أي: جازاه بعمله وهذا في الظَّاهر خبر عن الظَّمآن، والمراد به الخبر عن الكافر " (٢) .

وقال الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) : " أَيْ وَجَدَ عِقَابَ اللهَّ الَّذِي تَوَعَّدَ بِهِ الْكَافِرَ عِنْدَ ذَلِكَ فَتَغَيَّرَ مَا كَانَ فِيهِ مِنْ ظَنِّ النَّفْعِ الْعَظِيمِ إِلَىٰ تَيَقُّنِ الضَّرَرِ الْعَظِيمِ، أَوْ وَجَدَ زَبَانِيَةَ اللهَّ عِنْدَهُ يَأْخُذُونَهُ فَيُقْبِلُونَ بِهِ إِلَىٰ جَهَنَّمَ فَيَسْقُونَهُ الْحَمِيمَ وَالْغَسَّاقَ " (٣) .

وقال الإمام القرطبي (٦٧١هـ) : " أَيْ وَجَدَ اللهَّ بِالْمِرْصَادِ. ﴿ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾ أَيْ جَزَاءَ عَمَلِهِ. قَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ:

فَوَلَّىٰ مُدْبِرًا يَهْوِي حَثِيثًا   وَأَيْقَنَ أَنَّهُ لَاقَىٰ الْحِسَابَا

وَقِيلَ: وَجَدَ وَعْدَ اللهَّ بِالْجَزَاءِ عَلَىٰ عَمَلِهِ. وَقِيلَ: وَجَدَ أَمْرَ اللهَّ عِنْدَ حَشْرِهِ، والمعنىٰ متقارب " (٤) .

وقال الإمام النَّسفي (٧١٠هـ) : " أي : جزاء الله كقوله : ﴿ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١١٠] ، أي يجد مغفرته ورحمته ﴿ عِندَهُۥ﴾ عند الكافر ﴿ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ أي : أعطاه جزاء عمله وافياً كاملاً وحد بعد تقدم الجمع حملاً علىٰ كلِّ واحد من الكفَّار " (٥) .

وقال الإمام أبو حيَّان (٧٤٥هـ) : " أَيْ وَوَجَدَ مَقْدُورَ اللهَّ عَلَيْهِ مِنْ هَلَاكٍ بِالظَّمَأِ عِنْدَهُ ، أَيْ : عِنْدَ مَوْضِعِ السَّرَابِ فَوَفَّاهُ مَا كُتِبَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ. وَهُوَ الْمَحْسُوبُ لَهُ، وَاللهَّ مُعَجِّلٌ حِسَابَهُ لَا يُؤَخِّرُهُ عَنْهُ فَيَكُونُ الْكَلَامُ مُتَنَاسِقًا آخِذًا بَعْضُهُ بِعُنُقِ بَعْضٍ. وَذَلِكَ بِاتِّصَالِ الضَّمَائِرِ لِشَيْءٍ وَاحِدٍ، وَيَكُونُ هَذَا التَّشْبِيهُ مُطَابِقًا لِأَعْمَالِهِمْ مِنْ حَيْثُ أَنَّهُمُ اعْتَقَدُوهَا نَافِعَةً فَلَمْ تَنْفَعْهُمْ وَحَصَلَ لَهُمُ الْهَلَاكُ بِإِثْرِ مَا حُوسِبُوا " (٦) .

وبنفس المعاني السَّابقة قال جمهور أهل العلم ...

---

(١) انظر : الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه (٥١٢١/٨-٥١٢٢) .

(٢) انظر : زاد المسير في علم التفسير (٣/ ٢٩٩) .

(٣) انظر : تفسير الرازي (٢٤/ ٣٩٩-٤٠٠) .

(٤) انظر : الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢٨٣) .

(٥) انظر : تفسير النسفي (٢/ ٥٠٩) .

(٦) انظر : البحر المحيط في التفسير (٨/ ٥٢) .

ثامناً : قَوْلُهُ تَعَالَى :﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [البقرة:١١٥]

ومن أقوال أهل العلم في تفسير الآية الكريمة :

وقال الإمام أبو الليث السَّمرقندي (٣٧٣هـ) : " يعني أينما تولُّوا وجوهكم في الصَّلاة فثمَّ وجه الله ، قال بعضهم: فثمَّ قبلة الله. ويقال يعني: فثمَّ رضا الله ، ويقال: فثم ملك الله " (١) .

وقال الإمام الشَّريف الرَّضي (٤٠٦هـ) : " أي : جهة التَّقرُّب إلى الله. والطَّريق الدالَّة عليه ، ونواحى مقاصده ومعتمداته الهادية إليه" (٢) .

وقال الإمام ابن حزم الأندلسي (٤٥٦هـ) : " إِنَّمَا مَعْنَاهُ ثمَّ الله تَعَالَى بِعِلْمِهِ وقبوله لمن توجه إِلَيْهِ " (٣).

وقال الإمام الواحدي (٤٦٨هـ) : " أَيْ: فهناك قِبلة الله وجهته التي تعبَّدكم الله بالتَّوجُّه إليها " (٤) .

وقال الإمام أبو المظفَّر السَّمعاني (٤٨٩هـ) : " قَالَ مُجَاهِد: قبْلَة الله. الْوَجْه: بِمَعْنى الْقبْلَة، وَكَذَلِكَ الوجهة والجهة: هِيَ الْقبْلَة. وَقيل: مَعْنَاهُ رضَا الله، وَقيل: مَعْنَاهُ قصد الله، وَمِنْه قَول الشَّاعِر:

اسْتغْفر الله ذَنباً لست أحصيه   ربّ الْعباد إِلَيْهِ الْوَجْه وَالْعَمَل

يَعْنِي: إِلَيْهِ الْقَصْد وَالْعَمَل.

وَقد ذكر الله تَعَالَى الْوَجْه فِي كِتَابه فِي أحد عشر موضعاً، وَهُوَ صفة لله تَعَالَى وَتَفْسِيره: قِرَاءَته وَالْإِيمَان بِهِ " (٥) .

وقال الإمام الزَّمخشري (٥٣٨هـ) : " أي : جهته التي أمر بها ورضيها. والمعنى : أنَّكم إذا مُنعتم أن تصلُّوا في المسجد الحرام أو في بيت المقدس، فقد جعلت لكم الأرض مسجداً فصلُّوا في أي بقعة شئتم من بقاعها، وافعلوا التولية فيها فإنَّ التَّولية ممكنة في كلِّ مكان لا يختصّ إسكانها في مسجد دون مسجد ولا في مكان دون مكان" (٦) .

---

(١) انظر : بحر العلوم (١/ ٨٧) .

(٢) انظر : تلخيص البيان فى مجازات القرآن (٢/ ١١٨) .

(٣) انظر : الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/ ١٢٧) .

(٤) انظر : الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ١٢٦) .

(٥) انظر : تفسير القرآن (١/ ١٢٩) .

(٦) انظر : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ١٨٠) .

وقال الإمام محمود بن أبي الحسن بن الحسين النَّيسابوري (المتوفى: نحو ٥٥٠هـ) : " أي: الاتجاه إلى الله، أي: وجه عبادة الله" (١) .

وقال الإمام ابن الجوزي (٥٩٧هـ) : " فيه قولان: أحدهما: فثمَّ الله، يريد: علمه معكم أين كنتم. وهذا قول ابن عبَّاس، ومقاتل. والثَّاني: فثمَّ قبلة الله، قاله عكرمة، ومجاهد" (٢) .

وقال الإمام الرَّازي (٦٠٦) : " ... فَمَعْنَى الْآيَةِ: فَأَيْنَما تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ لِنَوَافِلِكُمْ فِي أَسْفَارِكُمْ: فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ فَقَدْ صَادَفْتُمُ الْمَطْلُوبَ ...

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ: الْآيَةُ مِنْ أَقْوَى الدَّلَائِلِ عَلَى نَفْيِ التَّجْسِيمِ وَإِثْبَاتِ التَّنْزِيهِ، وَبَيَانُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ، الْأَوَّلُ: أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَبَيَّنَ أَنَّ هَاتَيْنِ الْجِهَتَيْنِ مَمْلُوكَتَانِ لَهُ وَإِنَّمَا كَانَ كَذَلِكَ لِأَنَّ الْجِهَةَ أَمْرٌ مُمْتَدٌّ فِي الْوَهْمِ طُولًا وَعَرْضًا وَعُمْقًا، وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مُنْقَسِمٌ، وَكُلُّ مُنْقَسِمٍ فَهُوَ مُؤَلَّفٌ مُرَكَّبٌ، وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ خَالِقٍ وَمُوجِدٍ، وَهَذِهِ الدَّلَالَةُ عَامَّةٌ فِي الْجِهَاتِ كُلِّهَا، أَعْنِي الْفَوْقَ وَالتَّحْتَ، فَثَبَتَ بِهَذَا أَنَّهُ تَعَالَى خَالِقُ الْجِهَاتِ كُلِّهَا، وَالْخَالِقُ مُتَقَدِّمٌ عَلَى الْمَخْلُوقِ لَا مَحَالَةَ، فَقَدْ كَانَ الْبَارِي تَعَالَى قَبْلَ خَلْقِ الْعَالَمِ مُنَزَّهًا عَنِ الْجِهَاتِ وَالْأَحْيَازِ، فَوَجَبَ أَنْ يَبْقَى بَعْدَ خَلْقِ الْعَالَمِ كَذَلِكَ لَا مَحَالَةَ لِاسْتِحَالَةِ انْقِلَابِ الْحَقَائِقِ وَالْمَاهِيَّاتِ.

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ وَلَوْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى جِسْمًا وَلَهُ وَجْهٌ جُسْمَانِيٌّ لَكَانَ وَجْهُهُ مُخْتَصًّا بِجَانِبٍ مُعَيَّنٍ وَجِهَةٍ مُعَيَّنَةٍ فَمَا كَانَ يَصْدُقُ قَوْلُهُ: فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ فَلَمَّا نَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ عَلِمْنَا أَنَّهُ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنِ الْجِسْمِيَّةِ وَاحْتَجَّ الْخَصْمُ بِالْآيَةِ مِنْ وَجْهَيْنِ، الْأَوَّلُ: أَنَّ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَى ثُبُوتِ الْوَجْهِ لِلَّهِ تَعَالَى وَالْوَجْهُ لَا يَحْصُلُ إِلَّا لِمَنْ كَانَ جِسْمًا. الثَّانِي: أَنَّهُ تَعَالَى وَصَفَ نَفْسَهُ بِكَوْنِهِ وَاسِعًا، وَالسَّعَةُ مِنْ صِفَةِ الْأَجْسَامِ. وَالْجَوَابُ عَنِ الْأَوَّلِ: أَنَّ الْوَجْهَ وَإِنْ كَانَ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ عِبَارَةً عَنِ الْعُضْوِ الْمَخْصُوصِ لكنا بينا أنا لو حملناه هاهنا عَلَى الْعُضْوِ لَكَذَبَ قَوْلُهُ تَعَالَى: فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ لِأَنَّ الْوَجْهَ لَوْ كَانَ مُحَاذِيًا لِلْمَشْرِقِ لَاسْتَحَالَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ أَنْ يَكُونَ مُحَاذِيًا لِلْمَغْرِبِ أَيْضًا، فَإِذَنْ لَا بُدَّ فِيهِ مِنَ التَّأْوِيلِ وَهُوَ مِنْ وُجُوهٍ. الْأَوَّلُ: أَنَّ إِضَافَةَ وَجْهِ اللَّهِ كَإِضَافَةِ بَيْتِ اللَّهِ وَنَاقَةِ اللَّهِ، وَالْمُرَادُ مِنْهَا الْإِضَافَةُ بِالْخَلْقِ وَالْإِيجَادِ عَلَى سَبِيلِ التَّشْرِيفِ، فَقَوْلُهُ:

---

(١) انظر : إيجاز البيان عن معاني القرآن (١/ ١٢٠) .

(٢) انظر : زاد المسير في علم التفسير (١/ ١٠٤) .

فَثَمَّ وَجْهُ اللهَّ أَيْ: فَثَمَّ وَجْهُهُ الَّذِي وَجَّهَكُمْ إِلَيْهِ لِأَنَّ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ لَهُ بِوَجْهَيْهِمَا، وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْقِبْلَةِ إِنَّمَا يَكُونُ قِبْلَةً لِنَصْبِهِ تَعَالَى إِيَّاهَا، فَأَيُّ وَجْهٍ مِنْ وُجُوهِ الْعَالَمِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ بِالْخَلْقِ وَالْإِيجَادِ نَصَبَهُ وَعَيَّنَهُ فَهُوَ قِبْلَةٌ.

الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ الْوَجْهِ الْقَصْدَ وَالنِّيَّةَ قَالَ الشَّاعِرُ:

أَسْتَغْفِرُ اللهَّ ذَنْبًا لَسْتُ أُحْصِيهِ رَبَّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ" (١) .

وقال الإمام النَّسفي (٧١٠هـ) : " أي : جهته التي أمر بها ورضيها ، والمعنى : أنَّكم إذا مُنعتم أن تُصلُّوا في المسجد الحرام أو في بيت المقدس ، فقد جعلتُ لكم الأرض مسجداً فصلُّوا في أي بقعة شئتم من بقاعها وافعلوا التولية فيها ، فإن التَّولية ممكنة في كلِّ مكان " (٢) .

وقال الإمام مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي (١٠٣٣هـ) : " أي : فثمَّ رضَا الله وثوابه" (٣) .

وقال الإمام السَّفاريني الحنبلي (١١٨٨هـ) : " أَيْ فَثَمَّ رِضَاهُ وَثَوَابُهُ، ... وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْوَجْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ ﴾ الْجِهَةُ الَّتِي وَجَّهَنَا اللهُّ إِلَيْهَا أَيِ الْقِبْلَةِ،" (٤) .

---

(١) انظر : تفسير الرازي (٤/ ١٨-٢١ باختصار) .

(٢) انظر : تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) (١/ ١٢٣) .

(٣) انظر : أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات (ص١٤٢) .

(٤) انظر : لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية (٢٢٨/١) .

الفَصْلُ السَّادِسُ

الأَحَادِيْثُ المغايرة لِلأَحَادِيْثِ التِي يُوْهِمُ ظَاهِرُهَا العُلُو المَكَانِي لله تَعَالَى

جَاء في السُّنَّة المطهَّرة العَديْد مِنَ الأَحَادِيْثُ المغايرة لِلأَحَادِيْثِ التِي يُوْهِمُ ظَاهِرُهَا العُلُو المَكَانِي لله تَعَالَى ، وَمنْ أهمِّ تِلكَ الأَحَادِيْث :

أَوَّلاً : قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ " (١) .

وظاهرُ الحديث يُشير إلى أنَّ حالة السُّجود تُقرِّب الإنسان من مولاه ، بل هي الحالة الأولى التي يكون فيها العبد أقرب ما يكون من مولاه ، وهذا ينسف ما جاء في حديث الجارية وغيره من الأدلَّة التي يستشهد بها من من صرَّحوا بالعلوِّ المكانيِّ لله تعالى ، وأنَّه في السَّماء ، والعياذ بالله ...

ولَمَّا كان الله تعالى منزَّهاً عن المكان والجهة ... فقد ذهب علماء الأمَّة في شرحهم للحديث ... إلى تأويل كلّ ما من شأنه أن يضيف العلو المكاني إلى الله تعالى ، وبما ينسجم مع القواطع العقديَّة وقواعد اللغة العربية ...

ففي شرحه للحديث قال القاضي عياض اليحصبي (٥٤٤ هـ) : " معناه : من رحمته وإجابته " (٢) .

وأضاف : " القُرْب هاهنا من الله معناه: من رحمة ربِّه وفضله، ولذلك حضَّه على السُّؤال والطَّلب " (١) .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٥/ ٢٧٤ برقم ٩٤٦١) ، قال الأرنؤوط في تخريجه لأحاديث المسند : " إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عمارة بن غزية، فمن رجال مسلم.

وأخرجه مسلم (٤٨٢) عن هارون بن معروف، بهذا الإسناد. وقرن بهارون عمرو بن سَوادٍ.

وأخرجه أبو داود (٨٧٥) ، والنسائي ٢/ ٢٢٦، وأبو عوانة ٢/ ١٨٠، والطبراني في "الدعاء" (٦١٣) ، والبيهقي ٢/ ١١٠، والبغوي (٦٥٨) من طرق عن ابن وهب، به.

وأخرجه الطحاوي في "شرح معاني الآثار" ١/ ٢٣٤، والطبراني في "الدعاء" (٦١١) و (٦١٢) من طريق يحيى بن أيوب، عن عمارة بن غزية، به.

وفي الباب عن ابن عباس، سلف برقم (١٩٠٠) ، وفيه: "وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقَمِن أن يُستَجاب لكم".

قوله: "أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد"، قال السندي: الظاهر أن "ما" مصدرية، و"كان" تامة، والجار متعلق بالقرب، وخبر "أقرب" محذوف، تقديره: حاصل له، وجملة "وهو ساجد" حال من ضمير "حاصل"، والمعنى: أقرب أكوان العبد من ربه تبارك وتعالى حاصل حين كونه ساجداً.

قال القرطبي: هذا أقرب بالرتبة والكرامة، لا بالمسافة والمساحة " .

(٢) انظر : مشارق الأنوار على صحاح الآثار (٢/ ١٧٧) .

وقال الإمام أحمد بن عمر القرطبي المالكي (٦٥٦هـ) : " هذا قُربٌ بالرُّتبة والكرامة ، لا بالمسافة والمساحة ؛ إذ هو مُنَزَّهٌ عن الزَّمان والمكان " (٢) .

وقال الإمام إبراهيم بن يوسف ابن قرقول (٥٦٩هـ) : " أي: من رحمة ربِّه عزَّ وجلَّ " (٣) .

وقال الإمام النَّووي (٦٧٦هـ) : " قوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " أقرب ما يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ " ، مَعْنَاهُ : أَقْرَبُ مَا يَكُونُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ وَفَضْلِهِ " (٤) .

وقال الإمام شهاب الدِّين الرَّملي الشَّافعي (٨٤٤هـ) : " أي: أقرب ما يكون من رحمة ربِّه وفضله " وهو ساجد " ، الواو في " وهو " للحال، أي: أقرب حالات العبد من رحمة ربِّه حال كونه ساجدًا، وإنَّما يكون العبد في السُّجود أقرب من سائر أحوال الصَّلاة وغيرها لأنَّ العبد بقدر ما يبعد عن نفسه يقرب من ربِّه، والسُّجود غاية التَّواضع وترك التَّكبُّر وكسر النَّفس؛ لأنَّها لا تأمر الرَّجل بالمذلَّة، ولا ترضى بها، ولا بالتَّواضع، بل بخلاف ذلك، فإذا سجد فقد خالف نفسه وبعد عنها فإذا بعد عنها قرب من رَّبه " (٥) .

وقال الإمام بدر الدِّين العينى (٨٥٥هـ) : " معناه : أقرب ما يكون من رحمة ربِّه وفضله " (٦) .

وقال الإمام السُّيوطي (٩١١هـ) : " قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : هَذَا أَقْرَبُ بِالرُّتْبَةِ وَالْكَرَامَةِ لَا بِالْمَسَافَةِ ، لأَنَّه مُنَزَّهٌ عَنِ الْمَكَانِ وَالْمِسَاحَةِ وَالزَّمَانِ ، وَقَالَ الْبَدْرُ بْنُ الصَّاحِبِ فِي تَذْكِرَتِهِ : فِي الْحَدِيثِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ نَفْيِ الْجِهَةِ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ ، وَأَنَّ الْعَبْدَ فِي انْخِفَاضِهِ غَايَةُ الِانْخِفَاضِ يَكُونُ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ " (٧) .

وقال أيضاً : " قَالَ الْقُرْطُبِيّ : هَذَا أَقْرَب بِالرُّتْبَةِ وَالْكَرَامَة لَا بِالْمَسَافَةِ وَالْمِسَاحَة لأَنَّه تَعَالَىٰ مُنَزَّه عَنْ الْمَكَان وَالزَّمَان . وَقَالَ الْبَدْر بْن الصَّاحِب فِي تَذْكِرَته : فِي الْحَدِيث إِشَارَة إِلَىٰ نَفْي الْجِهَة عَنْ اللهَّ تَعَالَىٰ ، وَأَنَّ الْعَبْد فِي انْخِفَاضه غَايَة الِانْخِفَاض يَكُون أَقْرَب إِلَىٰ اللهَّ تَعَالَىٰ . قُلْت : بُنِيَ عَلَىٰ أَنَّ الْجِهَة الْمُتَوَهَّم ثُبُوتهَا لَهُ تَعَالَىٰ جَلَّ وَعَلَا جِهَة الْعُلُوّ ، وَالْحَدِيث يَدُلّ عَلَىٰ نَفْيهَا وَإِلَّا فَالْجِهَة السُّفْلَىٰ لَا يُنَافِي هَذَا الْحَدِيث بَلْ يُوهِم ثُبُوتهَا بَلْ قَدْ يُبْحَث فِي نَفْي الْجِهَة الْعُلْيَا بِأَنَّ الْقُرْب إِلَىٰ الْعَالِي يُمْكِن حَالَة الِانْخِفَاض بِنُزُولِ الْعَالِي إِلَىٰ الْمُنْخَفِض ، كَمَا

---

(١) انظر : شَرْحُ صَحِيح مُسْلِمِ لِلقَاضِى عِيَاض الْمُسَمَّىٰ إِكمَالُ الْمُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم (٢/ ٣٩٨) .

(٢) انظر : المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٥/ ٢١) ،.

(٣) انظر : مطالع الأنوار علىٰ صحاح الآثار (٥/ ٣٢٩) .

(٤) انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٤/ ٢٠٠) .

(٥) انظر : شرح سنن أبي داود (٤/ ٦٩١) .

(٦) انظر : شرح سنن أبي داود (٤/ ٨٢) .

(٧) انظر : حاشية السندي علىٰ سنن النسائي (مطبوع السنن) (٢/ ٢٢٦) .

جَاءَ نُزُوله تَعَالَىٰ كُلّ لَيْلَة إِلَىٰ السَّماء عَلَىٰ أَنَّ الْمُرَاد الْقُرْب مَكَانَة وَرُتْبَة وَكَرَاهَة لَا مَكَانًا ، فَلَا تَتِمّ الدَّلَالَة أَصْلًا ثُمَّ الْكَلَام فِي دَلَالَة الْحَدِيث عَلَىٰ نَفْي الْجِهَة وَإِلَّا فَكَوْنه تَعَالَىٰ مُنَزَّهًا عَنْ الْجِهَة مَعْلُوم بِأَدِلَّتِهِ ، وَاللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَم " (١) .

وقال الإمام ا بن حجر الهيتمي (٩٧٤هـ) : " ... أي من رحمته ولطفه وإنعامه عليه " (٢) .

وقال الإمام محمَّد الصدّيقي الهندي الفَتَّنِي الكجراتي (٩٨٦هـ) : " ... أي : من رحمة ربِّه وفضله " (٣) .

وقال الإمام شهاب الدِّين الرَّملي (١٠٠٤هـ) : " فَرُبَّمَا يُتَوَهَّمُ قُرْبُ مَسَافَةٍ فَسُنَّ سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَىٰ: أَيْ عَنْ قُرْبِ الْمَسَافَاتِ " (٤) .

وقال الإمام علي بن (سلطان) القاري (١٠١٤هـ) : " وَصَحَّ: أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، وَرُبَّمَا يُتَوَهَّمُ قُرْبُ مَسَافَةٍ فَنُدِبَ فِيهِ التَّسْبِيحُ ، قَالَ الطِّيبِيُّ: الِاسْمُ هُنَا صِلَةٌ بِدَلِيلِ أَنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَىٰ» ، فَحُذِفَ الِاسْمُ، وَهَذَا عَلَىٰ قَوْلِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الِاسْمَ غَيْرُ الْمُسَمَّىٰ، وَقِيلَ: الِاسْمُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ صِلَةٍ، وَالْمَعْنَىٰ تَنْزِيهُ اسْمِهِ عَنْ أَنْ يُبْتَذَلَ، وَأَنْ لَا يُذْكَرَ عَلَىٰ وَجْهِ التَّعْظِيمِ، قَالَ الْإِمَامُ الرَّازِيُّ: كَمَا يَجِبُ تَنْزِيهُ ذَاتِهِ عَنِ النَّقَائِصِ يَجِبُ تَنْزِيهُ الْأَلْفَاظِ الْمَوْضُوعَةِ لَهَا عَنِ الرَّفَثِ وَسُوءِ الْأَدَبِ " (٥) .

وقال أيضاً : " أَسْنَدَ الْقُرْبَ إِلَىٰ الْوَقْتِ، وَهُوَ لِلْعَبْدِ مَجَازًا، أَيْ: هُوَ فِي السُّجُودِ أَقْرَبُ مِنْ رَبِّهِ مِنْهُ فِي غَيْرِهِ، وَالْمَعْنَىٰ: أَقْرَبُ أَكْوَانِ الْعَبْدِ وَأَحْوَالِهِ مِنْ رِضَا رَبِّهِ وَعَطَائِهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، وَقِيلَ: أَقْرَبُ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفُ الْخَبَرِ لِسَدِّ الْحَالِ مَسَدَّهُ، " وَهِيَ (وَهُوَ سَاجِدٌ) ، أَيْ: أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ حَاصِلٌ فِي حَالِ كَوْنِهِ سَاجِدًا («فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ») : قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ: وَهَذَا؛ لِأَنَّ حَالَةَ السُّجُودِ تَدُلُّ عَلَىٰ غَايَةِ تَذَلُّلٍ، وَاعْتِرَافٍ بِعُبُودِيَّةِ نَفْسِهِ وَرُبُوبِيَّةِ رَبِّهِ، فَكَانَ مَظِنَّةَ الْإِجَابَةِ فَأَمَرَهُمْ بِإِكْثَارِ الدُّعَاءِ فِي السُّجُودِ، قَالَ: وَاسْتُدِلَّ بِهِ عَلَىٰ أَفْضَلِيَّةِ كَثْرَةِ السُّجُودِ عَلَىٰ طُولِ الْقِيَامِ" (٦) .

---

(١) انظر : حاشية السيوطي والسندي علىٰ سنن النسائي (٢/ ٣٠٢) .

(٢) انظر : المنهاج القويم (١/ ١٠٤).

(٣) انظر : مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار (٤/ ٢٤٢) .

(٤) انظر : نهاية المحتاج إلىٰ شرح المنهاج (١/ ٤٩٩) .

(٥) انظر : مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢/ ٧١٤) .

(٦) انظر : مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢/ ٧٢٢) .

وقال الإمام محمَّد علي بن علَّان الصدِّيقي (١٠٥٧هـ) : " فلمَّا نزلت: ﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴾ [الأعلى: ١٤] قال: " اجعلوها في سجودكم " ، وحكمته أنَّه ورد : «أقرب ما يكون العبد من ربِّه إذا كان ساجداً» ، فخصَّه بالأعلىٰ: أي عن الجهات والمسافات لئلَّا يتوهَّم بالأقربيَّة ذلك، وقيل : لَمَّا كان الأعلىٰ أفعل تفضيل وهو أبلغ من العظيم والسُّجود " (١) .

وقال أيضاً : " أقرب " مبتدأ مضاف للمصدر المنسبك من ما وصلتها، والخبر محذوف وجوباً، أي: أقرب ما يكون العبد من ربِّه قُرباً معنوياً حاصل إذا كان " وهو ساجد " الجملة الحاليَّة سادَّة مسد الخبر المحذوف، فلذا وجب حذفه. والدَّليل علىٰ أنَّها ليست خبراً أنَّ الجملة الواقعة خبراً لا يدخلها الواو، وأخذ منه ردّ القول بالجهة لله تعالىٰ عن ذلك " (٢) .

وقال أيضاً : " أي : قُرباً معنوياً قُرب مكانة لا قُرب مكان " (٣) .

وقال الإمام محمَّد السِّندي (١١٣٨هـ) : " فربَّما يتوهَّم قُرب المسافة فندب سبحان ربِّي الأعلىٰ دفعاً لذلك التَّوهُّم ، وأيضاً في السُّجود غاية انحطاط من العبد فناسبه أن يصف فيه ربَّه بالعلوِّ ، والله تعالىٰ أعلم " (٤) .

وقال أيضاً : " فَرُبَّمَا يُتَوَهَّمُ قُرْبَ الْمَسَافَةِ فَنُدِبَ سُبْحَانُ رَبِّي الْأَعْلَىٰ دَفْعًا لِذَلِكَ التَّوَهُّمِ ، وَأَيْضًا فِي السُّجُودِ غَايَةُ انْحِطَاطٍ مِنَ الْعَبْدِ فَيُنَاسِبُهُ أَنْ يَصِفَ فِيهِ رَبَّهُ بِالْعُلُوِّ " (٥) .

وقال أيضاً : " أقربُ مَا يكون العَبْد من ربِّه عزَّ وجلَّ ، الظَّاهِر أَنَّ " مَا " مَصْدَرِيَّة وَكَانَ تَامَّة ، وَالْجَار مُتَعَلق بـ " أقرب " ، وَلَيْسَت " مِنْ " تفضيلية ، وَالْمعْنىٰ شَاهد كَذَلِك ، فَلَا يرد أَنَّ اسْم التَّفْضِيل لَا يسْتَعْمل إِلَّا بِأحد أُمُور ثَلَاثَة لَا بأمرين كالإضافة وَمن فَكيف اسْتعْمل هَا هُنَا بأمرين فَافْهَم ، وَخبر " أقرب " مَحْذُوف ، أَي حَاصِل لَهُ ، وَجُمْلَة " وَهُوَ ساجد " حَال من ضمير حَاصِل أَو من ضمير لَهُ ، وَالْمعْنَىٰ أقرب أكوان العَبْد من ربِّه تبَارك وَتَعَالَىٰ حَاصِل لَهُ حِين كَونه سَاجِداً ، وَلَا يرد علىٰ الأَوَّل أَنَّ الْحَال لَا بُدَّ أَن يرتبط بِصَاحِبِهِ ، وَلَا ارتباط هَا هُنَا لِأَنَّ ضمير هُوَ ساجد للْعَبد لَا لأَقْرَب لأَنَّا نقُول : يَكْفِي فِي الارتباط

(١) انظر : دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٦/ ٦٤٣) .

(٢) انظر : دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٧/ ٢٢٥) .

(٣) انظر : دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٧/ ٣٠١) .

(٤) انظر : فتح الودود في شرح سنن أبي داود (١/ ٥١٩) .

((٥) انظر : حاشية السندي علىٰ سنن ابن ماجه (كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه) (١/ ٢٨٩) .

وجود الْوَاو من غير حَاجَة إِلىٰ الضَّمِير ، مثل : جَاءَ زيد وَالشَّمْس طالعة فَأَكْثرُوا الدُّعَاء ، أَي : فِي السُّجُود ، قيل وَجه الأقربية أَن العَبْد فِي السُّجُود دَاع لأَنَّه أَمر بِهِ وَالله تَعَالَىٰ قريب من السَّائِلين ، لقَوْله تَعَالَىٰ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة:١٨٦] ، وَلِأَن السُّجُود غَايَة فِي الذُّل والانكسار وتعفير الْوَجْه ، وَهَذِه الْحَالة أحبّ أَحْوَال العَبْد ، كَمَا رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي الْكَبِير بِسَنَد حسن عَن بن مَسْعُود ، وَلِأَن السُّجُود أوّل عبَادَة أَمر الله تَعَالَىٰ بهَا بعد خلق آدم ، فالمتقرّب بهَا أقرب ، وَلِأَنَّ فِيهِ مُخَالفَة لابليس فِي أوّل ذَنْب عصىٰ الله بِهِ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ هَذَا أَقْرَبُ بِالرُّتْبَةِ وَالْكَرَامَةِ لَا بالمسافة والمساحة لأَنَّه تَعَالَىٰ منزَّه عَن الْمَكَان وَالزَّمَانِ .

وَقَالَ الْبَدْرُ بْنُ الصَّاحِبِ فِي تَذْكِرَتِهِ : فِي الْحَدِيثِ إِشَارَةٌ إِلىٰ نَفْيِ الْجِهَةِ عَنِ اللهَّ تَعَالَىٰ ، وَأَنَّ الْعَبْدَ فِي انْخِفَاضِهِ غَايَةُ الانخفاض يكون أقرب إِلىٰ الله تَعَالَىٰ ، قلت : بني ذَلِك علىٰ أَنَّ الْجِهَة المتوهم ثُبُوتهَا لَهُ تَعَالَىٰ جلّ وَعلا جِهَة الْعُلُوّ والْحَدِيث يدلُّ علىٰ نَفيهَا وإِلَّا فالجهة السُّفْلىٰ لَا ينافيها هَذَا الحَدِيث بل يُوهم ثُبُوتهَا بل قد يبْحَث فِي نفي الْجِهَة الْعليا بِأَنَّ الْقرب إِلىٰ العالي يُمكن حَالَة الانخفاض بنزول العالي إِلىٰ المنخفض ، كَمَا جَاءَ نُزُوله تَعَالَىٰ كل لَيْلَة إِلىٰ السَّمَاء ، علىٰ أَنَّ الْمُرَاد الْقرب مَكَانَةُ ورتبة وكرامة لَا مَكَاناً ، فَلَا تتمّ الدّلَالَة أصلاً ، ثمَّ الْكَلَام فِي دلَالَة الحَدِيث علىٰ نفي الْجِهَة وإِلَّا فكونه تَعَالَىٰ منزَّهاً عَن الْجِهَة مَعْلُوم بأدلته ، وَالله تَعَالَىٰ أعلم" (١) .

وقال الإمام محمَّد بن إسماعيل الصَّنعاني (١١٨٢هـ) : " ... هذا يدلُّك أنَّه ليس بقرب مكانيٍّ بل قرب رضا ومحبَّة ، وذلك لأنَّ هيئة السَّاجد أكمل هيئة في تواضعه لمولاه " (٢) .

وقال الإمام محمَّد بن علي الشَّوكاني (١٢٥٠هـ) : " قَوْلُهُ: " مِنْ رَبِّهِ " ، أَيْ : مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ وَفَضْلِهِ . قَوْلُهُ: " وَهُوَ سَاجِدٌ " الْوَاو لِلْحَالِ: أَيْ أَقْرَبُ حَالَاتِهِ مِنْ الرَّحْمَةِ حَالَ كَوْنِهِ سَاجِدًا، وَإِنَّمَا كَانَ فِي السُّجُودِ أَقْرَبَ مِنْ سَائِرِ أَحْوَالِ الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا، لِأَنَّ الْعَبْدَ بِقَدْرِ مَا يَبْعُدُ عَنْ نَفْسِهِ يَقْرُبُ مِنْ رَبِّهِ، وَالسُّجُودُ غَايَةُ التَّوَاضُعِ وَتَرْكُ التَّكَبُّرِ وَكَسْرُ النَّفْسِ لِأَنَّهَا لَا تَأْمُرُ الرَّجُلَ بِالْمَذَلَّةِ وَلَا تَرْضَى بِهَا وَلَا بِالتَّوَاضُعِ بَلْ بِخِلَافِ ذَلِكَ، فَإِذَا سَجَدَ فَقَدْ خَالَفَ نَفْسَهُ وَبَعُدَ عَنْهَا فَإِذَا بَعُدَ عَنْهَا قَرُبَ مِنْ رَبِّهِ " (٣) .

---

(١) انظر : حاشية السندي علىٰ سنن النسائي (مطبوع مع السنن) (٢/ ٢٢٦) .

(٢) انظر : التَّنويرُ شَرْحُ الجَامِع الصَّغِيرِ (٣/ ٨) .

(٣) انظر : نيل الأوطار (٣/ ٩٠) .

وقال الإمام أبو العلا محمَّد المباركفوري (١٣٥٣هـ) : " فَإِنْ قُلْتَ : الْمَذْكُورُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ من العبد ، وفي حديث أبو هريرة عن مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ أُجِيبَ بِأَنَّهُ قَدْ عُلِمَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ : " يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إلى السَّماء الدُّنيا " إِلَخْ أَنَّ رَحْمَتَهُ سَابِقَةٌ فَقُرْبُ رَحْمَةِ اللَّهِ مِنَ الْمُحْسِنِينَ سَابِقٌ عَلَى إِحْسَانِهِمْ ، فَإِذَا سَجَدُوا قَرُبُوا مِنْ رَبِّهِمْ بِإِحْسَانِهِمْ ، كَمَا قَالَ : ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾[العلق:١٩] ، وَفِيهِ : أَنَّ لُطْفَ اللَّهِ وَتَوْفِيقَهُ سَابِقٌ عَلَى عَمَلِ الْعَبْدِ وَسَبَبٌ لَهُ وَلَوْلَاهُ لَمْ يَصْدُرْ مِنَ الْعَبْدِ خَيْرٌ قَطُّ انْتَهَى

وَقَالَ مَيْرَكُ : فَإِنْ قُلْتَ : مَا الْفَرْقُ بَيْنَ هَذَا الْقَوْلِ وَقَوْلِهِ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ ربه وهو ساجد ؟ قلت : المراد ها هنا : بَيَانُ وَقْتِ كَوْنِ الرَّبِّ أَقْرَبَ مِنَ الْعَبْدِ وَهُوَ جَوْفُ اللَّيْلِ ، وَالْمُرَادُ هُنَاكَ بَيَانُ أَقْرَبِيَّةِ أَحْوَالِ الْعَبْدِ مِنَ الرَّبِّ وَهُوَ حَالُ السُّجُودِ فَتَأَمَّلْ " (١) .

وقال الإمام أبو الحسن عبيد الله بن محمَّد الرحماني المباركفوري (١٤١٤هـ) : " قد صحَّ : "أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد"، فربَّما يتوهَّم قُرب المسافة فندب "سجان ربِّي الأعلى" دفعاً لذلك التَّوهُّم، وأيضاً في السُّجود غاية انحطاط من العبد فيناسبه أن يصف فيه ربَّه بالعلو. والحديث يصلح متمسَّكاً للقائلين بوجوب تسبيح الرُّكوع والسُّجود، وقد تقدَّم جواب الجمهور عنه" (٢) .

وقال أيضاً : " الظَّاهر أنَّ "ما " مصدريَّة و" كان " تامَّة ، والجار متعلِّق بأقرب، وليست من تفضيليَّة، والمعنى شاهد كذلك، فلا يرد أن اسم التَّفضيل لا يستعمل إلَّا بأحد أمور ثلاثة لا بأمرين كالإضافة ومن، فكيف استعمل ههنا بأمرين؟ فافهم . وخبر " أقرب" محذوف أي "حاصل له" ، وجملة "وهو ساجد" حال من ضمير "حاصل" أو من ضمير "له" . والمعنى : أقرب أكوان العبد من ربِّه تبارك وتعالى حاصل له حين كونه ساجداً . ولا يرد على الأوَّل أنَّ الحال لا بدَّ أن يرتبط بصاحبه، ولا ارتباط ههنا ؛ لأنَّ ضمير " هو ساجد " للعبد لا لأقرب ؛ لأنَّا نقول : يكفي في الارتباط وجود الواو من غير حاجة إلى الضَّمير ، مثل : جاء زيد والشَّمس طالعة . وقال الطِّيبي : التَّركيب من الإسناد المجازي، أسند القرب إلى الوقت، وهو للعبد مبالغة، فإن قلت: أين المفضل عليه، ومتعلَّق أفعل في الحديث؟ قلت: محذوف، وتقديره: إنَّ للعبد حالتين في العبادة: حال كونه ساجداً لله تعالى، وحال كونه متلبِّساً بغير السُّجود، فهو في حالة السُّجود أقرب إلى ربِّه من نفسه في غير تلك الحالة- انتهى . قيل وجه الأقربيَّة أن العبد في السُّجود داع؛ لأنَّه أمر به،

---

(١) انظر : تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (١٠/ ٢٨-٢٩) .

(٢) انظر : مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣/ ١٩٥) .

والله تعالىٰ قريب من السَّائلين بقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:١٨٦] ؛ ولأنَّ السُّجود غاية في الذُّل، والانكسار، وتعفير الوجه، وهذه الحالة أحبّ أحوال العبد ، كما رواه الطَّبراني في الكبير بإسناد حسن عن ابن مسعود (١) ، ولأنَّ السُّجود أوَّل عبادة أمر الله تعالىٰ بها بعد خلق آدم، فالمتقرب بها أقرب، ولأنَّ فيه مخالفة لإبليس في أوَّل ذنب عصىٰ الله به. وقيل: لأنَّ العبد بقدر ما يبعد عن نفسه يقرب من ربِّه، والسُّجود غاية التَّواضع، وترك التَّكبُّر، وكسر النَّفس؛ لأنَّها لا تأمر الرَّجل بالمذلَّة، ولا ترضى بها، ولا بالتَّواضع، بل بخلاف ذلك، فإذا سجد فقد خالف نفسه، وباعد عنها، فإذا باعد عنها قُرُب من ربِّه. قال القرطبي: هذا أقرب بالرُّتبة، والمكانة، والكرامة، لا بالمسافة والمساحة؛ لأنَّه تعالىٰ منزَّه عن المكان والزَّمان " (٢) .

ثَانِياً : قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي ، فَلاَ يَبْصُقُ قِبَلَ وَجْهِهِ ، فَإِنَّ اللهَّ قِبَلَ وَجْهِهِ إِذَا صَلَّى " (٣) .

وظاهرُ الحديث يُشير إلىٰ أنَّ النَّهي عن البُصاق قِبَل الوجه ، والسَّبب أنَّ الله تعالىٰ قِبَلَ وجه الإنسان ، وهذا من شأنه أن ينسف ما جاء في الآيات والأحاديث التي يستشهد بها من من صرَّحوا بالعلوِّ المكانيِّ لله تعالىٰ ، وأنَّه في السَّماء ، والعياذ بالله ... ولمَّا كان الله تعالىٰ منزَّهاً عن المكان والجهة ، فقد ذهب علماء الأمَّة إلىٰ تأويل كلّ ما من شأنه أن يضيف العلوَّ المكاني إلىٰ الله تعالىٰ ، وبما ينسجم مع القواطع العقديَّة وقواعد اللغة العربيَّة ، ومن أقوال أهل العلم في ذلك :

قال الإمام ا بن فورك (٤٠٦هـ) : " إعلم أَنَّ معنىٰ قَوْله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّ الله سُبْحَانَهُ قِبَلَ وَجهه " يحْتَمل وُجُوهًا ، أَحدهَا : أَن يكون مَعْنَاهُ أَن ثَوَاب الله لهَذَا الْمُصَلِّي ينزل عَلَيْهِ من قبل وَجه هَذَا الْمُصَلِّي ، وَمثله قَوْله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يَجِيء الْقُرْآن بَين يَدي صَاحبه يَوْم الْقِيَامَة ، أَي : يَجِيء ثَوَاب قِرَاءَته الْقُرْآن " (٤) .

(١) أخرجه الطبراني في الكبير بلفظ : " أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ اللهِ إِذَا كَانَ سَاجِدًا " انظر : المعجم الكبير (١٠/ ٧٩ برقم ١٠٠١٤) .

(٢) انظر : مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (/ ٣/ ٢١٢-٢١٣) .

(٣) أخرجه البخاري (١٩٠ برقم ٤٠٦) ، مسلم (١/ ٣٨٨ برقم ٥٤٧) .

(٤) انظر : : مشكل الحديث وبيانه (ص٢٦٣-٢٦٤) .

وقال القاضي عياض (٥٤٤ هـ) : " وَقَوله : " فَلَا يبصق قِبل وَجهه " ، أَي : أَمَامه ، وَقَوله : " فَإِنَّ الله قِبَل وَجهه " ، أَي : قِبْلَة الله المعظَّمة " (١) .

وقال أيضاً : " قوله: " إذا كان أحدكم يصلِّي فلا يبصق قِبَل وجهه " : هذا ممَّا يتأوَّل علىٰ ما ذكرنا في حديث السَّوداء ، وكأنَّ تلك الجهة علامة علىٰ أنَّ قاصدها موحِّد، وأنَّها علم علىٰ التَّوحيد، ولها حرمة؛ لكون المصلِّي مقترناً بتوجُّهه إليها إلىٰ الله سبحانه، فيجري ما وقع في الحديث إشارة إلىٰ هذا المعنىٰ " (٢) .

وقال الإمام إبراهيم ابن قرقول (٥٦٩هـ) : " قوله: "فَإِنَّ الله قِبَلَ وَجْهِهِ" ، أي: قِبْلة الله المعظَّمة " (٣) .

وقال الإمام أحمد بن إسماعيل الكوراني (٨٩٣هـ) : " " وإنَّ ربَّه بينه وبين القِبلة " : الرَّبُّ منزَّه عن المكان والجهة، فالمراد أنَّ تلك الجهة مهبّ نسيم رحمته، ومطلع أنوار رضوانه ، فيجب إكرامها " (٤) .

وقال الإمام زكريَّا بن محمَّد السّنيكي المصري (٩٢٦ هـ) : " " فإنَّ الله " ، أي: ثوابه أو عظمته. " قِبَل وجهه " ، أي: جهة وجه المصلِّي " (٥) .

قال الإمام مرعي الكرمي الحنبلي (١٠٣٣هـ) : " وَأمَّا حَدِيث البُخَارِيّ وَمُسلم : " إِذا كَانَ أحدكُم يُصَلِّي فَلَا يبصق قِبَل وَجهه ، فَإِنَّ الله قِبَل وَجهه " ، فَقَالَ ابْن عبد البرّ : هُوَ مخرج علىٰ التَّعْظِيم لشأن الْقبْلَة .

وَقَالَ الْخطابِيّ : مَعْنَاهُ أَنَّ توجُّهه إِلىٰ الْقبْلَة مفضٍ بِالْقَصْدِ إِلىٰ ربِّه فصَارَ فِي التَّقْدِير : كَأَن مَقْصُوده بَينه وَبَين قِبلته ، وَلَا حجَّة فِيهِ لِلْقَائِلين بِأَنَّهُ تَعَالَىٰ فِي كلِّ مَكَان ، لِأَن فِي الحَدِيث أَنَّه يبزق تَحت قدمه أَو هُوَ علىٰ حذف مُضَاف ، أَي : فَإِنَّ قِبْلَة الله أَو رَحْمَة الله قِبَل وَجهه " (٦) .

وقال الإمام علي بن أحمد بن نور الدِّين الشَّهير بالعزيزي (١٠٧٠هـ) : " قال العلقمي : أي : جهة قبلته " فإنَّ الله قِبَل وجهه " ، فإنَّ قِبلة الله أو عظمته أو ثوابه مقابل وجهه " (٧) .

---

(١) انظر : مشارق الأنوار علىٰ صحاح الآثار (٢/ ١٦٩) .

(٢) انظر : شَرْحُ صَحِيح مُسْلِمِ لِلقَاضِى عِيَاض الْمُسَمَّىٰ إِكمَالُ الْمُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم (٢/ ٤٨٣) .

(٣) انظر : مطالع الأنوار علىٰ صحاح الآثار (٥/ ٢٩٦) .

(٤) انظر : الكوثر الجاري إلىٰ رياض أحاديث البخاري (٢/ ٩٢) .

(٥) انظر : منحة الباري بشرح صحيح البخاري المسمىٰ (تحفة الباري) (٢/ ١١٣) .

(٦) انظر : أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات (ص١٠٣-١٠٤) .

(٧) انظر : السراج المنير شرح الجامع الصغير في حديث البشير النذير(١/ ١٦٥) .

وقال الإمام محمَّد الزُّرقاني (١١٢٢هـ) : " قَالَ الْخَطَّابِيُّ: مَعْنَاهُ أَنَّ تَوَجُّهَهُ إِلَى الْقِبْلَةِ مُفْضٍ لَهُ بِالْقَصْدِ مِنْهُ إِلَى رَبِّهِ، فَصَارَ بِالتَّقْدِيرِ : كَانَ مَقْصُودُهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قِبْلَتِهِ، وَقِيلَ هُوَ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ؛ أَيْ: عَظَمَةُ اللهِ أَوْ ثَوَابُ اللهِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: هُوَ كَلَامٌ خَرَجَ عَلَى التَّعْظِيمِ لِشَأْنِ الْقِبْلَةِ، وَقَدْ نَزَعَ بِهِ بَعْضُ الْمُعْتَزِلَةِ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ اللهَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَهُوَ جَهْلٌ وَاضِحٌ؛ لِأَنَّ فِي الْحَدِيثِ أَنَّه يَبْزُقُ تَحْتَ قَدَمِهِ وَفِيهِ نَقْضُ مَا أَصَّلُوهُ، وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّه عَلَى الْعَرْشِ بِذَاتِهِ " (١) .

وقال الإمام عثمان بن سعيد الكماخي (١١٧١ هـ) : " قال سعيد بن زيد الباجي المالكي: خصَّ بذلك حال الصَّلاة لفضيلة تلك الحال؛ ولأنَّه يكون حينئذٍ مستقبل القِبلة، فلا يبزق من جهة القِبلة مطلقًا، سواء كان في جدار المسجد أو في الصَّحراء، احترامًا لها؛ فإنَّ الله قِبَل وجهه إذا صلَّى"، فيه مضاف محذوف تقديره فإنَّ قِبلة الله تعالى قدَّام وجهه حين صلَّى، كما قال تعالى: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٥] ، أي: قِبلة الله . قال ابن عبد البرّ: هو كلام خرج عن التَّعظيم لشأن القِبلة " (٢) .

وقال الإمام محمَّد بن إسماعيل الصَّنعاني (١١٨٢هـ) : " " فإنَّ الله قِبَل وجهه إذا صلَّى " ، أي : ملائكته ورحمته تعالى مقابلة له أو أنَّ قبلة الله ، أي : بيته الكريم أو لأنَّه يناجي ربَّه " (٣) .

وقال الأستاذ الدُّكتور موسى شاهين لاشين : " قال النَّووي، قيل معناه: إنَّ قبلة الله قِبَل وجهه، وقيل: ثواب الله قِبَل وجهه، أو عظمة الله قِبَل وجهه، وقال الخطَّابي في شرح رواية " إنَّ ربَّه بينه وبين القبلة" ، معناه : أنَّ توجُّهه إلى القِبلة مفضٍ بالقصد منه إلى ربِّه، فصار في التَّقدير: فإنَّ مقصوده بينه وبين قبلته. اهـ وقد نفهم معنى آخر، وهو أنَّ المصلِّي يناجي ربَّه في صلاته كما هو صريح الرِّواية الخامسة، والمناجي والمناجى لا فاصل بينهما في الشَّأن والعادة ، فكأنَّ الله أمامه وبين القبلة، فإنَّ الله بينه وبين القبلة تقديرًا واعتبارًا وتصوُّرًا. والله أعلم " (٤) .

وقال الأستاذ محمَّد الأمين بن عبد الله الهَرَري (١٣٤٨ هـ - ...) : " التَّقدير : فإنَّ قِبْلة الله التي شرَّفها قدَّام وجهه وقت صلاته ، فلا يقابل هذه الجهة المشرَّفة بالبزاق لأنَّ في إلقائه في جهتها استخفافًا بها عادة، قال

---

(١) انظر : شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك (١/ ٦٦٢) .

(٢) انظر : المهيأ في كشف أسرار الموطأعثمان بن سعيد الكماخي ، (٢/ ٢٧) .

(٣) انظر : التَّنويرُ شَرْحُ الجَامِع الصَّغِيرِ (٢/ ١٨٥) .

(٤) انظر : فتح المنعم شرح صحيح مسلم (٣/ ١٧٧-١٧٨) .

القسطلاني: وهذا التَّعليل يُرشد إلى أنَّ البصاق في القبلة حرام سواء كان في المسجد أم لا، ولا يتوهَّم منه جواز أن يبصق عن يمينه أو يساره أو تحت قدمه ، لأنَّ النَّهي عنه ورد في حديث آخر ، وإنَّما يبصق في ثوبه ، قاله ابن الملك في المبارق شرح المشارق " (١) .

وقال الإمام محمَّد المختار الشَّنقيطي (١٤٠٥ هـ) : " وقوله: " قِبَل وجهه " ، أي : جهة القِبلة منه إذا صلَّى، قال الخطَّابي – رحمه الله – معناه: أنَّ توجُّهه إلى القبلة مفضٍ بالقصد منه إلى ربِّه، فصار في التَّقدير : فإنَّ مقصوده بينه وبين القِبْلة، وقيل: هو على حذف مضاف: أي عظمة الله، أو ثواب الله" (٢) .

ثَالِثَاً : قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ فِي صَلاَتِهِ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ ، أَوْ إِنَّ رَبَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ ، فَلاَ يَبْزُقَنَّ أَحَدُكُمْ قِبَلَ قِبْلَتِهِ ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ " (٣) .

وظاهرُ الحديث يُشير إلى أنَّ الرَّبَّ تعالى بين المصلِّي وبين القِبلة ، ولذلك يكره للإنسان أن يبصق قِبَل القِبْلة ، وهذا ينسف ما جاء في الآيات والأحاديث التي يستشهد بها من من صرَّحوا بالعلوِّ المكانيِّ لله تعالى ، وأنَّه في السَّماء ، والعياذ بالله ...

ولمَّا كان الله تعالى منزَّهاً عن المكان والجهة ... فقد ذهب علماء الأمَّة إلى تأويل كلّ ما من شأنه أن يضيف العلو المكاني إلى الله تعالى ، وبما ينسجم مع القواطع العقديَّة وقواعد اللغة العربية ... ومن أقوالهم في ذلك :

قال الإمام أبو عبد الله، محمَّد بن إبراهيم بن جماعة (٧٣٣هـ) : " هَذَا الحَدِيث دَافعٌ لَمذْهَب الْجِهَة فَإِن جِهَة فَوق وَقُدَّام متضادَّان لَا يَجْتَمِعَانِ الْبَتَّةَ ، فَإِن حملهَا على ظاهرهما محَالٌ على الله تَعَالَى لَا يَجْتَمِعَانِ عقلاً وَعَادَة وَشرعاً ، وَإِن أَوَّل هَذَا دون ذَلِك فتحكُّمٌ وَإِنَّ أَوَّلهمَا فأهلاً بالوفاق .

وتأويله عندنَا بِحَذْف مُضَاف تَقْدِيره فَإِنَّ قبلته الَّتِي أكرمها وَأمر باستقبالها قبل وَجهه ، فَيجب احترامها لأجل من يُضَاف إِلَيْهَا .

---

(١) انظر : الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم (المسمَّى:الكوكب الوهَّاج والرَّوض البَهَّاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج) (٨/ ١٦٤) .

(٢) انظر : شرح سنن النسائي المسمى «شروق أنوار المنن الكبرى الإلهية بكشف أسرار السنن الصغرى النسائية (٥/ ١٥٠٣) .

(٣) أخرجه البخاري (١/ ٩٠ برقم ٤٠٥) .

وَحذف الْمُضَاف فِي الْقُرْآن والْحَدِيث وَفِي أَلْسِنَة النَّاس كثير ، وَقيل مَعْنَاهُ : فَإِنَّ ثَوَاب الله قبل وَجهه ، أَي : يَأْتِيهِ الثَّوَاب وَالرَّحْمَة وَالْقَبُول من قبل وَجهه ، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث : " يَجِيء الْقُرْآن بَين يَدي صَاحبه يَوْم الْقِيَامَة أَي ثَوَاب الْقُرْآن " .

وَيُؤَيِّدهُ أَيْضاً مَا جَاءَ فِي الحَدِيث : " إِذا قَامَ أحدكُم إِلَى الصَّلَاة فَإِن الرَّحْمَة تواجهه " .

وَقَوله : فَإِنَّ ربَّه بَينه وَبَين الْقبْلَة مَعْنَاهُ : أَنَّ توجُّهه إِلَى الْقبْلَة مفض إِلَى قَصده لرَبِّه فَصَارَ كَأَنَّ مَقْصُوده بَينه وَبَين الْقبْلَة فَيجب احترامها" (١) .

وقال الإمام محمَّد بن يوسف الكرماني (٧٨٦هـ) : " ... النُّوري: المناجاة اشارة إلى إخلاص القلب وحضوره وتفريغه لذكر الله . قوله : " فإنَّه يناجي ربَّه" ، وفي بعضها : " أو إنَّ ربَّه " . فان قلت : ما معنى كون الرَّب بينه وبين القبلة إذ لا يصحّ على ظاهره لأنَّ الله تعالى منزَّه عن الحلول في المكان تعالى عنه. قلت : معناه التَّشبيه ، أي : كأنّه بينه وبين القبلة. الخطَّابي: معناه أنَّ توجُّهه إلى القِبلة مفض بالقصد منه إلى ربِّه ، فصار في التَّقدير كأنَّه مقصوده بينه وبين قبلته ، فأمر أن تُصان تلك الجهة عن البزاق ونحوه من أثقال البدن " (٢) .

وقال الإمام شمس الدِّين البِرْماوي، أبو عبد الله محمَّد بن عبد الدَّائم بن موسى النّعيمي العسقلاني المصري الشافعي (٨٣١ هـ) : " (وإنَّ رَبَّه)، في بعضها: (أو إنَّ رَبَّه).

(بَيْنَه) ظاهره مُحالٌ؛ لتنَزُّه الرَّبِّ تعالى عن المَكان، فمعناه اطِّلاع الرَّبِّ على ما بينه وبين القِبْلة.

وقال (خ): معناه أنَّ توجُّهه إلى القِبْلة مُفضٍ بالقَصْد به إلى ربِّه، فكأنَّ مقصوده بينه وبين قِبْلته، فأَمَرَ أن تُصان تلك الجهةُ عن البُزاق " (٣) .

وقال الإمام أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي (٨٥٢هـ) : " وَالْمَعْنَى إِقْبَالُهُ عَلَيْهِ بِالرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَانِ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ : " أَوْ إِنَّ رَبَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ " ، وَكَذَا فِي الْحَدِيثِ الَّذِي بَعْدَهُ : " فَإِنَّ اللهَّ قِبَلَ وَجْهِهِ " ، فَقَالَ الْخَطَّابِيُّ : مَعْنَاهُ : أَنَّ تَوَجُّهَهُ إِلَى الْقِبْلَةِ مُفْضٍ بِالْقَصْدِ مِنْهُ إِلَى رَبِّهِ ، فَصَارَ فِي التَّقْدِيرِ فَإِنَّ مَقْصُودَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قِبْلَتِهِ ، وَقِيلَ : هُوَ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ ، أَيْ : عَظَمَةُ الله أَو ثَوَاب الله . وَقَالَ بن عَبْدِ الْبَرِّ : هُوَ كَلَامٌ خَرَجَ عَلَى التَّعْظِيمِ لِشَأْنِ الْقِبْلَةِ ، وَقَدْ نَزَعَ بِهِ بَعْضُ الْمُعْتَزِلَةِ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ اللهَّ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَهُوَ جَهْلٌ وَاضِحٌ ،

---

(١) انظر :إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل(ص١٩٥-١٩٦) .

(٢) انظر : الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (٤/ ٧٠) .

(٣) انظر : اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح (٣/ ١٥٥) .

لِأَنَّ فِي الْحَدِيثِ أَنَّه يَبْزُقُ تَحْتَ قَدَمِهِ ، وَفِيهِ نَقْضُ مَا أَصَّلُوهُ ، وَفِيهِ الرَّدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّه عَلَى الْعَرْشِ بِذَاتِهِ ، وَمهما تُؤُوِّلَ بِهِ هَذَا جَازَ أَنْ يُتَأَوَّلَ بِهِ ذَاكَ ، وَاللهُ أَعْلَمُ " (١) .

وقال الإمام بدر الدِّين العيني (٨٥٥هـ) :" التَّحْقِيق فِيهِ أَنَّه شبَّه الْعَبْد وتوجُّهه إِلىٰ الله تعالىٰ فِي الصَّلَاة وَمَا فِيهَا من الْقِرَاءَة والأذكار وكشف الْأَسْرَار واستنزال رَحمته ورأفته مَعَ الخضوع والخشوع ، بِمن يُنَاجِي مَوْلَاهُ ومالكه، فَمن شَرَائِط حسن الْأَدَب أَن يقف محاذيه ويطرق رَأسه وَلَا يمدّ بَصَره إِلَيْهِ ويراعي جِهَة أَمَامه حَتَّىٰ لَا يصدر من تِلْكَ الهيئات شَيْء وَإِن كَانَ الله تعالىٰ منزَّهاً عَن الْجِهَات، لِأَنَّ الْآدَاب الظَّاهِرَة والباطنة مُرْتَبِط بَعْضهَا بِبَعْض. قَوْله: (أَو أَنَّ ربَّه بَينه وَبَين الْقبْلَة) ، كَذَا هُوَ بِالشَّكِّ فِي رِوَايَة الْأَكْثَرين، وَفِي رِوَايَة الْمُسْتَمْلِي والحموي: بواو، الْعَطف وَلَا يَصحُّ حمل هَذَا الْكَلَام علىٰ ظَاهره، لِأَنَّ الله تعالىٰ منزَّه عَن الْحُلُول فِي الْمَكَان، فَالْمَعْنىٰ علىٰ التَّشْبِيه، أَي: كَأَنَّهُ بَينه وَبَين الْقبْلَة، وَكَذَا معنىٰ قَوْله فِي الحَدِيث الَّذِي بعده: (فَإِنَّ الله قِبَل وَجهه) . وَقَالَ الْخطابِيّ: مَعْنَاهُ أَنَّ توجُّهه إِلىٰ الْقبْلَة مفضٍ بِالْقَصْدِ مِنْهُ إِلىٰ ربِّه، فَصَارَ فِي التَّقْدِير كَأَنَّ مَقْصُوده بَينه وَبَين قبلته، فَأمر أَن تصان تِلْكَ الْجِهَة عَن البزاق وَنَحْوه من أثقال الْبدن " (٢) .

وقال الإمام أحمد بن إسماعيل الكوراني (٨٩٣ هـ) : " وإنَّ ربَّه بينه وبين القبلة " ، الرَّبُّ منزَّه عن المكان والجهة، فالمراد أنَّ تلك الجهة مهبّ نسيم رحمته، ومطلع أنوار رضوانه ، فيجب إكرامها " (٣) .

وقال الإمام السُّيوطي (٩١١ هـ) : " أو إنَّ ربَّه" : شكَّ، وللمستملي والحموي بواو العطف.

" بينه وبين القِبْلة " ، وفي الحديث الذي بعده: "فإنَّ الله قِبَل وجهه".

قال الخطَّابي: معناه: أنَّ توجُّهه إلىٰ القِبْلة مقتضي للقصد منه إلىٰ ربِّه، فصار في التَّقدير كأنَّ مقصوده بينه وبين قِبْلته " (٤) .

وقال الإمام أحمد بن محمَّد القسطلاني القتيبي (٩٢٣هـ) : " ولأبي ذر عن الحموي والمستملي وإنَّ " ربَّه " بواو العطف أي اطّلاع ربِّه علىٰ ما " بينه وبين القبلة " إذ ظاهره مُحالٌ لتنزيه الرَّب تعالىٰ عن المكان، فيجب علىٰ المصلّي إكرام قبلته بما يكرم به من يناجيه من المخلوقين عند استقبالهم بوجهه، ومن أعظم الجفاء وسوء

---

(١) انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/ ٥٠٨) .

(٢) انظر : عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٤/ ١٤٩) .

(٣) انظر : الكوثر الجاري إلىٰ رياض أحاديث البخاري (٢/ ٩٢) .

(٤) انظر : التوشيح شرح الجامع الصحيح (٢/ ٤٩٢) .

الأدب أن تتنخم في توجُّهك إلىٰ ربِّ الأرباب، وقد أعلمنا الله تعالىٰ بإقباله علىٰ مَن توجَّه إليه ، قاله ابن بطال " (١) .

وقال الإمام زكريَّا بن محمَّد أبو يحيىٰ السّنيكي (٩٢٦هـ) : " " ربَّه بينه وبين القبلة " ظاهره: محال، فالمراد – كما يؤخذ من كلام الخطَّابي – أنَّ مقصوده من " ربَّه بينه وبين القبلة " ، ومثله يجري في قوله بعد: "فإنَّ الله قِبَل وجهه " (٢) .

وقال الإمام محمَّد الخَضِر الجكني الشَّنقيطي (١٣٥٤هـ) : " والمعنىٰ : إقباله عليه بالرَّحمة والرِّضوان. وقوله: " أو أنَّ ربَّه بينه وبين القبلة " ، كذا بالشَّك للأكثر، وفي الرِّواية الآتية بعد خمسة كذلك بالشَّك، وللحموي والمستملي "وإنَّ ربَّه" بواو العطف، والمعنىٰ كما قال الخطَّابيّ: هو أنَّ توجُّهه إلىٰ القِبْلة مفضٍ بالقصد منه إلىٰ ربِّه، فصار في التَّقدير: كانَّ مقصوده بينه وبين قبْلته. وقيل هو علىٰ حذف مضاف، أي عظمة الله أو ثواب الله. وقال ابن عبد البرّ : هو كلام خرج علىٰ التَّعظيم لشان القِبلة.

وقد نزع به بعض المعتزلة القائلين بأنَّ الله في كلِّ مكان، وهو جهلٌ واضحٌ، لأنَّ في الحديث أنَّه بزق تحت قدمه، وفيه الرَّد علىٰ من زعم أنَّه علىٰ العرش بذاته، فما تُؤوِّل به هذا جاز أن يؤوَّل به ذلك " (٣) .

وقال الإمام أحمد بن عبد الرَّحمن بن محمَّد البنَّا السَّاعاتي (١٣٧٨ هـ) : " قال الخطَّابي : معناه : أنَّ توجُّهه إلىٰ القبْلة مفضٍ بالقصد منه إلىٰ ربِّه ، فصار في التَّقدير كأنَّ مقصوده بينه وبين قبلته ، فأمر أن تُصان ذلك الجهة عن البُصاق ونحوه من أثقال البدن اهـ " (٤) .

وقال الأستاذ الدكتور موسىٰ شاهين لاشين : " فإنَّ اللهَّ قِبَل وجهه إذا صلَّىٰ " ، وفي الرِّواية الرَّابعة : "يقوم مستقبل ربِّه" ، وفي رواية للبخاري "أو أنَّ ربَّه بينه وبين القبلة" قال النَّووي، قيل معناه: إنَّ قبلة الله قِبَل وجهه، وقيل: ثواب الله قِبَل وجهه، أو عظمة الله قِبَل وجهه، وقال الخطَّابي في شرح رواية "إنَّ ربَّه بينه وبين القبلة" معناه : أنَّ توجُّهه إلىٰ القِبلة مفضٍ بالقصد منه إلىٰ ربِّه، فصار في التَّقدير: فإنَّ مقصوده بينه وبين قبلته. اهـ وقد نفهم معنىٰ آخر، وهو أنَّ المصلِّي يناجي ربَّه في صلاته كما هو صريح الرِّواية الخامسة،

---

(١) انظر : إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري الدِّين (١/ ٤١٩) .

(٢) انظر : منحة الباري بشرح صحيح البخاري المسمىٰ (تحفة الباري) (٢/ ١١٢) .

(٣) انظر : كوثَر المَعَاني الدَّرَارِي في كَشْفِ خَبَايا صَحِيحْ البُخَاري (٧/ ٧٠-٧١) .

(٤) انظر : الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ومعه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني (٣/ ٥٦) .

والمناجي والمناجىٰ لا فاصل بينهما في الشَّأن والعادة ، فكأنَّ الله أمامه وبين القبلة، فإنَّ الله بينه وبين القبلة تقديرًا واعتبارًا وتصوُّرًا. والله أعلم " (١) .

رَابِعَاً : قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: " كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزَاةٍ، فَجَعَلْنَا لَا نَصْعَدُ شَرَفًا، وَلَا نَعْلُو شَرَفًا، وَلَا نَهْبِطُ فِي وَادٍ إِلَّا رَفَعْنَا أَصْوَاتَنَا بِالتَّكْبِيرِ. قَالَ: فَدَنَا مِنَّا رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: " أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ مَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا. إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ. يَا عَبْدَ الله بْنَ قَيْسٍ، أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَةً مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله " (٢) .

وظاهرُ الحديث يُشير إلىٰ أنَّ الرَّبَّ تعالىٰ أقرب إلىٰ أحدنا من أقرب شيء إليه ... ، وهذا ينسف ما جاء في الآيات والأحاديث التي يستشهد بها من من صرَّحوا بالعلوِّ المكانيِّ لله تعالىٰ ، وأنَّه في السَّماء ، والعياذ بالله ...

ولَمَّا كان الله تعالىٰ منزَّهاً عن المكان والجهة ... فقد ذهب علماء الأمَّة إلىٰ تأويل كلّ ما من شأنه أن يضيف العلو المكاني إلىٰ الله تعالىٰ ، وبما ينسجم مع القواطع العقديَّة وقواعد اللغة العربيَّة ... ومن أقوالهم في ذلك :

قال الإمام النَّووي في شرحه للحديث : " مَعْنَاهُ : ارْفُقُوا بِأَنْفُسِكُمْ وَاخْفِضُوا أَصْوَاتَكُمْ ، فَإِنَّ رَفْعَ الصَّوْتِ إِنَّمَا يَفْعَلُهُ الْإِنْسَانُ لِبُعْدِ مَنْ يُخَاطِبُهُ لِيُسْمِعَهُ ، وَأَنْتُمْ تدعون الله تعالىٰ وليس هو بأصم ولاغائب ، بَلْ هُوَ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ، وَهُوَ مَعَكُمْ بِالْعِلْمِ وَالْإِحَاطَةِ . فَفِيهِ النَّدْبُ إِلَىٰ خَفْضِ الصَّوْتِ بِالذِّكْرِ إِذَا لَمْ تَدْعُ حَاجَةٌ إِلَىٰ رَفْعِهِ ، فَإِنَّهُ إِذَا خَفَضَهُ كَانَ أَبْلَغَ فِي تَوْقِيرِهِ وَتَعْظِيمِهِ ، فإن دعت حاجة إلىٰ الرَّفْعِ رَفَعَ كَمَا جَاءَتْ بِهِ أَحَادِيثُ

---

(١) انظر : فتح المنعم شرح صحيح مسلم (/ ١٧٧-١٧٨) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣٢/ ٣٧٤ برقم ١٩٥٩٩) ، قال الأرنؤوط في تخريجه للمسند : "

إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين. خالد الحذاء: هو ابن مهران، وأبو عثمان النهدي: هو عبد الرحمن بنَ مَل.

وأخرجه البيهقي في "الأسماء والصفات" (٣٨٩) من طريق الإمام أحمد، بهذا الإسناد.

وأخرجه بتمامه ومختصراً مسلم (٢٧٠٤) (٤٦) ، والنسائي في "الكبرىٰ" (٧٦٨٠) ، والطبراني في "الدعاء" (١٦٧١) ، واللالكائي (٦٨٣) (٦٨٤) ، والبيهقي في "الأسماء والصفات" (٧٠) ، و"الدعوات" (٢٦٦) من طريق عبد الوهاب، به.

وأخرجه البخاري (٦٦١٠) ، والنسائي في "الكبرىٰ" (٧٦٨١) ، وأبو عوانة (كما في "إتحاف المهرة" ١٠ / ٤١) ، وأبو نعيم في "الحلية" ٨/ ١٨٦، والبيهقي في "الأسماء والصفات" (٩٢٨) ، و"الشُّعب" (٦٦٢) من طريقين عن خالد الحذَّاء، به. قال أبو نعيم: هذا حديث صحيح متفق عليه.

. وَقَوْلُهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ الأخرىٰ : الذي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَةِ أَحَدِكُمْ ، هُوَ بِمَعْنَىٰ مَا سَبَقَ ، وَحَاصِلُهُ أَنَّهُ مجاز ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : " وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد " ، وَالْمُرَادُ : تَحْقِيقُ سَمَاعِ الدُّعَاءِ " (١) . وبمثل ما قاله الإمام النَّووي قال جمهور العلماء ...

خَامِسَاً : قَالَ أَحْمَدُ : حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، أَخْبَرَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ يَعْلَى بْنِ عَطَاءٍ، عَنْ وَكِيعِ بْنِ عُدُسٍ ، عَنْ عَمِّهِ أَبِي رَزِينٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيْنَ كَانَ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقَهُ؟ قَالَ: " كَانَ فِي عَمَاءٍ مَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ، وَمَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ، ثُمَّ خَلَقَ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ " (٢) .

سَادِسَاً : قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قال أحمد : حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ، أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ، أَنَّ عَلِيًّا الْأَزْدِيَّ، أَخْبَرَهُ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ عَلَّمَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفَرٍ: كَبَّرَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف:١٣-١٤] **اللهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى، وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى، اللهُمَّ**

---

(١) انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٧/ ٢٦) .

(٢) أخرجه أحمد (٢٦/ ١٠٨ برقم ١٦١٨٨) ، قال الأرنؤوط : " إسناده ضعيف، وكيع بن حدس سلف الكلام عليه في الرواية رقم (١٦١٨٢) ، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح.

وأخرجه الترمذي (٣١٠٩) ، وابن ماجه (١٨٢) ، والطبري في "التفسير" (١٧٩٨١) من طريق يزيد بن هارون، بهذا الإسناد، وقال الترمذي: حديث حسن!

وأخرجه الطيالسي (١٠٩٣) ، وابن أبي عاصم في "السنة" (٦١٢) ، والطبري في "التفسير" (١٧٩٨٠) وفي "التاريخ" ١/ ٣٧-٣٨، وابن حبان (٦١٤١) ، والطبراني في "الكبير" ١٩/ (٤٦٨) ، وأبو الشيخ في "العظمة" (٨٥) ، والبيهقي في "الأسماء والصفات" ص٣٧٦ من طرق عن حماد بن سلمة، به.

قال السندي: قوله: أين كان ربنا: قيل: هو بتقدير: أين كان عرشه، قال: ويدل عليه "ثم خلق عرشه على الماء" أي: جعل، وعلى هذا يحمل قوله: قبل أن يخلق خلقه على غير العرش، وما يتعلق به، وحينئذٍ لا إشكال في الحديث أصلاً.

والعَمَاء، بالفتح والمدِّ: السحاب، ومن لا يقدر مضافاً يقول: ليس المراد من العماء شيئاً موجوداً غير الله، لأنه حينئذٍ يكون من قبيل الخلق، والكلام مفروض قبل أن يخلق الخلق. بل المراد: ليس معه شيء، ويدل عليه رواية: كان في عمى- بالقصر- مفسر به. قال الترمذي: قال يزيد: العماء، أي ليس معه شيء، وعلى هذا كلمة "في" في قوله: "في عماء" بمعنى مع، أي كان مع عدم شيء آخر، ويكون حاصل الجواب الإرشاد إلى عدم المكان، وإلى أنه لا أين ثمة فضلاً عن أن يكون هو في مكان. وقال كثير من العلماء: هذا من حديث الصفات، فنؤمن به ونكل علمه إلى عالمه.

قلنا: يتجه هذا في الخبر الصحيح المتلقى بالقبول عملاً وتصديقاً أما إذا كان ضعيفاً كهذا الخبر، فلا يُعتدُّ به، ولا يُعَوَّلُ عليه.

و"ما" في "ماتحته": نافية لا موصولة، وكذا في "وما فوقه".

هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ " وَإِذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ، وَزَادَ فِيهِنَّ: " آيِبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ " (١)

وظاهرُ قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " اللهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ " ينقض ما ذهب إليه من قالوا بالعلوِّ المكانيِّ لله تعالىٰ ... كما أنَّه لا يُمكن تأويه بالعلم ، لأنَّ علم الله تعالىٰ لا يتعلَّق بالسَّفر فحسب ، وهو معنا بعلمه في كلِّ حال ... ولوحملناه علىٰ ظاهره لوقعنا في المحذور ، لأنَّ الصُّحبة في اللغة تستلزم المشاركة بالذَّات ، قال ابن فارس : " الصَّادُ وَالْحَاءُ وَالْبَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى مُقَارَنَةِ شَيْءٍ وَمُقَارَبَتِهِ. مِنْ ذَلِكَ الصَّاحِبُ " (٢) .

قال الإمام ابن تيمية : " الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ الَّذِي هُوَ نَظِيرُ الْإِنْسَانِ وَصَاحِبُهُ فِي الْمَسْكَنِ ... " (٣) .

ولذلك لا بدَّ من التَّأويل ... وأنَّ المقصود بالحديث إنَّما هو الحفظ والكلاءة والرِّعاية والعناية ...

قال الإمام أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي الأندلسي (٤٧٤هـ) : " بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَخْلُو مَكَانٌ مِنْ أَمْرِهِ وَحُكْمِهِ فَيَصْحَبُ الْمُسَافِرَ فِي سَفَرِهِ بِأَنْ يُسَلِّمَهُ وَيَرْزُقَهُ وَيُعِينَهُ وَيُوَفِّقَهُ وَيَخْلُفَهُ فِي أَهْلِهِ بِأَنْ يَرْزُقَهُمْ سَعَةً ، فَلَا حُكْمَ لِأَحَدٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ غَيْرُهُ عَزَّ وَجَلَّ ... " (٤) .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٠/ ٤٣٩ برقم ٦٣٧٤) ، قال الأرنؤوط : " إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي الزبير وهو محمد بن مسلم بن تدرس، وعلي الأزدي: وهو ابن عبد الله البارقي، فمن رجال مسلم، وأخرج البخاري لأبي الزبير متابعة، وقد صرح أبو الزبيرِ وابنُ جريج هنا بالتحديث، فانتفت شبهة تدليسهما.

وهو في "مصنف"عبد الرزاق (٩٢٣٢) ، ومن طريقه أخرجه أبو داود (٢٥٩٩) .

وعند أبي داود زيادة: وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجيوشه إذا علو الثنايا كبروا، وإذا هبطوا سبحوا، فوضعت الصلاة علىٰ ذلك.

وأخرجه مسلم (١٣٤٢) (٤٢٥) ، وابن خزيمة (٢٥٤٢) ، والبيهقي في"السنن" ٥/ ٢٥٢ من طريق حجاج بن محمد، والنسائي في"الكبرىٰ" (١٠٣٨٢) و (١١٤٦٦) وهو في"عمل اليوم والليلة" (٥٤٨) ، وفي"التفسير" (٤٨٦) - من طريق ابن وهب، وابنُ خزيمة (٢٥٤٢) من طريق روح بن عبادة، ثلاثتهم عن ابن جريج، به.

(٢) انظر : معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين ، (٣/ ٣٣٥) ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، ١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م.

(٣) انظر : مجموع الفتاوىٰ (٣٤/ ٩٠) .

(٤) انظر : المنتقىٰ شرح الموطإ (٧/ ٣٠٣) ، وانظر : تنوير الحوالك شرح موطأ مالك (٢/ ٢٤٧) ، شرح الزرقاني علىٰ موطأ الإمام مالك (٤/ ٦١٦) .

وقال الإمام السُّيوطي (٩١١هـ) : " قال التُوربشتي: " الصَّاحب هو الملازم ، وأراد بذلك مصاحبة الله إيَّاه بالعناية، والحفظ، والاستئناس بذكره، والدِّفاع لما ينوبه من النَّوائب ".

"والخَليفةُ في الأَهْلِ" ينوب الخليفة هو الذي عن المستخلف، يعني: أنت الذي أرجوه وأعتمد عليه في سفري، وغيبتي عن أهلي، بأن يكُون معيني وحافظي، وأن تلمّ شعثهم، وتداوي سقمهم، وتحفظ عليهم دينهم، وأمانتهم "(١) .

وقال الإمام علي بن سلطان القارّي (١٠١٤هـ) : " أَيِ: الْمُحَافِظُ وَالْمُعِينُ، وَالصَّاحِبُ فِي الْأَصْلِ الْمُلَازِمُ، وَالْمُرَادُ مُصَاحَبَةُ اللَّهِ إِيَّاهُ بِالْعِنَايَةِ وَالْحِفْظِ وَالرِّعَايَةِ، فَنَبَّهَ بِهَذَا الْقَوْلِ عَلَى الِاعْتِمَادِ عَلَيْهِ وَالِاكْتِفَاءِ بِهِ عَنْ كُلِّ مُصَاحِبٍ سِوَاهُ " (٢) .

وقال الإمام أبو العلا المباركفوري (١٣٥٣هـ) : " أَيِ الْحَافِظُ وَالْمُعِينُ وَالصَّاحِبُ فِي الْأَصْلِ الْمُلَازِمُ ، وَالْمُرَادُ مُصَاحَبَةُ اللَّهِ إِيَّاهُ بِالْعِنَايَةِ وَالْحِفْظِ وَالرِّعَايَةِ ، فَنَبَّهَ بِهَذَا الْقَوْلِ عَلَى الِاعْتِمَادِ عَلَيْهِ وَالِاكْتِفَاءِ بِهِ عَنْ كُلِّ مُصَاحِبٍ سِوَاهُ ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ الْخَلِيفَةُ : مَنْ يَقُومُ مَقَامَ أَحَدٍ فِي إِصْلَاحِ أَمْرِهِ .

قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ : الْمَعْنَى أَنْتَ الَّذِي أَرْجُوهُ وَأَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي بِأَنْ يَكُونَ مُعِينِي وَحَافِظِي وَفِي غَيْبَتِي عَنْ أَهْلِي أَنْ تَلُمَّ شَعَثَهُمْ وَتُدَاوِيَ سَقَمَهُمْ وَتَحْفَظَ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَأَمَانَتَهُمْ " (٣) .

وقال أيضاً : " أي : الحافظ والمعين. والصَّاحب في الأصل الملازم وأراد بذلك مصاحبة الله إيَّاه بالعناية والحفظ، وذلك أنَّ الإنسان أكثر ما يبغي الصُّحبة في السَّفر، يبتغيها للاستيناس بذلك والاستظهار به والدِّفاع لما ينو به من النَّوائب ، فنبَّه بهذا القول على حسن الاعتماد عليه وكمال الاكتفاء عن صاحب سواه.

قال البغوي: قوله : " أنت الصَّاحب في السَّفر " ، أي : الحافظ ، يقال : صحبك الله، أي حفظك، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ﴾ [الأنبياء:٤٣] ، أي : لا يجارون، ومن صحبه الله لم يضرّه شيء (والخليفة في الأهل) ، الخليفة من ينوب عن المستخلف، فيما يستخلفه فيه يعني الذي يقوم مقام أحد في إصلاح أمره، والمعنى : أنت الذي أرجوه وأعتمد عليه في غيبتي عن أهلي، أن يلم شعثهم ، ويثقف أودهم ، ويداوي سقمهم ، ويحفظ عليهم دينهم وأمانتهم " (٤) .

---

(١) انظر : قوت المغتذي على جامع الترمذي (٢/ ٨٥٠) .

(٢) انظر : مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٦٨٠) .

(٣) انظر : تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (٩/ ٢٨٠) .

(٤) انظر : مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ١٦٨-١٦٩) .

وقال الإمام ابن تيمية (٧٢٨هـ) :" فَهُوَ مَعَ الْمُسَافِرِ فِي سَفَرِهِ وَمَعَ أَهْلِهِ فِي وَطَنِهِ؛ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ هَذَا أَنْ تَكُونَ ذَاتُهُ مُخْتَلِطَةً بِذَوَاتِهِمْ كَمَا قَالَ: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح:٢٩] ، أَيْ : عَلَى الْإِيمَانِ. لَا أَنَّ ذَاتَه فِي ذَاتِهِمْ؛ بَلْ هُمْ مُصَاحِبُونَ لَهُ. وَقَوْلُهُ: {فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} يَدُلُّ عَلَى مُوَافَقَتِهِمْ فِي الْإِيمَانِ وَمُوَالَاتِهِمْ؛ فَاَللَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِعِبَادِهِ وَهُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا وَعِلْمُهُ بِهِمْ مِنْ لَوَازِمِ الْمَعِيَّةِ؛ كَمَا قَالَتْ الْمَرْأَةُ: زَوْجِي طَوِيلُ النِّجَادِ؛ عَظِيمُ الرَّمَادِ؛ قَرِيبُ الْبَيْتِ مِنْ الناد فَهَذَا كُلُّهُ حَقِيقَةٌ وَمَقْصُودُهَا: أَنْ تَعْرِفَ لَوَازِمَ ذَلِكَ وَهُوَ طُولُ الْقَامَةِ وَالْكَرْمُ بِكَثْرَةِ الطَّعَامِ؛ وَقُرْبُ الْبَيْتِ مِنْ مَوْضِعِ الْأَضْيَافِ " (١) .

فابن تيمية ومعه سائر المتمسلفة لم يسعهم الحال أمام هذا النَّص وغيره الكثير ... إلَّا أن يلجؤوا إلى المجاز والتَّأويل ، لأنَّ حمل النَّص على ظاهره يُعكِّر ويشوِّش عليهم استدلالهم على العلوّ الحسي لله تعالى !!! والعياذ بالله ...

سَابِعَاً : قَالَ البَيْهَقِي : أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مَحْمَشٍ الْفَقِيهُ، أَنَا أَبُو حَامِدِ بْنُ بِلَالٍ، ثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ بِشْرِ بْنِ الْحَكَمِ بْنِ حَبِيبِ بْنِ مِهْرَانَ الْعَبْدِيُّ، ثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، عَنْ أَبِي قَابُوسَ، مَوْلًى لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ " (٢) .

قلت : والحديث لا يدلُّ على ما ذهب إليه من قالوا بالعلوِّ المكاني لله تعالى ، فهو لا يعدو عن كونه نظيراً لقول الله تعالى : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦] أي : من في السَّماء حُكمه وسُلطانه ومُلكه وقُدرته أو أراد الملائكة ، لأنَّ السَّماء مسكنهم ، وهم الموكَّلون بالعذاب ، فخوَّفهم بالملائكة أن ينزلوا عليهم العقوبة من السَّماء ، أو يخسفوا بهم الأرض ، إن هم عصوه ... فالحديث موافق للفظ القرآن ...

يُضاف لما سبق أنَّ الحديث ورد بلفظ : " أَهْل السَّمَاء " بدلاً مِنْ " مَنْ فِي السَّماءِ " ... قال أحمد : " حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي قَابُوسَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى (٥/ ١٢٦) ، (٥/ ٢٣١) .

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٣/ ٤٠١ برقم ١٠٥٣٧) ، الآداب (١١٥ برقم ٢٨) ، أبو داود (٥/ ٣٣ برقم ٤٩٤١) ، البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٧١ برقم ١٧٩٠٥) ، ابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٢١٤ برقم ٢٥٣٥٥) .

قَالَ: " الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَالرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، مَنْ وَصَلَهَا، وَصَلَتْهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا، بَتَّتْهُ " (١) .

وهذا من شأنه أن يعكّر على من يحتجُّ بالحديث على العلو المكاني لله تعالى ، ويؤيِّد ما جاء في التَّأويل مِنْ أنَّ مَنْ في السَّماء هم الملائكة ، بدليل قوله : " يَرْحَمْكُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ " ، وأهل السَّماء هم الملائكة ... وهم رحمة لأهل الأرض ، يأمُرُهم الله تعالى أن يستغفروا للمؤمنين، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [غافر:٧] ، وقال : ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١١/ ٣٣ برقم ٦٤٩٤) ، قال الأرنؤوط : " صحيح لغيره، أبو قابوس مولى عبد الله بن عمرو: ذكره ابنُ حبان في "الثقات" ٥/ ٥٨٨، وذكره ابنُ أبي حاتم في "الجرح والتعديل" ٩/ ٥٨٩، والبخاري في موضعين في "التاريخ الكبير" في الأسماء ٧/ ١٩٤ (سماه قابوساً) ، وفي "الكنى" ٩/ ٦٤، ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً، وصحح حديثه الترمذي والحاكم. وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين. سفيان: هو ابن عيينة، وعمرو: هو ابن دينار.

وأخرجه بتمامه الترمذي (١٩٢٤) ، والحاكم ٤/ ١٥٩ من طريق سفيان، بهذا الإسناد. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقال الحكم بعد أن ذكره مع أحاديث عدة في الباب: وهذه الأحاديث كلها صحيحة، ووافقه الذهبي، مع أنه قال في أبي قابوس: لا يعرف!

وقوله: "الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء": أخرجه ابنُ أبي شيبة ٨/ ٥٢٦، والحميدي (٥٩١) ، وأبو داود (٤٩٤١) ، والبيهقي في "السنن" ٩/ ٢٤١، والخطيب في "تاريخه" ٣/ ٢٦٠ من طريق سفيان، به.

وسيرد بمعناه قطعة من الحديث رقم (٦٥٤١) (٧٠٤١) .

وله شاهد من حديث أبي هريرة عند البخاري (٥٩٩٧) ، وسيرد (٧٦٤٩) .

وآخر من حديث جرير بن عبد الله عند البخاري (٧٣٧٦) ، وسيرد ٤/ ٣٥٨.

وثالث من حديث أبي سعيد الخدري، سيرد ٣/ ٤٠، وفي إسناده عطية العوفي، وهو ضعيف.

ورابع من حديث جابر عند ابن أبي شيبة ٨/ ٥٢٩.

وخامس من حديث ابن عمر عند البزار (١٩٥٢) أورده الهيثمي في "المجمع" ٨/ ١٨٧، وقال: رواه البزار والطبراني، وفيه عطية، وقد وثق على ضعفه، وبقية رجال البزار رجال الصحيح.

وسادس من حديث عمران بن الحصين عند البزار (١٩٥٣) أورده الهيثمي ٨/ ١٨٧ عن البزار، وقال: وفيه من لم أعرفه.

وسابع من حديث ابن مسعود عند الطبرائي في "الكبير" (١٠٢٧٧) ، و"الصغير" (٢٨١) ، والحاكم ٤/ ٢٤٨ وصححه، ووافقه الذهبي، والبغوي (٣٤٥١) . وقال الهيثمي في "المجمع" ٨/ ١٨٧ : رواه أبو يعلى والطبراني في الثلاثة، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح، إلا أن فيه أبا عبيدة لم يسمع من أبيه، فهو مرسل.

ثم ذكره الهيثمي بلفظ آخر عن ابن مسعود، وقال: رواه الطبراني في "الأوسط"، وإسناده حسن.

وثامن من حديث الأشعث بن قيس عند الطبراني في "الأوسط" فيما ذكره الهيثمي في "المجمع" ٨/ ١٨٧، وقال: وفيه من لم أعرفه " .

﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورى:٥] ، كما أنَّ منهم من هو موكَّلٌ بقطر السَّماء ، والرِّزق ، والحفظ ...

ثَامِناً : قَالَ أَحْمَدُ : حَدَّثَنَا عَفَّانُ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ، قَالَ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ الْأَعْمَشُ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو صَالِحٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَمَنْ جَاءَنِي يَمْشِي جِئْتُهُ هَرْوَلَةً " (١) .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٢/ ٣٨٥ برقم ٧٤٢٢) ، قال الأرنؤوط : " إسناده صحيح على شرط الشيخين. أبو معاوية: هو محمد بن خازم الضرير، وابن نمير: هو عبد الله، والأعمش: هو سليمان بن مهران، وأبو صالح: هو ذكوان السمّان.

وأخرجه الترمذي (٣٦٠٣) من طريق ابن نمير وأبي معاوية، بهذا الإسناد.

وقال: حسن صحيح.

وأخرجه مسلم (٢٦٧٥) (٢) و (٢١) ، وابن ماجه (٣٨٢٢) ، والنسائي في "الكبرى" (٧٧٣٠) ، وابن خزيمة في "التوحيد" ١/ ١٥ من طريق أبي معاوية وحده، به. وليس عند ابن خزيمة: "وإن اقترب إلي شبرا ... " إلى آخر الحديث.

وأخرجه ابن خزيمة في "التوحيد" ١/ ١٦، والبيهقي في "الأسماء والصفات" ص ٢٨٤ من طريق عبد الله بن نمير وحده، به. وليس عند ابن خزيمة أيضا: "وإن اقترب.." إلى آخر الحديث.

وأخرجه البخاري (٧٤٠٥) ، والبغوي (١٢٥١) من طريق حفص بن غياث، ومسلم (٢٦٧٥) (٢) ، وابن حبان (٨١١) من طريق جرير، وأبو نعيم في "الحلية" ٩/ ٢٦-٢٧ من طريق سفيان الثوري، ثلاثتهم عن الأعمش، به.

وأخرجه البخاري (٧٥٠٥) ، والخطيب في "تاريخ بغداد" ٧/ ١٠٩ من طريق الأعرج، عن أبي هريرة مختصرا بقوله: "قال الله: أنا عند ظن عبدي بي"، وزاد الخطيب: "وأنا معه حيث يذكرني".

وأخرجه مسلم (٢٦٧٥) (٣) ، والبغوي (١٢٥٢) من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إن الله قال: إذا تلقاني

عبدي بشبر تلقيته بذراع، وإذا تلقاني بذراع، تلقيته بباع، وإذا تلقاني بباع، جئته أتيته بأسرع". وزاد البغوي في أوله: "أنا عند ظن عبدي بي"، وهذه الزيادة من هذه الطريق ستأتي برقم (٨١٧٨) .

وأخرجه أبو يعلى (٦٦٠١) من طريق سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة من قوله: "إذا اقترب إلي شبرا ... " إلى آخر الحديث. قوله عز وجل: "أنا مع عبدي حين يذكرني"، قال النووي في "شرح مسلم" ١٧/ ٢: أي: معه بالرحمة والتوفيق والهداية والرعاية.

وقوله: "فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي"، قال المازري: النفس تطلق في اللغة على معان: منها الدم، ومنها نفس الحيوان، وهما مستحيلان في حق الله تعالى، ومنها الذات، والله تعالى له ذات حقيقة، وهو المراد بقوله تعالى: (في نفسي) ، ومنها الغيب، وهو أحد الأقوال في قوله تعالى: (تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك) [المائدة: ١١٦] ، أي: ما في غيبي، فيجوز أن يكون أيضا مراد

وظاهرُ الحديث يُشير إلى أنَّ الرَّبَّ تعالى يتقرَّب إلى العبد بالمسافة ... والحمْل على ظاهر المعنى ينسف عقيدة من صرَّحوا بالعلوِّ المكانيِّ لله تعالى ، وأنَّه في السَّماء ، والعياذ بالله ...

فلا يجوز البتّة أن يُراد بالقُرب هنا قُرب المسافة ، فالله تعالى منزَّهٌ عن المكان والجهة ... ولذلك ذهب علماء الأمَّة إلى تأويل ما جاء في الحديث بما ينسجم مع القواطع العقديَّة وقواعد اللغة العربية ...

قال الإمام أبو محمَّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّينوري (٢٧٦هـ) : " إِنَّ هَذَا تَمْثِيلٌ وَتَشْبِيهٌ، وَإِنَّمَا أَرَادَ: مَنْ أَتَانِي مُسْرِعًا بِالطَّاعَةِ، أَتَيْتُهُ بِالثَّوَابِ أَسْرَعَ مِنْ إِتْيَانِهِ، فَكَنَّى عَنْ ذَلِكَ بِالْمَشْيِ وَبِالْهَرْوَلَةِ.

كَمَا يُقَالُ فُلَانٌ مُوضِعٌ فِي الضَّلَالِ -وَالْإِيضَاعُ: سَيْرٌ سَرِيعٌ- لَا يُرَادُ بِهِ أَنَّهُ يَسِيرُ ذَلِكَ السَّيْرَ، وَإِنَّمَا يُرَادُ أَنَّهُ يُسْرِعُ إِلَى الضَّلَالِ، فَكَنَّى بِالْوَضْعِ عَنِ الْإِسْرَاعِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾ [الحج:٥١] ، وَالسَّعْيُ: الْإِسْرَاعُ فِي الْمَشْيِ، وَلَيْسَ يُرَادُ أَنَّهُمْ مَشَوْا دَائِمًا، وَإِنَّمَا يُرَادُ: أَنَّهُمْ أَسْرَعُوا بِنِيَّاتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، وَالله أعلم" (١) .

وقال الإمام أبو الفضل زين الدين عبد الرَّحيم العراقي (٨٠٦هـ) في شرحه لرواية : " إِنَّ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ إِذَا تَلَقَّانِي عَبْدِي بِشِبْرٍ تَلَقَّيْته بِذِرَاعٍ وَإِذَا تَلَقَّانِي بِذِرَاعٍ: تَلَقَّيْته بِبَاعٍ وَإِذَا تَلَقَّانِي بِبَاعٍ أَتَيْته بِأَسْرَعَ " : " فِيهِ فَوَائِدُ: قَالَ الْخَطَّابِيُّ هَذَا مَثَلٌ وَمَعْنَاهُ حُسْنُ الْقَبُولِ وَمُضَاعَفَةِ الثَّوَابِ عَلَى قَدْرِ الْعَمَلِ الَّذِي يَتَقَرَّبُ بِهِ الْعَبْدُ إلَى رَبِّهِ حَتَّى يَكُونَ ذَلِكَ مُمَثَّلًا بِفِعْلِ مَنْ أَقْبَلَ نَحْوَ صَاحِبِهِ قَدْرَ شِبْرٍ فَاسْتَقْبَلَهُ صَاحِبُهُ ذِرَاعًا وَكَمَنْ مَشَى إلَيْهِ فَهَرْوَلَ إلَيْهِ صَاحِبُهُ قَبُولًا لَهُ وَزِيَادَةً فِي إكْرَامِهِ، وَقَدْ يَكُونُ مَعْنَاهُ التَّوْفِيقَ لَهُ وَالتَّيْسِيرَ لِلْعَمَلِ الَّذِي يُقَرِّبُهُ مِنْهُ وَقَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ قِيلَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى مَنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ شِبْرًا أَيْ بِالْقَصْدِ وَالنِّيَّةِ قَرَّبْته تَوْفِيقًا وَتَيْسِيرًا ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ بِالْعَزْمِ وَالِاجْتِهَادِ ذِرَاعًا قَرَّبْته بِالْهِدَايَةِ وَالرِّعَايَةِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي مُعْرِضًا عَمَّنْ سِوَايَ مُقْبِلًا إلَيَّ أَدْنَيْتُهُ وَحُلْت بَيْنَهُ وَبَيْنَ كُلِّ قَاطِعٍ وَسَبَقْتُ بِهِ كُلَّ صَانِعٍ، وَهُوَ مَعْنَى الْهَرْوَلَةِ وَقَالَ النَّوَوِيُّ هَذَا مِنْ أَحَادِيثِ الصِّفَاتِ وَيَسْتَحِيلُ إرَادَةُ ظَاهِرِهِ وَمَعْنَاهُ مَنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ بِطَاعَتِي تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ بِرَحْمَتِي وَالتَّوْفِيقِ

الحديث، أي: إذا ذكرني خاليا أثابه الله وجازاه عما عمل بها لا يطلع عليه أحد.

وقوله: "وإن اقترب إلي شبرا ... " إلى آخر الحديث، قال النووي: هذا الحديث من أحاديث الصفات، ويستحيل إرادة ظاهره، ومعناه: من تقرب إلي بطاعتي، تقربت إليه برحمتي والتوفيق والإعانة، وإن زاد زدت، فإن أتاني يمشي وأسرع في طاعتي، أتيته هرولة، أي: صببت عليه الرحمة وسبقته بها ولم أحوجه إلى المشي الكثير في الوصول إلى المقصود، والمراد: أن جزاءه يكون تضعيفه على حسب تقربه " .

(١) انظر : تأويل مختلف الحديث (ص٣٢٧) .

وَالْإِعَانَةِ، وَإِنْ زَادَ زِدْت، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي وَأَسْرَعَ فِي طَاعَتِي أَتَيْته هَرْوَلَةً أَيْ صَبَبْتُ عَلَيْهِ الرَّحْمَةَ وَسَبَقْته بِهَا، وَلَمْ أُحْوِجْهُ إلَى الْمَشْيِ الْكَثِيرِ فِي الْوُصُولِ إلَى الْمَقْصُودِ، وَالْمُرَادُ أَنَّ جَزَاءَهُ يَكُونُ تَضْعِيفُهُ عَلَى حَسَبِ تَقَرُّبِهِ.

(الثَّانِيَةُ) قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ الْقُرْطُبِيُّ فَإِنْ قِيلَ مُقْتَضَى ظَاهِرِ هَذَا الْخِطَابِ أَنَّ مَنْ عَمِلَ حَسَنَةً جُوزِيَ بِمِثْلِهَا فَإِنَّ الذِّرَاعَ شِبْرَانِ وَالْبَاعَ ذِرَاعَانِ، وَفِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَنَّ أَقَلَّ مَا يُجَازَى عَلَى الْحَسَنَةِ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ لَا تُحْصَى فَكَيْفَ بِوَجْهِ الْجَمْعِ (قُلْتُ) هَذَا الْحَدِيثُ مَا سِيقَ لِبَيَانِ مِقْدَارِ الْأُجُورِ وَعَدَدِ تَضَاعِيفِهَا وَإِنَّمَا سِيقَ لِتَحْقِيقِ أَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ قَلِيلًا كَانَ، أَوْ كَثِيرًا وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُسْرِعُ إلَى قَبُولِهِ وَإِلَى مُضَاعَفَةِ الثَّوَابِ عَلَيْهِ إسْرَاعَ مَنْ جِيءَ إلَيْهِ بِشَيْءٍ فَبَادَرَ لِأَخْذِهِ وَتَبَشْبَشَ لَهُ بَشْبَشَةَ مَنْ سُرَّ بِهِ وَوَقَعَ مِنْهُ الْمَوْقِعَ أَلَا تَرَى قَوْلَهُ، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْته هَرْوَلَةً، وَفِي لَفْظٍ آخَرَ أَسْرَعْتُ إلَيْهِ وَلَا تَتَقَدَّرُ الْهَرْوَلَةُ وَالْإِسْرَاعُ بِضِعْفَيْ الْمَشْيِ" (1) .

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) : " وَالْقَوْلُ فِي مَعْنَاهُ كَمَا تَقَدَّمَ قَالَ الْخَطَّابِيُّ فِي مِثْلِ مُضَاعَفَةِ الثَّوَابِ يَقْبَلُ مَنْ أَقْبَلَ نَحْوَ آخِرِ قَدْرِ شِبْرٍ فَاسْتَقْبَلَهُ بِقَدْرِ ذِرَاعٍ قَالَ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ التَّوْفِيقُ لَهُ بِالْعَمَلِ الَّذِي يُقَرِّبُهُ مِنْهُ وَقَالَ الْكِرْمَانِيُّ لَمَّا قَامَتِ الْبَرَاهِينُ عَلَى اسْتِحَالَةِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى وَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِطَاعَةٍ قَلِيلَةٍ جَازَيْتُهُ بِثَوَابٍ كَثِيرٍ وَكُلَّمَا زَادَ فِي الطَّاعَةِ أَزِيدُ فِي الثَّوَابِ وَإِنْ كَانَتْ كَيْفِيَّةُ إِتْيَانِهِ بِالطَّاعَةِ بِطَرِيقِ التَّأَنِّي يَكُونُ كَيْفِيَّةُ إِتْيَانِي بِالثَّوَابِ بِطَرِيقِ الْإِسْرَاعِ وَالْحَاصِلُ أَنَّ الثَّوَابَ رَاجِحٌ عَلَى الْعَمَلِ بِطَرِيقِ الْكَيْفِ وَالْكَمِّ وَلَفْظُ الْقُرْبِ وَالْهَرْوَلَةِ مَجَازٌ عَلَى سَبِيلِ الْمُشَاكَلَةِ أَوِ الِاسْتِعَارَةِ أَوْ إِرَادَةِ لَوَازِمِهَا" (2) ...

ومن المعلوم أنَّ المتمسلفة لم يحملوا ما جاء في الأحاديث السّابقة جميعا على ظاهر معناها بل ذهبوا إلى تأويلها ... لأنَّ الحمل على ظاهر المعنى يهدم معتقدهم بالعلوِّ المكانيِّ له تعالى ...

والحَمْدُ لله ربِّ العَالَمِيْن

---

(١) انظر : طرح التثريب في شرح التقريب (المقصود بالتقريب: تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد) (٨/ ٢٣٥-٢٣٦) .

(٢) انظر : فتح الباري (١٣/ ٥١٤) .

الخَاتِمَةُ

وفي نهاية التَّطواف في رياض الكتاب العزيز والسُّنَّة المُطهَّرة وكُتُب أهل العلم نصل إلىٰ مناقشة مسألة جوهريَّة في هذا الباب ... إن أدركها الإنسان وتبيَّنها ، عرف لا محالة أنَّ الله تعالىٰ ليس في مكان ، وهي أنَّ الله تعالىٰ لا يُوصف بأنَّه متَّصل بالعالم ، وكذلك لا يوصف بأنَّه منفصل عنه ... وهم يعنون بقولهم : " ليس بداخل العالم " : نفي الحلول والاتحاد والممازجة ، وإثبات المباينة لله تعالىٰ عن العالم ...

وقد ناقش علماء أهل السُّنَّة مسألة أنَّ الله تعالىٰ ليس متَّصلاً بالعالم ولا منفصلاً عنه مناقشة عقليَّة مستفيضة ، نجملها في النِّقاط التَّالية :

(١) معنىٰ أنَّ الله تعالىٰ لا داخل العالم ولا خارجه ، أي : أنَّ الله تعالىٰ لا يوصف بأنَّه متَّصل بالعالم وكذلك لا يوصف بأنَّه منفصل عن العالم ، وذلك لأنَّ الاتِّصال والانفصال من أوصاف الأجسام ، فالجسم إمَّا أن يكون متَّصلاً بغيره أو منفصلاً عن الغير ، والله تعالىٰ : ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ ﴾ [الشورىٰ : ١١] ، فهو لا يتَّصف بالدُّخول ولا بالخروج ، لأنَّها من صفات المحدثات . ونظير هذا قولك في حقِّ القَلَمِ – مثلاً – : أنَّه ليس جاهلاً ولا عالماً ، كما أنَّه ليس غنيَّاً ولا فقيراً ، وليس مبصراً ولا أعمىٰ ، وليس أعزباً ولا متزوِّجاً ... لأنه لا يحتمل أيَّاً ممَّا سبق ...

(٢) الذين نفوا كون الله تعالىٰ لا داخل العالم ولا خارجه ... كان السَّبب في نفيهم هو اعتقادهم بأنَّ الله تعالىٰ جسم ، لأنَّ من شأن الأجسام أن تقبل الدُّخول والخروج ... وقد قامت الأدلَّة النقليَّة والعقليَّة علىٰ تنزُّه الله تعالىٰ عن الجسميَّة ...

(٣) من أراد منهم الخروج من المتاهة التي وضعوا أنفسهم فيها صرَّح بأنَّ الله سبحانه وتعالىٰ في موجود في مكانٍ سمُّوه بالمكان العدمي ... والمكان العدمي لا شكَّ في أنَّه مكان ، إذ من المعلوم أنَّ لكلِّ مكان مكين ، ولكلِّ مكين مكان ...

(٤) في عقيدة أهل الحقّ أنَّ الله تعالىٰ لا يمكن إدراكه وتصوُّره ، وأنَّه خارج عن كلّ ما يجول في الأوهام ويجول في الخواطر والنُّفوس ، وأنَّ كلّ ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، والعجز عن الإدراك إدراك ...

(٥) أجمعت الأمَّة علىٰ نفي المكان عن الله تعالىٰ ، وأنَّه تعالىٰ لا يحويه مكان ولا يجري عليه زمان ...

(٦) صرَّح العديد من علماء الإسلام بتنزيه الله عن أن يكون الله تعالىٰ داخل العالم أو خارجه ، من ذلك :

أَوَّلاً : قال الإمام الاسفراييني (٤٧١هـ) : " أنَّ الحركة والسُّكون والذَّهاب والمجيء والكون في المكان ، والاجتماع والافتراق والقُرب والبُعد من طريق المسافة ، والاتِّصال والانفصال ... والجهات كلّها لا تجوز عليه تعالى ، لأنَّ جميعها يوجب الحدَّ والنهاية " (١) .

ثَانِياً : وقال الإمام الغزالي (٥٠٥هـ) : " أنَّ الله تعالى مقدَّس عن المكان ومنزَّه عن الأقطار والجهات ، وأنَّه ليس داخل العالم ولا خارجه ، ولا هو متَّصل بالعالم ولا هو منفصل عنه " (٢) .

ثَالِثاً : وقال الإمام ابن الجوزي في : "كذلك ينبغي أن يقال : ليس بداخل في العالم وليس بخارج منه ، لأنَّ الدُّخول والخروج من لوازم المتحيِّزات ، وهما كالحركة والسُّكون وسائر الأعراض التي تختصُّ بالأجرام" (٣) .

رَابِعَاً : وقال الإمام العز بن عبد السَّلام (٦٦٠هـ) : " أنَّ من جملة العقائد التي لا يستطيع العامَّة فهمها هو أنَّه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا منفصل عن العالم ولا متَّصل به" (٤) .

خَامِسَاً : وقال الإمام النَّووي (٦٧٦هـ) : " قَالَ الْمُتَوَلِّي: مَنِ اعْتَقَدَ قِدَمَ الْعَالَمِ، أَوْ حُدُوثَ الصَّانِعِ، أَوْ نَفَى مَا هُوَ ثَابِتٌ لِلْقَدِيمِ بِالْإِجْمَاعِ، كَكَوْنِهِ عَالِمًا قَادِرًا، أَوْ أَثْبَتَ مَا هُوَ مَنْفِيٌّ عَنْهُ بِالْإِجْمَاعِ، كَالْأَلْوَانِ، أَوْ أَثْبَتَ لَهُ الِاتِّصَالَ وَالِانْفِصَالَ، كَانَ كَافِرًا " (٥) .

سَادِسَاً : وقال الإمام أبو حفص عمر بن عبد الله بن عمر بن يوسف بن العربي ابن الشَّيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي الفهري (١١٨٨هـ) : " لا شكَّ أنَّ المعتقد هو أنَّ الله تعالى سبحانه ليس في جهة، وقد أوضح الأئمَّة تقريره في الكتب الكلاميَّة بما لا مزيد عنه، فهو سبحانه ليس داخل العالم ولا خارجه، ولا متَّصلاً به ولا منفصلاً عنه، وتوهُّم أنَّ في هذا رفعاً للنَّقيضين وهو محال، باطلٌ؛ إذ لا تناقض بين داخل وخارج، وإنَّما التَّناقض بين داخل ولا داخل، وليس خارج مساوياً للدَّاخل، وإنَّما هو أخصّ منه، فلا يلزم من نفيه نفيه؛ لأنَّ نفي الأخصّ أعمّ من نفي الأعمّ، والأعمّ لا يستلزم الأخصّ.

فإن قيل : بم ينفرد هذا الأعمّ الذي هو لا داخل، عن الأخصّ الذي هو خارج.

---

(١) انظر : التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين (ص١٦٠) .

(٢) انظر : إحياء علوم الدين (٤/ ٤٢٤) .

(٣) انظر : دفع شبه التشبيه (ص١٣٠) .

(٤) انظر : القواعد (ص٢٠١) .

(٥) انظر : روضة الطالبين (١٠/ ٦٤) .

قلنا: ينفردُ في موجودٍ لا يقبلُ الدُّخول ولا الخروج ولا الاتِّصال ولا الانفصال، وهذا يحمله العقل، ولكن يقصر عنه الوهم، وقصور الوهم منشأ الشُّبهة، ومثار دعوىٰ الاستحالة " (١) .

سَابِعَاً : وقال الإمام أبو البركات أحمد بن محمَّد الدَّردير المالكي المصري (١٢٠١هـ) في خريدته :

منزَّهٌ عن الحلول والجهه والاتصال الانفصال والسَّفَه (٢) .

ثَامِنَاً : وقال الإمام محمَّد بن محمَّد بن الحسيني الزَّبيدي الشَّهير بمرتضىٰ (١٢٠٥هـ) : " (وأنَّه) تعالىٰ (مقدَّس) منزَّه (عن التَّغيُّر) من حال إلىٰ حال (والانتقال) من مكان إلىٰ مكان ، وكذا الاتِّصال والانفصال ، فإنَّ كلاً من ذلك من صفات المخلوقين " (٣) .

تَاسِعَاً : وقال الإمام أبو المحاسن محمَّد القاوقجي الطَّرابلسي اللبناني الحنفي (١٣٠٥ هـ) : " فإذا قال لك: أين الله ؟ قل: مع كُلّ أَحَدٍ بِعِلْمِهِ لا بذاته، وفوقَ كُلّ أَحَدٍ بقُدرَتِهِ، وظَاهِرٌ بكُلّ شَىءٍ بآثارِ صِفاتِهِ، وباطِنٌ بحقيقةِ ذاتِهِ أي لا يمكن تصويره في النفس مُنَزَّهٌ عن الجِهَةِ والجِسْمِيَّةِ، فلا يقال: له يَمينٌ ولا شِمالٌ ولا خَلْفٌ ولا أَمَامٌ، ولا فَوْقَ العَرْشِ وَلا تَحتَهُ، وَلا عن يمينِهِ ولا عن شِمَالِهِ، وَلا دَاخِلٌ في العالمِ وَلا خارجٌ عنهُ. وَلا يُقَالُ: لا يَعْلَمُ مَكَانَهُ إلا هُوَ"(٤) .

عَاشِرَاً :اَشوقال الإمام محمد العربي بن التبَّاني (١٣٩٠هـ) : " وقد زعم المشبِّهة أنَّ من يعبد إلهاً لا يكون داخل العالم ولا خارجاً عنه يعبد إلهاً معدوماً، وجمهور الأمَّة الإسلاميَّة قالوا : أنَّه تعالىٰ لا يوصف بأنَّه داخل العالم ولا خارج عنه، لأنَّ الدُّخول والخروج من صفات الحوادث " (٥) .

وَالحَمْدُ لله رَبّ العَالَمِيْن

فِهْرِسُ المَوْضُوْعَات

(١) انظر : براءة الأشعريين لـ محمد العربي بن التباني (١ / ٨٣) .

(٢) انظر : الخريدة البهية (ضمن مجمرع مهمات المتون) (رقم البيت ٣١/ ص٢) .

(٣) انظر : اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين (٢/ ٢٤) .

(٤) انظر : الاعتماد في الاعتقاد ، أبو المحاسن محمد القاوقجي الطرابلسي اللبناني الحنفي (ص٢١) ، دار المشاريع ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٧م.

(٥) انظر : براءة الأشعريين (٢/ ٧١) .

فِهْرِسُ المَصَادِرِ وَالمَراجع

(١) الإبانة عن أصول الديانة ، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري ، تحقيق : د. فوقية حسين محمود ، دار الأنصار ، القاهرة ، الطبعة : الأولى ، ١٣٩٧هـ .

(٢) إبطال التأويلات لأخبار الصفات ، القاضي أبو يعلى ، تحقيق : محمَّد بن حمد الحمود النجدي ، دار إيلاف الدولية ، الكويت .

(٣) إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدِّين ، محمَّد بن محمَّد بن الحسيني الزبيدي الشَّهير بمرتضى ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، الطبعة : ١٤١٤هـ ، ١٩٩٤م .

(٤) إتقان في علوم القرآن ، عبد الرَّحمن بن أبي بكر ، جلال

(١٥٨) شرح سنن النسائي المسمى «شروق أنوار المنن الكبرى الإلهية بكشف أسرار السنن الصغرى النسائية» ، محمَّد المختار بن محمَّد بن أحمد مزيد الجكني الشنقيطي ، مطابع الحميضي ، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٥ هـ .

(١٥٩) شرح صحيح البخارى ، ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك ، تحقيق : أبو تميم ياسر بن إبراهيم ، مكتبة الرشد ، الرياض ، الطبعة : الثانية ، ١٤٢٣هـ ، ٢٠٠٣م .

(١٦٠) شَرْحُ صَحِيح مُسْلِمِ لِلقَاضِي عِيَاض المُسَمَّى إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم ، عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي ، أبو الفضل ، تحقيق : الدكتور

الدِّين السيوطي ، تحقيق : محمَّد أبو الفضل إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة : ١٣٩٤هـ ، ١٩٧٤م .
(٥) إثارة الفوائد المجموعة في الإشارة إلى الفرائد المسموعة ، صلاح الدِّين أبو سعيد خليل بن كيكلدي بن عبد الله الدمشقي العلائي ، تحقيق : مرزق بن هياس آل مرزوق الزهراني ، مكتبة العلوم والحكم ، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٥ه ، ٢٠٠٤م .
(٦) اجتماع الجيوش الإسلامية ، محمَّد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدِّين ابن قيم الجوزية ، تحقيق : عواد عبد الله المعتق ، مطابع الفرزدق التجارية ، الرياض ، ط١ ، ١٤٠٨هـ .
(٧) أحكام القرآن ، الجصَّاص ، تحقيق : محمَّد الصادق قمحاوي ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، ١٤٠٥هـ .
(٨) إحياء علوم الدِّين ، أبو حامد محمَّد بن محمَّد الغزالي الطوسي ، دار المعرفة ، بيروت .
(٩) أخبار مكة وما جاء فيها من الأثار ، الأزرقي ، تحقيق : رشدي الصالح ملحس ، دار الأندلس للنشر ، بيروت .
(١٠) الآداب ، البيهقي ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٨م .
(١١) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ، أحمد بن محمَّد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري ، أبو العباس ، شهاب الدِّين ، المطبعة الكبرى الأميرية ، مصر ، الطبعة : السابعة ، ١٣٢٣ هـ .
(١٢) إزالة الشبهات عن الآيات والأحاديث المتشابهات ، شمس الدِّين محمَّد بن أحمد بن عبد المؤمن الشَّافعي المعروف بابن اللبَّان ، تحقيق : الدكتورفريد مصطفى سلمان ، دار طويق ، الرياض ، ط١ ، ١٩٩٥م .
(١٣) أساس التقديس ، الرَّازي ، تحقيق : الدكتور عبد الله محمَّد عبد الله إسماعيل ، المكتبة الأزهريَّة للتراث ، القاهرة ، وطبعة أخرى تحقيق : الدكتور أحمد حجازي السقا ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٩٩٣م ، طبعة أخرى ، تحقيق : يَحْيَىٰ إِسْمَاعِيل ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، مصر ، الطبعة : الأولى ، ١٤١٩هـ ، ١٩٩٨م .
(١٦١) شرح عقيدة ابن أبي زيد القيرواني في كتابه الرسالة ، القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي المالكي ، تحقيق : ا.د أحمد محد نور سيف ، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث ، الإمارات العربية المتحدة ، ط١ ، ٢٠٠٤م .
(١٦٢) شرح فتح القدير ، كمال الدِّين محمَّد بن عبد الواحد السيواسي ، دار الفكر ، بيروت .
(١٦٣) شرح مختصر الروضة ، سليمان بن عبد القوي بن الكريم الطوفي الصرصري ، تحقيق : عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة : الأولى ، ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م .
(١٦٤) صحيح ابن حبان ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٨م .
(١٦٥) صحيح البخاري ، تحقيق : محمَّد زهير بن ناصر الناصر ، دار طوق النجاة ، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٢هـ ، طبعة أخرى ، تحقيق : د. مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير ، اليمامة ، بيروت ، الطبعة : الثالثة ، ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م .
(١٦٦) صحيح مسلم ، تحقيق : محمَّد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، طبعة أخرى،دار الجيل ، بيروت ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت .
(١٦٧) ضوء المعالي على منظومة بدء الأمالي ، نور الدين علي القاري ، تحقيق : عبد السلام بن عبد الهادي شنار ، دار البيروتي ، دمشق ، ط١ ، ٢٠٠٦م .
(١٦٨) طبقات الحنابلة ، أبو الحسين ابن أبي يعلى ، محمَّد بن محمَّد ، تحقيق : محمَّد حامد الفقي ، دار المعرفة ، بيروت .
(١٦٩) طبقات الشافعية الكبرى ، تاج الدِّين عبد الوهاب بن تقي الدِّين السبكي ، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو ، هجر للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ .

أحمد حجازي السقا ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٩٩٣م .
(١٤) الأسماء والصفات ، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني ، أبو بكر البيهقي ، تحقيق : عبد الله بن محمد الحاشدي ، مكتبة السوادي ، جدة ، الطبعة : الأولى ، ١٤١٣هـ ، ١٩٩٣م ، طبعة أخرى ، تحقيق : محمَّد زاهد الكوثري ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
(١٥) الإشارات الإلهية إلي المباحث الأصولية ، نجم الدين الطوفي الصرصري الحنبلي ، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل ، دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ ، ٢٠٠٥م .
(١٦) إشارات المرام من عبارات الإمام ، كمال الدين أحمد بن حسن بن سنان الدين البياضي زاده الرومي الحنفي ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٧م .
(١٧) الأشباه والنظائر ، جلال الدِّين السيوطي ، دار الكتب العلمية ، الطبعة : الأولى ، ١٤١١هـ ،١٩٩٠م .
(١٨) أصول أهل السنَّة المسمَّاة برسالة أهل الثغر ، أبو الحسن الأشعري ، تحقيق : محمد السيِّد الجليند ، المكتبة الأزهريَّة ، القاهرة .
(١٩) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، محمَّد الأمين بن محمَّد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي ، دار الفكر للطباعة و النشر والتوزيع بيروت ، ، ١٤١٥هـ ، ١٩٩٥م .
(٢٠) اعتقاد الإمام ابن حنبل ، عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث التميمي ، دار المعرفة ، بيروت .
(٢١) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث ، البيهقي ، تحقيق : أحمد عصام الكاتب ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٤٠١هـ .
(٢٢) أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) ، أبو سليمان حمد بن محمَّد الخطابي ، تحقيق : د. محمَّد بن سعد بن عبد الرَّحمن آل سعود ، نشر : جامعة أم القرى (مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ، ط١ ، ١٤٠٩هـ ، ١٩٨٨م
(١٧٠) عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرَّحمن ، حمود بن عبد الله بن حمود بن عبد الرَّحمن التويجري ، دار اللواء للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط٢ ، ١٤٠٩هـ ، ١٩٨٩م .
(١٧١) العلل المتناهية في الأحاديث الواهية ، ابن الجوزي ، تحقيق : إرشاد الحق الأثري ، نشر : إدارة العلوم الأثرية ، فيصل آباد ، باكستان ، الطبعة : الثانية ، ١٤٠١هـ ، ١٩٨١م .
(١٧٢) علو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها ، الذهبي ، تحقيق : أبو محمَّد أشرف بن عبد المقصود ، مكتبة أضواء السلف ، الرياض ، الطبعة : الأولى ، ١٤١٦هـ ، ١٩٩٥م .
(١٧٣) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ ، أبو العباس ، شهاب الدين ، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي ، تحقيق : محمَّد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، الطبعة : الأولى ، ١٤١٧ هـ ،١٩٩٦م .
(١٧٤) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، أبو محمَّد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدِّين العينى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
(١٧٥) العواصم من القواصم (النص الكامل) ، ابن العربي ، تحقيق : الدكتور عمار الطالبي ، دار التراث ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٧م .
(١٧٦) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم ، ابن الوزير ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ، الطبعة: الثالثة، ١٤١٥هـ ، ١٩٩٤م
(١٧٧) عين والأثر في عقائد أهل الأثر ، عبد الباقي بن عبد الباقي بن عبد القادر البعلي الأزهري الدمشقيّ ، تقيّ الدين ، ابن فَقِيه فُصَّة ، تحقيق : عصام رواس قلعجي ، دار المأمون للتراث ، الطبعة : الأولى ، ١٤٠٧هـ .
(١٧٨) غاية المرام في علم الكلام ، أبو الحسن سيد الدِّين

.
(٢٣) أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات ، مرعي الكرمى المقدسي الحنبلي ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٤٠٦هـ .
(٢٤) الاقتصاد في الاعتقاد ، الغزالي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٤هـ ، ٢٠٠٤م .
(٢٥) إكمال المعلم شرح صحيح مسلم ، القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي ، بلا .
(٢٦) إلجام العوام عن علم الكلام ، الغزالي ، المكتبة الأزهريَّة ، القاهرة ، ١٩٩٨م .
(٢٧) الإنصاف ، أبو بكر الباقلاني محمَّد بن الطيب ، بلا .
(٢٨) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ناصر الدِّين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمَّد الشيرازي البيضاوي ، تحقيق : محمَّد عبد الرَّحمن المرعشلي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٤١٨هـ .
(٢٩) أوضح التفاسير ، محمَّد محمد عبد اللطيف بن الخطيب ، المطبعة المصرية ومكتبتها ، الطبعة : السادسة ، ١٣٨٣هـ ،١٩٦٤م .
(٣٠) إيجاز البيان عن معاني القرآن ، محمود بن أبى الحسن بن الحسين النيسابوري أبو القاسم ، نجم الدِّين ، تحقيق : الدكتور حنيف بن حسن القاسمي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٤١٥هـ .
(٣١) إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل ، أبو عبد الله ، محمَّد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي ، بدر الدِّين ، تحقيق : وهبي سليمان غاوجي الألباني ، دار السلام للطباعة والنشر ، مصر ، الطبعة : الأولى ، ١٤١٠هـ ، ١٩٩٠م .
(٣٢) الإيمان ، ابن منده ، تحقيق : د. علي بن محمَّد بن ناصر الفقيهي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة : الثانية ، ١٤٠٦هـ .
علي بن أبي علي بن محمَّد بن سالم الثعلبي الآمدي ، تحقيق : حسن محمود عبد اللطيف ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة .
(١٧٩) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ،نظام الدِّين الحسن بن محمَّد بن حسين القمي النيسابوري ، تحقيق : الشَّيخ زكريا عميرات ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٤١٦هـ .
(١٨٠) الغنية في أصول الدِّين ، أبو سعيد عبدالرحمن بن محمَّد المتولي الشافعي ، تحقيق : عماد الدِّين أحمد حيدر ، مؤسسة الخدمات والأبحاث الثقافية ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٩٨٧م .
(١٨١) الفتاوى الحديثية ، ابن حجر الهيتمي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨م .
(١٨٢) فتاوى الرملي ، شهاب الدِّين أحمد بن حمزة الأنصاري الرملي الشافعي ، جمعها : ابنه ، شمس الدِّين محمَّد بن أبي العبَّاس أحمد بن حمزة شهاب الدِّين الرملي (١٠٠٤هـ) ، المكتبة الإسلامية .
(١٨٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٧٩هـ .
(١٨٤) فتحُ البيان في مقاصد القرآن ، أبو الطيب محمَّد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي ، المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر ، صَيدَا ، بَيروت ، ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م .
(١٨٥) الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ومعه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني ، أحمد بن عبد الرَّحمن بن محمَّد البنا الساعاتي ، دار إحياء التراث العربي ، الطبعة : الثانية .
(١٨٦) فتح الرحمن في تفسير القرآن ، مجير الدين بن محمَّد العليمي المقدسي الحنبلي ، تحقيق : نور الدين طالب ، دار النوادر (إصدَارات وزَارة الأوقاف والشُؤُون الإِسلامِيّة –

(٣٣) باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن ، محمود بن أبي الحسن (علي) بن الحسين النيسابوريّ الغزنوي ، أبو القاسم ، الشَّهير بـ (بيان الحق) ، تحقيق : سعاد بنت صالح بن سعيد بابقي ، نشر : جامعة أم القرىٰ ، مكة المكرمة ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .

(٣٤) البحر الرائق شرح كنز الدقائق ، ابن نجيم المصري ، ومعه تكملة البحر الرائق لمحمد بن حسين بن علي الطوري الحنفي القادري ، وبالحاشية : منحة الخالق لابن عابدين ، دار الكتاب الإسلامي .

(٣٥) بحر العلوم ، أبو الليث نصر بن محمَّد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي ، تحقيق : د. محمود مطرجي ، دار الفكر ، بيروت .

(٣٦) البحر المحيط في التفسير ،أبو حيان محمَّد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدِّين الأندلسي ، تحقيق : صدقي محمَّد جميل ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة : ١٤٢٠هـ .

(٣٧) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ، أبو العبَّاس أحمد بن محمَّد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي ، تحقيق : أحمد عبد الله القرشي رسلان ، نشر : الدكتور حسن عباس زكي ، القاهرة ، الطبعة : ١٤١٩هـ .

(٣٨) البداية والنهاية ، ابن كثير ، دار الفكر .

(٣٩) براءة الأشعريين من عقائد المخالفين ، محمَّد العربي بن التباني ، دار المصطفىٰ ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٧م .

(٤٠) البرهان المؤيد ، أحمد بن علي بن ثابت الرفاعي الحسيني ، تحقيق : عبد الغني نكه مي ، دار الكتاب النفيس ، بيروت ، الطبعة الأولىٰ ، ١٤٠٨هـ .

(٤١) البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ، تحقيق : محمَّد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية عيسىٰ البابىٰ الحلبي وشركائه ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٣٧٦هـ ، ١٩٥٧م .

(٤٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، مجد الدِّين أبو طاهر محمَّد بن يعقوب الفيروزآبادىٰ ، تحقيق : محمَّد علي النجار ، المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية ، لجنة إحياء إدَارَةُ الشُّؤُونِ الإِسلاَمِيّةِ) ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م .

(١٨٧) فتح القدير ،محمد بن علي بن محمَّد بن عبد الله الشوكاني اليمني ، دار ابن كثير ، دار الكلم الطيب ، دمشق ، بيروت ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤١٤هـ .

(١٨٨) فتح المبين بشرح الأربعين ، ابن حجر الهيتمي ، دار المنهاج ، جدة ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤٢٨هـ ، ٢٠٠٨م .

(١٨٩) فتح المنعم شرح صحيح مسلم ، الأستاذ الدكتور موسىٰ شاهين لاشين ، دار الشروق ، الطبعة : الأولىٰ ، دار الشروق ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م .

(١٩٠) فتح الودود في شرح سنن أبي داود ، أبو الحسن السندي ، تحقيق : محمَّد زكي الخولي ، نشر : (مكتبة لينة - دمنهور - جمهورية مصر العربية) ، (مكتبة أضواء المنار - المدينة المنورة) ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤٣١ هـ ، ٢٠١٠ م .

(١٩١) الفتوحات الربّانية علىٰ الأذكار النووية ، محمَّد بن علاّن الصدّيقي الشافعي الأشعري المكّي ، دار إحياء التراث العربي .

(١٩٢) فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان ، سلامة القضاعي العزامي الشافعي ، المكتبة الأزهرية للتراث ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٩م .

(١٩٣) الفروق (أنوار البروق في أنواء الفروق) ، أبو العبَّاس شهاب الدِّين أحمد بن إدريس بن عبد الرَّحمن المالكي الشَّهير بالقرافي ، عالم الكتب ، بيروت .

(١٩٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ابن حزم الأندلسي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .

(١٩٥) الفقه الأكبر (مطبوع مع الشرح الميسر علىٰ الفقهين الأبسط والأكبر) ، أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي بن ماه ، مكتبة الفرقان ، الإمارات العربية ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤١٩هـ ، ١٩٩٩م .

(١٩٦) الفقه علىٰ المذاهب الأربعة ، عبد الرَّحمن بن محمَّد عوض الجزيري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة :

التراث الإسلامي ، القاهرة

(٤٣) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية ، ابن تيمية الحراني ، تحقيق : مجموعة من المحققين ، نشر : مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٦هـ .

(٤٤) بيان المعاني ، عبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي العاني ، نشر : مطبعة الترقي ، دمشق ، الطبعة : الأولى ، ١٣٨٢هـ ، ١٩٦٥م .

(٤٥) تاريخ الأمم والملوك ، الطبري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٤٠٧هـ .

(٤٦) التبيان في تفسير غريب القرآن ، شهاب الدِّين أحمد بن محمَّد الهائم المصري ، تحقيق : د. فتحي أنور الدابولي ، دار الصحابة للتراث بطنطا ، القاهرة ، الطبعة : الأولى ، ١٩٩٢م .

(٤٧) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشِّلْبِيِّ ، عثمان بن علي بن محجن البارعي ، فخر الدِّين الزيلعي الحنفي ، الحاشية : شهاب الدِّين أحمد بن محمَّد بن أحمد بن يونس بن إسماعيل بن يونس الشِّلْبِيُّ ، المطبعة الكبرى الأميرية ، بولاق ، القاهرة ، الطبعة : الأولى ، ١٣١٣هـ .

(٤٨) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ، ابن عساكر ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة : الثالثة ، ١٤٠٤هـ .

(٤٩) التبصرة ، ابن الجوزي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٩٨٦م .

(٥٠) التبصير في الدِّين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين ، الأسفراييني ، تحقيق : كمال يوسف الحوت ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م .

(٥١) التحرير والتنوير " تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد " ، محمَّد الطاهر بن عاشور ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٨٤هـ .

(٥٢) تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة ، القاضي ناصر الدِّين

الثانية ، ١٤٢٤هـ ، ٢٠٠٣م .

(١٩٧) الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ، الشوكاني ، تحقيق : عبد الرَّحمن بن يحي المعلمي اليماني ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

(١٩٨) الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، شهاب الدِّين النفراوي الأزهري المالكي ، دار الفكر ، ١٤١٥هـ ، ١٩٩٥م .

(١٩٩) في ظلال القرآن ، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ، ط١٧ ، ١٤١٢هـ .

(٢٠٠) فيض الباري شرح البخاري ، محمَّد أنور شاه بن معظم شاه الكشميري الهندي ، مكتبة مشكاة الإسلامية .

(٢٠١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ، المناوي ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، الطبعة : الأولى ، ١٣٥٦هـ .

(٢٠٢) قرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين ،عبد الرَّحمن بن حسن بن محمَّد ، بن عبد الوهاب ، دراسة وتحقيق : بشير محمَّد عيون ، مكتبة المؤيد ، الطائف ، المملكة العربية السعودية ، مكتبة دار البيان ، دمشق ، الجمهورية العربية السورية ، الطبعة : الأولى ، ١٤١١هـ ،١٩٩٠م .

(٢٠٣) قواعد العقائد ، الغزالي ، تحقيق : موسى محمَّد علي ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة : الثانية ، ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م .

(٢٠٤) الكبائر ، شمس الدين أبي عبد الله محمَّد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي ، دار الندوة الجديدة ، بيروت .

(٢٠٥) كبرى اليقينيات الكونية ، محمَّد سعيد رمضان البوطي ، دار الفكر ،دمشق ، ط٩ ، ١٤١١هـ .

(٢٠٦) كتاب أصول الدِّين ، جمال الدِّين الغزنوي الحنفي ، تحقيق : الدكتور عمر وفيق الداعوق ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٩٩٨م .

(٢٠٧) كتاب أُصول الدِّين ، عبد القاهر بن طاهر التميمي

عبد الله بن عمر البيضاوي ، تحقيق : لجنة مختصَّة بإشراف نور الدِّين طالب ، نشر : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت ، ١٤٣٣هـ ، ٢٠١٢م .

(٥٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ، أبو العلا محمَّد عبد الرَّحمن بن عبد الرحيم المباركفورىٰ ، دار الكتب العلمية ، بيروت

(٥٤) تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري ، جمال الدِّين أبو محمَّد عبد الله بن يوسف بن محمَّد الزيلعي ، تحقيق : عبد الله بن عبد الرَّحمن السعد ، دار ابن خزيمة ، الرياض ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤١٤هـ .

(٥٥) التذكار في أفضل الأذكار من القرآن الكريم ، القرطبي ، دار الكتب العلمية ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦م .

(٥٦) التسهيل لعلوم التنزيل ،أبو القاسم ، محمَّد بن أحمد بن محمَّد بن عبد الله ، ابن جزي الكلبي الغرناطي ، تحقيق : الدكتور عبد الله الخالدي ، دار الأرقم بن أبي الأرقم ، بيروت ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤١٦هـ .

(٥٧) تشنيف المسامع بجمع الجوامع لتاج الدِّين السبكي ، أبو عبد الله بدر الدِّين محمَّد بن عبد الله بن بهادر الزركشي الشافعي ، تحقيق : د سيد عبد العزيز ، د عبد الله ربيع ، مكتبة قرطبة ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤١٨هـ ، ١٩٩٨م .

(٥٨) التعرف لمذهب أهل التصوف ، أبو بكر محمَّد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري الحنفي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٥٩) تعريف عام بدين الإسلام ، علي الطنطاوي ، دار الفكر ، الطبعة : العاشرة ، ١٩٨٢م .

(٦٠) تعليق مختصر علىٰ كتاب لمعة الاعتقاد الهادي إلىٰ سبيل الر٠شاد ، محمَّد بن صالح بن محمَّد العثيمين ، تحقيق : أشرف بن عبد المقصود بن عبد الرحيم ، مكتبة أضواء السلف ، الطبعة : الثالثة ١٤١٥هـ ، ١٩٩٥م .

(٦١) تغليق التعليق علىٰ صحيح البخاري ، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمَّد بن أحمد بن حجر العسقلاني ، تحقيق : سعيد

البغدادي ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨١م .

(٢٠٨) كتاب التعريفات ، علي بن محمَّد بن علي الزين الشريف الجرجاني ، دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة : الأولىٰ ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م .

(٢٠٩) كتاب التوحيد وإثبات صفات الرَّب عزَّ وجلَّ ، ابن خزيمة ، تحقيق : عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان ، مكتبة الرشد ، السعودية ، الرياض ، الطبعة : الخامسة ، ١٤١٤هـ ، ١٩٩٤م ، طبعة أخرىٰ ، تحقيق : محمَّد خليل هراس ، ١٩٧٨م

(٢١٠) كتاب التوحيد وقرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين ، عبد الرَّحمن بن حسن بن محمَّد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي ، تحقيق : بشير محمَّد عيون ، مكتبة المؤيد ، الطائف ، المملكة العربية السعودية ، مكتبة دار البيان ، دمشق ، الجمهورية العربية السورية ، ط١ ، ١٤١١هـ ،١٩٩٠م .

(٢١١) كتاب المواقف ، الإيجي ، تحقيق : د.عبد الرَّحمن عميرة ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٩٩٧م .

(٢١٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت

(٢١٣) كشف المشكل من حديث الصحيحين ، جمال الدِّين أبو الفرج عبد الرَّحمن بن علي بن محمَّد الجوزي ، تحقيق : علي حسين البواب ، دار الوطن ، الرياض .

(٢١٤) الكشف والبيان عن تفسير القرآن ، الثعلبي ، تحقيق : الإمام أبي محمَّد بن عاشور ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠٢ م .

(٢١٥) كفاية الطالب الرباني لرسالة أبي زيد القيرواني ، أبو الحسن المالكي ، تحقيق : يوسف الشَّيخ محمَّد البقاعي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٢هـ .

(٢١٦) الكفاية في علم الرواية ، أبو بكر أحمد بن علي بن

عبد الرَّحمن موسىٰ القزقي ، المكتب الإسلامي ، دار عمار ، بيروت ، عمان ، الأردن ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤٠٥هـ .
(٦٢) تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم) ، أبو السعود العمادي محمَّد بن محمَّد بن مصطفىٰ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
(٦٣) تفسير أسماء الله الحسنىٰ ، إبراهيم بن السري بن سهل ، أبو إسحاق الزجاج ، تحقق : أحمد يوسف الدقاق ، دار الثقافة العربية .
(٦٤) تفسير آيات الأحكام ، السايس ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، ٢٠٠٢م .
(٦٥) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن ،محمد بن عبد الرَّحمن بن محمَّد بن عبد الله الحسني الحسيني الإِيجي الشافعيّ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤٢٤هـ ، ٢٠٠٤م .
(٦٦) تفسير الجلالين ، جلال الدِّين محمَّد بن أحمد المحلي ، وجلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أبي بكر السيوطي ، دار الحديث ، القاهرة ، ط١ .
(٦٧) التفسير الحديث ، محمَّد عزت دروزة ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، الطبعة : ١٣٨٣هـ
(٦٨) تفسير الخازن المسمىٰ لباب التأويل في معاني التنزيل ، علاء الدِّين علي بن محمَّد بن إبراهيم البغدادي الشَّهير بالخازن ، دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م .
(٦٩) تفسير الراغب الأصفهاني (المقدمة وتفسير الفاتحة والبقرة) ، أبو القاسم الحسين بن محمَّد المعروف بالراغب الأصفهانىٰ ، تحقيق ودراسة : د. محمَّد عبد العزيز بسيوني ، كلية الآداب ، جامعة طنطا ، الطبعة الأولىٰ : ١٤٢٠هـ ، ١٩٩٩م .
(٧٠) تفسير روح البيان ، إسماعيل حقي بن مصطفىٰ الإستانبولي الحنفي الخلوتي ، دار إحياء التراث العربىٰ .
(٧١) تفسير السلمي وهو حقائق التفسير ، محمَّد بن الحسين بن محمَّد بن موسىٰ بن خالد بن سالم النيسابوري ، أبو عبد

ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي ، تحقيق : أبو عبدالله السورقي ، إبراهيم حمدي المدني ، المكتبة العلمية - المدينة المنورة .
(٢١٧) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، علاء الدِّين علي بن حسام الدِّين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري ثمَّ المدني فالمكي الشَّهير بالمتقي الهندي ، تحقيق : بكري حياني - صفوة السقا ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة : الخامسة ، ١٤٠١هـ ،١٩٨١م .
(٢١٨) اكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري ، الكرماني ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة : الثانية ، ١٤٠١هـ ، ١٩٨١م .
(٢١٩) الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم (المسمَّىٰ :الكوكب الوهَّاج والرَّوض البَهَّاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج) ، جمع وتأليف : محمَّد الأمين بن عبد الله الأُرَمي العَلَوي الهَرَري الشافعي ، دار المنهاج ، دار طوق النجاة ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤٣٠ هـ ، ٢٠٠٩ م .
(٢٢٠) الكوثر الجاري إلىٰ رياض أحاديث البخاري ، أحمد بن إسماعيل بن عثمان بن محمَّد الكوراني الشافعي ثم الحنفي المتوفىٰ ، تحقيق : الشَّيخ أحمد عزو عناية ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤٢٩هـ ، ٢٠٠٨م .
(٢٢١) كوثَر المَعَاني الدَّرَارِي في كَشْفِ خَبَايا صَحِيحْ البُخَاري ، محمَّد الخَضِر بن سيد عبد الله بن أحمد الجكني الشنقيطي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤١٥هـ ، ١٩٩٥م .
(٢٢٢) لامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح ، شمس الدِّين البِرْماوي ، أبو عبد الله محمَّد بن عبد الدائم بن موسىٰ النعيمي العسقلاني المصري الشافعي ، تحقيق ودراسة : لجنة مختصة من المحققين بإشراف نور الدِّين طالب ، دار النوادر ، سوريا ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤٣٣ هـ ، ٢٠١٢ م .
(٢٢٣) اللباب في علوم الكتاب ، أبو حفص سراج الدِّين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني ، تحقيق :

الرَّحمن السلمي ، تحقيق : سيد عمران ،دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة : ١٤٢١هـ ، ٢٠٠١م .
(٧٢) تفسير الشعراوي (الخواطر) ، محمَّد متولي الشعراوي ، مطابع أخبار اليوم .
(٧٣) تفسير الطبري ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠هـ ، ٢٠٠٠م .
(٧٤) تفسير القرآن ، أبو المظفر ، منصور بن محمَّد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي ، تحقيق : ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم ، دار الوطن ، الرياض ، الطبعة : الأولى ، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م .
(٧٥) تفسير القرآن ، أبو محمَّد عز الدِّين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي ، الملقب بسلطان العلماء ، تحقيق : الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي ، دار ابن حزم ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٤١٦ه ، ١٩٩٦م .
(٧٦) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) ، محمَّد رشيد بن علي رضا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٠م .
(٧٧) تفسير القرآن العظيم ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي ، تحقيق : سامي بن محمد سلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الطبعة : الثانية ، ١٤٢٠هـ ، ١٩٩٩م .
(٧٨) التفسير القرآني للقرآن ، عبد الكريم يونس الخطيب ، دار الفكر العربي ، القاهرة .
(٧٩) تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) ، محمَّد بن محمَّد بن محمود ، أبو منصور الماتريدي ، تحقيق : د. مجدي باسلوم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٦هـ ، ٢٠٠٥م .
(٨٠) تفسير الماوردي (النكت والعيون) ، أبو الحسن علي بن محمَّد بن محمَّد بن حبيب البصري البغدادي ، الشهير بالماوردي ، تحقيق : السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم ،دار الكتب العلمية ، بيروت .
(٨١) تفسير المراغي ، أحمد بن مصطفى المراغي ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة :

الشَّيخ عادل أحمد عبد الموجود ، والشيخ علي محمَّد معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،الطبعة : الأولى ، ١٤١٩هـ ، ١٩٩٨م
(٢٢٤) لسان العرب ، محمَّد بن مكرم بن على ، أبو الفضل ، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة : الثالثة ، ١٤١٤هـ .
(٢٢٥) لسان الميزان ، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمَّد بن أحمد بن حجر العسقلاني ، تحقيق : دائرة المعرف النظامية ، الهند ، نشر : مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، الطبعة : الثانية ، ١٣٩٠هـ ،١٩٧١م ، طبعة أخرى ، تحقيق : عبد الفتاح أبو غدة ، دار البشائر الإسلامية ، الطبعة : الأولى ، ٢٠٠٢ م .
(٢٢٦) لطائف الإشارات (تفسير القشيري) ، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري ، تحقيق : إبراهيم البسيوني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، الطبعة : الثالثة .
(٢٢٧) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية ، السفاريني الحنبلي ، مؤسسة الخافقين ومكتبتها ، دمشق ، الطبعة : الثانية ، ١٤٠٢هـ ، ١٩٨٢م .
(٢٢٨) المبسوط ، محمَّد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٤١٤هـ ، ١٩٩٣م .
(٢٢٩) المجالس الوعظية في شرح أحاديث خير البرية صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من صحيح الإمام البخاري ، شمس الدِّين محمَّد بن عمر بن أحمد السفيري الشافعي ، تحقيق : أحمد فتحي عبد الرَّحمن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٥هـ ، ٢٠٠٤م .
(٢٣٠) مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار ، جمال الدين ، محمَّد طاهر بن علي الصديقي الهندي الفَتَّنِي الكجراتي ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، الطبعة : الثالثة ، ١٣٨٧هـ ، ١٩٦٧م .
(٢٣١) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية الحراني ، تحقيق : عبد

الأولى ، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م ، طبعة أخرى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

(٨٢) تفسير المظهري ، المظهري ، محمَّد ثناء الله ، تحقيق : غلام نبي التونسي ، مكتبة الرشدية ، الباكستان ، الطبعة : ١٤١٢هـ .

(٨٣) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، د . وهبة بن مصطفى الزحيلي ، دار الفكر المعاصر ، دمشق ، الطبعة : الثانية ، ١٤١٨هـ .

(٨٤) تفسير مقاتل بن سليمان ، أبو الحسن مقاتل بن سليمان ، تحقيق: عبد الله محمود شحاته ، دار إحياء التراث ، بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤٢٣هـ .

(٨٥) تفسير النسفى ، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي ، دار النفائس ، بيروت ، ٢٠٠٥م .

(٨٦) تفسير الواضح ، محمَّد محمود الحجازي ، دار الجيل الجديد ، بيروت ، الطبعة : العاشرة ، ١٤١٣هـ.

(٨٧) التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، محمَّد سيد طنطاوي ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، الفجالة ، القاهرة ، الطبعة : الأولى .

(٨٨) التفسير الوسيط للزحيلي ، د وهبة بن مصطفى الزحيلي ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٢هـ .

(٨٩) تفسير يحيى بن سلام ، تحقيق: الدكتورة هند شلبي ، دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ ، ٢٠٠٤ م .

(٩٠) تلبيس إبليس ، جمال الدِّين أبو الفرج عبد الرَّحمن بن علي بن محمَّد الجوزي ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠١م .

(٩١) تلخيص البيان فى مجازات القرآن ، الشريف الرضى ، دار الأضواء ، بيروت .

(٩٢) التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير ، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمَّد بن أحمد بن حجر العسقلاني ، دار الكتب العلمية ، الطبعة : الأولى ، ١٤١٩هـ ، ١٩٨٩م.

الرَّحمن بن محمَّد بن قاسم ، نشر : مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة المنورة ، ١٤١٦هـ ،١٩٩٥م .

(٢٣٢) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشَّيخ محمَّد بن صالح العثيمين ، محمَّد بن صالح بن محمَّد العثيمين ، جمع وترتيب : فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان ، دار الوطن ، دار الثريا ، الطبعة : الأخيرة ، ١٤١٣هـ .

(٢٣٣) المجموع شرح المهذب (مع تكملة السبكي والمطيعي) ، أبو زكريا محيي الدِّين يحيى بن شرف النووي ، (٤/ ٢٥٣) ، دار الفكر .

(٢٣٤) مجموعة الرسائل والمسائل ، ابن تيمية الحراني ، علق عليه : السيد محمَّد رشيد رضا ، لجنة التراث العربي .

(٢٣٥) محاسن التأويل ،محمد جمال الدِّين بن محمَّد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي ، تحقيق : محمَّد باسل عيون السود ، دار الكتب العلميه ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٤١٨هـ .

(٢٣٦) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، أبو محمَّد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي ، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمَّد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٤١٣هـ ، ١٩٩٣م .

(٢٣٧) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، مؤلف الأصل : محمَّد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدِّين ابن قيم الجوزية ، اختصره : محمَّد بن محمَّد بن عبد الكريم بن رضوان البعلي شمس الدين ، ابن الموصلي ، تحقيق : سيد إبراهيم ، دار الحديث ، القاهرة ، مصر ، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠١م .

(٢٣٨) مختصر العلو للعلي العظيم للذهبي ، حققه واختصره : محمَّد ناصر الدِّين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة : الطبعة الثانية ١٤١٢هـ ،١٩٩١م .

(٢٣٩) المدخل ، أبو عبد الله محمَّد بن محمَّد بن محمَّد العبدري الفاسي المالكي الشَّهير بابن الحاج ، دار التراث .

(٢٤٠) مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات

(٩٣) تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل ، أبو بكر الباقلاني ، تحقيق : عماد الدِّين أحمد حيدر ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م .
(٩٤) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي ، تحقيق : مصطفى بن أحمد العلوي ، محمد عبد الكبير البكري ، نشر : وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المغرب ، ١٣٨٧هـ، طبعة ثانية تحقيق : عبد الله بن الصديق الغماري ، مؤسسة قرطبة .
(٩٥) تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق ، شمس الدِّين محمَّد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي ، تحقيق : سامي بن محمَّد بن جاد الله وعبد العزيز بن ناصر الخباني ، أضواء السلف ، الرياض ، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٨هـ ، ٢٠٠٧م .
(٩٦) تَّنويرُ شَرْحُ الجَامِع الصَّغِيرِ ، محمَّد بن إسماعيل بن صلاح بن محمَّد الحسني ، الكحلاني ثم الصنعاني ، أبو إبراهيم ، عز الدين ، المعروف كأسلافه بالأمير ، تحقيق : د. محمَّد إسحاق محمَّد إبراهيم ، مكتبة دار السلام ، الرياض ، الطبعة : الأولى ، ١٤٣٢ هـ ، ٢٠١١ م .
(٩٧) التوحيد ، محمَّد بن محمَّد بن محمود ، أبو منصور الماتريدي ، تحقيق : د. فتح الله خليف ، دار الجامعات المصرية ، الإسكندرية
(٩٨) التوشيح شرح الجامع الصحيح ، عبد الرَّحمن بن أبي بكر ، جلال الدِّين السيوطي ، تحقيق : رضوان جامع رضوان ، مكتبة الرشد ، الرياض ، الطبعة : الأولى ، ١٤١٩هـ ، ١٩٩٨م .
(٩٩) التوضيح لشرح الجامع الصحيح ، ابن الملقن ، تحقيق : دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث ، دار النوادر ، دمشق ، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٩هـ ، ٢٠٠٨م .
(١٠٠) التيسير في أحاديث التفسير ، محمَّد المكي الناصري ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م .
والاعتقادات ، ابن حزم ، أبو محمَّد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
(٢٤١) مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد ، محمَّد بن عمر نووي الجاوي البنتني إقليما ، التناري بلدا ، تحقيق : محمَّد أمين الصناوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٤١٧هـ .
(٢٤٢) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ، أبو الحسن عبيد الله بن محمَّد عبد السلام بن خان محمَّد بن أمان الله بن حسام الدِّين الرحماني المباركفوري ، نشر : إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء ، الجامعة السلفية ، بنارس الهند ، الطبعة : الثالثة ، ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤م .
(٢٤٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ، علي بن (سلطان) محمد ، أبو الحسن نور الدِّين الملا الهروي القاري ، دار الفكر ، بيروت ،الطبعة : الأولى ، ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠٢م .
(٢٤٤) مسامرة شرح المسايرة في العقائد المنجية في الآخرة ، كمال الدين محمَّد بن أبي شريف ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ٢٠٠٢م .
(٢٤٥) مسايرة في العقائد المنجية في الآخرة (مطبوع مع المسايرة) ، كمال الدين محمَّد بن عبد الواحد الحنفي المعروف بابن الهمام ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٢م .
(٢٤٦) مستخرج ، أبو عوانة ، تحقيق : أيمن بن عارف الدمشقي ، دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٤١٩هـ ، ١٩٩٨م .
(٢٤٧) المستصفى ، الغزالي ، تحقيق : محمَّد عبد السلام عبد الشافي ، دار الكتب العلمية ، الطبعة : الأولى ، ١٤١٣هـ ، ١٩٩٣م .
(٢٤٨) مسند ابن أبي شيبة ، تحقيق : عادل بن يوسف العزازي و أحمد بن فريد المزيدي ، دار الوطن ، الرياض ، الطبعة : الأولى ، ١٩٩٧م .
(٢٤٩) مسند أحمد بن حنبل ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط

(١٠١) تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنان ، عبد الرَّحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي ، تحقيق : عبد الرَّحمن بن معلا اللويحق ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠هـ ،٢٠٠٠م .

(١٠٢) الثقات ، ابن حبان ، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند ، الطبعة : الأولى ، ١٣٩٣هـ ، ١٩٧٣م .

(١٠٣) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ، القرطبي ، تحقيق : أحمد البردوني ، وإبراهيم أطفيش ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، الطبعة : الثانية ، ١٣٨٤هـ ، ١٩٦٤م ، طبعة أخرى تحقيق : هشام سمير البخاري ، دار عالم الكتب ، الرياض ، الطبعة : ١٤٢٣هـ ، ٢٠٠٣م .

(١٠٤) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ، الخطيب البغدادي ، تحقيق : د. محمود الطحان ، مكتبة المعارف ، الرياض .

(١٠٥) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ابن تيمية الحراني ، تحقيق : علي بن حسن ، عبد العزيز بن إبراهيم ، حمدان بن محمَّد ، دار العاصمة ، السعودية ، الطبعة : الثانية ، ١٤١٩هـ ، ١٩٩٩م

(١٠٦) الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، أبو زيد عبد الرَّحمن بن محمَّد بن مخلوف الثعالبي ، تحقيق : الشَّيخ محمَّد علي معوض ، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة : الأولى – ١٤١٨هـ .

(١٠٧) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ، محمَّد عرفه الدسوقي ، تحقيق محمَّد عليش ، دار الفكر ، بيروت

(١٠٨) حاشية السندي على سنن ابن ماجه (كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه) ، محمَّد بن عبد الهادي التتوي ، أبو الحسن ، نور الدِّين السندي ، دار الجيل ، بيروت ، بدون طبعة .

(١٠٩) حاشية السندي على سنن النسائي (مطبوع السنن) ، عبد الرَّحمن بن أبي بكر ، جلال الدِّين السيوطي ، مكتب المطبوعات الإسلامية ، حلب ، الطبعة : الثانية ، ١٤٠٦هـ ،

،عادل مرشد ، وآخرون ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة : الأولى ، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠١م .

(٢٥٠) مسند البزار ، تحقيق : محفوظ الرحمن زين الله ، ورفاقه ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، الطبعة : الأولى ، ٢٠٠٩م .

(٢٥١) مسند الطيالسي ، تحقيق : محمَّد بن عبد المحسن التركي ، بالتعاون مع مركز البحوث بدار هجر ، دار هجر للطباعة والنشر ، القاهرة ، الطبعة : الأولى ، ١٤١٩هـ ، ١٩٩٩م .

(٢٥٢) مشارق الأنوار على صحاح الآثار ، القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي المالكي ، المكتبة العتيقة ودار التراث .

(٢٥٣) مشكل الحديث وبيانه ، محمَّد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني ، أبو بكر ، تحقيق : موسى محمَّد علي ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة : الثانية ، ١٩٨٥م .

(٢٥٤) المصنف ابن أبي شيبة في المسند ، تحقيق : عادل بن يوسف العزازي و أحمد بن فريد المزيدي ، دار الوطن ، الرياض ، الطبعة : الأولى ، ١٩٩٧م ، طبعة أخرى تحقيق : محمَّد عوامة

(٢٥٥) مطالع الأنوار على صحاح الآثار ، إبراهيم بن يوسف بن أدهم الوهراني الحمزي ، أبو إسحاق ابن قرقول ، تحقيق : دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث ، نشر : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، دولة قطر ، الطبعة : الأولى ، ١٤٣٣هـ ، ٢٠١٢م .

(٢٥٦) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول ، حافظ بن أحمد بن علي الحكمي ، تحقيق : عمر بن محمود أبو عمر ، دار ابن القيم ، الدمام ، الطبعة : الأولى ، ١٤١٠هـ ، ١٩٩٠م .

(٢٥٧) معالم أصول الدِّين ، الرَّازي ، تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد ، دار الكتاب العربي .

(٢٥٨) معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) ،

١٩٨٦م .
(١١٠) حاشية السيوطي والسندي على سنن النسائي ، عبد الرَّحمن بن أبو بكر ، جلال الدِّين السيوطي ، بلا .
(١١١) حاشية الصَّاوي على تفسير الجلالين ، أحمد بن محمَّد الصاوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٩٩٥م .
(١١٢) الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة ، الأصبهاني ، تحقيق: محمد بن ربيع بن هادي عمير المدخلي ، دار الراية ، الرياض ، الطبعة: الثانية، ١٤١٩هـ ، ١٩٩٩م .
(١١٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (رسالة دكتوراه بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى) ، عبد العظيم إبراهيم محمَّد المطعني ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة : الأولى ، ١٤١٣هـ ، ١٩٩٢م .
(١١٤) خطط الشام ، محمَّد بن عبد الرزاق بن محمَّد ، كُرْد عَلي ، مكتبة النوري ، دمشق ، الطبعة : الثالثة ، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م .
(١١٥) خُلاصَةُ عِلمِ الكَلامَ ، الدكتور عبد الهادي الفضيلي ، بلا
(١١٦) درء تعارض العقل والنقل ، ابن تيمية الحراني ، تحقيق : الدكتور محمَّد رشاد سالم ، نشر : جامعة الإمام محمَّد بن سعود الإسلامية ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة : الثانية ، ١٤١١هـ ، ١٩٩١م .
(١١٧) دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه ، ابن الجوزي الحنبلي ، تحقيق : الأستاذ حسن السقاف ، دار الإمام النووي ، عمان ، ١٤١٣هـ ، ١٩٩٢م .
(١١٨) دفع شبه من شبه وتمرد ونسب ذلك إلى السيد الجليل الإمام أحمد ، التقي الحصني ، تحقيق : عبد الواحد مصطفى ، دار الرازي ، عمان ، الأردن ، ط١ ، ٢٠٠٣م .
(١١٩) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ، محمَّد علي بن محمَّد بن علان بن إبراهيم البكري الصديقي الشافعي ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة : الرابعة ،
محيي السنة ، أبو محمَّد الحسين بن مسعود بن محمَّد بن الفراء البغوي الشافعي ، تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠هـ .
(٢٥٩) معالم السنن ، وهو شرح سنن أبي داود ، أبو سليمان حمد بن محمَّد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي ، المطبعة العلمية ، حلب ، الطبعة : الأولى ، ١٣٥١هـ ، ١٩٣٢م .
(٢٦٠) معاني القرآن ، أبو الحسن المجاشعي بالولاء ، البلخي ثم البصري ، المعروف بالأخفش الأوسط ، تحقيق : الدكتورة هدى محمود قراعة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة : الأولى ، ١٤١١هـ ،
(٢٦١) معاني القرآن وإعرابه : إبراهيم بن السري بن سهل ، أبو إسحاق الزجاج ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٨م .
(٢٦٢) المعجم الأوسط ، الطبراني ، تحقيق : طارق بن عوض الله بن محمَّد ، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني ، دار الحرمين ، القاهرة .
(٢٦٣) المعجم الكبير ، الطبراني ، تحقيق : حمدي بن عبد المجيد السلفي ، دار إحياء التراث العربي ، الطبعة : الثانية ، ١٩٨٣م .
(٢٦٤) معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، ١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م.
(٢٦٥) المعلم بفوائد مسلم ، أبو عبد الله محمَّد بن علي بن عمر التَّمِيمي المازري المالكي ، تحقيق : فضيلة الشَّيخ محمَّد الشاذلي النيفر ، الدار التونسية للنشر ، المؤسّسة الوطنية للكتاب بالجزائر ، المؤسّسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدّراسات بيت الحكمة ، الطبعة : الثانية ، ١٩٨٨م .
(٢٦٦) معيد النعم ومبيد النقم ، تاج الدِّين عبد الوهاب بن تقي الدِّين السبكي ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٤٠٧هـ ،١٩٨٦م .

١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م .
(١٢٠) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ، عبد الرَّحمن بن محمَّد بن محمد ، ابن خلدون أبو زيد ، ولي الدِّين الحضرمي الإشبيلي ، تحقيق : خليل شحادة ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة : الثانية ، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م .
(١٢١) الذخيرة ، أبو العبَّاس شهاب الدِّين أحمد بن إدريس بن عبد الرَّحمن المالكي الشَّهير بالقرافي ، تحقيق : محمَّد حجي ، سعيد أعراب ، محمَّد بو خبزة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٩٩٤م .
(١٢٢) رد المحتار علىٰ الدر المختار ، ابن عابدين ، محمَّد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة : الثانية ، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م .
(١٢٣) رد علىٰ الجهمية ، أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدارمي السجستاني ، تحقيق : بدر بن عبد الله البدر ، دار ابن الأثير ، الكويت ، الطبعة : الثانية ، ١٤١٦هـ ، ١٩٩٥م .
(١٢٤) ارسالة القشيرية ، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري ، دار التربية .
(١٢٥) الرسالة القشيرية ، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري ، تحقيق : الإمام الدكتور عبد الحليم محمود ، الدكتور محمود بن الشريف ، دار المعارف ، القاهرة .
(١٢٦) روح البيان ، إسماعيل حقي بن مصطفىٰ الإستانبولي الحنفي الخلوتي ، دار الفكر ، بيروت .
(١٢٧) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، شهاب الدِّين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي ، تحقيق : علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤١٥هـ .
(١٢٨) روح في الكلام علىٰ أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة ، محمَّد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدِّين ابن قيم الجوزية ، دار الكتب العلمية ،
(٢٦٧) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) ، الرازي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة : الثالثة ، ١٤٢٠هـ .
(٢٦٨) المفاتيح في شرح المصابيح ، المُظْهِري ، تحقيق : لجنة مختصة من المحققين بإشراف : نور الدِّين طالب ، دار النوادر ، وهو من إصدارات إدارة الثقافة الإسلامية ، وزارة الأوقاف الكويتية ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤٣٣هـ ، ٢٠١٢م .
(٢٦٩) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ، أبو العبَّاس أَحْمَدُ بنُ أبي حَفْصٍ عُمَرَ بنِ إبراهيمَ الحافظ ، الأنصاريُّ القرطبيُّ ، بلا .
(٢٧٠) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، علي بن إسماعيل الأشعري أبو الحسن ، تحقيق : هلموت ريتر ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة : الثالثة .
(٢٧١) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل ، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي ، أبو جعفر ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
(٢٧٢) الملل والنحل ، الشهرستاني ، مؤسسة الحلبي .
(٢٧٣) مناهل العرفان في علوم القرآن ، محمَّد عبد العظيم الزُّرْقاني ، مطبعة عيسىٰ البابي الحلبي وشركاه ، الطبعة : الثالثة
(٢٧٤) منح الجليل شرح مختصر خليل ، محمَّد بن أحمد بن محمَّد عليش ، أبو عبد الله المالكي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٩هـ ، ١٩٨٩م .
(٢٧٥) منحة الباري بشرح صحيح البخاري المسمىٰ (تحفة الباري) ، زكريا بن محمَّد بن أحمد بن زكريا الأنصاري ، زين الدِّين أبو يحيىٰ السنيكي المصري الشافعي ، تحقيق : سليمان بن دريع العازمي ، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع ، الرياض ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤٢٦هـ ، ٢٠٠٥م .
(٢٧٦) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية ، ابن تيمية الحراني ، تحقيق : محمَّد رشاد سالم ، نشر : جامعة الإمام محمَّد بن سعود الإسلامية ، الطبعة : الأولىٰ ،

بيروت .
(١٢٩) زاد المسير في علم التفسير ، ابن الجوزي ، تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٢هـ .
(١٣٠) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي ، تحقيق : علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤١٥هـ .
(١٣١) الزواجر عن اقتراف الكبائر ، أحمد بن محمَّد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري ، شهاب الدِّين شيخ الإسلام ، أبو العبَّاس ، دار الفكر ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م .
(١٣٢) السراج المنير شرح الجامع الصغير في حديث البشير النذير ، علي بن أحمد بن نور الدِّين بن محمَّد بن إبراهيم الشهير بالعزيزي ، بلا .
(١٣٣) السراج المنير في الإعانة علىٰ معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير ، الخطيب الشربيني ، مطبعة بولاق (الأميرية) ، القاهرة ، ١٢٨٥هـ .
(١٣٤) سنن ابن ماجه ، تحقيق : محمَّد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية ، فيصل عيسىٰ البابي الحلبي، طبعة أخرىٰ بيت الأفكار الدوية ، الرياض .
(١٣٥) سنن أبي داود ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت .
(١٣٦) سنن الدارمي ، تحقيق : حسين سليم أسد الداراني ، دار المغني للنشر والتوزيع ، السعودية ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤١٢هـ ، ٢٠٠٠م .
(١٣٧) سنن الصغير ، البيهقي ، تحقيق : عبد المعطي أمين قلعجي ، نشر : جامعة الدراسات الإسلامية ، كراتشي ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤١٠هـ ، ١٩٨٩م .
(١٣٨) سنن الكبرىٰ ، البيهقي ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة : الثالثة ، ١٤٢٤هـ ، ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦م ..
(٢٧٧) المنهاج القويم ، ابن حجر الهيتمي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤٢٠هـ ،٢٠٠٠م .
(٢٧٨) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، أبو زكريا محيي الدِّين يحيىٰ بن شرف النووي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة : الثانية ، ١٣٩٢هـ .
(٢٧٩) المنهاج في شعب الإيمان ، الحليمي ، تحقيق : حلمي محمَّد فودة ، دار الفكر ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م .
(٢٨٠) منهج السلف في فهم النصوص بين النظرية والتطبيق ، محمَّد بن السيد علوي المالكي الحسني ، الطبعة الثانية ، ١٤١٩هـ .
(٢٨١) المهيأ في كشف أسرار الموطأ ،عثمان بن سعيد الكماخي ، تحقيق وتخريج : أحمد علي ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٥ هـ ، ٢٠٠٥ م .
(٢٨٢) مهيأ في كشف أسرار الموطأعثمان بن سعيد الكماخي ، تحقيق وتخريج : أحمد علي ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٥ هـ ، ٢٠٠٥ م .
(٢٨٣) موافقات ، إبراهيم بن موسىٰ بن محمَّد اللخمي الغرناطي الشَّهير بالشاطبي ، تحقيق : أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان ، دار ابن عفان ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤١٧هـ ، ١٩٩٧م .
(٢٨٤) موسوعة القرآنية ، إبراهيم بن إسماعيل الأبياري ، مؤسسة سجل العرب ، الطبعة : ١٤٠٥هـ .
(٢٨٥) الموضوعات ، ابن الجوزي ، تحقيق : بكري حياني ، صفوة السقا ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة : الخامسة ، ١٤٠١هـ ، ١٩٨١م .
(٢٨٦) موطأ مالك ، صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٥م .
(٢٨٧) ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، شمس الدِّين أبو

٢٠٠٣م .
(١٣٩) سنن الكبرىٰ ، النسائي ، تحقيق : حسن عبد المنعم شلبي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠١م .
(١٤٠) السُّنَّة ، عبد الله بن أحمد بن محمَّد بن حنبل الشيبانيّ ، تحقيق : د. محمَّد بن سعيد بن سالم القحطاني ، دار ابن القيم ، الدمام ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦م .
(١٤١) السيف الصقيل في الرد علىٰ ابن زفيل ، السبكي ، مكتبة زهران ، القاهرة .
(١٤٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ابن العماد العَكري الحنبلي تحقيق : محمود الأرناؤوط ، دار ابن كثير ، دمشق ، بيروت ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦م .
(١٤٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، اللالكائي ، تحقيق : أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي ، دار طيبة ، السعودية ، الطبعة : الثامنة ، ١٤٢٣هـ ، ٢٠٠٣م .
(١٤٤) شرح حديث النزول ، ابن تيمية الحراني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة : الخامسة ، ١٣٩٧هـ ،١٩٧٧م .
(١٤٥) شرح الزرقاني علىٰ موطأ الإمام مالك ، محمَّد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري الأزهري ، تحقيق : طه عبد الرءوف سعد ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤٢٤هـ ، ٢٠٠٣م .
(١٤٦) شرح السنة ، البغوي ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، محمَّد زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ، دمشق ، بيروت ، الطبعة : الثانية ، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م .
(١٤٧) شرح سنن ابن ماجه ، السيوطي ، مضمن ثلاثة شروح : (مصباح الزجاجة للسيوطي) ، (إنجاح الحاجة لمحمد عبد الغني المجددي الحنفي) ، (ما يليق من حل اللغات وشرح المشكلات لفخر الحسن بن عبد الرَّحمن الحنفي الكنكوهي) ، نشر : قديمي كتبخانة ، كراتشي .
(١٤٨) شرح سنن أبي داود ، أبو محمَّد محمود بن أحمد بن موسىٰ بن أحمد بن حسين الغيتابىٰ الحنفىٰ بدر الدِّين العينىٰ ،

عبد الله محمَّد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي ، تحقيق : علي محمَّد البجاوي ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٣٨٢هـ ، ١٩٦٣م .
(٢٨٨) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،١٤١٥هـ ، ١٩٩٥م ، طبعة أخرىٰ ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة .
(٢٨٩) نقد مراتب الإجماع ، تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي ، بعناية : حسن أحمد إسبر ، دار ابن حزم ، بيروت ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤١٩هـ ، ١٩٩٨م .
(٢٩٠) نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد علىٰ المريسي الجهمي العنيد فيما افترىٰ علىٰ الله عزَّ وجلَّ من التوحيد ، عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدارمي ، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع ، تحقيق : رشيد بن حسن الألمعي ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤١٨هـ ، ١٩٩٨م .
(٢٩١) نهاية الإقدام في علم الكلام ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٤م .
(٢٩٢) نهاية المبتدئين في أصول الدِّين ، ابن حمدان الحنبلي ، تحقيق : ناصر بن سعود السلامة ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ط١ ، ٢٠٠٤م .
(٢٩٣) نهاية المحتاج إلىٰ شرح المنهاج ، شمس الدِّين محمَّد بن أبي العبَّاس أحمد بن حمزة شهاب الدِّين الرملي ، (١/ ٤٩٩) ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة : ط أخيرة ، ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤م .
(٢٩٤) نور السافر عن أخبار القرن العاشر ، العَيْدَرُوس ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤٠٥هـ .
(٢٩٥) نيل الأوطار ، محمَّد بن علي بن محمَّد بن عبد الله الشوكاني اليمني ، تحقيق : عصام الدِّين الصبابطي ، دار الحديث ، مصر ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤١٣هـ ، ١٩٩٣م .

تحقيق : أبو المنذر خالد بن إبراهيم المصري ، مكتبة الرشد ، الرياض ، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠هـ ، ١٩٩٩م .
(١٤٩) شرح سنن أبي داود ، شهاب الدِّين أبو العبَّاس أحمد بن حسين بن علي بن رسلان المقدسي الرملي الشافعي ، تحقيق : عدد من الباحثين بدار الفلاح بإشراف خالد الرباط ، دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث ، الفيوم ، جمهورية مصر العربية ، الطبعة : الأولى ، ١٤٣٧هـ ، ٢٠١٦م .
(١٥٠) شرح صحيح البخارى ، ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك ، تحقيق : أبو تميم ياسر بن إبراهيم ، مكتبة الرشد ، الرياض ، الطبعة : الثانية ، ١٤٢٣هـ ، ٢٠٠٣م .
(١٥١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن) ، شرف الدِّين الحسين بن عبد الله الطيبي ، تحقيق : د. عبد الحميد هنداوي ، مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة ، الرياض) ، الطبعة : الأولى ، ١٤١٧هـ ، ١٩٩٧م .
(١٥٢) شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز الحنفي ، تحقيق : أحمد شاكر ، نشر : وزارة الشؤون الإسلامية ، والأوقاف والدعوة والإرشاد ، الطبعة : الأولى ، ١٤١٨هـ ، طبعة أخرى ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة السادسة ، ١٤٠٠هـ .
(١٥٣) شرح العقيدة الواسطية ، محمَّد بن صالح بن محمَّد العثيمين ، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة : السادسة ، ١٤٢١هـ .
(١٥٤) شرح الفقه الأكبر ، أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، تحقيق : مروان الشعار ، دار النفائس ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٩٩٧م
(١٥٥) شرح المقاصد في علم الكلام ، سعد الدِّين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني ، دار المعارف النعمانية ، باكستان ، ١٤٠١هـ ، ١٩٨١م .
(١٥٦) شعب الإيمان ، البيهقي ، تحقيق : الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد ، مكتبة الرشد ، الرياض ، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٣هـ ، ٢٠٠٣م .
(٢٩٦) هداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره ، وأحكامه ، وجمل من فنون علومه ، ، أبو محمد مكِّي بن أبي طالب ، تحقيق : مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي ، جامعة الشارقة ، نشر : مجموعة بحوث الكتاب والسنة ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة الشارقة ، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٩هـ ، ٢٠٠٨م .
(٢٩٧) هدية العلائية ، محمَّد علاء الدِّين بن محمَّد أمين عابدين الدمشقي الحنفي ، بلا .
(٢٩٨) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمَّد بن علي الواحدي ، النيسابوري ، الشافعي ، تحقيق : صفوان عدنان داوودي ، دار القلم ، الدار الشامية ، دمشق ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٤١٥هـ .
(٢٩٩) الوسيط في تفسير القرآن المجيد ، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمَّد بن علي الواحدي ، النيسابوري ، الشافعي ، تحقيق : الشَّيخ عادل أحمد عبد الموجود ، ورفاقه ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٤١٥هـ ، ١٩٩٤م .
(٣٠٠) الوسيط في تفسير القرآن المجيد ، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمَّد بن علي الواحدي ، النيسابوري ، الشافعي ، تحقيق : الشَّيخ عادل أحمد عبد الموجود ، ورفاقه ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٤١٥هـ ، ١٩٩٤م .

(١٥٧) شرح سنن النسائي المسمَّى " ذخيرة العقبى في شرح المجتبى " ، محمَّد بن علي بن آدم بن موسى الإثيوبي الوَلَّوِي ، دار المعراج الدولية للنشر ، دار آل بروم للنشر والتوزيع ، الطبعة : الأولى .

مِنْ أعْمَالِ المؤلِّف الأُسْتَاذ الدُّكْتُوْر عَلِي مِقْدَادِي :

(١) عِظَمُ المِنَّةِ فِي تَوْضِيْحِ عَقِيْدَةِ الشِّيعة بِأَهْلِ السُّنَّةِ .

(٢) التَّقيَّة وَمَكَانَتُهَا العَقَديَّةُ فِي دِيْنِ الشِّيعة الإماميَّة .

(٣) عقيدة الشِّيعة الإماميَّة بصحابة خير البريَّة .

(٤) الإرتِوَاءُ فِي بَيَانِ مَا عِنْدَ الشِّيعة مِنْ عَقِيْدَةِ البَدَاء .

(٥) شَحْذُ الهِمَّةِ فِي إِثْبَاتِ تَأْلِيْهِ الشِّيعة لِلأَئِمَّة .

(٦) وَاضِحُ البَيَانِ فِي إِثْبَاتِ اعْتِقَادِ الشِّيعة بِتَحْرِيْفِ القُرْآن .

(٧) الإِمَامَةُ وَمَكَانَتُهَا العَقَدِيَّةُ فِي دِيْنِ الشِّيعة الإماميَّة .

(٨) عِصْمَةُ الأئمَّة عِنْدَ الشِّيعة الإماميَّة .

(٩) التَّنْفِيْرُ مِمَّا جَاءَ فِي حَدِيْثِ الغَدِيْر .

(١٠) قُرَّة العَيْنِ فِي إِثْبَاتِ أَنَّ الشِّيعة هُمْ قَتَلَةُ الحُسَيْن .

(١١) الأَعْمَالُ الشُّعُوْبِيَّةُ وَالإِجْرَامِيَّةُ لِمَهْدِيِّ الشِّيعة الإماميَّة .

(١٢) خُرَافَةُ المَهْدَوِيَّةِ فِي دِيْنِ الشِّيعة الإماميَّة .

(١٣) أَشْهَرُ الطُّعُوْنِ الشِّيْعِيَّةِ فِيْ صَحَابَةِ خَيْرِ البَرِيَّة .

(١٤) الإِمْتَاعُ في بَيَانِ مَوْقِفِ الشِّيعة مِنَ الإِجْمَاع .

(١٥) المُتْعَةُ وَمَكَانَتُهَا العَقَدِيَّةُ فِي دِيْنِ الشِّيعة الإماميَّة .

(١٦) أَسْمَى المَطَالِبِ فِي تَوْضِيْحِ تَفْرِيْطِ الشِّيعة فِي عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِب .

(١٧) أَسْنَى المَطَالِبِ فِي تَوْضِيْحِ إِفْرَاطِ الشِّيعة فِي عَلِيِّ بن أَبِي طَالِب .

(١٨) تَحْقِيْقُ القَوْلِ فِي نُزُوْلِ كُتُبٍ سَمَاوِيَّةٍ عَلَى أئمَّة الشِّيعة الإماميَّة .

(١٩) إِعْلَامُ النَّبِيْهِ بِتَفْرِيْطِ الشِّيعة الإماميَّة فِي الرَّسول وَأَزْوَاجِهِ وَبَنِيْه .

(٢٠) النَّجْعَة فِي تَوْضِيْحِ مَا عِنْدَ الشِّيعة الإماميَّة مِنْ عَقِيْدَةِ الرَّجْعَة .

(٢١) الأَقْوَالُ الشَّنِيْعَةُ المُوْجِبَةُ لِتَكْفِيْرِ الشِّيعة .

(٢٢) إِنْبَاءُ العَالَمِيْن بِخِيَانَةِ الشِّيعة للإِسْلَام وَالمُسْلِمِيْن .

(٢٣) إِعْلَامُ الوَسْنَانِ بِأَحْوَالِ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي إِيْرَان .

(٢٤) الذَّرِيْعَةُ فِيْ الكَلَامِ عَلَى خُمُسِ الشِّيعة .

(٢٥) تَبْدِيْدُ السِّهَامِ الطَائِشَةِ عَنْ أُمِّنَا عَائِشَة .

(٢٦) الإِنَافَةُ فِي بَيَانِ مَوْقِفِ عَلِيٍّ مِنَ الخُلَفَاءِ الثَّلَاثَة .

(٢٧) الرِّيَاضُ المُسْتَطَابَةُ فِي عَلَاقَةِ آلِ البَيْتِ بالصَّحابة .

(٢٨) إِعْلَامُ الثقلَيْنِ بِمَوْقِفِ الشِّيعة مِنَ الحَسَنِ وَالحُسَيْن .

(٢٩) كَشْفُ العَيْبَةِ فِي تَوْضِيْحِ مَا عِنْدَ الشِّيعة مِنْ عَقِيْدَةِ الغَيْبَة .

(٣٠) الإِبَاحِيَّةُ الجِنْسِيَّةُ عِنْدَ الشِّيعة الإماميَّة .

(٣١) مُخَالَفَاتُ الشِّيعة لِلقُرْآنْ .

(٣٢) الأَقْصَى وَفِلَسْطِيْن فِي عَقِيْدَةِ الشِّيعة المَاكِرِيْن .

(٣٣) مُصِيْبَةُ التَّقْرِيْبِ بَيْنَ السُّنَّةِ وَالشِّيْعَه .

(٣٤) إِعْلَامُ البَرِيَّة بِتَوْضِيْحِ عَقِيْدَةِ الشِّيعة الإماميَّة بِالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّة .

(٣٥) عَقِيْدَةُ الشِّيعة الإماميَّة بِصَحَابَةِ خَيْرِ البَرِيَّةِ .

(٣٦) الوَافِي فِيْ نَقْدِ أُصُوْلِ الكَافِي .

(٣٧)إِعْلَامُ الجُلَسَاءِ بِشَرْحِ حَدِيْثِ الكِسَاءِ .

(٣٨) إِرْشَادُ الكِلَابِ الهَائِمَة الْمُتَجَنِّيَةِ عَلَىٰ السَّيِّدَةِ فَاطِمَة .

(٣٩) الأَمَدُ الأَقْصَىٰ تَوْضِيْح اعْتِقَادِ الشِّيْعَةِ بِالْمَسْجِدِ الأَقْصَىٰ .

(٤٠) إِعْلَامُ الهَائِمِ بِأَنَّهُ لَا جِهَادَ عِنْدَ الشِّيْعَةِ حَتَّىٰ يَخْرُجَ القَائِم .

(٤١) التَّفْوِيْضُ فِي صِفَاتِ الله تَعَالَىٰ بَيْنَ السَّلَفِ وَالخَلَف / رِسَالَةُ مَاجِسْتِيْر .

(٤٢) التَّرْوِيْضُ فِي تِبْيَانِ حَقِيْقَةِ التَّفْوِيْض .

(٤٣) تَكْفِيْرُ الوَهَّابِيَّة لِعُمُوْم الأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّة .

(٤٤) كَشْفُ الخَفَاءِ عَنْ عَبَثِ الوهَّابيَّة بِكُتُبِ العُلَمَاءِ .

(٤٥) الإِتْحَافَاتُ القُدُسِيَّة فِي نُصْرَةِ السَّادَةِ الصُّوْفِيَّةِ والرَّدِّ عَلَىٰ الوَهَّابيَّة .

(٤٦) نُبُوَّةُ النِّسَاءِ بَيْنَ الْمَانِعِيْنَ وَالْمُجِيْزِيْن .

(٤٧) حَادِثَةُ سِحْرِ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

(٤٨) الْمُحْكَمُ وَالْمُتَشَابِهُ وَعَلَاقَتُهُ بِالصِّفَاتِ الإِلَهِيَّة .

(٤٩) مَسْأَلَةُ التَّنَاكحِ بَيْنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ بَيْنَ الحَقِيْقَةِ وَالخَيَال .

(٥٠) صِفَاتُ الحُوْرِ العِيْنِ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّة .

(٥١) الجَوَابُ الْمُخْتَارُ فِي مَسْأَلَةِ فُتُوْرِ الوَحْي وَمَا نُسِبَ لِلنَّبِيِّ مِنْ مُحَاوَلَةِ الانْتِحَار .

(٥٢) كَشْفُ الخَفَا فِي مَصِيْرِ وَالِدَيّ الْمُصْطَفَىٰ .

(٥٣) مَصِيْرُ أَبْنَاءِ الْمُشْرِكِيْن يَوْم الدِّيْن .

(٥٤) مسألة التبرك بالأنبياء والصَّالحين في الإسلام .

(٥٥) أَقْوَالُ العُلَمَاءِ الْمَنْثُوْرَةِ فِي تَنْزِيْهِ الله عَنِ الصُّوْرَة .

(٥٦) مَشْرُوْعِيَّةُ الاحْتِفَالِ بِمِيْلَادِ خَيْرِ البَرِيَّة وَالرَّدّ عَلَىٰ الوَهَّابيَّة .

(٥٧) مَسْأَلَةُ الاحْتِجَاجِ بِالقَدَرِ عَلَىٰ المَعْصِيَة .

(٥٨) إِرْشَادُ الفُحُوْلِ إِلَىٰ مَا قَالَهُ أَسَاطِيْنُ العِلْمِ فِيْ تَنْزِيْهِ الله عَنِ الحَرَكَةِ وَالنُّزُوْل .

(٥٩) إِعْلَامُ الخَلَفِ بِتَأْوِيْلَاتِ السَّلَف .

(٦٠) خبر الآحاد ومدىٰ حجيَّته في العقيدة .

(٦١) العُلُوُّ لِلْعَلِيِّ الغَفَّار عُلُوّ مَكَانَةٍ لَا عُلُوّ مَكَان .

(٦٢) كَشْفُ الغِطَاءِ عَنْ مَسْأَلَةِ الاسْتِوَاء .

(٦٣) إِعْلَامُ الحُذَّاقِ بِحَقِيْقَةِ السَّاق .

(٦٤) إِعْلَامُ العَبْدِ الأَوَّاه بِحَقِيْقَةِ الوَجْهِ المُضَافِ إِلَىٰ الله .

(٦٥) جَلَاءُ العَيْن بِحَقِيْقَةِ مَا أُضِيْفَ إِلَىٰ الله مِنْ لَفْظِ العَيْن .

(٦٧) المَوْرِدُ العَذْب فِي تَوْضِيْحِ مَا أُضِيْفَ إِلَىٰ الله مِنْ لَفْظِ الجَنْب .

(٦٧) رَفْعُ السَّارِيَةِ فِي الكَلَام عَلَىٰ حَدِيْثِ الجَارِيَة .

(٦٨) بَرْدُ الأَكْبَادِ فِي تَنْزِيْهِ الله تَعَالَىٰ عَنِ اليَدِ وَالأَيَاد .

(٦٩) رَفْعُ الصَّوْتِ بِمَا جَاءَ عَنِ المَوْت .

(٧٠) كِفَايَةُ العَبْدِ الأَوَّاه بِمَا جَاءَ عَنْ قُرْبِ الإِلَه .

(٧١) الشَّفَاعَاتُ الخَاصَّةُ بِالنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

(٧٢) إِتْحَافُ العَالَمِيْن بِمَشْرُوْعِيَّةِ التَّوسُّل بِالأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِيْن .

(٧٣) إِنْبَاءُ أَبْنَاءِ الزَّمَانِ بِمَا أُضِيْفَ إِلَىٰ الله مِنَ المَكْرِ وَالخِدَاعِ وَالاسْتِهْزَاءِ وَالنِّسْيَان .

(٧٤) إِتْقَانُ الصَّنْعَةِ فِي تَحْقِيْقِ مَعْنَىٰ البِدْعَة / وصل إلى الآن ستة مجلّدات .

(٧٥) الإتحافات المِقْدَادِيَّة بتَراجِم السَّادَةِ الصُّوْفِيَّة / وصل إلى الآن واحداً وأربعين مجلَّداً بحمد الله تعالى .

(٧٦) التَّشْنِيْف بِبَعْضِ البِدَعِ الحسنة المُتَعلِّقَةِ بِالمُصْحَفِ الشَّرِيْفِ .

(٧٧) تبصير الهُداة بِبَعْض البِدِعِ الحَسَنَة المُتعلِّقَة بِالصَّلَاةِ .

(٧٨) تَنْوِيْرُ ذَوِيْ الأَلْبَابِ بِبَعْضِ البَدَعِ الحَسَنَةِ المُتعلِّقَة بِالسُّلُوكِ وَالآدَابِ .

(٧٩) رَفْعُ الصَّوْت بِبَعْضِ البِدَعِ الحَسَنَة المُتعلِّقَة بالمَوْتِ .

(٨٠) تَذْكِيْرُ الأَكْيَاس بَعْضِ المَسَائِلِ المُتعلِّقة بِالزِّيْنَةِ وَاللِّبَاس .

(٨١) إِعْلَامُ الأَنَام بِبَعْضِ البِدَعِ الحَسَنَةِ المُتعلِّقَة بِالصِّيَام .

(٨٢) إِعْلَامُ البَرِيَّةِ بِبَعْضِ البِدَعِ العَقَدِيَّةِ التِيْ ابْتَدَعَهَا مُدَّعُو السَّلَفِيَّةِ .

(٨٣) إِتْحَافُ النُّجبَاء بِبَعْضِ البِدَعِ التِيْ ابْتَدَعَهَا مُدَّعُو السَّلَفِيَّةِ مِمَّا تَعَلَّقُ بِالعِلْمِ وَالعُلَمَاءِ .

(٨٤) الإِفْصاحُ عَنْ مَعْنَىٰ السُّنَّةِ وَالبِدْعَة فِي اللُّغَةِ وَالاصْطِلَاح .

(٨٥) غَايَةُ المَرَام بِبَعْضِ البِدَعِ الحَسَنَةِ التِي اسْتَحْدَثَهَا السَّلفُ الصَّالِحُ فِيْ زَمَانِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلَام

(٨٨) مِسْكُ الخِتَام بِبَعْضِ البِدَعِ الحَسَنَةِ المُتعلِّقَة بِالرَّسُوْل عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلَام .

(٨٧) إِقَامَةُ البَرَاهِيْن عَلَىٰ أَنَّ مُحَمَّداً أَفْضَلُ المُرْسَلِيْن .